

بجاية
ميناء مغاربي

Bougie port maghrébin

الجزء الأول

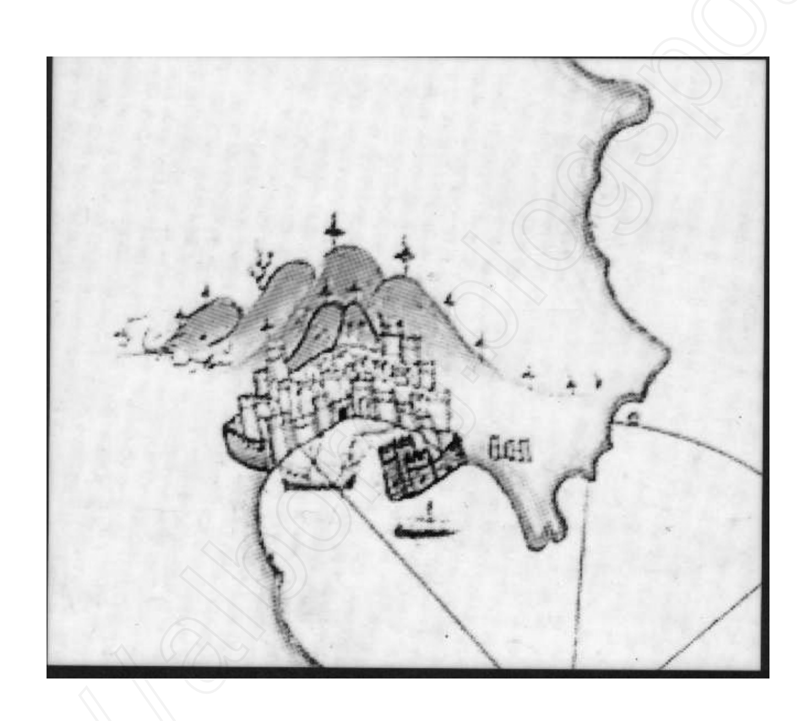
منشورات
المجلس الأعلى للغة العربية

Dominique Valérian
ترجمة علاوة عمارة

بجاية ميناء مغاربي

1510_1067

(الجزء الأول)



تأليف /دومنيك فاليرين

ترجمة د .علاوة عمارة (ج. قسنطينة)

كـتاب: بجاية ميناء مغاربي (1067 -1510)
• تأليف : دومنيك فاليرين
• ترجمة : د.علاوة عمارة
• قياس الصفحة: 23/15.5
• عدد الصفحات: 656
(الجزء الأول)

الإيداع القانوني: 2014-5059
ردمك: 978-9947-821-80-0

المجلس الأعلى للغة العربية
شارع فرونكلين روزفلت ـ الجزائر
ص. ب: 575 الجزائر _ ديدوش موراد
الهاتف: 021.23.07.24/25
الفاكس:021.23.07.07

تصدير المجلس

دأب المجلس الأعلى للغة العربية، على تنظيم جائزة اللغة العربية التي تتمحور عادة حول أربعة محاور: علوم اللغة العربية ، الترجمة إلى العربية، العلوم الاقتصادية والإدارية، وكذا التاريخ الوطني. وهذا قصد التمكين للغة العربية، والمحافظة على صفائها، وألقها، بتنقيتها مما يمكن أن يعلق بها من الشوائب، وجعلها تتبوأ مكانتها بجدارة، وترقيتها إلى مصاف اللغات العالمية .

ويسرنا في هذا السبيل، أن نقدم بين يدي القارئ الكريم، إحدى ثمار جائزة اللغة العربية لعامي 2012/ 2014، في محور "الترجمة" فاز بها **الأستاذ/ د. علاوة عمارة** من جامعة قسنطينة عنوانها: "**بجاية ميناء مغاربي**" (1067-1510)، للمؤلف الفرنسي **دومنيك فاليرين** .

وهذا العمل الذي بين أيدينا، أصلا أطروحة جامعية، مما يضفي عليها مسحة علمية، وجدية في البحث المضني لمدة تربو عن "ستة عشر شهرا "، قضاها المؤلف كمكتبي بمعهد البحث حول المغرب المعاصر(I.R.N)، والقيام بعدة أسفار، قادته إلى كل من ايطاليا، ثم بجاية في 1999 التي لقي بها استقبالا حارا.

ولعل ما يثلج الصدر، ويدعو إلى الفخر، أن الأستاذ المترجم **علاوة عمارة** يقول أن هذا الكتاب في حقيقة الأمر ما هو إلا " **لبنة أولى للكتب التي قررت ترجمتها في إطار مشروع الكتاب المترجم ...مما يسهل على الباحثين الجزائريين، والعرب، الاطلاع على الدراسات الغربية المتعلقة بالحضارة العربية والإسلامية** ".

وما أحوجنا إلى مثل هذه الدراسات الجادة، التي تتناول تاريخنا من منظور وطني يشد الناشئة إلى تاريخها الصحيح، بعيدا عن أطروحات بعض غلاة الاستعمار الكولونيالي .

وإذا ما أحصينا الدراسات التاريخية التي تناولت الجزائر، في قرونها المتوسطية أو القديمة بصفة عامة، لوجدنا أنها قليلة، ومعظمها بالفرنسية.

بقدر ما نجد بجاية متجذرة في المغرب، نجدها أيضا متفتحة على البحر المتوسط، كسائر العديد من المدن المغاربية، في أواخر العصر الوسيط، إذ جلبت من البحر قسطا معتبرا من ازدهارها، إن الظاهرة المتوسطية التوجه نلاحظها أيضا في المشرق العربي إبان العصر المملوكي، نتجت في سياق بروز الثورة التجارية في أوربا، وبتطور متميز للمبادلات البحرية بين ضفاف البحر الأبيض المتوسط، لاسيما في الاتجاه الشمالي –الجنوبي .

إن أغلب الكتابات التاريخية لا تعزو تأسيس مدينة بجاية إلى عامل ازدهار التجارة البحرية الأوربية، التي تعد لاحقة، بل إن ذلك يفسر بعدة عوامل: سياسية، اجتماعية، داخلية في المغرب، " **الضغط الهلالي، وطموحات الحماديين السياسية".**

ويعد منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، بداية ازدهار بجاية، بفضل مينائها التجاري، بوصول التجار من أوربا، وكذلك من الأندلس، والمشرق، وأضحت بجاية نقطة التلاقي كما يقول الجغرافيون بين المغرب وأوربا .

ولمكانة بجاية الثقافية والتجارية في القرون الماضية، ما جعلها محل اهتمام بعض المؤرخين الأجانب، والعرب، على غرار محفوظ قداش " تاريخ الجزائر"(1992)، مولود قايد " تاريخ بجاية" (1976) ، ابن حوقل (ت.367ه-977م)، والبكري، لكن معلوماته سابقة على تأسيس العاصمة الحمادية، والنص الأهم هو نص الأدريسي، وكذا رحلة الورثلاني في القرن الثامن عشر، التي ورد فيها وصف لبجاية، ولكن الرواية الأقدم هي كتاب ابن حماد الذي اقتبس منه ابن خلدون، وكذلك يحي بن خلدون، وكتاب أبو علي يحي المريني، وكتاب "عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"، للعلامة أبو العباس أحمد الغبريني، الذي يعد كتابه هذا النص الوحيد المحفوظ والمهم، كون الغبريني من قبيلة بني

غبرين، تولى عدة مناصب في نهاية القرن الثالث عشر(13) وبداية القرن الرابع عشر (14)، أورد فيه عدة تراجم لعلماء لهم صلة وثيقة ببجاية، كما سجل بعض مظاهر المجتمع البجائي في عصره.

كما أن الإدريسي لم يغفل هو الآخر عن ذكر بجاية، ووصف أحوالها الاجتماعية، والتجارية، إذ يقول عنها : " والسفن إليها مقلعة، ولها القوافل منحطة، والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة، والبضائع بها نافعة وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى، تجار الصحراء، وتجار المشرق، وبها تحل السدود، وتباع البضائع بالأموال المقنطرة".

ونظرا لزخم المادة العلمية القيمة التي احتوى عليها هذا الكتاب الضخم، وتيسيرا لمطالعته ارتأينا أن نقسمه إلى جزأين .

الجزء الأول: ضم / مقدمتي المؤلف، والمترجم، وتصدير المجلس، والمصادر المعتمدة المختلفة بالعربية واللاتينية، يحتوي على قسمين: القسم الأول بعنوان/ " قطب جهوي للمغرب: بناء سيطرة إقليمية مثيرة للجدل، به ثلاثة فصول"، والقسم الثاني بعنوان/ "بجاية ميناء متوسطي"، وبه ثلاثة فصول.

والجزء الثاني: يضم القسم الثالث من هذا الكتاب عنوانه / "ارتباط قوي بالظرفية المتوسطية، ينضوي تحته فصلان".

هذا بالإضافة إلى أننا نزولا عند رغبة المترجم، أدرجنا في هذا الجزء الملاحق المختلفة للملوك المغاربة: الزيريين، الحماديين ،الموحدين ،الحفصيين، الملوك المستقلين في بجاية، المعاهدات، والفهرس العام لهذا الكتاب .

ولا يسعنا في هذا المقام، إلا أن نشكر المترجم الدكتور علاوة عمارة، على جهده الملحوظ في إتاحته الفرصة لنا، للاطلاع على حلقة مهمة من حلقات تاريخنا الوطني، التي نحن في أمس الحاجة إليها، كون مادة الفترة التي تناولها هذا الكتاب شحيحة جدا لدى المؤرخين.

مقدمة المترجم

الكتاب موضوع الترجمة هو في الأصل رسالة دكتوراه نوقشت بجامعة السوربون ونشرت تحت عنوان: *Bougie port maghrébin, 1067-1510,* Rome, École française de Rome, 2006. وتعود علاقتي به وبمؤلفه إلى نهاية عام 1997 عندما كنا سويّة طلبة دكتوراه بجامعة السوربون. فبعد أن ناقش دومنيك فاليريون رسالة الدكتوراه في سنة 2000، وقام بنشرها ست سنوات بعد ذلك راودتني فكرة نقلها إلى اللغة العربية نظرا لأهميتها الكبيرة من جهة ولتسهيل الوصول إليها من جهة ثانية. إنّ استغلال المؤلف لعدد كبير من وثائق الأرشيف أعطى دون شك نظرة من زاوية أخرى لتاريخ بلاد المغرب في فترته الإسلامية الوسيطة مما دفعني في النهاية إلى ترجمة عمله.

ويرجع الفضل في دفعي إلى مباشرة العمل والاشتغال بالترجمة إلى صديقي عاشور بوشامة الذي انطلق معي في ذلك ، لكن الظروف الخاصة التي مرّ بها للأسف جعلته يتخلى عن المشروع في بدايته مما حتّم عليّ إنجاز العمل فرديا لمدة تجاوزت السنة بالنظر لعدم التفرغ الكامل لعملية الترجمة والمراجعة. فإلى عاشور بوشامة تتوجه تشكراتي الأولى كما أتوجه بالشكر كذلك إلى مؤلف الكتاب دومنيك فاليريون الذي سهر بنفسه على تزويدي بكل ما أحتاجه في عملية الترجمة وخصوصا توفير النسخة الالكترونية والورقية من الكتاب والخرائط.

كثيرون هنا من قدّموا لي يد المساعدة بمراجعاتهم وتشجيعاتهم. فشكري الأول يذهب إلى رفيق خليفي الذي لم يبخل علي في إعادة قراءة الكتاب كاملا، وإلى عبد القادر مباركية الذي أصرّ أيضا على قراءة جزء من النص وقام بتحويل

الخرائط إلى اللغة العربية. والشكر أيضا موصول إلى سناء عطابي التي قرأت أحد فصول الكتاب. فإلى هؤلاء جميعا أتوجه بشكري الخالص وإلى كل من قدم لي يد المساعدة ولم أذكره باسمه هنا سهوا.

إنّ هذا الكتاب هو في حقيقة الأمر مقدمة أو لبنة أولى للكتب التي برمجت ترجمتها في إطار مشروع "الكتاب المترجم"، الذي بدأت فيه والذي سينقل عددا من الدراسات المرجعية من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، مما يسهّل على الباحثين الجزائريين والعرب الاطلاع على الدراسات الغربية المتعلقة بالحضارة الإسلامية.

فأسأل الله التوفيق.

شكر

الأطروحة هي دائما رحلة، وربما كانت هذه تعد أكثر من الرحلات الأخرى. لقد أوصلتني غالبا إلى ضفتي البحر المتوسط وغيرهما، على خطى رجال كانوا على علاقة ببجاية في العصر الوسيط. على غرار هؤلاء البحارة والتجار، عرفت أحيانا الصفو التام والرياح المعاكسة بل والعواصف. لكن قيامي بهذه الرحلة وحيدا كان فرصة لعدة لقاءات، ففي كل محطة وجدت أناسا قادرين على إرشادي إلى حيث أجد المنتوجات، موفرّين بذلك أبحاثا طويلة غير مجدية. أصبح كثير منهم أصدقائي وليس هذا أقل مكسب حققته من هذه الرحلة. لقد ساعدوني بمعلوماتهم وبمساندتهم أو بحضورهم ببساطة.لن يتحقق للسلعة التي أجلبها اليوم إلى الميناء ولن تكون على ما هي عليه اليوم دونهم.

بدأ كل شيء بمدينة تونس، فقد أكدت الستة عشر شهرا التي قضيتها كمكتبي بمعهد البحث حول المغرب المعاصر (IRMC) رغبتي في الاشتغال على العالم العربي. فقمت بأبحاثي الأولى حول بجاية حيث وجدت في كل مرة أعود إليها أصدقاء أعزاء: آن-ماري بلانال (Anne-Marie Planelle) خصوصا، وأيضا كل زملائي القدماء بسمة، كاترين (Catherine)، والكريستانين (les deux Christiane)، وفتحي وحياة وجلال ولطيفة. وتعرفت أيضا في هذه المكتبة إلى زملاء تونسيين ساعدوني على فهم تاريخ المغرب الوسيط. لا يمكنني ذكر جميعهم، لكن أتقدم بالشكر خصوصا لمنيرة شابوتو-الرمادي، ومحمد-صالح بعيزق، وابراهيم جدلة ومحمد الطالبي وعبد الحميد هنية ومحمد الطاهر المنصوري.

وفي باريس، وجدت دائما دعما من عدة أشخاص، استسمحهم بذكرهم ببساطة وفق ترتيب أبجدي: علاوة عمارة، نزيهة أتشن، هنري براسك (Henri Brest)، كريستوف بران (Christophe Brun)، إليزابات كروزي-بافو (Élisabeth Crozet-Pavane)، بياتريس دونسات (Béatrice D’ansette)، ألان ديسوليي (Alain Du cellier)، لورون فيلار (Laurent Failler)، حليمة

فرحات، غالب الحكاك وكل المشاركين في حلقة بحثه حول ترجمة النصوص العربية الوسيطة، سريل جلبار (Cyrille Jalabert)، جابريال مرتناز-جرو (Gabriel Martinez-Gros)، محمد ورفلي، بول بجاس (Paule Pages)، كريستوف بيكار (Christophe Picard)، يوسف راغب، لتيسيا سراميت (Leticia Sarmatie)، دوريس ستوكلي (Doris Stöckly)، دون أن أنسى عائلتي التي كانت دائما حاضرة. لقد كانت حلقات بحث ميشال بلار (Michel Balard) وفرانسواز ميشو (Françoise Michau) دائما فرصة للحديث مع باحثين كانت اهتماماتهم مختلفة في الظاهر عن اهتماماتي، لكن الاسهام غالبا ما فاق تصوراتهم.

قربّني استقراري بإيطاليا من البحر المتوسط مرة أخرى. فقد أصبحت روما ميناء ارتباطي الجديد.موصولة تشكراتي أولا إلى السيد أندري فوشاز (André Vauchez) – مدير المدرسة الفرنسية بروما وإلى فرانسوا بوجار (François Bougard) مدير أبحاث في التاريخ الوسيط. غالبا ما كنت على طرق إيطاليا، لكن في كل مرة عدت إلى روما وخلال سنة تحريرهذه الأطروحة، استطعت دائما أن أعوّل على حضور ومساندة أصدقائي بقصر فرنيزي (Farnèse) : كلارا برندونر (Clara Brandonner) ، وسيلفيا إيستيان (Sylvia Estienne)، وأرمو جام (Armand Jammes)، وآن مرجينن (Anne Marinent)، وأنليز ناف (Annaliste Nef)، ومرلين نيكو (Marylin Ni coud)، وكلود بوزادو (Claude Pouzadoux)، وجون-كريستوف سريسو (Jean-Christophe Souriceau). وأخيرا جون-ماري مارتان (Jean-Marie Martin) الذي عرف كيف يجعلني أستفيد من معرفته الكبيرة بإيطاليا الجنوبية.

استحسنت في المدن التي زرتها تفرغ وغالبا كفاءة الأرشيفيين والمكتبيين والمخزنيين، وبقي كثير منهم مجهولي الأسماء لديّ، لكن لا أنسى المجهودات التي طلبتها منهم. لقد استفدت خصوصا من مساعدة الأرشيفيين والباحثين الذين

التقيت بهم أحيانا مصادفة خلال جولاتهم البحثية. أودّ أن أشكر خصوصا البعض منهم: في آكس أون بروفانس (Aix-en-Provence) هنري أموريك (Henri Amou ric)، وفي جنوة (Gênes) ألفونسو أسيني (Alfonso Assaini) ولورا بليتو (Laura Balletto) وتييري جونشو (Thierry Ganzhou) وكاترين أوتن (Catherine Otten) وروسانا إرباني (Tossana Urbani)، وفي بيزا (Pise) ماركو تنجروني (Marco Tangheroni) وجرازيلا برتي (Graziela Berti)، وفي البندقية (Venise) جون-فرانسوا شوفار (Jean-François Chauvard) وبرنار دومار (Bernard Doumer) ودانيال ديرون (Daniel Duran) وماريا بيا بيداني (Maria Pia Pedani)، وفي برشلونة (Barcelone) داميان كولون (Damien Colon) وماريا تريزا فيرر إملول (Maria Teresa Ferrer IMallol) وماريا دلوراس لوبيز بيراز (Mar□a Dolores Lopez Pérez) وروسر سالثرو إلوش (Roser Sali cru i Luche).

في بجاية حيث استطعت الذهاب خلال صيف 1999، لقيت استقبالا حارا وحضورا خارقا للعادة.

إن النقاشات التي أديتها مع البجائيين المغرمين بمدينتهم ساهمت بكثرة في فهمي لتاريخها. شكرا لكل من جميل عيساني وجمال الدين مشهد وأرزقي الطاهر والعربي يونسي، وللسيدين محمودي – مدير حظيرة قوراية الوطنية- وبومسيلة – المدير العام لمؤسسة ميناء بجاية.

وأخيرا، فرانسواز ميشو (Françoise Michau) -التي قادت خطواتي الأولى باحثا في طرق زوار القدس- دعتني من جديد لهذه الرحلة الجديدة وتابعت كل المراحل بالفضولية والإكرام اللذين يشهد بهما الجميع. وافق ميشال بلار (Michel Balard) على ضمان الإشراف على هذا العمل، حيث بتجهيزه الجيد ومعرفته الكبيرة بالبحر المتوسط عرف دوما كيف يرشدني إلى الوجهة المتبعة الصحيحة، مانحا بذلك الثقة الكاملة لقبطان السفينة. فشكرا للاثنين معا.

مقدمة

عندما استولى الفاتحون المسلمون على المغرب، أسسوا عاصمتهم بالقيروان التي تبعد عن البحر مسافة خمسين كلم. سجّل هذا الاختيار تغييراً أساسياً مقارنة بتنظيم الفضاء في إفريقية الرومانية أو البيزنطية التي ارتكزت على الموانئ مثل قرطاجة. استدارت الجهة منذ ذلك الحين ليس نحو الشمال، لكن نحو الشرق الذي شهد ميلاد الإسلام واحتواءه على مركز الإمبراطورية. إن هذه الوجهة جعلت هنري بيران (Henri Pirenne) يقول بأن الفتح الإسلامي أثار قطيعة في وحدة العالم القديم المتوسطي: "حدث تمزق دام إلى أيامنا هذه. وعلى ضفاف بحرنا (*Mare nostrum*) تمتد الآن فصاعدا حضارتان مختلفتان ومتعاديتان... إن البحر الذي كان إلى غاية تلك اللحظة مركز العالم المسيحي أصبح حده. لقد تم تكسير الوحدة المتوسطية"[1]. غالبا ما تمّت محاربة الأطروحة البيرونية[2]، وارتبط الانتقاد خصوصا بمسؤولية الفتح الإسلامي في انقطاع المبادلات بين الشمال والجنوب، وبالتالي بالتسلسل الزمني لهذا التطور. لم تشكك الانتقادات في الفكرة المحورية التي تقول بتغيير الاتجاهات وانقطاع الاتصالات بين إفريقيا الإسلامية وأوروبا في العصر الوسيط[3]. لقد أهملت إذن السواحل، وهذا ما تشهد عليه الجغرافية السياسية والاقتصادية للمغرب في القرون الإسلامية الأولى، وأيضا جغرافية

(1) H. Pirenne, Mahomet et Charlemagne, Paris, 1992, p. 111.

نشرت الطبعة الأولى لهذه النص في 1937 بعد وفاة المؤلف.

(2) أنظر خصوصا :

M. Lombard, *L'Islam dans sa première grandeur*, Paris, 1971, et la récente mise au point de P. Guichard, « Les pays de la Méditerranée occidentale entre le Ve et le Xe siècles. Retour sur la problématique pirennienne », *L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Âge*, dir. M. Hammam, Rabat, 1996, p. 75-90.

(3) يعطي وجود نقاط العبور في صقلية والأندلس أو في أوروبا الشرقية أيضا تنوع للمعاينة، لكنه لا يرفضه أساسا

Guichard, « Les pays de la Méditerranée occidentale », art. cité, p. 82 ; E. Ashtor, « Quelques observations d'un orientaliste sur la thèse de Pirenne », *JESHO*, 13,=

أوروبا الجنوبية في نفس الفترة. بعد القيروان، أصبحت طبعا مدن أخرى عواصم لسلالات حاكمة جديدة مستقلة أو ببساطة حواضر جهوية: طبنة والمسيلة وأشير وقلعة بني حماد وتيهرت أو أيضا سجلماسة. وتقع هذه المدن على خط شرق-غرب الذي ينطلق من القيروان ويمتد على الجانب الجنوبي للتل على اتصال بالسهوب والصحراء[4].

عندما وصف الجغرافي الإدريسي المغرب في منتصف القرن الثاني عشر، أشار دائما إلى هذه المدن القديمة، لكنه أكد أيضا على عظمة وثراء الموانئ كالمهدية وتونس وبجاية والجزائر أو وهران. وبدأت تظهر في نفس الفترة وثائق الأرشيف الأوروبية الأولى التي تشهد على تجارة نشطة بين جنوة والعالم الإسلامي. إنها ثورة تجارية حقيقية تصنع في أوروبا، خصوصا في موانئ إيطاليا، وبعد ذلك بقليل في موانئ بروفانسيا وشبه الجزيرة الإيبيرية[5]. نمت تيارات المبادلات الشمالية-الجنوبية بطريقة مشهودة، مدمجة جهتين كانتا إلى حينها منفصلتين بعضهما عن البعض في نفس الفضاء الاقتصادي المتسع الأبعاد: أوروبا وإفريقيا وآسيا[6].

=1970, p. 173-174, rééd. *Studies in the Levantine Trade in the Middle Ages*, Londres, 1978 ; Cl. Cahn, « Quelques problèmes concernant l'expansion économique musulmane au haut Moyen-Âge », *L'Occidente e l'Islam nell'Alto Medio Evo*, Spolète, 1965 (*Settimane di studio del Centro Italiano di Studi sull'Alto Medio Evo*, XII), I, p. 423-424.

(4) S. Dahmani, « Essai d'établissement d'une carte des voies de circulation dans l'est du Maghrib central du IXe au XIIe siècle », *Histoire et archéologie de l'Afrique du Nord. Actes du IIIe colloque international, réunis dans le cadre du 110e Congrès national des sociétés savantes (Montpellier, 1-5 avril 1985)*, Paris, 1986, p. 338.

يحدد اليعقوبي الذهاب من القيروان إلى الأندلس في زمنه أي القرن التاسع، بأنه يجب إما الذهاب إلى غاية تاهرت ثم الركوب من تنس أو ركوب البحر مباشرة من تونس.

Ibid., p. 344.

أنظر أيضا:

M. Chapoutot-Remadi, « Fronte saharino e fronte mediterraneo », *Hinterland*, 3e année, n° 15-16, 1980, p. 12-14.

(5) R. S. Lopez, *La Révolution commerciale dans l'Europe médiévale*, Paris, 1974.

حصل بين هاتين الحقبتين تحول عميق ودائم لتنظيم الفضاء المغاربي. تحولت مراكز الثقل تدريجيا نحو البحر وشهد الساحل نشاطا جديدا. وجرى هذا التغيير أيضا في الشرق تحت تأثير الأغالبة والفاطميين (الذين أسسوا المهدية، أول عاصمة مسلمة تقع على الساحل)، وأيضا في الغرب والوسط حيث شهدنا نهضة الشواطئ الإيبرية وبناء الأندلسيين لموانئ على طول الساحل الإفريقي (وهران وتنس والجزائر وطبرقة) [7]. في القرن التاسع، وخصوصا في القرن العاشر، بدأ المغرب إذن في التوجه نحو البحر، وتأكد هذا التطور في القرن الحادي عشر ثم في القرن الثاني عشر مع تطور ميناءين كبيرين في المغرب الشرقي هما بجاية وتونس. لكن على العكس في هذه الفترة، فقد المسلمون التحكم في قسم كبير من البحر المتوسط[8].

يحدد هذا التوجه الساحلي أو المتوسطي « méditerranéisation [9] » للفضاء المغاربي – الذي بدأ في القرن التاسع والذي ترسّخ بداية من القرنين الحادي عشر والثاني عشر وخصوصا طوال العصر الوسيط المتأخر[10]– الجغرافية السياسية

(6) J. L. Abu-Laughed, *Before European Hegemony. The World System AD 1250-1350*, Oxford, 1989, p. 3.

(7) Guichard, « Les pays de la Méditerranée occidentale », art. cité, p. 89.

(8) Chapotât-Remédie, « Fronte saharino », art. cité, p. 10, 18.

(9) أنشأ جون-كلود جارسان هذه العبارة لوصف وضعية الإمبراطورية المملوكية بداية من نهاية القرن الرابع عشر.

J.-Cl. Garcin, « La “Méditerranéisation” de l’empire mameluk sous les sultans Bah rides », *Rivista degli Studi Orientali*, 48, 1973-74, p. 109-116.

(10) واضعا حصيلة لوضعية السلطنة العبد الوادية في عصره، كتب ابن خلدون: "العرب هم أسياد البسائط ومعظم المدن، لا تمتد سلطة العبد الواديين إلى الولايات البعيدة عن مركز المملكة ولا تتعدى تقريبا حدود المجال البحري الذي امتلكوه". البربر، 3، ص 472-473.

والاقتصادية لقسم كبير من الجهة إلى غاية أيامنا [11]. ويدعونا لمحاولة فهم الظروف التي سمحت ببروز وتطور هذه الموانئ، وهذا ما يجبر على إعادة تفحص مصطلحات النقاش القديم، أي الانحطاط المفترض للمغرب في نهاية العصر الوسيط.

نظر المعاصرون والمؤلفون المغاربة الأواخر للقرن الحادي عشر على أنه فترة قطيعة عميقة[12]. لقد فتحت حسب رأيهم عصر الانحطاط والتراجع، خصوصا مقارنة مع العالم المسيحي. لقد وضع المؤرخون المحدثون هذا الموضوع في مركز تفكريهم حول ماضي الجهة واعتقدوا أنهم وجدوا مصدر الوضعية غير المتكافئة مع العالم الغربي التي نعيشها اليوم. ففي 1970، تساءل عبد الله العروي في الصفحات الأولى من مؤلفه "تاريخ المغرب" كما يلي: "ما هو عمق ونشأة وتشريح الموضوع الذي سيكون في لحظة ما قد تأخر ويجب استدراكه؟"[13].

مؤخرا، طرح مؤرخ الحقبة الوسيطة المثقف التونسي محمد الطالبي نفس المشكل: "في نظري المسألة الأساسية بالنسبة إلينا هي التالية: لماذا في لحظة تاريخية معينة تم تحطيم اندفاع حضارتنا؟ يلزمنا وقت ومجهودات للكشف أننا انطلقنا كالسهم وكل ما حدث في لحظة ما أن الحافز قد تكسّر. لماذا توقفت حضارتنا من كونها قوة حتى أصبحت معرقلة؟"[14].

(11) تختلف الوضعية في المغرب الأقصى، لأن العواصم السياسية بقيت في داخل الأراضي. في حين أن الواجهة البحرية هي ضيقة أكثر ومصير سبتة يوضح أن الجهة لم تبق بعيدة عن التطور العام. في المقابل، الصورة مغايرة في المشرق الإسلامي حيث بقيت المراكز الكبرى للحكم (القاهرة ودمشق في المقدمة) بعيدة عن البحر.

(12) J. Berque, « Les capitales de l’islam maghrébin vues par Ibn Khaldûn et les deux Maqqari », *Annales islamologiques*, 8, 1969, p. 79.

(13) A. La roui, *L’Histoire du Maghreb. Un essai de synthèse*, Paris, 1970, rééd. Casablanca, 1995, p. 11.

(14) M. Talbi, *Plaidoyer pour un islam moderne*, Tunis-Paris, 1998, p. 41.
ظهرت النسخة العربية لهذا النص في 1992 بتونس تحت عنوان عيال الله.

إن هذه المسألة ليست بالجديدة[15] وستستمر دون شك لمدة طويلة في ذهن مؤرخ المغرب وبلدان الإسلام بصفة عامة[16]. إن المستشرقين الذين غالبا ما كانوا أدباء اهتموا بالحقبة "الكلاسيكية"، معتبرين أن الانتاج الفكري بعد القرن الحادي عشر يتلخّص في جمع اجتهادي[17]. لكن فكرة الكلاسيكية وخصوصا الانحطاط التي تتضمنها تتطلب نقاشا[18].

لقد رأى المؤلفون العرب في نهاية العصر الوسيط هذا الانحطاط إشارة لأزمة عميقة. وحلّلوا وضعيتهم كتراجع مقارنة مع الماضي الذي اعتبروه مجيدا. بالنسبة إلى المؤرخين المعاصرين (منذ القرن التاسع عشر خصوصا)، ينظر إلى هذه الوضعية كتأخر مقارنة بالغرب في فترة يسيطر هذا الأخير عليها سياسيا وعسكريا

---

(15) بافتتاحه للملتقى في 1956 الذي كرّس لمسألة الزوال في العالم الإسلامي، ذكّر روبار برونشفيك أن منتسكيو (Montesquieu) كان قد فكّر في المسألة مفسّرا "انحطاط" الإسلام "بالاستبداد" الذي كان مسيطرا.

R. Brunschvicg, « Le problème de la décadence », *Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam. Actes du symposium international d'histoire et de civilisation musulmane, Bordeaux, 25-29 juin 1956*, dir. R. Brauschig et G. E. von Grüne bäum, Paris, 1977, p. 31.

(16) " أتخيل أن لا أحد بيننا، لم يطرح عليه سؤال محتوم من غير متخصص في الاسلاميات: " لم إذن ينسب انحطاط الشعوب المسلمة في نهاية العصر الوسيط أو العصور الحديثة؟ لقد شعرت من جهتي في عدد من المرات بالحيرة القصوى أمام هذا المشكل الكبير. دون شك هل من المستحيل تناوله بكمية من الفرضيات فقط أو عكس ذلك بالاضطراب. لكن الاقرار بعدم القدرة هو تألم نوعا ما ومثير للقلق".
Ibid., p. 29.

(17) *Ibid.*, p. 34.

في سلسلة "الحضارات الكبرى"، الكتاب المخصص للإسلام والذي عهد به إلى دمنيك (Dominique) وجنين سوردال (Janine Sourdel)، La Civilisation de l'Islam classique (Paris, 1968)، لم يذهب إلى ما بعد القرن الحادي عشر.

(18) كان موضوع ملتقى بوردو في 1956، Classicisme et déclin culturel, op. cit., passim. بعودته في 1996 لمساهمة كلود كاهن في هذا الملتقى، أشار محمد أركون إلى حمل هذه الأعمال بصمات الرؤية التقليدية لإسلام متطرف لا يمكن تقبلها اليوم.

M. Arkoun, « Transgresser, déplacer, dépasser », *Arabica*, 43/1, 1996, p. 39-40.

واقتصاديا. لكن يجب التمييز بين "التراجع" و"التأخر" أو "التعديل"[19]. إن المقارنة بين تطور المغرب وتطور أوروبا بعد القرن الحادي عشر هي مجازفة قد تكون مضللة. إن التطور السريع للضفة الشمالية لا يعني بالضرورة تراجع فعلي للضفة الجنوبية. أيضا، يجب الحذر عند الحديث عن تراجع المغرب مقارنة بالنمو العام الذي عرفه البحر المتوسط في هذا العصر. " في هذا الصدد، لاحظ كلود كاهن (Claude Cohen) أن المشكل الحقيقي هو تطور الغرب أكثر من انحطاط الشرق "[20]. إن السؤال الذي يطرحه هذا النزول هو التالي: لماذا لم تمس تقدمات الغرب العالم الإسلامي، أو على الأقل لم تمسه بكيفية متكافئة[21]؟

ولهذا السبب فإنه من الضروري العودة إلى النصف الثاني من العصر الوسيط المغاربي بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر. فالجهة عرفت طبعا في هذه الفترة أزمة ترجمتها التبدلات العميقة. لكن لم يتجمد التاريخ بعد الحقبة "الكلاسيكية"[22]، ففي خلال القرون الموالية – بالعكس- هناك حضور للإنجازات

---

(19) Brunschvig, « Le problème de la décadence », art. cité, p. 41.

"يبدو لي أن مبدأ (الفارق الزمني) أكثر خصوبة من مبدأ الانحطاط، لأنه يحتم تفحص مقارن للقوى وللميكانيزمات وللأنظمة الاقتصادية والسياسية والقانونية التي تتصادم حينها في حيز جغرافي حيث سمح الفعل الإسلامي بالتحرر والإبداع والتطور التي تتابعت، وتعززت في السياق الغربي فقط."

Arkoun, « Transgresser », art. cité, p. 41.

(20) Cl. Cohen, « Quelques mots sur le déclin commercial du monde musulman à la fin du Moyen Âge », *Studies in the Economic History of the Middle East*, dir. M. A. Cook, Londres, 1967, rééd. *Les Peuples musulmans dans l'histoire médiévale*, Damas, 1977, p. 360.

(21) *Ibid.*

(22) إن الأطروحة التقليدية للاستشراق الاستعماري التي عبّر عنها ج. هـ. بوسكي (G.-H. Bousquet) خلال ملتقى بوردو (Bordeaux): "نقطة البداية هي هذه: خلال قرون، بقي الإسلام جامدا تقريبا في مقابل أوروبا التي تطورت بسرعة رغم أن البلدان المسلمة تجاوزت حضارة أوروبا الغربية في العصر الوسيط الأعلى."

G. H. Bousquet, « Dans quelle mesure l'enseignement dogmatique a-t-il pu entraver l'évolution des institutions économiques et sociales de l'Islam ? », *Classicisme et déclin culturel, op. cit.*, p. 185.

السياسية الكبرى التي هي علامات للازدهار. من الضروري إذن الأخذ بعين الاعتبار مشكل الزمن الطويل للتمييز بين فترات الأزمة وفترات الازدهار. إن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب في أول الأمر تحديد الحقبة الزمنية. إن قطيعة القرن الحادي عشر ربما إذا ما كانت سديدة في الميدان السياسي أو الثقافي لا يمكن أن تقبل دون نقاش.

إن البحث في الاشتغال على مجموع جد واسع حول الحقبة الطويلة يؤدي إلى المجازفة بالخلط، لأن السياقات تتنوع بعمق من مكان إلى آخر. تتمة لكلود كاهن، يشير أغلب المؤرخين اليوم إلى التنوع الكبير في العالم الإسلامي[23]. في المغرب لوحده، تختلف حالات تونس وبجاية والجزائر أو سبتة، فقد تطورت هذه المدن بإيقاعات مميزة في سياقات وحسب منطقها الخاص بها.

تظهر بجاية مرصدا جيدا لوصف هذه المتغيرات وفهم ميكانيزماتها. دون أن تكون عاصمة سياسية (إلا في فترات مختصرة)، كانت هذه المدينة "التي لم تكن ذات نوعية[24]" خلال عدة قرون واحدة من الحواضر الجهوية لإفريقيا الشمالية وواحدة من الموانئ الأكثر نشاطا منذ بنائها في 460/ 1067، لم تفقد مكانتها إلا مع الغزو الإسباني في 1510. يحدد هذان التاريخان فترة واسعة بكفاية لتتبع تطور المدينة في سياقها المغاربي والمتوسطي في الوقت ذاته. إن كل دراسة تعتمد على الأعمال المتعددة والمتينة. بالإضافة إلى المؤلفات التي أصبحت قديمة حول إفريقية

(23) في هذا الصدد، إن العنوان الذي تمّ اختياره للخلاصة الأخيرة التي ظهرت في سلسلة Nouvelle Clio هو معبّر:

États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, Xe-XVe siècle, dir. J.-Cl. Garcin, Paris, 3 vol., 1995-2000.

(24) هكذا عرّف جون – كلود جارسان (Jean-Claude Garcin) –الذي استلهم من كتاب روبار مزيل (Robert Musil) – مدينة القوص في مصر.

J-Cl. Garcin, *Un centre musulman de Haute-Égypte médiévale : Qûs,* Le Caire, 1976, p. 569.

الوسيطة للهادي روجي إدريس[25] وخصوصا روبار برونشفيك (Robert Brunschvicg)[26]، انضمت مؤخرا المنوغرافية الغنية لمحمد الصالح بعيزق المكرّسة للمدينة تحت حكم الحفصيين[27]. من جهة أخرى، إن تاريخ التجارة المتوسطية والعلاقات بين أوروبا والمغرب هي معروفة بفضل الأعمال التي أنجزت حول موانئ أروبا الجنوبية الكبرى[28].

فضلا عن مميزاتها الخاصة بها، فإن بجاية هي في قلب المشاكل التي تطرحها القرون الأخيرة للعصر الوسيط المغاربي وتسمح بإعادة التفكير في الأطروحتين اللتين تواجهتا لمعرفة صعوبات المنطقة في نهاية العصر الوسيط.

في الواقع، تمّ تفسير أزمة المغرب منذ زمن طويل أساسا باضطرابات أثارتها في منتصف القرن الحادي عشر هجرة القبائل العربية الوافدة من حوض النيل: بني هلال وبني سليم. إنها أطروحة "الكارثة الهلالية" التي نقلت دون انقطاع إلى غاية

(25) H.-R. Idris, *La Berbérie orientale sous les Zirides, xe-xiie siècle*, Paris, 1962.

(26) R. Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines au xve siècle*, Paris, 1940-1947.

(27) م. ص. بعيزق، بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية، رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، تحت إشراف م. سبوتو-رمادي، 1995. في المقابل، ليس ما يؤخذ من العدد الخاص لمجلة الأصالة المكرّس لتاريخ بجاية والذي لا يتعدى تقريبا إطار الاحتفال بالعظمة الماضية للمدينة. بجاية عبر العصور، الأصالة، 19. 1974. نفس الشيء لعمل إزابال كمولي Isabelle Comolli, Histoire de la ville de Bougie du vie siècle av. J. C. au xiie siècle, Montpellier, 1987. وأخيرا، كتاب مولود قايد (L'Histoire de Bejaïa et de sa région depuis l'Antiquité jusqu'à 1954, Alger, 1976) يوفر خصوصا رواية للأحداث.

(28) إذا ما كانت العلاقات مع المشرق قد تم تفضيلها في الغالب، تمّ أيضا إجراء عدة دراسات حول حوض المتوسط الغربي. إن البيبلوغرافيا هي أكثر وفرة من تاريخ المغرب. أنظر خصوصا أعمال شارل-إيمانويل ديفور (Charles-Emmanuel Dufourcq)، وماريا دولوريس لوبيز بيريز (María Dolores L[illegible]pez Pérez)، وبيار مكار (Pierre Macaire) حول شبه الجزيرة الإيبيرية، وإدوار براتيي ([illegible]douard Baratier) ورجين بارنو (Régine Pernoud) حول مرسيليا ولورا بليتو (Laura Balletto) ومكية بن ساسي وبرنار دومار (Bernard Doumerc) وفليب جوردان (Philippe Gourdin) وجورج جهال (Georges Jehel) حول إيطاليا.

سنوات الخمسينات. كتب شارل-أندري جوليان (Charles-André Julien) - الذي حوصل الأعمال التي أنجزت خلال القرن الذي سبقه في كتابه "تاريخ إفريقيا الشمالية" الصادر في 1931- كما يلي: "بكل تأكيد، إن الغزوة الهلالية هي الحدث الأكثر أهمية في كل العصر الوسيط الأوروبي. إنها أكثر من الفتح الإسلامي وهي التي حوّلت المغرب لقرون."[29] تندرج هذه الأطروحة بالنسبة لشارل – أندري جوليان نفسه أو على الأقل لكثير من الذين كتبوا قبله، في إطار مشروع إعطاء شرعية للاستعمار الذي قدّم على أساس العودة إلى الحالة العادية: حسب رأيهم المغرب مرتبط -بحكم الميل الطبيعي- بأوروبا[30]. كان المغرب منذ الإمبراطورية الرومانية جزءا من الحضارة الغربية وتطور المسيحية (خصوصا مع القديس أوغسطين) يكون قد أنهى توحيد الضفتين. في نظرهم، لم يحدث الفتح العربي انقلابا عميقا. بالعكس، "بعد دخول البدو مسرح الأحداث (في القرن الحادي عشر) تم تدريجيا في القرنين المواليين ضرب المغرب الأوسط الواقع بين تونس وتلمسان بالشلل والموت[31]". ويكون هذا الحادث بذلك قد فتح قوسا كبيرا تمّ إعادة غلقه بفضل فعل فرنسا التحضيري[32]. إن تفسير الانحطاط يدخل في الحسبان عوامل داخلية في العالم الإسلامي وأيضا خارجية عن المغرب، وتستند خصوصا الى أحكام عنصرية ومعنوية، تشير أساسا إلى الطبيعة المخربة للعرب البدو.

يضع المخطط التفسيري الثاني في المقدمة تطور التجارة الأوروبية في الموانئ المغاربية حيث تباينت تقديرات تأثيره على ازدهار المغرب. فسّرت الأعمال التي

(29) Ch.-A. Julien, *Histoire de l’Afrique du Nord*, Paris, 1931, nouvelle éd. revue (avec la collaboration de Chr. Courtois et R. Le Tourneau), 1951, rééd. 1994, p. 414.

(30) أنظر العنوان المعبّر للكتاب الذي نشره الجنرال دو بريمو بباريس في 1850.

Le Général de Brémond, *Berbères et Arabes. La Berbérie est un pays européen*.

(31) É.-F. Gautier, *Les Siècles obscurs du Maghreb*, Paris, 1927, p. 405.

(32) "تحت فعل فرنسا، سينشط هذا التحجر الضخم ويولد بحالة جديدة".

G. Marçais, *Les Arabes en Berbérie du* XIe *au* XIVe *siècle*, *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 47, 1913, p. 18.

تعود إلى الفترة الاستعمارية هذا التطور على أساس أنه مؤشر سابق للتوسع السياسي لأوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين. إن أي أفق يلمس في العمل المتقدم للويس دو ماس لاتري (Louis de Mas-Latrie) حول التجارة الأوروبية في إفريقيا الشمالية الوسيطة[33]، الذي أنهى مقدمة الكتاب بهذه الكلمات: "كم كان بإمكاني أن أهنئ نفسي إذا استطاعت هذه الأعمال التي تمّت معرفتها من بعض الأهالي أن تحثهم على الدخول بودية إلى صراط التهدئة والوفاق الوطني نحو المصير المشترك الذي ربما يحفظه المستقبل للجزائر والذي يدعوهم إليه في هذه اللحظة الكلام الجميل واللطيف الذي يمتلك سره الإمبراطور. [34]" نفس الشيء عندما حرّر روبارتو سباتينو لوبيز (Roberto Sabatino Lopez) عمله حول الجنويين في إفريقيا الغربية في العصر الوسيط، وهذا في سياق التوسع الاستعماري لإيطاليا الفاشية حيث وضع هذه الفترة بين أعمال سبيون إميليا (Scipion Emilien) الباهرة والمستقبل الجديد لإيطاليا في إفريقيا[35]. بالنسبة لهؤلاء المؤرخين، خلق انفتاح الموانئ المغاربية على التجارة

(33) L. de Mas-Latrie, *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l’Afrique septentrionale au Moyen-Âge*, Paris, 1866.

(34) *Ibid.*, préface, p. XXVII (datée du 10 mai 1865).

أنظر أيضا حكم:بواسوناد P. Boissonnade, « Relations commerciales de la France méridionale avec l’Afrique du Nord ou Maghreb du XIIe au XVe siècle, étude d’histoire économique », *Bulletin de la société de géographie*, 1929, p. 1 "إن الجمهوريات البحرية الفرنسية في الفترة الجميلة من العصر الوسيط كانت النذير الحقيقي للزمن الذي فتح خلال القرن التاسع عشر والذي جعل من إفريقيا الشمالية فرنسا جديدة، كامتداد اقتصادي وميدان تجاري للوطن القديم."

(35) "إذا كان الجنود والعمال الإيطاليون فتحوا لحضارتنا مستقبلاً جديداً في إفريقيا، فإن ذاكرة المتقدمين من كل نوع وفي كل عصر في الماضي، اجتازوا الجهات الجد بعيدة، وتدفّقوا في روح كل واحد واكتسبوا فعليا حق الأسبقية في كل التاريخ."

R. S. Lopez, « I Genovesi in Africa Occidentale nel Medio Evo », *Studi sull’economia genovese nel Medio Evo*, I, Turin, 1936, p. 3.

الأوروبية ظروف ازدهار جديد[36]، لكنها تقتصر على الحاشية الساحلية لأن الداخل بقي مصابا بالشلل[37]. هؤلاء المؤلفين - الذين هم ليسوا باختصاصيين في تاريخ التجارة الأوروبية وأيضا في العالم الإسلامي- لم يهتموا تقريبا بتفحص آثار هذا النشاط التجاري في البلاد.

أبرز أيضا عبد الله العروي الدور الحاسم للمنطقة في هذا التوسع التجاري، لكنه حمل حكما مختلفا جدا. يندرج تفكيره في سياق إدانة المظاهر الجديدة للسيطرة الغربية على ما نسميه العالم الثالث. يترجم هذا "الاستعمار الجديد استعلاء ليس سياسيا فقط، ولكن اقتصاديا قبل كل شيء، والعناية بمبادلات تجارية غير متكافئة بين الشمال والجنوب. بإشارته إلى دور التوسع التجاري الأوروبي في التطور الاقتصادي للمغرب، سجّل عبد الله العروي خصوصا آثاره المدمرة: "إن هذه التجارة التي نعجب باعتبارها رمزا وشرطا للازدهار كانت في تاريخ المغرب مرتبطة بضعف السلطة السياسية. "[38] دون إهمال الاضطرابات التي ولّدتها الهجرات الهلالية، ينقل إذن الأزمة نحو منتصف القرن الرابع عشر[39]. دفع محفوظ قداش في تاريخ "الجزائر الوسيطة" الصادر في 1992 إلى أبعد من هذا التفكير مؤكدا على أن المغرب تكبّد "هجمة التجار الأوروبيين التجارية التي واكبتها في

---

(36) إن انفتاح الدول المغاربية على التجارة هي بالنسبة لفرنو برودال "الحدث الكبير في حياة المغرب – مع ما يفكر فيه التاريخ العام- والذي يفيض كثيراً بفعل انعكاساته إلى أبعد من حدوده".

F. Braudel, « Monnaies et civilisation : de l'or du Soudan à l'argent d'Amérique. Un drame méditerranéen », *Annales ESC*, 1, 1946, p. 11.

(37) "تكبر هذه المدن دون معيار مشترك مع البلدان المحيطة بها. وهي نتاج الاقتصاد العالمي وهذه هشاشتها السرية، فهي ليست أقل ازدهارا من هذه اللحظة". *Ibid*., p. 12

(38) Laroui, *L'Histoire du Maghreb*, *op. cit*., p. 174.

يرفض عبد الله العروي فكرة المصير المشترك بين المغرب وأوروبا كما طالب بها المؤرخون الاستعماريون. "إلى هذا الطفل الأبدي الذي هو دائما عفريت، نذكّر بأنه يجب الاختيار مرة واحدة وأخيرة، الخيار الجيد الذي هو خيار الجماعة المتوسطية." Ibid., p. 95

(39) *Ibid*., p. 204.

الغالب هجمة عسكرية من الدول المسيحية[40] في النهاية، إن هذا التحليل غير بعيد عن تحليل المؤرخين الاستعماريين. لقد نظر إلى التطور الملاحي والتجاري للمدن الأوروبية كعنصر من التوسع الأوروبي نحو المغرب وبذلك أعلن أو حضّر توسع القرن التاسع عشر. إنّ الفارق بين هاتين المقاربتين يكمن فقط في الحكم السياسي (أو المعنوي) الذي وضع على الظاهرة: خير بالنسبة للبعض وشر بالنسبة للآخرين.

تدخل الصورتان المفسّرتان أساسا عاملين خارجيين عن العالم المغاربي[41]. لقد بحثت الكتابة التاريخية الجزائرية في سنوات الستينات والسبعينات عن عكس ذلك بإظهار المنطق الداخلي لتطور "الأمة"[42]. ففي 1970، كتب محي الدين جندر في الفصل الأول من كتابه "مقدمة لتاريخ الجزائر" والمعنون بـ "نحو التاريخ الوطني": "إنّ الماضي ينادي بإدماجه، إدماجه بطريقتنا، لأنني توصلت إلى قناعة عميقة بأن تاريخنا الوطني – رغم أعمال المؤرخين الأوروبيين الكثيرة كان دائما أرضية خصبة وكان يجب بالنسبة إلينا نحن، إعادة التفكير في العناصر المختلفة لماضي وجودنا"[43]. إن الإطار الذي تم اختياره في هذا التفكير – الأمة الجزائرية- كان أقل تكيفا مع التاريخ الوسيط. بعودته إلى نصه في نهاية سنوات الثمانينات، أضاف له محي الدين جندر فصلا جديدا كتمهيد "ضرورة تفكير جديد في التاريخ الوطني"

(40) M.Kaddache,l'Algérie médiévale, Alger, 1992, p 165 .

(41) يخلخل عبد الله العروي هذه الفكرة حيث دعا إلى الأخذ بعين الاعتبار العوامل الخارجية، لكن بتفسيرها حسب الحالة الداخلية للجهة.

Laroui, *L'Histoire du Maghreb*, *op. cit.*, p. 206.

(42) أنظر:

D. Valérian, « L'expansion européenne médiévale vue par l'historiographie maghrébine contemporaine » (communication dans le cadre du groupe Dirasat au WOCMES de Mayence, septembre 2002, à paraître au CERES, Tunis)

(43) M. Djender, *Introduction à l'histoire de l'Algérie*, Alger, 1970, nouvelle édition augmentée, Alger, 1991, p. 42.

حيث كتب خصوصا: "انتهى فهم الأمة على أنها مشابهة لنفسها وأن السيطرة الاستعمارية لوحدها هي التي أخفت وجودها"[44].

إن قصور هذه التفسيرات يظهر أن تاريخ بجاية لا يمكن فهمه إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار العوامل الخارجية والداخلية للتطور. يجب إذن وضع أنفسنا في سلم مختلف ورؤية دور المدينة في المغرب وأيضا في البحر المتوسط[45]. لا يمكن فهم نشاط الميناء إلا إذا تمّ ربطه ببلاده الخلفية من جهة وبمجمل الاقتصاد المتوسطي من جهة ثانية[46]. يجعل هذا المنطلق ضروريا المقارنة بين مختلف العوالم وبناها الاقتصادية والسياسية أو الاجتماعية. إن الهدف ليس اصدار حكم مهما يكن لكن فهم أسباب التطورات المختلفة. إنّ هذا العمل غير محصن من المجازفة. لقد أشار كلود كاهن خلال ملتقى بوردو في 1956 إلى ضرورة انطلاق دراسة مقارنة ليس من المفاهيم المجردة والمنغلقة ولكن من تحاليل مجسدة لبنى مختلف المجتمعات أو الحضارات، وهذا ما يفترض بنا أن نقوم به في هذا العمل فيما يخص بجاية[47].

يصطدم هذا المقتضى بمشكل المصادر ويفرض الإتيان بتوضيح مزدوج للمادة التوثيقية العربية واللاتينية. بالنسبة لبجاية، هذه المصادر كافية وذات طبيعة

(44) *Ibid.*, p. 16-17.

(45) إن نشاط الميناء هو انعكاس للتطورات الخاصة بالمدينة وبالمجتمع الحضري وتطورات المقاطعة (البلاد الخلفية القريبة أو البعيدة) للدولة (الحمادية، والموحدية والحفصية) ومجمل المغرب أو مجمل العالم الإسلامي.

(46) أنظر ملاحظات كلود كاهن Claude Cahen, « Quelques mots sur le déclin commercial », art. cité, p. 359-360. "بالتعريف، لا يمكن دراسة اقتصاد تجاري في نفس الميدان المغلق دون الرجوع إلى ما يحيط به. فيما يتعلق بالمجال المسلم، نلاحظ من جهة أن الظواهر التي ترصد له هي مشتركة مع مجتمعات أخرى ومن جهة ثانية هي ليست نتاج التطور الداخلي فقط ، لكن أيضا رد فعل يعكس التطورات المحيطة بها".

(47) Claude Cahen, intervention à la suite de la communication de Robert Brunschvig, « Le problème de la décadence », cité, p. 47.

متنوعة جدا، وترفع لنا الستار خصوصا عن مدينتين مختلفتين، الأولى مرساة بعمق في المغرب والثانية منفتحة بكثرة على البحر المتوسط.

تظهر المصادر العربية المشكلة أساسا من نصوص ذات طابع أدبي مدينة متجهة نحو البر. كحاضرة جهوية، شاركت بجاية في النزاعات السياسية التي ضربت بغليانها إفريقية وأكثر من ذلك مجمل المغرب. كما تحكمت في جهة واسعة متميزة بغليان حركات القبائل وقوى أخرى هامشية. اعتنى البجائيون بالعلاقات التجارية مع جهات أخرى في العالم الإسلامي أو مع إفريقيا العميقة، ولكن العلاقات مع مسيحيي الضفة الأخرى هي غائبة تقريبا في هذه النصوص الأدبية.وعندما يشار إليهم، فلا يذكر الا طبيعة النزاع بين عالمين غير منسجمين، وهنا إخفاء للعلاقات العادية مع الكفار.

عكس ذلك، لا تظهر المصادر الأوروبية –التي هي أساسا وثائق أرشيف- بجاية إلا من خلال مينائها المنفتح بكثرة على البحر. وتسمح الوثائق التجارية برسم صورة مدينة نشطة، تبرم علاقات كثيفة ومنتظمة مع بقية الحوض المتوسطي من خلال أعمال التجار الإيطاليين والبروفانسيين أو الكتالانيين وتظهر فترات ازدهار تجاري وأوقات الفتور أو أزمة المبادلات. وتخبرنا الأرشيفات العمومية وبعض كتب التاريخ عن الروابط السياسية المبرمة مع الحفصيين. وتشير المعاهدات إلى مراحل هذا التعايش المشترك حتى وإن كانت الوثائق تشير خصوصا إلى النزاعات. لكن على غرار النصوص العربية التي لا تهتم بالبحر أو بالمسيحيين، فإن الوثائق الأوروبية لا تلمح إلى ما يجري خارج الميناء وإلى سكان هذه الأراضي رغم الالتقاء بهم.

وبالتالي فمنذ ذلك الحين يظهر أن الاستعمال المتقاطع لمختلف أنواع هذه المصادر صعبٌ إن عدم التساوي هو توثيقي قبل كل شيء، فقد ترك تاريخ بجاية على العكس أكبر أثر في أوروبا وليس في المغرب فحسب. إن ندرة المعلومات حول النشاط الملاحي البجائي يجب أن يفسّر بحذر. إنّ مقابلة المصادر العربية مع

الأوروبية يسمح جيدا باستخراج فترات الازدهار والأزمة والبحث في أسبابها. كما تشير أيضا –في السياق الاقتصادي والسياسي والاجتماعي البجائي والجهوي– إلى أي العوامل التي بإمكانها توضيح ما يظهر في لحظة ما كـ "تأخر" مقارنة بأوروبا.

ميناء مغاربي ذو أهمية أولى، هنا تندرج بجاية كاملة في سياق نشاط السواحل المتوسطية انطلاقا من القرن الحادي عشر، ولكن أيضا في تغيرات الموازين الجهوية.

تعزى هذه المكانة في بادئ الأمر إلى الثروات التي تجلبها من بلادها الخلفية. يجب إذن الانطلاق من منطقة بجاية وإعادة النظر في ورقاتها الرابحة وضعفها البنائي وتحديد فترات الأزمات الداخلية. ويتطلب هذا تقدير أهمية المدينة واشعاعها في المغرب على الصعيد الاقتصادي وأيضا على الصعيد السياسي مع الإشارة إلى التطورات خلال الفترة المعتبرة. وتشهد مبادلات المنتجات وما ينجم عنها بازدهار المدينة وجهتها وأيضا حدود اقتصادها. وأخيرا، إن القرصنة التي نمت خصوصا بداية من القرن الرابع عشر هي إشارة لأزمة وسبب للغنى.

اندمجت المدينة إذن في فضاء واسع، وارتبط ميناؤها خصوصا بالبحر. لكن إذا كان هذا الأخير هو مصدر ازدهار بجاية فإنها حملت أيضا ارتباطا أكبر على الصعيد التجاري، فقد البجائيون المبادرة لصالح المتعاملين الاقتصاديين الأوروبيين، وهذا ما جعل الاقتصاد الحضري حساسا بصفة خاصة لتطور الوضعية في البحر المتوسط. إنها الظروف المزدوجة المغاربية والمتوسطية الوحيدة القابلة بجعل تاريخ بجاية مفهوما على غرار كل الموانئ المسلمة في المنطقة في نهاية العصر الوسيط.

تقديم المصادر

I- المصادر بالعربية

المصادر الوثائقية بالعربية هي في غالبيتها العظمى ذات طبيعة أدبية، متعددة ومتنوعة، رغم ذلك فإنها لا تهتم تقريبا بنشاط الميناء أو على الأقل بالتجارة البحرية[48]. بصفة عامة البحر غائب[49]. رغم أن هذه المصادر رئيسية، فإنها الوحيدة التي يمكنها توضيح السياق المغاربي لتطور المدينة.

1) الكتابات الجغرافية، " نصوص الرحلات "

غالبا ما تمّ استغلال النصوص الجغرافية ونصوص الرحلات لفهم الوقائع الاقتصادية للعالم العربي الوسيط[50]. إنها ثمينة فعلا، لكن يجب التعامل معها بحذر لأنها تؤدي لواقع أقدم أحيانا لأن المؤلف إذا لم تكن له معرفة مباشرة بالأمكنة التي يشير إليها، يجمع كتابات سابقيه. ومن جهة أخرى، تصبح الصور الجغرافية الكبيرة نادرة بعد القرن الثاني عشر ولا تأتي بشيء جديد. إنّ نصوص الرحلات في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر هي أقل غنى بكثير من حيث المعطيات ذات الطابع الاقتصادي. يمكن للرحالة (غالبا ما يكون حاجا) بالمناسبة ابداء ملاحظات

---

(48) B. Rosenberger, « L'histoire économique du Maghreb », *Handbuch der Orientalistik*, sechster Band - *Geschichte der islamischen Länder*, sechster Abschnitt, *Wirtschaftsgeschichte des vorderen Orients in islamischer Zeit*, Teil 1, Leyde-Cologne, 1977, p. 205.

(49) كان من الوجوب انتظار عصر العثمانيين لوجود نصوص أدبية حقيقية حول البحر.

A. Miquel, « La géographie arabe après l'an Mil », *Popoli e paesi nella cultura altomedievale*, Spolète, 1983 (*Settimane di studio del Centro Italiano di Studi sull'alto Medioevo*, XXIX), p. 170.

حتى في الفترة المعاصرة، تظهر أهمية البحر بقلة في النصوص.

S. Boubaker, « La perception de la Méditerranée en Tunisie », *La Méditerranée tunisienne*, Paris, 2000, p. 23-25.

(50) أنظر:

Cl. Vanacker, « Géographie économique de l'Afrique du Nord selon les auteurs arabes, du milieu du IXe siècle au milieu du XIIe siècle », *Annales ESC*, 28/3, 1973, p. 659-680.

حول البلاد أو حول صعوبات الطريق، لكن فائدته تحمل أساسا على العلماء أو الرجال الورعين الذين يلتقي بهم.

رغم أنهم سباقون لتأسيس بجاية وللإطار الزمني لهذه الدراسة، يجب ذكر جغرافيين هامين: الإصطخري (توفي حوالي 340/ 951) وابن حوقل (توفي بعد 367/ 977). الثاني خصوصا اجتاز المغرب قبل تحولات القرن الحادي عشر، وهذا ما يجعله شاهدا رئيسا[51]. إن أقدم جغرافية تشير إلى بجاية هي جغرافية البكري. هذا الأندلسي الذي لم يغادر شبه الجزيرة كتب في 461/ 1068 انطلاقا من معلومات شفوية وخصوصا من كتب سابقيه. لكن معلوماته حول بجاية هي سابقة لتأسيس العاصمة الحمادية.

إن النص الأكثر غنى هو نص الإدريسي[52]. ربما أصله من صقلية، كتب في منتصف القرن الثاني عشر لحساب الملك النورماني روجر الثاني جغرافية واسعة تحتوي على وصف دقيق جدا للمغرب. وإذا كانت مادته الخبرية هي كتابية في قسم منها، فإنه يتوفر على معطيات محيّنة حول وضعية البلاد بعد قرابة قرن من وصول القبائل العربية الهلالية وتأسيس بجاية. فهو يلفت انتباهه خصوصا إلى الطرق بما في ذلك البحرية ويهتم أيضا بالمنتجات الفلاحية. وبعد وقت متأخر عنه قليلا، ترك المؤلف المجهول لكتاب الاستبصار وصفا لبجاية مؤرخ في 587/ 1191. هذه النبذة الجديدة مقارنة مع نبذة سابقه تظهر المدينة في الفترة الموحدية. يأتي الزهري -الذي هو جغرافي ثالث من القرن الثاني عشر- ببعض الإضافات رغم أنه لا يختلف تقريبا عن البكري والإدريسي. في حين يعطي ابن سعيد المغربي (توفي في 674/ 1275) معلومات جديدة مأخوذة في الغالب من

(51) J.-Cl. Garcin, « Ibn Hawqal, l'Orient et l'Occident », *ROMM*, 35, 1983, p. 77-91.

(52) A. Amara, A. Nef, « Al-Idrīsī et les Ḥammūdides de Sicile : nouvelles données biographiques sur l'auteur du *Livre de Roger* », *Arabica*, 48, 2001, p. 121-127.

روايات الرحلات. في المقابل، نص الحميري من الفترة الحفصية[53] تقريبا ليس مفيدا لأنه يكتفي في قسم كبير بإيراد المعطيات السابقة (أحيانا برؤى خاطئة). إن نبذته حول بجاية تتبع خصوصا وصف الإدريسي وكتاب الاستبصار. إن الجغرافيين المشارقة هم في الغالب أقل فضولية اتجاه المغرب ولا يأتون بجديد تقريبا باستثناء اثنين منهم: ياقوت (توفي في 627/ 1229) وهو مؤلف معجم جغرافي يحتوي على نبذة عن الغرب، والعمري الذي كتب في 738/ 1337 انطلاقا من المصادر المكتوبة والشفوية.

بداية من القرن الثالث عشر، إنّ كتب الرحلة هي التي تخبرنا عن المدينة وتطور الطرق وظروف التنقل[54]. انطلق العديد من الرحالة من الأندلس للوصول إلى المشرق باجتياز المغرب. لم يعرف ابن جبير الذي سافر في نهاية القرن الثاني عشر[55] بجاية حتى وإن نوى في لحظة ما الوصول إليها من عكا. في المقابل، اجتاز العبدري –بلنسي مستقر بالمغرب الأقصى– المدينة عند ذهابه إلى المشرق عن طريق البر في 688/ 1289[56]. ولم يعبر التجاني (توفي بعد 717/ 1317) الجهة، لكنه يذكر المدينة في رحلته. في القرن الرابع عشر، نجد لرحلة البلوي (الذي غادر في 736/ 1336) أهمية محدودة جدا. في المقابل، لنص الرحلة الطويلة التي تمّت في نفس الفترة من طرف ابن بطوطة (سافر بين 725/ 1325 و750/ 1349) أهمية استثنائية للمغرب وأيضا لإفريقيا السوداء والطرق الصحراوية. وأخيرا في القرن الخامس عشر، رحلة عبد الباسط – الذي هو مشرقي

---

(53) ربما توفي في 726/ 1325.

(54) حول أدب الرحلة، أنظر أساسا عمل صالح مغربي:

Salah M'ghirbi, *Les Voyageurs de l'Occident musulman du XIIe au XIVe siècle*, Tunis, 1996.

(55) بدأ رحلته في 578/ 1138 ودخل في 581/ 1185.

(56) أنظر:

W. Hoenerbach, *Das nordafrikanische Itinerar des 'Abdar vom Jahre 688/1289*, Leipzig, 1940.

قدم إلى المغرب من 866/ 1462 إلى 871/ 1467- هي من المصادر النادرة بالنسبة لهذه الفترة(57).

2) كتب الأخبار"التاريخ"

إنّ كتب الأخبار بالعربية كثيرة وغالبا ما تكون غنية ومثرية للتاريخ السياسي، وهي ضرورية خصوصا لتحديد أزمنة الأحداث. وهي غالبا كتب تواريخ سلالاتية مكتوبة لملوك تونس أو لملوك المغرب الأقصى أو نادرا لملوك تلمسان والأندلس. فهي إذن لا تهتم ببجاية ومنطقتها إلا بكيفية هامشية جدا. زيادة على ذلك، عدم تكافؤ توزيعها الزمني.

الرواية الأقدم هي كتاب ابن حماد الذي كتبه أمير من السلالة التي أسست بجاية وحكمتها إلى غاية وصول الموحدين. لم يتم العثور على هذا الكتاب(58)، حتى وإن كان معروفا في قسم منه عن طريق اقتباسات ابن خلدون. إن النصوص الأولى المتوفرة هي كتب الأخبار الموحدية حيث أن أهميتها لبجاية وجهتها تقتصر في الغالب على رواية قدوم المهدي إلى بجاية والفتح الموحدي والأزمة المرابطية في نهاية

(57) يمكن استعمال النصوص اللاحقة لكن بحذر مثل حالة رحلة الورثيلاني المكتوبة في القرن الثامن عشر والتي تحتوي على وصف لبجاية. أنظر:

M. Hadj Sadok, « Avec un cheikh de Zemmorah à travers l’Ouest constantinois du XVIIIe siècle », *Bulletin de la société historique et géographique de Sétif*, 1, 1935, p. 42-59, et Id., « À travers la Berbérie orientale du XVIIIe siècle avec le voyageur al-Warthilânî », *RA*, 95, 1951, p. 315-399.

(58) يذكر الجنرال دوباليي (de Beylié) نصّاً يزعم أنه لهذا المؤلف الذي يكون قد نسخه انطلاقا من مخطوط حديث اختفى منذ ذلك الوقت.

L. M. E. de Beylié, *La Kalaa des Beni-Hammad. Une capitale berbère de l’Afrique du Nord au XIe siècle*, Paris, 1909, p. 98.

شكّك روبار برونشفيك في هذا النص. Brunschvig, La Berbérie orientale sous les Hafsides, I, Paris, 1940, p. 377

لقد شغل البحث دون جدوى عن هذا المخطوط في عدة مكتبات لمدة طويلة الهندسي والمستشرق أوجان دويلف (Eugène Dewulf).

Dj. Aïssani, « Le Mathématicien Eugène Dewulf (1831-1896) et les manuscrits médiévaux du Maghreb », *Historia Mathematica*, 23, 1996, p. 257-268.

القرن الثاني عشر. إن الرواية الرئيسية للبيدق الرفيق المقرّب من المهدي بن تـومرت ثم الخليفة عبد المؤمن هي من عمل مادح متحمس للسـلالة المومنيـة. وبعـده ، عبـد الواحد المراكشي (توفي حوالي 620/ 1223) هو مؤلف كتاب الأخبار الذي يكمّل بالنسبة لنهاية الفترة الموحدية كتاب البيدق. نفس الشيء بالنسبة لمعاصره ابن القطان (توفي في 1230).

نصوص أخرى أكثر حداثة توضح هذه الفترة السابقة للحفصيين. يكمّل ابن عذاري المراكشي (توفي بعد 712/ 1312) – الذي كتب تحت حكم المرينيين- بصفة مفيدة المؤلفين السابقين حول الفترة الموحدية. أيضا، يعرض نصين مشرقيين، الكامل لابـن الأثـير (تـوفي في 630/ 1233) والكتـاب الموسـوعي للنـويري (تـوفي في 732/ 1332) إضاءة خاصـة حـول تأسـيس بجايـة انطلاقـا مـن المصـادر المغاربيـة الضائعة.

بعد الفترة الموحدية تكثر كتب الأخبار"التاريخ" وأهمها علـى الاطـلاق كتـاب ابن خلدون الذي يجب تكملته بمؤلـف حفصـي آخـر: وهـو ابـن قنفـذ وبالمؤلفـات المكتوبة سواء في جهات أخرى بالمغرب أم في المشرق. إن ابن خلـدون بحجـم عملـه وتفكيره طمس في الغالـب معاصـريه. إن حياتـه الطويلـة في خدمـة مختلـف الملـوك المغاربة[59] جعل منه شاهدا أساسا. تسبق مقدمته حول تطور المجتمعات الإنسـانية – التي تعتمد في قسم كبير على تجربته كرجل دولة- كتابه التـاريخي العـالمي والمعلمـي (كتاب العبر). ينتهي نصه في القسم المكرّس للمغـرب أساسـا في 783/ 1381،[60] ويضيف بعد ذلك المعلومات التي جمعهـا عنـدما كـان موجـودا بالمشـرق، لكنهـا لا تتعـدى مـوت السـلطان الحفصـي أبـي العبـاس وارتقـاء أبـو فـارس العـرش في

(59) أنظر خصوصا سيرته الذاتية: ترجمة عبد السلام الشدادي.
A. Cheddadi, *Le Voyage d’Occident et d’Orient*, Paris, 1980.
كان في خدمة أمراء بجاية وقت الأزمة المرينية في منتصف القرن الرابع عشر.

(60) *Berbères*, III, p. 90.

796/ 1394[61]. بالنسبة لحكم هذا الأخير، يكمله المادح ابـن قنفـذ، في الفارسـية. هذا الكتاب الاخباري الذي ألف لمفخرة أبي فارس، لكن أيضا لمدينته قسنطينة ليس له نفس الفائدة لبجاية[62]. حمل أيضا مؤلفون من خارج الأرض الحفصية معلومات جزئية لكنها مفيدة أحيانا مثل يحيى بـن خلـدون، أخ مؤلـف كتـاب العـبر والمـؤرخ الرسمي للعبد الواديين. عدة اخباريين مرينيين تحدثوا أيضا عن بجاية، خصوصا في موضوع هجومات أبي الحسن وابنه أبي عنان ضد إفريقية، مثل ابـن مـرزوق[63] وابن أبي زرع. في الأخير، النميري، مادح أبـي عنـان، كتـب رحلـة هـي في الواقـع رواية عن فتوحات سيده في قسم كبير منها. إن روايته للاستيلاء على بجاية هـي ثمينـة على وجه الخصوص لدراسة طبوغرافية المدينة[64]. في المقابـل، تقـل أهميـة الإخبـاريين النصريين: نجد بعض المعلومات عند ابن الأبار (توفي في 658/ 1260) أو ابن الخطيـب، معاصر لابن خلدون، لكن تلك المساهمة ضعيفة بصفة عامة.

إن تاريخ القرن الخامس عشر غير معروف جيدا والمصادر العربية عنه نـادرة. ترك لنا مؤلفان عاشا تحت حكم السلطان عثمان كتابين اخبـاريين: الزركشـي وابـن الشـماع. بجفـاف كـبير، لم يتجـاوزا سـنوات 1460 ولم يهتمـا بالمقاطعـات الغربيـة للسلطنة الحفصية إلا بكيفية هامشية. الثاني خصوصا لم يأت بشيء جديد[65]. يبقـى

(61) *Ibid.*, p. 124.

(62) M. Ben Cheneb, « La Farisiyya ou les débuts de la dynastie hafside par Ibn Qunfudh de Constantine », *Hespéris*, 8, 1928, p. 37-41.

(63) مقرب من السلطان أبي الحسن، هو جد مفيد لفهم فشل المحاولة المرينية الأولى.

É. Lévi-Provençal, « Un nouveau texte d'histoire mérinide, le *Musnad* d'Ibn Marzûq », *Hespéris*, 5, 1955, p. 7.

(64) يعرف بجاية جيدا بعد إقامته بها لمدة شهر خلال الحج في 1336. كان أيضا في 1340 كاتبا للأمير الحفصي بقسنطينة. خدم بعد ذلك أبي الحسن ثم أبي عنان الذي عهد إليه بوظائف عليا ولازمه ككاتب خاص. أثناء الاحتلال المريني، خدم حاكم المدينة لمدة وجيزة.

A.-L. de Prémare, *Maghreb et Andalousie au* XIVe *siècle Les notes de voyage d'un Andalou au Maroc (1344-1345)*, Lyon, 1981, p. 31, 38, 42, 57-58.

(65) يهتم خصوصا بتونس ونسخ النصوص القديمة بكثرة.

R. Brunschvig, « Ibn aš-Šammâ', historien hafside », *AIEO*, 1934-1935, p. 193-212.

نص في بداية القرن السادس عشر الذي لم يصلنا إلا من خلال الترجمة التي أنجزها لوران-شارل فيرو (Laurent-Charles Féraud) في 1868. ويتعلق الأمر بالكتاب الاخباري لأبي علي إبراهيم المريني الموسوم بـ عنوان الأخبار على ما مرّ على بجاية، الذي يروي خصوصا استيلاء الإسبان على المدينة. هذا الكتاب هو عمل لشاهد مباشر على سقوط الحفصيين في بجاية. إن مساهمة الاخباريين المتأخرين على غرار ابن أبي دينار (الذي كتب في أقصى نهاية القرن السابع عشر) هي في المقابل ليس لها أية فائدة لهذه الفترة.

3) **كتب التراجم والطبقات**

إن كتب التراجم هي مكرّسة خصوصا للنخب الدينية وتمّ استعمالها بكثرة في إطار التحقيقات الاجتماعية أو الفكرية أو لقياس إشعاع مدينة. إن مساهمتها في التاريخ الاقتصادي محدودة. لقد استطاع كريستوف بيكار (Christophe Picard) إعادة تشكيل مسارات التجار الأندلسيين الذين كانوا تجارا أيضا بفضل هذه النصوص[66]. لكن في حالة بجاية، النتائج هزيلة رغم وجود تأليف مكرّس للمدينة فقط. إن عنوان الدراية للقاضي الغبريني هو في الواقع النص الوحيد المحفوظ الذي كتبه مؤلف بجائي. أصله من قبيلة بني غبرين، شغل المؤلف عدة وظائف من الدرجة الأولى في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر إلى غاية فقدانه الحظوة وإعدامه بعد مهمة دبلوماسية إلى تونس في 704/ 1304. ترك مجموعة من التراجم لعلماء لهم صلة ببجاية، أساسا في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر

---

(66) Chr. Picard, *L'Océan atlantique musulman. De la conquête arabe à l'époque almohade. Navigation et mise en valeur des côtes d'al-Andalus et du Maghreb occidental (Portugal-Espagne-Maroc)*, Paris, 1997, p. 15.

أنظر أيضا:

H. J. Cohen, « The Economic Background and Secular Occupation of Muslim Jurisprudents and Traditionists in the Classical Period of Islam », *JESHO*, 13, 1970, p. 26-31, et O. R. Constable, *Trade and Traders in Muslim Spain. The Commercial Realignment of the Iberian Peninsula, 900-1500*, Cambridge, 1994, p. 54-55.

الميلادي. ينتمي كتابه إلى فضائل المدينة[67] وهو مفيد خصوصا لمعرفة بعض مظاهر المجتمع البجائي في عصره. كما يسمح أيضا بتوضيح بعض نقاط الطبوغرافية الحضرية. إن مجاميع التراجم الأخرى توحي بأنها أكثر فقرا بعد تجريد جزئي في حقيقة الأمر. تظهر فيها بجاية بكيفية هامشية ولا تتجاوز المعلومات الواردة فيها تقريبا الثناء على عالم أو ولي. يمكن بدراستهم توضيح التاريخ الفكري والديني والاجتماعي أو السياسي، لكن القليل حول المظاهر الاقتصادية.

4) أنوع أخرى من المصادر العربية

لقد تمّ اعتبار النصوص الفقهية منذ أمد طويل كمعيارية خالصة وقليلة مكيّفة مع دراسة الواقع. إن هذا التحفظ ليس مطروحا اليوم حتى وإن بقيت صعبة التأويل[68]. لكن تندر النصوص التي تهتم بالتجارة البحرية الكبيرة[69]. إنّ كتب الحسبة التي تقتصر على تنظيم المبادلات في السوق لا تتحدث أيضا عنها. ومجاميع الفتاوى تحتوي أكثر على المعطيات بشرط وضع المسائل في سياق تاريخي دقيق. لقد جمع المعيار للونشريسي في نهاية القرن الخامس عشر عدة نصوص لمفتين سابقين[70]. لكن مساهماتهم تبقى رغم كل شيء محدودة جدا. إنّ المبادلات مع المسيحيين – خصوصا – ليست مطروقة تقريبا ما عدا من خلال مسألة إقامة المسلمين في دار الكفر.

---

(67) أنظر: "فضيلة". « Fadîla », *EI²*, II, p. 747-748 (R. Sellheim).

(68) Cl. Cahen, « Considérations sur l'utilisation des ouvrages de droit musulman par l'historien », *Atti del III congresso di studi arabi e islamici, Ravello, 1966*, Naples, 1967, p. 239-247.

(69) Cl. Cahen, « Douanes et commerce dans les ports méditerranéens de l'Égypte médiévale », *JESHO*, 7, 1964, p. 218.

(70) Fr. Vidal Castro, « Economía y sociedad en al-Andalus y el Magreb a través del *Mi'yār* de al-Wanšarîsî. Breve introducción a su contenido », *Actas del II Coloquio hispano-marroquí de ciencias históricas. « Historia, ciencia y sociedad », Granada, 6-10 noviembre de 1989*, Madrid, 1992, p. 339-356 ; M. Arcas Campoy, « Valoración actual de la literatura jurídica de al-Andalus », *Actas II Coloquio Hispano-Marroquí de ciencias históricas, op. cit.*, 1992, p. 31-49.

أما وثائق الأرشيف فهي نادرة بالنسبة للفترة الوسيطة في العالم العربي باستثناء مصر[71]. ترتبط أسباب هذا الاختلاف مع وضعية أوروبا في نفس الفترة في قسم منها باستعمال مختلف للكتابة[72]، وخصوصا غياب استمرارية الدولة في المحافظة على الأرشيف[73]. لكن بعض الكتابات بقيت سواء احتفظ بها كما هي، خصوصا في الأرشيفات في الأوروبية، أم نسخت في الكتب الأدبية (كتب الأخبار، دليل الإنشاء...). لقد نشر وحلل إيفارست-ليفي بروفنسال (Évariste Lévi-Provençal) بعض الوثائق التي تعود إلى الفترة الموحدية وزاول عمله أحمد عزاوي. كما نشر وترجم مكسمليانو ألركون إ سنتون (Maximiliano Alarcon y Santon) ورامون جارسيا دو لينراس (Ramon García de Linares) وميشال أماري(Michelle Amari) الوثائق العربية المحفوظة بأرشيفات برشلونة وجنوة وبيزا.

II- المصادر باللغة اللاتينية[74]

1) النصوص

قليلة وشحيحة تلك النصوص المكتوبة باللغة اللاتينية المفيدة في تاريخ بجاية. إنّ كتب الأخبار -المرتبطة في الغالب بمدينة ما أو عاهل أو سلالة حيث تغني العظمة- لها مساهمة محدودة لتاريخ المغرب. تروي بالمناسبة امضاء اتفاقية سلم أو في الغالب عمليات قرصنة أو حرب. لكن بصفة عامة، لا تهتم بالمغرب

(71) Cl. Cahen, « L’histoire économique de l’Orient musulman médiéval », *Studia islamica*, 3, 1955, p. 93-115, rééd. *Les peuples musulmans dans l’histoire médiévale*, Damas, 1977, p. 214.

(72) P. Guichard, *Les Musulmans de Valence et la reconquête (XIe-XIIIe siècle)*, I, Damas, 1990, p. 40,

الوثيقة هي نوعًا ما "ثانوية" أو "مشحّمة" للحياة الادارية والاجتماعية قبل أن تكون أساس العلاقات بين الأشخاص والمؤسسات.

(73) *Ibid.*, p. 40-41.

(74) للتقديم المفصّل للمصادر الإيطالية، أنظر:

Valérian, *Les sources italiennes, op. cit.*

إلا قليلا. وأكثر إفادة، هي كتب التجار وهي نصوص تهدف لمساعدة الممارسة التجارية بتوفير معلومات حول الأسواق والمنتجات والعملات ووحدات المعايير، إلخ. أقدم كتاب محفوظ هو من عمل بيزي مؤرخ في 751/278 ثم تبعه آخرون، خصوصا كتاب الفلورنسي بجولوتي (Pegolotti) بين 1310 و 1340. تعطي هذه الكتب معلومات دقيقة جدا عن حالة التجارة. لكن للمؤلفين توجه إلى النسخ عن بعضهم البعض[75]، وهذا ما يطرح مشاكل كرونولوجية مشابهة لتلك التي نلاقيها عند الجغرافيين العرب. لقد تمّ شيئا فشيئا إثراء هذه الكتب بقواعد المحاسبة الموروثة عن كتاب أباسي (Liber Aba ci) لليوناردو فبوناتشي (Leonardo Fibonacci). حرّره بيزي في السنوات الأولى من القرن الثالث عشر بعدما قضى جزءا من شبابه في بجاية، إن كتاب الجداول الحسابية هذا يأخذ في الغالب أمثلة من مشاكل التجار المجسدة وتجربة المؤلف البجائية هي غالبا ملحوظة.

أخيرا، وعلى غرار النصوص الأدبية العربية، توجد نصوص رحلات وجغرافية، لكنها تتعلق غالبا بالمشرق[76]. يعطي نص أدورنو (Adorno) بعض الإشارات للوضعية السياسية في المقاطعات الحفصية الغربية في فترة السلطان عثمان، رغم أن هذا الرحالة لم يمر إلا بتونس. يكتفي الرحالة في الفترة الحديثة عند إشارتهم لبجاية بالتذكير بماضيها العظيم والإشارة لحالة الخراب الذي أصابها، متعلقين خصوصا بوصف الجزائر أو تونس. في تقاليد الجغرافيين العرب، وصف ليون الإفريقي هو بالمقابل له مساهمة كبيرة. ولد بغرناطة على الأقل في 899-901/ 1493-1494، قام هذا المؤلف (اسمه الحقيقي الحسن بن محمد بن الوزان الزياتي أو الفاسي) بعدة رحلات كبيرة أوصلته إلى المشرق وإفريقيا

(75) R. S. Lopez, « Un texte inédit : le plus ancien manuel italien de technique commerciale », *RH*, 243, 1970, p. 69.

(76) يمكن لوصف حالة التجار المسيحيين في البلدان الإسلامية بالمشرق أن تفيد في وضع نقطة مقارنة. إنها خصوصا الحالة في النص المفصّل جدا والحي لفليكس فابري (Félix Fabri) الذي مرّ بمصر.

السوداء واجتاز ببجاية في حوالي 1515. ألقى عليه القراصنة القبض في البحر، وأهدي إلى البابا ليون العاشر (Léon X) واعتنق المسيحية. كتب في 1526 لهذا البابا وصفا غنيا جدا لإفريقيا[77]. هناك أوصاف جغرافية حديثة تستلهم من نص ليون الإفريقي على غرار وصف مارمول (MAR mol) المنشور في 1573.

2) **وثائق الأرشيف**

إن وثائق الأرشيف متنوعة جدا ولكن توزعيها الزماني والمكاني غير متكافئ. مجملا، تزداد المادة التوثيقية مع تزايد نشاط دواوين الإنشاء والمبادلات التجارية. لكن عكس ذلك في بعض الحالات، حجم الأعمال هو في العادة لا يمر عن طريق الوسيط الموثق، وهذا ما ينقص من إمكانيات الحفاظ على أثر للمعاملات المالية. إنها الحالة في جنوة أو بيزا انطلاقا من القرن الرابع عشر[78]. من جهة أخرى، تتفاوت تقاليد الحفاظ على الوثائق المكتوبة في قدمها حسب المدن. وأخيرا، تسببت تقلبات الزمن (خصوصا الحرائق) في ضياع قسم كبير من هذه الأرشيفات مثل حال سافون (Savone) في 1362[79]، ومؤخرا في نابولي (Naples). إن اختلال التوازن التوثيقي يجبر على يقظة كبيرة في التأويلات التي يمكن استخراجها من وثائق ما.

(77) رغم المشاكل المطروحة في النشر والترجمات المتوفرة حاليا. أنظر أعمال الملتقى الدولي "ليون الإفريقي" الذي نظّمه فرانسوا بويون وأم البنين زهيري، باريس، 22-24 ماي 2003. أنظر خصوصا مداخلة راشنبانجر.

D. Rauchenberger, « Jean Léon l'Africain et son manuscrit de 1526 à travers sa description des cérémonies de mariage à Fez » (à paraître).

(78) D. Herlihy, *Pisa in the Early Renaissance. A study of Urban Growth*, New Haven, 1958, trad. italienne *Pisa nel Duecento*, Pise, 1973, p. 40 ; J. Heers, *Gênes au XVe siècle. Activité économique et problèmes sociaux*, Paris, 1961, p. 4.

(79) Gr. Ferrari Alfonso, « Rapporti commerciali tra Savonesi e Catalani nel secolo XIV », *Atti del I congresso storico Liguria-Catalogna*, Bordighera, 1974, p. 235.

الموثقون

إن الوثائق الأكثر إفادة لتاريخ التجارة مع المغرب هـي سـجلات المـوثقين. هؤلاء الأخيرين تدخلوا لتسجيل عقود الطلبيات والشركات البحرية (*societas maris*) ، وعقود الكراء البحـري (nolis) ، والتأمينـات والصـرف، والمبيعـات وأيضا الوصـايا. تـوفر أنـواع الوثـائق هـذه بـدرجات متفاوتـة معلومـات حـول مبادلات بجاية مع الموانئ الأوروبية. إن الوثائق الأكثر أهمية هـي أرشـيف دولـة جنوة (*Archivio di Stato* de Gênes)، خصوصـا بالنسـبة للقـرنين الثـاني عشر والثالث عشر. في مكان آخر، سجلات موثقي مرسيليا (القرن الثالث عشـر أساسا) وميورقة وبلنسية وبرشلونة (بالنسبة للقرن الخامس عشر) هي غنية جـدا. بالمقابل، لم يحتفظ إلا ببعض الوثـائق المعزولـة بالنسـبة لبيـزا والبندقيـة وبرشـلونة بالنسبة للقرن الثالث عشر. وأخيرا، لم يحتفظ بعقود الموثقين التي انجـزت في بجايـة باستثناء حالات نادرة.

وثائق ذات طبيعة ضريبية

كانت حركة الأشـخاص والممتلكـات فرصـة الدولـة لاقتطـاع الضـرائب. وردت المنتجات المغاربيـة في تسـعيرات دواويـن المـوانئ وحتـى أحيانـا في المـدن الداخلية. لكن بيت المال يجلب أيضا مداخيله مـن مكـوس مختلفـة جـدا مرتبطـة بالملاحة وبالمبادلات مع المغرب، وحفظ البعض من سجلات المداخيل هذه. تـوفر هذه السجلات معطيات يمكن أن تكون موضوع معالجة كميـة في بعـض المـرات، لهذا يجب التعرف بدقة حـول مـاذا يحمـل الاقتطـاع. تتماشـى أحيانـا السـجلات المحفوظة مع الضرائب الاستثنائية التي تفرض على قسـم فقـط مـن حركـة المينـاء (بعض الوجهات، تجار مدن معينة أو نوع مـن المـواد)، ويمكـن أن تعطـي صـورة مشوهة للمبادلات. أخيرا، يجب الأخـذ بعـين الاعتبـار وجـود الغـش حيـث أن حجمه غير معروف. إن السجلات الديوانية النـادرة المحفوظـة غـير مفيـدة تقريبـا بالنسبة لبجاية، والأكثر أهمية هي التراخـيص الممنوحـة لتصـدير بعـض المنتجـات

المحظورة نحو البلدان الإسلامية. أيضا، في الأراضي المسلمة سابقا في لاكورونة أراجونة (بلنسية، برشلونة، ميورقة) كانت الرسوم مسددة من طرف المسلمين واليهود المغاربة. وأخيرا، يظهر كراء فنادق الأوروبيين ببجاية أحيانا في سجلات الحسابات العمومية بمرسيليا على سبيل المثال. عكس ذلك، يمكن لبعض سجلات النفقات أن تظهر تكاليف السفارة التي تكمّل بهذه المناسبة المادة الإخبارية السياسية.

المادة الإخبارية السياسية

إن الوثائق ذات الطابع السياسي هي أيضا متعددة ومتنوعة. و الأكثر أهمية منها هي تلك التي تعود إلى ديوان كتابة لاكورونيا أراجونة بداية من القرن الثالث عشر. في مكان آخر، تمّ حفظ هذه المادة التوثيقية لفترات متأخرة كحالة بلنسية خصوصا مع سجلات المجلس الكبير ولاسيما محاضر مداولات مجلس الشيوخ، وفي جنوة مع وثائق أرشيف السكرتارية (*Arc hivio Segreto*). يجب إضافة المادة التوثيقية للمدن خصوصا مرسيليا وبرشلونة وبلنسية.

كانت المصادر المعيارية موضوع نشر مبكرا. إذ نظّمت مختلف قوانين (*Statuts*) مدن-الموانئ الأنشطة الاقتصادية، خصوصا التجارة البحرية. نظير هذه النصوص تمّ تحريرها لبيزا، ومرسيليا وبرشلونة وجنوة. وتشرح من جهة قواعد الملاحة والتجارة ومن جهة أخرى سير جماعات التجار في ما وراء البحر. وعلى غرار النصوص المعيارية، تطرح مشاكل مرتبطة بتاريخها (توجد في الغالب عدة فئات والنصوص الأقدم ترجع إلى العادات السابقة)، تطبيقها الفعلي، خصوصا بمدة طويلة بعد تحريرها.

إن المادة التوثيقية "المكتوبة" هي مفيدة خصوصا لدراسة العلاقات السياسية مع الدول المغاربية. لقد تمّ نشر معاهدات السلم المعروفة[80]، والتي غالبا ما كانت نتيجة لمفاوضات طويلة قبل ذلك وتطبيقها يفتح المجال لعدة احتجاجات. وتفيد

(80) أنظر في الملاحق الإحالات إلى معاهدات السلم الموقعة مع القوى الغربية.

هذه المراسلات الدبلوماسية خصوصا في معرفة صعوبات العلاقات بين القوى وتضييع بعض مظاهر النزاعات، ولا يجب أن يؤدي تحليلها إلى رسم خطوط عريضة لصورة قاتمة حول الوضعية. من جهة أخرى، ربما يمكن تأويل غياب المراسلة كمؤشر لقطيعة في العلاقات أو أيضا غياب توترات معينة. يجب أن تكمّل هذه المبادلات بين الملوك بعروض المداولات أو القرارات المتعلقة بالسياسة المغاربية للدول الأوروبية. تظهر هذه الوثائق معرفة دقيقة في الغالب بوضعية المغرب وتسمح خصوصا بفهم الأهداف السياسية والاقتصادية للقرارات المتخذة والمصالح المتراهن عليها. بداية من النصف الثاني من القرن الرابع عشر خصوصا، غالبا ما ارتبطت هذه المادة التوثيقية بتطور القرصنة (معلومات حول حضور التجار، الانتقامات، فدية الأسرى). لكنها يمكن أن تعني تنظيم جماعات التجار في بجاية وتعيين القناصل أو حل النزاعات الداخلية.

III- مصادر أخرى

كتاب البحرية لبيري رايس هو شهادة ثمينة جدا عن حالة بجاية في نهاية الفترة الحفصية. إن هذا التركي الذي سافر مع خاله القرصان العثماني كمال رايس اجتاز السواحل المغاربية في نهاية القرن الخامس عشر[81] ووضع في بداية القرن السادس عشر خريطة مرفقة بوصف السواحل. فهو إذن شاهد مباشر، خصوصا وأنه اهتم بمسائل الدفاعات وأقام مدة طويلة ببجاية.

(81) حسب بعض كتاب حياته، يكون قد ولد في حوالي 1465 في جالبولي (Gallipoli) وقام بأول حملة له على امتداد سواحل المغرب في 1487. أنظر:

Sv. Souque, « À propos du livre des instructions nautiques de Péri Reis », *Revue des Études islamiques*, 41/2, 1973, p. 241-255.

معتبرا هذه التواريخ شبه معقولة قليلا، يرى روبار منتران (Robert Mantrand) أنه ولد في نهاية القرن الخامس عشر وركب البحر مع خاله بين 1490 و1495.

R. Mantrand, « La description des côtes de l’Algérie dans le Kitab-ı Bahrayn de Péri Reis », *ROMM*, 15-16, 1973, p. 159-160.

إن المصادر باللغة العربية هي للأسف نادرا ما تكون مترجمة، رغم أنها مفيدة أحيانا. تظهر وثائق جنيزة القاهرة – التي استغلها بكثرة خصوصا شلمو د. جواتين (Shelomo D. Goutéen) - مكانة التجار اليهود في التجارة الإفريقية. وتعني خصوصا تونس والساحل الشرقي أكثر من بجاية ولا تتعدى القرن الحادي عشر إلا قليلا[82]. إنّ أجوبة (*responsa*) الحاخامات خصوصا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر تعالج غالبا مسائل مرتبطة بالتجارة وبوضعية اليهود في الموانئ المغاربية. إنها على غرار الفتاوى نصوصٌ معيارية، لكنها توحي بوضعيات مجسدة جدا.

نادرة هي الوثائق الأكونوغرافية. بخلاف تونس أو الجزائر، لم تلهم بجاية الرسامين والزياتين، وهذا ما يفسّر بانقباض المدينة بداية من القرن السادس عشر. بقيت لوحة مرسومة منجزة في 1551 من طرف فارميان (Vermeylen) التي تمثل استيلاء الإسبان على المدينة في 1510[83]. يوجد في أرشيف سمنكاس (Séranças) رسم لكرتزار (Cortázar) مؤرخ في 1603 لكن غير موثوق فيه تقريبا[84].

(82) Sh. D. Gotten, *A Mediterranean Society. The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Ginza*, I, *Economic Foundations*, Berkeley - Los-Angeles - Lenders, 1967, p. 28.

تغطي المادة التوثيقية الفترة الممتدة بين منتصف القرن العاشر إلى منتصف القرن الثالث عشر، لكن بداية من 1160، لا تعني خصوصا إلا القضايا المحلية الخالصة . Ibid., .p148

(83) BNF, Estampes, AA3 rées., f. 33.

متطابقة نسبيا مع الطبوغرافيا، لكن تظهر مدينة دون دور، وهذا ما يمكن أن يشير إلى أنها انجزت انطلاقا من المعاينات العسكرية الاسبانية.

(84) Archivo General de Simancas, *Mapas, planos y dibujos*, XVIII-52. Cf. P. Even, *Les Villes du Maghreb dans les plans européens de la Renaissance*, mémoire de maîtrise sous la direction de Fr. Micheau, Université Paris I (Centre de recherches d'histoire et civilisation byzantines et du Proche-Orient médiéval), 2002-2003, Annexes, p. 72-73.

وأخيرا، المعلومات الأثرية محدودة جدا. انشغلت أعمال الفترة الاستعمارية خصوصا بما قبل التـاريخ والتـاريخ القـديم[85]. ينجـدنا قلـيلا الأطلـس الأثـري لستيفان جزال (Stéphane Gsell) ، لأن تأريخاته هي في الغالـب هشـة وغـير دقيقة[86]. فضلا عن ذلك، بين الاحتلال الاسـباني والتركـي الطويـل للمدينـة في الفترة الحديثة والبناء السريع لمدينة أوروبية[87]، لم يبق الكثير مـن المدينـة الحماديـة والحفصية، لم تعط الحفريات النادرة حتى في موقـع بجايـة نتـائج ملحوظـة[88]. إن الدراسـة الوحيـدة هـي دراسـة جـورج مارسـي (Georges Marsais) حـول خزفيات بجاية، لكن غياب أي إشارة طبقية يجعل توظيفهـا صـعبا[89]. وأمـا فيمـا يخص المعطيات النمسمائية فهي نادرة. لم يتم العثور على أي قطعـة نقديـة حماديـة والقطع الموحدية أو الحفصية التي تحمل إشارة الضرب ببجاية تتوافـق مـع فـترات قصيرة جدا.

إنّ وفرة المصادر لا يمكن أن تخفي المشاكل الحقيقية التي يطرحها هذا المجموع الخبري. تبقى مظاهر عدة من تاريخ بجاية في الظـل. إنّ المصـادر العربيـة الـتي لهـا مساهمة كبيرة لها حدود تمت الإشارة لها في الغالـب، خصوصـا بالنسـبة للتـاريخ الاجتماعي. يضاف إلى هذا قلة المعلومات بالنسبة للقرن الخامس عشر، وهـذا مـا يجعل هذه الفترة على الخصوص مظلمة. أخيرا، بالاستثناء الملحوظ لعنوان الدراية للغبريني وكتاب الأخبار للمريني، ليس هناك أي نص بجائي أصيل وصلنا مباشرة.

(85) Nombreuses notices dans la revue *Recueil de la Société archéologique de Constantine*.

(86) لا يهتم إلا بالآثار الرومانية خصوصا والبيزنطية بصورة أقل، في حين ترك الباقي في غموض كرونولوجي كبير.

St. Gsell, *Atlas archéologique de l'Algérie*, Alger, 1911, rééd., Alger, 1997.

(87) إن الأشغال التي بوشرت بعد الفتح الفرنسي غيّرت حتى من طبوغرافية المدينة بملأ فضاءات كاملة، مثل المشرف الذي يحمل اليوم ساحة أول نوفمبر (ساحة جايدون (Gueydon) سابقا).

(88) تم تنفيذ استكشافات في القصبة الإسبانية في الموضع المفترض للمسجد الموحدي، لكن دون نتيجة.

(89) G. Marçais, *Les Poteries et faïences de Bougie (collection Debruge). Contribution à l'étude de la céramique musulmane*, Constantine, 1916.

أما فيما يخص وثائق الأرشيف الأوروبية، تتوقف مساهمتها على حالة حفظ الوثائق. إلى جانب وفرة ديوان إنشاء لاكورونيا أراجونة، والموثقين الجنويين في القرن الثالث عشر أو سجلات التراث الملكي الميورقي (*Real Patrimoniaux*)، يجب الأخذ في الحسبان تقاليد الحفظ المختلفة وخصوصا عمليات الاتلاف في الماضي. لا تغيب إذن المعطيات الدقيقة، لكنها لا توضح إلا قسما صغيرا من الحقيقة وهذا ما يجعل التحليل العام في الغالب صعبا.

لا تشكل هذه المصادر "جامعا" منسجما، لأنها ذات طبيعة متنافرة جدا، وهذا ما يتطلب في كل مرة مقاربة نقدية متوافقة لتحديد قيمتها التاريخية. كان من الواجب الألفة هنا بانتظام مع نوع جديد من الوثائق وهناك مع نمط أدبي معيّن. وفي النهاية، صعوبة مجابهة أساليب كتابة مختلفة دون توقف ووجب التأقلم مع لغات متنوعة جدا. لكن نترك الكلمة الأخيرة لسابق بعيد، ليون الإفريقي الذي اعتذر لقارئه في مقدمة كتابه "وصف إفريقيا": "كم عانى ذهني الضعيف والصغير في هذا العمل من الجهد، خصوصا بسبب اختلاف اللغات التي كتب بها المؤلفون. لا أريد أن أقول الآن حتى لا يبدو لي أني أبالغ في القول بأتعابي وسهراتي. لكن آمل أن قرائي اللطيفين عندما يفكرون فيها سيلاحظونها في بعض المواضيع. إذا ما ارتكبنا عددا كبيرا من الأخطاء (وهذا ما أعتقد أنه الحقيقة)، هذا لم يأت من العناية القليلة التي أوليناها لكن بالأحرى هو بسبب أن قيمة ذهننا لم تستطع أن تعادل حمية إرادتنا الحسنة[90]."

(90) Léon l'Africain, p. XV.

القسم الأول
قطب جهوي للمغرب: بناء سيطرة مثيرة للجدل

بانفتاحها على البحر وعلى بلادها الخلفية على حد سواء، تعرضت بجاية دائما لتأثير مزدوج: حسّاسة لأثر الظرفية المتوسطية وأيضا راسية بعمق في التاريخ المغاربي. أمام وفرة المادة الخبرية"التاريخية" التجارية، إنّ الإغواء كبير لتفضيل المظهر الأول، لكن بالتفكير في وضع أنفسنا أولا من وجهة نظر النشاط البحري هو إرغامنا على نظرة جزئية جدا وأوروبية المركز. يقود هذا بسرعة إلى تضخيم دور التوسع التجاري الأوروبي مقارنة بالعوامل الداخلية للتاريخ الجهوي. يجب إذن الانطلاق من السياق المغاربي، لأنه يسمح بفهم المكانة المركزية التي شغلتها المدينة في الجهة والتي جعلت منها لعدة قرون واحدا من أكبر الموانئ في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

بديهيا لم تكن بجاية منعزلة عن بلادها الخلفية. من جهة أخرى، عندما ستكون منعزلة عنها تحت السيطرة الإسبانية، ستفقد شيئا فشيئا كل حيويتها إلى غاية التخلي عن مكانها لقسنطينة والجزائر. بين تأسيس الناصرية الحمادية في 460/ 1067 وسيطرة الإسبان عليها في 915/ 1510، كانت بالعكس مندمجة بعمق في الفضاء المغاربي والإفريقي على الصعيد السياسي وعلى الصعيد الاقتصادي[1]. كانت إذن قوة جهوية في المغرب، قادرة لأن تلعب دورا رياديا في البحر المتوسط.

(1) إنّ اندماج بجاية ثقافيا ودينيا في فضاء إسلامي كان أيضا هاما، ولا يطرح أي مشكل إطلاقا. في المقابل، اختفت تقريبا الروابط السياسية مع بقية دار الإسلام بعد رفض الحماديين للفاطميين. لم تنقطع الاتصالات، لكن عمليا لا نجد مطلقا أي تضامن سياسي أو عسكري بين المشرق والمغرب.

تفسّر هذه المكانة التي شغلتها بجاية بين نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن السادس عشر بأهميتها السياسية وحيويتها الاقتصادية للفضاء الذي وضعته على اتصال بالبحر المتوسط، والذي شكلت منفذه البحري.

يجب علينا إذن أن نبدأ برسم تاريخ بجاية لنلفت النظر إلى دورها في المغرب بداية من نهاية القرن الحادي عشر. في الظاهر، هذا التاريخ معروف جيدا بفضل مختلف الإخباريين العرب[2]. لكن لا تخص الثغرات، سواء في البدايات تحت حكم الحماديين[3] أم بأقل درجة تحت حكم الموحدين، أم بالنسبة للقرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. خصوصا وأن الأحداث تتشابك، وهذا إذا ما توصلنا إلى إعادة تشكيله، لا يجعل بالضرورة تاريخ المدينة وجهتها مقروءا فورا. وأخيرا، أدرجت كتب الأخبار"التاريخ" في الغالب بجاية في فضاءات كانت مراكز ثقلها في جهات أخرى ولا تسمح دائما بفهم السياقات الخاصة بتطور المدينة.

يمر إذن فهم هذه التطورات بتحليل على مستويات مختلفة. سيسمح الإطار المغاربي برسم المراحل الكبرى لتاريخ المدينة التي تنافست عليها قوى جهوية، ثم فهم العلاقة المعقدة التي ربطت بجاية بتونس في إطار فضاء تقلّص إلى

(2) أنظر عمل ل.-ش. فيرو الذي مهّد الطريق.

L.-Ch. Féraud, « Histoire des villes de la province de Constantine. Bougie », Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine, 13, 1869, p. 85-407, rééd. Histoire de Bougie, avec une présentation de N. Abdelfettah Lalmi, Paris, 2001 ; M. Gaïd, Histoire de Bejaïa et de sa région depuis l'antiquité jusqu'à 1954, Alger, 1976.

مؤخرا، م. ص. بعيزق، بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية، أطروحة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، إ. م. شابوتو-الرمادي، 1995، ص 28-91.

(3) لكن معرفتنا بالسلالة الحمادية جددها بكثرة عمل علاوة عمارة:

Allaoua Amara, Pouvoir, économie et société dans le Maghreb hammadide (395/1004 - 547/1152), thèse de l'Université Paris I, sous la direction de Fr. Micheau, Paris, 2002.

إفريقية. جعل منها موضع المدينة المركزي في المغرب والمحيطي بإفريقية حساسة أكثر من غيرها للأزمات السياسية الإقليمية وارتباطاتها العسكرية. لقد كانت في الفترة الحفصية خصوصا عاصمة لمقاطعة حدودية حيث أن حاكمها كان في الغالب في نزاع مع العاصمة تونس. سيسمح وضع بجاية في هذا التسلسل الزمني من إنشاء تحقيب زمني، الذي سيرسم خصوصا فترات الأزمة.

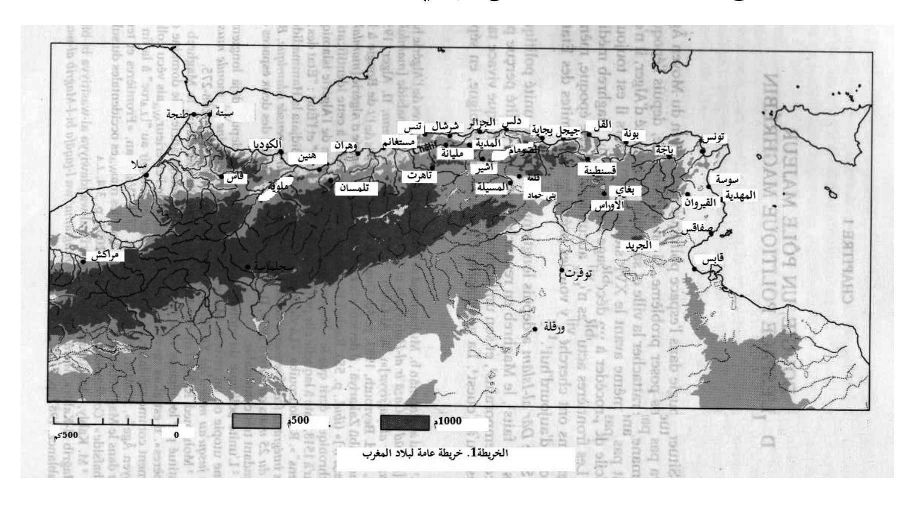
سواء كمقر لحكم مستقل أم حكومة مقاطعة، تحكمت بجاية في مجال واسع لم تراقبه دائما جيدا. تثبتت بجاية بسرعة كواحدة من مدن المغرب الكبرى وحاضرة جهوية من الدرجة الأولى، قابلة لبناء وتأطير فضاءات واسعة في المغربين الأوسط والشرقي. لكن موقعها الساحلي صعّب أحيانا من التحكم في الجهات الداخلية البعيدة. لهذا وجب عليها الأخذ في الحسبان القوى الهامشية التي رفضت سلطتها. خصوصا أن أصحاب بجاية واجههم العصيان المتكرر للقبائل، التي ساهمت في عدم استقرار حكمهم.

لكن فضلا عن هذه المظاهر السياسية، كانت بجاية خصوصا منفذا للبلاد الخلفية الواسعة التي لم تسيطر عليها بالضرورة سياسيا، ورأس شبكة مكثفة من الطرق الممتدة إلى غاية أطراف الصحراء وإفريقيا السواحلية. إن ازدهار هذا المجال الحيوي كان في قسم منه مرتبط بالميناء. يجب إذن التساؤل عن طبيعة المنتجات التي وصلت إلى بجاية من بلادها الخلفية وإلى الأسواق الهامة التي يمكن للتجار القادمين إلى الميناء الذهاب إليها.

الفصل الأول

بجاية قطب كبير في الفضاء السياسي المغاربي

يطرح تحديد موقع بجاية في الفضاء السياسي المغاربي في العصر الوسيط مشكلا. إذا ما كنا في العادة نربط المدينة وجهتها بسلطة الجزائر منذ الفترة العثمانية، فإنه لم يكن كذلك قبل القرن السادس عشر. من جهة أخرى، من الصعب إجراء تقسيم مجالي للمغرب الوسيط. إنّ الحدود الحالية ليس لها معنى في تلك الفترة حتى وإن رأى فيها البعض بواكير الحدود الحالية للدول-الأمة[4].



الخريطة1. خريطة عامة لبلاد المغرب

(4) يتحدث عبد الرحمان الجيلالي عن "حدود الجزائر الحفصية" و"مملكة الجزائر الحفصية". عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 2، الجزائر، 1954-1955، إعادة نشر، بيروت، 1983، ص 46. فيما يخص إمارة بجاية المستقلة في فترة أبي زكرياء، أصبحت عند هذا المؤلف "مملكة الجزائر" (نفسه، ص 55). دون هذا الاجراء اللاتاريخاني، كتب أن :المغرب الأوسط "هو اسم الجزائر الإسلامية حتى 1518، وهو التاريخ التي أخذت فيه اسم الجزائر و الدولة، دولة الجزائريين".

R. Bourouiba, « La vie économique et les arts à Bidjaia la Hammadide », Actes intégraux (conférences et débats) du 8e séminaire sur la pensée islamique, Bidjaia, du 25 mars au 5 avril 1974, II, s. l., s. d., p. 7. L'identité des deux espaces est cependant très contestable.

إذا ما فقدت دار الإسلام منذ فترة طويلة فعليا وحدتها السياسية[5]، فالمغرب بقي في المقابل واقعا ملحوظا من المعاصرين[6]، وتوحيده كان مشروعا سياسيا حيا سواء في الشرق أم في الغرب[7]. تشهد على ذلك جغرافية الإدريسي التي فصلت بوضوح المغرب ومصر عن صحراء ليبيا من جهة، ومن جهة أخرى مشيرا إلى درجة الحضارة الضعيفة وهمجية عادات العرب الهلاليين الذين يعيشون فيه[8]. وسجّل ابن خلدون أيضا الاختلاف بين المغرب النظري للجغرافيين الذي ينتهي عند البحر الأحمر بما في ذلك مصر، وبين المغرب الذي يعتقد سكانه والذي يتوقف عند مقاطعة طرابلس التي هي جزء منه: " وأما العرف الجاري لهذا العهد بين سكان هذه الأقاليم فلا يدخل فيه إقليم مصر ولا برقة... وهذا الذي كان في القديم ديار البربر ومواطنهم[9]".

(5) إنّ الوحدة السياسية للعالم الإسلامي لم تكن منذ أمد بعيد إلا خيالًا أو حلمًا.

A. Miquel, La Géographie humaine du monde musulman jusqu’au milieu du xie siècle, I, Paris-La Haye, 1967, p. 1, 268-275.

(6) لاحظ محمد القبلي أن المغرب عند ابن خلدون كان مشكلا من جهات "كوّنت في الأزمنة القديمة أرض البربر". إذن ليس بفضاء محدد من الخارج، لكن معاشا ومتضامن جماعيا.

M. Kably, « Espace et pouvoir au “Maroc” à la fin du “Moyen Âge” », ROMM, 48-49, 1988, p. 28. D. Valerian, « Frontières et territoire dans le Maghreb de la fin du Moyen Âge : les marches occidentales du sultanat hafside », Correspondances, 73, 2002-2003, p. 3-4.

(7) محمد القبلي، "ملاحظات حول التجارب الوحدوية الوسيطية في بلاد المغرب الكبير"، مراجعات حول المجتمع والثقافة في المغرب الوسيط، الدار البيضاء، 1987، ص 7–20.

(8) G. Martinez-Gros, « La division du monde selon Idrîsî », Le Partage du monde. Échanges et colonisation dans la Méditerranée médiévale, dir. M. Balard et A. Ducellier, Paris, 1998, p. 332-333.

(9) العبر، ج 4، ص 200–201، البربر، ج 1، ص 193–194. يميّز محمد القبلي ثلاث مستويات لإدراك المغاربة للحدود في العصر الوسيط: ديني (تعارض دار الإسلام/ دار الحرب)، جغرافي–حضاري (مغرب كبير الذي يضم الأندلس ويذهب حتى الحدود الجنوبية للصحراء) وقبلي. القبلي، "ملاحظات"، المرجع السابق، ص 10.

بقيت خصوصا التجربة السياسية للإمبراطورية الموحدية[10] مرجعية لكل ملك يطمح في السيطرة على مجمل جزيرة المغرب[11]. بالرغم من أن هذا البناء السياسي لم يعش إلا حياة قصيرة جدا بين استيلاء عبد المؤمن على تونس الذي أنهى هذا الفتح وبداية الانفصال الحفصي في 627/ 1229، لم يفت إلا 72 سنة تقريبا. لكن بقي النموذج حاضرا في ذهنية كبار الملوك الفاتحين لمغرب ما بعد الموحدين: أبي زكرياء الحفصي حيث اعترف بسلطته في المغربين الأوسط والغربي وأيضا من طرف بعض الدول الأندلسية الصغيرة، ثم بعد ذلك أبي الحسن المريني وابنه أبي عنان.

ارتكزت عمليا وحدة المغرب على إرث تاريخي هو الإرث الموحدي الذي طمح إلى وراثته الحفصيون والمرينيون، وأيضا جغرافية مشتركة. كتلة واسعة بين البحر المتوسط والصحراء ومبنية حسب خطوط شرقية-غربية أساسا، ليس متقطعا تقريبا إلا ببعض الأنهار الكبرى مثل ملوية والصومام اللذين لم يحددا جهات طبيعية ولا فضاءات سياسية مستقرة ومعترف بها[12]. إنّ التقسيمات السياسية لم

(10) تبدأ فترة "المغرب الإمبريالي" عند عبد الله العروي في القرن التاسع، مشيرا إلى أن المجال الممنوح لابن الأغلب امتد نظريا على كامل المغرب. A. Laroui, L’Histoire du Maghreb. Un essai de synthèse, Paris, 1970, rééd. Casablanca, 1995, p. 111. لكن لم يذهب الأغالبة أبدا إلى الغرب أكثر. في القرن العاشر، في حين مدّد الفاطميون سيطرتهم على فضاء أكثر اتساعا، معلنين المشروع الموحدي، لكن أبدا دون التحكم فعليا في كامل المغرب (المرجع نفسه، ص 127).

(11) كان هذا المغرب غير منفصل عن الجانب الآخر من الإسلام الغربي وهو الأندلس، حيث بحث أيضا الملوك عن اخضاعه.

(12) نهر ملوية هو طريقة سهلة لفصل المغرب الأقصى عن المغرب الأوسط، وكان هذا الحد تمّ اختياره خلال معاهدة منتجيدو (Monteagudo) في 1291 من الكتالانيين والقشتاليين. استعملت أيضا في الغالب من طرف ابن خلدون لفصل الفضاءين السياسيين (البربر، ج 1، ص 194). Ph. Gourdin, « Le “partage” du Maghreb entre l’Aragon et la Castille au traité de Monteagudo (1291) », Le Partage du monde. Échanges et colonisation dans la Méditerranée médiévale, dir. M. Balard et A. Ducellier, Paris, 1998, p. 399-409. في المقابل، لم يقدّم نهر الصومام الذي يفصل اليوم بلاد القبائل الصغرى عن بلاد القبائل الكبرى كفاصل وجيه عند المؤلفين الوسيطيين.

تكن إذن أكثر منها حالة فعلية، ونتيجة استحالة حكم مجمل واسع، وإنما واقع مقبول بوضوح من طرف المعاصرين.

توجد عند مؤلفي الفترة تقسيمات لهذا الفضاء الواسع، تتوافق مع الوقائع السياسية. ميّز الإدريسي المغرب الأقصى والمغرب الأوسط وإفريقية. يبدو أن هذا الفصل يتماشى مع تقسيم عام مستقر في الأذهان على الأقل من بين النخبة العالمة بداية من القرن الثاني عشر. إنّ الجهة التي تهمنا هنا هي إفريقية. عرف تحديدها الجغرافي تغيّرات[13]. إنّ أصل هذه الكلمة لا يدع مجالا للشك مطلقا: يتعلق الأمر بالمقاطعة الرومانية السابقة لإفريقيا البروقنصلية. لكن إذا تماشى قلب إفريقية مع هذه المقاطعة القديمة، لم يكن كذلك بالنسبة لتمددها الجغرافي الذي هو متسع أكثر. إن الحدود الشمالية (البحر المتوسط) والجنوبية (الصحراء) هي معروفة جيدا[14]. في شرق هذه الحدود دون أن تكون ثابتة بوضوح، تقع حسب رأي الجميع في غرب مصر، بمعنى منطقة طرابلس التي تسجّل الطرف الشرقي للمغرب. بالمقابل، في الغرب، من الصعب الإحاطة بتمدد إفريقية لأن النصوص غامضة أحيانا، حيث جعلها المؤلفون الأوائل تصل إلى غاية المحيط الأطلسي[15]. لكن بسرعة تضيق لتقتصر على القسم الشرقي. وإذ إن بجاية تحتل مكانا جد متبدل في هذا الفضاء، تارة جزءا من إفريقية وتارة من المغرب الأوسط. فالإدريسي في منتصف القرن الثاني عشر يحددها في الجزء الأول من الإقليم الثالث[16] ويقول أنها في

(13) « Ifrīkhiya », EI², III, p. 1073-1076 (M. Talbi) ; Amara, Pouvoir, op. cit., p. 122-126.

(14) لم تتعدد السيطرة السياسية لدول المغرب الشرقي السهوب. يقول المراكشي أن "حد بلاد إفريقية مما يلي المشرق مدينة أنطابلس المذكورة وحدها مما يلي المغرب المدينة المعروفة بقسطنطينة الهواء سميت بذلك لإفراط علوها وشدة منعتها" المعجب، النص ص 349، الترجمة ص 300.

Talbi, « Ifrīkhiya », art. cite, p. 1075.

(15) هي حالة المغرب خصوصا.

(16) يمتد هذا الجزء من الغرب حتى بونة التي تنتمي إليه. وضع الإدريسي هذه المدينة الأخيرة في الجزء الثاني التابع لتونس وليس لبجاية في الفترة الحفصية.

عصره "مدينة المغرب الأوسط وعين ممالك بني حماد"[17]. يصف ياقوت في فقرته حول بجاية أنها مدينة على جانب البحر بين إفريقية والمغرب"[18]. لكن نفس المؤلف عندما يعرّف الحدود الغربية لإفريقية، يقول في بادئ الأمر أنها توجد في بجاية، مضيفا بعد ذلك أن البعض يدفعها حتى مليانة وأيضا يذهب بها البكري حتى طنجة، بمعنى المحيط[19]. في القرن الرابع عشر، يصل العمري بإفريقية من برقة إلى دلس التي هي "آخر مدينة عندما نتجه نحو المغرب الأوسط"[20]. وأخيرا، ابن الخطيب الذي هو أندلسي عارف جيدا بالحالة السياسية المغاربية يحدد المجال الحمادي – حيث أن بجاية هي عاصمته بداية من نهاية القرن الحادي عشر– بـ "القسم الغربي من إفريقية"[21].

نرى إذن أنّ "إفريقية" تقبل بتعريف متبدل. إنّ الكلمة في الواقع صعبة الاستعمال: لا تتوافق في الواقع مع جهة طبيعية ولا واقع إنساني أو قبلي، وبقيت متغيّرة. يتعلق الأمر إذن أساسا ببناء سياسي وإداري، حيث ارتبط التمدد بالوضعية. لقد بيّن هشام جعيط تطور ولاية إفريقية، المتميزة عن مصر، بعد

---

(17) الإدريسي، النص ص 116، الترجمة ص 165-166. عندما يصف الإدريسي إفريقية (دون تحديد حدودها)، يبدو أنه يشير إلى الجهات الشرقية لأنه يذهب حتى طرابلس (الترجمة ص 131) أو المهدية (التي هي عاصمتها)، الترجمة ص 186.

(18) ياقوت الحموي، كتاب البلدان، تحقيق ف وسيتانفلد، لابزيغ، 1866-1867، ص 495. يقول نفس الشيء فيما يخص الجزائر، وهذا ما يبيّن عدم دقة هذه التحديدات. نفس، ج 2، ص 69.

(19) نفسه، ج 1، ص 324، الذي يذكر البكري ليصحح له.

(20) العمري، النص ص 227، الترجمة ص 99.

(21) لسان الدين بن الخطيب، كتاب إعمال الأعمال، تحقيق أ. مختار العبادي و م. إ. الكتاني، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، الدار البيضاء، 1964، القسم الثالث، ص 85. ترجمه إلى الإسبانية:
R. Castrillo, Historia medieval islámica del Norte de África y Sicilia, Madrid, 1983, p. 65.
لكنه يرجع دون شك إلى تقسيمات زمنه، بمعنى الفترة الحفصية.

السيطرة العربية وهذا انطلاقا من الظروف البيزنطية[22]. لقد بحث جيدا بول-لويس كامبيزا (Paul-Louis Cambuzat) على التمييز بين "مقاطعة" إفريقية و"ناحية" إفريقية لوضع إطار للتحديدات القديمة (رومانية وبيزنطية) والتقسيمات الإدارية: "في مجمل الفضاء الجيو-سياسي الذي يشكله التل الإفريقي، تتميز بوضوح ناحيتان تتوافقان أيضا مع الحدود الموروثة عن الماضي: إفريقية بالضبط، بمعنى البروقنصلية (أو الزوجيتان) والبيزاسان القديمتين المنفصلتين منذ ديوكليسيان (Dioclétien). هي بالتقريب تونس الحالية-الزاب[23] أو نوميديا القديمة"[24]. يمكن لهذا التقسيم أن يكون مواتيا، لكنه لا تاريخاني ولا يتطابق مع تمثيل الفضاء لدى المعاصرين[25].

في النهاية، رغم غموض النصوص، يجب الاحتفاظ بالمعنى السياسي والإداري الذي كان عليه هذا المصطلح في الأزمنة الأولى للإسلام المغاربي والذي احتفظ به بعد ذلك في عدة نصوص في هذا البعد، يمكن أن نؤكد أن بجاية انتمت

(22) H. Djaït, « La wilâya d'Ifrîqiya au iie/viiie siècle : étude institutionnelle », Studia islamica, 27, 1967, p. 77-121 ; 28, 1968, p. 79-108.

(23) بالنسبة لبول-لوي كامبيزا، يمتد الزاب حتى البحر.

P.-L. Cambuzat, L'Évolution des cités du Tell en Ifrîqiya du viie au xie siècle, Alger, 1986, I, p. 195-207.

(24) Ibid., I, p. 167.

نلاقي أيضا هذه العبارة "إفريقية المحضة" عند الهادي روجي إدريس " إفريقية المحضة هي مجموعة من السهول حيث كانت الاتصالات سهلة، نادرة الممرات الإجبارية عبر المرتفعات المغلقة، وبلد منتظم بقوة حول القيروان ويتعارض مع المغرب الأوسط المعقّد بالمرتفعات الجبلية أو المعزولة على الأقل فوضويا عن بعضهما. H.-R. Idris, La Berbérie orientale sous les Zirides, xe-xiie siècle, Paris, 1962, p. 409. وجد هنا تمييز جغرافي دقيق أو طبوغرافي الذي يتبع ببساطة الاعتبارات السياسية (تعارض بين "نظام حول القيروان" و"فوضى" في الغرب.)

(25) Talbi (« Ifrīkhiya », art. cité, p. 1075)

يميّز الطالبي بين إفريقية "الجغرافية" وإفريقية "الإدارية" التي تختلط بمجالات الدول التي حكمت انطلاقا من القيروان. أنظر أيضا: Djaït, art. cité, p. 88-89 الذي يميّز أيضا بينهما، لكنه يخصص إفريقية "الجغرافية" لـ "البروقنصلية القديمة والبيزاسان القديمة بالإضافة إلى نوميديا وبلاد طرابلس".

إلى إفريقية التي احتفظت بوحدة سياسية حقيقية على الأقل في الفترة الحفصية[26].
لكنها احتلت في هذا الفضاء موضعا هامشيا له أثر مزدوج. فعلى المستوى المغاربي، كانت موضع أطماع ورهان القوى الإقليمية سواء في الشرق أم في الغرب. سمحت هذه الميزة بفهم الخطوط الكبرى لتاريخها السياسي منذ تأسيسها على يد الحماديين حتى سيطرة الإسبان عليها. وفي مستوى إفريقية، ظهرت كعاصمة لمقاطعة حدودية. عقدت في هذا الصدد روابط مع العاصمة تونس تذبذبت بين التبعية والاستقلالية، حيث يسمح التحليل بالدخول في تفاصيل تاريخ المدينة.

I- قطب مغاربي تنافست عليه قوى إقليمية

أصبحت بجاية مدينة هامة في المغرب ورهانا للقوى الإقليمية منذ تأسيسها على يد الأمير الحمادي الناصر. إنّ موقعها الحدودي وتحكمها الذي مارسته في البلاد له خلفية واسعة جعلا منها واحدة من العناصر الأساسية لكل سيطرة سياسية بداية من نهاية القرن الثاني عشر.

عرف الموضع الذي اختاره الناصر استقرارا إنسانيا منذ أمد بعيد، حيث أن الآثار ترجع إلى ما قبل التاريخ. بنى أوكتاف (Octave) المستوطنة الرومانية سالدي *(Saladai)*[27] في موضع منشأة فينيقية[28]، حيث تشهد عدد من

---

(26) تحدث المؤرخون سابقا عن "بلاد البربر الشرقية"، وهي تسمية لا ترجع إلى مفردات المؤلفين العرب في هذه الفترة، لكن كان له الفضل في تحديد منطقة منسجمة نسبيا على الصعيدين السياسي والسلالاتي.
أنظر عنواني رسالتين أساسيتين حول هذه الفترة:

R. Brunschvicg, La Béribérie orientale sous les Hafsides, des origines au xve siècle, Paris, 1940 et 1947 ; Idris, La Berbérie, op. cit.

(27) Colonia Julia Augusta Saldensium Septimana Immunes.

Cl. L'épelle, Les Cités de l'Afrique romaine au Bas-Empire, Paris, 1981, II, p. 505.

(28) عثر بها على شواهد تحمل كتابات فينيقية. أيضا، وجدت بها نقود قرطاجية.

St. Gsell, Atlas archéologique de l'Algérie, Alger, 1911, rééd. Alger, 1997, feuille 7 (Bougie).

المخلفات الأثرية التي جمعت بعناية في الفترة الاستعمارية بتطور المدينة وبقائها إلى غاية الإمبراطورية المتأخرة[29]. لكن لم يكن لها أبدا نفس أهمية جارتها هيبون (Hippone) واقتصرت حركيتها البحرية في الغالب على الملاحة الساحلية ذات الهدف المحلي أو الجهوي[30]. في الأخير، يبدو أنها فقدت كل أهميتها في الفترة الوندالية والبيزنطية ولم ترد في القائمة الأسقفية التي وضعت في بداية القرن السابع[31].

يبقى تاريخ الموقع في القرون الإسلامية الأولى مجهولا نسبيا، لكن من البديهي أنه عندما أسس الناصر عاصمته الجديدة لم يبق شيء كبير من المستوطنة الرومانية. لكن بعض الإشارات تبيّن أن المكان لم يكن غير مأهول تماما[32]. أولا يشير الجغرافيون إلى وجود تجمع بشري قبل 460/ 1067، على غرار ابن حوقل الذي يزودنا بأول وصف كبير للمغرب في النصف الثاني من القرن العاشر[33]. يذكر بجاية كميناء شرق الجزائر، لكنه لا يعطي تفاصيل أكثر، بينما يخصص وصفا وافيا لبونة[34]. بعد ذلك بقرن من الزمان ، كان البكري أكثر دقة ويبيّن لنا الميناء

(29) أنظر خصوصا: شارل دييل الذي بيّن مدينة منعزلة في وسط سكان معادين وغير مطيعين. استمرت هذه العزلة في الفترة البيزنطية.

Ch. Diehl, L’Afrique byzantine. Histoire de la domination byzantine en Afrique (533-709), Paris, 1896, p. 108.

(30) Fr. Décret, M. Fantar, L’Afrique du Nord dans l’Antiquité. Des origines au ve siècle, Paris, 1981, p. 221.

(31) Chr. Courtois, Les Vandales et l’Afrique, Paris, 1955, p. 327.

(32) يتحدث ابن الأثير عن مكان "مأهول من فلاحين بربر". ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزائر، 1967، ج 10، ص 47. ترجمة فانيون:

trad. E. Fagnan, Annales du Maghreb et de l’Espagne, Alger, 1901, p. 476.

(33) قام برحلتين في الغرب الإسلامي بين 336/ 947 و341/ 953 ثم في 360/ 971. أنظر:

J.-Cl. Garcin, « Ibn Hawqal, l’Orient et l’Occident », ROMM, 35, 1983, p. 77-91.

(34) ابن حوقل، صورة الأرض، ترجمة كرامر:

trad. G. Wiet et J. H. Kramers, La Configuration de la terre, Paris, 1964, p. 72.

عشية تأسيس المدينة الحمادية: "وبالقرب منها (مرسى الدجاج) مدينة بجاية أولية آهلة عامرة بأهل الأندلس، وبشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة بالبضائع والسلع، وهو مرسى مأمون شتوي، قد خرج عن محاذاة جزيرة الأندلس. ومرسى بجاية هو ساحل قلعة أبي طويل وعلى هذا المرسى في تلك الجبال قبائل كتامة، وهم شيعة يكرمون من مال إلى مذاهبهم ويبررون من وافق اعتقادهم"(35). لم تكن بجاية إلا ميناء متقدما لقلعة بني حماد، عاصمة الحماديين(36). إشارات أخرى تبيّن لنا بعض النشاط، خصوصا في الفترة الفاطمية وحتى في الفترة الأغلبية. نجد بالمناسبة في كتب التراجم علماء ترددوا على بجاية في تاريخ متقدم(37)، لكنهم شكلوا استثناء. فالقاضي عياض يروي أن سليمان بن عمران كلّف بقضاء بجاية وباجة والأربس(38)، لكن لا شيء يشير إلى أنه يتعلق بمدينة ملحوظة. في نهاية القرن العاشر وفي النصف الأول من القرن الحادي عشر يبدو أن أهمية بجاية كبرت، وهذا ما يتوافق مع وصف البكري لها. سكن بها عدة علماء(39)، وإلى هذا الميناء لجأ أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبيد الله بن الوليد المعيطي المدني بعدما طرده أمير دانية مجاهد العامري في 405/ 1014(40). هناك إذن بين نهاية القرن العاشر ومنتصف القرن الحادي عشر بعض النشاط في بجاية، الذي يبدو أنه على علاقة بالاتصالات التي عقدت مع موانئ الأندلس، لكن أيضا دون شك مع تأسيس القلعة.

---

(35) البكري، ص 757.

(36) يسميها البكري قلعة أبي طويل، أنظر عمارة: Amara, Pouvoir, op. cit., p. 140

(37) أيضا هناك أحيانا خلط بين بجاية والمدينة الأندلسية بجّانة (Pechina)، وليس مستبعدا أن بعض النصوص خصوصا المكتوبة في فترة متأخرة (أو المتأخرة النسخ) تكون وراء هذا الخلط، معطية بذلك بجاية أهمية لم تكن لها أنذاك.

(38) Biographies aghlabides extraites des Madārik du Cadi ‘Iyāḍ, éd. M. Talbi, Tunis, 1968, p. 102.

(39) Amara, Pouvoir, op. cit., p. 139.

(40) Ibid.

لكن إلى هنا لم تقم المدينة بأي دور سياسي أو عسكري وبقيت مهمشة في الجهة، وتابعة لقلعة بني حماد[41]. أيضا، على الصعيد الاقتصادي، طمست بقوة من قبل الموانئ على غرار مدينة بونة "عنابة".

1) تأسيس العاصمة الحمادية الثانية

استقر الحكم الحمادي في بجاية في 460/ 1067 بقرار من الأمير الناصر، وهذا ما يظهر على أنه تأسيس جديد[42]. كان المغرب الشرقي في هذه الفترة منقسما بين سلالتين قريبتين في النسب، تقاسمتا المجال السابق للفاطميين بعد مغادرتهم نحو مصر: الزيريون (أو الباديسيون[43]) في الشرق وعاصمتهم القيروان والحماديون في الغرب[44]. في منتصف القرن الحادي عشر، هاجرت القبائل العربية، التي كانت تمارس الترحال في منطقة النيل، نحو المغرب حيث هزمت الزيريين الذين اضطروا إلى اللجوء إلى مدينة المهدية الأقل عرضة لغاراتهم من القيروان. لم تتأخر هذه القبائل في التوجه بعيدا نحو الغرب ووصلت إلى المجال الحمادي. وقتئذ هزم العرب الهلاليون الأمير الناصر في سبيبة في 457/ 1064 ولجأ إلى القلعة. ويندرج تأسيس بجاية في هذا السياق المضطرب الذي هو موضوع روايتين توردان أسبابا مختلفة بشكل محسوس.

---

(41) من الدلالة أن لا تظهر بجاية في المصادر التي تتحدث عن الحماديين في الفترة التي سبقت تأسيس القلعة. أنظر:

Amara, Pouvoir, op. cit., p. 58-136.

(42) حول الحماديين قبل تأسيس بجاية، أنظر:

Amara, Pouvoir, op. cit., p. 58-136, et R. Bourouiba, Les H'ammadites, Alger, 1984, p. 13-60.

(43) يجب تمييز الباديسيين الذي حكموا في القيروان عن مختلف فروع الأسرة الزيرية بما ذلك أيضا الزيريين في غرناطة. حول هذا التمييز، أنظر:

Amara, Pouvoir, op. cit., p. 90.

(44) لم يتأخر الحماديون – الذين كانوا في البداية مساعدين لبني عمومتهم الزيريين في المجالات الغربية- عن أخذ استقلالهم بداية من 405/ 1014.

Amara, Pouvoir, op. cit., p. 82, Bourouiba, Les H'ammadites, op. cit., p. 25.

تفسّر الرواية الأولى تأسيس بجاية بحاجة الناصر لوضع نفسه في مأمن عن القبائل الهلالية. إن كتاب الاستبصار هو واحد من أقدم النصوص التي تشير إلى هذا السبب[45]: عدم نجاحه في شراء ود هذه القبائل وعدم قدرته على مقاومتها[46]، أراد الناصر نقل عاصمته إلى مدينة "لا تجاور مباشرة العرب" وأسس وقتئذ بجاية. إن هذه الرواية أخذ بها ابن خلدون الذي يعطي تاريخ 460/ 1067 وكتب أن الناصر تحت ضغط العرب وهزيمته نقل "أمتعته إلى بجاية الواقعة على حافة البحر" لجعلها مقر سكناه. واستقر بها نهائيا ابنه ووريثه المنصور في 483/ 1090: "ونزل بجاية سنة ثلاث وثمانين... وتخطف الناس من حولها لسهولة طرقها على رواحلهم وصعوبة المسالك عليها في الطريق إلى بجاية لمكان الأوعار فاتخذ بجاية هذه معقلا وصيرها دار المملكة"[47]. لا يقول بصراحة أن المدينة بنيت للفرار من القلعة، لكن الاستقرار النهائي للعاصمة في بجاية استجاب لهذه الحاجة. في البقية، لم يكن هذا التحويل آنيا وشاملا[48]. من جهة أخرى، لقد أثبتت الحفريات الأثرية التي أجريت بالقلعة أن المدينة بقيت نشطة بعد بناء بجاية على الأقل إلى غاية وصول الموحدين[49]. لكن إذا شكّكنا في أن تأسيس بجاية كان بدافع الهلاليين، فإن نقل الحكم إلى بجاية قد سرّعه هذا التهديد.

(45) الاستبصار، النص ص 129، الترجمة ص 34-35.

(46) المنصور في النص، لكن هنا خطأ واضح، نقله الحميري وأضاف له في نهاية روايته أنه سمع برواية تتحدث عن الناصر. الحميري، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، بيروت، 1980، ص 81.

(47) العبر، ج 6، ص 173.

(48) في هذا المعنى، يبيّن التوازي بين القيروان والمهدية أن الحالة أقل خطورة في المجال الحمادي من إفريقية الزيرية. بينما فرّ الزيريون بطريقة متسرعة، أبقى الحماديون على التحكم لبعض الوقت حتى وإن كان جزئيا في مجال القلعة.

(49) R. Bourouiba, La Qal’a des Banî Hammâd, Alger, 1975, p. 66. Id., Les H'ammadites, op. cit., p. 62-63.

بالنسبة لتأسيس بجاية، بعيدا من أن يكون فرارا، سجّل بالعكس فترة أوج السلالة.=

الرواية الثانية حول تأسيس المدينة تعطي تفسيرا مرتبطا بالتنافس بين الزيريين والحماديين[50]. إذ حاولت كل واحدة من السلالتين منذ أمد بعيد إعادة تشكيل -لحسابها- وحدة إفريقية الفاطمية الضائعة. لكن مع بداية الإحساس بضرورة التضامن العائلي لمواجهة الخطر الهلالي الجديد، بحثا عن اسكات جدالاتهما والتوحد. تبعا لهزيمة سبيبة، أرسل الأمير الزيري تميم بن المعز سفارة إلى ابن عمه الناصر. مرّ السفير محمد بن البعبع بموضع بجاية قبل وصوله إلى القلعة والتي كانت "حينئذ منزلاً فيه رعية من البربر"[51]. بوصوله إلى الناصر، أخبره أن وزيره يخونه لفائدة الزيري، وهو بدوره خان سيده، ونصح الناصر بالتخلي عن طموحاته التوافقية وأخذ المبادرة للاستيلاء على المهدية باستغلال ضعف الزيريين. ها هي الكلمات كما وردت عند ابن الأثير: "لو وصلت بعسكرك ما بتّ إلا فيها لبغض الجند والرعية لتميم، وأنا أشير عليك بما تملك المهدية وغيرها"[52]. كانت هذه الوسيلة هي تأسيس مدينة جديدة في موضع بجاية. تابع العاهل الحمادي حينئذ هذا المستشار الجديد والذي أبلغه الموضع وأراه موضع الميناء والبلد والدار السلطانية"[53]. كان هذا كافيا لنيل قناعة الناصر الذي قرر بناء مدينة في أسرع وقت والتي أعطاها اسمه "الناصرية"[54].

=A. Amara, « La Qal‘a des Banī Hammād : l’histoire d’un déclin », Archéologie Islamique, 11, 2001, p. 91-110.

(50) إن المصدر الرئيسي هو ابن الأثير، المصدر السابق، النص، ج 10، ص 476، والذي يمكن أن نكمله بالنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 24، تحقيق ح. نصار و ع. ع. الأهواني، القاهرة، 1983، ص 225. توجد هذه الرواية خصوصا عند المؤلفين المشارقة الذي نقلوا حسب علاوة عمارة من نص ابن شداد الصنهاجي، المتحيّز للزيريين. Amara, Pouvoir, op. cit., p. 153.

(51) ابن الأثير، المصدر السابق، النص ص 47، الترجمة ص 476.

(52) المصدر نفسه.

(53) المصدر نفسه، ج 10، ص 47–48. النويري أكثر دقة حتى وإن أخذ بقسم كبير من رواية ابن الأثير: عندما وصل الرجلان إلى بجاية، "أشار عليه ابن البعبع بشكل المدينة ودار الصناعة والميناء" النويري، المصدر السابق، 24، ص 225=

تتعارض هاتان الروايتان إذن بشكل مطلق، وتركّزتا على عنصرين في سياق إقليمي تبعا لهزيمتين لحقتا بالسلالتين الصنهاجيتين في مواجهة القبائل الهلالية: الاضطرابات السياسية التي أحدثها وصول هذه القبائل وأيضا صعوبات التصدي لهذا الخطر الجديد بسبب الانقسامات السياسية الموجودة مسبقا. تظهر هاتان الروايتان أن بناء بجاية مرتبط بقوة بالسياق السياسي العام للمغربين الأوسط والشرقي في القرن الحادي عشر. ومن جهة أخرى، تبيّن عنصرين أساسين لتفسير تاريخ المدينة حتى نهاية فترتنا: مشاكل التحكم في المجال وخصوصا القبائل –هنا القبائل العربية الهلالية– والنزاعات بين القوى على المستوى المغاربي. يهمنا هنا هذا العنصر المفسّر الأخير.

لفهم الدور الذي أصبحت بجاية تؤديه من الآن فصاعدا، يجب من جهة التذكير بمكانة المغرب الأوسط في السياسة العامة خلال السنوات التي سبقت تأسيس بجاية، ومن جهة أخرى الإشارة إلى الجديد الذي قدمه تأسيس عاصمة واقعة على الساحل.

في وقت مغادرة الفاطميين إلى المشرق، عيّنوا وبسرعة عمالهم كما عيّن الزيريون بدورهم أقاربهم الحماديين عمالا في المغرب الأوسط لمواجهة التهديدات التي تثقل كاهل هذه الجهات، والتي هي من الناحية النظرية تحت السيطرة الفاطمية. وجب عليهم الدفاع عن أنفسهم خصوصا ضد القبائل الزناتية، حليفة الأمويين في قرطبة. من أجل هذا، أعادوا تنظيم المجالات الغربية وفوّضوا حكمهم. ففي 387/ 997، عهد باديس بعمالة أشير لحماد الذي لم يتأخر في تأكيد قوته.

= إن رواية ياقوت هي قريبة جدا من رواية النويري: "وأشار عليه ببناء بجاية، واستركبه وأراه المصلحة في ذلك والفائدة التي تحصل له من الصناعة بها وكيد العدو" ياقوت، المصدر السابق، 1، ص 495–496.

(54) لم يستعمل هذا الاسم في الواقع أبدا، وسقط بسرعة في طي النسيان لصالح الاسم القديم للمكان، الذي أتى من القبيلة التي سكنته. أنظر: بعيزق، بجاية، المرجع السابق، ص 57–58.

وفي 395/ 1004 التزم بعدم عزله من قيادته وتخلى له عن كل الممتلكات الغربية التي كانت للزيريين وكل ما ستسفر عنه الفتوحات التي يمكن أن تجرى. قبل تأسيس قلعة بني حماد في 398/ 1007، انتصبت السلالة الجديدة بصلابة في المغرب الأوسط. ظهرت الأهمية الاستراتيجية لهذه الجهة الوسيطة بين إفريقية المرتكزة حول القيروان والمهدية والمغرب الأقصى الذي كان دائما مصدر تهديد قوي.

إن الجديد مع تأسيس بجاية هو انتقال الحكم نحو البحر. تبيّن رواية التأسيس لابن الأثير وأيضا الأحداث التي تبعتها إلى غاية الفتح الموحدي وبعده أهمية هذا الموقع. يتعلق الأمر بالتوفر على عاصمة تسمح بالعمليات العسكرية ضد إفريقية الشرقية برا وبحرا على حد سواء[55]. إن هذه الفترة هي دون جدال فترة أكبر إشعاع سياسي بجائي. عاصمة حكم مستقل، أصبحت منذئذ قوة إقليمية رائدة انتشرت في اتجاهين[56]. نحو الغرب، كان موقف الحماديين دفاعيا بالأساس. وجب عليهم أولا مكافحة القبائل الزناتية، في الجنوب خصوصا، بجهة الزاب. ثم وجب عليهم مجابهة المرابطين الذين بحثوا على توسيع سيطرتهم نحو الشرق في 473/ 1080. دفع هؤلاء الأخيرين إلى غاية الجزائر قبل انحصارهم جزئيا[57].

---

(55) D. Valérian, « Contribution à l’étude de la guerre dans le Maghreb médiéval : Bougie et la mer de la fin du xie au début du xvie siècle », Mésogeios, 7, 2000, p. 126-128.

(56) حول تفاصيل التاريخ السياسي والعسكري للحماديين بعد تأسيس بجاية، أنظر:

Bourouiba, Les H’ammadites, op. cit., p. 63-87, et Amara, Pouvoir, op. cit., p. 137-184.

(57) Bourouiba, Les H’ammadites, op. cit., p. 67-68. Idris, La Berbérie, op. cit., p. 277-282.

في 473/ 1080 (أو 475/ 1082)، استولى المرابطون على تلمسان وتنس والونشريس وجهة الشلف والجزائر في الأخير. أنظر:

V. Lagardère, Les Almoravides, jusqu’au règne de Yūsuf b. Tašfīn (1039-1106), Paris, 1989, p. 99.

لكن بسرعة قام توافق على الوضع الراهن بين القوتين[58]، ونرى خصوصا الحماديين يرسلون نجدة لجيرانهم أثناء الفتح الموحدي[59]. كانت العلاقات مع الزيريين أكثر ضجيجا واستمر النزاع، رغم محاولات التحالف المتكررة. بحث الحماديون في عدة فرص الاستيلاء على إفريقية الشرقية بشنهم عدة حملات عسكرية برية وبحرية في آن واحد، مثل حالة حكم الأمير يحيى بن العزيز الذي شنّ حملتين ضد المهدية في 522/ 1128 ثم في 529/ 1134 أو في 530/ 1135[60].

تبيّن إذن الفترة الحمادية أهمية بجاية الاستراتيجية في الفضاء المغاربي، في زمن القوة والاستقلال السياسي. يشير الكفاح الذي أقيم أيضا ضد قبائل الداخل وأيضا ضد الخصوم الزيريين أو المرابطين إلى أهمية هذا الموقع للامساك بالبلاد الخلفية وشن العمليات العسكرية على المستوى الاقليمي. أكثر من القلعة، أعطت بجاية للحماديين قاعدة فعّالة لمساندة وبسط قوتهم الإقليمية، وذلك بالاستفادة من الانفتاح البحري. ظهرت أهمية المدينة المكتسبة كاملة في خضم حادث مرور ابن تومرت بها ولقائه مع عبد المؤمن بن علي في السنوات الأخيرة لحكم العزيز بالله[61]. روى هذه القصة واحد من الأصحاب المقربين للمهدي، وهو البيدق.

(58) استعاد الأمير الحمادي المنصور تلمسان منذ 496/ 1102 وفي 497/ 1103، تمّ ابرام سلم مع المرابطين.

Bourouiba, Les H’ammadites, op. cit., p. 69-70 ; Amara, Pouvoir, op. cit., p. 135.

(59) البربر، ج 2، ص 177.

(60) Bourouiba, Les H’ammadites, op. cit., p. 81-84.

(61) إنّ تاريخ إقامة ابن تومرت ببجاية ليس مؤكدا ويختلف حسب المؤلفين بين 505/ 1111 تاريخ وصوله إلى المهدية حسب ابن القطان المراكشي، نظم الجمان، تحقيق م.ع. مكي، بيروت، 1990، ص 76–77، و512/ 1118، تاريخ إقامته ببجاية حسب ابن خلدون، البربر، ج 2، ص 56. أنظر:

Amara, Pouvoir, op. cit., p. 176-177 ; A. Huici Miranda, Historia política del imperio almohade, Tétouan, 1956-57, Reed. ansât. Grenade, 2000, p. 40.

وصف هذا الأخير بجاية بأنها مدينة ثرية ومزدهرة والتي دعا فيها ابن تومرت إلى إصلاح العادات قبل طرده نحو قرية ملالة المجاورة حيث التقى بالخليفة المستقبلي عبد المؤمن[62]. لهذا النص أهمية مزدوجة. من جهة يبيّن لنا أن العاصمة الحمادية في أوج قوتها كانت مدينة لنشر دعوة مصلح مثل ابن تومرت. ومن جهة أخرى، يشير إلى الدور الذي لعبته بجاية في الملحمة الموحدية – من هنا أعلن المهدي عن المصير المستقبلي للخليفة عبد المؤمن– وإلى الأهمية التي أخذتها المدينة في هذه الفترة، وهي الأهمية التي تفسّر المكانة التي شغلتها بعد ذلك في فتح الموحدين للمغرب وأيضا في كل المشاريع الإمبريالية الكبرى اللاحقة.

2) مدينة أساسية في الجهاز الموحدي بالمغرب

أكد الفتح الموحدي ثم الدور الذي أدته بجاية في تنظيم الإمبراطورية أهمية المدينة في الفضاء السياسي المغاربي. إذا ما فقدت نهائيا أو تقريبا نظامها كعاصمة لدولة مستقلة، فإنها احتفظت في الواقع بدورها كنقطة ارتكاز للسيطرة على المنطقة.

لقد تمّ التحضير بدقة وبوقت طويل للحملة الموحدية ضد بجاية، وهي إشارة للرهان الاستراتيجي للمدينة وصعوبات الاستيلاء عليها وأهميتها السياسية على حد سواء. فهو الفتح الموحدي الأول بعد اخضاع الأندلس والمجالات المرابطية وسجلّت في هذا المعنى بداية توسع الحركة في مجمل المغرب[63].

(62) البيدق، النص ص 52–53، الترجمة ص 78–80. أنظر أيضا: A. Ben Hammadi, « La rencontre entre le “faqih du Sûs” et le “Flambeau des Almohades” : notes à propos de la relation d’al-Baydhaq », IBLA, 1991, p. 3-11، الذي يشير إلى خاصية المدح في الرواية، Hui ci Miranda, op. cit., p. 45-46.

(63) R. Le Tourneau, The Almohad Movement in North-Africa in the Twelfth & Thirteenth c., Princeton, 1969, p. 55.

استولى الموحدون على بجاية في 547/ 1152[64]. رسميا برغبة وضـرورة تقـديم النجـدة لمسـلمي إفريقيـة المحتلـة مـن نورمـان صـقلية[65]، وحضّـر الفـتح بعناية[66]. ومنذ حملاتهم في الأندلس، طوّر الموحدون أسطولا قويا قادرا على حمل قوات هامة بسرعة عن طريق البحر. استمر هذا المجهود بهدف فتح بقيـة المغـرب، بفضل دور صناعة الأساطيل التي بنى الموحدون بعضا منها. أسياد موانئ المغـرب الأقصى الكبرى، قاموا بتجميع قواتهم في سلا وأسطولهم في معمـورة وسـبتة[67]. انجزت هذه التحضيرات في سرية تامة للاستفادة مـن عامـل المفاجـأة: قطـع عبـد

(64) إنّ التاريخ الدقيق للاستيلاء على بجاية هو غـير مؤكـد. يعطـي ابـن خلـدون (البربـر، ج 2، ص 189) نهاية 546 هـ تاريخ انطلاق الحملة الموحدية، بمعنى ربيع 1152. يتحدث ابن أبي زرع، (كتـاب الأنـــيس المطـــرب بـــروض القرطـــاس، الربـــاط، 1972، ص 192–193، ترجمـــة أ. بـــوميي، A. Heaumier, Rawd al-K'irtās. Histoire des souverains du Maghreb et (annales de la ville de Fès, Paris, 1860, Reed. Rabat, 1999, p. 164. أيضـا عـن تاريخ الاستيلاء على بجاية في ذي القعدة 547 (جانفي- فيفري 1153). في المقابل، البيدق الـذي كـان شاهدا يعطي 546/ 1151 تاريخ الاستيلاء على المدينة (الترجمة، ص 191). تتحدث رسالة بعـث بهـا الخليفة ببجاية إلى سكان قسنطينة لدعوتهم للاستسلام بعـد الاسـتيلاء علـى بجايـة في 24 جمـادى الأول 547/ 27 أوت 1152 والتي كتبت قبل هذا التاريخ بقليل. تحليل ليفي بروفنسال:

É. Lévi-Provençal, « Un recueil de lettres officielles almohades », Hespéris, 28, 1941, lettre 7, p. 27.

(65) يفسّر التجاني هذا الفتح بثأر آخر أمير زيري، الحسن، الذي فر مـن النورمـان وأرسـله ابـن عمـه الحمادي إلى إقامة جبرية في الجزائر. ربما يكون قد دفع الخليفـة الموحـدي لفـتح مملكـة بجايـة. التجـاني، الرحلـة، تـونس، 1958، ط 2، تـونس، 1981، ترجمـة روسـو: A. Rousseau, « Voyage du cheikh Et-Tidjani dans la régence de Tunis pendant les années 706, 707 et 708 de l'hégire (1306-1309) », Journal Asiatique, 1852-1853, p. 390-391. لكن من البديهي أن تكفي طموحات الخليفة عبد المؤمن لتفسير فتح المغرب.

(66) Huici Miranda, op. cit., p. 158-163.

(67) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغـرب، القسـم الموحـدي، تحقيـق م. إ. الكتاني، م. زنيبر، م. ب. تاويت، ع. زمامة، بيروت، 1985، ص 45–46.

Chr. Picard, La mer et les musulmans d'Occident. viiie-xiiie siècle, Paris, 1997, p. 77.

المؤمن كل الاتصالات سواء البرية أم البحرية وأشاع خبر تحضيره لحملة إلى إسبانيا. لم يطّلع الحماديون بذلك إلا بعد وصول الأسطول إلى الجزائر[68].

لم يلعب الأسطول دورا مباشرا في فتح المدينة[69] التي استولى عليها فقط الجيش البري بعد مسيرة محتمة على ما يبدو دون صعوبات كبرى[70]. بعد الاستيلاء عليها، استخدمت المدينة قاعدة لوصول قوات جديدة من المغرب الأقصى عن طريق البحر. أقام فيها الخليفة مدة شهرين واستعمل بجاية لإخضاع بقية المجال الحمادي، وذلك لسهولة امدادها بالقوات والموارد. سقطت المدن الأخرى (القلعة، قسنطينة) دون صعوبات كبيرة[71]. من جهة أخرى، لم يلق عبد المؤمن صعوبة في هزيمة القبائل التي انتفضت ضد هذه السيطرة الجديدة في معركة

(68) ابن الأثير، المصدر السابق، الترجمة ص 572، البيدق، النص ص 113، الترجمة ص 186، ابن أبي زرع، المصدر السابق، الترجمة ص 163–164، ابن عذاري، المصدر السابق، النص ص 46.

(69) لوحده فقط التيجاني يتحدث عن دور للأسطول الموحدي الذي دفع آخر حمادي للهروب إلى بونة. التجاني، المصدر السابق، النص ص 344، الترجمة ص 391.

(70) تختلف الروايات بصورة حساسة حول الظروف الفعلية للاستيلاء على بجاية. من خلال رواية ابن الأثير، كانت طليعة الجيش الموحدي لوحدها كافية لتشتيت الجيش الحمادي الذي استسلم دون قتال (ابن الأثير، المصدر السابق، الترجمة ص 572–573). عكس ذلك، يتحدث ابن خلدون عن معركة (البربر، ج 2، ص 189). يشير كل من ابن أبي زرع وابن عذاري إلى خيانة القائد الحمادي ابن ميمون الذي يكون قد فتح أبواب المدينة للموحدين (ابن أبي زرع، المصدر السابق، النص ص 193، الترجمة ص 164، ابن عذاري، المصدر السابق، النص ص 17-،18، الترجمة الإسبانية، A. Huici Miranda, al-Bayan al-Mugrib, Nuevos fragmentos amoravides y almohades, Valence, 1963, p. 237). فيما يخص البيدق وعبد الواحد المراكشي، يذكران حصار المدينة (البيدق، الترجمة ص 187، المعجب، النص ص 206، الترجمة ص 177). لكن ذكّر الأول بخيانة ابن ميمون (الترجمة ص 158). لدينا اتجاه لاتباع هذين المؤلفين الأخيرين الأكثر قربا من الأحداث إلا إذا كان لديهما إرادة لتمجيد انجاز الفتوح لدى عبد المؤمن. على كل حال، خضع السكان بسهولة كما تشير رسالة بعثها الخليفة إلى قسنطينة: يدعو فيها ساكنيها لاتباع مثال بجاية والقائد أبي محمد ميمون بن علي بن حمدون الذي استسلم. تحليل:
Lévi-Provençal, « Un recueil de lettres officielles », art. cité, lettre 7, p. 27.

(71) البربر، ج 2، ص 189–190، Bourouiba, Les Hammadides, op. cit., p. 91-92

تعرف بسطيف[72]. لم تكن بجاية إذن للموحدين إلا مرحلة أولى في فتح المغرب الشرقي[73]، والتي أوصلتهم بعد فشل أولي في 552/ 1157 إلى السيطرة على تونس وكل ما بقي من المجال الزيري في 554/ 1159.

أصبحت بجاية منذئذ بنفس صفة تونس مقر عامل. احتفظ الموحدون إذن بتقسيم إفريقية بين المجالين السابقين الزيري والحمادي وأكّدوا أهمية بجاية السياسية والعسكرية. وضع الخليفة في واقع الأمر على رأس المدينة العناصر اللامعة من أسرته. إذ كان أول من شغل هذا المنصب هو دون شك الشيخ الموحدي أبو محمد بن أبي حفص، فإن الخليفة عهد بسرعة هذه الولاية إلى ابنه الرابع أبي محمد عبد الله، بمساعدة شيخ موحدي حسب خطة مطبقة في كل مقاطعات الإمبراطورية[74]. في هذا الوقت أيضا أسّس نظام سلالاتي محض والذي قاد إلى اقصاء سريع لعناصر أسرة المهدي[75]. يبدو أن الاستيلاء على بجاية وطّد سلطة عبد المؤمن الشخصية، وفتحت له طريق حكم سلالاتي مقاطعا الإرث التومرتي. بعد ذلك، عهد ببجاية دائما لأحد العناصر اللامعة لأسرة الخليفة[76]، وهي إشارة إلى الأهمية التي منحت لهذه المدينة في الجهاز الموحدي.

---

(72) ابن الأثير، المصدر السابق، الترجمة ص 574، البربر، ج 2، ص 190.

I. AC houri, Les Banu Hilal. Analyse structurale d’un nomadisme séculaire (du viie au xviie siècle), thèse de l’Université de Toulouse-Le-Mirail, 1998, sous la direction d’A. Ducellier et Chr. Picard, p. 134-136.

(73) بعد الفتح الموحدي لبجاية، دخل الخليفة إلى مراكش وترك مسرعا ابنه عبد الله وطلب منه متابعة الفتح حتى تونس، وأوصاه بـ : "وضع عرقلة لتونس ومنع دخول المؤونة إليها". المعجب، الترجمة، ص 195.

(74) Braunschweig, La Beriberi, op. cit., I, p. 5 ;

ابن عذاري، المصدر السابق، النص ص 50، البربر، ج 2، ص 191.

(75) ابن عذاري، المصدر السابق، النص ص 50-51.

(76) Brunschvig, La Berbérie, op. cit., I, p. 12, 18 ; Huici Miranda, op. cit., p. 613-630.

أعطى فتح مجمل المغرب للخليفة قواعد قوية لسياسته الأندلسية. ساهمت دار صناعة بجاية على غرار داري صناعة تونس وسبتة[77]. لكن أظهرت سياسة التوسع المجالية في الغرب (الأندلس) وفي الشرق (افريقية) محدوديتها بسرعة، وكانت بجاية هي التي عرفت ميلاد الكسر الأول الكبير الذي انتهى بتصدع ثم أدى إلى انهيار مجمل الصرح الإمبراطوري: مغامرة بني غانية[78].

سنوات بعد ذلك في شعبان 580/ نوفمبر 1184، اختيرت بجاية لاستخدامها قاعدة إفريقية لفتوحات علي بن إسحاق بن غانية المرابطي الميورقي[79]. لم يكن هذا الاختيار بالمصادفة: في مركز المجال المغاربي للموحدين، سمحت المدينة بإشعاع في بقية الجهة. من جهة أخرى، أمكن الميناء من تموين سريع عن طريق البحر انطلاقا من ميورقة. وأخيرا، ليس مستحيلا من توفر

بنو غانية على متواطئين أو على الأقل متعاطفين داخل المدينة. يؤكد المراكشي أن هذا كان تبعا لمراسلة بعض السكان ليطلبوا منهم الاستيلاء على المدينة وهذا ما أدى إلى مباشرة الفتح[80]. كان المرابطون والحماديون يشتركان فضلا عن حرمانهم من

(77) Chr. Picard, L’Océan atlantique musulman. De la conquête arabe à l’époque almohade. Navigation et mise en valeur des côtes d’al-Andalus et du Maghreb occidental (Portugal-Espagne-Maroc), Paris, 1997, p. 169.

(78) أنظر تقدير المراكشي: "كانت أول ضربة للإمبراطورية وكانت نتائجها الملموسة حاضرة في 621 هـ". المعجب، الترجمة ص 230. أنظر أيضا، ج. شيخة، "ثورة الميورقيين بإفريقية وأثرها في توازن القوى بين الإسلام والنصرانية في المغرب والأندلس"، الكراسات التونسية، 117-118، 1981، ص 91-122.

(79) إنّ مغامرة بني غانية التي سجّلت بكثرة تاريخ الجهة هي مروية خصوصا -بتنوع فيما يخص التسلسل الزمني للأحداث- من طرف عدة نصوص التي هي كلها تقريبا كتب أخبار كبيرة. أنظر:

A. Bel, Les Benou Ghânya, derniers représentants de l’Empire almoravide et leur lutte contre l’Empire almohade, Paris, 1903, à corriger en partie avec Huici Miranda, op. cit., p. 320 s. ; Brunschvig, La Berbérie, op. cit., I, p. 7-12.

(80) المعجب، الترجمة ص 234.

الحكم عن طريق الموحدين في كونهم سلالتين صنهاجيتين[81]. لكن يمكن أن نعتقد أيضا أن قسما من النخب العلمية، خصوصا العنصر الأندلسي (كان ممثلا جيدا في بجاية) قد لعب دورا في هذا المشروع أو على الأقل في نجاحه[82]. غادر المرابطون ميورقة بواسطة أسطول[83]، وسيطروا على المدينة دون صعوبة كبيرة[84]. هزمت القوات الموحدية وتحالفت قبائل الجهة بسهولة، وسمحت جولات كبيرة لبني غانية

(81) يروي ابن الأثير أن بقايا الحماديين التحقوا ببني غانية (ابن الأثير، المصدر السابق، الترجمة ص 603). يشير الذي راجع كتاب الاستبصار بوضوح إلى تضامن صنهاجة: "وكان فيها بقية من صنهاجة الموتورين، جعلوا يداخلون أمثالهم ممن وترت دنياه وأخراه كأهل ميورقة المنقطعين فيها من أبناء جنسهم" الاستبصار، النص ص 131ـ الترجمة ص 37. من جهة أخرى، بحث الأمراء الحماديون في وقت على مساعدة المرابطين ضد الموحدين، لكن وحداتهم القتالية انهزمت. البربر، 2، ص 177.

(82) من بين العلماء الأندلسيين الذين يتحدث عنهم الغبريني، بعضهم ترك المدينة دون تفسير أو توفي وقت الفتح الموحدي. فعبد الحق الإشبيلي الذي كان قاضيا لبجاية تحت حكم بني غانية توفي في 581 حقيقة في سن متقدم ويقول المراكشي أن الخليفة كان غير راض كثيرا عن موقفه وأراد قتله. الغبريني، ص 73، المعجب، الترجمة ص 235. أيضا، استدعاء الصوفي الكبير أبي مدين إلى مراكش تزامن أيضا مع هذا الحدث. اعتبرت حليمة فرحات أن النخب لم تساند كلها بني غانية H. Ferhat, « Un maître de la mystique maghrébine au xiie siècle : Abu Madyan de Tlemcen », Le Maghreb aux xiie et xiiie siècles : les siècles de la foi, Casablanca, 1993, p. 64. بصفة عامة، من غير المستحيل أن يكون هؤلاء العلماء بغض النظر عن أصلهم خافوا تهميش الموحدين لهم. أنظر: Laroui, L’Histoire du Maghreb, op. cit., p. 176. إن مساندة النخب البجائية للمشروع المرابطي يؤكده ابن خلدون الذي يروي أن عائلة ابن حمدون التي احتلت مكانة من الدرجة الأولى خلال حكم آخر الحماديين والتي يبدو أنها ساعدت على سيطرة الموحدين على المدينة أبعدها الموحدون إلى سلا بسبب مساعدتها المقدمة للمرابطين. البربر، ج 2، ص 210.

(83) حسب ابن الأثير، وصل المرابطون على متن خمس وعشرين سفينة تحمل 200 فارس و4000 من المشاة. ابن الأثير، المصدر السابق، الترجمة ص 604. تحدث ابن خلدون من جهته عن 32 سفينة. البربر، ج 2، ص 89.

(84) تختلف الأسباب العسكرية لهذه السهولة حسب المؤلفين : بالنسبة لابن خلدون (البربر، ج 2، ص 89)، لم تكن المدينة دفاعية بسبب غياب القوات والعامل الموحدي. حسب ابن أبي زرع، يفسّر غياب المقاومة أنه كان يوم جمعة وكان السكان في الجامع على غير علم بالخطر" (ابن أبي زرع، المصدر السابق، النص ص 269، الترجمة ص 222–223). يروي الغبريني أن المرابطين استفادوا من عدم=

من اخضاع الجزائر ومليانة ثم قلعة بني حماد قبل أن يصطدموا بمقاومة قسنطينة. لكن بسرعة أرسل الخليفة الجديد يعقوب المنصور – ما إن عاد من إسبانيا – حملة مدعمة بأسطول. أدى وصول قطع الأسطول الأولى إلى فرار المرابطين في الحين[85]. كانت طريقة استعمال الأسطول كما ظهرت في رسالة الخليفة التي تروي الأحداث مميزة[86]: استولى الأسطول أولا على الجزائر ثم توجه نحو بجاية. نزلت القوات عندئذ في مكان غير محدد وقاتلت المرابطين ثم دخلت إلى المدينة حيث خضع السكان حينها للموحدين. في حين تمّ إلقاء القبض فقط على الأسطول المعادي في الميناء بكامل سلاحه وعدته. أرسل المنتصرون بعد ذلك برقية إلى الجيش البري لإبلاغه بالوضعية الجديدة. ولم يدم الاحتلال المرابطي إلا بضعة أشهر. بعد ذلك ورغم احتلال المدينة ثانية لفترة موجزة، اكتفى بنو غانية الذين قطعوا عن قواعدهم الميورقية[87] بإرهاق القوات الموحدية في الشرق. ووجب مضي سنوات طويلة للتمكن من هذا التهديد، وكان أبو زكرياء أول أمير حفصي وضع حدا لمغامرة بني غانية في 631/ 1233[88].

=كفاية السور (الغبريني، ص 77). من المحتمل جدا استفادة هذا الهجوم من لحظة ضعف الإمبراطورية الناتج عن وفاة الخليفة يوسف الأول أبو يعقوب في 580/ 1184. كل عمال المدن الشرقية الذين هم أقرباء الخليفة ذهبوا إذن إلى مراكش للمشاركة في مراسيم التوريث، وهذا ما ساهم في تجريد الحاميات وإذن إضعاف دفاع الجهة. البربر، ج 2، ص 89.

(85) البربر، ج 2، ص 90، 209، Huici Miranda, op. cit., p. 325

(86) Lévi-Provençal, « Un recueil de lettres officielles almohades », art. cité, lettre 29, p. 57-59, du calife Ya‘qūb à Séville, envoyée de Marrakech, le 5 rabī‘ II 581 (6/7/1185).
حول هذا الحدث، ابن عذاري، المصدر السابق، النص ص 178–179. استخدم الأسطول لإنزال القوات أكثر من مواجهات بحرية فعلية. أنظر:
Valérian, « Contribution à l’étude de la guerre », art. cité, p. 131-132.

(87) فتح الموحدون الجزيرة في 600/ 1203. ابن عذاري، النص، القسم الموحدي، ص 239–243، Bel, op. cit., p. 117 s.

(88) Brunschvig, La Berbérie, op. cit., I, p. 22.

إن هذا الحادث الذي أخلّ ببجاية وجهتها بقوة في نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر يوحي بمكانتها في الفضاء السياسي والعسكري المغاربي. ويبيّن الأهمية الاستراتيجية لهذا الميناء وضرورة ضبطه بحزم لمن يريد التحكم في المنطقة. ويؤكد أيضا الأثر المثير لعدم استقرار القبائل التي ساهمت بقوة في نجاحات بني غانية. لكنه أوضح صعوبات حكم مجمل المغرب من مراكش. ولهذا السبب عيّن الموحدون عاملا بتونس له صلاحيات واسعة، لكن سلطته لم تمتد إلى غاية بجاية.

3) عاصمة جهوية حفصية يتنازع عليها العبد الواديون والمرينيون

أدى انهيار الإمبراطورية الموحدية في بداية القرن الثالث عشر إلى تقسيمها إلى ثلاث دول منها اثنتان على الأقل طالبتا بالإرث الموحدي الإيديولوجي والمجالي على حد سواء: المرينيون في الغرب والحفصيون في الشرق. بينهما حاول العبد الواديون – بنجاح نوعا ما- بسط سيطرتهم على قسم من المغرب الأوسط. بالرغم من كل ذلك، بقيت فكرة توحيد المغرب حاضرة كما بقيت المرجعية إلى العظمة الموحدية محركا لطموحات كبار الملوك المغاربة في نهاية العصر الوسيط[89]. حيث نتج عنها عدة نزاعات اقليمية غالبا ما اشتركت فيها بجاية.

أ) عاصمة الثغور الغربية للسلطنة الحفصية

كان الحفصيون أول من طرحوا أنفسهم ورثة للإمبراطورية، معززين سلطتهم المعنوية التي منحها لهم جدهم أبو حفص الذي كان مقرّبا من المهدي. لقد قبل هذا الشيخ الهنتاتي في ظروف غامضة تأسيس السلالة المؤمنية[90]. لكن

(89) M. Kably, « Potere universale e poteri provinciali nel Maghreb », Federico II e il mondo mediterraneo, dir. P. Toubert et A. Paravicini Bagliani, Palerme, 1994, p. 270-285.

(90) يلح أغلب الإخباريين وأولهم البيذق على اختيار المهدي بن تومرت لعبد المؤمن لخلافته في حين كان بإمكان أبي حفص الطموح إلى هذا الدور. لكن فارق الثلاث سنوات الذي يفصل موت المهدي والإعلان عن وفاته وإعلان عبد المؤمن يدعو بالعكس إلى الاعتقاد بالنزاعات الداخلية الصعبة بين=

عندما أنكر الخليفة المأمون المذهب التومرتي في 625/ 1227، أعلن العامل أبو زكرياء يحيى، حفيد أبي حفص وفاءه لأفكار المهدي ورفض الحكم المؤمني، وأعلن الخطبة باسم المهدي والخلفاء الراشدين[91]. وباشر منذئذ إعادة تشكيل الإمبراطورية لصالحه. في خلال بعض السنوات فقط، كسب المجال الحمادي السابق: سيطر على قسنطينة ودون شك على بجاية في 626/ 1228[92]، ثم الجزائر في 634/ 1236[93]. وفرض سيادته على بقية المغرب[94] وقسم من الأندلس[95]، ووصل إلى حد الاعتراف به في مصر والحجاز لبعض الوقت. وفي 633/ 1235، نصّب الأمير ابنه أبا يحيى زكرياء عاملا على بجاية، حيث أعلنه ولي عهده في 638/ 1240[96]. دامت فترة الهيمنة هذه إلى وفاة المستنصر في

=المقربين من ابن تومرت. بعد ذلك، تأخر أبو حفص في الاعتراف بالوريث المؤمني وكان على امتداد الفترة رمزا للشخصية الثانية في الدولة. اختار الخليفة عنصرا من هذه الأسرة لتمثيله في حكومة تونس في وقت الأزمة المرابطية، وهذا رغم محاولات تعويضه بعد وفاته بأمير مؤمني. وبسرعة نصّب أحد أحفاد أبي حفص في تونس، خالقا ظروف تكوين سلالة حقيقية. Brunschvicg, La Bériberie, op. cit., I, p. 13-20.

(91) البربر، ج 2، ص 299.

(92) نفسه، ج 2، ص 300، الفارسية، ص 108.

(93) البربر، ج 2، ص 300-302. الزركشي (الترجمة، ص 37) يعطي تاريخ فتح بجاية والجزائر، ب 636/ 1238، لكن معاهدة جوان 1236 مع جنوة تمّ تحديد مجال أبي زكرياء بامتداده من "طرابلس بلاد البربر إلى غاية حدود مملكة بجاية [fines régnai Busée]"، وتوقع اتساعه في المعاهدة المقبلة. معاهدة جنوة – تونس، 1236، المادة 1.

(94) في 639/ 1241، سار إلى تلمسان لأنه "تاق إلى السيطرة على المغرب الأقصى وإلى العرش الموحدي" يقول لنا ابن خلدون، البربر، ج 2، ص 315-316. بعد ذلك، اعترف به بقية الملوك الغربيين. نفسه، ص 316.

(95) استعاد أيضا الحفصيون مع أبي زكرياء لحسابهم الدور الذي كان إلى هنا يمسك به الموحدون، وهو الدفاع عن الإسلام الأندلسي، بإرساله لأسطول محمّل بالمؤونة، والأسلحة والمال لمساعدة المقاتلين المسلمين. لكن يبقى هذا دون غد ولم يرافق بمحاولة استيلاء مجالي (البربر، ج 2، ص 311). حول الدور البطولي للحرب المقدسة، أنظر أيضا:
H. Ferhat, « Le rôle de la minorité andalouse dans l'intervention hafside à Sabta », Le Maghreb aux xiie et xiiie siècles, op. cit., p. 143-158.

(96) الفارسية، ص 109. بوفاة هذا الابن في 646/ 1248، عوّضه بالمستنصر اللاحق (نفسه، ص 110)، الذي خلف أباه على عرش تونس في 647/ 1249.

675/ 1276[97]. كان وقتئذ العبد الواديون والمرينيون أقوياء لإنكار هذه السلطة، ولم يتأخروا في إظهار طموحاتهم المجالية في الشرق. إن الفترة الممتدة من سنوات 1280 إلى سنوات 1350 تتميّز إذن بمحاولات متواصلة من القوى الغربية للاستيلاء على بجاية، بمشاريع أحيانا على السلّم المغاربي في مجمله. وعلى امتداد طول هذه السنوات، أكّدت بجاية مكانتها كقطب سياسي وعسكري من الدرجة الأولى وكمدينة مفصلية في المغرب.

يفسّر تاريخ العلاقات بين بجاية وقوى المغرب الغربية، الذي غالبا ما هو حراكي ومعقّد، في جوهره بالمكانة التي احتلتها المدينة كحارسة للثغور الغربية للسلطنة الحفصية.

من الصعب الحديث دوما عن "الحدود" بالنسبة للعصر الوسيط، لأن هذه الكلمة تطرح مشكلا[98]. نظريا، لا يمكن وجود حدود الدولة داخل دار الإسلام وهناك "مبدئيا عدم شرعية عميقة لكل فصل مجالي قد يكون قاعدة لانفصال محتمل ومخيف للأمة"[99]. لكن الواقع السياسي كان طبعا شيئا آخر. تبقى المسألة في معرفة كيف تحدد فضاء ممارسة الحكم. إن الفهم المجالي المحض الذي تحدده حدود ثابتة

---

(97) أظهرت وفاة أبي زكرياء في 647/ 1249 ضعف هذه السيطرة "فانتفض كثير من أهل القاصية". العبر، ج 4، ص 624، البربر، ج 2، ص 333. عانى مقام الحفصيين خصوصا من استيلاء فرديناد القشتالي (Ferdinand de Castille) على اشبيلية في 1248، حيث لم يستطع السلطان منع ذلك. أنظر: Ferhat, « Le rôle de la minorité andalouse », art. cité, p. 157.

(98) حول هذه المسألة، أنظر: Valerian, « Frontières », art. cité, p. 3-8.

(99) A. Bizana, P. Guichard, Ph. Sénac, « La frontière dans l’Espagne médiévale », Frontière et peuplement dans le monde méditerranéen au= =Moyen Âge. Actes du colloque d’Erice-Trapani, 18-25 septembre 1988, dir. Jean-Michel Poisson, Rome et Madrid, 1992 (Castrum, 4), p. 39.

من الدلالة هو تشكيل شبه الجزيرة الإيبيرية حدودًا أرضية خصبة للدراسة. أنظر:

Identidad y representación de la frontera en la España medieval (siglos xi-xiv), dir. C. de Ayala Martínez, P. Buresi, Ph. Josserand, Madrid, 2002.

ومعترف بها هو بداية مرفوض. في العصر الوسيط بالغرب المسيحي كما في العالم الإسلامي، لم يتبلور[100] بعد مبدأ السيادة المجالية المحددة بحدود "المحيط الخارجي لأمة مدركة لنفسها بشكل كامل"[101].

استطعنا أيضا القول – حقا- أن سلطة دولة ما في المغرب تمارس على القبائل وبناء عليه فإن حدود هذه الدولة تدرج الحدود المتغيرة لأراضي سير هذه القبائل. لكن هذه نظرة مصغّرة لأن السلطة السياسية لا تتلخص في تبعية القبائل. خصوصا وأنها تستند ببساطة إلى فهم عنصري أو بيولوجي موروث عن الكتابة التاريخية الاستعمارية، التي تريد القول أن المغاربة غير قابلين – على عكس الأوروبيين- إدراك فضائهم بكيفية "عصرية" يقصد من ذلك فضاءً محددًا بحدود معروفة[102]. إذا لا يمكن نفي ممارسة الحكم في قسم منه على جماعات قبلية أحيانا متنقلة، نلاحظ أيضا وجود مفردات للدلالة على حدود الدولة بمعنى عسكري وسياسي أساسا.

---

(100) هذه المبادئ مرتبطة كثيرا ببناء الدولة الحديثة والأمة، واقعان لم يظهرا إلا تدريجيا وفي فترة متأخرة. أنظر خصوصا الأعمال التي جمعها ع. هنية: A. Henia, Villes et territoires au Maghreb. Itinéraire d'une recherche. Cahiers de l'IRMC, 1, Tunis, 2000.

(101) L. Febvre, « Frontières : le mot et la notion », Bulletin du Centre International de Synthèse, 45, 1928, repris dans Pour une histoire à part entière, Paris, 1962, p. 17-18.

(102) كعادته إ. – ف. جوتييه (É.-F. Gautier) هو المثل الأوضح أو الأكثر كاريكاتورية لهذه الإيديولوجية: "ما هو مميز هو ربما الكيفية التي يدرك بها المخ الشرقي للتاريخ، وهي أن إدراكه للبشرية هو بيولوجي وليس جغرافي أبدا. بالنسبة للمشرقي، إن الخلية الإنسانية هي القبيلة، البطن، بعبارة أخرى الفضاء البيولوجي، الذي هو خال من كل جوهر البلد أو المقاطعة: بمعنى هو راحل في جوهره، ومن جهة أخرى، إن تطوره لم يتعد الصعيد القبلي". وبعد ذلك: "بالنسبة لنا عكس ذلك، إن الخلية التاريخية للإنسانية هي البلاد، الوطن المجالي، الأمة غير المفصولة عن حدودها، وبهذا فنحن ورثة المدينة القديمة".

É.-F. Gautier, « Le cadre géographique de l'histoire en Algérie », Histoire et historiens de l'Algérie, Alger, 1930, p. 19-20.

دون نقاش، وجد تمثيل ذهني للفضاء السياسي وللمجال[103] والذي يشهد عليه الجغرافيون العرب. إن مبدأ الحدود لم يكن غائبا في نصوص الفترة، خصوصا عند ابن خلدون الذي حدّد بوضوح لبجاية دور المدينة-الثغر في الفضاء الحفصي. عند هذا المؤرخ، الذي هو أيضا رجل حكم، للحدود معنىً سياسيا يحد مجال دولة. عندما تحدث عن أبي زكرياء الذي أصبح مستقلا ببجاية في 684/ 1285، كتب أنه حكم وقتئذ "بجاية والثغر الغربي من إفريقية"[104]. بعد ذلك، قال في موضوع ابنه وخليفته أبي البقاء خالد: "صاحب الثغر الغربي من إفريقية" منذ آخر أيام السلطان أبي عصيدة[105]. كانت هذه الثغور الغربية متطابقة بوضوح مع المجال السابق للحماديين: عندما عهد السلطان أبو زكرياء لابنه وولي عهده أبي زكرياء يحيى بعمالة بجاية، وسّع في سيطرة هذا الأخير على مجمل المجالات السابقة للحماديين مع مدن مثل الجزائر وقسنطينة وبونة ومجال الزاب: "عقد لابنه على ثغر بجاية قاعدة ملك بني حماد، وجعل إليه النظر في سائر أعمالها"[106]. إن الكلمة التي استعملها غالبا ابن خلدون هي ثغر، نادرا ما أوردها في صيغة الجمع "ثغور"[107]. حدث استثنائيا أن اختار الكلمة الأكثر حيادية "ناحية" للدلالة على هذه المنطقة الغربية للمجال الحفصي[108]، لكنها مرتبطة مع مفهوم الحدود: عندما يتحدث عن مشاريع السلطان أبي عصيدة لإعادة سيطرته الغربية، كتب: "حدّث نفسه بغزو الناحيات الغربية وارتجاء ثغورها من يد الأمير أبي

(103) مبدئيا، يفترض أن يكون المجال "فضاءً متملّكًا مع شعور أو إدراك بملكيته"، وهو مفهوم يقترب من مفهومي الوطن أو الأمة.

R. Brunet, R. Ferras, H. Théry, Les Mots de la géographie. Dictionnaire critique, Montpellier-Paris, 1992, p. 480 ; Valérian, « Frontières », art. cité, p. 4.

(104) العبر، ج 6، ص 170، البربر، ج 1، ص 161 (ترجمة معدّلة).

(105) العبر، ج 6، ص 152، البربر، ج 1، ص 146 حيث ترجم دوسلان "الذي حكم القسم الغربي من إفريقية". بعد ذلك، كتب أن خليفته أبا بكر -الذي أصبح سيد تونس وأعاد تشكيل الوحدة الحفصية- حكم "سائر بلاد إفريقية"، وهذا ما يبيّن مرة أخرى بالنسبة لهذا المؤلف أن بجاية كانت جزءا من إفريقية، المحددة كفضاء سياسي حفصي.

(106) العبر، ج 6، ص 619، البربر، ج 2، ص 329.

(107) العبر، ج 6، ص 700، البربر، ج 2، ص 400.

(108) العبر، ج 6، ص 700، البربر، ج 2، ص 401: "الناحية الغربية".

زكرياء"[109]. يمكن أن نجد هنا وهناك عبارات أخرى للدلالة على الحدود مثل أطراف[110] أو تخوم[111]. لكن يبقى المصطلح الأكثر استعمالا هو الثغر.

إن إشارة هذا المعنى هي استراتيجية بوضوح. نجده أيضا في سياقات أخرى، حتى وإن كان في الغالب للدلالة على الحد الذي يفصل عالم الإسلام عن عالم المسيحية[112]. في المشرق، استعملت الكلمة بصفة عامة بصيغة الجمع للدلالة على المدن المحصّنة التي تدافع عن عالم الإسلام ضد بيزنطة[113]. وفي الأندلس، استعمل في صيغة المفرد بنفس معنى الثغر-الحد مقابل الممالك المسيحية الشمالية[114]. لكن في المغرب، فقدت هذه الكلمة جزءا كبيرا من معنى الحرب المقدسة، لأنها تتعلق

(109) العبر، ج 6، ص 713.

(110) العبر، ج 6، ص 596، البربر، ج 2، ص 301. أنزل أبو زكرياء بالأطراف عسكره. لا يتحدث هنا خصوصا عن الجهات الغربية. لهذه الكلمة معنى عاما جدا وهو الجانب، أي الطرف.

(111) لكنه يتحدث عن حدود مجال القبيلة، زغبة "تخوم بلادهم"، وليس الدولة الحفصية (العبر، ج 6، ص 608، البربر، ج 2، ص 316)، تخوم (مفرد تخم) له معنى الحد لحقل أو مجال (A. Kazimirski, Dictionnaire arabe-français, Paris, 1860, s. v.). أو معنى عاما وغير دقيق للثغور. A. Miquel, « La perception de la frontière chez les géographies arabes d'avant l'an Mil », Frontière et peuplement, op. cit., p. 130

(112) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، 1955.

(113) Th. Banquais, « Les frontières de la Syrie au xie siècle », Frontière et peuplement, op. cit., p. 139. Une ville portuaire comme Alexandrie est également fréquemment qualifiée de taġr. Chr. Dagobert, « Alexandrie au xiiie siècle. Une nouvelle topographie », Alexandrie médiévale, 1, dir. Chr. Décobert et J.-Y. Empereur, Le Caire, 1998, p. 72-73.

(114) J. Bosch Vila, « Algunas consideraciones sobre 'taġr en al-Andalus' y la división político-administrativa de la España musulmana », Études d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal, Paris, 1962, I, p. 23-33 ; E. Manzano Moreno, « The Creation of a Medieval Frontier : Islam and Christianity in the Iberian Peninsula, Eighth to Eleventh Centuries », Frontiers in Question. Eurasian Borderlands, 700-1700, dir. D. Power et N. Standen, Londres-New York, 1999, p. 38-40, 45-46 ; P. Buresi, « Nommer, penser les frontières en Espagne aux xie-xiiie siècles », Identidad y representación de la frontera, op. cit., p. 57-59.

ببلدان كلها مسلمة[115]. لكنها أبقت معناها الجوهري الاستراتيجي، وهو معنى الثغور الغربية للمجال الحفصي في مقابل خصومه، العبد الواديين والمرينيين.

يتعلق الأمر إذن بحدود سياسية أساسا، تحد في الغرب المجال الإفريقي الزيري-الحمادي ثم الحفصي. يترجم أي فهم بداية شعور بمجال دولة، متحرك لكنه واقعي، والذي حلّ ببطء محل السيادة التي تعني فقط بالقبائل أو بالكنفدراليات القبلية[116]. بحثنا دون جدوى عن مميزات عادية للحدود[117]. لا يتعلق الأمر بحدود طبيعية ولا بحدود دينية. وليس أيضا حدودا اقتصادية أو تجارية. إنها لا تحدد فضاءين من التوزيع السكاني المتميز، ولا توقف هجرات القبائل. وفي النهاية، لم توجد الحدود إلا كتحديد سياسي لدى الملوك والمؤلفين الذين تبنّوا نظراتهم[118]. إن أفضل ما يحددها هو أنها كانت منطقة تنافس ونزاعات، وإن هذا هو دون شك أهم أمر بالنسبة إلى بجاية.

---

(115) احتفظت كلمة ثغر ببعض الغموض، لإمكانية دلالتها أيضا على الحدود البحرية كما هو حال الإسكندرية على سبيل المثال. لكنها في الغالب مرتبطة في الروايات بتطورات حول الدفاع عن الحد في مواجهة الجيران الغربيين.

(116) "متجاهلا بداية الوجود المحض لبعض الشعور بالمجال الجماعي المشترك المرتبط بديهيا بتطور الدولة، النموذج الجديد الذي ينطبق على مجالات برغم أنها متحركة يكون قد ظهر من المحتمل في الفترة الزيرية-الحمادية-المرابطية". Kably, « Espace et pouvoir », art. cité, p. 29. بيد أن هذا المؤلف يؤكد أن حافز الدولة، -مثل إعادة توزيع الفضاء-، يبقى إثنيا.(ibid., p. 29-30). على الرغم من إمكانية تحديدنا أحيانا للمجالات القبلية على المستوى المحلي أو الجهوي، فإنه من المجازفة أن تكون شروط لتحديد مجال دولة بالنسبة لفترتنا. في بادئ الأمر، لأن التشابك المعقّد للقبائل في الفضاء يجعل من التصنيف غير عملي وعام جدا. ثم خصوصا لأن هجرات القبائل الموسمية أو النهائية لا تعدّل الحدود المجالية لممارسة الحكم الإفريقي. طبعا، لسنا بعد في الشعور الحديث بدولة مجالية، لكن نحن بعيدين عن مفهوم إثني خالص لمجال سلطة الدولة.

(117) P. Toubert, « Frontière et frontières : un objet historique », Frontière et peuplement, op. cit., p. 9-17.

(118) في هذا المعنى، تختلف الحدود الغربية عن الحدود الجنوبية (الصحراء) والشمالية (البحر المتوسط)، التي هي حدود اقتصادية ودينية وسكانية، حيث تنطلق من مناطق المبادلات وأيضا النزاعات.

وأخيرا، لا يجب البحث عن خط حدود ولا عن شريط حدّد نوعا ما المجالات الحفصية في الغرب. يتعلق الأمر بالضبط بـ "مقاطعة-حدود" الدولة الحفصية، وثغور حيث إن بجاية كانت العاصمة. بهذا يجب فهم كلمة ثغر كما استعملها ابن خلدون. نراه جيدا عندما يتحدث عن تشكيل أبي زكرياء لإمارة مستقلة: بعد استيلائه على بجاية في 684/ 1285، أخضع الجزائر ودلس وإذن "استولى على سائر الثغور الغربية"[119].

في هذه المقاطعة الحدودية، كانت بجاية المدينة الأولى الهامة لمن يريد الدخول إلى إفريقية من الغرب. ولعبت بهذه الصفة دورا استراتيجيا أساسيا بفضل موقعها الساحلي وعلى الطريق المؤدي من الغرب إلى الشرق على حد سواء. لقد صدمتنا ندرة ذكر المدن المحصنة في المغرب الأوسط، لأننا انتظرنا وجودها في منطقة ثغور. يتحدث الإخباريون " الرواة " خصوصا عن جولات الخيل التي يبدو أنها لم توقفها أي قلعة معيّنة[120]. بالعكس، أخذت المعارك التي أشير إليها بالأحرى مكانة خارج المدن على مستوى الريف[121]. يذكر طبعا الجغرافيون مواقع محصّنة، لكن دون أن نتمكن من رؤية نظام دفاعي عن مجال ما. ففي الغرب، يبدو أن البلاد كانت غير محمية جيدا. بعدما كانت أحيانا عواصم سياسية في القرون السابقة، يبدو أن المدن الداخلية غالبا ما فقدت من أهميتها الاستراتيجية، عندما لم ينتقل سكانها لشغل مدينة جديدة[122]. بالجنوب في اتصال بين التل والهضاب العليا، يشير الإدريسي في القرن الثاني عشر إلى العواصم القديمة للمغرب الأوسط:

---

(119) "فاستولى على هذه الثغور الغربية"، العبر، ج 4، ص 700.

(120) في الواقع نندهش لسرعة تنقل الجيوش في جهات غرب بجاية، على غرار الفتح الموحدي، وأيضا الهجمات العبد الوادية والمرينية التي تبعتها.

(121) فخلال الفتح الموحدي، عندما تمّ الاستيلاء على الجزائر، لاقى الموحدون الجيش الحمادي في مكان غير معروف، على بعد مرحلة من بجاية، فهزموه ودخلوا بجاية. البربر، ج 2، ص 189. أنظر أيضا: ابن الأثير، المصدر السابق، الترجمة ص 573.

(122) على سبيل المثال أشير حيث استعمل السكان في تعمير قلعة بني حماد.

تاهرت[123]، وأشير التي تركت بعد تأسيس القلعة[124]، والمسيلة التي لم يتحدث الإدريسي عن تحصيناتها[125]، وطبعا القلعة نفسها[126]، التي تركت كلية لصالح بجاية في نهاية الفترة الحمادية أو على الأقل مع الموحدين[127]. كل هذه المدن القديمة لم تكن لها قيمة استراتيجية فعلية بداية من القرن الثاني عشر. إن الجيوش التي كانت في السابق تسلك هذا الطريق الجنوبي تحولت نحو الشمال، تماشيا في هذا مع تطور الجغرافية العامة لمراكز الحكم. نحو الشمال أكثر، نجد الخضراء "مدينة صغيرة محصّنة" قرب مليانة[128]، أو كزناية[129]. لكن كانت منذئذ التجمعات الحضرية الكبرى على الساحل. أولا، مجموع دفاعي قرب تلمسان يحتوي على وهران مع سورها الترابي[130]، وبالقرب منها مرسى الدجاج، الذي تحيط به تحصينات مع عدد قليل من السكان[131]، وأخيرا، مستغانم، الواقعة على ربوة ومحاطة بسور. وأخيرا، الشبكة الأكثر ضعفا مع تنس المحاطة في قسم منها بأسوار[132]، ثم برشك (قوراية)، التي لها سور ترابي على ربوة[133]، الجزائر وأخيرا دلس التي لها رأس عال محاط بأسوار صلبة[134]. من بين هذه الموانئ، يبدو أن الجزائر لوحدها كانت لها صعوبة، بالنظر إلى أنها تطورت كثيرا بداية من القرن

(123) الإدريسي، الترجمة ص 162 الذي يتحدث عن مدينة كان لها ماض عظيم.

(124) نفسه، ص 160.

(125) نفسه، ص 161.

(126) نفسه، ص 161.

(127) Amara, « La Qal‘a des Banī Hammād », art. cité, p. 91-110.

(128) الإدريسي، الترجمة، ص 159.

(129) نفسه، ص 160. بين الاثنتين، توجد أيضا ماما، مدينة صغيرة محاطة بسور وخندق محفور، على بعد أربعة مراحل من تاهرت ومرحلتين من أشير، نفسه، ص 162.

(130) نفسه، ص 158-159.

(131) نفسه، ص 164.

(132) نفسه، ص 158.

(133) نفسه، ص 163.

(134) نفسه، ص 164-165.

الرابع عشر[135]. في نهاية القرن الخامس عشر، يعطي وصف بيري رايس صورة لنظام الدفاع الساحلي قريبة جدا من صورة الإدريسي. يتحدث عن حصون (بعضها مخرّب في فترته) في مرسى الكبير وأرزيو ومستغانم وفي جهة وهران ثم في تنس وبرشك وشرشال والجزائر ودلس[136]. لم تتمكن هذه المدن الساحلية القوية من إنشاء خط دفاعي قابل لوقف زحف جيش بري وليس هناك ما يشير إلى أنها احتوت على حاميات هامة. لقد استطعنا الكتابة من جهة أخرى أن مجمل الساحل المغاربي كان مليئا برباطات وأبراج مراقبة باستطاعتها الإنذار بهجوم وهذا من خلال نظام إشارات ضوئية[137]. ربما وجد هذا النظام في فترة قديمة جدا – أيضا ليس لدينا أثر أثري والشواهد تعني إفريقية خصوصا- لكن ليس واضحا إذا ما استمرّ في العمل في العصر

---

(135) هي المدينة الوحيدة المشار إليها خلال الفتح الموحدي، لكن لا يبدو أنها قاومت كثيرا، ليس أكثر من القرون الموالية، وتناوب عليها الحفصيون، والعبد الواديون والمرينيون.

(136) R. Mantrand, « La description des côtes de l’Algérie dans le Kitab-ı Bahriye de Péri Reis », ROMM, 15-16, 1973, p. 161-163.

(137) H. S. Khalil eh, « The Ribat System and its Role in Costal Navigation », JESHO, 42, 2, 1999, p. 212-225.

كتب حسن خليله من خلال إشارته للقلقشندي والمقريزي أن البرقية المرسلة من سبتة وصلت إلى الأسكندرية في ليلة (ص 214)، فرش الأغالبة خصوصا الساحل بهذه الرباطات. أنظر أيضا:

G. Marsais, « Note sur les ribats en Béribérie », Mélanges d’histoire et d’archéologie de l’Occident musulman, I, Alger, 1957, p. 23-36.

تمّت إعادة دراسة هذه المسألة دون تقديم معلومات موثوقة حول وجود تحصينات ما بالنسبة للفترات المتأخرة. أنظر خصوصا:

M. Hassen, « Les Ribâts du Sahel d’Ifrîqiya. Peuplement et évolution du territoire au Moyen Âge », Zones côtières littorales dans le monde méditerranéen au Moyen Âge : défense, peuplement, mise en valeur, Actes du colloque international organisé par l’École française de Rome et la Casa de Velázquez, Rome, 23-26 octobre 1996, dir. Jean-Marie Martin, Rome-Madrid, 2001 (Castrum, 7), p. 147-162 ; N. Djelloul, Al-Ribātāt al-bahriyya bi-Ifrīqiya fī l-‘asr al-wasīt, Tunis, 1999 ; Chr. Picard, A. Borrut, « Râbata, ribât, râbita : une institution à reconsidérer », Chrétiens et musulmans en Méditerranée médiévale (viiie-xiiie siècle). Échanges et contacts, dir. N. Prouteau, Ph. Sénac, Poitiers, 2003, p. 33-65.

الوسيط المتأخر. يبيّن تفاجئ سكان بجاية خلال الهجوم الموحدي أو هجوم بني غانية بالعكس انتشارا ناقصا للمعلومات على السواحل الغربية.

في المقابل، بالاقتراب من بجاية يصبح النظام الدفاعي أكثر قوة وفعالية. يذكر الإدريسي في نواحيها عدة حصون[138]، تستند خصوصا إلى تضاريس صعبة، والمدينة في حد ذاتها يصعب الاستيلاء عليها.

طبعا، كانت قسنطينة مدينة كبيرة أخرى، تقاسمت مع بجاية دور حراسة الثغور الغربية للإمبراطورية الحفصية. نراها غالبا تقاوم عند سقوط بجاية في يد الأعداء[139]. لكن أهميتها الاستراتيجية تناقصت كثيرا، لأنها كانت في داخل الأراضي، بعيدة عن الطريق الساحلي ولم توقف فعليا سير الجيوش[140]. في هذا الاتجاه، كان التغيير جذريا مقارنة مع القرون الأولى من السيطرة المسلمة في المغرب، حيث سارت الجيوش في الأراضي الداخلية، مستندة إلى مدن مثل أشير وتاهرت وقلعة بني حماد، والتي كانت إلى غاية القرن الحادي عشر عواصم متتالية في الجهة[141]. لنص المسند لابن مرزوق بخصوص فتح أبي الحسن المريني لإفريقية

(138) الإدريسي، النص ص 118–120، الترجمة ص 167–168. يجعل كتاب الاستبصار من هذه الوضعية سببا لبناء المدينة، ويشير أيضا إلى صعوبة الاقتراب من بجاية: "وبجاية معلقة من جبل وقد دخل في البحر يسمى مسيون، وعليها سور عظيم، والبحر يضرب فيه" الاستبصار، النص ص 129–130، الترجمة ص 34–35. يشير الإدريسي أيضا إلى مكان يسمى المضيق، ويجعل منه قرية.

(139) خلال حملة لويس التاسع الصليبية، عزم سلطان تونس في لحظة للجوء إليها.
Brunschvig, La Berbérie, op. cit., I, p. 61.

(140) في المقابل، يرجع عدم الاحتفاظ بحكم قسنطينة إلى ترك مكان محصّن وحماية في الخلف قادرتين على إحداث أضرار جسيمة بجيش الفتح.

(141) هو ما يسميه عبد الله العروي "المغرب الأوسط" في مقابل "المغرب المفتوح"، وهو المغرب القريب من الساحل المتوسطي. أنظر بخصوص أوائل الفتوحات العربية: Laroui, L’Histoire du Maghreb, op. cit., p. 78, أنظر أيضا: بول – لوي كامبيزا، الذي يرسم باختصار النزاعات المسلحة في جهة التل إلى غاية القرن الحادي عشر.
Paul-Louis Cambuzat, L’Évolution des cités du Tell, op. cit., vol. I.

في 1347 دلالة بهذا الصدد. بعد مباشرته لاتصالات ودية مع أمير بجاية، جمع السلطان مجلسه، حيث أشار عليه البعض بالتوجه مباشرة إلى تونس، لأن التمسك بالعاصمة، سيمكّن من اسقاط كل المدن القوية والمجالات التي تتحكم فيها. لكن في المقابل هناك من كان مؤيدا للاستيلاء على بجاية بالقوة إذا وجب ذلك، لأن ترك هذه المدينة في الخلف سيفسّر كعلامة ضعف يدفع المدن الأخرى إلى المقاومة. في النهاية اختار السلطان الحل الثاني ونصّب في المدينة رجال ثقته[142]. كانت بجاية إذن عاصمة هذه المنطقة الحدودية، لكن أيضا أول حاجز هام يقوم الغازي بتخطيه.

تفسّر مكانة بجاية في النزاعات الإقليمية في الفترة الحفصية في جزء منها بوظيفة حراستها للثغور الغربية للسلطنة. بين نهاية القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الرابع عشر، كسعي العبد الواديون ثم المرينيون بتعنت الاستيلاء على المدينة، لكن دون نجاحهم أبدا في بسط سيطرة دائمة عليها.

ب) الأزمة العبد الوادية الطويلة (711/1311-732/1332)

إذا كان الحفصيون قد استطاعوا مد نفوذهم غرب المغرب في منتصف القرن الثالث عشر عشية حملة لويس التاسع الصليبية، فإن سيطرة تونس على تلمسان كانت نظرية أكثر فأكثر[143]. في بداية القرن الرابع عشر، كان ضعف الحكم الحفصي على كل حال واضحا ومثيرا للأطماع. كان المرينيون قد شنوا بعض الحملات القصيرة ضد بجاية. لكن أصبحت تلمسان خصوصا مهددة باستمرار للمدينة خلال عدة "عقود" عشريات[144].

---

(142) ابن مرزوق، المسند، ترجمه إلى الإسبانية:

M. J. Viguera, El Musnad : hechos memorables de Abū l-Hasan sultán de los Benimerines, Madrid, 1977, p. 293.

(143) Brunschvig, La Berbérie, op. cit., I, p. 49.

(144) حول سياسة التوسع المريني، أنظر خصوصا: A. Dhina, Le royaume abdelouadite à l'époque d'Abou Moussa Ier, Alger, 1985, p. 127-145.

وحول العبد الواديين بصفة عامة: « Abd al-Wadides », EI², p. 95-97 (G. Marçais)

بحث العبد الواديون الذين طرحوا أنفسهم كأسياد للمغرب الأوسط بسرعة على فتح بجاية، التي اعتبروها جزءا من مجالات نفوذهم . إنّ هذه المطالبة المشرقية كان معبّرا عنها بوضوح في "وصية" يغمراسن. عشية وفاته، يكون السلطان قد أباح لخليفته عثمان في موضوع المرينيين: "فإياك اعتماد لقائهم وعليك باللياذ بالجدران متى دلفوا إليك وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك عن عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل به ملكك وتكاف حشد العدو بحشدك ولعلك قصير بعض الثغور الشرقية معقلا لذخيرتك"[145].

مهما تكن أصالة هذا النص[146]، فهو هام. إذا كان يشير إلى حق تلمسان المحض في القسم الغربي من المجال الحفصي، فإنه يلفت النظر إلى أهمية منطقة بجاية بالنسبة للسلطنة: كان بإمكانها أن تشكل مخزونا للقوات وملجأ صلبا بمأمن عن التهديدات المرينية[147]. يمكن أن نضيف أيضا أنها استخدمت كقاعدة انكفاء لقبائل جهة تلمسان، خصوصا مغراوة التي بحثت في أمر تكوين إمارة في جهتي الشلف والونشريس[148]. بناء على ذلك كان بإمكان احتلال بجاية تقليص هذا التهديد. تؤكد "الوصية" إذن على ضرورة التوسع نحو الشرق لأسباب دفاعية قبل كل شيء. استندت هذه المطالبة من جهة أخرى في أول الأمر على إثبات الشرعية

(145) البربر، 3، ص 369.

(146) شكك في أصالة هذه "الوصية"، خصوصا جورج مارسي ,« ‘Abd al-Wadides », EI², I (p. 95. في المقابل اعتبرها عطاء الله دهينة موثوقة. « Note sur l’authenticité et la portée du “Testament” de Yaghmurasan », RHCM, 6-7, 1969, p. 22-23). يبيّن هذا النص الذي كتب في عصر ابن خلدون بمعنى بعد الهجمات العبد الوادية بقليل، إعطاء ضمانة لسياسة تلمسان الهجومية من السلطان الكبير يغمراسن، مؤسس السلالة.

(147) حول النزاع بين المرينيين والعبد الواديين في هذه الفترة، أنظر:

A. Khaneboubi, Les premiers sultans mérinides (1269-1331) : histoire politique et sociale, Paris, 1987, p. 77-83.

(148) البربر، 3، ص 392.

الحفصية. لكن لم يكن للعبد الواديين أي ضرر تقريبا، وجاءت الفرصة لتجاوز هذا التبرير لمباشرة فتح بجاية لحسابهم الخاص[149].

في 684/ 1285، استولى الأمير أبو زكرياء الحفصي على حكم بجاية وبدأت وقتئذ فترة انفصال بجاية عن تونس، حيث حكم السلطان أبي حفص. يؤرخ أول ظهور تلمساني ببدايات حكم هذا الأمير المستقل. يروي ابن خلدون أن السلطان أبا زكرياء هاجم عثمان بن يغمراسن. هذا الأخير –الذي كان مضيفه– غادر تلمسان حيلة للتمرد ضد سلطان تونس أبي حفص الذي اعترفت به تلمسان[150]. انطلق إذن عثمان في 686/ 1287 لمهاجمة بجاية باسم الشرعية الحفصية. لكن أجبرته المقاومة التي لاقاها على التراجع ولكن ليس دون تخريب بساتين الضاحية وحرق القرى المجاورة[151]. بعد ذلك، استمر التحالف بين تلمسان وبجاية ضد تونس، لكن دون نتيجة ملموسة، لانشغال العبد الواديين بالتهديد المريني وبتنظيم مجالهم الخاص[152]. حدث أيضا انقلاب تحالفات، لأن أبا زكرياء البجائي اقترب من تلمسان وزوّج أخته لعثمان بن يغمراسن، وبعث في 698/ 1298 كتيبة من الموحدين ضد يوسف بن يعقوب المريني، الذي حاصر تلمسان[153].

لم تبدأ التهديدات الفعلية إلا في بداية القرن الرابع عشر، في حين عرف الحفصيون صعوبات متزايدة. بعد توقف قصير كانت فيه إفريقية موحّدة من جديد

(149) حتى وإن بحث العبد الواديون بعد ذلك في عديد المرات على تقديم طامح حفصي.

(150) البربر، 2، ص 399–400، 3، ص 366–367، 373. 714/

(151) نفسه، 2، ص 401–402، 3، ص 373، يحيى بن خلدون، الترجمة، 1، ص 159.

(152) البربر، 3، ص 370–372. وجب على السلطان إخضاع قبائل توجين ومغراوة خصوصا والتي ساندت في فترات المرينيين ولجأت في حالة الضرورة إلى المجال البجائي.

(153) انتهت هذه العملية بهزيمة البجائيين. البربر، 2، 414، نفسه، 3، ص 367–368، 383–384.

تحت حكم أبي البقاء، قسم تمرد أبي بكر بقسنطينة الدولة إلى اثنتين[154]. بالعكس، تقلص الضغط في الغرب بعد حصار المرينيين الطويل لتلمسان من 1299 إلى 1307[155]. سمح السلطان الجديد أبو زيان (في العرش منذ 703/ 1303) لنفسه رفض الاعتراف بالحفصيين بتونس[156]. ووطّد خليفته أبو حمو (707/ 1308-718/ 1318) وضعيته على هذه الحدود الغربية، حيث عقد سلما مع المرينيين[157]، وهزم زناتة المغرب الأوسط، وأخضع بلاد مغراوة وتوجين، واستولى على الجزائر ودلس (اللتين كانتا تابعتين لبجاية).

تمّت المحاولة العبد الوادية الأولى في 711/ 1311، حيث دفع أبو حمو إلى مباشرة فتح بجاية التي كانت هشّة بفعل أطماع أبي يحيى أبي بكر الذي كان يتحكم في قسنطينة. سعى أبو بكر في أول الأمر إلى دفع السلطان أبي حمو للاستيلاء على بجاية، لاعبا وقتئذ تحالف تلمسان ضد تونس[158]. لكن أطماع أبي بكر في بجاية تعارضت بسرعة مع هذا المشروع. استنجد ابن خلوف قائد صنهاجة -الذي خدم في هذا الوقت مساعدا للسلطان الحفصي ببجاية- بتلمسان ضد أبي بكر. إن اغتياله من طرف هذا الأخير دفع بصنهاجة وأيضا الدواودة – حلفاء بجاية

(154) في 710/ 1310، ثار عامل قسنطينة الحفصي ضد أبي البقاء سلطان تونس واستولى على بجاية في 712/ 1312. دامت فترة الاستقلال هذه إلى غاية 718/ 1318، وهو تاريخ استيلاء أبي بكر على تونس وإعادته للوحدة الحفصية.

(155) على الرغم من حملة المرينيين الفاشلة ضد تلمسان في 714/ 1314. بصفة عامة وخلال هذه السنوات، انشغل السلاطين المرينيين بالنزاعات الداخلية على الحكم وبالتدخلات في الأندلس.

M. Kably, Société et religion au Maroc à la fin du « Moyen Âge » (xive-xve siècles), Paris, 1986, p. 113.

(156) البربر، 3، ص 383-384، الذي أشار إلى تفسير هذا الرفض بالتحالف الجديد بين تونس والمرينيين.

(157) نفسه، 3، ص 384.

(158) نفسه، 3، ص 393.

التقليديين- إلى التحالف مع العبد الواديين[159]. حثّ أيضا حاجب بجاية السابق أبو جبيّ اللاجئ بتلمسان أبا حمو للتدخل[160]. لكن الهجوم المريني على المغرب الأوسط أفشل المشروع[161]. من جهة أخرى، لم يتأخر أبو بكر في الاستيلاء على بجاية والتي عهد بها إلى حاجبه القوي ابن غمر في 712/ 1312. كان هذا الأخير وإلى غاية وفاته في 719/ 1319 هو من واجه التهديد العبد الوادي العنيد.

كان تاريخ أول حملة عبد وادية حقيقية ضد بجاية هو 713/ 1313. حوصرت بجاية، لكن دون جدوى، في حين خرّبت جيوش تلمسان البلاد وبنت حصنا في أزفون على الساحل بين دلس وبجاية[162]. في السنة الموالية، استولى أبو بكر على هذا المكان الحصين وخرّبه بفضل أسطوله[163]. لكن في 715/ 1315، تمّ شن هجوم عبد وادي جديد، والذي فشل بسبب ثورة في تلمسان وتحالف قصير بين أبي بكر والمرينيين[164]. على الخصوص في صيف 1315، دمّر الأسطول البرشلوني والبلنسي الأسطول العبد الوادي بطلب من السلطان الحفصي[165].

(159) نفسه، 2، ص 442. اغتاظ الدواودة لهذه الجريمة التي ارتكبت خرقا لجواز المرور الذي منحوه لابن خلوف. بعيدا عن ذلك، يقول لنا ابن خلدون أن الدواودة دفعوا بأبي حمو للاستيلاء على بجاية (نفسه، 3، ص 394). كانت دون شك هذه الانتقامات الدافع الوحيد لهذه القبائل التي عانت خصوصا بعد إبعاد أبي بكر لها.

(160) نفسه، 3، ص 393. جمعت منافسة قديمة بين ابن أبي جبي وابن غمر، حاجب أبي بكر ورجل الدولة القوي. نفسه، 2، ص 420-421.

(161) نفسه، 2، ص 433-441.

(162) تخلى أبو حمو عنه بسبب انشغاله بإخماد ثورة. البربر، 2، ص 443، 3، 394-395.

(163) نفسه، 2، ص 443.

(164) نفسه، 2، ص 443-444.

(165) أعطت هذه المساعدة التي وفرتها إلى بجاية احتجاجات طويلة بعد ذلك.

Ch.-E. Dufourcq, L’Espagne catalane et le Maghrib aux xiiie et xive siècles : de la bataille de Las Navas de Tolosa (1212) à l’avènement du sultan mérinide Abou-l-Hasan (1331), Paris, 1966, p. 503-507.

لم ييأس أبو حمو إلى هذا الحد واستأنف هجماته، وبنى حصنا على بعد مرحلتين من المدينة وهو حصن بكر[166]. لكن اغتياله في 718/ 1318 أعطى بعض الراحة لبجاية وسمح لأبي بكر بالاستيلاء على تونس[167]. لم يتخلى خليفته أبو تاشفين عن مشروع والده واستأنف الهجوم بداية من 719/ 1319، لكن دون نجاحات أكبر[168]. معتمدا على انقسامات الأسرة الحفصية (التي غذّاها بإثارة منافسين دمى[169]) ومؤيدا لثورات القبائل العربية، استأنف بسرعة حملاته السنوية[170]، حيث وصل به الأمر إلى الاستيلاء على تونس في 725/ 1324 لبعض الوقت، لكن دون التمكن من المقاومة البجائية[171]. إنّ اللحظة الأصعب في هذا الحصار البري كانت دون شك بناء قلعة تامزيزدكت في حوض الصومام على بعد مرحلة من بجاية في 726/ 1325، "في منفذ الطريق المؤدية من المغرب إلى المشرق"[172]. بغلق كل الاتصالات والمنافذ الأرضية، أثار العبد الواديون مجاعة في بجاية[173]، لكن وصول إمدادات خصوصا من قسنطينة وتونس، وكذا ثبات

---

(166) البربر، 2، ص 545. لكن بعد ذلك (نفسه، 3، ص 403) كتب ابن خلدون أن هذه القلعة بنيت في 721/ 1321، في عهد أبي تاشفين، وهي أيضا نفس رواية أخيه يحيى بن خلدون (1، الترجمة ص 181). سمح بناء حصن بنصب حماية حاضرة في كل السنة وعدم الاعتماد على الحملات الفصلية، التي هي إعادة أبدية حيث نرى أن القبائل تغادر إلى مراعي الجنوب بقدوم الشتاء.

(167) يروي ابن خلدون أن الحاجب ابن غمر أطلق أبا بكر لفتح العاصمة لإبعاده والانفراد كلية بالحكم. البربر، 2، ص 445.

(168) البربر، 2، ص 545، يحيى بن خلدون، الترجمة، 1، ص 181.

(169) فالأمير الحفصي إبراهيم بن أبي بكر الشاهد (البربر، 3، ص 405) ثم محمد بن أبي بكر بن أبي عمران. نفسه، 3، ص 407.

(170) نفسه، 3، ص 403-407، يحيى بن خلدون، الترجمة، 1، ص 181-186.

(171) البربر، 2، ص 460-464.

(172) نفسه، 2، ص 464-465. يوجد هذا الحصن قرب قرية تكلات، على بعد 23 كلم من بجاية. وفي موضع آخر، يحدده ابن خلدون في سوق الخميس في حوض بجاية. نفسه، 3، ص 405. أنظر أيضا، يحيى بن خلدون، الترجمة، 1، ص 184.

(173) البربر، 3، ص 406، يحيى بن خلدون، الترجمة 1، ص 185.

المدافعين، أدى إلى فشل جديد في 727/ 1326. وأخيرا، سنتان بعد ذلك بنى أبو تاشفين في مقابل بجاية حصن الياقوتة عند مصب الصومام[174].

كان في النهاية وفاق بين السلطان الحفصي والمرينيين هو الذي أنهى هذا التهديد المتكرر. بداية من 729/ 1328، أرسل السلطان ابنه أبا زكرياء يحيى مع الشيخ الموحدي ابن تافراجين لطلب تحالف مع أبي الحسن المريني[175]. في ربيع 732/ 1331، هاجم هذا الأخير تلمسان وأرسل إمدادات إلى بجاية عبر البحر، في حين خرّب أبو بكر الحفصي حصون الصومام. بعد ذلك[176]، اختفى التهديد تقريبا كلية. مع إعادة السلطان أبي حمو الثاني (760/ 1358-791/ 1388)، استأنفت تلمسان مؤقتا سياسة هجومية، لكن وضعية المغرب تغيّرت ما عدا حصار قصير وغير فعّال لبجاية في 767/ 1365، اقتصرت هجمات العبد الواديين على التنافس على القسم الغربي من جهة بجاية (دلس، وسهل البويرة والجزائر) [177].

أكّدت هذه الحرب الطويلة ضد تلمسان أهمية بجاية الإستراتيجية في المنطقة. منذ أن كان للعبد الواديين الإمكانات السياسية والعسكرية، بحثوا عن

(174) البربر، 3، ص 407، يحيى بن خلدون، النص ص 138، الترجمة، 1، ص 186، الذي يتحدث عن بناء حصن خارج بجاية.

(175) البربر، 3، ص 407.

(176) نفسه، 3، ص 408-409.

(177) نفسه، 3، ص 74-76، 449-455، يحيى بن خلدون، الترجمة، 2، ص 228-228. حول سياسة هذا العاهل، أنظر:

A. Hadjiat, Le Maghreb central sous le règne du sultan Abdalwadides Abou Hemu Musa II (1359-89), thèse d'État, sous la direction R. Mantrand, Université d'Aix-Marseille I, 1991, en particulier p. 189-227 ;

نفسه، "السلطان أبو حمو موسى الثاني"، RHCM, 5, 1968, p. 21-22

H. Curio, Geschichte und Geschichtsschreiber der ‘Abd al-Wâdiden (Algerien im 13.-15. Jahrhundert). Mit einer Teiledition des Nazum ad-Durr des Muhammad b. ‘Abd al-Ğalīl at-Tanasī, Fribourg, 1973, p. 123-126.

طريقة للاستيلاء على المدينة، ولم يتخلوا أبدا على اعتبارها جزءا من مجالهم. تبيّن هذه الأزمة أيضا تشعّب النزاعات الإقليمية حول بجاية، والتي ضمّت مختلف دول المغرب، وأيضا القبائل التي تحالفت مع من يأتي لها بمصالح وبجريات أكبر[178].

يفسّر هذا التشعّب في قسم منه -على أنه بالرغم من المجهودات الملحة والإمكانات الاستثنائية- لم يتمكن أبدا العبد الواديون من الاستيلاء على بجاية. كانت أسباب هذا الفشل استراتيجية أيضا وتبيّن الصلابة الكبيرة لدفاعات المدينة. إن عجز العبد الواديين عن الوصول إلى مبتغاهم يمكن أن يفسّر بصعوبات التمسك بالبلاد الخلفية الجبلية، ومنع وصول النجدات من تونس أو من قسنطينة، وبتسيير مساهمة القبائل المتذبذبة، أو أيضا مشاكل الدولة العبد الوادية الداخلية (اغتصاب السلطة، قبائل متمردة).

لكن السبب الأساس هو محدودية الأسطول العبد الوادي. لقد اعتمدت الفتوحات السابقة على الأسطول، وهذا ما سمح بالاستيلاء على المدينة بطريقة الكمّاشة، وبتسيير حملات سريعة، وخصوصا منع التموين بالسفن[179]. لكن الحملات العبد الوادية كانت دائما عن طريق البر. لقد حاولت تلمسان الحصول على مساعدة بحرية من القوى المسيحية لكن دون جدوى. بداية من 1295، أرسل السلطان سفيرا إلى بلاد جاك الثاني الأراجوني لطلب مركبين لحصار بجاية[180]، لكن هذه المحاولة فشلت بسبب الأطماع الكتالونية. نفس الشيء بالنسبة للطلب

(178) بالنسبة لموقف القبائل اتجاه العبد الواديين أنظر: Kurio, op. cit., passim ، الذي يشير إلى كل حملة ودورها الموالي أو المعادي للعبد الواديين، ويوليها أهمية خاصة.

(179) يوضح ابن خلدون نجاح أبي بكر دائما خلال الحملات العبد الوادية في تمرير الأموال والأسلحة والوحدات القتالية وفي إرسال أحسن قادته ووزرائه البارعين. البربر، 2، ص 464.

(180) ACA, C., Rg. 252, f. 17 (juin 1295 ?), éd. Ch.-E. Dufourcq, Recueil de documents concernant les relations des pays de la Couronne d'Aragon avec le Maghreb de 1212 à 1323, thèse complémentaire, Université de Paris, 1965, n° 424.

الذي قدّمه سفير السلطان في 1313[181]. اتجهت تلمسان إذن نحو ميورقة في 1320، لكن دون نجاح هنا أيضا[182]. سعى العبد الواديون إلى إثارة الصراع بين هذه المملكة ولاكورونيا أراجونة، بالتوجه تارة إلى برشلونة وتارة أخرى إلى ميورقة. لكن في كل مرة، كانت إعارة المراكب مشروطة بشروط رفضتها تلمسان[183]. وبالعكس، توصلت بجاية من جانبها إلى الاستفادة من مساعدة البحرية المسيحية. ففي 1309، أبرمت معاهدة سلم بين لاكورونيا أراجونة وبجاية لمدة 5 سنوات، ونصّت على كراء مركبين وأربعة حرابي لسلطان تونس يذهب بهم حيث يشاء. كان ممكنا استعمالهم ضد الجزائر ومسلمين آخرين بشرط أن لا يكونوا في سلم مع ملك أراجونة[184]. تمّ تجديد هذه الهدنة يوم 7 جانفي 1314 لمدة خمس سنوات[185] .

(181) ACA, C., Rg. 240/2, f. 209v-210r (16/5/1313), éd. A. Masia de Ros, La Corona de Aragón y los estados del Norte de Africa, Barcelone, 1951, n° 153, p. 445-447.

طلب السلطان كراء ستة مراكب وزورق للتوجه إلى بجاية. تمّ قبول الطلب، لكن المحادثات لم تسر ولم يتم في النهاية إقرار الاتفاق.

Dufourcq, L’Espagne catalane, op. cit., p. 481.

(182) ARM, Reales cedulas, vol. VI, f. 91 (1/4/1321), cité par Dufourcq, L’Espagne catalane, op. cit., p. 482.

(183) Dufourcq, Espagne catalane, op. cit., p. 482-486,

فيما يخص المحاولات في 1327 ثم في 1329. نصّ مشروع معاهدة 1327 مع لاكورونيا أراجونة بوضوح على كراء 20 مركب وسفينة لمدة أربعة أشهر لاستعمالها ضد بجاية. ,ACA, C., Rg. 410 . f. 208r-210r, (23/09/1327) . وتخبرنا حوليات زوريتا (Annales de Zurita) من جهة أخرى بوصول سفيري القوتين المتعاديتين، تونس وتلمسان، إلى البلاط في 1328.

Jerónimo Zurita, Anales de la Corona de Aragón, éd. A. Canella López, Saragosse, 1967-1973, vol. 3, livre VII, chap. 4 (1328), p. 314.

(184) معاهدة لاكورونيا أراجونة – بجاية، 1309، المادة 4.

(185) معاهدة لاكورونيا أراجونة – بجاية، 1314. تنص هذه المعاهدة على دفع بجاية لإتاوة، لكنها لا تتوقع إعارة السفن. وتبيّن الأحداث التالية أن هذا البند كان مدرجا في الاتفاق. ربما لم يدوّن كتابة حتى لا يغضب البابوية التي قلقت من إعارة السفن للمسلمين. هل هو السبب الذي بمقتضاه رفض السلطان=

إبان ذلك أبرمت بجاية معاهدة مماثلة مع سانش الميورقي[186] (Sanche de Majorque). وتوصلت بجاية في 1315 إلى الحصول على مساعدة أساطيل برشلونة وميورقة الذين حاصروا السواحل العبد الوادية وسحقوا ودمّروا أسطول تلمسان[187] على وجه الخصوص، في حين أن البلنسيين موّلوا بجاية[188]. وتمّ تحضير اتفاقية جديدة مع لاكورونيا أراجونة في 1323[189] وجدّد السلم مع

=كل تعويض؟ لقد علل ذلك بعدم وجود اتفاق مع لاكورونيا أراجونة لإعارة المراكب (على النقيض مما كان في المعاهدة المبرمة مع ميورقة) وأن السفن البرشلونية والبلنسية لم تعر إلا بصداقة ولأجل القتال ضد العدو المشترك، تلمسان.

ACA, Cartas arabes, caja 3, n° 98bis (février 1316), éd. M. Alarcón y Santón, R. García de Linares, Los documentos árabes diplomáticos del Archivo de la Corona de Aragón, Madrid-Grenade, 1940, n° 131, p. 290-294 ; trad. contemporaine ACA, CRD, Jaime II, caja 27, n° 5125, éd. A. Giménez Soler, « El comercio en tierra de infieles durante la Edad Media », Boletín de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona, 5, 1910, p. 175-176.

(186) معاهدة ميورقة – بجاية، 1312.

(187) ACA, C., Rg. 243, f. 17r, 31v (20/11/1315), éd. Masia de Ros, La Corona de Aragón, op. cit., n° 140-141, p. 428-429.

طلب جاك الثاني ملك أراجونة من سفيره بمطالبة سلطان بجاية بالأموال التي يدين بها له مقابل إعارة مراكب من برشلونة وبلنسية ضد تلمسان.

« lo qual rey de Tirimçe trametia la dita armada sua e entenia de trametre les sues gens per terra sobrel dit rey de Bugia e sobre la sua ciutat de Bugia ».

(188) ACA, CRD, Jaime II, caja 27, n° 5115 (13/9/1315), éd. Masia de Ros, La Corona de Aragón, op. cit., n° 144, p. 432-433.

في هذه الرسالة، اشتكى سبعة تجار من رعايا لاكورونيا من السلطات البجائية وطلبوا من جاك الثاني الضغط على السلطان، الذي كان في موقف ضعف. كان تحليلهم واضحا: أشاروا إلى أن بجاية لا تعيش إلا من البحر وأنه دون التموين الذي يجلبه البلنسيون، تكون المدينة قد خضعت لهجمات تلمسان وختموا بأن الانتصار البحري الكتالاني على الأسطول العبد الوادي كان وحده من أبعد التهديد.

(189) ACA, C., Rg. 338, f. 141v-144v, éd. Mas-Latrie, Traités, op. cit., p. 319-324 ; Masia de Ros, La Corona de Aragón, op. cit., n° 148, p. 437-442 (art. 25). =

ميورقة في 1329[190]. لقد أدخل هذا النزاع الإقليمي القوى المسيحية في السياسة المغاربية والبجائية في وقت ضعف الحفصيين العسكري[191].

خلال كل هذه السنوات، وجدت بجاية نفسها في قلب رهان معقد من التحالفات، تورطت فيها -دوريا أو تزامنا- تونس والعبد الواديون والمرينيون وقبائل المجال البجائي والمجال التلمساني ومختلف المغتصبين هنا وهناك، ويضاف إليهم القوى المسيحية الإيبيرية. يمكن أن نفترض أن هذه الحملات غير المنقطعة والتي حوّلت البلاد الخلفية البجائية إلى مكان طواف شاسع للجيوش، أضرّت كثيرا بازدهار المدينة. إنّ الفترة التي تلتها والتي سيطرت عليها مغامرة السلطانين المرينيين أبي الحسن وأبي عنان المغاربية كانت أقل تعقيدا، لكنها صعبة بالنسبة للبلاد.

ج) المحاولتان المرينيتان (748/1347-761/1359)

بمجرد ابتعاد الخطر العبد الوادي، واجهت إفريقية تهديدا جديدا، هو تهديد المرينيين. كان لهؤلاء الأخيرين طموحات سابقة في الشرق، لكن دون جدوى. في 1286، نصّ مشروع اتفاق ملك أراجونة مع المرينيين على مساعدة عسكرية للاستيلاء على تونس، لكنه لم يتم[192]. بداية من 1300 وحتى نهاية حكم يوسف بن يعقوب (685/ 1286-706/ 1307)، تمّ شن عدة حملات ضد

=احتوى هذا المشروع على إمكانية كراء المراكب لحماية بجاية ضد تلمسان. لكن لا شيء يشير إلى إقرار هذه المعاهدة.

Dufourcq, Espagne catalane, op. cit., p. 505.

(190) معاهدة ميورقة – تونس، 1329.

(191) D. Valerian, « Le facteur économique dans la politique catalane à Bougie (xiiie-xve siècle) », L’Expansio catalana a la Mediterrània a la baixa edat mitjana, dir. M. T. Ferrer i Mallol et D. Coulon, Barcelone, 1999, p. 145-160.

(192) Dufourcq, Espagne catalane, op. cit., p. 279-282

أبي زكرياء أمير بجاية، الذي ساند العبد الواديين الـذين حاصـرهم المرينيـون[193]. هذه المشاريع لم تعط نتيجة. لكن خلال السـنوات الـتي تلتهـا، زاد المرينيـون مـن قدراتهم وأظهروا أطماعهم الامبريالية، خصوصـا مـع السـلطانين الكـبيرين أبـي الحسن وابنه أبي عنان.

دوافع ومبررات الفتوحات المرينية

أثناء الأزمة العبد الوادية، استقوى جيرانهـم المرينيـون بشـكل كـبير علـى الصعيد العسكري كما على الصعيد الاقتصادي، وأصـبحوا منذئـذ يتحكمـون في الطرق الصحراوية وقاموا بتنظيم دولهم[194].

كان المبرر الرسمي لفتح إفريقية هو أولا الدفاع عن الشرعية الحفصية كما كان الحال بالنسبة للعبد الواديين. إنّ المرينيين – على غرار بقية ملوك الجهة- اعترفـوا أولا بملوك تونس، على الأقل في فترة القضاء التام على التهديد ألمؤمني في الغرب.

لكن السبب الأكثر عمقا كان الحلم القديم بتوحيد المغرب وإعـادة تشـكيل الإمبراطورية الموحديـة انطلاقـا – علـى غـرار سـابقيهم المرمـوقين- مـن قاعـدة بالمغرب الأقصى[195]. لقد سبق مشروع أبي الحسن تطور كتابـات تعطـي شـرعية تاريخية للطموحات المغاربية للأسرة الحاكمة[196]. تـزيّن السـلاطين المرينيـون إذن بلقب الخليفة، وعلى غرار سابقيهم، كان أفقهم مغاربي وأندلسي في ذات الوقت. بحث المرينيون في مرحلة أولى على وضع أنفسهم في الدفاع عن الإسلام الأندلسي

(193) البربر، 2، ص 413–415، 419، 435. دفع سلطان تونس أبو عصيدة أيضا بهذه الهجومات، حيث رأى فيها وسيلة لإضعاف منافسه في بجاية.

(194) Kably, Société et religion, op. cit., p. 127. Sur les Mérinides, voir « Marīnides », EI², VI, p. 556-559 (M. Shatzmiller)

(195) Kably, « Mulāhazāt », art. cité, p. 7-20.

(196) Kably, Société et religion, op. cit., p. 128.

ولم يتدخلوا في الشؤون المغاربية إلا هامشيا. لكن وضعية الممالك المسيحية تقوّت بشكل كبير منذ المغامرة الموحدية. رغم النجاحات الملحوظة، انتهت المحاولة المرينية بالفشل في "معركة المضيق"[197]. بذلك استدار أبو الحسن بعزيمة نحو المغرب. أظهر ابن خلدون بوضوح طموحاته: "كان السلطان أبو الحسن قد امتدت عيناه إلى ملك إفريقية لولا مكان السلطان أبي يحيى من ولايته وصهره، وأقام يتحين لها الأوقات"[198]. بالنسبة لمحمد القبلي، يستبعد أن تشير هذه الوجهة إلى التخلي النهائي عن الأندلس، فهي تتطابق مع إرادة امتلاك قواعد أكثر صلابة، خصوصا من خلال التحكم في المنافذ الصحراوية[199]. ويفسر هذا المؤلف من جهة أخرى كل محاولات الوحدة السياسية بالرغبة في الاحتكار التجاري" بسبب الثروات والحظوة والشرعية التي يجلبها التحكم في الشبكات الصحراوية[200]. إذا كانت هذه الفرضية صحيحة، فان الاستيلاء على بجاية كان أساسيا، لأنها كانت واحدة من منافذ طرق الذهب.

اعتنى الملوك الحفصيون بتونس كما في بجاية في أول الأمر بضمان حيادية هذا الجار القوي، دون الأخذ في الاعتبار "سياديتهم" وإنما صداقتهم التقليدية. من جهة أخرى، بقيت هذه الصداقة حذرة كما توضحه ملاحظة العمري: "رغم مودته اتجاه السلطان المريني وعداوته لسلطان بني عبد الواد، ورغم نزاع السلطان المريني مع عدوه ليكون نافعا له، فإن ملك إفريقية لم يتمن في أعماق نفسه إخضاع العاهل المريني لسلطان تلمسان، الذي هو عدوه، وهذا حتى يكون له شاغل يحوّل

(197) حول السياسة الأندلسية والعلاقات مع لاكورونيا أراجونة، أنظر:
M. D. López Pérez, La Corona de Aragón y el Magreb en el siglo xiv (1331-1410), Barcelone, 1995, p. 55 s.

(198) البربر، 4، ص 246.

(199) Kably, « Espace et pouvoir », art. cité, p. 33-34.

(200) Kably, Société et religion, op. cit., p. 96, 339.

أنظاره عن مهاجمته ويبعده عن إفريقية. كان يعلم جيدا أن تلمسان كانت بينهما جدارا واقيا، لم يكن قادرا على فعل شيء ضد العاهل المريني، حيث لم تكن له أي قوة ضده"[201].

لكن بسرعة، دفع المرينيون بأفضليتهم. فبعد استيلائهم على تلمسان بطلب من الحفصيين، استولوا في 736/ 1335 على المدن التابعة لسلطة بجاية مثل الجزائر ودلس[202]. لكن بقيت العلاقات جيدة بعد ذلك، وكافية بأن يساعد السلطان الحفصي السلطان المريني في حرب المضيق، حيث أرسل إليه بعض السفن[203].

فتح أبي الحسن لبجاية

على العكس من الفتح العبد الوادي، تمّ الفتح المريني لإفريقية بمساعدة الأسطول الذي ضمن نجاحه. ففي جانفي 1347، انتشرت إشاعة في برشلونة حول تحضير المغرب الأقصى لـ 80 مركبا مما دفع السلطان بالرد على أن هذه السفن كانت موجهة لهجوم ضد بجاية وتونس[204]. في الواقع أظهر أبو الحسن منذ

(201) العمري، الترجمة، ص 169. في رسالة غير مؤرخة لأبي الحسن إلى الناصر محمد سلطان المماليك، كتب المريني أن السلم الذي أقامه سابقه مع تلمسان فتح له أبواب إفريقية الحفصية. القلقشندي، صبح الأعشى، إحالة م. كنار:

M. Canard, « Les relations entre les Mérinides et les Mamelouks », AIEO, V, 1939-1941, p. 49.

(202) البربر، 4، ص 220. في مارس 1337، اشتكى بيار ملك أراجونة إلى سلطان فاس على أسر بعض رعاياه في 1335، الذين لجئوا إلى ميناء دلس، حيث أمسك بهم المرينيون. ACA, C., Rg. 590, f. 49v-50r (16/3/1337).

(203) البربر، 4، ص 230–231. Zurita, Anales, op. cit., vol. 3, livre VII, chap. 53, p. 488. في 1338، بلغ في ميورقة تحضير المرينيين لأسطول لمهاجمة الجزر بمساعدة سلطاني غرناطة وبجاية.

ARM, LLC, 1, f. 204v-205r (12/11/1338), cité par López Pérez, La Corona de Aragón, op. cit., p. 87.

(204) تخوّف الملك بيار بالعكس من توجيه هذه السفن في هجوم ضد قرطاجنة ومملكة بلنسية.=

وقت مبكر اهتماما خاصا بتشكيل أسطول[205]. لكن طبعا أضرت حرب المضيق بهذا الأسطول، لكن أعيد تشكيل جزء منه وبقي متفوقا على ما أمكن للحفصيين تقديمه[206]. كما في هجمات تلمسان السابقة، اقترحت لاكورونيا أراجونة كراء السفن لمواجهة التهديد الجديد. أرسل بيار لوسريمونيو (Pierre le Cérémonieux) سفيرا إلى تونس في جانفي 1347 لتبليغ السلطان إمكانية الاستفادة من المراكب التي يريدها إن رغب في ذلك بسعر 2000 دوبل ذهبي شهريا[207]. لكن بعد ذلك بقليل، أبرم سلما مع المغرب وطلب من سفيره بتونس التخلي عن هذا المقترح[208].

دون هذه المساعدة البحرية، أصبح الحفصيون عرضة للنيل منهم، على قدر تسهيل الانقسامات الداخلية لعائلتهم للمشروع المريني ومعطية له دافعا. في الواقع، تزوّج أبو الحسن الذي لم يكن إلا ولي عرش في 721/ 1321 بأميرة

=ACA, C., Rg. 1378, f. 167r-169r (29/1/1347), éd. M. T. Ferrer i Mallol, La frontera amb l'islam en el segle xiv. Cristians i sarraïns al pais Valencia, Barcelone, 1988, appendice, n° 72, p. 293-296.

(205) Kably, Société et religion, op. cit., p. 133-135.

بدأ سابقه أبو سعيد في تشكيل هذا الأسطول.

(206) خلال معركة طريف للتحكم في المضيق بمساعدة بحرية حفصية قادمة من تونس وبجاية، ارتفعت إلى ستة عشر مركب، في حين أن المرينيين اصطفوا حوالي أربعة وعشرين. البربر، 4، ص 230-213. Brunschvicg, La Bériberie, op. cit., I, p. 163. من جهة أخرى، ليس مستبعدا الفتك بالقوات البحرية الحفصية الهزيلة خلال هذه المعركة.

(207) ACA, C., Rg. 555, f. 103v (26/1/1347), éd. J. Mutgé i Vives, « Algunas noticias sobre las relaciones entre la Corona Catalano-Aragonesa y el Reino de Túnez de 1345 a 1360 », Relaciones de la Península ibérica con el Magreb, siglos xiii-xvi, actas del coloquio, Madrid, 1987, dir. M. García-Arenal et M. J. Viguera, Madrid, 1988, n ° 5, p. 158-159.

(208) ACA, C., Rg. 555, f. 109v-110r (30/4/1347).

حفصية[209]، وهذا ما سمح له بـالزج بنفسـه في نزاعـات الاسـتخلاف والتـدخل لمؤازرة أمير معزول اعترف به وهو أبو العباس أحمد[210].

كان الفتح في صفر 748/ ماي-جوان 1347. لم تبد لا بجايـة ولا قسـنطينة مقاومة حقيقية[211]. أخضع أبو الحسن في ذات الوقت الدواودة، وعلى الخصوص المقاطعات الجنوبية كالزاب على وجه التحديد[212]، فتحكّم منذ البداية في المحـاور الصحراوية ومناطق لجوء القبائل. بعد ذلك بقليل، سـقطت تـونس دون مقاومـة بعد مهاجمتها برا وبحرا[213]. لكن تراكمت الصعوبات بسرعة. ففي 1348، هزمت القبائل العربية الثائرة الجيش المريني قرب القيروان. عندما بلغه الخـبر، أعلـن أبـو عنان بن أبي الحسن نفسه سلطانا. وفي نفس الوقت، استسـلمت بجايـة وقسـنطينة للفضل[214]، أمير بونة الحفصي، والـذي اعـترف بـه بتـونس في 1350. أمـا أبـو الحسن الذي تخلى عنه الكل بحث عن دخول المغرب الأقصـى وتـوفي بـالجزائر في 752/ 1351[215]. دامت جولته الجميلة سنتين تقريبا.

---

(209) البربر، 2، ص 473.

(210) نفسه، 4، ص 246-247.

(211) نفسه، 3، ص 26-28. كتب ابن مرزوق مؤرخ أبي الحسن عن إرساله في سفارة من السـلطان إلى أبي زكرياء يحيى أمير بجاية وأنّ هذا الأخير اقترح عليه وضع نفسه تحت تصرف المريني، أنظر الدراسة المفصّلة جدا لـ ر. فون تودن:

R. von Théoden, Abu ’l-Hasan ‘Ali. Merinidenpolitik zwischen Nordafrika und Spanien in den Jahren 710-752 H./1310-1351, Fribourg, 1973, p. 270-289.

(212) تحالف ابن مزني صاحب الزاب مع أبي الحسن الذي ثبّته في قيادته. البربر، 3، ص 27.

(213) نفسه، 3، ص 29.

(214) نفسه، 3، ص 38. "تأسف سكان بجاية على عاملهم، وسار باتجاه المدينة". سلب الرجال المرينيين وكادوا أن يقتلوا قبل مغادرتهم". أنظر أيضا نفسه، 4، ص 269.

(215) نفسه، 3، ص 40-41.

أبو عنان

أُستأنف مشروع أبي الحسن في الحال من ابنه وخليفته أبي عنان. في بادئ الأمر، كان الهدف الأساسي للسلطان الجديد قبل كل شيء هو منع عودة أبيه إلى المغرب الأقصى. لهذا السبب، فرض سلطته على الشرق، أحيانا بكيفية غير مباشرة. وفي جويلية 1348، استولى على تلمسان، وهذا ما سمح له من الاستيلاء على المراكب التي كانت موجودة في ميناء وهران[216]. أعاد تنصيب عاملي بجاية وقسنطينة السابقين في مدينتيهما على التوالي، لكن في وضعية موالين أوفياء[217]. تعلق الأمر في بادئ الأمر بوضع عراقيل ضد أبيه[218]، لكن أيضا التحكم في هذا الميناء الهام وأيضا في سكانه الذين أظهروا عداوة صريحة اتجاه المرينيين. إنّ تجزئة المغرب التي حاباها لم تكن إلا ظاهريا: بوضعه رجالا اطمأن لوفائهم، حضّر أبو عنان هجمته الإمبريالية. ففي 753/ 1352، تزيّن بلقب أمير المؤمنين[219]، وكانت له سلطته وقوته إلى درجة أن سلمت له حكومة بجاية معها[220].

ثار البجائيون بسرعة ضد السلطة الجديدة ووجب إعادة النظام بالقوة[221]. لكن دفعت المقاومة، خصوصا بقسنطينة[222]، بالسلطان إلى مباشرة حملة كبيرة من

(216) نفسه، 4، ص 280.

(217) نفسه، 4، ص 280، 285.

(218) فلم يرخص أمير بجاية لأبي الحسن بالتزود بالماء وحاول هذا الرجوع إلى المغرب لاستعادة عرشه. نفسه، 3، ص 46.

(219) Kably, Société et religion, op. cit., p. 155.

(220) البربر، 3، ص 47. اقترب أبو عبد الله أمير بجاية -الذي حاول دون جدوى الاستيلاء على قسنطينة- من المرينيين. فذهب شخصيا لتهنئة أبي عنان على وصوله إلى العرش مقابل وعود، فتنازل له وسلمه عمالة مدينته. وأرسل المريني عمر بن علي بن الوزير عاملا.

(221) نفسه، 3، ص 48-51.

(222) نفسه، 3، ص 49-51.

نهاية 757/ 1356 إلى نهاية 758/ 1357[223]. ومنذئذ أصبحت الظروف أكثر ملائمة له، لأنه لحد اللحظة حبسته مشاكل الغرب (عصيان القبائل والتهديد المسيحي) في المغرب الأقصى[224]. وأوصلته هذه الحملة إلى تونس، مرورا ببجاية. لكن تعلق الأمر حسب كلمات محمد القبلي بـ"سيادة خيالية" وليس "نفوذاً حقيقياً، وهذا ما استوجب سيطرة فعلية على الأرض. الكل جرى إذن على مثل ما إذا وجب الاقتصار على الحد الأدنى، لكن بعظمات قصوى[225]". بعودته من إفريقية في 1358، اغتيل سريعا في 761/ 1359، واستعاد السلطان الحفصي أبو اسحاق بجاية[226].

بعد ذلك، لم يفكر سلاطين المغرب الأقصى (المرينيون ثم الوطاسيون) مجددا في التوسع نحو الشرق، منشغلين بالدفاع عما تبقى لهم من حكم في المغرب الأقصى[227]. فقط طمحت محاولة قصيرة في 810/ 1407 لتنصيب طامع حفصي، لكنها عادت بسرعة[228].

---

(223) نفسه، 3، ص 58-59. حول هذه الحملة، أنظر القصة التي كتبها النميري، كاتب ومادح أبي عنان. ابن الحاج، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تح. م. بن شقرون، بيروت، 1990، ص 262-270.

(224) في 754/ 1353، انفجرت ثورة في جنوب المغرب الأقصى حين كان أبو عنان في بجاية، منعت السلطان إلى الاندفاع أبعد من ذلك. ولم يستطع استئناف سياسته المشرقية إلا بعد ضمان الأمن من الجانب المسيحي. Kably, Société et religion, op. cit., p. 162-164

(225) Ibid., p. 154.

(226) البربر، 3، ص 62.

(227) Kably, Société et religion, op. cit., p. 156-165.

(228) الزركشي، الترجمة ص 200.

أسباب الفشل المريني

تعددت تفسيرات أسباب هذا الفشل. في قسم منها، نجد العوامل التي كانت حاضرة في المحاولات العبد الوادية. لكن هناك أخرى لم تظهر من قبل أو لم تكن ملحوظة جيدا.

إنّ السياق السياسي الإقليمي كان ملائما للمرينيين. وتيسرت الوضعية في المغرب بالانسحاب المؤقت للقوة التلمسانية. من جهة ثانية، اعتنى المرينيون بربط علاقات جيدة مع المسيحيين، لغلق المجال لكل إمكانية مساعدة بحرية كتالانية للحفصيين[229]. من جهة أخرى، كان بإمكانهم الاعتماد على انقسامات الأسرة الحفصية، التي أحيانا تدار بذكاء. لكنهم واجهوا عدة صعوبات. كما في الفتوحات السابقة، طرح مشكل شساعة المجال المراد التحكم فيه، والذي تطلب حملات عسكرية طويلة مكلّفة وغير شعبية[230]. واجه المرينيون أيضا التسيير الصعب لمساهمة القبائل وولائها المتقلب. حسب مخطط مختبر، يوحد الفتح السهل الإغواء بالجشع، في حين أن متطلبات الحكومة تؤدي بسرعة إلى انشقاق حلفاء الأمس. ينسب بذلك فشل أبي الحسن إلى عداوة القبائل العربية التي ساندته في بداية الأمر. ارتكب السلطان في واقع الأمر خطأ بسحب بعض الامتيازات الضريبية، ما أدى إلى الثورة[231]. بعد ذلك، سعى العمال الذين نصبهم أبو عنان في بجاية إلى الاعتماد على قسم من سدويكش والدواودة، لكنهم واجهوا بطونا أخرى من هاتين القبيلتين خلال فتح الأراضي[232]. تزامنت هذه الفتوحات مع فترة ضرب

(229) López Pérez, La Corona de Aragón, op. cit., p. 94, 98 ; Mutgé i Vives, « Algunas noticias », art. cité, p. 137-138.

(230) Kably, « Espace et pouvoir », art. cité, p. 33.

في حالة المغرب المريني كما بالنسبة للموحدين، امتد هذا المجال الذي يطمح له إلى غاية الأندلس.

(231) Kably, Société et religion, op. cit., p. 140.

(232) البربر، 3، ص 49–50.

فيها الطاعون المغرب. من الصعب تقدير آثاره، لكن من المحتمل إرباك هذا الوباء لمخططات الفتح، خصوصا بالنسبة لأبي الحسن.

في النهاية، يثير استياء السكان بعد تعويض البجائيين في المناصب الهامة. فالشيخ أبو عطية العباس بن عمر بن عثمان العسكري، عضو مجلس أبي الحسن، عيّن قائدا لبجاية[233]. أيضا، عيّن سعيد بن محمد العقباني أصيل الأندلس والمستقر بتلمسان، قاضيا للجماعة ببجاية في عهد أبي عنان[234]. كان العمال المرينيون بصفة عامة أجانب عن المدينة وعن النخب الحفصية. فمحمد بن عبد الله بن عمر التميمي، حاجب السلطان أبي عنان، عيّن عاملا على بجاية حيث توفي في 756/ 1355[235]. في عهد السلطان أبي الحسن، أصدر بعض فقهاء بجاية فتوى بعدم أهلية أبي الحسن (كان في القيروان)، ووجوب عزله عن الخلافة[236]. من المحتمل أن يكون هؤلاء العلماء البجائيون مهددين في وضعيتهم بوصول العلماء الغربيين المعينين في مناصب كانت لهم من قبل.

أيضا، في عهد أبي عنان، حدثت ثورة كبيرة ببجاية في 1353[237] ويرجع ابن خلدون سببها إلى تنصيب الموظفين المرينيين. ثورة أخرى أدت إلى استعادة السلطان الحفصي أبي إسحاق للمدينة كان سببها كراهية البجائيين للعامل المريني يحيى بن ميمون العنيف والطاغية[238].

(233) ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 306.

(234) ابن مريم التلمساني، كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ترجمه إلى الإيطالية ف. بروفنزالي، الجزائر، 1910، ص 114.

(235) نفسه، ص 260. كانت لهذه الشخصية أصول إفريقية، لأن أباه ولد بتونس وكان جده قاضيا بتونس في عهد المستنصر. يحيى بن خلدون، الترجمة، 1، ص 93. هل تجب رؤية إرادة السلطان أبي عنان بعد ثورات البجائين في بداية عهده بتنصيب رجال مقبولين لدى سكان بجاية؟

(236) ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 86.

(237) حول هذه الثورة، البربر، 3، ص 48-49.

(238) نفسه، 3، ص 62.

أظهـر إذن بصـفة عامـة السـكان بمختلـف تشـكيلاتهم شـرعية مواليـة للحفصيين بصراحة. وهـذا واضـح بالنسـبة للنخـب الدينيـة، وسـلك المعتـوقين ورؤساء صنهاجة وعامة السكان. وليس مستحيلا أن تكون النخب التجاريـة قـد ضيقت عليها السياسة المرينية التي نجحـت في تحويـل قسـم مـن التجـارة لصـالح المغرب الأقصى[239].

*****

في 5 جانفي 1510 استولى بيدرو نافارو (Pedro Navarro) على بجايـة لحساب فرديناند الكاثوليكي (Ferdinand le Catholique). لقـد اسـتبيحت المدينة، وطرد الذين لم يغادروها بأمر مـن الأسـبان[240]. بـدأ إذن احـتلال طويـل استمر إلى غاية 1555 ويبـدو أنـه كـان كارثيـا، لمملكـة إسـبانيا ولبجايـة في ذات الوقت. ناقش المؤرخون الأسبان دوافع فتح حصون إفريقيا الشمالية[241]، لكن ما وضّحه لنا الاستيلاء على بجاية هو المكانة التي احتلتها هذه الأخيرة في بداية القرن السادس عشر في الفضاء السياسي والعسكري المغاربي. باختيـار الجزائـر عاصـمة للحكـم التركـي وقسـنطينة مركـزا جهويـا، اسـتدارت بجايـة نهائيـا نحـو الغـرب وانفصلت عن تونس. لم تعد إلا مدينة ثانوية دون دور سياسي إقليمي يذكر.

تندرج تطورات بداية القـرن السـادس عشـر هـذه في سـياق جديـد جـدا، وتشهد على خاصيتين أساسيتين للمدينة خلال كل العصر الوسيط: مكانتها علـى الصعيد الاستراتيجي في مركز المغرب والفائدة التي تحملها القوى الإقليمية. نشأت هذه الأهمية من موقعها الاستثنائي، وأيضا السياسة التي أرادها الحماديون، حيث

(239) Kably, Société et religion, op. cit., p. 150.

(240) J. M. Doussinague, La política internacional de Fernando el Católico, Madrid, 1944, p. 214-216.

(241) M. D.-C. Moreles Muñiz, « Aportación a la política africana de Fernando el Católico : Bugia », Estudios de Historia medieval en homenaje a Luis Suarez Fernández, Valladolid, 1991, p. 361-373.

جعلوها عاصمتهم الثانية في 1067. عندما استولى عليها الموحدون، كانت واحدة من المدن الأكثر قوة وازدهارا في المغرب وأصبحت رهانا من الدرجة الأولى في كل مشاريع الفتوحات.

بعد ذلك، يفسّر حنين المغامرة الامبريالية الموحدية الكبيرة وأطماع بعض الملوك في قسم منه التاريخ المعقد للعلاقات الدبلوماسية في المغرب بين منتصف القرن الثالث عشر ونهاية القرن الرابع عشر. تعاقب الحفصيون والعبد الواديون والمرينيون وانطلقوا وانهمكوا في مشاريع الفتح التي انتهت كلها بالفشل الذريع. وساهم في ذلك شساعة المجال المراد التحكم فيه وصعوبات الاتصال وخصوصا غياب الأسطول. تجب الإشارة أخيرا إلى تعقد رهانات التحالفات بين القوى، وأيضا مع مختلف الجماعات القبلية، والطامحين في الحكم المعزولين فضلا عن الملوك المسيحيين خارج المغرب.

وجدت بجاية نفسها دائما في هذه النزاعات في الخط الأول، بسبب موقعها الحدودي وطعنها في ارتباطها بإفريقية. ونتج عنها فترة خطيرة جدا من الاضطرابات، خصوصا بين 715/ 1316 و761/ 1359، خلال هذه السنوات، كانت المدينة عرضة لهجمات منتظمة وتضررت بلادها الخلفية بمرور الجيوش، حتى إذا لم يكن تحطيما عمديا للمحاصيل.

لكن فضلا عن هذه الصعوبات التي لم تكن جديدة لتحقيق وحدة المغرب السياسية، اصطدمت آليا محاولات فتح بجاية بعداوة سكان المدينة. في الواقع أكد البجائيون دائما شعورا مواليا للحفصيين، وهذا ما يظهر إدراكا بالانتماء لفضاء سياسي معيّن بوضوح مع إفريقية.

II- بجاية في الفضاء السياسي الحفصي بين التبعية والاستقلال

على الصعيد المغاربي، تدين بجاية بمركزيتها للمكانة التي احتلتها في النزاعات بين القوى. على عكس ذلك، إذا ما وضعناها على السلم الإفريقي فقط، يجد تاريخ المدينة انسجامه ومنطقه في وضعيتها الهامشية في الفضاء الذي يقع مركزه في الشرق. كان هذا صحيحا في القرون الأولى من تاريخها من خلال العلاقة بين الحماديين والزيريين، لكن بجاية فرضت نفسها على أنها عاصمة للثغور الغربية لإفريقية. في الواقع، لم تتمكن الفتوحات أو محاولات الفتح القادمة من الغرب – إلا في العهد الموحدي- من فك بجاية كلية عن المغرب الشرقي. بقيت هذه الأخيرة طوال الفترة الحفصية وحتى الاستيلاء الإسباني على مدينة إفريقية، وعقدت علاقات معقدة مع تونس، تذبذبت بين التبعية والاستقلالية التامة أو الجزئية.

قادت أهمية بجاية الإستراتيجية الملوك الحفصيين إلى تنصيب رجال من الصف الأول كعمال، غالبا ما يختارون من العائلة الحاكمة، خصوصا ولي عرش تونس. كان هذا ضمان حضور الحكم في هذا الثغر البعيد، لكنها فتحت الطريق لمحاولات التمرد ضد الحكم المركزي. بين نهاية القرن الثالث عشر والثلث الثاني من القرن الرابع عشر، غالبا ما كانت بجاية منفصلة عن العاصمة. لكن البجائيين أكدوا هويتهم أمام تونس، وغالبا ما احتفظوا بوفاء كبير اتجاه العائلة الحفصية. على العموم، كان المسعي دائما وحدة إفريقية السياسية حول تونس وبجاية. في المقابل، شجّع البعد عن العاصمة وتطلعات السكان السلاطين الى منح عمال المدينة استقلالية نسبية تدريجيا.

1) بجاية المستقلة: قاعدة انطلاق للاستيلاء على الحكم بتونس

باستثناء فترة قصيرة تحت حكم الموحدين، كانت المطالبة بوحدة الفضاء الإفريقي دائمة حتى من الذين تمردوا على الحكم في تونس. ولأنّ بجاية كانت

بعيدة عن العاصمة، فإنها ساعدت على بروز المتنافسين المعادين للعاهل. لكن لم يثر أي أمير في بجاية لتأسيس دولة منفصلة. بالعكس،لم يتوقف اولئك الذين استولوا على الحكم ببجاية عن إعادة تشكيل الوحدة الحفصية لصالحهم، من خلال الاستيلاء على العاصمة تونس لهذا الغرض. حدثت انفصالات بين القسمين الشرقي والغربي لإفريقية، لكن لم يعترف أبدا بهذا الانقسام، لا من تونس ولا من بجاية.

لم تكن العلاقة المتوترة بين المدينتين بالجديدة على الحفصيين . نتذكر أنه من الأسباب المشار إليها لتأسيس بجاية كان السماح بفتح الحماديين لإفريقية الزيرية وإعادة تشكيل الوحدة السياسية للدولة الفاطمية السابقة. في الواقع، بداية من منتصف القرن الحادي عشر وبفضل الصعوبات الكبيرة التي واجهها الزيريون، مدّد الحماديون من سيطرتهم على إفريقية الشرقية[242]، وأخضعوا خصوصا تونس التي أعطيت لأمير مستقل، وقسم كبير من مدن الجهة[243]. اعتمدوا في هذا الغرض على مشاعر السكان الإفريقيين –الذين لم ينتظروا الشيء الكثير من حكم زيري ضعيف– وعلى الفيالق القبلية التي ضمت صنهاجة (قبيلة السلالتين المتخاصمتين) وأيضا العرب الهلاليين. رغم أنّ هذه السيطرة بقيت هشة وتطلبت دائما الرجوع إلى القضاء على الانشقاقات، خصوصا في تونس. سيما وأن الحماديين لم يتمكنوا من الاستيلاء على المهدية، رغم محاولاتهم العديدة.

بعد الفترة الموحدية التي عرفت إنشاء مقاطعتين منفصلتين ومرتبطتين بمراكش مباشرة، سمح إنشاء السلالة الحفصية بإعادة تشكيل وحدة إفريقية بفتح الجهات الغربية. بداية من السنوات الأولى لعهد السلطان المستقل أبي زكرياء

(242) يمكن تفسير هزيمتهم في سبيبة ضد الهلاليين في إطار النزاع بين الحماديين والزيريين. أنظر: Achouri, op. cit., p. 85

(243) البربر، 2، ص 29–32. لتفاصيل أكثر حول هذه العلاقات، أنظر: Bourouiba, Les Hammadides, op. cit., p. 63-85

(625/ 1228–647/ 1249)، أصبحت بجاية عاصمة مقاطعة من المجال الحفصي. إلى غاية حملة لويس التاسع الصليبية كانت قوة تونس في الإبقاء على صلابة الوحدة المجالية. في وقت الهجمة الصليبية، كان بإمكان السلطان طلب الحصول على الفيالق القادمة من المقاطعات الغربية، بقيادة عامل بجاية[244]. لكن بسرعة بعد ذلك، أصبح ضعف الحكم في تونس جليا، وبدأت بذلك فترة مضطربة لعبت خلالها بجاية في عدة مرات دور قاعدة انطلاق منافس للحكم.

أ) الاغتصابات الأولى للسلطة في بجاية: أبو إسحاق (678، 1279) وأبو فارس (681، 1283)

أثار موت الخليفة المستنصر في 675/ 1277 الدوامات الأولى في بجاية. ترك السلطان الجديد، الواثق، شؤون الدولة لكاتبه ابن الحبابر، وهو أندلسي اصطدم بجبهة الموحدين. أرسل الكاتب أخاه أبا العلاء إدريس إلى بجاية لشغل بيت مال المدينة بجانب العامل الموحدي محمد بن أبي هلال الهنتاتي. نفّر الوافد الجديد بطغيانه السكان، وخصوصا مشيخة الموحدين، لهذا اغتاله رجال العامل في 677/ 1278، مجبرين هذا الأخير على الاستدارة نحو طامح ممكن لتعويض سلطان تونس. لهذا الغرض نادى على عم السلطان أبي إسحاق الذي كان قد ثار ضد المستنصر وفرّ إلى الأندلس ثم إلى تلمسان، وهيأ نفسه منذ إعلان وفاة المستنصر معاودة سلك طريق إفريقية. بدعوة من ابن أبي هلال وأعيان بجاية، استولى على المدينة في أفريل 1272 وبداية من أوت من نفس السنة دخل إلى تونس حيث اعترف به سلطانا[245].

(244) البربر، 2، ص 366.

(245) نفسه، 2، ص 376–377.

ظهر في الثورة الأولى عدة محركين. أولا الشيوخ الموحدين، خصوصا العامل، حيث طعن أندلسي في سلطته[246]. بعد ارتكاب هؤلاء عملية اغتيال أبي العلاء، أعطى رأس المشئوم إلى الغوغاء، لكن خوفا من غضب الواثق استنجد البجائيون بأبي إسحاق. عندما دخل هذا الأخير إلى المدينة، تلقى مبايعة الموحدين وأعيان بجاية "ملئ من أهل بجاية"[247]. يبدو أن دوافع هذه الثورة لم تتعدى تقريبا الحنق اتجاه صاحب بيت المال المكروه والخوف من انتقامات السلطان بعد الاغتيال. ويمكن أيضا أن ننظر إليها برفض نخب بجاية لشخصية مفروضة من تونس حيث رفضت سلطتها. لكن، لم يدم تقريبا انفصال بجاية عن تونس ولا نستطيع إذن أن نتحدث عن إرادة البجائيين في أي استقلال[248].

بعد ذلك بقليل، يبيّن حادث عرضي آخر إغواء عمال بجاية بالطموح إلى الحكم الأعلى. عيّن أبو إسحاق ابنه أبا فارس عاملا على المدينة في 679/ 1280. عندما فرّ السلطان من تونس أمام تمرد ابن أبي عمارة في 681/ 1283[249]، توجه إلى بجاية حيث يأمل في الاستفادة منها كقاعدة لاستعادة الحكم[250]. لكن بمجرد وصوله إلى المدينة، طرده ابنه من القصر وابتعد لفائدة هذا الأخير الذي تلقى مبايعة أعيان المدينة ثم سكانها [251]. لم يستفد أبو فارس طويلا من اغتصاب السلطة، حيث قتل بسرعة خلال المعارك التي خاضها ضد ابن أبي عمارة. تبع

(246) يوضح ابن خلدون أن أبا العلاء حاول فرض إرادته على الشيوخ "وتحكّم في المشيخة". العبر، 4، ص 479، البربر، 2، ص 378.

(247) نفسه.

(248) في وقت وصول الواثق إلى العرش، أرسل البجائيون بيعتهم دون صعوبات. البربر، 2، ص 377.

(249) نفسه، 2، ص 390-391.

(250) نفسه، 2، ص 391.

(251) "وأشهد الملأ من الموحدين ومشيخة بجاية" ثم "ودعا الناس إلى بيعته". العبر، 4، ص 693، البربر، 2، ص 392.

ذلك اضطرابات وتغيرات مفاجئة ومختلفة، قرر سكّان المدينة بعدها تسليم المدينة إلى المغتصب، وهذا ما أدى إلى فرار أبي إسحاق وابنه الثاني أبي زكرياء[252]. في هذا الحادث، لم تكن دوافع البعض واضحة. لكن يتبيّن أن السكان بعدما اعترفوا بأبي فارس رفضوا مغامرة الانفصال واعترفوا من جديد بعاهل تونس، وهنا نتساءل هل ثمة شرعية مطعون فيها[253]؟

ب) أمراء بجاية المستقلين: أبو زكرياء (684/1285ـ700/1301)، **أبو البقاء** (700/1301ـ709/1309) **وأبو بكر** (712/1312ـ718/1318)

رغم هذا، أصبحت بجاية بعد ذلك بقليل لأول مرة إمارة حفصية مستقلة مع أبي زكرياء وابنه أبي البقاء.

أبو زكرياء هو أحد أبناء أبي اسحاق الذي رأيناه فارا من بجاية مع أبيه بعد انتصار المغتصب. ونجح في الوصول إلى تلمسان التي استخدمت كقاعدة انكفاء للأمراء الحفصيين[254]. لكن باعتراف عاهل تلمسان يغمراسن بحكم تونس الجديد[255]، فضّل أبو زكرياء الهروب ولجأ إلى قبائل زغبة والدواودة في النواحي، فساعدت هذه الأخيرة الأمير الحفصي على أن يصبح مالكا لبجاية في 684/ 1285[256].

تدخلت عدة عوامل في عملية استيلاء أبي زكرياء على الحكم ساعدت مشروعه. لدينا توضيحات قليلة هذه المرة حول موقف سكان المدينة. يقول ابن

(252) نفسه، 2، ص 393. قبض البجائيون بسرعة على أبي اسحاق وقتلوه في حين تمكّن أبو زكرياء من الفرار.

(253) قدّمت هذه الشخصية نفسها كابن السلطان الواثق قبل أن يكتشف أحد الموالى القدماء لهذا الأخير الأمر في النهاية. نفسه، 2، ص 388.

(254) نفسه، 2، ص 394.

(255) بين ذاك الوقت، ترك ابن أبي عمارة المكان لأبي حفص في 683/ 1284.

(256) نفسه، 2، ص 399-400.

خلدون أنهم انتظروا أبا زكرياء، لأنهم كانوا عرضة للنزاعات الداخلية(257). وذكر من جهة ثانية، استفادة أبي زكرياء بتلمسان من مساعدة التجار البجائيين الموجودين في هذه المدينة، حيث أقرضوه مبلغا ماليا كاف جدا لتشكيل جيشه والإنفاق عليه(258). وربما دفعه إلى هذا المشروع أبو الحسين بن سيد الناس، من عائلة أندلسية كبيرة مستقرة في تونس. واستفاد خصوصا من المساعدة الثمينة من القبائل المقيمة بين تلمسان وبجاية: زغبة والدواودة وسدويكش(259).

أظهر أبو زكرياء منذ البداية أن طموحه لا يتوقف عند بجاية، وإنما طالب بالسيطرة على كل المجال الحفصي. استولى في بادئ الأمر على كل المجال التابع تقليديا إلى بجاية: قسنطينة ثم في الغرب دلس والجزائر والزاب في الجنوب(260). حمل لقب أمير وكنية أناقة الخلافة، أمير منتدب لإحياء دين الله(261)، مظهرا بوضوح طموحاته. استمرت هذه الوضعية، لأن صعوبات الحفصيين في تونس كما في بجاية منعت كل محاولة توحيد كبيرة(262). ورغم ذلك نجح أبو البقاء، ابن وخليفة أبي زكرياء، في إعادة تشكيل الوحدة الحفصية في 709/ 1309. فقد توصل في 706/ 1306 لاتفاق مع أبي عصيدة سلطان تونس ينص على أن يصير من يبقى على قيد الحياة في حالة وفاة أحدهما ملكا على كل إفريقية الحفصية.

(257) نفسه، 2، ص 400. لكن لا نعلم ما هي دوافع هذه النزاعات.

(258) نفسه، 2، ص 399.

(259) نفسه، 2، ص 399-400.

(260) نفسه، 2، ص 400، 406-407.

(261) H. Lavoix, Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale, II, Espagne et Afrique, Paris, 1891, n° 950, p. 418. J. Farrugia de Candia, « Monnaies hafsides du musée du Bardo », RT, 9, 1938, p. 246.
لكن يقول ابن خلدون بعدم تلقبه في البداية بأمير المؤمنين حتى لا يصطدم بالموحدين أصحاب المقام الرفيع بتونس. "طبقة من الرجال الموحدين الذين كانت لهم سلطة في الوطن". البربر، 2، ص 400.

(262) من الإطالة جدا والفائدة القليلة رواية تفاصيل عهود الحكم هذه. نسجل ببساطة فقط تحالفات بأشكال مختلفة مع العبد الواديين والمرينيين، والدور المعقّد لقسنطينة والجزائر والقبائل. نفسه، 2، ص 401-431.

وبوفاة أبي عصيدة في 1309، ورغم بروز طامح آخر، استولى إذن أبو البقاء على تونس[263].

لم يدم هذا التوحيد طويلا، ففي 710/ 1310، أعلن حاجب أبي البقاء أخ هذا الأخير (أبو يحيى أبو بكر) سلطانا بعدما كان عاملا على قسنطينة. بحث أبو بكر مباشرة في الاستيلاء على بجاية التي يدافع عنها جيدا قائد مليشيا صنهاجة، عبد الرحمان بن يعقوب بن خلوف، الذي تقلد منصب مساعد السلطان أبي البقاء[264]. في 712/ 1312، أطاح ابن اللحياني بأبي البقاء في تونس واستطاع أبو بكر الاستيلاء على بجاية[265].

في بادئ الأمر، كان هناك تواصل بين بجاية وتونس مع تحديد حدود الدولتين[266]، والذي سمح لأبي بكر بالدفاع بفعالية ضد الهجمات العبد الوادية. منتهزا صعوبات السلطان أبي حمو بتلمسان، استولى أبو بكر بسرعة على تونس في

(263) نفسه، 2، ص 426، 430.

(264) نفسه، 2، ص 435.

(265) كتب ابن خلدون (البربر، 2، ص 438) أن المدينة استولى عليها قبل سقوط أبي البقاء، وهذا ما يفنده برونشفيك (Brunschvicg, La Béribérie, op. cit., p. 127). اعتمادا على وثيقة ميورقية بتاريخ 8 أوت 1312 والتي هنأ فيها حاكم ميورقة أبا بكر باستيلائه على بجاية.

E. de K. Aguilò, « Tractat de pau entre el Rey de Mallorca Don Sanxo y el de Bugia Boyhahia Abubechre, firmat a Mallorca pels seus representants Gregori Sallambé de una part y Mahomat Abdellá Ben Acet de l’altra, dia 23 de novembre de 1312 », BSAL, 15, 1915, p. 225.

(266) البربر، 2، ص 437، Brunschvicg, La Béribérie, op. cit., I, p. 130. ضرب أبو بكر العملة باسمه على غرار سابقه أبي زكرياء.

H. W. Hazard, The Numismatic History of Late Medieval North Africa, New York, 1952 (Numismatic Studies, 8), n° 581, p. 167.

لا تحمل دنانير أخرى ضربها هذا العاهل في بجاية إشارة تاريخ، لكن مع لقب أمير المؤمنين. يصعب معرفة ما إذا كانت قد ضربت قبل أو بعد ذهابه إلى تونس.

718/ 1318[267]. لم يكن الفصل في هذه المرة إلا مؤقتا ولم يتأخر عاهل بجاية في إعادة تشكيل الوحدة الحفصية انطلاقا من هذه المدينة.

ج) الأزمة المرينية وتداعياتها : أبو عبد اللّه وأبو العباس (765،1364ـ772،1370)

هزّ الاحتلالان المرينيان بعمق إفريقية والسلالة الحفصية. أرسل أبو الحسن عامل بجاية أبا عبد الله إلى إقامة جبرية في المغرب الأقصى[268]. وأعيد بعد ذلك مرتين إلى مدينته، لخدمة مصالح صاحب المغرب الأقصى: في 749/ 1348، أعاده أبو عنان إلى منصبه لمنع عودة أبي الحسن من تونس، لكن أقاله منه بداية من 753/ 1352 بعدما ضمن الحكم. بعدما أعاد أبو إسحاق تنصيب السلالة الحفصية بتونس في 761/ 1359، أرسل السلطان المريني أبا عبد الله من جديد لاستعادة بجاية ومحاصرة أبي اسحاق الذي كان موجودا بها.

بداية من 761/ 1360، بذل أبو عبد الله جهده لاستعادة المدينة، وكان لا بد له من أربع حملات لفتح بجاية في 765/ 1364 بمساعدة قبائل الدواودة وسدويكش. في الاستيلاء النهائي على المدينة، يبدو أن السكان لعبوا دورا ما. يروي ابن خلدون أنه عندما بلغ السكان استعداد السلطان أبي البقاء للسماح لهم بالذهاب إلى عاصمته[269]، نقضوا سلطته واعترفوا بأبي عبد الله[270]. لكن بسرعة، جلب هذا الأخير كراهية السكان بفعل سلوكه. مدفوعون ربما بالهزائم المتوالية لسيدهم ضد ابن عمه أبي العباس صاحب قسنطينة، استنجد البجائيون بهذا

(267) دفعه إلى ذلك ابن غمر الذي أمل في إبعاده. البربر، 2، ص 445.

(268) نفسه، 3، ص 28.

(269) دفع إعلان وفاة حاجبه ابن تافراجين بالسلطان بالعودة إلى تونس.

(270) حول هذه الأحداث، العبر، 3، ص 39-40، 47، 62، 67.

الأخير. انهزم أبو عبد الله في النهاية وتوفي في 767/ 1365 بعدما تخلى عنه سكان مدينته والقبائل[271].

أعاد إذن أبو العباس تشكيل هذا المجموع السياسي الذي ضمّ كل جهات إفريقية الغربية[272]. لكن بمجرد وفاة السلطان أبي إسحاق في 770/ 1369، استولى على تونس وأعاد تشكيل الوحدة الحفصية في 772/ 1370[273]. فتحت بذلك فترة هدوء طويلة بإفريقية.

د) استعادة السيطرة في عهد أبي فارس وعثمان (796/1394- 893/1488)

يعتبر هذان العهدان بمثابة عصر ذهبي جديد للسلالة الحفصية. إنّ عهد أبي فارس، ابن وخليفة أبي العباس، تغنى به أمثال ابن قنفذ في الفارسية التي كتبت لتمجيد هذا السلطان الذي ولد بقسنطينة. إنّ عهد عثمان الذي هو معروف في قسمه الأول فقط بفضل الزركشي وابن الشماع، تميّز هو أيضا باستقرار حقيقي.

فمحاولتا الاستيلاء على السلطة التي قام بها الأمراء الحفصيون في 796/ 1393 كانت قصيرة[274]. كانت محاولة عامل قسنطينة أبي الحسن الأكثر

(271) نفسه، 3، ص 72-73. حكم مشئوم لهذا الرجل -الذي عيّن عاملا على بجاية في 747/ 1346- حيث بحث خلال عشرين سنة كي يصبح سيدا لمدينته ولم يوطّن سيطرته الفعلية إلا خلال سنتين...

(272) حسب الزركشي، لم يستقر في بجاية، لكن تناوب مع قسنطينة إلى غاية الاستيلاء على بجاية. الزركشي، الترجمة، ص 165.

(273) بلغ في 1371 حصار مركبين للملك بجاية ميناء تونس.

Archivio di Stato di Palermo, Notai defunti 1a stanza, Bartolomeo de Bonamia, 126, f. 154v, cité par H. Bresc, « Pantelleria entre l'Islam et la chrétienté », CT, 75-76, 1971, p. 105-127.

يتوافق هذا دون شك مع استيلاء أبي العباس على تونس.

(274) قام بالأولى أمير بجاية أبو العباس أحمد حفيد السلطان أبي العباس والثانية الأمير أبو عبد الله محمد، عامل بونة السابق. الزركشي، الترجمة، ص 200-201.

جدية ولم تعرف أي نجاح: عيّنه ابن أخيه (حفيد وخليفة أبي فارس وهو أبـو عبـد الله محمـد الرابـع المستنصـر)، الـذي حكـم لفـترة قصـيرة بـين 837/ 1433 و839/ 1435) [275] عاملا على بجاية. ثار أبو الحسن بعد وفاة هذا الأخـير ضـد عثمان سيده الجديد بتـونس. بعـد آخـرين، سـاعدته بعـض القبائـل في مشـروعه ودفعته للاستيلاء على تونس[276]. لكن بداية من 843/ 1439، طرده عثمان مـن بجاية بمساعدة قبائل أخرى بالجهة[277]. خلال فترة الانفصال القصيرة هذه، فرض أبو الحسن نفسه – على غرار سابقيه ملـوك بجايـة- سـيدا علـى مجمـل إفريقيـة، وضرب العملة باسم أمير المؤمنين وتلقب بلقب الخلافـة: المتوكـل علـى الله[278]، مؤكدا بذلك طموحه بعدم الاكتفاء ببجاية.

جرت إذن محاولتا اغتصاب الحكم في بجاية في عهد هذين الملكين الكـبيرين في سياق غير ملائم تماما كما في المحاولات السابقة. ويفسر فشـلهما بعـدة عوامـل خارجة عن المؤهلات الشخصية لأبـي فـارس وأبـي عثمـان. في بـادئ الأمـر، لم يستطع العبد الواديون والمرينيون – الأقل قوة- التدخل كما فعلوا خـلال أزمـات القرن الرابع عشر. من جهة أخـرى، يبـدو أن القبائـل لعبـت دورا أقـل تقويضـا بالنسبة للحكم. أخيرا، تقلصـت قـوة بجايـة في الفضـاء الحفصـي، تحـت منافسـة قسنطينة وبونة اللتين لعبتا منذئذ دورا أكبرا في الأحداث السياسية[279].

(275) نفسه، ص 211.

(276) نفسه، ص 222.

(277) نفسه، ص 225-227.

(278) R. Brunschvig, « Un dinar hafside inédit », Bulletin de la société historique et géographique de Sétif, 2, 1941, p. 179-182.
لا يحمل هذا الدينار المضروب في بجاية تاريخًا معينًا.

(279) حبا أبو فارس قسنطينة دون شك حيث كـان مـن مواليـدها، واحتفظـت بعـد ذلـك بوضـعيتها الريادية.

هـ) استقلالية في نهاية القرن الخامس عشر

نهاية الفترة الحفصية غير معروفة جيدا. أوقف روبار بروشنفيك (Robert Brunschvicg) دراسته عند نهاية سلطنة عثمان، معتبرا ما تبعها عبارة عن نوبة موت طويلة ودون أهمية كبيرة. من جهة أخرى، المصادر هنا نادرة. يروي ليون الإفريقي أن جهة بجاية كانت مملكة مستقلة في زمن الغزو الإسباني[280]. إنّ نص المريني أكثر دقة حيث يؤكد بالنسبة لبداية القرن السادس عشر انفصال أمير بجاية عن تونس على غرار أميري قسنطينة وبونة، وهذا ما يبيّن تفتت الفضاء السياسي الحفصي. كان إذن يحكم بجاية أبو العباس عبد العزيز، ابن الأمير أبي محمد عبد الله[281]. بين أبي العباس هذا وأخيه أبي بكر، الذي حكم قسنطينة[282]، كانت النزاعات مستمرة للهيمنة على الجهة. حوصرت بجاية عدة مرات وخربت أريافها. ففي 912/ 1507 على الخصوص، أقفل أبو بكر المدينة خلال أكثر من شهر وقطع أشجار البساتين المجاورة[283]. بعد ذلك بقليل، هاجم أبو العباس قسنطينة، التي استولى عليها قبل نزول بيدرو نافارو بقليل[284]. ويدل فشل المقاومة المسلمة في مواجهة الأسبان وغياب ردة فعل تونس بعدم قدرتها في هذه الفترة فرض حكمها على المقاطعات الغربية.

---

(280) Léon l'Africain, p. 6.

(281) إنّ هوية الأمير أبي محمد عبد الله ليست واضحة. يعرّفه محمد الصالح بعيزق (بجاية، المرجع السابق، ص 89) بأبي عبد الله محمد سلطان تونس (899/ 1494-932/ 1526) وتوحي شجرة الحفصيين التي أعطاها برونشفيك أنه يتعلق بأمير قائد قسنطينة (Brunschvicg, La Berbérie, op. cit., tableau en annexe n° II). إنّ لقب أمير الذي أعطاه نص المريني يترك ميلاً إلى الفرضية الثانية، بشرط صحة ترجمة لورون-شارل فيرو (Laurent-Charles Féraud). يشير هذا إلى استقلالية متزايدة للجهات الغربية عن تونس. لكن بالنسبة لهذه الفترة، تتعدد نقاط الظل وضياع نص المريني الأصلي يجعل استعمال الترجمة عسير أحيانا.

(282) المريني، ص 248.

(283) نفسه، ص 248.

(284) نفسه، ص 249.

توضّح هذه الأحداث العارضة، المعقـدة في تفاصـيلها، بعـض خصـائص العلاقات بين المدينتين، وتبيّن أولا أن موقع بجاية جعـل منهـا قاعـدة مثاليـة لأي منافس لسلطان تونس. كانت المدينة بعيدة، تفصـلها عـن العاصـمة جبـال صـعبة الاختراق. كانت أيضا مزدهرة على الأقـل في بعـض الفـترات، وهـذا مـا سمـح بتقوية أي طامع وتحضير هجوم ضد القسم الشرقي من إفريقية. تعددت محاولات الاستيلاء على السلطة فيهـا وكانـت أحيانـا طويلـة، وأدت إلى أزمـات غالبـا مـا ضمّت إليها القبائل المجاورة والقوى الخارجية. لكن لا يجب المبالغـة في آثـار هـذه الأزمات المتكررة على المدينة. لا تتحدث الوثائق الأوروبية – كثيرة على الأقل في فترة الانفصالات الأولى- عن الاضطرابات في المدينة، وهـذه النزاعـات لم تربـك نشاطات الميناء ولا هدوء المدينة كثيرا.

الجدير بالإشارة أن هؤلاء الملـوك البجـائيين المسـتقلين طمحـوا كلـهم في السيطرة على مجمل الفضاء الحفصي، مع تونس كعاصمة، باستثناء ربما فترة بدايـة القـرن السـادس عشـر. لا يمكننـا إذن الحـديث عـن ضـعف إرادة حقيقيـة في الاستقلال. لا تستثني هذه الشرعية وهذا الاعتراف بوحدة إفريقية السياسية بهـذا القدر تأكيد هوية بجائية، عبّرت عن نفسـها مـن خـلال الثـورات، وأيضـا نشـاط النخب الحضرية. قاد هذا الشعور – الذي تضاف إليه متطلبات مقاطعة هامشية- تدريجيا إلى استقلالية حقيقية لبجاية، منحتها لها تونس.

2) استقلالية في محيط إفريقية

إذا لم يكن هناك تشكيك في الوحدة الحفصية، في الواقع وجد في المدينة شعور بالهوية، دفع السكان إلى طلب سيد يكون مقربا منهم مثل سلطان تونس، لكن دون المطالبة بانفصال كامل. يضاف إلى هذا المتطلبات الإستراتيجية والسياسية في ذات الوقت لبعد بجاية عن تونس، والتي دعت السلاطين إلى منح استقلالية أكبر للمدينة، تاركين سلطات هامة للعامل أو لبعض فئات السكان الحضر.

أ) شعور بالهوية البجائية ضمن الإطار الحفصي

إنّ إشارات الشعور بالهوية البجائية هي نادرة. باستثناء الغبريني والمريني، لم يحتفظ بأي نص مؤلف بجائي. لا يوجد كتاب تاريخي مثل كتاب ابن قنفذ بالنسبة لقسنطينة، ولا كتاب فضائل المدينة كما نجده بالنسبة لتونس[285]. بيد أنّ النصوص المتوفرة تبيّن هذه الهوية البجائية وتوحي أنها تعبر عن نفسها على الصعيد السياسي حتى وإن كانت بكيفية محدودة جدا وغير منتظمة. إنّ مشروع الغبريني طبعا هو تعبير عن هذه الهوية الحضرية ويوحي بكتابة عنوان الدراية في فترة استقلالية بجاية[286]. إنّ فضائل رجال العلم الذي نجده يعبّر عن مفخرة النخب العلمية التي انتمى إليها المؤلف[287].

يعبّر عن هذا الشعور أولا على الصعيد السياسي من خلال التفضيل الذي عبّر عنه السكان عدة مرات للحكام الحفصيين الذين اعترفت بهم المدينة. إنّ النظام الذي اتخذه سلاطين تونس في الغالب كان تنصيب ابن العاهل –

(285) M. Chapoutot-Remadi, « Tunis », Grandes villes méditerranéennes du monde musulman médiéval, dir. J.-Cl. Garcin, Rome, 2000, p. 260.

(286) ولد الغبريني في 644/ 1246 وتوفي في 704/ 1304. قضى السنوات الأخيرة إذن في عهدي أميري بجاية أبي زكرياء وأبي البقاء (684/ 1285–709/ 1309).

(287) كانت هنا واحدة من وظائف مجاميع السير هذه.

الأكبرعموما- وولي العرش عاملا[288]. ونتج عن ذلك طبيعيا خلافة عدة عمال ببجاية لآبائهم في تونس. لكن نرى أيضا رسم بصمات سلالات محلية، التي كان البجائيون حساسين اتجاهها، أحيانا إلى درجة رفض عامل لاعتباره أجنبيا.

وأول حادث موحي في هذا المعنى. عندما توفي أبو زكرياء يحيى عامل بجاية في 747/ 1346[289]، أرسل السلطان لتعويضه أبا حفص عمر وهو أحد أبنائه ليحل محله، والذي سلك طريقة غير صحيحة. ثارت رعية بجاية، وتسلقت أسوار القلعة تحت صيحات "عاش الأمير، ابن سيدنا السابق[290]"، وطردت العامل ونصبت مكانه أبا عبد الله محمد بن أبي زكرياء يحيى، وهذا ما استوعبه السلطان في النهاية[291]. على الرغم من سلوك عبد الله نفسه طريق الطاغية، لم يتردد السكان في دعوة خصمه أبي العباس أمير قسنطينة[292]. بعد ذلك، بحث إبراهيم أخ أبي عبد الله، الاستيلاء على مدينة بجاية، لكن دون جدوى[293].

بعد ذلك مباشرة، فرضت سلالة محلية أخرى نفسها ودامت (ولو بصفة منقطعة) من 772/ 1370 إلى 856/ 1452. عيّن أبو عبد الله محمد بن السلطان أبي العباس في بجاية في 772/ 1370. بوفاته في 785/ 1383، عوّضه ابنه أبو

(288) شخصيات من خارج الأسرة الحفصية ومرتبطة كثيرا بسلطان تونس حكمت بجاية عدة مرات. لكن يرجع نظام إقطاعي أميري بسرعة دائما. أنظر جدول العمال في بعيزق، بجاية، المرجع السابق، ص 98-99 وشجرة النسب، المرجع نفسه، ص 100.

(289) هو ابن السلطان أبي يحيى أبي بكر، حكم المدينة منذ 720/ 1320. بقيادته للقتال ضد العبد الواديين، عيّن السلطان أبو بكر اثنين من أبنائه في الثغور الغربية للدفاع عنها بطريقة أفضل. البربر، 2، ص 455.

(290) نفسه، 3، ص 22.

(291) نفسه، 3، ص 22-23. لكن لم ينتهز هذه الحكومة لمدة طويلة، حيث أخذته العاصفة المرينية.

(292) نفسه، 2، ص 72-73.

(293) لهذا تلقى مساعدة سلطان تلمسان الذي منح له خصوصا ضرائب دلس إلى غاية استيلائه على بجاية. يحيى بن خلدون، الترجمة، 2، ص 394، البربر، 3، ص 474.

العباس أحمد[294]. في 798/ 1395 بعد وفاة السلطان أبـي العبـاس، حـاول هـذا العامل اغتصاب الحكم، لكن دون جدوى[295]. وضع السلطان أبـو فـارس علـى رأس المقاطعة رجالا أوفياء، بصفة عامة قادة معتوقين[296]. رغـم إرجاعـه عمالـة بجاية إلى سيدها السابق في 810/ 1407،- الأمير أبي العباس أحمد- الذي خلـف أخاه محمد[297]. يبدو هنا أيضا أن العاهل فضّل تسليم المدينة لشخصية من العائلة الحفصية المرتبطة ببجايـة. وبعـد تغـيرات متعـددة للعمـال[298]، عـيّن عثمـان في 843/ 1439 أبا محمد عبد المؤمن بن أبي العباس، الذي يعرّفـه برونشـفيك كـابن أبي العباس أحمد هذا، الذي سبق له وأن حكم المدينـة في فـترة أبـي فـارس[299]. بوفاته في 846/ 1442، عوّض أبو محمد بأخيه أبـي محمـد عبـد الملـك[300]. "دون شك -كتب روبار برونشفيك- أن السـلطان هـدف إلى مصـالحة الـروح المعنويـة الخاصة للبجائيين، السعداء بوجود أمراء على رأسهم، حيث أن الأب والجد كانـا عاملين بها[301]." انتهـى أبـو محمـد عبـد الملـك بتوقيفـه بعـدما رفـض الإشـادة

(294) البربر، 3، ص 110.

(295) الزركشي، الترجمة ص 194.

(296) Brunschvicg, La Béribérie, op. cit., I, p. 211.

في 810/ 1407 وأمام التهديد الذي مثله أمير حفصي متمرد وهو أبو عبد الله محمد، طلب السلطان أبو فارس من أخيه أبي زكرياء عامل بونة بتولي قيادة بجاية خلفا للقائد أبي نصر ظافر. رغم ذلـك، اسـتولى أبو عبد الله محمد على المدينة بعد طرد سكان بجاية لزكرياء. لكن بسرعة استرد أبو فارس بنفسـه المدينـة. الزركشي، الترجمة ص 199–201.

(297) الزركشي، الترجمة ص 200–201، Brunschvig, La Beriberi, op. cit., I, p. 214

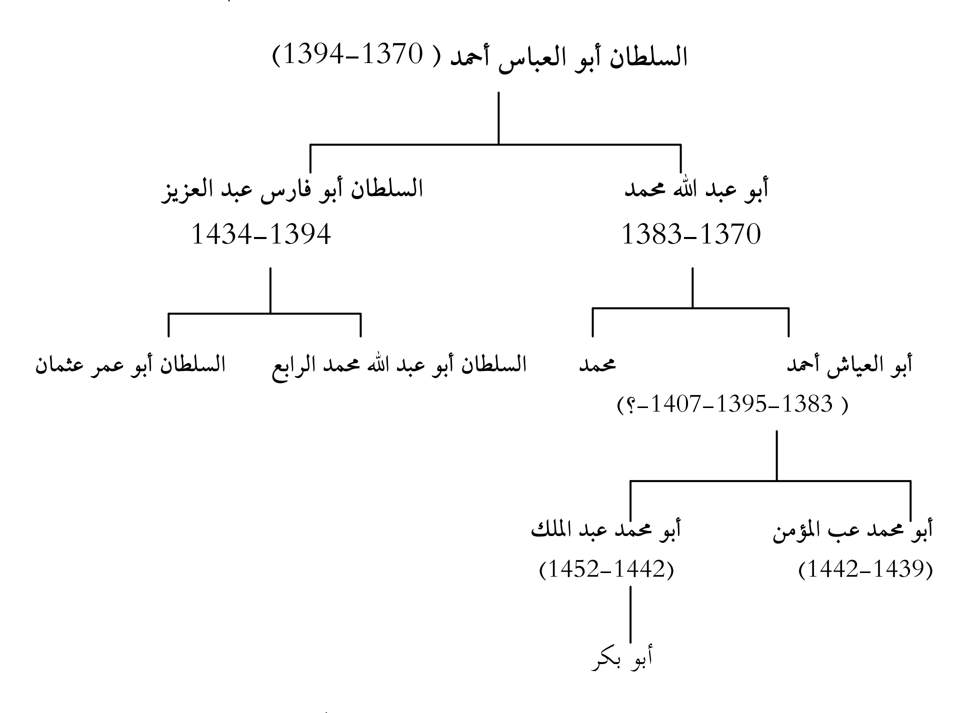
(298) الزركشـي، الترجمـة ص 202–226-238 Brunschvig, La Berbérie, op. cit., I, p. 245,

(299) الزركشي، الترجمة ص 227 ; Brunschvig, La Berbérie, op. cit., I, p. 246

(300) يقدمه الزركشي، الترجمة ص 229 كابنـه، لكـن في موضـع آخـر (الترجمـة ص 242) يتنـاقض ويؤكد على أنه يتعلق الأمر بأخيه.

(301) Brunschvig, La Berbérie, op. cit., I, p. 246.

بالسلطان، وعوّض بعد ذلك بقليل في 856/ 1452 بالقائد منصور[302]. بعد ذلك، أوقف السلطان ابنه أبا بكر، الذي – كما يخبرنا الزركشي- طالب به البجائيون كعامل "معتمدين على شغل أبيه وخاله في السابق لنفس الخطة[303]. على الرغم من التقلبات العديدة، هناك سلالة محلية من الأمراء، تضم خمسة ممثلين موزّعين على ثلاثة أجيال. عندما قرر سلاطين تونس فرض رجل موثوق به (غالبا معتوق) أو على الأقل واحد من خارج العائلة في بجاية، لم تكن سلطة هؤلاء الأجانب إلا محتملة باعتدال، وفضّلوا أميرا من نفس الدم تعرفه المدينة.



شجرة النسب لحكام بجاية المنحدرين من عائلة أبي عبد الله محمد (1370–1452)

(302) الزركشي، الترجمة ص 239.

(303) نفسه، ص 242.

ب) استقلالية ممنوحة تدريجيا لجهة محيطة

لم يصل الشعور بالهوية الحضرية إلى حد الرغبة في الاستقلال. أرغمت متطلبات حكومة مقاطعة بعيدة ومهددة غالبا بسرعة الملوك على منح أمير بجاية استقلالية واسعة.

خلال سنوات الحكم الحفصي الأولى، كانت سلطة سلطان تونس كبيرة إلى درجة أنه سمح لنفسه بممارسة وصاية ضيقة على مقاطعة بجاية. كان هذا واضحا جدا في عهد أبي زكرياء والمستنصر الحفصيين. فالأول قضى أجله في 647/ 1249 عندما كان بصدد تفحص حالة قسنطينة[304]، التي كانت جزءا من القطاع الذي عهد به إلى ابنه أبي زكرياء عامل بجاية. بعد ذلك، عندما انتفضت الجزائر (التي تتبع بجاية أيضا) ضد الحفصيين، أرسل السلطان المستنصر نفسه في بداية الأمر جيشا، وفقط بعد فشل هذا التدخل الأول أعطى أمرا لعامل بجاية أبي هلال بالسير ضد المدينة المتمردة على رأس القوات الموحدية. فشل أيضا هذا الأخير، فكان جيشا مزودا بأسطول أرسله سلطان تونس مباشرة وتمكن من إنهاء مقاومة الجزائر في 673/ 1274[305]. هنا أيضا أراد العاهل ممارسة تحكم مباشر في الأقاليم الغربية.

كانت الوضعية مختلفة مع تعيين أبي فارس في منصب عامل بجاية في 679/ 1280. كتب ابن خلدون أن السلطان عيّن أميرا "مستقلا" لمدينة ومقاطعة قسنطينة[306]. طبعا، كانت صلاحيات أبي فارس محدودة، لكن كان ثمة تطور واعتراف بضرورة إعطاء حكم قوي لهذا العامل. إنّ التفسير الذي يعطيه ابن

(304) "خرج من تونس إلى جهات قسنطينة للإشراف على أموالها". العبر، 4، ص 624، البربر، 2، ص 33.

(305) البربر، 2، ص 372.

(306) "وعقد له على بجاية وأعمالها وأنفذه إليها أميرا مستقلا". العبر، 4، ص 685، البربر، 2، ص 384.

خلدون هو دون شك ثانوي جدا[307]. كان الهدف منه تقوية الحدود الغربية لمواجهة تهديد العبد الواديين المتنامي. بعد 1318، والفترات الأولى من الاستقلال، أبقى العامل على استقلالية حقيقية عن الحكم المركزي. وتمكن السلطان أحيانا من فرض رجال ثقة مثل الحجاب أو صاحب المال في بجاية، لكن الأمير-العامل بحث من جانبه على إحاطة نفسه بأشخاص يكرسون حياتهم له بشكل كامل ولا يجازف بمراقبتهم له لحساب السلطان.

كان هذا جليا خصوصا في عهد الأمير أبي زكرياء، بين 719/ 1319 و747/ 1346. فقد عيّن السلطان أبو يحيى ابنه أبا زكرياء على رأس المقاطعة، لكن محاطا بحاجب اختاره هو بنفسه: ابن قالون أولا ثم ابن سيد الناس. أستدعي هذا الأخير إلى تونس وعوض في بجاية بأحد مساعديه، أبو عبد الله محمد بن فرحون، الذي اعتقل وقت سقوط حاميه في 733/ 1332[308]. أرسل السلطان قائد جيش وحاجبًا جديدًا وهو أبو إسحاق بن علان. بعد ذلك بقليل، عوّض الأمير هذا الأخير برجل يدين له بكل الولاء وهو الأندلسي أبي العباس أحمد بن أبي زكرياء الرندي. أثار هذا الرفض سخط السلطان[309]، الذي أجرى بنفسه تعيين حاجب ابنه بمجرد وفاة الأندلسي، حيث أرسل موحدي من الدائرة الأولى وهو أبو محمد بن تافراجين. بتعرضه لعداوة الشيوخ البجائيين، رجع هذا الأخير بسرعة إلى تونس واستدعى الأمير من جديد حاجبه السابق ابن فرحون، لكن هذه

---

(307) يتعلق الأمر حسبه بمواساة الأمير الشاب لأن السلطان سجن وقتل أخوين مقربين جدا من أبي فارس. البربر، 2، ص 383-384. يتحدث ابن الخطيب بالأحرى عن إبعاده بعد المؤامرة. لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق م.ع. عنان، القاهرة، 1973-1977، 1، ص 315.

(308) البربر، 3، ص 5، 20.

(309) نفسه، 3، ص 20. أمضت هذه الشخصية حياتها في خدمة عمالة بجاية ويفسر ابن خلدون أن أصل سخط السلطان بقلة شهامة هذا الرجل. لكن يمكننا أن نفترض أن السبب كان بالأحرى تعيينه من قبل أمير بجاية نفسه.

المرة بموافقة السلطان[310]. وبوفاة ابن فرحون، عوّضه رجل جديد قادم من تونس، لكن عزله الأمير بسرعة. عيّن هذا الأخير على التوالي وفيين سبق وأن أمضيا حياتهما في دواوين الإدارة، وبقيت الوضعية مستقرة إلى غاية وفاة الأمير في 774/ 1346[311]. تبيّن رقصات الحجاب هذه توازنا كان دائما وقائيا بين استقلالية وتبعية بجاية مقارنة بتونس. بحث الأمير في أمر تنصيب رجال لهم معرفة بالمقاطعة، حيث يدينون له بترقيتهم. ويثبت شيئا فشيئا استقلاليته عن العاصمة. كانت التتمة المنطقية لهذا التطور هو تعويض الأمير بابنه، بطلب من البجائيين الذين رفضوا ابن السلطان.

تأكد هذا التوجه عندما مرّت الأزمة المرينية. في حوالي 772/ 1370، تلقى الابن الأكبر للسلطان أبي العباس، الأمير أبو عبد الله محمد قيادة بجاية باستقلال واسع، في حين أرسل أخاه أبا إسحاق إلى قسنطينة[312]. ويضيف ابن خلدون منح السلطان لابنه سلطة على الضرائب والجيش[313]، "وفوّض لهما الإمارة، مرخصا لهما أخذ الآلة والرسوم الملوكية وشارة الملك"[314]. استمرت هذه الوضعية كما يقول لنا ابن خلدون إلى غاية عصره، بمعنى 783/ 1381. دون شك بررت الحالة الهشة للمقاطعات الغربية هذا الإجراء. توفّر عامل بجاية المعرّض للهجمات الخارجية والبعيد عن تونس على سلطات كافية لمواجهة أزمة حادة. لكن لم يتعلق الأمر باستقلال كامل. فسنوات بعد ذلك في 789/ 1387، تدخل سلطان تونس لدى أمير بجاية ليطلب منه المعاملة الجيدة لسلطان تلمسان المعزول أبي حمو، ووفّر

(310) نفسه، 3، ص 21-22.

(311) نفسه.

(312) العبر، 4، ص 874، البربر، 3، ص 88.

(313) "وأطلق يده في مال الجباية وديوان الجند (العبر، 6، ص 88، البربر، 3، ص 88). إنّ العبارة المستعملة (أثقل يده بمعنى أعطى وأيضا التحرر كلية من وصايته) تبيّن جيدا التعلق بصلاحية سلطان منحها هذا الأخير لأبنائه.

(314) العبر، 6، ص 876، البربر، 3، ص 90. إنّ صفات وشارات الحكم المفوّضة لعمال بجاية وقسنطينة وجدت صداها في وصف الحكم في المقدمة، الترجمة، ص 527-532.

له قوات للوصول حتى حدود الدولة العبد الوادية[315]. بعد ذلك، لم يتردد العاهل في تعويض عمال بجاية كما شاء، خصوصا إذا أظهر هؤلاء مراسا صعبا أو طموحا زائدا[316].

إنّ النصوص العربية ليست بدقيقة لتتبع هذا التطور في القرن الخامس عشر. وتكملها الوثائق الأوروبية، لكن تأويلها صعب. فهي تتحدث في الواقع عن "ملك بجاية" الذي تعاملت معه القوى المسيحية مباشرة[317]. إنّ هذا اللقب ونعوت المدح الذي ترافقه في الرسائل الرسمية لا تشير بالضرورة إلى أن الملك كان مستقلا. لكنه يدل على استقلالية حقيقية مقارنة بعاهل تونس[318]، وهذا بداية من السنوات الأخيرة لسلطنة عثمان[319]. ففي 1473، رفعت مدينة برشلونة شكوى تتعلق بالسلع التي احتجزت في الديوان. ووجهتها إلى ملك بجاية « Al molt alt è molt magnifich, lo rey de Bogia »، دون إعطاء الاسم[320]. لكن لدينا توضيح في سجل موثق مراكب البندقية الذي يشير في

(315) البربر، 3، ص 484-485.

(316) الزركشي، الترجمة ص 207، 239.

(317) على سبيل المثال في 1403، رسالة بعثت من ميورقة إلى محمد ملك بجاية بخصوص مشكل الأسرى المسيحيين.

ARM, AH 82, f. 112, éd. P. Macaire, Majorque et le Maghreb au xve siècle, Doctorat de 3e cycle, sous la direction de Ch.-E. Dufourcq, Université Paris X, 1977, p. 514-517.

(318) كان في الغالب لسلطان تونس نفس الألقاب في المراسلة الدبلوماسية.

(319) إنّ أدرنو (Adorno) الذي أشار إلى اتساع حكم هذا السلطان كتب أن بجاية هي "المدينة الملكية لمملكة بهذا الاسم [civitas regalis regni Bugee]، التي أعطاها ملك تونس لابنه". لكن هنا أيضا يتعلق الأمر باقطاعية أميرية.

Éd et trad. J. Heers, G. de Groer, Itinéraire d'Anselme Adorno en Terre Sainte (1470-1471), Paris, 1978, p. 128-129.

(320) Archivo histórico de la ciudad de Barcelona, Lletres closes, a. 1471-1473, f. 169v-170 (6/2/1473), éd. L. de Mas-Latrie, Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec=

Illustrissimo et excellentissimo domino mule Abde إلى 1475 *Laxis Dei gracia regi Buzie* ، الذي هو أبو فارس عبد العزيز بن عثمان[321]. أيضا في 1479، أرسل الملك روني البروفانسي (René de Provence) هدايا إلى "ملوك" بجاية[322]. في سنوات 1480، أرسلت أيضا عدة رسائل احتجاج إلى "ملك" بجاية. فقد أثارت قضية حدثت في الجزائر حيث احتجز المشرف تاجرا من قلعة أمبرياس (Castel d'Ampurias) مقاطعة سلطنة بجاية لوحدها وسفارة لـ"ملكها". يبيّن رد الفعل هذا أن سلطان تونس لم يحمّل مسؤولية هذا الحادث ويوحي باستقلالية فعلية لبجاية[323]. لكن رغم ذلك أبقى السلطان على بعض التحكم، كما تظهره عدة رسائل بعث بها الملوك المسيحيون تترجاه بالضغط على بجاية. ففي واحدة منها، بتاريخ 1491، طلب ملك أراجونة من أبي يحيى زكرياء الحفصي التدخل لدى أمير بجاية لتحرير أحد رعاياه[324]. أخيرا،

=les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-Âge, Paris, 1866, p. 335.

أنظر أيضا رسالتين لمحلفي ميورقة إلى "ملك بجاية" بتاريخ 1471.

ARM, AH 680, f. 71v-72 (18/5/1471) ; ARM, AH 680, f. 88r-v (30/12/1471), citées par O. Vaquer, « Corsarisme a la segona meitat del segle xv a Mallorca », VIII Jornades d'Estudis Històrics Locals : El comerç alternatiu. Corsarisme i contraban (ss. xv-xviii), Palma de Mallorca, 1989, Palma de Majorque, 1990, p. 112.

أشارت معاهدة 1477 بين ملك نابولي فرديناند الأول (Ferdinand Ier) وعثمان إلى تونس وبقية موانئ السلطنة، لكن دون توضيح.

J. Ribera, « Tratado de paz ó tregua entre Fernando I el Bastardo, rey de Nápoles, y Abuámer Otmán, rey de Túnez », Centenario della Nascita di Michele Amari, II, Palerme, 1910, p. 373-386

(321) أنظر هذا جدول نسب الحفصيين عند برونشفيك. Brunschvig, La Berbérie, op. cit., tableau n° II.

(322) ADBR, B 2485 (mai 1479), éd. G. Arnaud d'Agnel, Comptes du roi René, Paris, 1908-1910, I, p. 347 ; II, p. 375.

(323) ACA, C., Rg. 3827, f. 68r-v (7/8/1482).

(324) ACA, C., Rg. 3569, f. 99v (21/11/1491), éd. A. de la Torre, Documentos sobre relaciones internacionales de los reyes católicos, Barcelone, 1949-1951, III, a. 1491, n° 154, p. 455-456.

يخبرنا المريني بأن سلطان بجاية قدّم نجدة للأندلسيين والوهرانيين عندما هاجمهم الأسبان بطلب من سلطان تونس(325).

استفادت بجاية إذن من استقلالية متنامية عن تونس، والتي أصبحت ضرورية بالنظر لموقعها المحيطي. وتترجم هذه الاستقلالية بسلطات حكم هامة منحت للعمال وبصفة عامة للفاعلين المحليين.

ج) دور الفاعلين المحليين

تفرض إدارة مقاطعة شاسعة وإستراتيجية في واقع الأمر على الحكم المركزي ترك استقلالية واسعة للعامل وأعوانه، وأيضا من المحتمل بعض فئات السكان المحليين.

تفويض متفاوت للسيادة إلى العمال

يمكن لاستقلالية العامل أن تمارس في عدة قطاعات. نظريا، كانت سلطاته محدودة جدا، لأن تحكم السلطان فيه كان واسعا جدا. لكن في الواقع، اعترف له ببعض الصلاحيات، بدرجات متفاوتة حسب الفترات.

كانت الوظيفة الأولى لعامل بجاية هي الدفاع عن المجال في مواجهة الاعتداءات الخارجية. ترجع إليه أيضا مهمة الحفاظ على الأمن في منطقته. لهذا استلزم توفره على قوة مسلحة، رغم أن سلطة العامل هذه على قواته غير ظاهرة بتاتا: يقدم ابن خلدون واقعة ملحوظة وإشارة لاستقلالية واسعة كانت خصوصا للأمير أبي عبد الله محمد على وحداته العسكرية في حوالي 772/ 1370(326). من جهة ثانية، لم يتردد السلطان في إرسال القادة المرتبطين به مباشرة. كان في الواقع

(325) المريني، ص 249. لكن النص غير واضح جيدا: "طلب السلطان بنجدة الأندلسيين، لكن نفّذت الحملة لتحرير وهران "بالاتفاق مع عاهل تونس". وجدت في الحالتين روابط بين تونس وبجاية، لكنها لم تكن من نفس الطبيعة.

(326) البربر، 3، ص 88.

وجود رجال الحرب المرابطين في الجهة في الوقت ذاته ضمانا لأمن الدولة وتهديدا للحكم المركزي. من جانب آخر، أجبرت ضرورة الرد السريع للخطر على ترك سيادة القيادة العسكرية لعامل الثغور الغربية[327]. من جهة أخرى، تطلبت تركيبة الجيوش المعقدة جدا سلطة قوية وحاضرة في عين المكان لتسيير هذا المجموع غير المتجانس والهش. في الواقع وجب النجاح في إعطاء انسجام للوحدات المشكلة من الفيالق الموحدية، الحريصة على الحفاظ على تفوقها التاريخي، والميلشيات المسيحية المرتبطة دائما في قسم منها بالأمراء المسيحيين، وقبائل صنهاجة أو قبائل بربرية وعربية أخيرا. من الصعب في هذه الظروف ضمان دفاع فعّال على بعد عدة مئات من الكيلومترات.

لصيانة هذه الجيوش، كان من الضروري التوفر على مصادر كافية، خصوصا مداخيل الضرائب. لذا احتفظ السلطان مبدئيا بالنظام الضريبي، كما تبيّنه هنا أيضا استثناء تفويض السلطة الممنوح للأمير أبي عبد الله محمد، الذي رخصّ له الحصول على مداخيل الضرائب. لكن من المحتمل أن يكون للعامل بعض الاستقلالية في جباية الضرائب والنفقات، بما أن مركزية تونس البعيدة جدا كانت صعبة[328]. في المقابل، لا شيء يمنع تحكم الحكم المركزي في المالية المحلية، عن طريق موظفين موثوق فيهم. أعطيت لنا إشارة بالنسبة لعهد أبي زكرياء، فقد عيّن هذا الأخير ابنه الأمير أبا يحيى زكرياء عاملا على بجاية، لكن وضع له أشخاصًا مساعدين منهم واحد من هنتاتة وهو عبد الحق بن ياسين كقابض

(327) في السياق الأندلسي، منح القائد العسكري في الثغر صلاحيات أكثر من العمال الآخرين.

M. C. Jiménez Mata, « Ordenación territorial del litoral », Al-Andalus y el Mediterráneo, Barcelone-Madrid, 1995, p. 50 ; Ph. Sénac, La Frontière et les hommes (viiie-xiie siècle). Le peuplement musulman et les débuts de la reconquête aragonaise, Paris, 2000, p. 114-118.

(328) أنظر الفارسية، ص 194 حول جباية الضرائب التي قام بها القائد نبيل عامل بجاية في زمن أبي فارس. أنظر:

Cl. Cahen, « Les finances urbaines dans le Moyen Âge musulman », Ve Congrès international d’arabisants et islamisants, Bruxelles, 31 août - 6 septembre 1970, Correspondance d’Orient, 11, 1971, p. 146.

للضرائب[329]. يوضح حادث آخر تحكم تونس هذا في جباية الضرائب. ففي عهد السلطان أبي زكرياء أيضا، كلّف الجواهري بقبض الضرائب التي تـدفعها القبائـل البربرية لحساب تونس. يروي ابـن خلـدون أن الجـواهري اتهـم عمـال الأقـاليم بتحويل قسم من الضرائب لصالحهم فأعاد النظام في هذه القضـايا، وأدخـل هـذه الضرائب الكبيرة القيمة، وهذا ما سمح بتعيينه صاحبا لديوان خراج تـونس[330]. فانشغال موظف دواوين تونس هذا باحتمال تحويل عمال المقاطعات يظهر تحكـم الحكم المركزي في هذا الميدان. وتبيّن ملاحظة أخرى لابن خلدون دائما بخصوص هذه الشخصية صعوبات تثبيت حدود الاختصاص بصورة واضحة: فعندما عـيّن عبد الحق بن ياسين على رأس ضرائب بجايـة، كتـب لـه الجـواهري ليطلـب منـه مجموع الجباية، لأن "السلطان أبا زكريـا لا يقـدّر ذلـك، لأن هـذا مـن صـلاحيات قيادته"[331]. نجد هنا أيضـا هـذا التنـافس المسـتمر بـين العامـل والحكـم المركـزي بخصوص مسألة الضرائب.

إن ضرب السكة"العملة" هو الميدان الثالث الحساس الذي يمكن أن تظهر من خلاله استقلالية بجاية. إن حق ضرب العملة هو حق ملكـي، يرجـع حصـريا إلى السلطان[332]. لكن هذا الأخير منحه استثنائيا لعامل بجاية، وهذا بداية من الفـترة الموحدية. توجد بعض الدنانير الموحدية التي ضربت في ذات المكان، خصوصـا في 547/ 1152. لكن التاريخ الذي هو تاريخ استيلاء الخليفة عبد المؤمن على بجاية يبيّن عدم تعلقه بتفويض حق الضرب، لكن بالأحرى بإصدارات موجهة لتسـديد رواتب وحدات الجيش أو لتمجيد الخليفة بعد انتصاره[333]. يبيّن في المقابل الدينار

(329) البربر، 2، ص 302. وضع أيضا بجانب ابنه وزير ومستشار.

(330) نفسه، 2، ص 313.

(331) نفسه، 2، ص 314.

(332) أنظر المقدمة، الترجمة ص 534.

(333) Kh. Ben Romdhane, Les Monnaies almohades. Aspects idéologiques et économiques, Doctorat de 3e cycle, sous la direction de J. Devisse, Université Paris VII, 1979, p. 116-120.

المضروب ببجاية باسم الخليفة أبي يعقوب[334] أكثر حق ضرب ممنوح لعامل المقاطعة. في الفترة الحفصية، إذا ما استثنينا القطع المضروبة باسم سلاطين بجاية المستقلين، فإن القطع نادرة وربما غير موجودة تماما[335]. بالرغم من أن معاهدات التجارة المبرمة مع القوى المسيحية تتحدث عن سكة بجاية « Zecca de Bougie »، بمعنى دار السكة حيث كان بإمكان التجار حمل نقودهم حتى تضرب فيها، وتتحدث بعض الوثائق التجارية عن دوبل (زوج) سكة بجاية[336].

مهما يكن بالنسبة لقيادة الجيش، المالية أو ضرب العملة، لا يمارس التحكم الفعلي للحكم المركزي في الواقع إلا من خلال التعيينات المباشرة من تونس للموظفين الأكثر أهمية وبصفة عامة لكل شخصيات السلطة. يرافق العامل عادة أشخاص لتقديم الاستشارة وأيضا لمراقبته، وكان هذا خصوصا دور الحجاب. يمس التعيين من قبل تونس أيضا القاضي الذي هو شخصية محورية في الحياة الحضرية. فقد اقترح الخليفة المستنصر على أبي محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري منصب قاضي بجاية، مدينة مسقط رأسه، وبعد رفضه، عيّنه قاضيا على قسنطينة[337]. إنّ هذا التعيين جرى مبدئيا باقتراح أو باستشارة قاضي

(334) Lavoix, op. cit., n° 724, p. 300.

كانت ربما أيضا حالة دينارين مضروبين في بجاية باسم عبد المؤمن وولي عهده أبي عبد الله بين 551/ 1156 و558/ 1162.

Hazard, The Numismatic History, op. cit., p. 146.

(335) Lavoix, op. cit., passim ; Kh. Ben Romdhane, « Supplément au catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque nationale : les dīnārs hafsīdes », Revue Numismatique, série VI, 26, 1984, p. 218-223. Farrugia de Candia, « Monnaies hafsides », art. cité, p. 231-288 ; Hazard, The Numismatic History, op. cit., p. 160-177.

(336) Idem.

في وقت الفتح الاسباني، يتحدث المريني عن "الذين مارسوا عملا في دار السكة" في بجاية، الذين أعلنوا أنفسهم فيما مضى ضد (أبي بكر أمير قسنطينة) ورفضوا ضرب العملة باسمه. المريني، ص 256.

(337) رفض أيضا هذا المنصب وطلب إعفاءه منه. الغبريني، ص 88.

العاصمة وسلطات تونس الدينية العليـا[338]. لكـن مـن الصـعب قيـاس الحجـم الفعلي لتعيينات تونس بعد القرن الرابع عشر.

وأخيرا، في ميدان آخر مورس استقلال العامل وهو ميـدان العلاقـات مـع القوى الخارجية. تسمح المادة الأرشيفية الأوروبيـة بقيـاس حجـم هـذا التفـويض، وتبيّن أن توقيع المعاهدات كان دائما من صلاحية السلطان. إنّ التفاوض والمصـادقة كانتا من تحريك تونس والمعاهدات المبرمة تحسب أيضا لبجايـة. ففـي 1403 وبعـد معاهدة لاكورونيا أراجونة وتونس، كتب محلفو بلنسية إلى "ملك بجاية" بطلـب تحريـر أسير، تطبيقا للمعاهدة المبرمة بين ملك أراجونة وملـك تـونس « entre noster senior le Rey Darago, duna part, e lalt Rey de Tuniç, de la altra ». إنّ نص الرسالة يوضح تعلق الأمر بالمجـال البجـائي (« on vos e tots los de uostra señora son compressons »)[339]. تبـيّن هـذه الوثيقـة إمكانية عقد عامل بجاية علاقات مباشرة مع القـوى المسـيحية (هنـا محلفـو بلنسـية، رعايا ملك أراجونة) لحل الأزمات الصغيرة على غرار الشكاوى التجارية أو قضايا القرصنة والأسرى، وهذا إطار السياسة الخارجية التي يقودها سـلطان تـونس. ففـي 1312، طالب جاك الثاني الأراجوني من عامل بجاية تحرير أسير[340]. بعد ذلـك في

(338) Brunschvicg, La Béribérie, op. cit., II, p. 119.

(339) AMV, LLM, g3-8, f. 35r, 16/10/1403, éd. A. Ivars Cardona, Dos creuades valenciano-mallorquines a les còstes de Berberìa, 1397-1399. Estudi documental, Valence, 1921, p. 163-164.

(340) ACA, C., Rg. 149, f. 185v, éd. Dufourcq, Recueil, op. cit., n° 958 (1312/05/03).

وصف هذا العامل، دون شك يعقوب بن خلـوف، بنبيـل أعيـان بجايـة. « honora noble e aimât Mazohar senage, regrador de Bugia ».

1320، أرسل نفس الملك رسالة إلى الحاجب ابن سيد الناس يشكره لطلب سلم باسم سلطان تونس وبجاية[341].

هذه هي إذن الميادين التي تظهر فيها استقلالية العامل، ولكن الكل ارتبط بالتفويض الفعلي الذي أراده السلطان أو كان بإمكانه منحه، وإذن علاقة قوة مرتبطة بالوقت.

مشاركة السكان في القضايا

يصعب حل مسألة مشاركة السكان المحليين في القضايا من خلال المادة الخبرية المتوفرة. تظهر كتب الأخبار أن هؤلاء السكان يعبرون عن أنفسهم غالبا بالثورات، تساندهم أحيانا النخب الحضرية. لكن هل وجدت خارج فترات الأزمة مؤسسات سياسية سمحت للبجائيين بالدفاع عن مصالحهم؟ لقد أثارت هذه الأسئلة نقاشات طويلة، خصوصا عند مؤرخي المشرق، هدفت إلى معرفة إمكانية الحديث بالنسبة للعالم الإسلامي عن "استقلالات حضرية"[342]. فتحدث إلياهو أشتور (Eli ahu Ashtor) عن "الجمهوريات الحضرية"، التي قادتها البرجوازيات التجارية، انطلاقا من مثالي صور وطرابلس في الشام زمن الحروب

(341) ACA, C., Rg. 246, f. 132v-133, éd. Dufourcq, Recueil, op. cit., n° 1412 (29/11/1320).

كانت فترة الحاجب ابن سيد الناس هي الوحيدة التي فاوض فيها عامل بجاية السلم باسم أبي بكر، سلطان بجاية ثم تونس. كان هذا الحاجب خصوصا قويا ومستقلا عن سيده. أيضا، هل تعلق الأمر بتفاوض معاهدة ليس لبجاية وحدها وإنما لجميع الدولة الحفصية.

(342) A.-M. Ede, H. Bresc, P. Guichard, « Les autonomismes urbains des cités islamiques », Les Origines des libertés urbaines. Actes du XVIe Congrès des Historiens médiévistes de l'enseignement supérieur, Rouen, 7-8 juin 1985, Rouen, 1990, p. 97-119. À completer par M. Brett, « The City-state in Mediaeval Ifrīqiya. The Case of Tripoli », CT, 137-138, 1986, p. 69-94 et H. Ferhat, Sabta des origines au xive siècle, Rabat, 1993, p. 213-259.

الصليبية[343]. لكن فضلا عن أن معرفة النخب الحضرية المختلفة ليس واضحا، نلاحظ بالأحرى ميلاد سلالات محلية، دون إرادة حقيقية لتقاسم الحكم[344]. وجدت آلية مماثلة في حالة تونس زمن بني خراسان وفي حالة طرابلس الغرب[345]. بالنسبة للمشرق، بيّن كلود كهان (Claude Cohen) بالنسبة لحلب ودمشق في القرن الحادي عشر وفي بداية القرن الثاني عشر فعل مليشيات الشبان (الأحداث) التي سيّرها رئيس، من الأعيان في الغالب، والذين مارسوا تأثيرا فعليا في الحياة السياسية في حالة ضعف الحكم[346].

كيف كان الوضع في بجاية؟ لم تكن هناك أبدا "جمهورية حضرية" بوجود دائم لعامل أو لعاهل، لكن هزات القرنين الثالث عشر والرابع عشر السياسية أظهرت مؤسسات، بقيت طريقة سيرها غامضة. إنّ كلمة مشيخة التي ظهرت عند ابن خلدون[347] هي صعبة التأويل: هل هي مجلس شيوخ الموحدين[348]؟ في موضع آخر يميّزها ابن خلدون عن الموحدين[349]. هل يجب تعريفها كما يدعونا

---

(343) E. Ashtor, « Républiques urbaines à l'époque des Croisades », CCM, 18, 1975, p. 117-131.

(344) « Les autonomismes urbains », art. cité, p. 102-103.

(345) Brett, « The City-state », art. cite, p. 86-90.

(346) Cl. Cohen, « Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie du Moyen Âge », Arabica, 5, 1958, en particulier p. 235-250.

أنظر أيضا حول ما لحق هذا العمل علميا:

J.-Cl. Garcin, « Milieux urbains et mouvements populaires », Arabica, 43, 1996, p. 146-151.

(347) العبر، 6، ص 678-679، البربر، 2، ص 377 بخصوص سياسة أبي العلاء إدريس الطغيانية الذي حاول فرض سلطته على هذه المجموعة في 678/ 1279.

(348) في التنظيم الموحدي البدائي، كان مجلس شيوخ يقدّم نصائح للعاهل أو لعامل المقاطعة.

(349) "وأشهد الملأ من الموحدين ومشيخة بجاية" بخصوص مبايعة البجائيين لأبي فارس في 785/ 1283. العبر، 6، ص 693، البربر، 2، ص 392.

المترجم إلى ذلك ب "مجلس بلدي"[350]؟ لكن هذا يقدم لنا خطوة إلى الأمام تقريبا، لأننا لا نعلم بتاتا بتشكيلته وسيره. من جهة أخرى، وصف القاضي الغبريني بـ "كبير بجاية وصاحب شوراها"، وهو ما ترجمه البارون دوسلان بـ "أول أعيان المدينة وكبير أعضاء مجلسها البلدي"[351]. إنّ كلمة شورى هي أقل غموضا. نجدها بالنسبة لمدن أخرى في المغرب على غرار مليانة[352] وسبتة[353] وطرابلس[354]. ترجمها راينهارت دوزي (Reinhard Dozy) انطلاقا من كتابات ابن خلدون بـ "مجلس إداري في مدينة"[355]: "تتشكل هذه المجالس من فقهاء أو مفتين ينتمون إلى الدور الأكثر اعتبارا. يتولون وظائف سفراء لدى العاهل، ويستقبلون الأعوان الذين يأتون من الخليفة، ويتولون كل ما يتعلق بالمنفعة العامة". ويضيف أن في بعض الحالات "يعلن هؤلاء المستشارون استقلاليتهم ويشكلون جمهورية يكونون رؤساءها[356] ". إذا كان هذا التطور ملحوظا في طرابلس الغرب أو سبتة، فإنه لم يوجد في بجاية حيث يبدو أن المجلس كان شوريا فقط[357]. من الصعب معرفة المزيد عن ذلك. خصوصا وأننا لا نعلم ما هو تأثيره الفعلي وممن كانت تشكيلته؟ وما هي المصالح التي مثّلها؟ بالاعتماد على مجموع الغبريني، بيّن مساتوشي

---

(350) R. Donzy (Supplément aux dictionnaires arabes, Leyde, 1881, p. 810) أعطى دوزي أيضا هذا المعنى. في الأعلى، ترجم دوسلان نفس المصطلح بـ "مجلس الشيوخ الموحدي"، البربر، 2، ص 276.

(351) العبر، 6، ص 719، البربر، 2، ص 419.

(352) العبر، 6، ص 657، البربر، 2، ص 352: ثار ابن رئيس الشورى ضد الخليفة المستنصر.

(353) مارس مجلس الشورى في سبتة سيادة فعلية في عهد آل العزفي، حتى وإن يبقى المعنى المؤسساتي لهذا المجلس غامضا.

Ferhat, Sabta, op. cit., p. 236-239.

(354) Brett, « The City-state », art. cité, p. 87.

(355) استعملت هذه الكلمة في المصادر العربية في الفترة للإشارة إلى مجالس شيوخ المدن الإيطالية. Ferhat, Sabta, op. cit., p. 236.

(356) Donzy, Supplément, op. cit., p. 799.

(357) واحد من معاني مصدر الكلمة (ش و ر)، هو أشار. Ibid.

كيسايشي (Masayoshi Kisaichi) مكانة العلماء كجماعة وسيطة بين الحكم والرعية[358]، لكن لا تسمح طبيعة هذا المصدر من التأكيد على لعب النخب (خصوصا الاقتصادية) لدور سياسي محلي.

وجدت في بجاية المليشيات الحضرية – التي درسها كلود كهان- لكن في فترات الأزمة فقط وهي غير معروفة جيدا. في لحظة استيلاء أبي اسحاق على بجاية في 761/ 1359، يروي ابن خلدون أن العاهل مارس سلطته بفاعلية قليلة، لأنه تعرّض لسلطة علي بن صالح الذي كان يقود غوغاء المدينة[359]. لكن يعنى هنا فترة خاصة بعد الأزمة التي زلزلت النظام السياسي وتركت أحيانا فراغا في الحكم. عموما، عندما يثور السكان، يكون دائما رد فعل على طغيان سيدهم ويلح الإخباريون على الصفة العاطفية لهذه الثورات دون إمكانية الإفشاء بإيديولوجية معينة أو بالدفاع عن مصالح معينة[360].

أدت إذن أهمية بجاية الإستراتيجية وبعدها عن العاصمة الحفصية تدريجيا إلى استقلالية أكبر. وتعبر هذه الأخيرة أيضا على حضور الشعور بالهوية لدى السكان الحضر بها، والذي لم يذهب إلى غاية الرغبة في الاستقلال عن تونس. هناك إذن اعتراف بهوية المدينة دون رفض انسجام السيطرة الجالية الحفصية. بهذا القدر، من الصعب تبيان سياسة بجائية خالصة، خصوصا في الميدان الدبلوماسي أو التجاري. دفعت قوة العمال بعضهم إلى التحرر من وصاية العاصمة، لكن دائما بهدف الاستيلاء على الحكم وإعادة تشكيل الوحدة الحفصية. حدث هذا عدة

(358) M. Kisaichi, « The Maghreb », Islamic Urban Studies, Historical Review and Perspectives, dir. M. Haneda, T. Miura, Londres-New York, 1994, p. 51, citant son ouvrage La Société médiévale musulmane et le rôle social des oulémas (publiée en japonais en 1982).

(359) العبر، 6، ص 847، البربر، 3، ص 62.

(360) إن كتاب تاريخ ابن خلدون ليس هو طبعا الدليل الأحسن، لأنّه ليس له إلا احتقار هذه "السوقة".

مرات بين نهاية القرن الثالث عشر والثلث الثاني من القرن الرابع عشر. في جميع الحالات، كان اغتصاب السلطة إشارة لضعف الحكم في تونس، وتظهر أيضا ثراء بجاية القادرة على مساندة الطموحات الجهوية لعامل ما.

احتلت بجاية مكانة جوهرية في المشهد السياسي والاستراتيجي المغاربي، بسبب موقعها وأيضا قوتها، التي نمت منذ تأسيس الحماديين لها وصيانتها بعد ذلك. ساهم هذا في صياغة هوية حضرية لم تصل أبدا إلى رغبة حقيقية من سكانها في الاستقلال، الذين كانت مساهمتهم في شؤون المدينة محدودة.

وضعتها هذه المكانة في مركز النزاعات على السلم المغاربي والإفريقي، وأدت إلى فترات أزمة صعبة نوعا ما . إلى غاية بداية القرن الرابع عشر، لم تضر الفتوحات المختلفة (الموحدون، بنو غانية، الحفصيون) واستيلاء الطامحين الحفصيين على الحكم انطلاقا من بجاية أبدا بقوة وازدهار المدينة بصورة مستمرة. فتحت سنوات 1310 في المقابل فترة أزمة طويلة، تميزت بغزوات أو بمحاولات الغزو القادمة من الغرب، والتي أربكت بقوة اللعبة السياسية ونشاط الجهة. يجب إذن انتظار بداية سنوات 1370 حتى تبتعد المخاطر وتستعاد الوحدة الحفصية. وتفسّر هذه الصعوبات المرتبطة بموقع بجاية وبعدها عن تونس بالمنح التدريجي والمتحكم لاستقلالية ما لبعض العمال، حتى يستطيعوا مواجهة التهديدات الخارجية وأيضا تسيير مجال مقاطعة واسعة، يصعب التحكم فيها وممارسة السلطة عليها.

الفصل الثاني
التحكم الصعب في المجال

إذا كانت بجاية محل أطماع قوية من جيرانها، فلأهميتها الإستراتيجية على الصعيد المغاربي، وأيضا لأنها كانت واحدة من بين المدن المهمة جدا في المنطقة والمتحكمة في مجال واسع. إن التحكم في هذا الفضاء طرح مشكلا، تغيّر بطريقة محسوسة حسب الفترات الزمنية.

يرجع تحديد فضاء الإشعاع السياسي لبجاية إلى تعريف "مجال" المدينة. ويطرح هذا المصطلح، مثل مصطلح الحدود المرتبط به، إشكالية في الفترة الوسيطة. هل يجب اعتبار مفهومنا للمجال أنه سابق لزمنه كما ذهب إلى ذلك محمد القبلي [1]؟ دون شك، إذا ما فهمناه بمعنى المجال الوطني المغلق داخل الحدود المرسومة جيدا. لا يوجد مطلقا "فضاء متوافق مع شعور أو ضمير امتلاكه[2]". إن تحليل الأنساب يكشف هذا الغياب[3]. فاذا ما وجدنا عدة أنساب قبلية، تؤكد على نوع من الانتماء لذرية ما، فإن الأنساب الجغرافية تشير في أغلب الأحيان

---

(1) M. Kably, *Société et religion au Maroc à la fin du « Moyen Âge » (XIVe-XVe siècle)*, Paris, 1986, p. 93 :

"بالنسبة للمغاربي في تلك الفترة، لمفهوم الحدود درجة بسيكولوجية، بمعنى أنها تشير أولا إلى ميدان وجداني، قبلي أو سلالاتي، عقدي أو طائفي، بشرط أن يكون هذا الميدان مستمر وأن تتدخل فيه الإشارات الجغرافية بشكل عابر، والتي بإمكانها أن تتغير طبيعيا باليد ثم تتبع بالانتماء". أنظر:

D. Valerian, « Frontières et territoire dans le Maghreb de la fin du Moyen Âge : les marches occidentales du sultanat hafside », *Correspondances*, 73, 2002-3, p. 3-4.

(2) R. Brunet, R. Ferras, H. Théry, *Les Mots de la géographie. Dictionnaire critique*, Montpellier-Paris, 1992, p. 480.

(3) خصوصا إذا ما قارنا الحالة المغاربية مع ما تحقق به جون كلود غارسان بالنسبة لمصر.

J.-Cl. Garcin, « Pour un recours à l'histoire de l'espace vécu dans l'étude de l'Egypte arabe », *Annales ESC*, 35/3-4, 1980, p. 436-451.

للمدن وليس للمجالات الواسعة والمحددة سياسيا. فقط هي مألوفة بالنسبة إلى "المغاربي"، ولكن منطقيا هي نسبة مستعملة خصوصا في المشرق[4]. وفي المقابل، لا نلاقي نسبة تشير إلى جهة بجاية، والتي ليس لها اسم من ناحية أخرى، وبالتالي فهي ليست معرّفة كمجموعة متجانسة ومستمرة من طرف رجال الفترة. ولهذا فإن المؤلفين الوسيطيين، الذين هم مرتبطون بالحكم أو الإدارة، يُعرّفون "جهة بجاية" كفضاء لهيمنة المدينة. فيستعمل ابن خلدون عدة كلمات للإشارة إليها ويتكلم بصفة عامة عن بلاد بجاية[5]. لكن يمكنه كذلك استعمال كلمة "وطن"، أحيانا بصيغة الجمع "أوطان"[6]، بمعنى البلد أو الإقليم[7]، والناحية[8] وكذلك الأعمال، والتي يمكن أن نترجمها ببلد أو بناحية أو بمقاطعة إدارية[9]. ويشير ابن خلدون إلى "جهة

(4) أنظر على سبيل المثال:

L. Pouzet, « Maghrébins à Damas au VIIe/XIIIe siècle », *Bulletin d'études orientales*, 28, 1975, p. 167-199.

(5) على سبيل المثال، العبر، 6، ص 204، البربر، 1، ص 197 حيث يقول بأن هذا البلد كان في ما مضى بلدا لزواوة، وكتامة، وعجيسة، وهوارة. وفيما سبق، استعمل هذه الكلمة للإشارة إلى فضاء (في غرب بجاية) تسكنه قبائل صنهاجة. العبر، 6، ص 203، البربر، 1، ص 196. فهل استعمال هذه الكلمة بالأحرى من طرف المؤلف على علاقة بالمجالات القبلية؟ أنظر كذلك العبر، 6، ص 87، البربر، 1، ص 88.

(6) العبر، 6، ص 87، البربر، 1، ص 88. تشكّل حمزة التي أعطيت كإقطاع لزغبة جزءا من مجال بجاية (من أوطان بجاية)، أنظر العبر، 6، ص 743، البربر، 2، ص 441، فيما يخص جمع ضرائب الناحية (خرج لجباية الأوطان).

(7) R. Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, Leyde, 1881, II, p. 828.

(8) جمع ناحية، وتعني المقاطعة والجهات المجاورة. العبر، 6، ص 262، البربر، 1، ص 256. (بخصوص مجالات – مواطن- زواوة الواقعة في جهة بجاية)، العبر، 6، ص 312، البربر، 2، ص 5. (يخص هنا كذلك مجال القبيلة).

(9) A. Kazimirski, *Dictionnaire arabe-français*, Paris, 1860, II, p. 370.

على سبيل المثال العبر، 6، ص 812، البربر، 3، ص 20 "ببني حسن من أعمال بجاية". العبر، 6، ص 685، البربر، 2، ص 383 (عين أبا فارس عاملا لبجاية وجهتها). نجد كذلك هذا الاستعمال عند ابن قنفذ (الفارسية، ص 109) بخصوص تعيين أبي زكرياء كحاكم لبجاية وجهتها. أنظر كذلك المعجب،

بجاية" عندما يتحدث عن جولاته التفقدية والضريبية، أو عندما يحدد موقع مدينة أو قبيلة في الفضاء السياسي المغاربي. وتتغيّر الكلمات تحت قلمه، مع تنوع المعنى، بيد أنها تظهر أن له وجودا فعليا في ضمير سكان المجال التابع لبجاية. وكذلك في بداية القرن السادس عشر، قال ليون الإفريقي عن "دولة" بجاية بأنها تمتد على حوالي 150 ميل على طول البحر المتوسط وعلى عمق داخلي يصل إلى أربعين ميلا[10].

بجاية هي إذن مركز هذه الجهة، واعتبرها الجغرافيون أحيانا عاصمة (قاعدة) [11] أو قطبًا[12]. إنها إذن في ذهنهم في مركز فضاء له تأثير (ببساطة سيطرة أو إشعاع) [13]، حيث أن التحديد المتغيّر، لا يسير دون طرح مشاكل بسبب صعوبة فرض السلطة السياسية على الفضاءات والسكان البعيدين والواقعين في مناطق يصعب الوصول إليها. إن قدرة بجاية على لعب دور قطب جهوي يعود في بادئ الأمر إلى مزايا منظرها وموقعها، ولكن أيضا إلى إرادة ملوكها منذ تأسيسها بجعلها واحدة من أكبر مدن المغرب. ولكن تصطدم هذه السيطرة بالمعارضات المحلية وبقوى الأطراف التي حدّت من توسعها في بعض الفترات.

النص ص 215 بمناسبة فتح عبد المؤمن لجهة بجاية. بالأحرى معناه هنا إداري. أما روبار برونشفيك فيراه بالأساس تقسيما عسكريا وماليا.

R. Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines au XVe siècle*, I, Paris, 1940 ; II, Paris, 1947 p. 112.

(10) Léon l'Africain, p. 407.

(11) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1980، ص 80، الذي يتحدث عن الفترة حيث كانت عاصمة مجال بني حماد. إنه ينقل ويعدّل نص الإدريسي الذي كتب بأن بجاية هي "مدينة المغرب الأوسط". الإدريسي، النص، ص 116، ترجمة ص 165..

(12) الإدريسي، النص، ص 116، ترجمة ص 166. الإدريسي يستعمل أيضا مصطلح عين، الذي ترجم بـ"عاصمة" والذي يشير أيضا إلى هذه الفكرة من المركزية. النص، ص 116، ترجمة ص 165.

(13) أنظر حول مفهوم الحاضرة الجهوية:

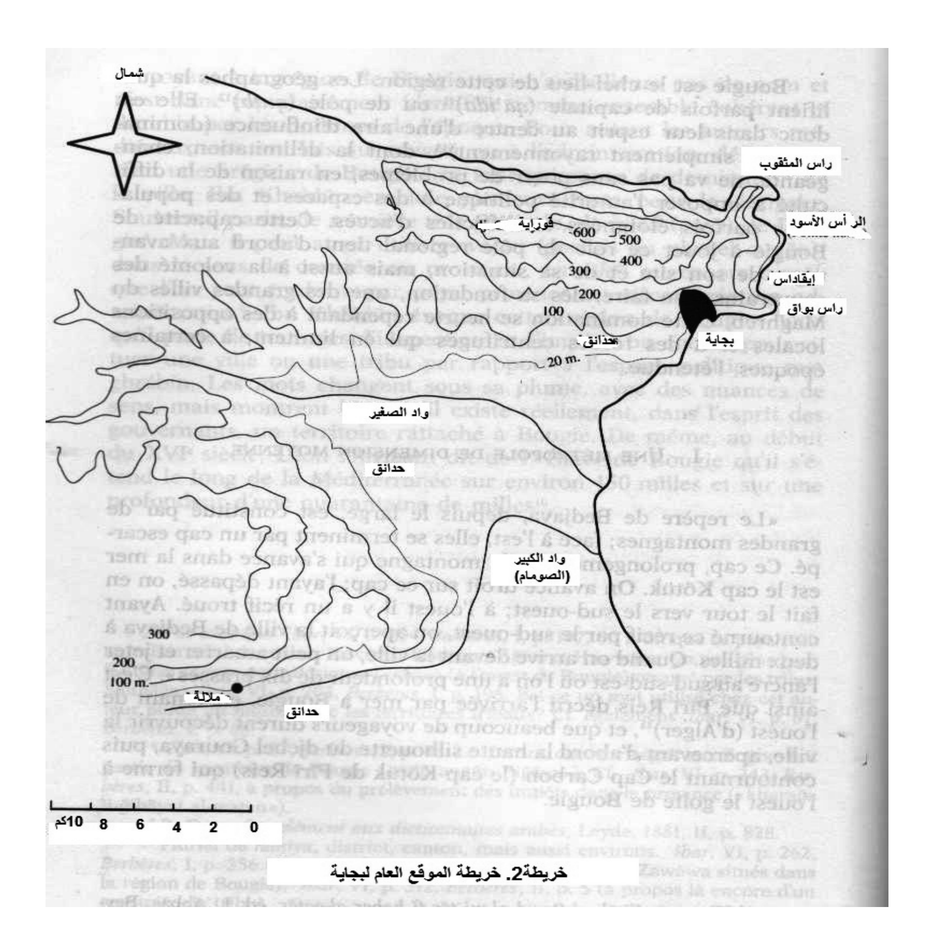
Fr. Michau (avec la collaboration de P. Guichard), « Les sources des mégapoles orientales », *Mégapoles méditerranéennes*, dir. Cl. Nicolet, Paris-Rome, 2000, p. 693-699.

1- حاضرة " مدينة " متوسطة الحجم

"يتشكل معلم بجاية انطلاقا من عرض البحر من الجبال الكبيرة المواجهة للشرق والتي تنتهي برأس شديد الانحدار. يتقدم هذا الرأس الذي يعد استمرارية للجبل نحو البحر ليشكل رأس كوتوك (Kötük). نتقدم مستقيمين على هذا الرأس، وبتجاوزه ندور نحو الجنوب الغربي، إلى الغرب حيث يوجد رصيف صخري به قعر. وباستدارتنا للرصيف الصخري من الجنوب الغربي، يمكن أن نلاحظ مدينة بجاية على بعد ميلين. إذا ما وصلنا أمام المدينة، يمكننا ربط السفينة وإلقاء المرساة في الجنوب الشرقي حيث العمق يقدر بعشرة أذرع". هكذا وصف بيري رايس الوصول إلى مدينة بجاية عن طريق البحر، بالقدوم من جهة الغرب (من جهة الجزائر) [14] حيث اكتشف عدد كبير من المسافرين المدينة، ملاحظين أولا قمة-الشبح- جبل قوراية ثم يستديرون على رأس كربون (رأس كوتوك عند بيري رايس) الذي يغلق خليج بجاية من الجهة الغربية.

(14) ترجمة روبار مونتران:

R. Mantran, « La description des côtes de l’Algérie dans le Kitab-ı Bahriye de Pīrī Reis », *ROMM*, 15-16, 1973, p. 164.



خريطة2. خريطة الموقع العام لبجاية

كثيرون هم، -على غرار بيري رايس-، ممن أعجبوا بهذه المدينة المعلّقة بالجبل والمنفتحة على البحر: "لم أر من بين كل مدن المغرب أية مدينة باستطاعتها إعطاء منظر مشابه للمنظر الذي تقدمه بجاية. نرى فيها حتى إلى غاية ثمانية عشر ألف منزل، وكل منزل بسيط يشبه القصر العالي، بنوافذه حيث يحترق عدد كبير من مصابيح الشمع كل ليلة، وهو ما يعطي الانطباع بأن نجوم السماء قد انتشرت على الأرض[15]".

(15) بيري رايس، ترجمة أنجليزية انطلاقا من رواية أكثر تفصيلا: S. Souque, « Tunisia in "Kitab-i bahriye" by Piri Reis », *Archivum Ottoman cum*, 5, 1973, p. 149.

تنقص عناصر المعرفة الدقيقة للمدينة الوسيطة. فليس هناك في النصوص المخصصة لبجاية ما يشبه نصوص الأنصاري بالنسبة لسبتة[16]، أو نصوص المقريزي بالنسبة للقاهرة[17]. ليس هناك أبدا وصف مفصّل من الرحالة مثل الذي هو لتونس[18] أو الإسكندرية[19]. وفيما يخص المخلفات الأثرية، فهي قليلة. لم يبق من هذه الفترة إلا بقايا الأسوار التي تعطي إشارات حول توسع المدينة ونظامها الدفاعي بقيت فقط المعلومات المبعثرة في النصوص وفي بعض اللوحات التي تصور المدينة، وهي متأخرة للأسف[20]. إن دراسة لوران شارل فيرو (Laurent-Charles Féraud) المؤرخة عام 1869 تعطي بعض الإشارات حول المنظر

(16) A. M. Turki, « La physionomie monumentale de Ceuta : un hommage nostalgique à la ville par un de ses fils, Muhammad b. al-Qāsim al-Ansārī (traduction annotée de son *Ikhtisār al-akhbār*) », *Hespéris*, 20-21, 1982-3, p. 113-162.

أنظر

H. Ferhat, *Sabta des origines au XIVe siècle*, Rabat, 1993 ; M. Chérif, *Ceuta à l'époque almohade et mérinide*, Paris, 1996.

(17) أنظر:

N. D. MacKenzie, *Ayyubid Cairo. A Topographical Study*, Le Caire, 1992.

(18) على سبيل المثال عبد الباسط أو أدورن (Adorne)، أو في فترة متأخرة، الوصف الدقيق لليون الإفريقي.

(19) هناك وفرة في وصف الإسكندرية من طرف الرحالة المسلمين أو الحجاج المسيحيين.

(20) لوحة تمثل منظرًا عامًا لبجاية من طرف جان فرميان (Jan Vermeyen) (1551)، باريس، المكتبة الوطنية الفرنسية، خرائط ومخططات (8024) Ge.DD.2987. منظر آخر أكثر تأخرا (1603) لـ جاسبار رويز دو كورتزار (Gaspar Ruiz de Cortázar). Archivo General de Simancas, *Mapas, planos y dibujos*, XVIII-52.

أنظر:

P. Even, *Les villes du Maghreb dans les plans européens de la Renaissance*, mémoire de maîtrise sous la direction de Fr. Micheau, Université Paris I (Centre de recherches d'histoire et civilisation byzantines et du Proche Orient médiéval), 2002-2003, Annexes, p. 70-73.

الحضري[21]. إنّ فيرو لا يذكر أبدا مصادره، لكن روايته يبدو أنها تعتمد غالبا على ملاحظاته الخاصة أو على الشهادات المباشرة المتعلقة بالمدينة قبل التحولات التي أتى بها الفرنسيون [22].

تسمح طبوغرافية بجاية بفهم الخصائص الأساسية لتطور الفضاء الحضري في الفترة الوسيطة[23]. فموضعها الممتاز من الناحية الإستراتيجية هو في المقابل غير ملائم للسكن وتوسعاته. إنّ المدينة في أغلب أقسامها محاطة بالجبال، وهذا ما شكل دفاعات طبيعية، تستند في الشمال على جبل قوراية الذي تبلغ ذروته 672 م. ويتدحرج هذا الأخير تدريجيا من الغرب إلى الشرق نحو البحر، منتهيا بثلاثة رؤوس تغلق جون بجاية: رأس كاربون (أو رأس المثقوب)، الرأس الأسود (أو رأس بوحاي)، وأخيرا في الجنوب رأس بواق (يسمى كذلك رأس سيدي المليح).

ينتهي الجانب الجنوبي لقوراية المنحدر نحو السهل إلى البحر بقدمين: ربوة موسى وربوة بريجة حيث ينخفض الارتفاع تدريجيا باتجاه الجنوب، ليمر بينهما وادي أيزاز[24]. وبأقل ارتفاعا تعمل الربوتان على حصر المدينة بين المرتفعات التي

(21) L.-Ch. Féraud, «Histoire des villes de la province de Constantine. Bougie », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 1869, p. 85-407, rééd., *Histoire de Bougie*, avec une présentation de N. Abdelfettah Lalmi, Paris, 2001.

(22) لكن لا نعلم ما إذا كانت المعالم التي يشير إليها تعود إلى العصر التركي أو العصر الوسيط (وفي هذه الحالة الأخيرة إلى أي فترة تعود).

(23) في العصر الاستعماري، أنجزت أعمال تهيئة مهمة في الموضع، وهي التي شوهّت بشكل واسع من المنظر الأولي. أنظر:

H. Boukhzer, *Le grand projet de transformation de la ville algérienne, 1830-1870 : le cas de la ville de Bejaia, ex-Bougie*, thèse de l'EHESS, sous la direction de Marcel Roncayolo, 1998.

الذي استعمل مخططات منجزة بعد الاحتلال مباشرة.

(24) Dj. Chalal, A. Roubache, *Bougie. Une modification pour atteindre l'habiter*, Mémoire de fin d'études en vue de l'obtention du diplôme=

تسهّل من تحصينها. ولم يفلت هذا الموضع الاستثنائي من المؤلفين الـذين وصـفوا المدينة. فقد كتب المؤلف المجهول لكتاب الاستبصار أن "هذا الجبل مسيون الذي فيه بجاية، جبل عظيم عال قد ذهب في الجو، وقد خرج في البحر"[25].

1) توسع المدينة

تحدد الأسوار المحصنة الفضاء الحضري وفي ذات الوقت تضمن الـدفاع[26]. إنّ أول لوحة وضعت للمدينة التي هي رسم للأسـوار الحماديـة تتضـمن كـذلك الخطوط الأولى للنتوء. واستطاعت المدينة بعد ذلك التوسع باتجـاه السـهل، لكـن الفضاء الذي تدافع عنه الأسوار لم يتغيّر بشكل ملحوظ.

وقد حددها بيري رايس الذي زار المدينة عشية استيلاء الأسبان عليهـا كـ "حظيرة كبيرة محصنة تحتوي على ثمانية عشر ألف منزل، محاطة بأسوار ثلاثيـة"[27].

=d'architecte d'État, École polytechnique d'architecture et d'urbanisme d'Alger, Alger, 1998-1999, p. 9.

كان الوادي الصغير الذي تم ردمه يشغل موضع نهج الإخوة بوعوينة.

(25) الاستبصار، النص ص 130، الترجمة، ص 36.

(26) Ph. Gourdin, « Les fortifications du Maghreb d'après les sources écrites ; la vision d'Ibn Khaldūn », *Sites et monuments disparus d'après les témoignages des voyageurs*, Bures-sur-Yvette, 1996 (*Res Orientales*, 8), p. 27-31.

بالنسبة لابن خلدون، يعوض السور في المدينة العصبية البدوية. "وأما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الأسوار عند الغفلة أو الغرة...وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم بما وقر في نفوس الكافة...ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد". المقدمة، الترجمة، 2، ص 712.

(27) ترجمة:

E. Esin, « La description des côtes algériennes de Pīrī Re'īs », *Studies on Turkish-Arab Relations*, Istanbul, 1986, p. 55.

لكن معنى هذه العبارة يختلف بحسب المترجمين: يترجمه روبار مونتران (Robert Mantrand) بـ"حصن ذو ثلاثة طوابق"، Mantran, art. cité, p. 163. ، وتعطي في الترجمة إلى الإنجليزية "حصن ثلاثي=

وتظهر هذه الأسوار على اللوحات الفنية القليلة لبجاية مثل اللوحة التي أنجزها فارميان (Vermeylen) في 1551 والتي تشير إلى استيلاء الأسبان على المدينة في 915/ 1510[28].هذه اللوحة هي متطابقة نسبيا مع الطبوغرافيا وهي تظهر خطا من الأسوار التي لاتضم المدينة فحسب، ولكن تشق في الشمال كل قوراية لتنتهي في الجهة الأخرى من الجبل في البحر، وهذا ما لا يؤكده أي مصدر آخر. كما تظهر أنها لا تتطابق في جميع الحالات مع تحصينات الفترة الوسيطة. وتسمح المخلفات الأثرية من اكتساب فكرة دقيقة جدا حول التحصينات الوسيطة.

أحاط السور تقريبا بكل المدينة بما في ذلك امتدادها على طول البحر، مزاوجا ومتمما لخطوط الربوتين (أنظر المخطط). ويعود تاريخ هذا السور إلى بدايات الفترة الحمادية كما تظهره الدراسات الأثرية على قلتها[29]، ويلف محيطاً أكثر اتساعا من المدينة نفسها. وتتسلق المخلفات الأثرية الحالية الانحدار نحو قمة جبل قوراية، ولكنها تنقطع بسرعة. ويعتقد الجنرال دوباليي (de Bey lié) أنه لم يتم مواصلة السور حتى الأعلى، لأن الانحدار كان كافيا للدفاع أو أنه أنشئ بأدوات أكثر بدائية وبالتالي لم يترك أثراً[30]. وتظهر من جهة أخرى رواية استيلاء بني غانية على المدينة أن السور لم يكن مستمرا في نهاية القرن الثاني عشر[31]،

=وأسوار". كتاب بحري بيري رايس، 3، استنبول، 1988، ص 1333-1339. وفي نهاية المطاف،= سافاتوبلوك سوسيك (Svatopluk Soucek) ترجمه بـ "ثلاث أبراج وأسوار محصنة"، Soucek, « Tunisia in the “Kitab-I bahriye” », art. Cité, p. 149.

(28) Paris, BNF, Cartes et Plans, Ge.DD.2987 (8024).

(29) إن تكوين سور الحاضرة شبيه بتكوين سور قلعة بني حماد، وهذا لا يقصي طبعا التغييرات أو الترميميات المتأخرة جدا.

L. Golvin, *Le Maghreb central à l’époque des Zirides. Recherches d’archéologie et d’histoire*, Paris, 1957, p. 192.

(30) L.-M.-E. de Beylié, *La Kalaa des Beni-Hammad. Une capitale berbère de l’Afrique du Nord au XIe siècle*, Paris, 1909, p. 105.

(31) يذكر الغبريني أنه بصعود بني غانية على جبل خليفة، دخلوا من باب اللوز، والذي لم يكن في أعلاه سور في تلك الفترة. ومن هناك استولوا على القصبة. الغبريني، ص 77.

وهذا ما يؤكده بيري رايس عندما يذكر عدم وجود نقطة دفاعية في الجزء العلـوي من المدينة، لشدة انحدار الجبل[32]. وتظهـر هـذه الأسـوار بصـورة واضـحة علـى هضبة الآثار وفي خشب أشجار الزيتون (Bois des Oliviers)، وحسب لـوران شارل فيرو (Laurent-Charles Féraud)، كان في وقته بالإمكان رؤية السور القديم (والذي أرجعه إلى الفترة الرومانية)، بطول 3000 م على أكثر تقدير دائما حسـب رأيـه[33]. وتظهـر اللوحـات المتـأخرة، خصوصـا لوحـة فارمـاين (Vermeylen) وكذلك مخطط منجز في بداية الوجـود الفرنسـي[34]، أن السـور امتد على طول البحر على حوالي 500م في شرق القصـبة، قبـل أن يصـعد نحـو الشمال، وهذا ما يجعلنا نفترض أن قسما من "الجـون الصـغير" "سـيدي يحيـى" كـان محميا بأسوار محصنة. ويحوم الشك حول ما إذا كان كل الفضاء الواقع بين الأسوار مأهولا أم لا، خصوصا القسم الذي يتسلق الجبـل. بـالعكس، يظهـر أنّ التوسـع العمراني المتأخر جدا جاء عن طريق الأرباض التي أقيمت في جانب السهل. يجب إذن افتراض تخطيط مصغّر قد تم اعتمـاده في الفـترة الحفصـية، محـددا في الشـمال بباب البر[35].

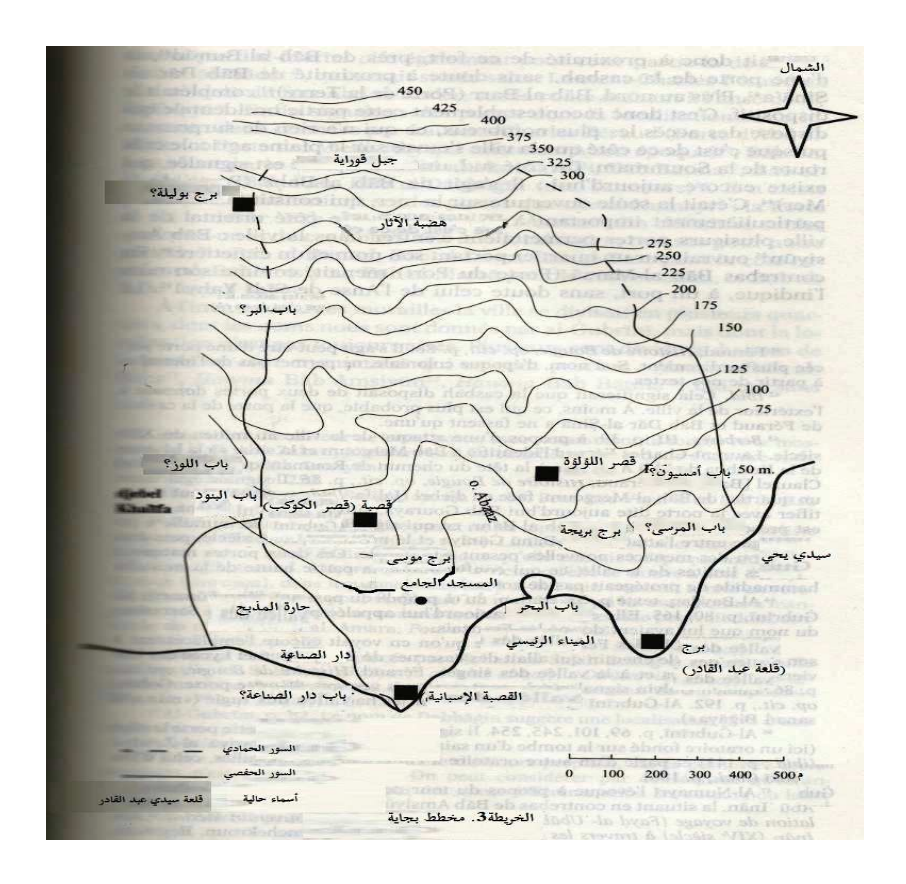
(32) Trad. Mantran, art. cité, p. 164.

(33) Féraud, *Histoire de Bougie*, *op. cit.*, p. 39.

(34) BNF, Cartes et Plans, Ge D27868.

(35) يبقى تخطيط سور الحاضرة افتراضيا بصورة واسعة. أنظر:

A. Amara, *Pouvoir, économie et société dans le Maghreb hammadide (395/1004 - 547/1152)*, thèse de l'Université Paris 1, sous la direction de Fr. Micheau, Paris, 2002, p. 142.



الخريطة3. مخطط بجاية

إن سور الحاضرة كما يوجد حاليا في بعض الأماكن يتراوح سمكه ما بين 1،7 و5،2 م وعلوه من 4 إلى 6م، ومبني بالحجارة اللينة مع قطع من الحجارة الصلبة المستقيمة أو من الآجر، ومغطى بطلاء الجير الإسمنتي. وكان يعلوه مسلك دورية الحراسة المكلل بشرفات دائرية الشكل ذات قطر مقداره حوالي 1م من الوجه. وكان على امتداد كل 25م مقوّى ببروج حصينة مستطيلة الشكل، بارزة بـ 2،5م ، ومن 4م إلى 3م، و6م ارتفاعا، وهو شبيه بطراز سور قلعة بني حماد[36].

تخترق السور عدة أبواب اثنان منهما مازالا موجودين. إنّ موقع بعض الأبواب محدد بدقة، في حين أن البقية نجدها صعبة التحديد. إنهم مذكورون في

(36) R. Bourouiba, *Les H’ammadites*, Alger, 1984, p. 175 ; Golvin, *op. cit.*, p. 192.

النصوص، خصوصا عند الغبريني، عندما يدفن بجانبهم ولي أو عندما يقوم هذا الأخير بنشاط خاص بجانبهم. إنّ الباب الوحيد الذي بقي في الغرب هو باب البنود، أو باب فوقا، الذي ينفتح على السهل الغربي[37]. ووجدت على نفس هذا الجانب الغربي عدة أبواب: باب اللوز الذي مرّ عن طريقه بنو غانية عند مهاجمتهم للمدينة[38]. باب دار الصناعة المشار إليه في وثيقة ميورقية والذي يعطي دون أدنى شك الانطباع بأنه المدخل إلى دار صناعة الأساطيل، في جنوب غرب المدينة[39]. يتحدث لوران شارل فيرو كذلك -ولكن دون الإشارة إلى مصادره- عن باب برآل، الذي يمكن وقوعه -سابقا- بالقرب من هذا الحصن، بجانب باب البنود[40]، وباب قرب القصبة، دون شك قرب دار الصناعة[41]. إلى الشمال[42]، يكمّل باب

(37) الغبريني، ص 182. حسب برونشفيك (Brunschvicg) هو الأهم في المدينة، وهذا غير مستحيل، لأنه ينفتح على سهل الصومام. ويترك اسمه الانطباع بمرور مواكب الحكام عليه. Brunschvicg, La Berbérie, op. cit., I, p. 379.

(38) جاءوا من جبل خليفة المعروف موقعه، وسمح التحكم في هذا الباب بالاستيلاء على القصبة. الغبريني، ص 77. ويوجد دائما حي باب اللوز، الواقع في أعلى باب البنود.

(39) Éd. E. de K. Aguiló, « Incident surgit ab motiu del canvi d'esclaus cristians y moros, pactat despres de la pau », *BSAL*, 15, 1915, p. 227.
رست سفينة سفير أمام باب درسانا *(Damassant)*.

(40) Féraud, *Histoire de Bougie*, *op. cit.*, p. 86.
ويتعلق الأمر بباب تمّ شقه في فترة متأخرة جدا. ويسمح اسمه الذي يعود للفترة الاستعمارية بالتعرف عليه من خلال نصوصنا.

(41) هذا يشير إلى أن القصبة تحتوي على بابين يؤديان إلى خارج المدينة. اللهم إذا -وهذا أقل احتمالا- كان باب القصبة الذي ذكره فيرو وباب الصناعة يشكلان باباً واحداً.

(42) البربر، 3، ص 39. بمناسبة الهجوم على المدينة في منتصف القرن الرابع عشر، لوران شارل فيرو يطابقه مع باب مرقوم ويحدده: "في أعالي قبة سيدي أمقران على رأس طريق الرمان المؤدي إلى حصن كلوزيل (برال)". Féraud, *Histoire de Bougie*, *op. cit.*, p. 86. ويشير كذلك إلى حي باب مرقوم في مقابل جبل خليفة. المرجع نفسه، ص 85. يمكن مطابقته مع الباب المعروف اليوم بباب قوراية، الواقع في هذه المنطقة، وهذا تقريبا متناظر مع باب البحر. وهذا ما يدل على أن السور كان مضافا إليه بين هجوم بني غانية ومنتصف القرن الرابع عشر، -من الممكن- بسبب التهديدات الجديدة الضاربة على المدينة. هذان البابان يشكلان إذن حدي المدينة، وهذا ما يؤكد بأن القسم الأعلى من السور الحمادي لم يحم المنطقة السكانية.

البر هذا التنظيم. إنّ الجزء الغربي هو الذي دون شك يحتوي على المداخل الأكثر تعدادا، وهذا غير مفاجئ، لأنّ هذا الجانب من المدينة ينفتح على السهل الزراعي وعلى طريق الصومام. أما في الجانب الشمالي، فأشير إلى باب واحد ما زال إلى اليوم. يتعلق الأمر بباب البحر(43)، الذي مثّل المنفذ الوحيد على البحر والذي شكّل الجبهة الهامة والخاصة للدفاع عنها. وهناك عدة أبواب على الجبهة الشرقية للمدينة والتي سمحت بالدخول إليها. كباب أمسيون الذي ينفتح على الحي الحامل لاسمه(44) وعلى مقبرة(45). وفي أسفله، باب المرسى الذي يؤدي كما يشير اسمه إلى المرسى، الذي هو أدنى شك جون سيدي يحي (46). ويشير "تاريخ" المريني في هذا القسم من السور إلى باب سادات(47)، الذي قد يكون واقعا حسب لوران شارل فيرو إلى ما بعد حصن عبد القادر بقليل، على الطريق المؤدية إلى الجون

(43) البيدق، النص ص 53، الترجمة، ص 80 (بمناسبة مرور ابن تومرت)، الغبريني، ص 80، 165. هذا الباب يسمى اليوم باب أبناء سارة Porte Sarrasine، بالاسم الذي أعطاه له الفرنسيون.

(44) يؤكد لوران شارل فيرو الذي شاهد موقعه في وقته أنه، على الطريق المؤدية إلى ثكنات بريجة (ثانوية الزيتون حاليا)، وإلى المنارات وحوض القردة. Féraud, *Histoire de Bougie, op. cit.*, p. 86 كما أن ليسيان غولفان (Lucien Goulven) يشير كذلك إلى بعض المخلفات الأثرية التي تعود لهذا الباب. Golvin, op. cit., p. 192. الغبريني (ص 188) يحدد موقعه في أعالي بجاية "من على سند بجاية".

(45) الغبريني، ص 69، 101، 245، 254.، يشير إلى أن خارج هذا الباب يوجد رباط (هنا مصلى تم تأسيسه على قبر ولي صالح) أبي زكرياء الزواوي (نفس المصدر، ص 143) ويتحدث عن مصلى آخر في داخل الأسوار: مصلى ابن يبكي (نفسه، ص 188).

(46) بخصوص جولة السلطان أبي عنان المريني بالمدينة، يشير إليها النميري بتحديد موقعها في أسفل باب أمسيون. ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق م. بن شقرون، بيروت، 1990، ص 267. هذا الباب أشار إليه أيضا الغبريني (ص 75، 82، 88)، الذي يتحدث عن مقبرة خارجه، خصوصا مع قبر ومسجد الفقيه أبي زكرياء الزواوي. امتدت هذه المقبرة بين باب المرسى وباب أمسيون.

(47) المريني، ص 253.

الصغير سيدي يحي[48]. وأخيرا نشير إلى الأبواب التي تبقى مجهولة المواقع: فاثنان يذكرهما لوران شارل فيرو هما باب عبد القادر وباب العجزة، اللذين كانا موجودين في زمنه[49]. وباب تاطُنْت الذي يتحدث عنه عبد الواحد المراكشي[50]، وباب باطنة[51]، وباب الجديد[52] أو باب إيلان، وباب الدباغين[53]. لا توجد تقريبا إشارات حول الأبواب التي يذكرها النميري: باب رأس السور، وباب الخوخة وباب عزون[54]. في نهاية الأمر، فقط بعض الأبواب التي لها مواقع معروفة بالنسبة إلى فترتنا[55]: باب البنود، وباب اللوز، وباب البر بالنسبة للجانب الغربي، وباب أمسيون وباب المرسى في الجانب الشرقي، وباب البحر في مقابل البحر.

(48) Féraud, *Histoire de Bougie, op. cit.*, p. 86. من الممكن أن يتعلق الأمر بباب المرسى

(49) *Ibid.*, p. 26.

لا يحدد موقعها ولا يأخذ بها في قائمة الأبواب التي يعطيها بعد ذلك (نفسه، ص 86). هل كان باب عبد القادر نفسه للحصن الحامل لنفس الاسم؟ لا شيء يدل على أنه وجد في الفترة الوسيطة.

(50) المعجب، النص ص 231، الترجمة ص 197. ويوضح أنه وُجد بجانب سويقة يحتمل أن الخليفة عبد المؤمن توقف بها بعد عودته منتصرا من تونس، لتقديم الشكر لتاجر أعطاه طعاما عند إقامته الأولى كطالب ببجاية. ومن المحتمل تحديد موضع هذا الباب بالجانب الغربي. Amara, *Pouvoir, op. cit.*, p. 145.

(51) الغبريني، ص 170.

(52) نفسه، ص 122. هذا الباب وضعه صالح بعيزق في السور الغربي. م. ص. بعيزق، بجاية في العهد الحفصي. دراسة اقتصادية واجتماعية، رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، اشراف م. شبوتو-الرمادي، 1995، ص 119.

(53) الغبريني، ص 82. يوحي اسم الدباغين بموضع قرب وادي، إذن بالأحرى في جانب السهل..

(54) النميري، المصدر السابق، ص 267.

(55) مع ذلك تترك وفرة الأسماء حيرة، لأن محيط الأسوار الدفاعية ليس بالكبير جدا. وعليه يمكن أن نعتبر الإشارة إلى نفس الباب بأسماء مختلفة حسب المؤلفين أو حسب العصور.

انقسمت المدينة داخل الأسوار إلى عدة أحياء حيث ذكر لنا الغبريني البعض منها، ولكن تحديد مواقعها ليس سهلا دائما. ويشار إلى عدة أحياء منها باسم باب أو معلم قريب منها: حومة باب المذبح[56]، وحومة باب أمسيون[57]، وحومة باب

باطنة[58]، وهي دون أدنى شك نفسها حارة المقدسي[59] الواقعة في الأعلى، وحومة اللؤلؤة[60]. وأخيرا في فترة متأخرة جدا، يتحدث الزركشي عن حومة سباط الأموي، ولكن دون تحديد دقيق لموقعها[61].

تخطت المدينة أسوارها بسرعة. ولهذا وجب بناء أحياء جديدة، خصوصا في السهل. إنّ الفضاء الحضري داخل الأسوار كان يضيق بمرور الوقت. من الشرق إلى الغرب، وعلى مستوى الميناء، لا تتعد المسافة بين الأسوار تقريبا 1000م، ومن الشمال إلى الجنوب نعد كذلك حوالي 1 كلم[62]. ومن جهة أخرى، فإن الأرضية وعرة جدا داخل السور.

يمكن للمساكن التمدد خصوصا نحو الجنوب الغربي في اتجاه سهل الصومام، الواسع والسهل الوصول إليه انطلاقا من داخل الأراضي. ففي هذا الجانب نمت الأرباض والبساتين.

---

(56) الغبريني، ص 80.

(57) نفسه، ص 101 خصوصا.

(58) نفسه، ص 170. لكن تحديد موقع هذا الباب يطرح مشكلا.

(59) نفسه، ص 69.

(60) نفسه، ص 165.

(61) الزركشي، النص ص 102، الترجمة ص 70.

(62) كمقارنة، قياس مدينة تونس دون الأرباض الحفصية يساوي 1900 و1000م.
A. Lézine, *Deux villes d'Ifriqiya. Sousse, Tunis*, Paris, 1971, plan p. 144.
M. Chapoutot-Remadi, « Tunis », *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, dir. J.-Cl. Garcin, Rome, 2000, p. 238 ; أنظر أيضا
المخططات المعاد نشرها في: *Grandes villes méditerranéennes, op. cit.*, atlas h. t.

حسب المؤلف المجهول لكتاب الاستبصار، فإن ضاحية المدينة المحصورة بين الجبال، لها محيط يقدر بحوالي عشرة أميال[63]. إذا ما أخذنا بعين الاعتبار بأن هذا يساوي بالتقريب 16 كلم من محيط دائرة، سيكون لدينا مربع له 4 كلم من كل جهة. إن الضاحية (مساكن وبساتين) غطت إذن كل الجنوب الغربي للمدينة، -أي مصب الوادي الصغير- وعلى الأقل قسماً من السهل السفلي للصومام. هذا بكل تأكيد ضخم مقارنة مع الفضاء الداخلي للمدينة. ويمكن وضع هذا التقدير على حساب المبالغة، ولكن من الأفضل التفكير بأنّ المؤلف أشار إلى كثرة البساتين الواسعة التي تتحدث عنها النصوص الأخرى.

لقد كان السهل منطقة معرضة للفيضانات بسبب مصب وادي الصومام والأودية الصغيرة الأخرى الساحلية، إلى درجة بقاء الفضاء المؤهل للبناء دون شك محدودا في الضواحي الأولى للمدينة[64]. فيذكر ليون الإفريقي أن المدينة امتدت "عرضيا على جانب الجبل"[65]، بمعنى جبل قوراية، على الضفة اليسرى للوادي الصغير. ويقول لنا العمري بأن هناك ربض في السهل ألحق بالمدينة وأحيط بسور[66]. وتؤكد لوحة فارماين في منتصف القرن السادس عشر هذه الوضعية: إذ نرى من خلالها ربضا على الجانب الجنوبي-الغربي للمدينة محاطا بسور[67]. ويشير الغبريني كذلك إلى عدة أحياء خارج أبواب المدينة، ولكن دون أن نستطيع معرفة

(63) الاستبصار، النص ص 130، الترجمة ص 36.

(64) ولكن هناك في حوض الصومام سلسلة من القرى، مثل ملالة (حيث لجأ المهدي بن تومرت)، أو القرى التي ذكرها الإدريسي مثل تكلات التي تظهر كضاحية ريفية لبجاية حيث هناك قصور تعود للعاهل يحيى بن العزيز. إنها في الغالب أسواق سواء دائمة (تكلات) أم أسبوعية (سوق الأحد، سوق الخميس، حصن بكر). الإدريسي، الترجمة، ص 167.

(65) Léon l’Africain, p. 360.

(66) العمري، النص ص 231، الترجمة ص 112.

(67) لوحة فارماين (Vermeylen) المؤرخة في 1551، باريس، المكتبة الوطنية الفرنسية، خرائط ومخططات، Ge.DD.2987 (8024)

أهميتها. هكذا شغلت حومة المذبح الواقعة في ربض المدينة السهل[68]. ووجدت خارج الأبواب عدة مقابر، وقعت إحداها في جبل خليفة[69]. وتمت الإشارة إلى المقابر الأخرى خارج أبواب الجهة الشرقية، مثل باب المرسى[70]، وباب أمسيون[71]، أو باب الجديد[72]. إنّ حضور المقابر - حيث أنّ عددها يوحي بأنها لم تكن ذات مساحات كبيرة- لا يلغي حضور مساكن أو أحياء خارج الأسوار[73]. ويشير الغبريني كذلك إلى حومة رابطة المتمني خارج المدينة، حيث دفن أحد العلماء، ولكنها غير محددة الموقع[74]. وأخيرا، دائما في شرق المدينة، نشأت حومة بعيدة جدا في مرحلة متأخرة، والتي شكلت مسألة في رواية المريني لفتح الأسبان لبجاية. وقد ذكر أنّ اللاجئين الأندلسيين (الوافدين في فترة سقوط سلطنة غرناطة) وصلوا بأعداد كبيرة بحيث لم يُتمكن من إسكانهم بالمدينة[75]. ولقد بنيت لهم حومة واقعة في الميناء القديم، الذي يوجد في أعلاه ضريح سيدي

(68) الغبريني، ص 76. لكن اختفى هذا الحي اليوم وعوض بالمنشئات الصناعية ومنشئات الميناء حول المحطة، ولكن أكد لي عدة أشخاص ببجاية أنه كان في هذا الموضع (ويوجد في مكان آخر المذابح التي لا يفاجئ بعدها عن المدينة). يدعو تحديد موقعها إلى مطابقته مع الربض الذي أشار إليه العمري.

(69) الغبريني، ص 72. دون شك، هي نفس المقبرة حيث دفن عالم خارج باب البنود في حومة بئر مسفرة وهي التي يسميها الغبريني بمقبرة أبي علي رسمية. المصدر نفسه، ص 182. ومن الممكن أنها كانت في موضع مقبرة سيدي محمد أمقران الحالية.

(70) نفسه، ص 88.

(71) نفسه، ص 101. توجد اليوم مقبرة في نفس الموضع.

(72) نفسه، ص 122.

(73) نفسه، ص 101، بخصوص مقبرة باب أمسيون. الغبريني يحدد موقعها في الحي الحامل لنفس الاسم، وهذا إذن خارج الأسوار الدفاعية. نتحدث كذلك عن شخص ساكن خارج هذا الباب، وهذا ما يؤكد بأن هذه المنطقة كانت مأهولة. المصدر نفسه، ص 254.

(74) نفسه، ص 176.

(75) وهذا ما يؤكد في هذه الفترة بأن سكان المدينة كان عددهم مهمًّا جدا وكاف لشغل قسم كبير من الفضاء العمراني.

عيسى السبوكي[76]. إنّ تحديد موقع هذه الحومة ليس واضحا. ويوجد بكل بداهة في شرق المدينة[77]. وهناك فرضيتان ممكنتان: من خلال نص المريني، ربما وجدت هذه الحومة في الجون الصغير المعروف بالينابيع (Anse des Aiguades) ، في أسفل ضريح سيدي عيسى[78]. ولكن هذه الحومة ستكون إذن على مسافة تقدر بحوالي 1.5 كلم من المدينة. وتقوم الفرضية الثانية على تحديد موقعها بالقرب من المدينة، في الجون الصغير سيدي يحيى [79].

من الصعب اقتراح رقم لمساحة الفضاء المبني، لغياب معطيات كافية ومؤكدة. إذا ما أخذنا بعين الاعتبار كامل السور، نحصل على مساحة تقارب 100 هكتار، وهذا ما يقرّب بجاية من المدن الإسلامية الأخرى المعاصرة لها[80]. لكن القسم العالي من المدينة لم يتم بناؤه وسكنه بكفاية، بل بالعكس، نجهل تماما أهمية الأرباض. ويمكن إذن اعتبارها حاضرة ذات مستوى إقليمي، ولكن محددة في تطورها بمتضايقات الموضع.

---

(76) المريني، ص 250.

(77) النص الذي يقول بأن الأسبان أنزلوا بها قواتهم واستقروا على قمة الجبل حيث قصفوا المدينة بالمدفعية، ويتحدث عن خروج البجائيين من باب أمسيون، إذن في الشرق.

(78) رغم قلة الفضاء، وفّر هذا الجون الصغير منبعًا مائيًا كافيًا صالح للشرب. من جهة أخرى، إنّ الأعماق مهمة وكافية لوصول البواخر (لدينا الأعماق الفورية من 6 إلى 7 م ثم الأعماق ذات 20م). ليس إذن ممنوعا النظر إليه كموضع الميناء القديم. جرى الإنزال الإسباني فيه بعيدا عن القذائف الواردة من حصن عبد القادر. واستطاع المهاجمون بعد ذلك، كما تروي كتب التاريخ، الصعود على قمة الجبل وتحصينها ونصب المدافع عليها.

(79) بعيزيق، بجاية، المرجع السابق، ص 224.

(80) أنظر: Micheau, Guichard, « Les sources des mega poles Orientals », art. cité, p. 691 : 170 هكتاراً لدمشق في القرن الثالث عشر (مع أرباضها- 115 هكتاراً في القرن الثامن دون أرباضها)، 112 هكتاراً لحلب في نفس الفترة (مع الأرباض)، 250 هكتاراً لتونس في القرن التاسع عشر (مع أرباضها).

2ـ المنظر الحضري:

من الصعب الحصول على نظرة دقيقة لمعالم المدينة، بما أنّ النصوص لا تهتم خصوصا إلا بالمظاهر الدفاعية والبنايات الدينية، والتي تطرح إشكالا بخصوص تحديد مواقعها. وفيما يخص بقية المعالم والمساكن المشتركة، تبقى مجهولة كلية.

أ)ـ مدينة محمية جيدا

مقر لحكم مستقل ثم لعامل جهة حدودية، كانت المدينة أولا سهل الدفاع عنها، حيث أن عدداً من المؤلفين ألحوا على مظاهرها الدفاعية كالعبدري الذي وصفها كما يلي: " بجاية مبدأ الإتقان والنهاية، وهي مدينة كبيرة، حصينة، منيعة، شهيرة، برية، بحرية، وثيقة البنيان، عجيبة الإتقان، رفيعة المباني، غريبة المعاني، موضوعة في أسفل جبل وعر، وبحر مشرفة عليه إشراف الطليعة، متحصنة بهما منيعة، فلا مطمع فيها لمحارب، ولا متسع فيها لطاعن وضارب[81]. "

إنّ المنفذ إلى بجاية محمي من جانب البر بتضاريس صعبة جدا. إذا ما استثنينا الطريق المار بحوض الصومام، فإنّ الطرق نادرة وغير عملية، نظرا لإلزامية اجتياز التضاريس الصعبة جدا. ويشير عدد من المؤلفين لهذه الخاصية ونوعية موقع المدينة المحمية جيدا ضد الاعتداءات الخارجية عن طريق البر. عندما يروي ابن خلدون قصة تأسيس المدينة، فإنه يلح على صعوبة منال جبل بجاية. إن حوض الصومام في الجنوب ضيّق ومحمي بعدة نقاط دفاعية أشار إليها الإدريسي[82].

---

(81) العبدري، الرحلة المغربية، ترجمة A. Charbonneau, « Notice et extrait du voyage d’el-Abdère », *Journal asiatique*, 1854, 5e série, IV, p. 158.

(82) الإدريسي، الترجمة، ص 167-168. إنّ تحديد موقعها بدقة ليس دائما ممكنا. الأول حصن تكلات "وهو حصن منيع وهو على شرف مطل على وادي"، وتم تحديد بقاياه الأثرية على بعد 23 كلم من بجاية، قرب قرية القصر. ثم بعد قرية-سوق (سوق الخميس) نجد حصن بكر "حصن حصين" على الضفة اليسرى للصومام، وحصن وارفو، وأخيرا مكان يسمى ببساطة القصر، وهو الذي يتحكم في=

إذا ما تمّ اجتياز هذه الحواجز الأولى، يمكن الاستيلاء على بجاية: "حامية الثغر، ذات الانطلاقة الفخـورة[83] ". وتأخـذ المدينـة قيمتهـا مـن الـدفاعات الطبيعيـة. إنّ الجانب الشمالي من جبل قوراية شديد الانحدار مما يصعب الهجوم من هـذه الجهـة. ويمكن انطلاقا من قمته مراقبة البحر ومن ثمّ الإنذار عن هجوم مفاجئ[84].

كان السور المحيط بالمدينة متمما بمجموعة مـن الحصـون تطـرح إشـكالا في تحديد موقعهـا. ويتحـدث المؤلفـون الوسـيطيون عـن عـدة معـالم، ملحـيّن علـى الخصوص على عظمتها[85]. لكن الأسماء تتغير من نص إلى آخر وقلما تقع هـذه

=ملتقى مع الطريق المؤدي إلى قلعة بني حماد في الجنوب. حول هذا الطريق نجد عدة مواضيع بأسماء توحي بأشياء مثل حصن الحديد، وقصر بني تراكش، والباب، وحصن السقائف، وحصن الناظور.

(83) هكذا تصف قصيدة حماد بن علي التي أشار إليها بورويبة. Bourouiba, *Les Hammadides*, *op. cit.*, p. 160.

(84) من الممكن وجود نظام إنذار، لكن الأدلة تبقى غير كافية. كتب فيرو Féraud, *Histoire de Bougie*, *op. cit.*, p. 54-55, الذي اعتمد على نص عربي يحتمل أنه حرر وفق نظرة المصنفات التاريخية المحلية، والذي أوصله له شخص بجائي "فـأصل هذا النظام إذن غير مؤكد: "في جانب المدينة المقابل لغروب الشمس وللمنتصف، رفع هؤلاء العمال (في فترة المنصور) أولا برج عظيم سمي بشوف الرياض. ويحمي هذا البرج ثلاثة أبواب منها الرئيسي يسمى باب البنود والذي كان معلما، مجهزاً بعدة شفائر حديدية، وأحيط ببرجين دفاعيين. ويفتح هذا الباب في جانب البساتين والوادي الكبير. ووجدت في قمة هذا البرج جهاز له مرآة، يوافق أمثالها المنصّبة في مختلف الاتجاهات، وبمساعدتها يمكن الاتصال بسرعة من أول إلى آخر الإمبراطورية مع كل المدن مثل قسنطينة، وتونس، والقلعة. وفي أثناء الليل، تتم الإشارات بالنيران الموضوعة بالطريقة الملائمة. ولهذا فإن برج شوف الرياض سمي كذلك بالمنارة. أنظر أيضا: Bey lié, *op. cit.*, p. 39 الذي يعتمد على أدلة أكثر إقناعا.

(85) أنظر خصوصا: Léon l’Africain, p. 360 وعلى وجه أخص قصيدة ابن حمديس حول أحد قصور بجاية. L. Bircher, « Le Palais d’al Mansur à Bougie », *RT*, 29, 1922, p. 50-54 ; Fr. Gabrieli, « Il palazzo hammādita di Biğāya descritto da Ibn Hamdīs », *Aus der Welt der islamischer Kunst. Festschrift für Ernst Kühnel zum 75. Geburtstag*, Berlin, 1959, p. 54-58 الذي يحكم على ترجمة برشي بأنها حرة جدا وليست خالية من الأخطاء. وتوجد أيضا ترجمة إيطالية أكثر قدما. Ibn Hamdîs, trad. C. Schiaparelli [1897-1909], nouv. éd. S. E. Carnemolla, *Il Canzoniere*, Palerme, 1998, p. 425-427.

البنايات في المدينة. بداية من تأسيسها في 460/ 1067، بنى الناصر عدة قصور، وتابع البناء خليفته المنصور عندما نقل نهائيا البلاط إلى بجاية في 483/ 1090[86]. وعموما نعتبر أن المدينة كانت محمية بواسطة أربعة حصون واقعة في قلب المدينة: القصبة، وقصر الكوكب، وقصر اللؤلؤة، وحصن غالق للميناء من جهة الشرق (حصن عبد القادر حاليا). يجب الرجوع إلى هذا النظام.

إنّ القصبة هي المركز السياسي بامتياز ولها جامعها الخاص[87]، إذ هي مقر الحكم ومكان الاستعراضات المهمة، وعلى وجه الخصوص أداء يمين العاهل الجديد (البيعة). ولنا عادة الاعتقاد أنّ هذه القصبة كانت تقع في العصر الوسيط في الزاوية الجنوبية الغربية للمدينة حيث تنتصب اليوم القصبة التي شيّدها الأسبان والتي استولى عليها بعد ذلك الأتراك والفرنسيون. رغم أنه لا يوجد أي نص وسيطي يحدد موقعها على حافة البحر. بل بالعكس، فالغبريني عندما يروي أحداث فتح ابن غانية، يذكر أن هذا الأخير دخل إلى المدينة عن طريق باب اللوز ومن هنا استولى على القصبة. إذ أن باب اللوز الذي له موقع محدد جيدا يقع أعلى برج موسى الحالي، المطابق لقصر النجمة. هذا الأخير قد يكون هو القلعة ذاتها. و يتطابق هذا مع عبارة لابن خلدون التي تروي أن أبا فارس تلقى بيعة أعيان المدينة في قصر النجمة عام 681/ 1282، بعدما دفع بأبيه إلى التنازل عن العرش[88]. ويمكن كذلك الإشارة إلى أنّ قلاع هذه الفترة كانت بالأحرى مبنية في

(86) البربر، 2، ص 52. متناقضا مع ما كتبه في الأعلى (المصدر نفسه، 2، ص 51)، يجعل ابن خلدون منه مؤسس قصري اللؤلؤة وأميمون. وينسب إليه على الخصوص تزيين المدينة بضرورة الوصول إلى البلاط: "تأنق في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين".

(87) الغبريني، ص 140، 241، الذي يتحدث عن إلقاء الخطبة في هذا الجامع. أنظر أيضا ابن خلدون، رحلة، ترجمة عبد السلام الشدادي، *Le Voyage d'Occident et d'Orient*, trad. A. Cheddadi, Paris, 1980, p. 98.

(88) البربر، 2، ص 392.

أعالي المدينة والتي تدافع عنها وتراقبها[89]. بناءً على هذه الفرضية ندرك أن القلعة كمركز للحكم لا يمكنها النزول إلى مكانها الحالي إلا في الفترة الإسبانية.

تتعقد صورة التحصينات الغربية للمدينة أيضا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مُعطى ابن خلدون الذي يتحدث عن حصن أميمون الذي بناه المنصور[90]. انطلاقا من تصديق هذه الشهادة، تخيّل دوبايلي (Bey lié) نظاما من ثلاثة حصون مقابل السهل: القصبة، والنجمة وأميمون الذي يماثله ببرج موسى الحالي[91]. لكن هذا التشكيل هو قريب من المعقول نوعا ما، اعتبارا من المسافة القليلة (حوالي 1 كلم). ومن جهته يطابق رشيد بورويبة قصر النجمة مع القصبة، ولكنه يحدد موقعها بالموضع الحالي لهذه القلعة، على حافة البحر، ويحدد مكان قصر أميمون في موضع برج موسى الحالي[92]. وأخيرا، فإنّ روبار برونشفيك (Robert Brunschvicg) يضع قصر أميمون أكثر إلى الشمال والنجمة في موقع برج موسى الحالي[93]. وأعتبر من جهتي أنّ القلعة (القصبة) وجدت في موضع عال، ولدي نزعة في رؤية هذه الأسماء الثلاثة لحصن واحد، على موضع برج موسى الحالي، الذي شكّل مفتاح الدفاع عن المدينة.

وجد قصر ثان وهو قصر اللؤلؤة، الذي بناه (أو بدأ في بنائه بالأحرى) الناصر في وقت تأسيس المدينة[94]. هنا أيضا، ليست كل النصوص متوافقة حول تحديد موقعه. ويظهر بأنّ المؤلف المجهول لكتاب الاستبصار يضعه على حافة

(89) على سبيل المثال حالة تونس، وسوسة، وسبتة والجزائر. أنظر أيضا دور القلاع في المشرق (دمشق، القاهرة)، وكذلك في بعض مدن أوروبا المسيحية.

(90) البربر، 2، ص 52.

(91) Beylié, *op. cit.*, p. 101.

(92) Bourouiba, *Les H’ammadites*, *op. cit.*, p. 210.

(93) Brunschvig, *La Berbérie*, *op. cit.*, I, p. 379.

يعتقد برونشفيك من جهة أخرى أن القصبة بناها الموحدون على حافة البحر. *Ibid.*, p. 380.

(94) البربر، 2، ص 51.

البحر، في موضع حصن عبد القادر الحالي: "وفي بجاية موضع يعرف باللؤلؤة، وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر، متصل بالمدينة"[95]. لكن هذه هي غلطة دون شك، لأنّ النميري الذي زار بجاية، يفرّق جيدا بين قصر اللؤلؤة الذي يعتبره منارة والبرج الواقع على حافة البحر[96]. يمكننا إذن اعتبار أن هذا القصر قد وجد في موضع ثانوية الزيتون الحالية[97]، وبالتالي كان مركز الحي الأميري[98].

بغلقهما لهذا المكان ذي الأربعة أضلاع من جهة البحر، نسلم بصفة عامة بأن حصنين دافعا مباشرة عن الميناء والقسم السفلي من المدينة السهل المنال خصوصا: الحصن الواقع في موضع القصبة الحالي والبرج الذي يتحدث عنه النميري، الواقع في الشرق والمراقب أيضا لجون سيدي يحيى حيث يحتمل شن هجوم منه. وحسب ليون الإفريقي فإن بيدرو نافارو (Pedro Navarro) بنى "قلعة قرب البحر في موضع يوجد به شاطئ جميل" و"حصّن القلعة القديمة، المجاورة أيضا للبحر بجانب دار الصناعة"[99]. إنّ دار صناعة الأساطيل كانت واقعة في السهل في جنوب غرب المدينة ويؤكد هذا الوصف إذن أن هذه الزاوية من السور كانت محمية بحصن.

في أعلى المنطقة المأهولة، من الممكن إكمال عناصر أخرى للنظام الدفاعي. يشير إلى ذلك لوران شارل فيرو وهي الفكرة التي أخذها عنه رشيد بورويبة، ولكن لا نعلم على أي نصوص اعتمدا. وقد يكون البرج الأحمر قد بناه الناصر

---

(95) الاستبصار، النص ص 130، الترجمة، ص 36.

(96) النميري، المصدر السابق، ص 267.

(97) يشير لوران شارل فيرو إلى رؤية مخلفاته في زمنه. L.-Ch. Féraud, « Notes sur Bougie. Légendes - traditions », *RA*, 2, 1857, p. 462.

(98) Amara, *Pouvoir*, *op. cit.*, p. 146.

(99) Léon l’Africain, p. 361.

وهدمه الأسبان، ليعيد الأتراك بناءه بعد ذلك تحت اسم برج بـو ليلـة[100]. ومـن جهة أخرى، فإن قمة جبل قوراية كانت كذلك محمية بحصن[101].

وتظهر إذن بجاية في كتب التاريخ وفي الوصف الجغرافي أو الـرحلات قبـل كل شيء كمقر للحكم ومكان محصن يتم الدفاع عنه ضد الاعتداءات الخارجيـة. ويتجلى لنا هذا المظهر بكل وضوح في سهر الأسياد المتعاقبين على بجاية وإلى غاية الفترة المعاصرة على صيانة الأعمال الدفاعية التي تبقـى اليـوم المخلفـات الأثريـة الوحيدة للمدينة الوسيطية، بحالتها المتدهورة جدا.

ب) البنايات والمؤسسات الدينية والمدنية

في داخل هذه الأسوار المحصنة وتحت حماية الحصون، يبقى المنظر الحضري غـير معروف جيدا. إنّ الغبريني هو المصدر الغني جدا بالمعطيات المتعلقة بطبوغرافية المدينـة ولهذا فليس هناك ما يدهش في أنّ الأمكنة المشار إليها هـي المسـاجد والمقـابر. ويبقـى تحديد المواقع في غالب الأحيان افتراضياً. إنّ العنصر الوحيـد الـذي يمكـن أن نعتـبره مؤكدا هو موضع الجـامع الأعظـم ببجايـة[102]. فـالمسجد الحـالي –الموهـوب–[103] يسجل دون شك موضع الجـامع الأعظـم القـديم لبجايـة. ويتطـابق هـذا جيـدا مـع الوصف الذي وصفه به العبدري: "ولها جامع عجيب، منفـرد في حسـنه غريـب، مـن الجوامع المشهورة، الموصوفة المذكورة. وهو مشرف على برها وبحرها، وموضـوع بـين

---

(100) أنقص الأسبان بشدة من الفضاء المدافع عليه وهدموا إذن هذا الحصن الذي شكّل تهديدا لهم. ومن هنا نصب صالح رايس مدافعه ضد الأسبان. Féraud, « Notes sur Bougie », art. cité, *RA*, 3, 1858, p. 48.

(101) يتحدث النميري، المصدر السابق، ص 268، عن قبة الحارس على قمة الجبل. ويوجد اليوم حصن، ولكنه يعود إلى الفترة الحديثة، بني على قبر ولية صالحة.

(102) أشار الغبريني إلى الجامع الأعظم عدة مرات، كمسجد فيه خطبة (على سبيل المثال، ص 106).

(103) أخذت مكان الكنيسة القديمة.

سحرها ونحرها. فهو غاية في الفرجة والأنس. ينشرح الصدر لرؤيته وترتاح النفس. وأهلها يواظبون الصلاة فيها مواظبة رعاية، ولهم في القيام بها تهمم ورعاية"[104].

ولا نعلم في المقابل بأي معيار تمّ ترتيب النسيج العمراني حوله، لعدم توفر المعلومات حول بقية عمائر المدينة. وبقية الجوامع التي ذكرتها النصوص هي جامع القصبة[105] وجامع الموحدين[106]. وتجب إضافة المصليات في الأحياء[107]، كمسجد الريحانة الذي استقبل المهدي بن تومرت[108] و مسجد المرجاني[109]، ومسجد النطاعين[110]، ومسجد الفقيه أبي زكرياء الزواوي الذي يحدده الغبريني في حومة اللؤلؤة أو في خارج باب أمسيون[111]. لدينا أيضا أثر عدة زوايا وأربطة[112]، بعضها مازال موجودا إلى يومنا هذا، ولكن تاريخها يبقى دائما غير ثابت[113]. ويتحدث ليون الإفريقي الذي وصف المدينة في نهاية الفترة الحفصية

---

(104) العبدري، المصدر السابق، ص 158.

(105) مثل الغبريني، ص 140، 241.

(106) نفسه، ص 215.

(107) كتب المريني أن المدينة كانت تحتوي على 72 مسجداً أو مصلى قبل الفتح الأسباني، ولم يبق منها إلا 53 مسجدا. المريني، ص 348.

(108) البيذق، النص ص 52، الترجمة ص 78. حملت بعد ذلك اسم مسجد الإمام المهدي. الغبريني، ص 151.

(109) الغبريني، ص 165.

(110) نفسه، ص 161.

(111) نفسه، ص 59، 142. النميري، المصدر السابق، ص 267، الذي يحدد مكان هذا القبر خارج باب المرسى.

(112) يشير الغبريني إلى وجود عدة زوايا وأربطة في حارة باب أمسيون. الغبريني، ص 143، 188.

(113) أنظر القائمة المتأخرة التي أعطاها الوارثلاني نشر وترجمة حاج صدوق. « À travers la Béribérie orientale du XVIIIe siècle avec le voyageur al-Warthīlānī », *RA*, 95, 1951, p. 327) أو قائمة لوران شارل فيرو Laurent-Charles Féraud (*Histoire de Bougie, op. cit.*, p. 85-86). لفت روبار برونشفيك النظر إلى أهمية تقديس سيدي يحيى=

عن "زوايا للمتدينين المسلمين" وعن "مدارس وجد بها بكثرة الطلبة وأساتذة الفقه والعلوم الأخرى"[114]، وهذا ما يترك انطباعا بوجود مدارس بها كبقية مدن المغرب، ولكن في مرحلة متأخرة من تاريخها. فقد قدمت بجاية تعليمًا مسّ شريحة واسعة من السكان الذين عاشوا في المقاطعة وما والاها. هذه هي الحالة في زمن الغبريني[115]، لكنه لا يتحدث عن أي من هذه المؤسسات. ففي القرن الرابع عشر، تأسّف العمري لعدم وجود مدارس في مدن المغرب، ما عدا فاس ومراكش، وهذا ما يترك الاعتقاد بتطورها المتأخر[116].

إنّ بقية عناصر المنظر الحضري غير معروفة جيدا. يتحدث ليون الإفريقي عن الحمامات، والمستشفيات، "كل البنايات هي مشيدة جيدا"[117]. ويشير أيضا إلى الفنادق التي تلمح إليها مصادر أخرى. ففي القرن الثاني عشر، اكترى أبو زكرياء الزواوي فندقاً بـ 300 دينار من حاكم المدينة وهذا لإيواء الفقراء في فترة المجاعة[118]. ويشير ليون الإفريقي أيضا إلى أسواق "جميلة ومنظمة جيدا"[119]. ولدينا

=وسيدي التواتي هذا الأخير الذي ليس له تاريخ مؤكد، ويجعله برونشفيك كمعاصر للحماديين)
Brunschvicg, *La Béribérie*, *op. cit.*, I, p. 381.

(114) Léon l'Africain, p. 360.

(115) أنظر:

D. Urvoy, « La structuration du monde des ulémas à Bougie au VIIe/XIIIe siècle », *Studia Islamica*, 43, 1976, p. 87-107.

(116) العمري، الترجمة، ص 113. لكن هذه الملاحظة التي هي نوعًا ما تفضيلية، جاءت من مشرقي لم يزر الجهة وتثمينه ربما ليس موثوقاً به. ويعود تاريخ أقدم مدرسة في تونس إلى عهد أول سلطان حفصي، أبي زكرياء. R. Brunschvig, « Quelques remarques sur les médersas de Tunisie », *RT*, n. s., 6, 1931, p. 264.

(117) Léon l'Africain, p. 360.

(118) ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أ. فور، الرباط، 1958، ص 448-449. يترجم فانوال (Fenoyl) كلمة فندق بـ "دكان كبير" (grande boutique) لكن يمكن أيضا سماع الكلمة في معنى أقل تقييدا.

M. Fenoyl, *Regard sur le temps des soufis ; vie des saints du Sud Marocain des V, VI, VIIe siècles de l'hégire*, Paris, 1995, p. 307. حول الفنادق الإسلامية واختلافاتها مع الفنادق المسيحية، أنظر:=

القليل من الإشارات حول تحديد مواقع هذه الأسواق في بجاية. فيحدثنا المراكشي عن سويقة قرب باب تاطنت [120]. ويذكر الغبريني أسواقًا أخرى: كسوق الصوف، وسوق الصوافين (الذي قد يكون هو نفسه السوق السابق)، وسوق باب البحر وسوق القيسارية الذي احتوى على عدة حوانيت[121]. وأصدر الغبريني نفسه من جهة ثانية فتوى أثارت مسألة سوق البزازين في بجاية[122]. وأخيرا، تتحدث فتوى تعود إلى نهاية القرن الخامس عشر عن قيسارية وجد فيها حانوت تاجر، لكن دون إعطاء المزيد من التوضيحات[123]. ويحتمل وقوع هذه الأسواق داخل الأسوار، ويجب أن تضاف إليها حومة المذبح حيث يباع العبيد على وجه التخصيص[124].

=*The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World*, dir. A. E. Laiou et R. P. Mottahedeh, Washington, 2001, p. 145-156 ; Ead., *Housing the Stranger in the Mediterranean World. Lodging, Trade, and Travel in Late Antiquity and the Middle Ages*, Cambridge, 2003.

(119) نفسه.

(120) المعجب، النص ص 231، الترجمة، ص 197.

(121) الغبريني، ص 161 (سوق الصوف)، 165 (سوق باب البحر)، 177 (سوق الصوافين)، 218 (سوق القيسارية).

(122) تحليل في:

V. Lagardère, *Histoire et société en Occident musulman au Moyen Âge. Analyse du Mi'yār d'al-Wanšarīsī*, Madrid, 1995, p. 330.

(123) تحليل في: Lagardère, *Histoire et société*, *op. cit.*, p. 147 ، وحسب برونشفيك، فإن القيسارية كانت محجوزة لتخزين وتصريف الأنسجة المستوردة. Brunschvicg, *La Bérìbérie*, *op. cit.*, II, p. 235 ، أنظر: « khaysariyya », *EI²*, IV, p. 873-874 (M. Streck) الذي يتحدث عن بيع القماش والمواد المرموقة للأندلس والمغرب الأقصى. ووصف راينهارت دوزي (Reinhard Dozy) القيسارية كـ "سوق (bazar) ، وسوق مسقوفة (Halle) ، وساحة عمومية تستعمل لإقامة السوق أو من الأفضل: عمارة مربعة على شكل أروقة دير، تحتوي على غرف ومستودعات ودكاكين للتجار". أو تكون بناية تقترب من الفنادق. Dozy, *Supplément*, *op. cit.*, s.v.

(124) الغبريني، ص 76.

على الرغم من عدم التأكد من الموقع، فإنه من الواضح وقوع المنطقة الاقتصادية الأكثر نشاطا قرب الميناء. هنا وجدت بصفة خاصة فنادق المسيحيين التي ظهرت بداية من القرن الثالث عشر. وهنا أيضا يحتمل وجود بنايات الديوان، قرب رصيف تفريغ السلع.

إنّ المعطيات النادرة حول المنظر الحضري تظهر إذن بجاية كمدينة ذات وظائف كاملة. مدينة الحكم، وهي أيضا كما يوضحه "جامع" الغبريني، مدينة المعرفة والدين، إلى درجة استقبال الذاكرة الجماعية وصفها المتباهي بـ "مكة الصغيرة"[125]. أخيرا، إنها قطب اقتصادي كما تشهد على ذلك البنايات، المتمركزة دون شك حول الميناء، والمرتبطة بالتجارة البحرية.

3) أهمية السكان الحضر

إنّ بجاية من دون شك هي واحدة من بين أهم وأكثر المدن المأهولة في المغرب خلال فترة كبيرة من العصر الوسيط. لكن تجاوز هذه العموميات لتقديم تقدير حول عدد السكان هي مهمة صعبة. لأن المعطيات المتوفرة لدينا نادرة وغير موثوق فيها أولا [126]. وثانيا لأنّ السكان تنوعوا بوضوح خلال الفترة الطويلة التي تهمنا.

---

(125) وينقل فيرو هذه الرواية الشفوية التي نقلتها عنه بعد ذلك الكتب العامة حول بجاية، وهذا انطلاقا من قصة تضع في الواجهة الناصر الذي حكى له "شيخ في المائة من عمره وهو حسن بن ورات" Féraud, « Notes sur Bougie », art. cité, *RA*, 2, 1857, p. 461 ، ومن الصعب جدا إعطاء تاريخ محدد لها.

(126) D. Ayalon, « Regarding Population Estimates in the Countries of Medieval Islam », *JESHO*, 28/1, 1985, p. 18.
انطلاقا من الحالة المصرية والسورية. وليس للمعطيات الرقمية حول السكان أي صحة مطلقة، ولكن هذا لا يمنع البحث عن تقريب هذه الحقيقية. أنظر: Michau, Guichard, « Les sources des mégapoles orientales », art. cité, p. 685-691.

إنّ معطيات الأرقام التي نملكها شحيحة مع كونها متأخرة. فبيري رايس يعدّ في نهاية القرن الخامس عشر، 18000 منزلًا داخل الأسوار[127]. ويتحدث ليون الإفريقي في بداية القرن السادس عشر عن 8000 كانون، ولكن يقول بأنّ المدينة عدّت 24000 كانون في زمن عظمتها، وهذا ما سمح لبروشنفيك (Brunschvig) بتقديم الرقم 40000 نسمة كإحصاء لعدد السكان [128]. بعد ذلك بقليل، أشار مارمول (Marmol) إلى أكثر من 20000 منزلا، ولكن من الممكن أنه أخذ أرقام سابقيه بعد أن شوّهها[129]، مضيفا أنها أثناء الاستيلاء الإسباني عليها كان بها 8000 نسمة للدفاع عنها[130]. وباعتماده على معطيات ليون الإفريقي ومارمول وكذلك على بعض التقديرات المتعلقة بمساحة الفضاء الحضري المأهول، توصل صالح بعيزق إلى رقم يمتد من 50000 إلى 60000 نسمة في الفترة الحفصية[131]. يمكننا مقارنة هذا الرقم مع تقدير سكان غرناطة النصرية (بين 50 ألف و100000، حسب المؤرخين عشية الاستيلاء المسيحي) [132]أو تونس في الفترة الحفصية (100000 في الأوقات الأكثر رخاءً) [133]. لكن

(127) Pîrî Reis, trad. Mantran, art. cité, p. 163.

(128) Brunschvig, *La Berbérie, op. cit.*, I, p. 383.

(129) Marmol, p. 415.

(130) *Ibid.*, p. 416.

هنا أيضا لا يتعلق الأمر بالقراءة المشوهة لليون الإفريقي الذي يتحدث عن 8000 كانون في عصره؟

(131) م. ص. بعيزق، "محاولة لتقدير عدد سكان بجاية في العهد الحفصي"، الملتقى الدولي الخامس للدراسات العثمانية: المدن العربية، الديموغرافيا التاريخية والبحر الأحمر في الفترة العثمانية. المجلة العربية للدراسات العثمانية، 9–10، 1994، ص 73–82. لكنه أعاد النظر في هذا الرقم ورشحه إلى الارتفاع في أطروحته، إلى 80000 في نهاية القرن الخامس عشر (بعيزق، بجاية، المرجع السابق، ص 123)، لافتا النظر إلى أن الأمر لا يتعلق إلا بفرضيات.

(132) R. Arié, « Une métropole hispano-musulmane au bas Moyen-Âge : Grenade nasride », *CT*, 137-138, 1986, p. 67.

وترتكز هذه الأرقام سواء على دراسة الطبوغرافيا الحضرية أم على الوثائق المسيحية في بداية القرن السادس عشر (رغم ضياع وثائق سكان غرناطة).

(133) Brunschvig, *La Berbérie, op. cit.*, I, p. 356-357.

مناهج الحساب متنوعة من مؤرخ إلى آخـر[134]. وفي اعتبارنـا أنّ تقـديرات ليـون الإفريقي هي خاطئة مطلقا لكن متطابقة مع التثمين النسبي لمؤلفهـا، يمكننـا أيضـا أخذ هذه الأرقام المتعلقة بالسكان الحضر ومقارنتها. إذا اعتبرنـا "الكـانون الليـوني" كوحدة، نتوصل إلى الأرقام التالية:

وهران: 6000 كانون

تلمسان: 16000 كانون في فترة عظمتها

الجزائر: 4000 كانون

بجاية: 8000 (لكن يمكنها أن تصل إلى 24000) كانون.

قسنطينة: الأسوار يمكنها احتواء 8000.كانون

جيجل: 500 كانون

بونة: 300 كانون

تونس: 10000 كانون

إذن بجاية في نهاية الفترة الحفصية تعدّ واحدة من بين أكثر المدن المأهولة في المغرب، لا تقل أهمية عن تونس. لقد عرفت نموا ديمغرافيا هاما، راجعًا في قسـم منه إلى ازدياد طبيعي ولكن خصوصا إلى هجرة قادمة مـن داخـل أراضـي بعيـدة جدا[135]، وهذا ما أدى إلى حدوث توسع إلى خارج الأسوار التي تعـود إلى الفـترة

(134) أنظر أيضا الأرقام المقترحة لعدة مدن إسلامية وسيطية في: *Grandes villes méditerranéennes, op. cit.,* وعلى الخصوص الحوصلة التي وضعت من طرف بيار غيشار (P. Guichard)، ص 266–272 وميشو وغيشار، « Les sources des mégapoles orientales », art. cité, p. 691 : من 266–272 بدمشق في القرن الثالث عشر (حسب تييري بيانكي Th. Banquais)، 50000 بحلب في نفس الفترة (أ. م. عدي A.-M. Eddie)، 100000 بفاس في القرن الخامس عشر (ر. لو تورنو R. Le Tourneau)، ولكن بين 250000 و450000 بالقاهرة في القرن الرابع عشر (أ. ريمون، م. دلس (A. Raymond et M. Dols).

(135) حول إسهام السكان القادمين من البلاد الداخلية، أنظر: بعيزق، المرجع السابق، ص 359–364. وحول العنصر الأندلسي، نفسه، ص 365–380 وبعيزق:

Baïzig, ., « L'élite andalouse à Tunis et à Bougie et le pouvoir hafside », *Communautés et pouvoirs en Italie et au Maghreb au Moyen Âge et à*=

الحمادية لتلبية الاحتياجات الغذائية لهؤلاء السكان، استطاعت بجاية اللجوء إلى الواردات عن طريق البحر أو عن طريق البر، ولكن خصوصا إلى موارد البلاد الخلفية القريبة.

كانت سهولة التموين بالماء واحدة من المزايا الطبيعية لبجاية، حيث توفره العيون المحلية وعلى الخصوص قنطرة المياه (aqueduc). حيث يتحدث العمري عن عيون متعددة[136] ونعلم وجود المياه الجوفية في صخور جبل قوراية[137]. مقارنة مع مناطق متوسطية أخري، إنّ بجاية والجبال الداخلية كانت مفضّلة بتساقط الأمطار بها بانتظام. وكان استرجاع مياه الأمطار مضمونا من خلال وجود مواجل متعددة، منها ما هو محفوظ اليوم[138]. لكن الماء يصل خصوصا من بعيد عن طريق قنطرة مياه تعود للفترة الرومانية، جرى ترميمها في العصر الوسيط، والتي نجد اليوم بعض بقاياها في الجبل. وتنطلق القنطرة من عين سور في

=*l'époque moderne, actes du séminaire de Rome, 26-27 octobre 2001*, dir. A. Nef et D. Valérian, *Mélanges de l'École française de Rome. Moyen Âge*, 115/1, 2003, p. 523-542 ; D. Valérian, « Les Andalous à Bougie, XIe-XVe siècle », *Migrations et diasporas méditerranéennes (Xe-XVIe siècles). Actes du Colloque de Conques (octobre 1999)*, dir. M. Balard et A. Ducellier, Paris, 2002, p. 313-330.

كما استفادت المدينة في بداياتها من السكان الذين فروا من المجال الزيري. H.-R. Idris, *La Béribérie orientale sous les Zirides, Xe-XIIe siècle*, Paris, 1962, p. 231.

(136) العمري، النص ص 231، الترجمة ص 112. "إحداهما كبيرة منها شرب أهل البلد". كتاب الاستبصار الذي هو مصدره حول بجاية، غير واضح كذلك ويكتفي بالإشارة إلى العيون التي تزود بساتين ضاحية المدينة. الاستبصار، النص ص 130، الترجمة، ص 36.

(137) غير أن دراسة أخيرة لجبل قوراية تظهر أن هذا الأخير يحتوي على مخزون هام من الماء. توجد بالطبع بعض المساقي، لكنها متصدعة جدا ومتشققة لدرجة أنّ الماء ينغمس ويسيل باتجاه البحر خلال سقوط الأمطار. J. Birebent, « Explorations souterraines en Algérie », *Annales de Spéléologie*, 8, fasc. 1, 1953, p. 42.

(138) يشير دوباليي (Bey lié, *op. cit.*, p. 101) إلى وجود عدة مواجل "رومانية"، استعملت بديهيا أو أنها بنيت في العصر الوسيط. وتشغل المكتبة البلدية الحالية الواقعة أسفل دار البلدية، حيز ماجل قديم.

جبل بتوجة على بعد خمسة عشر كلم مسافة جوية غرب بجاية وتساير على مسافة 21 كلم الطريق الحديث المعروف باسم طريق القمم على منحدر جبل قوراية[139]. بطاقة صب تقدر بـ 3600 لتر في الدقيقة، كان بإمكانها تموين عدد كبير من السكان[140].

كانت المدينة محاطة بحزام من البساتين[141] من بينها بستاني الرفيع والبديع الذَيْن أنشأهما الحماديون، وكانت محل إعجاب العديد من المؤلفين[142]. ويحددها العمري على امتداد طول وادي الصومام[143]، ولكن ربما كانت قرب المدينة على الأقل واحد منها[144]. ونجد فيها عمائر ومناظر التنزه[145]، وفي هذا المكان استقر دون شك السلطان المريني أبو عنان لاستقبال أعيان المدينة والاستماع للمجادلات النثرية والشعرية[146].

---

(139) St. Gsell, *Atlas archéologique*, Alger, 1911, feuille 7.
بقيت البعض من مخلفاتها الأثرية في ممر الحمايات أو نفق الجبل (428 م) التي شقت لتمرير قنطرة الماء. نفسه.

(140) E. Dewulf, « Notice sur l'aqueduc de Bougie », *Recueil de la Société archéologique de Constantine*, 10, 1866, p. 316-319.
قدّر هذا المنسوب بتفحص ثقل ترسبات الجدران وخلص إلى إمكانية تزويد مدينة ذات 86000 نسمة. وحسبها قزال انطلاقا من قطع القناة وأعطى منسوب يصل في أقصاه إلى 5000 لتر في الثانية. Gsell, *Atlas archéologique, op. cit.*, feuille 7.

(141) الاستبصار، النص ص 130، الترجمة، ص 36.

(142) البربر، 2، ص 223، الذي يقول بأن الموحدين رمموا هذه البساتين التي كانت قد تخربت. أنظر أيضا البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق ح. السائح، (د. م)، (د. ت.)، ص 153.

(143) العمري، النص ص 231، الترجمة، ص 112-113، الذي يشير إلى جنّات قرب وادي بجاية.

(144) تم احتجاز السلطان المعزول أبي إسحاق من طرف ابنه بإقامة تقع في بستان الرفيع. البربر، 2، ص 392.

(145) المناظر. العمري، النص ص 231، الترجمة، ص 112. ويتحدث ابن الشماع عن قصر الرفيع. أشار إليه عمارة. Amara, *Pouvoir, op. cit.*, p. 148.

(146) النميري، المصدر السابق، ص 268-269.

ويسمح وادي الصومام وبأقل درجة الـوادي الصـغير علـى وجـه الخصـوص بسقي البساتين المستعملة في تموين سكان بجاية. ويشير كتاب الاستبصـار إلى النـواعير التي تستقدم ماء الصومام إلى البساتين[147] ويتحدث العمري عن بساتين ممتدة بكيفيـة مطردة على ضفاف الوادي على نحو 12 ميلا [148]. وأخيرا يذكر ليون الإفريقـي أنـه يوجد حول المدينة "ما لا نهاية من البساتين معبأة بأشـجار الفواكـه"، خصوصـا بجانـب الباب الذي ينفتح إلى الشرق، بمعنى من جهة السهل[149].

إنّنا إذن غير مطلعين جيدا علـى مظهـر المدينـة في العصـر الوسـيط، لأنّ مصداقية المادة الخبرية تجعل تصـورنا مجـردا مقارنـة بالمـدن الأخـرى في المغـرب والمشرق. إنّ بجاية في تلك الفترة مدينة مأهولـة جـدا علـى المسـتوى المغـاربي أو حتى على المستوى المتوسطي، حيث طوّرت الوظائف العمرانية الكاملة. إنها قبـل كل شيء قلعة محصنة جدا سواء عن طريق عناصر التضاريس أم عن طريق بناءات الأسوار أم الحصون، وأيضا مدينة منفتحة على البر (حوض الصـومام) والبحـر، بجبهة بحرية واسعة، وهذا ما جعل منها مكان عبور وتبادل سواء علـى الصـعيدين الثقافي والديني أم علـى الصـعيد الاقتصـادي. و لكـن لا يجـب المبالغـة في المزايـا الطبيعة لموضع وموقع بجاية، التي لا يمكن دحضها، لكن القرار السياسي هو الذي جعل منها قبل كل شيء عاصمة دولة، ثم عاصمة مقاطعة-مفتـاح للإمبراطوريـة الموحدية وأخـيرا للممتلكـات الحفصـية. إن هـذه الإرادة السياسـية، بقـدر مزايـا موقعها، هي التي سمحت لبجاية على امتداد تاريخها بالتحكم في جـزء مهـم مـن المغرب، لأنها المنفذ البحري الرئيس على وجه الخصوص.

(147) الاستبصار، النص ص 130، الترجمة، ص 36.

(148) العمري، النص ص 231، الترجمة، ص 112.

(149) Léon l’Africain, p. 361.

II- فضاء سياسي خاضع لقوى الأطراف

أعطت المكانة التي اكتسبتها بجاية في الفضاء السياسي المغاربي ميلا طبيعيا لتكون مركز جهة مهمة، ولكن صعبة التسيير نظرا لامتدادها وتعقدها. كانت دون شك لدى الملوك والعمال فكرة واضحة نسبيا عن اتساع حيز التأثير النظري للمدينة[150]. لكن الأهم بالنسبة إليهم هو اعتراف السكان المقيمين تحت سيطرتهم بحكمهم الفعلي. ليس الأمر كذلك بالنسبة للقبائل المتنقلة التي تتحرك في فضاء واسع، تابع أحيانا لملوك مختلفين، أو ترحل في وقت الشتاء إلى الصحراء وبالتالي تخرج عن الحيز الذي تتحكم فيه بجاية. فعلى الرغم من أنّ القبائل، -حتى وإن كانت متنقلة- تتموقع بالموازاة مع الحكم الذي تمارسه الدولة على المجال، سواء ترفضه أم تتقبله. ليس من النادر أن يتحدث كتاب تاريخ عن قبيلة ويقول أنها في "جهة بجاية". وبالعكس، تفرض هذه القبائل سيطرتها على المجال وتمتلكه[151]، والذي هو في أساسه فضاء رعي واقتطاع ضرائب من السكان المستقرين. فمن الخطأ إذن فصل القبائل الرحل عن كل اعتبار مجالي.

يمكن أن تتنوع طبيعة ودرجة الخضوع للحكم. ومن الواضح أنه كلما ابتعدنا عن بجاية تنحصر سلطة الدولة أكثر[152]. ففي الجنوب حيث أكثرية السكان رحل، تصبح حدود تطبيق القانون وممارسة الحكم في الفضاء وعلى الرجال الذين يشغلونه ويقطعونه غامضة. ولم يصبح التحكم فعالا حقيقيا إلا عن طريق روابط مبايعة شيوخ القبائل الشخصية للحكم المركزي[153].

(150) لن تكون هنا مسألة الفضاء السياسي، مطابقة بالضرورة لحيز الإشعاع الاقتصادي.

(151) أنظر العبر، 4، ص 204، البربر، 1، ص 197. "أما فيما يخص بلاد بجاية وقسنطينة، فهي دار زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة وهي في عهدنا مجال للعرب".

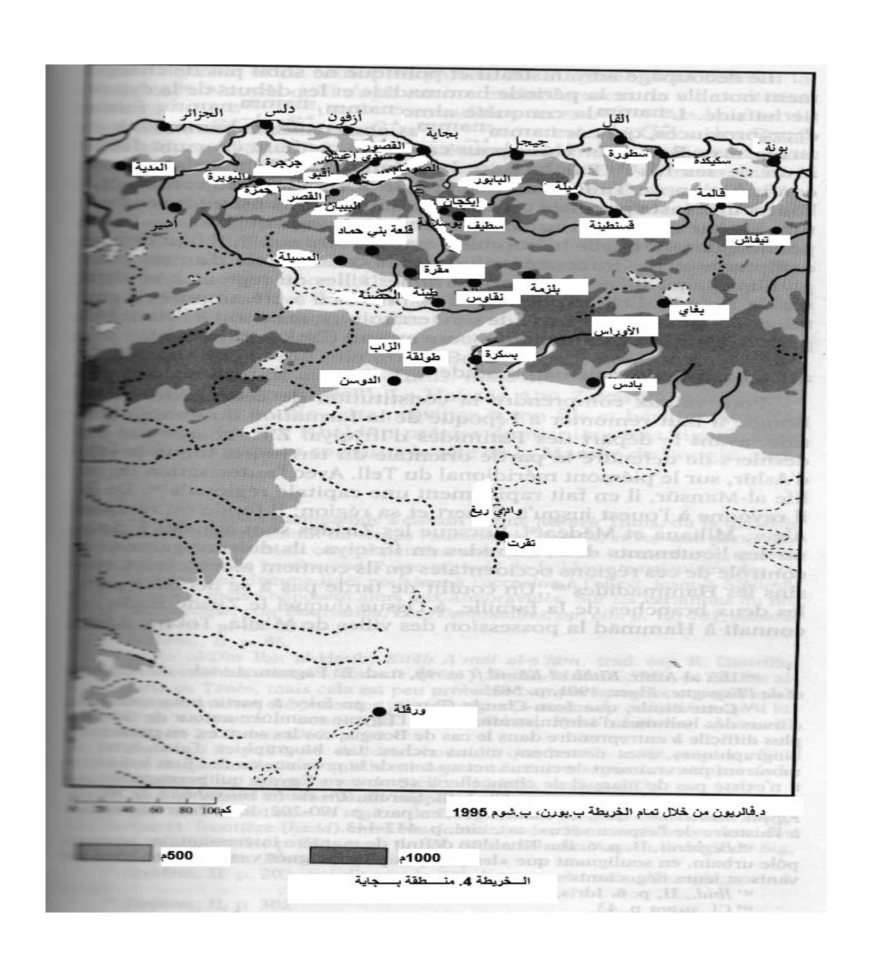
(152) هذه الظاهرة ليست خاصة بالمغرب كما سجلها ابن خلدون، المقدمة، ص 594-601.

(153) P.-R. Baduel, « Le front de l'État. Éléments pour une approche comparative autour de la Méditerranée », *ROMM*, 48-49, 1988, p. 133.
حول علاقة القبائل بالمجال، أنظر: Valerian, « Frontières et territoire », art. cité, p. 6-7

تمارس إذن بجاية سلطتها على المدن والقبائل التي هي مناوبة لها في البلاد الخلفية. ويعبّر الحكم الحضري عن نفسه حسب حالات متنوعة جدا، من خلال حركة العمال المحليين، والضرائب، والعدالة أو كذلك الكفاح ضد الصعلكة، والتي هي إشارات إلى النتائج القياسية لهذه السيطرة.

1ـ تأكيد الجهات الهامشية

تستند بجاية أولا إلى شبكة من المدن التي تتحكم هي الأخرى في نصيب من المجال. وتظهر السيادة على هذه المدن (من خلال الفريق السياسي والإداري المعين بها) وتشكل نقاط استناد للتحكم في بقية المجال المشكّل من مدن ثانوية أو أرياف.



الخريطة 4. منطقة بجاية

لم يتعرض التقسيم الإداري والسياسي لتحولات ملحوظة بين الفترة الحمادية وبدايات السلالة الحفصية. وأثناء الفتح الموحدي، كوّن عبد المؤمن مقاطعتين مطابقتين لمجال الدولتين السابقتين الحمادية والزيرية، مع بجاية وتونس كعاصمتين، معطيا كل واحدة منهما لواحد من أبنائه[154]. إنّ إنشاء الدولة الحفصية وتأكيد تونس كعاصمة سمحا بالاحتفاظ في الغرب بمقاطعة واسعة متمركزة على بجاية. وينتظم هذا الجمع حول المراكز العمرانية الثانوية، دائما دون إمكانية رؤية المراتب المقامة فيما بينها[155]. يجب فضلا عن ذلك الاعتماد على قوى الأطراف ومنافسة الأقطاب السياسية الأخرى، التي تدفع أحيانا ببعض المدن أو الجهات للانفصال عن بجاية. هذا يفسر أنّ المقاطعة بترت بعض الأجزاء من مجالها في فترات متتابعة، سواء في الغرب (الجزائر)، أم في الشرق (قسنطينة) أم أيضا في الجنوب (بسكرة والزاب).

أ) القاعدة المجالية الحمادية

حتى نفهم جيدا إنشاء مقاطعة بجاية، لا بدّ من الرجوع إلى فترة تكوين الممتلكات الزيرية قبل رحيل الفاطميين من إفريقية. إذ أسس زيري- الذي كلف من طرف هؤلاء الأخيرين بالدفاع عن القسم الغربي للمجال- مدينة أشير على الجانب الجنوبي للتل. وجعلها بسرعة عاصمة جهوية بترخيص من الخليفة

(154) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ترجمة فانيان: E. Fagnan, *Annales du Maghreb et de l'Espagne*, Alger, 1901, p. 581.

(155) هذه الدراسة التي استطاع جون كلود غارسان (Jean-Claude Garcin) إنجازها خصوصا انطلاقا من مشوار رجال الإدارة في مصر المملوكية في مدينة قوص، هي صعبة المباشرة في حالة بجاية، لأنّ المصادر، خصوصا كتب التراجم منها، هي أقل غنى بالمعطيات الضرورية لموضوعنا هذا. إنّ تراجم الغبريني لا تظهر بحق مشوار خالص في مقاطعات الدولة الحفصية ولا يوجد دليل للحجابة كما في مصر والتي تسمح بمقاربة أخرى للمسألة. أنظر:

J.-Cl. Garcin, *Un centre musulman de Haute-Égypte médiévale : Qūs*, Le Caire, 1976, خصوصا p. 190-202 ; Id., « Pour un recours à l'histoire de l'espace vécu », art. cité, p. 442-443.

المنصور[156]. ومن هنا أشعّ حكمه في الغرب حتى تاهرت وجهتها، وأسس أو جدد الجزائر ومليانة والمدية[157]. وعندما تمت مناداة الزيريين ليكونوا مساعدين للفاطميين بإفريقية، فإنه وجب عليهم ضمان التحكم في الجهات الغربية التي عهدوا بها لبني عمومتهم الحماديين. ولم يتأخر نزاع بين فرعي الأسرة من الانفجار، والذي نتج عنه اعتراف الزيري باديس لحماد بملكية مدن المسيلة، وطبنة، وأشير وتاهرت والزاب وكل أجزاء المغرب التي يمكن فتحها[158]. نلاحظ أن الأمر يتعلق بالمدن الواقعة على منحدر التل دون سواها. ولهذا فإن الحماديين ركّزوا مجالهم نحو الشرق بتأسيس عاصمة، قلعة بني حماد، عام 398/ 1007. من هنا وسّعوا سيطرتهم في الشمال (بالطبع مع بناء بجاية عام 460/ 1067)، ولكن أيضا في الشرق في خضم صراع مستمر مع بني عمومتهم الزيريين[159].

عيّن الناصر (454/ 1062–481/ 1088) في بداية عهده سلسلة من العمال الأمر الذي يسمح لنا برؤية امتداد السيطرة الفعلية للحماديين في فترته على: مليانة، وحمزة، ونقاوس، وقسنطينة، وأشير، والجزائر، ومرسى الدجاج[160]. وعندما فرّ أمير المرية معز الدولة أمام الفتح المرابطي فإنه لجأ إلى بجاية وعهد إليه

(156) البربر، 2، ص 6. يحدد ابن خلدون بكيفية مهمة هذا القطب العمراني الجديد، مشيرا إلى أنّ "البلدان البعيدة يرسلون إليها علماءهم وتجارهم".

(157) نفسه، 2، ص 6. Idris, *La Berbérie*, *op. cit.*, p. 488

(158) البربر، 2، ص 18.

(159) امتدت السيطرة الحمادية إلى غاية تونس، حيث اعترفت سلالة بني خراسان لفترة زمنية بسلطة بجاية، وامتدت أيضا إلى قسم هام من إفريقية. لكن هذا التوسع الشرقي كانت مدته قصيرة وبقيت نظرية. وتزامنت مع فترة ضعف الزيريين. واندفع أيضا الحماديون بالمناسبة إلى الغرب حتى سجلماسة أو تلمسان، لكنهم اصطدموا بالمرابطين. حول تغييرات الممتلكات الحمادية، أنظر:
Bourouiba, *Les H'ammadites*, *op. cit.*, p. 101-107 ; Amara, *Pouvoir*, *op. cit.*, p. 127-131.

(160) البربر، 2، ص 46.

المنصور إذن بدلس[161]. ويجب إضافة بونة إلى هذه القائمة التي كانت تحكم في وقت الفتح الموحدي من طرف أمير حمادي[162].

عندما استولى عبد المؤمن على بجاية[163]، عيّن لها حاكما مستقلا عن حاكم تونس، ولكن عمليات المنح المجالية هي غير معروفة جيدا[164]. واحتفظ أبو زكريا الحفصي كذلك بهذا الشكل وأسند هذه المقاطعة إلى ابنه وولي عهده أبي يحيى زكرياء[165]. ويوضح ابن خلدون بطريقة ذات مدلول أن السلطان "عيّن ابنه على رأس ثغر بجاية، عاصمة بني حماد، وأسند إليه مراقبة كل الجهات التي تتبعها[166]".

سيطرت إذن بجاية على جزء مهم من الساحل المغاربي، بمعنى كل الواجهة البحرية لبلاد القبائل. إنّ التحكم الفعلي في هذه الموانئ هي أولوية للنشاط البحري لبجاية ولإشعاعها التجاري.

---

(161) لسان الدين بن الخطيب، كتاب أعمال الأعلام، ترجمه إلى الإسبانية R. Castrillo, *Historia medieval islámica del Norte de África y Sicilia*, Madrid, 1983, p. 72.

يتحدث ابن الأبار عن تنس، ولكن هذا ضعيف الاحتمال بالنظر للفتوحات المرابطية التي اندفعت حتى الجزائر (إلا إذا ما اعتبرنا أنه نسب إليهم مجالًا ينتظر الفتح). ابن الأبار، كتاب الحلة السيراء، تحقيق ح. مؤنس، القاهرة، 1963، ص 90.

(162) البربر، 2، ص 28، 58. ويقول لنا الإدريسي أن روجر الصقلي استولى على المدينة في 548/ 1153 ومنذ ذلك الوقت أدارها عضو من العائلة الحمادية لفائدة ملك صقلية. الإدريسي، الترجمة ص 193.

(163) يروي عبد الواحد المراكشي أنّ جهة بجاية كانت تصل أثناء فتح عبد المؤمن حتى إلى قرية تسمى سيوسيرات، التي هي الحد بين الممتلكات الحمادية وممتلكات لمتونة. المعجب، النص ص 206، الترجمة، ص 177. وحسب علاوة عمارة، يتعلق الأمر بسيق في منطقة وهران. Amara, *Pouvoir*, *op. cit.*, p. 130.

(164) البربر، 2، ص 203، الذي يقول بأن الزاب ألحق ببجاية وليس بتونس.

(165) البربر، 2، ص 302.

(166) العبر، 4، ص 619، البربر، 2، ص 329. "عقد لابنه على ثغر بجاية قاعدة ملك بني حماد وجعل إليه النظر في سائر أعمالها". ويحتوي هذا الملك على مدن وجهات الجزائر وقسنطينة وبونة والزاب.

ب) التحكم في المدن الساحلية بالغرب: الجزائر ودلس

إنّ سلطة بجاية في الغرب كانت دائما في حالة من عدم الاستقرار. مقارنة بالمجال الحمادي، فالفضاء الذي تحكمت فيه بجاية فعليا تقلص بسرعة في الفترة الحفصية، ليرتكز على الجزء "النافع"، بمعنى الساحل. ولا تظهر في حقيقة الأمر البلاد الداخلية مطلوبة بصفة خاصة من طرف الحفصيين. ففي فترة أبي زكرياء، نجد السلطة النظرية لتونس تمتد بعيدا إلى تلمسان وحتى المغرب الأقصى والأندلس(167). لكن صعود العبد الواديين والمرينيين بقوة وأيضا فشل التدخل الحفصي في شبه الجزيرة الإيبيرية أظهر عدم قدرة تونس على ممارسة الهيمنة على الجهات الغربية للمغرب. وهذا ما يترجم بسرعة فقدان المجالات الواقعة غرب الجزائر، خصوصا مليانة. وسحق السلطان المستنصر أول تمرد لأحد أعيان المدينة وهو أبي عبد الله الملياني في 659/ 1260(168). لكن سنوات بعد ذلك في 688/ 1289، استولى السلطان العبد الوادي على مليانة من الحفصيين بصفة نهائية(169).

بالنسبة لمدينة الجزائر في المقابل، الصراع كان أطول وأعنف، وهذه إشارة إلى الأهمية التي توليها بجاية للتحكم في هذا الميناء المهم والمزدهر منذ القرن العاشر(170). بالرغم من تدحرجها إلى مرتبة ثانوية بعد بناء العاصمة الحمادية، فإنّ الجزائر مثّلت دائما قطبا ديناميكيا للجهة ومنافسة جدية للتجارة البجائية. فالتحكم فيها إذن ضروري بالنسبة لبجاية سواء على الصعيد السياسي والعسكري أم على الصعيد الاقتصادي والتجاري.

(167) Brunschvig, *La Berbérie, op. cit.*, I, p. 32-33, 44-45.

(168) البربر، 2، ص 352-253، 3، ص 316.

(169) نفسه، 3، ص 317.

(170) وصفها الإصطخري في الربع الأول من القرن العاشر بأنها "مدينة عامرة يحيط بها البربر وهي أكثر المدن وأوسعها ثراء" الإصطخري، ترجمة A. Miquel, « La description du Maghreb dans la géographie d'al-Içt'akhrī », *ROMM*, 15-16, 1973, p. 233. ووصفها البكري أيضا بأنها مدينة كبيرة لها أسواق متعددة وجامع: البكري، الترجمة ص 136.

إنّ كرونولوجية التاريخ السياسي لمدينة الجزائر هي أحيانا مبهمة نوعا ما وتبقى غير أكيدة بالنسبة لنهاية الفترة. فقد أخذ المرابطون المدينة في 475/ 1082 على حساب الحماديين[171]، الذين استردوها[172] قبل أن يضيعوها ثانية لفائدة الموحدين. ثم ثارت الجزائر بسرعة بعد الفتح الحفصي للمغرب الأوسط، وكان من الصعّب التحكم فيها لبعدها عن بجاية، ممّا شجّعها على الرغبة في الاستقلال.

بداية من 664/ 1265، توقف سكان الجزائر عن الاعتراف بالحفصيين[173]. ومنعت الصعوبات التي تلقوها في الشرق (خصوصا الحملة الصليبية لعام 1270) من القضاء المؤقت على هذا التمرد. وبعد عدة محاولات دون جدوى، وجب انتظار سنة 674/ 1275 لاستعادة مدينة الجزائر بعد هجوم منسق عن طريق البر والبحر[174]. وسمح انقسام الدولة الحفصية والصعوبات التي تلقاها أمراء بجاية المستقلين باندلاع تمرد ثان في 707/ 1307، بقيادة ابن علان، أحد شيوخ المدينة[175]. وبالرغم من عدة حملات[176]، فإن بجاية لم تستطع استعادة

(171) البربر، 2، ص 76. P. Guichard, « Les Almoravides », *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, xe-xve siècle*, dir. J.-Cl. Garcin, I, Paris, 1995, p. 157.

(172) بهروبه من المهدية في 543/ 1148 بحث الحسن الزيري على الالتحاق بالموحدين لطلب المساعدة، لكن تم توقيفه في طريقه ووضعه يحيى بن العزيز الحمادي تحت الإقامة الجبرية بالجزائر. ابن الأثير، المصدر السابق، الترجمة ص 565. Idris, *La Béribérie, op. cit.*, p. 361-362 وعادت إذن الجزائر إلى الحماديين في هذا التاريخ.

(173) البربر، 3، ص 388.

(174) نفسه، 2، ص 372، 3، ص 388. كان ثمن هذا العصيان هو تقتيل السكان. ونشير إلى أن تمرد الجزائر لم يمنع في 1273 فندق وقنصلية بجاية من أن يعين لها أندرو أرمنجول (Andreou Armengol) المتمتع بالسلطة على جميع الكتالانيين المتواجدين في "جهة بجاية: من قسنطينة إلى الجزائر" ACA, C., Rg. 19, f. 43v- . (*in partibus Bogie de Costantina apud Alijaer*). 44r. (20/8/1273). ودون شك اعتبر ملك أراجونة الجزائر تابعة نظريا لبجاية.

(175) إنّ تاريخ هذا التمرد الجديد غير ثابت، حيث يحدده ابن خلدون بوقت حملة سلطان تونس أبي عصيدة ضد بجاية (البربر، 2، ص 414)، أو أثناء الحملة المرينية ضد بجاية (البربر، 2، ص 417). أنظر: Brunschvicg, *La Béribérie, op. cit.*, I, p. 114.

المدينة، التي خضعت إذن إمّا للعبد الواديين أو للمرينيين[177]. ولم تعد الجزائر حفصية – على ما يظهر – إلا في 813/ 1410[178].

وبقيت الجزائر على ذلك الحال إلى نهاية القرن الخامس عشر حيث يروي ليون الإفريقي أن المدينة بقيت لمدة طويلة تحت سلطة تلمسان، ولكن عندما نشأت مملكة جديدة في بجاية، فإنها أعطيت لها "لأنها كانت الأقرب إلى مملكة بجاية[179]". وتؤكد الوثائق الأوروبية التي تعود إلى القرن الخامس عشر هذه التبعية: ففي حوالي 1415 فتّشت سفينة من الجزائر التي "في مملكة بجاية" قارب بانا دو فرتيا [180] (Bernât de Furtia). وفي 1426 تمت مهاجمة الميورقيين في الجزائر بينما هم حاملون لجواز تنقل، ونُقل عدد منهم أسرى إلى بجاية. وقدَّم حاكم ميورقة

(176) تم إمضاء اتفاقية بين بجاية وأراجونة في 1309 والتي يوفر بموجبها الكتالانيون قوات بحرية لمساندة الحملة ضد الجزائر. إتفاقية مملكة أراجونة-بجاية، 1309، المادة 4. ثمّ كتب سلطان بجاية أبو البقاء إلى ملك أراجونة في جويلية يعتذر له عن عدم قدرته تلبية المساعدة التي وعده بها بسبب المصاريف التي يجب عليه القيام بها لإطلاق حملة ضد الجزائر. نشر للترجمة المعاصرة للرسالة: A. Giménez Soler, « Documentos de Túnez, originales o traducidos », *Anuari de l'Institut d'Estudis Catalans*, 3, 1909-10, p. 227-228.

(177) يحدد الجغرافي المشرقي في هذه الفترة الحدود الغربية لإفريقية بدلس (العمري، النص ص 227-229)، كما حدده في وقت متأخر ابن خلدون، العبر، 4، ص 99، البربر، 1، ص 98 (دلس، "مدينة واقعة على تخوم الدول الحفصية"). أنظر كذلك البربر، 3، ص 474.

(178) الزركشي، الترجمة، ص 202. في وثيقة بلنسية تعود إلى 1409 اعتبرت دائما جزءًا من مملكة تلمسان.

ARV, C., Rg. 626 (*Confesiones y ventas de sarracenos*), f. 12r-17r (11/10/1409), éd. J. Hinojosa Montalvo, « Confesiones y ventas de cautivos en Valencia de 1409 », *Lugarzas*, 3, 1971, p. 127.

(179) Léon l'Africain, p. 348.

إن مرجعية إنشاء مملكة جديدة ببجاية ليست واضحة، ولكن يشير دون شك إلى وضعية نهاية القرن الخامس عشر.

(180) ACA, C., Rg. 2415, f. 68r-v (23/4/1415).

احتجاجا ووضع حدا للعلاقات مع مملكة تونس[181]. بالمثل في 1470 وتبعا "لقلة الاستقامة" التي حصلت بالجزائر، مسّت أيضا عمليات ثأر البندقية بجاية التي اعتبرت سلطاتها مسؤولة عن تلك الأحداث[182]. وأخيرا بعد 915/ 1510، تفجرت أزمات إدارة المجالات بين الأسبان المستقرين في افريقيا الشمالية، وأحدهم أظهر أنّ الجزائر تشكل جزءاً من مملكة بجاية[183].

ت) فقدان تدريجي للتحكم في الشرق: بونة، وقسنطينة والقل

تقلص أيضا مجال بجاية في الشرق مقارنة بالفترة الحمادية. لكن بخلاف القسم الغربي حيث تم التحكم في الساحل الوحيد، فإنّ سيطرة المدينة تمتد أكثر عمقا نحو الداخل. إنّ كثافة شبكة الطرق المؤدية إلى بلاد القبائل الصغرى هي أحسن دلالة توضيحية لذلك.

على الشاطئ، امتلك الحماديون كل الساحل حتى بونة وجهتها. وبعد ذلك خرجت هذه المدينة من مجال التأثير السياسي لبجاية. وكتب ابن سعيد المغربي (ت 674/ 1275) أنه بالقدوم من الغرب، تكون أول مدينة ساحلية لسلطنة إفريقية (بمعنى تونس) هي بونة[184]. إنّ الموانئ التابعة لبجاية هي خصوصا جيجل والقل. ونعرف على سبيل المثال أن أبا بكر بن غمر الذي تحصل على إدارة ديوان القل، غالبا ما يذهب إلى بجاية من أجل شؤونه[185]. وهذه التبعية هي مؤكدة بالوثائق الكتالانية، مثل اتفاقية السلم بين سانش الميورقي (Sanche de

(181) ARM, AH 103, f. 169 (11/3/1426), éd. P. Macaire, *Majorque et le Maghreb au XVe siècle*, thèse de troisième cycle, sous la direction de Ch.-E. Dufourcq, Université Paris X, 1977, p. 574.

(182) ASV, *Senato, Incanti,* Rg. 1, f. 52v-53v (24/1/1478), et dans les *incanti* de Berbérie des années suivantes.

(183) ACA, C., Rg. 3658, f. 229v-230v (20/2/1510).

(184) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إ. العربي، بيروت، 1970، ص 142.

(185) العبر، 4، ص 724، البربر، 421: "وكان يتردد إلى الحضرة ببجاية في شؤونه".

(Majorque والسلطان أبي بكر في 1312، التي تنص على وجوب دفع ملك بجاية لغرامة 15000 دوبل من الذهب لملك ميورقة، تؤخذ من مداخيل دواوين بجاية وجيجل وقسنطينة[186].

على غرار الجزائر، تعد قسنطينة مدينة أكثر قدما من بجاية، وهي مزدهرة وتطمح إلى أداء دور أساسي. إنّ التنافس بين المدينتين مرئي وملحوظ من خلال النصوص الفارسية لابن قنفذ القسنطيني الذي هو نشيد حقيقي لعزة مدينته[187].

بالنسبة لابن سعيد المغربي، تمثّل قسنطينة الحد الشرقي لسلطنة بجاية[188]. وضعت في أول الأمر، تحت سلطة جارتها[189]، كما يبينه حادث الهجوم الكتالاني لعام 1282: فالحاكم ابن الوزير، الموحدي[190]، كان "عارفا أنّ قسنطينة

---

(186) اتفاقية ميورقة-بجاية، 1312، المادة 1. على عكس اتفاقيات 1313 الموقعة بين تونس، بيزا وميورقة تتعلق بمجال يمتد حتى بجاية.

(187) أنظر على سبيل المثال الحكاية التي تروى بخصوص مواجهة في حوالي 683/ 1284 أمام الأمير أبي زكرياء، بين جد ابن قنفذ وقاضي بجاية الغبريني، وهي المواجهة التي عادت لصالح القسنطيني. الفارسية، ص 149.

(188) "على آخر سلطنة بجاية". ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص 142.

(189) المجال الذي تركه أبو زكرياء لابنه حاكم بجاية شمل قسنطينة. ويجزم بلانكا غاري (Blanca Gari) بخطأ أنّ بجاية هي ميناء قسنطينة، الذي يضمن وظيفة عاصمة سياسية. B. Gari, « Genova e i porti islamici del Mediterraneo occidentale (secc. XI-XIII) », *La Storia dei Genovesi. Atti del convegno sui ceti dirigenti nelle istituzioni della repubblica di Genova (Genova, 11-14 giugno 1991)*, Gênes, 1994, p. 350. هذا المخطط المستلهم من الحالة المصرية (A. L. Udovitch, « A Tale of Two Cities. Commercial Relations between Cairo and Alexandria during the Second Half of the 11th Century », *The Medieval City. Essays in Honore of Roberto Sabatino Lopez*, New-Haven-Londres, 1977, p. 143-162) لا يمكن تطبيقه هنا. صحيح أن بجاية لديها علاقات تجارية مع قسنطينة، لكن ميناء هذه الأخيرة هو أساسا القل. وعلى الخصوص، لم تكن تبعية سياسية لبجاية اتجاه قسنطينة.

(190) نشير إلى عدم وجود تراتبية في هذه الفترة بين قسنطينة وبجاية، فالأولى يحكمها ابن السلطان بينما الثانية شيخ موحدي.

هي المدينة القوية للمقاطعة"، فثار بها وطلب مساعدة ملك أراجونة، واعدا إياه بتسليمه اياه البلد، وأكثر من ذلك يتحول إلى المسيحية حسب مصادر كتالانية[191]. لقد كان السلطان أبو اسحاق بتونس وتكفل ابنه أبو فارس، حاكم بجاية، بالقضاء على المتمرد المذكور [192]. باستيلائه على المدينة وإرساله لرأس ابن الوزير إلى تونس، دخل أبو فارس بجاية عيّن بنفسه شيخا موحديا حاكما لقسنطينة، وهي إشارة بأنّ سلطته تمارس على هذه المدينة، بتفويض من أبيه السلطان[193]. والشيء ذاته بالنسبة للقنصل الكاتالاني ببجاية، حيث بسط سلطة على قسنطينة [194].

وامتدت وضعية تبعية بجاية إلى غاية أزمة بداية القرن الرابع عشر. وفي فترة الحاجب ابن غمر، حافظت بجاية على وضعية مسيطرة مقارنة بقسنطينة[195]. وبدأت الأشياء في التغيّر في 720/ 1320 عندما عيّن أبو بكر في المدينتين حاكمين مستقلين عن بعضهما البعض وبأهمية متساوية تقريبا لأنّ الأمر يتعلق باثنين من أبنائه وهما أبو زكرياء في بجاية وأبو عبد الله في قسنطينة[196]. إنها بداية المنافسات

(191) البربر، 2، ص 384–385، Jerónimo Zurita, *Anales de la Corona de Aragón*, ed. A. Canillas López, Saragosse, 1967-73, vol. 2, livre IV, chap. 13, p. 50-51، الذي يروي قصة مختلفة، تجزم من جهة أنّ أمير بجاية أصبح مستقلا ومن جهة ثانية أنّ حاكم قسنطينة كان أخوه الصغير الذي خاف من طموحات أبي فارس.

(192) الفارسية، ص 139، البربر، 2، ص 385، Zurita, *op. cit.*, chap. 20, p. 74-77.

(193) الفارسية، ص 140.

(194) ACA, C., Rg. 19, f. 43v-44r (20/8/1273).

(195) تواجد السلطان طبعا في قسنطينة، لكن الحكم الفعلي كان في بجاية حيث كان يحكم الحاجب بسيادة، وأبعد سيده إلى قسنطينة ثم أرسله إلى تونس.

(196) البربر، 3، ص 5. لكن بقيت بجاية أكثر أهمية من قسنطينة، ففضلا على أن أبا زكرياء هو كبير أولاد أبي عبد الله، تجب الإشارة إلى أنّ حاجب بجاية ابن سيد الناس كانت له أيضا سلطة على قسنطينة حيث أرسل المعتوق هلال كمساعد.

المستمرة بين المدينتين: تنافس على الحدود[197]، ولكن أيضا على السيادة في الجهة. وقد أعطى هذا التقسيم للمقاطعة أهمية جهوية لقسنطينة كانت قد أضاعتها مع تكوين الدولة الحمادية. هي خصوصا اعتراف من الحكم الحفصي باستحالة حكم جهة واسعة، لا سيما في فترة الأزمات والاعتداءات الخارجية القادمة من الغرب. وأصبح التنافس في وقت السيطرة على المقاطعات الغربية بعد الأزمات العبد الوادية والمرينية في 1360، حاداً جدا بين المدينتين وبين الأمراء الذين يحكمونهما. فإذا كانت قسنطينة من هنا فصاعدا مستقلة عن بجاية، فإنها بقيت أقل أهمية كما تظهره تعيينات الحكام، بصفة غالبة أكثر علوا من بجاية. وعندما استولى أبو العباس على الحكم بتونس في 772/ 1370، ترك حكومة بجاية لابنه الأكبر والمفضل أبي عبد الله، في حين رجعت قسنطينة لابنه الآخر أبي اسحاق[198]. أما بالنسبة للقوى المسيحية من ناحية أخرى، فالأمر يتعلق بوحدتين سياسيتين متميزتين. ففي 1390 منعت سلطات ميورقة من نقل البضائع إلى أراضي ملك قسنطينة والقل فقط، لأنّ هذا الأخير أسر صاحب سفينة مع بحارته[199]. إنّ تاريخ القرن الخامس عشر هو غير معروف جيدا، لكن بجاية بسطت من جديد بشكل مطلق سلطتها على قسنطينة. وفي بداية القرن السادس عشر، زمن الاستيلاء الأسباني، بقي الأمراء المتنافسون الذين يحكمون المدينتين، أكثر استقلالية اتجاه تونس. لقد لعبت هذه الصراعات بين الأميرين من جهة أخرى دورا مهما في نجاح

(197) بخصوص التنافس بين أبي عبد الله ببجاية وابن عمه أبي العباس بقسنطينة في 1360، يروي ابن خلدون أنّ أصل النزاع يرجع إلى شجار حول موضوع الحدود (التخوم) لدولتيهما المتتاليتين والذي يرجع إلى عصر آبائهما، بمعنى قبل الهجمات العبد الوادية. العبر، 4، ص 558، البربر، ص 72.

(198) البربر، 3، ص 88-90.

(199) Éd. E. de K. Aguilô, « Rubrica dels llibres de pregons de la antiga curia de la governacio, llibre I, any 1385 », *BSAL*, 9, 1901-2, p. 30 (25/4/1390 et 29/4/1390).

الأسبان في بجاية. والرواية التي نسجها المريني هي شاهد على ذلك، وهي موضحة على الخصوص لهذا الموضوع[200].

ث) الجنوب المتمرد وصعوبة التحكم في المنافذ الصحراوية: بسكرة والحضنة

محتج عليها في الشرق والغرب، عرفت سلطة بجاية نفس الوضعية في الجنوب، سواء من الحكومات المركزية أم من الملوك الآخرين في الجهة. وتحتل منطقة بسكرة مكانة ذات أهمية خاصة في التاريخ السياسي البجائي، وهذا ما يوضح حدة التنافس. وتمثل كذلك رهانا اقتصاديا كبيرًا، أقل بالنسبة لإنتاجها الفلاحي الخاص وأكبر بالنسبة للمنفذ الذي تنفتح عليه مع الطرق الصحراوية. ويتعلق الأمر بمنطقة حدودية وليست سياسية (تمتد الصحراء في الجنوب وفي الحقيقة ليس هناك أي حكم يطالب بها)، ولكن اقتصادية مع مراسي قوافلها[201]. هي إذن كل جهة الحضنة، في جنوب التل، التي من الأهمية التحكم فيها، خصوصا فجوة بسكرة. وأبعد من ذلك، من الضروري الحفاظ على بعض السيطرة في واحات وادي ريغ التي تؤدي إلى الجنوب عن طريق تقورت ووارجلان.

كانت منطقة الاتصال هذه واحدة من الجهات الأكثر نشاطا في القرون الأولى للإسلام[202]، مع مدن المغرب الأوسط الكبرى: نقاوس، وطبنة، والمسيلة وطبعا قلعة بني حماد التي سيطرت على سهل الحضنة[203]. وتراجعت بقوة بعض هذه المدن بعد القرن الحادي عشر، ولكن الإدريسي استمر في ذكرها وفي الإشارة

---

(200) خصوصا المريني، ص 343.

(201) من المعقول اعتبار الصحراء بحراً رملياً. وفي هذا المعنى "الموانئ" تمثل بسكرة ووارجلان الحلق الجنوبية لموانئ البحر المتوسط.

(202) مثل أغلب المدن الإسلامية، توجد هذه المدن في منطقة السهوب واتصال بالصحراء. أنظر:
M. Chapotât-Remédie, « Fronte saharino e fronte mediterraneo », *Hinterland*, année 3, n° 15-16, 1980, p. 12.

(203) أكثر غربا، نجد أيضا أشير، أول عاصمة للزيريين، وتاهرت.

إلى الطرق التي تربطها بمدن الشمال أو الشرق. وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر، نلاقي في بجاية بعض العلماء المنتسبين إلى هذه المدن (أقل عدداً في الحقيقة) والذين جذبتهم صورتها كقطب فكري وديني[204]. إنّ طبنة هي أقدم عاصمة للجهة[205]، ولكن عوضتها المسيلة التي أسسها الفاطميون إلى الغرب منها بقليل في 315/ 927[206]، والتي يتكلم عنها الإدريسي دائما كمدينة كبيرة في منتصف القرن الثاني عشر[207]. لكن فقدت المسيلة أهميتها مع تأسيس القلعة، التي لا تبعد عنها إلا ببضع كيلومترات[208]. ويمكن أن نسجل أيضا نقاوس[209] ومقرة[210] اللتين يذكرهما الإدريسي كأماكن لعبور الطرق التجارية. لكن المدينة التي سيطرت على الجهة مطلقا في الفترة الحفصية هي بسكرة.

---

(204) على سبيل المثال أبو علي المسيلي الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر (الغبريني، ص 66-72)، أبو عبد الله محمد بن الحسن القلعي (نفسه، ص 94-99). أنظر بعيزيق، بجاية، المرجع السابق، ص 362.

(205) Cambuzat, *op. cit.*, I, p. 73.

تحت حكم الأمويين، كانت عاصمة لمقاطعة شاسعة سيطرت على بجاية، ونقاوس، ومقرة، وبلزمة وإلى الشمال، ميلة وسطيف. H. Djaït, « La wilāya d'Ifrīqiya au IIe/VIIIe siècle : étude institutionnelle », *Studia islamica*, 27, 1967, p. 119.

ووصفها البكري بأنها مدينة كبيرة (الترجمة، ص 108) واحتفظت ببعض الأهمية في منتصف القرن الثاني عشر، الإدريسي، الترجمة، ص 16.

(206) P. Massiera, « M'sila du Xe au XVe siècle », *CT*, 85-86, 1974, p. 179.

(207) الإدريسي، الترجمة، ص 160-161.

(208) ولكن بقيت كمركز استراتيجي في مواجهة المجال العبد الوادي وبعض الفتوحات (أو بعض محاولات الفتح) التي أتت من الغرب تحققت مرورا بجنوب المسيلة.

(209) يقول الإدريسي أنها مدينة صغيرة لها سوق دائم. الإدريسي، الترجمة، ص 169-170. في المقابل، وضع لها ليون الإفريقي وصفاً مدحياً. Léon l'Africain, p. 363.

(210) عرفت هذه المدينة انحطاطاً أكيداً: يتحدث البكري عنها كمدينة هامة (الترجمة، ص 110-111)، في حين أن الإدريسي يشير إليها "كمدينة صغيرة" (الترجمة، ص 169) ولا يشير إليها مطلقا ليون الإفريقي.

لم يثقل الإدريسي نفسه بها وبالعكس فقد ربط ببجاية مباشرة قلعة بشر، على بعد بضع كيلومترات جنوب-غرب بسكرة[211]. وبالمقابل فإن ابن خلدون يصور بسكرة كعاصمة للزاب وكإحدى أكبر مدن المغرب[212].

وأبعد من معبر بسكرة، يمر الطريق الذي بجانب وادي ريغ، حيث هو تتابع عدة واحات إلى غاية تقورت وإلى ورجلان أكثر إلى الجنوب، "بوابة الصحراء والتي عن طريقها يمر الرحالة القادمون من الزاب إذا ما رغبوا في الذهاب إلى بلاد السودان بسلعهم"[213].

إن مقاطعة بسكرة كما هي محددة في فترة السلطان البجائي أبي زكرياء تمتد على جبال وسهل الحضنة (مع مدن نقاوس والمسيلة ومقرة)، ولكن تمتد أيضا شمالا لتشمل الأوراس وجنوبا إلى الزاب وحوض ريغ، إلى غاية مدينة وارجلان[214]. وعرفت بعد ذلك تعديلات، لكن الجوهر بقي دائما هو التحكم في ممر بسكرة[215].

كانت هذه المناطق في البداية تحت سيطرة القبائل البربرية الإباضية[216]، التي أسست ممالك مستقلة، وتحكمت في محور الطريق شرق-غرب، الذي يمر بمحاذاة

(211) الإدريسي، الترجمة ص 166، 170.
(212) البربر، 1، ص 192.
(213) نفسه، 3، ص 286.
(214) نفسه، 3، ص 130.
(215) لم تكن السيطرة على وارجلان أبداً مكتسبة فعليا. في زمن ابن خلدون، الصاحب الذي حكمها تزين بلقب السلطان. البربر، 3، ص 287. وأيضا عندما يحدد هذا المؤلف في زمنه الزاب الذي قاعدته هي بسكرة، يثبته بالحدود الغربية في الدوسن، والشرقية في بادس، وهذا ما يجعل منه فضاءً أكبر تقلصا. البربر، 3، ص 124-125.
(216) أنظر:

A. Bouzid, *Catalogue des tribus berbères « Buter » au Maghreb d'après les sources arabes médiévales*, Diplôme de recherches approfondies, sous la direction de M. Chapoutot-Remédie, Tunis, 1991-1992,

خصوصا ص 177-187 و316-320 الذي استعمل بكثافة المصادر الإباضية. وتشغل هذه القبائل، خصوصا زناتة، واحات وادي ريغ (خصوصا وارجلان)، وأيضا الحضنة والأوراس.

المنحدر الجنوبي للتل، وعلى الخصوص منافذ الطرق الصحراوية[217].. وسمح الفتح الفاطمي وفشل الثورات الخارجية للستار الذي أنشأته هذه الإمارات بتنشيط التجارة الصحراوية. لكن إخضاع المناطق الجنوبية لا يشير إلى عودة الطاعة الكاملة للحكم المركزي بهذا الحد. وبداية من تاريخ بجاية، ندرك أن التحكم بهذا القفل كان هدفا للتنافس والصراع المستمرين. ففيما مضى وجب على الناصر الحمادي الكفاح ضد زناتة التي عارضت حكمه في الجنوب، ووصول القبائل العربية عقّد نوعاً ما الرهان[218]. وظهرت الأهمية الاستراتيجية لهذه الجهة بطريقة جلية في وقت مغامرة بني غانية الذين استولوا على الجهة وجعلوها واحدة من قواعدهم الخلفية[219]. وأظهر الحكم في كل مرة أهمية كبيرة يوليها لها في التحكم بهذه المنطقة الجنوبية[220].

والشيء نفسه في الفترة الحفصية، إذ أنّ آثار الهجرات الهلالية هي أكثر أهمية في هذه الجهة من بقية الجهات الأخرى. حيث استقر عرب رياح الذين طردهم سليم من سهول إفريقية بجزء من هذه البلاد[221]. وانتقلت السيطرة على بسكرة وجهتها إلى عائلة بني مزني العربية[222]. وانتقل هذا البطن بسرعة إلى حياة

(217) أنظر على الخصوص:

T. Lewicki, « Les liaisons maghrébines sahariennes et soudanaises de la ville de Ouargla au Moyen Âge », *Études maghrébines et soudanaises*, Varsovie, 1976, p. 9-78.

(218) البربر، 2، ص 48-50.

(219) نفسه، 2، ص 212.

(220) وجب على الحاكم الموحدي في بجاية أبي زكريا إخماد ثورة في الزاب في 589/ 1193. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، القسم الموحدي، تحقيق م. إ. الكتاني وآخرون بيروت، 1985، ص 215.

(221) البربر، 1، ص 73-75، ص 129. كتكملة للمعارك ضد الحفصيين (خصوصا حاكم بجاية)، اعترف بالزاب كلية لعرب الدواودة.

(222) "شكلت بطن من قبلية عربية متنقلة دخلت إفريقية في القرن الخامس الهجري بمرافقة حلفائها من بني هلال". نفسه، 3، ص 126.

التحضر واستقر في بادئ الأمر في الأرياف قرب بسكرة ثم في المدينة نفسها. ودخل شيوخ العائلة في الرهان السياسي المحلي، معارضين عائلة بني رمان البربرية التي كونت "أقدم عائلة في المدينة"[223]. وغالبا ما ترجمت الخصومة بين العائلتين بالتحالفات المتناقضة مع مختلف الطامحين إلى الحكم من الحفصيين خلال القرن الثالث عشر. فبانضمامه لحزب أبي اسحاق ضد المستنصر، تبع الفضل بن مزني مصير الأول ولجأ في منفاه إلى الأندلس ثم عاد مع سيده الذي أصبح سلطانا، والذي عينه حاكما لبسكرة[224]. وفي وقت سيطرة أبي زكرياء على الحكم ببجاية، اختار منصور بن فضل، الشيخ الجديد للعائلة، مساندة هذا الأمير. وكوفئ رفقة عائلته بإسناده حكومة المدينة في 692/ 1292[225]. وبالرغم من اعترافه بسلطة بجاية، فإنه بنى في السنة اللاحقة قلعة كإشارة لحكمه المحلي[226]..

من الخيانات إلى التحالفات، إنّ تاريخ العلاقات بين بني مزني والحفصيين معقّد المتابعة في القرن الرابع عشر، عندما حاولت قامت بجاية بعدة محاولات للفتح من جهة الغرب. إنّ الاعتقاد الذي يستنتج هو أنّ أسياد بسكرة يخضعون للأقوى في ذلك الحين[227]، يمرون إذن بالتناوب إلى العبد الواديين أو إلى المرينيين، مع العودة إذا كانت هناك حاجة إلى الطاعة الحفصية[228]. ليس هناك أي حكم مركزي بإمكانه التخلي عن أي حليف والتحكم في جهة هامة من دونه، وهذا ما يفسّر أنّ سلطان تونس فضّل في نهاية الأمر سحب مراقبة هذه المنطقة من حاكم

---

(223) نفسه، 3، ص 127.

(224) نفسه، 2، ص 406.

(225) نفسه، 2، ص 406-407.

(226) نفسه، 3، ص 129-130. كلّف الحاجب ابن عمر المنصور بن فضل بإدارة "الأوراس والحضنة ووطن سدويكش ووطن عياض وكل أعمال السلطنة، تاركا له الجباية ومانحا له مراقبة الموارد والنفقات وكل عمال الجباية". نفسه، 2، ص 447.

(227) كما في الباقي، عرف دائما اللعب على الخصومات بين تونس وبجاية.

(228) البربر، 3، ص 131-141.

بجاية. وفي 795/ 1392، عندما وطّد السلطان حكمه "ترك لمختلف أقاليمه حرية إدارة شؤونها بنفسها، ما عدا طرابلس وبسكرة اللتان بقيتا تابعتين مباشرة له وأدارهما بواسطة شيوخ كل واحدة من المدينتين"[229]. وفي 804/ 1401 سار أبو فارس سلطان تونس ضد بسكرة وأخضع المدينة وعوّض أحمد بن يوسف المزني بأحد خواصه. لا نعرف جيدا تاريخ الجهة خلال القرن الخامس عشر، لكن تاريخ الزركشي يؤكد أن سلطان تونس تحكم بها مباشرة أو عن طريق حاكم قسنطينة[230]. وتمّ إرسال حملتين ضد تقورت ووارجلان عامي 853/ 1449 و869/ 1464 حيث أخمد السلطان الثورات ونصّب أوفياءه بهما[231]. في جميع الحالات، فقدت بجاية في القرن الخامس عشر كل تحكم سياسي في بسكرة والزاب، اللتين رجع حكمهما لصالح قسنطينة أو إلى تونس مباشرة.

*****

لقد بذلت بجاية إذن جهوداً كبيرة للحفاظ على تحكمها في المدن الاستراتيجية الرئيسية لمقاطعتها. واصطدمت هذه الطموحات، التي هي أحيانا مؤكدة لإنشاء مجال كما كان في الفترة الحمادية، بواقعية فضاء واسع جدا والذي هو هدف لنزاعات مستمرة سواء على المستوى المحلي أم على المستوى الإقليمي. وخلال فترة كبيرة من القرن الثالث عشر، توصلت بجاية إلى التحكم في فضاء متطابق مجملا مع فضاء الحماديين السابق، ولكن بترت منه بونة والبلاد الخلفية. وفي القرن الرابع عشر فقدت المقاطعات الغربية خصوصا الجزائر منها، وبسرعة تمّ

(229) الزركشي، الترجمة، ص 183.

(230) في 859/ 1454 أعطى السلطان مدينتي بسكرة وتقورت لحاكم قسنطينة. الزركشي، الترجمة، ص 243.

(231) نفسه، ص 233، 260. أنظر:

J. Lethielleux, *Ouargla, cité saharienne, des origines au début du XXe siècle*, Paris, 1983, p. 177-179.

إلحاق حكومة قسنطينة مباشرة بتونس. وأخيرا في القرن الخامس عشر وتكملة للتطور الذي بدأ في القرن السابق، فقدت بجاية نهائيا الجهات الشرقية لقسنطينة والقل، وأيضا المنطقة ذات الاستراتيجية التجارية وهي بسكرة والزاب. واسترجعت في المقابل الموانئ الغربية إلى غاية الجزائر. إنّ حيّز تأثير المدينة انتقل إذن في نهاية العصر الوسيط إلى الغرب والساحل.

2) القبائل بين التبعية والمقاومة

في هذا المجال المحدد بشبكة من المدن، كانت الصعوبة الرئيسية هي التحكم بفعالية في السكان، الذي هو ضرورة سياسية وأيضا اقتصادية، لأنه من الضروري ضمان أمن الطرق التي تسمح بإيصال سلع البلاد الخلفية إلى ميناء بجاية. وأخيرا رهان ضريبي، لأن العاهل يجب عليه جمع الضرائب من سكان الأرياف. وإذا كان الحكم لديه تناوب لسلطته في المدن، فإنّ الحالة معقدة جدا في الأرياف التي تشكل جوهر البلاد. إنّ تركيبة تأطير الرجال بقيت في جوهرها قبلية والاعتراف بجماعة عريضة جدا، كالجماعة الدينية، تبقى غير موجودة أو على الأقل غير ناضجة. إنّ التحكم في الرجال يمر إذن عن طريق التحكم في القبائل. هذا ليس بشيء جديد لأن الظاهرة القبلية هي إحدى المعطيات المتداولة في تاريخ بلدان الإسلام(232). لكن أخذت هذه الظاهرة بُعدا خاصا بداية من منتصف القرن الحادي عشر مع وصول مجموعات قبلية عربية جديدة، أي بنو هلال وبنو سليم.

لعبت القبائل العربية البدوية منذ البداية دورا هاما في تاريخ المدينة، وعدة نصوص تبرر حقا تأسيس بجاية بوصول الهلاليين. هل أنّ إقامة العاصمة على الساحل يعني بالضرورة ترك الأراضي الداخلية للعرب الرحل؟ هذا ما تركه

(232) P. Guichard, « Nomadisme et tribalisme », *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, Xe-XVe siècle*, dir. J.-Cl. Garcin, II, Paris, 2000, p. 111-113.

انطباعات ابن خلدون بصفة عامة والانطباع الأول الـذي تتركـه نصوصـنا. فمـن المؤكد أنّ القبائل شـكلت عنصـراً أساسـياً في التـاريخ السياسـي لبجايـة والـبلاد الخلفية. لكن المعنى الذي يجب إعطاؤه لهذا الدور يبقى قليل الوضوح.

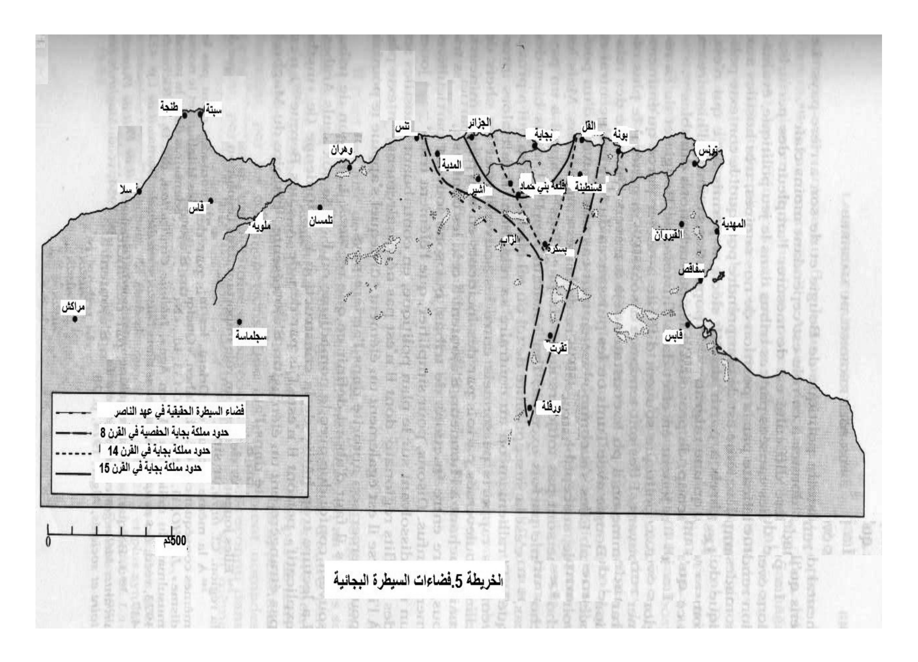
تتمثل الصعوبات الأولى في تحديد حجم الاضـطرابات المحتملـة الـتي سـببتها هذه القبائل في الرهان السياسي، وأصبح هذا التقدير صعبا بسبب موقـف مصـادرنا المعادي جدا للرحل. وتتمثـل الصـعوبة الثانيـة في فهـم لمـاذا الظـرف السياسـي في المغرب بداية من القرن الحادي عشر- المتعلق بهجرة القبائل العربية البدويـة و هـي هجرة مثل سائر الهجرات الكثيرة التي عرفها التاريخ- أدى إلى ارتباكات دائمة[233].

لقد لعبت القبائل في تاريخ بجاية وجهتهـا دورا سياسـيا غالبـا مـا يصـعب الإلمام به لأنه متغير بامتياز. وكانت تميـل عمومـا إلى مسـاندة الأكثـر عطـاءً، كمـا تحققنا منه من خلال تاريخ علاقات بجاية مع تونس أو مع قوى المغـرب الأوسـط الأقصى، وتنسجم في حالة ضعف الحكم ومن ثمَّ قبول امتيازات عريضة. لكن لم تكن الأمور دائما بسيطة. و مستنجدا بعلم نفس غالبا ما يكون زائـدا عـن حـده، يروي ابن خلدون في عدد من الحالات، أنّ سرعة تأثر أي شـيخ قبيلـة هـي الـتي تؤدي إلى تحالفه أو بالعكس إلى تمرده.

---

(233) في المشرق في تلك الفترة، لم تكن نفس الآثار لهجرة الرحل. أنظر:

Cl. Cohen, « Quelques mots sur les Hilaliens et le nomadisme », *JESHO*, 11, 1968, p. 130-133 ; Id., « Nomades et sédentaires dans le monde musulman du milieu du Moyen Âge », *Islamique Civilisation*, dir. D. S. Richards, 1973, rééd. *Les peuples musulmans dans l'histoire médiévale*, Damas, 1977, p. 423-437.



الخريطة 5. فضاءات السيطرة البجائية

وتدخل إذن العلاقات الشخصية بين الملوك وشيوخ القبائل الذين هم أحيانا متقلبين رأسا على عقب بمجرد حوادث صغيرة ظاهريا، لكنها تمس بالشرف. ويضاف إليها النزاعات بين القبائل أو حتى بين بطون القبيلة الواحدة التي هي في الغالب غامضة. نقول ببساطة أن العنصر القبلي يمكن له لعب دور مريب من الناحية السياسية ومساهم في إثارة النزاعات الإقليمية دون أن يكون مسؤولا عنها بالضرورة. وهو عكسيا عنصر يستند عليه الحكم لممارسة سلطته في البلاد الخلفية.

ولكن لا بد من تعريف ما يحيط بمفهوم القبيلة، الذي غالبا ما يخلط بالترحال أو يُحصر في العرب دون سواهم. إنّ القراءة المستعجلة جدا للبناء الخلدوني (الأسطورة المفسرة بأخذنا لعبارة جاك بيرك Jacques Berque)) ليست أجنبية عن هذا الاضطراب،[234] الذي يقدم تاريخ المغرب كـ"سباق

(234) J. Berque, « Qu’est-ce qu’une tribu nord-africaine ? », *Éventail de l’histoire vivante. Mélanges en Hommage à Lucien Febvre*, Paris, 1954, rééd. *Maghreb, histoire et sociétés*, Alger, 1974, p. 28.

للمشعل حيث يقدم العرق المنحط المشعل للعرق الصاعد"[235]. في أي من الجماعات المحددة بصفة إجمالية وغالبا بطريقة أسطورية (زناتة، صنهاجة، العرب)، نجد اختلافات كبيرة وهناك مجازفة لمعارضة موجزة للبعض منها ضد الآخر. البعض من بين هذه القبائل قوي وبإمكانه المشاركة في الرهان السياسي الإقليمي في حين أنّ القبائل الأخرى لها وزن لا معنى له أو محلي فقط. إنّ بطون نفس القبيلة هي متفرقة على مجالات متباعدة جدا عن بعضها وبالعكس، يمكن لنفس المجال استقبال عدة قبائل مختلفة. وأخيرا يجب رفض المعارضة الخالصة بين القبائل العربية والبربرية. فقد أُستغلّ هذا التمييز العرقي في الفترة الاستعمارية، المعتمد على نصوص على الرغم من استدلالها بمفردات خاصة بجماعات وليس بأعراق. وسيكون من الخطأ الظن أنّ القبائل الهلالية دردت السكان البربر المقيمين حينئذ بالجهة. وإذا ما ظهرت منذ ذلك الحين على صعيد أولي في كتب التاريخ، فلأنها غالبا ما فرضت سيطرتها على القبائل البربرية الأقل قوة وبالتالي فهي من الآن محرّكة التاريخ السياسي. لكن هنا أيضا تبسيط، لأن بعض القبائل البربرية بجهة بجاية استمرت في لعب دور ملموس. لا يتلخص المشكل إذن في العرب الهلالية حتى وإن كان وصول هؤلاء السكان الجدد قد ساهم في تعديل التوازن السياسي في الأرياف القبائلية وفي علاقات الحكم بالبلاد الخلفية.

أ) جدول القبائل

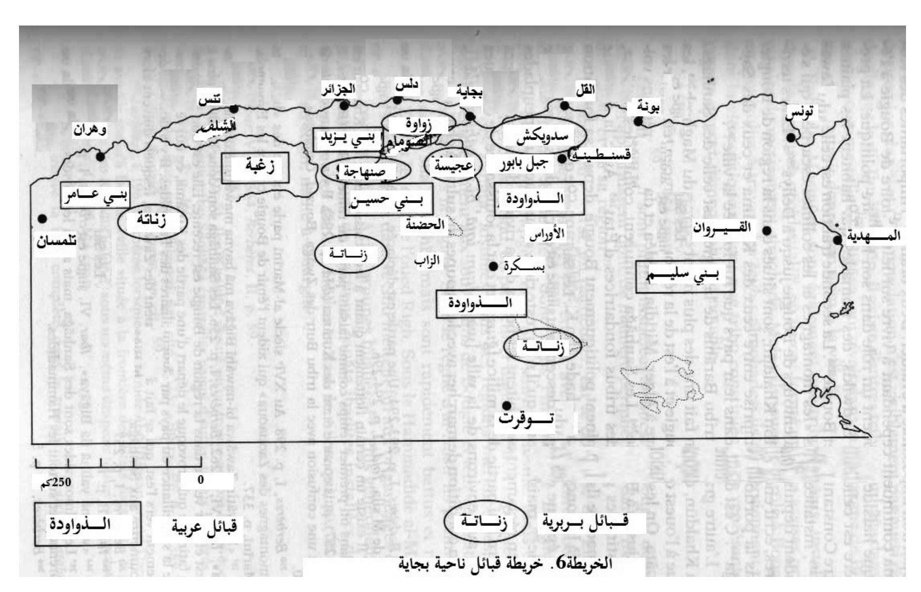
ليس من السهل تحديد موقع القبائل في بلاد بجاية لأنّه من جهة بعضها متنقل- أو على الأقل تنقلت خلال الفترة التي تهمنا- ومن جهة ثانية فإن توزعها على الأرضي لم يكن بسيطا بالضرورة[236]. هذا لا يشير بقدر ما إلى عدم وجود

(235) *Ibid.*, p. 29.

(236) أنظر التقديم المحفور جدا لهذا التوزيع السكاني حسب مناطق جغرافية في: Brunschvig, *La Berbérie*, *op. cit.*, I, p. 285-299 وبأكثر إجمالا: G. Chiauzzi, « Le substrat autochtone au Maghreb », *Maghreb Médiéval. L'apogée de la civilisation islamique dans l'Occident arabe*, Aix-en-Provence, 1991, p. 13-53.

المجالات القبلية المعروفة الحدود أو على الأقل تقريبية عند المعاصرين. حتى وإن كانت القبائل متنقلة، فهذا لم يمنع من الاعتراف بمجال تنقلهم في واقع الأمر.

بالطبع، هناك إمكانية حدوث هجرات كثيرة في وقت وصول بني هلال وبني سليم وإلى غاية الفتح الموحدي وأزمة بني غانية. تبعا لذلك بالمقابل نجد أنّ توزيع المجالات القبلية عرف استقرارا بصفة مجملة إلى غاية نهاية الفترة الحفصية.



الخريطة6. خريطة قبائل ناحية بجاية

القبائل البربرية

تقليديا، يصنف المؤلفون العرب القبائل البربرية إلى فرعين: البتر والبرانس[237]. إنّ أسباب هذا التقسيم ليست واضحة، والشروح التي أعطيت حتى الآن، غالبا أسطورية جدا، وهي ليست كافية[238]. وهو تصنيف سهل

(237) على سبيل المثال، البربر، 1، ص 168.

(238) أنظر:

Y. Modéran, « Botr et Branès : sur les origines du dualisme berbère médiéval », *Mutations d'identités en Méditerranée. Moyen Âge et époque contemporaine*, dir. H. Bresc, Chr. Veauvy, Paris, 2000, p. 53-65.

الاستعمال في غياب الأفضل، حتى وإن وجب الاعتراف بافتقاده تقريبا إلى سداد النظرة التاريخية بالنسبة لموضوعنا.

البرانس

إنّ قبائل البرانس هي التي تتعلق مباشرة بجهة بجاية[239]. ففي جدول القبائل البربرية في المغرب، كتب ابن خلدون أنّ بلاد بجاية وقسنطينة اختصت فيما مضى بقبائل زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة، ولكن في زمنه (بمعنى القرن الرابع عشر) أصبحت ديارا للعرب، الذين يشغلون كل المناطق، ما عدا بعض الجبال ذات المناعة حيث نجد بعض بطون هذه القبائل[240]. ولكن يجب تصحيح هذا التخمين باختفاء قبائل البرانس. فإذا كان استقرار بني هلال في الجهة بديهيا، فإنّ السكان الموجودين قبل ذلك لم يختفوا. ومن جهة أخرى، نفس المؤلف يظهر الدور الذي استمرت في لعبه بعض هذه القبائل في الفترة الحفصية.

إنّ قبيلة كتامة هي الجماعة الأكثر عددا والتي عاشت في جهة بجاية[241]، ولكن البعض من عناصر القبيلة رافق الفاطميين إلى المهدية ثم إلى مصر. وساهمت هذه الهجرة في تفريغ الجهة من قسم من سكانها والتي يستحيل تقدير نسبتهم. واستمر فرعان هامان من كتامة في العيش في مجال بجاية في الفترة الحفصية ولعبا دورا في تاريخها السياسي. الأول هو بطن سدويكش الذي يتألف من رحل ينتقلون بين سهول قسنطينة وبجاية[242]، والثاني هو فرع من زواوة[243] المستقرين

(239) حول هذا البطن، أنظر: « Barānis », *EI*², I, p. 1068 (G. S. Colin). كان مسكنهم الأولي في الأوراس ومنطقة قسنطينة والقبائل الكبرى والصغرى.

(240) العبر، 4، ص 204، البربر، 1، ص 197.

(241) بعد الفتح العربي الأول، استقروا بين قسنطينة وبجاية وكذلك في جنوب قسنطينة إلى الأوراس وامتلكوا على الخصوص الساحل بين بونة وبجاية. البربر، 1، ص 291. ويروي البكري من جهة أخرى أن الجبال التي تحيط ببجاية كانت تسكنها كتامة الشيعة، وأيضا الجبال الواقعة شرق المدينة. البكري، الترجمة، ص 167. في القرن السادس عشر، يتحدث المريني أيضا على سكان جبل كتامة. المريني، ص 253.

(242) البربر، 1، ص 293–294. قسم نقل إلى جهة المسيلة بعد 710/ 1310. نفسه، 1، ص 294–296.

في "الجبال والهضاب الوعرة التي تمتد من نواحي بجاية إلى غاية دلس[244]". ومجالهم يقع، كما كتب ابن خلدون، في جهة بجاية، في القسم المحصور بين مجالات كتامة ومجالات صنهاجة[245]. أسست إذن المدينة في بلادهم[246].

صنهاجة هي القبيلة البرنسية الكبيرة الأخرى في الجهة. ويجعل منها ابن خلدون الأكثر عددا في المغرب[247] ويحددها في غرب بجاية وشرق جهة تلمسان الواقعة تحت سيطرة زناتة. نجدها في الجزائر ومتيجة والمدية والجهات المجاورة لبجاية[248]. وعرفت صنهاجة، شأنها شأن كتامة، مصير القبائل الكبيرة المؤسسة للدولة[249]. فمع السلالة الحمادية، سيطرت صنهاجة سياسيا على بجاية منذ تأسيسها إلى غاية الفتح الموحدي. يذكر ابن خلدون أنه لاقى في زمنه بعض المنحدرين من هذه القبيلة في جهة بجاية[250]، لكنه يضيف أنه لم يبق منهم شيئا كثيرا: "ولم يبق من قبائل ماكسن إلا أوزاع بوادي بجاية ينسبون إليهم وهم لهذا العهد في عداد الجند ولهم أقطاع بنواحي البلد على العسكرة في جملة السلطنة مع

(243) يوجد نوع من التردد في تصنيفهم. يتحدث ابن خلدون في بادئ الأمر على أنهم يشكلون جزءا من البتر (البربر، 1، ص 255-257)، ثم كأنهم من كتامة (نفسه، ص 298). كان هناك خلط مع قبيلة زواغة البترية. Bouzid, *Catalogue*, *op. cit.*, p. 30.

(244) البربر، 1، ص 298. في القرن السادس عشر، تحدث المريني أيضا عن "سكان جبال زواوة" الذين ساعدوا أمير بجاية ضد الأسبان. المريني، ص 337.

(245) "مواطن زواوة بنواحي بجاية ما بين مواطن كتامة وصنهاجة". العبر، 6، ص 262، البربر، 1، ص 256. حددت مجالات صنهاجة إذن إلى الغرب ومجيئهم إلى جهة بجاية كان متأخراً، وكان بسبب التوسع الفاطمي الذي نتج عنه رحيل قسم من كتامة عنه، وهذا ما جعل حراسة البلاد ضرورية من مساعدي الفاطميين. يوجد إذن تحول نحو الشرق حدث على حساب زواوة، التي خضعت لصنهاجة.

(246) البربر، 1، ص 257.

(247) نفسه، 2، ص 1.

(248) "وما يليها إلى بجاية". العبر، 4، ص 203، البربر، 1، ص 196.

(249) ينتسب المرابطون إلى صنهاجة، أيضا مع الزيريين في المهدية أو في غرناطة، وخصوصا الحماديين.

(250) البربر، 2، ص 5.

قواده"[251]. فقد لعب جند صنهاجة عدة مرات دوراً مـن الدرجـة الأولى وهـؤلاء السكان يظهر أنهم ليسوا ببقايا عكس ما قاله ابن خلدون. وتوجد قبائل صنهاجية أخرى في الجهة مثل قبيلة بجاية التي عاشت في الجبل الحامل لنفس الاسم وهي ربما قد أعطت اسمها للمدينة[252].

وأخيرا مصمودة التي هي كذلك قبيلة برنسية مستقرة في الجناح الغربي مـن المغرب[253]، حيث أسست واحدة من القواعد الرئيسية للحركة الموحدية. لكن إذا ما لعبت عناصرها دورا في بجاية فمـن خـلال مشـيخة الموحـدين ولم يتـدخلوا في الحياة السياسية سوى كقبيلة منشئة ولم يمثلوا إضافة ديمغرافية ملحوظة.

*** البتر**

تستقر قبائل البتر في غرب بجاية أو أكثر إلى الجنوب وتظهر إذن بكيفية هامشية في تاريخ المدينة وجهتها[254].

إنّ المغرب الأوسط بصفة خاصة هو دار زناتة. ويطابقه ابن خلدون بوضوح مع مجال العبد الواديين[255]. لم تتدخل زناتة إذن في تاريخ بجاية إلا كقبيلة خارجية أو في غالب الأمر كمعادية. ولكن نجد أيضا زناتة في الجنوب، خصوصا في الزاب. ففي الفترة الحمادية، تصدت بانتظام العناصر الزناتية المستقرة في الجهات الجنوبية لملوك بجاية وعارضتهم على سيادة الجهة. وفي فترة حكم الناصر،

(251) العبر، 4، ص 364، البربر، 2، ص 59.

(252) البربر، 2، ص 51. ويضيف ابن خلدون بأننا نجد أيضا في عهده بقايا قبيلة صنهاجة متوزعين بين القبائل البربرية الأخرى.

(253) البربر، 1، ص 169.

(254) حول البتر، أنظر:

Chiauzzi, art. cité, p. 25 ; « Butr », *EI²*, I, p. 1389-1390 (G. S. Colin) ; Bouzid, *Catalogue, op. cit., passim.*

(255) البربر، 1، ص 196. أيضا عندما استولى أبو الحسن المريني على تلمسان وتقدم إلى دلس، "مدينة واقعة على ثغر الدولة الحفصية"، استطاع إذ ذاك جمع كل سكان زناتة تحت رايته. البربر، 1، ص 98.

استولوا على جهة المسيلة وأشير، ولكنهم هزموا بسرعة وطردوا إلى الزاب وعلى امتداد وادي ريغ. وتحت حكم المنصور الحمادي، أنهت عدة حملات عسكرية إلى الجنوب صعلكة هذه القبائل، التي أحيانا ما كانت متحالفة مع الجماعات الهلالية[256]. وعموما وجدت عدة بطون إباضية من زناتة مستقرة في الجنوب، خصوصا في الحضنة وفي التل المؤدي إلى وارجلان عن طريق حوض ريغ[257].

لواتة هي القبيلة البترية الوحيدة المستقرة في المجال القريب من بجاية، ويشير ابن خلدون إلى أنها عاشت بالقرب من بجاية في سهل تاكرارت وتمارس أنشطة زراعية ورعوية[258]. وشاركت خصوصا إلى جانب صنهاجة وكتامة في مقاومة الموحدين[259]. ولكن هي بطن صغير فقط من هذه القبيلة الكبيرة[260].

يشكل البربر إذن السكان الرئيسيين في الجهة. واقتسمت قبيلتان كتاميتان المجال قبل تأسيس بجاية وهما سدويكش في الشرق وزواوة في الغرب. وفرضت صنهاجة القادمة من الغرب دون شك في الفترة الفاطمية-الزيرية سيطرتها الجزئية على هذه القبائل. لكن وجب عليهم كلهم قبول سيادة العرب بداية من منتصف القرن الحادي عشر.

القبائل العربية

تنحدر القبائل العربية الحاضرة في المنطقة من هجرات القرن الحادي عشر، خصوصا قبائل بني هلال. وقد كان بها من قبل سكان عرب، خصوصا في المدن،

(256) البربر، 2، ص 49-51.

(257) نجد قائمتها الكاملة في عمل بوزيد. Bouzid, *Catalogue*, *op. cit.*, *passim*.

(258) العبر، 4، ص 238، البربر، 1، ص 236. ويعتقد دوسلان (De Slane) أننا يمكن تعريف هذا المكان بتاوريريت الحالية في أعلى حوض الصومام، حيث يغير النهر من مجراه ويتوسع الحوض. البربر، 4، ص 530.

(259) ابن الأثير، المصدر السابق، الترجمة ص 574.

(260) Bouzid, *Catalogue*, *op. cit.* p. 85-92.

لكن بعدد ضعيف. بالعكس، كانت آثار الهجرة العربية الثانية مهمة على التوزيع السكاني بالمنطقة. فهي قبائل كثيرة[261] والتي استقرت بسرعة في المجالات التي كانت آنذاك تحت سيطرة البربر، وفرضت عليهم سيطرتهم السياسية.

في بادئ الأمر دخل رحل قبيلة بني هلال إلى بلاد طرابلس ثم إلى مجال تونس الحالية، وبسرعة اندفعوا نحو الغرب[262]. ولم تكن دون شك حركة الهجرة لا عنيفة ولا متشابهة. إنّ كتب التاريخ التي تلح بطيبة خاطرها على المظهر الكارثي لهذه الحركات السكانية يجب في هذا الصدد استعمالها بحذر. فهناك عدة أمواج، تفسر بالحركات الخاصة بهذه القبائل خصوصا برحيلهم التدريجي من مصر، وأيضا بسياسة الملوك المغاربة، الذين دفعوا بهم للتنقل لتلبية حاجاتهم. وهذا ما بحث عنه الزيريون لإرسالهم ضد الحماديين بالقلعة ودفع بهم الموحدون أكثر إلى الغرب نحو المغرب الأقصى والأندلس. وآخر حركة ذات أهمية كبيرة تعود إلى فترة بني غانية الذين تلقوا دعم الهلاليين (ما عدا زغبة)، في حين أنّ الموحدين استنجدوا بقبائل سليم العربية التي كانت مستقرة في ذلك الحين في بلاد طرابلس. واستطاع هؤلاء الأخيرين القذف بقسم كبير من بني هلال إلى الغرب وأخذوا مكانهم في سهول إفريقية الشرقية[263].

---

(261) البعض بحث عن زيادة هذا الإسهام من خلال المصادر النصية التي نعلم بقلة الثقة بها فيما يخص المعطيات الرقمية. فيتحدث جورج مارسي G. Marçais (*Les Arabes en Béribérie du XIe au XIVe siècle*, *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 47, 1913, p. 112) عن أكثر من مليون شخص. عبد الله العروي A. Laroui (*L’Histoire du Maghreb. Un essai de synthèse*, Paris, 1970, rééd. Casablanca, 1995, p. 140)يتحدث عن 200000 كأقصى حد. هذه المباشرة هي دون جدوى والتأويلات هي جد مرتبطة بالاعتبارات الإيديولوجية. إنّ الذي يعتد به أبعد من الحجم الديمغرافي للهجرة هو تأثيرها على الحياة السياسية والاقتصادية.

(262) حول هذه الأحداث، أنظر: Idris, *La Béribérie*, *op. cit.*, p. 205 s الذي عمل لها كرونولوجية و.Bourouiba, *Les Hammadides*, *op. cit.*, p. 55 s

(263) البربر، 1، ص 47–49.

فزغبة ورياح هما القبيلتان الهلاليتان الرئيسيتان الحاضرتان في مجال بجاية[264].

زغبة

جاءت زغبة إلى المغرب الأوسط بعد المغامرة المرابطية[265] والتي من خلالها بقت -عكس رياح- وفية للموحدين[266]. إنّ مجالها هو على ظهر حصان في الممتلكات العبد الوادية والحفصية. واستعملها الحفصيون في كفاحهم ضد زناتة وأقطعوها حمزة "بلاد من أوطان بجاية، ملامسين لجهات رياح والأثبج"[267]. وتتكون هذه القبيلة من عدة بطون من أهمها بطن يزيد الذي يسيطر على البقية[268]، والذي استقر معظمه في الأرياف الخصبة في شرق الجزائر[269]. تحتل زغبة إذن منطقة مطالب بها من طرف الحفصيين والعبد الواديين. وتفسر هذه الوضعية أنها ضمّت إلى ممتلكات تلمسان في بداية القرن الرابع عشر[270] وبعد تراجع القوة العبد الوادية، سيطرت هذه القبيلة لنفسها على جهة حمزة[271].

---

(264) لعبت قبيلة الأثبج دورا هاما في الفترة الحمادية، خصوصا في الجهات الغربية، ولكنها اختفت بعد ذلك من تاريخ بجاية. البربر، 1، ص 46. من أجل جدول مفصل للقبائل العربية في المغرب أنظر: جدول مارسي

Marçais, *Les Arabes en Berbérie*, *op. cit.*, en particulier p. 582-687 (Maghreb central et Ifrīqiya). أيضا I. Achouri, *Les Bannu Hilal. Analyse structurale d'un nomadisme séculaire (du VIIe au XVIIe siècle)*, thèse de l'Université de Toulouse-Le-Mirail, 1998, sous la direction d'A. Ducellier et Chr. Picard, p. 197-202.

(265) البربر، 1، ص 49.

(266) نفسه، 1، ص 47.

(267) العبر، 4، ص 87، البربر، 1، ص 88. يتعلق الأمر بجهة البويرة حاليا، سهل داخلي صغير يتحكم في حوض وادي الدوس، بمعنى مدخل الفجوة التي تؤدي إلى الصومام وبجاية.

(268) البربر، 1، ص 88.

(269) نفسه، 1، ص 91.

(270) نفسه، ص 88. "وبعد ذلك استولت زناتة على هذا الوطن من الحفصيين وفصلته من إمارة بجاية تملكا".

(271) نفسه، 1، ص 88-89.

بنو عامر هم بطن آخر من زغبة الذي يهم بجاية بكيفية محيطية ودقيقة، إذ استقر في المجال الذي يعتبر عبد وادي بوضوح[272]، ولكنه استطاع التدخل أيضا في الشرق في مجال بجاية. باعتباره حليفاً لبني يزيد، فقد صارع رياح للتحكم في حمزة[273]، وسهّل أيضا استيلاء أبي زكرياء على الحكم في بجاية في 684/ 1285، وكمكافأة أقطع له هذا الأخير المجال الواقع بحمزة حيث بقي هناك على الأقل إلى غاية الفتح المريني[274].

ويكون بنو حسين البطن الأخير من زغبة الحاضر في هذه الجهة، إذ استقروا في سهل المدية جنوب مدينة الجزائر وكانوا تابعين مبدئيا للحفصيين في بجاية. ولكنهم في واقع الأمر تحولوا أكثر إلى (مساندة) تلمسان[275].

رياح

إنّ رياح هي أقوى القبائل الهلالية وشكل الدواودة البطن المسيطر فيها[276]. واستقرت رياح في بداية الأمر في إفريقية الزيرية وساندت بني غانية في مغامرتهم. واستعملها الحكام الموحدون ثم الحفصيون ضد بني سليم المستقرين آنذاك ببلاد طرابلس. وفرض عليها الفشل النهائي لبني غانية الخضوع وترك المكان لسليم "وملك الكعوب ومرداس من بني سليم ضواحي الجانب الشرقي كلها من قابس إلى بونة ونفطة وامتاز الدواودة بملك ضواحي قسنطينة وبجاية من التلول ومجالات الزاب وريغ ووراكلا وما ورائها من القفار في بلاد القبلة."[277] إنها آخر حركة

(272) استنجد بهم يغمراسن في صراعه ضد عرب المعقل (في المغرب الأقصى) ولهذا أنزلهم في جهة تلمسان. نفسه، 1، ص 91، 101.

(273) نفسه، 1، ص 90.

(274) نفسه، 1، ص 104، 2، ص 399-400.

(275) نفسه، 1، ص 100.

(276) نفسه، 1، ص 70.

(277) نفسه، 1، ص 72-73. أنظر كذلك العبر، 4، ص 146، البربر، 1، ص 139. دفع سليم بخصومهم (رياح) إلى الوطن الذي يسكنون به حتى في نهاية القرن الرابع عشر والذي يشمل تلول قسنطينة وبجاية والزاب.

للسكان البدو، وهي ذات أهمية قصوى في تاريخ بجاية، لأننا نرى سكانًا عددهم كبير دون شك، يستقرون في قسم كبير من مجال المقاطعة إلى غاية أبواب الصحراء وهم في جميع الحالات يقدمون قوة عسكرية حقيقية.

اتضحت المجالات القبلية في عهد المستنصر، وانقسمت القبيلة إلى بطنين اقتسما مقاطعة بجاية وقسنطينة، واستمرت هذه الوضعية حتى عصر ابن خلدون[278]. و"لهم تغلب على ضواحي بجاية وقسنطينة ومن بها من سدويكش وعياض وأمثالهم". واختص أولاد محمد "بنواحي قسنطينة وأقطعتهم الدول كثيرا من أريافها[279]". أما أولاد سباع فهم البطن الآخر الذي امتلك في ضواحي بجاية، ولكن دون ممارسة حكم هام: "واقطاعهم بها قليل لمنعة بجاية وضواحيها عن ضيم العرب ولغلبهم بالجبال المطيبة بها وتوعر مسالكها على رواحل الناجعة. [280]" وسيطر العرب أيضا على الجهات الواقعة أكثر نحو الجنوب، إذ أن جبال قلعة بني حماد والمسيلة هي مجالات عياض الذين هم بطن هلالي والذين يعترفون بهيمنة الدواودة[281]. أما فيما يخص الزاب، فقد اعترف به الحفصيون لفائدة الدواودة[282].

ب) دور القبائل في التاريخ السياسي البجائي

لم تكن القبائل الهلالية لوحدها من تدخلت في تاريخ بجاية، ولكنها كانت الأكثر حضورا لأنها سيطرت سياسيا على الأقل في الجهات البعيدة. لقد تركز

---

(278) البربر، 1، ص 76.

(279) نفسه.

(280) نفسه.

(281) نفسه، 1، ص 43، 295. ويوضح ابن خلدون مع ذلك أن عياض هم تحت سيطرة الجماعات الهلالية الشمالية (نفسه، 1، ص 76). ويحددهم برونشفيك (*La Béribérie, op. cit.*, I, p. 294) كبطن من الأثبج مختلط مع عناصر هلالية أخرى. يوجد جبل عياض في مجال بجاية. يحيى بن خلدون، الترجمة، 2، ص 25.

(282) البربر، 1، ص 75. وفي زمن الفتح الإسباني، وجب على عاهل بجاية مواجهة تمرد الدواودة. المريني، ص 343.

النقاش التاريخي إذن على هذه القبائل حتى وإن كان تصرف البربر السياسي لا يتميز بشيء عن التصرف السياسي للعرب.

إنّ المشكلة الرئيسية التي تطرحها هجرة القبائل الهلالية هي مشكلة حجم التغييرات التي أثارها استقرار هؤلاء السكان الجدد. إنّ الأطروحة التقليدية التي طوّرها مؤرخو الفترة الاستعمارية من خلال قراءة ابن خلدون، تريد أن تجعل من القبائل الهلالية -المخربة بطبيعتها- صاحبة الدورة في إخلال وتلغيم حكم الدولة، محدثة استحالة وجود بناءات سياسية مستقرة ومستمرة[283]. وفي هذا المعنى نجد أن العرب الهلالية، هؤلاء غير المحبوبين في التاريخ المغاربي، هم مصابون بآفة دائمة في أعين رجل دولة مثل ابن خلدون أو مثل مؤرخي القرنين التاسع عشر والعشرين: أبدا ما أسسوا دولة بخلاف الكونفدراليات البربرية الكبيرة في المغرب أو كونفدراليات الرحل في المشرق. لكن حكم ابن خلدون هو ملتبس: طبعا شكّل هؤلاء السكان قوة حيوية بإمكانها إعطاء وثبة جديدة للمغرب[284]، لكنها ظهرت غير قادرة على دفع دورة حضارية جديدة[285]. إنّ نظرية العمران لا تنسحب

(283) هي الأطروحة التي طوّرها جورج مارسي ونظّمها إميل فليكس غوتييه. Marquais, *Les Arabes en Béribérie, op. cit.* ; É.-F. Gautier, *Les Siècles obscurs du Maghreb*, Paris, 1927.

(284) "هذا المغرب المؤسس، الذين ساهموا في قطعه، هو بالنسبة إليهم مثل ما كانت عليه سوريا البيزنطية لأحفادهم في القرن السابع. لقد استعادوا فيه تاريخ ستة أو سبعة قرون. هذا أدى إلى الكثير من التخريب، لكن هذا أنعش الطاقات الهادئة". J. Berque, « Ibn Khaldoun et les Bédouins », *Maghreb, histoire et sociétés*, Alger, 1974, p. 54 (titre original « Problèmes de la connaissance au temps d'Ibn Khaldoun », *Contribution à la sociologie de la connaissance*, 1967). طبعا، هذا معنى معاكس من جعل ابن خلدون خصم للعرب، فهو يعطي لنفسه أصل عربي ويرى فيهم حظ للمغرب لاستعادة الحيوية والقوة.

(285) J. Berque, « Les capitales de l'islam maghrébin vues par Ibn Khaldūn et les deux Maqqari », *Annales islamologiques*, 8, 1969, p. 79 :
"ألّف الرحل هذا التناقض ليكون في الوقت ذاته إعادة انطلاق وتدمير شرطي للتاريخ"، لكن حركيتهم الحربية ومعنى الشرف عندهم وتضامنهم- ضروري في أي مباشرة سياسية- لم تؤد إلى شيء.

عليهم، واختلال دوران تاريخ المغرب أيقظ عند مؤلف "المقدمة" خيبة وشعورًا عميقين بانحطاط غير قابل للعلاج. لكن هذا الفشل –أو الذي يعتبر كذلك- لا يمكن أن يفسّر ببساطة عن طريق الخواطر العامة والأبدية حول الترحال، والأسوأ من ذلك حول العرق. يجب إذن فهم لماذا لم يسمح السياق السياسي بالاستقرار وأدى بالمقابل إلى الفوضى.

يكمن السبب الرئيسي لأهمية القبائل في التاريخ السياسي المغاربي في الدعم الذي تقدمه للحكم. لكن هذا الأخير، لم ينجح أبدا في فرض علاقة قوة لصالحه، تاركا القبائل تلعب دورا في إثارة الفوضى والتي تؤدي إلى تفاقم النزاعات الإقليمية وإلى فقدان سلطة الدولة في الداخل.

مساندة ضرورية للحكم

تشكل القبائل دون أي نقاش قوة سياسية وعسكرية، وفي هذا الاتجاه يجب أن تكون علاقتها بحكم الدولة كعلاقة قوة تتطور مع مرور الوقت. فإذا كانت القبائل الهلالية قد استطاعت بسهولة قلب الزيريين ثم الحماديين، فلأن هاتين الدولتين كانتا قد أضعفتهما الحروب المستمرة[286]. لكن منذ البداية، بحث الزيريون، كما فعل الحماديون في تاريخهما، عن كسب ود هؤلاء القادمين الجدد لتعزيز قوتهم الخاصة. وفشلت هذه السياسية لأنّ القبائل العربية فضّلت انتهاز فرصة انقسامات الدول لفرض سلطتها الذاتية[287]. ولم يمنع هذا الملوك من

---

(286) سادت بين الزيريين الحماديين عدة نزاعات، في بادئ الأمر، ولكن أيضا ضد أعدائهم الخارجيين (المرابطون، النورمان) أو الداخليين (القبائل، خصوصا زناتة في حالة الحماديين). أنظر: Idris, *La Béribérie*, *op. cit.*, p. 127 s

(287) يقارن العروي (Laroui, *op. cit.*, p. 140) هذه الوضعية مع وضعية الإمبراطورية الرومانية بوصول الجرمان، حيث بحث الحكم على استعمالهم، وكان للفشل النهائي لهذه السياسة الذوبان التدريجي لسلطة الإمبراطورية.

مواصلة التعلق بمعاونة القبائل، سواء بالخضوع، أم في غالب الأحيان بالشعور المتبادل إزاء المصالح المشتركة.

ويعطي أولاد سباع أحسن مثال للقبائل الوفية التي عادة ما نسميها في المغرب الأقصى بقبائل "المخزن"[288]. هذا البطن المنتسب للدواودة "اختص بنواحي بجاية"[289]. وإذا كان بمقدوره، فإنّ الحكم يبحث عن التحكم التام في القبائل. ففي وقت الفتح الموحدي لبجاية، كان الهلاليون الذين سُحقوا في معركة سطيف اعترفوا بسلطة الخلفاء[290]. وإلى غاية عهد المستنصر الحفصي، حافظ الحكم على سيادة كاملة[291]، نظرا لأفضلية الأسلحة واللعب على استغلال الخلافات بين الجماعات القبلية[292]. وعندما يكون قويا بكفاية، فباستطاعته تعيين شيخ القبيلة وحتى فرض شخصية من الخارج. فبعد استعادته لبجاية في 754/ 1353، عيّن أبو عنان وزيره موسى بن إبراهيم اليرنياني على قيادة سدويكش[293]. وبقي هذا الفعل استثناءً بسبب فشل السلطان المريني، والحالة الأكثر سريانا هو أن تعيين أو تثبيت الأشخاص الأوفياء على رأس القبائل مرتبط بانتمائهم لها وممارستهم للسلطة قبل ذلك. وفي النهاية فإنّ الوسيلة الأخيرة للحفاظ على التحكم هو أخذ الرهائن من العائلات الحاكمة. وكمثال عن ذلك هو ما حدث عندما أخضع أبو عنان المريني سكان جهة بجاية بعدما تغلب عليهم: "واستدعى كبراء العرب وأهل

(288) أنظر: Brunschvicg, *La Béribérie, op. cit.*, II, p. 70, 76 ; Marçais, *Les Arabes en Béribérie, op. cit.*, p. 236 s.
هذا المصطلح لا يستعمل عادة في إفريقية. أنظر: Chapoutot-Remédié, « Tunis », art. cité, p. 253-254

(289) البربر، 2، ص 73. لاحظ ابن خلدون أنّ تحالفهم مع أبي العباس حاكم قسنطينة ضد بجاية في 767/ 1365، هو حدث استثنائي.

(290) نفسه، 1، ص 46.

(291) نفسه، 1، ص 74. أنظر عاشوري بالنسبة للفترة الموحدية. Achouri, *op. cit.*, p. 141 s.

(292) هذا ما ينتج خصوصا عندما يراهن الحفصيون ضد رياح الهلاليين.

(293) البربر، 3، ص 49.

النواحي من أعمال بجاية وقسنطينة ووفد عليه يوسف بن مزني صاحب الزاب ومشيخة الدواودة فاسترهن أبناءهم على الطاعة وقفل بهم إلى المغرب.[294]"

إنّ مساندة القبائل هي مسألة مبحوث عنها لتقوية حكم الملوك وهذا ما يفسر ضعف الجهاز الإداري والعسكري للدولة. وتشكل القبائل في داخل النظام السياسي يفضي إلى توازن فعال مع قوى أخرى، خصوصا مع الموحدين، وهذا ما يعطي للعاهل أكبر هامش للمناورة. فضلا عن ذلك، يمكن للقبائل أن تُستعمل كأداة مناوبة للحكم في داخل البلاد للتحكم في الرعية وفي جمع الضرائب. وأخيرا، تستعمل كذلك كقوة عسكرية إضافية.

توازن في النظام السياسي

بحث الملوك دائما عن الحفاظ على التوازن داخل النظام السياسي، وهذا حتى لا تأخذ أي جماعة مكانة مرموقة تحد من سلطتهم. يتجلى هذا الانشغال بوضوح في سياسة الخليفة الموحدي عبد المؤمن الذي وجب عليه مواجهة التحالف الواسع الذي جمع الهلاليين وصنهاجة بعد فتح بجاية. وباشر هؤلاء معركة حاسمة في 548/ 1153، -حاملين معهم النساء والأطفال والقطعان-، انتهت بهزيمتهم على يد الموحدين، الذين كانوا ربما أقل عددا منهم، ولكنهم أفضل انتظاما عسكريا. وكان لهذه الهزيمة وقعا مدويا، لأنها المرة الأولى التي سحق فيها حكم قوي العرب الهلالية. لكن الخليفة لم ينتهز الفرصة للقضاء نهائيا على قوتهم العسكرية، بل بالعكس فقد أدمجها في نظام الحكم. واستقبل وفداً مشكّلاً من القادة الرئيسيين للعرب في مراكش ووزع عليهم العطايا واحتفظ بالنساء والأطفال موفرا لهم أجوراً [295]. سمحت له هذه السياسة من توسيع قاعدة الحركة القبيلة لحكمه التي كانت قبل ذلك بربرية خالصة مشكّلة خصوصا من

(294) نفسه، 3، ص 499.

(295) ابن الأثير، المصدر السابق، الترجمة، ص 574، البربر، 2، ص 190.

مصمودة[296]، وخلق توازنًا جديدًا يجعله أقل تبعية لمشيخة الموحدين[297]. وتمثل هذه السياسة تغييرا جذريا مقارنة مع سياسة المهدي بن تومرت التي توجب الاندماج في الحكم بالانخراط في المذهب الموحدي.

لا ينحصر استعمال القبائل المساندة للحكم في الهلاليين فقط. فقد بقيت صنهاجة في بجاية وفية للحفصيين كما يظهره اعتلاء سلطان بجاية أبي البقاء للعرش: وفي لحظة وفاة أبي زكرياء في 700/ 1300 رجع ابنه وولي عهده من قسنطينة حيث كان حاكما وتلقى ثناء شيوخ الموحدين ومختلف هيئات الجيش. وعيّن لقبائل صنهاجة شيخا منهم وهو أبو عبد الرحمن يعقوب بن خلوف المعروف باسم المزوار[298]. إنّ الاعتراف بسلطة العاهل تسجل هنا فعليا بالطاعة (لا نتكلم عن البيعة عند القبائل) وبتعيين السلطان شيخا للقبيلة.

وتمر هذه المعاونة في بعض الحالات بإدماج عناصر من هذه القبائل في النخب الحضرية. إذ إنّ مناصب القضاء تولاها العلماء المنحدرون من قبائل الجهة، أو على الأقل من القبائل البربرية[299]. وبهذه الصفة، فإنهم لعبوا دورا

(296) V. Aguilar Sebastián, « Política de ‘Abd al-Mu’min con los Árabes de Ifrīqiya », *Actas del II coloquio hispano-marroqui de ciencias históricas. « Historia, ciencia y sociedad », Granada, 6-10 noviembre de 1989*, Madrid, 1992, p. 24.

(297) إن اعتلاء عبد المؤمن للحكم لم يمر دون إحداث ضرر. في الحقيقة، استندت التركيبة السياسية الموحدية التي وضعها المهدي بن تومرت على نظام مجالس الشيوخ، وهذا ما أقصى مبدئيا كل سير سلالاتي. بيد أن الخليفة عبد المؤمن وضع باكرا أولاده في المناصب الرئيسية في المقاطعات وأقنع الشيوخ الموحدين على الاعتراف بابنه محمد كولي عهد له. أنظر رسالة عبد المؤمن إلى طلبة وشيوخ وأعيان وكل سكان سبتة (12 ربيع الأول 551/ 5 ماي 1156). تحليل إ. ليفي بروفنسال:

E. Lévi-Provençal, « Un recueil de lettres officielles almohades », *Hespéris*, 28, 1941, p. 37-38.

(298) العبر، 4، ص 717–718، البربر، 2، ص 418.

(299) لا يظهر أنّ الهلاليين قد نفذوا إلى هذه المناصب. بصفة عامة، إن النخب الحضرية، خصوصا الدينية منها، كانت لهم معادية جدا.

سياسيا، كما يظهره مثال القاضي الغبريني في نهاية القرن الثالث عشر[300]. ولكنهم لم يصلوا إلى الوظائف السياسية الكبيرة (حاجب، صاحب الخراج، صاحب ديوان البحر). فباستثناء الدور الذي لعبه المزوار كشيخ لصنهاجة (الذي لم يكن مهما إلا بملاطفة الحكم السلطاني)، فإنّ إدارة الحكم في المدينة هي في أيدي أعضاء العائلة الحفصية أو الموحدين أو أيضا الأندلسيين.

بالمقابل، لعبت القبائل دوراً كبيراً في البلاد الخلفية حيث استعملت كمناوبة للعاهل الأكثر بعدا.

مناوبة الحكم في الداخل

إنّ الجهاز الإداري للمقاطعات غير معروف جيدا، ويبدو أنه كان ضعيفاً. فيعيّن السلطان في المدن الرئيسية عمالا، لكن بعيدا عن المراكز الحضرية تضعف السلطة السياسية بسرعة. مبدئيا يقوم السلطان (أو العامل) بجولات منتظمة في المقاطعة من أجل تثبيت حكمه وحل النزاعات وخصوصا (وهي كذلك إشارة للاعتراف بسيادته) جمع الضرائب. ولكن غالبا ما تتكفل القبائل المتحالفة مع الحكم في الجهات البعيدة بوظيفة سلطة الدولة. فدورها يتمثل خصوصا في جمع الضرائب لفائدة السلطان وأيضا قمع حركات التمرد.

هكذا يقوم بنو يزيد- البطن الرئيسي لزغبة- في المناطق الغربية لمقاطعة بجاية، "وصار للدولة استظهار بهم على بجاية تلك الدعاية من صنهاجة وزواوة فلما عجزت عساكر بجاية عن حمايتهم دفعوهم للقاء، فأحسنوا في اقتضائها

(300) انتسب مؤلف عنوان الدراية إلى قبيلة بني غبرين البربرية، عمل ككبير قضاة بجاية وقاد بهذه الصفة محاولة تفاوض مع سلطان تونس. إنّ فشل هذه السفارة والوشايات التي أقيمت في غيابه، كان لها أثر في إثارة غضب سلطان بجاية فقتله. البربر، 2، ص 419. من بين العلماء الذين ترجم لهم الغبريني، نجد شخصيات تحمل نسبة ترمز إلى القبائل البربرية لجهة بجاية (مثل الزواوي والصنهاجي). الغبريني، ص 141، 182، 192، إلخ.

وزادت بهم الدول تكرمة وعناية بذلك، واقتطعهم الكثير من تلك الأوطان"[301]. إنّ تفويض السلطة لهم على الضرائب هي مجازفة، ويضيف ابن خلدون أن القبيلة جمعت لنفسها الضرائب بعد الأزمة العبد الوادية[302].

يمكن للحكم أيضا في حالة الثورات إيجاد المساعدة الثمينة في شيوخ القبائل، كما نراه في بداية القرن الرابع عشر عندما تطورت حركة احتجاجية في جهة الزاب، حيث جمع مصلح ينحدر من قبيلة رياح، وهو سعادة، عدداً كبيراً من الأنصار لمعاقبة ممارسات قطاع الطرق من الرحل وطلب من العامل ابن مزني إلغاء الضرائب غير الشرعية والتوقف عن قمع الفلاحين، وقمَع شيوخ الدواودة المساندين للعامل الحفصي في هذا النزاع بما في ذلك -كما يقول لنا ابن خلدون- خواص رجال قبائلهم[303].

القوة العسكرية في خدمة الحكم

تظهر القبائل خصوصا في كتب التاريخ كمساعدة للحكم في الحروب[304]. إنّ تنظيم الجيش غير معروف في تفاصيله[305]. يتكون الجيش من الموحدين ويضاف إليهم مختلف الوحدات من بينها المليشيات المسيحية وأحيانا الجند الأندلسي[306]، وخصوصا الوحدات التي توفرها القبائل الحليفة للحكم. إنّ النواة الصلبة والدائمة للقوات العسكرية هي إذن محدودة العدد[307]. وعلى

(301) العبر، 4، ص 88، البربر، 1، ص 88 (ترجمة معدلة).

(302) البربر، 1، ص 89.

(303) نفسه، 1، ص 81-82.

(304) أنظر خصوصا: Achouri, *op. cit.*, p. 202 s., التي تتحدث عن "مرتزقة صعاب المراس" (*Ibid.*, p. 230).

(305) أنظر: Brunschvicg, *La Berbérie*, *op. cit.*, II, p. 75-82

(306) على الخصوص في وقت الحملة الصليبية في 1270. البربر، 2، ص 365.

(307) Brunschvig, *La Berbérie, op. cit.*, II, p. 78, 82.=

الخصوص تضييع العنصر الموحدي القوي في البداية لقوته تدريجيا ليصبح أقل عددا[308]. إنّ مشكل الجيش في قسم منه هو مالي لاستحالة صيانة قوة مرتزقة هامة، ومن هنا ضرورة اللجوء إلى العناصر القبلية: التي في غالب الأحيان توضح في الاتفاقيات المبرمة بين الحكم والقبائل بوجوب تقديم خدمة عسكرية توفرها هذه الأخيرة[309].

وتستعمل بانتظام الوحدات القبلية في الدفاع عن المجال وبالعكس في مباشرة الفتوحات[310]. وتستعمل أولا بطريقة دفاعية كحرس للثغور، كما هو حال عرب زغبة الذين عسكروا بين مجالات بجاية وتلمسان. وأيضا في وقت الحملة الصليبية في 1270 حين وصل أبو هلال، حاكم بجاية، إلى تونس لنجدتها بجيش هام يتكون من العرب الرحل وبربر قبائل سدويكش وولهاصة وهوارة[311]. وتستعمل القبائل على الخصوص في الهجمات العسكرية الكبرى، فعندما باشر أبو زكرياء فتح المغرب، بحث في بادئ الأمر على معاملة بنباهة زناتة المستقرين في المغرب الأوسط والذين يمثلون بالنسبة إليه سنداً ضرورياً[312]، ثم سار إلى تلمسان مع قبائل رياح

=يتحدث المريني بخصوص مقاومة الهجوم الإسباني عن "فرق نظامية" (لكن يستحيل معرفة العبارة التي كانت مستعملة باللغة العربية). المريني، ص 342.

(308) هذا ما يعتقده عبد الله العروي (Abdallah Laroui, *op. cit.*, p. 196) والذي يؤكد بأن جسم الجيش الموحدي لم يتم تجديده. ويعتقد برونشفيك (Brunschvicg, *La Béribérie, op. cit.*, II, p. 75) عكس ذلك ويرى أنهم بقوا نواة الجيش إلى غاية نهاية القرن الرابع عشر، وهذا لا يعني أن عددهم كان دائما هاما.

(309) هكذا كانت لواتة المستقرة في ريف بجاية التي وجب عليها تزويد جيش السلطان ببعض الجند. العبر، 4، ص 238، البربر، 1، ص 236.

(310) حول الرواية المفصلة لهذا الكفاح، أنظر: Marçais, *Les Arabes en Béribérie, op. cit.*, خصوصا ص 406-508، الذي يظهر الدور الذي لعبته القبائل العربية بإفريقية (قبائل جهة بجاية، وأيضا قبائل السهول التونسية) في هذه النزاعات.

(311) البربر، 2، ص 366.

(312) نفسه، 2، ص 315.

التي اعترفت بسلطته وكذلك عرب زغبة الذين يعسكرون على تخوم بلادهم في انتظار وصوله[313]. لكن طموحات العاهل الحفصي سارت في الاتجاه المعاكس، لأن العرب القادمين بالنساء والأطفال والقطعان ترددوا في الدفع بالحملة إلى أماكن بعيدة. وتستعمل القبائل في النهاية في الصراع الداخلي للحكم الحفصي، مساندة أحيانا عاهل بجاية ضد عاهل تونس. ففي 681/ 1282، نزع الأمير أبو فارس الحكم من أبي إسحاق وشرع في السير ضد المغتصب ابن أبي عمارة، مناديا لحلفائه رياح وسدويكش[314].

كانت القبائل إذن عنصرا جوهريا في سير الحكم، ولكن هذا ليس بظاهرة جديدة ولا يتطلب من طرفهم دوراً مربكاً، بل بالعكس. إنّ السياق العام للمغرب هو الذي لم يساهم في الاستقرار. إنّ فشل التجربة الموحدية ترك الحكومات التي أعقبتها دون إيديولوجية قادرة على إعطاء شرعية لها ولا حتى توطيد سيطرتهم بصلابة[315]. رغم مجهوداتهم، لم يتمكن الحفصيون أبدا من استغلال المذهب الموحدي كإسمنت ومصدر لشرعيتهم[316]. وترك غياب مشروع سياسي حقيقي الحقل حرا لمنافسات غير منتظمة[317]، بالنظر إلى عدم وجود قاعدة للتداول معترفا بها بوضوح. ومن هنا وجد كل واحد في القبائل مساعدة جاهزة لمساندة

(313) العبر، 4، ص 608، البربر، 2، ص 316.

(314) العبر، 2، ص 392.

(315) بداية من عهد عبد المؤمن، رفع خيار الوراثة السلالاتية على حساب النظام الموحدي الذي وضع أسسه ابن تومرت كل شرعية إيديولوجية للحكم، رغم مجهودات الكتاب المومنيين (خصوصا البيذق) من أجل اعتبار الخليفة المومني "خليفة للمهدي".

(316) تلح الكتابة التاريخية الرسمية الحفصية – وابن خلدون ممثلها بكيفية معينة- على دور الجد الأول أبي حفص لدى المهدي بن تومرت، وذلك بوضعه على مستوى نفس القدم مع الخليفة عبد المؤمن.

(317) Laroui, *op. cit.*, 205: "تأخذ العصبية دلالاتها في إطار شرعية متلاشية، فإذا كانت الشرعية قد أعطيت، فإن مختلف قوى الجماعة القبلية تحدد طموحها، وتضحي بقيم ، أو تتنافس معها في الأعمال الإيجابية التي تضيفها لنفسها".

طموحاته أو تقترح مساعدتها مقابل عطاء عادل. إنّ الرهان بين الطامحين الحفصيين أو بين القوى المغاربية يأتي ليمتزج بالنزاعات الداخلية للقبائل. ووجدت القبائل غالبا في هذا النظام السياسي المضطرب مادة لتصبح ضرورية للملوك ولتلعب دورا يربك ويضعف حكم الدولة. في جهة متصارع عليها كما هو حال جهة بجاية، إن عامل الاضطراب مهم على وجه الخصوص.

رهان مربك للقبائل

يظهر بوضوح أن التحكم واستعمال القبائل العربية من الحكومات القائمة منذ بدايات استقرارهم في المغرب لم يكن دون مخاطر. فقد فكر الزيريون على جعلهم مساعدين لهم في كفاحهم ضد بني عمومتهم الحماديين[318]. وبدأت هذه القبائل في أول الأمر باجتياح المجال الزيري وانتهزت بسرعة الخصام بين سلالاتي صنهاجة، ودفعت بالناصر الحمادي إلى القيام بغارات في المجال الزيري[319]، وبالتالي إذكاء نزاع كان موجودا أصلا.

بجاية، تونس والقبائل

وبعد ذلك، فبمجرد أن تستطيع القبائل لعب دور في المنافسة بين الأمراء الحفصيين في بجاية وتونس فإنها لا تتردد عن فعله، مقترحة مساعدتها وداعية البعض لغزو مجال الآخرين. وبتدخلها في هذا النزاع، تأمل القبائل في انتشال وكسب مجالات أو إضعاف عاهل قوي جدا.

استنجدت قبائل سليم المستقرة في سهول إفريقية منذ القرن الثالث عشر عدة مرات ببجاية للإطاحة بعاهل تونس، خصوصا في الحقبة الأولى لسلطة بجاية الذاتية. وفي عهد أبي زكرياء خصوصا، جاء شيوخ القبائل مرتين لدعوته لمباشرة

(318) البربر، 1، ص 34.
(319) نفسه، 2، ص 23.

فتح تونس. وأيضا في عام 708/ 1308 لجأ حمزة بن عمر (من الكعوب) مع شيخين من قبائل سليم إلى أبي البقاء[320] سلطان بجاية ودفعه إلى فتح تونس، وهذا ما حصل بتوحيد الدولة الحفصية في 710/ 1310[321]. وهنا ارتبط حمزة بخدمة سلطان تونس الجديد الذي أعطاه أولوية على بقية شيوخ العرب. وأثارت هذه الرعاية غيرة أخ حمزة الذي لجأ إلى أبي بكر ببجاية[322]. نرى إذن كيف تلعب بطون بني سليم دوراً مربكًا جدا خلال السنوات الصعبة لانفصال بجاية.

وتشارك القبائل المستقرة في مجال بجاية نفسه في هذا الرهان بالمساندة التي تقدمها للملوك المستقلين في المدينة. ومع بدايات الدواودة الذين طردهم سلطان تونس من سهول إفريقية، فقد تحالفوا مع الأمراء الحفصيين الثائرين[323]. ففي 666/ 1267 ساعدوا أبا إسحاق إبراهيم ضد أخيه الخليفة المستنصر، ولكن هزمهم هذا الأخير[324]. وفي وقت متأخر، سمح دعم هؤلاء الدواودة – وكذلك عرب زغبة في المغرب الأوسط وبربر سدويكش- لأبي زكرياء من الاستيلاء على بجاية وإعلان نفسه سلطانا في 683/ 1284[325].

وتسير الآلية نفسها بعد الأزمة المرينية. فبجاية استولى عليها السلطان الحفصي أبو إسحاق الذي جعلها مقرا لإقامته بينما أدار الحاجب ابن تافراجين

(320) عوضت عائلته المتمثلة في شخص أبي الليل عائلة شيخها على رأس الكعوب. ولكن بعد الثورة، اعتقل سلطان تونس المشايخ الرئيسيين، خصوصا أحمد بن أبي الليل. البربر، 1، ص 145-146.

(321) البربر، 1، ص 146-147.

(322) بمجرد أن أصبح سلطانا على تونس، وجب على أبي بكر مواجهة معارضة حمزة الذي ساند خلال سنوات طويلة الطامحين الحفصيين، طالبا المساعدة من العبد الواديين الذين أعطوه فرقة مسلحة. البربر، 1، ص 146-147.

(323) نفسه، 2، ص 356-357. "يطيب لهم في الثورة، وعندما لجأ إليهم أي أمير من العائلة المالكة، لم يقصروا أبدا في إعلانه قائدا للإمبراطورية".

(324) نفسه، 1، ص 74، 2، ص 341-342.

(325) نفسه، 2، ص 400.

تونس بمفرده. فقد حرر أبو سالم المريني أبا عبد الله، عامل بجاية السابق الذي وجد مساندة أولاد يحيى بن علي بن سباع، أحد بطون الدواودة، وتلقى أيضا نجدة من إحدى قبائل سدويكش وهي قبيلة أولاد محمد بن يوسف - لكنها لم تتأخر في التحالف مع المعسكر الخصم. فخلال خمس سنوات تم استقبال وحماية أبي عبد الله وأصحابه من طرف هؤلاء الدواودة[326]، الذين هاجموا بجاية كل صيف بعد عودتهم من الانتجاع زمن الشتاء. وتلقى أبو عبد الله في النهاية دعم سدويكش الرحل، وهذا ما سمح له بالاستيلاء في نهاية المطاف على المدينة بمساعدة سكانها[327].دون المبالغة في تقدير دور هذه القبائل في الصراع الدائر بين تونس وبجاية، يمكن القول ودون نقاش أن دعمها جعل الانقلابات ممكنة كما يسّرت الحملات العبد الوادية والمرينية ضد بجاية وإفريقية.

القبائل: عامل تفاقم للنزاعات الإقليمية

أثناء مغامرة بني غانية التحقت القبائل العربية وبعض القبائل البربرية بقوة بالمعسكر المعادي للحكم الموحدي، ما عدا زغبة التي بقيت وفية له[328]. ولكن أصبح تأثيرها ملموسا خصوصا في النصف الأول من القرن الرابع عشر خلال الهجمات العبد الوادية والمرينية ضد بجاية.

وعندما شرع أبو حمو سلطان تلمسان في أولى حملاته ضد بجاية، استجاب لعدة التماسات من بينها التماس أمير الدواودة عثمان بن سباء بن شبل كما ساعدته أيضا زغبة[329]. وفي 723/ 1323 ثم من جديد في 725/ 1325، دعاه

(326) أنزلهم في المسيلة وترك لهم كل المبالغ التي يجمعونها كمغرم". نفسه، 3، ص 69.

(327) نفسه، 3، ص 67-69.

(328) نفسه، 1، ص 47-48، 2، ص 89-95.

(329) البربر، 3، ص 394.

حمزة بن عمر، قائد قوات سليم الرحل بإفريقية للسير ضد الحفصيين[330]. وفي 729/ 1328 جاء حمزة بن عمر طالبا نجدة أبي تاشفين وهذا حسب سيناريو مماثل، حيث أعطاه فرقا من الجيش مع طامح حفصي جديد[331]. ولكن لم تكن هذه المساعدة كافية للاستيلاء على بجاية. وفي فترة متأخرة، ساعد أمراء الدواودة أبا حمو الثاني في فتوحاته، حيث "اعترفوا بسلطته في هذه الفترة، لأنهم كانوا غير نافذين جيدا لدى صاحب بجاية"[332].

لعبت القبائل نفس الدور أثناء الحملات المرينية. ففي عام 748/ 1347 طلب أبناء حمزة بن عمر من السلطان أبي الحسن دعمه "للثأر لأخيهم" كما يقول لنا ابن خلدون، فكان الجواب إيجابيا، وثارت كل قبائل إفريقية ضد الحفصيين، واقتدى بهم ابن مزني في الزاب وأغلب شيوخ الدواودة في جهة بجاية[333]. لكن بمجرد فتح تونس، تبنى أبو الحسن سياسة مراقبة دقيقة للقبائل العربية مما جعلها تثور ضده وتهزم جيوشه وتقضي على أحلامه الإمبراطورية[334]. وعندما استأنف ابنه أبو عنان هذه المشاريع لنفسه، وجب عليه كذلك مجابهة معارضة قبائل جهة بجاية، خصوصا صنهاجة، ونجح في إخضاعها في بداية الأمر[335]. وتتلخص المعارك التي تلت والتي أدت إلى طرد المرينيين، في الصراع بين هذه البطون نفسها المتحالفة سواء مع الحفصيين أم المرينيين[336].

(330) نفسه، 3، ص 404-405. أعطى لهم أبو حمو الفرق المقاتلة، وفي المرة الثانية أرسل معهم طامح حفصي وهو ابراهيم بن أبي بكر الشاهد.

(331) نفسه، 3، ص 406-407.

(332) البربر، 3، ص 455.

(333) نفسه، 3، ص 27-28.

(334) نفسه، 3، ص 31.

(335) نفسه، 3، ص 48-49.

(336) نفسه، 3، ص 50. في كل قبيلة من قبائل سدويكش والدواودة، نجد بطنًا متحالفاً مع أبي عنان وآخر مع الحفصيين.

إن القبائل هي عنصر قوة لحكم الدولة، ولكنها في ذات الوقت عامل مربكًا. وفي سياق النزاعات الإقليمية المستمرة وفي غياب أيديولوجية موحدة وشرعية موطدة جدا، ساندت القبائل العاهل الأكثر قوة أو بدلا منه الأكثر عطاء، وساهمت إذن في تضخيم النزاعات التي كانت موجودة من قبل.

الفقدان التدريجي للسلطة على جزء من المجال وإضعاف الدولة

تتنوع علاقة القوة بين الدولة والقبائل، وتتوقف على سلطة الأولى التي تعرف متغيرات، وبقوة الثانية التي هي أيضا متغيرة. لا يجب إذن أخذ القبائل ككتلة متشابهة وغير قابلة للتبدل. البعض منها هي قوى عسكرية حقيقية في بعض الوقت من تاريخها والبعض الآخر هي بطون أقل قوة. وتتمكن القوية منها تدريجيا من أن تصبح أكثر من ضرورية للعاهل وتتحصل منه على امتيازات كبيرة دائما على الرغم من السيطرة عليها في بعض الفترات.

إنّ النظام الأكثر سريانا من أجل إخضاع أو على الأقل جعل القبائل وفية هو مكافأتها بمنحها إقطاعا. من الصعب ترجمة هذه الكلمة[337] التي أعطت تأويلات مختلفة. ربطت في بداية الأمر بكلمة فيافٍ (un fief) في المعنى الأوروبي[338]، وهذا ما انتقده كلود كهان (Claude Cohen) بخصوص المشرق الإسلامي[339]، مشيرا على الخصوص إلى أنه إذا كان الإقطاع عرف تطورا بين القرن التاسع والقرن الثالث عشر، فإنه غالبا ما بقي امتيازاً ضريبياً غايته التعويض عن خدمة عسكرية غالبا ما تؤدَى للحكم[340]. إنّ الإقطاع هو إذن امتيازات

(337) يترجمها دوسلان بكلمة fief أو بكلمة apanage، لكن لا هذه ولا تلك مقنعة في الترجمتين.

(338) أنظر: Marçais, *Les Arabes en Béribérie*, *op. cit.*, p. 238 حيث يتحدث عن "مقطع (vassal)" و"اقطاعي (suzerain)"

(339) "هي ترجمة مستعارة من أنظمة أخرى مؤسساتية ومفاهيمية، التي ليس لها إلا نفس إيقاع مؤرخي الغرب في الخطأ، وبدورهم مؤرخو المشرق أيضا". Cl. Cahen, « Ikhtā‘ », *EI*², III, p. 1115.

(340) نفسه "إنه مقدر حسب ما يعادله من راتب على قاعدة قيمته الضريبية العقارية".

موارد ضريبية لأرض، بمعنى خراج مخفض أحيانا إلى العشر[341]. ويمارس الحكم في مصر الأيوبية على الأخص مراقبة ضيقة على هذه الامتيازات، المقدرة انطلاقا من سجل عقاري يتم تحيينه دوريا، وعلى الخدمات المقدمة من المقطع. وهذه الاقطاعات ليست وراثية ولا حتى ذات منفعة دائمة مدى الحياة، ولا يتمتع المقطع بأي استقلال في اقطاعه إذ لا يحق له حتى السكن فيه [342]. ويختلف هذا النظام بشكل ملموس عند الأتراك الذين أدخلوا عنصرًا قبليًا مهمًّا. حسب ممارسة معروفة في الإسلام، يمكن لمجال أن يقطع لقائد أو لعائلة حاكمة لقبيلة مستقرة في جهة هامشية. وأخذ السلاجقة بهذا النظام القديم وأعطوا لهذه الامتيازات اسم إقطاع[343] وتؤدي في نهاية فترة ضعف الدولة إلى تطوير الإمارات الصغيرة التي تأخذ كلمة إقطاع كاسم قانوني. ومن هنا لا يتعلق الأمر بامتيازات ضرائب فقط وإنما "ملكية عقارية وراثية يتمتع فيها المقطع العسكري بامتيازات حكومية مقابل خدمته"[344]. ويستطيع هذا الأخير بدوره توزيع اقطاعات على رجاله، بانيا بذلك مراتب شبيهة بالتي نجدها في الغرب المسيحي[345]. ومجملا يبقى هذا "النظام التام" للإقطاع في المشرق استثنائيا[346]. لقد قضت الموجات الدورية للغزوات على أرستقراطيات في طور النشأة وخصوصا على "الموارد التي يجلبها الأمراء من الاندفاع المتعلق بالاقتصاد التجاري وحفظ ملكية مهمة أعطت لهم عمليا دائما إمكانية شراء العبيد الجدد لحمل العبيد القدماء غير المنضبطين إلى جادة

(341) Cl. Cohen, « L’évolution de l’iqtā‘ du IXe au XIIIe siècle. Contribution à une histoire comparée des sociétés médiévales », *Annales ESC*, 8/1, 1953, rééd. *Les peuples musulmans dans l’histoire médiévale*, Damas, 1977, p. 238.

(342) *Ibid.*, p. 260 ; Cohen, « Iktā‘ », art. cité, p. 1117.

(343) Cahen, « L’évolution », art. cité, p. 253-254.

(344) *Ibid.*, p. 256.

(345) *Ibid.*, p. 255-257.

(346) العبارة هي لكهان. Cahen, « Ikhtā‘ », art. cité, p. 1117.

الصواب"[347]. لكن هل ما ينطبق على المشرق قابل للتطبيق في المغرب وفي جهة بجاية منه خصوصا؟

إنّ هدف الإقطاع هو تثبيت القبائل في مجال ما، ولكن أيضا وخصوصا مكافأة الخدمات التي قدمتها أو التي تستطيع تقديمها للحكم وتشجيعها على التصرف بموالاته [348]. ويمكن أن يتعلق الأمر بالمدن[349] أو جهات كاملة.

ليس من السهل وضع كرونولوجية لهذه الإقطاعات[350]. وتوجد واحدة من أقدم الإشارات عند عبد الواحد المراكشي بخصوص عبد المؤمن، حيث كتب أن العرب الهلالية سبق لهم وأن فرضوا على المنصور بن الناصر الحمادي وخلفائه ضريبة لا تطاق (نصف غلته من التمر، الحبوب، إلخ) من أجل السلم. ومن المحتمل أنّ عبد المؤمن أنهى هذه الممارسة المدمرة و"وأقطع جزءاً من البلاد[351]" لهم. ويتحدث أيضا ابن خلدون عن منح الموحدين[352] إقطاعات لبني يزيد، إحدى بطون زغبة، وأسكنوهم في حمزة "إحدى أوطان بلاد بجاية"، مجاورين بذلك جهات

(347) *Ibid.*

(348) بخصوص الكعوب الذين هم قبيلة مستقرة في سهول افريقية، كتب ابن خلدون بأنهم يتقاضون من حكومة تونس قسماً كبيراً من الضرائب ويحكمون جزءاً كبيراً أيضا من إفريقية، لأنه وجب عليها رؤيتهم بجانبها في صراعها ضد بجاية وقسنطينة. البربر، 3، ص 83. أحيانا، تعلق الأمر بالمصادقة على فعل قائم، بمعنى تقنين الـغصب.

(349) كمثال، البربر، 3، ص 31.

(350) غالبا ما تحدث عنها ابن خلدون في تقديمه العام للقبائل حيث لا تدقق المعالم الكرونولوجية. فضلا عن ذلك، ليس مستحيلا أن يكون للفعل نفسه (إقطاع أو أقطع) مدلولات مختلفة بحسب الحقب، وابن خلدون استعمله في المعنى السائد في القرن الرابع عشر.

(351) المعجب، النص ص 294، الترجمة ص 191-192.

(352) ترجم دوسلان الموحدين بالحفصيين، كما فعله بحق في بقية الكتاب. المشكل هو أن ابن خلدون لم يعط هنا أي معلم كرونولوجي، قائلا ببساطة أن هذه القبيلة كانت أول من تحصل من الدولة على "الانتفاع ببعض أجزاء المجال في داخل التل"، وهذا ما يوحي بتاريخ متأخر جدا. واختار جورج مارسي الفترة الموحدية بمعناها المحدد.. Marçais, *Les Arabes en Berbérie, op. cit.*, p. 247.

رياح والأثبج[353]. ولكن من الصعب معرفة حقيقة هذه الإقطاعيات الموحدية بدقة[354].وترك الحفصيون ظرفيا سياسة الإقطاع، ثم أعادوها بعد عهد المستنصر[355].، الذي كانت له سلطة وقوة كافية لتسيير حملة ضد العرب ودفع الدواودة للجوء إلى الغرب، والذين تمكنوا بعد ذلك من الرجوع إلى الممتلكات الحفصية والاستقرار بالزاب على وجه الخصوص. واعترف الحفصيون لهم بهذه الجهة التابعة لحاكم بجاية[356]. وفي نفس الفترة كذلك -حسب ابن خلدون-، اعترفت السلطة لمختلف بطون الدواودة بسهول[357] بجاية وقسنطينة. وتحصل أولاد سباع خصوصا على نواحي بجاية كإقطاع[358]. إذن في الربع الأخير من القرن الثالث عشر منح الحكم عدة إقطاعات ذات مغزى. وقد نسب الزركشي هذا الدور إلى أبي إسحاق (678/ 1279-681/ 1282) [359] ونسبه ابن خلدون إلى أبي حفص (683/ 1284-694/ 1294[360]). من المحتمل أن تكون الفترة المضطربة هي التي كانت وراء العودة إلى هذه السياسة[361]. بالعكس يروي ابن خلدون أن أبا إسحاق الثاني (751/ 1350-770/ 1368) وسّع من سياسة

(353) العبر، 4، ص 87، البربر، 1، ص 88.

(354) كتب ابن خلدون ببساطة "اقطعهم الموحدون في أرض حمزة من وطن بجاية". نفسه.

(355) في هذه الفترة استقر التوزيع الجغرافي للجماعات القبلية لفترة طويلة.

(356) البربر، 1، ص 74-75.

(357) هكذا ترجم أيضا دوسلان كلمة ضواحي التي تشير حرفيا إلى بلد مفتوح (Kazimir ski, *op. cit., s. v.*)، وبحث عن تمييزهم عن الجبال والتي قال أنها بقيت صعبة المنال على القبائل العربية، ولكن لا يتعلق الأمر دون شك بسهول حقيقية هي نادرة في الجهة. إن تحديد موقع هذا المجال يبقى غير مؤكد.

(358) العبر، 4، ص 75، البربر، 1، ص 76. ويوضح مع ذلك أنّ هذه الجهات صعبة المنال بالنسبة للعرب، وهؤلاء الأخيرين لا يجلبون منها شيئا كبيراً.

(359) الزركشي، النص ص 91، الترجمة ص 60، كتب أنه كان الأول الذي منح المدن للقبائل ولم يتحدث مع ذلك عن إقطاع، حتى وإن أشار إلى سند مكتوب للسلطان.

(360) العبر، 4، ص 696، البربر، 2، ص 396. "واقطع مغارم البلاد للعرب... ولم يكن لهم قبلها إقطاع".

(361) الوحيد الذي حاول هو أبو الحسن المريني، وهو الأمر الذي كان من أسباب فشله.

الإقطاعات الممنوحة للعرب[362]. ومع أبي العباس (772/ 1370-796/ 1393) فقط تأكدت سلطة الدولة من جديد في مواجهة العرب[363]. وفي الفترة التي أعقبتها، تصبح المعلومات نادرة، ولكن يظهر أن القبائل هي التي وجدت حريتها المطلقة والحكم الذي كانت تتمتع به فيما سبق. وتتوافق إذن فترة التوسع القصوى للإقطاع مع الأزمة التي مرت بها جهة بجاية خلال الربع الأخير من القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر.

من الصعب كذلك تحديد طبيعة الإقطاعات. إذ نحن مرتبطون أساسا بابن خلدون الذي يستعمل ربما هذه الكلمة حسب مدلول الفترة. ولكن ليس جلياً بأن هذا المعنى يكون أيضا قابل التوظيف لكل الفترات القديمة، خصوصا الموحدية منها. ولعدم توفر الأفضل، يجب علينا البحث عن الإحاطة بمعنى الكلمة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر.

إنّ طبيعة الامتيازات الضريبية للإقطاع غير قابلة للنقاش. فالضرائب القانونية التي تجمعها الدولة لبيت المال هي متروكة للرحل. وهكذا عندما استولى أبو زكرياء على الحكم في بجاية بمساعدة إحدى قبائل زغبة في 684/ 1285، منح لشيخها ضرائب مجال كبير واقع قرب الخميس على وادي بجاية[364].

أيضا فيما يخص الامتيازات التي منحها أبو إسحاق الثاني، كتب ابن خلدون أنه تنازل لمختلف البطون عن الضرائب (ألقاب الجباية) [365]. نظريا لا يتعلق الأمر إذن بالتنازل عن مجال أرضي. وتؤكد فتوى لابن عرفة المعاصرة

(362) البربر، 1، ص 150.

(363) البربر، 1، ص 150. "استعمل صرامة كبيرة ضد العرب، وعندما أرغمهم على الانحناء أمام أسلحته، وضع في النهاية حدا لتجاوزاتهم".

(364) البربر، 3، ص 367.

(365) العبر، 4، ص 156، البربر، 1، ص 150. أنظر أيضا العبر، 4، ص 694، البربر، 2، ص 396 (حيث يتحدث عن المغارم).

لنص ابن خلدون هذا الحد. إجابة على سؤال حول معرفة ما إذا كانت الأراضي التي تقطع للعرب هل تملك ملكا تاما، كانت إجابة ابن عرفة بالسلب، ملحا على الانتفاع البسيط الذي منح لهم[366]. غير أنّه في الواقع ورغم الحدود التي ثبتها القانون، فإنّ الإقطاع كان في غالب الأمر أكثر اتساعا وامتداداً على طول السيطرة في مجال أو مدن. ففي النص الذي يذكر فيه الإقطاعيات التي منحها أبو إسحاق للعرب، وضّح ابن خلدون أنـه فضلا عن الضرائب، أقطعت لهم الدولة الأمصار والممتلكات (مختص الملك) [367]. أيضا عندما يتحدث عن وضعية الدواودة في جنوب مقاطعة بجاية، قال أن الحفصيين منحوهم إقطاعًا "واقطعوهم ما غلبوا عليه من البلاد من جبل أوراس والزاب والأمصار التي بالبسيط الغربي من جبل أوراس والمسمى عندهم بالحضنة وهي نقاوس ومقرة والمسيلة"، وأضاف "واختص إقطاع المسيلة بسباع بن شبل "[368]. وفي هذه الحالة فإنّ الإقطاع لا يقتصر على الموارد الضريبية، والدولة تترك أيضا قسماً من سلطتها السياسية للمُقطع لهم. ومارس كذلك الدواودة حكما على السكان المستقرين في مجالات قسنطينة وبجاية[369]. وأوضح ابن خلدون في مكان آخر اعتراف كل بطون رياح بسلطة الدواودة وأضاف: و"منهم من يمسكون بالأراضي ويتوجهون إليهم إذا أرادوا الحصول على المزيد"[370]. وتوحي هذه الملاحظة أنه باستطاعة الدواودة بدورهم منح الأراضي وتظهر إذن تركيبة هرمية تسحب من الحكم المركزي أي تحكم في أراضي الإقطاع. ويؤول هذا الحكم السياسي إلى شيخ القبيلة الذي يستلم إذن

---

(366) تحليل الفتوى عند: Lagardère, *Histoire et société, op. cit.*, p. 323

(367) العبر، 4، ص 156، البربر، 1، ص 150.

(368) العبر، 4، ص 74، البربر، 1، ص 75.

(369) "وتغلبوا على بسائط بجاية وقسنطينة وعلى سكانها من سدويكش وعياض". العبر، 4، ص 74، البربر، 1، ص 76.

(370) البربر، 1، ص 77.

سلطة على جماعات أخرى بالجهة[371]. وترجع بعد ذلك إعادة توزيع أرباح الإقطاع في القبيلة إلى شيخها. وأخيرا إنّ الإقطاع هو على الأقل وراثي[372] ويمكن أن يباع[373]. فهل وجد نوع من الاعتراف بالعاهل عندما ينتقل الإقطاع إلى وارث جديد، أو عندما يكون تغيير قد طرأ على رأس الدولة؟ يؤكد ذلك جورج مارسي (Georges Marçais) دون أن يقدم الحجة[374]، لكن عندما يستقبل العاهل الجديد بيعة الرعية، لا نرى -إلا نادرا - التحاق شيوخ القبائل بمراسيم المبايعة[375].

يجب دون شك التفريق بهذا الخصوص حسب الفترات والجهات. فيمنح الملوك الأكثر أو أقل قوة على حد سواء إقطاعات بأحجام مختلفة. وأيضا يؤدي البعد عن بجاية إلى كثرة تنازلات الحكم عن اختصاصاته، ويظهر الجدول الذي وضعه ابن خلدون لزمنه أن الإقطاع لا يقتصر على منحة ضريبية تحت رقابة الحكم، كما في مصر الأيوبية. وتقترب الوضعية من تلك التي عرفها الشرق الأوسط تحت حكم آخر السلاجقة، مع تفويض حقيقي لها من قبل السلطة.

هناك إذن دون نقاش إضعاف لسلطة الدولة في المناطق البعيدة عن بجاية، خصوصا في الجنوب. وتؤدي الإقطاعيات إلى تقليص كبير في موارد الدولة التي كانت تأتي في الفترة الحفصية أولا من أملاك الدولة أو أملاك السلطان

(371) في العبارة التي يشير فيها إلى إقطاعات الدواودة، يظهر ابن خلدون بأن مدينة المسيلة أقطعت لسباع بن شبل ومدينة مقرة لأحمد بن عمر بن محمد. البربر، 1، ص 75. أنظر أيضا: البربر، 3، ص 367. (إقطاع مجال لشيخ قبيلة زغبة الذي ساعد أبا زكرياء على فتح بجاية".

(372) المسيلة "تشكل دائما قسماً لأحفاد سباع بن شبل". البربر، 1، ص 75.

(373) البربر، 1، ص 77. قبيلة من رياح باعت إقطاعًا لها في الزاب الغربي لقبيلة أخرى بعدما أصبحت في حاجة، وهذا دون تدخل العاهل على ما يبدو.

(374) Marçais, *Les Arabes en Berbérie*, *op. cit.*, p. 253.

(375) مع ذلك يعتبر روبار برونشفيك أن اعتراف القبائل كان أقل بحثا. Brunschvig, *La Berbérie*, *op. cit.*, II, p. 19.

الخاصة[376]، كما أن اغتصاب القبائل لمواردها أنقصها بكيفية محسوسة من قوتها. إن تمويل بيت المال كان يتم خصوصا من الضرائب التي كانت تجمع من الجماعات الريفية أو القبائل الخاضعة للحكم، بصفة مجملة دون شك، حيث يكلف شيوخ هذه الجماعات بتوزيعها[377]. وتسجل طبيعيا هذه الضرائب الريفية في الدواوين. ونجهل كُنه الضرائب العقارية التي أجراها الموحدون والتي يتحدث عنها صاحب روض القرطاس[378]، ولكن هل من المفروض أن نرى إحصاء كل أراضي المغرب التي سيطر عليها الموحدون[379]. يذكر ابن خلدون عقلنة جباية ضرائب البربر في عهد السلطان الحفصي الأول، وذلك بخلق ديوان خاص سجلت به القبائل وهو ديوان الرحل (عمل العمود) [380]. وبقي أمام العاهل مشكل قدرته على تغطية هذه الضرائب فعليا بالنظر لدور القبائل المتحالفة التي تقبضـها من القبائل الأقل قوة وتقدمها للحكم. من جهة أخرى عندما يكون العاهل قويا، يباشر شخصيا جباية الضرائب في البلاد الخلفية، مؤكدا هنا على سيادته[381]. لكن الموارد

(376) *Ibid.*, II, p. 69.

(377) *Ibid.*, II, p. 69-70.

(378) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ترجمة بوميي:

trad. A. Baumier, *Rawd al-K’irtās. Histoire des souverains du Maghreb et annales de la ville de Fès*, 1860, Reed. Rabat, 1999, p. 167 ; H. Ferhat, « La fiscalité au Maghreb du XIe au XIIIe siècle : enjeux et conflits », *Le Maghreb aux XIIe et XIIIe siècles : les siècles de la foi*, Casablanca, 1993, p. 140.

(379) Brunschvicg, *La Béribérie, op. cit.*, I, p. 6.

(380) العبر، 4، ص 606، البربر، 2، ص 313. حرفيا العمود هو العصا الذي يستعمل لمساندة الخيمة.

(381) هو نظام المحلة المعروف جيدا في الفترة الحديثة. أنظر:

J. Dakhlia, « Dans la mouvance du prince : la symbolique du pouvoir itinérant au Maghreb », *Annales ESC*, 1988, 3, p. 735-760 ; A. Hénia, « Les notables locaux dans la Tunisie de l’intérieur aux XVIIIe et XIXe siècles. Point d’ancrage de l’articulation des communautés tribales et villageoises avec le régime beylical », *Villes et territoires au Maghreb. Itinéraire d’une recherche. Cahiers de l’IRMC*, 1, Tunis, 2000, p. 89-92.=

الضريبية للأراضي الممنوحة كإقطاع المعنى السالف الذكر لا ترجع إلى الحكم، وهنا نفهم فضل النصيحة التي أعطاها الخليفة الفاطمي المعز إلى مساعده بلقين عندما أمره بعدم إعفاء البدو من ثقل الضرائب[382]. بعد الخروج من الأزمة المرينية الطويلة، قدم ابن خلدون هذه المعاينة المحررة من الأوهام للمقاطعات الحفصية الغربية: "في هذا العهد، انحصر نطاق الأوطان وتقلصت المغارم ولا يطلب مغارم العرب الذين يقومون بحرث أراضي التل، وهذا ما أدى إلى نقصان الموارد"[383].

وجد الحكم نفسه في وضعية صعبة ما دام أنه لم يستطيع حل مشكل تمويل الجيش، فإنه يخضع للعرب الرحل ولهذا يمنح لهم إقطاعات كبيرة والتي تؤدي دائما إلى خفض موارد بيت مال الدولة. إن هذه الحلقة المفسدة لا ينجح في كسرها إلا الملوك الحازمين مثل أبي العباس أو خلفائه، بعد إبعاد الخطرين العبد الوادي والمريني. وأجبرت هذه التبعية القصوى اتجاه الجهات الداخلية للدولة إلى الالتفات إلى مصادر أخرى من المداخيل الممكنة، أقل تبعية للداخل.

في النهاية ماذا يمكن اعتقاده بخصوص الآثار السياسية لوصول الهلاليين إلى بجاية وجهتها؟ في غياب الوثائق الواضحة، خصوصا المعطيات الرقمية، من

=لا نعرف جيدا سير هذه المحلة في الفترات القديمة، لكن نعرف أنها كانت موجودة. على سبيل المثال: البربر، 2، ص 445. عندما كان حاجبا لبجاية، قاد ابن خلدون حملة عسكرية مدفوعا بنفاد بيت المال: "خرجت بنفسي إلى قبائل البربر بالجبال المتنعين من المغارم منذ سنين فدخلت بلادهم واستبحت حماهم وأخذت رهنهم على الطاعة حتى استوفيت منهم الجباية". ابن خلدون، الرحلة، ترجمة عبد السلام الشدادي. *Le Voyage d'Occident, op. cit.*, p. 98، أنظر: Brunschvicg, *La Berbérie, op. cit.*, II, p. 70.

(382) البربر، 2، ص 10.

(383) العبر، 4، ص 900-901، البربر، 3، ص 114 (ترجمة معدلة). عندما يروي خضوع أمير بجاية أبي عبد الله لأبي عنان في 753/ 1352، كتب ابن خلدون بكيفية ذات دلالة: "وشكا إليه ما يلقاه من زبون الجند والعرب وقلة الجباية وخرج له عن ثغر بجاية". ابن خلدون، الرحلة، ترجمة عبد السلام الشدادي. *Le Voyage d'Occident, op. cit.*, p. 95.

الصعب تقدير أثرها الحقيقي. لقد أدى السياق السياسي إلى حدة أكبر للآثار المربكة لهذه الهجرة، حتى إذا انتهت بعد ذلك إلى توازن. لكن إذا كانت أزمة الدولة الدائمة لا يمكن أن تحفظ دون نقاش، فإن القبائل دون شك هي عنصر إضعاف للحكم وفوضى في البلاد.

في السياق ذاته ندرك أن التطور الملحوظ مختلف تماما عن الذي عرفته أوروبا المسيحية في نفس الفترة. إنّ المقارنة هي دائما تمرين صعب كما أشار إليه كلود كهان (Claude Cohen) فيما يخص الإقطاع، لاستحالة وضع ما يعادله بدقة، خصوصا فيما يتعلق بالمؤسسات. غير أن بعض النقاط المشتركة مع وضعية أوروبا الإقطاعية هي دليل ساطع: أولا الإقطاعات التي يمنحها الحكم للقبائل هي بحجم أكبر بكثير من التي وصفها كلود كهان في حالة مصر الأيوبية. إنّ تحكم الدولة الحقيقي في الحالة المصرية هو تقريبا منعدم في الحالة المغاربية، باستثناء بعض فترات قوة الحكم فيها. وبصفة إجمالية فقد أعاد النظام الأميري تنظيم النظام الإقطاعي في أوروبا بداية من القرنين الحادي عشر والثاني عشر، واضعا نفسه على رأسه وعاملا على التحكم فيه واستعماله، بينما لم يتمكن إلا بصعوبة كبيرة حكم الدولة بإفريقية على تجاوز القبائل. ولم ينجح السلاطين الحفصيون في فرض نظامهم على القبائل إلا في نهاية القرن الرابع عشر، دون أن نعلم جيدا هل كانت صفة هذا الإمساك دائمة أم لا. وفي إعادة هيكلة النظام الإقطاعي، استفاد النظام الأميري من دعم الكنيسة التي بإنشائها لـ"سلم الإله" وشجبها لكبار قطاع الطرق (بواسطة الحرمان خصوصا)، فقد كافحت ضد عنف الأسياد. وتدخلت السلطات الدينية أيضا في إفريقية لوضع حد لعنف الرحل، كما توضحه بجلاء فتوى لابن عرفة (ت 803/ 1401). فإجابة على سؤال طرح حول أضرار العرب في المغرب الأوسط، خصوصا أضرار رياح وبني عامر، فتأسف بأن هؤلاء البدو يتجاوزن دون عقاب، ناهبين، وقاتلين وغاصبين دون أن يكون للحكام القدرة على منعهم. ولاحظ من جهة أخرى أن السلطان يعتني بهم ويعطي لهم الهبات ويمنح لهم

الامتيازات الضريبية ويترك لهم مجالات لا تتمتع فيها القوافل بوجودهم بأي أمن. أمام هذه الوضعية، أصدر فتوى بالحرب المقدسة (الجهاد) ضد قطاع الطرق، تصل إلى غاية ترخيص إنهاء جرحاهم بالقتل[384]. إذا كانت الجهود الموحدة للكنيسة والحكومات الأميرية في أوروبا أدت إلى إعادة ترتيب النظام الإقطاعي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، فإن إفريقية في نهاية القرن الرابع عشر وجب عليها حل مشكل عصيان القبائل وأضرارها دون التوصل إلى ذلك بشكل كامل.

دون المبالغة في حجم الفوضى في إفريقية ولا في إعادة النظام في أوروبا، لا يمكن لنا إلا أن نكون مصدومين بهذه التطورات المختلفة. إنّ التحكم الصعب في القبائل كان له انعكاسات على قوة ميناء بجاية، المتعلق في جزء منه بديناميكية بلاده الخلفية، وعلى العلاقات مع الموانئ الأوروبية المعتمدة على المجال الحيوي للموانئ الأكثر ديناميكية واستقرارا. هناك على الخصوص أثران هامان على المدينة ومينائها: أدت من ناحية إلى الفوضى في الداخل ومن ناحية ثانية ضرورة حصول الدولة على موارد ضريبية جديدة.

إنّ دور القبائل في التاريخ السياسي البجائي ليس بمتشابه خلال عصرنا ويتنوع أيضا حسب قوة مختلف الجماعات القبلية وبعدها عن مراكز الحكم. يجب إذن محاولة وضع تحقيب زمني للعلاقات بين هذه القبائل والحكم. إنّ الرهان عليها كان مربكا جدا في الفترة الحمادية رغم محاولات الأمراء لاستعمالها ضد الزيريين. وفرض الموحدون النظام بعد معركة سطيف- حتى وإن كنا نرى بالمناسبة انشقاق بعض القبائل (خصوصا في فترة مغامرة بني غانية)- وعملوا على نقل قبائل بأكملها بالقوة. وبقي تحكم الحكم حازما في بداية الفترة الحفصية. ولكن في نهاية القرن الثالث عشر، سمح إضعاف سلطان تونس لبعض الكونفدراليات القبلية بتغذية وإذكاء النزاعات القبلية أو السلالاتية، وهذا ما يترجم تطور الحقوق

(384) فتوى من تحليل لغاردار: Lagardère, *Histoire et société*, *op. cit.*, p. 35, 137.

الممنوحة تحت شكل الإقطاع إلى شيوخ القبائل. واستمرت هذه الوضعية إلى غاية توطيد سلطة سلطان تونس في نهاية القرن الرابع عشر، الذي يبدو أنه ترافق مع رجوع القبائل الهامشية إلى الطاعة.

*****

لقد أصبحت بجاية بسرعة مدينة كبيرة في الساحل المغاربي. وهيئتها هي هيئة مدينة حصينة، ومآلها الدفاع عن المجال الحفصي على الثغور الغربية. ولكن أيضا هي مدينة مأهولة ونشطة والتي تمتد إلى خارج أسوارها، خصوصا في حوض الصومام.

بفضل موضعها في الفضاء الحفصي واشعاعها، فهي على الخصوص عاصمة لمقاطعة شاسعة، وتمتد منطقة تأثيرها في بداية الفترة الحفصية من الجزائر إلى قسنطينة، ومن وارجلان إلى البحر. ولكن في القرن الرابع عشر، فقدت التحكم في مقاطعة قسنطينة، وفي القرن الموالي، تقلصت من جديد ومالت نحو الغرب في حين أنّ المناطق الجنوبية انحرفت لتنظر من الآن فصاعدا نحو الشرق.

لقد لاقى الأمراء الحفصيون في بجاية عدة صعوبات للتحكم الجيد في هذا الجمع وواجهوا قوى هامشية هامة. إنّ رفض المدن أو الجهات البعيدة لسلطة بجاية بالتوازي أحيانا مع عصيان القبائل المتنقلة، قد سبب اضطرابات مستمرة في البلاد الخلفية، مما أثر في الإنتاج والمبادلات الداخلية. وترجم نقصان التحكم في المجال بالصعوبات المالية، بسبب قلة الجباية في المناطق البعيدة.

تتّحد هذه العوامل لإعطاء أهمية خاصة للمنطقة الساحلية، الأفضل حماية وتحكما. أبدا دون الانقطاع عن البلاد الخلفية التي تزودها بثرواتها، بجاية هي إذن مدفوعة للتفتح أكثر على البحر. ولكن هذا الانفتاح لم يكن ممكنا إلا بنشاط الجهات الداخلية التي أصبحت منفذها البحري الرئيس.

الفصل الثالث
المبادلات والفضاءات الاقتصادية الداخلية

إذا كان المجال الذي مارست من خلاله بجاية سيطرتها السياسية يطرح مشاكل بسبب خاصيته المتغيرة، فإننا نعرفه ولو نسبيا من خلال كتب التاريخ. بالمقابل، من الصعب جدا تحديد الفضاء الاقتصادي، الذي يشير إلى الجهات التي مسّها الإشعاع التجاري للمدينة والتي لا تشمل فقط البلاد الخلفية القريبة من الميناء، وإنما أيضا المناطق المرتبطة به بواسطة المسالك البرية. فهو على الأقل ناتج عن قرارات سياسية قبل أن يكون من نتائج تيارات التبادل الأقل أو الأكثر إشعاعا، حيث يمكن أن تتغيّر أو تنكمش أو تختفي. تصرّف الحكم في الفضاء الاقتصادي عن طريق التحكم في الطرق والمنافذ التجارية وجمع الضرائب، حتى وإن كان من الصعب جدا دلالتها على "سياسة اقتصادية" في البلاد الخلفية بكل ما تحمله من معنى. إذا ما وجدت هذه السياسة فإنها اقتصرت على ضمان أمن الطرق وعلى قمع قطاع الطرق بصفة عامة[1]. وفي النهاية، يجب التوضيح أنّ الحيز التجاري البجائي نحو الداخل امتدّ أكثر أو أقل حسب المنتجات التي ينتقل بعضها على مسافات قليلة (المواد القابلة للإتلاف أو ذات السعر الضعيف) في حين أن مواد أخرى استعملت في التجارة البعيدة جدا، متجاوزة حيّز التأثير السياسي البجائي (حالة التجارة الصحراوية على وجه الخصوص).

لتعريف هذا الفضاء الاقتصادي والتجاري، من الأفضل الانطلاق من الطرق التي تقطع هذا الفضاء وتحدد المناطق المتصلة بالميناء، والقابلة لتشكيل مجال حيويته بناء على ذلك. كما توفر "بلاد بجاية" الشروط الطبيعية والإنسانية المتنوعة والملائمة نسبيا. ويظهر من هنا الميناء كمنفذ حيوي لمنتجات متنوعة جدا والتي يضاف إليها الموارد القادمة من منطقة ما وراء الصحراء.

(1) على الأقل، ليس لدينا أثر لمبادرة ذات نظام اقتصادي في أرياف أو مدن البلاد الخلفية.

I- بجاية: منفذ لشبكة من الطرق البرية

"ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط وعين بني حماد والسفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا...وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق."[2] هكذا يشير الإدريسي في منتصف القرن الثاني عشر إلى مكانة بجاية ضمن شبكات الطرق والتجارة، حيث وضع صورة مفصلة للمسالك التي يمكنها أن تصل إلى الميناء في نهاية الفترة الحمادية، وشبكة الطرقات المغاربية بصفة عامة. بالنسبة للفترات المتأخرة، للأسف ليس بحوزتنا وصف دقيق والمعلومات تصبح مجزئة أكثر. من السذاجة الاعتقاد بعدم إطراء تعديلات على المسالك مع مرور الوقت[3]، لكن المعطيات التي قدّمها الإدريسي يمكنها على الأقل تشكيل نقطة انطلاق[4].

قبل وضع خريطة الطرق، ليس من غير المهم النظر في نص الإدريسي: ما هي المدن التي يضعها هذا المؤلف على علاقة ببجاية: فيقول لنا: "ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد"[5]. ويستعمل أيضا هذه الكلمة فيما يخص فاس (بالنسبة للمغرب الغربي) [6] والمهدية (بالنسبة لإفريقية) [7]. وفي تقسيم المغرب إلى ثلاث جهات، يحدد إذن لبجاية حيّزا من التأثير والذي يعرفه من خلال سلسلة من المدن الدائرة حول القطب:

---

(2) الإدريسي، النص ص 116، الترجمة ص 166 (معدلة).

(3) حتى وإن كانت قساوة التضاريس الوعرة (وأيضا المناخ مع كساء الثلوج لبعض الجهات)، قد أدى إلى ثبات نوع ما في المسالك.

(4) أنظر حول هذه الطرق، الدراسة المنقّبة:

M. Forstner, *Das Wegenetz des Zentralen Maghreb in islamischer Zeit. Ein Vergleich mit dem antiken Wegenetz*, Wiesbaden, 1979,

التي تستند في قسم كبير منها إلى مسالك الإدريسي.

(5) الإدريسي، النص ص 116، الترجمة ص 166.

(6) نفسه، النص ص 98، الترجمة ص 153.

(7) نفسه، النص ص 145، الترجمة ص 186.

إيكجان[8] (خربة الكلاب- الخربة)، وبلزمة، وسطيف، وباغاية، وقلعة بشر (جنوب طولقة)، وتيفاش، وقالمة، وتبسة، ودور مدين (موقع غير محدد[9])، والقصرين، وطبنة[10]. إنّ هذه القائمة هي متنافرة ومفاجئة، لأن الإدريسي وضع فيها المدن الهامة والبعيدة مثل باغاية والقرى القريبة ولكنها صغيرة مثل إيكجان وبلزمة. لكن هذا الجمع لا يمكنه تحديد فضاء إشعاع المدينة. يجب إتمام هذه القائمة بالمدن والقرى التي يضعها الإدريسي على علاقة مباشرة مع بجاية[11]. وتهيكل المدن -الهامة - التي يمكن أن نصنفها بالأقطاب الثانوية - حقيقة الفضاء: فبالإضافة إلى المدن التي ذكرناها سابقا، يمكن إضافة دلس[12]، وقلعة بني حماد[13]، وقسنطينة[14]، وجيجل[15]، وبونة[16]، والأربس[17]، ومجانة[18]. وتوضح الخريطة المحصل عليها حزمتين: من جهة وأخرى لجبل أوراس. الجهة الأولى في اتجاه الشرق والثانية في اتجاه الجنوب. ويفاجئنا في المقابل غياب روابط مباشرة مع مدن الغرب، ما عدا دلس التي أشار إليها لأنها تشكل المرحلة الأولى الهامة على الطريق

---

(8) إجان في طبعة حاج صادق. وتشغل اليوم مقبرة تعرف باسم سيدي علي البصري في ذات المكان. A. Amara, *Pouvoir, économie et société dans le Maghreb hammadide (395/1004 - 547/1152)*, thèse de l'Université Paris 1, sous la direction de Fr. Micheau, Paris, 2002, p. 424.

(9) يتحدث محمد الطالبي بمناسبة معركة بين الأغالبة والفاطميين في 296/ 908 عن موضع يسمى دار مدين الذي ربما يقع بين سبيطلة والقصرين. M. Talbi, *L'Émirat aghlabide, 184-296/800-909*, Paris, 1966, p. 674.

(10) الإدريسي، النص ص 116، الترجمة ص 166.

(11) إما بوصف الطريق الذي يربطهما أو ببساطة بالإشارة للمسافة بين المدينتين.

(12) الإدريسي ص 165.

(13) نفسه، ص 172.

(14) نفسه، ص 172.

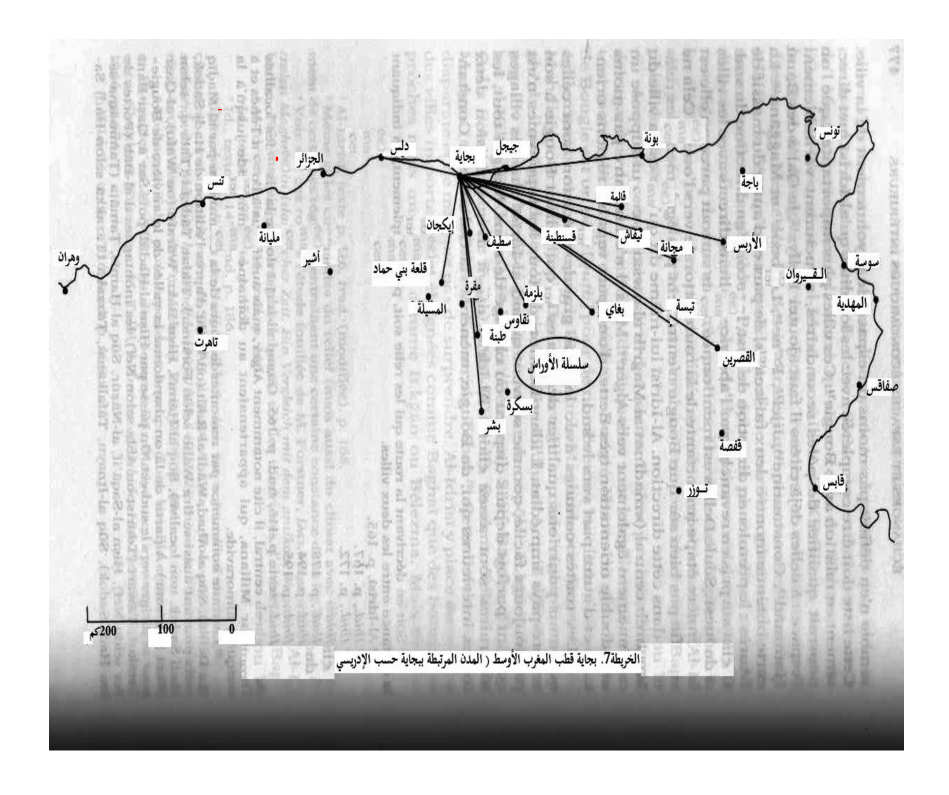
(15) نفسه، ص 172.

(16) نفسه، ص 178.

(17) نفسه، ص 194.

(18) نفسه، ص 195.

الساحلي نحو الغرب. وهذا ما يشير إلى عدم ربط بجاية علاقات متساوية في هذا الاتجاه. والإدريسي نفسه يقول بأنها مدينة المغرب الأوسط، وهذا ما يفترض إشعاع أيضا نحو مدينة الجزائر[19]. ولكن هذا لا يظهر ازدواجية التوجه بصفة خالصة، من جهة نحو الجهات الشرقية ومن جهة أخرى نحو الجنوب.



الخريطة7. بجاية قطب المغرب الأوسط (المدن المرتبطة ببجاية حسب الإدريسي

إنّ الطرق المعروفة بدقة كبيرة هي التي يمكن أن ننعتها بالمحلية وهي التي تربط بجاية مباشرة ببلادها الخلفية. ليس من السهل دائما معرفة المواقع، خصوصا وأن الإدريسي يذكر القرى التي اختفت أحيانا أو التي غيّرت من أسمائها. على الرغم من كل هذا، فإنّ المسالك واضحة بكفاية. ويصف الإدريسي بدقة طريقين

(19) نفسه، النص ص 116، الترجمة ص 165. عندما يعطي الإدريسي قائمة قرى ومدن المغرب الأوسط، يشير خصوصا إلى الجزائر، وأيضا في الغرب تنس، وفي الداخل مليانة، التي كانت تابعة للممتلكات الحمادية إلى غاية الفتح المرابطي.

داخليين انطلاقا من بجاية ووصولا إلى القلعة[20] وقسنطينة[21]. ويعطي لنا أيضا مراحل الطريق الساحلي للسفر عن طريق البر والبحر[22]. وتواجدت مسالك أخرى، ولكنها غير معروفة جيدا. ويشير الإدريسي ببساطة إلى المسافة التي تفصل بجاية عن بعض المدن أو القرى مثل سطيف وبلزمة، وهو ما يوحي بوجود علاقات، دون إعطاء توضيح للمسالك. وأخيرا بالقرب من بجاية[23]، سمحت الأسواق الأسبوعية أو الدائمة- التي غالبا ما يصعب تحديد موقعها- بمرور منتجات الأرياف وهو من دون شك بفضل شبكة ثانوية[24]: سوق الخميس[25]،

(20) يبدأ الطريق بصعود مجرى الصومام عن طريق المضيق، وسوق الأحد، ووادي الرهت (أو الوهت في طبعة حاج صادق ويمكن أيضا قراءته وهب حسب فرستنر (Forstner) ، وتكلات، وتادرفت (تادرقست حسب حاج صادق، غير محددة الموقع)، وسوق الخميس، وحصن بكر، ووارفو (أو وافو)، والقصر (بني منصور). وانطلاقا من هنا، نترك حوض "وادي بجاية" للاتجاه نحو الجنوب الشرقي، ونمّر بحصن الحديد، ثم شرقا، قصر بني تراكش، تاورت (تاورست أو أبلة حسب ناف Nef)، وجبال الباب (أبواب الحديد حسب ناف)، وحصن السقائف، والناظور، وسوق الخميس، وطماطة (طمامة حسب حاج صادق)، وسوق الاثنين، وتافلكانت، وتازكّا (تازّكّا حسب حاج صادق)، وقصر عطية. الإدريسي، النص ص 118-120، الترجمة ص 167-168. أنظر: Forstner, *Das Wegenetz des Zentralen Maghreb, op. cit.*, p. 220-221

(21) من الصعب تحديد مواقع الأماكن الواقعة على المسلك قسنطينة- بجاية: ينطلق الطريق نحو الشمال الغربي في اتجاه جيجل، ومن هنا يساير الساحل حتى بجاية. الإدريسي، الترجمة ص 172-173. حول هذا الطريق، أنظر Forstner, *Das Wegenetz des Zentralen Maghreb, op. cit.*, p. 148-153. هناك طريق آخر يمر بسطيف ومن هنا يصل إلى قسنطينة. الإدريسي، الترجمة ص 174.

(22) نفسه، ص 177-178.

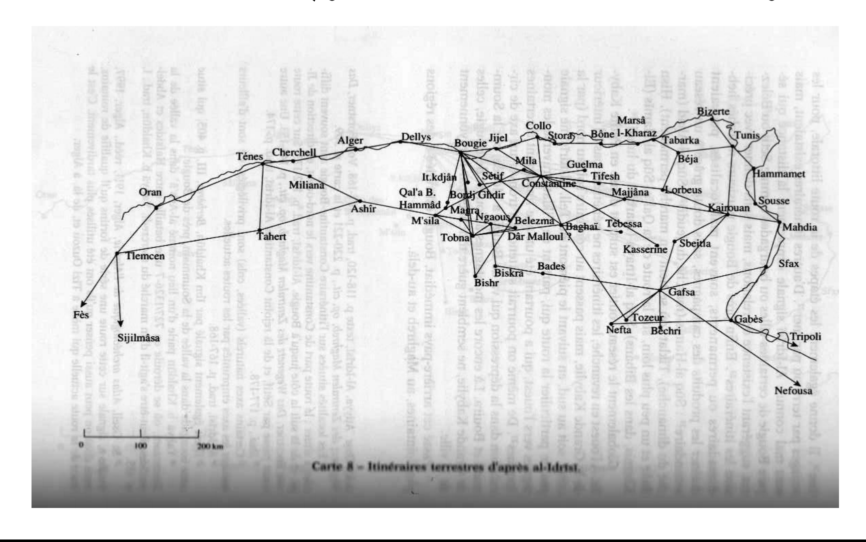
(23) بعض المحاور الرئيسية الطبيعية (أحواض، مضيقات) هي مفضلة. إنها غالبا هذه المحاور التي تسلكها الطرق الحالية.

(24) الإدريسي، الترجمة ص 167-168.

(25) أشار إليه أيضا ابن خلدون، البربر، 3، ص 405، الذي يحدد هذه القرية في حوض الصومام قرب بجاية.

وسوق الأحد، وتكلات (حيث انعقد سوق دائم)، وحصن بكر وبعيدا أكثر على طريق القلعة، سوق الخميس (في جبال البيبان)، وسوق الاثنين[26].

وإجمالا، فإنّ شبكة الطرقات هي كثيفة في بلاد القبائل الصغرى. في الغرب بالمقابل، تنفذ المسالك إلى داخل بلاد القبائل الكبرى، ولكنها تمر سواء شمالا عن طريق الساحل أو جنوبا بتتبع سلسلة التل. ولا يشير الإدريسي خصوصا إلى الطريق الذي ينطلق من تكلات ويمر بالجبال نحو الغرب، رغم كونه أحد المحاور المهمة في بعض الفترات[27]. وأيضا كان بإمكاننا اعتقاد وجود محور للتنقل في المنخفض الذي يمتد من بجاية إلى المدية عن طريق الصومام والبويرة. هنا أيضا لا يظهر مساس إشعاع المدينة الجبال الواقعة غرب بجاية، أي جبال القبائل الكبرى.باجتياز البلاد الخلفية القريبة، ارتبطت بجاية بالجهات البعيدة والمغرب وما بعده.



Carte 8 – Itinéraires terrestres d'après al-Idrîsî.

(26) يتحدث يحي بن خلدون عن مكان يسمى بالأربعاء في حوض الصومام حيث جرت معركة بين الحفصيين والعبد الواديين في 727/ 1326. من المحتمل أنه يتعلق بسوق الأربعاء. يحي بن خلدون، الترجمة، 1، ص 185.

(27) St. Gsell, *Atlas archéologique de l'Algérie*, Alger, 1911, Reed., Alger, 1997, feuille 6.

يشير إلى حصون على هذا الطريق حيث يعتبرها رومانية، لكن يمكن الاعتقاد باستعمالها لاحقا. هو مسلك الطريق الحالي الذي يصل إلى تيزي وزو ومن هناك إلى الجزائر.

هناك طريقان يربطان بجاية بالمغرب الأوسط والمغرب الغربي، من ناحية الغرب. الأول وهو القديم، يمر بالجنوب[28] وهو طريق العواصم القديمة[29]، الذي يربط القلعة والمسيلة وأشير وتاهرت للوصول إلى تلمسان[30] والمغرب الأقصى ومن المحتمل إلى ما بعد مضيق جبل طارق، بمعنى الأندلس. وينطلق من هذا المحور على مستوى أشير، طريق ثانوي يصعد شمالا نحو مليانة وحوض الشلف[31]. ويتطلب هذا المسلك الجنوبي إذن الوصول أولا إلى جهة القلعة. ويربط الطريق الثاني عن طريق الساحل مختلف الموانئ إلى غاية سبتة[32].

في اتجاه الشرق، للمسافر إمكانية سلك الطريق الساحلي أو سلك الطريق الداخلي. كان الطريق الساحلي امتدادا للطريق المؤدي من سبتة إلى بجاية والذي يصل إلى غاية تونس، (موانئ الساحل) ومن هنا إلى غاية طرابلس ومصر[33]. إنّ شبكة الطرق الداخلية هي أكثر كثافة من الغرب وهذا ما يسهل العلاقات مع سهول إفريقية وكل المدن النشطة في الجهة: الموانئ طبعا (المهدية، وتونس، وسوسة...)، ولكن أيضا المراكز الداخلية كالقيروان والقصرين والأربس)، وفي الجنوب (توزر وقفصة).

(28) الإدريسي، الترجمة ص 161-162.

(29) حول شبكات الطرق قبل تأسيس بجاية، أنظر:

Cl. Vanacker, « Géographie économique de l'Afrique du Nord selon les auteurs arabes, du milieu du IXe siècle au milieu du XIIe siècle », *Annales ESC*, 1973, 28/3, p. 659-680 ; Amara, *Pouvoir*, *op. cit.*, p. 410-420 ; M. Lombard, *L'Islam dans sa première grandeur (VIIIe-XIe siècle)*, Paris, 1971, p. 83-88

يتحدث هذا الأخير عن "طريق الهضاب العليا".

(30) يصف الإدريسي تلمسان بمفتاح المغرب الغربي ومكان العبور الإجباري لكل من يريد الذهاب إلى الغرب. الإدريسي، الترجمة ص 157.

(31) نفسه، ص 159-160.

(32) نفسه، ص 164-165.

(33) نفسه، ص 177-178، 206-208، 210.

وأخيرا نحو الجنوب، تنفتح الطرق التي تعطي منفذا إلى الصحراء وإفريقيا السوداء، ويقول الإدريسي أن المسيلة تبعد عن وارجلان بـ 12 يومًا، لكن دون توضيح المسلك[34]، والذي يمكن توضيحه ببساطة لأن العوائق الطبيعية (التضاريس، الماء) لا تترك تقريبا الخيار. يجب أولا المرور عن طريق الزاب وبسكرة من أجل الوصول بعد ذلك إلى وارجلان[35]. وتغلق الجبال العالية للأطلس الصحراوي المنفذ إلى الصحراء (جبال الزاب والأوراس)، ويصبح هنا الممر الأكثر سهولة عبر بسكرة، ثم يمر الطريق بعد ذلك بسلسلة الحضنة (المسيلة، مقرة، طبنة) ثم في رواق بسكرة، وبعد هذه الأخيرة ليس هناك مشكل للتضاريس الوعرة والماء. ونحو الجنوب تلتزم القوافل بسلك الطريق المؤدي إلى وارجلان عن طريق تقورت. ويتوفر هذا الطريق على سلسلة من الواحات المزوّدة بمياه الآبار الجارية وخصوصا مياه وادي ريغ الجوفية[36]. ومن وارجلان، توصل الطرق عبر الصحراء إلى بلاد السودان.

تضع طرق الإدريسي إذن بجاية كمنفذ لشبكة ممتدة عبر اتجاهات مختلفة. لكن وجود طريق ما لا يعني بالضرورة أنّ لها نفس الأهمية- الاقتصادية منها على وجه الخصوص. يجب البحث في فهم كيف تطورت بعد القرن الثاني عشر الميلادي. وهذه المسالك ليست ثابتة وحياتها مرتبطة بالمبادلات الفعلية (من الرجال والسلع والأفكار)، وبالتالي بأكثر أو بأقل دينامكية للأقطاب المهيكلة لهذه الشبكات. وترتبط التجارة أيضا بالإمكانية الفعلية للتنقل وإذن بالأمن الذي يوفر للمسافر.

---

(34) نفسه، ص 198.

(35) نفسه، ص 169-170.

(36) É. Reclus, *Nouvelle géographie universelle. La terre et les hommes*. XI, *L'Afrique septentrionale, deuxième partie, Tripolitaine, Tunisie, Algérie, Maroc, Sahara*, Paris, 1886, p. 561-562 (carte des oasis) et p. 351 (carte des puits artésiens des Zibans et de l'oued Righ).

ومن هذا، يمكننا الاستنجاد بكتب الجغرافيـة الوصـفية المتـأخرة كــ كتـاب الاستبصار، وكتاب الزهري، وكتاب الحميري وكتاب ياقوت. لكن هؤلاء المؤلفين لديهم اتجاه للنقل عن بعضهم البعض وعليه من الصعب تحديد تاريخ معلوماتهم. من المهم إذن تتبع مسالك المسافرين الذين اجتازوا المغرب[37]. إنّ النظـرة ليسـت خاطئة دون شك عندما تظهر هذه النصوص –الرحلات- رجالاً في طلـب العلـم ومن أجل غاية تجارية[38]. وتشير هذه المسالك جيـدا إلى المحـاور الكـبرى للتنقـل. فالعبدري الذي انطلق في 688/ 1289 مرّ بتلمسان، وبجاية، وبـني أورار، وميلـة، وقسنطينة، وبونة وباجة، وتونس، والقيروان، وقـابس، وطـرابلس ثـم وصـل إلى الأسكندرية، وفي طريق العودة ساير الساحل من صفاقص إلى تونس ثم وصل إلى بجايـة عـن طريـق باجـة وقسـنطينة وتـابع سـيره عـبر مليانـة ووهـران وفـاس ومكناس[39]. وفي القرن الموالي، سافر ابن بطوطة في 725/ 1324 من طنجة ومرّ بتلمسان ووهران وفاس والجزائر ومتيجة وبجاية وقسنطينة وبونة وتونس ثم سـاير الساحل حتى الإسكندرية[40]. وفي نفـس الفـترة، انطـلاق البلـوي مـن المريـة في 736/ 1335 ومرّ بتلمسان والجزائـر وبجايـة وقسـنطينة وبونـة قبـل الوصـول إلى تونس حيث ركب البحر من المهدية إلى الإسكندرية، وفي العودة ركب البحر مـن تونس إلى المرية[41]. وأخيرا فإنّ عبد الباسط بن خليل خـرج في 868/ 1464 مـن

(37) أنظر:

S. M’Gharbi, *Les voyageurs de l’Occident musulman du XIIe au XIVe siècle*, Tunis, 1996, p. 37-44.

(38) هذا السعي الثنائي ليس فيه تناقض.

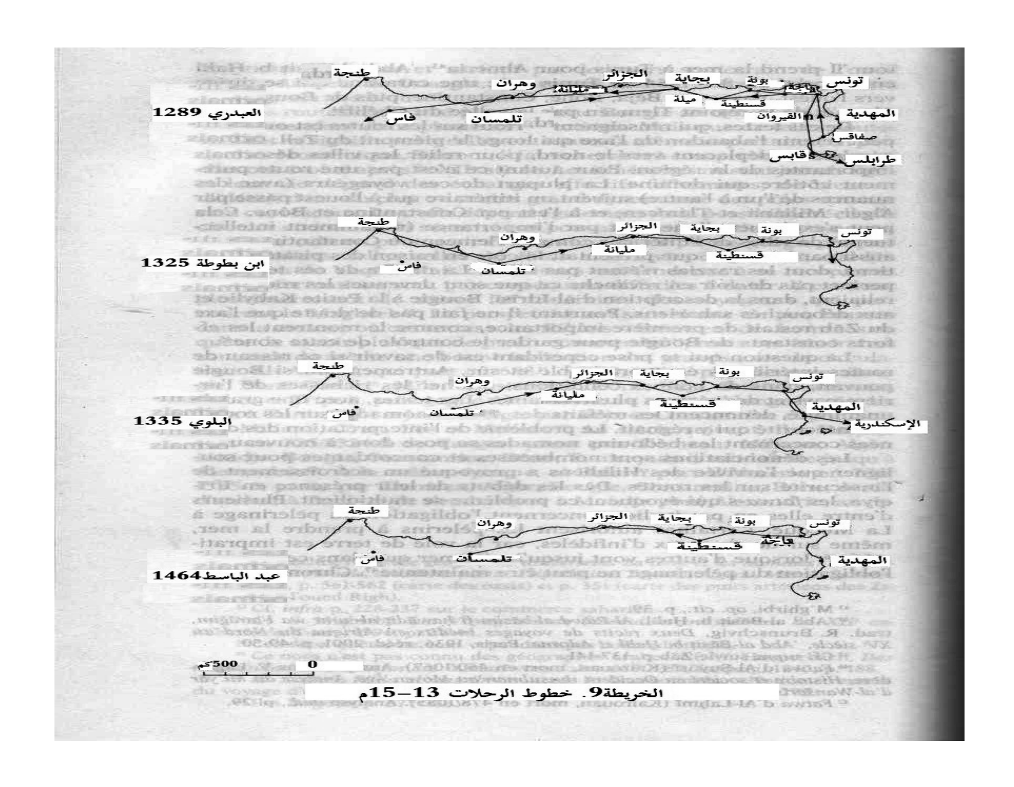
(39) العبدري، الرحلة المغاربية، ترجمة:

A. Charbonneau, « Notice et extrait du voyage d’el-Abdère », *Journal asiatique*, 1854, 5e série, IV, p. 150-175.

(40) ابن بطوطة، ص 377-383.

(41) M’ghirbi, *op. cit.*, p. 39.

تونس مع قافلة متجهة إلى الغرب حيث مرّت بباجة وبونة وقسنطينة ثم من بجاية إلى الجزائر ومن هنا وصلت إلى تلمسان عبر حوض الشلف[42].



الخريطة9. خطوط الرحلات 13–15م

من خلال هذه النصوص التي تقدم لنا معلومات خصوصا عن الطرق شرق-غرب، نستطيع تسجيل التخلي عن المحور الذي يساير سلسلة التل، لأن المسالك انتقلت نحو الشمال لربط مدن أصبحت هامة في الجهة. وبهذا لم يسيطر الطريق الساحلي كلية، لمسايرة أغلب المسافرين (بفوارق من واحد إلى آخر) المسلك الذي مرّ في الغرب بالجزائر ومليانة وتلمسان، وفي الشرق عن طريق

(42) عبد الباسط بن خليل، الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، ترجمة:

R. Brunschvicg, *Deux récits de voyages inédits en Afrique du Nord au XVe siècle, ʻAbd al-Bāsit b. Halīl et Adorne*, Paris, 1936, Reed. 2001, p. 49-50.

قسنطينة وبونة. ويمكن تفسيره بأهمية (خصوصا فكريا) مدن الداخل مثل تلمسان أو قسنطينة من جهة، وأيضا نظرا للخطر الذي تعرّض له الساحل بسبب القراصنة المسيحيين، حيث لم تكن الغارات قليلة. لا تسمح طبيعة هذه النصوص من رؤية ما آلت إليه الطرق التي ربطت، في وصف الإدريسي، بجاية ببلاد القبائل الصغرى وبالمنافذ الصحراوية. رغم بقاء محور الزاب دون شك على أهميته الأولى كما تظهره مجهودات بجاية المستمرة للحفاظ على تحكمها في هذه المنطقة.

إنّ المشكلة التي تطرح نفسها هو معرفة ما إذا كانت هذه الشبكة من الطرق الداخلية صالحة ومضمونة للتنقل، أو بتعبير آخر هل استطاعت بجاية في أحسن ظروفها جلب ثروات البلاد الخلفية والجهات الجد بعيدة؟ والنصوص، بإجماع كبير، تندد بضرر العرب الرحل على الطرق وبسيادة انعدام الأمن. وتطرح تأويل المعطيات المتعلقة بالبدو الرحل إشكالا من جديد.

تعددت وتوافقت الإشارات الدالة على إحداث وصول الهلاليين لزيادة انتشار اللاأمن حول الطرقات. ومنذ بدايات حضورهم في إفريقية، تضاعفت الفتاوى التي أشارت إلى هذا المشكل، وعدد منها يتعلق خصوصا بإجبارية الحج إلى مكة. وسمحت البعض منها للحجاج بركوب البحر، حتى على متن مراكب الكفار، لأن الطريق البري لم يعد صالحا[43]. وذهبت فتاوى أخرى في هذا السياق إلى القول بإسقاط إجبارية الحج[44]. من الناحية الكرونولوجية، ظهرت هذه الفتاوى بوضوح بعد وصول العرب الهلاليين إلى إفريقية. ويربط ابن خلدون، عدة قرون بعد ذلك، بين وصول هذه الهجرات الجديدة وتنامي لا أمن الطرقات:

(43) فتوى السيوري (القيروان، توفي في 460/ 1067). تحليل في:

V. Lagardère, *Histoire et société en Occident musulman au Moyen Âge. Analyse du Mi'yār d'al-Wanšarīsī*, Madrid, 1995, p. 27.

(44) فتوى اللخمي (القيروان، توفي في 478/ 1085). تحليل، نفسه، ص 29.

"فخربوا إفريقية وأفسدوا السبيل ونهبوا المسافرين"[45] وأصبحت حماية المسافرين أحد أولويات الحكم، كما تبيّنه نصائح السلطان أبي زكرياء لابنه وولي عهده أبي يحي زكرياء، حاكم بجاية: أوصاه على شكل نصيحة الحكم الراشد، بالقتال دفاعا عن المسلمين والحرص على ضمان أمن الطرقات[46]. ولم تتوقف حالة انعدام الأمن هذه بالقدر اللازم، لأنّ الفتاوى المتأخرة كما هو حال الرحلات أيضا، تشكل نفس القضايا ضد نهب القوافل. فالبلوي يصف الطريق بين هنين وتونس على أنه غير مضمون جيدا وقافلته جرّدت بشكل كامل بين بونة والعاصمة الحفصية[47]. ونفس الشيء يسرده ابن بطوطة: قبل سلكه للطريق من بجاية باتجاه قسنطينة نصحه أحد الأشخاص بالتخلص من أمتعته الثقيلة: "وتصحبنا خفيفا، فإننا نجد السير خوف غارة العرب في الطريق[48] "

وتؤكد فتوى تونسية للعمراني، متأخرة عن عهد أبي عنان (منتصف القرن الرابع عشر)، أن "أغلب أسيادنا وأسيادهم وأسياد هؤلاء، عدة علماء وزهاد لم يؤدوا الحج". وأضاف: "فقط الذين يؤدون اليوم هم الذين لا يملكون شيئا ويتسولون على الطريق"[49].

---

(45) البربر، 1، ص 37.

(46) نفسه، 2، ص 330-331.

(47) M. Kably, *Société et religion au Maroc à la fin du « Moyen Âge » (XIVe-XVe siècle)*, Paris, 1986, p. 138.

(48) ابن بطوطة، ص 378. ويؤكد جون بونسي (Jean Poncet) (بالنسبة للقرن الحادي عشر) أن العرب لم يكونوا شيئا في زيادة حدة انعدام الأمن وأن سبب الاضطراب يعود بالأساس إلى الجيوش في الحروب أو إلى الصعاليك الذين رمتهم الأزمة على الطرق. J. Poncet, « Le mythe de la catastrophe hilalienne », *Annales, ESC*, 22/5, 1967, p. 1114, 1117 لا يمكننا نفي مساهمة الجيوش في الحرب التي اجتازت مجال بجاية- خصوصا في النصف الأول من القرن الرابع عشر- في انعدام الأمن. بالمقابل، يبدو الاحتمال ضئيلًا بخصوص استطاعة العناصر الهامشية الانصراف إلى أعمال ما في المجالات التي تتحكم فيها القبائل العربية.

(49) تحليل في: Lagardère, *Histoire et société, op. cit.*, p. 38

دون شك، لا بد من التدرج حسب الجهات. فقرب بجاية، لا تقترب العرب بسبب التضاريس الوعرة الصعبة، ولكن أيضا بكل تأكيد لقربها من الحكم والجيش. وفي الجهات البعيدة جدا بالمقابل، كانت حالة انعدام الأمن كبيرة، كما هو الحال في الجنوب وفي الصحراء الليبية[50]. وفي هذه الحالة الأخيرة، كانت النتائج هامة، لأنه أصبح من الصعب ربط إفريقية بالمشرق، وخصوصا بمصر عن طريق البر، وهذا ما أدى إلى التوجه للنقل البحري.

تجمع إذن النصوص على اتهام العرب الرحل بأضرار على الطرق. على الرغم من الخطأ التخيل إحداث عصابات من اللصوص غير المنتظمين شللا لكل إمكانية للتجارة[51]، لأنّ هذا لم يكن من مصلحة البدو. بالعكس، هؤلاء الأخيرين كانوا بحاجة لهذا التنقل لممارسة الاقتطاع. واستمر التجار في التنقل منتظمين في قوافل قوية ومحمية برجال مسلحين. إنّ فتوى العمراني المشار إليها سابقا تتحدث عن قوافل الحجيج التي تفوق 20000 رجل وفارس وتضيف بأن الأمن كان مضمونا من رجل يسمى بالغفير، الذي له أجرة من السلطان والحجاج وآخرين[52]. وفي الغالب تضمن القبائل المحلية نفسها أمن القوافل مقابل أجر. إن الهدف هو إذن أكثر من الاقتطاع مقابل ثمن حمايتها (أو عدم الاعتداء عليها).

(50) لاحظ الإدريسي في منتصف القرن الثاني عشر على الطريق بين قابس وطرابلس "وكل هذه المنازل التي ذكرناها في هذا الطريق خلاء بلقع قد أتت العرب على عمارتها وطمست آثارها وأخربت عشارها وأفنت خيراتها فليس بها الآن أنيس قاطن ولا حليف ساكن وهي مستباحة لقبيلة من العرب تسمى مرداس ورياح". الإدريسي، الترجمة ص 198. في نهاية فترتنا، يؤكد ليون الإفريقي أن عرب صحراء ليبيا هم فقراء جدا، إذن ينهبون وأن كل أجنبي يسقط بين أيديهم يسلب أولا ثم يباع للصقليين، مضيفا: "هناك مائة سنة لم تمر أي قافلة بالساحل الذي يحيط بالصحراء حيث يعيش هؤلاء الناس. وإذا ما أرادت قافلة المرور بالبلاد، تمر في الداخل، على مسافة تقدر بحوالي 500 ميلا من البحر". Léon l'Africain, p. 43

(51) M. Brett, « Ifrīqiya as a Market for Saharan Trade from the Tenth to the Twelfth Century A.D. », *Journal of African History*, 10/3, 1969, p. 351.

(52) تحليل في: Lagardère, *Histoire et société*, *op. cit*., p. 38.

وتقول فتوى لقاسم العقباني التلمساني (ت 830/ 1427) بإمكانية تعويض التجار لحارس القافلة المبالغ التي يدفعها للصوص مقابل السماح بمرور القافلة[53].

لم تشكل إذن القبائل العربية كبحا مطلقا لتنقل الرجال والثروات، ولكن كل ما في الأمر أنها زادت من تكاليف النقل، فهل كانت أكثر ثقلا من مختلف الحقوق التي فرضتها الدولة أو المدن على التجارة الداخلية؟ فمن المحتمل من جهة أخرى، رغم أن النصوص لا تتحدث عنها تقريبا، ممارسة العرب الرحل أنفسهم للتجارة الكبيرة، على الأقل في الجهات الجنوبية، وفي الصحراء طبعا.

في آخر المطاف، أحدث وصول العرب البدو دون نقاش تغيرات واضطرابات على الطرق. ولكن بمرور الصدمة الأولى في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، نشأ توازن جديد. عانت بعض الطرق بصفة مزمنة، كالطريق الرابط بين إفريقية ومصر. وفي مقاطعة بجاية، يجب أن يكون التفسير بيقظة أكبر. لم تمس البلاد الخلفية القريبة من بجاية بهذا المشكل، وفي الجهات الهامشية، كان لحضور العرب الرحل أثره في زيادة تكاليف النقل البري. وفي المقابل، ليس من البديهي إحداث نقص ذي معنى لهذه التجارة وانغلاق اقتصادي متجدد.

على الرغم من الإرغامات التي وضعت بثقلها على المبادلات الداخلية: الشروط الطبيعية (التضاريس الوعرة، المناخ) أو البشرية (انعدام الأمن)، فإنّ هذه المسالك رسمت جيدا فضاء الإشعاع الاقتصادي والتجاري البجائي وتسمح على وجه الخصوص بتحديد مكانة الميناء مقارنة بشبكة الطرق البرية الداخلية. ونظرت بجاية بصفة واضحة إلى الشرق، وبلاد القبائل الصغرى والجهات الجنوبية للزاب التي تؤدي إلى طرق الصحراء. وفي المقابل، فإنّ مسلكا واحدا ساحليا احتفظ بأهمية حقيقية نحو الغرب بداية من القرن الثاني عشر في حين وجهت الجهات الداخلية أنظارها نحو بجاية.

(53) *Ibid.*, p. 145.

II ـ الوسط الطبيعي والحضور البشري

بفضل شبكة الطرقات، تمكنت بجاية من جلب قسم من منتجات البلاد الخلفية. بالطبع، لا تجب المبالغة في تأثير هذه التجارة الداخلية على نشاط الميناء. فقد وصل فقط قسم من هذه المنتجات إلى الميناء، ومنه جزء صغير جدا يكون موضوعا للتجارة البحرية. ولتوضيح كل مؤهلات المدينة، يجب إعطاء فكرة عن ما يمكن "لبلاد بجاية" إنتاجه وأي سوق استهلاكي يمكن إنشاؤه. ولهذا فإن تقديم البلاد ورجالها ضروري ليس من أجل البحث عن محدد جغرافي ما[(54)]، ولكن ببساطة لتثمين الطاقات الاقتصادية –الفلاحية خصوصا- للجهة. لا تقدم هذه الأخيرة ميزة خاصة على المستوى المتوسطي، وتوفر إذن الخصائص المنتشرة، مقتربة دون شك مما تظهره البلاد اليوم: أهمية الجبال والانتقال التدريجي من المناخ المتوسطي إلى المناخ شبه الصحراوي ثم الصحراوي. وتطرح بالمقابل مسألة الطاقة الديمغرافية مشاكل أكبر بالنسبة للمؤرخ.

1) بلاد الجبال

تغطي منطقة تأثير بجاية بلاد القبائل الصغرى على وجه الخصوص حيث يمتد الجبل بعمق نحو الجنوب على مسافة تقدر بحوالي 200 كلم. وهذه الوضعية ليست قليلة في العالم المتوسطي حيث تكون الجهات الجبلية هي الأكثر ديناميكية

(54) يصوّر الجغرافيين الاستعماريين جيدا – أحيانا حتى إلى درجة الكاريكاتير- المعادلة: "الوسط الطبيعي= نمط حياة= درجة التحضر". أنظر:

A. Bernard, *Géographie universelle*, dir. P. Vidal de la Blache et L. Gallois, XI, *Afrique septentrionale et occidentale*, 1re partie, *Généralités et Afrique du Nord*, 1937, p. 17 :

"إلى جانب التأثيرات العرقية التي هي مجهولة، يجب وضع الشروط الجغرافية التي هي واضحة وهي تحدد نوع حياة الأفارقة وبأوسع مقياس درجة تحضرهم".

والأكثر سكانا[55]. ومن الممكن كذلك أنها عرفت في العصر الوسيط ازدهارا خاصا[56].

يقسم الجغرافيون البلاد تقليديا إلى ثلاثة نطاقات متوازية من الشمال إلى الجنوب: الأطلس التلي، الهضاب العليا والأطلس الصحراوي[57].

يتطابق الأطلس التلي مع بلاد القبائل الصغرى وبلاد القبائل الكبرى ويتشكل من عدة سلاسل جبلية متوازية أو مائلة مثل جرجرة في الغرب أو جبل بابور في الشرق[58]. إن تربة التل تعتبر فقيرة عموما[59]، حيث يمكن تواجد أراضي قمحية أو رعوية على المنحدرات المحمية من التآكل أو على الهضاب الصغيرة. وفي مكان آخر تصبح التربة متحجرة و قليلة الزراعة[60]. إنه إذن وسط هش يتطلب عناية منتظمة بنسيجها النباتي (خصوصا الغابات) [61]. والسهول المهمة الوحيدة هي بعيدة عن بجاية: متيجة في الغرب وسهل بونة في الشرق. لكن بجاية هي منفذ

(55) F. Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, 1re édition, Paris, 1949, 4e éd. corrigée, Paris, 1979, p. 27. J. Despois, *L'Afrique du Nord*, Paris, 1958, p. 256 :
"لا يجب النسيان أن الجبال في إفريقيا الشمالية هي الوسط البيو-جغرافي الملائم".

(56) J. R. Mc Neill, *The Mountains of the Mediterranean World*, Cambridge, 1992, p. 86.
عموما، عرفت جبال المغرب منذ زمن طويل كثافة كبيرة أعلى من التي نجدها في السهول لأسباب أمنية، وأيضا لأنها من الناحية الزراعية، هذه الأراضي ليست سيئة بالضرورة نظرا للتقنيات المستعملة فيها.

(57) Bernard, *op. cit.*, p. 33 ; É.-F. Gautier, « Le cadre géographique de l'histoire en Algérie », *Histoire et historiens de l'Algérie*, Alger, 1930, p. 19. إليزي روكلي (Élisée Reclus) تشبه تضاريس الجزائر بـ"توالي الأمواج في شاطئ". Reclus, *op. cit.*, p. 303

(58) Desbois, *L'Afrique du Nord*, *op. cit.*, p. 46.

(59) Bernard, *op. cit.*, p. 56.

(60) Desbois, *L'Afrique du Nord*, *op. cit.*, p. 73-74.

(61) *Ibid.*, p. 80.
نستطيع الافتراض بتهيئة قسم من الانحدارات إلى شرفات خالصة لاستقبال الزراعات.

الحوض، الأكثر أهمية في الجهة، وهو حوض الصومام[62]، الذي يمتد من الغـرب إلى الشرق ويفصل بلاد القبائل الصغرى عن بلاد القبائل الكـبرى. ويتمـدد هـذا الحوض في الغرب عن طريق أخدود كبير، يتعمق إلى غايـة البرواقيـة (في جنـوب مدينة الجزائر) [63]. هو المحور الرئيسي للاتصالات السهلة في الجهة التي هي مغلقة جدا بصفة شاملة[64]. وهو حوض واسع نسبيا[65] وغني بالطمي بفضل عدة وديان وشعاب قادمة من الجبال المجاورة حيث يستقبل مياهها.

وتمتد الهضاب العليا جنوب التل حيث تشغلها الأحـواض المغلقـة. وأهـم حوض هو شط الحضنة (على ارتفاع 400م) الذي يستقبل قسمًا من المياه القادمة من شمال سلسلة البيبان والهضاب العليا القسنطينية[66]. وتسمح الوديان بجزر من الزراعة الكثيفة مثل ما هو الحال في المسيلة ونقاوس ومقـرة[67]، لكنهـا خصوصـا

(62) الوادي لا يأخذ هذا الاسم إلا بداية من تازمالت عندما يستقبل رافد وادي بوسلام. في الأعلى، يأخذ اسم وادي الساحل. ويسمى غالبا في نصوص العصر الوسيط بالوادي الكبير، أو أحيانا بوادي بجاية.

(63) Despois, *L'Afrique du Nord*, *op. cit.*, p. 49.

عند اجتياز منطقة المدية، نجد في الغرب محورًا كبيرًا للتنقل مع حوض الشلف الذي يجري في الاتجاه المعاكس ويصب في البحر المتوسط على مستوى مستغانم.

(64) أنظر:

J. Fontaine, *Villages kabyles et nouveau réseau urbain en Algérie. Le cas de la région de Bejaïa*, Tours, 1983, p. 9-10.

(65) حوالي 1،5 كلم عرضا قبل بجاية بقليل.

(66) Despois, *L'Afrique du Nord*, *op. cit.*, p. 65.

(67) J. Despois, « La bordure saharienne de l'Algérie orientale », *RA*, 86, 1942, p. 199.

أشارت إليزي ركلي في وقتها (جغرافيتها لإفريقية الشمالية تعود إلى 1886) إلى رؤية آثار قنوات السدود في الحضنة والتي سمحت بالري.Reclus, *op. cit.*, p. 550

ذات وجهة للصب في هذا الحوض المغلق والمالح[68]. على الرغم من هـذه الجـزر المزروعة، فإن الحضنة تسجل بداية مناطق السهوب[69].

وأخيرا، إلى الجنوب أكثر، يشكل الزاب والأوراس على الأخـص حـاجزا جبليا أحيانا مرتفعا تخترقه فتحة بسكرة.

2) من البحر إلى الصحراء: أقاليم مناخية متباينة

تتميز منطقة القبائل بمناخ جبلي متوسطي، وتساقط قوي وأهمية الثلج في الشتاء في الأقسام الأكثر ارتفاعا[70]. والخصائص الرئيسية هي التي نعرفها في بقيـة حوض البحر المتوسط: صيف حار وجـاف، وتـوزع الأمطـار علـى بقيـة السـنة. ويسمح حضور الجبال استثنائيا بكمية كافية من تساقط الأمطار، وهذا مـا يجعلـها من الجهات الأكثر سقيا في المغرب، مما يجعلـها تسـتفيد مـن مصـادر مائيـة هامـة. ولكن الميزة الأكثر- فضلا عن الأرقام الشـاملة لتسـاقط الأمطـار- هـي تذبـذب الأمطار خلال السنة، وخصوصـا مـن سـنة إلى أخـرى[71]. كمـا في بقيـة البلـدان المتوسطية، خصوصا على الضفة الإفريقية، ليس استثنائيا مواجهة سنوات الجفاف حيث نجد أحيانـا بعـض آثارهـا في النصـوص. فمـن بـين كرامـات الحرالـي (ت 638/ 1240) التي أوردها الغبريني، كانت هناك مسألة فترة قحط شديد في بجايـة، والماء وصل إلى أسعار مفرطة مما دفع بالولي إلى توزيع الماء على الفقراء، وهذا مـا أدى إلى غضب زوجته المعروفة بطبعها الحاد. وفي النهاية، أعلن قدوم المطر الـذي لم يتأخر في سقوطه على المدينة[72].

---

(68) Bernard, *op. cit.*, p. 54.

(69) Despois, « La bordure saharienne », art. cité, p. 197-219.

(70) يتحدث جاك فونتان (Jacques Fontaine) عن حيوية المناخ المتوسطي ذي أغلبية رطبة.
Fontaine, *Villages kabyles*, *op. cit.*, p. 10

(71) التبدلات تذهب أحيانا من البسيط إلى المتعدد. Despois, *L'Afrique du Nord, op. cit.*, p. 18

(72) الغبريني، ص 151. أنظر:

ويستطيع ريح السيروكو -الذي يهب على المنطقة بمعدل من 20 إلى 27 يوم في السنة[73]- من مضاعفة فترات الجفاف. وإذا ما وصل باكرا، فإنه يجفف السنابل. وفي السياق المعاكس، يمكن للأمطار العنيفة أن تتسبب في أضرار بالغة بفيضانات الأودية وتجويف المنحدرات التي تزرع بصعوبة[74]. وعلى وجه الخصوص، الأرض ليس لديها الوقت لشرب كل هذا الماء حيث يضيع بالتبخر. والنتيجة هي ضعف منسوب الأودية في الصيف، في حين أننا نلاحظ فيضانات مشهودة في الشتاء والربيع[75]. ومن هنا فإن السقي صعب بما أن مستوى منسوب المياه منخفض جدا عندما يجب سقي الأراضي[76]. وأيضا يطرح مشكل فيضان الأراضي المنخفضة، خصوصا بالقرب من الساحل. ويظهر الوصف الذي أنجز في بداية الفترة الاستعمارية وجود مستنقعات عند مصب الصومام. ولكن يبدو أن القنوات سمحت بإفراغ مياه هذا السهل في الفترة الوسيطة[77].

É. Dermenghem, « Al-Hirrālī. Un çoufi du XIIIe siècle, érudit, métaphysicien, philosophe et poète », *AIEO*, 7, 1948, p. 39-53.

(73) F. Kasdi, H. Nait Benali, *Diagnostic de la culture de l'olivier dans la partie occidentale (périphérique) du Parc National de Gouraya et possibilités de réhabilitation*, Projet de fin de cycle, Université de Bejaia, Institut des sciences de la nature, Bougie, 1998, p. 31.

(74) Bernard, *op. cit.*, p. 51-52.

(75) Despois, *L'Afrique du Nord*, *op. cit*., p. 22

(76) هل كانت هناك سدود للمحافظة على الماء في فترات الصيف؟ هذا غير مستحيل، على الأقل في الوديان الثانوية. يتحدث جون ديسبوا عن "سدود ريفية تحويلية، مهيأة من قبل الأهالي على مخاريط التفريغ". Despois, *L'Afrique du Nord*, *op. cit*., p. 26

(77) لفت لوران شارل فيرو النظر إلى وجود بقايا جداول وقنوات لتطهير وتجفيف المستنقعات قرب مصب الصومام، وأضاف أن هذه التقنيات تركت في عصره.

L.-Ch. Féraud, *Histoire des villes de la province de Constantine. Bougie*, *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 13, 1869, rééd., *Histoire de Bougie*, avec une présentation de N. Abdelfettah Lalmi, Paris, 2001, p. 28-29.

جدول 1: معطيات الطقس الخاصة ببجاية وقسنطينة[78]

بجاية												
	ج	ف	م	أ	م	ج	ج	أ	س	أ	ن	د
التساقط	159	112	96	68	50	28	3	11	54	99	130	162
د الحرارة	11،9	12،8	14،6	16،3	19	22،25	25،2	26،3	24،75	20،7	16،25	13

قسنطينة												
	ج	ف	م	أ	م	ج	ج	أ	س	أ	ن	د
التساقط	92	71،5	57	49،5	48	25	6	8	23	43،5	52،5	76،5
د الحرارة	7،1	8،55	10،6	13،1	16،8	21،55	25،35	25،45	22،8	17	11،95	7،75

يظهر هذان الجدولان مناخا متوسطيا كلاسيكا لكن مع تنوع شديد ما بين المدينتين: بجاية- كبقية المواضيع الساحلية- تستقبل كميات كافية (972 مم مقابل 552،5 مم لقسنطينة) [79]. وبصفة عامة، تنقص الأمطار بشكل ملحوظ في الداخل، على الأقل بالنسبة للمحطات الأقل ارتفاعا[80]. وتستقبل الجهات المرتفعة أكثر الأمطار وتغذي بذلك المجاري المائية والاحتياطات الجوفية [81]. ولكن

---

(78) من خلال سالتزر، P. Seltz er, *Le Climat de l'Algérie*, Alger, 1945, p. 24, 32. واستنتجت هذه المعطيات من خلال المعاينات التي أقيمت بين الحربين العالميتين. وتظهر المعطيات الأخيرة انخفاض ملموس في التساقط (837 ملم بين 1988 و1997). أنظر: Kasdi et Nait Benali, *op. cit.* بديهيا إذا لم نعتبر هذه القياسات إشارات مطلقة لفترتنا. بالأسود العريض أشير إلى فترات الجفاف.

(79) تستقبل بجاية 1204 ملم والقل 1002 ملم. Seltzer, *op. cit.*, p. 132

(80) في حوض الصومام: سيدي عيش 669 ملم، وأقبو 498 ملم. *Ibid.*, p. 137

(81) Fontaine, *Villages kabyles*, *op. cit.*, p. 10

أيضا معرضة لتساقط الثلوج حيث بإمكانها ظرفيا عرقلة الاتصالات في الشتاء[82]. فيما يخص درجات الحرارة، فإنّ لها نفس خصائص المنطقة المتوسطية، مع ارتفاعات شديدة في الداخل[83].

وتتغير الوضعية بالقرب من الجهات السهبية في الجنوب. الهضاب العليا هي أكثر جفافا ولا تستقبل إلا ما بين 150 و350 ملم من الماء في السنة، مع تسجيل تذبذب أكبر[84]، أقل من 200 ملم في منخفض الحضنة[85]. خصوصا وأن التبخر فيها شديد جدا نظرا لدرجات الحرارة المرتفعة[86]، ويذهب قسم كبير من المياه في التربة[87]. وبهذا فإن الوديان هي غالبا ما تكون جافة وتستطيع الواحات فقط توفير إنتاج زراعي بفضل السقي.

إنّ الشروط الطبيعية هي نفسها في أغلب الدول المحيطة بالبحر المتوسط وليس هناك ما هو غير ملائم، ولكن هذه الشروط تتدحرج باقترابنا من الجنوب، في المناطق السهبية والصحراوية.

3) جهات مأهولة بصورة أقل

إذا كان الميناء نشطا، فيرجع قسم كبير من نجاحه إلى جلب منتجات الداخل وفي الاتجاه المعاكس يقوم بإعادة توزيع السلع المجلوبة إلى بجاية على الأسواق والمناطق الحيوية. ولكن زيادة على الشروط الطبيعية، يجب تحديد وزن الرجال حيث نعرف أهميته في الاقتصاديات التقليدية. لقد تمّ تطوير النشاطات التجارية للموانئ الكبرى في أوروبا المسيحية بالاعتماد على الأرياف المأهولة

---

(82) تبقى الثلوج أسبوعين أو ثلاثة أسابيع في السنة على المرتفعات الرئيسية في الجزائر. Desbois, *L'Afrique du Nord, op. cit.*, p. 14. أنظر أيضا: Bernard, *op. cit.*, p. 48-49

(83) أنظر: Despois, *L'Afrique du Nord, op. cit.*, p. 10-11

(84) *Ibid.*, p. 16, 98.

(85) *Ibid.*, p. 17.

(86) المناخ هنا قاري، مع شتاء قاس وصيف حار جدا. *Ibid.*, p. 98.

(87) Despois, *L'Afrique du Nord, op. cit.*, p. 20, Bernard, *op. cit.*, p. 54.

والديناميكية التي نجحت في التخلص من الفائض التجاري(88). وتبقى للأسف معرفتنا بهذه القضية الجوهرية جزئية جدا، لغياب معطيات رقمية موثوق بها.

بالنسبة للأرياف أكثر من المدن، يصعب إنجاز تحقيق ديمغرافي ما دام أن الوثائق تنقصنا، وهي التي سمحت في الغرب بمعرفة السكان الريفيين. هناك محاولة أنجزها محمد الطالبي حيث أظهرت من خلال النصوص المتوفرة مخططا عاما معاكسا مقارنة بمخطط أوروبا، وحدث هذا التعاكس في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي(89). لقد بحث مؤرخو الديموغرافيا عن إعطاء أرقام للسكان، مثل جون نوال بيرابن (Jean-Noël Bira ben) الذي اقترح بالنسبة لإفريقيا الشمالية (بما في ذلك مصر) عدد سكان متذبذب بين 8 و9 مليون نسمة. لكن اعتمد هذا المؤلف على قواعد وثائقية غير قوية(90). أيضا، استطعنا تقدير عدد سكان المغرب لوحده في القرن السادس عشر بحوالي 3،5 مليون نسمة(91). ويبقى كل هذا غير دقيق وغير مؤكد خصوصا. ليست بحوزتنا أي إشارة كمية حقيقية وتقل وسائل وضع تحقيب زمني. بالمقابل، تسمح النصوص بمقاربة أكثر نوعية وهي تشير باتجاه انخفاض ديمغرافي. فالعبدري في نهاية القرن الثالث عشر

---

(88) R. S. Lopez, *La Révolution commerciale dans l'Europe médiévale*, Paris, 1974, p. 47-51.

المعادلة: "سكان كثيفين= ازدهار"، ليس طبعا مطلقا. يمكن أن يؤدي عدد سكان كبير مقارنة بإمكانيات الوسط والتقنيات إلى مجاعة وأزمة. لكن في الاقتصاد السابق للصناعة، وزن الرجال هو معطى حاسم.

(89) M. Talbi, « Effondrement démographique au Maghreb du XIe au XVe siècle », *CT*, 97-98, 1977, p. 51, 55.

(90) J.-N. Biraben, « Essai sur l'évolution du nombre des hommes », *Population*, 34/1, 1979, p. 16.

(91) F. Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme, XVe-XVIIIe siècle*, Paris, 1979, I, *Les structures du quotidien*, p. 27, بالاعتماد على أرقام J. C. Russell, *Latte Ancien and Médiéval Population*, 1958, p. 148.

يصف مغربا مخرّبا[92]، وهي الصورة التي يؤكدها ابن خلدون قرنا بعد ذلك[93]. ويعطي الكل انطباعا بفترة طويلة من الأزمة وبانخفاض ديمغرافي[94].

يجب مقارنة هذا التطور مع تطور أوروبا في نفس الفترة[95]. فإلى غاية منتصف القرن الرابع عشر عرف سكان أوروبا الريفيين والحضريين نموا قويا ومستمرا[96]. أدى وصول الطاعون الأسود في سياق انفجار سكاني إلى أزمة ديمغرافية حادة انتهت بانكماش قوي (إلى الثمن) لعدد السكان. ثم انطلاقا من حوالي 1450، رجعت أوروبا كمنطقة مأهولة جدا [97]. يمكننا أيضا أخذ حالة أكثر وضوحا، وهي شبه الجزيرة الإيطالية، حيث كان عدد سكانها حوالي 5 مليون في حدود عام الألف ليصل إلى 8 مليون في 1200 وتجاوز 12 مليون عشية

---

(92) العبدري، المصدر السابق، ص 160–161. صحيح أنه اجتازه بعد فترة حروب.

(93) "وإفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة لخامسة وتمرّسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها، بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا" المقدمة، الترجمة ص 298.

(94) Talbi, « Effondrement démographique », art. cité, p. 56-58.

(95) أنظر:

J.-Cl. Garcin, « Histoire, démographie, histoire comparée, périodisation », *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, Xe-XVe siècle*, dir. J.-Cl. Garcin, III, Paris, 2000, p. 45-46.

(96) يعطي جون نوال بيرابن (Jean-Noël Bira ben) الأرقام التالية بخصوص أوربا الغربية والوسطى: 30 مليون في عام 1000، 49 مليون في 1200، 70 مليون في 1300، و74 مليون في 1340. أنظر أيضا: Bira ben, « Essai », art. cité, p. 16

N. Bulst, « l'essor (Xe-XIVe siècle) », *Histoire des populations de l'Europe*, dir. J. Dupâquier et J.-P. Bardet, Paris, 1997, I, p. 168-184.

(97) بأخذه بعين الاعتبار أوروبا الموسعة وضمه للجهات الشرقية، أعطى فرناند برودال (Fernand Braudel) رقمًا معقولًا ب 55 مليون. (Braudel, *Civilisation matérielle*…, *op. cit.*, p. 30) هذا الرقم غير بعيد عن الأرقام التي قدمها (دون الأخذ بعين الاعتبار أوروبا الشرقية) جون نوال بيرابن:(Jean-Noël Bira ben « Essai », art. cité, p. 16) 52 مليون عام 1400 و67 في عام 1500.

الطاعون الكبير. وأدى هذا الأخير إلى إسقاط عدد السكان إلى 7 مليون قبل أن يعود بسرعة من جديد[98].

إنّ التأويلات التي قدمها المؤلفون الوسيطيون لتفسير هذه الأزمة الديمغرافية تعتمد أساسا على ثلاثة نماذج من الكوارث: الحروب، وأضرار الرحل وأخيرا الأوبئة. من دون نقاش تعرض المغرب لعدة نزاعات مسّت بجاية على وجه التحديد، لكن هل كانت هذه النزاعات أكثر دموية مثل التي عرفتها أوروبا الغربية في نفس الفترة؟ يمكن الشك فيها. إنّ وصول عدد كبير من السكان الرحل يمكن تأويله كسبب وكنتيجة للانخفاض الديمغرافي[99]. لقد لعبت بالطبع الأوبئة دورا هاما. فمحمد الطالبي أشار إلى بداية القرن الحادي عشر بمجاعة وطاعون في 495/ 1004 مداهما غير مسبوق[100]. ولكن على الخصوص تعرض المغرب – كبقية الحوض المتوسطي- للطاعون الأسود الذي وصل في منتصف القرن الرابع عشر، وعاد عدة مرات طوال القرن الخامس عشر[101].

(98) G. Pinto, E. Sonnino, « L’Italie », *Histoire des populations de l’Europe*, dir. J. Dupâquier et J.-P. Bardet, Paris, 1997, I, p. 485.

(99) عرف المغرب في القرن الحادي عشر وصول هجرتين من الرحل: هجرة الهلاليين القادمين من المشرق وهجرة المرابطين القادمين من الجنوب الغربي. يدعو هذا التزامن إلى الاعتقاد أن المغرب عرف فعلا في هذه الفترة عجزًا بشريًا سهّل وربما تسبب في حركات الهجرة هذه.

(100) Talbi, « Effondrement démographique », art. cité, p. 55.

(101) J.-N. Biraben, *Les hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranéens*, Paris, 1975, I, p. 53-54, 109, 129.

أ. سعداوي، "المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون: الطاعون الأعظم والطواعين التي تلته في القرنين 14 و15"، *IBLA*، 175، 1995، ص 119-141.

فقد أشار إلى هذا الطاعون عدة إخباريين "مؤرخين" من تلك الفترة، خصوصا ابن خلدون الذي كان بمثابة الشاهد المباشر[102]، ويرى فيه محمد الطالبي أنه أهلك نصف السكان[103].

وأخيرا يمكن تقديم فرضية حرارة المناخ[104]، رغم نقص العناصر التي تؤكدها. ففي أوروبا، حدثت زيادة في حرارة المناخ بداية من القرن العاشر وإلى غاية نهاية القرن الثالث عشر وكانت بمثابة محركات للتوسع الزراعي[105]. ومسّت دون شك هذه الزيادة الحرارية المغرب، كما تؤكده الدراسات القليلة التي أجريت حول المسألة[106]. وإذا كانت هذه الظاهرة مناسبة لأوروبا المعتدلة، فإنها حملت آثارا سلبية وحادة في الوسط شبه الصحراوي، وأدت إلى تراجع المزروعات وصعود السكان نحو الشمال والمناطق الأكثر اعتدالا، وبالتالي تزاحم شديد من

(102) البربر، 3، ص 447، متحدثا عن وفاة وزير السلطان العبد الوادي أبي حمو الثاني في جهة الحضنة في 747/ 1346، أشار ابن خلدون إلى هذا المرض "عاد إلى الظهور من جديد بعدما رفع خلق كثير". في المقدمة، بيّن أكثر إلى أي حد كان هذا الوباء كارثيا: "نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف المائة الثامنة، من الطاعون الجارف، الذي تحيف الأمم، وذهب أهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها... وانتفض عمران الأرض انتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن". المقدمة، الترجمة ص 61–62.

(103) Talbi, « Effondrement démographique », art. cité, p. 58.
ضرب دون شك أيضا كل السكان. احتمى أكثر سكان الأرياف وربما أكثر الرحل، من العدوى.

(104) *Ibid.*, p. 59. Garcin, « Histoire, démographie », art. cité, p. 44,
يشير جارسان إلى انخفاض منسوب الأمطار في القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

(105) R. Fossier, *Enfance de l’Europe. Aspects économiques et sociaux*, II, Paris, 1982, p. 1073.

(106) M. Rouvillois-Brignol, « Quelques remarques sur les variations de l’occupation du sol dans le Sud-Est algérien », *Histoire et archéologie de l’Afrique du Nord. Actes du IIIe colloque international, réunis dans le cadre du 110e Congrès national des sociétés savantes (Montpellier, 1-5 avril 1985)*, Paris, 1986, p. 41.
بعملها حول الجانب الصحراوي ومرتفعات الأوراس من خلال الصور الجوية واستكشافات التربة، تحققت (روفيلوا–برينيول): "نستطيع أن نحتمل وجود مرحلة "قاحلة" تدريجية وبطيئة وصلت إلى ذروتها في حدود القرن الثالث عشر، وتبعتها مرحلة رطبة في القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر.

أجل الأراضي. لكن يبقى كل هذا هشا جدا، بالمقابل يبدو أن الثابت هو أن الاختلاف الشديد بين أوضاع حوض المتوسط بين جهة وأخرى، بين أوروبا المأهولة جدا والتي هي في توسع، والمغرب الذي عرف انخفاضا ديمغرافيا هاما ودائما.

بقدر عدد السكان أنفسهم، إنّ توزيع الرجال مقارنة بالمساحة الزراعية المستغلة له أثار هامة على الاقتصاد. ويلح ابن خلدون على حادث دحر السكان البربر إلى الجبال في حين استولى الرحل العرب على البسائط "السهول". ويوضح خصوصا بقاء جبال البلاد الخلفية القريبة من بجاية ممتنعة عن غارات الرحل، لكونها غير صالحة لجمالهم(107). بالمقابل، أصبحت السهول حسب رأيه مجالات لماشيتهم(108). لكن لا يجب الاستنتاج بالتخلي الكلي أو الاختفاء التام للسكان المستقرين. من دون شك، هناك تغيرات في التوازن، لكن سيكون من غير اليقظة تعميمها بإطناب انطلاقا من عرض ابن خلدون.

III- النشاطات الاقتصادية في بجاية وفي مجالها الحيوي

على الرغم من التضاريس الوعرة والشروط المناخية المتميزة بمشكل نقص المياه في الجنوب، فإن الجهة لم تكن خالية تماما من المزايا الطبيعية، لتثمين الرجال الذين هم دون شك قلة، وهذا ما يشكل عائقا أكيدا، لكن الجبال لم تكن مهجورة. إذن كانت الطاقات مهمة، وتبقى فقط معرفة كيف كانت الوضعية الحقيقية وديناميكية هذا الاقتصاد.

إنّ المعطيات حول اقتصاد المغرب الوسيط هزيلة (109). لا نتوفر على الوثائق، مثل التي بالنسبة لأرياف الغرب الوسيط حيث لا تحصى وجعلتها تقريبا

(107) "للبطون التي في الجبال منعة من ضيم العرب، حيث أنّ هؤلاء لا يتخطون جبلا ولا يخاطرون بالبحث عن قاطني الجبال". المقدمة، الترجمة، ص 294.

(108) *Ibid.*, p. 295, 298.

(109) أنظر حول بداية الفترة: Vanacker, « Géographie économique », art. cité, p. 659-680

مألوفة. طبعا يوفر لنا الجغرافيون والرحالة بعض الإشارات الثمينة أحيانا، لكن لا ننسى بأنهم يسجلون فقط الذي يهمهم أو الذي يلفت نظرهم. وتقل النصوص الدقيقة للجهة في الفترات المتأخرة، فبعد الإدريسي وكتاب الاستبصار، لا نتوفر تقريبا إلا على الرحلات التي تخبرنا حول الحياة الفكرية أكثر من الاقتصاد. ويجب انتظار ليون الإفريقي لنجد المعطيات المتوفرة. وبين الاثنين، عرفت قرابة أربعة قرون تغييرات كبيرة في الاقتصاد المتوسطي. وتستطيع الوثائق التجارية الإتيان هنا وهناك ببعض الشذرات التي يجب التعامل معها بحذر، لأنها لا تشهد إلا على المنتجات المصدرة إلى أوروبا، بمعنى قسم صغير جدا من الاقتصاد المحلي. وأخيرا يمكن الاستعانة ببعض الوصف الحديث للجغرافيين والإثنوغرافيين الذين درسوا المجتمعات "التقليدية" في نظرهم، -المقصود بها غالبا "غير القابلة للتغير"- والتي يمكن ترحيل النتائج إلى فترات أكثر قدما[110]. لا يجب أن نمنع عن أنفسنا هذه المقاربة، لكن الوضعية الحالية (أو بالأحرى التي وصفت منذ عدة عشريات قبل أن تتحول الجهة بصفة جذرية) لا تستغل إلا كنقطة مرجعية أو مقارنة، وليس كنسخة وفية للتي كانت عليها بلاد القبائل في العصر الوسيط.

1) أزمة الفلاحة المستقرة، ازدهار تربية الماشية

إنّ البحث في تقدير حالة الاقتصاد يقود بسرعة إلى المشكل الشائك "انحطاط" اقتصاد المغرب في نهاية العصر الوسيط. إنها مسألة تظهر في كل مرة وهي مرتكزة أساسا على مشكل الدور المنسوب للقبائل الهلالية في التراجع المفترض للفلاحة

(110) "نستطيع إذن التوقف عند موضوع الفلاحة والصناعة بنقل ببساطة وصفاء في الماضي الوصف المفصل للوقائع الحالية، المعزّزة غالبا بشهادات قديمة. لكن يبدو أنه يكفي لموضوع الدراسة الحالية الإشارة لبعض الخطوط الجوهرية لهذه التقنيات القديمة، وإبراز فقط بعض المعطيات التي تؤرخها نصوصنا بدقة في الفترة الحفصية أو بمقربة منها مباشرة.

R. Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines au XVe siècle*, Paris, 1940-1947, II, p. 205-206.

المستقرة. من اللائق مرة أخرى أن نكون يقظين في تأويل المصادر واستعمال الكتابة التاريخية.

أحدث هذا الموضوع جدالا وولعا في حقل التاريخ الاقتصادي كما هو في حقل التاريخ السياسي. خلال فترة طويلة واجه نقاش المؤرخين "الاستعماريين" بالمؤرخين المناوئين للاستعمار. ولتلخيص ذلك، كانت المسألة هي معرفة ما إذا كان وصول السكان الرحل العرب إلى المغرب في القرن الحادي عشر قد كان تحولا – "كارثة"- يمكنها أن تفسر لوحدها الانحطاط المفترض للجهة انطلاقا من هذه الفترة.

إنّ موقف الكتابة التاريخية الاستعمارية الذي يمثله جورج مارسي (Georges Marsais) وينظّر له إميل فليكس غوتييه[111] (Émile-Félix Gautier) يرى إبادة ازدهار إفريقية إلى غاية العصر الزيري – الموروث عن الفترة الرومانية[112]- بوصول – يتكلمون عن غزوة- الرحل العرب الهلاليين. ويعتمد مخطط التفسير هذا على حجة المؤلفين العرب أنفسهم، مثل الإدريسي وخصوصا ابن خلدون. لكن قراءة هؤلاء لهم صبغت بنظريات الفترة، حيث تتكون الخلفية

(111) G. Marsais, *Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècle, Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 47, 1913 ; É.-F. Gautier, *Les Siècles obscurs du Maghreb*, Paris, 1927.

بنمط أقل إيديولوجية، هذه الأطروحة تبناها الهادي روجي إدريس (H.-R. Idris, *La Béribérie orientale sous les Zirides, Xe-XIIe siècle*, Paris, 1962) وفي بعض المقالات التي نشرها كإجابة على تهجمات جون بونسي:

H. R. Idris, « Problématique de l'épopée sanhâdjienne en Berbérie orientale (Xe-XIIe siècle) », *AIEO*, 1959, p. 243-255 ; Id., « L'Invasion hilalienne et ses conséquences », *CCM*, 1968, p. 353-369.

(112) عندما وضع حوصلة حول تخريب العرب في منتصف القرن الثاني عشر، كتب جورج مارسي (Georges Marsais) أن "كل ما بقي من العمل الاقتصادي الروماني" لم يبق إلا خراب. Marsais, *Arabes en Béribérie, op. cit.*, p. 150

الإيديولوجية لهذا التفسير من ثلاث أفكار أساسية[113]: الأولى تفسّر تاريخ المغرب بتعارض المستقر والراحل الذين لم يكن لهما أنماط معيشية منسجمة، ويكون بذلك الأول فقط هو محرك الحضارات والتقدم[114]. وتعتمد الفكرة الثانية على الأحكام العنصرية المسبقة للفترة، أن العنصر العربي (يقولون العرق العربي) هو مخرب في جوهره[115]. وأخيرا الفكرة التي تقول بالتخريب الكارثي والدائم الذي عمل بكثرة على تراجع حضارة المغرب، وجاء العمل الاستعماري لفرنسا ليضع لوحده حدا لهذا الانحطاط الطويل.

أحدث الموقف (أو أحيانا الصريح) العنصري لهذه الأطروحة وعلاقاتها بالمشروع الاستعماري ردود فعل تهدف إلى التقليل أو إلى تجاهل التخريب الذي أحدثته القبائل الهلالية. وأحد الأوائل الذين هاجموا الأطروحة الاستعمارية –

---

(113) نستطيع إضافة فكرة رابع فكرة وهي أن المغرب لا يمتلك محركا لتاريخه والذي لا يمكن تفسيره إلا بالتأثيرات وخصوصا السيطرات الخارجية. وتريد فكرة مستمرة من هذه الكتابة التاريخية القول أن السكان المغاربة لم تكن لهم القدرة على التقدم لوحدهم وبأن مصيرهم لا يمكن أن يكون إلا بالتدخلات الخارجية. أنظر Marsais, *Arabes en Béribérie*, *op. cit.*, p. 1 "لا يبدو أن بلاد البربر قادرة على التقدم بوسائلها الخاصة، يجب عليها أن تضع نفسها في قاطرة الآخر. ويبدو أن نوعا من القدر منعها من أن تكون شيئا آخر إلا أرض إقطاع. خزّان لقوى غير متماسكة، كانت بحاجة إلى استقبال التأثيرات المباشرة القادمة من الخارج من فنيقيا وروما والشرق الإسلامي أو من إسبانيا."

(114) عبّر إ. ف. غوتييه (É.-F. Gautier, « Le cadre géographique », art. cité, p. 30) عن هذا بغياب التنوع الذي تميزه وأكد أن كل تاريخ المغرب الوسيط يتضح من خلال ثنائية زناتة (كبار الرحل، الذي نعتهم أحيانا بالشيوعيين، وبالفوضويين وبالثوريين، الذين يفضلون بعمق الفوضى، باختصار "الهدّام، السلبي") وصنهاجة (القبائل المستقرين، الذين يدعمون السلطة المنتظمة، متزينين بكل القيم النوعية). إن انتصار الرحل يكون قد ترك البلاد في احتضار، فريسة سهلة للأتراك (*ibid.*, p. 31)

(115) قد يكون وصول الهلاليين مختلف جدا عن الفتح العربي الأول الذي كان ضعيفا عدديا ولم يغيّر "الدم". Gautier, « Le cadre géographique », art. cité, p. 32. ونجد من جديد مصطلحات النظريات العنصرية مطبقة على تاريخ الحضارات. نشر هذا المقال في إطار المهرجانات التي أحيت نمط منتصر لمؤوية احتلال الجزائر.

أحد الأكثر الذين ردوا بشدة- هـو جـون بونسـي (Jean Poncet) مـن خـلال سلسلة من المقالات المنشـورة بـين 1954 و1967[116]. جغـرافي التكـوين (مثـل إميل فليكس غوتييه قبله)، تساءل في أي وقت تم ترك المناطق شبه الصحراوية. إذا كنا بإمكاننا أن نعترف له بفضله في تقديم النقاش إلى الجمهور، فـإن الحجـج الـتي قدمها يجب فحصها بيقظة. فهو أكد أولا على تأخر النصوص المسـتعملة للاتهـام بالكارثة الهلالية (يشير في بداية الأمر إلى ابن خلدون) وجاءت بوقت طويـل بعـد الحدث[117]. لكن يوجد قليل من النصوص المعاصرة فعليا، الـتي تصـوّر وصـول الهلاليين كحدث كبير أدى إلى اضطرابات وتخريب[118]. والحجة الثانية المقدمة هي أنّ إضعاف إفريقية الزيرية جاء في قسم كبير منه من أسباب أخرى، سابقة لوصول الهلالـيين حيـث لم يكـن "أكثـر مـن الصـدمة الـتي أسـقطت الإنـاء الـذي كـان مكسورا"[119]. رافضا للنصوص التي تمدح ازدهار إفريقية الزيرية التي اعتبرها عملا غير موثوق لحاشية البلاط، لاحظ بأن إشارات الأزمة هـي أقـدم مـن ذلـك[120]،

(116) نشر أول مقال في 1954 – إن التاريخ ليس دون فائدة- في "الكراسات التونسية" وأتمه بمقالين آخرين أكثر أهمية في 1961 في "الحوليات" وفي "الكراسات التونسية"، وفي النهاية آخر مقال في 1967 في "الحوليات" الذي اغترف فيه الحجج من رسالة دكتوراه الهادي روجي إدريس المنشورة حديثا، وهذا لمكافحة المواقف التقليدية.

J. Poncet, « L'évolution des "genres de vie" en Tunisie. Autour d'une phrase d'Ibn Khaldoun », *CT*, 7-8, 1954, p. 315-323 ; Id., « Géographie et histoire : pays subdésertique et exemple tunisien », *Annales ESC*, 16/1, 1961, p. 99-109 ; Id., « Prospérité et décadence ifrîqiyennes », *CT*, 33-35, 1961, p. 221-243 ; Id., « Le mythe de la catastrophe hilalienne », art. cité, p. 1099-1120.

(117) Poncet, « Prospérité », art. cité, p. 235 : "

في نظر المعاصرين، العالم لم يكن مخربا، ولا حتى متغيّر"

(118) خصوصا فتاوى فقهاء القيروان في النصف الثاني من القرن الحادي عشر والتي تظهر دون نقاش الاضطرابات التي أدخلتها القبائل الهلالية.

(119) Poncet, « Prospérité », art. cité, p. 235.

(120) يستند بالخصوص إلى أعمال جواتين (Goutéen) التي نشرت حديثا والتي تظهر أزمة التجارة بين مصر وإفريقية بداية من النصف الأول من القرن الحادي عشر.

وفسـر هـذه الأزمـة قبـل كـل شـيء بالتنـافس بـين القـوى الجديـدة في الشـرق (الفاطميون في مصر) وفي الغرب (الحماديون، المرابطون) [121]. لا يمكن نفي هـذا التفسير، لكنه يحصر الظاهرة الهلالية في إفريقية الزيرية فقط، في حين أنهـا تعلقـت سريعا بكل المغرب، خصوصا الدولة الحمادية نفسها. ويفسـر جـون بونسـي مـن جهة أخرى هذه الأزمة بالأولويـة الـتي أعطاهـا الحكـام الفـاطميين ثـم الزيـريين للنفقات غير المنتجة (البذخ، الحملات العسكرية، الدفاع ضد الهجمات، خصوصا المسيحية، قمع الثورات...إلخ)، وهي التي قد تكون أدت إلى إضعاف الدولة وترك الأعمال الضرورية، خصوصا في ميدان الري[122]. وأضاف أن حكم الدولـة كـان هو نفسه مسـئولا أكثـر مـن الرحـل العـرب علـى التخريـب الكثيـف للطاقـات الزراعية، خصوصا زراعة الأشـجار المثمـرة[123]. وأخـيرا حجتـه الثالثـة هـي أن الأزمة لم تصب إلا الجهات الهشة طبيعيا، لأننا نتأكـد مـن أن بقيـة إفريقيـة كانـت

S. D. Goitein, « La Tunisie du XIe siècle à la lumière des documents de la Géniza du Caire », *Études d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal*, II, Paris, 1962, p. 559-579.

يبيّن هذا الأخير أن تراجع التجارة مع إفريقية هو سابق للأزمة الهلالية وتدريجي.

(121) Poncet, « Prospérité », art. cité, p. 232.

(122) Poncet, « Géographie et histoire », art. cité, p. 107-108 ; Id., « Prospérité », art. cité, p. 232 ; Id., « Le mythe de la catastrophe hilalienne », art. cité, p. 1102-1106.

(123) Poncet, « Géographie et histoire », art. cité, p. 104 وأضاف (ص 105): "إن القبائل التي ظهرت حديثا (الهلاليون) بداية من القرن الحادي عشر لم يرتكبوا أضرارا أكثر من الفاتحين الآخرين أو رؤساء الحرب". وفي مقال "الكراسات التونسية" لعام 1961 (« Prospérité », art. cité, p. 233) ، أكدّ أنه لا يوجد نص يظهر لنا مهاجمة الهلاليين لحصن، ولا إحراقهم لمدينة أو اقتلاعهم للمزروعات، وهذا ما يدفع بعيدا الدفاع عنهم. وفي مقال في 1967 (« Le mythe de la catastrophe hilalienne », art. cité, p. 1115-1117) ، ذهب بعيدا مرة أخرى مؤكدا على أن التخريب لم يكن إلا عمل حكم الدولة أو الصعاليك المحليين الذين انتهزوا فرصة ضعف الأمراء الزيريين، في حين أن عرب قبيلة رياح كانوا دائما المساندين المضمونين للسلالة.

حالتها جيدة في العصر الحفصي[124]. وعليه فقد بالغنا في آثار أزمة منتصف القرن الحادي عشر[125].. ويرى جون بونسي- بإرادة رفض الأطروحة التي حكم عليها بالاستعمارية والعنصرية بأي ثمن- ينتهي بتقليص وصول الهلاليين إلى ظاهرة دون أثر حقيقي على البلاد والتي لعبت دور مسرّع لأزمة قديمة جدا في الجهات المحلية الهشة كثيرا.

نظر المؤلفون المعاصرون للهجرة الهلالية إلى الحدث كنقطة قطيعة في تاريخهم وككارثة حقيقية[126]. وتبيّن أيضا النصوص المتأخرة أن المشكل لم يحل دائما في خضم القرون الموالية. لا يمكن إذن الاحتجاج بمساهمة وصول العرب الرحل في القرن الحادي عشر وتفرقهم في كامل المغرب في القرون الموالية في اختلال الجهة. لكن بين كارثة البعض وإنقاص الآخرين هناك وسيلة للنظر إلى الظاهرة بطريقة هادئة أكثر، دون البحث في التاريخ الوسيط عن حجج النقاش حول الاستعمار في القرنين التاسع عشر والعشرين.

في الرواية الكارثية للظاهرة الهلالية، كان لوصول العرب الرحل أثرين رئيسيين لا يجب تفحصهما: أدى من جهة إلى تدمير بالغ ومن جهة ثانية إلى توجيه الاقتصاد الريفي المغاربي نحو نشاطات الرعي بصفة دائمة.

---

(124) Poncet, « Prospérité », art. cité, p. 236-239.

(125) هذا يسمح بالاستنتاج أن الأزمة التي يعرفها المغرب اليوم ليس بسبب الهلاليين وإنما بسبب الكشوفات الكبرى والاستعمار الأوروبي. Prospérité », art. cité, p. 240 » . هنا تتلاقى منطلقات المؤرخين الاستعماريين والسابقين لهم حول هذه النقطة، البحث عن الأصول وأسباب انحطاط المغرب المعاصر. قلب جون بونسي (Jean Poncet) بناءات الأوائل، معوّضا الافتراض الإيديولوجي (مسؤولية العرب) بافتراض آخر (مسؤولية الأوروبيين)، الذي ليس مقبولًا مطلقا لتاريخ العصر الوسيط.

(126) A. Laroui, *L'Histoire du Maghreb. Un essai de synthèse*, Paris, 1970, p., rééd. Casablanca, 1995, p. 141.

الموضوع الأكثر شيوعا والمتعلق بالعرب الهلاليين هو دون نقاش ذلك الخاص بالخراب المنسوب إليهم والمفترض عدم شفائه.

لم يعد أحد اليوم يطعن في عدم ازدهار الحالة الاقتصادية لإفريقية إطلاقا عشية وصول الهلاليين. تتعدد الأسباب التي قدمت لهذه الأزمة، لكنها لا تهمنا هنا مباشرة، والأهم هو لفت النظر إلى زيادة سياق الضعف هذا من آثار وصول السكان الرحل.

طبعا، يمكننا الاحتجاج على موضوعية نصوصنا ولفت النظر إلى أنها عمل أهل الحضر بثقافة ومصلحة معادية للبدو، لكن هناك إشارات كثيرة متوافقة تنفي حجم الاختلال الاقتصادي الذي أحدثه هؤلاء البدو. اتركوا مرة واحدة على جانب ابن خلدون وحكمه الحاد على أضرار الهلاليين[127]. يشهد الجغرافيون أيضا على هذه الأزمة المتواصلة. إن التحول باد بين صورة مغرب البكري وصورة الإدريسي المتأخر عنه بقرن. ويشير هذا الأخير إلى حضور العرب في البلاد الخلفية لبجاية والخطر الذي تشكله[128]. لكن ضغطهم توقف على مسافة محترمة من المدينة كما تجمع على ذلك كل النصوص. استطاعت القرى المحمية بأسوار أو التي بنيت على مرتفعات الدفاع عن نفسها، لكن أراضيها الزراعية غالبا ما أصيبت بأضرار.

ويلفت الإدريسي النظر إلى المكان المسمى بسوق الخميس (اليوم في البيبان)، حيث أنّ هذه المدينة التي هي على مرحلة توقف وسوق هي آمنة لكن مجالها: "كله تجوله العرب وتضر بأهله"، ولا نجد به إلا قليلا "من المزارع والمنافع"[129]. وتؤكد نصوص الرحالة عدم أمن الأرياف والتي تبيّن استمرار الوضعية طوال

(127) أنظر تحليل جاك بارك:

J. Berque, « Ibn Khaldoun et les Bédouins », *Maghreb, histoire et sociétés*, Alger, 1974, p. 22-34 (titre original « Problèmes de la connaissance au temps d'Ibn Khaldoun », *Contribution à la sociologie de la connaissance*, 1967).

(128) الإدريسي، الترجمة ص 168-169.

(129) نفسه، ص 168.

فترتنا المدروسة. ويمكن تقدير آثار هذه الأزمة على الفلاحة من خلال فتاوى مجموع الونشريسي[130]. لا مجال للشك إطلاقا حول ما كتبه مفتيو إفريقية الشرقية أو تلمسان حول وضعية الجهات الزراعية ويمكن تطبيق ذلك أيضا على مقاطعة بجاية. وتظهر الفتاوى الأولى أن أضرار القبائل العربية تعود إلى النصف الثاني من القرن الحادي عشر بالنسبة لجهة القيروان. والمشكل الذي طرح للمفتين تشكل خصوصا من وجهتين: الأولى وهي الجباية المفرطة التي يفرضها الرحل على الفلاحين، وهناك عدة فتاوى تتعلق خصوصا بمسألة حول إمكانية اقتطاع هذه الضرائب من القيمة المفروضة على الزكاة[131]. لكن ليس هناك ما يشير إلى أن هذه الجباية كانت أشد من جباية الدولة[132]. والمشكل الأكثر حدة هو انعدام الأمن الكامل والدائم، حيث يلفت عدد من النصوص النظر إلى تخريب العرب للمحاصيل، خصوصا البساتين أو الواحات[133]. ولكن كما لاحظه بصحة جون بونسي، لم تكن هذه الممارسة خاصة بهم، فالجيوش العبد الوادية مثلا، لم تمتنع عن إتلاف أرياف بجاية عند محاصرتها للمدينة[134]. وصعّب انعدام الأمن من ممارسة النشاط الزراعي، وتظهر عدة فتاوى للمازري المهدوي (ت 536/ 1141)

(130) أنظر أيضا تحليلات جاك بارك من خلال مجموع نوازل مازونة:
J. Berque, *L'intérieur du Maghreb, XVe-XIXe siècle*, Paris, 1978, p. 42-48.

(131) مثل فتوى السيوري (ت 460/ 1067). تحليل في: Lagardère, *Histoire et société*, *op. cit.*, p. 26.

(132) عبد الله العروي (Laroui, *op. cit.*, p. 143) الذي كتب عدم إدخال هؤلاء الفاتحين لا عدالة أكثر ولا تخريب أكثر، لأن الدولة المستغلة ثبطت الإنتاج بنظامها الضريبي القاسي، وباحتكارات وبنهب موظفيها، فكانت بذلك قد دمرّت الاقتصاد.

(133) البربر، 1، ص 46. عدة فتاوى تتعلق بالأسوار رفعت حول البساتين وأبراج المراقبة التي بنيت في وقت وصول الهلاليين. أنظر فتوى اللخمي (ت 487/ 1085). تحليل في: Lagardère, *Histoire et société*, *op. cit.*, p. 121

(134) البربر، 3، ص 404.

صعوبات المزارعين الذين اضطروا على سبيل المثال للتخلي عن الأراضي البعيدة جدا، لضرورة رجوعهم إلى داخل أسوار المدينة أو القرية قبل الليل[135].

لا يجب المبالغة في حجم التخريب بهذا الحد[136]،. لأنه لم تكن مصلحة للعرب في القضاء النهائي على الإنتاج الزراعي، بل بالعكس، كان هناك ربح كبير بترك الفلاحين يحرثون أرضهم، لفائدة الرحل، وهذا ما يتضح من فتوى للمازري التي تظهر اقتسام العرب للأراضي واستغلالهم الفلاحين كأجراء[137]. هناك إذن اتفاقيات مبرمة بين الرحل والمستقرين ولدينا مثال في فتوى لأبي فضل قاسم العقباني (قاضي تلمسان، ت 830/ 1427) الذي يتحدث عن هجوم العرب المتفوقين عدديا على قرية وإجبارهم لشيخها على شراء سلم مقابل 100 دينار ذهبي[138]. ويؤكد الإدريسي هذا الاتفاق الذي وقع بين الرحل والمستقرين، حيث يذكر أن سكان الحصون في جنوب بجاية يعيشون في مهادنة مع العرب، ويعترف بأن هؤلاء الأخيرين بقوا في موقع قوة يفرطون في استعمالها أحيانا[139].

(135) تحليل في Lagardère, *Histoire et société, op. cit.*, p. 31, 129. العرب "استولوا على أراضيهم، ودورهم ومنازلهم واقتسموها بالقوة ومنعوهم من وصولها. الناس يذهبون للحرث والحصاد وجني الزيتون ويستعجلون بدخول المدينة، وكل واحد يتفادى البقاء أخيرا لوحده للخوف على نفسه وممتلكاته. وفي وقت الحرث، غالبا ما يتركون حقولهم الخاصة ويحرثون أخرى بحسب الأمطار وتقسيم العرب. عند الجني، يتركون كمية كبيرة من الزيتون لعدم قدرتهم جمعها بارتياح. ورأوا أنفسهم ملزمين بجمعها قبل النضج بتوظيف الناس الذين يتركون لهم الثلث وأحيانا النصف في حين إذا تمتعوا بالسلم، هم أنفسهم وعبيدهم، يجنون بمتعة في وقت نضج الفواكه".

(136) أنظر:

I. Achouri, *Les Banu Hilal. Analyse structurale d'un nomadisme séculaire (du VIIe au XVIIe siècle)*, thèse de l'Université de Toulouse-Le-Mirail, 1998, sous la direction d'A. Ducellier et Chr. Picard, p. 121-122.

(137) تحليل في: Lagardère, *Histoire et société*, *op. cit.*, p. 31.

(138) *Ibid.*, p. 41 ; trad. dans Berque, *L'intérieur du Maghreb, op. cit.*, p. 42-43.

(139) الإدريسي، النص ص 119، الترجمة ص 168–189.

إنّ التوازن الذي نشأ عمليا بين الرحل والمستقرين هو سياسي واقتصادي في آن واحد. سياسي أولا لأن الرحل ضمنوا للمستقرين أمنا لم توفره الدولة ضد الاعتداءات (التي غالبا ما تأتي من الرحل أنفسهم). وتخبرنا فتوى قيروانية غير مؤرخة أن رياح قدمت لحراسة بساتين ضواحي المدينة من الربيع إلى نهاية الحصاد مقابل دينارين للبستان[140]. وتحتوي دون شك الاتفاقيات التي تحدث عنها الإدريسي على بنود حماية المستقرين. لكن هذا التوافق هو أيضا اقتصادي.

نصطدم هنا بمشكل شائك في العلاقة بين الاقتصاد المستقر والاقتصاد الراحل[141]. وتقول الأطروحة التقليدية أن استقرار القبائل العربية نتج عنه تراجع الأنشطة المستقرة لفائدة حياة الترحال وعليه الزراعة لصالح الرعي، وهي إشارة غير قابلة للنقاش لاضمحلال الاقتصاد الريفي، بالنسبة لأصحاب هذه الأطروحة. ويعتمد هؤلاء على عدة فرضيات قابلة للنقاش. فالأولى هي أن أي اقتصاد رعوي هو بالضرورة تراجع للحضارة مقارنة مع الزراعات التي تعتبر نبيلة أكثر. أما الثانية فهي مطابقة تربية الماشية بحياة الترحال، وأخيرا الثالثة هي عدم التوافق العميق بين الراحل والمستقر[142].

ويصطدم تقدير هذا التحول بالنسبة لجهة بجاية بغياب معطيات حول فلاحة هذه الجهة قبل وصول الهلاليين. وصف ابن حوقل في منتصف القرن العاشر محيط بونة (لم تهمه بجاية في تلك الفترة) كجهة زراعية حسنة، حيث كانت تربية الماشية

---

(140) تحليل في: Lagardère, *Histoire et société, op. cit.*, p. 319

(141) أنظر توضيح بيار غيشار الأخير:

P. Guichard, « Nomadisme et tribalisme », *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, xe-xve siècle*, dir. J.-Cl. Garcin, II, Paris, 2000, p. 111-128.

(142) أنظر ديسبوا (Desbois, *L'Afrique du Nord, op. cit.*, p. XIV) الذي يؤكد بعدم وجود أبدا شراكة مستمرة بين الرحل والمستقرين، ولا بين الحضريين والريفيين.

مهمة ومساهمة في التجارة[143]. قرنان بعد ذلك، تحدث الإدريسي – الذي أشار إلى حضور القبائل العربية في جنوب المدينة– عن زراعات متعددة في كل قرى المقاطعة، ولم يلاحظ تراجعا كبيرا للنشاطات الزراعية. من جهة أخرى ففي السنة العادية، لم تكن بجاية مستوردة كبيرة للمنتجات الزراعية، ولم يشر الإخباريون مطلقا لمجاعات حادة ودائمة. بالمقابل، نلاحظ أن الصادرات الرئيسية كانت منتجات الرعي، وهي إشارة على الأقل لتربية ماشية مهمة ومزدهرة، قادرة على دفع فائض للتصدير.

إنّ مكانة منتجات تربية المواشي هي الشيء الوحيد المؤكّد. إذا كانت الهجرات الهلالية هي المسؤولة الوحيدة فهذا قابل جدا للنقاش. ربما يكون هذا التوجه الرعوي لهذا الاقتصاد قديما بسبب الشروط الطبيعية لهذه البلاد الجبلية[144]. لقد أدى الانخفاض الديمغرافي إلى تراجع المساحات المزروعة وباشتراكها مع وصول السكان الرحل في منتصف القرن الحادي عشر، فقد أدت إلى ازدهار تربية المواشي[145]. وأخيرا، ليس من المستحيل مساس طاعون منتصف القرن الرابع عشر بنسب متفاوتة السكان الرحل، مما ساهم في تسريع هذه التحولات.

هي إذن عدة فرضيات حيث لا تعرض مطلقا المصادر، وليس من الممكن في غياب الوثائق تقدير نصيب الزراعات وتربية الماشية في الإنتاج الريفي.

(143) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ترجمة:
Trad. G. Wiet et J. H. Kr amers, *La Configuration de la terre*, Paris, 1964, p. 72.

إلى أبعد من ذلك، وصف البلدان التي يمر بها الطريق الجنوبي من الشرق إلى الغرب، وأشار أيضا إلى عدة مدن تحيط بها أراضي زراعية. *Ibid.*, p. 80 s.

(144) أنظر Mc Neill, *op. cit.*, p. 92. في هذا المعنى يطرح المشكل بطريقة مختلفة بالنسبة لسهول إفريقية.

(145) إنه التحليل الذي أجراه عبد الله العروي (Abdallah Laroui, *op. cit.*, p. 143) الذي يؤكد على عدم أخذ الرحل الهلاليين لمكان الفلاحين المستقرين، لكنهم استفادوا من الفراغ الديمغرافي.

إذا ما تقبلنا إحداث وصول القبائل الرحل العديدة لتوسع في النشاطات الرعوية، فإنّ هذا التحول لا يشير بالضرورة إلى أزمة حادة في الزراعة المستقرة التي لم يستفد منها أي شخص. ولاحظ كلود كهان (Claude Cahen) بصحة أن حياة الترحال لم تكن بالضرورة معادية للزراعة، مشيرا إلى حالات يتكامل فيها نمطا الحياة والإنتاج ويجلبان الفوائد المتنوعة من الأراضي[146]. خصوصا، لا يجب الحديث دون تمييز عن "حياة الترحال"، لوجود عدة فوارق بين الراحل الجملي الكبير والمستقر[147]. إنّ الذي ظهر هو بالأحرى تقسيم جديد للعمل، على الخصوص جزء هام جدا من تربية الماشية في الإنتاج الشامل[148]. في وصفه لقسنطينة، أوضح الإدريسي أن سكان المدينة "مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة ومعاملات للعرب وتشارك في الحرث والادخار[149]". لم تكن المعاملات نادرة بين الرحل والمستقرين، حتى وإن أدانت الفتاوى على التجارة مع الناس غير المنصوح بهم[150]. إن دراسات الجغرافيين،

(146) Cl. Cahen, « Quelques mots sur les hilaliens et le nomadisme », *JESHO*, 11, 1968, p. 131.

(147) G. Chiauzzi, « Le substrat autochtone au Maghreb », *Maghreb Médiéval. L'apogée de la civilisation islamique dans l'Occident arabe*, Aix-en-Provence, 1991, p. 49-50.

الذي يدعو إلى عدم التنظير بدورنا انطلاقا من رؤية نظرية لابن خلدون وبالتالي ترك مكانة لكثير من التنوعات في مختلف أنماط الحياة وذلك بالتمييز بين عدة مستويات من حياة الترحال.

(148) Guichard, « Nomadisme », art. cité, p. 119.

(149) الإدريسي، الترجمة ص 170. ترك الرحل للمستقرين حراسة المحاصيل، خصوصا خلال هجراتهم نحو الجنوب. وهذه الممارسة دامت لفترة طويلة بعد ذلك. وبدراسته لمجموع نوازل المازوني (ت 1478)، توصل جاك بارك (Jacques Berque) إلى هذه المعاينة: "نضغط على مجتمع في طريقه إلى تقسيم العمل وإلى فئوية سوسيو-اقتصادية، وهي عملية يجب وضعها على علاقة مع استقرار البدو".

J. Berque, « Les Hilaliens repentis, ou l'Algérie rurale au XVe siècle », *Annales ESC*, 25/5, 1970, p. 1339.

(150) نجازف بشراء نتاج اختطافاتهم. أنظر فتوى المازري (Lagardère, *Histoire et société*, *op. cit.*, p. 127). أنظر كذلك: *ibid.*, p. 130, 133 (فتاوى تونس في القرنين الثالث عشر والرابع عشر)، ص 142 (فتوى الوغليسي البجائي (ت 786/ 1384) الذي منع شراء الجمال من

خصوصا في فترة حيث كانت حياة الترحال ما زالت هامة، تظهر جيدا هذا التكامل بين النوعين الاقتصاديين[151].

في النهاية، يصعب تقدير آثار وصول الهلاليين على الإنتاج الريفي. نتكلم طبعا عن التخريب، وخصوصا عن عمليات الاختطاف، والضرائب وإعادة توزيع الملكيات. إذا كانت المساحة الزراعية في إفريقية الشرقية قد تقلصت لفائدة أراضي الرعي، ليس واضح تماما إن كان لهذه الظاهرة نفس الحجم في الجبال القبائلية.

2) الإنتاج الفلاحي

يظهر الجدول الذي نستطيع وضعه للإنتاج الفلاحي دون مفاجأة اقتصادا متوسطيا تقليديا قائما على الزراعة وتربية الماشية، لكن مع بعض الخصوصيات المرتبطة بأهمية الوسط الجبلي.

أ- منتجات الأرض

سيطر الثالوث: الحبوب والزيتون والكروم على الفلاحة التقليدية في حوض البحر المتوسط والذي نجده في بجاية وجهتها[152]. كانت الكروم من دون شك أقل أهمية من التي في البلدان المسيحية حيث كان يستخدم قسم كبير منها في إنتاج الخمر، ولكنها وجدت أيضا بالنسبة لعنب الطاولة وأيضا للخمر بالمناسبة[153]. في المقابل استجابت الحبوب والزيتون للمتطلبات الغذائية الأكثر حيوية. وجدنا أيضا منتجات البساتين، سواء بساتين المنطقة المتوسطية أم واحات الجنوب. وأخيرا شغلت الغابة حيزا هاما من الأراضي.

العرب المعروفين كقطاع طرق). لكن المازري عزم على بيع الحبوب للبدو في فترة المجاعة (*ibid.*, p. 129-130)

(151) Despois, *L'Afrique du Nord*, *op. cit.*, p. 218-221.

(152) *Ibid.*, p. 98

(153) جلب التجار المسيحيين في الغالب خمرهم معهم، وهذا ما يبيّن عدم إنتاجه وانتشاره محليا.

الحبوب :

كانت الحبوب قاعدة التغذية كما في بقية الحوض المتوسطي[154]. كانت إفريقيا الشمالية في الفترة القديمة مطمورة روما من القمح التي نظمت الإنتاج من أجل تلبية حاجيات عاصمة الإمبراطورية[155]. إنّ بلاد القبائل ليست طبعا الجهة المفضّلة أكثر للحبوب إذا ما قارناها بسهول إفريقية أو الجهات الغربية (متيجة، سهل وهران) [156] وليست بهذا القدر مناوئة لهذه الزراعة. إنّ المناخ والتربة يساعدانها في منطقة التل، لكن الظروف تصبح أكثر صعوبة دون سقي في الجنوب[157] ولكن بالنظر لأهمية الحبوب في التغذية ربما أن هناك عدة أراضي كانت مزروعة حتى وإن كانت غير مناسبة جيدا.

في منتصف القرن الثاني عشر، قدم الإدريسي في جميع الأحوال جهة غنية بالحبوب. ففي أرياف بجاية، كتب أن الحنطة والشعير مزروعة بكميات كافية لإطعام عدة بلدان[158]. وأشار أيضا إلى أهمية إنتاج القمح بقلعة بني حماد[159]،

(154) يقول لنا ليون الإفريقي أن الشعير كان الغذاء الأساسي للبجائيين Léon l'Africain, p. 406. أنظر:

B. Rosenberg er, *Société, pouvoir et alimentation. Nourriture et précarité au Maroc précolonial*, Rabat, 2001, notamment p. 157-189 (« consommer les céréales »).

(155) أنظر:

H. Jaïdi, *L'Afrique et le blé de Rome aux IVe et V e siècles*, Tunis, 1990.

(156) حول إنتاج الحبوب في المغرب، أنظر:

R. Vernet, « Recherches sur la production et la circulation des céréales dans le Maghreb médiéval », *RHCM*, 13, 1976, p. 31-62, et Id., « La production céréalière dans le Maghreb du XIIIe siècle », *Jaime I y su época, X congreso de historia de la Corona de Aragón*, Saragosse, 1978, III, p. 253-268.

(157) Despois, *L'Afrique du Nord, op. cit.*, p. 27.

(158) الإدريسي، الترجمة ص 166.

(159) نفسه، ص 161، 167: الأراضي بها خصبة للحبوب، القمح بثمن رخيص والمخازن مزودة جدا.

وقسنطينة[160] وبونة[161]. وتتغير الصورة بكيفية ملموسة مع ليون الإفريقي الذي – لافتا النظر لغنى بساتين السهل– روى أنّ البجائيين يعيشون في فقر، لأنّ الأراضي الزراعية فيها هزيلة جدا لإنتاج الحبوب[162]. ووجب على المدينة التزود من الحبوب عن بعد أكثر ويمكن أنها خصّصت أراضيها لزراعات أخرى مربحة بقدر أكبر[163]. بالمقابل، أشار ليون الإفريقي لزراعة الحبوب في الجهة، بعدة مناطق تموين ممكنة. في الغرب تكلم عن عدة أراضي زراعية خصبة من الحبوب في دلس[164]، وفي الشرق بالجهات الساحلية، لم تمتلك جيجل حسبه إلا أراضي سيئة حيث لم يكن ممكنا زراعة الحبوب ما عدا الشعير[165]. بالمقابل إلى الشرق أكثر، كانت منطقة سكيكدة وبونة ممتازة في الحبوب[166]، وأيضا جهات قسنطينة

(160)نفسه، ص 170: تطل المدينة على حقول واسعة من القمح والشعير، والمطامير ممتلئة.

(161) نفسه، ص 193.

(162) Léon l'Africain, p. 361.

(163) م. ص. بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية، رسالة دكتوراه، جامعة تونس 1، تحت إشراف م. شبوتو–رمادي، 1995، ص 137. نلاحظ بصفة عامة أن الجهة القريبة من بجاية لا تظهر غنية بالحبوب في وصف ليون الإفريقي. يشير مخطوط تحقيق غير ممضى لعام 1888 إلى عدم تطور زراعة القمح قرب بجاية مقارنة بجهة سطيف أو الهضاب العليا، ونجد فيها خصوصا الشعير والحنطة (تحقيق حول مقاطعة بجاية، 1888، صورة طبق الأصل لمخطوط بمكتبة جمعية جيهماب – بجاية).

(164) Léon l'Africain, p. 352 وجدت أراضي القمح الكبيرة إلى الغرب أكثر، نحو وهران وتنس ومن هنا إلى المغرب، لكن لا نعرف ما إذا وجدت تجارة منتظمة للحبوب بين هذه الجهة وبجاية. وتحدث روبار فرني (Robert Vernet) عن علاقات مغاربية داخلية متواضعة، وهذا يبقى فرضية.

R. Vernet, « Les relations céréalières entre le Maghreb et la Péninsule ibérique du XIIe au XVe siècle », *AEM*, 10, 1980, p. 323.

(165) Léon l'Africain, p. 362 انتشرت الحبوب الفقيرة مثل الشعير في الأراضي الأقل ملائمة، خصوصا في الجبال.

(166) *Ibid.*, p. 364, 369 . ويظهر من هذا حالة شبيهة من الحالة التي وصفها ابن حوقل في منتصف القرن العاشر حيث انبهر بثروات القمح في بونة. ابن حوقل، المصدر السابق، ص 72.

وميلة[167]. إلى الجنوب أكثر، كانت الظروف الطبيعية أقل ملائمة وإذا كـان ليـون الإفريقي أشار إلى سهول القمح الخصبة قرب نقاوس[168]، فإن كل منطقة الـزاب كانت فقيرة من أراضي الحبـوب، خصوصـا مـن المـاء، والزراعـة المسـقية كانـت ناقصة[169]. ونستطيع أن نستنتج من خلال هذين الوصفين أن الجبال القريبـة مـن بجاية تناقص إنتاجها من الحبوب بين القرن الثاني عشـر والقـرن السـادس عشـر، لكن هذا التطور لم يمس بقية الجهة، خصوصا منطقة قسنطينة وسهل بونة. ويجـب في النهاية التذكير بأنّ هذه الزراعة بقيت هشة وأن الإنتاج كان متباينًا جدا من سنة إلى أخرى. فعندما يحدث إفراط في الطقـس (جفـاف، السـيروكو المبكـر، إلخ) أو إنساني (الحروب) [170] فإن المحصول يكون مهددا.

أجنة وبساتين:

إلى جانب حقول الحبوب، امتلكت بجاية وجهتها أيضا عدة أجنة وبسـاتين. وجدت الأشجار المثمرة في البساتين، ولكـن أيضـا في الأريـاف، وأهمهـا أشـجار التين والجوز والزيتون.

(167) Léon l'Africain, p. 367, 369 يقول لنا أن أراضي قسنطينة تعطي مردودية ثلاثين لواحد. هنا رقم محيّر وبكل بداهة مبالغ فيه جدا، حتى أن روبار برونشفيك (Robert Brunschvicg) اعتبر بفضولية أن هذه المردودية "متواضعة" مقارنة بمائة لواحد في سهل القيروان. (*La Bérébérie, op. cit.*, II, p. 208) لكن هل يتعلق الأمر بخطأ في وضع النص أو الترجمة. نفهم أفضل في جميع الحالات إرادة بجاية في التحكم في جهة قسنطينة التي كانت حيوية لأسباب استراتيجية وأيضا غدائية.

(168) Léon l'Africain, p. 363

(169) *Ibid.*, p. 439. Despois, *L'Afrique du Nord, op. cit.*, p. 98.

إن حدود الزراعة الجافة للحبوب تقع في نطاق يقدر بحوالي 400 ملم.

(170) لا تتحدث النصوص حسب علمي عن غزوات الجراد لبلاد القبائل والتي نعرف آثارها المخيفة على المحاصيل في إفريقيا الشمالية. لكن برونشفيك (*La Berbérie, op. cit*, II, p. 208) أشار إليها في جهة تونس.

لم يشر المؤلفون الوسيطيون إلى شجر زيتون بلاد القبائل إلا استثنائيا، رغم أنه اليوم، كما في القرن التاسع عشر، واحد من الإنتاج الرئيسي بعد الحبوب. كانت الجهة في بداية القرن العشرين المنطقة الرئيسية لإنتاج الزيتون في الجزائر[171]، وكان الحوض الأسفل للصومام على وجه الخصوص مغطى بأشجار الزيتون[172]. إنه شجر ملائم للمناخ ولفقر التربة، والذي يستطيع الصعود حتى 850م في جانب الجبل المقابل للشمس وإلى أكثر من 1000م في الجانب الواقع تحت الظل[173]. إنّ الإشارات إلى أشجار الزيتون (أو الزيت) هي نادرة في النصوص. يروي ليون الإفريقي أن جهة قسنطينة صدرت الزيت نحو "نوميديا" وأن أشجار الزيتون كانت مغروسة في السهول[174].

من الفضول عدم رؤية إشارات أكثر حول هذه الشجرة أو إنتاج الزيت، وخصوصا أنه ليس هناك أي شخص تحدث عنه بخصوص بجاية[175]. من المحتمل إذن عدم تشكيل الزيتون لزراعة ملحوظة في الجهة.

بالمقابل يتأكّد الحضور الهام للتين، حيث هو اليوم شجر خاص بالجهة. وهو كذلك شجر ملائم للوسط ونجده على الحواف المتجهة نحو الجنوب إلى غاية 1200 أو 1300م[176]، أي أكثر علوا من شجرة الزيتون. ويشير إليه الجغرافيون العرب تقريبا في كل مكان. في بجاية نفسها أو دون شك في جبالها، ذكر الإدريسي

(171) Bernard, *op. cit.*, p. 256.

(172) Bernard, *op. cit.*, p. 210 ; Despois, *L'Afrique du Nord*, *op. cit.*, p. 91.

(173) Despois, *L'Afrique du Nord*, *op. cit.*, p. 292.

(174) Léon l'Africain, p. 366, 408.

(175) يتكلم الحميري عن الزيت القادم من جهة بجاية، لكن هو خطأ في نسخة الإدريسي الذي يتبعه نصيا في هذا المقطع والذي يكتبه زفت. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إ. عباس، بيروت، 1980، ص 18. الإدريسي، النص ص 116.

(176) Despois, *Afrique du Nord*, *op. cit.*, p. 292, qui ajoute que c'est un aliment de base des Kabyles.

إنتاجا هاما من التين[177]، وهذا ما أكـده بعـد ذلـك ابـن سـعيد المغربـي، وليـون الإفريقي[178] الذي تحدث عنه في جبـال زواوة قـرب بجايـة[179]. وأشـير إلى هـذه الزراعة أيضا في قسنطينة[180]، وجيجل[181]، ونقاوس[182]، ومرسى الدجاج حيث كان التين المجفف يصدر إلى الخارج[183].

وأخـيرا كـان الجـوز بـوفرة في الجهـة وتمـت الإشـارة إليـه في بجايـة[184]، وجيجل[185]، ونقاوس[186]، وسـطيف[187]، مثـل مـا هـو الحـال كـذلك أشـجار التفاح[188]، والأجاص[189]، وربمـا شـجر التـوت[190]. وكانـت هنـاك دون شـك زراعات أشجار فواكه أخرى، لكن النصوص لا تشير إليها بصراحة.

---

(177) الإدريسي، الترجمة ص 166.

(178) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إ. العربي، بيروت، 1970، إعادة نشر، الجزائر، 1982، ص 142.

(179) Léon l'Africain, p. 406.

(180) *Ibid.*, p. 408.

(181) *Ibid.*, p. 362.

(182) *Ibid.*, p. 363.

يشتهر تين نقاوس بكونه الأحسن في مملكة تونس ويحمل إلى قسنطينة.

(183) الإدريسي، الترجمة ص 165: "والتين خاصة يحمل منها شرائح طوبا منثورا إلى سائر الأقطار وأقاصي المدائن والأمصار وهي بذلك مشهورة".

(184) Léon l'Africain, p. 406.

(185) *Ibid.*, p. 362.

(186) *Ibid.*, p. 363,

الإدريسي، الترجمة ص 169-170، الذي يقول أنه يصدر نحو البلدان المجاورة.

(187) الإدريسي، الترجمة ص 174. إنها جيدة النوعية ورخيصة الثمن وتصدر إلى جميع الجهات.

(188) في القل وجيجل (الاستبصار، الترجمة ص 31)، وفي ميلة (Léon l'Africain, p. 369) الذي يجعلها أصل الكلمة الإيطالية *mela*

(189) في ميلة. Léon l'Africain, p. 369

(190) في عصر ليون الإفريقي، كان تجار قسنطينة يرسلون الحرير إلى نوميديا، وهذا لا يشكل دليلا على تربية دودة القز في الجهة. Léon l'Africain, p. 366

خارج البساتين في الريف، وجدت فلاحة الأجنة التي تطلبت عناية خاصة وسقيًا بانتباه، والتي نجدها في الأحواض وطبعا قرب المدن[191]. أشاد المؤلفون بجمال بساتين بجاية وتعجبوا أمام جمالها الرفيع والبديع. وفضلا عن هذين البستانين الأميريين، انتشرت الأشجار في قسم كبير من السهل وفي جزء من الحوض السفلي للصومام وهي التي نسميها اليوم بالمحيط العمراني[192]. إنّ أحسن وصف لهذه البساتين هو ذلك الذي جاء في كتاب الاستبصار: "ومدينة بجاية كثيرة الفواكه والثمار، وجميع الخيرات. وهي مشرفة، نزيهة، ومطلة على البحر وعلى فحص قد أحاطت به جبل دوره نحو عشرة أميال، تسقيه أنهار وعيون، وفيه أكثر بساتينهم، ولها نهر كبير يقرب منها بنحو الميلين أو دونهما، وعليه كثير من جناتهم، وقد صنعت عليه نواعير تسقى من أنهر، وله منتزه عظيم."[193] ويضاف إلى بساتين الفحص، البساتين التي هيئها السكان على جوانب جبل قوراية[194]. كانت كل المراكز الحضرية في الجهة محاطة ببساتين أنتجت قسما من التموين الغذائي للسكان.

تطلبت هذه الزراعات استثمارات هامة نظرا لتعرض حوض الصومام للفيضانات ولفترات جفاف، وهو ما أستوجب جلب الماء والسقي. بحوزتنا

---

(191) استفادت فلاحة البساتين بمحاذاة بجاية من مناخ ملائم. أنظر: Fontaine, *Villages kabyles*, *op. cit.*, p. 14

(192) العمري، النص ص 231، الترجمة ص 112-213، ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص 142، Léon l'Africain, p. 361

إنّ سكان بجاية "تغمرهم الفواكه: يوجد حول المدينة بساتين غير منتهية مملوءة بأشجار الفواكه، تتعدد هذه البساتين خصوصا بجانب الباب الذي يطل على الشرق".

(193) الاستبصار، النص ص 130، الترجمة ص 36.

(194) نفسه.

معلومات قليلة حول هذه التهيئة التي لم نعثر على بقاياها الأثرية[195]. إن الإشارة الوحيدة هي تلك المتعلقة بالدواليب أو النواعير التي يتحدث عنها مجهـول كتـاب الاستبصار، وهي المعلومة التي لا تفاجئ لأن الحضـارة الإسـلامية طـورت هـذه التقنيات. لقد كانت في الأندلس خصوصا معروفة جدا[196]، وليس مستبعدا لعب المهاجرين الأندلسيين الحاضرين مبكرا في بجاية دورا في تطوير البساتين[197].

كما في كل فلاحة في المحيط العمراني، فقد كانـت موجهـة لتلبيـة حاجيـات السكان من الفواكه والخضر الطازجة. لكـن الجغـرافيين توقفـوا خصوصـا حـول المزروعات الصناعية، خصوصا الكتان والقنب والقطن[198]. ونشير في النهايـة إلى عدة نباتات طبية تحدث عنها الإدريسي في جبل بجاية (قوراية)، رغم ضعف أثرها الاقتصادي من دون شك[199].

---

(195) يتحدث لوران شارل فيرو (Laurent-Charles Féraud) عن بقايا القنوات في سهل الصومام، لكن وصفه لا يسمح بإعطاء تاريخ لها. Féraud, *Histoire de Bougie*, *op. cit.*, p. 28-29. هي مشار إليها أيضا في مفتاح الخريطة التي أنجزت بعد الاحتلال الفرنسي مباشرة. BNF, Cartes et plan, Ge D 27868.

(196) أنظر:

V. Lagardère, *Campagnes et paysans d'al-Andalus (VIIIe-XVe siècle)*, Paris, 1993, p. 243-357.

(197) D. Valérian, « Les Andalous à Bougie, XIe-XVe siècle », *Migrations et diasporas méditerranéennes, XIe-XVIe siècles*, dir. M. Balard et A. Ducellier, Paris, 2002, p. 325-326.

(198) Léon l'Africain, p. 407 (الكتان والقنب)، ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص 142 (القطن). يزرع أيضا الكتان في جيجل في عصر ليون الإفريقي. Léon l'Africain, p. 362

(199) الإدريسي، الترجمة ص 165. نجد فيها خصوصا خشب الحضض والسقولو فندريون والبرباريس والقنطوريون الكبير والرزاوند والقسطون والإفستين. حول هذه النباتات واستعمالها في العصر الوسيط، أنظر:

Ibn al-Baytār, *Traité des Simples*, trad. L. Leclerc, *Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque nationale*, 23, 1877, p. 11, 100-105, 442 ; 25, 1881, p. 203-204, 260 ; 27, 1883, p. 85-86.

وأخيرا استطاعت بجاية جلب منتجات واحات الجنوب التي تمتعت بمناخ حار كثيرا، الملائم خصوصا لزراعة نخيل التمر.

كانت الزاب الجهة الأقرب التي ارتبطت ببجاية، والإدريسي تحدث فيما يخص طبنة عن زراعة القطن والحنطة والشعير، إضافة لتمور وافرة وفواكه أخرى[200]. في فترة متأخرة، ألح ابن سعيد المغربي في حديثه عن بسكرة، قاعدة الزاب، على بلاد التمر، مع أيضا الحبوب وكل أنواع الفواكه التي تباع في مدينتي تونس وبجاية[201].

إلى الجنوب أكثر، أنتجت أيضا واحات ريغ ووارجلان التمور التي باعتها إلى الشمال. وسمحت الآبار باغتراف المياه الجوفية لوادي ريغ ومن تموين الواحات[202]، التي أهمها تقورت حيث كانت غنية بإنتاج التمور والتي صدرتها إلى قسنطينة في عصر ليون الإفريقي[203]. إلى الجنوب، كان لوارجلان خصوصا وظيفة تجارية، لكن ابن خلدون، مثل ليون الإفريقي المتأخر، لاحظ وفرة إنتاجها من التمور[204].

الغابة

تمثل الغابة مصدرا هاما ونادرا في البلدان المسلمة المتوسطية، وعلى عكس عدة جهات أخرى، تمتلك بلاد القبائل غابات غنية. ويلفت الإدريسي النظر إلى

---

(200) الإدريسي، الترجمة ص 169. تمت الإشارة أيضا إلى إنتاج القطن في فترات قديمة جدا في هذه الواحات الواقعة على جانب الصحراء.

M. Lombard, *Les Textiles dans le monde musulman, VIIe-XIIe siècle*, Paris, 1978, p. 71.

(201) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص 126.

(202) Reclus, *op. cit.*, p. 561.

(203) Léon l'Africain, p. 438-439.

في عصره، يبدو أن جهة ريغ ووارجلان استدارت أكثر نحو الشرق (قسنطينة وتونس).

(204) البربر، 1، ص 192، Léon l'Africain, p. 439

وجود الخشب في وديان وجبال بجاية[205]، وتحدث ليون الإفريقي أيضا عن "جبال غليظة مغطاة بالغابات"[206]. ويبدو عدم اختفاء حاد للغابات في العصر الوسيط، على غرار جهات أخرى في المغرب[207].

لم يوضح الجغرافيون مطلقا أنواع الأشجار التي يتحدثون عنها. يتشكل الغطاء النباتي اليوم في جوهره من البلوط والصنوبر الحلبي والأرز. يقترب على الأقل في قسم منه من الذي رآه المسافرون في نهاية العصر الوسيط. إن الفلين هو الشجرة الجوهرية قرب بجاية ونجده إلى غاية ارتفاع 1200-1300 م[208]. ويمكن أن يجتمع مع الصنوبر الحلبي في الجهات الأكثر جفافا وحرارة[209]، ومع الزان في الجهات المعرضة أكثر للأمطار[210]. ويتطور في الطابق الجبلي البلوط الأخضر الذي يبدأ على نحو ارتفاع 400م، ويمكن أن يصعد إلى 1700م وحتى 1900م في الأطلس الصحراوي المتقدم[211]. وأخيرا، في الأعلى الأرز الذي يمكن أن ينمو

---

(205) الإدريسي، الترجمة ص 166.

(206) Léon l'Africain, p. 361, 406.

(207) واصفا مجال زواوة في "مقاطعة بجاية"، يروي ابن خلدون أنهم "أوطنوا عنها جبالا شاهقة متوعرة تنذعر منها الأبصار ويضل في غمرها السالك". البربر، 1، ص 256.

(208) Bernard, *op. cit.*, p. 59, 211. Despois, *L'Afrique du Nord*, *op. cit.*, p. 87.
نجده في الجهات الأكثر تساقطا (على الأقل بحاجة إلى 600 ملم من الأمطار في السنة) ودرجات حرارة معتدلة.

(209) ينمو في الجهات التي لا تستقبل أكثر من 300 ملم من الأمطار في السنة، حتى في الأراضي غير المنتجة. نجده في البيبان وأيضا في الجنوب إلى غاية حد الصحراء، في الحضنة والأوراس والأطلس الصحراوي المتقدم.

Despois, *L'Afrique du Nord*, *op. cit.*, p. 89 ; Bernard, *op. cit.*, p. 60.

(210) Despois, *L'Afrique du Nord*, *op. cit.*, p. 87 ; Bernard, *op. cit.*, p. 59.
يسمى الجبل الذي يسكنه بني غبرين بجبل الزان "بسبب الكمية الكبيرة للزان التي تغطيه". البربر، 1، ص 256. أنظر أيضا الفارسية، ص 186.

(211) Despois, *L'Afrique du Nord*, *op. cit.*, 88, Bernard, *op. cit.*, 59, 211.
متوفر خصوصا على الجانب الجنوبي للأطلس التلي الشرقي.

بداية من 1300م إلى غاية 2300م ارتفاعا ونجده خصوصا في جرجرة، والحضنة، والبابور، والأوراس[212].

إنّ هذا الغنى هو ورقة رابحة كبيرة لبجاية بما أن عدة جهات متوسطية أعاقها نقص الخشب، خصوصا في الشرق الأدنى، المتميزة بغياب غطاء غابي منذ فترة طويلة[213]. ويمكن استعمال الخشب بطرق مختلفة: مصدر للطاقة، إذن للصناعات (التعدين، الزجاج، الفخار)، خشب الأعمال، كمثال للبناءات البحرية، أو أيضا للمرافق الخاصة من خلال قشوره وزفته. وتعرف بعض الأشجار بنوعيتها وصلابة خشبها، مثل الزان أو الأرز. كبحري جيد، أشار بيري رايس إلى قدوم البجائيين إلى جبال جيجل للبحث عن الخشب لصوار سفنهم[214]. ووفرت الأشجار أيضا الزفت والقطران[215] التي يمكن استعمالها في دهن السفن[216]. ولاحظ بيري رايس أيضا توفر الماستيك في جبال جيجل حيث كان يجنى[217]. وأخيرا، استعملت قشور بعض الأشجار في دبغ الجلود[218].

(212) Bernard, *op. cit.*, p. 62, 209 ; Despois, *L'Afrique du Nord*, *op. cit.*, p. 93.

(213) M. Lombard, « Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée musulmane du VIIe au XIe siècle », *Le Navire et l'économie maritime du Moyen Âge au XVIIIe siècle, principalement en Méditerranée, Actes du IIe colloque international d'histoire maritime*, Paris, 1958, p. 53-106, et Id., « Le bois dans la Méditerranée musulmane VIIe-XIe siècle ; un problème cartographié », *Annales ESC*, 1959, 14/2, p. 234-254.

(214) Pīrī Reis, trad. Mantran, art. cité, p. 165

(215) الإدريسي، النص ص 116، الترجمة ص 166.

(216) يشرح ليون الإفريقي كيف يصنّع في الأطلس الزفت من خشب العرعار أو الصنوبر ويعمل: "في فرن دائري عميق في جزئه الأسفل، وثقب يتناسب مع تجويف على شكل إناء. وتؤخذ الأغصان الخضراء من العرعار أو الصنوبر وتقطّع إلى قطع صغيرة وتوضع في الفرن وتسد الفوهة ويسخّن بحرارة معتدلة، ويقطّر الخشب بفعل الحرارة والمحصول يسيل في الجزء العميق عن طريق فتحة مخصصة لهذا الغرض في أسفل الفرن. Léon l'Africain, p. 575.

(217) Pīrī Reis, trad. Mantran, art. cité, p. 165.

ب) تربية الماشية والصيد

إن تربية الماشية تعد واحدة من النشاطات التي تتلاءم مع الجهات الجبلية، والتي كانت ممارستها قديمة وهامة في المنطقة كما في كامل المغرب قبل القرن الحادي عشر(219). لقد تطورت أكثر مع وصول السكان الرحل الرعويين في أغلبهم، دون أن تكون متساوية دون شك عبر كل الجهات.

إذا كان الجغرافيون يعلقون أهمية قليلة لهذا النشاط مقارنة مع الزراعة، فإنهم يلفتون النظر إليه في الجبال دون الإشارة إلى حجمه. فالإدريسي يتحدث عنه في القلعة(220) وليون الإفريقي في بجاية(221). ولم توضح النصوص مطلقا الأنواع التي تمت تربيتها. وبخصوص البربر، قال ابن خلدون بأنهم يربون الأغنام والأبقار وأحيانا الجمال، وأوضح بأنه هو نفس انشغال العرب(222). لكن تظهر وثائق التجارة وفرة تصدير الجلود والصوف، وهذا دليل على أن تربية الماشية كانت هامة: الأغنام والماعز خصوصا وكذلك الأبقار.

لقد كانت تربية الماشية دون شك مرتادة على الكلأ، خصوصا في الجبال. ويصف ابن خلدون قبائل جهة بجاية وقسنطينة التي تربي المواشي وتعيش تحت الخيمة، كعلامة لوجود على الأقل قسم من الرحل(223). وتنقسم هذه التنقلات

---

(218) قشر أشجار بجاية كان مصدرا إلى أوروبا. مؤخرا، قشر شجر الصنوبر الحلبي كان مستعملا في دباغة الجلود في الجهة. حول كل المعلومات المتعلقة بغابة بجاية، أشكر السيد محمودي، مدير الحظيرة الوطنية بقوراية- الذي أفادني من معرفته الكاملة لنبات الجهة.

(219) Vanacker, « Géographie économique », art. cité, p. 674.

(220) الإدريسي، الترجمة ص 167. إن مجال القلعة ملائم لرعي القطعان والدواب.

(221) أشار ليون الإفريقي (Léon l’Africain, p. 406) إلى عدد كبير من الماعز والأبقار والخيول. وتحدث أيضا عن تربية الأغنام والأبقار ببونة (*ibid.*, p. 369) . وفي بونة، هذه التربية لم تكن جديدة وتكلم ابن حوقل عن تجارة الأغنام والصوف. ابن حوقل، المصدر السابق، ص 72.

(222) البربر، 1، ص 167.

(223) البربر، 1، ص 294.

إلى صنفين بحجم مختلف: من جهة بين السهل والجبل، ومن جهة أخرى بين مراعي الشمال ومراعي الجنوب. إذا كانت التنقلات الأولى غير معروفة جيدا، فإن الثانية بالمقابل مشار إليها بشكل جيد[224]، ويتعلق الأمر بحياة ترحال وتنقل حقيقية تتطلب تنقلا على مدار قسم كبير من نشاط مجموع القبيلة، وليس الرعاة فقط. إن أثرها على الحياة في التل هام في فصل الصيف، لوجوب الاستقرار وتغذية سكان معتبرين. إن تنظيم هذا الترحال من أجل الكلأ في العصر الوسيط غير معروف جيدا، ولكن يمكن أن نلاحظ كيف يسير اليوم- أو كيف سار منذ فترة متأخرة[225]. ويتحول هؤلاء الرعاة إلى مزارعين ويمكنهم المشاركة في الحقول في فصل الصيف[226] قبل عودتهم في الخريف إلى واحات الجنوب لجني التمور[227]. وهو أيضا وقت السنة التي تقام فيها المبادلات بين رحل-رعاة الجنوب والمزارعين المستقرين في التل، ويمكن بيع وتحويل على الأقل قسم من القطيع إلى موانئ الشمال. وعموما، إنّ تنقل السكان يساعد التجارة الداخلية بين البحر وواحات الصحراء وما ورائها.

يعطي هذا الترحال أهمية كبيرة لمنطقة السهوب التي تتوسط التل والصحراء، خصوصا جهة الحضنة والزاب[228]. هنا، بين منطقة تساقط 50

(224) غالبا ما تترك قبائل الرحل المعارك وجيش السلطان في الشتاء لتذهب إلى مراعيها في الجنوب. على سبيل المثال، البربر، 3، ص 67-68، ساعد الدواودة أبي عبد الله لاسترجاع بجاية ورجعوا إلى أراضيهم التي يجولون فيها في الجنوب خلال خمس سنوات، مما أدى بهم إلى تثبيت مستقر الأمير في المسيلة.

(225) أنظر: Desbois, *L'Afrique du Nord, op. cit.*, p. 218-221، وخريطته لقبائل الصحراء التي تقضي صيفها في التل (ص 222).

(226) Despois, *L'Afrique du Nord, op. cit.*, p. 227, 239.

عند الانتهاء من المحاصيل، تصبح سيقان الحنطة مراعي.

(227) *Ibid.*, p. 226 فيما يخص رحل تقورت، يغادرون للتل بصفة عامة في النصف الأول من جوان، أحيانا قبل أن يكون الطقس جافا جدا، ويذهبون للأوراس والسهول القسنطينية.

(228) *Ibid.*, p. 98, 103.

و100ملم، هي جهة جوهرية لتربية الماشية المتنقلة(229). إنه سبب إضافي يفسر عناية بجاية بالتحكم في هذه الجهة لأسباب سياسية (مكان لجوء المتمردين) واقتصادية (مكان لرعي القطيع ومرور المنتجات إلى إفريقيا السوداء).

في النهاية، تجب الإشارة إلى تربية النحل، المذكورة على سبيل المثال في القل حيث يصنع الشمع(230)، وهو أحد المنتجات التي تصدرها بجاية، أو أيضا دودة الحرير التي كانت تربى في قسنطينة(231). وأخيرا كان الصيد يمارس في بجاية(232)، كما يبيّنه ليون الإفريقي الذي يذكر عدم اصطياد البجائيين في الصومام، لقربهم من البحر(233). ويشير الإدريسي أيضا إلى هذا النشاط في جيجل، وكتاب الاستبصار في بونة، وليون الإفريقي والغبريني في دلس(234).

يمثل إذن الاقتصاد الريفي بجهة بجاية إنتاجا متنوعا جدا بفضل تنوع المناخ خصوصا، ونجد الزراعات التي تميز الوسط المتوسطي حول المدن حيث استفادت من التقدم في ميدان الري، وأيضا الزراعات الأكثر تخصصا في الوسط الواحي.

---

(229) في هذه الجهة أيضا تربى الجمال التي تستعمل في التجارة الصحراوية:
J. Devisse, « Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. Un essai sur le commerce africain médiéval du XIe au XVIe siècle », *Revue d'Histoire Économique et Sociale*, 50, 1972, p. 371.

(230) Léon l'Africain, p. 364، الإدريسي، الترجمة ص 170 (جهة قسنطينة).

(231) يقول لنا ليون الإفريقي على كل حال أن التجار يصدرونه نحو نوميديا. لكن ربما لا ترد من الجهة. Léon l'Africain, p. 366

(232) إنّ مياه بجاية سمكية، ومازالت اليوم ميناء صيد نشط. حول هذا النشاط، أنظر:
M. Hammam, « La pêche et le commerce du poisson en Méditerranée occidentale (Xe-début XVIe). Tableau historico-géographique établi d'après les sources musulmanes », *L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Âge*, dir. M. Hammam, Rabat, 1996, p. 151-179,
الذي لا يذكر بجاية من بين موانئ الصيد.

(233) Léon l'Africain, p. 548.

(234) الإدريسي، الترجمة ص 173، الاستبصار، الترجمة ص 30، الغبريني، ص 162، Léon l'Africain, p. 352

وعرفت تربية الماشية ازدهارا يصعب تقدير أثره على الفلاحة المستقرة. إن المشكل الرئيسي الذي لا تسمح بجله مصادرنا هو كميات الإنتاج. إذا لم تكن هناك مجاعة دائمة- ما عدا في بعض السنوات الاستثنائية- لا نجد أثـرًا لزيـادة فـائض الإنتـاج باستثناء بعض المنتجات المتخصصة.

3) المعادن والحرف

أ- ثروات باطن الأرض

إنّ بلاد القبائل غنية بالمعادن وبعضها استغلّ في العصر الوسيط، على غرار الحديد لضرورته في عدد من الميادين. لقد أشار كل من الإدريسي وليون الإفريقي لمعادن جبال بجاية[235]. إن شهرة هذا الحديـد امتـدت حتـى إلى المشـرق، لإشـارة كتاب في الأسلحـــة ألف للســـلطان صلاح الدين إلى حديد بجاية، مبرزا تواضع نوعيته[236]. وتوجد المناجم في جنوب بجاية في جبـال البـابور[237]، وجبـل قوراية هـو أيضـا غـني بالحديـد[238]، مثـل بقيـة مجمـل الجهـة بصـفة عامـة[239].

(235) الإدريسي، الترجمة ص 166 (الذي اعتبره طيبا). ليون الإفريقي Léon l'Africain, p. 407 (الذي قال بأنه يعمل بسبائك من نصف رطل التي تستعمل كنقود).

(236) مرضا بن علي بن منصور، تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسماء ونشر الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء العدو، نشر وترجمة كلود كاهن:

Cl. Cahen, « Un traité d'armurerie composé pour Saladin », *Bulletin d'études orientales*, 19, 1942-1948, p. 106, 127.

ووجدت مناجم ذات الجودة العالية غالبا خارج البلدان الإسلامية:

Y. Rāġib, « La fabrication des lames damascées en Orient », *JESHO*, 40/1, 1997, p. 33.

(237) Bernard, *op. cit.*, p. 211, 266-267 ; Despois, *L'Afrique du Nord*, *op. cit.*, p. 424.

يوجد على وجه الخصوص منجم في تيمزيرت جنوب القصر.

(238) M. Debruge, « Les pieds d'Hercule. Abris sous roche à Bougie », *Recueil de la société archéologique de Constantine*, 37, 1903, p. 131 :

"يسيطر الحديد إلى درجة أن الأراضي التي تصب عليها الأمطار تبدو مدهونة، وسمى العرب أنفسهم موضعًا بعيدًا قليلا بالجبل الأحمر"هذا المعدن الحديدي هو متوفر جدا في كل الجبل.

واستخرجت ثروات أخرى من باطن الأرض مثل النحـاس[240]، والـلازورد[241] أو الجبس قرب المدينة[242]. وتتحدث الوثائق التجارية أيضا عن شب بجاية، لكـن بالأحرى يتعلق الأمر بصادرات من بلاد كوار في الصحراء.

ب) الصناعات التحويلية

إن المعطيات التي توفرها النصوص العربية حول القطـاع الثـانوي ببجايـة وجهتها قليلة جدا. ويشير الإدريسي وليون الإفريقي إلى حضور الأنشطة الحرفيـة في المدن، لكن دون تقدير لأهميتها مطلقا. كتب الأول عن حرف بجاية: "وبها مـن الصناعات كل غريبة ولطيفة"[243]، وأشار الثاني إلى هـذه الأنشـطة تقريبـا في كـل مدن الجهة. و لكن ربما كانت الأرياف قد عرفت إنتاجا حرفيا، خصوصا بالنسـبة للنسيج.

(239) أنظر: *Algérie, notice minéralogique par le service des Mines*, Alger, 1900, p. 79-84.

يشير إليه ابن حوقل في بونة ويقول بتصدير هذا الحديد إلى بلدان أخرى. ابن حوقل، المصدر السابق، ص 72. أنظر:

St. Gsell, « Vieilles exploitations minières en Afrique du Nord », *Hespéris*, 8, 1928, p. 1-21,

الذي يشير إليه في جهة القل وجيجل وبونة.

M. Lombard, *Les Métaux dans l'ancien monde, du Ve au XIe siècle*, Paris-La Haye, 1974, p. 159-161.

(240) البكري (الترجمة ص 166) الذي يتحدث عنه في جبال كتامة قرب بجاية ويخبرنا بتصديره إلى إفريقية وإلى جهات أخرى. أنظر:

Lombard, *Les Métaux*, *op. cit.*, p. 182.

(241) البكري، الترجمة ص 166، وتوجد معادن اللازورد في البابور. Bernard, *op. cit.*, p. 211

(242) الإدريسي، الترجمة ص 173 الذي يتحدث عن قرية متوسة بين جيجل وبجاية حيث يصدر الجبس إلى بجاية.

(243) الإدريسي، الترجمة ص 166.

النسيج والجلود

النسيج هو دون شك القطاع الأكثر أهمية، إنه تقليد قديم في إفريقية. ويشهد الجغرافيان ابن حوقل والبكري على هذا الإنتاج النوعي الذي كان مصدرا إلى الشرق، خصوصا نحو مصر[244]. واستند هذا النشاط في بلاد القبائل إلى منتجات الأرياف (الصوف، الكتان، القنب). إنّ الصادرات المتعددة في القرن الثالث عشر من كتان وقطن (وبأقل درجة القنب) توافقت مع صناعة تحويلية في عين المكان. أشار الغبريني في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر إلى سوق الصوف[245]. لكن ليون الإفريقي هو الأكثر فائدة على الأخص من أجل تكوين فكرة – حتى وإن كانت غير كاملة- عن هذه الحرفة. فيما يخص بجاية، يتحدث عن النسيج، بكل أحجامه، المصنوع من الكتان والقنب المزروع في النواحي[246]. ويشر أيضا إلى المنتجات النسيجية عند حديثه عن جهات قسنطينة (منسوجات صوفية مصنوعة في البلاد) [247]، وميلة (أغطية صوفية) وبونة (أنسجة) [248]. ويشير تقريبا في نفس الفترة البرتغالي دورتي باشيكو بيريرا (Duarte Pacheco Pereira) في وصفه لسواحل إفريقيا الغربية (حوالي 1506-1508)، إلى "لامبانس (lambens) الذي هو عبارة عن قطعة من قماش

(244) E. Ashtor, « Les lainages dans l'Orient médiéval. Emploi, production, commerce », *Produzione commercio e consumo dei panni di lane (nei secoli XII-XVIII), Atti della II Settimana di studio di storia economica*, Florence, 1976, [p. 657-686], rééd. *Studies in the Levantine Trade in the Middle Ages*, p. 666-667. Lombard, *Les Textiles*, *op. cit.*, p. 34, et les remarques de M. Chapoutot-Remadi, « Réflexions sur l'industrie textile dans le monde musulman au Moyen Âge. À propos d'un livre récent », *Annales, ESC*, 35/3-4, 1980, p. 504-511.

(245) الغبريني، ص 161، 177.

(246) Léon l'Africain, p. 407.

(247) *Ibid.*, p. 365-366.

يترك النص انطباعا بحرف تقليدية ريفية والتي تسوّق منتجاتها في قسنطينة قبل أن تعيد توزيعها إلى أبعد من ذلك.

(248) *Ibid.*, p. 369.

تستعمل كأغطية لدالنتيخو (Alentejo) التي لها خط أحمر وآخر أخضر، وآخر أزرق وآخر أبيض، حيث يقدر سمك الواحد منها من اثنين إلى ثلاثة أصابع، ويصنّع هذا القماش في مدينة وهران وتنس في مملكة تلمسان وببونة وسطورة في مملكة بجاية وأيضا تونس وفي جهات أخرى من بلاد البربر"[249]. هل وجدت- بجانب هذه المنتجات المشتركة- أنسجة مرموقة؟ عند مروره بالمدينة، ندد المهدي بن تومرت بشدة بلباس رجال بجاية الذي نظر إليه على أنه مرموق ونسوي[250]. لكن فضلا عمّا لدينا من تنميق أدبي، ليس هناك ما يشير إلى أنها منتجات محلية.

إنّ نشاط الحرفيين الصغار معروف قليلا من خلال حياة أبي مدين الذي أمضى قسما كبيرا من حياته في بجاية. إنّ المريدين الذين تجمعوا حوله تجنّدوا ويعدون من بين الحرفيين الذين نسجوا الصوف والقطن والحرير أو عملوا كخياطين أو طرازين. بعضهم ترك حياة الحكم والملذات ليصبحوا خياطين ومصممي أزياء[251]. إنها إذن المهن التي تظهر متواضعة في هذه التراجم[252]. تجب الإشارة أيضا إلى أننا لا نرى في نصوصنا تشكل ثروات كبيرة بفضل الصناعة النسيجية. وتأتي الأموال بالأحرى سواء من ممارسة الحكم أم التجارة[253].

(249) Duarte Pacheco Pereira, *Esmeraldo de Situ Orbis*, éd. E. Da Silva Dias, Lisbonne, 1905, p. 111, cité par R. Ricard, « Le commerce de Berbérie et l'Empire portugais », *AIEO*, 2, 1936, p. 269.

(250) البيدق، الترجمة ص 79.

(251) H. Ferhat, « Un maître de la mystique maghrébine au XIIe siècle : Abu Madyan de Tlemcen », *Le Maghreb aux XIIe et XIIIe siècles : les siècles de la foi*, Casablanca, 1993, p. 64, 71.

(252) عندما أراد ابن خلدون وضع تصوير في غير صالح المغتصب ابن أبي عمارة، ذكّر أنه كان مجرد خياط بسيط في بجاية. البربر، 2، ص 388. هناك تقاليد تحدد للحياك مكانة سفلية في المجتمع. R. Brunschvig, « Métiers vils en Islam », *Studia islamica*, 16, 1962, p. 50-56 ويظهر دابغ الجلود أيضا من بين "المهن الحقيرة". لكن يجب مراجعة تأكيد هذا التصنيف في الفترات المتأخرة من العصر الوسيط.

(253) ترك كاتب عامل بجاية ثروته التي اكتسبها بوظائفه وأصبح خيّاطًا. الغبريني، ص 58-59.

عمل الجلود أيضا نشاط تحويلي. وبيّن روبار برونشفيك (Robert Brunschvig) أنها كانت منتشرة جدا في إفريقية الحفصية[254]، ويمكننا انتظارها في بجاية، في جهة بها تربية المواشي. لكن الإشارات حولها تعتبر هزيلة جدا، ولا تتحدث عنها النصوص العربية. وتظهر وثائق الأرشيف صادرات الجلود البجائية، ولكن غالبا غير مصنّعة. إنّ الإشارة الوحيدة هي إشارة طبونيمية: وجود باب الدباغين في بجاية، حيث لمح إليه الغبريني في القرن الثالث عشر[255]، وهي توحي بوجود هذا النشاط خارج الأسوار، دون شك في السهل على ضفاف مجرى مائي (الوادي الصغير؟). ويمكننا الاستنتاج بيقين وجود نشاط مهم بتحويل الجلود في المدينة أو في الجهة.

* الخزفيات

تغيب صناعة الخزفيات تماما في النصوص العربية، على الرغم من أننا نصادف عدة إشارات لـ"فخار بجاية" في وثائق الأرشيف البروفانسية[256]. توجد – خصوصا في السهل جنوب بجاية قرب مصب الصومام- أرضيات صلصالية يمكنها إيجاد صناعة ما[257]. وأظهرت الدراسات التي أجريت بالقلعة وفرة الخزفيات ذات الجودة[258]، ولفت جورج مارسي (Georges Marsais) النظر إلى وجود

---

(254) Brunschvig, *La Berbérie, op. cit.*, II, p. 233.

(255) الغبريني، ص 82.

(256) H. Amouric, « Les importations de céramiques dites de Bejaia (Bougie) en Provence et Ligurie (XIIIe-XVIe siècles). Le témoignage énigmatique des textes », *A Cerâmica medieval no Mediterrâneo ocidental, Lisboa, 16-22 de novembro 1987*, Mértola, 1991, p. 333-337.

(257) ما زال هذا النشاط إلى اليوم.

(258) L. M. E. de Beylié, *La Kalaa des Beni-Hammad. Une capitale berbère de l'Afrique du Nord au XIe siècle*, Paris, 1909, p. 86-87. R. Bourouiba, *La Qal'a des Banî Hammâd*, 1975, p. 57.

هناك توضيح أكثر حداثة، لكن انطلاقا من المعطيات التي تعود إلى حفريات سنوات 1950 قام به غولفان:=

الخزفيات البجائية ذات الاستعمال المشترك والمرموقة من خلال الفخاريات التي تم جمعها من نقاط مختلفة من داخل السور وفي جوانب المدينة العريقة[259]. لكن هذه الأعمال، التي هي الآن قديمة، قامت على الملاحظات الزخرفية. والتزمت بإظهار تحويل التقنيات والزخرفة من القيروان في وقت وصول الهلاليين، الذين ربما دفعوا الحرفيين إلى اللجوء إلى القلعة[260]. وميّز جورج مارسي عدة فترات وزخرفات وأظهر إنتاجا امتد حتى الفترة الحفصية. ووجدت خزفيات وسيطة أيضا في مواقع أخرى في الجهة، خصوصا في سطيف[261]. غير أن غياب المرجعيات الستراتيغرافية (طبقات التربة) لهذه الأدوات صعّب من تأريخيتها إلا عن طريق دراسة الزخرفة. ومن جهة أخرى، لم يجر أي تحليل جيو-كيميائي للطين الصلصالي، وهذا ما يحد من إمكانيات تفسير الأدوات، وخصوصا استحالة المقارنة مع الخزفيات التي عثر عليها في أماكن أخرى من الحوض المتوسط، خصوصا في أوروبا[262].

=L. Golvin, « Les céramiques émaillées de période hammâdide. Qal‘a des Banû Hammâd (Algérie) », *La Céramique médiévale en Méditerranée occidentale. Xe-XVe siècle. Colloque international de Valbonne, 11-14 septembre 1978*, Paris, 1980, p. 203-217.

(259) G. Marçais, *Les Poteries et faïences de Bougie (collection Debruge). Contribution à l'étude de la céramique musulmane*, Constantine, 1916.

ويمكن إكماله بـ:

M. Jenkins, *Médiéval Maghribî Céramiques. A Reappraisal of the Pottery Production of the Western Regions of the Muslim World*, Ph. D. Dissertation, New York University, 1979, p. 136, 152.

(260) Jenkins, *Medieval Maghribî Céramiques, op. cit.*, p. 136, 172. Kairouan elle-même aurait suivi les modèles de Bagdad. M. Jenkins, « Médiéval Maghribi Lustre-painted Potery », *La Céramique médiévale en Méditerranée occidentale, op. cit.*, p. 335-342.

(261) A. Mohamedi, « Information sur les découvertes récentes en céramique médiévale effectuées à Sétif (Algérie) », *La Céramique médiévale en Méditerranée occidentale, op. cit.*, p. 219-220.

(262) كما جرى هذا لخزفيات إفريقية الشرقية.

وتوحي هذه الإشارات القليلة جدا إلى وجود نشاط تحويلي في بجاية وفي جهتها. لا يبدو -وهذا واضح جدا بالنسبة للنسيج- أنّ تطوير الحرف قد أعطى ميلاد برجوازية حضرية استمدت الثروة والجاه من هذا النشاط. بالعكس، الكل يشير إلى تركيبة متواضعة عموما.

في هذه الصورة غير المكتملة لنشاط بجاية الاقتصادي ومجالها الحيوي، يتضح أن لا مجال للحديث عن أزمة اقتصادية حادة. يجب إذن تخفيف يأس النصوص، خصوصا نص ابن خلدون. نحن بالأحرى أمام حضور اقتصاد متوسطي تقليدي ومتنوع جدا.

في المقابل، من الصعب معرفة بأي مقياس سمح هذا الإنتاج بالتخلص من الفائض القابل للتجارة والتصدير[263]. يجب من أجل هذا التوفر على المعطيات الرقمية التي تنقصنا. من جهة أخرى، إن حجم الجباية التي تقوم بها الدولة، أو البدو، يبقى مجهولا. وأخيرا، لا نعرف ما إذا كانت الثروات التي تأتي من هذه الضرائب قد استثمرت في الأنشطة المنتجة أو التجارة، أو بالعكس إذا ما بقيت طفيلية خالصة.

(263) مايا شتزماير (Maya Shatzmiller) تعتبر أن العمل كان منتظما بالوظيفة وليس بالطلب الدولي، ولكن في الأسواق الجهوية فقط، دون البحث عن الفائض المصدّر.

M. Shatzmiller, « L'organisation du travail urbain et les métiers », *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, xe-xve siècle*, dir. J.-Cl. Garcin, II, Paris, 2000, p. 214-215.

رغم وجود هذا الفائض، لا نرى لأي سبب لم يبحث عنه على الأقل في بعض القطاعات الاقتصادية.

IV- منفذ للمنتجات الصحراوية؟

كتبنا كثيرا حول هذه العلاقات بين المغرب وبلاد الذهب والتي أراد البعض من خلالها رؤيتها كأحد مفاتيح تاريخ إفريقيا الشمالية[264]، رغم أن المصادر تعتبر هزيلة وغالبا ما يصعب تفسيرها. وذكّر جون دوفيس (Jean Devisse) - الذي هو أحد أكبر المختصين فيها- أن الصورة التي لدينا حول هذه التجارة الصحراوية هي أقل واقعية، لأنّ الاكتشافات الأثرية أظهرت أن الكل كان معقدا أكثر من الذي رفعت عنه النصوص الحجاب[265]. وتبقى الحفريات اليوم غير كثيرة، خصوصا على المحور الذي يخص بجاية. وتشهد نصوص الجغرافيين خصوصا على الفكرة التي كانت للمغاربة حول هذه التجارة، في حين أن الأوروبيين أعطوا لنا صورة أكثر تشويها من خلال التمثيليات الخرائطية[266]. يجب إذن الحذر من المعلومات المتوفرة.

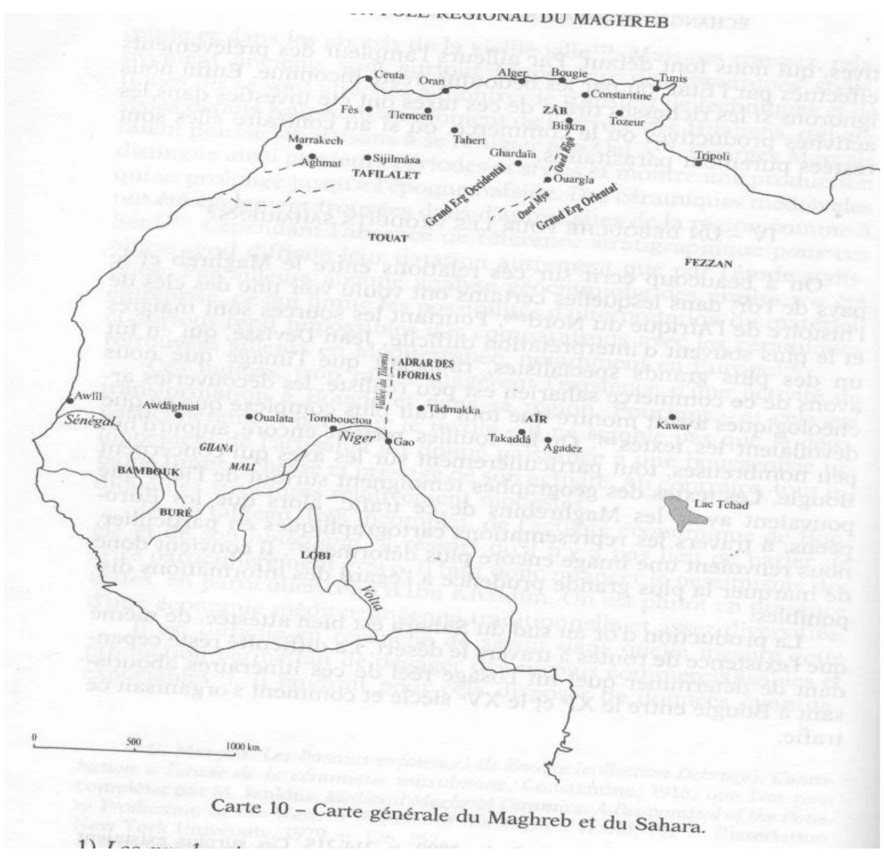
إنّ إنتاج الذهب جنوب الصحراء هو مشهود به وأيضا وجود الطرق عبر الصحراء. ولكن يبقى المشكل في تحديد الاستعمال الحقيقي لهذه المسالك التي تنتهي إلى بجاية بين القرن الحادي عشر والقرن الخامس عشر وكيف انتظمت هذه التجارة.

---

(264) M. Lombard, « L’or musulman du VIIe au XIe siècle. Les bases monétaires d’une suprématie économique », *Annales ESC*, 1947, 2/2, p. 17 : "للسيطرة (نهايات طرق الذهب) في المغرب، بدأ صراع محكم بين مختلف دول الغرب الإسلامي، ولدينا هنا أحد الخيوط السائقة التي ترشدنا في التاريخ الغامض للعصر الوسيط الشمال الإفريقي".

(265) J. Devisse, « Commerce et routes du trafic en Afrique occidentale », *Histoire générale de l’Afrique*, III, *L’Afrique du VIIe au XIe siècle*, dir. M. el-Fasi, Paris, 1990, p. 446.

(266) Y. K. Fall, *L’Afrique à la naissance de la cartographie moderne (14e/15e siècles : les cartes majorquines)*, Paris, 1982, p. 161-226.



Carte 10 – Carte générale du Maghreb et du Sahara.

خريطة 10: خريطة عامة للمغرب والصحراء

1) منتجات جنوب الصحراء

تشتهر جهات الجنوب الصحراوية بكونها بلاد الذهب، والعبيد بأقل درجة. إن الذهب حاضر في الغرب الإفريقي، سواء في المناجم أم على شكل سبائك في طمي الأنهار(267). لمحاولة دراسة جغرافية هذا الإنتاج في العصر الوسيط، يجب مقابلة ما تقوله مصادرنا مع معارفنا حول المناجم الحالية.

(267) R. Mauny, *Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Âge d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie*, Dakar, 1961, p. 293.

يتحدث الجغرافيون عن جهات الـذهب، ولكـن يظهـر أن التجـار العـرب الذين وفدوا إلى إمبراطوريات إفريقيا السوداء لم يصلوا أبدا إلى الجهات التي تحتوي على الذهب. إن المعلومـات الـتي نتـوفر عليهـا كانـت إذن ثانويـة (مـن الدرجـة الثانية). ويلفت البكـري والإدريسـي النظـر إلى ثـروة ملـك غانـة[268]. وفي فـترة متأخرة، أشار العمري في منتصف القرن الرابع عشر إلى ثـروة ملـك مـالي الـذي وقعت تحت سيطرته بلاد الذهب[269]. ومن جهتها تظهر الخرائط الأوروبية منطقة إنتاج للذهب تقع بالتقريـب في إفريقيـا الاسـتوائية، ولكنهـا تسـتند إلى شـهادات التجار الذين نفذ بعضهم على الأقل إلى القارة حتى تخوم الصحراء دون الـذهاب إلى أبعد من ذلك[270].

إن الجهات المعروفة التي اسـتعملت كوسـيط والـتي تحكمـت في صـادرات الذهب لجنوب الصحراء نحو الشـمال. وتعاقبـت عـدة إمبراطوريـات في إفريقيـا الغربية. الأولى هي غانة، التي تحكمت في سلسلة من الدويلات مثل أودغشـت أو مانديغ بامبوك (Mandingues du Bambuke) والتي لعبت في القرن الحادي عشر دور وسيط إجباري لهذه التجارة الصـحراوية. لكـن التوسـع المرابطـي نحـو الجنوب جعلها هشة، تاركة المكان لإمبراطورية مـالي في منتصـف القـرن الثالـث عشر[271]، وهذه وصلت إلى قمة ذروتها في القرن الرابع عشر وحلـت مكانهـا في النصف الثاني من القرن الخامس عشـر إمبراطوريـة السـنغاي[272]. ولعبـت هـذه

---

(268) البكري، الترجمة ص 317، الإدريسي، الترجمة ص 74–75، Mauny, *op. cit.*, p. 302

(269) العمري، الترجمة ص 52–84، Mauny, *op. cit.*, p. 303

(270) ذهب أنطونيو مالفانت (Antonio Malfante) حتى إلى توات. ويجزم مفتاح خريطة جيوفاني كريجنانو (Giovanni da Carignano) (بداية القرن الرابع عشر) الذي استند إلى شهادة مباشرة لتاجر جينوي الذي استقر ربما بسجلماسة وجمع بها معلومات حول تجارة الذهب. Fall, *op. cit.*, p. 162-163

(271) أ. شكري، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية، الرباط، 1997. أنظر أيضا شهادة ابن خلدون، البربر، 2، ص 110. بين نهاية القرن الحادي عشر ومنتصف القرن الثالث عشر، عرفت الجهة هزات سياسية هامة. Mauny, *op. cit.*, p. 511

(272) هذا التقديم هو موجز جدا. حول هذا السياق السياسي: Maury, *op. cit.*, p. 300, 510-513 والتوضيحات الأخيرة في:

الدول دورا تناوبيا لتجارة الذهب، عن طريق تنظيم جمعها في الجهات المنتجة وبيعها لتجار الشمال[273].

كانت إذن الجهة المنتجة للذهب بعيدة جدا، في الجهة المعروفة بالغابات. وباعتماده على أعمال الجيولوجيين، استطاع رايمو موني (Raymond Mauny) رسم خريطة مناجم الذهب في إفريقيا الغربية[274]. إنّ الجهات الرئيسية هي جالام-بامبوك (Galam-Bambuke) ، والبوري (le Bourré) ، واللوبي (le Lobi) ، وساحل الذهب الغربي (la Côte d'Or occidentale) ، وساحل العاج السفلي الشرقي[275]. انطلاقا من المعطيات الجغرافية، أخذ جون دوفيس بالنصوص الجغرافية العربية (البكري والإدريسي) وحاول – بمقابلة المعلومات– إيجاد تحديد تقريبي لمصادر الذهب في عصورهم. وأوضح أهمية المنطقتين الشماليتين جالام-بامبوك والبوري[276]. إلى الجنوب أكثر، يشهد على استغلال مناجم ساحل الذهب وساحل العاج في وقت وصول البرتغاليين في 1470[277]. وأخيرا ماريان مالوي (Marian Malowist) الذي أشار إلى ازدهار استخراج الذهب في جهة فولتا العليا (la Haute-Volta) وفي غابات أشنتي (Ashanti) (مناجم لوبي) في القرنين الرابع عشر والخامس عشر[278].

L'Histoire générale de l'Afrique, IV, *L'Afrique du* XIIe *au* XVIe *siècle*, dir. D. T. Niane, Paris, 1985 : D. T. Niane, « Le Mali et la deuxième expansion manden », p. 141-196 ; M. Ly-Tall, « Le déclin de l'Empire du Mali », p. 197-212 ; S. M. Cissoko, « Les Songhay du XIIe au XVIe siècle », p. 213-235.

(273) J. Devisse, « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 359-360.

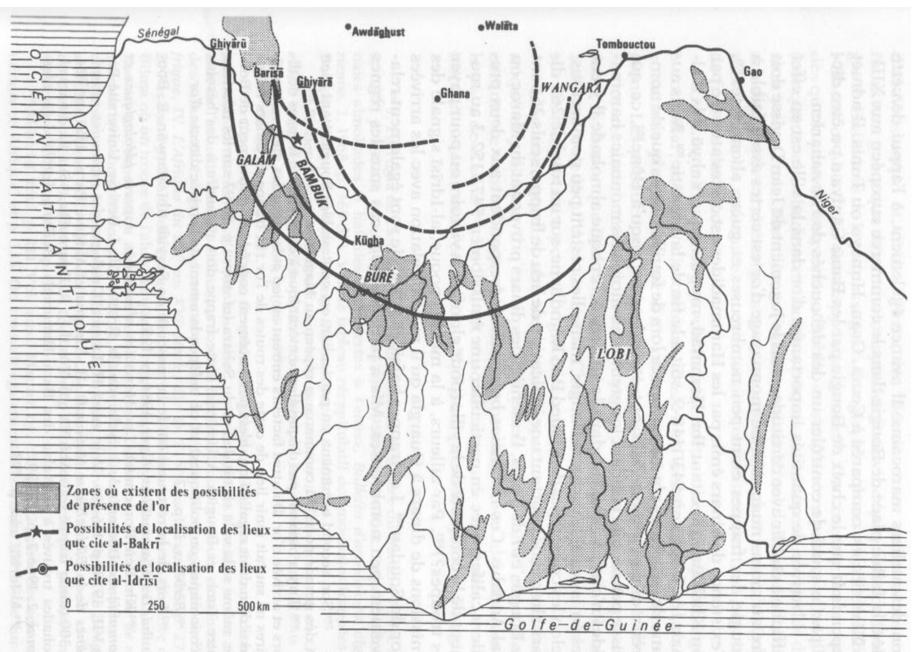
(274) Mauny, *op. cit.*, p. 295.

(275) Mauny, *op. cit.*, p. 294-298.

(276) Devisse, « Commerce et routes du trafic », art. cité, p. 453.

(277) Mauny, *op. cit.*, p. 298.

(278) M. Malowist, « Sur l'or du Soudan. Quelques observations sur le commerce de l'or dans le Soudan occidental au Moyen Âge », *Annales ESC*, 25/6, 1970, p. 1631.



Carte 11 – Gisements d'or africain (source : J. Devisse, «Commerce et routes du trafic en Afrique occidentale», *Histoire générale de l'Afrique*, III, *L'Afrique du VIIe au XIe siècle*, dir. M. el-Fasi, Paris, 1990, p. 453).

خريطة 11: مناجم الذهب الإفريقي

إن كمية الذهب المرسلة نحو أسواق الشمال هي بالمقابل غير أكيدة. لقد أعطى رايمون موني (Raymond Manny) تقديرا إجماليا يقدر ب 9 طن في السنة، انطلاقا من المناجم غير المستغلة في سنوات 1950[279]. محتجا على المنهج والنتائج، فضّل جون دوفيس الاستناد إلى احتياجات السكة والصياغة في المغرب وإسبانيا الإسلامية، إذن الذهب الذي اجتاز فعليا الصحراء. ووصل إلى أرقام أقل بكثير حيث لا تتجاوز 3 أطنان سنويا. وبإضافته للذهب المستهلك محليا[280]،

(279) Mauny, *op. cit.*, p. 299

(280) تجب الإضافة أيضا أن الذهب الذي ذهب إلى أوروبا المسيحية، سواء بدفع ضرائب أم بمبادلات تجارية. من الصعب أيضا تقدير كمياته، لكنها كانت هامة دون شك.

خلص إلى أن إنتاج الذهب لم يتجاوز 4 أو 5 أطنان [281]. ومهما يكن فما هي إلا فرضيات يعوزها الدليل.

يبقى المشكل في معرفة ما إذا كان هذا الذهب قد وصل بحجم ذي دلالة إلى بجاية. ويشك في ذلك جون دوفيس بالنسبة للفترات الأكثر قدما (حتى حوالي 1200) ويعيد النظر في تأكيدات الإدريسي[282]. ولاحظ أن السكة الذهبية المعروفة لم تسبك إلى غاية منتصف القرن الثاني عشر، وبعض الدنانير الموحدية المضروبة "المسكوكة" في بجاية والتي وجدت لا يمكنها منافسة إنتاج دور السكة في المغرب الأقصى. ويقدم أيضا، بالاستناد إلى هذه الفكرة، ضعف مكانة بجاية في التجارة الأوروبية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، مقارنة مع سبتة، ووهران، وهنين أو تونس. ولكنه تقبّل فكرة أن اختيار بني غانية لبجاية أملي بحاجة التحكم في منافذ الذهب الصحراوي.

من الصعوبة الإثبات بيقين وصول كميات هامة من الذهب إلى المدينة، لكن يجب إعادة النظر في حكم جون دوفيس[283]. إنّ سك العملة الذهبية كان طبعا ضعيفا في بجاية، لأن الضرب لم يكن كثيرًا وغير وافر مطلقا[284]. يشهد ابن

(281) J. Devisse, « Approximatives, quantitatives, qualitatives : valeurs variables de l'étude des traversées sahariennes », *Relaciones de la Península ibérica con el Magreb siglos XIII-XVI. Actas del coloquio, Madrid, 1987*, dir. M. García-Arenal et M. J. Viguera, Madrid, 1988, p. 173 ; Id., « Commerce et routes du trafic », art. cité, p. 417.

(282) Dévisse, « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 70-71.

(283) خصوصا حجته الثانية هي قابلة للنقاش، لأن بجاية كانت إحدى أكبر موانئ التجارة الأوروبية في المغرب.

(284) طبعا، ليس هناك معادلة ميكانيكية توضع بخصوص ضرب الدنانير ووصول الذهب. تدخل عوامل أخرى في اللعبة وخريطة دور السكة لا يمكنها الإحلال مكان طرق الذهب: إنّ ضرب الدنانير هو من الحقوق المرتبطة بالسيادة الملكية، وليس بالضرورة منح امتياز لعامل بجاية، حتى وان استقبلت المدينة ذهب الصحراء. بالعكس، يجب أن يستجيب هذا الضرب للحاجيات (الاقتصادية والسياسية) وهذا بصرف النظر عن وصول الذهب.

خلدون على وجود الدنانير التي ضربها الحماديون - حيث يستشهد بابن حماد- والذي يروي أن يحي بن العزيز ضربها في 543/ 1148، أي في نهاية السلالة[285]. لكن لم يتم العثور على أي قطعة نقدية خلال الحفريات في حين عثر على عدد كبير من الدنانير المرابطية إلى غاية بونة[286]، وهذا ما يترك الانطباع بعدم سيطرة العملة الحمادية لفترة طويلة على الجهة. وفي الفترة الموحدية، كان هناك سك للدنانير في بجاية، لكنها بقيت غير كثيرة. وحسب إحصاء خالد بن رمضان، هناك فقط 26 دينار ضربت ببجاية من مجموع 262 دينارا موحديا يحمل إشارة لمكان الضرب، في حين ضربت 7 في تونس والأهم جاء من المغرب الأقصى والأندلس. تتطابق هذه النقود البجائية مع عهدي الخليفتين الأولين، خصوصا سك عام 547/ 1152 في وقت فتح المدينة (لتمجيد الانتصار أو لدفع مرتبات الجيوش؟)[287]. من جهة أخرى وفي نفس الفترة، أشار الإدريسي إلى سك الدنانير في وارجلان التي وضعها على علاقة بوصول ذهب السودان[288]. إنّ الضرب الحفصي في بجاية لم يكن كذلك كثيرا. ما عدا بعض الحالات أثناء حكم المستنصر وأبي فارس، إنّ كشوفات العملة لا تظهر مطلقا الضرب الذي أجراه الأمراء

---

(285) البربر، 2، ص 57.

(286) عند ترميم مسجد سيدي أبي مروان. R. Bourouiba, *Les H'ammadites*, Alger, 1984, p. 125

(287) Kh. Ben Romdhane, *Les Monnaies almohades. Aspects idéologiques et économiques*, Doctorat de 3e cycle, sous la direction de J. Devisse, Université Paris VII, 1979, p. 116-120. أنظر أيضا H. Lavoie, *Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale*, II, *Espagne et Afrique*, Paris, 1891, n° 724, p. 300 (الدينار المضروب تحت حكم أبي يعقوب يوسف) ; R. Bourouiba, « Sur six dinars almohades trouvés à la Kalaa des Banu-Hammad », *Bulletin d'archéologie algérienne*, 2, 1966-7, p. 271-291.

(288) الإدريسي، الترجمة ص 198.

المستقلين ببجاية(289). وأخيرا خلال مرورهم ببجاية، ضرب السلطانان المرينيان أبو الحسن وأبو عنان دنانير(290). ونلاحظ إذن أنه فقط بمجرد استقرار الحكم بالمدينة أو بمروره بها (فتوح موحدية ومرينية، فترات الاستقلال) يتم بث الدنانير. من جهة أخرى، أثبتت الاتفاقيات الممضاة مع القوى المسيحية وجود دار سكة. ويبدو أن المصادر من الذهب وجدت وسمحت للضرورة بضرب النقود.

ورأينا أخيرا أن الحكم الحفصي وضع طاقة كبيرة للتحكم، حتى بطريقة غير مباشرة، في بسكرة والزاب في حين أنه اكتفى بسهولة أكثر بحكم نظري في جهات أخرى. إنّ المنتجات الخاصة بالواحات لا يمكنها لوحدها تفسير هذا الارتباط والسبب الرئيسي لهذه المصلحة هو بكل وضوح تحكم بسكرة في الطريق الرئيسي المؤدي إلى الصحراء ومن هناك إلى إفريقيا السوداء. وهنا دون شك إشارة أكثر تأكيدًا إلى أهمية التجارة الصحراوية لبجاية.

إنّ الذهب هو الإنتاج الإفريقي الأكثر أهمية على الصعيدين الاقتصادي والسياسي. ولكنه ليس الوحيد الذي كان مادة للتجارة مع المغرب. كان إنتاج الشب حسب الإدريسي في بلاد كوار(291) ومن هناك صدّر بكميات كبيرة نحو

(289) J. Farrugia de Candia, « Monnaies hafsides du musée du Bardo », *RT*, n. s., 9, 1938, p. 231-88 ; La voix, *op. cit.*, n° 941-942, 950, 952, 968 ; R. Dokali, « Monnaies almohades et hafsides découvertes à Ténès », *Bulletin d’archéologie algérienne*, 3, 1968, p. 369-391.
أنظر الجدول الموجز للنقود المضروبة ببجاية في العصر الحفصي، بعيزيق، بجاية، المرجع السابق،ص 264-262.

(290) R. Ben Hsain Masmoudi, *Approche quantitative de l’or monnayé en Occident musulman (450/1058-9 - 830/1426-7)*, thèse de l’université Paris 1, sous la direction de J. Devisse, 1994, p. 669, 695.

(291) "من هنا يجلب الشب الفريد من نوعه، المشهور بالكواري". الإدريسي، الترجمة ص 110. أنظر أيضا، نفسه، ص 81. توجد بلاد كوار في واحات بلمة الحالية في شمال بحيرة تشاد حيث توجد خصوصا أماكن إنتاج الملح:=

الشمال وخصوصا نحو وارجلان[292]،حيث يمكنه اللحاق ببجاية. الرجال كانوا أيضا موضوع التجارة في اتجاه الشمال. ويقول لنا ابن سعيد المغربي أن العبيد يصلون إلى المغرب الأوسط وإفريقية عن طريق وارجلان[293]. لقد أشير إلى العبيد السود ببجاية[294]، ولكن من المستحيل تقدير أهميتهم. ويقدر جون دوفيس هذا البزل من الرجال ببعض الآلاف، وأكثر من بعض عشرات الآلاف في السنة[295].

=D. Lange, « Royaumes et peuples du Tchad », *Histoire générale de l'Afrique*, IV. *L'Afrique du XIIe au XVIe siècle*, dir. D. T. Niane, Paris, 1985, p. 276-277 et carte p. 286.

اكتشف دارك لانج (Dierk Lange) في 1977 موقعًا غير بعيد عن بلمة حيث يوجد الشب بنوعية متواضعة حقا:

D. Lange, « L'alun du Kawar, une exportation africaine vers l'Europe », *Cahiers du CRA [Centre de recherche africaine], Histoire*, 2, 1982, p. 22

وتؤكد القصص الشعرية للقرنين الثاني عشر والثالث عشر الأصل الصحراوي للشب، وتشير إلى أن شب بجاية وتونس جاء من بحر الرمل (Mar delle Arene).

R. S. Lopez, « I Genovesi in Africa Occidentale nel Medio Evo », *Studi sull'economia genovese nel Medio Evo*, I, Turin, 1936, p. 35.

(292) الإدريسي، الترجمة ص 111. أنظر أيضا: Manny, *op. cit.*, p. 322 (carte des sels minéraux en Afrique)ووجد أيضا في نهاية القرن الثاني عشر في سوق الشب المصرية "ما نسميه بالكواري، الذي جاء من الواحات" الذي هو أقل جودة من الشب المصري. ابن مماتي، إشارة من كلود كاهن:

Cl. Cohen, « L'alun avant Phocée », *Revue d'histoire économique et sociale*, 41, 1963, p. 433-447, Reed. *Turc byzantina et Orients Christian us*, Londres, 1974, p. 435.

(293) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص 126. أنظر:

J. Lethielleux, *Ouargla, cité saharienne, des origines au début du XXe siècle*, Paris, 1983, p. 159, 167-168.

(294) يصف الغبريني امرأة من العبيد السود في سوق باب البحر. الغبريني، ص 165. أنظر بعيزق، بجاية، المرجع السابق، ص 455-456.

(295) Devisse, « Approximatives, quantitatives, qualitatives », art. cité, p. 171-172.

من جهة أخرى، تبيّن تجارة العبيد السود من طـرف التجـار المسـيحيين بـالأحرى سوق تموين جيد في جبال برقة ببلاد طرابلس وليس في بجاية. وأخيرا، اسـتطاعت إفريقيا السوداء أيضا تـوفير الخشـب الـثمين (الأبنـوس) والعـاج والصـمغ[296]، والأدوات الغريبة مثل ريش النعام للشمال[297].

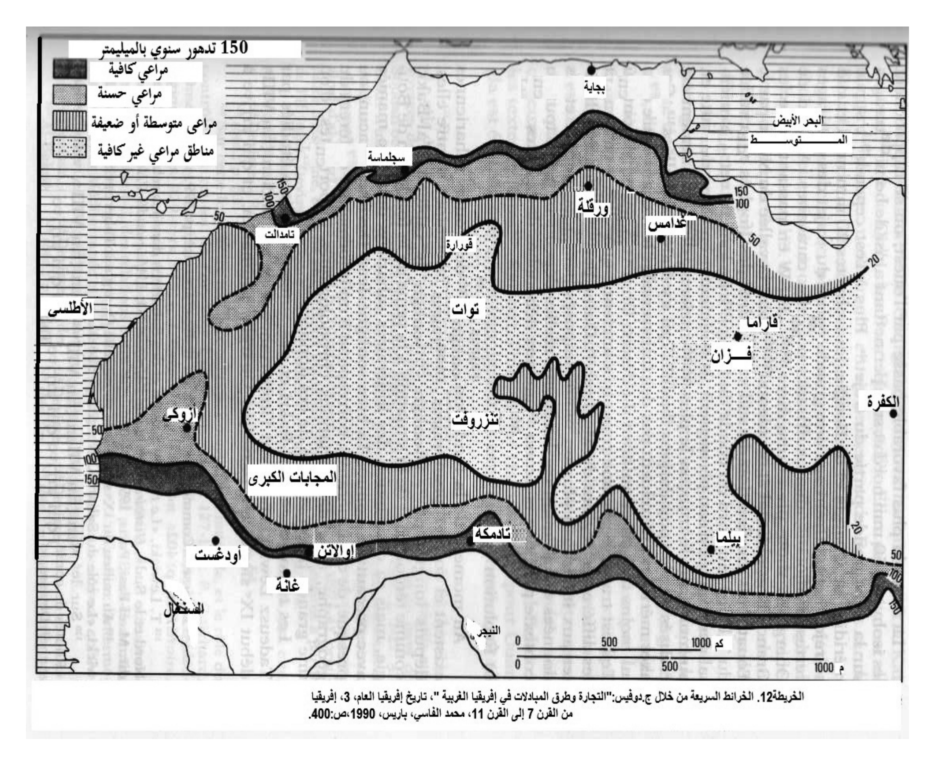
2) المسالك الصحراوية

مثّلت المسالك الصحراوية موضوع عدد من الدراسات التي أظهرت تطورا - خصوصا بداية من القرن التاسع الميلادي- لشبكة من المسـالك عـبر الصـحراء تربط مدن الساحل بمدن المغرب. وأخذت هذه الأبحاث بعين الاعتبـار مـن جهـة مضايقة المحيط ومن جهة ثانيـة إسـهام النصـوص العربيـة، خصوصـا الجغـرافيين والرحالة. يجب استعمال هـذه النصـوص بحـذر، لأن الطريـق لم يكـن غـير قابـل للتبدل ويتغير بحسب السياق سواء في شمال أم في جنوب الصحراء.

أـ المسالك الممكنة

تخضع الطرق الصحراوية قبل كل شيء إلى الظـروف الطبيعيـة، خصوصـا مشكل الماء (لا تطرح المرتفعات مشكلا كبيرا). وتسمح خريطة منطقـة التسـاقط بفهم جيد للمحاور الكبرى لهذه التجارة خصوصا، لكن يجب إتمام ذلـك بدراسـة الثروات الباطنية من المياه التي تسمح بخرق مياه الآبار.

(296) Devisse, « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 56, 61, 369.
(297) Lethielleux, *Ouargla*, *op. cit.*, p. 166 الذي لا يعطي مرجعه



الخريطة12. الخرائط السريعة من خلال ج.دوفيس:"التجارة وطرق المبادلات في إفريقيا الغربية "، تاريخ إفريقيا العام، 3، إفريقيا من القرن 7 إلى القرن 11، محمد الفاسي، باريس، 1990،ص:400.

يمر الطريق المناسب جدا عن طريق الغرب حيث تقترب منطقة تساقط من 50 ملم شمالا وجنوبا، وهذا ما يسمح بالمراعي الجيدة في قسم كبير من المسيرة[298]. لكن إلى الشرق أكثر، على خط طول وارجلان وبجاية، تلتقي منطقة تساقط 20 ملم شمالا وجنوبا، معطيا بذلك كلأ طبعا متواضعا في قسم كبير من المسيرة، لكنه كافيا للقوافل. ويأخذ الطريق في جنوب وارجلان اتجاه شمال شرق-جنوب غرب ويمر بالعرقين الكبيرين الشرقي والغربي ويلحق بحوض النيجر عن طريق توات ثم باتجاه الجنوب نحو أدرار الإيفوغاس وحوض تلمسي (في شمال منعطف النيجر) [299]. وتسمح مصادر المياه على طول هذا المحور الشرقي من التزود في الطريق، وعلى الأقل في الجزء الأكثر شمالا، من الآبار التي

(298) Dévisse, « Commerce et routes du trafic », art. cité, p. 399.
(299) *Ibid.*, p. 402.

حفرها السكان الإباضيين الذين استقروا بها[300]. لا تقصي هـذه المحـاور الطوليـة الطرق العرضية بينها، على الأقل في جنوب وشمال الصحراء. رأينا بأن ظهر التل كان يعبره طريق طويل جدا يصل إلى مختلف جهات المغرب[301]. ولكن لا يمكننا الاقتصـار علـى المسـالك الـتي تفرضـها علـى الأقـل أو علـى الأكثـر الجغرافيـا والمعطيات المناخية، لأن الطـرق الحقيقيـة تتوقـف قبـل كـل شـيء علـى السـياق السياسي والاقتصادي في منافذ هذه المحاور.

ب) التطور

في وقت تأسيس بجاية تواجـدت طـرق صـحراوية سـالكة – علـى الأقـل بعضها- منذ زمن طويل[302]. ويمكننا اعتبار جدول البكري شهادة حول الوضعية عشية تأسيس بجاية، ولكن وصفه للمسالك الصحراوية يجب التعامل معـه بحـذر، كما لفت النظر إلى ذلك جون دوفيس. كل واحد، أو تقريبـا، مـن هـذه المسـالك يتناسب مع مخبر مختلف عن الجغرافي مع تنوع كرونولوجي هام، ومن هنا جـاءت المعطيات غير متجانسة[303].

وتظهـر شـهادات البكـري والمـؤلفين الإباضـيين الـذين درسـهم تـاديوش ليفتشكي (Tadeusz Lewicki) أهمية المحور القديم (نهاية القرن الثامن-بداية القرن التاسع) الذي يمـر عـبر وارجـلان، تادمكـة، والـذي يصـل إلى جـاو أو إلى

(300) T. Lewicki, « Le rôle du Sahara et des Sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud », *Histoire générale de l'Afrique*, III, *L'Afrique du VIIe au XIe siècle*, dir. M. el-Fasi, Paris, 1990, p. 305.

(301) في منتصف القرن الحادي عشر كان هناك طريق يصل وارجلان بتاهرت وسجلماسة. Lewicki, « Le rôle du Sahara », art. cit., p. 326-327.

(302) حول بدايات العبور الصحراوي في العصر الوسيط، أنظر: Devisse, « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 42 s.

(303) Devisse, « Commerce et routes du trafic », art. cité, p. 434.

غانـة[304]. ومـن وارجـلان توصـل الطـرق سـواء إلى القـيروان أم إلى قلعـة بـني حماد[305]، وتسمح خصوصا من التزود بالذهب القادم من بامبوك أو بوري المخزّن في جاو وخصوصا في غانا[306].

ويمر طريق آخر أحدث عن طريق سجلماسـة، وهـو إنشـاء فـاطمي هدفـه الالتفاف على الشبكات الإباضية في المغرب الأوسط والشـرقي[307]. لكـن رغـم جهود الفاطميين للحفاظ على تحكمهم في هذا المحور الاستراتيجي، فإنهم أرغمـوا على ترك الجهات الغربية للمغرب للأمويين بإسبانيا الذين أعادوا سيطرتهم علـى سجلماسة[308].

(304) Devisse, « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 51-52 ; Lewicki, « Le rôle du Sahara », art. cité, p. 327 ; Id., « Quelques extraits inédits relatifs aux voyages des commerçants et missionnaires ibadites nord-africains au pays du Soudan occidental et central au Moyen Âge », *Folia orientalia*, 2, 1960, p. 1-27.

لم يشر البكري إلى مخبره حول هذا الطريق، لكن تظهر المصادر الإباضية أنها كانت مستعملة فعليا في عصره(Devisse, « Commerce et routes du trafic », art. cité, p. 437). من جهة أخرى، المخبر الرئيسي للبكري، وهو محمد بن يوسف الوراق (292/ 904-363/ 973)- أصله من إسبانيا- كان على صلة بالأوساط الإباضية التي تعرف هذه المسالك انطلاقا من إفريقية.

Devisse, « Commerce et routes du trafic », art. cité, p. 434.

(305) Al-Bakrī, trad. p. 340 ; Devisse, « Commerce et routes du trafic », art. cité, p. 436 ; Amara, *Pouvoir, op. cit.*, p. 443-445.

(306) Devisse, « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 54.

(307) *Ibid.*, p. 53.

(308) حول هذا الصراع بين الخلافتين الأموية والفاطمية ودور التحكم في طرق الذهب، أنظر:

Laroui, *op. cit.*, p. 127-130 ; P. Guichard, « Omeyyades et Fatimides au Maghreb. Problématique d'un conflit politico-idéologique (vers 929-vers 960) », *L'Égypte fatimide. Son art et son histoire*, dir. M. Barrucand, Paris, 1999, p. 67.

في وقت تأسيس بجاية، تقاسم إذن محوران للتجارة الصحراوية مع غلبة واضحة لطريق سجلماسة[309]. ويرى جون دوفيس بصفة عامة عدم وصول الذهب إلى إفريقية في نهاية القرن العاشر وخلال القرن الحادي عشر، بسبب تحكم الأمويين في سجلماسة، وهذا تفسير للأزمة التي عرفتها البلاد عشية وصول الهلاليين[310]. لم يتأكد تجفيف وصول الذهب إلى القسم الشرقي من المغرب. لقد استمر طريق وارجلان في الخدمة وفي منافسة الطرق الأموية كما يوضحه البكري والنصوص الإباضية[311]. خصوصا، أهمية وارجلان للحماديين التي هي واضحة، كما تشهد على ذلك الحملات العسكرية التي قادها المنصور والناصر في الزاب وفي جهة وادي ريغ. الكل يدفع بالاعتقاد أن تضييع الفاطميين لسجلماسة أدى بالعكس إلى تجدد الطريق القديم الإباضي عبر وارجلان[312]، الذي أصبح لايموّن حينئذ القلعة فقط وإنما بجاية أيضا[313].

أدى دخول المرابطين على مسرح الأحداث إلى تغييرات هامة في تجارة الذهب السوداني. لقد استولى هؤلاء الأخيرين على سجلماسة ودفعوا بسيطرتهم بعيدا جدا نحو الجنوب. وأدى هذا التحكم في الطرق الغربية للذهب إلى إمكانية

(309) Devisse, « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 55.

لكن وجدت على ما يبدو علاقات بين سجلماسة وقلعة بني حماد، وربما أيضا مع بجاية.

R. A. Messier, « Sijilmâsa : l'intermédiaire entre la Méditerranée et l'Ouest de l'Afrique », *L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Âge*, dir. M. Hammam, Rabat, 1995, p. 185.

(310) Devisse, « Commerce et routes du trafic », art. cité, p. 428.

(311) البكري، الترجمة ص 340.

T. Lewicki, « Les liaisons maghrébines sahariennes et soudanaises de la ville de Ouargla au Moyen Âge », *Études maghrébines et soudanaises*, Varsovie, 1976, p. 9-78 ; Amara, *Pouvoir, op. cit.*, p. 444-445.

(312) يتعقد مايكل برات (Michael Brett) أن وارجلان استفادت من هجرات السكان الإباضيين الجربيين الذين طردهم التدفق الهلالي.

Brett, « Ifrīqiya as a Market for Saharan Trade », art. cité, p. 361.

(313) الإدريسي، الترجمة ص 198.

ضرب الدنانير الذهبية التي تجاوزت شهرتها بكثـرة المجـالات المرابطيـة[314]، مثـل القطع التي عثر عليهـا إلى غايـة بونـة في شـرق المجـال الحمـادي، وحتـى إلى غايـة المشرق[315]. بالعكس، نقص سك العملة بقوة في إفريقية خلال هذه الفترة[316].

ولكن في منتصف القرن الثاني عشر، أظهر الإدريسي ثراء تجار وارجـلان، وهي مدينة على علاقة بغانة حيث ضربت النقود الذهبية[317]. ويبـدو أن تشـكيل هذا المحور استثناء للاحتكار المرابطي للتموين بالذهب[318]، وليس مستبعدا تأديـة الاضطرابات التي عرفتها إفريقية الشرقية في نهاية الأسرة الزيرية إلى ازدهـار هـذا المحـور: وارجـلان-بجايـة[319]. وتبـيّن خريطـة المسـالك الصـحراوية مـن خـلال الإدريسي محورين كبيرين: الأول في الغرب سقى بوفرة العالم المرابطي والآخـر في الشـرق كـان يصـل إلى المجـالات الحماديـة. لم يكـن هـذان النظامـان متسـاويين، والمرابطون – الذين تحكموا لوقت إلى غاية النهاية السودانية للطرق الصـحراوية- جففوا مـن المحتمـل جـزءا هامـا مـن مصـادر ذهـب إفريقيـة الغربيـة ولم يتركـوا للحماديين إلا جزءًا يسيرا جدا.

(314) امتدت شهرة "المرابطين marabotins) خصوصا إلى أوروبا، وهذا ما يظهر انتشار هام نحو الشمال.

R. A. Messier, « The Almoravids. West African Gold and Gold Currency of the Mediterranean Basin », *JESHO*, 17, 1974, p. 31-47.

أنظر أيضا: Devisse, « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 67

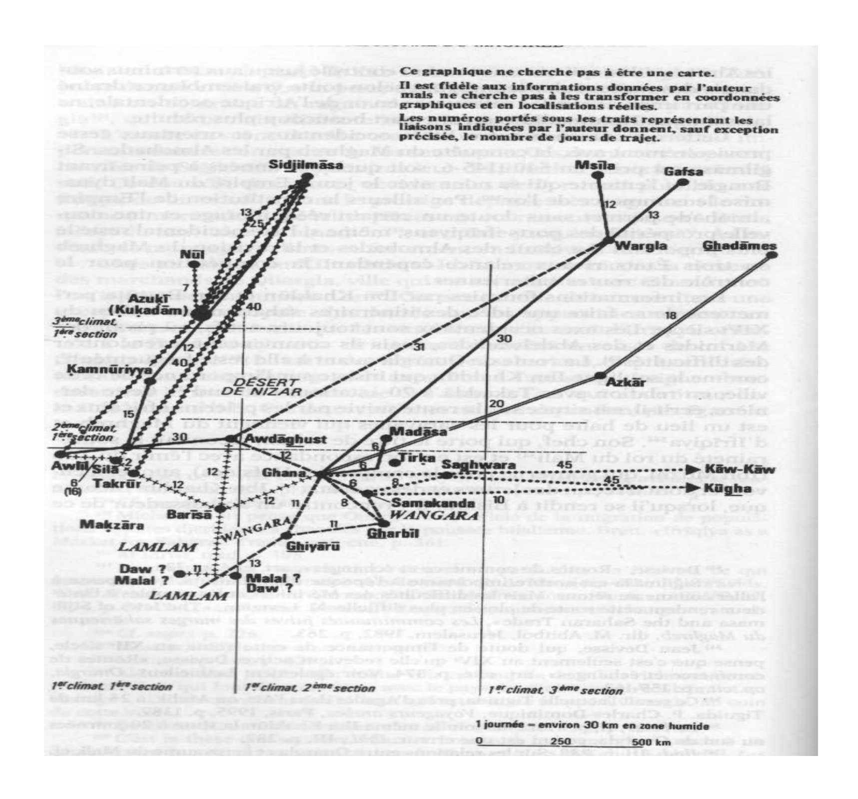
(315) Messier, « Sijilmâsa », art. cité, p. 184.

(316) Mauny, *op. cit.*, p. 429.

(317) الإدريسي، الترجمة ص 72، 198: "وهي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم وهم وهبية إباضية نكار خوارج في دين الإسلام"

(318) Devisse, « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 69.

(319) هي الأطروحة التي يؤيدها موريس لومبار (Maurice Lombard) الذي يعتقد بتحول غربي أكثر، نحو ميزاب والمرسى الكبير..Lombard, *Les Métaux*, *op. cit.*, p. 218, 233-234 ، لكن لا يسمح أي نص بالحديث في هذا العصر عن أي طريق نشط في الفترة اللاحقة.



خريطة 13: المسالك الصحراوية من خلال الإدريسي (من خلال:
J. Devisse, « Commerce et routes du trafic en Afrique occidentale », Histoire générale de l'Afrique, III, L'Afrique du VII^{e} au XI^{e} siècle, dir. M. el-Fasi, Paris, 1990 ; p. 440).

توقف مؤقتا هذا التنافس بين الدول الغربية والشـرقية مـع فـتح الموحـدين للمغرب، وتمت السيطرة على سجلماسة في 540/ 1145، أي سنوات قليلة قبـل بجاية، والتوافق الذي ساد مع إمبراطورية مالي الفتية حرّك تجارة الذهب[320]. من جهة أخرى، سمح إنشاء الإمبراطورية الموحدية دون شك بإعادة توازن وازدهـار جديد للموانئ الإفريقية، حتى وإن بقي المحور الغربـي هـو الأهـم. وأدى سـقوط الموحدين وتقسيم المغرب بين ثلاث دول متخاصمة إلى إعادة بعـث المنافسـة مـن أجل التحكم في الطرق الصحراوية.

(320) Devisse, « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 72.

وتسمح المعلومات التي يوفرها ابن خلدون وابن بطوطة بإنشاء فكرة حول المسالك الصحراوية في منتصف القرن الرابع عشر. بقيت المحاور الغربية دائما نشطة لصالح المرينيين والعبد الواديين، ولكنها بدأت تلاقي صعوبات[321]. فيما يخص طريق وارجلان، فقد بقي عامرا[322]، كما أشار إلى ذلك ابن خلدون والذي ألحّ على أهمية هذه المدينة التي كانت على علاقة مع تكدا على بعد 70 مرحلة جنوبا[323]. وكتب أن هذه الأخيرة تقع على الطريق الذي يسلكه الحجاج الأفارقة وهو مكان توقف القوافل التي تأتي من المغرب وإفريقية[324]. وشيخ هذه المحطة الذي يلقب بالسلطان يعترف بسيادة ملك مالي[325]، ويتراسل مع أمير الزاب (ابن مزني الذي يحكم لصالح الحفصيين)، حيث يبعث ويتلقى الرسائل والهدايا[326]. ويروي ابن خلدون أنه عندما ذهب إلى بسكرة، التقى هناك برسول هذا السلطان الذي حكى له عن قافلة جاءت في هذه السنة من المشرق وتوجهت

(321) مازالت سجلماسة هامة في عصر ابن بطوطة الذي مرّ بها في الذهاب كما في الإياب. لكن الصعوبات المرينية والفوضى الداخلية جعلت الطريق صعبا.

N. Lévitions, « The Jews of Sijilmasa and the Saharan Trade », *Les communautés juives des marges sahariennes du Maghreb*, dir. M. Abitbol, Jérusalem, 1982, p. 263.

(322) يعتقد جون دوفيس – الذي يشكك في أهمية هذا الطريق في القرن الثاني عشر- أن هذا الطريق أصبح نشطا في القرن الرابع عشر فقط.

Devisse, « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 374. Voir également Lethielleux, *Ouargla*, *op. cit.*, p. 159-162.

(323) يمكن أن تكون تجيدا الحالية قرب أغداس في الغير أو أوزليك على بعد 25 كلم من تجيدا.

P. Charles-Dominique, *Voyageurs arabes*, Paris, 1995, p. 1387.

(324) البربر، 2، ص 116. ويحددها ابن خلدون على بعد 20 مرحلة جنوب وارجلان، وهذا خطأ. نفسه، 3، ص 287.

(325) البربر، 3، ص 288. حول العلاقات بين وارجلان ومملكة مالي، أنظر: Lethielleux, *Ouargla*, *op. cit.*, p. 153

(326) البربر، 3، ص 287.

إلى تكدا من أجل الذهاب إلى مالي والتي تتكون من اثني عشر ألف حمل جمل. وشخص آخر أخبر مؤرخنا بحدوث كل هذا في كل السنوات[327].

وأشار ابن بطوطة أيضا إلى عدة مواكب مرت بتكدا قادمة من الشمال، ولكن لا يتحدث خصيصا عن اتصالات مع وارجلان[328]. ونما في هذه الفترة محور جديد عبر توات الذي نزع تدريجيا إلى خلافة محور سجلماسة السائر في طريق الزوال. وهذا المحور أشار إليه ابن بطوطة الذي مر به أثناء عودته[329]، وتظهر أيضا الخرائط الميورقية هذه الجهة[330]. في الشمال، كانت توات على علاقة رئيسية مع وهران أو تلمسان وMينائها هنين[331]. لكن هذا لا يستبعد العلاقات شرق-غرب، حيث مرّ ابن بطوطة على توات للوصول من تكدا إلى سجلماسة وفاس[332]. وتدل الشهادات أيضا على العلاقات مع الشرق في فترة أكثر قدما، من خلال رسالة من وثائق الجنيزة مؤرخة بعام 1235 والتي تبيّن علاقات تجارية مع القاهرة[333]. انطلاقا من هذا الطريق المؤدي إلى مصر، كان بالإمكان الافتراق نحو الزاب وبجاية. هنا أيضا، كانت مصلحة الزاب للحفصيين. يترك الانطباع أن الجهة كانت هامة في أعينهم بسبب طرق الذهب. وأخيرا، حدث تغير هام في نفس الفترة بإفريقيا الساحلية: إعادة العلاقات المباشرة مع مصر. إن الشهادة الأكثر روعة هي حج ملك مالي، ماسة موسى ومروره بالقاهرة حيث عرض ثرواته

(327) نفسه، 3، ص 288.

(328) ابن بطوطة، ص 1045: كل سكان هذه المدينة هم تجار. وأشار ابن بطوطة في المقابل إلى طريق نحو توات وآخر نحو مصر. دون شك، سمح مفترق طرق انطلاقا من هنا بالوصول إلى وارجلان.

(329) ابن بطوطة، ص 1047-1048.

(330) J. Oliel, *Les Juifs au Sahara. Le Touat au Moyen Âge*, Paris, 1994, p. 83-84 (citant la carte de Abraham Cresque de 1375).

(331) S. Bakchine-Dumont, « Les Juifs du Touat », *Cahiers du CRA [Centre de Recherche Africaine], Histoire*, 1, 1980, p. 42-43.

(332) ابن بطوطة، ص 1047-1049.

(333) Oliel, *op. cit.*, p. 72-77.

خصوصا ذهبه[334]. ليس مستحيلا أن تكون بجاية وتونس قد استفادتا بطريقة غير مباشرة من إعادة بعث نشاط الطريق المصري[335].

في نهاية القرن الخامس عشر، يجب تسجيل عدة تطورات. في الجنوب أولا، ترجمت إقامة إمبراطورية سنغاي بازدهار جديد للعلاقات مع مصر وإفريقية، في حين أن الطريق الغربي – بالعكس- واصل انحطاطه. إنّ وصول البرتغاليين إلى الساحل الغربي لإفريقيا غيّر وجهة قسم من الذهب الذي انطلق مباشرة عبر البحر نحو الأسواق الأوروبية. بإقامتهم لمرافئ جنوب منطقة تأثير التجار المغاربة، استطاع التجار البرتغاليين بيع الأقمشة الأوربية والخيول والفضة مباشرة مقابل الذهب والعبيد، والاستفادة بذلك من طرق بحرية أقل تكلفة من طرق الصحراء[336]. لكن لا تجب المبالغة في تأثير هذا التحويل من قبل البرتغاليين[337]، لأن الطريق الغربي بقي دائما مستعملا وأيضا محور توات، كما تظهره رحلة الجنوي أنطونيو مالفانت (Antonio Malfante) في 1447[338]. واستمر أيضا الطريق الشرقي في الاستقبال كما تظهره شهادة البندقي ألفيس كا دا مستو (Alvise Ca da Mosto) الذي تحدث عن وصول المنتجات الإفريقية إلى تونس قادمة من تمبوكتو عبر توات[339].

(334) Dévisse, « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 366, 380-382.

(335) *Ibid.*, p. 382.

(336) *Ibid.*, p. 384-386.

(337) Devisse, « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 395, à partir des analyses de V. M. Godinho, *O Mediterraneo saariano e os caravanas de oro, Geografia economica e social do Saara ocidental e central do XI as XVI secolo*, São Paulo, 1956.

(338) *Ibid.*, p. 388.

(339) *Relation des voyages à la Côte occidentale d'Afrique*, éd. 1895, p. 63, cité par M. Abitbol, « Juifs maghrébins et commerce transsaharien au Moyen Âge », *Les communautés juives des marges sahariennes du Maghreb*, dir. M. Abitbol, Jérusalem, 1982, p. 246.

بالنسبة لبجاية بالمقابل، الأشياء ليست واضحة بسبب تعديلات الفضاء السياسي الحفصي في القرن الخامس عشر. رأينا فصاعدا أن الزاب وامتداداته الجنوبية وجهوا نظرتهم أكثر نحو الشرق، وقسنطينة وأكثر اتساعا نحو العاصمة الحفصية. إنّ مسعى سلطان تونس للتحكم مباشرة في هذه الجهة الشرقية أو على الأقل سحب سيادتها من بجاية يمكن تفسيره بإرادة بجاية الاستفادة من زيادة القوة التي يوفرها الذهب السوداني. وتؤكد شهادة ليون الإفريقي أننا نتوجه من الزاب وورجلان فصاعدا ليس نحو بجاية، ولكن نحو قسنطينة وتونس: في تقورت يقايض قمح قسنطينة بالتمور وتدفع (نظريا) ضريبة من 50000 دكاتو (ducats) في السنة لتونس[340]. فيما يخص ورجلان التي يلفت ليون الإفريقي النظر لثرائها وعلاقتها بالجنوب (مملكة أغداس): "نجد بها كثيرا من التجار الأجانب عن البلد، خصوصا القادمين من قسنطينة وتونس، حيث يستقدمون إليها منتجات بلاد البربر لمبادلتها بتلك التي يأتي بها التجار من أرض السودان[341]". وتجد هذه المعلومة تأكيدا في رسالة بعثها من تونس التاجر الجنوي جيوفاني جريجوريو ستيلا (Giovanni Gregorio Stella) في 1480 والتي كتب فيها أن ابنه ذهب إلى ورجلان[342]. وأخيرا تمردت بسكرة مرة أخرى بوفاة عثمان ولم تتمكن تونس من استعادة السيطرة عليها[343]. إنّ الطريق الذي ربط بجاية بالصحراء تعرض إذن للقطع سواء عن طريق الثورات أم عن طريق فرض تونس سيطرتها على الجهة. بهذا القدر، لم تكن بجاية منعزلة تماما عن المحاور الصحراوية. فليون الإفريقي كتب أن ميزاب "هو رأس الخط التجاري حيث يلتقي تجار الجزائر وبجاية مع تجار أرض

(340) Léon l'Africain, p. 438.

(341) *Ibid.*, p. 439.

(342) Éd. A. Giuffrida, « Frammenti di corrispondenza commerciale del genovese Giovanni Gregorio Stella residente a Tunisi (1479-1480) », *CT*, 77-78, 1972, p. 36-37 (1/8/1480).

يتحدث في هذه الرسالة عن ملك ورجلة « rey de Orgale » التي رآها بعيدا عن تونس.

(343) Léon l'Africain, p. 440.

السودان[344]. واستطاعت منتجات إفريقيا السوداء الوصول إلى غرداية عبر توات[345]. لقد سايرت الطرق الصحراوية إذن تحول الفضاء السياسي البجائي نحو الغرب، الذي أضاع قسنطينة ولكنه شدّد تحكمه في الجزائر. هذا التغيّر ليس له مبلغ معدوم، لأن بجاية وجدت في منفذ طريق له فرع يؤدي أيضا إلى ميناء كبير منافس، هو ميناء الجزائر، الذي له منفذ أكثر سهولة انطلاقا من ميزاب.

2) تنظيم التجارة

إن سير التجارة الصحراوية غير معروف جيدا. ففي 1972 تأسف جون دوفيس من غياب تحقيقات جغرافية وإثنوغرافية وأثرية[346]، وإذا كانت معارفنا قد تقدمت نوعا ما منذ ذلك الوقت، فإنّ الموضوع يبقى للاستغلال الواسع.

توافقت المنتجات المستقدمة من الشمال نحو الجنوب مع متطلبات سكان جنوب الصحراء. لقد رجحنا منذ وقت طويل فرضية مقايضة الملح بالذهب وهذا بالاستناد إلى شهادة ابن حوقل أو الشهادة المتأخرة لـ كا دا مستو (Ca' da Mosto). إن مناجم الملح في المغرب الأقصى قد استغلت في قسم منها لأسواق الجنوب وهذا الإنتاج شكل مصدرا ديناميكيا لطريق سجلماسة[347]. لا توجد شهادات حول تصدير الملح عبر المحاور الشرقية، لكن لا يستبعد ارسال ملح الشطوط- خصوصا شط الحضنة- نحو الجنوب.

---

(344) *Ibid.*, p. 437.

(345) من توات نحو الشمال، ينطلق طريقان يتفاديان العرق الشرقي. الأول يتجه إلى الغرب نحو تافيلالت والمغرب الأقصى والثاني نحو الشرق ويمر بين العرق الغربي والشرقي للوصول إلى ميزاب.

(346) Devisse, « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 46.

(347) *Ibid.*, p. 53 إن تبعية الجهات الساحلية من الملح ليست أكيدة. يوجد استغلال الملح خصوصا في أوليل وهو ما يشير إليه البكري والإدريسي.
Devisse, « Commerce et routes du trafic », art. cité, p. 411-412.

مهما يكن، وجب على تجار الشمال إيجاد منتجات أخرى لمقايضتها بالذهب. لقد فكّرنا في وقت ما في تبعية الجنوب من النحاس[348]، لكن هذه الفكرة تركت اليوم[349]. لا يبدو أن المنتجات الغذائية التي اجتازت الصحراء كثيرة العدد، خصوصا بسبب التقاليد الغذائية المختلفة[350]، وأيضا بسبب مسألة الحفاظ عليها في وسط معرض وتكلفة النقل. بالمقابل، وجدت المواد المصنعة[351]. وأظهرت الحفريات التي جرت في تاغدست (أودغشت) الخزفيات والمواد الزجاجية والحديدية والنحاسية والفضية والحلي النحاسية، التي كانت ربما موجهة لزبائن مهاجرين شمال إفريقيين، لكن ليس إليهم فقط[352]. وتظهر النصوص على وجه الخصوص تجارة القماش الذي وصل من الإنتاج المغاربي أو الأوروبي[353]. وبهذه التجارة، اندمجت جهات جنوب الصحراء في الميادين الأكثر اتساعا.

(348) يتحدث الإدريسي عن استغلال تجار أغمات للنحاس (الإدريسي، الترجمة ص 140)، لكن جهة بجاية لم تكن تنتج النحاس حتى وإن كانت ربما قادرة على إعادة تصديره.

(349) Devisse, « Commerce et routes du trafic », art. cité, p. 412.

يؤكد دوفيس إن كان هناك طلب، يأتي أولا من الشمال. ويعطي لنا ابن بطوطة شهادة حول معادن النحاس الهامة في تكدا حيث يتم تذويب المعدن واستعماله كعملة مبادلات (ابن بطوطة، ص 1046).

(350) Devisse, « Approximatives, quantitatives, qualitatives », art. cité, p. 180.

من الممكن نقل التمور أو المواد الموجهة لزبون شمال إفريقي مستقر في جنوب الصحراء. Id., « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 367, 449

(351) أنظر الإدريسي، الترجمة ص 140 حول صادرات أغمات.

(352) في حفريات أودغست، من 10 إلى 12 في المائة من الخزفيات قدمت من إفريقيا، على الأقل 50 في المائة من سجلماسة، والباقي من جهات أخرى بالمغرب الأقصى وإسبانيا.

Devisse, « Approximatives, quantitatives, qualitatives », art. cité, p. 173, 176.

(353) ابن بطوطة، ص 1045.

Léon l'Africain, p. 465, 467, 471 ; Devisse, « Routes de commerce et échanges », art. cité, p. 367 ; Abitbol, « Juifs maghrébins », art. cité, p. 168,

الذي يذكر أنطونيو مالفات متحدثا عن أجواخ لومباردية في توات في منتصف القرن الرابع عشر.

أقيمت الرحلات في الشتاء والقوافل لم تستطع القيام أكثر من ذهاب وإياب واحد في السنة، لأن فترة الحرارة الكبيرة منعت كل تنقل عبر الصحراء[354]. واستطاعت القوافل تجميع في موكب واحد عدة مئات من الجمال[355].

من بين الفاعلين في هذه التجارة يوجد طبعا التجار المسلمين المغاربة. وأحسن مثال يتعلق بتلمسان حيث شركة عائلة المقري في القرنين الثالث عشر والرابع عشر التي وصف أحد أحفادها، الكاتب المقري التلمساني في القرن السادس عشر، تنظيمها في قسم منه انطلاقا من أرشيف ووثائق أسلافه[356]. لقد كان لهذه الشركة وكلاء في المدن التجارية، سجلماسة، وفي والطة في الجانب الآخر من الصحراء، وهذا ما يفترض تنظيما واسعا لهذه التجارة مع معرفة جيدة بالأسواق[357]. فيما يتعلق ببجاية، تنقصنا الشواهد، لكن التنظيمات المماثلة ليست مستحيلة. ووجب على البجائيين كذلك استعمال وسطاء من التجار الإباضيين في وارجلان وبعد ذلك في ميزاب. في الفترات المتأخرة جدا، تحكمت الجماعات الإباضية في كل منطقة الاتصال مع الصحراء ونظمت بذلك التجارة الصحراوية[358]. دورهم بعد ذلك غير معروف جيدا، لكن أهمية المراكز الإباضية

(354) في هذا المعنى، إيقاع الملاحة في البحر المتوسط (الذي يتفادى أولا الشتاء) هو مكمل لإيقاع الملاحات الصحراوية.

(355) Devisse, « Approximatives, quantitatives, qualitatives », art. cité, p. 173,

الذي ينقص من التقديرات التي تمت انطلاقا من وصف الإدريسي.

(356) Mauny, *op. cit.*, p. 392, 400. :أنظر كذلك J. Berque, « Les capitales de l'islam maghrébin vues par Ibn Khaldoun et les deux Maqqari », *Annales islamologiques*, 8, 1969, p. 75.

(357) H. Pérès, « Relations entre le Tafilalet et le Soudan à travers le Sahara du XIIe au XIVe siècle », *Mélanges de géographie et d'orientalisme offerts à É. F. Gautier*, Tours, 1937, p. 412-414

(358) نجدها في وارجلان وميزاب، وأيضا شرقا في الجريد وجبل نفوسة:

Lewicki, « Le rôle du Sahara », art. cité, p. 307-308, 322. Id., « Les liaisons maghrébines », art. cité, p. 9-78. :أنظر أيضا في الفترة الحمادية Amara, *Pouvoir*, *op. cit.*, p. 454-457

بقيت دائما كبيرة كمحطات في التجارة الصحراوية، وهذا ما يظهر بأن نشاطهم لم يتوقف[359]. لعب اليهود -وهم جالية أخرى ذات أقلية، أيضا دور الوسطاء في التجارة الصحراوية[360]، حيث كانوا حاضرين منذ أزمنة بعيدة في نفس منطقة الشواطئ الصحراوية تحت السيطرة الإباضية[361]. وأدى الفتح الموحدي إلى اضطهادات، لكن الجاليات تشكلت من جديد بسرعة، وجوابات *(responsa)* أحبار مدينة الجزائر تظهرهم في بسكرة، وتقورت، ووارجلان، وميزاب، وتوات[362]. ولكن لا يبدو وجود يهود جنوب الصحراء[363]. على الخصوص، أنه وجب على هذه الجاليات مواجهة اضطهادات حادة في نهاية القرن الخامس عشر في توات أو في سجلماسة وهو ما أدى إلى تقليص دورهم التجاري[364].

في منطقة الساحل وفي الجنوب، بحثت مالي وسنغاي على تنظيم التجارة. لم تكن منطقة إنتاج الذهب سهلة المنال للتجار القادمين من الشمال[365]. لقد لفتنا النظر بكثرة لسذاجة الأفارقة المفترضة في هذه المبادلات، انطلاقا من وصف المؤلفين الشماليين[366]، لكن تناسوا أن التجار السود قاموا هم أيضا بالعبور الصحراوي. يروي الإدريسي أن وانجارا التابعة لغانة صدّرت الذهب من منطقة

(359) Jean Lentilleux (*Ouargla, op. cit.*, p. 142) الذي يذكر حالة تاجر وارجلاني، أبو عبد محمد، الذي ذهب في 1300 إلى بني يزجن، قرب غرداية في ميزاب ثم وصل إلى سجلماسة.

(360) Abitbol, « Juifs maghrébins », art. cité, p. 229-251.

(361) Levtzion, art. cité, p. 257.

(362) H. Z. Hirschberg, *A History of the Jews in North Africa*, I, *From the Antiquity to the Sixteenth Century*, Leyde, 1974, p. 369 ; Oliel, *op. cit.*, p. 95-100.

(363) Levtzion, art. cité, p. 253.

(364) Oliel, *op. cit.*, p. 101-126.

(365) Devisse, « Approximatives, quantitatives, qualitatives », art. cité, p. 197 ; Id., « Commerce et routes du trafic », art. cité, p. 442.

(366) Devisse, « Approximatives, quantitatives, qualitatives », art. cité, p. 177.

الدلتا الداخلية للنيجر نحو المغرب ووارجلان[367]. وفي فترة متأخرة، وصف ابن بطوطة سكان تكدا كتجار أغنياء يخرجون كل سنة إلى مصر[368].

كان إذن لبجاية الفائدة في وضعية مناسبة في الفضاء المغاربي، في منفذ طريق وارجلان والزاب، وهذا في موضع ذي جبال وأوعار. واستقبلت دون منازع واردات ذهب السودان وسهرت على عدم الانقطاع عن هذا التموين، حتى عندما بحثت تونس في القرن الخامس عشر على تحويل المنتجات التي كانت تصل إلى وارجلان. لكن من غير الممكن تقدير الكميات الحقيقية المحمولة إلى الميناء والتي هي متوفرة للتصدير من جديد.

*****

تبقى هذه الصورة الاقتصادية لبجاية وجهتها غير مكتملة. إذا كان هناك عدم مساواة بين الضفة الشمالية والجنوبية للبحر المتوسط، هي أولا توثيقية، وهذا ما يدعو إلى الحذر في مقارناتنا. تأتينا المعطيات الرئيسية في قسمها الأكبر من نصين هامين: جغرافية الإدريسي في بداية فترتنا، ووصف ليون الإفريقي في النهاية: المعلومات نادرة بينها.

يجب في جميع الحالات العودة إلى صورة المغرب الذي خرّبته "الكارثة الهلالية". إنّ أثر هذه الهجرات- التي لا ننقص من شأنها- لم يكن سلبيا كما أردنا الاعتقاد به منذ زمن طويل. طبعا، تعدّل التوازن بين الأنشطة الرعوية والزراعات دون شك، لكن ليس بكيفية كارثية. أيضا لا يجب المبالغة في إكراهات المناخ أو الوسط الجبلي. نظرا لتقنيات الفلاحة في تلك الفترة، كانت بلاد القبائل هي دون نقاش إحدى الأوساط الأكثر ملائمة في الحيز المتوسطي. طبعا، نحو الجنوب،

(367) الإدريسي، الترجمة ص 198.

(368) ابن بطوطة، ص 1045.

يصبح المناخ قاحلا، لكنه سمح ببعض المزروعات وبتربية ماشية متسعة. كانت النشاطات الفلاحية متنوعة ولا شيء يشير إلى قلة مزمنة للإنتاج. ونفس الشيء بالنسبة للأنشطة الحرفية، رغم أننا لا نعلم كثيرا حول هذا القطاع. رغم الاضطراب الذي أصاب قسما منها، سمحت شبكة الطرقات من إيصال المنتجات بين الأرياف الداخلية والبحر. وأخيرا، كانت بجاية مرتبطة جيدا بالطرق الصحراوية التي تقوم بإيصال ذهب السودان. بقيت مسألة وزن الرجال والتي هي أساسية في اقتصاد تقليدي حيث بقي النمو الديمغرافي هو المحرك الضامن لتمدده. يبدو جيدا وجود على الأقل جمود ديمغرافي مسّ جميع المغرب.

ليس هناك إذن مجال للحديث عن أزمة اقتصادية عميقة ومزمنة في الجهة، حتى إذا لم نحصل على إشارة محتملة لديناميكية خاصة، قابلة بزياداتها على تشجيع ومساندة توسع تجاري هام. إنّ أثر هجرات القبائل، والحروب والأوبئة لا يمكن طبعا التقليل من شأنها، لكن يجب تقديرها بحذر. تحققنا بالأحرى من إعادة توازن وتكييف مع المعطيات الجديدة للتوزيع السكاني حيث ساعدت أنشطة تربية المواشي على ذلك.

***

تمتعت بجاية بأوراق رابحة دون منازع لتصبح ميناء متوسطيا كبيرا. إنها مدينة مأهولة استقبلت بانتظام إسهام الهجرات القادمة من الداخل، وخصوصا من الأندلس بداية من القرن الثالث عشر. كانت هي المخرج الطبيعي لجهة واسعة وغنية، حيث أن حوض الصومام وشبكة كثيفة من الطرق فتحت لها جبال بلاد القبائل الصغرى. أبعد من هذا، اتصلت بالعالم الصحراوي وبالمحاور التي تربط بلاد الذهب بالمغرب عبر فتحة بسكرة. وصل جزء من ثروات أرياف ومدن البلاد الخلفية إلى بجاية وكان قابلا لأن يكون ضمن التجارة البحرية.

لكن هذا الفضاء الاقتصادي لم يكن دائما متحكما فيه، ووجب على بجاية مواجهة الصعوبات التي كانت أحيانا مزمنة وأحيانا ظرفية. ووجب عليها أيضا الاستعداد لمنافسة عدة مدن أخرى مثل قسنطينة وبعد ذلك الجزائر، وجهات كاملة تخلصت دوريا من حيّز تأثيرها. كما وجب أيضا على ملوكها أو حكامها احتواء عواصف القبائل الرحل، خصوصا تلك المنحدرة من الهجرة الهلالية المتأخرة. إذا ما توصلوا إلى فرض نظامهم بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر، فإنه لم يكن كذلك في بداية القرن الرابع عشر.

توافقت فترة الأزمة هذه مع الصراعات السياسية المستمرة- حيث اشتبكت الطموحات المجالية العبد الوادية ثم المرينية- والصراعات الداخلية للحكم الحفصي واللعب المعقّد للقبائل. ونجم عنها اضطراب الطرق ودون شك الإنتاج الريفي وفقدان البشر، حيث ازدادت حدة مع وصول الطاعون الكبير في منتصف القرن الرابع عشر، والذي ساهم في تشديد الحالة الديمغرافية التي كانت منحطة.

سمح وصول سلاطين حازمين إلى عرش تونس والصعوبات الخاصة بالسلطنة الغربية بعودة الهدوء في نهاية القرن الرابع عشر، لكن في جهة مسّتها بحدّة الأزمة التي عبرتها.

أكدّت صعوبات الداخل وضخّمت من تحول مركز الثقل السياسي والاقتصادي للجهة نحو الساحل. بالنسبة للحكم، كان هذا التطور ضمانا أكبر للأمن ووفّر إمكانية موارد ضريبية مضمونة، جلبها من التجارة البحرية. وسمحت للمدينة على الصعيد الاقتصادي بأقل التبعية إلى الداخل، وخصوصا الاستفادة من الديناميكية المتنامية للمبادلات المتوسطية بداية من القرن الثاني عشر. واندمجت إذن المدينة في الشبكات التجارية الموسعة التي شجعت من مبادلاتها.

القسم الثاني
بجاية ميناء متوسطي

بقدر ما هي متجذرة بعمق في المغرب، كانت بجاية أيضا منفتحة على البحر المتوسط. كبقية العديد من المدن المغاربية في نهاية العصر الوسيط، إذ جلبت من البحر قسما هاما من ازدهارها. إنّ هذه الظاهرة "المتوسطية التوجه" التي نتأملها أيضا في المشرق في العصر المملوكي[1]، نتجت في سياق تميّز بالثورة التجارية في أوروبا المسيحية وبتطور معتبر للمبادلات البحرية بين مختلف ضفاف البحر المتوسط، خصوصا في الاتجاه الشمالي-الجنوبي[2]. إنّ تأسيس المدينة لم يكن طبعا في حد ذاته نتيجة لازدهار التجارة البحرية الأوروبية، التي هي لاحقة لها بقليل، وإنما يفسّر بعدة عوامل- على الخصوص- سياسية وداخلية في المغرب (الضغط الهلالي وطموحات الحماديين السياسية). استقبل الميناء من جهة أخرى من البداية وحتى قبل تأسيس الناصر لها، التجار القادمين من الأندلس والمشرق. ولكن نشاطه لم يأخذ حجمه إلا بداية من منتصف القرن الثاني عشر بوصول التجار الأوروبيين.

منذ ذلك الحين، أصبحت بجاية نقطة التلاقي -كما يقول الجغرافيون[3]- بين المغرب وأوروبا. فقد ركّزت السلع لإعادة توزيعها في اتجاهات مختلفة وجلبت التجار الذين استقروا بها أحيانا من أجل عقد صفقاتهم.

كان لهذا التطور آثار هامة على المدينة. فهذا النشاط الذي نشأ بمجيئ التجار الأوروبيين هو أولا مصدر ثروة وازدهار، على الأقل لقسم من سكان بجاية وبلادها الخلفية. واستطاعت أيضا توجيه في بعض الأحيان نشاطات الإنتاج التي

---

(1) J.-Cl. Garcin, « La “Méditerranéisation” de l’Empire mameluk sous les sultans Bah rides », *Rivista degli Studi Orientali*, 48, 1973-74, p. 109-116.
(2) R. S. Lopez, *La Révolution commerciale dans l’Europe médiévale*, Paris, 1974, p. 85-120.
(3) Y. Lacoste, « Littoral, frontières marines », *Littoral, frontières marines. Hérodote*, 93, 1999, p. 5.

تلاءمت مع سوق متسع للضفة الشمالية للبحر المتوسط، وقوّت في نهاية المطاف الحكم الحفصي بالمصادر الضريبية الهامة والمنتظمة التي يجبيها بيت المال.

كانت بجاية أيضا - على غرار عدة موانئ متوسطية في هذه الفترة- قاعدة للقرصنة التي أصبحت نشطة جدا في نهاية القرن الرابع عشر. كانت القرصنة -على غرار التجارة ولكن بأساليب مختلفة- مصدر غنى المدينة. يجب إذن تناولها على الأقل كمظهر من مظاهر الصراع بين الإسلام والمسيحية من الزاوية الاقتصادية، والذي وضع شيئا فشيئا قواعد مقبولة من طرف الجميع. ولكنها بقيت ممارسة طفيلية عابرة للتجارة وأمكنها في نهاية المطاف من الإساءة إلى ازدهار المدينة.

يقل وصف هذا النشاط البحري البجائي في المصادر العربية، لأنّ المؤلفين يكتفون في أحسن الأحوال بالانبهار بنشاط الميناء، دون إعطاء تفاصيل إضافية. ويدهشنا هذا النقص من الاهتمام، لأنّ العلاقات كانت كثيفة ومنتظمة، لكن هناك لا شرعية عميقة لهؤلاء المؤلفين بحديثهم عن الاتصالات الهادئة مع المسيحيين. يجب إذن التوجه بصفة رئيسية نحو وثائق الأرشيف الأوروبي التي تشهد على أهمية أوروبا في المبادلات التجارية البجائية ونشاطها الاقتصادي، حتى وإن كانت تظهر المتعاملين البجائيين بقلة ، وتوفر صورة غير مكتملة. من جهة أخرى، تمنع ثغرات المادة الخبرية من الحصول على نظرة شاملة وأكيدة. إنّ فقر الأرشيف البيزي والغياب شبه الكلي لعقود الموثقين البرشلونيين في القرن الثالث عشر – دون الحديث عن ضياع قسم هام من أرشيف نابولي- يترك في الظل بعض التيارات التجارية الجوهرية. إنّ المبادلات الداخلية للعالم الإسلامي (مع المشرق وبقية جهات المغرب أو الأندلس) هي من جهة أخرى مجهولة تقريبا في المصادر، لأنها على الخصوص لا تقدم المعطيات الرقمية إلا إضاءات قليلة تجعل من الصعوبة بمكان وضع أي حوصلة شاملة لهذه التجارة.

هذه التحفظات والحدود المطروحة، تتفق كل المصادر على إعطائنا صورة لميناء متوسطي نشيط، حيث حصل على قسم كبير من ازدهاره من البحر وموضعه كمنفذ بحري لبلاد القبائل.

الفصل الأول

تواجد وأنشطة تجارية في ميناء بجاية

"والسفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة، والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة(4)." كبقية الجغرافيين والرحالة، انبهر الإدريسي بالنشاط التجاري البجائي وأظهر تلاقي الرجال والأمتعة القادمة من مختلف الاتجاهات، خصوصا من البحر. أدى نشاط الميناء وثراؤه إلى إعجاب البعض(5)، وأثار عدم رضى الآخرين(6). لكن شكّل في جميع الحالات أحد الخطوط المميزة للمدينة بالنسبة للمعاصرين، ولكنها غير مرئية إلا من خلال نشاط التجار الأوروبيين، الذي هو النشاط الدقيق الوحيد بالنسبة لنا.

عندما ينزل التاجر الأجنبي ببجاية، يكتشف أولا الميناء وأول اتصال له يكون بواسطة ديوان البحر، ثم يندمج بعد ذلك في الجماعات المنتظمة والمعترف بها، وهذا ما يسمح له بعرض أنشطته التجارية في أحسن الظروف.

(4) الإدريسي، الترجمة ص 165-166.

(5) على سبيل المثال، العمري، الترجمة ص 113، الذي أشار إلى النشاط بفضل حركات المراكب في الميناء.

(6) خلال إقامته في بجاية، لاحظ ابن تومرت فضاحة خروج سكان بجاية في حي باب البحر، خصوصا لاستهلاك الخمر. الأمر يتعلق هنا بنمط معروف جيدا في سلوك المصلحين الدينيين، والمشهد يتكرر في بقية مدن المغرب التي سارت على إيقاع عودة المهدي من المشرق. لكن اختيار بجاية لإبراز مشهد ردة فعل ابن تومرت هو موحي بالثراء الذي كانت عليه المدينة. البيدق، الترجمة ص 80.

I- الوصول إلى الميناء

كانت نوعية الميناء هي إحدى مزايا بجاية، وهذا راجع إلى موضعها وأيضا للتهيئة التي أنجزت بداية من الفترة الحمادية. وكان بإمكان السفن الاقتراب أكثر إلى الساحل، وهذا ما سهّل انزال الرجال والسلع، التي كانت تنقل بعد ذلك إلى ديوان البحر، أول مكان للاتصال مع المدينة.

1) مرافق الميناء

ليس أكثر من وضعية المدينة، لم يتم وصف الميناء فعليا من الجغرافيين العرب الذين اهتموا بسير الموانئ كما هي[7].

على غرار الرحالة، يتفق الجغرافيون على اعتبار موضع ميناء بجاية كواحد من أحسن موانئ الساحل الإفريقي[8]. واعتبر البكري- الذي وصف المدينة قبل أن تصبح عاصمة حمادية- أن "مرساها مأمون"[9]. ومن أجل هذه المزية اختارها الناصر في 460/ 1067، لأنها سمحت بتطوير الأسطول واستغلال الميناء كقاعدة عمليات بحرية ضد الزيريين بالمهدية. وأشار العمري إلى موقعها في قعر جون[10]، وهي صورة نادرة على طول ساحل ضخم ومستقيم بصفة عامة. في نهاية القرن الخامس عشر، لاحظ التركي بيري رايس المدينة كبحّار وسجّل أيضا مزايا الميناء:

---

(7) Chr. Picard, *L'Océan atlantique musulman. De la conquête arabe à l'époque almohade. Navigation et mise en valeur des côtes d'al-Andalus et du Maghreb occidental (Portugal-Espagne-Maroc)*, Paris, 1997, p. 243.

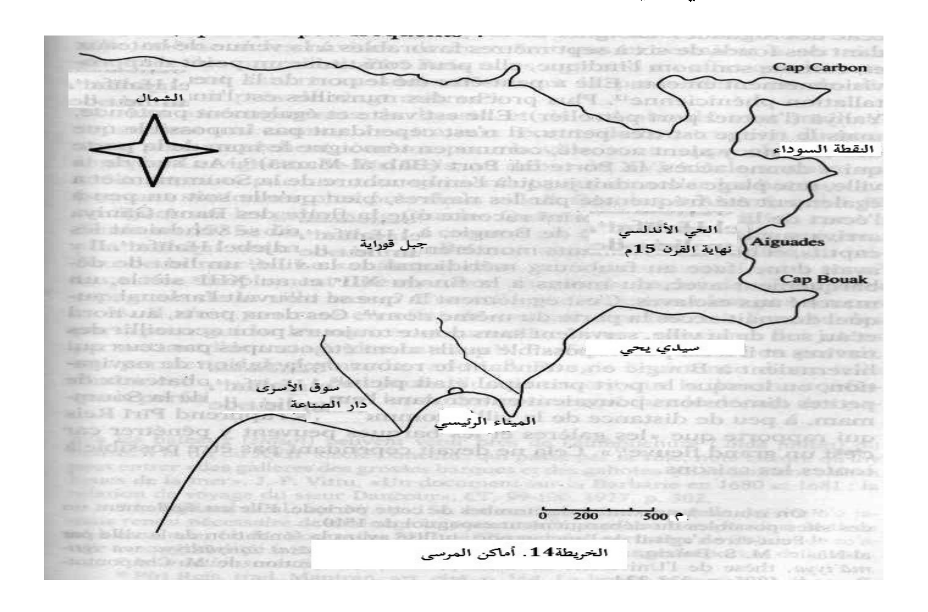
(8) في تقرير بتاريخ 1587، قدم عضوان من أمر مالطا (Ordre de Malte) الميناء كما يلي:

« Bugia [...] è il migliore porto che sia in tutta questa costa, cioè da Bizerta fino al stretto di Gibilterra. […] è capace per una grossa armata. » B. Lanfreducci, « *Costa e discorsi di Barberia*. Rapport maritime, militaire et politique sur la côte d'Afrique depuis le Nil jusqu'à Cherchell par deux membres de l'Ordre de Malte (1er septembre 1587) », éd. Ch. Monchicourt, *RA*, 66, 1925, p. 459.

(9) البكري، الترجمة ص 167.

(10) "ينفصل جون عن البحر الشامي والذي تصل السفن عن طريقه إلى المدينة". العمري، الترجمة ص 112.

"الساحل أمام هذه المدينة، -كما كتب-، هو مكان جيد للإرساء. إذا هبت ريح كبيرة شمال-شرق، فإنه يضرب بقوة عالية، رافعا كل ما هو في طريقه: ينبغي مراقبة المرساة والحبال، خوفا من قطعهـا بالحجارة[11]." بصفة عامة، يشكّل جبل جرجرة نتوءا من حوالي 3 كلم على بقية الساحل في الشمال، ويحمي بفعالية الميناء، في حين أن الأراضي المرتفعة لقعر الخليج تضع الجون في مأمن عن الرياح الجنوبية[12]. ويوفر خليج بجاية إذن حماية مثالية ضد الرياح المهيمنة، إلا في الرياح الشمالية-الشرقية التي هي قليلة الهبوب[13].



الخريطة 14. أماكن المرسى

(11) Trad. R. Mantran, « La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab-ı Bahriye de Pīrī Reis », *ROMM*, 15-16, 1973, p. 164.

(12) L. Billiard, F. Vergneaud, E. Balensi, *Les Ports et la navigation de l'Algérie*, Paris, 1930, p. 151-152. L.-Ch. Féraud, « Histoire des villes de la province de Constantine. Bougie », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 13, 1869, rééd., *Histoire de Bougie*, avec une présentation de N. Abdelfettah Lalmi, Paris, 2001, p. 24.

(13) Service hydrographique de la marine, *Instructions nautiques. Mer Méditerranée. Afrique (Côte nord) à l'est du Détroit de Gibraltar ; Levant entre la mer Egée et le Canal de Suez*, Paris, 1968, p. 125.

يتمتع الموقع بمزية أخرى ويوفّر أماكن اقتراب ممكن للسفن من الرصيف. فيرسم الساحل ثلاثة خلجان صغيرة أمكن استعمالها كموانئ في مختلف العصور. الجون الأكثر شمالا هو الذي يشكله أقصى جبل قوراية، وهو جون الإيجواد. مبتعدا عن المدينة وضيقا، فهو يشكل عمقا من سبعة إلى ثمانية أمتار، ملائمة لوصول السفن و-كما يشير إليه اسمه- شكّل نقطة التموين بالماء. ويمكن أنه كان ميناء أول استقرار فنيقي[14]. والأكثر قربا من السور هو جون سيدي يحيى (الميناء البترولي الحالي)، وهو أيضا واسع وعميق، لكن الشاطئ أكثر انحدارا. ليس من المستحيل أن تكون قد رست به السفن، كما يشهد على ذلك اسم الباب الذي يصل إليه وهو باب المرسى[15]. في جنوب المدينة، امتد شاطئ إلى غاية مصب الصومام وهو أيضا كانت تقصده السفن، رغم كونه بعيدا نوعا ما عن المدينة. ويروي الغبريني أن أسطول بني غانية وصل إلى شاطئ بجاية، في الموضع الذي يباع فيه الأسرى، وأن المهاجمين صعدوا بعد ذلك إلى جبل خليفة[16]. كان هناك إذن الربض الجنوبي للمدينة، وهو موضع نزول مع سوق العبيد، على الأقل في نهاية القرنين الثاني عشر والثالث عشر. هنا أيضا كانت دار الصناعة التي يصل إليها عن طريق الباب الحامل لنفس الاسم. واستعمل الميناءان -في شمال وفي جنوب المدينة- دون شك لاستقبال السفن وليس من المستحيل أن يسكنهما أولئك الذين يمكثون الشتاء في بجاية في انتظار عودة فصل الملاحة أو عندما يكون الميناء الرئيسي

(14) نجدها قرب مقابر هذه الفترة، وهي أيضا مواضع ممكنة لنزول الأسبان في 1510.

(15) ربما يتعلق الأمر بالميناء القديم المستعمل قبل تأسيس الناصر للمدينة. أنظر ص. بعيزق، بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية، أطروحة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، تحت إشراف م. شبوتو-الرمادي، 1995، ص 223-224.

(16) الغبريني، ص 77.

ممتلئا[17]. وأخيرا كان باستطاعة السفن الصغيرة الحجم الدخول في مصب الصومام، قرب المدينة، كما يشير إلى ذلك بيري رايس الذي يروي بأن "السفن والقوارب يمكنها النفاذ، لأنه نهر كبير"[18]. لكن هذا لم يكن ممكنا في كل الفصول.

كان الميناء الرئيسي يقع في أسفل المدينة نفسها أمام باب البحر. كان العمق الطبيعي للمياه كاف، بين خمسة وسبعة أمتار ونصف[19]، مع قعر من رمل أو وحل[20]. وتجد السفن خصوصا حوضا واسعا ومحميا في اتصال قريب من المدينة، حتى وإن كانت السفن لا ترسوا به وتبقى على بعد معين من الأسوار. ويروي لنا بيري رايس أن البحارة يرمون المرساة في جنوب-جنوب-شرق، حيث العمق عشرة أذرع، أي عشرون متر تقريبا[21].

للأسف، إنّ تهيئة الحوض وأرصفته غير معروفة، حيث تمنع الأعمال الأخيرة لبناء الميناء الجديد – على غرار المدينة- كل مقاربة أثرية. تظهر صورة بيري رايس في بداية القرن السادس عشر رصيفاً ينتهي ببرج استعمل لربط

(17) نعلم أنه في 1313، رست السفينة الشراعية للمبعوث الميورقي جريجوري سالومبي (Grigori Salem bé) أما باب دار الصناعة (Darassana)، إذن دون شك خارج الباب الرئيسي بجانب دار صناعة المدينة.

E. de K. Aguiló, « Incident surgit ab motiu del canvi d'esclaus cristians y moros, pactat despres de la pau », *BSAL*, 15, 1915, p. 227.

(18) Pīrī Reis, trad. Mantran, art. cité, p. 164.

أنظر أيضا الحميري، كتاب الروض المعطار، تح إ. عباس، بيروت، 1980، ص 81، الذي يقول بأنه يمكن للسفن القدوم عند فم النهر. في نهاية القرن السابع عشر، سجّل دانكور (Dancourt) الذي مرّ بالمدينة، أيضا إمكانية صعود السفن والقوارب على بعد فرسخين عن البحر".

J.-P. Vit tu, « Un document sur la Barbarie en 1680 et 1681 : la relation de voyage du sieur Dancourt », *CT*, 99-100, 1977, p. 302.

(19) L. Milliard et al., *op. cit.*, p. 152.

إنّ الشكل الطبيعي للموقع لم يؤدي بالضرورة إلى تجفيف هام في الفترة المعاصرة. أتقدم بالشكر هنا إلى السيد بومسيلة، رئيس مدير عام شركة ميناء بجاية لتفضله بإفادتي بمعارفه التامة عن الميناء والساحل.

(20) *Instructions nautiques*, *op. cit.*, p. 125.

(21) Pīrī Reis, trad. Mantrand, art. cité, p. 164. يبلغ قياس الباع 1،83م

السفن التي لا تستطيع الرسو قرب المدينة[22]. ويصف جيرولامو أزوري (Girolamo Azurri) – الذي قدم على زوارق شارل الخامس عشر (Charles Quint) خلال الحملة ضد تونس في 1535- بجاية كميناء ممتاز، حيث يوضح: "البحر يضرب في أسوارها ولها قصر مبني في وسط البحر[23]." إنّ القصر الذي يتحدث عنه أزوري هل هو هذا البرج؟ أو هو ببساطة كيفية مصوّرة للحديث عن الحصنين الإسبانيين في المدينة السفلى؟ أي بناء لم يكن بحالة معزولة، وليس من النادر تواجد أبراج في مداخل الموانئ لتوجيه السفن وحماية البحر، وأيضا أرصفة الميناء تمكّن من إرساء السفن[24]، حيث تنطلق منها أحيانا سلاسل لتسمح بغلق المرسى[25]. إن وجود سلسلة ما في بجاية قليل الاحتمال، لأننا نعرف أن ديوان البحر كان يصادر المرساة والشراع لمنع مغادرة السفن دون رخصة، وهذا ما يبيّن أن الدخول والخروج لم يكن حرا[26].

تمكنت الزوارق الصغيرة فقط من التقدم نحو باب المدينة[27]. إنّ تواجد أرصفة التفريغ عند أسفل الأسوار ممكن ولكن ليس بالأكيد. إنّ صورة بيري رايس- على غرار التصويرات المتأخرة- تظهر بالعكس أنّ الأسوار كانت في الماء.

(22) Pīrī Reis, trad. S. Soucek, « Tunisia in the “Kitab-ı bahriye” by Pîrî Reis », *Archivum Ottomanicum*, 5, 1973, p. 155

الذي يترجم بـ « guard tower »

(23) « Buxia è bonissimo porto ; il mare gli batte le muraglie e have uno castello che è edificato in mezzo al mare. » Gerolamo Azurri, *Carta di Navigare*, éd. O. Bazurro, Gênes, 1985, p. 148.

هذا المؤلف غير المعروف جيدا يكون قد ولد في 1510، وأدى عدة رحلات، ربما كقبطان للأمير أندريا دوريا (Andrea Doria). وكتب دليله للموانئ (portulan) بعد 1572. *Ibid.*, p. 19-23.

(24) Picard, *L’Océan atlantique*, *op. cit.*, p. 245-246.

(25) في تونس على سبيل المثال. Traité Pise - Tunis, 1313, art. 17

(26) كذلك في أعمال القرصنة في نفس الميناء، التي توضح كم كان سهلا الوصول إليه والهروب منه. إنّ صورة الميناء تجعل وجود سلسلة ما أمرا شبه معقول.

(27) Pīrī Reis, trad. S. Soucek, art. cité, p. 155.

وانفتح السور على باب البحر، وهو أحد المخلفات النادرة الحالية للعصر الحمادي. ويقدم هذا الباب قوسين من آجر: يستند القوس الداخلي على قدمين مستقيمين من الحجر والقوس العلوي المزخرف على نتوء مقارنة بالأول. في الأعلى، تواجد طريق الدورية وعلى اليمين واليسار القسم المتصل بالسور والذي كان يتميّز بالنتوءات المستطيلة[28]. ويعتقد روبار برونشفيك (Robert Brunschvicg) – دون شك تشبيها بالمهدية[29]- أن هذا الباب ترك مرور السفن التي أرادت الوصول إلى داخل السور، إلى الحوض المحمي والذي هو مردوم اليوم[30]. فيما يخص بجاية، يتحدث الونشريسي أيضا عن حفرة[31]، لكن طبوغرافية المكان، حتى إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الردم الأخير، لا تسمح بتهيئة ميناء حقيقي داخلي. إنّ الفضاء المحتوى بين الباب وبداية الانحدار الصخري قليل للسماح بدخول السفن. من جهة ثانية، إنّ قياسات الباب تعتبر منخفضة نسبيا[32]، لم تتجاوزها إلا السفن المتوسطة ذات صوار قصيرة. في المقابل، من المحتمل مرور القوارب العاملة على النقل إلى الرصيف تحت هذا الباب للوصول إلى الحوض الصغير إلى ما بعد السور وإلى أرصفة التفريغ.

---

(28) R. Bourouiba, *Les H'ammadites*, Alger, 1984, p. 175.

(29) N. Djelloul, « Histoire topographique de Mahdia et de ses environs au Moyen Âge », *CT*, 162-163, 1993, p. 77.

لكن يمثل الجون المحفور في الصخر بالمهدية أبعادًا غير مماثلة القياس (66 م على 42) مع ما وجد في بجاية وكان بإمكانه إيواء كما قيل حتى إلى ثلاثين مركبا.

(30) R. Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines au XVe siècle*, I, Paris, 1947, p. 378. C'est aussi l'avis de R. Bourouiba, « La vie économique et les arts à Bidjaia la Hammadide », *Actes intégraux (conférences et débats) du 8e séminaire sur la pensée islamique, Bidjaia, du 25 mars au 5 avril 1974*, II, s. l., s. d., p. 8.

(31) الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تح م. حجي، بيروت، 1981، 8، ص 297-298.

(32) كان ارتفاع الباب هو 11،9 م وعرضه 7،59م.

S. Benchelabi, *Étude archéologique de Bidjâya*, mémoire de maîtrise, sous la dir. d'A. Northedge, Université Paris 1, 2004, p. 24.

بالدخول إلى الميناء، يدخل البحارة والتجار إلى فضاء السيادة الحفصية، وكان في بجاية "رئيس البحر"[33]، الذي كانت له سلطة تمتد مبدئيا على كل المصالح البحرية، خصوصا الأسطول الذي يديره. وهو دون شك ذلك الذي يلقبه المرسيليون بـ "رئيس بجاية" في 1293[34]. ورغم أننا نتفاجئ بملاحظة أن الحكم كانت له أحيانا إمكانيات قليلة للتحكم في ما حدث فعلا في حوض الميناء، وأن أعمال سوء النية لم تكن نادرة، خصوصا بين السفن المسيحية وفي هذه الحالة سلطات الميناء لم تتدخل مباشرة. ففي 1245 على سبيل المثال – رغم أنها فترة عظمة قوة أبي زكرياء الحفصي- دخل الجنويون إلى المرسى وأخذوا سفينة بيزية مملوءة بالسلع (Sponsaella) وأحرقوا قوارب أخرى بيزية ورجعوا إلى جنوة دون أن يصيبهم قلق[35]. وتخلص بعض الاتفاقيات إلى مسؤولية الديوان في حالة وقوع

(33) يشير إليه ابن خلدون وابن قنفذ تحت اسم قائد البحر أو قائد الأسطول. العبر، 6، ص 805، البربر، 3، ص 21، 110، الفارسية، ص 199. أنظر أيضا حول هذه الوظيفة المقدمة، الترجمة ص 517 وما بعدها، .Valerian, « Contribution », art. cité, p. 131

(34) في رسالة موجهة إلى القاضي وإلى مجلس مرسيليا، اشتكى قناصلة بجاية من معاملات مواطنيهم السيئة في الديوان وأضافوا: "إنّ رئيس بجاية غير راض وغضبان عن كل سوء فعلوه اتجاهنا، ولم يكن هو -الذي يحمينا من كل حكمه- وهو يفعل ذلك وزيادة".

AM, HH 334 (15/6/[1293]), éd. et trad. L. de Mas-Latrie, « Chartes inédites relatives aux États de Bougie et de Bône (1268-1293-1480) », *BEC*, 1re série, 2, 1840-1841, p. 394-396.

يشير لويس دو ماس لاتري إلى رسالة هذا الرئيس مكتوبة بالعربية ومترجمة حيث يتحدث هذا الأخير عن قضية أعلم بها بين التجار وقبّال الخمر. وهذا ما يبين شساعة اختصاصاته وتصل حتى إلى سلطة قضائية على الأرض.

Paris, BNF, Nouvelles acquisitions latines, 1323, f. 66, cité par Mas-Latrie, *ibid*.

(35) *Annali genovesi di Caffaro e de'suoi continuatori dal MXCIX al MCCXCIII*, III, éd. C. Imperiale di Sant'Angelo, Rome, 1923, p. 162.

لاحظ روبار برونشفيك (Robert Brunschvicg) ببساطة أنه تبعا لهذا الفعل القرصني لم تجدد المعاهدة مع جنوة. Brunschvicg, *La Bériébérie*, *op. cit.*, I, p. 35. لكن ليس هناك بالضرورة رابط سببي بين الفعلين.

حوادث بين التجار المسيحيين[36]. لكن أحيانا يتدخل الديوان، كما حدث في 1472 بعد هجوم الكتالانيين على سفن ميورقية، مما أدى إلى توقيف الأوائل وتركهم سلعهم رهينة لدى الديوان[37]. هذا لم يكن إلا رد فعل مسلح، مما يظهر عدم القدرة أحيانا في هذه الفترة على ضمان شرطة حقيقية في حوض الميناء. بصفة عامة، لم يكن هناك رد فعل حقيقي لضبط الأمور وندرك أن السلطة الحفصية لم تستطع أن تمارس سيادتها بصفة ملموسة خارج الجانب البري من أراضيها. مبدئيا، للتجار الحق في نقل سلعهم من سفينة إلى أخرى بحرية كاملة ودون مراقبة الديوان[38]. أيضا، منعت الاتفاقيات مع لاكرونيا أراجونة وكلاء القبالة من الصعود بحرية على متن السفن لتسجيل أو حجز الحمولة. ولإبقاء أدنى تحكم في أصحاب السفن وخصوصا تجنب عدم ذهاب السلع دون دفع حقوق الديوان وتسديد ديونهم، يجبر أحيانا على ترك قسم من المستلزمات القاعدية للسفن (مرساة، شراع ومقصورة) في مستودع أرضي. لكن هذا الإجبار يحتج عليه أحيانا، كما هو في مشروع اتفاقية 1323 بين ملك أراجونة وسلطان تونس وبجاية، والذي ينص على عدم تقيد أي سفينة بهذا الواجب ويكفي فقط أن يضمن القنصل قيام التجار بواجباتهم قبل المغادرة[39].

---

(36) نصت معاهدة 1403 بين لاكورونيا أراجونة وسلطنة تونس (المادة 15) على عدم مسؤولية الديوان في حالة مهاجمة أعداء الملك لأي شخص كاتالوني-أراجوني في الميناء.

(37) رسالة احتجاج مدينة برشلونة إلى أمير بجاية، نشر:

L. de Mas-Latrie, *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-Âge*, Paris, 1866, p. 335 (6/2/1473).

(38) أنظر معاهدة لاكورونيا أراجونة- بجاية، 1314، المادة 4. في 1315، اشتكى جاك الثاني ملك أراجونة لسلطان بجاية أبي بكر على منع رعاياه من نقل السلع من سفينة إلى أخرى داخل الميناء، وذلك خرقا لاتفاقيات السلم.

ACA, C., Rg. 242, f. 252v-253r (16/10/1315), éd. A. Masia de Ros, *La Corona de Aragón y los estados del Norte de Africa*, Barcelone, 1951, n° 145, p. 433-434.

(39) مشروع معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1323، المادة 7.

على غرار عدة موانئ متوسطية، كان في بجاية مكان رسو السفن، وهو مشار إليه ضمنيا في بعض الاتفاقيات كما هو في مشروع اتفاق 1323 بين تونس ومملكة أراجونة[40]. أيضا ينص عقد كراء بحري لعام 1491 يتعلق ببجاية على الحقوق التي يدفعها صاحب المركب[41]. لكن تحكم سلطة الميناء لا يبدأ فعليا إلا بتفريغ السلع على الأرض. يجب التخيل في الميناء وجود ذهاب وإياب للقوارب بين السفن والبر، خصوصا خلال بعض ساعات اليوم. وتنص اتفاقية 1403 مع ملك أراجونة على إجبار القادة الحفصيين على ترك التجار يذهبون إلى سفنهم في الساعات المعتادة[42]، وهذا ما يكشف عن مراقبة المخارج في الميناء، دون شك مرخّصة فقط في النهار أو عندما يحضر العملاء لمراقبة حركة السلع. أحيانا، تتمتع المراكب الكبيرة بزوارق[43]. في الحالة المعاكسة، أجّر البجائيون المختصون في هذا المسعى قواربهم وخدماتهم، كما يحدث في أغلب الموانئ[44]. في اتفاقية 1403 بين ملك أراجونة والسلطان الحفصي نجد من بين المصاريف التي يجب على التجار تسديدها، المبالغ التي تعطى للبحارة (mariner) دون شك من بين الناس الذين لهم زوارق صغيرة بمجاديف، حيث يتنقلون ذهابا وإيابا بين السفن الراسية في الميناء والرصيف[45]. ودورهم يؤكده الونشريسي الذي عرض نزاعابين النواتيين

(40) نفسه، المادة 16.

(41) ARV, P., Rg. 2007, f. 592r-593v (5/12/1491).

(42) معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1403، المادة 36.

(43) في 1274، نص عقد كراء بحري لسفينة بيزية باتجاه بجاية على توفر المركب على قارب وجندول بمجاديف.

Archivio Caetani, *Pergamene, fondo pisano*, n° 3330 (10/8/1274), éd. G. Caetani, *Varia. Raccolta delle carte più antiche dell'Archivio Caetani e Regesto delle pergamene del fondo pisano*, Cité du Vatican, 1936, p. 12-14.

(44) Picard, *L'Océan atlantique*, *op. cit.*, p. 253-254, 327-328.

(45) معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1403، المادة 45.

تتحدث معاهدة 1234 البيزية أيضا على الحرس أو الطواقي التي لا تتطلب أجرة أكثر من العادة.

معاهدة بيزا– تونس، 1243، المادة 4.

الذين يفرغون سلع سفينة بقواربهم على شاطئ رملي[46]. لكن في بعض فترات التوتر، يحد المسيحيون من نزولهم على الأرض بأقصى عناية. ففي القرن الخامس عشر، أجبر النظام البحري البندقي (mude) القبطان على البقاء على متن السفينة مع عدة بحارة ورجال بأسلحتهم[47].

يصبح الرجال وأمتعتهم بوصولهم إلى الرصيف تحت مسؤولية ومراقبة صاحب المدينة ويدخلون فعليا في فضاء السيادة الإسلامية. ويوضح مشروع اتفاقية 1223 بين لاكورونيا أراجونة وتونس أن كل السلع المفرغة على أرصفة أو طرق ممتلكات السلطان، إذا ما لم توصل مباشرة إلى ديوان البحر، يجب أن تكون تحت مراقبة حارس المكان وممثل التاجر المالك. وفي حالة الضياع، يجب على السلطان إصلاح الضرر[48].

إذن كان باب البحر وحارته النشطة هما أول نقطة اتصال بين التجار والسكان البجائيين، ويتحدث الغبريني عن سوق باب البحر ويروي عدة حكايات تظهر النشاط الذي يسوده. في يوم من الأيام، تعرضت امرأة تغسل الصوف – وهي تحمل على رأسها حزمة من القماش- لنهب سلعتها الثمينة رغم كثافة الحشد[49]. في مرة أخرى، استعد عبد الله العربي للذهاب للحج وذهب لهذا الغرض إلى حومة باب البحر حيث بلغ إلى مسيحي صاحب مركب قادم من بلاد

(46) الونشريسي، المعيار المعرب، المصدر السابق، 8، ص 300-301. أنظر:

M. T. Mansouri, « Vie portuaire à Tunis au Bas Moyen-Âge (XII-XVe siècle) », *Tunis, cité de la mer*, dir. A. Baccar-Bournaz, Tunis, 1999, p. 151.

(47) B. Doumerc, *Venise et l'émirat hafside de Tunis (1231-1535)*, Paris, 1999, p. 89.

(48) مشروع معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1323، المادة 8.

(49) الغبريني، ص 165.

الشام حيث باشر معه نقاشا وانتهى بالاعتراف أن عبد الله ولي صالح[50]. إنها هنا تواريخ مبنية بتأثير حسن، موجّهة للإشارة لزهد بعض العلماء، لكن المكان المختار للمشهد له دلالة، لأنه يظهر أن هذه الحومة كانت من أكثر الأحياء نشاطا في المدينة ومكانا رئيسا للتلاقي[51]. نعرف أن السلع كانت مودعة فيها مؤقتا في انتظار تسجيلها في الديوان وحتى عقد العمليات التجارية[52].

من دون شك، كان ديوان البحر في هذه الحومة، قرب نقطة وصول السلع. هذا الجهاز الرسمي، الذي هو نقطة لقاء فعلية بين التجار والحكم الحفصي، وكان نقطة عبور إجبارية لكل تاجر يرغب في التجارة ببجاية وجهتها.

2) ديوان البحر

كان على السلع المرور عن طريق ديوان البحر[53] بعد وصولها. هذا الجهاز الجوهري لحياة الميناء كانت وظيفته الرئيسية هي تحصيل الرسوم المفروضة على المعاملات المالية لصالح بيت المال السلطاني. وهو بذلك ممثل مصالح بيت المال وشارة لسيادة الحفصيين على أراضيهم. ولا نعلم أين ارتفعت بنايات الديـــوان،

---

(50) نفسه، ص 80.

(51) أنظر أيضا النوادر المرتبطة بمرور المهدي بن تومرت ببجاية والتي جرت في هذه الحارة. البيدق، النص ص 53، الترجمة ص 80. هنا خصوصا انتشر الخمر الذي كان يباع بها.

(52) عقدت شهادة للموثق بتفوجليو (Batifolions) بتونس.

iusta portum Tunexi, in ripa maris. Éd. G. Pistarino, *Notai genovesi in oltremare. Atti rogati a Tunisi da Pietro Battifoglio (1288-9)*, Gênes, 1986, p. 109-110.

لكن هذا لا يبدو أنه كان في العادة منتشرا.

(53) ديوان أو ديوان البحر. لقد مرّت الكلمة العربية إلى اللغات اللاتينية، التي استعملتها باكرا بصيغة محرّفة: *dogana* أو *doana*. لكن بعض الوثائق استعملت كلمة *curia* في معنى الديوان. على سبيل المثال: Giovanni di Guiberto, n° 94 (1200).

لكن يجب تحديد موضعها في مكان تفريغ السلع، لتجنب الغش[54]. وكانت واسعة جدا لاحتضان عمليات التسجيل ووضع الرسوم، دون شك مع مخازن لإيداع السلع المخزونة أو التي صادرها العمال الحفصيون[55]. إنّ النصوص العربية لا تصف تنظيم ديوان البحر[56]. في المقابل، تسوي الاتفاقيات بدقة متنامية دائما سير هذا الجهاز الضروري للعلاقات بين المسيحيين والحفصيين[57]. لكن غالبا ما تطرح

---

(54) هي واقعة بجانب الميناء في سبتة، مقابل فنادق المسيحيين.

A. M. Turki, « La physionomie monumentale de Ceuta : un hommage nostalgique à la ville par un de ses fils, Muhammad b. al-Qāsim al-Ansārī (traduction annotée de son *Ihtisār al-ahbār*) », *Hespéris*, 20-21, 1982-1983, p. 142 ; M. Chérif, *Ceuta à l'époque almohade et mérinide*, Paris, 1996, p. 88.

في تونس في عصر أدورنو (Adorno) وليون الإفريقي (Léon l'Africain)، كانت قرب البحيرة، بمعنى في مدخل المدينة.

J. Heers, G. de Groer, éd. et trad., *Itinéraire d'Anselme Adorno en Terre Sainte (1470-1471)*, Paris, 1978, p. 104-105 ; Léon l'Africain, p. 387.

(55) يروي بيلوتي (Pilotis) أنه سكن في فندق بالأسكندرية في الجانب الآخر من سور الديوان، وهذا ما سمح له بحفر ثقب في السور لأخذ السلع من مخازن الديوان وبالتالي عدم تسديد الرسوم.

E. Piloti, *Traité d'Emmanuel Piloti sur le passage en Terre Sainte (1420)*, éd. P. H. Dopp, Louvain-Paris, 1958, p. 181.

ربما كانت المراقبة أقل دقة في الموانئ المغاربية، لكن بعض السلع كانت أيضا محفوظة في الديوان، خصوصا في حالة المصادرة.

(56) المنهاج للمخزومي – الذي درسه كلود كاهن– هو نص مصري يعود إلى نهاية القرن الثاني عشر، ويوفر لنا تفاصيل هامة، لكن لا يمكن استعماله إلا بحذر في سياق آخر. أنظر دراسات كلود كاهن المجموعة في:

Makhzūmiyyāt. Études sur l'histoire économique et financière de l'Égypte médiévale, Leyde, 1977.

(57) انطلاقا من هذه المعاهدات، عمل لويس دو ماس لاتري (Louis de Mas-Latrie) دراسة دقيقة حول الدواوين في المقدمة التاريخية لكتابه. وتبقى هذه الأخيرة مقبولة، رغم أن بعض النقاط يجب أن تصحح. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, introduction historique, p. 185-208.

حول سير ومكانة ديوان البحر في فضاء التجار، أنظر:

D. Valérian, « Les marchands européens dans les ports musulmans méditerranéens : une minorité confinée dans des espaces communautaires ? », 107-110, 2005, p. 4447-447.

هذه الوثائق مشكلا في المفردات وفي التفسير. إنّ وظائف مختلف ممثلي الديوان وأيضا الرسوم المفروضة على التجار ليست دائما واضحة. هناك عدة كلمات ذات أصول عربية[58]، لكن أحيانا مع نوع من الانزلاق الملحوظ للمعاني التي يجب الاحتراز منها[59]. من جهة ثانية، يمكن لعدة أسماء أن تشير إلى نفس الواقع من بلد إلى آخر.

إنّ ممثل السلطان أو أمير بجاية هو مدير الديوان، المسمى غالبا بالمشرف[60]. ويشار إليه في الوثائق الإيطالية أو الكتالانية بأسماء مختلفة: *mushrif*[61]،

(58) M. Cortelazzio, « Arabismi di Pisa e Arabismi di Venezia », *Lingua nostra*, 18, 1957, p. 95-97, rééd. *Venezia, il Levante e il mare*, Pise, 1989, p. 447-449.

(59) G. Pellegrini, « “Facchino” nella storia linguistica ed economica italiana », *Studi in onore di Amintore Fanfani*, III, Milan, 1962, p. 323-343.

كان الفقيه (*afaquinus*) مرتبط في البداية بالديوان لاختصاصاته القانونية، وأخذ شيئا فشيئا معنى أقل نبلا ليصبح حمال *facchino* بالإيطالية وfaquin بالفرنسية.

(60) على سبيل المثال، الغبريني، ص 271. حول هذه الكلمة، أنظر:

R. Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, Leyde, 1881, I, p. 750

في المغرب، ترجع هذه الوظيفة إلى الفترة الموحدية، بمعنى الوقت الذي كان فيه حضور التجار المسيحيين أكثر أهمية وهذا ما أدى إلى مصلحة أكثر انتظاما.

J. F. P. Hopkins, *Médiéval Muslim Gouvernement in Barbarie untel the Six th Century of the Hijra*, Londres, 1958, p. 51-52 ; J. E. Arbach, *Le domaine maritime en Occident musulman à l’époque almohade (XIIe-XIIIe siècles)*, thèse de l’Université de Toulouse-Le-Mirail, sous la direction d’A. Ducellier et S. Robert, 1995, p. 347 ; Brunschvig, *La Berbérie*, *op. cit.*, II, p. 67-68.

ونجد أيضا في المعاهدات البيزية لعامي 1313 و1353 علامة مشتغل بالديوان (مكلف بالمالية في الديوان). معاهدة بيزا- تونس، 1313و1353، المادة 13.

(61) في 1368، تبعا لأسر عشرة مسلمين بجائيين، أوقف الملك أو مساعده بحارة وتجارًا ميورقيين وبلنسيين وبرشلونيين وزج بهم في السجن ACA, C., Rg. 1427, f. 27v-28r (16/10/1368) .

في 1488 كتب فرديناند (Ferdinand) ملك أراجونة إلى أمير بجاية يطلب منه أملاك موزع تجار ميورقيين توفي في مدينته والتي صادرها المشرف « moxerif o loctinent ».

ACA, C., Rg. 3664, f. 305r-v (26/7/1488), éd. A. de la Torre, *Documentos sobre relaciones internacionales de los reyes católicos*, Barcelone, 1949-1951, III, a. 1488, n° 134, p. 120-121.

dominus dogane[62] أو أيضا *Alciat de la duana*[63] (قائد الديوان). تتغيّر الأسماء، لكن يظهر جيدا أنها تشير إلى نفس الوظيفة، وهذه متميزة عن وظيفة صاحب البحر (أو الأسطول). رغم أنّ حدود الاختصاص بينهما ليست دائما جلية. لكن يمكن الافتراض أن صاحب الديوان سلطة في الميدان التجاري وعلى الجاليات التجارية الأوروبية، في حين أن صاحب الأسطول له وظيفة عسكرية وبحرية جلية. هذا الفصل بين الوظيفتين يظهر على كل حال في نهاية القرن الخامس عشر في حادث عرضي يتعلق بالتجار البندقيين. عندما اجتاز موكب مراكب البندقية إلى بجاية في 1475، سوىّ قبطان مراكب بنيتو سورانزو (Benedetto Soranzo) قضية حدثت في ديوان الجزائر، لكنه لم يجد أمير بجاية – عبد العزيز– الذي كان غائبا، فتباحث مع صاحب الديوان « signor chaito de la tera » وصاحب البحر *(da marina)* اللذين رفضا المباشرة باسم الأمير، لأنهما لم يتلقيا الأوامر[64]. وفي الوثيقة الموالية، ميّز ثانية بين قائد الديوان « chaito de la doanna » وقايد بجاية « chaito de Buzia »[65]. الأول قد يكون إذن صاحب الديوان الذي له سلطة على الأرض والثاني هو قائد البحر الذي يعمل كملازم للأمير في غيابه[66]. إنّ التمييز بين الوظيفتين ليس واضحا

(62) ASG, AS, Maritimarum, *filza* 1665, f. 11r (22/7/1472).

(63) على سبيل المثال معاهدة لاكورونيا أراجونة –بجاية، 1314، المادة 6.

(64) Lettre du capitaine des galées à l'émir (30/9/1475), éd. L. Greco, *Quaderno di bordo di Giovanni Manzini : prete-notaio e cancelliere (1471-1484)*, Venise, 1997, n° 73, p. 50.

(65) Lettre du même (1/10/1475), éd. *ibid.*, n° 74, p. 51.

(66) يعتقد ألان ديسوليي (Alain Ducellier) عكس ذلك أن قائد الديوان هو قائد البحر *(da marina)* وقائد بجاية هو قائد البر *(tera)*.

A. Ducellier, « Le Registre de Giovanni Manzini, notaire sur les galées vénitiennes de Barbarie (1472-1476) », *CT*, 155-156, 1991, p. 519.

حقيقة، الوثائق ليست صريحة، لكن المعادلة بين عبارة *chaito de la marina* وقائد البحر تدفع لتأويل مختلف.

دائما، لأنّ أنسالم ترمدا (Anselme Turme da) -الذي عيّن على رأس الديوان البحري التونسي في نهاية حكم أبي العباس- حمل لقب قائد البحر والترجمة وعلى عاتقه أيضا دار المختص[67].

على أي حال هو واحد من بين الشخصيات الأولى للدولة[68]. ففي 870/ 1466، تمّ تكليف ابن صاحب أشغال تلمسان بالذهاب إلى وهران لتحصيل الرسوم على التجارة الأوروبية[69]. لكن كانت الوظيفتان متميزتين في بجاية على الأقل في بعض الفترات. إنّ صاحب الديوان هو دون شك خاضع لصاحب الأشغال، حتى وإن كان ليس من النادر رؤيته يلعب دور المحاور المباشر بين الملوك المسيحيين وممثليهم[70]. وأصبح هذا المنصب في القرن الرابع عشر معهودا به في الغالب إلى الأندلسيين، الذين كانوا تقنيين جيدين في الإدارة والمالية،

(67) M. de Epalza, éd. et trad. esp., La Tuhfa, autobiografía y polémica islámica contra el Cristianismo de ‘Abdallāh al-Tarğumān (fray Anselmo Turmeda), Atti della Accademia nazionale dei Lincei, Memorie, Classe di scienze morali, storiche e filologiche, serie VIII, vol. XV, Rome, 1971, p. 230, 232.

(68) Brunschvig, La Berbérie, op. cit., II, p. 67.

لا يضعه ليون الإفريقي إلا في الرتبة التاسعة من المراتب في تونس بعد مدير القبالة (Léon l’Africain, p. 386-387). لكن وظيفته في المالية أعطت له أهمية حقيقية عالية والتي سجلها جيدا أدورنو (Adorno) في تونس: "إنه الشخصية الأكثر أهمية والتي لها أكثر تأثير على الملك من بين الأعوان".

Itinéraire d’Anselme Adorno, op. cit., p. 138-139.

(69) عبد الباسط بن خليل، الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، ترجمة:

R. Brunschvicg, *Deux récits de voyages inédits en Afrique du Nord au XVe siècle, ‘Abd al-Bāsit b. Halīl et Adorne*, Paris, 1936, rééd. 2001, p. 74.

كان صاحب الأشغال يشرف على الديوان في سبتة تحت حكم المرينيين. Chérif, *Ceuta, op. cit.*, p. 133

(70) في 1313 راسل قائد *(cayt)* ديوان بجاية بوعبيل بن قانوني (Boa bile Bencanoni) مباشرة مع ميورقة في إطار تحقيق حول بعثة جريجوي سالومبي (Grigori Salem bé). أخذ بشهادات بعض الشهود في ديوان بجاية وبعث بها إلى ميورقة.

Aguiló, « Incident », art. cité, p. 231.

حيث وجدوا هنا وسيلة مثالية لشغل مناصب عليا، كمنصب صاحب الأشغال، وخصوصا منصب الحاجب[71]. هكذا بدأ أبو عبد الرحمن بن تغيير- أصله من المرية- حياته المرموقة كمدير لديوان القل التابع لديوان بجاية[72]. وعندما أصبح حاجبا، عيّن على رأس هذه الإدارة ببجاية مخلصا أندلسيا مثله وهو أبو عبد الله محمد بن يحيى بن القالون[73]. كما غالبا في الوظائف المرتبطة بالضرائب، نفرت مديرية الديوان هذه من رجال العلم والدين الذين رفضوها بصراحة. ويشير الغبريني إلى حالة الرجل، الذي كان آنذاك شاهدا في الديوان والذي تسلّم المديرية، لكنه استقال من عمله لزهده[74]. لكن ليس هناك شيء يقول فعليا أن الوظائف العليا الديوانية لم تكن مشغولة من أعضاء النخبة الدينية في المدينة[75]. وأخيرا، كتب ليون الإفريقي أن هذه الوظيفة شغلها يهود أغنياء في تونس[76]، لكن في بجاية لا نجد أثرا لليهود في هذا المنصب.

إنّ الاختصاص المجالي لمدير الديوان ليس دائما واضحا. وتوضح الاتفاقية بين سانش الميورقي (Sanche de Majorque) وأبي بكر البجائي أن الدواوين

---

(71) أنظر:

D. Valérian, « Les Andalous à Bougie, XIe-XVe siècle », *Migrations et diasporas méditerranéennes (Xe-XVIe siècles). Actes du Colloque de Conques (octobre 1999)*, dir. M. Balard et A. Ducellier, Paris, 2002, p. 324-325.

(72) العبر، 4، ص 724-725، البربر، 2، ص 421-422. تمّ استغلال ابن غمر بعد ذلك في جباية ضرائب بجاية ثم عيّن في منصب صاحب الأشغال ووصل في النهاية إلى منصب الحاجب.

(73) البربر، 2، ص 435-436. أصبح بعد ذلك نائب حاجب بجانب ابن غمر. نفسه، 2، ص 445.

(74) الغبريني، ص 93.

(75) أشار نفس المؤلف من جهة أخرى إلى فقيه تولي وظيفة مشرف، موضحا أن في هذه الفترة (توفيت هذه الشخصية موضوع الحديث في 632/ 1234 ونحن إذن دون شك في نهاية الفترة الموحدية)، كان المشرفون أناسًا خيرين. الغبريني، ص 271.

(76) Léon l'Africain, p. 387.

الرئيسية للسلطة المعنية بهذا الاتفاق هي دواوين القل وجيجل وقسنطينة(77)، لكن هل كان لرئيس ديوان بجاية سلطة حقيقية على زملائه في المدن الثانوية؟ في بداية القرن الرابع عشر، غالبا ما جاء ابن غمر – الذي مارس هذه الوظيفة في القل- إلى بجاية لأعماله، ويمكن الاعتقاد بإلزاميته تقديم حسابات لديوان العاصمة(78). وأيضا في 1482، أرسل ملك أراجونة سفارة إلى ملك بجاية يشتكي من تصرف مدير ديوان الجزائر(79)، وفي 1475 قدم البنادقة إلى بجاية للحديث عن المشكل الذي حدث أيضا في الجزائر. لكن في المثالين الأخيرين، تمّ التوجه إلى أمير بجاية، وليس إلى مدير ديوان البحر. بالعكس، وجب على ديوان بجاية تطبيق القرارات المتخذة في تونس، خصوصا في الميدان الضريبي. إن السياسة الديوانية التي تقررت فعليا في العاصمة كانت قابلة لكل المجال. ولهذا فإنّ نصوص الاتفاقيات ترسل إلى الموانئ الكبيرة للسلطنة وإلى كل المدن التي يقصدها التجار، وهذا لتجنب كل مبادرة محلية مغايرة. هكذا، وزّعت اتفاقية 1234 بين بيزا وأبي زكرياء في كل أراضي الخليفة للتعرف عليها(80). ويوضح كذلك الاتفاق المبرم بين أبي فارس وجمهورية بيزا على أنه لا يحق لأي عامل في الدواوين تغيير مواد الاتفاق(81). بصفة عامة، رأينا أن مراقبة الأموال كانت موضع تنافس في الصلاحية بين وزراء تونس ووزراء بجاية. إن البعد عن العاصمة، مهما يكن، ترك حيزا كبيرا للمناورة في ديوان بجاية، لكن في إطار الاتفاقيات وتحت سلطة أمير المدينة(82).

(77) معاهدة ميورقة- بجاية، 1312، المادة 1.

(78) البربر، 2، ص 421.

(79) ACA. C., Rg. 3827, f. 68r-v (7/8/1482).

(80) معاهدة بيزا- تونس، 1234، المادة 9.

(81) معاهدة بيزا- تونس، 1397، المادة 25.

لكن هذا البند يبيّن بطريقة غير مباشرة إمكانية سوء الاستعمال.

(82) أنظر: Brunschvicg, *La Béribérie, op. cit.*, II, p. 67.

أيد عدة مؤرخين كراء الحاكم مداخيل الديوان للخواص، خصوصا المسيحيين. وهذا ما يقدمه على الخصوص كارمن باتل (Carmen Batelle) بالاعتماد على وثيقة كاتالانية لعام 1285 والتي تتحدث عن كراء التجار الكتالانيين لجباية بجاية[83]. لكن القبالة المشار إليها في هذا العهد ليست دون شك هنا الديوان الخالص ومن المحتمل أن يكون مكسًا خاصًّا بالخمور. يستند لويس دوماس لاتري (Louis de Mas-Latrie) فيما يخصه على بعض الاتفاقيات الكتالانية لتقديم نفس الأطروحة[84]. إنّ الاتفاق المبرم في 1314 بين ملك أراجونة والسلطان البجائي أبي بكر منع في الواقع كل رجل من عمال القبالة، مسيحيا كان أو مسلما، من الصعود على متن السفن للتفتيش[85]. في هذا السياق، هذه القبالة هي فعليا ديوان بجاية ولا تشير إلى تغطية رسم بعينه، كالرسم المتعلق بالخمر. لكن حضور المسيحيين في ديوان البحر لا يشير بهذا القدر إلى أنهم شددوا على المداخيل. إن معاهدة 1314 على غرار المعاهدات الأخرى الموقعة مع برشلونة أو ميورقة، تجبر في الواقع السلطان على إعادة دفع قسم من مداخيل الديوان إلى الكتالانيين، سواء على شكل إتاوة خضوع، أم غالبا على شكل تسديد لمساعدة عسكرية أم تعويض عن أعمال قرصنة. إنّ المسيحيين المشار إليهم في هذه المادة من المعاهدة يمكن أن يكونوا عمال ملك أراجونة المكلفين بحراسة مداخل الديوان وليسوا بمزارعين. ومن جهة أخرى، ليس من المستبعد استعمال الديوان للمسيحيين بصفة فردية.

(83) C. Batelle i Gallart, « La alhóndiga, centro de la vida de los Catalanes en el Norte de Africa », *Mediterraneo medievale. Scritti in onore di Francesco Giunta*, I, Soveria Mennelli, 1989, p. 80, et édition du document (Archivo de la Catedral de Barcelona, P.A. 4-10, 15, 20/9/1258), Ead., « Uns mercaders de Barcelona al nord d’Africa a mitijan segle XIII », *Acta Mediaevalia*, 10, 1989, p. 57.

(84) Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, introduction, p. 190, 205.

(85) ACA, C., Rg. 24, f. 116-117 (7/1/1314), éd. Masia de Ros, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, n° 133, p. 418-420.

إنّ الوظيفة الأولى للديوان جباية الرسوم المفروضة على التجارة البحرية. خضع سير هذه العمليات للقواعد التي أقرتها العادة، أحيانا موضحة في معاهدات السلم. إنها إذن لحظة هامة من إقامة التجار في الميناء، التي عبأت عدة أشخاص، زيادة على رئيس الديوان وعماله.

وكان يساعد صاحب الديوان مفتشون مشار إليهم في الوثائق اللاتينية بالاسم غير الدقيق "ضباط"[86]. ولضمان قانونية وانتظام العقود، يحضر الشهود المسلمين في العمليات[87]. ويسجل الديوان كميات السلع التي يأتي بها التجار المسيحيين على كتاب حسابات[88]، وهذا ما يفترض حضور مدونين أو كتاب[89]. بجانب عمال الحكم المحلي، يحضر أيضا ممثلو قناصل مختلف الأوطان المسيحية المعنية. في نهاية القرن الثاني عشر، كان أب الرياضي فيبوناتشي (Fibonacci) كاتبا للتجار البيزيين بديوان بجاية *(scriba in douana Bugée pro pisanes mercatoribus)*، [90] دون شك مكلف بجرد السلع التي تعبر الميناء

(86) تتحدث معاهدة 1236 بين جنوة وتونس (المادة 14) عن ضباط البلاط.

(87) صاحب الديوان. الغبريني، ص 93. من بين الأشخاص الحاضرين لإمضاء معاهدة 1391 بين تونس وجنوة، نجد عدة أشخاص مرتبطين بديوان العاصمة، *(dominus dogane)*، وشاهد وكاتبين (*scriba*-s).

معاهدة جنوة – تونس، 1391، الديباجة. أنظر أيضا معاهدة جنوة – تونس، 1272، المادة 15.

(88) في 1369، عندما أراد أن تسدد الضريبة التي لم يدفعها أمير بجاية، أرسل الملك بيار الرابع الأراجوني (Pierre IV) خوان رواج يطلب منه وضع الكتب التي دوّنت عليها الرسوم التي سسدها التجار الكتالانيين:

« li fara mostrar los libres ques son fets del dit dret en las sues duanas ». ACA, C., Rg. 1389, f. 74v (25/4/1369).

(89) أنظر الغبريني، ص 287، الذي يتحدث عن شيخ كتبة الديوان.

(90) Leonardo Pisano (Fibonacci), *Liber abbaci*, éd. B. Boncompagni, Rome, 1857, p. 1. Trad. angl. L. Sigler, *Fibonacci's Liber Abaci*, New York, 2002, p. 15.

وإيداع الرسوم التي يسددها مواطنوه[91]. وتوضح من جهة أخرى معاهدة 1397 بين بيزا والحفصيين على ضرورة امتلاك البيزيين لكتّاب *(scrivani)* في تونس وفي المقاطعات، وهذا لإنجاز حساباتهم وتقديمهما إلى الديوان[92]. بالأسكندرية في القرن الخامس عشر، كان حضور قنصل الكتالانيين شخصيا في الديوان إجباريا في وقت الوزن[93]، ولكن لا نعرف ما إذا كان هذا الإجبار مطبقا على قناصل بجاية.

بين التاجر وعمال ديوان البحر، كانت هناك غالبا الحاجة إلى وسيط، لقد كان هذا عمل المترجين (drogmans)، الذين هم مترجين وسماسرة، حيث لعبوا دورا جوهريا في حياة التجار في الموانئ المسلمة.

إن قيمة الأمتعة تقدر في الواقع بداية من التفريغ ولهذا توزن السلع. وتوضح المعاهدات أن عملية الوزن تكون حسب العادة السائدة، لكن دون إعطاء توضيحات أكثر[94]. ويتكفل الوزانون المعترف بهم بالعملية، دون شك تحت المراقبة اليقظة لأصحاب الممتلكات أو العاملين أو الممثلين للقناصل، لأن هذه العملية يمكن أن تكون موضوع عدة احتجاجات. ولأجل هذه الغاية، أشارت كتيبات التجار للموانئ الرئيسية لمعادلات القياسات لمختلف المنتجات. وخير مثال عن ذلك كتيّب "ممارسة التجارة" *(Pratiqua della mercatura)* لـ بيجولوتي (Pegolotti): عامل شركة الbارديين (Bardi) الفلورنسية، تردد على عدة أماكن تجارية (ولكن على ما يبدو ليس بالمغرب) وجمع المعلومات التي وجب على

(91) O. Banti, « I Rapporti tra Pisa e gli stati dell'Africa settentrionale tra l'XI e il XIV secolo », *Le Ceramiche medievali delle chiese di Pisa*, Pise, 1983, p. 20.

استعمل هذا السجل الرسمي الذي يمسك به الكاتب في حالة الشكوى في الديوان، وأيضا ليسدد التاجر ما يلزمه للفندق ومسيره.

(92) معاهدة بيزا- تونس، 1397، المادة 14.

(93) Cl. Carrère, *Barcelone, centre économique à l'époque des difficultés, 1380-1462*, Paris-La Haye, 1967, p. 120.

(94) على سبيل المثال معاهدة بيزا – تونس، 1264، المادة 8.

التاجر معرفتها[95]. إنّ معادلات القياسات التي يحتوي عليها كتيّبه تظهر أن الوحدات تتغيّر أحيانا حتى في الفضاء الحفصي ذاته، وهذا ما لم يسهّل عمل التجار. فبالنسبة للحبوب مائة سالمي *(salme)*، بقياس السالمي العام الصقلي، تقدر قيمته في طرابلس بلاد البربر ب 75 إلى 80 قفيز، وفي تونس 112 قفيز، في حين أن بجاية الوحدة هي الفلقة *(falacca)* ، مائة سالمي وتقدر بـ 250 فلقة.[96] أيضا، 100 سالمي من حبوب مانفريدونيا (Manfredonia) (في بلاد البوي بإيطاليا) يساوي 100 قفيز في تونس، 228 فلقة في بجاية، 102 كارتييري *(quartier)* في طرابلس، 850 كميني *(commine)* في القل، و700 كميني (*commine*) في بونة[97]. ليس هناك إذن توحيد في المقادير في دواوين مختلف الموانئ الحفصية، ولا حتى في تلك التي تتعلق بسلطة بجاية السياسية (مثل القل)[98]. إذا ما كان هذا التنوع قد عقّد بكل تأكيد حسابات التجار، فإنه لم يطرح صعوبات للديوان الذي يزن ويقدّر بوحدات بجاية الخاصة[99].

وأخيرا، انشغلت كتائب المشاة الحاملين لنقل السلع من الرصيف إلى الديوان، ومن هنا إلى فنادق التجار أو إلى الأسواق. معطيا أسماء مختلفة لهؤلاء الحمالين، وصفهم بجولوتي (Pegolotti) كـ " gente cheportano in sul

(95) كتب بين 1310 و1340. تأتي هذه المعلومات من خبرته المباشرة كموزع للشركة، وأيضا من التسعيرات الديوانية أو من دليل التجار السابقين.

Pegolotti, p. XV-XXVII. L. Balletto, « Bougie nei manuali toscani di mercatura del due-trecento », *Italia e Algeria, aspetti storici di un'amicizia mediterranea*, dir. R. H. Rainero, Milan, 1982, p. 81-82.

(96) Pegolotti, p. 113.

(97) *Ibid.*, p. 167.

(98) R. Brunschvicg, « Mesures de capacité de la Tunisie médiévale », *RA*, 77, 1935, p. 94-96.

(99) يمكن أن تحدث صعوبات عندما يذهب التاجر إلى جهات حفصية أخرى بعدما يسدد التاجر رسوم بجاية ومرفقا بوصل أعوان الديوان. ولا نعرف إذا ما كانت هناك شكاوي، لكن أعوان الدواوين امتلكوا دون شك أنظمة دقيقة للقياس مستخدمة في مختلف مدن إفريقية.

loro Collo mercanti e Merce"[100]. أيضا كلمة *ragazzo* (رجل شاب) أتت – حسب جيانباتيستا بليجريني (Giambattista Pellegrin) - من العربية المغربية، رقّاص[101] ويمكن أنها كانت تشير في البداية للمساعدين في الديوان[102].

كل هذا نشّط دون شك كثيرا ديوان البحر وحوافه. بالنسبة للتجار، سبّب هذا مصاريف إضافية، غير هامة دون شك بتفريقها، لكنها شكلت تكلفة إضافية شاملة. إن المعاهدات ليست واضحة مطلقا حول المصاريف الملحقة، ماعدا ما يتلقاه المترجمون، بما أن هذا الدفع لا يعني مباشرة الحكم. وتقتصر المعاهدات التأكيد دوريا على عدم الإلحاح أكثر من العادة السارية. هكذا يقول ببساطة نص سلم 1264 مع بيزا أن الناس الذين هم في الديوان، المترجمين، المجدّفين (*garabarii*)والحمالين (*bastas ci*) ، يجب عليهم الاكتفاء بما يعطى لهم دائما لجهدهم[103]. إننا أكثر معرفة من خلال وثيقة جنوية للأسف متأخرة. ففي 1472، عبأ اليهودي مردخاي (Mordechay) السلع في مرسيليا على متن مركب جنوي ونزل بها في بجاية، وسجل كاتب المركب النفقات المختلفة التي تمت بهذه المناسبة[104]. فوجب عليه تسديد بالإضافة إلى الرسوم على السلع، عدة خدمات: ديناران (مزدوجان) لرب اليخت[105]، ديناران لـلترجمان، دينار

(100) Pegolotti, p. 14.

(101) Gianbattista Pellegrini le traduit par coursier (*galoppino*). G. Pellegrini, « Contatti linguistici arabo-veneziani », *Venezia e il Levante fino al secolo* XV. *Atti del II convegno internazionale di storia della civiltà veneziana*, dir. A. Pertusi, II, Florence, 1973, p. 327. Dozy, *Supplément, op. cit.*, I, p. 547,

الذي يعطي معنى الرسول، أي ساعي البريد.

(102) Pellegrini, « Contatti linguistici », art. cité, p. 327.

(103) معاهدة بيزا – تونس، 1264، المادة 10.

(104) ASG, AS, Maritimarum, *filza* 1665, f. 11r (22/7/1472).

(105) هل يتعلق الأمر بالقارب الذي يذهب ويأتي مرارا بين السفينة الجنوية والرصيف؟

وثمنان[106] *(tomini)* لكاتب ديوان البحر، دينار وثمنان لجواز التنقل، وديناران وثمنان لكل من الوزّان والكيال[107]، وسبعة دنانير للترجمان ويضاف إليهم ديناران آخران (*pro complemento torcimanorum*)، وأربعة أثمان للتقاسم[108]، ونفس القيمة بالنسبة لصاحب البحر وصاحب المركب[109].

كانت الرسوم التي تسدد مبدئيا محددة بمعاهدات سلم وتجارة، لكن الكل غير معروف لنا، لأن الاتفاقات استهدفت قبل كل شيء ضمان التجار ضد الإفراط، بمعنى ضد كل تجديد. في عدة حالات، اكتفى النص بالإشارة إلى العادة السائدة، التي تبقى بالنسبة لنا غير معروفة. من جهة أخرى، اكتفى المحررون غالبا بالتلميح إلى تعهد الحكم الحفصي بعدم المطالبة أو الخروج عن القاعدة العامة، معتبرين أنه من غير الضروري التذكير بها. ويستخلص من هذا أن كتابة القاعدة لا تشير بالضرورة إلى أنها شيء جديد، لأنها وجدت كعادة سارية من قبل.

كان المبدأ القاعدي هو أن الواردات تخضع لحقوق تساوي 10 في المائة، العشر، وهو المسمى في الوثائق الأوروبية بـ *décima*، *delme*، أو *dezme*، بمعنى عشر[110]. وتلح كل الاتفاقيات على ضرورة عدم خلق رسم جديد أو

(106) من تجزيئات الدينار (1/ 8). يجب دون شك فهم الاختصار « t » المستعمل. أنظر:
R. Brunschvig, « Esquisse d’histoire monétaire almohado-hafside », *Mélanges William Marçais*, Paris, 1950, p. 69.

(107) يجب التفكير أنه يتم تمييز السلع المقدرة بالوزن والسلع التي تقاس بوحدات أخرى (كرات، طول القماش، إلخ).

(108) تأتي الكلمة من العربية حمل.
F. Edler de Roover, *Glossary of Medieval Terms of Business, Italian Series, 1200-1600*, Cambridge (Mass.), 1934, p. 55.

(109) حراس البحر والأبواب، وهي وظائف غير معروفة في وجهة أخرى والتي هي متواضعة، بالنظر للمبلغ الذي يدفع لهم من طرف التجار. إن الأبواب التي هي موضوع السؤال يمكن أن تكون هي أبواب المدينة (خصوصا باب البحر)، وأيضا أبواب الديوان والفنادق.

(110) P. G. Forand, « Notes on ‘Ušr and Maks », *Arabica*, 13, 1966, p. 137.

زيادة هذه النسبة[111]، لكن الخروج عن هذه القاعدة كان كثيرا. فواحدة من أقدم معاهدات السلم، وهي المعاهدة التي أمضيت بين الموحدين وجمهورية بيزا في 1186، تكتفي بالقول بدفع التجار للعشر حسب العادة السارية، ماعدا السلع المتبادلة بين البيزيين والتي لا تخضع لرسوم[112]. هذا التنظيم العام أخذ به بعد ذلك في كل الاتفاقيات مع القوى المسيحية. وأكثر أهمية هي الاستثناءات التي تضيئنا حول السياسة التجارية للحفصيين، رغم صعوبة تفسيرها.

ويمس التخفيض الأكثر سريانا الذهب والفضة. إنّ اتفاقية 1234 بين تونس وبيزا، على غرار اتفاقية 1236 مع جنوة، تنص على عدم تسديد التجار إلا لنصف العشر، بمعنى 5 في المائة[113]. واتضحت هذه القاعدة بعد ذلك، وفي 1264 يقول الاتفاق مع بيزا بتسديد هذا الرسم بعد الوصول مباشرة إلى الميناء، مخالفا بذلك للسريان الجاري على أنواع أخرى من السلع[114]. وتميز اتفاقية 1313، دائما مع بيزا، عدة حالات: التجار يدفعون نصف العشر عند وصولهم إلى الميناء بالذهب والفضة التي يسكهما المسلمون. ويكون الرسم نفسه بالنسبة للمعادن غير المسكوكة، لكن لا تسدد إلا بعد البيع الفعلي. وأخيرا، بالنسبة "لدراهيم ودنانير السكة المسيحية" (العملات الذهبية والفضية المسيحية)، يرجع إلى العادات القديمة السارية، التي لا نعرفها[115]. إضافة إلى الذهب والفضة، تضيف اتفاقية 1397 بين بيزا وتونس الأحجار الكريمة (الزمرد والياقوت) والجواهر التي

---

(111) نعرف أن في مصر في العصر الفاطمي، كانت الرسوم أكثر ارتفاعا، وصلت تقريبا حتى إلى 20 في المائة.

Cl. Cahen, « Douanes et commerce dans les ports méditerranéens de l’Égypte médiévale », *JESHO*, 7, 1964, p. 245-246.

(112) معاهدة بيزا- الموحدين، 1186.

(113) معاهدة بيزا – تونس، 1234، المادة 2، معاهدة جنوة – تونس، 1236، المادة 5.

(114) معاهدة بيزا – تونس، 1264، المادة 6.

(115) معاهدة بيزا – تونس، 1313، المادة 6.

لا يسدد أيضا إلا 5 في المائة[116]. واستفاد البنادقة أيضا من إعفاء شامل على هذه المواد عندما تشترى لصالح السلطان[117]. لكن لا يذهب نص معاهدة 1250 مع جنوة بعيدا وينص فقط على عدم دفع الذهب المباع في دار سكة تونس وبجاية حقوقا أخرى غير التي تكون عادة متعارف عليها[118]. فقط المعاهدات مع البندقية، بداية من معاهدة 1251، تعفي من كل رسم الذهب والفضة المحمولين على شكل عملة[119]. ويظهر هذا التحديد لحقوق الديوان إرادة لتسهيل وصول الذهب والفضة إلى السلطنة، سواء أكان مسكوكا أم لا. إنّ أي جهد للسلطان بالجمع لا يجب أن يدهش، لأن غنى البلاد يقدر أيضا ولمدة طويلة من حيث توفرها على المعادن النفيسة. من جهة أخرى، كان الاقتصاد بحاجة لبعض أنواع النقود ووجب إذن تزويد دار السكة بالمعادن. إنّ الخاصية الملمحة للمادة المتعلقة بالمعادن التي توضع في دار السكة تستدعي اليقظة، لكن هناك إرادة واضحة لتزويد سك العملة بالواردات الأوروبية. ونسجل في النهاية أنه لم يكن هناك أي تمييز بين المعدنين، في حين أن المغرب كان في حاجة للفضة أكثر من الذهب[120].

ويتعلق الاستثناء الثاني ببيع المراكب، التي أصبحت سلعة خاضعة للضريبة انطلاقا من وقت وضعها للبيع. وتوضح كل المعاهدات البيزية إذا ما كان المشتري في سلم مع الملك، يكون البيع معفى من تسديد الحقوق. ونقيض ذلك، يجب

(116) معاهدة بيزا – تونس، 1397، المادة 6.

(117) معاهدة البندقية – تونس، 1251، المادة 9. أخذت المعاهدات الموالية بنفس الإجراء. أنظر:
Mas-Latrie, *Traités, op. cit.*, introduction, p. 195.

(118) معاهدة جنوه – تونس، 1250، المادة 22.

(119) معاهدة البندقية – تونس، 1251، المادة 8.

(120) تنذر مناجم الفضة في المغرب، كما هو في مجمل العالم العربي، في حين كان الذهب يأتي من الصحراء.

M. Lombard, *Les Métaux dans l’ancien monde, du Ve au XIe siècle*, Paris-La Haye, 1974, p. 235-236.

تسديد رسم عادي قدره 10 في المائة[121]. إنّ بيع المسيحيين للمراكب في الموانئ المسلمة هو مصرح به بوضوح في القوانين البحرية. إنّ نص قنصلية البحر (*Consulat de Mer*) الذي كتب دون شك في جنوب فرنسا أو في إسبانيا بين منتصف القرن الثالث عشر ونهاية القرن الرابع عشر، والذي عرف انتشارا واسعا، كتب عن مصير البحارة في حالة بيع ما: "إذا ما بيعت سفينة في بلاد الاسماعيليين، يجب على صاحبها توفير مركب وطعام إلى النواتية حتى وصولهم إلى البلاد المسيحية،حيث سيكونون في أمن"[122]. وردت نفس الترتيبات في الكتاب الرابع من قوانين مرسيليا (*Statuts* de Marseille) التي أخذت شكلها النهائي في 1253، والذي نظر في بيع السفن في بجاية، وسبتة أو في مكان آخر[123]. يمكن أن نفترض أن المشتري مسلم، حتى وإن كان غير موضّح، لأنه في الحالة المعاكسة، ليس هناك إجراءات خاصة تنبئ لأجل عودة البحارة إلى الأرض المسيحية[124]. رغم أنه منذ المجمع الثالث بلاتران (Latran) في 1179، لا يحق للمسيحيين البيع إلى أولئك الذين يعتبروهم أعداء المسيحية لا السفن، ولا الأدوات القابلة للاستعمال في الصناعات البحرية، وهذا المنع جرى تأكيده دوريا بقوة من

(121) أتت بهذا التوضيح معاهدة 1397 بين بيزا وتونس، المادة 8.

(122) Éd. G. Colon, A. Garcia, *Llibre del Consolat de Mar*, Barcelone, 2001, chap. 152, p. 523 (version catalane), 1038 (trad. italienne de 1479) : « Si nau o leyn se vendrà en terra de sarrahins, lo senyor de la nau o del leny deu donar leny e vianda als mariners, dentrò sien en terra de christians hon pusquen haver recobra ».

نشر هذا النص أيضا:

J.-M. Pardessus, *Collection de lois maritimes antérieures au XVIIIe siècle*, II, Paris, 1831, p. 139 (Chapitre 107).

(123) Éd. R. Pernoud, *Le IVe Livre des Statuts de Marseille*, Marseille, 1935, p. 18.

(124) ما عدا إذا ما افترضنا أن المشتري كان له طاقمه الخاص في عين المكان، جاهز للصعود على السفينة، يمكن أن نتخيل في الواقع احتفاظه بطاقمه القديم.

البابوية[125]. وأي إعفاء من الرسوم يهدف إذن إلى تشجيع هذه التجارة. وبداية من نهاية القرن الثالث عشر، لاقت إمكانية بيع المراكب للمسلمين قبولا في المعاهدات. فقد نظرت إليها معاهدة 1272 مع جنوة[126]، على غرار معاهدة 1278 مع لاكورونيا أراجونة[127]، دون بذل جهد للاختفاء.

وأخيرا، تتعلق المخالفة الأخيرة الهامة[128] بالسلع المستوردة، لكنها لم تبع، والتي تعفى كلية من الرسوم ويمكنها الخروج معفاة من الحقوق. ويظهر هذا البند خصوصا في المعاهدات الموقعة مع لاكورونيا أراجونة ومع جنوة[129]. إنّ غياب أي ضمان كان باستطاعته تعريض التجار المسيحيين لمصاريف ثقيلة جدا في حالة الكساد وتوقيف بعض المبادرات، وهذا ما يفسر إدراج هذا البند في المعاهدات.

تنوعت طرق تسديد رسوم الاستيراد هذه من بلد إلى آخر، وبعضها استفاد من شروط أكثر ملائمة. ويقّر بسرعة – عندما تكون السلع التي بيعت فعليا

(125) H. Gilles, « Législation et doctrine canoniques sur les Sarrasins », *Islam et Chrétiens du Midi*, Toulouse, 1983 (*Cahiers de Fanjeaux*, 18), p. 195-213.

(126) معاهدة جنوة – تونس، 1272، المادة 11.

من جديد نصت معاهدة 1343 (المادة 13) المراكب للمسلمين الذين هم على علاقة سلم بالحفصيين.

(127) معاهدة ميورقة – تونس، 1278، المادة 7: *quod possint vendre et naulis are eorum naves et ligna*

أنظر أيضا معاهدة 1403، المادة 28.

(128) استطاعت بعض الأمم أحيانا الحصول على امتيازات خاصة. ففي 1312 سمحت المعاهدة بين بجاية والميورقيين لهؤلاء الأخيرين باستيراد إلى غاية 2000 جرة زيت معفاة:

quod dicte due Milia jarre saint franche et liber de deene et de matzem et de omne alio jure quo vel quibus emptor et venditor solvere tenerentur aliquo modo.

إن حق المخزن ليس واضحا ولا يظهر في وثائق أخرى. اتفاقية ميورقة-بجاية، 1312، المادة 2. أيضا، كان من العادة عدم تسديد رسوم على المأكولات الموجهة لطاقم المراكب. على سبيل المثال معاهدة 1403 مع لاكورونيا أراجونة، المادة 36.

(129) على سبيل المثال، جنوة-تونس، 1326، المادة 8.

خاضعة للرسوم- فإن عملية تسديد الرسوم لا تتدخل إلا بعد اجراء البيع وتسديد السلعة. وهذا مصدر الاحتجاج الجاري للتجار المسيحيين ضد الديوان وتجاوزاته. ففي 1315، كتب سبعة تجار من رعايا لاكورونيا أراجونة للملك جاك الثاني (Jacques II) يشتكون ضد انتهاك الديوان لاتفاق 1314. ويظهر من خلال هذه الاحتجاجات، أن الديوان يقبض حقوق التوريد مباشرة بعد إنزال السلع[130]. أيضا في 1293 اشتكى المرسيليون من طلب الديوان تسديد الرسوم قبل بيع وتسديد السلع المستوردة[131]. بالرغم من أن الحفصيين منحوا أحيانا مهلة طويلة جدا للتجار لتسديد هذه الرسوم. إنّ المعاهدة التي أمضاها المستنصر مع البيزيين في 1264 لا ترخص لهم التسديد إلا عند مغادرتهم، أو خلال السنوات الثلاث التي تلي البيع[132]. إنّ القاعدة مختلفة لرعايا لاكورونيا أراجونة، حيث أن معاهدة 1314 مع بجاية تجبر تصفية حساباتهم في كل شهر مع الديوان. لكن اتفاق 1403 بين الحفصيين وملك أراجونة ترك مهلة شهرين بعد البيع لتسديد الرسوم[133]. ويصرح التاجر بما باعه ويسدد الرسم المناسب[134].

لقد كانت إذن الضريبة تحسب بحسب ما جلبه التاجر فعليا من بيع سلعه. إذا جرى التبادل بحضور ترجمان أو شهود، أو أيضا إذا سجّله موثق أو تاجر، يمكن للديوان معرفة ثمن البيع بسهولة. وبالمقابل، إذا لم تترك العملية أي أثر أو إذا ما

(130) ACA, CRD, Jaime II, *caja* 27, n° 5115 (13/9/1315), éd. Masia de Ros, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, n° 144, p. 432-433.

(131) AM, HH 334 (15/6/1293), éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 97-98.

(132) معاهدة بيزا-تونس، 1264، المادة 6. تم الحفاظ على هذه الحالة في معاهدة 1313 (المادة 4). في المقابل، تمت المحافظة على المدة إلى ستة أشهر (المادة 7)، إشارة ربما إلى تراجع القوة البيزية.

(133) معاهدة لاكورونيا أراجونة-تونس، 1403، المادة 24. إذا لم يسدد المشتري ما يجب عليه للتاجر، يجب على الديوان مباشرة كل ما يمكنه فعله في أقصر مدة، وفي حالة عدم قدرة المشتري على الدفع، فإنّ الكاتالاني ليس ملزما بتسديد الرسم. ونصّت معاهدة 1443 أيضا مع جنوة مدة شهرين (المادة 9).

(134) معاهدة لاكورونيا أراجونة-بجاية، 1314، المادة 9.

أجريت على شكل مقايضة، لا نعلم تماما كيف احتسب الرسم. وتوضح معاهدة 1397 بين بيزا والحفصيين وجوب تقدير السلع الواردة حسب الأسعار الجارية(135)، وهذا ما يوحي بأنّ الديوان رجع إلى ما يمكننا تسميته بـ"سعر السوق" في وقت البيع(136). في جميع الحالات، يسدد التاجر الرسوم سواء بالعملة أم بالسلعة(137)، ويستلم وثيقة من ضباط الديوان تشهد على الدفع(138). هذه الوثيقة التي تسمى "بطاقة وصية" (carta testimonial)،(139) أو المشار إليها غالبا بكلمة محرّفة عن العربية البراءة *alba ra* أو *Berat* (140)، كانت أحيانا تعطى مقابل رسم جديد إضافي(141). ويمكن للتاجر إذن بهذا الوصل الذهاب حيث يرغب خارج المدينة دون أن يدفع من جديد حق الاستيراد(142). ربما استعملت هذه

(135) معاهدة بيزا-تونس، 1397، المادة 7. حثت المعاهدة بين جنوة وتونس في 1343 أيضا ينبه الديوان على عدم المبالغة في تقدير ثمن السلع (المادة 9).

(136) إنّ الأسعار حرة من حيث المبدأ، لكن هذا لا يمنع الديوان من الرجوع إلى معدل القيمة. ولا نعرف في المقابل كيف ومن ثبّت هذا السعر.

(137) على سبيل المثال، معاهدة 1314 بين لاكورونيا أراجونة وسلطان بجاية، المادة 3.

(138) هذا الوصل كان مصححا بشهادة، دون شك من أحد شهود الديوان. معاهدة بيزا-تونس، 1313، المادة 19.

(139) معاهدة لاكورونيا أراجونة-تونس، 1403، المادة 30.

(140) البراءة، وصل، وهو منجز للتجار، مسلمين وغير مسلمين، كدليل على تسديد رسوم السنة. Ferrand, art. cité, p. 137 ، معاهدة بيزا-تونس، 1313، المادة 19 (النص العربي)، معاهدة لاكورونيا أراجونة – بجاية، 1314، المادة 3 (النص الكاتالاني).

(141) مشروع معاهدة لاكورونيا أراجونة- تونس، 1323، المادة 16.

(142) على سبيل المثال معاهدة 1397 مع بيزا (المادة 9). نسجل أنه في 1323، أي سنوات بعد توحيد أبي بكر للدولة الحفصية ، رسم مشروع معاهدة مع لاكورونيا أراجونة الفضاء الديواني الذي مازالت تحترمه السلطتان القديمتان في تونس وبجاية. يمكن للتجار الذين سددوا رسومًا في تونس التنقل بحرية في "مملكة تونس"، في حين أن الذين سددوها في بجاية أو في أحد الموانئ التابعة لها يتلقون هذه الرخصة إلى "مملكة بجاية". مشروع معاهدة لاكورونيا أراجونة- تونس، 1323، المادة 1. وهذا ما يظهر أنه رغم التطبيق في بجاية للمعاهدات المبرمة مع العاصمة، حافظ مجالها على بعض الاستقلالية الذاتية.

الوثيقة أيضا كدليل على التفريغ الفعلي في بجاية، لأنها مطلوبة من السلطات المسيحية لمراقبة رخص التصدير إلى المغرب الممنوحة لتجارها[143].

لا توضح المعاهدات رسوم التصدير. تحدث بجولوتي (Pegolotti) عن نصف حق، أي 5 في المائة[144]. لكن انطلاقا من القرن الرابع عشر، إذا كانت هذه الاستثناءات كثيرة، فإن هذه الرسوم لم تشكل مداخيل كبيرة للديوان. في الواقع، تعفي الاتفاقيات من الرسوم السلع التي اشتريت بالنقود القادمة من مبيعات السلع المستوردة، أو من النقود التي جلبها التاجر وسدد عنها رسما عند دخوله إلى الميناء[145]. من جهة أخرى، إذا كان التاجر نفسه لم يشتر شيئا بنقود مبيعاته، يمكنه ترك هذه المبالغ لوكيل يستفيد من نفس الاعفاء من رسم التصدير[146]. بنفس الكيفية، بالنسبة لأرباب السفن الذين اشتروا بنفس المبالغ المسددة لكراء السفن ستكون السلع حرة من حقوق التصدير[147]. في هذه الظروف، يمكننا أن نتساءل

(143) إنّ رخص تصدير الحبوب على سبيل المثال تجبر التاجر على الرجوع بدليل على تفريغ الحمولة في الميناء المشار إليه في البداية. في 1275، منح شارل دانجو للتجار رخصة لتصدير حبوب صقلية إلى بجاية، وتونس وبونة، خصوصا وعلى الإقصاء المطلق لجنوه وبيزا. وكان على التجار تسليم حمولة إلى "ملك تونس" أو مساعده أو القنصل. كانت تمنح هذه الوثيقة دون شك مشتركة من الديوان والقناصل.

I Registri della Cancelleria Angioina ricostruiti da Riccardo Filangieri con la collaborazione degli archivisti napoletani, XIII, Naples, 1959, n° 137, p. 30 (22/12/1275). En 1406 Jacme Todo, patron de Barcelone, doit payer une amende à Valence car il n'a pas porté d'*albara* pour des marchandises qu'il a portées à Bougie sur son linh. ARV, MR, Rg. 24, f. 163r (1406).

(144) Pegolotti, p. 132.

(145) على سبيل المثال، معاهدة بيزا-تونس، 1313، المادة 23. يظهر هذا البند في المعاهدات الجنوية في 1343 (المادة 11)، والكتالانية في 1403 (المادة 26)، ويشير إليها أيضا بيجولوتي:

« Chi ne trae tanto quanto à meso non paga nulla, ma chi trae e non a messo paga mezzo diritto. » Pegolotti, p. 132.

(146) على سبيل المثال، معاهدة بيزا-تونس، 1353، المادة 25.

(147) على سبيل المثال، معاهدة 1234 بين تونس وبيزا، المادة 6. كانت في الغالب عقود الكراء البحري في اتجاه بجاية مسددة في هذا الميناء، بعيد وصول المركب. من جهة ثانية، عقود الكراء البحري (nolis) المبرمة مع بجاية يمكن أن تسدد أحيانا جزئيا.

على ماذا بنيت هذه الرسوم فعليا، وتفسير هذه المواد هو غير أكيد. يمكن قراءة هذا الإجراء كتسهيل ممنوح للتجار الأجانب، لكن أيضا كإرادة الحفصيين لتشجيع استيراد السلع أو المعادن الثمينة. وتظهر بوضوح هذه السياسة المفضلة للواردات في وثيقة كاتالانية لعام 1391. بينما أصدر ملك مقاطعة بجاية، طلب التاجر الميورقي نكولا أجويلو (Nicolae Agullo) رخصة لإرسال سلعة لموزعه أنتوني مورا (Antoni Mora)، وأوضح أن كل أمتعته تقريبا كانت في بجاية وأن السلطان لم يرخص بالصادرات إلا إذا ما استوردنا مسبقا السلع بمبلغ مساو[148]. فضّلت إذن السياسية الحفصية الواردات. وأظهر كلود كاهن (Claude Cohen) في حالة مصر الفاطمية والأيوبية أن "قوة الدولة لا ترتبط بما تبيعه، وإنما بما تكتسبه" وبناء عليه فإن كل سلعة مصدّرة تعتبر إضعافا للبلاد. منذ ذلك الحين، فإن التصدير لم يشجع لذاته، ولكن فقط على اعتبار أنه يسمح في العودة بالواردات[149]. ويمكن لهذا التفسير أن يطبق أيضا في حالتنا، حتى – نعيده- أن هذه المواد ليست واضحة جيّدا.

بالنسبة لتونس، تحدث بجولوتي (Pegolotti) عن حق إضافي للتسديد، وهو الفيدو (*fedo*)، يسدده أيضا المسلمون، والذي يظهر أنه رسم على الصادرات، لأنه تضرب على المنتجات مثل الصوف والجلود والشمع

(148) *Habent de consuetudine quod non permittunt ab eorum terris per aliquos merces aut alia bona extrahi, nisi in eorum terras per extrahentes merces alie inferantur*. ACA, C., Rg. 1993, f. 177 (27/2/1391), éd. J. Vincke, « Königtum und Sklaverei im aragonischen Staatenbund während des 14. Jahrhunderts », *Gesammelte Aufsätze zur Kulturgeschichte Spaniens*, 25, 1970, n° 93, p. 93.

(149) Cahen, « Douanes et commerce », art. cité, p. 264-265.

والزيت[150]. وتتنوع القيمة حسب المواد وتعطى بوحدة الوزن أو الحجم. في المقابل، لا يشير بيجولوتي إلى الاختلاف في هذا الرسم بين الأمم المسيحية[151].

لا نعرف إذا ما كانت هذه الرسوم (خصوصا العشر) مسددة أيضا من المسيحيين والمسلمين. مبدئيا، من خلال رواية ترجع إلى الخليفة عمر، كانت الرسوم 1/ 40 للمسلمين، و1/ 20 لأهل الذمة، و1/ 10 للبقية[152]. لكن هذا التمييز بالوضعية العقدية لم يطبق دائما، حتى في الفترات القديمة[153]. في سياق التوسع التجاري الأوروبي، كانت الرسوم الديوانية المسددة من المسلمين والمسيحيين هي نفسها.لاحظ كلود كاهن (Claude Cohen) بصواب أنه إذا لم تكن الحالة كذلك، يكون الأوروبيون قد بحثوا الاستفادة من هذه الوضعية القانونية للتهرب من الرسوم باستعمال المسلمين كأسماء مستعارة[154]. بيد أنه لم يظهر في التوثيق[155].

لقد كانت طرق مراقبة الديوان في هذه الصادرات مثبتة، على الأقل في المعاهدات المتأخرة. فقد نصت معاهدة جنوة لعام 1343 على أنه عندما يريد التاجر مغادرة الميناء، يرسل الديوان إلى فندقه شهود هم الذين سيكونون حاضرين

---

(150) نجد أيضا إشارة لعقود الموثق الجنوي بتونس بيترو بتفجليو (Pietro Batifolions) في 1289.

Pistarino, éd., *Notai genovesi… Battifoglio*, *op. cit.*, par exemple n° 27, 15/3/1289 (une dette de la *curia* liée au *fedo* sur 2000 jarres d'huile et aux droits de douane).

(151) Pegolotti, p. 131-132.

(152) Cahen, « Douanes et commerce », art. cité, p. 267.

(153) *Ibid.*, p. 268.

(154) *Ibid.*, p. 270.

(155) تضمن المعاهدات على الخصوص مداخيل الديوان لا تشير في أي لحظة إلى هذه الممارسة، فإذا ما وجدت، ليس مستبعدا أنهم بحثوا على منعها.

في وضع السلع في الصناديق أو في الرزم، وبعد غلقها، تنقل السلع إلى الديوان دون تحقق آخر[156].

إلى هنا، تمس كل هذه الضرائب السلع، في حين أن الرسوم الشخصية هي استثناء. ففي عقد كراء بحري بلنسي لعام 1491، باتجاه طرطوشة وبجاية، تم ايضاح وجوب تسديد التاجر جواز المرور *(guiatge)* إذا كانت عادة سارية في الميناء[157]. لكن الرسم الضعيف *(salvaguardia)* الذي سدده التاجر اليهودي مردخاي (Mordechay) في 1472 لم يتجاوز الإكرامية البسيطة. وتقتصر المعاهدات لوحدها على ضمان أمن التجار، من طرف السلطان.

إنّ مسألة تسديد اللاتين للجزية قد طرحت، خصوصا من طرف فليب جوردان (Philippe Gourdin)،[158] الذي يستند أساسا إلى النموذج المصري الذي درسه دافيد جاكوبي (David Jacoby)[159] . لكن الدليل على أن غياب

(156) معاهدة جنوة-تونس، المادة 31. لا يوجد هناك أثر لاحتجاج حول هذه القاعدة التي هي ربما متأخرة. في الأسكندرية سنوات بعد ذلك، استاء فليكس فابري (Félix Fabri) من رؤية أعوان الديوان يفتشون من جديد الحقائب. تفرغ السلع على الأرض في حين أن الفقراء يتوافدون لأخذ ما يمكن أخذه. فقط بعد ذلك، يتم تعبئة اللفافات والصناديق على القوارب الموصلة إلى السفن.

Félix Fabri, *Le Voyage en Égypte de Félix Fabri, 1483,* trad. J. Masson, Le Caire, 1975, p. 708.

(157) ARV, P., Rg. 2007, f. 454v-456r.

(158) Ph. Gourdin, « Les marchands étrangers ont-ils le statut de dhimmi ? À propos de quelques statuts de marchands étrangers dans les pays chrétiens et musulmans de Méditerranée occidentale au XIIIe siècle », *Migrations et diasporas méditerranéennes, XIe-XVIe siècles,* dir. M. Balard et A. Ducellier, Paris, 2002, p. 435-446.

(159) بالنسبة لمصر، أشار دافيد جاكوبي في الواقع إلى التجار الذين يقيمون أكثر من سنة، الذين كانوا ملزمين بتسديد الجزية المفروضة على الذميين. كانت هذه هي القاعدة.

D. Jacoby, « Les Italiens en Égypte aux XIIe et XIIIe siècles : du comptoir à la colonie ? », *Coloniser au Moyen Âge,* dir. M. Balard, A. Ducellier, Paris, 1995, p. 88.

مرجعية واضحة حول الجزية لا يعني أنها لم تكن تجبى[160] يبقى افتراضيا وهشا. وهو قابل للنقاش من جهة أخرى من خلال التأكيد على أن السلطة السيادية للسلطان تمارس على التجار بسبب ضعف القناصل. بالعكس، الكل يشير إلى أن هؤلاء اللاتينيين بقوا رعايا لملوكهم (أو يتبعون لمدينتهم)، حتى وإن أقاموا طويلا على الأرض المغاربية[161].

تبقى قواعد الرسوم الديوانية قارة بصفة عامة خلال الفترة، على الأقل بالنسبة للواردات. بعض الأمم تحصل أحيانا على بعض الامتيازات التي تمس طرق التسديد أكثر من قيمة الضريبة نفسها، إلا في حالات استثنائية. ليس من الصحيح إذن القول- كما فعله عبد الله العروي- أنه تحت ضغط التجار الأوروبيين، كانت الامتيازات أكبر، على حساب التجار المحليين[162]. من جهة أخرى، ترجع أغلب النزاعات إلى هذه الطرق واحترامها من عدمه من طرف عمال الديوان. الديوان هو أول نقطة للاتصال غالبا مع المدينة التي هي أيضا الأكثر إثارة للنزاعات. إنه السبب الذي من أجله توضّح الضمانات الممنوحة للتجار ويمكنها ترك الانطباع بنمو الامتيازات. بالمقابل، إذا كان سوء الاستعمال الشرطي محددا جيدا ومحكوما عليه خلال الوقت، لا نرى في أي لحظة كفا حقيقيا للحفصيين عن سياستهم الجمركية، ولا عن السيادة التي تعبّر عنها.

---

(160) Gourdin, « Les marchands étrangers », art. cité, p. 442.

يستند هذا إلى بند سار في المعاهدات والذي ينص على أن "التجار لا يكونون خاضعين لرسوم أخرى غير التي هي مشار إليها بصورة واضحة" لرؤية تأكيد أن التجار سددوا جزية متعلقة بالعادة.

(161) D. Valérian, « Conflits et résolution des conflits dans les communautés européennes au Maghreb (XIIe-XVe siècle) », *Communautés et pouvoirs en Italie et au Maghreb au Moyen Âge et à l'époque moderne*, actes du séminaire de Rome, 26-27 octobre 2001, dir. A. Nef et D. Valérian, *Mélanges de l'École française de Rome. Moyen Âge*, 115/1, 2003, p. 543-564.

(162) A. Laroui, *L'Histoire du Maghreb. Un essai de synthèse*, Paris, 1970, rééd. Casablanca, 1995, p. 195.

II- الجاليات التجارية الأجنبية

بمجرد تسجيل السلع في الديوان، تنقل إلى مختلف فنادق المدينة حيث يجد التجار المسيحيون جماعاتهم المنتظمة جيدا حول قنصلها.

اندمج الأوروبيون في بجاية في واقع الأمر في بنية جماعية وطنية. لم يشكلوا مجتمعا مسيحيا منسجما يحدد هويته على أساس نمط ديني مقارنة مع المجتمع المسلم المحيط. وما يعتد به هو الانتماء الديني أقل من الملك الذي ينتمي إليه. منذئذ، الأمة ذات العدد الكافي لها تنظيمها الخاص بها، حيث يضبط من البلد الأم ومضمون بواسطة اتفاقيات السلم. وسمح هذا الاغتراب من وجود جماعة في بجاية ينتمي إليها بهوية قائمة على اللغة والعادات. للتاجر المعزول مصلحة في الانضمام إلى جماعة ناشئة للاستفادة من تنظيمها، وخصوصا الحقوق التي يعترف بها الحكم الحفصي. ونصّت معاهدة المستنصر مع الجنويين في 1250 أن كل شخص من دولة على سلم مع السلطان وقدم مع الجنويين يتمتع بنفس الحقوق مثلهم[163]. وتمّ تليين هذه القاعدة في 1343، لأنّ كل المسيحيين الذين كانوا على سلم أم لا مع السلطنة، يمكنهم المجيئ مع الجنويين والاستفادة من نفس حقوق هؤلاء الأخيرين، إلا إذا تبين بصفة شخصية أنهم مذنبون بأضرار على حساب مسلم[164]. وبهذا استفاد الفلورنسيين من الوضعية البيزية والجنوية[165]، -كما مر- والبلاسنتيين (les Placentins) والسافونيين (les Savonnais) عن

(163) معاهدة جنوه – تونس، 1250، المادة 21.

(164) معاهدة جنوه – تونس، 1343، المادة 26. لكن معاهدة 1403 بين لاكورونيا أراجونة وتونس توضح تسديد التاجر للرسوم حسب القواعد الموضوعة لأمته الخاصة (المادة 39، 51).

(165) R. Davidson, *Storia di Firenze*, Florence, 1968, VI, p. 746-747.

طريق وساطة جنوة[166]، وتجار فرنسا الجنوبية عن طريق مرسيليا[167]، أو غالبا عن طريق برشلونة وميورقة[168]. تكونت إذن جماعات حول أمم هامة بكفاية تتوفر على تنظيم وعلى مقرات محلية.

تتنوع ضوابط هذا التنظيم حسب الأمم والفترات، لأنها تبلورت من جهة انطلاقا من الأرض الأم ومن جهة أخرى من خلال الحوارات الدبلوماسية مع الحفصيين، عاكسا صلة قوة متغيرة. لكن لهما عنصران مشتركان نجدهما في بقية حوض البحر المتوسط: الفندق والقنصل.

(166) P. Racine, « I mercanti piacentini a Genova durante il duecento : gruppo economico o gruppo di pressione ? », *La Storia dei Genovesi*, X, Gênes, 1990, not. p. 51.

في الآونة الأخيرة:

P. Racine, « À propos du binôme Gênes-Plaisance », *Oriente e Occidente tra medioevo ed età moderna. Studi in onore di Geo Pistarino*, dir. L. Balletto, Gênes, 1997, p. 1035-1057. A. Bruno, « Antico commercio e navigazione dei Savonesi nel Mediterraneo e nel Levante », *Bollettino della società Storica Savonese*, 1, 1898, p. 112.

(167) في 1248، أعطى بيار مولان (Pierre Moulin) في مرسيليا طلبية من 10 ليفر من العملة الممزوجة إلى بيار كبيس مايي الألبي(Pierre Capus Maillet d'Albi) وبرتران كاديبيو المنبيلي (Bertrand Cadebiou de Montpellier) لحملها إلى بجاية. Blancard, II, n° 672 (8/5/1248).

من المحتمل أن بوصولهما اندمج الرجلان في الجالية المرسيلية ببجاية.

(168) خصوصا مثل حالة تجار مونبيلييه، وهي مدينة لم يكن لها اتفاق مع الملوك المغاربة.

A. Berne, *Consuls sur mer et d'outre-mer de Montpellier au Moyen-Âge (XIIIe-XIVe siècle)*, Carcassonne, 1904, p. 117. G. Romestan, « Les marchands de Montpellier et la Leude de Majorque pendant la première moitié du XIVe siècle », *Majorque, Languedoc et Roussillon de l'antiquité à nos jours. Actes du 53e Congrès de la fédération historique du Languedoc méditerranéen et du Roussillon, Palma, 1980*, Montpellier, 1982, p. 53-60.

1) الفنادق

الفنادق هي مكان حياة وتعبير -في المظهر العمراني- عن وجود الجالية[169]. وتظهر انطلاقا من تشكل جماعة كافية وهامة لتبرير وجوده. للحاجة، إذا كان سكان أحدها أكثر عددا، أو عندما يفرق التطور السياسي شاغليها، يمكن بناء فندق آخر، أو ببساطة بناء عازل لفصله إلى اثنين[170]. فعندما رفض الميورقيون سلطة لاكورونيا أراجونة في نهاية القرن الثالث عشر، فإنهم بحثوا في إمكانية الحصول على مكان خاص بهم ببجاية[171]. الفندق هو إذن رهان سياسي هام في العلاقات بين مختلف الحكومات المسيحية التي تتمسك بالحفاظ على سيادتها على رعاياها الموجودين بالخارج[172]. وبخلاف ذلك، عندما تزول جالية يسقط فندقها خرابا، كما نرى بالنسبة للمرسيليين الذين انسحبوا بسرعة من بجاية بعد

(169) أنظر:

D. Valerian, « Les fondouks, instruments du contrôle sultanien sur les marchands étrangers dans les ports musulmans (XIIe-XVe siècle) ? », 2e Séminaire sur la mobilité des personnes en Méditerranée, de l'Antiquité à l'époque moderne. Procédures de contrôle et documents d'identification, Paris, 29-30 novembre 2002.

(170) لا يوجد أثر لهذا التقسيم ببجاية، لكن معاهدة 1234 بين بيزا والحفصيين طلبت من تونس توسيع فندق البيزيين، على غرار فندق الجنويين، وبناء جدار بين الاثنين بحيث أنه لا يمنع التنقل بين هذا وذاك (المادة 5).

(171) على سبيل المثال:

ACA, C., Rg. 115, f. 390v (16/4/1300), éd. A. Riera Melis, *La Corona de Aragón y el reino de Mallorca en el primer cuarto del siglo XIV*, I, *Las repercusiones arancelarias de la autonomía balear (1298-1311)*, Barcelone, 1986, p. 278.

كتب جاك الثاني إلى عمه (أو خادمه) جاك الثاني الميورقي لمنعه من تعيين قنصل خاص بالميورقيين. ثلاث سنوات بعد ذلك، احتج إلى نفس الشخص ضد تعيين القنصل والامتياز الذي منحه سلطان بجاية من أجل فندق مستقل.

ACA, C., Rg. 127, f. 55r (1/4/1303).

(172) Valérian, « La résolution des conflits », art. cité.

1315 وتركوا البناية خالية. وبداية من 1316 يتحدث سجل مزاد المزارع الملكية على تهدمه، مضيفا أن لا أحد يذهب إليه(173).

إنّ الإشارات الأولى للفنادق متأخرة جدا(174)، بما أن أكثرها قدما يعود إلى 1200: خلال نزاع تجاري في موضوع بيع جرى ثلاث سنوات قبل ذلك، تمت الإشارة إلى الفندق الجنوي ببجاية من شاهد(175). إنّ وجوده أكدته معاهدة 1236 بين الجمهورية والسلطان أبي زكرياء الذي طلب حضور الفنادق في كل المدن التي يتردد عليها الجنويون(176)، وفي 1252 ألمح عقد توثيق إلى فندق بجاية (177) (*fundico magno Busée*)، وهذا ما يوحي بوجود اثنين. وظهر بعد ذلك بقليل فندق المرسيليين في الوثائق، حينما كتب عمداء المدينة البروفنسية إلى "ملك بجاية"، بوبدال بن يمور (Boubdale ben Yamor) (العامل الموحدي أبي عبد الله بن يغمر) في 1220 ليوصي به برنارد بونافوس (Bernard Bonnafous)حيث عهدوا له بفندق وخطة وثائق بجاية(178). ويؤكد الكتاب الأول من قوانين مرسيليا الذي يرجع تحريره إلى حوالي 1228 حضور هذه الفنادق في بجاية وسبتة وتونس ووهران(179). وأشير إلى فندق البيزيين لأول مرة في معاهدة 1234 مع الحفصيين(180). على غرار الجنويين، كان للبيزيين بنايتان على

---

(173) *Et nullius Massiliensis vel aliis accedit illuc*. ADBR, B 1517, f. 3v (1316).

(174) ظهروا باكرا في المشرق الإسلامي بداية من منتصف القرن الثاني عشر.

O. R. Constable, *Housing the Stranger in the Mediterranean World. Lodging, Trade, and Travel in Late Antiquity and the Middle Ages*, Cambridge, 2003, p. 115, 117.

(175) Giovanni di Guiberto, n° 98 (1200).

(176) معاهدة جنوة – بجاية، 1236، المادة 13.

(177) ASG, min. 18/II, f. 49r (6/3/1252).

(178) AM, HH 334 (11/11/1220).

(179) Éd. Mas-Latrie, *Traités, op. cit.*, p. 89-90).

(180) معاهدة بيزا – جنوة، 1234، المادة 2.

الأقل في 1276 عندما تم تحرير وصية في "الدار" التي يسكنها جدانو بوتشي (Gui dano Bocque) في فندق بجاية[181] *(fondaco maiori)* . وتوفّر الكتالانيين في 1258 على فندقهم *(alfondec[us] catalanorum)* [182] وبداية من 1302، بعد عدة سنوات من النزاع مع ممثلي ملك أراجونة، أصبح للميورقيين مستقرهم الخاص[183]. وأخيرا، نصّت المعاهدات بين البندقية والحفصيين على وجودها في الموانئ الكبرى[184]، لكن ليس هناك أي وثيقة منصوصة "مكتوبة"لتؤكد على وجوده فعليا في بجاية. في بداية القرن الرابع عشر، عدّت المدينة إذن على الأقل ثمانية فنادق. إنّ تحديد مواقعها غير معروف، لكن من المحتمل كما في حالة سبتة وتونس، وجود هذه البنايات التجارية قرب الميناء والديوان، إذن في حومة باب البحر[185]. ليس ممكنا بالمقابل معرفة ما إذا ما شكّلت حيا مسيحيا منسجما، حتى إذا ما كانت الفرضية شبه معقولة قليلا.

غير معروف لنا جيدا المظهر الهندسي لهذه البناءات، لكن الدراسات التي أجريت على مواقع أخرى، وأيضا وصف الرحالة مثل فليكس فابري (Félix Fabbri) بالنسبة للإسكندرية، تظهر أنها أبنية متشابهة كثيرا في مخططها.

(181) ASP, *Diplomatico, Monastero degli olivetani di Pisa*, 21/8/1276.

(182) Archivo de la Catedral de Barcelona, 4-10-15 (20/9/1258), éd. Batlle i Gallart, « Uns mercaders », art. cité, p. 156-157.

(183) ARM, *Reales cedulas*, vol. 1, f. 19r (27/10/1302), éd. Riera Melis, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 299. Le roi Jacques de Majorque demande au gouverneur de l'île de nommer un consul qui aura la charge du fondouk de Bougie. Ch.-E. Dufourcq, « Les consulats catalans de Tunis et de Bougie au temps de Jacques le conquérant », *AEM*, 3, 1966, p. 469-479.

(184) معاهدة البندقية – تونس، 1231، المادة 17. توضح إتفاقية 1271 (المادة 3) على وجوب إنشاء فنادق في كل مدن السلطنة حيث يوجد البنادقة.

(185) Chérif, *Ceuta*, *op. cit.*, p. 88, 156.

حول تونس، أنظر شهادة ليون الإفريقي، ص 382: يعيش التجار الأوروبيون في الربض، خارج باب البحر حيث فنادقهم على استثناء.

لم تختلف البنايات التي استعملها التجار الأوروبيون عن الفنادق الأخرى[186] المتعددة الحضرية وتشابهت مع المحطات المبنية على الطرق[187]. فهي على شكل بناية دائرية أو مستطيلة يغلقها باب[188]. وتنص معاهدة 1403 بين لاكورونيا أراجونة والحفصيين على ضرورة امتلاك الصقليين لفندقهم الخاص واحتمال بناء الديوان لأسوار عالية بكفاية حتى لا يمكن الدخول إليه إلا عبر الباب[189]. إنها إذن أبنية مغلقة وبمساحة كافية لاستقبال التجار وأمتعتهم، وأيضا لتوفير السهولة اللازمة لهم. انتظمت في داخل الفضاء حول الفناء الذي تنفتح عليه في الطابق الأرضي، متاجر ومخازن للسلع[190]. في الطابق، هناك غرف استعملت كمسكن للتجار حيث يمكنهم أن يضبطوا أعمالهم فيها. أعطي لنا مثال من "الفندق الجديد" بغرناطة، الذي بني في النصف الأول من القرن الرابع عشر قرب الجامع الأعظم. فهو منتظم حول فناء من 15،6م على 16،2 م بطابقين إضافة إلى الطابق الأرضي ومئات الغرف، تتسع عموما من 3م إلى 5،5م[191]. وتتحدث عدة وثائق عن مسكن تاجر واقع داخل سور البناية، كما تشهد على ذلك وصية البيزي جيودو بوتشا (Guido Bocqua)، المسجلة في مسكنه في

---

(186) خصص الشكل المفرنس 'fondouk' للمنشآت التي يشغلها الأوروبيون.

(187) E. Concina, *Fondaci. Architettura, arte e mercatura tra Levante, Venezia e Alemagna*, Venise, 1997, p. 15.

(188) كان هذا الباب واسعا بكفاية لترك مرور الحيوانات وحمولتهم.

« Fundukk », *EI²*, II, p. 966-967 (R. Le Tourneau).

(189) معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1403، المادة 3. دون شك لا يعني هذا البند إلا تونس.

(190) Batlle i Gallart, « La alhóndiga », art. cité, p. 78.

وصف فليكس فابري فندق الكاتالانيين بالأسكندرية في القرن الخامس عشر: "يمتلك الفندق فناءً كبيرا، تحيط به عدة غرف، مثل الدير". وفندق الجنويين ليس مختلفا عنه مطلقا: "إنه دار واسعة وجميلة، لها فناء كبير وبجانبه بستان مغروس بنباتات نادرة".

Fabri, *Le Voyage en Égypte*, *op. cit.*, p. 694.

(191) Concina, *op. cit.*, p. 51 ; O. R. Constable, *Trade and Traders in Muslim Spain. The Commercial Realignment of the Iberian Peninsula, 900-1500*, Cambridge, 1994, p. 119-121.

الفندق الكبير ببجاية[192]، الذي اقتصر دون شك على غرفة بسيطة. وأخيرا بالنسبة لفندق المرسيليين، تم توضيح أنه يجب أيضا حجز غرفة في البناية المرسيلية لمسيّر الفندق، وأخرى لعمل الكتاب[193]. رغم أهمية هذا التجميع في نفس المبنى، كان للمقيمين المسيحيين حرية الاستقرار في المحلات المحجوزة. في بعض الفترات، كان نقص في فضاء إيواء كل الجالية. إنّ الحضور الفعلي للتجار المسيحيين خارج هذه البناية المحمية ليس مرئيا مطلقا، ومن الممكن أنه لم يكن جار[194]. لتلبية حاجيات سكانه، كانت للفندق بعض الاستقلالية مقارنة مع بقية المدينة[195]. وتنص المعاهدات على وجوب تشغيل فرن به[196]، ونجد به أيضا من المحتمل الماء الصالح للشرب في ماجل، وطبعا المؤونة في المحلات.

لم تقتصر وظيفة الفندق على إيواء اللاتينيين. ففي 1251، أجّر أجيريو دو فونتانا (Ogariov de Fontana) الذي اكتسب مع شركائه في مهنة وثائق بجاية، محلين واقعين في فندق الجنويين الكبير ووجّههما للاستعمال، الأول اللفراء والآخر لبيع الجوخ[197]. أيضا، يتحدث عن منح ملك أراجونة في 1273 لورشات المهنيين[198]، بمساحة صغيرة دون شك. وأخيرا، رخصت القوانين المرسيلية لعام 1228 للقنصل منح محلات لخياط، وإسكافي، وفرائين، حيث يمكن

(192) ASP, *Diplomatico, Monastero degli Olivetani di Pisa*, 21/8/1276.

(193) *Statuts* de Marseille (1228), éd. Mas-Latrie, *Traités, op. cit.*, p. 90.

(194) Ph. Gourdin, *Les relations politiques et économiques entre l'Italie tyrrhénienne et le Maghreb au XVe siècle*, thèse sur travaux, volume de synthèse, Paris, décembre 2001, p. 161-162.

(195) يتحدث كونسيكا (Concina, *op. cit.*, p. 97) أيضا عن البحث عن الاكتفاء الذاتي. لكن هذا الأخير لم يكن إلا لمدة قصيرة، لكنه سمح للتجار بالبقاء لوقت دون الخروج، خصوصا في حالة الصخب في المدينة.

(196) على سبيل المثال، معاهدة ميورقة- بجاية، 1312، المادة 3. في المقابل، نصت الاتفاقية بين بيزا والحفصيين في 1234 على تخصيص فرن للبيزيين، لكنها لم توضح ما إذا كان واقعا في داخل الفندق أم خارجه (المادة 2).

(197) ASG, min. 18/II, f. 49r (6/3/1252), 49v (7/3/1252) ; Lanfranco, n° 1635 (21/10/1225).

(198) ACA, C., Rg. 19, f. 43v (20/8/1273).

ممارسة مهنهم داخلها. في المقابل، إذا وصل حرفي مرسيلي إلى بجاية سيسمح له بالعمل داخل الفندق دون الورشات، وبشرط عدم عرقلة التجار. ويجب عليه المغادرة في المركب الذي قدم على متنه[199]. ويهدف هذا الإجراء إلى تفادي غزو المكان بورشات كثيرة لصغر الفضاء وقابليته لإحداث أضرار مؤكدة. وتظهر خصوصا إنه إذا ما قبلنا بعدد محدود بعض المهنيين العاملين لحاجيات الحالية فقط، فإن الأولوية تعطى للنشاطات التجارية.

هناك مطعم- حانة- مهيأ عموما حيث يمكن استهلاك الخمر أيضا[200]. نظمته القوانين المرسيلية، وأوضحت سريانه، وطالبت بعدم امتلاك مسير الفندق أو تأجيره لأكثر من واحد ومنعت بيع الخمر للمسلمين[201]. لا يستهلك به إلا الخمر الذي حمله المرسيليون، إلا إذا نفذ هذا الأخير[202]. وأيضا في 1268، منح

(199) *Statuts* de Marseille (1228), éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 89.

(200) تتحدث معاهدة 1312 بين ميورقة وبجاية عن هذا المطعم (المادة 3). حتى إذا لم يشر إليه دائما في المعاهدات، من المحتمل أن تكون كل الفنادق لها مطعمها.

(201) *Statuts* de Marseille (1228), éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 89.

لكن كان في بجاية، خارج الأماكن المخصصة للمسيحيين، فندق الخمر حيث كان البيع مسموحا به للمسلمين. هو على الأقل ما يوحي به نص قوانين مرسيليا لعام 1228، الذي يتحدث عن بيع الخمر *parvis funditis in quibus consuetum est in dictis terris vinum vendi* ، وأين يسمح ببيع الخمر للمسلمين (*ad vinum ibidem vendendum Sarracenis*). *Ibid*. دون شك، في "دار قبالة الخمر" أين عقد الموثق دانيلو ستونجيتا (Daniello Stangeta) وكالة في 1309 ,ASP *Diplomatico Alliata*, 26/4/1309, éd. Fr. Artizzu, *Documenti inediti relativi ai rapporti economici tra la Sardegna e Pisa nel Medioevo*, Padoue, 1961, n° 59.

نعرف أنه كان في تونس وقسنطينة فندق استعمل لبيع الخمر (مأجور للمسيحيين مقابل 12000 دينار في السنة)، وقد دمره السلطان أبو فارس وعوضه بزاوية.

La Tuhfa, trad. Epalza, *op. cit.*, p. 254-257. D. Valérian, « Quelques réflexions sur le commerce et la consommation du vin dans les ports maghrébins au Moyen Âge (XIe-XVe siècle) », *Seminario internacional Migraciones Mediterráneas : una visión histórica de una realidad actual, Tortosa, 27 y 28 de noviembre*.

(202) *Statuts* de Marseille (c. 1255), éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 90-91.

ملك أراجونة لبرينجر دو روجرس (Bérenger de Regurs) فندق بجاية مع محلاته (*botigas*) ومطاعمه-حاناته- [203]، ومنعه من بيع الخمر في هذا المكان، وهكذا سحب تسيير الفندق من روجرس في 1272، لأن ممثليه باعوا الخمر في المرافق الموجهة اعتياديا لإيواء التجار[204].

وأخيرا، منحت المعاهدات لكل أمة حق بناء كنيسة في البناء الذي يشغله المسيحيون[205]، ومقبرة لدفن الموتى[206]. فكان للكتالانيين كنيسة القديسة مريم (Sainte-Marie)، [207] على غرار البيزيين[208]. ووضع المرسيليون مصلاهم (chapelle)تحت اسم القديس بطرس (Saint-Pierre) وهناك وثيقة تعود إلى

(203) ACA, C., Rg. 15, f. 94r (21/4/1268).

(204) على الأقل التهمة التي رفعها ضده التجار الكتالانيين في بجاية الذين نادوا بتعيين شخص آخر. ACA, C., Rg. 19, f. 148v (23/7/1274).

(205) فتوى تونسية مجهولة، يمكن تحديدها بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر، تتحدث عن كنيسة في فندق المسيحيين، تعتليها منارة. ويظهر شاغلوها لتبرير ذلك بكتاب العهد الذي يسمح لهم بإنشاء بناية ما. الونشريسي، المعيار المغرب، المصدر السابق، 2، ص 215. تحليل في:
V. Lagardère, *Histoire et société en Occident musulman au Moyen Âge. Analyse du Mi‘yār d’al-Wanšarīsī*, Madrid, 1995, p. 39.

(206) تبين عدة وصايا رغبة الدفن في الكنيسة أو بالقرب منها (*apud ecclesiam*). على سبيل المثال. ASP, *Diplomatico, Monastero degli Olivetani di Pisa*, 1290. إن تحديد مكان هذه المقبرة في داخل الفندق يطرح مشكلا، لمحدودية الفضاء.

(207) Archivo de la Catedral de Barcelona, 4-10-15 (20/9/1258), éd. Batlle, « Uns mercaders », art. cité, p. 157.

(208) في 1276، ترك التاجر البيزي لوبو روسو (Lupo Rosso) بوصية الشمع لعمل (*opera*) القديسة مريم (Sainte-Marie) في بجاية.

أنظر أيضا: ASP, *Diplomatico*, *Monastero degli Olivetani di Pisa*, 21/8/1276.

Archivio della Mensa Arcivescovile di Pisa, *Protocolli notarili*, Rg. 7, f. 35 (14/9/1317), 176v (1323), éd. M. Bensaci, *Pise et le Maghrib au Moyen Âge*, Doctorat de troisième cycle, sous la direction de Ch.-E. Dufourcq, Université Paris X, 1979, p. 232.

1298 تظهر أنها استعملت للعبادة وأيضا كمكان لاجتماع الجالية التجارية: هنا بعد القداس، يجتمعون لانتخاب قنصل جديد[209].

ويشكل بناء كنيسة مخالفة للقانون الإسلامي، الذي يمنع مبدئيا كل بناء جديد لأماكن الشعائر المسيحية. لكن في الغالب، هذا يطرح مسألة النظام المجالي لهذا المكان[210]. لقد اعتبرت الفنادق أحيانا مناطق خارج المجال السياسي، وهو مفهوم دون شك سابق لأوانه، لكن الحقيقة غير بعيدة. طبعا، لا يظهر أن البنايات كانت ملكا للأمم المسيحية. إن التقاليد خلال الفترات القديمة جدا تجعل الدولة مالكة لها[211]. على كل حال، يتكفل الديوان، بمعنى الحكم المسلم، بالبناء، كما يظهره اتفاق 1403 بخصوص الصقليين[212]. أيضا، تجبر المعاهدات أحيانا السلطان القيام بالترميمات وتجديد بناء سقط في أوقات التخريب[213]. ويبدو أن الصيانة اليومية تعود إلى اللاتين: ففي تقسيم مداخيل فندق البنادقة بتونس عام 1281، شكل الثمنان أجر القنصل والثمن المتبقي وجب استعماله في صيانة البناية[214]. هي إذن ملك تابع للحكم الذي يترك الانتفاع به إلى أمة مسيحية. أحيانا، الفنادق الموجهة إلى المسلمين تشكلت من الأوقاف التي تهدف إلى تمويل

(209) AM, HH 334, 20/12/1298.

(210) حول هذه المسألة، أنظر:

Valerian, « Les fondouks », art. cité et Id., « Les marchands européens », art. cité.

(211) Cl. Cohen, « Ports et chantiers navals dans le monde méditerranéen musulman jusqu'aux croisades », *La Navigazione mediterranea nell'alto medioevo*, Spolète, 1978 (*Settimane di Studio del Centro italiano di studi sull'alto medioevo*, XXV), I, p. 310.

(212) معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1403، المادة 18.

(213) على سبيل المثال، تنص معاهدة 1234 مع بيزا (المادة 5) على وجوب تنظيم فندق بجاية، وأضافت معاهدة 1264 (المادة 16) وجوب بناء كنيسة به.

(214) Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 206 (17/5/1281).

كانت مداخيل الغرامات موجهة خصوصا لهذه الصيانة.

الأعمال الخيرية (إذا كانت هي نفسها وظيفة خيرية) [215]. لكن إذا كانت هذه حالة الفنادق المسيحية، فإن هذا يشير إلى أنها تعود بالربح وأن المسيحيين يدفعون ثمن الكراء لشغلها. بيد أن هذا لا يظهر في أي وثيقة، وخصوصا لا توجد في المعاهدات رغم وضوح هذا الموضوع. من جهة أخرى، من الواضح أن المداخيل المرتبطة باستغلال المكان ترجع إلى القناصل أو إلى مسؤولي الفنادق، الذين يؤجرونها من الملك أو مجلس المدينة[216]. إنّ المسيحيين – دون أن يكونوا أصحاب ملكية الأماكن- يشغلونها إذن دون مقابل.

يمارس اللاتينيون سيادة حقيقية على هذه القطعة من المجال. لا يمكن لشخص ما الدخول إليها دون إرادتهم والباب يحرسه شخص أهل بالثقة، وهو بند حاضر في أغلب المعاهدات[217]. يتحكم المسلمون في المداخل، خصوصا أعوان الديوان أو الملك، الذين يستطيعون تفتيش السلع فيها وحراسة التجار والقنصل. تنص معاهدة 1314 بين لاكورونيا أراجونة وبجاية على أنه "لا يستطيع أي مسلم في الديوان أو القبالة الدخول إلى الفندق دون إرادة القنصل"[218]. في نفس السنة منعت المعاهدة المبرمة مع تونس أعوان الديوان من تفتيش الفندق حتى وإن شكّوا في غش[219]. إنّ غياب حقوق السلطان يتأكد في 1323، دائما في مشروع معاهدة (في النهاية لم يتم إقرارها) بين لاكورونيا أراجونة وتونس والذي

(215) O. R. Constable, « Funduq, Fondaco, and Khan in the Wake of Christian Commerce and Crusade », *The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World*, dir. A. E. Laiou et R. P. Mottahedeh, Washington, 2001, p. 153 ; Le Tourneau, « Funduk », art. cité, p. 966-967.

(216) أنظر على سبيل المثال بالنسبة للقناصل الكتالانيين: Dufourcq, « Les consulats catalans », art. cité.

(217) على سبيل المثال، معاهدة بيزا- تونس، 1234، المادة 2، بيزا – تونس 1397، المادة 4. تختلف الوضعية في مصر حيث يمكن للسلطان إيواء اللاتين الأجانب في الفندق دون طلب إذن الأمة التي تشغله. Jacoby, « Les Italiens en Égypte », art. cité, p. 79.

(218) معاهدة لاكورونيا أراجونة – بجاية، 1314، المادة 8.

(219) معاهدة لاكورونيا أراجونة – بجاية، 1314، المادة 20.

ينص على عدم تسليم من الفندق أي مسيحي أو مسيحية راعية للملك لهذا الدين أو حالة أخرى، معطيا لهذا الأخير نظام لجوء غير منتهك[220]. لكن هذا المنع يستهدف أيضا مسيحيي الأمم الأخرى، التي ليست على علاقة دائما جيدة معها. ويبدو أن عدم الانتهاك قد احترمه الحفصيون في بجاية: في حين نجد أن الوثائق غنية بالشكاوى ضد أعوان الحكم، لكن لا أثر لاقتحام الأماكن المخصصة للمسيحيين.

إنّ ضوابط حضور التجار الأجانب في المدينة تضع إذن حدا فاصلا بين الجماعات. حتى الوصول إلى الحمامات، كانت هناك أيام مخصصة لمختلف الأمم الحاضرة في المدينة[221]. في المظهر العمراني، أصبح الفندق تعبيرا عن هذه القطيعة والذي يبلور في الوقت ذاته هوية الجماعات. وهكذا تطور الخصام بين البيزيين والجنويين خلال القرن الثالث عشر، وترجم ببناء جدار فاصل بين فندقيهما في تونس. وأضاف المفاوضون البيزيون للاتفاق أن بنايتهم بحاجة ضرورية إلى التوسيع، "على غرار بناية الجنويين"[222]. لكن ساهمت الفنادق على فصل المجتمعين المسيحي والمسلم. "إنها خصوصا مجال للاستعمالات والعادات المتناسقة، وهي بعيدة وغير مرحب بها في قسم منها مقارنة باستعمالات وعادات السكان المحليين"[223]، كتب إنيو كنسينا (Ennio Concina) والذي أضاف أنه "يظهر ضمان الحياة المشتركة بالفصل"[224] بينهما.

(220) مشروع معاهدة لاكورونيا أراجونة – بجاية، 1323، المادة 16.

(221) حضرت هذه المادة تقريبا في كل معاهدات السلم.

(222) معاهدة بيزا – تونس 1234، المادة 5.

(223) Concina, *op. cit.*, p. 96.

(224) *Ibid.*, p. 100.

أنظر أيضا:

G. Petti Balbi, « Gli insediamenti genovesi nel nord-Africa durante il ’400 », *Medioevo Mezzogiorno Mediterraneo. Studi in onore di Mario Del Treppo*, dir. G. Rossetti et G. Vitolo, Naples, 2000, p. 136 :

سور الفندق "هو حقيقة حد يفصل أكثر مما يقرّب عالمين، حيث أن الاتصالات محددة بالنطاق الاقتصادي وحلقة ضيقة من الأشخاص".

2) تنظيم الجاليات

في داخل بناية الفندق، انتظمت الجماعة بقوانينها الخاصة، حيث بحثت المدن التجارية الكبرى أو الملوك مبكرا عن تأطير حياة مواطنيها فيما وراء البحار. وساهم التجار المغتربون أنفسهم في هيكلة جماعاتهم حول مؤسسات تمكنوا من خلالها من إعطاء هوية لأنفسهم، وأيضا يسّروا حياتهم في الميناء الأجنبي[225]. وطرحت المسألة نفسها مع إنشاء الدول اللاتينية في سوريا وفلسطين وتكوين الجاليات الهامة البعيدة عن الوطن الأم[226]. في بجاية، كما في بقية المدن المسلمة، كانت جماعات المغتربين قليلة الأهمية. بيد أنها أحيطت بإطار تنظيمي ولهذا فإن كل عاصمة أمنت قواعدها الخاصة[227]، حتى وإن قرّبت عدة سمات مشتركة تنظيمًا متنوع الأمم.

(225) D. Abulafia, « Gli Italiani fuori d'Italia », *Storia dell'economia italiana*, dir. R. Romano, I, Turin, 1990, p. 262-264.

(226) أنظر على الخصوص بالنسبة للتنظيمات الأولى لمستوطنات ما وراء البحر:

P. Racine, « Les débuts des consulats italiens outre-mer », *État et colonisation au Moyen Âge et à la Renaissance*, dir. M. Balard, Lyon, 1989, p. 267-276 ; Jacoby, « Les Italiens en Égypte », art. cité, p. 76-89.

(227) تكثر النصوص التنظيمية وتغطي مجمل النشاطات التجارية والبحرية. نشير في مرسيليا إلى القوانين البلدية les *Statuts* municipaux. Éd. Aix, *Les Statuts municipaux*, *op. cit*. أنظر مقدمة ر. برونو (R. Pernoud) في نشرته للكتاب الرابع Pernoud, *Le IVe Livre*, *op. cit*. بالنسبة لبيزا، النص المكتمل أكثر هو *Breve dell'Ordine del Mare* المحرر في 1323 والمتمم في 1343. Éd. Fr. Bonaini, *Statuti inediti della città di Pisa dal XII al XIV secolo*, III, Florence, 1857, p. 447-643. لكن نجد بعض العناصر المهمة في النصوص القديمة خصوصا le *Breve Curiae Maris* de 1305, éd. Bonaini, *Statuti*, *op. cit.*, III, p. 345-44. بالنسبة للبلدان الكتالانية – الأراجونية، أنظر:

Colon, Garcia, éd., *Llibre del Consolat de Mar*, *op. cit.*, et J.-J. Larrère, Ch. Villain-Gandossi, « Le *Llibre del consolat de mar* : les gens de mer, leurs droits et leurs obligations », *106e Congrès national des sociétés savantes, Perpignan 1981*, Paris, 1984, p. 153-167 ; M. T. Ferrer i Mallol, « El consolat de mar i els consolats d'ultramar, instrument i manifestació de l'expansió del comerç català », *L'Expansió catalana a la Mediterrània a la*=

لقد كانت هذه المستوطنات على غرار المدينة مع قناصلها، وقساوستها وموثقيها، وسلكت القواعد المقررة في الأرض الأم. لكن لم يكن أبدا عدد السكان المسيحيين كبيرا، وبقيت بنى التأطير إذن خفيفة.

إن القنصل هو الشخصية الرئيسية للجالية، وهو مكلف بتمثيل بلده الأصلي وبتنظيم حياة مواطنيه. وهو أيضا من يسيّر الفندق عموما.

بما أن "القنصل" يمارس سلطة سياسية في المدينة، فإن اتفاقيات السلم تنص على حضوره، وتحدد الصلاحيات على صلة بالحكم المسلم. لم تشر إليهم قبل ذلك الاتفاقات الأولى مع الموحدين. دون شك، لم يكن عدد التجار الدائمين بعد كثيرا حتى يبرر حضوره، فضلا عن أن تنظيم القنصليات الأوروبية فيما وراء البحار كان متأخرا[228]. وجب انتظار معاهدة 1234 بين بيزا وأبي زكرياء لرؤية تحديد جزئي لدور هذه الشخصية[229]، ولم يشر إلى أول قنصل بيزي في بجاية إلا في 1246[230]. بالنسبة للمرسيليين، ثبت هذا الحضور منذ 1220 [231] والدور يظهر في قوانين المدينة في 1228[232]. بالمقابل، تسكت أولى المعاهدات بين الحفصيين وجنوة عن الموضوع، لكن هناك وثيقة مرسيلية لعام 1234 تشير إلى قنصلين

=*baixa edat mitjana*, dir. M. T. Ferrer i Mallol et D. Coulon, Barcelone, 1999, p. 65-79.

(228) في جنوة، لم يظهر مصطلح قنصل إلا في 1192.

Racine, « Les débuts des consulats italiens outre-mer », art. cité, p. 271.

(229) معاهدة بيزا – تونس، 1234، المادة 7، 8. يتكفل بحل النزاعات بين البيزيين ويحق له رؤية السلطان أو العامل مرة في الشهر.

(230) ASP, *Comune* A, 46 (Consoli del Mare), f. 3v (1246).

إنه نص تنظيمي يشير إلى قناصل تونس وبجاية.

(231) AM, HH 334, 11/11/1220.

(232) Éd. Aix, *op. cit.*, livre I, chap. 18, p. 69.

جنويين ببجاية: أوبرتو مزارو (Oberto Mazaro) وجيوفاني كرماينو أو كرمادينو (Giovanni Carmayno ou Carmadino)..[233] كان حضور الكاتب الجنوي في بجاية مبكرا[234]، وله وظيفة قريبة من وظيفة القنصل. ويرى فيه روبارتو لوبيز (Roberto S. Lopez) ممثلا لضرائب الوطن الأم، مكلفا خصوصا بتغطية حقوق الديوان التي ترجع إلى مجلس المدينة [235]. وله على وجه الخصوص مهمة تسيير الفندق الذي يجلب منه المداخيل[236]. لا تعرف صلاحياته الأخرى، ولكن ليس من المستبعد أنه كان له دور قنصل الجنويين[237].

(233) Blancard, I, n° 45 (4/2/1234).

(234) نؤرخ بصفة عامة لظهوره في 1164 على قاعدة وثيقتين لجيوفاني سكريبا (Giovanni Scriba (n° 1203 et 1227) اللتان تدخلان بوينجوفاني (Buongiovanni) كاتب بجاية.

R. S. Lopez, « I Genovesi in Africa Occidentale nel Medio Evo », *Studi sull'economia genovese nel Medio Evo*, I, Turin, 1936, p. 25.

لكن في الوثيقة الأولى، يشهد على بيع أرض وفي الثانية تعاقد في شراكة مع بلونكاردو (Blancardo) إلى بجاية. بوينجيوفاني (Buongiovanni)لم يكن إذن مقيما في بجاية وليس من المستبعد أن سكريبا *(scriba)*هو في الحقيقة اسمه (في الوثيقة الثانية هو مشار إليه ببساطة باسم Buongiovanni scriba). في 1198 في المقابل، شهد على كاتب *(scriba)* في بجاية.

ASG, Man. 102, f. 100v (8/12/1198).

(235) Lopez, « I Genovesi in Africa Occidentale », art. cité, p. 25-26.

استطاع امتلاك وظيفة خصوصا جباية ربع حقوق الديوان المسددة في بجاية من الجنويين وتعاد إلى مجلس المدينة طبقا لمعاهدة 1161.

(236) ASG, min. 18/II, f. 49r (6/3/1252) :

أخذ أوجريو دو فونتانة (Ogerio de Fontana) توثيق بجاية عند وضعه في المزاد من مجلس المدينة واكترى محلًا لـلفراء. في هذه الحالة، هناك خلط في دوري كاتب *(scriba)* ومؤجر (fermier) الفندق. لكن في هذا التاريخ، كان هناك قنصلا حاضرا دون شك في بجاية.

(237) Lopez, « I Genovesi in Africa Occidentale », art. cité, p. 27.

لا يبدو بالمقابل إن كان للبيزيين قنصل دائم في بجاية[238]، لأن قنصل تونس كانت له سلطة على التجار في كامل المجال الحفصي وقبطانات المراكب تصرّفوا كممثلين للجمهورية في وقت عبورهم[239]. وأخيرا، كان لبرشلونة قناصلها قبل 1259[240]، ومملكة ميورقة عينت ممثليها الخاصين بها في 1302[241].

تعددت وظائف القنصل، وكان دوره الأول هو رئاسة الجالية. وفي هذا المعنى، يمارس سلطة سياسية فيما وراء البحر والتي يفوضها له مجلس المدينة أو الملك. ففي 1268، عيّن مجلس مدينة مرسيليا القاضي-التاجر هيج بورجنيون (Hugues Bourguignon) قنصلا ببجاية ومنح له العقد كامل حرية حكم وإدارة التجار المرسيليين بالشروط المثبتة في القوانين (Statuts)[242]. هذا

(238) ترخص لهم بها المعاهدات، لكن الأعمال البندقية لم تكن هامة في بجاية حتى يكون قنصل ضروريًا، ربما أيضا أن هذا المنصب كان جدّابا. في نهاية القرن الخامس عشر، تم تسجيل نائب قنصل واحد في طرابلس.

B. Doumerc, « Le consulat vénitien de Tunis (1470-1473) », *CT*, 155-156, 1991, p. 448.

(239) هي حالة على سبيل المثال عام 1475، لحل مشكل حدث سابقا في الجزائر.

Quaderno di Bordo di Giovanni Manzini, éd. Greco, *op. cit.*, p. 50 (30/9/1475).

(240) ACA, C., Rg. 11, f. 169r (4/6/1259).

أعطى جاك الأراجوني إلى جيلام الطرطوشي (Guillem de Tolosa) حسابات قنصلية وفندق بجاية التي قدمها في الحين.

(241) ARM, *Reales cedulas*, vol. 1, f. 19r (27/10/1302), éd. Riera Melis, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 299.

(242) *Concedens […] plenam et liberam potestatem regendi, gubernandi cives Massilie et quascumque alias [personas consulatui] Massilie appendentes*. AM, HH 334, 20/4/1268, éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 91-92.

يعتقد لويس بلونكار (Louis Blancard) أن هيج بورجنيون (Hugues Bourguignon) لم يعين إلا كقنصل البحر، بمعنى لممارسة سلطة على مواطنيه خلال الرحلة فقط إلى بجاية.

L. Blancard, « Du consul de mer et du consul sur mer », *BEC*, 4e série, 3, 1857, p. 437. Mais il est plus probable qu'il a été nommé pour être consul à Bougie.

التفويض للسلطة السيادية واضح على وجه الخصوص في وقت انفصال مملكة ميورقة[243]. ففي 16 أفريل 1300 أبلغ ملك أراجونة جاك الثاني (Jacques II) كل رعاياه بأن القنصل في بجاية هو برتلومو دوزوبول (Bartholomeu Deusovol)، وفي نفس اليوم، كتب إلى خاله ومولاه جاك الثاني الميورقي بعدم إمكانية امتلاك الميورقيين قنصلا خاصا بهم وبالتالي يجب عليهم الخضوع لتبعية دوزوبول[244]. والتهب النزاع بين الملكين بعد ذلك، وفي 1302 اختار ملك ميورقة القطيعة، طالبا من دالمو جاريجا (Dalmau de Garriga)- حاكم الجزيرة- تعيين قنصل في بجاية[245]. إن الأمر الذي أعطاه ملك أراجونة أياما قليلة بعد ذلك إلى رعاياه بعدم طاعة إلا قنصله لم يغير شيئا في الوضعية التي دامت إلى غاية إعادة إدماج مملكة ميورقة في دولة لاكورونيا أراجونة في 1343[246].

يجب على القنصل إعطاء و تقديم الحسابات إلى الحاضرة ويلتزم بإبلاغ الوضعية في بجاية بانتظام، حيث يجب عليه أحيانا جمع الرسوم الموجهة إلى بيت المال[247]. ويراقب خصوصا الأنشطة التجارية لمواطنيه ويبلغها إلى دواوين بلدهم،

---

(243) منذ 1298، لم تعد ميورقة تحت السلطة المباشرة لملك أراجونة.

Ch.-E. Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIIIe et XIVe siècles : de la bataille de Las Navas de Tolosa (1212) à l'avènement du sultan mérinide Abou-l-Hasan (1331)*, Paris, 1966, p. 419.

(244) ACA, C., Rg. 115, f. 390r-v (16/4/1300).

(245) ARM, *Reales cedulas*, vol. 1, f. 19r (27/10/1302), éd. Riera Melis, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 299.

(246) ACA, C., Rg. 199, f. 132v (19/11/1302).

في 1305، أمر ملك أراجونة قنصله ببجاية بمصادرة أملاك تجار لاكورونيا الذين تمرّدوا على سلطته القنصلية، مشيرا دون شك إلى أولئك الذي وضعوا أنفسهم تحت سلطة قنصل ميورقة. ACA, C., Rg. 236, f. 96r (16/12/1305)

(247) يرفع قنصل لاكورونيا أراجونة على سبيل المثال نسبة عطاء الميليشيات التابعين للاكورونيا. Batlle, « La alhóndiga », art. cité, p. 78. وهو مكلف بتلقي المبالغ التي توجب على السلطان لملك أراجونة (أو ميورقة) ومرهونة على مداخيل الديوان. يجب عليه إذن مراقبة واردات مواطنيه ويطلب من الديوان تسديد هذه المبالغ. لكن في بعض الحالات، يرسل الملك السفراء الخاصين لهذا الغرض.

كما يظهره قرار مجلس الشيوخ البنادقي: ففي 1334، عندما وجب على البنادقة الذين يتاجرون مع السلطنة تسديد رسم إضافي من 2 في المائة لتعويض الأضرار التي لحقت بجيوفاني بنديتو(Giovanni Benedetto)، طلب مجلس الشيوخ من القنصل تسجيل أسماء التجار البنادقة الذين قدموا إلى الموانئ الحفصية، والسلع التي أنزلت، بغرض متابعة الغشّاشين المحتملين[248]. وعند عودته، يلتزم القنصل بالإجابة على تسييره الماضي وأحيانا إعطاء الحسابات، مثل المرسيلي هيج بورجينيون (Hugues Bourguignon)، الذي وجب عليه في 1298 تقديم شهادات للدفاع عن التهم المرفوعة ضده[249]. وفي بيزا، وجب على القنصل توفير ضمانات مالية هامة وألزم عند ذهابه بترك كفالة مالية تقدر بألف ليرة بيزية لقناصل نظام البحر[250]. تتم مراقبة تسييره من قناصل البحر الذين يسائلون التجار عند عودتهم، وفي حالة الخطأ، يجب عليه تسديد غرامة[251]. تبقي الأرض الأم إذن تتحكم في ممثليها في ما وراء البحر، وإليها يرجع خصوصا تعيينهم.

ينتخب القنصل أحيانا من المقيمين من أمته في بجاية، لكن هذا الحل مؤقت عموما وغالبا ما يعين من الأرض الأم. وتحدد فترة انتدابه، بحيث يتفادى تشكيل حكم يصعب التحكم فيه في بجاية، وأهمية الوظيفة تفسر أن تعيين القنصل رهان تنافس بين مختلف تشكيلات النخبة الحاكمة. ولهذا فإن قواعد تعيينه موضحة في القوانين التي تضبط الحياة السياسية لكل مدينة. وأخيرا، للتجار الحاضرين ببجاية تأثير على القرار، بالنظر للنزاعات المحلية حيث تكون الرهانات ليست دائما واضحة.

(248) Éd. M. Brunetti, R. Cessi, *Le Deliberazioni del Consiglio dei rogati (senato) ; serie « mixtorum »*, II, *Libri XV-XVI*, Venise, 1961, p. 348 (27/8/1334).

(249) AM, HH 334, 20/12/1298.

(250) *Breve curiae Maris*, art. 39, éd. Bonaini, *Statuti*, *op. cit.*, III, p. 373.

(251) *Ibid.*, art. 100, p. 419.

في مرسيليا، حددت قوانين 1255 الإجراء الخاص بمينائي بجاية وسبتة: ينتخب القناصل من عمداء مجلس مدينة مرسيليا بناء على نصائح وموافقة أعيان المدينة[252]. وتم التنبيه على ما إذا تجاوز عدد سكان مرسيليا عشرة أو عشرين تاجرا مقيما، هؤلاء المقيمون يستطيعون انتخاب قنصلهم للضرورة، ويجب عليه قبول ذلك تحت طائلة غرامة معينة[253]. ففي 1298، انتخب التجار والبحارة المجتمعين في كنيسة الفندق هيج بورجينيون[254]. وأحدثت هاتان الطريقتان في التعيين أحيانا النزاعات، كما في 1220 عندما طلب العمداء من "ملك" بجاية حماية برنار بونافوس (Bernard Bonafous) (الذي عيّنوه لأربع سنوات) ضد منافسيه بيار رو (Pierre Roux) وبرنار باهران (Bernard Baharin) [255]. وتغيرت القاعدة بعد خضوع المدينة لشارل دانجو (Charles d'Anjou) وثبتت في 1257: "سيستمر قاضيه، بمساعدة محكمة الستة وبطلب من مجلس الجالية، في تعيين قناصل السفر خارج مرسيليا، الذين سيحكمون خارج مجالها أولئك الذين سيكونون تحت قنصلياتهم". وفي 1262، أضيف أن القاضي والملك سيعطون للمستفيد تكليفًا برسائل التأكيد[256]. وفي الأخير، من الممكن أن يصير عدد هؤلاء القناصل اثنين، كما في 1293 مع بيار جوردون (Pierre Jordan) وبيار المقدسي (Pierre de Jérusalem) [257].

(252) *Syndicorum et clavariorum communis et septimanariorum capitum ministeriorum Massilie, vel majoris partis eorum*. Éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 90.

(253) *Ibid*.

(254) AM, HH 334, 20/12/1298.

(255) AM, HH 334, 11/11/1220.

(256) E. Watbled, « Aperçu sur les consulats français dans le Levant et les États barbaresques », *RA*, 16, 1872, p. 23.

(257) Éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 97-98.

في بيزا، كان للقناصل سلطة مختصة في كل قضايا التجارة البحرية والجالية البيزية وراء البحر، حيث يجتمعون في سرية وينتخبون لمدة سنة أحد ممثلي مجلس المدينة في بجاية. إذا لم يعينوا من يعوضه خلال نهاية الفترة، يجتمع التجار الحاضرون في عين المكان ويعينون واحدا منهم[258].

نجد التعيين من الأرض الأم عند الكتالانيين مع تحديد دقيق لصلاحيات البعض الآخر. في إشارة لأهمية مستقرات لاكورونيا أراجونة في إفريقية، سمح الملك جاك الثاني للسلطات البلدية في 1268 حق تعيين قناصل ما وراء البحر، ما عدا قنصلي تونس وبجاية الذين يعينهم الملك مباشرة[259]. إنّ الوظيفة التي تلازم تسيير الفندق والمداخيل كانت تؤجر ويمكن أن تكون موضوع منافسة كبيرة.

تتنوع بعض شروط الأشخاص المختارين حسب الدول. في بيزا على سبيل المثال، انتمى قناصل ما وراء البحر بالضرورة إلى طبقة التجار أو إلى فئة نظام البحر(Ordo Maris)[260]. ويتلاقى هذا الانتماء الطبقي في برشلونة[261] أو في

(258) *Breve Curiae Maris pisanae civitatis* (1305), art. 39 (*De electione consulum in marinis partibus*), éd. Bonaini, *Statuti*, *op. cit.*, III, p. 372.

(259) Dufourcq, « Les consulats catalans », art. cité, p. 471.

(260) M. Balard, « Génois et Pisans en Orient (fin du XIIIe-début du XIVe siècle) », *Genova, Pisa e il Mediterraneo tra due e trecento. Per il VII centenario della battaglia della Meloria, Gênes, 24-27 ottobre 1984*, *ASLSP*, 1984, p. 201.

جمع أمر نظام البحر (Ordre de la mer) كل الأشخاص المعنيين بقضايا البحر وكان مسيرا من طرف ثلاثة قناصل بسلطات موسعة في ميدان التجارة الدولية في البحر المتوسط. أنظر:

R. Trevisan, « Per la storia dell'Ordo Maris di Pisa in torno alla metà del duecento : il registro "Comune A46" », *Pisa e la Toscana occidentale nel Medioevo*, I, *A Cinzio Violante nei suoi 70 anni*, Pise, 1991, p. 325-366.

(261) J. F. Cabestany y Fort, « "Consol de Mar" y "Consols d'Ultramar" en Cataluña (siglos XIII-XIV) », *Le Genti del mare Mediterraneo. XVII Colloquio internazionale di storia marittima, Napoli, 28-31 gennaio 1980*, dir. R. Ragosta, Naples, 1981, I, p. 418.

مرسيليا[262]. في هذه المدينة، وبهدف تفادي تفضيل القناصل لمصالحهم الخاصة على حساب مصالح بقية الجالية، تم منعهم من الحصول على أنشطة تجارية أو استثمارات في المغرب[263]. لكن هذا لم يعن إلا مدة فترتهم وبصفة عامة، انتمى القنصل إلى الأوساط التجارية في الأرض الأم، المرتبطة بالتجار المغاربة. ففي 1234، كان قنصل مرسيليا هو غليوم شاريال (Guillaume Charruel) الذي أخذ قبل ذلك طلبية برنار منديال (Bernard Manduel) لبجاية[264]. أيضا في 1268، ذهب هيج بورجينيون (Hugues Bourguignon) بغرض أعماله إلى بجاية والتي عين بها قنصل المرسيليين [265]. ونلقى هذه الصلات بالنسبة لتجار الفضاء الكتالاني-الأراجوني، مع دومنجو كيما (Domingo Cima) الذي كان في 1316 رئيس الجماعة الميورقية في بجاية[266]. سنتان بعد ذلك، عاد إلى الجزيرة، لكنه أبقى على اتصالاته مع الميناء المغاربي، بما أنه سدد رسم خروج مسلم مسن يسمى طاروس (Tarros) حيث ذهب إلى بجاية[267]. وفي 1230، سدد من جديد خروج العاية (Laya) والعافية (Laffia) اللتين ركبتا على متن مركب ماس كوري إلى نفس الاتجاه[268]. ونعرف أنه أعطى أمرا في نفس السنة

(262) في 1299، كان القنصل المعيّن من مرسيليا هو جوفر ريكو (Jaufre Ricau)، فارس، من عائلة بالمدينة.

ADBR, B 1936, f. 68v (1299). R. Pernoud, R. Busquet, *Histoire du Commerce de Marseille*, I, Paris, 1949, p. 274.

(263) *Statuts* de 1255, éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 90.

(264) Blancard, I, n° 12 (20/2/1226), 45 (4/2/1234), 76 (14/7/1237).

(265) AM, HH 334 (20/4/1268), éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 91-92.

(266) ARM, *Reales cedulas*, vol. 3, f. 233v-234r (1/4/1316), éd. Ch.-E. Dufourcq, *Recueil de documents concernant les relations des pays de la Couronne d'Aragon avec le Maghreb de 1212 à 1323*, thèse complémentaire, Université de Paris, 1965, n° 1202.

(267) ARM, RP 3766, f. 33v (11/9/1318).

(268) ARM, RP 3767, f. 37v (20/4/1320, 21/4/1320).

لموزعه بترك بجاية بسبب تعليمات الملك سانش (Sanche)[269]. ومن النادر جدا، إيجاد أشخاص مقيمين ببجاية، مثل قنصل جنوة المنتخب في نفس المكان في 1494، ساترينو أورزينا (Satorino Ursena)، الموصوف بمواطني مدينة بجاية (civis dicte civitatis Buzie)[270].

لكن غالبا ما يكون العنصر الحاسم في اختيار القنصل القيمة التي يتهيأ المترشح لدفعها لبيت المال ليأخذ على عاتقه مداخيل الفندق. تكشف بهذا الصدد النزاعات حول القنصلية الكاتالانية في بجاية. ففي 1268، أصبح برنجر دو روجارس (Berenguer de Reguers) قنصلا في بجاية وتعهد بتسديد 300 بوزون من الفضة أو نقدا في السنة إلى الملك[271]. وفي 1273، عندما حصل روجرس على سنة كراء جديدة، عيّن الملك في مكانه ولمدة خمس سنوات إيمنجول أندرو (Ermengol Andreu) الذي تعهد بتسديد للاكورونيا 1300 سو بلنسي في السنة[272]. لكن في عين المكان، منع رجال روجرس لفترة ما القادم الجديد الاستحواذ على المنصب، وتمكن أندرو في النهاية من بلوغ أهدافه، لكن بداية من أفريل 1274، عيّن الملك روجرس من جديد حيث سدد للخزينة الملكية 400 بوزون[273]. وأخيرا في جويلية من نفس السنة، طعن أندرو في هذا القرار، فأرجع

(269) ARM, *Reales cedulas*, vol. 6, f. 68r (9/9/1320), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1398.

يسمح استثنائيا بإرسال مركب إلى بجاية، محمل بـ 2000 قنطار من السلع لاستعادة ديونها.

(270) ASG, AS 1812, n° 339 (15/12/1494), éd. E. Marengo, « Genova e Tunisi (1388-1515) », *ASLSP*, 32, 1901, p. 287.

استخدام مصطلح مواطن (citoyen) في هذا السياق هو وحيد، ومعناه غير واضح جيدا. ولكن يبدو أن إرزينا (Ursena) هو شخصية هامة في الجماعة الجنوية ببجاية. بالنسبة للقنصليات الجنوية، أنظر:

G. Petti Balbi, « Il consolato genovese di Tunisi nel Quattrocento », *Archivio storico italiano*, 576, 1998, p. 233, et Ead., « Gli insediamenti genovesi », art. cité, p. 125.

(271) ACA, C., Rg. 15, f. 94r (21/4/1268).

(272) ACA, C., Rg. 19, f. 44r (20/8/1273).

(273) ACA, C., Rg. 19, f. 123v (12/4/1274).

الملك له الوظيفة بعدما علم أن التجار الكتالانيين في بجاية كانوا في غالبيتهم راضين عنه مقارنة مع روجرس[274]. وتوضح هذه الأحداث أن اختيار القناصل يخضع للدفاع عن مصالح الملك خصوصا المالية منها وإرادة التجار ببجاية والتي يجب على الملك أخذها بعين الاعتبار.

وتمتد سلطة القناصل على بجاية، ومبدئيا على جهتها أيضا، بمعنى الموانئ الهامة خصوصا وقسنطينة. وهذا ما يشير اليه عقد في 1273 والذي أبلغ من خلاله ملك أراجونة كل رعاياه الوافدين إلى "جهة بجاية بين قسنطينة والجزائر" بتعيين أرمنجول أندرو (Ermengol Andreu) قنصلا لمدة خمس سنوات[275]. أيضا، في 1337 أرسل بيار الأرجوني (Pierre d'Aragon) فرانسيش مارش (Francesch March) قنصلا للكتالانيين في بجاية، والقل وبونة[276]. ويتلاقى في المدن الثانوية دون شك مساعدين، أو نواب قناصل، كما في 1346 في بونة والقل بالنسبة للكتالانيين[277]. لكن نصت معاهدة 1312 بين ميورقة وبجاية على قنصل آخر له سلطة على جيجل وقسنطينة[278] وأماكن أخرى تابعة لملك بجاية:

(274) ACA, C., Rg. 19, f. 148v-149r (23/7/1274).

حول تفاصيل هذه القضية، أنظر: Dufourcq, « Les consulats catalans », art. cité, p. 478-479

(275) ACA, C., Rg. 19, f. 44r (20/8/1273).

(276) ACA, C., Rg. 555, f. 42r (8/1/1337), éd. R. Brunschvig, « Documents inédits sur les relations entre la Couronne d'Aragon et la Berbérie orientale au XIVe siècle », *AIEO*, 2, 1936, p. 253-254.

(277) ACA, C., Rg. 1402, f. 38v (14/3/1346).

يتعلق الأمر بمنع الملاحة بسبب الحرب ضد جنوة، وأرسل إلى كل القناصل، خصوصا في المغرب والمدن المشار إليها هي تنس وبجاية وبونة ووهران والكدية ودلس ومستغانم وتونس وسبتة والقل.

(278) أو القل وقسنطينة حسبما يأتي في النص.

بنفس امتيازات قنصل العاصمة(279). لكن نص المعاهدة لا يصرح بالروابط الهيكلية بين الرجلين(القنصلين).

بالعكس، يمكن لصاحب منصب بجاية الاعتراف بسلطة زميله على تونس. وفي فترات الصعوبات وتقلص التجارة، تكون الجماعات الأوروبية في بجاية أقل أهمية من الناحية العددية وتتبع مباشرة سلطة قنصل تونس الذي يفوض دون شك صلاحياته لشخص يختاره. ففي 1360، عيّن فرانشيسك ساكوستا (Francesc Sacosta) قنصلا بتونس ومن المحتمل أنه سكن بالعاصمة(280). وتظهر قائمة القناصل الجنويين في ما وراء البحر لعام 1380 قنصل تونس، دون قنصل بجاية(281).

إن الوظيفة الرئيسية للقنصل هي تسيير حياة المستوطنة، خصوصا في الفندق والتي هي أيضا مهمته الرئيسية لأن القنصل والفندقي (fondegarius) هما

---

(279) *Percipiet illa omnia que recepit et consuevit recipere consul de Bugia, et erit similis conditionis per omnia*.

معاهدة ميورقة – بجاية، 1312، المادة 3.

(280) اللهم إذا ما فوّض هنا أيضا شخصا وفيا، مكتفيا باستقبال مداخيل الوظيفة:

tenendum, regendum et exercendum per vos vel vestrum idoneum substitutum. ACA, C., Rg. 555, f. 124r-v (2/6/1360), éd. J. Mutgé i Vives, « Algunas noticias sobre las relaciones entre la Corona Catalano-Aragonesa y el Reino de Túnez de 1345 a 1360 », *Relaciones de la Península ibérica con el Magreb (siglos XIII-XVI), actas del coloquio, Madrid, 1987*, dir. M. Garcia-Arenal et M. J. Viguera, Madrid, 1988, appendice, n° 8, p. 161-163.

(281) ASG, AS, Rg. 496 (= *Diversorum Cancelleriae Communis Janue*, Rg. 1), f. 11v-15r (5/1/1380), éd. M. Buongiorno, *L'Amministrazione genovese nella « Romania »*, Gênes, s. d., p. 277-286.

في القرن الخامس عشر، رخّص القنصل الجنوي بتونس لمجمل المغرب. Petti Balbi, « Gli insediamenti genovesi », art. cité, p. 129. لكن تمت الإشارة إلى قنصل ببجاية في نهاية القرن.وفي 1494 تمّ انتخاب ستورينو أرزينا (Satorino Ursena) قنصلا مكان سابقه المتوفى.

ASG, AS, Rg. 1812, n° 339 (15/12/1494), éd. Marengo, « Genova e Tunisi », art. cité, p. 287.

شخص واحد. فالقوانين توضح أنه هو الشخص الوحيد الذي له سلطة منح المنازل والمحلات ويجب عليه السهر على عدم تعدي قاطنيه على الأقسام المشتركة، خصوصا على الأزقة. ويجب عليه أيضا منع كل تعديل في وضع الغرف، خصوصا كل زيادة بالهدم للفواصل. بصفة عامة، له دور احترام نظام القنصلية في تونس أم في بجاية[282]. وأخيرا، هو الذي يجمع ممتلكات الأشخاص المتوفين في بجاية، لأن الحفصيين تنازلوا عن ممارسة حق الحظ غير المنتظر في صفقة [283].

يترجم تفويض هذه السلطة خصوصا عن طريق حق ممارسة العدالة. ويتعلق الأمر أيضا بالنسبة للحكم الحفصي، بالتنازل الجزئي عن إظهار جوهري للسيادة. ومن الطبيعي إذن أن توضح بدقة حدود الاختصاصات باتفاقيات سلم[284].

منذ المعاهدات الأولى، اتفق حل القنصل لكل النزاعات التي يمكن أن تحدث بين مواطنيه[285]، وهذا ما أصبح وبسرعة معيارا مقبولا لكل الجاليات الخارجية. ففي 1306، نرى قنصل الكاتالانيين يستقبل تعليمات الملك في موضوع قضية خصام بين اثنين من مواطنيه حول طلب غير مستجاب[286]. وهذا

---

(282) *Breve Curiae Maris* de 1305, art. 100 (*De preceptis faciendis consulibus Tunithi et Buggee tempore eorum electionis*), éd. Bonaini, *Statuti*, *op. cit.*, III, p. 418.

لم تصلنا هذه القوانين التنظيمية التي يبدو أنها خاصة بقنصليتي تونس وبجاية.

(283) في 1417، كتب ممثل ملك ميورقة بيرنجر دولمس (Berenguer d'Olms) إلى أمير بجاية يحتج ضد حجز ممتلكات جوهان أكسرتال (Johan Axartell) الذي توفي بدلس.

ARM, AH 94, f. 234v-235v (15/7/1417), éd. P. Macaire, *Majorque et le Maghrib au XVe siècle*, Doctorat de troisième cycle, sous la direction de Ch.-E. Dufourcq, Université Paris X, 1977, p. 551-553.

(284) حول هذه المسألة، أنظر: Valérian, « La résolution des conflits », art. cité

(285) على سبيل المثال، معاهدة بيزا – تونس، 1234، المادة 8. كذلك عندما يأتي تاجر إلى بجاية تحت حماية أمة أخرى غير أمته، فهو دون شك خاضع لعدالة قنصل هذه الأمة.

(286) ACA, C., Rg. 139, f. 78 (7/1/1306).

الاختصاص هو واسع لأنه يشمل الجنايات [287]. بالنسبة للقضايا الداخلية للجماعة، لا يمكن للقضاة البجائيين التدخل فيها، حتى وإن كانت القضية تخص أحيانا المسلمين الأجانب، وهي حالة يمكن على الخصوص أن تحدث خصوصا لرعايا لاكورونيا أراجونة أو ملك ميورقة. ففي معاهدة 1314 الموقعة بين ملك أراجونة وسلطان بجاية، قبل بوجوب ممارسة القنصل للعدالة على كل تاجر من أرض ملك أراجونة، مسلما كان أم مسيحيا[288]. لكن هذا الاتفاق وقّعته بجاية في وقت ضعف كبير، وهذا ما يفسر هذا الامتياز الفاضح في نظر رجال الدين. ففي الواقع، تضع معاهدة 1301 المبرمة بين جاك الثاني ملك أراجونة وسلطان تونس تمييزا هاما: تؤكد مادته رقم 16 أن كل شخص (مسيحي أو مسلم) الذاهب إلى موانئ مملكة أراجونة يعتبر رعية للملك، وهذا ما ينسحب أيضا على النظام العقاري. لكن عندما تمت معالجة مسألة صلاحيات القنصل، قيل أن هذا الأخير سيعيّن للدفاع عن حقوق رعايا الملك في الديوان وخارجه لممارسة العدالة على الكتالانيين والأراجونيين المسيحيين في القضايا التجارية [289]. ويبدو أن هذا التمييز – الذي يشير في ميدان الحق التجاري فقط إلى عدم خضوع الرعايا المسلمين في لاكورونيا إلى عدالة القنصل- قد اختفى في معاهدة 1360 التي تحتفظ بعدالة القنصل الكتالاني لمسيحيي ويهود لاكورونيا فقط، مؤكدة على إمكانية معرفة القنصل لهذه القضايا[290]. لكن في هذه التعليمات المعطاة في 1444 لسفيره

(287) *Faciant et reddant jus et justiciam inter gentes vestras ibidem existentes, tam criminaliter quam civiliter.*
معاهدة ميورقة – بجاية، 1312، المادة 3. لا يمكن للمشرف ولا لأحد مساعدي السلطان التدخل.

(288) معاهدة لاكورونيا أراجونة – بجاية 1314، المادة 8. أنظر أيضا مشروع معاهدة لاكورون أراجونة – تونس 1323، المادة 4.

(289) معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس 1301، 16.

(290) القناصل "حكموا بين الكتالانيين ويهود نفس البلاد في القضايا التي تواجههم فيما بينهم، وليس هناك شخص آخر إلا القناصل يمكنه الحكم في هذه القضايا". معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1360، المادة 21.

في تونس بهدف تحقيق سلم جديد، اعتبر ملك أراجونة ألفونس الحليم (Alphonse le Magnanime) من جديد أن كل الرعايا المسيحيين والمسلمين جزءا من سلطته، واقترح في حالة النزاع التجاري أو غيره حكم القنصل وصاحب الديوان في القضية سوية[291]. ليس المعيار دينيًا، حتى وإن تم أحيانا طرح الرعايا المسلمين للملوك المسيحيين أمام عدالة القناصل. وأخيرا، في بعض الحالات الخطيرة، تنقل القضية أمام عدالة الأرض الأم والسلطان أو أحد أعوانه لا يمكنهم منع المتهم من مغادرة المجال[292]. ففي 1303، تم إيقاف أربعة يهود ميورقيين في بجاية بتهمة الشذوذ الجنسي ومثلوا أمام عدالة حاكم جزيرة دالمو دو جاريجا (Dalmau de Garriga)[293].

تمّ تدريجيا توضيح السلطات القضائية للقنصل، خصوصا بالنسبة للقضايا التي تضع أشخاصًا من جاليات مختلفة في مواجهة بعضهم البعض. يجب إذن إقرار من يحكم وحسب أي قانون. في حالة نزاع مع عضو جالية أخرى (مسيحي أو مسلم)، تبقى معاهدة 1353 مع بيزا عامة، مقتصرة على القول أنه يتبع القانون[294]. لكن معاهدة 1397 نصت أنه في حالة حصول نزاع بين مسيحيين،

(291) Éd. Fr. Cerone, « Alfonso il Magnanimo ed Abu ‘Omar Othmân, Trattative e negoziati tra il Regno di Sicilia di qua e di là dal Faro ed il Regno di Tunisi (1432-1457) », première partie, *Archivio storico per la Sicilia Orientale*, 9, 1912, fasc. 1, p. 31.

لكن النص يكتنفه بعض الغموض:

« che delle cause oi debacti et controversie che scaderanno fra qualuncha mori et xristiani subditi de la dicta Maiesta de Re daragona tanto de mercantie quanto de altro, qui le non poza conoscere salvo per lo Segnore de la dohana de Tunisi et per Consolo xristiano che li serra deputato per la dicta Maiesta de Re daragona ».

يمكننا أيضا تفسيره كبند يتعلق بنزاع بين مسيحي رعية للملك أراجونة ومسلم رعية للسلطان.

(292) مشروع معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1313، المادة 11.

(293) ARM, *Reales cedulas*, vol. 1, f. 37v-38r (28/6/1303), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 575.

(294) معاهدة بيزا – تونس، 1353، المادة 9.

على قنصل المتهم فقط محاكمة القضية وتطبيق الحكم[295]. إن القضايا القضائية مع رعايا السلطان غير واضحة جدا. فمشروع اتفاقية 1323 بين لاكورونيا أراجونة وتونس ينص على أنه في حال نزاع مدني بين مسلم ومسيحي، يكون القنصل هو الحاكم[296]، لكنها حالة استثنائية جدا ومشروع السلم لم يتم إمضاؤه. إن اتفاق 1343 مع جنوة يميز بين حالتين: إذا ما رفع مسلم قضية ضد جنوي، يجب على القنصل ممارسة العدالة (إذا لم يقم بها فإن المسلم له الحق في رفع القضية أمام الديوان)، بالعكس، إذا كان المشتكي جنوي، يجب عليه التوجه إلى الديوان[297]. ونلاقي إذن القاعدة السارية التي ترفع القضية أمام محكمة المتهم.

وتنص بعض الاتفاقيات على تدخل القاضي أو صاحب الديوان، حيث يحدث خصوصا في حالة الخطأ الجسيم[298]، أو في حالة ما إذا ما تباطأت عدالة القنصل. ففي 1470، طلبت السلطات الجنوية من ممثلها في تونس العمل على تفادي تحويل الجنويين إلى العدالة المحلية[299]. وأخيرا، في غياب القنصل أو الشخص الذي حل مكانه، كان القضاة أو الديوان يمارسون العدالة.

ضامنا للسير الجيد الداخلي للجالية، كان القنصل هو ممثلها أيضا في الخارج، فإليه يرجع حل النزاعات المحتملة مع الأمم المسيحية الأخرى، ويجب عليه أيضا التوسط لدى الملك أو العامل. إنها مهمة صعبة ومجازفة وهي التي دفعت مفاوضي المعاهدات إلى الإلحاح على عدم تحميلهم مسؤولية الأخطاء المحتملة

(295) معاهدة بيزا – تونس، المادة 2. تنص معاهدة 1358 بين بيزا والسلطان المريني أبي عنان في حالة نزاع بين مسيحي من أمة أخرى تكون من اختصاص القنصل البيزي. لكن هنا هي مفاضلة لا نجدها في جهة أخرى.

(296) مشروع معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1323، المادة 12.

(297) معاهدة جنوة – تونس، 1343، المادة 5.

(298) معاهدة أبي عنان – بيزا، 1353، المادة 11.

(299) ASG, AS (*Litterarum*), Rg. 1799, f. 186v (20/12/1470), cité par Petti Balbi, « Il consolato genovese », art. cité, p. 243.

لمواطنيهم. إن هذا الغياب لمسؤولية جماعية ينسحب أيضا على كل المسيحيين الحاضرين في بجاية وهو شرط مجيئهم للميناء. وتنص معاهدة جنوة مع تونس في 1236 والمعاهدات اللاحقة، بوضوح على عدم إمكانية سجن أي تاجر جنوي، أو مصادرة سلعه بسبب إساءة مواطنيهم[300]. وهذه الحماية هي أيضا أكثر من ضرورية بالنسبة للقناصل. ينص الاتفاق البيزي لعام 1313 بوضوح على ملاحقة القناصل ومعالجتهم لأخطاء مواطنيهم[301]. إن مشروع معاهدة 1323 مع لاكورونيا أراجونة يذهب بعيدا أكثر من هذا، مؤكدا على عدم توقيف القنصل أو مساعديه في الديوان دون سبب، وهذا ما يمنحهم مناعة حقيقية[302]. في الواقع، تمّ اختراق تعهد الحكم الحفصي، حيث كان القنصل هو الشخص الأكبر عرضة من جماعته[303].

لقد كان لممثلي الأمم المسيحية فرصة الوصول المباشر للملك أو العامل، وهذه قاعدة تذكّر بها المراسلة الدبلوماسية دوريا. ومنحت لهم معاهدة بيزا في 1234 هذا الحق مرة في الشهر وفي 1397 تمت مضاعفة هذا التردد[304]. ونصّ مشروع اتفاق 1444 مع ألفونسو الحليم على وجوب استقبال السلطان للقنصل في جلسة خلال ثلاثة أيام في الأسبوع[305]. وسمحت هذه المقابلة لهذا الأخير بوضع الحكم المحلي في الصورة بخصوص حياة مواطنيه وتسوية المشاكل

(300) معاهدة جنوة – تونس، 1236، المادة 15.

(301) معاهدة بيزا – تونس، 1313، المادة 29.

(302) مشروع معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1323، المادة 9.

(303) على سبيل المثال تم احتجاز وأسر نائب القنصل الكاتالاني برنات بنينكاسا (Bernat Benencasa) بعد التأخر في تحرير الأسرى البجائيين في أرض أراجونة.

ACA, CRD, Jaime II, *caja* 30, n° 5451, éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1208.

(304) معاهدة بيزا – تونس، 1234، المادة 7، معاهدة بيزا – تونس، 1367، المادة 16. أنظر أيضا معاهدة جنوة – تونس 1343، المادة 22.

(305) مقترحات سلم لاكورونيا أراجونة – تونس 1444، المادة 26.

العالقة[306]. منطقيا، للقنصل دور هام غالبا في مفاوضات السلم، لأنه يعرف أفضل من الآخرين الوضعية السياسية والاقتصادية للسلطنة[307]. أحيانا، يتعلق الأمر أكثر بالدفاع عن مصالح الجالية التجارية أكثر من تمثيله لملكه أو مدينته. ففي 1315، بجانب مبعوث الملك سانش إلى بجاية، جريجوي سالومبي (Grigori Salem bé)، نجد القنصل الميروقي بنيت بلونكاس (Benêt Balanças) الذي تدخل في النقاشات بطلب من سلطان بجاية وساعد على تحقيق اتفاق كان على وشك الفشل، مقترحا شراء أسيرين لم يرد سالومبي نفسه تسليمهما [308]. إن رغباته هي إذن دون شك أكثر من تحرير أسرى مسيحيين من الحفاظ على النظام الدبلوماسي الملائم لأعمال التجار الميورقيين ببجاية.

إنّ القنصلية هي إذن وظيفة جوهرية، تمنح لصاحبها سلطة حقيقية –حتى وإن وجدت حالات رفض للمنصب[309]– تبقي المهمة بصفة عامة مطلوبة جدا. إن مصلحة العائلات التجارية الكبيرة في هذه الوظيفة تتبع طبعا أهمية النشاط التجاري لبجاية مقارنة مع أهمية موانئ متوسطية كبيرة أخرى. إن قنصليات المشرق هي الأكثر تطلعا والأكثر جذبا من الناحية التجارية، وحتى في المغرب

(306) طلب منه خصوصا المساعدة على تحرير الأسرى المسيحيين.

(307) سمح استعمال صلاحيات القنصل أيضا –أكثر تواضعا– من تحديد نفقات السفارة. وليس نادرا من جهة أخرى أن يبقى السفير قنصلا بعد تأدية مهمته. في 1309، تم تكليف القنصل الكاتالاني ببجاية برنات دو سولر حمل نسختين من معاهدة تم توقيعها إلى السلطان. ACA, C., Rg. 24, f. 96v (c. 11-12/5/1309) أيضا، في 1312، كلّف جاك الثاني (Jacques II) خوان بوكلول (Joan Puculull)، نائب قنصل الكتالانيين في بجاية بسفارة إلى السلطان أبي بكر. ACA, C., Rg. 240, f. 34v (1/7/1312).

(308) حول هذه المحاورات، أنظر: Aguiló, « Incident », art. cité, p. 226-233.

(309) عزمت القوانين المرسيلية على هذه الحالة.

نفسه، أصبحت تونس بداية من القرن الثالث عشر أكثر رغبة من بجاية[310]. يقدم منصب قنصل في بجاية عدة إغراءات. ففضلا عن الشهرة ومن المحتمل السلطة، يتوفر القنصل على مصادر دخل ربما هامة. يقتصر البعض من جهة أخرى على استقبال هذه الأجور، دون الحضور الشخصي إلى بجاية أو يقتصر تمثيلهم على نائب القنصل[311].

لا يبدو أن السلطان قد دفع أجرا إلى القنصل في المغرب، كما هو حال الأسكندرية على سبيل المثال[312]. إن مداخيل هذا الأخير تأتي خصوصا من حضور ونشاط مواطنيه. وهناك عدة رسوم كانت من متولين لهذه المهام: مصاريف العدالة، أيضا دون شك الضرائب المحصلة من المعاملات التي تجرى داخل الفندق[313]، أو حول عقود التوثيق[314]. في القرن الخامس عشر، استلم القنصل الجنوي رسما على دخول وخروج السلع في الميناء[315]. وتم تبني الكاتالانيين لهذا

(310) إن كراء القنصليات في بجاية وتونس هو أحسن شهادة. على سبيل المثال في 1300، اكترى المرسيلي فيفو المقدسي (Vivaud de Jérusalem) فندق بجاية مقابل 27 ليفر في حين أن القنصل السابق جيوفروا ريكو (Geoffroy Ricaud) أخذ فندق تونس بـ 40 ليفر.

ADBR, B 1936, f. 68r (12/2/1301).

(311) في 1274 بمناسبة نزاع حول موضوع القنصلية الكتالانية، أخبرنا أن صاحب الوظيفة، برينجر روجرس (Berenguer Reguers)، كان غائبا ومثله جيلام فيوري (Guillem Fiure). ACA, C., Rg. 19, f. 149 (23/7/1274)

(312) Petti Balbi, « Gli insediamenti genovesi », art. cité, p. 130.

حول القنصليات الكتالانية في الأسكندرية، أنظر:

D. Coulon, *Barcelone et le grand commerce d'Orient au Moyen Âge. Un siècle de relations avec l'Égypte et la Syrie-Palestine (ca. 1330 - ca. 1430)*, Madrid-Barcelone, 2004, p. 62-87.

(313) Batlle i Gallart, « La alhóndiga », art. cité, p. 79-80.

(314) Dufourcq, *L'Espagne catalane*, *op. cit.*, p. 100.

(315) في 1425، نتحدث بالنسبة لتونس عن 500 ليفر سنويا تجبى من رسم بنسبة 1،5 في المائة على الدخول و1 في المائة على الخروج، وتضم في 1428 اللؤلؤ والأحجار الثمينة، مع استثناء وحيد وهو الملح. في 1443، كان هذا الرسم على التوالي 1 في المائة و0،5 في المائة. Petti Balbi, « Il consolato genovese », art. cité, p. 235-236. لا نعرف كم كانت مداخيل نظيرتها ببجاية، حيث يدل الحضور على الأقل في نهاية القرن، لكن المبدأ كان مماثلا له.

النظام أيضا في نفس الفترة[316]. في 1273 على سبيل المثال، أجّر الملك جاك الثاني الأراجوني قنصلية بجاية لأرمانجول أندرو (Armengol Andreu) لمدة خمس سنوات، مع كل حقوق ممارسة العدالة على رعايا لاكورونيا الذين يعيشون في الجهة بين قسنطينة والجزائر. ومنح له خصوصا الفندق مع كل ملحقاته والمداخيل التي تنجم عن استعمال المطعم والمنازل والورشات[317]. أيضا في 1220، تلقى القنصل المرسيلي المعيّن في بجاية الفندق وكل الحقوق الناجمة عن التوثيق[318]. كان الفندق هو المصدر الأساسي الممكن للمداخيل حيث يمنح عموما للقنصل، وهذا ما يسمح بربح أجر عمله بفضل كراء غرف سكن للتجار والورشات والمخازن. لكن هذا غير منتظم لأن "قوانين نظام البحر" البيزية تمنع القنصل أو أحد إخوته أو شركائه من امتلاك أقسام في الفندق[319]. لكن تبقى هذه الحالة نادرة.

يمكن للقنصل خصوصا – في بعض الحالات- الاستفادة من مداخيل هامة من المطعم. إن الرسوم المفروضة على بيع الخمر هي في الواقع هامة[320]، إلى درجة أنه انطلاقا من بداية القرن الرابع عشر يبدو أن الحفصيين فكروا في طريقة لفرض احتكار بيع الخمر وذلك بمنع حضور المطاعم-الحانات في الفنادق. وتظهر شكوى جاك الثاني لدى الحاجب ابن غمر بتاريخ 1315 أن القبالة كانت مستأجرة من قبل جارسيا بيراز دو مورا (Garcia Perez de Mora)، قائد

(316) Carrère, *Barcelone*, *op. cit.*, p. 116.

(317) ACA, C., Rg. 19, f. 43v (20/8/1273).

(318) AM, HH 334 (11/11/1220).

تميّز القوانين المرسيلية لعام 1255 قنصل الفندق. . لكن عمليا يشغل نفس الشخص الوظيفتين.

Éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 90-91.

(319) *Breve Curiae Maris*, 1305, art. 39, éd. Bonaini, *Statuti*, *op. cit.*, III, p. 372.

(320) أنظر بالنسبة للبندقية:

A. Ducellier, « Raguse, l’Italie et la Berbérie au Moyen Âge : à propos de quelques documents inédits ou peu connus », *CT*, 61-64, 1968, p. 38.

ذهبت ثلث المداخيل إلى الجمهورية فيما تبقى الثلثان للقنصل.

المليشيات المسيحية الذي دفع مبلغ 20 بوزو شهريا إلى قنصل الكاتالانيين، مكافأة له على غلق المطعم الذي وجد سابقا في الفندق[321]. وتلمح معاهدة 1314 بين لاكورونيا أراجونة وبجاية على حصول القنصل أو مساعده على قبالة أو الثمن الساري للقبال[322]، حيث تم توضيحه في مشروع معاهدة 1323: 20 بوزو شهريا يدفعه له الديوان[323].

لم يكن القنصل هو الشخصية الهامة الوحيدة للجالية. فهو أولا مساعدا أحيانا بقنصل التجار، على شاكلة مجالس الأرض الأم. ونراه في 1298 عندما اجتمع مجلس من عدة تجار وبحارة مرسيليين لانتخاب قنصل جديد[324]، وتتحدث وثيقة أخرى بتاريخ 1305 عن "جامعة رجال مرسيليا"[325]. وكان بتونس مجلس مكوّن من إثني عشر تاجرا جنويا[326]، ونعلم أنه وجد أيضا بالنسبة للكتالانيين أو البنادقة[327] في بعض المدن.

---

(321) ACA, CRD, Jaime II, *caja* 28, n° 5271 (6/7/1315), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1138.

نصت معاهدة 1312 بين ميورقة وبجاية على وجود مطعم في فندق الميورقيين (المادة 3)، لكن يتعلق الأمر ربما بمفاضلة لم تشترك فيها الأمم الأخرى.

(322) « Aja de la gabella, o del gabellot la custuma que ha auda el temps passat. »

معاهدة لاكورونيا أراجونة – بجاية، 1314، المادة 7.

(323) معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1323، المادة 3. يتلقى قنصل تونس فيما يخصه 50 بوزون شهريا.

(324) *Aliquos consilianos seu homines massilie seu consilium hominum Massilie in dicto loco de Bugia*. AM, HH 334, 20/12/1298.

(325) AM, 1 II 45, f. 37r-v (10/12/1305)

(326) M. Balard, « Note sur le commerce génois en Tunisie au XIIIe siècle », *CT*, 155-156, 1991, p. 381.

(327) في تونس، وجب على قنصل التونسيين أخذ رأي مجلس مكوّن من اثني عشر تاجرا، لهم السيادة في القرارات الهامة. Doumerc, « Le consulat vénitien », art. cité, p. 448.

لكن هناك شك في أن تكون الجالية البنادقية في بجاية كثيرة لتبرير هيكلة مماثلة.

يساعد القنصل أحيانا كاتب لتسجيل حسابات الجالية(328). خصوصا، أن الموثقين يتكفلون بتسجيل العقود، سيما العقود التجارية المبرمة بين التجار المسيحيين. ليس هناك أي سجل هام مستغل في الميناء تمّت المحافظة عليه، بخلاف الذي نمتلكه بخصوص تونس مع بيترو بتفوجليو (Pietro Battifoglio) أو بالنسبة لمستوطنات الشرق(329). لم يبق إلا بعض رق الجلود المعزول في أرشيف بيزا أو برشلونة وقطعة واحدة من سجل الموثق الجنوي ينوتو بريجنانو (Ianoto Berignano)في منتصف القرن الخامس عشر(330). لكن ليس هناك إشارات لحضور موثقين في المدينة، خصوصا أن عدة وثائق جنوية هي في الأصل وثائق منجزة في بجاية. ففي 1203، أعطى جيوفاني كالفو وصلا إلى ججليالمو دو مانجانو (Guglielmo de Mangano) عبارة عن طلبية بـ 1000 بوزون ميلاريس (millares) عهد له بها ببجاية، كما يشير إلى ذلك عقد مكتوب بيد لامبيرتو لتشارو (Lamberto Leccaro) (331). في 1302 طلب القائد العام لمملكة ميورقة من دانيال ستاجيتا(Daniel Stagueta) ، موثق الميورقيين في بجاية استلام

(328) هذا هو ربما دور أب البيزي فيبوناتشي (Fibonacci) في نهاية القرن الثاني عشر، الموصوف بـكاتب. لكن ليس من الواضح في هذه الفترة حضور قنصل البيزيين في تونس.

(329) Pistarino, *Notai genovesi… Battifoglio, op. cit*.

تتعدد السجلات المحفوظة بالنسبة للمشرق، خصوصا بالنسبة للمجالات المسيحية. أنظر طبعات أخرى لنفس السلسلة:

Collana storica di fonti e studi, dir. G. Pistarino, Gênes.

(330) ASG, min. 275/II, f. 48r-50v.

لا نعرف متى وصل إلى بجاية (بداية السجل يجمع الشهادات اللاحقة عند مروره في المغرب). إن شهادة التوثيق الأولى -التي تنقصها البداية- هي بتاريخ 27 نوفمبر 1345 والأخيرة أنجزت في فندق الجنويين بتاريخ 3 ديسمبر. ونعرف أنه كان في جنوة يوم 9 مارس اللاحق.

(331) Lanfranco, n° 444 (2/8/1203).

كذلك في 1248 و1252، تمت الإشارة إلى ججليامو فجيو دو سان دوناتو (Guglielmo Vegio de San Donato) موثقا في بجاية.

ASG, min. 143, f. 177r (26/8/1248) ; min. 26/I, f. 25r (22/8/1252).

-من القنصل الذي عيّن حديثا- وصية حول أداء مهامه جيدا[332]. وهو نفسه ستراجيتا (أو ستانجيتا)، الذي اعتبر في وثيقة مؤرخة بعام 1309 موثق الإمبراطورية المقدسة. - سجّل في 3 مارس 1308 في دار قبالة الخمر، وكالة تاجر بيزي[333]. في فترات فتور نشاط التجار المسيحيين ببجاية، هناك في المقابل غياب الموثقين، وهذا ما أجبر في 1395 أحد أسرى أوباني (Aubagne) من تحريره وكالة بالكاتالانية بواسطة جراح بجاية، جارسيا (Garcia)، بحضور أخيه الأصغر وقس المصلى هيلي دو لا بالم (Hélie de la Palme). وتطلب هذه الوكالة بعد وصول الوثيقة إلى مرسيليا بأن يتم إعلانها للجميع، وهذا ما حدث في السنة الموالية من موثق بلاط القصر[334]. يعمل الموثق مبدئيا لتجار أمته الخاصة، ولكنها ليست قاعدة مطلقة[335]. يتحرك هؤلاء الموثقون كثيرا- إذا ما حكمنا على أماكن تحرير العقود- ولا يبدو أنهم يتوفرون على محل خاص بهم. بالعكس، نراهم

---

(332) ARM, *Reales cedulas*, vol. 1, f. 21, éd. E. de K. Aguiló, « Tractat de pau entre el Rey de Mallorca Don Sanxo y el de Bugia Boyhahia Abubechre, firmat a Mallorca pels seus representants Gregori Sallambé de una part y Mahomat Abdellá Ben Acet de l’altra, dia 23 de novembre de 1312 », *BSAL*, 15, 1915, p. 221-222.

(333) ASP, *Diplomatico Alliata*, 26/4/1309, éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 48.

تبين الوثيقة هذه الوكالة التي أنجزت في كاجلياري (Cagliari).

(334) ADBR, Dugat 1, f. 49r-50r (15/2/1395), trad. É. Baratier, *Documents d’histoire de la Provence*, Toulouse, 1971, p. 132-134.

(335) وضع الموثق الجنوي يانوتو بريجنانو (Ianoto Berignano) شهادات موثّقة ليهود برشلونة والتجار الميورقيين في فندق المرسيليين. حقيقة في نهاية 1347، نقص بقوة سكان المدينة بسبب الطاعون (كما يظهره الكثير من المتوفين المشار إليهم في هذه الوثائق)، وإيجاد موثق ليس بالضرورة أمرا سهلا. وتظهر الشهادات الموثقة للموثق الجنوي في تونس بتيفوجليو (Battifoglio) أيضا أنه اشتغل للجنويين وكذلك لمسيحيين آخرين في المدينة وأيضا للمسلمين.

Pistarino, éd., *Notai genovesi… Battifoglio, op. cit.*, par exemple n° 3, p. 6-8 (عقد بين جنوي وبيزي، 4/ 1/ 1289).

يعملون في الفنادق وفي "دار" أو غرفة تاجر متعاقد- لكن نادرا مايعملون خارج الأماكن المخصصة للمسيحيين[336].

هناك شخص آخر هام للجماعة وهو قس المصلى، الذي يسهر على الأرواح وأيضا يمكن أيضا أن يلعب دورا اجتماعيا وسياسيا، بما أنه يبقى غالبا لفترات طويلة جدا. في 1272، طالب التجار البيزيين في بجاية من أسقفهم عودة القس جافيرو (Jaffero) الذي هرب من المغرب خلال حملة لويس التاسع الصليبية[337].وفي السنة التي سبقتها،ووعد القس بوينجيوفاني (Buongiovanni) القس نكولا (Nicola) الراهب جاكوبينو (Jacobino) بمرافقته إلى بجاية والبقاء معه لسنتين كاملتين[338]. على القسيسين البيزيين دفع ضريبة (cens) سنوية لأسقفهم[339]، فهم يتبعون مباشرة كنيسة الأرض الأم وليس روما أو أسقفا مستقرا بإفريقية[340]. وهذا ما يدل على أنه من الصعب

(336) يشير عقد جنوي لعام 1263 لمبلغ تلقاه تاجر من مسلم بجائي في الأسواق الحضرية *(in zucho)*.ASG, min. 30/II, f. 2v (4/1/1263)

(337) Archives de l'archevêché de Pise, registre de l'année 1272, éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 47-48 (29/4/1271).

(338) ASG, min. 95, f. 149v (12/2/1271). En 1262 Giovanni de Sigestro, *vice presbiterio*, est chapelain des Génois à Bougie. ASG, min. 92, f. 96v (7/11/1262).

(339) في 1317، سدّد كينو (Cino) الذي عين قسا لكنيسة القديسة مريم (Sainte-Marie) البيزية في بجاية في كل سنة 100 فلس.

Archivio della Mensa Arcivescovile di Pisa, *Protocolli notarili*, Rg. 7, f. 35r (14/9/1317), éd. Bensaci, *Pise et le Maghrib*, *op. cit.*, p. 232.

في 1323 تم تعيين قس لنفس المدة بعد وفاة سابقه جياكومو (Giacomo)، وتعهد بدفع 10 ليفر في السنة *(pro censu et recognitione dicte cappellanie)*

Id., f. 176v (1323 ?), éd. Bensaci, *ibid.*

(340) في 1246، عيّن البابا إنوسنت الرابع (Innocent IV) أسقفا في المغرب الأقصى وأوصى به للسلطان الحفصي في تونس وفي بجاية.

Éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 13 (25/10/1246).

لكننا لا نعرف الحكم الفعلي لهذه الشخصية في بقية المغرب.

الحديث عن جماعة مسيحية في المدينة. بالعكس، شكلت الكنيسة والقس عنصران جوهريان للهوية الوطنية لكل جماعة[341]. انطلاقا من نهاية القرن الثالث عشر، ربما كان للأخوة المصلين حضور نشط في هذه الجاليات المسيحية، مثل ما تشهد عليه حالة الأخ هيلي دو لا بالم (Hélie de la Palme) ، قس بجاية في 1395،[342] ولكن حيز الميل بقي المغرب الأقصى بالأحرى[343].

كان الأطباء أيضا حاضرين في هذه الجماعات المسيحية، مثل الأستاذ جيراردو دو لونجيس(Gherardo de Longis) الذي يعد "طبيب مجلس مدينة جنوة في بجاية" في 1252،[344] أو أنطوان جارسيا (Antoine Garcia)، الجراح الكتالاني الذي حرر وكالة في 1395[345]. وأخيرا، آوت الفنادق مختلف النشاطات النافعة للجالية. من الحرفيين بعدد محدود، كانت هناك ورشاتهم. وجدنا أيضا صاحب مطعم، على الأقل عندما يصبح ممكنا بيع الخمر في الداخل.

(341) في 1456، تأثر مجلس شيوخ البندقية لغياب قس في تونس، معتبرا أنه غير مطابق لوقار جمهورية البندقية خضوع التجار للجنويين، مطالبا بالإرسال الفوري لقس. ASV, *Senato Mar*, Rg. 5, f. 184r (4/2/1456 m.v.).

(342) ADBR, Dugat 1, f. 49r-50r (15/2/1395), trad. Baratier, *Documents*, *op. cit.*, p. 132-134.

أيضا في 1379، منح البابا كليمون السابع (Clément VII) الغفران للأشخاص الذين ساهموا في شراء فرانسيسكيين في بجاية.

G. Golubovitch, *Biblioteca bio-bibliografica della Terra santa e dell'Oriente francescano*, V, Quarrachi, 1927, p. 237.

(343) A. Unali, « Pénétration religieuse et territoriale des chrétiens au Maghreb au XIIIe siècle », *Mésogeios*, 7, 2000, p. 143-152 ; A. Ajello, *La Croce e la Spada. I Francescani e l'Islam nel Duecento*, Naples, 1999, p. 33-38.

(344) *Magister Girardus de Longis medicus constitutus pro comuni Janue in Buzea*.

اعترف بوجوبه لـ 40 فلس استلفها من السيد ججليامو المنبيلي (Guglielmo) (طبيب آخر؟).

ASG, min. 34, f. 57v (15/4/1252).

(345) ADBR, Dugat 1, f. 49r-50r (15/2/1395), trad. Baratier, *Documents*, *op. cit.*, p. 132-134.

وأخيرا، عاشت من الممكن العاهرات في الفنادق[346]، رغم أن حضورهن كان أحيانا ممنوعا صراحة[347]. وتتحدث وثيقة كاتالانية مؤرخة في 1273 التي تعطي قائمة مداخيل القنصل، خصوصا عن مساكن النساء[348]. ويفترض شارل إيمانويل ديفور (Charles-Emmanuel Dufourcq) على أنه يتعلق ربما بالعاهرات اللواتي تخضع مداخلهن لرسم من القنصل[349]. لكن النساء كن نادرات بصفة عامة في المؤسسات الأوروبية في بجاية. في 1302، توفيت مارية – زوجة موثق برشلونة– في بجاية حيث عاشت ونوديت باسم ألماندا (Alamanda)[350]. لا نعرف ماذا كانت تفعل في هذه المدينة، بعيدا عن عائلتها، ويعتقد شارل إمانويل ديفور بأنها ربما من "نساء الفندق"[351].

طبعا كان التجار يشكلون جوهر الجماعة. في البداية، كانت الإقامة دون شك لفترة قصيرة ولا تتعدى زمن المرسى، مع احتمال قضاء شتاء في بجاية. لكن شيئا فشيئا أخذت الأعمال أهمية أكثر واستقر التجار بصفة دائمة. كثير منهم موزعون لرجال الأعمال الذين بقوا في أوروبا. ففي 1227، أعطى الجنوي إنجو

---

(346) نعلم أنه كانت عاهرات فرنجيات في الأسكندرية اللواتي طردن من طرف السلطان بيبرس في 1262.

Jacoby, « Les Italiens en Egypte », art. cité, p. 89.

(347) منعت القوانين المرسيلية لعام 1228 حضورهم في فنادق سوريا ومصر والمغرب.

Statuts de Marseille (1228), éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 90.

أنظر: Constable, *Housing the Stranger*, *op. cit.*, p. 145

كذلك، في نظام القنصلية الكتالانية في الأسكندرية في القرن الخامس عشر، تم منع دخول العاهرات إلى الفندق حتى لا تتم الإساءة إلى سمعة قاطنيه.

Carrère, *Barcelone*, *op. cit.*, p. 120.

(348) ACA, C., Rg. 19, f. 43v (20/8/1273).

(349) Ch.-E. Dufourcq, *La Vie quotidienne dans les ports méditerranéens au Moyen Âge (Provence, Languedoc, Catalogne)*, Paris, 1975, p. 119.

يعترف هذا المؤلف بعدم صفاء هذا الجزء من الوثيقة.

(350) AHCB, Llibre del Consell, vol. I, f. 28v-29r (23/5/1302), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 528.

(351) Dufourcq, *La Vie quotidienne*, *op. cit.*, p. 119.

دو جريمالدو (Ingo de Grimaldo) عن طلبية من ستة أنسجة ألمانية إلى بجاية، حيث يرجع النصف إلى جيوفاني إيزديماري (Giovanni Usodimare)، وهو ربما شريك يعيش في ما وراء البحر[352]. أيضا في 1320، بأمر من ملك ميورقة، أرجع القنصل السابق الميورقي دومنجو كيما (Domingo Cima) موزعه من بجاية، الذي هو ابن أخيه[353]. وفي 1263، نصّ عقد كراء بحري لسفينة بيزية على استقبال حمولة مرسلة من ثلاثين تاجرا إلى بجاية، بينهم أربعة فقط سافروا معها، واعتمد البقية على شركائهم المستقرين ببجاية حيث استقبلوا السلع. في البداية، وضع كاتب المركب قائمة واضحة من السلع في كتاب متن السفينة (cartulario)، وفي الوجهة تراجع الحمولة ويوزنها وزّان يختاره بصفة جماعية صاحب المركب والتجار[354]. كانت العادة في الموانئ الأوروبية، تعليم الشبان السفر وإرسالهم ممثلين لتجار آخرين باقين في الأرض الأم. يستقبلون الإرسالات ويضمنون بيعها في بجاية وفي العودة يرسلون كل ما تم شراؤه هناك. ويخبرون شركاءهم أو موظفيهم بتطور السوق (الوفرة، الأسعار)، ويستقبلون التعليمات[355].

(352) ASG, min. 7, f. 258v (18/9/1227), éd. R. Doehaerd, *Les Relations commerciales entre Gênes, la Belgique et l'Outre-Mont, d'après les archives notariales génoises aux XIIIe et XIVe siècles*, Bruxelles-Rome, 1941, II, n° 424, p. 219.

(353) ARM, *Reales cedulas*, vol. 6, f. 68 (9/9/1320), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1398.

(354) Archivio Caetani, *Pergamene, fondo pisano*, n° 3330 (10/8/1274), éd. Caetani, *Varia*, *op. cit.*, p. 12-14.

نشر هذه الوثيقة أيضا دوماس لاتري مع تاريخ 1263. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 38-43

(355) إن الرسائل المتبادلة بين التجار هي في الغالب غنية بالمعلومات حول تنظيم المبادلات والحالة الاقتصادية في البلاد، لكن لم توجد ولا واحدة في بجاية. وتتعلق رسائل التاجر الجنوي جيوفاني دا بنتريمولي (Giovanni da Pontremoli) في منتصف القرن الخامس عشر بفضاء لا يتعدى قسنطينة.

Éd. D. Gioffrè, *Lettere di Giovanni da Pontremoli, mercante genovese 1453-59*, Gênes, 1982.

في المقابل، استقر بعض التجار ببجاية حيث نظموا نشاطهم مع شركائهم ووكلائهم في مدينتهم الأصلية. ويقدم لنا مسار الجنوي جيانينو دي برودونو (Gianuino de Predono) مثالا. بين 1252 و1254، كان موثقا في جنوة وأبرم عدة عقود تجارية بحرية، سيما إلى بجاية[356]. وعمل خصوصا لأعضاء آخرين في أسرته الذين استثمروا في التجارة البجائية[357].بداية من 1255، معتمدا على الشبكة التي شكلها خلال السنوات السابقة، أخذ طلبيتين لاستثمارهما في قماش القطن إلى بجاية. وهنا أُهّل ليصبح كاتبا (scriba) [358]. كانت المبالغ متواضعة من 9 ليفر و18 سو إلى 4 ليفر و19 سو. وأخذ طلبيات أخرى من جهة أخرى.

لا نعرف إذا ما استقر بعد ذلك بالمغرب، لكن في 1262 أقام به وتدخل في العمليات التجارية في اتجاه جنوة-بجاية[359]، خصوصا أنه أرسل السلع التي وصلت في ماي وجوان إلى وكلائه:مقدارها اثني عشر رزمة من الجلود (faxes) وواحدة من نسيج النحل حيث استقبلتهم زوجته سيمونينا (Simonina)

---

(356) ASG, min. 18/I.

(357) في أفريل وسبتمبر 1253 ثم في مارس 1254 أعطى جيانينو دو برودونو (Gianuino de Predono)آخر ابن المرحوم أوبرتو (Oberto) عدة طلبيات إلى بجاية. ASG, min. 18/I, f. 44v (5/4/1253), 46v (6/4/1253, 10/4/1253) كانت المبالغ المستثمرة متواضعة، على التوالي 12 ليفر و14 فلس، 18 ليفر و5 ليفر. أنظر أيضا: id., f. 71v (5/9/1253) ; min. 30/I, f. 44r (26/3/1254), 81r (15/5/1254), 83v (16/5/1254).

(358) ASG, min. 31/II (Matheus de Predono), f. 92v-93r (16/5/1255).

كانت القضية عائلية، لأن الطالب كان أخوه ججليالمو (Guglielmo)، وكان هو أيضا موثقا، وأبرم العقود ماتيو دو برودونو(Matteo de Predono).

(359) ASG, min. 52 (Baldoinus de Predono), f. 147v (26/4/1262).

اعترف ألشينو دو كوروناتو (Alchino de Coronato) بتلقيه من لوفرانكو يجنتاريو (Lanfranco Pignatario) ثيابًا ووعد بإرجاعها ببجاية إلى جيانينو دي برودونو (Gianuino de Predono) 30 ليفر و9 فلس مقابل 4 فلس و9دونيي عن كل بوزون. نسجل أن الموثق كان أيضا من نفس العائلة.

وجياكومو دو سوري (Giacomo de Sori) [360]. هذا الأخير، أعطى باسم جيانينو (Gianuino)، رزمتين من الجلود، وخمسة أنسجة نحل و100 بوزون إلى لنفرانكو بجنتاريو ورزمة من الجلد وأخرى من الجلد المدبوغ إلى جياكومو دو بوسو دو سوري (Giacomo de Besso de Sori) [361]. وفي سبتمبر، عهد لونفرانكو بجنتاريو (Lanfranco Pignatario) إلى أرشينو دو كروناتو (Archino de Coronato) 10 ليفر و10 سو بقيمة 223 بوزون و8 ميلاريس لحملها إلى جيانينو [362]. خمس سنوات بعد ذلك، مرّ هذا الأخير بجنوة. وفي جانفي 1267، أخذ طلبية من 50 ليفر من أوبرتو دو بجنتاريو (Oberto de Pignatario)، و25 ليفر من أيجون دلا كروس و55 ليفر و4 دونيي من بائع الجوخ جوالتيرو راتو (Gualterio Rato)، لرحلة يقوم بها لاحقا إلى هذه المدينة، وتمّ استثمارها بسداسية في توثيق بجاية، من أجل الرحلة التي يجب القيام بها لاحقا إلى هذه المدينة [363]. وأخيرا، في أفريل من نفس السنة، استلم طلبية بـ 20 ليفر من زوجته سيمونينا، استثمرت في قسم منها في نفس خطة التوثيق. وأعطى في نفس اليوم وكالة إلى سيمونيا وإلى جياكومو دو بسو دو سوري (Giacomo de Besso de Sori) وإجون دلا كروسي (Ugone della Croce) ومتيو دو برودونو (Matteo de Predono) (أحد موثقيه)، كلهم

(360) ASG, not. ign., *busta* 8, fr. 95, f. 24v (21/5/1262).

أعطيت هذه الجلود بطلبية من جيانينو (Gianuino) إلى فيفالدو دو أندريا (Vivaldo de Andrea) باتجاه جنوة.

(361) ASG, not. ign., *busta* 8, fr. 95, f. 37v (14/6/1262), 41v (17/6/1262).

(362) ASG, not. ign., *busta* 3, fr. 28, 26/9/1262.

(363) ASG, min. 82, f. 196r (11/1/1267), 199v (13/1/1267), 213r (25/1/1267).

بالنظر إلى مهنة جيانينو، يمكن الاعتقاد بأنه كان سيشغل وظيفة كاتب ببجاية. لكن ربما لم تكن بالنسبة إليه إلا استثمارًا بسيطًا، كراء في الميدان الذي يتحكم فيه.

متضامنين لتسيير أعماله في غيابه[364]. وخلال السنوات التي أمضاها في بجاية، استطاع إذن الاعتماد على مراسليه ووكلائه في جنوة، بعضهم من عائلته (زوجته، وأخيه جوجليلمو (Guglielmo) وماتيو (Matteo) الذي لا نعرف علاقته الأبوية مع جيانينو (Gianuino)، وشركائه الآخرين في الأعمال (جياكومو دو سوري (Giacomo de Sori)، إيجون دلا كروسي (Ugone della Croce) ولافرانكو بجنتاريو(Lanfranco Pignatario) . يبدو انتهاء إقامته في بجاية في 1269، لكنه استمر بعد هذا التاريخ انطلاقا من جنوة في تسيير أعماله مع المغرب. وأخذ ابنه أوبارتو خصوصا المناوبة وغادر في أوت 1269 إلى بجاية بطلبية من 6 ليفر[365]. فيما يخص جيانينو (Gianuino)، فإنه روّج صوف بجاية في جنوة[366].

ويحتل هؤلاء التجار المقيمين من جهة ثانية مكانة هامة في هذه الجاليات ذات الحراك القوي. إنّ البيزي لوبو بن جراردو روسو (Lupo fils de Gherardo Rosso) – الذي عمل وصيته في 1278- هو شخصية مستقرة، لها خادم وفرس وفوائد في قبالة الخمر ويتوفر على شبكة عريضة من الأعمال تشهد عليها الديون المشار إليها في وصيته[367]. كانت أوقات الإقامة نادرا ما تكون طويلة وغالبا ما تنتهي حياة هؤلاء التجار في مدينتهم الأصلية، كما يوضحه مثال جيانينو دو برودونو (Gianuino de Predono). إنّ بنية هذه المجتمعات الصغيرة من المستغربين غير معروفة جيدا. دون شك، هل تنتج من جديد – على الأقل- الطبقات الاجتماعية الموجودة في الأرض الأم. يجد طبيعيا التجار المنحدرون

(364) ASG, min. 82, f. 62v (3/4/1267).

(365) ASG, min. 83, f. 167r (3/8/1269).

(366) ASG, min. 76, f. 189v (3/7/1269). En 1274

نجده في أعمال الموثق جيوفاني دو كورسيو (Giovanni de Corsio) بائع لصوف بجاية بـ 33 ليفر و17 فلس.

ASG, min. 82, f. 316v (15/10/1274).

(367) ASP, *Diplomatico Roncioni*, 17/10/1278.

من العائلات الكبيرة مكانة على علاقة بمولدهم، خصوصا منهم الذين يشغلون مهام القناصل. لكن بجاية ليست سوقا غنية لجذب بطريقة موحية هذه النخبة التجارية[368]. يمكن أن نجد فيها الشبان القادمين إلى هنا من أجل تعلمهم، وخصوصا زبائن عائلات الأرض الأم الكبيرة. فالتاجر البيزي لوبو روسو (Lupo Rosso) يوضح في وصيته أنه ينتمي إلى "دار" بني لانفرونشي (des Lanfranchi)وهو على علاقة تجارية معهم[369]. إن المستوى الاجتماعي المتوسط لهؤلاء المقيمين وإمكانات الثراء للأكثر إقداما- كبعدهم عن وسطهم الأصلي والحياة في جماعة- جعل دون شك علاقاتهم في حركية أكثر من الأرض الأم.

تظهر لنا قراءة هذه الوثائق مجتمعات تجارية مهيكلة على شكل جماعات وطنية، محاطة جدا بالمؤسسات القنصلية ومعاهدات السلم. على الرغم من ذلك، لا يجب الاستنتاج بعيش هؤلاء التجار المسيحيين في فنادقهم في عزلة تامة عن المدينة. إن القواعد التي ضبطت حياتهم في بجاية لا تبرر في الواقع إلا إذا ما سهلت المبادلات التجارية، خصوصا مع التجار البجائيين.

III- بيع وشراء: تقنيات ووسائل

ارتبط نشاط الموانئ في قسم كبير منه بوصول المراكب التجارية. لم يكن أبدا انقطاع كامل وفعلي للملاحة خلال السنة، لكن بعض الفصول تعتبرملائمة أكثر من الأخرى. ويمكن للتوزيع الشهري للطلبيات المبرمة مع جنوة بين منتصف

(368) L. Balletto, « Famiglie genovesi nel nord-Africa », *Dibattito su grandi famiglie del mondo genovese fra Mediterraneo ed Atlantico. Atti del convegno Montoggio, 28 ottobre 1995*, dir. G. Pistarino, Gênes, 1997, p. 49-71.

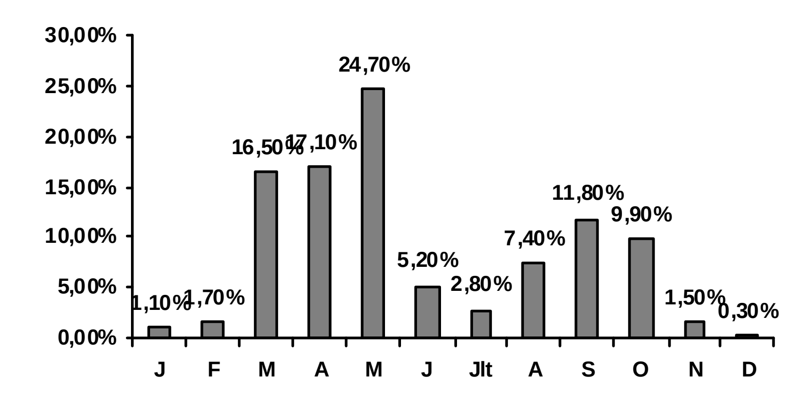
(369) ASP, *Diplomatico Roncioni*, 17/10/1278. M. Bensaci, « Familles et individualités pisanes en relation avec le Maghreb », *CT*, 113-114, p. 57-75.

حول عائلة لانفرانشي:

E. Cristiani, *Nobilità e popolo nel comune di Pisa*, Naples, 1962, p. 408-415.

القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر أن تعطي فكرة عن تواريخ ذهاب السفن باتجاه بجاية، وبالتالي فصول الملاحة المفضلة[370].

رسم بياني 1: التوزيع الشهري لذهاب السفن الجنوية نحو بجاية (منتصف القرن الثاني عشر- نهاية القرن الثالث عشر)



ينفصل فصلان بوضوح: الربيع – بين مارس وماي–، وبأقل حجم بداية الخريف، بمعنى سبتمبر وأكتوبر[371]. ويتفادى الملاحون الشتاء وبحره السيئ وأيضا

---

(370) لا تحمل الأرقام المحصّل عليها أي عدد من السفن الذاهبة من جنوة إلى بجاية. ومن النادر التلميح إلى السفن في هذه الوثائق لمباشرة أية دراسة مماثلة. لكن توزيع الطلبيات له دلالة جيدة. وتشير الحسابات إلى حوالي ألف طلبية.

(371) حول مواسم الملاحة، أنظر:

H. C. Krueger, « The Routine of Commerce between Genoa and Northwest Africa during the Late Twelfth Century », *The Mariner's mirror*, 19/4, 1933, p. 419-424.

نجد إيقاعا مشابهًا للذهاب نحو المشرق في نهاية القرن الرابع عشر: تترك السفن جنوبا في نهاية الشتاء (بداية من فيفري، بمعنى مبكرا قليلا مقارنة بالمغرب) وأوائل شهور الربيع، وتتباعد في جوان وجويلية لتعود في سبتمبر وبداية أكتوبر.

M. Balard, *La Romanie génoise (XIIe-début du XVe siècle)*, Rome-Gênes, 1978, p. 579-580.

الصيف ربما بسبب الحرارة الشديدة(372). في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تصل أغلب المراكب الجنوية إذن إلى بجاية بين نهاية مارس وبداية جوان، ثم من جديد في سبتمبر وأكتوبر(373). وأغلبها يغادر قبل قدوم الشتاء لتفادي البقاء تحت الحصار في بجاية، في حين أن بعضها تقضي الشتاء في المغرب. إنّ هذا التوقف في المبادلات في الشتاء لاحظته أيضا جاكلين جيرال (Jacqueline Guiral) بالنسبة لبلنسية في القرن الخامس عشر(374). خارج حركة السفن، يستمر النشاط التجاري في كل السنة بإيقاع أكثر بطئا، مع المقيمين الدائمين في الفنادق. من جهة أخرى، وجب نقل السلع الموجهة للتصدير إلى الميناء قبل عودة السفن نحو أوروبا. انعكست إذن إيقاعات الملاحة على التجارة الداخلية حسب الضوابط التي تبقى مجهولة(375).

إن الحياة التجارية للميناء ليست معروفة لنا إلا من خلال وثائق الأرشيف الأوروبية(376). وتعطي لنا المعاهدات- التي لا تضبط إلا واجبات السلطان

(372) L. Balletto, « Da Genova al Maghrib : 1222-1226 », *Archivio storico sardo di Sassari*, 8, 1982, p. 313.

(373) من الصعب حساب الزمن الضروري للوصول إلى بجاية، لأنه يتنوع حسب الأحجام الهامة لنوع المركب وظروف الملاحة (خصوصا الرياح)، وأيضا الرسو على طول الخط المائي. أنظر:

A. L. Udovitch, « Time, the Sea and Society: Duration of Commercial Voyages on the Southern Shores of the Mediterranean during the High Middle Ages », *La Navigazione mediterranea nell'alto Medioevo*, Spolète, 1978 (*Settimane di studio del centro italiano di studi sull'Alto Medioevo*, XXV), II, p. 513,

الذي سجّل انطلاقا من وثائق الجنيزة تنوعا من واحد إلى خمسة في مدة الرحلات.

(374) J. Guiral Hadziiossif, « Les relations commerciales du royaume de Valence avec la Berbérie au XVe siècle », *Mélanges de la Casa de Velázquez*, 10, 1974, p. 101.

(375) كان دائما ممكنا الحفاظ على السلع في المخازن قبل إرسالها عن طريق البحر بما أنها لم تكن قابلة للتلف لكن كان هذا التخزين محدودا.

(376) يمكن أن نجد إشارات لهذا النشاط في المصادر العربية بما أن بعض النوادر يمكنها أخذ مكانة في الأحياء القريبة من البحر، لكن لا يشار إلى البحر إلا نادرا، وأقل من ذلك النشاطات التجارية.

وموظفيه- صورة لمسيحيين محتبسين في فنادقهم، لا يتعاملون مع التجار البجائيين إلا بواسطة بعض الأشخاص المعتمدين من طرف الحكم. وفيما يخص العقود التجارية، فإنها تظهر خصوصا مبادلات بين المسيحيين على حساب المبادلات المنجزة مع المسلمين، وبالتالي تصعب رؤيتها. من الواضح أن سبب الحضور المسيحي في موانئ المغرب كان بالضبط هو هذا التبادل التجاري مع التجار المحليين. ولهذا فإن الاتصالات مع السكان المسلمين كانت أكثر مما تصوره لنا الوثائق المتوفرة.

إنّ وثائق الممارسة نادرا ما تظهر الشركاء التجاريين البجائيين، وفي غالب الأحيان هي العقود المبرمة في الموانئ الأوروبية بين التجار المسيحيين، وما حدث في بجاية هو غير معروف جيدا، رغم أن العلاقات التجارية كانت كثيرة، والحواجز لم تكن جلية كما اعتقدنا عموما[377]. أدى المحيط المسلم طبعا إلى بعض المضايقات الإضافية. لكن ولا واحدة كانت في الحقيقة دون حل بالنسبة لرجال معتادين على السفر خارج وطنهم.

1) الممارسات التجارية

كانت المبادلات بين المسيحيين نشطة، سواء من نفس الجماعة أم بين تجار الأمم المختلفة. ويبيّن أهميتها سجل الموثق الجنوي بتونس بيترو بتفوجليو (Pietro Battifoglio) [378]. أيضا، وتبيّن بعض الوصايا المنجزة في بجاية عدة

(377) اعتبر دافيد أبو العافية (David Abulafia) على سبيل المثال أن الشعور بانعدام الأمن في تونس كان قويا، بخلاف ما وجده المسيحيون في المستقرات المسيحية في الأرض المقدسة، ويتحدث عن "جيتو ghetto" حيث لا يخرجون مطلقا. Abulafia, « Gli Italiani fuori d'Italia », art. cité, p. 277، لكن ليس هناك ما يؤكد هذا الرأي.

(378) Pistarino, éd., *Notai genovesi… Battifoglio*, *op. cit*.

أنظر دراسة ج. جهال التي أنجزها انطلاقا من هذا السجل:

G. Jehel, « Catalans et Majorquins à Tunis en 1289 », *Cuadernos de historia económica de Catalunya*, 20, 1979, p. 125-130.

قروض أو مبيعات، راسمة شبكة محلية من الأعمال، مثل حالة شبكة البيزي لوبو بن جراردو روسو (Lupo fils de Gherardo Rosso) في 1278[379]، الذي ترك عددا أكبر من الديون غير المسددة من البيزيين أو الجنويين، بمبالغ هامة أحيانا، معبرا عنها بالعملة الحفصية: 283 دينار ذهبي مزدوج من فرانشيسكو كرادي (Francisco Curradi)، 100 للجنوي ألبرتو دو فالونسا (Alberto de Valensa)، 25 بوزون جديد لجديتو دو فونداشيتو (Guidotto de Fondachetto)، إلخ. في الأعمال، تضيع التكتلات الوطنية قوتها ونجد بسهولة بيزيين على علاقة بالجنويين، على غرار الحالة السابقة، أو جنويين على علاقات تجارية مع الميورقيين[380] أو الصقليين[381].

بهذا القدر من معرفتنا لها، إنّ أنواع العقود المبرمة بين المسيحيين في بجاية هي نفسها التي نجدها في الموانئ الرئيسية للضفة الشمالية للبحر المتوسط: الطلبيات[382] وعمليات التبادل، ودون شك الشركات وعقود الكراء البحري[383] وطبعا عمليات البيع[384].

(379) ASP, *Diplomatico Roncioni*, 17/10/1278. Voir Bensaci, « Familles et individualités pisanes », art. cité, p. 60-62.

(380) ARM, *Reales cedulas*, vol. 1, f. 8 (1302), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, doc. n° 515.

(381) في 1287، ذهب جوالتيريو دو بنيتو (Gualterio de Bonito) مواطن من مسينيا، له ولـ برتلومو أمبرتوري (Bartolomeo Imperatore)، مواطن من بلرم، إلى بجاية لاسترجاع 2250 دينار مزدوج ذهبي من الجنوي فرانشيسكو سكوارسفيكو (Francesco Squarciafico). إذا ما توصل إليها، يمكنه استثمار نصف المبلغ في طلبية لجنوة حيث يشتري سلعًا لينقلها إلى بلرم.

P. Burgarella, éd., *Le imbreviature del notaio Adamo de Citella a Palermo*, Rome, 1981, n° 266, p. 162-163.

(382) على سبيل المثال في 1262 ببجاية، عهد جيونينو دو برودونو (Gianuino de Predono) إلى فيفالدو دو أندريا (Vivaldo de Andrea) طلبية مستثمرة في الجلود وأنسجة النحل.

ASG, not. ign., *busta* 8, fr. 95, f. 24v (21/5/1262).

(383) تخطر عقود الكراء البحري المبرمة في الذهاب من ميناء مسيحي في الغالب أن قسما من الثمن سيدفع بعد وصول المركب إلى وجهته. في 1347، سجّل الموثق الجنوي ببجاية شهادة يعترف بمقتضاها=

وأكثر أهمية هي ضوابط المبادلات مع التجار المحليين. مبدئيا، لا توجد قاعدة خاصة تعيق العلاقات التجارية. فقد حدد الموحدون مدة إقامة التجار الأجانب في بعض الموانئ الهامة (سبتة، وهران، وبجاية وتونس) [385]. لكن معاهدات السلم أعطت بسرعة حرية الاتجار مع كل المجال. فالتجار مجبرون على التفريغ في موانئ تتوفر على ديوان لتسديد الرسوم، وعندما تدفع هذه الأخيرة، يمكنهم الذهاب إلى الوجهة التي يتمنونها عن طريق البر أو البحر[386]. طلبت معاهدة 1309 بين لاكورونيا أراجونة وبجاية ببساطة التجار إبلاغ أعوان السلطان رغبتهم في سلكهم طريق البر[387]، ويوضح مشروع 1323 إذا لم يطبقوا رغبة السلطان، فإن هذا الأخير لن يكون مسؤولا عن الأضرار التي قد يتعرضون لها خلال رحلتهم[388]. لكن في الواقع، ليس من المؤكد استفادة التجار المسيحيين من هذا الحق: عمليا كانت قسنطينة المدينة الوحيدة الداخلية التي نجد بها أثرهم[389]في

=برنات ديبوينج (Bernat Despuig)، ميورقي صاح *cocha baionescha* ، أنه استلم من التاجر الميورقي برينجر جورديولو (Berenguer Gordiolo) 34 دينار مزدوج ذهبي لتسديد كراء رحلة الذهاب. (ASG, min. 275/II, f. 48r (29/11/1347. نجد عقود الكراء البحري في سجل بييترو باتفوجليو (Pietro Battifoglio). على سبيل المثال:

Pistarino, éd., *Notai genovesi… Battifoglio, op. cit.*, n° 91 (13/5/1289).

(384) تعفى المعاهدات من الرسوم استيراد المواد التي بيعت بين المسيحيين. أنظر: معاهدة بيزا – الموحدون 1186.

(385) معاهدة بيزا – الموحدون، 1186

(386) معاهدة بيزا – تونس، 1236، المادة 6: يمكن لهم نقل سلعهم في كل مكان (*in terris nostris*) إذا ما سددوا الحقوق. وتوضح معاهدة 1314 بين لاكورونيا أراجونة وبجاية (المادة 2، 3) أنه بمجرد تسلم التاجر البراءة (*albara*) من الديوان يمكن الذهاب بهذه الوثيقة عن طريق البحر أو البر – دون شك– في كل أرض السلطان، دون تسديد حقوق أخرى.

(387) معاهدة لاكورونيا أراجونة – بجاية، 1309، المادة 2.

(388) مشروع معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1323، المادة 1.

(389) Gioffrè, éd., *Lettere di Giovanni da Pontremoli, op. cit.* (plusieurs lettres envoyées de Constantine) ; D. Valérian, « Les affaires de Giovanni da Pontremoli au Maghreb après la chute de Constantinople », colloque « La=

مكان آخر، لم يستفد التاجر أكثر من بنى التأطير هذه التي سهلت حياته وأعماله في الموانئ الكبيرة ودخل في نمط أكثر "أجنبي" غريب عن بجاية. حاول بعض المسيحيين المغامرين التجربة، لكن بقيت هذه الحالات استثنائية[390]، لأنّ التجارة الخارجية بقيت مؤمنة من طرف التجار المسلمين أو اليهود. علاوة على ذلك، استطاع الأجنبي التنقل في المناطق المحيطة بالمدينة. نعرف أنّ البيزي لوبو روسو امتلك حصانا وأسلحة، وهذا ما سمح له دون شك بالذهاب إلى الأرياف القريبة، ولكن ليس أبعد من ذلك إلا نادرا[391].

بالنسبة للبقية، كانت التجارة حرة وتنص المعاهدة البيزية لعام 1264 أيضا على عدم إمكانية منع تاجر هذه الأمة من شراء ما يريد[392]. لكن الأعمال طرحت بعض المشاكل الخاصة بالتجارة في البلاد الإسلامية.

كانت اللغة هي العائق الأول. ولا نعرف درجة تعريب سكان بلاد القبائل في هذه الفترة، لكن يمكن الاعتقاد تعبير قسم على الأقل من السكان الحضر

=conquête de Constantinople : l'événement, sa portée et ses échos (1453-2003) », Tunis, 2008, p. 171-188.

في 1316، بدواع أعمال انتقامية، سجن حاجب بجاية ابن غمر التجار الكتالانيين في بجاية وجيجل والقل وقسنطينة.

ACA, CRD, Jaime II, *caja* 59, n° 10769 (22/2/1316), éd. Masia de Ros, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, n° 146, p. 434-436.

(390) نعرف تاريخ الجنوي أنتونيو مالفانت (Antonio Malfante) الذي دفع برحلته حتى توات. لكن مغامرته تأخذ مكانة الاستكشاف مقارنة بالحملة التجارية.

Ch. de La Roncière, *Découverte d'une relation de voyage datée du Touat et décrivant en 1447 le bassin du Niger*, Paris, 1919.

(391) ASP, *Diplomatico Roncioni*, 17/10/1278.

ليس ممنوعا التخيل أنه استطاع بهذه الكيفية ملاقاة الممونين أو الزبائن، لكن لا شيئ يسمح بالبرهنة عليه.

(392) معاهدة بيزا – تونس، 1264، المادة 33.

والتجار بالعربية[393]. لقد عرف التجار البجائيين –الذين رحل بعضهم إلى جهات أخرى من العالم العربي (خصوصا في المشرق)- بالضرورة هذه اللغة. واستطاع طبعا المسيحيون القادمون إلى بجاية المرور عن طريق وسيط ترجمان أو أشخاص آخرين يعرفون اللغات[394]. لكن التجار الذين أقاموا لمدة طويلة في المدينة أو امتهنوا التجارة فيها بصفة منتظمة مع البلدان العربية انتهى بهم المطاف بتعلم على الأقل بعض المبادئ. ومثال ذلك البيزي فيبوناتشي (Fibonacci): قدم مراهقا مع أبيه إلى بجاية، فتابع فيها تعليما رياضيا، وهذا ما يفترض إتقان متسع للغة[395]. أيضا، في عقد أنجزه في تونس الموثق البندقي فرانشيسكو دو بليتو (Francesco de Belleto) تدخل ثلاثة شهود مسيحيين "كلهم يعرفون اللغة العربية"[396]. ولأعمالهم، لم يكن التجار على كل حال بحاجة إلى معرفة لغوية كبيرة. إن الكلمات المستعملة في التجارة (المواد، الأوزان والمكاييل، العملة، الألقاب والوظائف) والملاحة كانت من جهة أخرى غالبا مشتركة، والاستعارات كانت كثيرة في هذا الاتجاه كما في الاتجاه الآخر[397]. إن كتب ممارسة التجارة

(393) المعلومات هزيلة حول اللغات التي تتحدث في الجهة. يروي عبد الباسط أن سفينته بلغت الشاطئ قرب بجاية في 871/ 1466، مما أدى إلى هروب الناس الذين اعتقدوا أنهم قراصنة. بحث رجلنا على إظهار خطئهم، لكنه لم يستطع الاتصال بهم، لأنهم لم يفهموا العربية. عبد الباسط، المصدر السابق، ص 83. ويشير مارمول (Marmol) أيضا إلى أهمية "اللغة الإفريقية" التي عرفها.

L'Afrique de Marmol, trad. N. Perrot d'Ablancourt, Paris, 1667, I, p. 92.

(394) استطاع الأسرى القدماء تعلم لغة بلاد آسريهم. وهذا ينسحب على المسيحيين كما على المسلمين. وعرف أيضا اليهود أحيانا اللغات اللاتينية والعربية وعملوا غالبا مترجمين. أخيرا، كان المعتنقون، مثل أنسالم ترمدا (Anselme Turmeda) مزدوجي اللغة..

(395) Fibonacci, *Liber abbaci*, *op. cit.*, p. 1.

(396) ASV, *Cancelleria Inferiore*, *busta* 27, notaire Francesco de Belleto, 2e livre (1465-92), f. 11v-12r (26/11/1470).

(397) أنظر على سبيل المثال:

Pellegrini, « Contatti linguistici », art. cité ; Id., « Contributo allo studio dell'influsso arabo in Liguria », *Miscellanea di storia ligure*, II, Milan, 1961, p. 15-95 ; M. T. Mansouri, « Les milieux marchands européens et la langue arabe au Maghreb médiéval », *Trames de langues. Usages et métissages*=

التي يستخدمها التجار اقترحت معجما موجزا (*Pratiche di Mercatura*) بمختلف اللغات المستخدمة[398]. ولا يبدو في المقابل أن الشباب الذين توجهوا إلى التجارة مع البلدان العربية قد استفادوا في مدينتهم الأصلية من تعلم اللغة. لقد أسست المدارس في القرن الثالث عشر لرجال الدين من أجل مهمة التبشير في البلاد الإسلامية[399]، لكن لا يبدو أن التجار حينها كانوا يدخلونها. إن تعلم اللغة وجب إذن أن يكون بالأساس في المكان المتجه نحوه.

بالنسبة للوثائق التجارية، لا اللغة ولا طبيعة العقود، شكلا عائقا في هذه الممارسة[400]. كان هناك المترجمون ودون شك المترجمون أنفسهم وربما بعض الموثقين اللاتين كانوا قادرين على قراءة العربية. ونعرف أن موثقا جنويا في منتصف القرن الثالث عشر امتلك "كتاب رسائل عربية ولاتينية"[401]، الذي ربما يكون معجم مزدوج اللغة[402]. إنّ العقود التي حررت بالعربية (أمام الموثقين

=*linguistiques dans l'histoire du Maghreb*, dir. J. Dakhlia, Paris, 2004, p. 289-290.

(398) على سبيل المثال: Pegolotti, p. 15, 18

(399) A. Berthier, « Les écoles de langues orientales fondées au XIIIe siècle par les Dominicains en Espagne et en Afrique », *RA*, 73, 1932, p. 84-103.

(400) Shelomo D. Goitein parle, pour l'époque de la Geniza, de « customary law » développée par les marchands de diverses confessions et qui facilitait les échanges. S. D. Goitein, « The Mediterranean Mind in the High Middle Ages (950-1250) as Reflected in the Cairo Geniza Documents », *Amalfi nel Medioevo : convegno internazionale, 14-16 giugno 1973*, Salerne, 1977, p. 182.

(401) *Liber unus de littera sarracenica et latina*.

(402) ASG, not. ign., *busta* II, fr. 4, cité par S. Mangiante, « Una biblioteca notarile dugentesca », *Miscellanea di storia ligure in memoria di Giorgio Falco*, Gênes, 1966, p. 124.

يشار إلى هذا الموثق – رجيرو البلرمي (Ruggiero de Palermo)– في جنوة بداية من 1224 وتوفي بها يوم 11 أو 14 جوان 1256. إن هذا الكتاب الذي تركه في وصيته ربما جاء من صقلية. لكن استطاع خدمته أيضا في النشاط المهني لرجيرو. وتعتقد ستفانيا مانجيانت(Stefania Mangiante) أنه كان وسيلة استخدمها أساتذة المدارس للتجار المقبلين، لكن لا وثيقة أخرى تدل على هذه الفرضية.

المسلمين) كانت مهما يكن مقبولة الفعل لدى الموثقين اللاتين، رغم أن الكنيسة كانت رافضة لهذا النوع من العقود[403]. عكسيا، أجبرت معاهدة 1343 مع جنوة الديوان الحفصي على إرضاء كل وكيل جاء لاسترجاع الممتلكات، دون الأخذ بعين الاعتبار الحجة أن الوثيقة كانت باللاتينية[404].

نعرف أنّ المعاملات مع البجائيين كانت موضوع عقود مكتوبة. أجل، لم يحتفظ سجل بيترو بتفوجليو (Pietro Battifoglio)- المنجز بتونس- بعقد يشرك تجار مسلمين[405]. لكن لا يجب الاستنتاج بهذا القدر أن الموثقين المسيحيين لم يسجلوا أي معاملات، وهذا ما لم يكن مستحيلا عمليا. في 1177 على سبيل المثال، عهد البندقي رومانو مايرانو (Romano Mairano) بمركبه إلى جيوفاني دا بونتي (Giovanni da Ponte) حتى يذهب لبيعها بسبتة أو ببجاية. بمنتوج هذا البيع، يسدد ديون رومانو -كما تشهد عليها مجموع الوثائق- الذي نجم عن عقد مع المدعو محمد (Messemate)، الذي لا نعرف إن كان من سبتة أو من بجاية[406]. أيضا، تنص معاهدة 1314 بين لاكورونيا أراجونة وبجاية على وجوب إلزام الديوان التجار بتسديد الديون الناتجة عن الكتالانيين والمشهود عليها في وثيقة أو من الشهود[407]. ونجد في مكان آخر عقودا في وثائق تتعلق بمدن مسلمة أخرى أكثر أهمية. ففي 1448 في الأسكندرية، أبرم الموثق سرفوديو بتشادور (Servodio Peccador) عقدا حيث عيّن مسلم بلنسي غالب ربول (Galip

(403) G. Airaldi, « I Genovesi nel mondo islamico, carta sarracenica e carta in arabico », *Critica storica*, 1972, p. 117.

(404) معاهدة جنوة – تونس، 1343، المادة 30.

(405) تظهر شهادات موثقة في هذا السجل نزاعات مرتبطة بالأعمال المبرمة مع مسلمين، ونرى تدخل أعوان الحكم، خصوصا المشرف.

Pistarino, éd., *Notai genovesi… Battifoglio, op. cit.*, n° 97 (3/5/1289)

(406) Éd. R. Morozzo della Rocca, *Documenti del commercio veneziano nei sec. XI-XIII*, I, Turin, 1940, n° 297, p. 292-293 (quittance de février 1179).

(407) معاهدة لاكورونيا أراجونة – بجاية، 1314، المادة 10. « Ab carta o ab albara o ab testimonis »

(Ripol) ابراهيم البرنسي (Habraim el-Berentessi) – تاجر مسلم- وكيلا لبيع الفلفل باسمه في رادس (Rhodes). ولتأصيل العقد، دعا الموثق خصوصا شاهدين مسلمين، الشريف مراس (Serif Meres) وعلي قربي (Ali Cerbi)[408]، مضيفا على الهامش *Duobus testibus aliis mauris infrascriptis, convocatis specialiter et rogatis*[409]. كذلك في تونس في 1472، أمضى أحمد بن غوت (Hameth Bengoth)، وهو مسلم من هذه المدينة، عقدا بحضور شهود مسلمين (*magistro domino Cayto Mahametho)*[410].

إنّ الوثائق بالعربية نادرا ما تكون محفوظة، خصوصا عندما يتعلق الأمربعقود الممارسة التجارية. لكن الموثقين المسلمين (العدول) استطاعوا تسجيل المعاملات مع التجار المسيحيين. ففي 1277، تم بيع قسم من مركب في تونس بين بيزي وتونسي أمام قاضي الخليفة في مجلس الحكمة، بحضور خمسة شهود مسلمين[411]. أيضا، في 1435، وافق موثق بندقي بالأسكندرية على محتوى عقد حرر بالعربية ثلاث سنوات قبل ذلك، بين تاجر مسلم من الأسكندرية

(408) F. Rossi, éd., *Servodio Peccator, notaio in Venezia e Alessandria d'Egitto (1444-1449)*, Venise, 1983, n° 23, p. 46-47 (14/10/1448).
تبين عقود أخرى حضور تجار مسلمين مصريين ولاتين، على سبيل المثال: *ibid.*, n° 19, p. 38-40 (5/10/1448)

(409) إنّ القاعدة بالنسبة للشهادات الموثقة أمام موثق مسلم توجب في الواقع تمام العقد أمام شاهدي عدل. أنظر:

J. Schacht, *Introduction au droit musulman*, trad. fr. Paris, 1983, rééd. anast. 1999, p. 160.

(410) ASV, *Cancelleria Inferiore*, *busta* 27, notaire Francesco de Belleto, 2e livre (1465-92), f. 16v (9/6/1472).

(411) Éd. M. Alarcón y Santón, R. García de Linares, *Los documentos árabes diplomáticos del Archivo de la Corona de Aragón*, Madrid-Grenade, 1940, n° 115, p. 245-246 (seconde décade de *rabī*' II 676 / 11-21/9/1277).

والجنويين[412]. وتوجد هذه الممارسة أيضا في بجاية، مثلما يوضحه حادث جرى حوالي 1475 عندما كان الجنوي إربانو دو درنيزيو (Urbano de Dernisio) – الذي يمتلك سكنا ومحلات في بجاية[413]– ضحية على مرتين للسرقة من برشلونيين. فقد اختلس هذان الأخيران، فضلا عن السلع– كتب محاسبة ومختلف العقود والسجلات بالعربية واللاتنية (*diversas alias scripturas, tam in arabico quam in latino scriptas)*، من بينها وثيقتين بالعربية تشهدان على ديون هاذين الكاتالونيين. وفي شكواه التي قدمت في جنوة، صرّح الضحية أن المجرمين أحرقا الوثائق لمحو آثار ديونهما وأضاف أن ما فعلوه هو على دراية من أن الموثقين المسلمين لا يحتفظون بالوثائق التي ينجزونها[414]. إنّ هذه الشهادة تعتبر هامة على أكثر من صعيد، فهي توضح لنا أولا أن التجار الأوروبيين لجئوا إلى الموثقين المسلمين، حتى في القضايا بين جنوي وبرشلونيين، بمعنى بين مسيحيين[415]. وأعطى هؤلاء الموثقون إذن للطرفين المعنيين الوثائق التي تشهد على العملية التجارية، لكنهم لم يحتفظوا لأنفسهم بالتوثيق، كما هو معمول به في نفس الفترة في العالم المسيحي. ولكن هذه المعلومة هي مفاجئة بما أن للكتابة مكانة هامة في المجتمع المسلم[416] وتظهر لنا الوثيقة البندقية لعام 1435 المشار إليها في الأعلى حفظ كل العقود المكتوبة. لا يشير تاجرنا إلى إمكانية اللجوء إلى شهود

(412) ASV, *Cancelleria Inferiore*, *busta* 211, Nicolo Turiano, 5e cahier, instrumenté à Alexandrie (1434-1436), f. 36v (8/2/1435).

(413) كان ببجاية على الأقل منذ 1473، لكن ليس من الواضح إذا كان مستقرا في فندق الجنويين. ASG, Notai antichi, *filza* 701, Paolo Recco, 11/11/1473.

(414) *Notarii barbari non tenent autenticum instrumentorum per eos compositorum*. ASG, Notai antichi, *filza* 871, Emanuele Granello, n° 274, 296 (documents de 1479), cité par Balletto, « Famiglie genovesi », art. cité, p. 59.

(415) هل يجب الاعتقاد أنه لم يكن في هذا التاريخ موثق مسيحي في المدينة؟ لا نستطيع إقصاءه، لكن من الممكن نوعا ما في الفترة التي أصبحت فيها المبادلات مع الموانئ الأوروبية هامة.

(416) Cl. Cahen, « À propos des *shuhūd* », *Studia Islamica*, 31, 1970, [p. 71-79], rééd. *Les peuples musulmans dans l’histoire médiévale*, Damas, 1977, p. 162.

العدل، الذين هم مبدئيا محل ثقة في حالة الاحتجاج، لكن حقا أن القضية نقلت إلى جنوة حيث كان استدعاء الأشخاص صعب التحقيق. وأخيرا، يخبرنا هذا الحادث أن إربانو دو درنيزيو يمسك بكتب الحسابات، مكتوبة في قسم منها بالعربية، وهذا ما يؤكد على أن بعض التجار استعملوا هذه اللغة[417].

وتظهر وثائق أخرى أهمية علاقات التجارة بين التجار المسيحيين والمسلمين. ففي وصيته لعام 1278، وضع البيزي لوبو روسو (Lupo Rosso) قائمة باستدانته وديونه، مظهرا متعامليه المسلمين. فهو يدين بأموال للمساسدري (Musaçidri) ، وخصوصا أن مبلغ مهم (327 ونصف دينار ذهبي مزدوج) للمشرف فيصل البجائي (Muscerifo Faceli) . هذا الأخير – الذي هو ربما مفتش أو مشرف على الديوان، مدانا له من جهة أخرى بـ 31 دينار مزدوج ثمن الجوخ والحرير. فضلا عن ذلك، فإن لوبو روسو استلف خمس مزدوج ونصف (دينار ذهبي) من أسمتو بونميسيو (Asmetto Bonmoseo) وخمس دنانير مزدوجة من أبديليا بليجرينو (Abidella Pellegrino)،[418] وثلاثة دنانير مزدوجة وثلاثة عشر ميلاريس (من سايتو (Saietto) (خادم فسيلي Faceli)، الذي يدين له أيضا بزوجين ثمن الجوخ. كما استدان له أيضا ماميتو دو سوتشو لادو (Maometto de Succo Laddo) وميمون بن أيوني دو تيشولوتي (من تيشي؟) (Maimone fils de Aioni de Tichilotti) على التوالي

(417) أي كتاب مماثل للحساب تم الحفاظ عليه في بلنسية، يحتوي على كتابات في قسم منها بالعربية.
ARV, Varia 1068, Livre de comptes de Marti Bosa (1414). Ch. Verlinden, « Le registre du marchand brugeois Martin van der Beurse aux archives de Valence (1414-1427) », *Les Espagnes médiévales. Mélanges offerts à Jean Gautier-Dalché. Annales de la Faculté des sciences humaines de Nice*, 46, Nice, 1983, p. 153-158.

(418) إنّ النسخ اللاتيني لاسم هذه الشخصية يؤلف دون شك بين كتابة الاسم (عبد الله) وترجمة الاسم (بليجريمو Pellegrino لـ الحج).

عشرة وخمسة دنانير مزدوجة. وأخيرا عدة جنود مرافقين سلّفوا له الأموال[419]. من الواضح أن هذا التاجر اعتنى بعلاقات تجارية هامة مع مسلمي المدينة، ضمت بيعا بالقرض والإدانة والاستيدان[420]. تؤكد العقود التي أنجزها الموثق يانوتو برجنيانو (Ianoto Berignano) ببجاية في 1347 على هذه الروابط، حيث وضع قائمة طويلة لأسماء المسلمين المدينين للتجار الجنويين[421].

تبيّن هذه الوثائق خصوصا الديون الناجمة عن القروض أو البيع بالقرض، ونشأت أيضا شركات حقيقية. لم تكن التقنيات التجارية مختلفة أساسا من حيز ثقافي إلى آخر، على الأقل الأكثر بساطة منها[422]، والتاجر المتعود على عقود القراض لم تعترضه صعوبات في طلبية وعكس ذلك[423]. رغم منع بعض الفقهاء

(419) أسماؤهم كما كتبها الموثقون لا تشبه شيئا معروفا: Inseba, Cambrytio, Moreccone. ربما يتعلق الأمر بمرتزقة مسيحيين. وهذا رأي بن ساسي: Bensaci, « Familles et individualités pisanes », art. cité, p. 62. في هذه الفرضية، يجب ترجمة عبارة *milites rabacto* بـ"جنود الربض"، وهذا ما يشير إلى أن المليشيات المستقرة في ربض بجاية، دون شك قرب دار الصناعة. نعرف إيواء المليشيات المسيحية في تونس بالربض الواقع قرب القصبة. أنظر: *Itinéraire d'Anselme Adorno, op. cit.*, p. 106-109.

(420) *ASP, Diplomatico Roncioni*, 17/10/1278.

(421) ASG, min. 275/II, f. 50r-v (3/12/1347).

(422) Ch.-E. Dufourcq, « Le commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe chrétienne et marine musulmane : données connues et problèmes en suspens », *Cahiers du CERES, Série histoire*, 1. *Actes du Congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb, Tunis, 1974*, Tunis, 1979, p. 181.

(423) H.-R. Idris, « Commerce maritime et khirād en Berbérie orientale d'après un recueil inédit de fatwās médiévales », *JESHO*, 1961, p. 225-239 ; A. L. Udovitch, « At the origins of the Western *Commenda* : Islam, Israel, Byzantium ? », *Speculum*, 37, 1962, p. 198-207 ; J. H. Pryor, « The Origin of the Commenda Contract », *Speculum*, 52, 1977, p. 5-37.

أن يعهد بقراض إلى ذمّي فإن القاعدة صالحة للمسيحيين الأجانب[424]، بفعل غياب أثر لأي شركات. في المقابل، نعلم أن المسيحيين والمسلمين استطاعوا أن يمتلكوا سوية سفنًا كما توضحه شركة في 676/ 1277 بين التونسي شمس الدين البحراني وبيزي لامتلاك مركب[425]. لكن حجم هذه الشركات يبقى غير معروف ومن المحتمل أنها كانت سارية، وربما تركت أكثر أثرا في الوثائق الأوروبية من خلال النزاعات الناجمة عنها. لكن إذا تواجد هذا النوع من التعاون، فإن المعاملات البعيدة الأكثر سريانا هي عمليات بيع المنتجات.

إن ضوابط هذه البيوع ليست معروفة إلا جزئيا، لأن المعاهدات ثبتت ببساطة الضمانات التي يمنحها الحكم الحفصي للتجار المسيحيين. وكانت هذه الضمانات قصوى إذا جرى التبادل في إطار الديوان أو تحت رقابة ترجمانه. لقد كانت الوسيلة الأكثر ضمانا لأعوان السلطان لمراقبة العمليات التجارية ووضع الرسوم عليها. نصّت معاهدة 1250 بين جنوة وتونس على ضمان الترجمان وبحضور شهود الديوان للبيوع الجارية في الديوان خلال المزاد العلني أم لا[426].

---

(424) فتوى الرماح (ت 749/ 1348)، التي أشار إليها إدريس: Idris, « Commerce maritime », art. cité, p. 233. حول مسألة إمكانية الشراكة مع تاجر من خارج دار الإسلام في الفقه المالكي، أنظر:

A. L. Udovitch, *Partnership and Profit in Medieval Islam*, Princeton, 1970, p. 229.

من حيث المبدأ، أي شركة هي ممكنة، لكن كل المعاملات والأنشطة التجارية التي ترتبط بها يجب أن تجري في دار الإسلام، وهذا ما يمنع كل عقد تجاري دولي. لكن أبراهام يودوفيتش لفت النظر أيضا إلى أهمية العادة والوسائل القانونية في الاحتيال على بعض الضوابط القسرية.

(425) Éd. Alarcón y Santón, García de Linares, *op. cit.*, n° 115, p. 245-246 (seconde décade de *rabīʿ* II 676 / 11-21/9/1277).

(426) معاهدة جنوة – تونس، 1250، المادة 6. في المقابل، لا يشير نص اتفاق 1272 إلى بيع نافذ خارج الديوان (المادة 15).

وهذه المعاملات المالية تكتب، سواء في عقد بشهود، أم بتسجيلها في سجلات الديوان[427].

تعدى دور الديوان إذن إطار فرض الرسوم لأنه تدخل أيضا في المبادلات التجارية التي حدثت في المدينة وبحث على الرقابة، وذلك بإرسال أعوانه على الخصوص إلى مختلف الأسواق. وأخيرا، يمكن لرئيسه القيام بوظيفة قاضي التجارة للقضايا التي لم يسوّها القناصل، خصوصا في حالة ما إذا كان المتهم مسلما[428].

لكن قضايا عديدة تسوى خارج مكاتب الديوان. لا نعرف إذا ما استقبلت الفنادق محاورات، لكن فليكس فابري (Félix Fabri) يروي قدوم عرب أقوياء إلى فندق البنادقة في الإسكندرية لعقد الأسواق[429] وفي تونس أجريت العمليات في هذه المقرات[430]. وبقيت أماكن التجارة بامتياز في السوق والفنادق. في 1263 تتحدث وثيقة جنوية عن 202 بوزون و6 ملاريس تحصّل عليها تاجر من مسلم بجائي في السوق[431]. إنه أحد الأماكن التي تردد عليها الأوروبيون، كما يوحي به الفلونسي بيجولوتي (Pegolotti) في القرن الرابع عشر، معطيا قائمة بأسماء أماكن بيع السلع بمختلف اللغات، وشارحا معنى كلمة *(sugo)* العربية بالسوق، وفي عدة بلدان بفندق[432]. دون شك، سوق باب البحر ببجاية هو السوق الذي

(427) اتفاقية بين لشيتو بجنولي (Lucheto Pignoli) – سفير جمهورية جنوة- والمفوضين المعيّنين من ملك تونس للاستجابة لشكاوى مختلف التجار الجنويين الذين يقومون بالتجارة مع تونس. (9/6/1287), éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 448.

(428) معاهدة جنوة – تونس، 1236، المادة 15: إذا تعرض جنوي لشتم، يمكنه التقدم إلى الديوان لطلب الانصاف. أنظر:

Valérian, « Conflits et résolution des conflits », art. cité, p. 555-556.

(429) Fabri, *Le Voyage en Égypte*, *op. cit.*, p. 694.

(430) ASV, *Cancelleria Inferiore*, *busta* 27, notaire Francesco de Belleto, 2e livre (1465-92), f. 11v-12r (26/11/1470).

(431) ASG, min. 30/II, f. 2v (4/1/1263).

(432) Pegolotti, p. 17.

تردد عليه التجار الأوروبيون بكثرة، لكن يمكن لأسواق أخرى متخصصة أن تكون موضوع زيارة، مثل سوق الصوف، بما أنه هنا هو أحد المنتجات الهامة للتجارة البحرية. وتوضح معاهدة 1343 بين جنوة وتونس أن وجوب شراء الجنويين من العرب والبربر، الصوف والفراء والجلود وسلعا أخرى في الفنادق التي تباع فيها هذه الصوف والجلود، وينقلون هذه الممتلكات إلى محلاتهم الخاصة كما في العادة(433).

يتم البيع عموما بالمزاد(434) وترخص المعاهدات للتجار المسيحيين اللجوء إلى الحلقة(435). ففي وصيته المحررة في 1276، طلب البيزي جيدو بوتشا (Guido Bocca) من منفذ وصيته بيع ممتلكاته بالمزاد، حسب عادة مسيحيي بجاية(436). سنوات قبل ذلك وفي نفس الظروف، بيعت ممتلكات الجنوي بونانينو فيراريو (Bonanaino Ferrario) الذي توفي آنذاك، في المزاد العلني (437)(*in publica calega*).

من أجل هذا، لجأ التجار إلى خدمات الوسطاء والتراجمة خارج الديوان، حيث يقومون بوظيفة دلاّل محلّف لدى التجار المسيحيين. في الرسالة التي وجهها إلى النبيل البيزي لامبارتو دل فرناتشو(Lamberto del Vernaccio) في

---

(433) معاهدة جنوة – تونس، 1343، المادة 31. تم أخذ هذا البند نصا في معاهدة 1403 بين لاكورونيا أراجونة وتونس.

(434) الكلمة العربية هي حلقة ومن هنا جاءت *calega* وأنواعها التي نجدها في الوثائق الإيطالية التي تستعمل أحيانا عبارة *incanto* في نفس المعنى. أنظر: Pellegrini, « Contatti linguistici », art. cité, p. 314

(435) معاهدة بيزا – تونس، 1264، المادة 13: يمكنهم الحق في المزاد، كما هو جار.

(436) ASP, *Diplomatico, Monastero degli Olivetani di Pisa*, 21/8/1276.

(437) ASG, min. 83, f. 158v (2/8/1269).

أرسل أب بونانينو (Bonanaino) –فيراريو دي سانت أمبروجيو (Giovanni Ferrario di Sant'Ambrogio)– وكيلين لاسترجاع 41 بوزون ناجمة عن هذا البيع. من حيث المبدأ، يجب على القنصل الاحتفاظ بالتركات في انتظار إرجاع الممتلكات إلى الورثة.

1207، طلب أحمد بن تميم تعيين ترجمان في الديوان ودلاّل في الحلقة[438]. ووجب على لامبارتو الضغط على الأنزياني البيزيين (les *Anziani* de Pise) الكتابة إلى " القائد أبي سداد موفق بن عبد الله لتعيين أحمد ترجمانا ودلاّلا في الحلقة لخدمة البيزيين. وهذا تطابقا للعادة والامتيازات الممنوحة للبيزيين، ومن المنتظر عدم تعيين ترجمان أو دلاّل دون اعتمادهم (...) البنادقة (...) يقومون بنفس الشيء في مدينة بجاية[439]". إن العادة المشار إليها هنا هي إذن وجوب تعيين الترجمانات من صاحب الديوان باقتراح من تجار كل أمة مسيحية[440]. هؤلاء الرجال لهم كفاءات لسانية، ولكن يعرفون أيضا قواعد الأسواق، وهذا ما يجعلهم أشخاصا يصعب الاحتيال عليهم. لكن كانت لهم وضعية صعبة بما أنهم ملزمون بوضع علاقة ثقة مع التجار الأجانب، مع بقائهم أعوانا للحكم الحفصي.

كان الوسطاء والتراجمة شخصيات محورية، ضروريين وشكلوا مجموعة هامة ومعترف بها. في وصية محررة في بجاية في 1278، تبرع التاجر البيزي لوبو روسو (Lupo Rosso) إلى "جامعة الترجمان وللتراجمة أنفسهم"، وهذا ما يظهر تنظيما نفتقد إلى معرفة تفاصيله[441]. هذه التركة، التي هي الفعل الوحيد لصالح أشخاص ليسوا مسيحيين، تشير إلى التقارب الكبير الذي يمكن أن يوجد بين التجار الأوروبيين وهؤلاء الرجال الذين يضعونهم على اتصال ببقية السكان المسلمين. لا نجد أثرا في الوثائق لاحتيال كبير من المترجمين[442]، لكن العناية التي

(438) Éd. Amari, *Diplomi*, *op. cit.*, partie arabe, n° 25, p. 75-77 (dernière décade de *rabīʿ* II 604 / 13-22 novembre 1207).

(439) *Ibid.*

(440) Mansouri, « Vie portuaire à Tunis », art. cité, p. 150.

(441) *Universitati turcimanorum et ipsis turcimanis*. ASP, *Diplomatico Roncioni*, 17/10/1278.

(442) مثل الحالة في مصرحيث الزائر فليكس فابري تتابع في خيبات أمل مع وسطاء موسوسين قليلا وراغبين قبل كل شيء في أخذ أكبر قدر من النقود. Fabri, *Le Voyage en Égypte*, *op. cit.*, p. 579-580. كان الإغواء كبيرا لخيانة ثقة زائر عابر سبيل أكبر من إغواء تاجر قابل للرجوع أو للعمل على نشر سمعة سيئة.

وضعها محررا المعاهدات على ضمان التجار ضد تجاوزات هؤلاء الوسطاء تظهر أن البعض قد بحث في كيفية الاستفادة من موقعه. فمعاهدة 1234 بين بيزا وتونس تنص على استطاعة التجار الاتجار دون تعرضهم للتجاوزات، خصوصا من المترجمين[443]، ومعاهدة 1264 توضح تسديد أجر هؤلاء المترجمين والمساعدين الآخرين حسب العادة[444]. كان عملهم من جهة أخرى مضبوطا بكيفية أكثر فأكثر دقة مع مرور الزمن. وينص اتفاق 1397 بين السلطان أبي فارس وبيزا على عدم امتلاك ترجمان خاص ووجوب تلقي كل المترجمين نفس المبالغ، بمعنى وضع رسم على المعاملات التجارية بخمسة دراهم لمائة دينار[445]. إن هذه النسبة ليست مهملة إذا كانت المبادلات هامة ونفهم بشكل أفضل الطلب العاجل الذي أرسله أحمد بن تميم في 604/ 1207 ليصبح ترجمان البيزيين.

ليس بحوزتنا وصف لهذه المزادات العلنية لكنها سارت بنفس كيفية البيع عند المسلمين[446]. وتبيّن فتوى في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي تاجرا مسلما، -زيد المازوني-، قدم إلى بجاية تاجرا وتوجه إلى محمد البجائي للتكفل بشراء سلعه في السوق البجائي. بينما بقي زيد في دكان محمد، مشى هذا الأخير إلى تجار عين المكان واقترح منتجاته لزيد. عندما وجدها هذا الأخير منسجمة مع تجارته، أخذها دون أن يسدد ثمنها في الحال، لأنه لم يصرّف بعد بضاعته الخاصة. ثم سافر بمقتنياته إلى الجزائر وترك ممتلكاته في المخزن[447]. يمكننا إذن تخيل التجار

(443) معاهدة بيزا – تونس، 1234، المادة 4.

(444) معاهدة بيزا – تونس، 1264، المادة 10.

(445) معاهدة بيزا – تونس، 1397، المادة 13.

(446) M. Talbi, « Les courtiers en vêtements en Ifrîqiya au IXe-Xe siècle, d’après les *Masā’il al-Samāsira* d’al-Ibyānī », *JESHO*, V/2, 1962, p. 160-194, rééd. *Études d’histoire ifriqiyenne et de civilisation musulmane médiévale*, Tunis, 1982, p. 231-262.

(447) فتوى أبي عبد الله بن العباس (ت 871/ 1466) وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم العقباني (ت 871/ 1467)، تحليل في:

Lagardère, *Histoire et société*, *op. cit.*, p. 147.

المسيحيين يقومون بنفس الفعل ويبقون في فندقهم، تاركين الترجمان يتكفل بأعمالهم. وتجرى دون شك على غرار هذا العمليات التجارية، -على أية حال- بالنسبة للتجار غير المقيمين.

يحيط بالبيع بعض الضمانات التي –دون أن تكون إجبارية- يبحث عنها مختلف المتعاملين. ويلعب الديوان هنا دورا مركزيا لأنه يقدم تلك الضمانات في بعض الحالات التي توضحها المعاهدات. إنّ المعاهدة التي أمضيت بين جنوة وتونس في 1343 جعلت الديوان مسئولا إذا جرى البيع بحضور الشهود[448]. وكذلك معاهدة 1397 بين أبي فارس وبيزا التي تنص على ثبات بيع الترجمان وعدم امكانية إلغائه إذا تفحص المشتري البضاعة وسدد العربون[449]. في هذه الحالة، يجبر أعوان الديوان المشتري بدفع الثمن المتفق عليه[450]. كانت الحجة التي من خلالها غالبا ما نجد في اتفاقيات التجارة بندا ينص على بقاء السلع غير المسددة في الديوان أو تحت حراسة الترجمان[451]. في جميع الحالات، إذا ما ظهر أن المشتري ليس لديه ما يسدد به، يجب على الديوان إيجاد وسيلة لتسديد الثمن للتاجر[452].

لم تكن هذه البيوع المراقبة إجبارية. خارج هذا الإطار، ولم تكن للمبادلات ببساطة كفالة السلطة العمومية[453]. إن سريانها يفلت منا كلية، لكن من المحتمل

(448) معاهدة جنوة – تونس، 1343، المادة 16.

(449) *Habuerit arrham seu capparam* في النص اللاتيني. الكلمة العربية هي عربون التي يقرّبها أماري من الكلمة اليونانية *arrabôn*.

(450) معاهدة بيزا – تونس، 1397، المادة 11.

(451) معاهدة بيزا – تونس، 1264، المادة 26.

(452) هذه الضوابط وهذه الضمانات للديوان تساوي في جميع الحالات بين المدين سواء مسيحي أم مسلم. معاهدة بيزا – تونس، 1397، المادة 3.

(453) معاهدة جنوة – تونس، المادة 4. إذا كان البيع قد عقد دون حلقة (عربون)، ودون شهود أو خارج الديوان، فإنّ هذا الأخير غير مسؤول على شيء.

تفضيل التجار وجود الضمانات التي يوفرها الديوان، ما عدا ربما البيوع المدفوعة نقدا والتي لا تتطلب مجازفة كبيرة.

2) الوسائل النقدية

كانت المقايضة هي نمط التبادل الأكثر بساطة واستعمالا لدى التجار. ووجد الرياضي البيزي فيبوناتشي في هذه العمليات (*baractis*) أمثلة نافعة لشرح قواعد الحساب، وهي إشارة على ممارسة التجار لها بطريقة العادة السارية[454]. ويعتقد إلياهو أشتور أن هذا النمط من التبادل قد تطور في نهاية العصر الوسيط بين المسيحيين والمسلمين[455]، لكن من الصعوبة بمكان معرفة سريانه بدقة، نظرا لقلة الأثر الذي تركه. دون شك، سمحت عمليات التعويض من جهة أخرى من تفادي اللجوء إلى النقود، لكن هنا كانت الأساليب بخلاف ذلك أكثر تعقيدا من تبادل بسيط للسلع.

على كل حال، انتقلت النقود بصورة واسعة في بجاية، وهذا لا يدهش بما أننا نعرف أن اقتصاديات العوالم الإسلامية في العصر الوسيط عرفت درجة عالية من النظام النقدي[456]. ووجب إذن على التجار المسيحيين التلاؤم مع نظام نقدي مختلف طبعا عن نظامهم، لكن يسير أساسا على نفس النمط المعروف في بلدانهم الأوروبية.

(454) خصص له فيبوناتشي (Fibonacci) مجمل فصله التاسع. على سبيل المثال: إذا ساوى 20 براشيا (*brachia*) من الجوخ 3 ليفر بيزي و42 رطل (*rotoli*) قطن 5 ليفر من نفس العملة، كيف سيكون لنا من رطل القطن لـ 50 براشيا من الجوخ؟

Fibonacci, *Liber abbaci*, *op. cit.*, p. 118, trad. p. 180.

(455) E. Ashtor, « Pagamento in contanti e baratto nel commercio italiano d’Oltremare (secoli XIV-XVI) », *Storia d’Italia. Annali*, 6 : *Economia naturale, economia monetaria*, Turin, 1983, p. 375.

(456) G. Hennequin, « Les monnaies et la monnaie », *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, Xe-XVe siècle*, II, *Sociétés et cultures*, dir. J.-Cl. Garcin, Paris, 2000, p. 237.

كان النظام النقدي المستعمل في بجاية – كما في بقية المغرب- مؤسسا على ثنائية نقدية الذهب–الفضة[457]. لا نعرف جيدا الوضعية في العصر الحمادي، غير أن القطع النقدية الفاطمية بقيت مستخدمة لفترة طويلة. في مقدمة ابن خلدون، اعتمادا على ابن حماد، كتب أن المنصور ضرب سكته[458]. لكن في كتاب التاريخ، أكد أن يحيى بن العزيز- آخر أمير في السلالة- هو الذي تجاوز الخطوة بضربه لسكة باسم العباسيين: "ولم يحدثها أحد من قومه أدبا مع خلفائهم العبيديين"[459]. مهما يكن الأمر، أخذت هذه المبادرة مكانتها بعد فتح الحماديين لوارجلان، وهذا ما سمح بالتحكم في التجارة السودانية[460]. كان هناك تغيير حاسم مع الموحدين، الذين ضربوا دراهم الفضة المربعة[461] والدنانير الذهبية التي تزن 2،3 غ، ثم بداية من إصلاح الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (580/ 1184–595/ 1199)، 4،72 غ[462]. وهذا هو النظام الموحدي الذي بقي ساري المفعول في إفريقية على امتداد الفترة الحفصية، كما في باقي مجمل المغرب وفي الأندلس[463]. بقي الدينار مستقرا حتى نهاية القرن الخامس عشر، في حين تعرض الدرهم على مرتين لنقص ملموس أدى إلى إصلاحات نقدية وإلى إنشاء درهم جديد بين 1262 و1287[464]، والناصري في خلافة عثمان[465]. كان للوحدتين فروع متعددة أو

(457) *Ibid.*, p. 220.

(458) المقدمة، الترجمة ص 537.

(459) البربر، 2، ص 56–57.

(460) A. Amara, *Pouvoir, économie et société dans le Maghreb hammadide (395/1004 - 547/1152)*, thèse de l'Université Paris 1, sous la direction de Fr. Micheau, Paris, 2002, p. 271-272.

لم يتم العثور على أية قطعة حمادية إلى هذا اليوم.

(461) Hennequin, art. cité, p. 222.

(462) Brunschvig, « Esquisse d'histoire monétaire », art. cité, p. 64. Kh. Ben Romdhane, « Considérations sur le *mithqâl* maghrébin », *Africa*, 9, 1985, p. 254.

(463) Hennequin, art. cité, p. 224.

(464) Brunschvig, « Esquisse d'histoire monétaire », art. cité, p. 71-72.=

القراط(466). وأخيرا وجدت سكة الحساب، وهي دينار الدراهم الذي ينقسم إلى 10 دراهم(467).

إلى جانب النقود الحفصية(468)، استخدمت ربما أيضا العملات المسيحية(469). وفي العصر الوسيط في أوروبا، كان مفهوم السيادة النقدية غامضا أو غير موجود وانتشرت العملات الأصلية المختلفة إلى جانب القطع المسكوكة محليا(470). لكن طبعا لم تكن الوضعية مماثلة في المغرب ومنعت رسالة الحسبة لابن عبدون الإشبيلي في بداية القرن الثاني عشر هذه الممارسة(471). وتشير اتفاقيات السلم بصورة واضحة إلى العملات المسيحية كواحدة من الواردات التي تخضع

=إلى غاية منتصف القرن الرابع عشر، استمرت الدراهم في السريان.

(465) *Ibid.*, p. 85-86.

(466) *Ibid.*, p. 70.

تخبرنا فتوى أبي عزيز البجائي (غير مؤرخة) أن هذه الوحدة كانت – مع ربع الدرهم- العملة الجارية المتداولة أكثر في الأسواق، تحليل: *Histoire et société, op. cit.*, p. 147. من جهة أخرى، نجد في الوثائق اللاتنية ثمن *(tomini)* الدينار. أنظر:

ASG, AS, Maritimarum, *filza* 1665, f. 11r (22/7/1472).

(467) Brunschvig, « Esquisse d'histoire monétaire », art. cité, p. 70.

(468) لا نجد أثرا للعملات المسلمة من أصول أخرى. تتحدث الوثائق اللاتينية عن الدوبل (المزدوج) أو الميلاريس ولا توضح أصولها إلا استثنائيا. أحيانا فقط يقال أنها من سكة *(zecca)* بجاية أو تونس. لكن ليس مستحيلا سريان القطع العبد الوادية، المرينية أو النصرية أو حتى النقود المشرقية أيضا.

(469) Brunschvig, « Esquisse d'histoire monétaire », art. cité, p. 80.

(470) C. M. Cipolla, *Money, Prices and Civilization in the Mediterranean World*, Princeton, 1956, p. 14.

(471) "إن عملة البلاد هي الوحيدة التي تسري في البلاد، لأن اختلاف العملات له آثار من بينها الحط من شأن المعدن، وزيادة المصاريف وتنوع الصرف، واعتماد فيما يتعلق بها أسعار غير معتادة".

É. Lévi-Provençal, trad., *Séville musulmane au début du XIIe siècle. Le traité d'Ibn 'Abdūn sur la vie urbaine et les corps de métiers*, Paris, 1947, rééd. anast. 2001, p. 132.

لرسوم الديوان[472]، وهي التي كانت ربما مستعملة في المعـاملات بـين المسـيحيين. ولا نعرف بالمقابل ما إذا كانت مقبولة من التجار المحليين أم لا. فيروي الإخبـاري الفلورنسي جيوفاني فيلاني (Giovanni Villani) تعجب سلطان حفصي مـن نقود الفلورين (les florins) التي عرضت له[473]، لكـن لا يعـني هـذا أن هـذه العملات كانت مقبولة كوسيلة للتسديد الجاري في العمليات التجارية. هذا لـيس مستبعدا، ونعرف أن القيراط البندقي كان مستعملا في المعاملات المالية في المشـرق في نهاية العصر الوسيط[474]. لكن في المغرب، تبيّن الوثائق الإيطالية والبروفانسـية أو الكتالانية بالأحرى استعمال نظـامين للنقـود الإسـلامية: الـدنانير والـدراهم، وأيضا كانت العمليات الداخلية للجالية الأوروبية تخضع للنقود المحلية[475].

في الوثـائق اللاتينيالـدوبل هــي الـدنانير "المزدوجـة" (*dupla, dobla*) المضروبة بعد إصلاح المنصور الموحـدي النقـدي ويشـار إلى الـدراهم تحـت اسـم الملاريس *(millares)* .

وجب إذن على التاجر المسيحي الحصول على النقود المستخدمة في بجاية. والكيفية الأكثر بساطة بالنسبة له كانت هي الحصول عليها ببيع سلعه، لكن هناك إمكانية أخرى وهي القدوم بالذهب أو الفضة، المسكوكة وغير المسكوكة. وحملها إلى دار السكة، ويمكنه ضربها بالسكة الحفصية. وتعطي معاهدات 1250 و1272

(472) معاهدة بيزا – تونس، 1313، المادة 6. يتحدث النص العربي للمعاهدة عن "دراهم ودنانير السكة المسيحية"؟

(473) Giovanni Villani, *Nuova Cronica*, livre 7, chap. 53, éd. G. Porta, I, Parme, 1990, p. 346.

(474) J. L. Bacharach, « The Ducat in Fourteenth Century Egypt », *Itinéraires d'Orient. Hommages à Claude Cahen*, Bures-sur-Yvette, 1994 (*Res Orientales*, 6), p. 95-101.

(475) في 1252، أجّر أوجريو دو فونتانا (Ogerio de Fontana) –الذي كان يتولى كتابة بجاية– محلا لبائع الجوخ مارشيزيو فرودين (Marchisio Fraudine) بـ 9 بوزون ونصف شهريا.
ASG, min. 18/II, f. 49v (7/3/1252).

بين تونس وبجاية إمكانية قيام التجار بنقل ذهبهم إلى دار سكة العاصمة أو بجاية، دون تسديد حقوق أخرى غير تلك المعتادة، والمعاهدات المبرمة مع البنادقة تعفيهم من كل رسم. ويبيّن بجولوتي (Pegolotti) في القرن الرابع عشر في تونس إمكانية حمل المعدن الثمين لسبكه مقابل حق ضرب ضعيف[476]. ففي مرسيليا في 1277، أخذ بيار سيلفاستر (Pierre Silvestre) طلبية من إتيان دو مونديال (Étienne de Manduel) سبائك ذهبية قيمتها 12 ليفر من كورونيا ملكية، التي كانت موجهة ربما للضرب[477]. أيضا في 1302، حمل غليوم ريموند (Guillaume Raymond) لغليوم المقدسي (Guillaume de Jérusalem) طلبية من 24 ليفر استثمرت في اثني عشر قضيبًا من الفضة[478].

استطاع ببساطة التاجر إعطاء قطعه المضروبة أوروبيا إلى صيرفي مقابل دنانير أو دراهم. دون شك نجدهم في الفنادق أو في الأسواق المتخصصة[479] ويتحدث ابن خلدون عن صيارفة يهود بإفريقية[480]. من جهة أخرى، ليس مستبعدا أن يكون هذا الصرف قد تمّ من التجار أنفسهم. وأخيرا، تتمثل الإمكانية الأخيرة في القدوم إلى بجاية بنقود مسلمة. بالبعض من هذه القطع النقدية ذهب من بجاية أو من موانئ حفصية أخرى وكانت تصرف في الأسواق الأوروبية. من المحتمل إذن حيازة التجار الأوروبيين القادمين من المغرب لنقود إسلامية. ونجدها

(476) Pegolotti, p. 133.

(477) Blancard, I, n° 16 (26/11/1227).

(478) ADBR, 381E 46, f. 12v (25/7/1302).

(479) كان على سبيل المثال سوق الصرف في الأسكندرية في نهاية القرن الحادي عشر.

Sh. D. Goitein, *A Mediterranean Society. The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza*, I, *Economic Foundations*, Berkeley-Los Angeles, 1967, p. 238.

لكن ليس هناك أي سوق تم التلميح إليه في بجاية، التي لم تكن ربما مكانا تجاريا هام بكفاية لتسيير سوق مختص في الصرف.

(480) البربر، 2، ص 354.

في بعض المعاملات التي لم تكن لها أحيانا أية علاقة مع التجارة البحرية في جنوة وبيزا أو في سردينيا[481]، وأصبحت كثيرة في الوثائق المتعلقة بالمبادلات مع المغرب. ففي 1272 بجنوة، أعطى مارتينو باسيلاجيو (Martino Bacilagio)، باسمه وباسم شريكه في بجاية أميكو بلوتيي دو سان توماسو (Amico pelletier de San Tommaso)، طلبية إلى جيوفاني دو سوري (Giovanni de Sori) بـ 107 ليفر و10 سو و3 دونيي بسكة بجاية أو تونس (بقيمة 418 بوزون و9 ميلاريس). فكان يجب على جيوفاني تسليمها عند وصوله إلى أميكو أو إذا لم يجده يستثمرها في الأحسن[482]. كذلك في 1286، عهد جيوفاني دو سوري- الذي أصبح الطالب إلى سيميون دو سوري دو فونتانا (Simeone de Sori de Fontana) 32 دينار مزدوج ذهبي و19 بوزون ونصف من دار سكة بجاية التي حملها سيميون من هذه المدينة[483].

لكن وصول القطع الحفصية لم يكف لسد احتياجات الأعمال وضربت دور السكة الأوروبية نفسها هذه النقود أو على الأقل تقليدها. وهذا ما كان خاصة في منتصف القرن الثالث عشر بالنسبة للدراهم التي يشهد بضربها في بيزا في 1241، وفي مرسيليا في 1257 وفي ميورقة في 1268[484]. كما ضربها الجنويون أيضا،

(481) G. Jehel, « Besants et dinars à Gênes au XIIIe siècle », *État et colonisation au Moyen Âge et à la Renaissance*, dir. M. Balard, Lyon, 1989, p. 65. M.-L. Ceccarelli Lemut, « L’uso della moneta nei documenti pisani dei sec. XI e XII », *Studi sugli strumenti di scambio a Pisa nel Medioevo*, Pise, 1979, p. 82.

(482) ASG, not. ign., *busta* III, fr. 24, f. 4v (1/10/1272).

(483) ASG, min. 94, f. 158v (3/6/1286).

(484) L. Blancard, *Le Millarès, étude sur une monnaie imitée de l’arabe par les chrétiens pour les besoins de leur commerce en pays maure*, Marseille, 1876, p. 7.

وتتحدث وثيقة بتاريخ 1253 عن "دراهم (ميلاريس) دار سكة جنوة"[485]، وربما سبقهم الكتالانيون إلى ذلك[486]. في هذا الصدد يمكن لعدة طلبيات استثمرت في بوزونات في مرسيليا في النصف الأول من القرن الثالث عشر من أن تكون على الأقل في قسم منها إرسال لدراهم مزورة ونفس الشيء أيضا بالنسبة لعمليات التجار البجائيين. إن بعض الأمثلة التي وجدت لها طبعا وزن وعيار قريبان من النقود الموحدية[487]، لكنها تظهر أشكالا بأحرف عربية منتحلة مما جعلها قليلة المصداقية[488]. ولم تكن بهذا إلا حلولا مستعجلة ومؤقتة لظرف خاص في وقت عرفت فيه العلاقات التجارية مع المغرب تطورا كبيرا، بينما وجب على أوروبا تصدير المعادن الثمينة لشراء المنتجات التي هي في حاجة إليها من إفريقيا. بعد 1254، توقفت الطلبيات الجنوية عن الاستثمار بالدراهم[489]. ومن جهة أخرى

(485) P. Fr. Casaretto, « La moneta genovese in confronto con le altre valute mediterranee nei secoli XII e XIII », *ASLSP*, 55, 1928, p. 203.
لكن لم يتم العثور على هذه الدراهم المليريسات *(millares)* "الجنوية"، ويعتقد كاسريتو (Casaretto) أنه ربما يتعلق الأمر بقطع فضية أو "جملة « gros »"التي بدأ في ضربها في جنوة في نفس الحقبة، أو أكثر دقة هي "نصف الجملة"، والتي لا يوجد أثر لها مطلقا في دور السكة. *Ibid.*, p. 205, 211. وهو أيضا رأي لوبيز R. S. Lopez, « Settecento anni fa : il ritorno all’oro nell’occidente duecentesco », *RSI*, 65, 1953, p. 48، الذي يعتبر أن ميلاريس الوثائق الجنوية يمكن أن تشير في حقيقة الأمر إلى "جمل" جنوة، وأوزان أو اسم قريب من أسماء الدراهم.

(486) J. Botet y Siso, « Nota sobre la encunyacio de monedes arabigues per il rey Don Jaime », *I Congreso de historia de la Corona de Aragón, Jaime I y su época*, II, Barcelone, 1913, p. 944-963.
يمكن لهذه النقود المسلمة المضروبة مسيحيا من استعمالها في التجارة الداخلية. *Ibid.*, p. 952

(487) Blancard, *Le Millarès*, *op. cit.*, p. 20.

(488) أنظر الألواح المنشورة في دراسة بلونكار، Blancard, *Le Millarès, op. cit.*، والمعاد نشرها عند جهال:
Jehel, « Besants et dinars », art. cité, p. 60.

(489) ما عدا استثناء في 1268 مع طلبية من 25 ليفر مستثمرة بميلاريس فضة.
ASG, min. 55/I, f. 86v-87r (25/5/1268).

رأت السلطات عدم الرضا عن هذه الممارسات. بالنسبة للحفصيين، فهي مساس بحقهم في ضرب السكة وتقليدها هو مخاطرة لتهديد سمعة دراهمهم. ومنذ معاهدة 1272 مع جمهورية جنوة اتخذت إجراءات ضد القطع التي ليست من الفضة الخالصة وكان باستطاعة الديوان مصادرتها وتقطيعها. وأرجعت بعد ذلك إلى مالكها الذي كان مرخصا له باستعمالها كنقد-معدن[490]. وفي أوروبا، احتجت السلطات الدينية أيضا ضد ضرب هذه النقود التي اعتبرت كتاباتها محمدا نبي الله. ففي 1266 أنذر البابا كليمون الرابع (Clément IV) أسقف ماجلون (Maguelone) برونجي دو فريدول (Bérenger de Frédol) -الذي ضرب هذه القطع المزيفة المسلمة (*cum titulo Mahometi*) – بتوقيف هذا النشاط المناوئ لحالته[491].

لكن جدّد النقل الفعلي للقطع النقدية بعمليات التبادل بين المدن الأوروبية وبجاية. ويمكن استلاف مبلغ في جنوة أو مرسيليا بعملة محلية، وتعويضه في المغرب بدنانير أو بدراهم[492]، وهذا ما يفترض أن التاجر بوصوله يجد مدينه أو على الأقل ممثله. ظهر هذا النوع من العقود بالنسبة إلى بجاية في نهاية القرن الثاني عشر في الوثائق الجنوية. ففي 1192، أعطى أوجريو سكوتو (Ogerio Scoto) إلى

(490) معاهدة جنوة – تونس، 1272، المادة 3. أخذت هذه القاعدة في المعاهدات الأخرى مع جنوة وأيضا مع الكاتالانيين. على سبيل المثال معادة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1403، المادة 23.

(491) Blancard, *Le Millarès*, *op. cit.*, p. 5. A. Germain, « De la monnaie mahométane attribuée à un évêque de Maguelone », *Mémoires de la société archéologique de Montpellier*, 1re série, 3, 1850-54, p. 684.

(492) حول هذا النوع من العقود، أنظر:

R. De Roover, « The “Cambium Maritimum” Contract According to the Genoese Notarial Records of the XIIth and XIIIth Centuries », *Economy, Society, Government in Medieval Italy. Essays in Memory of Robert L. Reynolds. Exploration in Economic History*, 7, 1969-70, p. 15-33, et Id., *L’Évolution de la lettre de change XIVe-XVIIe siècles*, Paris, 1953 ; Balard, *La Romanie*, *op. cit.*, p. 615-621.

أوجريو جيرسيو (Ogerio Guercio) 12 ليفر بالعملة الجنوية ووعده هذا الأخير بإرجاعها له في بجاية بـ 54 بوزون ميلاريس.[493] لكن هذا النوع من العقود كان قليل العدد، حوالي 80 صرف بين جنوة وبجاية من نهاية القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر، وهي نادرة أكثر منها في مرسيليا.

في الواقع الملموس، يمكن لهذا الصرف أن يتم بالذهب (الدينار- بينما نتكلم في الوثائق اللاتينية عن الدوبل) أو بالفضة (دراهم- بينما نتحدث عن الميلاريس، البوزون كان وحدة الحساب[494]. ففي 1203، أخذ بويونفسالو دو كروسا (Buonvassallo de Crosa) للصرف من ججليمو دو بلموتو (Guglielmo de Bellamuto) 20 ليفر جنوي لإرجاعها في بجاية أو سبتة بـ 4 بوزون 1/3 عن كل ليفر. ويصب نصف المبلغ ذهبا *(sicut bisancii curent per terram)* والنصف الآخر فضة، بوزن جيد معفى من الرسم[495]. أيضا في 1237، استلم نكولا لوكا نوبتياس (Nicola Leca Nuptias) من بالودينو بابينو (Palodino Papieno) 102 ليفر و3 سو لإرجاعها ببجاية إلى بالودينو (Palodino) بـ 4 بوزون ونصف مقابل الليفر الجنوي، بمعنى بالدراهم أو بالدنانير[496].

---

(493) Guglielmo Cassinese, n° 1776 (21/3/1192).

(494) يتناسب مع دينار دراهم. أنظر: Brunschvig, « Esquisse d'histoire monétaire », art. cité, p. 70. إن الوثائق غير واضحة دائما لأنها تظهر بوزون الميلاريس التي يمكن أن ترجع إلى وحدة حساب (دينار دراهم) وإلى نقود حقيقية من الفضة (يساوي واحد بوزون عشر ميلاريس، أي 10 دراهم).

(495) Giovanni di Guiberto, n° 913 (11/10/1203).

(496) ASG, not. ign., *busta* 15, fr. 142, f. 13r (15/9/1237).

لرهن على هذا السلف، وضع نكولا ثمانية عشر قطعة من خشب النسيج التي حملها إلى بجاية على متن مركب سان سلفاتور

في الوقائع، يتم الصرف إلى غاية سنوات 1260، أساسا بالفضة، بمعنى الدراهم أو الميلاريس[497]. ففي 1253، استلم ججليلمو دانيلو دو نولي (Guglielmo Danielo de Nauli)من جيوفاني بجينو دو كستيلو (Giovanni Begino de Castello) 206 ليفر وتعهد بإرجاع 927 بوزون ميلاريس من الفضة إلى هذا الأخير خلال الشهرين اللذين يليان وصول مركب سان بيترو دو ججليلمو (San Pietro de Guglielmo) وشركائه إلى بجاية: تمّ رهن 1/ 6 من السفينة لهذا السلف[498]. أيضا في 1264، أخذ بوناناتو دو ألبا (Bonanato de Alba) من أنريكو دو فنيس (Enrico de Vineis) على سبيل التبادل ما يرجع له 112 بوزون ونصف من ميلاريس الفضة، حرة من كل رسم الديوان، وهذا خلال الشهر الذي يلي وصول مركب القديس جيوفاني (San Giovanni) إلى بجاية[499]. وأخيرا، في مرسيليا عام 1248، وجب تعويض 12 ليفر من العملة المزوجة[500] في بجاية بـ 44 بوزون و 4 ميلاريس فضة[501].

---

(497) تتحدث الوثائق عن "بوزون الميلاريس"، يساوي البوزون الواحد 10 ميلاريس ويعادل 10 دراهم فضة. أنظر:

Jehel, « Besants et dinars », art. cité, p. 58.

(498) ASG, min. 29, f. 208r (21/8/1253).

(499) ASG, min. 61, f. 18r (5/3/1264), éd. A. Ferretto, « Documenti intorno alle relazioni fra Alba e Genova (1141-1270) », *Biblioteca della Società storica subalpina*, 22, 1906, n° 304, p. 256-257.

(500) حول هذه "العملة المختلطة" التي تظهر غالبا في الوثائق المرسيلية، أنظر:

P. Spufford, W. Wilkinson, S. Tolley, *Handbook of Medieval Exchange*, Londres, 1986, p. 120.

(501) Blancard, II, n° 657 (8/5/1248).

من الصعب تقدير قيمة التحويل بدقة، بما أن عمليات الصرف كانت دائما صعبة التأويل بالنسبة إلى المؤرخ. في بادئ الأمر، بعضها لا يشير إلى القيمة المخصصة في مدينة الانطلاق، وهذا لتغطية الفائدة التي يأخذها الصيرفي[502]. من جهة أخرى، عندما يتم توضيح القيمتين، يجب معرفة هامش ربح الصيرفي الذي هو غير مشار إليه أبدا. لكن يمكن الاستنتاج من خلال الوثائق القليلة التي تنبه إلى الصرف في مكان الانطلاق وتسمح بحساب ربح الدائن. ففي 1206، استلم أيمو فابرو (Aimo Fabro) من جيوفاني دو كسيما (Giovanni de Ceçema)– حيث وجب عليه أن يرجع له 93 بوزون ونصف في بجاية. إنّ قيمة الصرف في الذهاب كانت إذن 4 سو و8 دونيي ونصف لـ واحد بوزون. ورهن هذا الصرف البحري كان خيط من الجواهر حيث على جيوفاني بيعه في بجاية. إذا لم يكن هذا البيع كافيا لتعويض 22 ليفر، ترجع بقية الأموال في جنوة بنسبة 6 سو عن كل بوزون[503]. إنّ قيمة التحويل هي إذن هنا 27،5 في المائة، وهذا كبير جدا. ويعطي لنا عقد آخر بتاريخ 1192 قيمة من 20 في المائة، أقل لكنها دائما هامة[504]. لكن الفائدة المقتطعة من التبديل كانت غالبا ما يكون مبالغ فيها تشجيع على تعويض الديون خلال رحلة الذهاب، وتعطي إذن بالضرورة إشارة مؤكدة لهوامش الأرباح في الاتجاه الآخر[505].

(502) في 1268 على سبيل المثال، استلم لنفرانكو كانا (Lanfranco Cana) من جياكومو باريلانو (Giacomo Barilano) بعض المبلغ بالعملة الجنوية ووجب عليه إرجاعه لصاحبه في بجاية بـ 104 بوزون ميلاريس فضة الجارية في هذه المدينة، وهذا في الشهر الذي تلا وصوله إلى وجهة سفينة سان جليانو.(ASG, min. 55/I, f. 157v (23/1/1268

(503) Giovanni di Guiberto, n° 1787 (29/3/1206).

(504) Guglielmo Cassinese, n° 1836 (2/4/1192).

(505) Balard, *La Romanie*, *op. cit.*, p. 619.

في عقود الصرف الجنوي في نهاية القرن الثاني عشر والنصف الأول من القرن الثالث عشر، صرّف بوزن الميلاريس في بجاية بين 4 و5 سو بالعملة الجنوية، وهي قيمة شبيهة بتلك التي طبّقت في مدن أخرى مغاربية (أساسا سبتة وتونس) [506].

جدول 2

معدل قيمة بوزون الميلاريس بفلوس العملة الجنوية (1162–1264) [507]

4,32	1236	4	1162
4,44	1237	4,85	1191
4,21	1245	4,72	1192
4,58	1248	4,46	1198
4,32	1250	4,52	1201
4,55	1251	4,38	1203
4,68	1253	4,49	1205
4,58	1257	4,5	1206
4,68	1259	4,3	1210
4,42	1262	4	1214
4,87	1263	3,8	1224
4,44	1264	4	1225
	1236	4	1234

إنّ معدل قيمة الصرف خلال المائة سنة التي أخذت في الحسبان تمركزت حول 4،4 فلس لكل بوزون. إن الفوارق مقارنة مع متوسط هذا الرقم ليست موحية مطلقا ونلاحظ في العموم استقرارا في عمليات الصرف.

(506) أنظر بالنسبة للقرن الثاني عشر:

M. Chiaudano, « La moneta di Genova nel secolo XII », *Studi in onore di Armando Sapori*, I, Milan, 1957, p. 211.

(507) يعطي هذا الجدول قيما متوسطة من الصرف في العقود المرتبطة بتجارة بجاية. وتتشابه النتائج مع التي أعطاها سبافورد. Spufford et al. (*Handbook of Medieval Exchange*, *op. cit.*, p. 309-310) . الذين يبدو أنهم خلطوا أحيانا بين بوزون الميلاريس وبوزون الدوبل الذهبي.

وتوفر أنواع أخرى من العقود معلومات حول معادلات العملة، خصوصا في الطلبيات المستثمرة ببوزون الميلاريس[508]. رغم ارتفاعها بقليل[509]، لا تختلف الأرقام جذريا. وتسمح لنا وثيقة- للأسف معزولة- باستكمال هذه المعطيات. في 1200، واجه نزاع تجاري في جنوة تاجر الجوخ رولاندو دو كنيتو (Rolando de Caneto) وفيلانو أسسينو (Villano Asassino) في موضوع طلبية أجواخ نقلها فيلانو إلى بجاية. وكان النقاش حول موضوع صرف البوزون مقارنة بالليفر الجنوي. وزعم فيلانو أن البوزون استبدل بـ 5 فلس في حين أن الطالب أكد على مساواته 6 فلس وأكثر[510]. والحقيقة هي دون شك بين الاثنين، لكن يبدو أن قيمة الصرف الفعلي في السوق البجائي كانت مرتفعة قليلا مع ما يعطيه الصرف البحري، ويفسّر هذا الهامش بفائدة الصيرفي.

وتوفر العقود المرسيلية أيضا دلالات حول قيمة الصرف المطبقة في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي. بين 1210 و1242، عبّر عن المبالغ بالليفر الملكي الكورونا البروفانسي[511] وفي عدة طلبيات بتاريخ 1248 بالعملة الممزوجة السارية في مرسيليا[512].

---

(508) هي في الغالب حالة الطلبيات المرسيلية في النصف الأول من القرن الثالث عشر.

(509) في هذه الحالة، يتعلق بنقود حقيقية. على سبيل المثال في 1240، أخذ غليوم بوكيي (Guillaume Bouquier)طلبية جون مونديال(Jean de Manduel) من 6 ليفر ملكي استثمرت في 32 بوزون ميلاريس. Blancard, I, n° 88 (7/4/1240)

(510) Giovanni di Guiberto, n° 94 (1200).

(511) في النصف الأول من القرن الثالث عشر، كان الليفر الملكي البروفانسي يساوي ما بين 20 فلس و6 دنيي، و21 فلس و6 دنيي بالعملة الجنوية. Spufford et al., *Handbook of Medieval Exchange*, *op. cit.*, p. 107

(512) في 1248، استبدل الليفر الممتزج المرسيلي بالعملة الجنوية بين 22 فلس و11 دونيي و26 فلس. *Ibid.*, p. 108

جدول 3

معدل قيمة بوزون الميلاريس بعملة مرسيليا (1210–1248)

	بوزون الميلاريس بكرونا ملكية		بوزون الميلاريس بالعملة المختلطة بمرسيليا
التاريخ		التاريخ	
1210	4،44 فلس[513]	1248	6 فلس[514]
1226	4،91 فلس[515]	"	5،75 فلس[516]
1229	4 فلس[517]	"	5،4 فلس[518]
1240	3،75 فلس[519]	"	5،55 فلس[520]
1242	3،33 فلس[521]	"	

توقف التبادل بالبوزون الميلاريس بعد 1264. بعد هذا التاريخ، إلا باستثناءات نادرة، لم تكن هناك مسألة لقطع ذهبية في الوثائق التجارية[522]. يرجع

(513) Blancard, I, n° 4 (6/9/1210).

(514) *Ibid.*, II, n° 577 (23/4/1248), 592 (26/4/1248), 620 (28/4/1248), 623 (29/4/1248), 678 (8/5/1248), 1025 (28/7/1248).

(515) *Ibid.*, I, n° 12 (20/2/1226).

(516) *Ibid.*, II, n° 619 (28/4/1248).

(517) *Ibid.*, I, n° 19 (1/3/1229), 20, 21 (11/4/1229).

(518) *Ibid.*, II, n° 657 (8/5/1248).

(519) *Ibid.*, I, n° 88 (7/4/1240).

(520) *Ibid.*, II, n° 672 (8/5/1248).

(521) *Ibid.*, I, n° 93 (8/4/1242).

(522) من الموحي في وصية البيزي لوبو روسو في 1278، تقريبا كل المبالغ معبّر عنها بالدينار المزدوج ما عدا استثنائين.

ASP, *Diplomatico Roncioni*, 17/10/1278.

هذا التغيير لأزمة الدرهم كما أوضحها روبار برونشفيك[523] (Robert Brunschvig). ففي 660/ 1261، وجب على السلطان مواجهة تحريف النقود الفضية- حيث ينسب ابن خلدون هذا الجشع إلى الصيارفة اليهود[524]- وأنشأ العملة البرونزية التي تبين بسرعة أنه حل سيئ. وسحبت هذه القطع البرونزية بعد أشهر، وأنشئ درهم جديد بعد ذلك بقليل، والذي يزن 1،53 غ[525]. مهما يكن، سجلت أزمة العملة الفضية سنوات 1260، ومن الطبيعي في هذه الظروف تفضيل التجار الأوروبيين تسديد عملياتهم بالدينار. ونضيف أنه بداية من 1252، أعيد ضرب العملة الذهبية في إيطاليا القارية[526]، أولا في جنوة وفلورنسا ثم في البندقية وبقية مدن الداخل[527]. واستطاع الطلب على هذا المعدن المساهمة أيضا في دفع تجار بجاية المسيحيين على حمل الدنانير معهم.

كان صرف الذهب موجودا قبل 1260. ففي 1225، استلم باسكولي دي برازيليو (Pasquale di Brasilio) من امرأة ججليمو دي سانت أمبروجيو (Guglielmo di Sant'Ambrogio) 25 ليفر جنوي وخلال الثمانية أيام التي تلت وصوله إلى بجاية، وجب عليه تسليم أو إيصال 34 ونصف دينار مزدوج جديد إلى ججليمو، بمعنى الدنانير الجيدة الموحدية (المزدوجة). لم يكن ججليمو

---

(523) Brunschvig, « Esquisse d'histoire monétaire », art. cité, p. 71.

(524) يمكن أن نستعلم إذا ما كان انتقاء قيمة الدراهم في سنوات 1250 ليس بسبب وصول الميلاريس المزيفة المضروبة في أوروبا إلى الموانئ الحفصية، وانتهى بها المطاف لمنعها من قبل السلاطين.

(525) *Ibid.* يحدد روبار برونشفيك هذا الإصلاح بالتقريب بين 1262 و1287. يمكن أن نقدم نهايته، بما أن وصية لوبو روسو في 1278 تتحدث عن بوزون جديد (*biçantios novos argenti*).
ASP, *Diplomatico Roncioni*, 17/10/1278.

(526) ضربت صقلية في 1231 عملة ذهبية، الأوجسترال (Augustale).
R.-H. Bautier, « Les grands problèmes politiques et économiques de la Méditerranée médiévale », *RH*, 234/1, 1965, p. 18.

(527) M. Bloch, « Le problème de l'or au Moyen-Âge », *Annales d'histoire économique et sociale*, 6, 1933, p. 4-5 ; R. S. Lopez, « Prima del ritorno all'oro nell'Occidente duecentesco : i primi denari grossi d'argento », *RSI*, 79/1, 1967, rééd. *Su e giù per la storia di Genova*, Gênes, 1975, p. 306.

حاضرا في وقت ابرام العقد وكان ربما في بجاية، حيث قدّم باسكولي لأعماله[528]. استعمل إذا التجار عبارة "بوزونات مزدوجة ذهبية"، التي لا تخلط مع بوزونات الميلاريس الفضية[529]. من جهة أخرى، صرف البيزون بقيمة حوالي 14 فلس. كانت إذن العلاقة بين الدنانير الذهبية (البوزونات المزدوجة) والدراهم الفضية في هذه السنوات من واحد إلى ثلاثين[530].

وتظهر عمليات الصرف زيادة مستمرة للذهب، وهي ظاهرة في معظمها خاصة بالمغرب[531]. في حوالي 1270، بلغت قيمة 3 بوزون (30 درهم). لكن معاهدة 1282 بين جنوة وميورقة أعطت دينارًا مزدوجًا لـ 4 بوزون ونصف، ويظهر بجولوتي في بداية القرن الرابع عشر والعقود الموثقة الجنوية في منتصف القرن معادلة من 6 بوزون للدينار المزدوج[532].

---

(528) Lanfraco, n° 1369 (10/5/1225).

في حالة غياب ججليامو (Guglielmo) في بجاية ، يجب على باسكولي (Pasquale) استثمار المبلغ في طلبية بربع الفائدة. عقدان بتاريخ 1236 يتعلقان بالصرف بالدينار. ASG, min. 24, f. 1v-2r (10/4/1236), 11r (26/4/1236)

(529) بعد سنوات 1260، لا يمكن الحديث مطلقا عن البوزون، لكن فقط عن الدوبل.

(530) يعادل الدينار الواحد ثلاثة بوزون، حيث يساوي الواحد منها 10 ميلاريس. إنه التقرير الذي تحصل عليه روبار برونشفيك بالنسبة لسنة 1268 انطلاقا من وثائق ديوان الكتابة الأنجوفي (la chancellerie angevine).

Brunschvig, « Esquisse d'histoire monétaire », art. cité, p. 73.

(531) C. Desimoni, « La moneta e il rapporto dell'oro all'argento nei secoli XII al XIV », *Atti della R. Accademia dei Lincei*, serie V, *Classe di scienze morali, storiche e filologiche*, vol. III, 1a parte, 1895, p. 4-56. Brunschvig, « Esquisse d'histoire monétaire », art. cité, p. 74.

(532) Desimoni, « La moneta », art. cité, p. 45.

جدول 4قيمة الدينار المزدوج بالفلوس بالعملة الجنوية
(1348-1268)

التاريخ	الصرف	المصدر
28/ 4/ 1269	14,75	ASG, min. 62, f. 39r-v
10/ 4/ 1279	17,65	ASG, min. 53, f. 130r-v
15/ 7/ 1288	20[533]	ASG, min. 10, f. 41v
28/ 2/ 1291	24 (استبدال)	ASG, min. 64, f. 79r
15/ 1/ 1292	23 (استبدال)	ASG, min. 71, f. 62v
26/ 3/ 1292	19,75	ASG, min. 78, f. 255r
26/ 6/ 1303	26 (استبدال)	ASG, not. ign., *busta* 8, fr. 93, f. 131v
13/ 6/ 1348	31 (استبدال بـ 34 فلس)	ASG, min. 233, f. 220r

تسمح لنا فقط وثيقتان مرسيليتان بحساب قيمة صرف الدينار المزدوج الذي يبلغ ثمنه 18،7 فلسا من العملة الممزوجة في 1248 و28 فلسا ملكيا في 1300[534]. ولاحظ شارل إيمانويل ديفور هذا الارتفاع للدينار أيضا بالنسبة لبرشلونة وميورقة، والذي بيّن أن تناقص الليفر بصفة مستمرة تقريبا حتى حوالي 1310 ثم الحفاظ على قيمة مستقرة بليفر مقابل دينار[535]. وتؤكد الوثائق العبرية للنصف الثاني من القرن الرابع عشر والخامس عشر استقرار هذه القيمة بين 18 و25 فلس مقابل دينار. ففي ميورقة، استبدل الدينار بين 23 و25 فلس

(533) يتعلق الأمر بصرف في السوق الجنوية: اعترف أنسالدو دو مديلو (Ansaldo de Modulo) – من أجل ابنه سيمون (Simone)– لـ أوبرتو دو جاريبالدو (Oberto de Garibaldo) (فاعلا باسم أخيه جيوفانينو(Giovannino)، باستلامه منه 13 ليفر مقابل 13 دينار مزدوج التي قرضها سيمون إلى جيوفانينيو لافتدائه ببجاية. نلاحظ نفس قيمة الصرف في مدينة تونس في 1289.
Battifoglio, éd. Pistarino, *Notai genovesi… Battifoglio*, *op. cit.*, n° 33 (20/3/1289).

(534) Blancard, II, n° 595 (27/4/1248) ; AM, 1II 6, f. 51r-52r (30/10/1300).

(535) Dufourcq, *L'Espagne catalane*, *op. cit.*, p. 328-330.

في سنوات 1350[536]، وفي بلنسية بلغت قيمته 18 فلس في 1386 و20 فلس في 1454[537]. وأخيرا، أعطى دليل ميورقي تجاري (mercaderia) يعود لسنوات 1481-1491 للدينار البجائي 18 أو 20 فلس برشلوني[538].

*****

تتوفر إذن بجاية على الظروف الملائمة للتجارة ولقدوم التجار. إن الميناء الذي يتوفر على عدة مراسي ممكنة ممتاز، عميق ومحفوظ جيدا من الرياح. لقد يسّر الملوك مبكرا إقامة الإيطاليين ثم الكتالانيين والبروفانسيين، وتعهدوا من خلال المعاهدات بحماية التجار داخل أسوار المدينة وحددوا الإطار الشرعي لسريان الجماعات الخارجية. إن هذه النصوص نتيجة مفاوضات طويلة بين الدول حيث ضبطت بدقة كبيرة دائما العلاقات بين الحكم (من خلال ديوان البحر) والمسيحيين، مظهرة نوعا من اشتراك المصالح على الصعيد التجاري.

ساعد التنظيم الداخلي للأمم الخارجية حول القنصل والفندق من قدوم التجار الذين تواجدوا في الميناء بنى تأطير ميسّرة لحياتهم اليومية وسير أعمالهم. إنّ المبادلات الأكثر أهمية – لكن أقل رؤية- هي التي تحققت مع التجار البجائيين، والتي تستند إلى نوع من اتحاد الممارسات التجارية وتعطي دورا كبيرا للوسطاء مثل الترجمان. إنهم الفاعلون المحليون الذين اشتروا البضائع القادمة من أوروبا واقترحوا المنتجات الموجهة للتصدير.

(536) M. D. López Pérez, *La Corona de Aragón y el Magreb en el siglo XIV (1331-1410)*, Barcelone, 1995, p. 500.

(537) ARV, MR, Rg. 5, f. 23r (1386) ; Rg. 66, f. 212r-v (25/10/1454).

(538) Fr. Sevillano Colom, « Monedas que circulaban en el Mediterráneo a fines del siglo XV », *AEM*, 10, 1980, p. 729.

لكن يعطي عقد برشلوني لشراء أسير في 1410، 85 دينار مزدوج مقابل 66 ليفر و10 فلس، بمعنى أقل قليلا من 16 فلس للدينار المزدوج.

AHPB, Juan Nadal, *Manual*, 9/5/1410 - 16/10/1410 (54/17), f. 28r (16/6/1410).

الفصل الثاني
البحر مصدر للربح: التجارة

إذا ما بقيت قواعد المبادلات مجهولة نسبيا في عدد من الأماكن فإنّ معرفتنا بالمواد التي استوردتها أو صدّرتها بجاية في المقابل تعتبر كافية. من أجل هذا، نجد المعلومات العديدة والأكيدة أكثر في العقود الموثقة. وتسمح الطلبيات وعقود الشركات والاستئجار البحري (nolis) أو المبادلات البحرية على وجه الخصوص من معرفة المواد التي نقلتها المراكب المسيحية، حتى وإن لم توضح الكثير من هذه الوثائق طبيعة الحمولة[1]. لكن دراسة صادرات بجاية صعبة، لأنّ قلة فقط من العقود تشير إلى حمولة العودة مع ندرة العقود المنجزة في بجاية.

إضافة إلى محدودية المادة الخبرية، وعدم التجانس الكبير في المعطيات. ترك موثقو جنوة سلسلة متجانسة نسبيا تمتد بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر، لكن التجارة البحرية الجنوية اتضحت نوعا ما بداية من 1320. وتكمّل الوثائق المرسيلية معطيات القرن الثالث عشر. في المقابل، تبقى المبادلات انطلاقا من برشلونة وبيزا ونابولي والبندقية في الفترة نفسها عمليا غير معروفة. بالنسبة للقرنين الرابع عشر والخامس عشر، هناك وفرة في المعلومات حول بلدان لاكورونيا أراجونة (ميورقة، وبأقل أهمية بلنسية وبرشلونة)، في حين أننا لا نعثر إلا على معطيات متفرقة حول إيطاليا، انطلاقا من كتيبات التجارة على وجه الخصوص. وأخيرا هناك مشكل أثره ليس بالقليل، لا نعرف تقريبا المبادلات البحرية بين بجاية وبقية الموانئ المسلمة في الأندلس والمغرب والمشرق بشكل كامل، على غرار موانئ المشرق المسيحي.

---

(1) في جنوة، يوفر عقد واحد من بين ستة عقود إشارات ما.

M. Balard, *La Romanie génoise (XIIe-début du XVe siècle)*, Rome-Gênes, 1978, p. 833.

نضيف بأنه يجب الأخذ بعين الاعتبار غموض بعض الوثائق حول الوجهات، لأنّ بجاية لم تكن أحيانا إلا إحدى الموانئ التي يصلها المركب(2). بيد أن هيكلة مبادلات بجاية ليست مثل هيكلة الجزائر أو تونس، حيث كانت البلاد الخلفية مختلفة.

رغم هذه الفجوات وهذا الغموض، من الممكن بناء فكرة واضحة جدا حول السلع المتبادلة بين بجاية وبقية موانئ البحر المتوسط.

I- الواردات: سيطرة المواد النسيجية

في أكتوبر 1297 بميورقة، أجّر أستوي دي أرنزانو (Istoy de Arenzano) – وهو مواطن من ميورقة- مركبه ذا الظهرين – سانت ماريا- إلى عدة تجار من بينهم الجنوي جابرييلي دو جوالتيريو (Gabriele de Gualterio)، وثلاثة مرسيليين – من بينهم يهودي لا نعرف أصله. حيث كان باستطاعتهم حمل ما بين 1000 و1500 قنطار بضاعة باتجاه بجاية. ويفصّل العقد سعر الكراء (بعملة بلنسية) لمختلف أنواع السلع(3).

(2) هي حالة، خصوصا بالنسبة لمراكب البنادقة في بلاد البربر، ولكن أيضا لعدة عقود تجارية ميورقية.

(3) AM, 2II 62, 6/10/1297.

جدول 5: حمولة المركب المرسيلي سانت ماريا (1297)

المنتوج	الوحدة	النوليس
القطن	القنطار	2 s.
[4]*Clete*	القنطار	12 d.
Roris[5].	القنطار	12 d
Vegetis	القنطار	12 d.
قماش أبيض اللون	القنطار	12 d.
Zerconi	القنطار	12 d.
الفلفل الأحمر	القنطار	12 d.
العسل	القنطار	12 d.
جوز بلد الغال	القنطار	12 d.
التين	القنطار	12 d.
الجوخ	لفيف من 8 قطع	8 s.
القماش	لفيف	4 s.
الفلفل	القنطار	20 d.
طلاء	القنطار	20 d.
خيط البورجوني	القنطار	18 d.
الكتان	القنطار	16 d.
Pili ircini	القنطار	16 d.
Vitri speculorum[6]	القنطار	3 s.
النيل البغدادي	القنطار	18 d.
النيل الخليجي	القنطار	18 d.

(4) يعطي ميجال جوال كامرينا (Miguel Gual Camarena) لهذا *cleda* أو *clede* "طينا رمليا، أيضا مزرقا بصفة عامة، يستعمل أساسا لإزالة دهون المنسوجات والقضاء على البقع".

M. Gual Camarena, *Vocabulario del comercio medieval. Colección de aranceles aduaneros de la Corona de Aragón (s. XIII y XIV)*, Tarragone, 1968, p. 271.

(5) ربما يتعلق الأمر بكفالة. أنظر نفسه، ص 407-408.

(6) زجاج لإنشاء المرآة؟

قرن ونصف بعد ذلك في البندقية، وضعت وثيقة مزاد علني لشواني بلاد البربر قائمة السلع المحمولة على متن السفن. نجد فيها القطن، والتوابل الكبيرة والصغيرة، والحرير المصنع والمذهب، والأجواخ، وأنسجة القنب، والخمر، وأقمشة قطنية، وحرير مالقة أو المرية، وأنسجة القرمز، والشمع[7].

تبيّن هذه الوثائق التنوع الكبير في المواد المشحونة نحو بجاية، حتى وإن كان بعضها لا يظهر إلا أحيانا. وهذه الواردات معروفة لدينا بفضل العقود التجارية وكتيبات التجار، وهذا ما يسمح بقياس الحصة النسبية في الحمولات. حيث تسيطر الأقمشة الأوروبية وأيضا المواد الأولية النسيجية، وتتبعها المواد الغذائية، سميا القمح. ونشير في الأخير، أنه غالبا ما تعيد أوروبا تصدير سلع المشرق نحو بجاية.

1) سوق للأقمشة الأوروبية

سيطرت الأنسجة دون منازع على واردات بجاية. فمن مجموع 202 وثيقة جنوية للقرنين الثاني عشر والثالث عشر التي تظهر المواد المصدرة، نجد 91 منها تتعلق باستثمارات في الأنسجة. بالنسبة لميورقة في القرن الخامس عشر، تظهر 41 وثيقة من أصل 56 صادرات نحو بجاية ونستطيع إجراء نفس المعاينة بالنسبة لصادرات مرسيليا[8]. في هذا الاتجاه، كانت بجاية سوقا حيث كان بالإمكان ترويج منتجات الصناعة النسيجية لبلدان البحر المتوسطية المجاورة ومن هنالك إلى كامل أوروبا.

كانت هذه المواد متنوعة جدا، لكن من الصعب معرفة بعض أسمائها. غالبا ما يقتصر على إشارة واسعة الى الأجواخ أو إشارة بسيطة للألوان (التي ربما

(7) ASV, *Senato*, *Mar*, Rg. 1, f. 198v-199r (6/11/1443).

لكن ربما تم تحميل المنتجات (القرمز والشمع) في موانئ المغرب حيث كانت مصدّرة وليس انطلاقا من البندقية.

(8) D. Valérian, « Les archives de Marseille, sources de l'histoire du Maghreb médiéval : le cas du port de Bougie (XIIIe-XVe siècle) », *Annales du Midi*, 233, 2001, p. 17-18 et tableau p. 23-26.

تشير إلى بعض أنواع القماش في تلك الفترة). أحيانا، لدينا إشارة إلى أصلها، لكن ليس دائما بكل تأكيد إنتاج القماش تم في هذا المكان، بما أنه يتعلق بالمركز الذي أشتري فيه أو أيضا اسم عام.

استوردت بجاية في بعض الحالات المنتجات المصنعة، خصوصا الألبسة. ففي 1203، نجد من بين السلع المرهونة من أجل تبادل بحري إلى بجاية، سبعة ستائر حريرية مذهبة[9]. أيضا في 1216، أخذ جندولفو دي فورنو (Gandolfo di Forno) طلبية من 17 قميصا رومانيا *(zupis de romania)* إلى سبتة ثم إلى بجاية (وربما بعد ذلك إلى ما وراء البحر) [10]. وأخيرا في 1238، جفوريو بليكاريو (Gaforio Pellicario) أخذ طلبية بـ 5 ليفر من السراويل التحتية (*bragis*) وأقمصة (*camisiis*) وخيوط[11]. لكنها كانت حالات نادرة[12]، وليس من المستبعد أنّ يكون إرسال الأقمصة موجها للزبائن الأوروبيين الحاضرين في بجاية وليس للسوق المحلي.

كانت الأنسجة إذن غالبا تحمل ليتم تفصيلها هناك. إنّ أصناف هذه المنسوجات متنوعة جدا (أنظر قاموس المصطلحات). إنّ المادة الأولية المستعملة (ليس بالإمكان دائما تحديدها عندما تتحدث الوثيقة ببساطة عن أقمشة) كانت غالبا هي الصوف (الأجواخ)، ولكن نجد أيضا القطنيات (*bombaxili*)، وأقمشة القنب (*canabacis*)، والكتان، ونادرا ما نجد الحريريات (*cendalis*). وتشير الوثيقة عموما إلى القماش بلونه: قرمزي، أزرق*(azuro)*، وقرمزي *(scarlat)*، وأخضر *(viridis)*، وأسمر، وأبيض...

---

(9) Giovanni di Guiberto, n° 1017 (13/11/1203).

(10) Lanfranco, n° 1182 (29/9/1216).

(11) ASG, not. ign., *busta* 3, fr. 46, f. 12r (9/10/1238).

(12) تعلقت تجارة النسيج بصفة عامة بالقماش وليس بالألبسة.

جدول 6: قائمة للقماش الذي استوردته بجاية

قماش غير مصبوغ	*Acoloratus*
جوخ أندوزيAnduze	*Anduxiis*
قماش أزرق اللون	*Azurio*
قماش ثياب طويل ودائري	*Baldinellis*
قندس	*Beveris ou bevetis*
قماش أبيض اللون	*Blancheti*
قماش أزرق	*Blavi*
قماش ربما من الكتان أو من القطن الوارد من أرمينيا أو من بخارى ثم قلّد في أوروبا	*Bocaranus*
نسيج من الكتان (أو من القطن) جد رقيق	*Bocasinus*
قماش من قطن	*Bombaxilis*
قماش أسمر	*Brunete*
قماش من قنب	*Canabacium*
مغزل	*Canonus*
ثياب من حرير خفيف	*Cendalis*
؟	*Curtinis*
دمشقي	*Damaschini*
قماش مذهّب	*Deauratis*
الريحانة البيضاء	*Ermelie*
نوع من الجوخ	*Faudetis*
جوخ بحواشي	*Frixiis*
نسيج قطني	*Fustanea*
جوخ بسيط	*Humiliati*
جوخ شالوني	*Ialnum*
ثياب من الصوف الخشن ممزوج بالكتان أو بالقنب	*Mezzalane*
جوخ؟	*Musangiis*
ستار	*Oralia*
جوخ حريري	*Palis, Pallium*
أجواخ ميورقية	*Palmelles*

Purpuri	قماش أرجواني
Sagis	نسيج أو غطاء سرير
Scarlet	قماش قرمزي
Seta legia	حرير لاهيجان (ضفة بحر القلزم)
Seta malmistra	حرير مامسترا Mamistra (أرمينيا الصغرى)
Sort	نوع من القماش القطني المستعمل في الجوخ
Staminis	قماش صوفي
Stanfort	قماش ستامفورد (Stamford) أو قماش صوفي قوي
Stupa	قماش من القنب والكتان
Tapetis	بساط
Toagiis	غطاء
Vermillo	قماش قرمزي
Vintenis	نسيج كبير
Viridis	قماش أخضر
Xamitus	سترة مخملة

يبيّن جدول المنسوجات التي استوردتها بجاية فضاء تموين واسع، يتجاوز بكثرة البلدان المتوسطية المجاورة والموانئ ذات العلاقة بالمغرب. تصل إلى جنوة، مرسيليا أو ميورقة منسوجات قادمة من كل أوروبا عبر الأسواق أو انطلاقا من مناطق إنتاجها. جلبت جنوة على سبيل المثال منسوجات إيطاليا الشمالية، وتمونت أبعد من ذلك من أسواق الشامباني (Champagne).

من جهة أخرى، اشترك المهنيون المتخصصون في النسيج في التجارة البجائية، حيث يظهر فحص مهن أصحاب الطلبيات الجنويين – رغم اشتراكهم النادر– عددا كبيرا من صانعي الأجواخ الذين استثمروا أموالهم وخصوصا الذين أرسلوا منتجاتهم نحو المغرب، كما هو حال رولاندو دو كانيتو (Rolando de Caneto) ، الذي طالب بأمواله من فيلانو أساسينو (Villano Asassino)من رأس مال طلبية من الأجواخ في 1200[13]. في 1201، أعطى

(13) Giovanni di Guiberto, n° 94, 98 (1200).

طلبية إلى أوتوني جونتاردو (Ottone Gontardo) تتكون من 50 ليفر بقطعتين من قماش قرميزي، قطعة من قماش أخضر وثمانية خيوط قندسية (*filiarum de beveris*)[14]. أخيرا، في 1205، أعطى كرهن إلى أوتوني جونتاردو ذاته قطعة من قماش قرميزي دو لوكاميا (de Lecamua)، وجوخ أبيض لوكامي وثلاث فريولاس قندسي (*feriolas* de *bevetis*) لحملها إلى بجاية، وهو ما باعه أوتوني بـ 75 بوزون ميلاريس[15]. نستطيع أيضا أن نشير إلى صانع الجوخ أوبيرتو بيانكو (Oberto Bianco) الذي عهد بطلبيتين إلى بجاية في 1205: قماش ستانفور أبيض مقداره 7 ليفر و4 سو، وقطعتين من ستانفور قرميزي بـ 20 ليفر و12 سو[16]. وفي السنة الموالية، أرسل قمصان قطنية وجوخ شالوني (Châlons) إلى بجاية[17].ووجدت أهمية الوسط الجوخي من بين المستثمرين النشطين في المغرب أيضا في برشلونة في نفس الفترة[18]. يمكننا أن نفترض بحكم مهنتهم توجيههم في قسم منها لإنتاجهم الخاص. لكن نرى أيضا أن الأمر يتعلق بإعادتهم لتصدير منسوجات قادمة من مناطق بعيدة، كما هو حال هنا شالون (Châlons).

(14) *Ibid.*, n° 511 (30/8/1201).

(15) *Ibid.*, n° 1150 (11/5/1205).

(16) *Ibid.*, n° 1147 (11/5/1205), 1203 (20/5/1205).

تدخّل في الطلبية الأولى الجوخي ليون الذي أرسل قماش ستانفور شالوني بـ 11 ليفر.

(17) *Ibid.*, n° 1682 (18/3/1206), 1894 (11/4/1206).

(18) C. Batlle i Gallart, « Uns mercaders de Barcelona al nord d'Africa a mitijan segle XIII », *Acta Mediaevalia*, 10, 1989, p. 146-147, 152-153,

في الملحق، نشرت وصية التاجر البرشلوني جوم دالباريدا (Jaume d'Albareda) التي تظهر عدة عمليات بيع للجوخ في بجاية.

Archivo de la Catedral de Barcelona, perg. 1-6-744 (20/9/1258).

أنظر أيضا حول عائلة الجوخي التاجر البرشلوني بانييرس (Banyeres):

Batlle i Gallart, E. Varela, « Las relaciones comerciales de Barcelona con el norte de África (siglo XIII) », *Anales de la Universidad de Alicante*, 7, 1988-89, p. 30.

تعددت أصول هذه المنتجات وهي ناجمة جزئيا عن توزيع المراكز النسيجية الأوروبية الكبرى[19]. تنطلق من جنوة المنسوجات اللومباردية[20]، لكن نجد أيضا في الحمولة الجنوية منتجات رانس (Reims)[21] أو شالون[22](Châlons) ، دون أن نتمكن من معرفة ما إذا كانت من منتجات هذه الجهات أم هي أقمشة تمّ اقتناؤها من أسواق هاتين المدينتين أم أنها قادمة من مناطق أخرى[23]. طبعا صدّرت مرسيليا منتجات مملكة فرنسا القريبة. في 1235، أعطى برنار مونديال (Bernard Manduel) طلبية إلى بجاية تشكلت من قماش صوفي قوي أراسي (Arras)وفي 1240 أرسل أخوه جون (Jean) 4 قطع من نفس القماش[24]. أيضا في 1300، أخذ أرنو الإلمي (Arnaud d'Ulm) إلى مرسيليا طلبية مكوّنة من 7 أجواخ فرنسية لحملها إلى بجاية[25]. نجد أيضا إشارات كثيرة لمنسوجات

(19) H. C. Krueger, « The Ware of Exchanges in the Genoese-African Traffic of the Twelfth Century », *Speculum*, 12, 1937, p. 59.

(20) ASG, min. 18/II, f. 297v (28/9/1234) على سبيل المثال:

قطعتان من الستانفور اللومباردي stanfort lombardبـ 8 ليفر.

ASG, min. 18/II, f. 48v-49r (6/3/1252) :

قطعتان من جوخ ميلانو بـ 3 ليفر و10 سو و14 ليفر و6 سو. أنظر:

Fr. Borlandi, « "Futainiers" et futaines dans l'Italie du Moyen Âge », *Hommage à Lucien Febvre*, II, Paris, 1953, p. 133-134.

(21) Giovanni di Guiberto, n° 1017 (13/11/1203) :

4 قطع من بالدينيليس الرانسي (*baldinellis* de Reims). كانت هذه الأقمشة ثمينة جدا في المشرق.

E. Ashtor, « L'exportation des textiles occidentaux dans le Proche-Orient musulman au bas Moyen Âge (1370-1517) », *Studi in memoria di Federigo Melis*, II, Naples, 1978, p. 354-355.

(22) ليس بالإمكان دائما تمييز شالون (Châlons) في الشامباني (Champagne) من شالون (Chalon) حوض السون (Saône)، اللذين كانا بمثابة مكانيين لتبادل المنسوجات.

(23) H. Dubois, *Les foires de Chalon et le commerce dans la vallée de la Saône à la fin du Moyen Âge (v. 1280-v. 1430)*, Paris, 1976, p. 55.

(24) Blancard, I, n° 64 (14/5/1235), 88 (7/4/1240).

(25) ADBR, 381E 4, f. 69r (6/8/1302).

ألمانية في العقود الجنوية في القرن الثالث عشر. ففي 1227، أخذ سيموني دو كوارتو (Simone de Quarto) طلبية بـ 339 ليفر و6 سو ونصف مستثمرة في منسوجات ألمانية[26]. وأخيرا، جاءت بعض الأقمشة من الفلوندر (Flandres) ، كما تظهره حالة في 1447 لقائد مركب بندقي لم يستطع بيع أجواخ فلوندرية بالمغرب بسبب بقعة مشوّهة وأعادها إلى البندقية[27]. ربما مارس الميورقيون أو الجنويون هذه التجارة المرتكزة على إعادة توزيع المنسوجات الفلامونية[28]. وأخيرا، تجدر الإشارة إلى المنسوجات القادمة من المشرق المسيحي. رأينا في حمولة جنوية أقمشة رومانية *(zupis de romania)* وفي 1262 أخذ جيوفاني دو كوارتو (Giovanni de Quarto) طلبية من بونفاسالو النابولي (Bonvassallo de Nepitella) 3 أجواخ من المزونجي (*musangiis*) المعمولة في قبرص[29]. في المقابل، لم أجد منسوجات قادمة من المشرق الإسلامي أرسلها التجار المسيحيون إلى بجاية. لدينا إشارة إلى دمشق حيث بحث صاحب مركب بربري عن بيع خلال رحلته[30]، أو البوكارانيوس[31] *(bocaranus)*،

(26) ASG, min. 7, f. 258v (18/9/1227), éd. R. Doehaerd, *Les Relations commerciales entre Gênes, la Belgique et l'Outre-Mont, d'après les archives notariales génoises aux XIIIe et XIVe siècles*, Bruxelles-Rome, 1941, II, n° 424.

(27) ASV, *Senato, Mar*, Rg. 3, f. 35r (5/11/1447).

(28) في 1200، تلقى رولاندو دو كانيتو (Rolando de Canetto) – الذي رأيناه يستثمر في تصدير الجوخ نحو بجاية– أجواخ ييبر(Ypres) من تاجر أراسي. (Arras). Giovanni di Guiberto, n° 59 (29/11/1200)ربما أنه أعاد توزيع هذه المنتجات الفلامية نحو الأسواق المتوسطية.

(29) ASG, min. 35, f. 167r-v (30/9/1262).

(30) ASV, *Senato, Mar*, Rg. 2, f. 182v (26/11/1446).

أنظر أيضا: id., Rg. 3, f. 35r (5/11/1447) رجع برناردو بالبو (Bernardo Balbo) إلى البندقية بثلاث قطع من الدمشقي المطرّز *(damaschini brochati)* الذي لم يستطع بيعه خلال رحلته.

(31) ASG, min. 31/II, f. 85r. (3/5/1255).

الذي كان ربما قماش من بخارى[32]. لكن الأصل الحقيقي لهذه المواد ليس واضحا ويمكن أن تكون أسماء مشتركة لبعض أنواع الأقمشة المصنوعة في أوروبا. لا يجب التغافل عن كون التجارة الداخلية للعالم الإسلامي معروفة لدينا بشكل قليل ومن الممكن رواج بعض المواد عن طريق القوافل أو السفن المسلمة. يروي ابن خلدون أنّ الحجاج بن فضل - وكيل القصر ببجاية في نهاية القرن الثالث عشر- يذهب دائما إلى الأندلس لشراء الثياب الحريرية وإلى تونس أيضا لاقتناء الأقمشة[33]. من الصعوبة تسجيل واردات القماش مباشرة من المشرق، لكنها وجدت أيضا.

استقبلت بجاية إذن القماش القادم من كل الجهات المنتجة في العالم المسيحي وطبعا من دار الإسلام أيضا. وليس بالإمكان نظرا للمادة المجمعة تحديد أصولها، لكن من المحتمل أن الأمر يتعلق بالسلع الواردة من مراكز الإنتاج القريبة أو حتى من نفس المدينة المرسل منها. إنّ الحصة التي يأخذها صانعو الجوخ في الاستثمارات الجنوية هي إشارة جيدة. نستطيع أن نفترض خصوصا إذا لم تكن هناك أي إشارة للمصدر في العقد بأنه أكثر بعدا من الحالة الاعتيادية، وبالتالي فإن القماش يحتمل أن يكون تصنيعه محليا.

من الصعب أيضا معرفة جودة المنسوجات. هناك فكرة شائعة مفادها أنّ المغرب اشترى خصوصا القماش المتوسط الجودة أو الأقل، في حين أنّ الأنواع الأخرى كانت ترسل نحو الجهات الثرية[34]. يجب الحصول على معطيات أكثر لنستطيع مقارنة الأسعار مع وجهات أخرى، وهذا مستحيل بالنسبة إلينا. لكن يبدو أن تفحص صادرات جنوة وميورقة يدعو على الأقل إلى خلخلة هذه الفكرة. نجد طبعا أقمشة جيدة الثمن، مثل الأجواخ المعروفة باسم ميزلاني

(32) P. Sella, *Glossario latino italiano. Stato della Chiesa. Veneto. Abruzzi*, Cité du Vatican, 1944, p. 73.

(33) العبر، ج 4، ص 725، البربر، ج 2، ص 422.

(34) E. Bach, *La Cité de Gênes au XIIe siècle*, Copenhague, 1955, p. 92.

(mezzalane) وهي متواضعة الجودة[35]. لكن نجد أيضا أقمشة مصبوغة بألوان "غنية"، مثل القرميزي [36] أو البربوري *purpuri* . لم تكن الأجواخ المذهّبة نادرة وشكّلت دون منازع موادا للرفاهية[37]. ويدخل أيضا في هذا الصنف الكسيميتي *(xamiti)*أو الستائر التي تظهر في الطلبيات الجنوية على غرار المنسوجات الحريرية التي غالبا ما تكون مذهبة[38]، مثل السنداتيس *(cendatis)*[39].

(35) D. Cardon, *La Draperie au Moyen Âge. Essor d'une grande industrie européenne*, Paris, 1996, p. 117 :

"يمكن لأجواخ ميجا لانا (mija lana) أن تحتوي على صوف من مسترجعات ممنوعة جدا لسلسلة وسباك الجوخ".

(36) أنظر: أشتور Ashtor, « L'exportation des textiles », art. cité, p. 360-362 الذي اعتبره كقطع نفيسة.

(37) احتوت هذه الحمولة على 7 ستائر (*oralia*) حريرية مذهبة. Giovanni di Guiberto, n° 1017 (13/11/1203).

(38) ASG, min. 49, f. 35v, 36v (7/5/1280).

(39) على سبيل المثال في 1282، أخذ سيمون موسو (Simone Musso) طلبية بـ 79 ليفر و6 سو مستثمرة في بسائط وسنتاديس إسباني*(cendatis)* . أنظر أيضا، Giovanni di Guiberto, n° 1733 (23/3/1206) : أجواخ حريرية مذهبة، ASG, not. ign., *busta* 7, fr. 92 (3/11/1248) : 6 أجواخ مذهبة ونسيجان أرجوانيان من الحرير (*purpuri de sete*).

جدول 7: منسوجات مستوردة من جنوة (1164-1282)

التاريخ	المواد (القيم) [40]	طبيعة الوثيقة	المصدر
30/ 6/ 1164	القنب (44 l.) *Canabacius*	طلبية	Giovanni Scriba, n° 1230
13/ 3/ 1192	لفيفان من الفيتان المصبوغ (3°28)	رهن صرف	Guglielmo Cassinese, n° 1762
21/ 3/ 1192	لفيفان من الفيتان المصبوغ (1°38)	رهن صرف	*Ibid.*, n° 1774
2/ 4/ 1192	أقمصة من نوع سي (saies)	طلبية	*Ibid.*, n° 1834
2/ 4/ 1192	1 لفيف فيتان ملون 1 لفيف أبيض (1°36)	رهن صرف	*Ibid.*, n° 1836
1200	1 جوخ شالوني 1 قرمزي (4°1.16س ½)	طلبية	Giovanni di Guiberto, n° 94, 98
3/ 8/ 1201	قماش	كراء بحري	*Ibid.*, n° 348
30/ 8/ 1201	قطعتان من قماش قرميزي قطعة من قماش أخضر 8 خيوط (50 l.) *beveris*	طلبية	*Ibid.*, n° 511
31/ 8/ 1201	3 لفائف من القماش الألماني بمعنى 630 قصبة و45 قطعة (105°1.10س)	تموين محول إلى طلبية	*Ibid.*, n° 522
25/ 10/ 1203	قماش	طلبية	*Ibid.*, n° 952
13/ 11/ 1203	7 ستائر حريرية مذهبة 4 قطع من بندنيلس الرانسي	رهن صرف	*Ibid.*, n° 1017
/9/5 / 1205	لفائف من قماش قرميزي (1°20)	رهن صرف	*Ibid.*, n° 1098 9/5/1205

(40) عندما يكون سعر المنسوجات متميزا عن بقية السلع.

11/ 5/ 1205	قماش ألماني (48°1.6 س)	طلبية	*Ibid*., n° 1134
11/ 5/ 1205	1 ستانفور شالوني (11°1.) 1 ستانفور أبيض (7°1.4 س)	طلبية	*Ibid*., n° 1147
11/ 5/ 1205	1 قطعة من قرميزي لاكموي 1 قطعة أبيض لاكموي 3 فريولي قندسي للبيع مقابل 75 بوزون ميلاريس)	رهن صرف	*Ibid*., n° 1150
20/ 5/ 1205	قطعتان من ستانفور قرميزي (20°1.12 س)	طلبية	*Ibid*., n° 1203
20/ 5/ 1205	قماش ألماني من 567 قصبة (93°1.17 س)	طلبية	*Ibid*., n° 1214
12/ 3/ 1206	قماش (62°1.11°س)	طلبية	*Ibid*., n° 1611
17/ 3/ 1206	أجواخ (6°1.5س)	طلبية	*Ibid*., n° 1680
18/ 3/ 1206	قماش قطني (فيتان)	طلبية	*Ibid*., n° 1682
23/ 3/ 1206	قماش	طلبية	*Ibid*., n° 1727
23/ 3/ 1206	أجواخ من الحرير المذهب (15°1.)	طلبية	*Ibid*., n° 1733
11/ 4/ 1206	أجواخ شالونية	طلبية	*Ibid*., n° 1894
21/ 10/ 1210	2 كرتينس (*curtinis*)ب 12 قصبة	طلبية	Lanfranco, n° 862
6/ 6/ 1214	قماش	طلبية	Giovanni Scriba, *not. ign*., 1214, n° 1
8/ 7/ 1214	162 قطعة عشرية (100°1.)	طلبية	ASG, min. 2, f. 157r
29/ 9/ 1216	زبيس *Zupis* روماني (24°1.1س)	طلبية	Lanfranco, n° 1182

18/ 9/ 1227	6/ لفافات من القماش الألماني (339°1.6°س6°د)	طلبية	ASG, min. 7, f. 258v
28/ 9/ 1234	قطعتان من الستانفور اللومباردي (8°1.)	طلبية	ASG, min. 18/II, f. 297v
15/ 9/ 1237	18 قطعة من الفدتيس (102°1.3س)	رهن صرف	ASG, not. ign., *busta* 15, fr. 142, f. 13r
9/ 10/ 1238	أقمصة	طلبية	ASG, not. ign., *busta* 3, fr. 46, f. 12r
3/ 8/ 1239	25 قطعة من بومباكسليس *bombaxilis* 12 قصبة من القنب (13°1.)	طلبية	ASG, min. 17, f. 55v
15/ 8/ 1239	قطعتان دميلياتي *humiliati* (11°1.4°س)	طلبية	ASG, min. 21/I, f. 85v
16/ 5/ 1240	قطعة قماش قرميزي قطعتان من قماش أخضر قطعتان من قماش بني (64°1.18°س)	طلبية	ASG, not. ign., *busta* 3, fr. 47, f. 18r
10/ 10/ 1248	قماش قنب وقطعتان من الجوخ الإملياتي *humiliati*	طلبية	ASG, min. 143, f. 185v
13/ 10/ 1248	قماش ألماني	طلبية	ASG, min. 21/I, f. 62r
3/ 11/ 1248	6 قطع من الجوخ المذهب 2 من القماش الأرجواني (50°1.)	طلبية	ASG, not. ign., *busta* 7, fr. 92
5/ 11/ 1248	قطعتان من حرير *cendali* (5°1.3°س)	طلبية	Id.
26/ 10/ 1250	140 قطعة من بومباكسليس	رهن صرف	ASG, min. 27, f. 8v
29/ 10/ 1250	1 ستبة حريرية (17°1.7.س)	طلبية	Id., f. 12v

29/ 10/ 1250	قماش	طلبية	Id., f. 13v
6/ 6/ 1251	22 قصبة من الجوخ الإملياتي (للبيع بـ 39 بوزون و9 ميلاريس)	رهن صرف	Id., f. 167v
7/ 6/ 1251	قطعتان من القماش القرميزي (90°1.11°س)	طلبية	Id., f. 169v
6/ 3/ 1252	أجواخ ميلانية (13°1.10°س)	طلبية	ASG, min. 18/II, f. 48v
6/ 3/ 1252	أجواخ ميلانية (14°1.6°س)	طلبية	Id., f. 49r
3/ 1252	قطعة من الجوخ (3°1.10°س)	طلبية	
13/ 5/ 1252	أجواخ مسماة بالشرعية (69°1.11°س.6°د.)	طلبية	ASG, min. 27, f. 244v
23/ 5/ 1252	نفسها	طلبية	Id.
19/ 4/ 1253	4 قطع من الجوخ الإملياتي وقطعة من جوخ أزرق شالوني (42°1.3°3س)	طلبية	ASG, min. 29, f. 56v
14/ 5/ 1253	قماش بومباكسي	طلبية	Id., f. 103v
24/ 7/ 1253	قماش خفيف (étamine) (21°1.5 س)	طلبية	Id., f. 164v
14/ 7/ 1253	قماش صوفي، بومباكسيلس (1871°1)	طلبية	Id., f. 165v
24/ 7/ 1253	قماش خفيف (211°1.س)	طلبية	Id.
13/ 8/ 1253	قطعة من قماش قطني (3°1.)	طلبية	Id., f. 216v
3/ 9/ 1253	3 قطع من القماش القرميزي (58°1.)	طلبية	ASG, min. 18/I, f. 69v
15/ 9/ 1253	قماش ألماني (75°1.8°س)	طلبية	Id., f. 81v
15/ 9/ 1253	قماش ألماني (50°1.)	طلبية	ASG, min. 29, f. 219r
16/ 9/ 1253	160 قصبة من القماش العريض	طلبية	ASG, min. 18/I,

	سفيزة (1.13°32 س)		f. 82r
16/ 9/ 1253	بوماكسيلس 1.5°531° س 9د)	طلبية	ASG, min. 29, f. 220v
26/ 3/ 1254	1 جوخ مذهب وقماشان أرجوازيان (1°13.)	طلبية	ASG, min. 30/I, f. 44v
16/ 5/ 1254	4 أجواخ مذهبية (1°24.)	طلبية	Id., f. 84v
17/ 5/ 1254	قماش ألماني (1°54.)	طلبية	Id., f. 86r
17/ 5/ 1254	نفسه	طلبية	Id.
17/ 5/ 1254	قماش ألماني (1°40.)	طلبية	Id., f. 86v
17/ 5/ 1254	نفسه	طلبية	Id.
1/ 4/ 1255	قطعة أندوزا (Pièce d'Anduse) (41°1)	طلبية	ASG, min. 31/II, f. 61r
26/ 4/ 1255	بومباكسيلس (1°501.)	طلبية	ASG, min. 21/II, f. 53r
3/ 5/ 1255	بوكارنوس وقطعة أندوزا (1.16°18°س)	طلبية	ASG, min. 31/II, f. 85r
16/ 5/ 1255	9 قطع بومباكسيلس (1.19°4°س)	طلبية	Id., f. 92v
16/ 5/ 1255	18 قطع بومباكسيلس (1.18°9°س.)	طلبية	Id., f. 92v-93r
15/ 5/ 1256	قمصان كتانية (1°40.)	طلبية	ASG, min. 35, f. 139r
16/ 4/ 1257	جوخان مذهبان وفريكسيس (1.10°15°س)	طلبية	ASG, min. 60, f. 89v
19/ 4/ 1257	48 (؟) قطعة من قماش بومباكسليس	طلبية	ASG, min. 54, f. 92r
2/ 5/ 1257	61 قطعة من قماش بومباكسليس (31°1)	طلبية	Id., f. 110r
16/ 5/ 1257	6 قطع من الجوخ (1°20.)	طلبية	Id., f. 125v
26/ 4/ 1262	قطعتان من الميزلان و2 من	طلبية	ASG, min. 121, f. 176r

	التوجسيس (4°1.15°س)		
30/ 9/ 1262	3 أجواخ مذهبية، 11 كانوني إرميلي، 3 أجواخ موزنجيس مصنوعة في قبرص (34°1.12°س)	طلبية	ASG, min. 35, f. 167r-v
11/ 3/ 1267	جوخ أندوزا (50 بوزون)	وصل	ASG, min. 70, f. 192r
21/ 3/ 1268	8 أجواخ مذهبية (40°1.)	طلبية	ASG, min. 62, f. 5r
27/ 3/ 1268	بومباكسليس (20°1.)	طلبية	Id., f. 10r
7/ 5/ 1268	جوخان مذهبان (11°1.)	طلبية	ASG, min. 76,f. 59r
19/ 5/ 1268	بومباكسليس، قنبي وأقمشة صوفية (69°1.)	طلبية	ASG, min. 55/I, f. 76v
25/ 5/ 1268	قماش خفيف (28°1.)	طلبية	Id., f. 87v
25/ 5/ 1268	بومباكسليس (125°1.)	طلبية	ASG, min. 91, f. 17r
27/ 5/ 1268	قطعة أنزنتي	طلبية	ASG, min. 55/I, f. 88v
27/ 6/ 1268	قماش بندقي	طلبية	ASG, min. 72, f. 15v
7/ 5/ 1280	قطعتان كزاميتي	طلبية	ASG, min. 49, f. 35v
14/ 5/ 1282	بسائط، سانداتيس إسباني (79°1.6°س)	طلبية	ASG, min. 73, f. 135v

جدول 8: منسوجات مستوردة من ميورقة (1404-1480) [41]

التاريخ	المنتوج	طبيعة الوثيقة	المصدر	وجهات أخرى مذكورة في الوثيقة
9/ 3/ 1408	1 جوخ	طلبية	ARM, A. Costanti, 1408, f. 14v	
9/ 6/ 1408	3 بالمال (palmelles) ميورقية (50 l. 10 s.)	طلبية	Id., f. 15r	
26/ 8/ 1411	لفافان من 20 جوخ من بينها 8	طلبية	ARM, A. Costanti, 1411, f. 54r	تونس، بونة، القل، قسنطينة، بلنسية،
26/ 8/ 1411	4 أجواخ ميورقية و وقماش أخضر	طلبية	Id., f. 55v	تونس، بونة، القل، قسنطينة، بلنسية،
28/ 1/ 1418	أجواخ	تأمين	ARM, A. Costanti, 1415-18,	القل، بونة، تونس
16/ 7/ 1421	4 أجواخ (66°1.7س)	طلبية	ARM, A. Costanti, 1421, f. 53r	
16/ 7/ 1421	5 أجواخ (6°1.16س.8.د)	طلبية	Id.	

(41) الإحالات إلى رصيد لـ كنستانتي (A. Constanti) التوثيقي هي مستخرجة من رسالة دكتـوراه غير منشورة لـ:

P. Macaire, *Majorque et le Maghreb au* XV*e siècle*, Doctorat de troisième cycle, sous la direction de Ch.-E. Dufourcq, Université Paris X, 1977.

بالنسبة لبقية الإحالات، أنظر أعمال أنوفر فاكر (Onofre Vaquer)، خصوصا:

« Navegació i comerç a Mallorca, segle XV, segonda meitat », *Fontes rerum Balearium*, 1990, p. 95-142 (régestes des actes du notaire majorquin Bernat Contesti, 1448-1480), et Id., *El Comerç marítim de Mallorca. 1448-1531*, Palma de Majorque, 2001.

16/ 7/ 1421	4 أجواخ (52°1.2°س)	طلبية	Id.	
16/ 7/ 1421	جوخان ميورقيان (22°1)	طلبية	Id.	
16/ 7/ 1421	5 أجواخ ميورقية (101°1.4س10د)	طلبية	Id.	
16/ 7/ 1421	5 أجواخ (62°18س.)	طلبية	Id.	
11/ 2/ 1422	19 لفافة من الجوخ (300°1.)	طلبية	ARM, A. Costanti, 1422,	
12/ 2/ 1422 Collo	3 أجواخ من نوع أكولرتي (*acolorati*)	طلبية	Id., f. 143r	
12/ 2/ 1422	جوخان أكولرتي (23°1.4°س4°د.)	طلبية	Id.	القل
4/ 3/ 1424	لفاف من الجوخ	تأمين	ARM, A. Costanti, 1424, f. 33r	
20/ 3/ 1424	جوخ	تأمين	Id., f. 45r	
21/ 3/ 1424	3 لفافات من 20 جوخ	تأمين	Id., f. 47r	
23/ 3/ 1424	لفاف من الجوخ جوخ أحمر من نبات	تأمين	Id., f. 49v	
13/ 7/ 1424	جوخ	تأمين	Id., f. 113v-114r	
14/ 5/ 1425	جوخ	تأمين	ARM, A. Costanti, 1425, f. 76v	

16/ 7/ 1427	20 جوخ ميورقي	تأمين	ARM, A. Costanti, 1427,	تونس
16/ 7/ 1427	جوخ	تأمين	Id., f. 291r	تونس
28/ 10/ 1427	جوخ	كراء بحري	Id., f. 347r	بونة، تونس
11/ 1427	لفافان من 17 جوخ	طلبية	Id., f. 351r	القل، بونة، تونس
7/ 11/ 1427	لفاف من 8 أجواخ	تأمين	Id., f. 351v	تونس
10/ 11/ 1427	لفاف من 8 أجواخ (.1°106)	طلبية	Id., f. 354r	بونة، تونس، ميورقة
15/ 11/ 1427	جوخ	تأمين	Id., f. 363r	القل، بونة، تونس
23/ 1/ 1428	140 جوخ	طلبية	ARM, A. Costanti, 1428, f. 22r	بونة، تونس
28/ 1/ 1428	جوخ	تأمين	Id., f. 24v-25v	وهران، الجزائر
3/ 2/ 1428	10 أجواخ ميورقية	تأمين	Id., f. 29v	القل، بونة، تونس
20/ 1/ 1434	3 لفافات من الجوخ	تأمين	ARM, A. Costanti, 1433-4,	القل
31/ 10/ 1452	قماش	?	ARM, P., B-81, f. 98, 129	
30/ 1/ 1454	قماش	طلبية	ARM, P, M-177, f. 55v-56	

9/ 10/ 1454	قماش (1°125.)	طلبية	ARM, P. 2526, f. 139r	الجزائر
12/ 10/ 1454	قماش	طلبية	Id., f. 142r	الجزائر
23/ 11/ 1454	قماش (1°23.)	طلبية	Id., f. 168v	الجزائر
12/ 4/ 1458	أجواخ أنجليزية، أجواخ أرضية	طلبية	ARM, P, M-180, f. 74v	الجزائر
6/ 2/ 1458	3 لفافات من 30 قماش	طلبية	ARM, P. 2527, f. 29r	الجزائر أو بجاية
17/ 3/ 1459	جوخ	كراء بحري	ARM, P. 2520, f. 73r-74v	الجزائر، بونة، تونس
18/ 4/ 1464	جوخ	تأمين	ARM, P, B-93, f. 31-32	الجزائر
26/ 6/ 1466	قماش (1°125.)	طلبية	ARM, P. 2511, f. 31v	
2/ 6/ 1467	لفافان من الجوخ	دفتر حساب	Livre de compte de la famille	الجزائر، القل
3/ 3/ 1474	15 قماش	اعتراف بدين	ARM, P. 2524, f. 27r	القل، ستورة
14/ 4/ 1474	جوخ	كراء بحري	Id., f. 45r	الجزائر وإذا كان ضروريا بجاية،
4/ 8/ 1480	قماش	تأمين	ARM, P. 1099, f. 126r	

(42) Éd. J. R. de Ayrelorcy Sureda, « Partidas curiosas de los libros de cuenta de la familia Pont », *BSAL*, 21-22, 1926-1927, p. 12-13

يجب وضع صادرات النسيج هذه في السياق العام للعلاقات بين أوروبا المسيحية والعالم الإسلامي. تبيّن كل المجموعات الوثائقية زيادة في صادرات المواد الصناعية، خصوصا المنسوجات الأوروبية نحو المغرب والشرق الأوسط[43]. وهذا مرتبط بازدهار صناعة الجوخ في أوروبا بفضل التعديلات التقنية وعلى الخصوص مناهج العمل التي سمحت بالحصول على منتجات ذات جودة وبقياسات موحدة، منسجمة مع نوع معين من الزبائن[44]. سمح هذا الكسب من الإنتاج تدريجيا للغرب من فرض منسوجاته وحتى موضاته على العالم الإسلامي[45]. انطلاقا من تحليل الحيّز الاقتصادي المملوكي، بيّن إلياهو أشتور، علاقة وصول المنسوجات الغربية بتراجع صناعاتها حيث لم تستطع منافسة المنتجات الأوروبية[46]، مما وضع هذه البلدان في وضعية ممون بسيط بالمواد الأولية. وتحدث عن "إغراق المنسوجات الغربية" لأسواق المشرق[47]. في أسواق بجاية، نجد أهمية صادرات المنسوجات الأوروبية حاضرة، لكن تعوزنا المصادر لمقارنة أسعار المنسوجات المحلية بمثيلتها

(43) Ashtor, « L'exportation des textiles », art. cité.

(44) Cardon, *op. cit.*, notamment p. 576.

(45) M. Aymard, « Production, commerce et consommation des draps de laine du XIIe au XVIIe siècle », *RH*, 499, 1971, p. 5-12 (compte rendu des journées de Prato consacrées à l'industrie textile en Europe).
يؤكد خصوصا على كون تجارة الجوخ "وسيلة قوية للتراجع الاجتماعي والاقتصادي للبلدان المقصودة.
(*Ibid.*, p. 10)

(46) E. Ashtor, « Pagamento in contanti e baratto nel commercio italiano d'Oltremare (secoli XIV-XVI) », *Storia d'Italia. Annali*, 6, *Economia naturale, economia monetaria*, Turin, 1983, p. 394.

(47) Ashtor, « L'exportation des textiles », art. cité, p. 305 ; Id., « Underdevelopment in the Pre-industrial Era. The Case of Declining Economies », *Journal of European Economic History*, 7, 1978, p. 297-298. Voir les analyses, plus nuancées, de D. Coulon, « L'expansion occidentale vers le Levant à la fin du Moyen Âge. La mise en place de structures de domination commerciale », *L'expansion occidentale (XIe-XVe siècles). Formes et conséquences. XXXIIIe Congrès de la SHMES (Madrid, Casa de Velázquez, 23-26 mai 2002)*, Paris, 2003, p. 159-175.

المستوردة إليها [48]. فضلا عن ذلك، ليس بالإمكان الحديث عن انحطاط الصناعة النسيجية البجائية. هذه الأخيرة قطعا لم تمون الصادرات بكيفية ملموسة، لكن هذا لا يعني أنها لم تنتج بتاتا لسوقها المحلي أو الجهوي.

2) المواد الأولية للصناعة النسيجية

بالعكس، نلاحظ اقتناء بجاية للمواد الأولية القابلة لتموين الأنشطة النسيجية من الخارج، رغم إنتاج الجهة للكتان والقنب والقطن والصوف. وتبيّن الواردات وصول هذه المنتجات بكميات غير كافية لتموين الورشات، وهذا مؤشر لنشاط ديناميكي.

ورد الكتان أولا في كتيبات التجار من بين واردات بجاية. فكتيب "المذكرة" *(Memoria)* لشخصية بيزية مجهولة (1278) يعطي فكرة عن العلاقة بين قنطار كتان عكا وقنطار بجاية[49]. لا يجب الاستنتاج بالضرورة وجود تجارة بين عكا وبجاية، لأنّ قنطار عكا كان مستعملا بكثرة في التجارة البحرية[50]. ومعادلة مقاييس الكتان بين بجاية وصقلية كانت أكثر أهمية مما يشير إلى تيار تبادل محتمل

(48) يشير عقد واحد إلى ثمن بيع الجوخ المرسل من جنوة، بسبب نزاع بين صاحب الطلبية –صانع الجوخ– والتاجر الذي حملها. من بين جوخين قرمزيين شالونيين، زعم صاحب الطلبية حصوله على ما بين 37 و39 بوزون في حين أكّد صاحب الطلبية بيعها ما بين 39 و60 بوزون. Giovanni di Guiberto, n° 94, 98 (1200)

(49) *Memoria*, éd. R. S. Lopez, G. Airaldi, « Il più antico manuale italiano della mercatura », *Miscellanea di studi storici*, II, *Collana storica di fonti e studi*, 38, Gênes, 1983, p. 122.

يساوي قنطار الكتان الموزون في عكا ثلاثة قناطير وتسعة أرطال ببجاية.

(50) L. Balletto, « Bougie nei manuali toscani di mercatura del due-trecento », *Italia e Algeria, aspetti storici di un'amicizia mediterranea*, dir. R. H. Rainero, Milan, 1982, p. 92.

جدا [51]. يخبرنا كتيب "المذكرة" أيضا معادلة أكثر من ثلاثة قناطير من كتان بجاية لخمسة قناطير لوتية *(leuti)*، وهو قياس كان مستعملا في الأسكندرية[52]. بالمقابل في بداية القرن الرابع عشر، لم يتحدث بجولوتي عن قنطار كتان بجاية إلا بمعادلته بنظيره في بيزا[53]، وفي نفس الفترة، يضيف كتيب "الممارسة" *(Pratica)* لشركة داتيني (Datini) عن مساواة تشنتينايو *(centinaio)*كتان نابولي (الذي يتكون من 1000 رطل) لأربعة قناطير بقليل في بجاية[54]. تؤكد معطيات كتيبات التجار وتكمّل بالعقود التجارية الجنوية والمرسيلية، حيث هما ميناءان يعيدان توزيع الكتان نحو بجاية.

(51) *Memoria*, éd. Lopez, Airaldi, art. cité, p. 123.

نقلت هذه المعلومات في "ممارسة" لشركة داتيني في القرن الرابع عشر.

Éd. C. Ciano, *La « pratica di mercatura » Datiniana (sec. XIV)*, Milan, 1964, p. 59.

(52) *Memoria*, éd. Lopez et Airaldi, art. cité, p. 122. Balletto, « Bougie », art. cité, p. 84.

(53) Pegolotti, p. 214 :

يساوي 225 ليفر بيزي قنطارًا في بجاية. انطلاقا من معطيات كتيبات التجار هاته، توصلت لورا باليتو (Laura Balletto) إلى حساب قنطار كتان بجاية بوزن 75،129 أو 77،499 كلغ. Balletto, « Bougie », art. cité, p. 87

(54) Éd. Ciano, *La « pratica di mercatura » Datiniana*, *op. cit.*, p. 63.

جدول 9: صادرات الكتان الجنوي نحو بجاية (1161–1291)

الكميات/ المبالغ[55]	طبيعة العقد	التاريخ	المصدر
40 شملة كتان	شركة	10/ 7/ 1161	Giovanni Scriba, n° 849
6 أكياس كتان أسكندري بـ 25 قنطار للواحد	رهن لتبادل بحري	22/ 3/ 1206	Giovanni di Guiberto, n° 1713
10 تورت كتان	طلبية	16/ 9/ 1237	ASG, not. ign., *busta* 15, fr. 142, f. 14v
9°1.18°س	طلبية	23/ 9/ 1239	ASG, min. 24, f. 108r
	طلبية	8/ 10/ 1250	ASG, min. 21/I, f. 58v
5°1.	طلبية	31/ 10/ 1250	ASG, min. 27, f. 14v
6°1.16°س 4°د	طلبية	13/ 5/ 1252	ASG, min. 28, f. 80r
125°1.	طلبية	10/ 5/ 1253	ASG, min. 29, f. 97v
	طلبية	14/ 5/ 1253	Id. f. 103v
30°1.10°س	طلبية	16/ 9/ 1253	ASG, min. 18/I, f. 82r
38°1.	طلبية	26/ 3/ 1254	ASG, min. 30/I, f. 45v
10 لفائف	رهن لتبادل بحري	11/ 5/ 1254	ASG, min. 52, f. 97v
40°1 بكافسيس كتان	طلبية	15/ 5/ 1256	ASG, min. 35, f. 139r
7°1.	طلبية	16/ 4/ 1257	ASG, min. 60, f. 89r
10°1.	طلبية	19/ 4/ 1257	ASG, min. 54, f. 92v
9°1. 13°س كتان إسكندرية مصر	طلبية	13/ 3/ 1264	ASG, min. 61, f. 30r
50°1. كتان وارد من الأسكندرية إلى جنوة	تجارة	11/ 5/ 1282	ASG, min. 73, f. 129r
202°1. 9°س 7°د	تجارة	20/ 3/ 1291	ASG, min. 64, f. 146v

(55) لم تتم الإشارة إلى ثمنها عندما شملت عدة منتجات مختلفة.

إلى هذه المعطيات الجنوية، نستطيع إضافة طلبيتين عهد بهما المرسيلي برنار مونديال(Bernard Manduel) في 1234 و1235، واستثمرت في قسم منها في الكتان[56]. في بعض الحالات، كان هذا القطن معمولا ومباعا على شكل خيوط. في الحقيقة، كانت الخيوط البورجونية التي نصادفها في الصادرات المرسيلية[57] أو الميورقية[58] خيوطا كتانية[59]. أصل هذا المنتوج غير موضح إلا في ثلاثة عقود جنوية تشير صراحة إلى الكتان الوارد من أسكندرية مصر[60]. لكن يزرع أيضا في أوروبا[61] حيث شكلت قطعا المنطقة الرئيسية لتموين التجار.

أكثر من الكتان، كان القطن موظفا في التجارة الكبيرة في البحر المتوسط في العصر الوسيط[62]. وقد غذى صناعة نسيجية طبعا أقل قوة من صناعة الصوف، بيد أنها نشطة. وقد استوردته بجاية انطلاقا من الموانئ الأوروبية التي أعادت غالبا توزيع الإنتاج المشرقي– على غرار الكتان-. يقدم كتيب "ممارسة التجارة"

---

(56) خمسة قناطير ونصف في 1234 وقنطار وثلاثين رطلاً في 1235. Blancard, I, n° 50 (25/8/1234), 64 (14/5/1235)

(57) على سبيل المثال ADBR, 381E 371, f. 51v (6/1/1306): 5 لفائف تزن 19 قنطار و85 رطل. ADBR, 391E 11, f. 168r (13/1/1338) : ست لفائف تزن 34 قنطارًا و50 رطلًا.

(58) توجد عدة رخص تصدير خيوط بورجوني إلى بجاية ما بين 1396 و1418. على سبيل المثال ARM, *guiatges* 5, f. 98r (18/2/1396): لفيفان من خيوط بورجونية

(59) Dubois, *Les Foires de Chalon*, *op. cit.*, p. 55.

(60) أنتجت دلتا النيجر في الحقيقة كميات كبيرة من الكتان المصدّر إلى أوروبا.

M. Lombard, *Les Textiles dans le monde musulman, VIIe-XIIe siècle*, Paris, 1978, p. 47-50 ; Cl. Cahen, « Douanes et commerce dans les ports méditerranéens de l'Égypte médiévale », *JESHO*, 7, 1964, p. 230.

(61) G. Fourquin, *Histoire économie de l'Occident médiéval*, Paris, 3e éd., 1979, p. 168.

(62) Cf. M. Fennell Mazzaoui, *The Italian Cotton Industry in the Later Middle Ages, 1100-1600*, Cambridge, 1981 ; J.-K. Nam, *Le Commerce du coton en Méditerranée à la fin du Moyen Âge*, thèse de l'Université Paris 1, sous la direction de M. Balard, 2004.

(Pratica di mercatura) البيزي لعام 1278 معادلة بين قنطار عكا وبين قنطار قطن بجاية[63]، لكن يمكنه أيضا أن يصل من مصر أو من سوريا المسلمة[64].

ترسل جنوة خصوصا القطن إلى بجاية كما يوضحه عقد شركة لعام 1158، الذي ينص على إرسال عشرين كيسا من القطن[65]. أيضا في 1201، حمله يخت جياكومو كابرا (Giacomo Capra) وأنسليمو برباريا (Anselmo Barbaria) إلى بجاية، بكراء يقدر بـ 3 سو للقنطار[66]، وفي 1257 أخذ بونجيوفاني براتسيو (Buongiovanni Barratio) طلبية بـ 14 ليفر في كيس من قطن[67]. هذا القطن الوارد من المشرق لم يمر بالضرورة عبر جنوة. ففي 1301 بقبرص، تلقى سيموني دو بارا (Simone de Barra) من أنطونيو إليونيس دارنزانو (Antonio Elionis d'Arenzano)– وهو مواطن جنوي– قطنا تم اقتناؤه في الجزيرة حيث نقله إلى تونس أو بجاية[68]. أيضا في 1450، تم تأجير يخت الجنوي دومنيكو دو كاميلا (Domenico de Camilla) الرابض بميناء كيو (Chio) إلى ثلاثة تجار جنويين لحمل 200 قنطارًا إلى مودون (Modon) ثم إلى بلاد البربر، وبالضبط إلى تونس، والجزائر، وبجاية ووهران ثم بعد ذلك الوصول

(63) *Memoria*, éd. Lopez, Airaldi, art. cité, p. 122.

يساوي قنطار عكا 4 قناطير وثلث من قطن بجاية.

(64) في فترة الجنيزة، هو أحد منتجات تجارة مصر.

Sh. D. Goitein, *A Mediterranean Society. The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza*, I, *Economic Foundations*, Berkeley-Los Angeles, 1967, p. 104-105.

(65) Giovanni Scriba, n° 511 (13/10/1158).

(66) Giovanni di Guiberto, n° 348 (3/8/1201).

(67) ASG, min. 60, f. 89v (16/4/1257).

(68) Éd. V. Polonio, *Notai genovesi in Oltremare. Atti rogati a Cipro da Lamberto di Sambuceto (3 luglio 1300-3 agosto 1301)*, Gênes, 1982, n° 251 (27/2/1301).

نفسه أجّر مركبه لعدة تجار لحمل ما بين 60 و80 قنطارا من القطن بالقنطار القبرصي إلى تونس وبجاية.
Éd. Polonio, *op. cit.*, n° 186 (11/1/1301).

إلى قادس (Cadix) وسامبتون (Southampton) [69]. لكن، أصله ليس بالضرورة مشرقيا بما أن صقلية كانت أيضا منطقة تصدير، خصوصا نحو جنوة ثم يرسل إلى أسواق أخرى[70]. تمّ النقل أحيانا مباشرة انطلاقا من الجزيرة كما في 1299 عندما أجّر البلنسي برناردو برفات (Bernardo Perfette) لوحة لتجار كتالانيين وميورقيين لحمل ما بين 80 و100 كيس قطن إلى بجاية[71]. يظهر القطن أيضا في الحمولات التي أرسلتها عائلة موندال (les Manduel) المرسيلية إلى بجاية. فبين 1233 و1238، هناك خمسة عقود تتعلق بإرساليات لهذا المنتوج، حيث يكون مفتولا أحيانا[72]. وأخيرا، نقلته البندقية ومرسيليا بصفة منتظمة نحو موانئ المغرب في نهاية القرن الرابع عشر وخلال القرن الخامس عشر. ففي أفريل وجوان 1395 تمّت الموافقة على أربع رخص *(guiatges)* للميورقيين لحمل ما مجموعه 44 كيسا من القطن إلى بجاية[73]، وهناك عدة عقود تجارية (طلبيات أو استئجار بحري) تتعلق بحمولات القطن[74]. أعادت البندقية – التي تمونت بالقطن من

(69) ASG, Notai antichi, *filza* 765, notaio Bernardo de Ferrariis, doc. 198. Acte instrumenté à Chio le 19/10/1450.

(70) كانت واردات القطن الصقلي كثيرة إلى جنوة. Mazzaoui, *op. cit*., p. 32

(71) Archivio storico di Palermo, notaio Adamo de Citella, f. 92v (16/3/1299), éd. R. Zeno, *Documenti per la storia del diritto marittimo nei sec. XIII e XIV*, Turin, 1936, n° 72 ; P. Gulotta, *Le Imbreviature del notaio Adamo de Citella a Palermo (2° registro, 1298-1299)*, Rome, 1982 (*Fonti e Studi del Corpus membranarum italicarum*, ser. 3, *Imbreviature matricole statuti e formulari notarili medievali*, 2), n° 283.

(72) Blancard, I, n° 31 (20/4/1233), 34-35 (11/5/1233), 76 (14/7/1237), 82 (25/9/1238).

(73) ARM, *guiatges* 5, f. 69v (5/4/1395), 80v (9/6/1395). أنظر أيضا ARM, *guiatges* 3, f. 60r (19/6/1376), 121v (11/8/1377).

(74) ARM, P. 2526, f. 137v (8/10/1454) ; P. 2522, f. 46v (7/3/1455) ; P. 2520, f. 73-74v (17/3/1459), cités par Vaquer, « Navigacio i comerç a Mallorca », art. cité, p. 125 et Id., « Comerç i capital mercantil a Mallorca (1448-1480) », *La Mediterrània. Antropologia i història*, Palma, 1990, p. 166.

المشرق وخصوصا من سوريا[75]- تصدير قسم من هذه الحمولات باتجاه المغرب. ووضع مجلس الشيوخ -الذي ضبط أسعار كراء المراكب إلى بلاد البربر- القطن من بين المواد المحمولة[76]، وفي 1444، دون شك من أجل الحفاظ على عائدات خط النقل البحري (*muda*) ، مُنع حمل القطن مباشرة من بلاد الشام إلى المغرب، وهذا ما يوضح ممارسة ذلك قبل هذا التاريخ[77].

كان الحرير مادة نسيجية أولية أخرى، وهو منتوج فاخر ورد أيضا إلى بجاية على متن المراكب الأوروبية. ففي 1253 بجنوة، استثمرت ست طلبيات في الحرير باتجاه بجاية بمجموع 530 ليفر و14 سو[78]. لكن تمثل سنة استثنائية مع قلة المبيعات الأخرى[79]. يمكن لهذا الحرير أن يأتي من حوض البحر المتوسط الشرقي حيث أدخل إنتاجه إلى المناطق الواقعة تحت سيطرة المسلمين ثم انتشر بشكل واسع. فمرسيليا صدرت حرير السيفان (Cévennes) في القرن الثالث عشر[80]. وفي القرن الخامس عشر تكفلت قوارب البندقية بنقل حرير مالقة أو المرية بعد

(75) É. Vallet, *Marchands vénitiens en Syrie à la fin du XVe siècle*, Paris, 1999, p. 73-75.

(76) Par exemple ASV, *Senato*, *Mar*, Rg. 1, f. 198v-199r (6/11/1443).

(77) ASV, *Senato*, *Mar*, Rg. 2, f. 46r (4/12/1444).

(78) ASG, min. 29, f. 61r (25/4/1253), 68r (30/4/1253), 165r (24/7/1253), 220v (16/9/1253).

(79) Giovanni Scriba, n° 812 (16/4/1161) ; ASG, min. 24, f. 106v (17/9/1239) ; min. 21/I, f. 65v (17/10/1248), 66r (18/10/1248) ; min. 34, f. 86v (20/5/1252) ; min. 30/I, f. 84v (16/5/1254) ; min. 64, f. 170v (26/3/1291).

(80) Blancard, II, n° 598 (27/4/1248).

أخذ جوزيف بن موسى البلرمي (Joseph, fils de Mosse Palerme) طلبية من جوزيون سانفيتو (Douzian Sanvitou) بـ 16 ليفر و5 سو و7 دونيي بعملة مرسيلية مختلطة تتكون من عشرة أرطال حرير و28 بوزون ميلاريس. في 1238، تمت تصفية طلبية من حرير السيفان (*in opere sericho Savenarum*) مرسلة إلى تونس. Blancard, I, n° 82 (25/9/1238)

ذلك إلى المغرب[81]. ربما كانت هناك مبيعات حرير صقلية حتى وإن لم يكن هناك أثر مباشر بالنسبة لبجاية. في القرن الثالث عشر، بحثت جنوة أولا في المشرق حيث شكّل الحرير على غرار التوابل جزءا من المواد الفاخرة. أحيانا يشار إلى أصله في الطلبيات إلى بجاية[82]. نجد أيضا الحرير الأنطاكي[83]، وحرير اللسبيا *(lecpia)* (يسمى أيضا *legia*، أصله من لاهيجان على ضفاف بحر القلزم[84]، أو الملميسترا *(malmistra)* (من ماميسترا في أرمينية الصغرى) [85].

أما فيما يخص صادرات القنب فهي نادرة جدا حيث نقل التجار الأوروبيون قطع القماش نفسها عوضا عن المادة الأولية. ففي 1248، استقبل كاتالاني في مرسيليا طلبية من القنب إلى بجاية[86] وفي 1262 حمل جيوفاني دو كوارتو (Giovanni de Quarto) إلى جنوة 70 رطلاً من فتيل القنب [87] *(canavato filato)*.

(81) على سبيل المثال: ASV, *Senato, Mar*, Rg. 1, f. 198v-199r (11/6/1443) . تراجع منتوج الحرير الأندلسي بداية من منتصف القرن الثالث عشر، بسبب المنافسة، خصوصا من أوروبا المسيحية.

O. R. Constable, *Trade and Traders in Muslim Spain. The Commercial Realignment of the Iberian Peninsula, 900-1500*, Cambridge, 1994, p. 223-224.

(82) على غرار بقية المنتجات، لا نجزم بجلب هذا الحرير من هذه الجهات، لأنه من الممكن أن الأمر يتعلق بتسميات مشتركة لم تغط تجارة حقيقية.

(83) على سبيل المثال: ASG, min. 34, f. 86v (20/5/1252).

(84) J. Day, *Les Douanes de Gênes 1376-1377*, Paris, 1963, glossaire, s. v. Par exemple ASG, min. 29, f. 165r (24/7/1253).

(85) Cf. Balard, *La Romanie génoise*, *op. cit*., p. 725.

على سبيل المثال: ASG, min. 64, f. 170v (26/3/1291) : 196 رطلاً من *seta malmistra* تساوي 428 رطلاً.

(86) Blancard, II, n° 645 (4/5/1248).

(87) ASG, min. 35, f. 168v (30/9/1262).

إلى واردات الألياف هذه المستخدمة في الصناعة النسيجية، تجب إضافة منتجات أخرى أيضا مرتبطة بهذا النشاط وخصوصا بالصباغة على غرار الشب، الطرطار هو حامض سمح بتثبيت الألوان(88) وتم استيراده من مرسيليا في القرن الثالث عشر(89) ومن ميورقة في القرن الخامس عشر(90). يمكننا أن نندهش كون بجاية التي صدرت الشب استوردت مادة لها الخصائص نفسها وأقل منها جودة. لكن الشب المطلوب جدا في أوروبا سمح بالحصول على فوائد كبيرة وليس من المستبعد تفضيل تصديره وشراء الطرطار في العودة(91). من جهة أخرى، اختفى ذكر شب بجاية بعد القرن الرابع عشر في حين نجد واردات هذا المنتوج انطلاقا من

(88) L. Liagre de Sturler, « Le commerce de l’alun en Flandre au Moyen Âge », *Le Moyen Âge*, 61, 1955, p. 177.

جوز الغال كان منتوجا آخر حامض (*Ibid.*, p. 178). ونجده أيضا في واردات بجاية.

(89) Blancard, II, n° 341 (1/4/1248), 581 (24/4/1248), 645 (4/5/1248), 674 (8/5/1248).

كان يأتي هذا الطرطار الذي استوردته مرسيليا خصوصا من مونبلييه (Montpellier).

P. Boissonnade, « Relations commerciales de la France méridionale avec l’Afrique du Nord ou Maghreb du XIIe au XVe siècle, étude d’histoire économique », *Bulletin de la société de géographie*, 1929, p. 1-37.

لكن تعريف الجريزا (*gresa*) في الوثائق المرسيلية على أنه طرطار رفضته آن-ماري بوتيي (Anne-Marie Bautier) التي ترجمت هذه الكلمة بـ القطران.

A.-M. Bautier, « Contribution à un vocabulaire économique du midi », *Archivium latinitanis medii aevi, Bulletin Du Cange*, 27/3, 1957, p. 275.

(90) ARM, A. Costanti, 1424, f. 45 (20/3/1424), 47 (21/3/1424) ; id., 1428, f. 24v-25v (28/1/1428) ; id., 1433-4, f. 14v (20/1/1434), cités par Macaire, *Majorque et le Maghrib*, *op. cit.*, p. 323, 329, 332.

(91) ربما استعمل الشب - الأقل انتشارا عند حرفيي العالم الإسلامي- بسبب الطبيعة المختلفة لمواد التلوين:

D. Lange, « L’alun du Kawar, une exportation africaine vers l’Europe », *Cahiers du CRA [Centre de recherche africaine], Histoire*, 2, 1982, p. 21.

ميورقة[92]. ليس من المستبعد فقدان المدينة لمصادر تموينها به[93] وبالتالي أصبح من الضروري تزودها من أوروبا.

وصلت الملونات أيضا إلى بجاية في حمولات السفن الأوروبية على غرار عام 1253 عندما أعطى الجنوي نقولا دو فديريتو (Nicola de Vedereto) ثلاث طلبيات مستثمرة في قسم منها في النيل القبرصي[94]. استطعنا أن نجد أيضا الفوة (la garance)[95]، وخشب البرازيل[96]، ورهق الغار(l'orpiment)[97].

تظهر هذه الواردات الوفيرة وجود صناعة نسيجية في بجاية أو في جهتها، تستعمل القطن، والكتان أو الحرير. لكننا اندهشنا لهذه المشتريات عندما نجدها منتجات في البلاد الخلفية لبجاية. ربما كان الإنتاج المحلي غير كاف أو أن الواردات تناسبت مع نوعيات مختلفة[98]. لكن يمكننا الاعتقاد أيضا أن إيجاد تموين عبر البحر كان أكثر سهولة أو أقل تكلفة منه مقارنة مع الطرق البرية للبلاد الخلفية.

---

(92) ARM, A. Costanti, 1424, f. 45 (20/3/1424) ; id., 1428, f. 24v-25v (28/1/1428), cités par Macaire, *Majorque et le Maghrib, op. cit.*, p. 323, 329.

(93) ربما له علاقة بتحويل المسالك الصحراوية لفائدة تونس وقسنطينة بعد أزمة القرن الرابع عشر.

(94) ASG, min. 18/I, f. 80v-81r (15/9/1253).

أنظر أيضا: Blancard, II, n° 605 (27/4/1248): طلبية بـ 22 ليفر من العملة المختلطة مستثمرة في مرسيليا بقنطارين و24 رطلاً من النيل القبرصي.

(95) ASG, min. 31/II, f. 93v (16/5/1255) : طلبيتان مستثمرتان في الروزا *(roza)*.

(96) Blancard, II, n° 690 (8/5/1248) :

30 ليفر و13 سو من العملة المختلطة مستثمرة في 4 قناطير و63 رطل من صباغ بوش بريزيلي.

(97) ASG, min. 29, f. 109r (16/5/1253).

هو ملوّن أصفر اللون ومذهب. أنظر: Krueger, « The Ware of Exchanges », art. cité, p. 64

(98) على سبيل المثال، كان قطن المشرق أكثر شهرة من قطن المغرب في الأسواق الإيطالية.

P. Racine, « À Crémone à la fin du XIIIe siècle. Note sur le marché du coton », *Studi in memoria di Federigo Melis*, I, Naples, 1978, p. 538.

3) المواد الغذائية

بالنسبة للمواد الغذائية، من الضروري أكثر تمييز بجاية عن موانئ المغرب مقارنة بالواردات الأخرى. كما رأينا فالجهة لم تكن تفتقد للطاقات الزراعية وبقيت منتجاتها هامة. لكن رغم ذلك، بقيت مستوردة في هذا الميدان.

أ) القمح والحبوب الأخرى

كان القمح واحدا من أهم سلع التجارة المتوسطية[99]. وتفسّر المبادلات أحيانا بالعجز الدائم في المحاصيل، وأيضا أحيانا ببعض حالات القحط العابرة. من الصعب إذن رسم تيارات المبادلات بصورة واضحة، حيث كان لها توجه نحو تغيير الوجهة[100]، لأن بجاية استطاعت أيضا بالمناسبة تصدير الحبوب.

من حيث المبدأ، صنفت الكنيسة الحبوب على وجه الخصوص من بين المواد الغذائية القاعدية التي يمنع بيعها للمسلمين، لأنها – على غرار الأسلحة والخشب، يمكنها تقوية هؤلاء الأخيرين على زيادة قوتهم المهددة للمسيحية[101]. ففي

(99) Ph. Wolff, « Un grand commerce médiéval : les céréales dans le bassin de la Méditerranée occidentale. Remarques et suggestions », *VI Congreso de historia de la Corona de Aragón*, Madrid, 1959, p. 147-164 ; R. Romano, « À propos du commerce du blé dans la Méditerranée des XIVe et XVe siècles », *Hommage à Lucien Febvre*, II, Paris, 1953, p. 149-161 ; M. Balard, J.-Cl. Hocquet, J. Hadziiossif, H. Bresc, « Le transport des denrées alimentaires en Méditerranée à la fin du Moyen Âge », *Maritime Food Transport*, dir. Kl. Friedland, Cologne, 1994, p. 91-98.

(100) Balard et al., « Le transport », art. cité, p. 94.

(101) J. Trenchs Ordena, « Les “alexandrini”, ou la désobéissance aux embargos conciliaires ou pontificaux contre les musulmans », *Islam et Chrétiens du Midi*, Toulouse, 1983 (*Cahiers de Fanjeaux*, 18), p. 176.
لم يتعلق المنع الأول إلا بالخشب والمعادن والأسلحة ثم توسع للمواد الغذائية والخيول وحيوانات النقل والعبيد...إلخ.

1258، رخّص تصدير القمح انطلاقا من بلنسية باستثناء تصديرها نحو الأراضي المسلمة[102].

لكن في الواقع، كانت هناك حقيقة أخرى وبجاية استوردت الحبوب من أوروبا المسيحية. ورخصت البابوية في بعض الحالات هذه المتاجرة. ففي 1241 ثم من جديد في 1248، كان لأسقف ميورقة صلاحية الترخيص لأبناء الأسقفية حمل الأقوات إلى أرض الإسلام لكن بشروط[103]. وقبل بهذه المتاجرة الملوك أنفسهم لأسباب ضرائبية أو دبلوماسية. فقد أعطى جاك الثاني (Jacques II) حرية تصدير الحبوب إلى الأراضي المسيحية أو المسلمة بشرط أن لا تكون مملكته في فترة قحط[104]، وتمّ تأكيد إجراءاته بصفة منتظمة[105]. وقد نبّهت المعاهدات المبرمة مع الدول المغاربية على تجارة الحبوب هذه، وهذا ما يوضح أنها لم تعتبر فاضحة أو مخجلة. فمعاهدة 1271 الموقعة بين لاكورونيا أراجونة والحفصيين تنص على عدم دفع الرسوم على الحبوب التي تستوردها السلطنة، وهذه إشارة للأهمية التي تكتسيها هذه الواردات[106]. لكن لا يجب أن نستنتج بالضرورة

(102) Éd. R. I. Burns, *Diplomatarium of the Crusader Kingdom of Valencia*, Princeton, II, 1991, n° 154 (28/6/1258).

(103) *Les Registres de Grégoire IX*, éd. L. Auvray, III, Paris, 1908-1910, n° 5960 (9/4/1241) ; *Les Registres d'Innocent IV*, éd. E. Berger, I, Paris, 1884, n° 3731 (21/3/1248).

يجب أن تكون بلاد الوجهة على سلم مع القوى المسيحية. أنظر:

J. J. Vidal, « El comercio de trigo entre Mallorca y Africa del Norte en los siglos XVI y XVII », *Mayurqa*, 15, 1976, p. 74-75.

(104) Cl. Carrère, *Barcelone au temps des difficultés*, *1380-1462*, Paris, 1967, p. 19.

(105) Vidal, « El comercio de trigo », art. cité, p. 74-75.

(106) معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1271، المادة 25.

وجود عجز دائم في إنتاج الحبوب بإفريقية، لكن السلطان يعطي لنفسه إمكانية جلب تموين خارجي في حالة المحصول السيئ.

وتشهد كتيبات "ممارسة التجارة" على حقيقة تيارات مبادلات الحبوب. فكتيب الفلورنسي بجولوتي (Pegolotti) المدوّن بين 1310 و1340 يعطي معادلات وزن الحبوب في سوق بجاية(107) ويظهر تجارة مع جهات الحبوب في إيطاليا الجنوبية وصقلية. لا يشير النص إلى اتجاه هذه التجارة، لكننا نعرف أن هذه الجهات كانت مصدرة للحبوب وليس هناك شك بأن النقل جرى من إيطاليا إلى المغرب. إنّ المعادلات التي يقدمها لنا *(Pratica)* تبيّن أيضا بعض مناطق التموين بحبوب بجاية في بداية القرن الرابع عشر.

في بادئ الأمر، يجب تسجيل العلاقة بين جنوة وبجاية. لا نجد تقريبا في العقود التوثيقية للقرنين الثاني عشر والثالث عشر صادرات للحبوب من جنوة نحو بجاية، لكن الأكثر وضوحا هو التيقن من المعادلة الكاملة بين المعدن الجنوي وفالاتشا *(falacca)* بجاية. وتعتقد لورا باليتو (Laura Balletto) أن هناك تأثير لأنظمة القياسات بين الميناءين(108)، رغم صعوبة تحديد اتجاه هذه الاستعارة.

(107) يميّز بجولوتي بين تونس وبجاية في وزن الحبوب. نستعمل في تونس القفيز وفي بجاية الفالاتشي أو الفانقة. أنظر:

R. Brunschvig, « Mesures de capacité de la Tunisie médiévale », *RA*, 77, 1935, p. 86-96. Id., *La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines au XVe siècle*, II, Paris, 1947, p. 251.

تسمح إشارات بجولوتي بقياس العلاقة بين أنظمة القياس التونسية والبجائية: مائة سالمي مانفردونيا (Manfredonia) من الحبوب تساوي مائة قفيز في تونس و228 فلاتشي في بجاية، وهذا ما يسمح باستنتاج أنّ الوحدة البجائية كانت تساوي أقل بقليل من نصف قفيز تونس. Pegolotti, p. 169. خصوصا، أنه يعطي معادلة كاملة بين المين الجنوية من الحبوب والفالاتشا (*ibid.*, p. 223)، وهذا ما يعطي وحدة تعادل 105،79 لتر. Balletto, « Bougie », art. cité, p. 91. باعتماده على قيمة قفيز تونس (175 لتر 92)، أعطى روبار برونشفيك فالاتشا بحوالي 72 لتر. Brunschvig, *La Berbérie*, *op. cit.*, II, p. 251

(108) Balletto, « Bougie », art. cité, p. 94.

إنّ ليجوريا (Ligurie) ليست بجهة كبيرة للحبوب، لكن جنوة خزنت المواد القادمة من مناطق أخرى وصدرتها إلى بجاية[109]. كان بالإمكان إعادة تصدير الحمولات الواردة خصيصا من رومانيا باتجاه الأسواق المغاربية[110]. لكن إذا كان من الممكن استعمال الموانئ الكبرى مثل جنوة وبيزا أو أيضا ميورقة كبديل، فإنها لم تكن منفذا للجهات الكبرى المنتجة للحبوب. كان يرد إذن القسم الأكبر من القمح من المناطق المنتجة الواقعة أساسا في جنوب إيطاليا وفي جزيرتي صقلية وسردينيا.

لقد وضع بجولوتي البويي (les Pouilles)–التي كانت جهة منتجة ومصدرة للحبوب– على علاقة مع بجاية، حيث سجّل أن مائة سالمي *(salme)*حبوب مانفردونيا (Manfredonia) يساوي 228 فالاتشي *(falacche)* بجائي[111]. أيضا، كانت صقلية مخزنا تقليديا للقمح لقسم من أوروبا، لكنها صدّرت أيضا نحو المغرب[112]. بين 1274 و1281 من بين رخص تصدير الحبوب التي منحتها السلطات الأنجفية[113] (قمح وشعير) انطلاقا من الجزيرة، هناك ثلاثون رخصة تتعلق ببجاية، وتونس وغيرهما في بلاد البربر. ومن المستحيل إجراء تقدير كمي، لأنّ الوثائق في الغالب تبقى غير دقيقة فيما يتعلق

(109) Balard et al., « Le transport », art. cité, p. 96.

(110) Balard, *La Romanie génoise*, *op. cit.*, p. 752-754.

كان بالإمكان التنقل مباشرة من موانئ رومانيا نحو المغرب دون المرور بجنوة. في 1290، تمّ كراء زورق القديس متيو (San Matteo) في كفا (Caffa) لحمل 5000 مين حبوب باتجاه سوريا وتونس وبجاية وجنوة وبروفانسيا وبيزا أو إسبانيا حسب إرادة التجار.

Éd. M. Balard, *Gênes et l'Outre-Mer, I, Les actes de Caffa du notaire Lamberto di Sambuceto, 1289-1290*, Paris-La Haye, 1973, n° 886 (9/8/1290).

(111) Pegolotti, p. 169.

هذه الإشارة هي ثمينة لأننا نفتقد لوثائق تجارية خاصة بإيطاليا الجنوبية.

(112) H. Bresc, *Un monde méditerranéen ; économie et société en Sicile, 1300-1450*, Rome, 1986, p. 523.

(113) غالبا ما يتعلق الأمر بمايسترو بورتلانو *(Maestro Portulano)* المكلف بتنظيم بيع حبوب المملكة.

بالوجهة، مانعة فقط تموين جنوة، بيزا أو أراضي الباليولوج (Paléologue)، ولكن بترك التاجر حرا في البيع بالبندقية، واسكالفونيا (Scalvonie) وكلارنزا (Clarenza) وعكا أو إلى المغرب. هناك وثيقتان واضحتان فقط لعام 1276، حيث تضعان ملخصا حول اتجاه ذهاب المراكب خلال السنة، مشيرتان إلى ميناء الذهاب والوجهة واسم المركب ومالكه وأيضا كمية القمح المحمول[114].

جدول 10: واردات الحبوب من المملكة الأنجفية (1276)

التاريخ	ميناء الحمولة	الكمية بالسالمي[115]	المركب
4/ 4	تراباني (Trapani)	1630 ½	لاربيتشا (Larbicca) (أو برليكتا Barlecta)، وهو يخت ماتيو دو ريزو (Matteo de Riso)، مواطن من مسينا.
14/ 4	تراباني	900	سانتا كروتشي (Santa Croce)، يخت برسيفالو دو كافاتا (Percevallo de Chavata)، مواطن من مسينا.
20/ 4	مرسيليا	300	سان نكولا (San Nicola)، مركب أونريكو دو ماري (Enrico de Mari).

(114) Éd. N. Nicolini, *Codice diplomatico sui rapporti veneto-napoletani durante il regno di Carlo I d'Angiò*, Rome, 1965, n° 153 (24/7/1276), 160 (4/12/1276).

(115) تساوي سالمة القمح الصقلي 2،76 مائة لتر. أنظر: Bresc, *Un monde méditerranéen*, *op. cit.*, p. 55

سان نكولا، مركب جياكومو بوتشاسيلا (Giacomo Buccacella) وبرتو البيزي (Berto Pisano).	300	تراباني	4 /23
ألجرانتيا (Allegrantia)، يخت ميشالي أرجيلاجا الطرطوشي (Michele Argillaga de Tortosa).	700	تراباني	4 /23
سان نكولا، مركب أنتونيو دو ميليو المسيني (Antonio de Milio de Messine).	300	تراباني	4 /25
سان فرانشيسكو (San Francesco)، مركب كولي روسو (Coli Russo).	400	سياتشا (Sciacca)	5 /6
سان جياكومو (San Giacomo)، يخت جروتشو البيزي (Grocco Pisano).	700	سياتشا	5 /6
سان نكولا، طريدة بيترو تورونتيس (Petro Torrentis)، تاجر كاتالاني.	300	سياتشا	5 /6
سانتا كروس (Santa Croce)، طريدة بيزانو دو بلانو (Pisano de Plano)، تاجر بيزي.	200	أجريجونتي (Agrigente)	5 /14
سان جيوفاني (San Giovanni)، مركب بونيزونج فربارومي (Bonainsenge Verbaromi).	300	أجريجونتي	5 /16
سان جياكومو، مركب سموني دو كامبو (Somone de Campo).	400	بلرم	5 /20

5 /20	مازر	300	سانتا كروس، يخت جياكومو لوروم (Giacomo Lerrum) وماركو دو جسالوني (Marco de Cusalone).
5 /24	مازر	600	سان سبريتو (San Spirito)، يخت ماتيو دو كابرونو (Matteo de Caprono)
5 /28	أجريجونتي	400	سان بيترو (San Pietro)، مركب برتوليميو دو منتيماجنو (Bartolomeo de Montemagno).
6 /4	ليكاتا (Licata)	250	سان نكولا، مركب كربونيس (Carbonis).
6 /6	ليكاتا	200	سان جوجليامو (San Giuliano)، مركب بسانو دو لودا (Bassano de Lauda).
6 /10	أجريجونتي	400	سان بلازيو (San Blasio)، مركب ماتيو جرافيسي السالرني (Matteo Gravicie de Salerne).

إذن خلال ثلاثة أشهر نقل 8580 سالمي ونصف إلى بجاية أو نحو ميناء إفريقي آخر، أي 23681 لتر. ربما يتعلق الأمر بسنة استثنائية من المحاصيل السيئة أو أزمة في المغرب، لكن لا شيء يثبت ذلك[116]. وتوضح معطيات أرشيف نابولي - غير المكتملة في جميع الحالات- إرسال كمية هامة من الحبوب نحو بجاية

(116) تميّزت سنة 1281 بقحط في إفريقية.

R. Vernet, « La production céréalière dans le Maghreb du XIIIe siècle », *Jaime I y su época, X congreso de historia de la Corona de Aragón*, III, Saragosse, 1978, p. 267.

لكننا لا نعرف شيئا عن السنوات السابقة ما عدا أنها سجلت بدايات الأزمة السياسية بين تونس وبجاية حيث استطاعت إرباك التجارة الداخلية.

وإفريقية حتى 1281 م[117]. والمعلومات المتعلقة بالسنوات اللاحقة للتاريخ السالف الذكر متفرقة جدا، لكنها تظهر استمرار التجارة على الأقل إلى غاية بداية القرن الرابع عشر. ففي 1286، طلب ألفونسو الأول ملك أراجونة الحسابات من برنجر دو كونك (Berenguer de Conques)، الذي كان قد تحصل على رخصة لنقل حبوب صقلية إلى برشلونة، لكنه باع حمولته في بجاية[118]. يظهر هذا التحويل أنّ بجاية كانت سوقا هاما لتاجر قليل الوفاء بتعهداته، وبالتالي كان بها الطلب قويا. في السنة الموالية ببلرم، أجّر الجنوي أندريولو دلا فولتا (Andreolo della Volta) زورقه القديس أنتونيو (San Antonio) لتاجر من مسينا (Messine) وهو برونو جميلو (Perrono Gemillo) وشركائه للحمولة من عدة موانئ صقلية 2500 سالمي من القمح إلى بجاية أو إلى جنوة[119]. وتؤكد عدة أمثلة على تيار المبادلات هذه في نهاية القرن الثالث عشر وفي بداية القرن الرابع عشر. ففي 1292، أجّر ثلاثة سافونيين مركبهم سانتا ماريا (القديسة مريم) (Santa Maria) إلى جنوة بغية حمل 1500 سالمي من الحبوب الصقلية إلى جنوة أو إلى بجاية[120]. وفي 1294، أجّر مركبا يعود لأناس من تراجونة (Tarragone)

(117) Éd. N. Nicolini, *Codice diplomatico*, *op. cit.*, n° 90 (1274), 140, 142 (1275), 162, 175, 176, 190 (1277), 214, 215 (1278). *I Registri della Cancelleria Angioina ricostruiti da Riccardo Filangieri con la collaborazione degli archivisti napoletani*, XXI, n° 110 (1278) ; XXIII, n° 237 (1280) ; XXV, n° 3 (1280) ; XXIV, n° 103, 458 (1281).

حول تجارة القمح الصقلي لهذه السنوات، أنظر:

M. de Boüard, « Problèmes de subsistance dans un État médiéval : le marché et les prix des céréales au royaume angevin de Sicile (1266-82) », *Annales d'histoire économique et sociale*, 10, 1938, p. 483-501.

(118) ACA, C., Rg. 58, f. 44r (2/8/1285) ; Rg. 65, f. 125v (avril 1286).

تعهد التاجر بتزويد برشلونة وبعد تسديده لرسم من أجل ذلك، وجب عليه دفع الحسابات بعد تحويله لحمولته مهما يكن ميناء التفريغ المختار. لا يوضع إذن الطلب بالضرورة على علاقة مع منع بيع الحبوب إلى المغرب أو إلى المسلمين.

(119) Éd. P. Burgarella, *Le imbreviature del notaio Adamo de Citella a Palermo*, Rome, 1981, n° 394 (25/8/1287).

(120) ASG, min. 63/I, f. 189v (14/6/1292).

لتاجر برشلوني للذهاب لجلب القمح من صقلية (على الأقل 1500 سالمي وإن أمكن 1800) ونقله إلى تونس أو بجاية، وإلى جنوة أو بيزا، وإلى ميورقة أو إلى كتالونيا[121]. وفي 1309، ذهب الجنويان جياكومو بونيتو (Giacomo Bonetto) وججليالمو كوستاسرفي (Guglielmo Costaservi) إلى سياتشا (Sciacca) لجلب القمح وحمله على متن طريدتهما إلى بجاية[122]. أخيرا، في 1315 ببلرم، تمّت تسوية قضية بين تجار بيزيين تتعلق بطلبية من 1517 سالمي من القمح (بمكيال سالة الأجريجنتي Agrigente) حملت إلى بجاية [123].

بالمقابل لا نملك أي إشارة لواردات بجاية من القمح الصقلي. فعلى غرار الكتالانيين، استمر الجنويون في نقل الحبوب نحو المغرب[124]، لكن بصفة إجمالية أصبح هذا التيار ضعيفا خصوصا بعد 1349، وأصبحت وجهة المسافرين نحو تونس[125]. وكسب القمح الصقلي من جديد الأرضية بالمغرب بداية من الثلث

(121) ACA, *Clero, Monacales, Pergaminos de la Cartuja de Montalegre*, année 1294 (5/7/1294), éd. Ch.-E. Dufourcq, *Recueil de documents concernant les relations des pays de la Couronne d'Aragon avec le Maghreb de 1212 à 1323*, thèse complémentaire, Université de Paris, 1965, n° 411.

(122) Archivio di Stato di Palermo, *notaio* Bartolomeo de Citella, f. 434v, éd. Zeno, *Documenti per la storia del diritto*, *op. cit.*, n° 169.

(123) ASP, *Diplomatico S. Silvestro di Pisa*, 29/1/1315.

(124) A. Giuffrida, « La realtà economica della presenza genovese in Sicilia nel secolo XIV », *Genova e Pisa, Atti del seminario di studi sulle interrelazioni tra il regno di Sicilia e i comuni di Genova e di Pisa nell'età di Enrico VII di Lussemburgo, Istituto storico siciliano*, Palerme, 1988, p. 80-82.

(125) Bresc, *Un monde méditerranéen*, *op. cit.*, p. 536. M. Aymard, « Le blé de Sicile dans l'économie méditerranéenne au XVe siècle », *La Corona d'Aragona e il Mediterraneo : aspetti e problemi comuni da Alfonso il Magnanimo a Ferdinando il Cattolico (1416-1516). IX Congresso di storia della Corona d'Aragona, Napoli, 11-15 aprile 1973*, Naples, 1982, p. 287.
لاحظ براسك توقف في صادرات الحبوب نحو المغرب، والمشرق والبندقية بعد 1330-1340. أنظر أيضا:

D. Abulafia, « Sul commercio del grano siciliano nel tardo medioevo », *La Società mediterranea all'epoca del Vespro : XI Congresso di storia della Corona d'Aragona, Palermo-Trapani-Erice, 25-30 aprile 1982*, II, Palerme, 1983, p. 5-22.

الثاني من القرن الخامس عشر[126]، لكن هنا أيضا كان بالأحرى الذهاب إلى تونس لبيع القمح[127].

إنّ سردينيا منطقة زودت بجاية بالحبوب، لكنها بأهمية أقل[128]. كما في حالة صقلية، نرى أنّ التجار القادمين من الموانئ الأوروبية الكبرى يحملون الحبوب من الجزيرة ويبيعونها في المغرب. خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، كانت سردينيا مسرحا للصراع بين جنوة وبيزا، فكانت سيطرة لاكورونيا أراجونة عليها في 1324 السبيل لفتح أبوابها للتجار الكتالانيين دون إقصاء الإيطاليين بصفة شاملة[129]. ففي 1313 بجنوة، باع ثلاثة تجار من 3000 إلى 4000 مين (جنوي) من الشعير حيث وجب حملها إلى سردينيا على متن مركب سانتا ماريا،

(126) Bresc, *Un monde méditerranéen, op. cit.*, p. 536. S. R. Epstein, *An Island for itself. Economic Development and Social Change in Late Medieval Sicily*, Cambridge, 1992, p. 308-309. G. Petralia, *Banchieri e famiglie mercantile nel Mediterraneo aragonese. L'emigrazione dei Pisani in Sicilia nel quattrocento*, Pise, 1989, p. 112, 372. M. del Treppo, *I Mercanti catalani e l'espansione della Corona d'Aragona nel secolo XV*, Naples, 1972, p. 371-374.

(127) Del Treppo, *I Mercanti*, *op. cit.*, p. 287.

إن سجلات *Maestro Portulano* هي في الغالب غير واضحة بخصوص الوجهة، مشيرة إلى ذهاب السلعة إلى بلاد البربر، ومدينة تونس وغيرها من موانئ بلاد البربر .

pro partibus Barbarie, civitate Tunisi et altris locis Barbarie. M. Aymard, « Le blé de Sicile, année 1500 », *Studi dedicati a Carmelo Trasselli*, éd. G. Motta, Messine, 1983, p. 80-81.

(128) حول مكانة سردينيا في التجارة المتوسطية للحبوب، أنظر:

M. Tangheroni, *Aspetti del commercio dei cereali nei paesi della Corona d'Aragona*, I, *La Sardegna*, Pise, 1981.

(129) P. Amat di San Filippo, *Indagini e studi sulla storia economica della Sardegna*, Turin, 1902, p. 61, 95. M. Tangheroni, « Il *Regnum Sardinie* nell'economia della Corona d'Aragona », *Medioevo Tirrenico*, Pise, 1992, p. 74.

حول النزاع الجنوي-البيزي في سردينيا، أنظر:

A. Boscolo, Fr. Artizzu, *La Sardegna pisana e genovese*, Sassari, 1985.

وتسديدها بالذهب في بجاية بثمن 12 سو و6 دونيي للمين[130]. أيضا في 1329، ارتبط برنات دو بوكسادور (Bernat de Boxadors) حاكم سردينيا بشراكة مع تجار كتالانيين وباع الحبوب إلى بجاية[131]. أحيانا، منع ملك أراجونة تصدير حبوب سردينيا إلى مسلمي المغرب[132]، لكن التحايل الدقيق سمح بالالتفاف على ممنوعات البابوية، كما حدث في 1491 عندما تحصل فرديناند من البابا على رخصة بيع قمح سردينيا في بجاية بهدف تسديد نفقات الصراع ضد سلطنة غرناطة[133].

استطاعت بجاية أيضا التزود مباشرة من سهول الحبوب بالمغرب[134]. لا نعرف هل كان عن طريق التجارة البرية للمنتجات الزراعية أم عن طريق السفن المسلمة. من غير اليقظة الاستنتاج -كما فعله روبار فارني(Robert Vernet) - بشراء التجار المسيحيين للفائض[135]. إنّ الإشارات الوحيدة لتجارة مغربية-مغربية هي الوثائق التي تظهر سفنا مسيحية تضمن نقلا للحبوب من موانئ المغرب الأوسط نحو بجاية. ففي 1344 تفاوض سلطان تلمسان مع الميورقي بدرو

(130) ASG, min. 77, f. 212v-214v (13/6/1313).

(131) ARM, *Supplicationes*, vol. VII, f. 3 (29/3/1329), cité par Ch.-E. Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIIIe et XIVe siècles* : *de la bataille de Las Navas de Tolosa (1212) à l'avènement du sultan mérinide Abou-l-Hasan (1331)*, Paris, 1966, p. 66.

(132) ACA, C., Rg. 2398, f. 68r-v (8/12/1413).

(133) ACA, C., Rg. 3666 *2a numeración*, f. 36v-37r, éd. A. de la Torre, *Documentos sobre relaciones internacionales de los reyes católicos*, III, Barcelone, 1951, a. 1491, n° 59, p. 407-408.

(134) شغلت المناطق الكبرى لإنتاج الحبوب سهول مجردة في إفريقية، وخصوصا المناطق الساحلية للمغرب الأوسط والمغرب الأقصى. تواجد أيضا القمح في هضاب منطقة قسنطينة وفي سهل بونة.

R. Vernet, « Recherches sur la production et la circulation des céréales dans le Maghreb médiéval », *RHCM*, 13, 1976, p. 31-62.

(135) R. Vernet, « Les relations céréalières entre le Maghreb et la Péninsule ibérique du XIIe au XVe siècle », *AEM*, 10, 1980, p. 323.

(Pedro) لارسال القمح من هنين إلى بجاية[136]، وفي 1382 سافر ميورقي صاحب مركب إلى وهران حيث حمل قمح تاجر مسلم لنقله إلى بجاية[137]. أخيرا، في 1453 ينص عقد كراء ميورقي على حمل القمح من تنس لبيعه في بجاية[138]. لكن ليس من المستبعد قيام المراكب المسلمة نفسها بعمليات النقل هذه. وفي النهاية، تمّ نقل منتجات البلاد الخلفية البجائية إلى الميناء عبر البر.

من الصعب بالنسبة لتجارة كما هو حال تجارة الحبوب استخراج نتائج عامة جدا انطلاقا من الأمثلة المتفرقة. لكن يظهر لجوء بجاية – ولو على الأقل في بعض السنوات- إلى واردات الحبوب عبر البحر، وهذا ما يمكن أن تكون إشارة إما إلى صعوبات التزود من البلاد الخلفية (عدم كفاية الإنتاج، عدم توفر الأمن على الطرقات، طول وكلفة النقل) وإما إلى ظروف بيع أكثر ملائمة بالنسبة للحبوب المستوردة عبر البحر (الأسعار، الكميات، ربما النوعية).

ب) منتجات غذائية أخرى

استوردت بجاية أيضا منتجات غذائية أخرى، لكن بكميات أقل أهمية.

في البداية، نحن مندهشون لواردات الزيت. رأينا أن شجر الزيتون يمكنه النمو في جبال بلاد القبائل، لكن الجغرافيين لم يذكروه تقريبا، ولم يشيروا إلى إنتاج زيت الزيتون إلا نادرا. بيد أن الوثائق التجارية تظهر تيار واردات الزيت من

(136) ARM, LLC, 4, f. 271r-v (18/1/1344), cité par M. D. López Pérez, *La Corona de Aragón y el Magreb en el siglo XIV (1331-1410)*, Barcelone, 1995, p. 386.

(137) ACA, C., Rg. 1444, f. 113r-v (29/5/1382).

ذهب صاحب المركب في النهاية إلى إيبيزا أين باع التاجر والسلعة، وهذا ما أدى إلى انتقام سلطان تلمسان.

(138) ARM, P B-81, f. 132v ; B-83, f. 2v-3 (2/1/1453), cité par O. Vaquer, *El Comerç marítim de Mallorca. 1448-1531*, Palma de Majorque, 2001, p. 184.

بجاية. لا يجب أن نخلص إلى أن هذا الإنتاج لم يكن موجودا في الجهة، لأن الواردات يمكنها أن تختص بزيوت معينة، أو إكمال لإنتاج غير كاف. لكن الذي يتبيّن بوضوح هو تميّز بجاية -على غرار الحبوب- عن جهات أخرى في المغرب، خصوصا الساحل التونسي.

تذكر كتيبات ممارسة التجارة هذه التجارة إلى جانب تجارة الحبوب. فيخبرنا دليل التاجر البيزي لعام 1278 أن ميجليايو *(migliaio)* من زيت البويي الصافي يساوي ستة عشر جرة تونسية وبجائية[139]. وبعد ذلك بقليل، يقول لنا بجولوتي أن ميجليايو الزيت البويي (Pouilles) نفسه يعادل أربعة قناطير زيت بجاية وأنّ ميجليايو نابولي يساوي أكثر من أربعة قناطير بجائية بقليل[140]. لا يدهشنا تصدير زيت البويي وكمبانيا (Campanie) لأنهما كانتا جهتا إنتاج كبيرتين[141]. على غرار الحبوب، تمت هذه التجارة على عاتق تجار مدن الشمال، خصوصا بيزا وجنوة. على سبيل المثال، في 1278، باع تاجر بيزي الزيت – ربما تسكاني- في بجاية[142]. أيضا في جنوة عام 1201، نص عقد استئجار بحري على 2 سو على كل ميزاروليا *(mezarolia)* [143]زيت وتم استثمار طلبيتين في الزيت في 1248 و1263 [144].

(139) *Memoria*, éd. Lopez, Airaldi, art. cité, p. 123.

هذا يساوي قنطار زيت بجائي أو تونسي، ويقدر بـ 35،662 كلغ. Balletto, « Bougie », art. cité, p. 92

(140) Pegolotti, p. 169, 188.

(141) G. Cherubini, « I prodotti della terra : olio e vino », *Terra e uomini nel Mezzogiorno normanno-svevo, Atti delle settime giornate normanno-sveve, Bari, 15-17 ottobre 1985,* dir. G. Musca, Bari, 1987, p. 187-234 ; J.-M. Martin, *La Pouille du VIe au XIIe siècle*, Rome, 1993, p. 343-347.

(142) ASP, *Diplomatico Roncioni*, 17/10/1278.

(143) Giovanni di Guiberto, n° 348 (3/8/1201).

(144) ASG, min. 21/I, f. 62r (13/10/1248) : عشرة براميل زيت ; ASG, min. 36, f. 283r (1/10/1263) : 5 livres 17 sous en huile.

تزودت بجاية أيضا من شبه الجزيرة الإيبيرية. إنّ صادرات الزيت الإسباني في العالم المتوسطي قديمة والمسلمون الذين استقروا في الأندلس حافظوا على هذه التقاليد القديمة، ممونين خصوصا المغرب بزيت جهة إشبيلية[145]. ليس إذن بالمفاجئ أن نجد تجارا مسيحيين باشروا بدورهم هذه التجارة. ففي 1242، أرسلت عشرة جرار زيت من ميورقة إلى بجاية[146]. وتنص معاهدة 1312 بين سانش الميورقي وأبو يحيى أبي بكر تصدير ألفي جرة زيت معفاة من الرسوم إلى بجاية[147]، وفي 1316 نرى تاجرًا بجائيًا قادما إلى بلنسية لشراء 60 أروباس (*arobas*) زيت[148]. في القرن الخامس عشر، استمرت ميورقة في تصديره نحو بجاية[149] وفي 1492 نص عقد استئجار بحري على حمولة 170 جرة زيت من بلنسية إلى إيبيزا (Ibiza) وبجاية[150].

(145) Constable, *Trade and Traders*, *op. cit.*, p. 182-183.

دخلت هذه التجارة الأندلس وبقيت بجاية غامضة بسبب غياب وثائق.

(146) ARM, P. 342, f. 149v, cité par D. Abulafia, *A Mediterranean Emporium. The Catalan Kingdom of Majorca*, Cambridge, 1994, p. 124.

(147) معاهدة ميورقة- بجاية، 1321، المادة 2.

(148) تهيأ لإرسالها إلى المغرب عندما طلب بالي (Bailli) البلنسي من الملك رخصة توقيفه انتقاما من سجن تاجر بلنسي ببجاية.

ACA, CRD, Jaime II, *caja* 60, n° 11052 (23/3/1316), éd. A. Masià de Ros, *La Corona de Aragón y los estados del Norte de Africa*, Barcelone, 1951, n° 138.

(149) على سبيل المثال:

ARM, P., A. Costanti, 1408, f. 14v (9/3/1408) ; Id., 1428, f. 24v-25v (28/1/1428), cités par Macaire, *Majorque et le Maghrib*, *op. cit.*, p. 104, 329. ARM, P. 2526, f. 137v (8/10/1454), cité par Vaquer, « Navigacio i comerç a Mallorca », art. cité, p. 125. Voir également Id., *El Comerç marítim de Mallorca. 1448-1531*, Palma de Majorque, 2001, p. 438 (27 جرة زيت إلى بجاية عام 1478)

(150) ARV, P., Rg. 2009, f. 375v-376v (23/7/1492).

تنوعت بقية المواد الغذائية التي استوردتها بجاية، لكنها لم تمثل كميات هامة. إنّ دليل التجار يشير إلى المتاجرة بالجوز[151]، والبندق[152] والقسطل[153]، وهذا ما تؤكده العقود التجارية. ففي 1261 بجنوة، أجّر سيموني دي سانت أمبروجيو (Simone di Sant'Ambrogio) ونكولوسو دو بروشريس (Nicoloso de *Bruscheris)* لوحا إلى بونجيوفاني مراتشيو (Buongiovanni Marracio) لحمل ما بين 50 إلى 100 مين من القسطل إلى بجاية[154]. وصدّرته مرسيليا أيضا كما تبيّنه ثلاثة عقود في 1248 لحمولات القسطل الوافدة ربما من السيفان (Cévennes) القريبة منها[155]. وفي 1337 أرسل بيار أوستريا (Pierre Austria)– مواطن مرسيلي- 31 قنطار قسطل على متن لوح "اللص" جون سجانيني النربوني (de Jean Seganini de Narbonne) بواسطة بيار لوتو (Pierre Lautaud)[156] . وفي السنة الموالية، أخذ هذا الأخير طلبية جديدة لبجاية،

(151) *Memoria*, éd. Lopez, Airaldi, art. cité, p. 123.

واحد سنتونايو *(centenaio)* من جور نابل يساوي 140 قنطار بجائي.

(152) *Ibid.* ; Pegolotti, p. 188. يساوي سنتايو بندق نابولي 145 قنطار ببجاية

(153) *Memoria*, éd. Lopez, Airaldi, art. cité, p. 123.

يساوي سنتنايو قسطل غير مسحوق بنابولي 135 قنطار ببجاية وسنتايو قسطل مسحوق 230 قنطار.

(154) ASG, min. 61, f. 245v (28/1/1261).

(155) طلبيتان قيمتهما على التوالي 9 ليفر من العملة المختلطة وضمان مبادلة 12 ليفر بـ 40 كيس من القسطل.

Blancard, II, n° 354 (2/4/1248), 601 (27/4/1248), 657 (8/5/1248).

(156) ADBR, 391E 11, f. 14r-v (avril 1337).

كان بيار أوستريا (Pierre Austria) أيضا برجوازيًا نشطًا جدا بمونبيليه، في منفذ الجبال السفونولية، وهذا ما يمكن تفسيره من تجارة القسطل هذه. أنظر:

J. Combes, « Quelques remarques sur les bourgeois de Montpellier au Moyen Âge », *Recueil de mémoires et travaux de la Société d'histoire du droit et des institutions des anciens pays de droit écrit*, 7, 1970, p. 128.

مستثمرة خصوصا في 9 ليفر قسطل[157]. وأخيرا، في 1424، تمّ تسيير حمولة تحتوي على أربع جرار بندق من ميورقة إلى بجاية[158].

من حيث المبدأ، كان استهلاك الخمر ممنوعًا على المسلمين حتى وإن كان فندق الخمر مفتوحا للجميع في بعض الفترات. في المقابل، ما هو أكيد هو أن السكان المسيحيين واليهود استطاعوا شربه سواء في الدور الخاصة أم في مطاعم الفنادق. إن وجد الإنتاج المحلي، فإنه كان قليلا مما حتّم إذن استيراده. ليس إذن بالمفاجئ رؤية الخمر في عقود الكراء البحري الجنوية في 1201 (2 سو مقابل مزروليا) [159]، ثم في 8[160] و20 [161]جويلية 1253. وتخبرنا أيضا عقود الطلبيات ورهون المبادلات البحرية عن الكميات المحمولة: 102 مزارولي *(mezarolie)* في 1203[162] ، 2000 في 1292[163]، لكن 33 فقط في 1216[164] و62 في 1268 [165]. كانت إذن كميات ضخمة أحيانا. ورد أيضا

(157) ADBR, 391E 11, f. 168r (13/1/1338).

(158) ARM, A. Costanti, 1424, f. 47 (21/3/1424), cité par Macaire, *Majorque et le Maghrib*, *op. cit.*, p. 323.

(159) Giovanni di Guiberto, n° 348 (3/8/1201). La *mezarolia* génois équivaut au XIIIe siècle à 95,3 litres. P. Rocca, *Pesi e misure antiche di Genova e del Genovesato*, Gênes, 1871, p. 108.

(160) حتى وإن كان متأخرا، مع إمكانية نقل 8 مزرولي مجانا.
ASG, min. 29, f. 149v (8/7/1253), éd. E. H. Byrne, *Genoese Shipping in the Twelfth and Thirteenth Centuries*, Cambridge, Mass., 1930, p. 112-113.

(161) يمكن للتجار حمل ثمانية براميل للمليـاريوم *(miliarium)* دون التسـديد. ASG, min. 29, f. 164r (20/7/1253), éd. Byrne, *Genoese Shipping*, *op. cit.*, p. 120-124. إن المليايوم هو وحدة تتناسب مع وزن الحمولة التي يفترض أن يحملها التاجر. *Ibid.*, p. 38, 41. يساوي برميل الخمر الجنوي في القرن الثالث عشر 45،74 لتر. Rocca, *op. cit.*, p. 108

(162) Giovanni di Guiberto, n° 1017 (13/11/1203).

(163) ASG, min. 78, f. 252v (24/3/1292).

(164) Lanfranco, n° 1041 (26/7/1216).

(165) ASG, min. 55/I, f. 192r (29/2/1268). طلبية من 32 ليفر و62 مزارولي خمر بـ عشرين فستاس.

الخمر من مرسيليا التي هي منفذ بحري لجهة كبيرة منتجة[166]. في 1292، امتطى روبارتو دو تادو (Roberto de Tado) وهو تاجر من بليزونس (Plaisance) مركبًا جنويًا للذهاب إلى مرسيليا لشراء الخمر لبيعه في ميورقة وبجاية[167]. وفي 1310، تلقى بيار بلانكار (Pierre Blancard) في مرسيليا طلبية بـ 27 ليفر و6 سو ملكي من 52 برميل من الخمر لحملها إلى بجاية، والقل أو قسنطينة على متن يخت بيار فريار (Pierre Ferrière)، وهي القديس أنطوان (Saint-Antoine)[168]. وأخيرا، 1337 و1338، نقل المرسيلي بيار لوتو (Pierre Lautaud) إلى بجاية طلبيتن مستثمرتين في قسم منها في 31 و20 طن من الخمر[169]. أرسلت أيضا كل من برشلونة وميورقة الخمر إلى بجاية كما تبيّنه عدة عقود. ففي 1254، أخذ روبي البرشلوني (Rubi de Barcelone) طلبية مستثمرة في الخمر[170] وفي 1427 غطى عقد تأمين في ميورقة حمولة تحتوي خصوصا على الخمر[171]. وتشهد أجوبة *(responsa)* حاخامات يهود ميورقة على هذه التجارة. حتى يكون الخمر حلالا، لا بد من إنتاجه ومراقبته من اليهود أو على الأقل من أشخاص مختونين، وطرح مشكل حمولة خمر في سنوات 1390

(166) É. Baratier, « Production et exportation du vin du terroir de Marseille du XIIIe au XVIe siècle », *Bulletin philologique et historique du comité des travaux historiques*, 1959, p. 245-246.

(167) ASG, min. 78, f. 252v (24/3/1292). وجب تسديد عقد الكراء البحري ببجاية بالذهب المزدوج

(168) ADBR, 381E 20, f. 82r (2/4/1310).

(169) ADBR, 391E 11, f. 14r-v (avril 1337), 168v (13/1/1338).

(170) Archivo de la Catedral de Barcelona, Diversorum, *caja* 24, n° 3338 (15/4/1254), éd. A.-É. Sayous, *El mètods comercials a la Barcelona medieval*, Barcelone, 1975, n° 16, p. 155-156.

(171) ARM, A. Costanti, 1427, f. 359v (12/11/1427), cité par Macaire, *Majorque et le Maghrib*, *op. cit.*, p. 328.

أرسلها "أخ كنسي" ميورقي لصهره موسى عامر، الذي ترك الجزيرة للاستقرار ببجاية[172].

بفضولية كبيرة ورد ذكر العسل في المواد التي استوردتها بجاية. نعرف أن بجاية صدّرت شمع النحل وأن الجهة كانت منتجة للعسل. تشير عدة عقود لهذا المنتوج. ففي 1201، نجده في حمولة سفينة في اتجاه بجاية[173] وفي سنوات 1250-1260، تذكر ستة عقود حمل العسل[174].

أيضا، نحن مندهشون بوجود في الحمولات باتجاه بجاية التين في حين أن الجهة كانت أيضا منتجة له[175]. ففي 1411، حمل تاجر برشلوني بطلبية انطلاقا من ميورقة ثلاثين قنطارا من التين مقابل 38 ليفر باتجاه بجاية وبونة[176]. وفي 1434، تم استئمان 75 قنطارًا من التين دائما في ميورقة باتجاه بجاية والقل[177]. لكن يتعلق الأمر دون شك باستيراد ظرفي.

(172) E. Gutwirth, « El comercio hispano-magrebi y los judíos (1391-1444) », *Hispania*, 45, 1985, p. 204 ; Abulafia, *A Mediterranean Emporium*, *op. cit.*, p. 225.

(173) Giovanni di Guiberto, n° 348 (3/8/1201).

(174) في 1252، أربعة براميل بـ 5 ليفر: ASG, min. 18/II, f. 11r (23/2/1252). في 1253، أربعة وثلاثة براميل: ASG, min. 29, f. 103v (14/5/1253), 109r (16/5/1253). في 1254، ستة عشر برميلاً استخدمت كضمان للتبادل في بجاية. ASG, min. 52, f. 97v (11/5/1254). في 1262، ينص عقد استئجار بحري على حمولة العسل. ASG, min. 71, f. 129r (25/11/1262). وأخيرا في 1263، استثمرت طلبية من 12 ليفر في ثمانية براميل عسل: ASG, min. 30/II, f. 71v (27/2/1263)

(175) ربما كان بسبب الأنواع والجودة المختلفة من التين.

(176) ARM, A. Costanti, 1411, f. 73r-v (23/12/1411), cité par Macaire, *Majorque et le Maghrib*, *op. cit.*, p. 106.

(177) ARM, A. Costanti, 1433-4, f. 14v (20/1/1434), cité par Macaire, *Majorque et le Maghrib*, *op. cit.*, p. 332.

لا يبدو إنتاج السكر في جهة بجاية، وليس إذن بالمفاجئ وجوده من بين الواردات بما أن هذا الانتاج كان موضوع تجارة هامة في البحر المتوسط[178]. وتمّ استيراده من المشرق (مصر، قبرص)، لكن قصب السكر كان مزروعا أيضا في صقلية وفي شبه الجزيرة الإيبيرية، وأيضا بعد ذلك في الجزر الأطلسية[179]. في هذا الميدان، تصرف التجار الأوروبيون أساسا كمعيدين للتصدير باتجاه المغرب. ففي 1250 أخذ فينو دو لافانيا (Vino de Lavania) بطلبيتين من 14 و24 ليفر مستثمرتين في قسم منهما في السكر باتجاه بجاية[180]. فعهد بالأولى إلى جيجلمو دو ألبنو (Guglielmo de Alpino) – بائع توابل (*specerio*) – والثانية إلى جيوفاني بلسنتيو (Giovanni Placentio) الذي يشغل نفس المهنة[181]. وفي 1305 أخذ جاك مرتيني (Jacques Martini) طلبية من ابنه غليوم (Guillaume) 441 ليفر و16 سو و3 دونيي بروفيني (Provins) تم استثمار قسم منها في صندوقين من السكر المسحوق (*pulvesis zocar*) يزنان 5 قناطير و85 رطلا، باتجاه بجاية أو القل[182]. وفي القرن الخامس عشر، أخذت هذه التجارة أهمية في البحر المتوسط ودون شك أيضا في بجاية. فنجد السكر في طلبية

(178) حول إنتاج السكر في العصر الوسيط، البيبليوغرافيا وافية. أنظر خصوصا:

M. Balard, « Les conditions de la production sucrière en Méditerranée orientale à la fin du Moyen Âge », *La Route du sucre du VIIIe au XVIIIe siècle, Actes du colloque organisé par l'Association Populaire pour l'Éducation Scientifique, Schœlcher, 2000*, s. l. [Schœlcher], 2001, p. 41-48

وأطروحة دكتوراه محد ورفلي بجامعة باريس الأولى والتي طبعت:

Le sucre en Méditerranée occidentale. Production, commercialisation et usages, Xe-XVe siècles, Leyde, Brill, 2008.

(179) أدخل المسلمون زراعة قصب السكر وتواصلت بعد السيطرة المسيحية. أنظر:

V. Lagardère, *Campagnes et paysans d'al-Andalus (VIIIe-XVe siècle)*, Paris, 1993, p. 361-390. Pour la Sicile, voir Bresc, *Un monde méditerranéen*, *op. cit.*, p. 227-252.

(180) ASG, min. 27, f. 13v (29/10/1250).

(181) في القرن الثالث عشر، اعتبر السكر من التوابل.

(182) ADBR, 381E 371, f. 51v (6/1/1306).

مأخوذة في ميورقة باتجاه الجزائر أو بجاية في 1458[183]. أيضا، حملته شواني البندقية إلى بلاد البربر من بلنسية، لكن دون أن نعرف بدقة الميناء المغاربي الذي بيع فيه[184].

أخيرا، كان الملح في العصر الوسيط موضوع تجارة هامة[185]، وكان مستعملا للطبخ وللحفاظ على المواد. لقد شكل أيضا – على الأقل في المغرب الغربي- واحدا من المواد المرسلة عبر الصحراء لمبادلته بالذهب. نقلت أحيانا كميات كبيرة على متن مراكب مستأجرة خصيصا، كما في 1235 عندما تمّ تحميل نصف سفينة بالملح بطلبية من برنار منديال المرسيلي باتجاه بجاية[186].

وجدناه أيضا في مجال البندقية بإبيزا وبسردينيا. لا يبدو بيع البندقية لإنتاجها إلى بجاية[187]. في المقابل، صدّرت إبيزا ملحها إلى المغرب على الأقل خلال بعض السنوات. بين 1336 و1342، عندما أدت الحرب بين ميورقة وجنوة إلى غلق السوق الجنوي، توجه التجار الميورقيون إذن نحو المغرب[188]. في 1336، تمّ الترخيص لأربعة منهم لتصدير ما مجموعه 209 مويد (muids) من الملح إلى

(183) ARM, P. 2527, f. 29 (6/2/1458), cité par Vaquer, « Navigacio i comerç a Mallorca », art. cité, p. 129.

(184) على سبيل المثال: ASV, *Senato, Incanti di galere*, Rg. 1, f. 84v-86v (9/2/1482) بالعكس، في بعض السنوات أخذت البندقية إجراءات ضد سكر بلنسية. ASV, *Senato, Incanti di galere*, Rg. 2, f. 1r-v (2/3/1489)

(185) أنظر:

J. Heers, « Le Commerce du sel en Méditerranée occidentale », *Le Rôle du sel dans l'histoire*, dir. M. Mollat, Paris, 1968, p. 127-132.

(186) Blancard, I, n° 62 (21/4/1235). طلبية بقيمة 180 ليفر كرونا ملكي

(187) لا يتحدث جون-كلود أوكي (Jean-Claude Hocquet) عن صادرات إلى بجاية.

J.-Cl. Hocquet, *Le Sel et la fortune de Venise*, I, *Production et monopole*, Villeneuve d'Ascq, 1978.

(188) J.-Cl. Hocquet, « Ibiza, carrefour du commerce maritime et témoin d'une conjoncture méditerranéenne (1250-1650) », *Studi in memoria di Federigo Melis*, I, Naples, 1978, p. 498.

بجاية[189]، أي حوالي 350 طن[190]. بعد ذلك، الشهادات نادرة. في 1339، وصل إلى بجاية مركب صاحب أعمال جنوي انطلاقا من ميورقة ومعه 130 مويد من الملح[191]. في 1358، استأجر برنار مركبه لنقل ملح إبيزا إلى بجاية[192]. وفي 1404، استثمرت طلبية ببرشلونة في قسم منها في 15 مويد من ملح إبيزا[193] وفي نهاية القرن الخامس عشر، استمرت القوافل انطلاقا من الجزيرة باتجاه المغرب[194].

امتلكت سردينيا أيضا المالح، حيث جاء البيزيون إليها للبحث عن ملحها وإرساله إلى المغرب كما يظهره عقد استئجار بحري لعام 1326 بين صاحبي عمل برشلوني وبيزي. انطلقت السفينة من الميناء البيزي (Porto Pisano) مع هذين التاجرين وشركائهما وموزعيهما وذهبوا مباشرة إلى مملحة كاجلياري

(189) ARM, *guiatges* 1, f. 86r-v (8/5/1336), 88v-89r (12/5/1336), 91v (22/6/1336), 93r-v (28/6/1336).
لكن كان البعض من هذه الحمولات محولا عن الوجهة المصرح بها: إنّ أرنو بلستر (Arnau Ballester) – صاحب مركب الذي كان قد تحصل على رخصة لتصدير 60 مويد من الملح من إبيزا إلى بجاية والقل، ذهب لتفريغ حمولته في سافونيا (Savone)، ولهذا وجب عليه دفع غرامة كعقوبة. ARM, *Extraordinaris*, 436bis, f. 91v (22/5/1366, ajout postérieur dans la marge), cité par López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 213. هذا لم يمنعه من الحصول على رخصة جديدة لتصدير القمح إلى بجاية في سبتمبر من نفس السنة. ARM, *guiatges* 1, f. 93r-v (29/9/1336)

(190) يزن مويد الملح في النصف الأول من القرن الرابع عشر 1670 كلغ. Hocquet, « Ibiza », art. cité, p. 497

(191) ARM, AH 1, f. 279v, cité par Hocquet, « Ibiza », art. cité, p. 498.

(192) Arxiu Capitular de Mallorca, *Protocolos* 14584 (Pere de Cosma), f. 127v (6/7/1358), cité par López Pérez, *La Corona de Aragón, op. cit.*, p. 477.

(193) AHPB, Bernat Nadal, *Secundus liber comandarum*, 1395-1406 (58/170), f. 148r-v (21/8/1404).

(194) J. Guiral, « Le sel d'Ibiza et de la Mata à la fin du Moyen Âge », *Le Sel et son histoire. Actes du colloque de l'Association interuniversitaire de l'est, Nancy, 1979*, Nancy, 1980, p. 99.
كانت الوجهات هي خصوصا وهران، وتونس والجزائر، وأيضا بجاية ودلس. استوردت هذه المدن أيضا بكيفية عرضية ملح لا ماتا (La Mata)، في جنوب مملكة بلنسية. *Ibid.*, p. 104

(Cagliari) حيث يحمل الملح بالاختيار. من هنا، ذهب المركب إلى عدة موانئ إفريقية، خصوصا بجاية حيث أمكن للتجار بيع ممتلكاتهم والتي من بينها الملح وحمل على متنه كل ما استطاعوا اقتناءه حسب العادة البجائية[195].

وأخيرا، تجب الإشارة إلى استيراد جنوة لملح إيراس (Hyères): ففي 1348 تمّ تأجير ثلثي سفينة لتحميل الملح وسلع أخرى من إيراس البروفانسية للذهاب بعد ذلك إلى بجاية[196].

دائما لا نعرف إذا ما تزودت بجاية بملح جهات أخرى في المغرب. امتلكت زرزيس، ورأس المخبز وطرابلس ممالح قدم إليها البنادقة للتزود[197]. لكن لا توجد إشارة تسمح لنا بالاعتقاد بوجود تيار واردات بين هذه الجهات الشرقية وبجاية.

4) **توابل المشرق**

فضلا عن المواد القاعدية (الحبوب، الملح، الأنسجة)، استوردت بجاية من أوروبا منتجات متنوعة جدا قادمة من المشرق. رأينا أن ورود الحرير والكتان والقطن أحيانا من البحر المتوسط الشرقي، سواء من الدول المسيحية أم العالم الإسلامي. لكن الأوروبين وجدوا أيضا في هذه الجهات منتجات أخرى فاخرة، خصوصا التوابل[198]. إنّ واردات إفريقية من التوابل هي قديمة وتظهر وثائق الجنيزة على الخصوص المغرب الشرقي وصقلية يشكلان ملتقيان مهمان في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، عن طريقهما تمّت إعادة توزيع جزء من التوابل المشرقية نحو أوروبا. نتوفر على شهادة أبي سعيد، وهو تاجر توابل يهودي من الفسطاط، ذهب في حدود 1135 إلى بجاية حيث قال أنه قام بمبيعات جيدة.

(195) ASP, *Diplomatico Alliata*, 27/4/1326.

(196) ASG, min. 233, f. 219v-220r (13/6/1348).

(197) Hocquet, *Le Sel et la fortune de Venise*, *op. cit.*, I, p. 98.

(198) بالمعنى الضيق، التوابل هي "مجموع العقاقير التي وفرها المشرق الأقصى وبلدان المحيط الهندي". Balard, *La Romanie génoise*, *op. cit.*, p. 719

حوصر بالاضطرابات والحروب (دون شك مرتبطة بالسيطرة النورمانية)، استقر بتونس قبل أن يصل إلى بلرم حيث كتب إلى أخيه يخبره برحلته البحرية[199]. في هذه الفترة، كان التجار الأوروبيون يذهبون إلى إفريقية لشراء التوابل، وفي الثلث الثاني من القرن الحادي عشر اشتكى بعض التجار اليهود من زيادة الأسعار في هذا السوق بسبب قدوم الروم[200]. تغيرت الوضعية بداية من القرن الثاني عشر وخصوصا الثالث عشر عندما ذهب اللاتين للتمون مباشرة في المشرق[201]، في حين نقصت بقوة العلاقات التجارية المباشرة بين مصر وإفريقية. أعاد التجار اللاتين بعد ذلك توزيع هذه الأشياء ذات القيمة الكبيرة نحو الأسواق الأوروبية وأيضا باتجاه المغرب. استقبلت إذن بجاية عن طريق الأساطيل المسيحية التوابل وأشياء رقيقة أخرى تم شراؤها في الغالب من أسواق المشرق الإسلامي أو المسيحي. فقد حملت شواني البندقية في بلاد البربر في القرن الخامس عشر التوابل الكبيرة أو الصغيرة[202]، لكن لا تعطي نصوص عقود بيع بالمزاد العلني *(incanti)* لليخوت أكثر تدقيقا وبقية المادة التوثيقية البندقية لا توجد تقريبا[203]. إن الوثائق الجنوية للقرن الثالث عشر وبأقل درجة الوثائق المرسيلية تعد أكثر دقة وتبيّن عدة أنواع من التوابـــل أصلها غالبا من آسيا الشرقية. ويرد الفلفـــل طبعا

(199) Trad. Sh. D. Goitein, *Letters of Medieval Jewish Traders, Translated from the Arabic with Introduction and Notes*, Princeton, 1973, p. 324.

(200) Goitein, *A Mediterranean Society, op. cit.*, I, p. 44.

(201) تزوّد الجنويون خصوصا من رومانيا ومن الدول اللاتينية وسوريا ومصر المسلمتين. Balard, *La Romanie génoise, op. cit.*, p. 719 s.

(202) على سبيل المثال: ASV, *Senato, Mar*, Rg. 1, f. 198v-199r (6/11/1443)

(203) في 1446، أحضر أندنيسي فنيريـو (Indonici Venerio) إلى البندقيـة عنقـدان *(colli)* مـن الزنجبيل وأرسلهما مع شواني بلاد البربـر لكنـه لم يسـتطع بيعهمـا. ASV, *Senato, Mar*, Rg. 2, f. 183r (26/11/1446)

من بين واردات بجاية[204]، حيث يرد في أساسه من ساحل ملبار ويعبر عن طريق مصر[205]. إنّ الفلفل الطويل من نوع مختلف قدم من سومطرة، ومن يافا ومن البنغال[206]، وجوز البسبسة من شبه الجزيرة الهندية[207]، والقرنفل من المولبك، والقرفة من الصين والهند[208]. إنّ الزنجبيل الذي كان استعماله منتشرا في العصر الوسيط على غرار الفلفل، تمّ استيراده من الهند أو الصين، لكنه تواجد أيضا في نواحي مكة[209]. لقد كانت بعض التوابل منتجات لجهات أقل بعدا. فجوز

(204) Giovanni Scriba, n° 509 (12/10/1158), 1222 (23/6/1164) ; Giovanni di Guiberto, n° 1700 (20/3/1206 : 6 *centinaio* et 90 livres de poivre) ; ASG, min. 7, f. 53v-54r ([1-3]/6/1212).

(205) W. Heyd, *Histoire du commerce du Levant au Moyen Âge*, Leipzig, 1885-1886, rééd. Amsterdam, 1959, III, p. 658-663 ; J.-Cl. Garcin, « Transport des épices et espace égyptien entre le XIe et le XVe siècle », *Les Transports au Moyen Âge. Actes du VIIe congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, Rennes, juin 1976*, *Annales de Bretagne*, 85/2, 1978, p. 305-314

(206) Heyd, *op. cit.*, II, p. 664. Giovanni di Guiberto, n° 1120 (10/5/1205) : 2 سنتنايو من الفلفل الطويل

(207) Heyd, *op. cit.*, II, p. 644. Giovanni Scriba, n° 509 (12/10/1158) ; Giovanni di Guiberto, n° 1120 (10/5/1205 ; 11 onces), 1808 (4/4/1206) ; ASG, min. 14, f. 256r (13/9/1236 ; 3 ليفر مستثمرة في جـوز مسـكاد; min. 21/I, f. 62r (13/10/1248).

ARM, A. Costanti, 1411, f. 54 (26/8/1411), cité par Macaire, أنظـر أيضـا: *Majorque et le Maghrib*, *op. cit.*, p. 106 (طلبية باتجاه تونس وبونة والقل وقسنطينة وبجاية وبلنسية وبرشلونة وميورقة).

(208) Heyd, *op. cit.*, II, p. 595. Blancard, II, n° 535 (16/4/1248), 569 (22/4/1248).

(209) Heyd, *op. cit.*, II, p. 619. ASG, min. 27, f. 13v (29/10/1250) ; min. 35, f. 83r-v (21/9/1261).

عهد بهاتين الطلبيتين إلى بـائعي التوابـل، جيوفـاني بلسـونتو (Giovanni Placentio) وسمـوني دو سكسـيليا (Simone de Suxilia) . أنظـر أيضـا: Blancard, II, n° 517 (15/4/1248) : 40 ليفر و12 سو من العملة المختلطة بـ حمولة ونصف من الزنجبيل.

الطيب ورد خصوصا من رومانيا[210] ونبتة العلق كانت النبتة المنتشرة جدا في سوريا الشمالية (خصوصا أنطاكية) وآسيا الصغرى[211].

فيما يخص الزعفران الذي استوردته في الغالب بجاية[212]، ليس من السهولة تحديد مصدره. إنّ أصل هذه النبتة من سواحل بلاد الشام، لكنها تأقلمت مبكرا في الأندلس وفي أوروبا المسيحية بعد الحملات الصليبية[213]. ليس إذن بالأكيد أن تكون الحمولات المرسلة إلى بجاية من أصل مشرقي.

منتجات أخرى هي ليست بتوابل بالمعنى الدقيق[214]، وردت أيضا من سواحل الشام أو آسيا الشرقية، على غرار الطلاء ذو الأصل الهندي أو الهندو-

---

(210) Heyd, *op. cit.*, II, p. 643. ASG, min. 21/I, f. 62r (13/10/1248) : عشرة أكياس من العفص.

(211) Heyd, *op. cit.*, II, p. 669. Blancard, II, n° 466 (10/4/1248) :
طلبية من 14 ليفر و9 سو من العملة المختلطة، مستثمرة في 18 رطل وأوقية من نبتة العلق.

(212) Giovanni di Guiberto, n° 348 (3/8/1201), 952 (25/10/1203), 1667 (16/3/1206 : 46 رطل و8 أوقيات من الزعفران بقيمة 33 ليفر); ASG, min. 2, f. 157r (8/7/1214 ; 50 رطل من الزعفران) ; ASG, not. ign., *busta* 15, fr. 142, f. 14v (16/9/1237 ; 25 رطل من الزعفران) ; ASG, min. 54, f. 125v (16/5/1257 ; 20 رطل من الزعفران).

في 1248، عهد بسبع طلبيات مستثمرة في قسم منها في الزعفران بمرسيليا لنقلها إلى بجاية على متن مركب القديس فرانسوا (Saint-François).

Blancard, II, n° 552 (18/4/1248), 572 (22/4), 586 (24/4), 594 (27/4), 618 (28/4), 621 (id.), 676 (8/5).

(213) Heyd, *op. cit.*, II, p. 668.

أنظر حول الإنتاج الكاتالاني: Carrère, *Barcelone*, *op. cit.*, p. 341-348.

(214) لكن بجولوتي صنّف هذه المنتجات مع التوابل على غرار القسم الأكبر من الواردات المشرقية. أنظر:

« Épices », *Dictionnaire du Moyen Âge*, dir. A. de Libera, Cl. Gauvard, M. Zink, Paris, 2002, p. 486-487 (M. Balard).

صيني[215]، وخشب الألواس أصيل الهند[216]، أو البخور المستخرجة من بعض الأشجار في جنوب شبه الجزيرة العربية[217]. وأخيرا، المصطكي الوارد من شيو التي أنتجته بوفرة ووزعته على كامل البحر المتوسط[218]، وكان محمولا إلى بجاية انطلاقا من مرسيليا[219] وميورقة[220].

5) مجوهرات وحلي

حمل التجار الجنويون معهم قطعا من الصياغة والحلي، حيث شكّلت مع التوابل نوعا آخر من السلع ذات القيمة الكبيرة والزحمة الضعيفة. ففي 1205 أخذ جياكومو دي بومبيلو (Giacomo di Bombello) طلبية من 36 ليفر و19 سو مستثمرة في جرة فضية[221]. وفي 1248، حمل سيموني دو كوارتو (Simone de Quarto) مقابل 80 ليفر تمثالين لتفاحتين كبيرتين مزخرفتين بالذهب والسفير

(215) Heyd, *op. cit.*, II, p. 624-625. ASG, min. 18/II, f. 246v (5/9/1233) : 56 رطل في ست سنتونايو وعشرة أرطال من الطلاء ; ASG, min. 72, f. 15v (27/6/1268).

في 1445 رجع التجار البنادقة إلى المغرب على شواني بلاد البربر بالطلاء حيث استطاعوا بيعه في ظروف جيدة.

ASV, *Senato, Mar*, Rg. 2, f. 115r (23/12/1445).

(216) هو خشب طيب الرائحة وشكّل أحد ركائز التجارة الوسيطة.

Heyd, *op. cit.*, p. 581-583. ASG, min. 24, f. 7v-8r (19/4/1236) ; min. 29, f. 109r (16/5/1253).

(217) Heyd, *op. cit.*, II, p. 614. Blancard, II, n° 637 (30/4/1248) ; ASG, min. 72, f. 15v (27/6/1268).

(218) Balard, *La Romanie génoise*, *op. cit.*, p. 742-749.

(219) Blancard, II, n° 677 (8/5/1248), 962 (8/7/1248) : تسوية طلبيتين من المصطك المرسلة إلى بجاية

(220) ARM, A. Costanti, 1415-18, f. 134, cité par Macaire, *Majorque et le Maghrib, op. cit.*, p. 319 :

استئمان للأجواخ والمصطك وسلع أخرى باتجاه بجاية والقل وبونة وتونس.

(221) Giovanni di Guiberto, n° 1114 (10/5/1205).

والياقوت[222]. وفي 1259 أخذ جوليلمو دلا بورتا طلبية من تمثال ألباتر، مزخرف بالفضة والأحجار أو الأحجار الكريمة المعدنية والنحاس الأصفر (*lotono*)، وحزامين من الحرير مرفقين بفضة تزن تسع أوقيات ونصف و تمثال بروسيتا من النحاس الأصفر مذهبة[223]. وأخيرا، تم استثمار طلبيتين جنويتين في حلقات من الذهب أو ملمعة بالياقوت[224].

فضلا عن الأدوات، نجد في الواردات البجائية المواد المتجهة لتموين الحرف بالأدوات الفاخرة. تبيّن عدة وثائق لنقل اللؤلؤ أو خيوط اللؤلؤ[225]. يتم صيدها في تلك الفترة في الخليج العربي-الفارسي أو في المضيق بين الهند وسيلان[226]. إنّ الذهب المفتول الذي نلاقيه في وثيقة جنوية كان موجها -على غرار خيوط اللؤلؤ دون شك- لتزيين المنسوجات[227]. ووردت أيضا الأحجار الثمينة في العقود

---

(222) ASG, min. 21/I, f. 61r (9/10/1248).

كان ينظر للعنبر كعطر ذي نوعية عالية. كان بالإمكان الاحتفاظ به في أوعية مخصصة على شكل تفاحات ذهبية أو مرصّعة بالذهب.

Heyd, *op. cit.*, II, p. 571, 574. Cf. Tuetey, éd., « Inventaire des biens de Charlotte de Savoie », *BEC*, 6e série, 1, p. 354 : « une petite pomme d'ambre, garnye d'or » (inventaire de 1483).

(223) ASG, min. 34, f. 213r (2/5/1259).

(224) Lanfranco, n° 862 (21/10/1210) ; ASG, min. 60, f. 89r (16/4/1257), 292r (15/7/1258).

(225) Giovanni di Guiberto, n° 1727 (23/3/1206), 1750 (24/3/1206), 1787 (29/3/1206), 1808 (4/4/1206) ; ASG, min. 143, f. 182v (7/10/1248) ; min. 54, f. 87v (16/4/1257) ; min. 35, f. 84r (21/9/1261) ; min. 122, f. 60v (19/5/1276).

(226) Heyd, *op. cit.*, II, p. 648.

(227) ASG, min. 21/I, f. 58v (8/10/1248).

كان لخيوط الذهب هذه مظهر الخيوط المعدنية المشدودة بالتسخين، لكنها كانت في الحقيقة خيوطا كتانية رفيعة ومغطاة بطبقة من الذهب. كان المركز المعروف جدا لصناعتها هو قبرص لكن تم إدخال التقنيات إلى أوروبا خلال القرن الثالث عشر. Heyd, *op. cit.*, p. 677

الجنوية خصوصا بأثمان عالية[228]. ففي 1256، حمل تاجران جنويان إلى بجاية طلبية بـ 350 ليفر مستثمرة في الأحجار منها الياقوت (*balaxiorum*) والزمرد[229]. وأخيرا، نسجل حمل المرجان من ميورقة في 1458[230].

6) المواد الممنوعة: الخشب والمعادن

بقيت مسألة المواد التي اعتبرت إستراتيجية: المعادن وأدوات بناء السفن التي كانت نظريا ممنوعة البيع للمسلمين. كل ما كان باستطاعته أن يوظف لتقوية سلاح بلدان الإسلام كان بصفة منتظمة موضوع تحريم من البابوية والسلطات السياسية. ففي 1179 في المجمع الثالث بلتران (Latran) ، تمّ إقرار منع عام لكنه يتعلق هنا خصوصا بالمشرق الإسلامي في سياق الحروب الصليبية[231]. ذكّرت المجامع والورقات البابوية بهذه الإجراءات بانتظام[232]، وهذه إشارة لعدم فعاليتها نسبيا.

أكملت الحكومات المدنية هذا المنع بصرامة متنوعة حسب الفترات. ففي ماي 1151، بثّ القناصل الجنويون مرسوما يمنع لأي كان مقيما بين موناكو (Monaco) وبرتوفنري (Portovenere) تصدير إلى الأرض المسلمة دون رخصة قناصل مجلس المدينة كلّا من المجاديف والصوار وخشب البناء

(228) ASG, min. 54, f. 80r (11/4/1257), 92r (19/4/1257).

(229) ASG, min. 35, f. 142r (16/5/1256).

قسم من هذه الوثيقة غير مقروء في المكان الذي فصّل فيه الموثق أنواع الحجارة النفيسة هذه. ورد اللؤلؤ الوردي اللون خصوصا من مقاطعة بدكشان الهندية في آسيا الوسطى. ; Heyd, *op. cit*., II, p. 653 « Badakh Shan », *EI*², I, p. 875 (W. Barthold). كان بإمكان الزمرد أن يكون من مصر العليا أو الهند. Heyd, *op. cit*., II, p. 651, 654 أنظر أيضا: ASG, min. 143, f. 182v (7/10/1248): 400 ليفر مستثمرة في اللؤلؤ والياقوت الأحمر.

(230) ARM, P. 2527, f. 29 (6/2/1458), cité par Vaquer, « Navigacio i comerç a Mallorca », art. cité, p. 129.

(231) Trenchs Ordena, « Les “alexandrini” », art. cité, p. 177.

(232) حول كرونولوجية السياسة البابوية هذه، الصارمة أقل أو أكثر حسب البابوات، أنظر: *ibid*., p. 179-180

والأسلحة، تحت طائل إضاعة هذه السلع[233]. لكن رسالة البابا جريجوار العاشر (Grégoire X) المؤرخة في 1272 تتهم الجنويين ببيع المواد الممنوعة للمسلمين[234]، ووجب على مجلس المدينة منع هذه التجارة من جديد في القرن الرابع عشر[235]. واتخذت جمهورية البندقية[236] وكذلك الملوك الكتالانيون قرارات مشابهة بنفس الفعالية[237]. كانت الغرامة دائما ضعيفة ويكفي إذا ما تم التحقق من المخالفة دفع مبلغ للملك حيث يمنح رسالة غفران. ففي 1373، أسّس النظام ووضعت تسعيرة له[238]. في البداية، كانت الغرامة تساوي مجموع الربح ثم نزلت

---

(233) M. G. Canale, *Nuova Istoria della Repubblica di Genova, del suo commercio e della sua letteratura dalle origini all'anno 1797*, Florence, 1860, II, p. 314.

غير أننا نسجل أن الحكم كان متواضعًا وأن مجلس المدينة احتفظ بحق منح الرخص الاستثنائية.

(234) *Ibid*., II, p. 315.

(235) G. Airaldi, « Da Genova al Maghreb nel Basso Medioevo », *Italia e Algeria, aspetti storici di un'amicizia mediterranea*, dir. R. H. Rainero, Milan, 1982, p. 70.

(236) في جويلية 1328، منع البنادقة والأجانب من تصدير الحديد والخشب والأسلحة إلى بلاد البربر.

R. Cessi, P. Sambin, éd., *Le Deliberazioni del consiglio dei Rogati (senato). Serie « mixtorum »*, I, *libri I-XIV*, Venise, 1960, p. 364.

(237) Carrère, *Barcelone*, *op. cit.*, p. 19-20.

كانت هذه الإجراءات التي اتخذها الملوك الكتالانيون في القرن الخامس عشر لاعتبارات سياسية وعسكرية أكثر من الهم الديني. أنظر:

Ch.-E. Dufourcq, « La continuité des activités catalano-aragonaises dans les États musulmans méditerranéens d'Alphonse le Magnanime à Ferdinand le Catholique », *IX Congresso di storia della Corona d'Aragona*, Naples, 1982, p. 199-223.

(238) أنظر:

G. Petti Balbi, « Deroghe papali al "Devetum" sul commercio con l'Islam », *Rassegna degli Archivi di Stato*, anno XXXII, n° 3, 1972, p. 521-533.

في 1424، تلقى التاجر جابريال تورال (Gabriel Torralles) تبرئة الملك لحمل أشياء مختلفة وسلع أخرى مشتراة من سنج بدلماتيا ومنقولة إلى بلاد البربر على متن مركب بقيادة سلفدور فران (Salvador Ferran).

ACA, C, Rg. 2589, cité par Carrère, *Barcelone*, *op. cit.*, p. 20.

تدريجيا إلى الربع أو الخمس[239]. من هذا التاريخ فصاعدا، توقع التجار الكتالانيون في حسابات فائدتهم المبلغ الذي يسدّد للبابوية حتى يغفر لهم من حرمان الأسقف أو رجال الدين الذين لهم حق المنع الذي منحه لهم البابا[240].

تبيّن الدراسات حول تنظيم هذه التجارة المحرمة- على الخصوص دراسة ترنشس أوردينا (Trenchs Ordena) – الحالات المتعلقة بالمشرق[241]. كانت بجاية أقل ارتباطا بالتموين الخارجي من حيث الخشب والحديد بفضل موارد بلادها الخلفية. إن تجارة هذه المواد المحرمة لم تكن هامة. لكن تنقصنا المصادر لرؤية هذه المتاجرة التي بقيت خفية ولم تترك إذن أثرا في العقود التوثيقية. لكن تظهر رسالة لعون شركة داتيني (Datini) المرسلة في 1395 من ميورقة إلى بجاية عدة تجار من الجزيرة باعوا سلعا محرمة في المغرب خصوصا الحديد[242]. من جهة أخرى، توجد السجلات التي دونت كل صادرات المواد الممنوعة انطلاقا من البلدان المسيحية. كان كل التجار ملزمين بالتصريح بها قبل ترك الميناء وبتقديم شهادة تفريغ في المدينة المخطر بها كوجهة. لكن غالبا ما كانت هذه الوجهات هي الموانئ المسيحية ذاتها، مما يقدم لنا أهمية قليلة[243]. لكن تبيّن السلاسل البلنسية "الأشياء الممنوعة" « Coses vedades » بطريقة عابرة جدا عمليات بيع في المغرب لمواد معدنية حقيقة غير

(239) Trenchs Ordena, « Les “alexandrini” », art. cité, p. 184.

(240) *Ibid.*, p. 171.

(241) *Ibid.*, p. 169-193 ; Id., « “De Alexandrini”, el comercio prohibido con los musulmanes y el papado de Aviñón durante la prima mitad del siglo XIV », *AEM*, 10, 1980, p. 237-320.

(242) Archivio di Stato di Prato, n. 886, *lettere Maiorca-Barcelona*, 23/9/1395, de Ambrogio de’Rocchi à la compagnie Datini, f. 2r-v, éd. partielle B. Dini, *Una Pratica di Mercatura in formazione (1394-1395)*, Florence, 1980, p. 22.

(243) أنظر:

A. M. Aragò, « Fletes de géneros prohibidos desde el puerto de Barcelona a la Ligura (1358-1409) », *Atti del I congresso storico Liguria-Catalogna*, Bordighera, 1974, p. 211-219.

هجومية. ففي 1399، رخّص للمسلم البلنسي سليمان بحمل نصف قنطار من القصدير وقدر ومقلة، وسدد من أجلها رسما بـ 20 دونيي[244]. أيضا، يبيّن سجل "الأشياء الممنوعة" ببلنسية لعام 1404 ثلاث إرساليات لمنتجات محرمة (غير موضحة) باتجاه بجاية[245]. ففي 1475، باع تاجر كان على متن الشواني البندقية في بلاد البربر أقدارًا لمسلم بعقد توثيقي شرعي كما أضاف الموثق[246]. لم يبذل البعض جهدا للاختفاء ونجد في العقود التوثيقية للموثق الميورقي أ. كستانتي (A. Costanti) في النصف الأول من القرن الخامس عشر صادرات القصدير[247] أو الزفت[248] نحو بجاية.

إنّ الآثار التي بقيت لنا محدودة جدا ويستحيل لنا معرفة حجم تهريب المواد الاستراتيجية باتجاه بجاية.

*****

تكشف واردات بجاية الى حد ما عن اقتصاد المدينة وبلادها الخلفية، وتبيّن تموّن البجائيين بكثافة في بعض الفترات عبر البحر، أساسا من التجار اللاتين. ومن بين المواد المستوردة، بعضها تواجد رغم ذلك في البلاد الخلفية أو في الجهات البعيدة

(244) ARV, MR, Rg. 19, f. 34r (1399). أنظر أيضا id., Rg. 5, f. 40r (1386) ; Rg. 12, f. 249v (1394). R. Arroyo, « El comercio valenciano de exportación con Italia y Berbería a finales del siglo XIV », *VIII congreso de historia de la corona de Aragón, Valencia, 1967,* Valence, II, 1973, p. 255-289.

(245) Éd. J. Hinojosa Montalvo, *Coses vedades, en 1404*, Valence, 1972, p. 15 (16/1/1404), 46 (1/3/1404), 137 (9/6/1404).

(246) *Quaderno di bordo di Giovanni Manzini : prete-notaio e cancelliere (1471-1484)*, éd. L. Greco, Venise, 1997, n° 72 (29/9/1475).

(247) ARM, A. Costanti, 1433-4, f. 37 (21/2/1434), cité par Macaire, *Majorque et le Maghrib, op. cit.*, p. 332.

كوستال من النحاس الأصفر البجائي.

(248) ARM, A. Costanti, 1411, f. 55 (26/8/1411), cité par Macaire, *Majorque et le Maghrib, op. cit.*, p. 106.

290 ليفر مقابل 42 كوستال من الزفت و96 قنطارا من الخشب و8 كستال من الأرز إلى تونس وبونة والقل وقسنطينة وبجاية وبلنسية وبرشلونة وميورقة. لكن يبقى ميناء التفريغ غير موضح، ربما إراديا.

في المغرب. ويمكن تقديم عدة تفسيرات لهذا. ربما كان الإنتاج المحلي غير كاف بصفة دائمة أو عابرة. يمكن أيضا وجود اختلاف في الأسعار[249] أو في الجودة، مما يبرر تموّن البجائيين من التجار المسيحيين بدل السوق المحلي. وأخيرا، شجّع أو أجبر انعدام الأمن في الطرقات الداخلية اللجوء إلى التموين عن طريق البحر.

النتيجة الثانية وهي أن بعض المواد الواردة من العالم الإسلامي، خصوصا من المشرق، قدمت عن طريق الموانئ الأوروبية قبل أن تصل المغرب. وتستدعي ثغرات المادة الخبرية العربية الحذر، لكن يتبيّن أن الدورات أكثر تعقيدا من فترة وثائق الجنيزة، وأن أوروبا أخذت مكانة معتبرة في هذه المبادلات.

تكشف هذه الواردات أيضا عن متطلبات السوق البجائي ومن ثم غنى ونشاط المدينة. كانت صناعة النسيج على الخصوص دائما نشطة كما تظهره صادرات المواد الأولية الموجهة إليها، لكنها لم تتمكن من تلبية كل الطلب. يمكن تفسير هذا باختلاف النوعيات وبقلة الإنتاج. لم يظهر إذن النسيج كقطاع محرك للاقتصاد كما أكده التحليل الوارد في الأعلى لحرفيي النسيج في المجتمع الحضري. من جهة أخرى، لا يمكن فهم واردات المواد الفاخرة إلا بوجود سوق استهلاكي وبالتالي نخبة غنية قادرة على شراء منافع معينة.

II- الصادرات: غلبة منتجات الرعي " تربية المواشي "

كانت الصادرات انطلاقا من بجاية قليلة التنوع مقارنة بالواردات، وهي على الخصوص غير معروفة جيدا بسبب طبيعة المادة الخبرية. فنادرا ما توضّح عقود الطلبيات السلع المجلوبة من بجاية، حتى وإن سجّل أحيانا المستثمر رغبته في حدود الإمكان بإعادة الاستثمار في شراء بعض المواد الدقيقة. إنّ عقود الاستئجار البحري هي الأكثر أهمية، لأنها غالبا ما تفصّل في شحنة العودة، على الأقل عندما يكون السعر الذي يسدده التاجر محسوبا على السلع على العملية التجارية

(249) مرتبطة خصوصا بتكلفة ضعيفة للنقل عبر البحر.

كلها كمصاريف الشحن والنقل. فيما يخص كتيّبات التجارة فإنها تضع قائمة بالمواد التي يمكن الحصول عليها من مختلف موانئ البحر المتوسط، لكنها لا تسمح بتقدير أهميتها النسبية في المبادلات.

نوع آخر من الوثائق يبيّن لنا استعمال ومتاجرة بالمواد البجائية في أوروبا. فنجد عقود البيع (غالبا بقروض) في الأسواق المحلية لسلع "بجائية". تميّز أيضا النصوص المنظمة للأنشطة الصناعية مختلف أنواع المواد وتظهر الأصول المغاربية لها. وأخيرا، تظهر ملفات جرد – على الخصوص بعد الوفاة- التركات حضور مواد "بجائية" بأوروبا. هذا النوع من المعلومات يجب استخدامه بحذر، لأن هذا المنتوج المصنف كـ"بجائي" ليس بالضرورة مستورد فعليا من بجاية. ربما يتعلق الأمر ببساطة بنوعية خاصة أخذت هذا الاسم في لحظة ما بسبب ورودها من بجاية، ولكن بعد ذلك يكون قد انفصل عن أصله الحقيقي ليشير ببساطة بطريقة ما لنوع من المواد، أحيانا يكون محليا خالصا.

إن طبيعة صادرات بجاية هي ناجمة من ناحية عن إنتاج الجهة ومن ناحية ثانية عن الحاجيات الأوروبية. ويرتبط حجمها أيضا بقدرة بجاية على الجذب مقارنة مع موانئ الجهة التي توفر نفس أنواع المواد. تدخلت إذن ثلاثة عوامل يجب أخذها بعين الاعتبار.

1) حاجيات أوروبا، خصوصا من المادة الصناعية. إنّ الصادرات كانت إذن مرتبطة بالوضعية الاقتصادية للضفة الأخرى من البحر المتوسط.

2) الموارد التي تمكنت بجاية من جلبها من بلادها الخلفية، ما يفترض وجود إنتاج هام وكاف للتخلص من الفائض من جهة ومن جهة ثانية إمكانية نقل هذه المواد إلى غاية الميناء.

3) أخيرا، المنافسة التي استطاعت أن تمثلها جهات أخرى في المغرب والعالم الإسلامي بصفة عامة وأيضا في أوروبا المسيحية بصفة خاصة .

شكلت منتجات الرعي، بمعنى الصوف والجلود جوهر الصادرات، - لاستجابتها لطلب قوي من أوروبا حيث كانت في كامل توسعها الاقتصادي والصناعي- وتمكنت البلاد الخلفية البجائية من الاستجابة لذلك. واستطاعت مواد أخرى – خصوصا الغذائية- أن تكتب لنفسها الرواج، لكنها لم تمثل من ناحية الحجم إلا قسما مهملا نسبيا في هذه المتاجرة.

1) منتجات استجابة لطلب الصناعات الأوروبية

ما هيمن بشكل كبير على الصادرات هي المواد المرتبطة بصناعات النسيج والجلود التي نمت بقوة في هذه الفترة بأوروبا. وكان الصوف الأكثر رؤية هنا، لكن يجب أيضا الإشارة إلى أهمية الجلود والرقائق وأيضا مواد أخرى موجهة لهذه الصناعات على غرار الملونات أو الشب.

أ) عظمة وانحطاط صوف بجاية

إن تطور صناعة النسيج كان واحدا من محركات التوسع الاقتصادي لأوروبا المسيحية، خصوصا للبلدان المجاورة للبحر المتوسط على غرار إيطاليا وشبه الجزيرة الإيبيرية وجنوب فرنسا[250]. إنّ المواد الأكثر أهمية هي أجواخ الصوف[251]، التي أعطت ميلاد صناعة مزدهرة في عدة مدن أوروبية، خصوصا في

(250) R. S. Lopez, *La Révolution commerciale dans l’Europe médiévale*, Paris, 1974, p. 180-191.

(251) استجاب ازدهار هذه الصناعة للطلب المتزايد من الأقمشة والألبسة الصوفية.

J. Heers, « La mode et les marchés des draps de laine : Gênes et la Montagne à la fin du Moyen Âge », *Annales ESC*, 26/5, 1971, p. 1094.

فرنسا[252]. تطلبت هذه الانطلاقة في فترة تراجع تربية الحيوانات في إيطاليا لصالح أراضي زراعية اللجوء إلى واردات الصوف. وكان المغرب لفترة طويلة واحدا من أسواق التموين الأكثر أهمية، وصوف بجاية تم تصديره بكثافة حتى القرن الرابع عشر، قبل مجابهة منافسة مناطق إنتاج أخرى وفي النهاية الاختفاء كلية من السوق الأوروبي.

القرن الثاني عشر- بداية القرن الرابع عشر

استجابة لطلب أوروبي قوي

تطورت بقوة صناعة النسيج بأوروبا، خصوصا بداية من القرن الحادي عشر في بلدان الشمال. إن الفلوندر وخصوصا إنجلترا كانت منتجة للصوف، لكن بكميات غير كافية، وإسبانيا كانت تصدر صوفها بداية من القرن الثالث عشر نحو المراكز الصناعية في الشمال[253]. لكن ليس هناك ما يشير إلى أن صوف المغرب كان موضوع تجارة لمسافة طويلة. في المقابل، جعلت الصناعة النسيجية الإيطالية – التي انطلقت بعد ذلك بقليل- من صادرات الصوف الوافدة من إفريقيا الشمالية ضرورية[254].

إنّ حالة جنوة هي الأحسن معرفة بفضل عدة وثائق توثيقية سمحت بدراسة سوق الصوف. فقد تطورت بها صناعة الأجواخ على الأقل بداية من سنوات

(252) أنظر أعمال الأسبوع الأول للتاريخ الاقتصادي ببراتو (Prato) المخصص بكيفية كاشفة لهذه الصناعة:

La Lana come materia prima. I fenomeni della sua produzione e circolazione nei secoli XIII-XVII. Atti della I settimane di studio, Istituto internazionale di storia economica F. Datini, aprile 1969, dir. M. Spallanzani, Florence, 1974. E. Carus Wilson, « The Woolen Industry », *The Cambridge Economic History*, II, dir. M. Postan et E. E. Rich, Cambridge, 1952, p. 355-428.

ومؤخرا، حول المظاهر التقنية، Cardon, *op. cit*

(253) Carus Wilson, art. cité, p. 375-376.

(254) *Ibid.*, p. 367-374, 387-393.

1250، بأنشطة كـالقصارين والصباغين والجواخين وطبعا الصوافين[255]. لكن أبعد من جنوة نفسها، كانت لمدن الداخل صناعة نسيجية تمونت بالصوف من الميناء اللجيري، خصوصا مثل حالة المدن التوسكانية كـ ليك (Lucques) التي آوت نشاطا صناعيا صوفيا بداية من منتصف القرن الثالث عشر، وطبعا فلورنسا[256]. في القرن الثالث عشر، استطاعت المدن التوسكانية أن تتمون من بيزا على الأقل عندما لم تكن في حرب مع هذه الأخيرة. لكن تنقصنا المادة التوثيقية بالنسبة لبيزا. تبقى إذن جنوة أحسن ملاحظ لواردات القطن في إيطاليا في هذه الفترة.

إن عقود الاستئجار البحري بالنسبة لحمولات الصوف بين بجاية وجنوة تعتبر نادرة نسبيا، لكنها تظهر أحيانا حمولات هامة. ففي 1201، أجّر جياكومو كابرا (Giacomo Capra)، وأنسيلمو برباريا (Anselmo Barbaria) وشركاؤهما مركبهم لأربعة تجار جنويين للسفر إلى بجاية وتوقعوا في العودة شحنة تحتوي خصوصا على 1000 قنطار من الصوف والجلود[257]. أقل تواضعا، حمل جيوفانينو دو كوارتو (Giovannino de Quarto) في 1271 على لوحه 39 كيسا من الصوف ملك لكورادو سترجيابوركو (Corrado Streggiaporco)، تمّ تحميلها من بجاية[258]. نجد أيضا في أوصال العودة لرأس مال طلبية صفيّ بصوف في بجاية[259]، لكن هذا النوع من الممارسات كان نادرا.

(255) St. A. Epstein, *Genoa and the Genoese, 958-1528*, Chapel Hill, 1996, p. 100 ; R. S. Lopez, « Le origini dell'arte della lana », *Studi sull'economia genovese nel Medio Evo*, Turin, 1936, p. 63-181.

(256) Th. W. Blomquist, « The Drapers of Lucca and the Marketing of Cloth in the Mid-thirteenth Century », *Economy, Society, Government in Medieval Italy. Essays in Memory of Robert L. Reynolds. Exploration in Economic History*, 7, 1969-70, p. 65-73 (دراسة من خلال موثق في 1246).

(257) Giovanni di Guiberto, n° 348 (3/8/1201).

(258) ASG, min. 70, f. 6r (18/7/1271).

(259) على سبيل المثال: ASG, min. 65, f. 10r (24/1/1258) ; min. 40/I, f. 63r (24/3/1281)

في المقابل، نتوفر على سلسلة جميلة من حوالي 250 عقد بيع للصوف البجائي في السوق الجنوية ما بين 1248 ونهاية القرن الثالث عشر[260]. في عدة حالات، ليس واضحا إذا ما كان هذا الصوف قد ورد من بجاية، ولا يتعلق إذن في هذه الفترة على الأقل بمجرد تسمية بسيطة لنوعية ما.

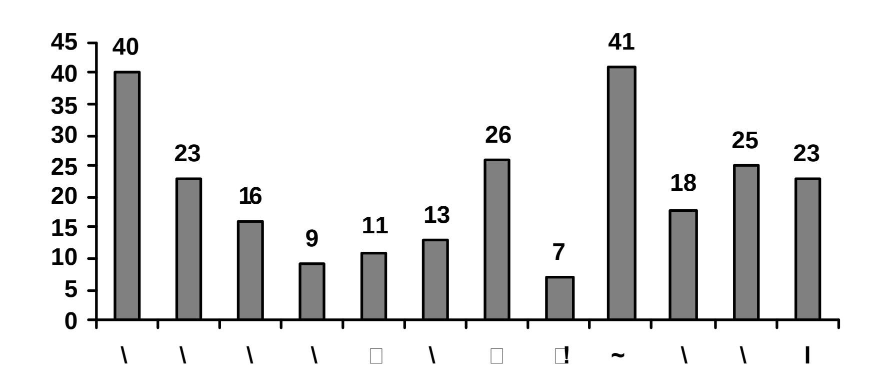
جرت البيوع على طول السنة، لكن بفترات أكثر نشاطا من الأخرى. إنّ العدد الضعيف نسبيا للحالات والحظوظ المرتبطة بالمحافظة على العقود يدفع طبعا إلى بعض الحذر[261]، لكن هناك اتجاه مرئي (أنظر الشكل). كانت أكثر المعاملات في شهر سبتمبر بـ 41 بيعا ونستمر في توفرنا على عدد مطّرد من العقود على امتداد الشتاء على الأقل إلى غاية شهر فيفري. وهذا ليس بالمفاجئ، لأن هذه الفترة تتماشى مع الفصل الملاحي الخلفي[262].

(260) لم آخذ بعين الاعتبار إلا الصوف المعروف بـ"البجائي" أو المنقول من بجاية. في المقابل، يكثر ذكر "الصوف الإفريقي" بداية من سنوات 1270 والذي ترك هنا جانبا. من البديهي أنه من بين الصوف الإفريقي ورد بعضه من بجاية.

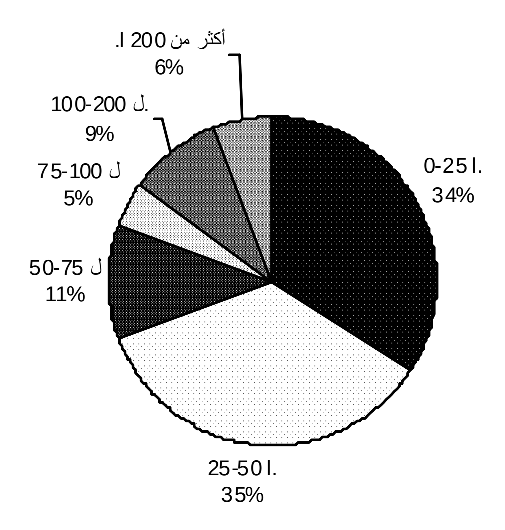
(261) إنّ الارتفاع الحاصل في شهر جويلية بـ 26 عملية يفسّر فقط بـ 16 عقد بيع أمبروزينو سجنورندي (Ambrosino Segnorandi) نفسه للصوف البجائي بين 26 و28 جويلية 1278. ASG, min. 63/I, f. 89v-99v (26-28/7/1278).

(262) إنّ الارتفاع الذي حدث في سبتمبر هو هام ويمكن أن يبين أن السفن تعود إلى بجاية في بداية الخريف بعد قضائها كل الصيف في بجاية. وتظهر تواريخ انطلاق المراكب انخفاض حركيتها في جويلية وأوت.

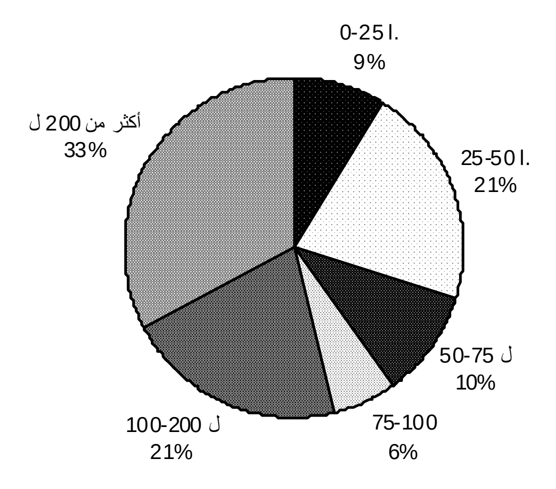
رسم بياني 2: التوزيع الشهري لمبيعات الصوف البجائي في جنوة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر (بعدد العقود)



كانت الكميات المباعة والقيم التي عرضت للبيع دائما متواضعة، لكن في غياب سجل ديوان هذه الفترة يستحيل تشكيل فكرة حول كميات الصوف التي دخلت فعليا إلى السوق الجنوي. إذا ما أخذنا بعين الاعتبار 242 عقدا التي تشير إلى مبالغ بالليفر الجنوي، تتفوق المعاملات الصغيرة بصفة واسعة: 34،3 في المائة خصصوا مبالغ أقل أو تساوي 25 ليفر و35،1 في المائة مبالغ تتراوح ما بين 25 و50 ليفر. وتمثل المبيعات التي لها أكثر من 100 ليفر 14،9 في المائة من العمليات، بخمسة عشر عملية بيع كبيرة (تفوق 200 ليفر). لكن هذه العمليات التي تفوق 100 ليفر تمثل بقيمتها أكثر من نصف مبيعات صوف بجاية.



رسم بياني 3: توزيع مبيعات الصوف البجائي في السوق الجنوي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر (بعدد عقود البيع)



رسم بياني 4: توزيع مبيعات الصوف البجائي في السوق الجنوي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر (حسب القيمة)

استجابت هذه الصادرات لطلب قوي من السوق الجنوي وأيضا الإيطالي. عندما لا تذكر مهن المشترين، غالبا يتعلق الأمر بالصوافين وبنسبة أقل الجوخيين[263] أو الصباغين[264]. ليس بالضرورة الإشارة إلى الأصل الجغرافي للمشترين. في غياب أي إشارة، غالبا ما يتعلق الأمر بجنوي. في بعض الحالات، يتم توضيح أن المشتري يسكن جنوة ببرج القديس ستيفانو (Borgo Santo Stefano)[265]، أو في حي باب القديس أندريا (Sant'Andrea)[266]. كانت إذن الأرباض الواقعة خارج السور في جنوب المدينة إلى ما بعد باب القديس أندريا حيث استقرت النشاطات النسيجية وفي ربض رفوتربيدو (Rivotorbido) حيث مارسها الصباغون. إلى ما بعد جنوة، نجد المشترين حيث يشير أصلهم اللجيري دون أن نعرف ما إذا مارسوا نشاطهم في مدينتهم الأصلية

(263) على سبيل المثال في 1274، اشترى نكولينو دو تلدو (Nicolino de Tealdo)– جوخي– من سمونينو رشيريو (Simonino Richerio) ابن جياكومو (Giacomo) 11 قنطارًا من الصوف البجائي بـ 44 ليفر. ASG, min. 82, f. 294v (13/9/1274)

(264) في 1253، اشترى كل من جيوفاني مزاكوزا (Giovanni Mazacoza) من رفوتربيدو (Rivotorbido)، –صبّاغ– ، وزوجته وأنسلمو أفرنتيكو (Anselmo Overnatico) من سيسوبونو (Suçobono) من القديس دوناتو (Santo Donato) وجيوفاني بلوزو (Giovanni Piloso) من سانت أمبروجيو (Sant'Ambrogio) الصوف البجائي بـ 19 ليفر و17 سو و6 دونيي. ASG, min. 28, f. 149v (10/12/1253)

(265) في 1278، اشترى أندرلو نزاريو (Andreolo Nazario) – صوّاف يقطن ببرج القديس ستيفانو (Borgo Santo Stefano) – من أمبروزينو سجنورادو (Ambrosino Segnorando) ثمانية أكياس من الصوف البجائي بـ 144 ليفر و17 سو و6 دونيي. كان هذا القطن ملكا لموسو (Musso) ومانويلي أبو (Manuele Abo) اللذان جلباه من بجاية إلى جنوة. ASG, min. 63/I, f. 89v (26/7/1278).

(266) في 1253، اشترى ماجريو (Maguerio) من بورتا سانت أندريا (Porta Sant'Andrea) –صوّاف– من سيسوبونو (Suçobono) من سانتو دوناتو (Santo Donato) وجيوفاني بليزو (Giovanni Piloso) من سانت أمبروجيو (Sant'Ambrogio) الصوف البجائي بـ 18 ليفر و12 سو و8 دونيي. ASG, min. 28, f. 148v (10/12/1253)

أم كانوا مستقرين بجنوة: كيافاري [267] (Chiavari) ، وستريبا [268] (Struppa)، وأيضا ربالو [269] (Rapallo) ، وأكثر بعدا فينتميل (Vintimille)[270].

خارج لجيريا (Ligurie)، كان الصوف البجائي مصدرا إلى مراكز النسيج الإيطالية الكبرى. نجد أولا تجار توسكانيا القريبة. ليس هناك بيزيين، وهذا ليس مدهشا، لكن هناك الفلورنسيون واللكويون (Lucquois). كما نعلم طوّرت فلورنسا مبكرا صناعة نسيجية قوية[271] ونلاقي الفلورنسيين القادمين إلى جنوة للتمون بالصوف[272]. ففي 1268، اشترى بيني فابرونو (Bene Fabrono) وفلبينو ليارليا (Filippino Liarlia) - كلاهما من فلورنسا ويسكنان عند بنفسالو نبتيلا (Bonvassallo Nepitella) بسان دوناتو (San Donato) –

(267) على سبيل المثال في 1253، اشترى مرتينو دو كيافاري (Martino de Chiavari) –صوّاف– الصوف البجائي بـ 76 ليفر و6 سو من سكوبونو (Suçobono) من سانتو دوناتو وجيوفاني بلوسو (Giovanni Piloso). ASG, min. 28, f. 153r (18/12/1253)

(268) في 1253 أيضا، باع سكوبونو من سانتو دوناتو إلى ججليامو دو ستروبا (Guglielmo de Struppa) – صوّاف– بـ 74 ليفر و7 سو و5 دونيي من صوف بجاية. ASG, min. 28, f. 146v (7/12/1253)

(269) في 1278، اشترى جانييرو دو ربالو (Januario de Rapallo) –صوّاف– من أمبروزينو سجنوروندي(Ambrosino Segnorandi) كيسين من الصوف البجائي بـ 37 ليفر و17 سو و6 دونيي. ASG, min. 63/I, f. 95v (28/7/1278)

(270) ASG, min. 28, f. 149v.

(271) أنظر:

H. Hoshino, *L'Arte della lana in Firenze nel Basso Medioevo. Il commercio della lana e il mercato dei panni fiorentini nei secoli XIII-XV*, Florence, 1980.

(272) تذكر قوانين فن الصوف الفلورنسية المؤرخة في 1317–1319 بأنه يجلب من بلاد الغرب وتونس وبجاية وبيزا...

in partibus Garbi, Tunisi, Bugee, Ianue, Pisarum vel alibi extra districtum Florentie. A. M. E. Agnoletti, éd., *Statuto dell'Arte della Lana di Firenze (1317-1319)*, Florence, 1940 (*Fonti e studi sulle corporazioni artigiane del Medio Evo,* 1), p. 163.

الصوف البجائي مقابل 107 ليفر و5 سو[273]. وفي سبتمبر ونوفمبر من نفس السنة، أجرى الصوافون أو التجار الفلورنسيون عدة مبيعات من الصوف الدقيق البجائي[274]. وتأكدت أهمية التوسكانيين بالنسبة للصوف الإفريقي الذي استوردته جنوة في تسعيرة ديوانية فلورنسية لعام 1307 متعلقة بالسلع التي اجتازت المجال الجنوي، وتنص على وجوب دفع 2 سو و6 دونيي جنوي عن كل سالمة صوف من تونس أو بجاية أو الغرب[275]. كانت ليك (Lucques) مدينة أخرى توسكانية تخصصت في عمل الحرير[276]، لكن صنعت بها أيضا أجواخ ونلاقي اللكويين قادمين لجلب الصوف من جنوة. وجدت علاقات سياسية واقتصادية بين هاتين المدينتين منذ منتصف القرن الثاني عشر واستثمر اللكويون – الذين كان لهم قنصل بجنوة في 1167 في التجارة البحرية الجنوية. كان النصف الثاني من القرن الثالث عشر العصر الذهبي لحضورهم في العاصمة اللجيرية. فقد كانت العائلات الكبرى حاضرة في البنوك، والحرف وطبعا في التجارة[277]، كانت من أهمها عائلة باتوسي (Battosi) بثلاثة أبناء للمرحوم باتوسو (Battoso) وهم جيوفاني (Giovanni) وأورلاندو (Orlando) وكستوري (Castore)، النشطين بين سنتي 1250 و1270، والذين شكّلوا شركة عائلية صغيرة[278]. عن طريق علاقات مع العائلات الجنوية الكبرى مثل لركاري (Lercari) وزتشاريا (Zaccaria) أو ماري (Mari) ، اشترى أرلاندو الحرير والشب والتوابل

(273) ASG, min. 91, f. 118v. (24/2/1268).

(274) ASG, min. 16/II, f. 171r-v (10/9/1268), 172v (24/9/1268), 180v-181r (17/11/1268).

(275) Archivio di Stato di Firenze, *Provvisioni* XIII, f. 116, cité par R. Davidsohn, *Forschungen zur Geschichte von Florenz*, Berlin, 1901, III, p. 102.

(276) J.-Fr. Bergier, « Lucques et l’Europe : fidélité à quel destin ? », *Lucca e l’Europa degli affari (secoli XV-XVII)*, Lucques, 1990, p. 21-22.

(277) G. Petti Balbi, « La presenza lucchese a Genova in età medioevale », *Lucca e l’Europa degli affari, op. cit.*, p. 30-33.

(278) *Ibid.*, p. 34.

والصوف من السوق الجنوي[279]. في 1259، أجرى عدة مشتريات للصوف البجائي مع ثلاثة لكويين آخرين وهم برناردو مجنو (Bernardo Magno) وبنناتو جديكو (Benanato Guidico) وجياكومو ميلانازي (Giacomo Milanese) باسمهم وباسم شركائهم. كانت الكميات المقتناة في كل مرة هامة ووصل المجموع إلى 1209 ليفر و11 سو و11 دونيي[280]. وإذا ما قارنا هذه الأرقام بالمبالغ المتوسطة الملتزم بها في مشتريات الصوف البجائي التي هي عموما ضعيفة، يمكن أن نفترض أنه يتعلق بمشتريات الجملة الموجهة للبيع المفرّق دون شك في سوق ليك. يمكننا أن نشير أيضا إلى العهد الممضى بين مودان (Modène) وليك في 1281 والذي يذكر صوف تونس وبجاية[281]، لكن دون أن نعرف الميناء الذي عبر منه.

كان اللمبارديون أكثر المتعاملين الإيطاليين. ليس هناك ما يدهش بخصوص حضورهم في وثائقنا لأن ميلانو والمدن الأخرى في جهتها طوّرت مبكرا صناعة نسيجية قوية. إنّ حارة باب سانت أندريا حيث سكن عدة صوّافين هي أيضا حارة اللومبارديين[282].

(279) *Ibid*.

(280) 178 ليفر و7 سو و1 دونيي. (ASG, min. 105, f. 66v-67r, 27/1/1259). 212 ليفر و5 سو و4 دونيي(id., f. 77r, 15/2/1259). 111 ليفر و10 سو (id., f. 91v, 28/2/1259). 83 ليفر و13 سو (ASG, min. 34, f. 200v, 2/9/1259). 67 ليفر و3 سو و6 دونيي (id., f. 202r, 4/9/1259) . 212 ليفر و11 سو (ASG, min. 35, f. 14v, 10/9/1259). 416 ليفر و2 سو (id., f. 15v, 11/9/1259).

(281) تشير أيضا تسعيرة بلدية لنفس مدينة مودان في 1306 إلى صوف تونس وبجاية. نقلا عن:
G. B. Dapping, *Histoire du commerce entre le Levant et l'Europe depuis les croisades jusqu'à la fondation des colonies d'Amérique*, Paris, 1830, I, p. 241.

(282) G. Airaldi, « Alessandrini sulla via del mare », *Popolo e stato in Italia nell'età di Federico Barbarossa. Alessandria e la lega lombarda. Relazioni e comunicazioni al XXXIII congresso storico subalpino, Alessandria-Genova, ottobre 1968*, Turin, 1970, p. 431.

نجد أيضا الذين اشتروا الصوف من بليزونس (Plaisance)[283]، ومنزا[284] (Monza)، ولودي[285] (Lodi)، وكريموني[286] (Crémone) وميلانو طبعا. ففي 1266، عهد ثلاثة تجار -من بينهم جياكومينو بيشالو الميلاني (Giacomino Bechalo) – إلى جيوفانينو دو كوارتو بن سيموني (Giovannino de Quarto fils de Simone) 450 ليفر من أجل صوف بجاية[287]. في نفس السنة، اشترى بكونو بشليس (Bicono Paschalis) له ولأخيه جالفاجني (Galvagni) في جنوة صوفًا من نفس المصدر بـ 142 ليفر و12 سو[288]. وأخيرا في السنة الموالية، التزم ميلانيون بتسديد 287 ليفر مقابل الصوف البجائي[289]. إنها مبالغ كبيرة تشير إلى مشتريات بالجملة لأسواق ميلانو أو لمبارديا بصفة عامة. يشهد لهذا النقل نحو مدن الشمال عقد مؤرخ في أكتوبر 1293 ينص على تسيير الصوف البجائي إلى ميلانو[290].

(283) ASG, min. 27, f. 76r (3/10/1250).

بيترو (Pietro) الذي هو من جبل سانتو ببليزونس (Monte Santo de Plaisance) ، اشترى باسمه وباسم شركائه الصوف البجائي بـ 160 ليفر التي تسدد في ميلانو. وتنص قوانين بليزونس لعام 1321 على رسوم على صوف وقطن بجاية وتونس.

Corpus statutorum mercatorum Placentiae, Milan, 1967, p. 114, cité par G. Jehel, « Les Placentins en Afrique du Nord au Moyen Âge », *Precursori di Cristoforo Colombo. Mercanti e banchieri piacentini nel mondo durante il medioevo. Atti del Convegno Internazionale di Studi, Piacienza, 10-12 settembre 1992*, Bologne, 1994, p. 175.

(284) ASG, min. 28, f. 141r (30/11/1253).

(285) Par exemple ASG, min. 28, f. 138v (26/11/1253).

(286) ASG, min. 35, f. 16v (11/9/1259).

(287) ASG, min. 81, f. 7v (16/2/1266).

(288) ASG, min. 81, f. 32r (8/3/1266).

(289) ASG, min. 70, f. 225v (1/7/1267).

(290) ASG, min. 10, f. 197v, 198r (19/10/1293).

كان الصوف المباع في السوق الجنوي ليس من نوعية واحدة وكان معمولا ومصقولا بدرجات متفاوتة. ليس دائما من السهولة بمكان التعرف بدقة على طبيعة الصوف المتبادل، لأن الموثقين يكتبون في الغالب ببساطة "صوف بجاية" أو "الصوف الإفريقي" دون تفاصيل إضافية. لكن أحيانا يشيرون إلى نوع أو جودة الصوف الذي تمّ بيعه: رقيق[291]، أو عكس ذلك خشن[292]، وطويل[293]، وصلب[294]، وصوف الأفرشة[295]. واللون الأسود[296] أو الأبيض[297] يكون أحيانا موضّحا. وأخيرا تتحدث وثيقة عن بيع هام لـ "الصوف الجديد البربري البجائي"، لكن لا نعرف أي نوع من الصوف تحدده الوثيقة[298].

تشير النعوت المتداولة إلى درجة التحضير، بمعنى تنظيف الصوف. وتوضح العقود أحيانا أن الصوف[299] هو مزال الدهن[300]، أو بالعكس (نادرا) غير

---

(291) Par exemple ASG, min. 81, f. 9r (17/2/1266).

(292) Par exemple ASG, min. 70, f. 39r (13/11/1264).

(293) ASG, min. 84, f. 14v (13/1/1274).

(294) ASG, min. 193, f. 16r (10/1/1328).

(295) ASG, min. 35, f. 16v (11/9/1259).

(296) ASG, min. 63/I, f. 111v (13/8/1278) ; min. 90, f. 125r (27/8/1296).
إنّ الصوف الأسود غير صالح للصباغات الباهية أو المضيئة رغم أنه لم يكن أقل جودة. Cardon, *op. cit.*, p. 90

(297) ASG, min. 193, f. 16r (10/1/1328).

(298) ASG, min. 74, f. 216r (6/3/1287).
باع بنديتو فلاريو (Benedetto Fellario) لأوبرتو دو سرا (Oberto de Serra) 200 قنطارًا من الصوف البربري الجديد البجائي بالقنطار البربري بفندق بجاية بـ 900 دوبل ذهبي. أرسلت الحمولة على متن أول مركب فارغ.

(299) عدة حالات، أنظر: ASG, min. 105, f. 71r (5/2/1259)

(300) N. Calvini, *Nuovo glossario medievale ligure*, Gênes, 1984, s.v. « sucida ».
كان غسل الصوف ضروريا لينزع منه المظهر الملوث وكل القذورات.

مغسول[301]. نتفاجأ بالعدد الكبير من الصوف غير المنظّف، وهذا ما يبيّن أن هذه المادة الأولية كانت غالبا خامة التصدير من بجاية، دون أي تحويل. لكن من المستحيل تقدير نصيب الصوف المغسول جميعا، لأن الأغلبية الساحقة من العقود تتحدث دون توضيح عن "صوف بجاية". فضلا عن ذلك، لا نرى أن الصوف إلا حين يوضع للبيع في الصوف الجنوي، لكن بين إنزاله وبيعه، يمكن للصوف أن يتعرض لتحويلات. تشير التسعيرات الديوانية إلى عدة أنواع من الصوف "البربري" التي نجد فيه ما هو مغسول. حيث كان غسل الصوف عملية هامة للقماش في المستقبل حيث يراقبها جيدا المهنيون[302]، وليس من المستبعد تحديد توريد الصوف المغسول للمحافظة على هذه المراقبة. يمكن لإجراءات ما هدفها حماية التوظيف الصناعي في المدن النسيجية. ونعرف في هذا المجال أن آمر بيزا لعام 1305 منع استيراد الصوف الأجنبي الممشّط، وهو إجراء واضح للحماية[303].

ليس من الممكن انجاز دراسة لأسعار البيع التي ميّزت نوعيات الصوف. إن المعطيات التي نتوفر عليها غير كاملة بتاتا ومن النادر على وجه الخصوص أن يعطي العقد السعر والكمية المباعة. فقط ست حالات تسمح لنا بإعطاء فكرة عن الأسعار. أيضا، هل يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أنه يتعلق الأمر بمبيعات جزافية وأن المبلغ المشار إليه كان ربما فيه زيادة بنسبة من المستحيل تقديرها. في حالتين اثنتين فقط، توضح الوثيقة أن الأمر يتعلق بالصوف المغسول، دون أن يكون ممكنا إفشاء فارق تكلفة مقارنة مع صوف آخر.

(301) على سبيل المثال : ASG, min. 61, f. 66v (10/4/1264)

(302) Cardon, *op. cit.*, p. 147.

(303) P. Silva, « Intorno all’industria e al commercio della lana in Pisa », *Studi Storici*, 19, 1910, p. 337-339.

جدول 11: أسعار الصوف البجائي في السوق الجنوي

(النصف الثاني من القرن الثالث عشر)

المصدر	التاريخ	الكمية بالقنطار والرتولي	المبالغ بالليفر الجنوي	سعر القنطار
ASG, min. 105, f. 66v-67r	27/ 1/ 1259	35 ق و67	178 l. 7 s. 1 d.	5 l.
Id., f. 91v	28/ 2/ 1259	23 ق	111 l. 10 s.	4 l. 16 s.
ASG, min. 62, f. 138v	27/ 10/ 1268	34 ق و99ر	168 l.	4 l. 16 s.
ASG, min. 82, f. 294v	13/ 9/ 1274	11ق	44 l.	4 l.
Id.	13/ 9/ 1274	15 ق.	60 l.	4 l.
ASG, min. 73, f. 152v-153r.	26/ 5/ 1284	28 ق و97 ر	152 l. 1 s. 10 d.	5 l. 5 s
Id., f. 198r	9/ 6/ 1288	3 ق و64 ر	19 l. 5 s. 8 d.	5 l. 6 s.
ASG, min. 120/II, f. 91v	2/ 3/ 1288	54 ق و62 ر	240 l. 10 s. 9 d.	4 l. 8 s.
Id., f. 92r	3/ 1288	43 ق و6ر	191 l. 8 s.	4 l. 9 s.
ASG, min. 109, f. 213v	24/ 9/ 1293	140 ق و27ر	596 l. 2 s. 11 d.	4 l. 5 s.

تتراوح الأسعار إذن بين 4 و5 ليفر بقليل للقنطار. إذا ما حلّلنا الثمانية عشر التي تعطي كميات بكيس من الصوف تقدر بحوالي 4 قناطير محتوى الكيس[304]، ونصل إلى نتائج مماثلة.

يعتبر صوف بجاية والمغرب بصفة عامة في القرن الثالث عشر عال الجودة[305]. ففي 1268، اشترى الفلورنسي فليبو دو فنيزو (Filippo de

(304) ينجم عن هذه المعادلة ثلاثة عقود لا تعطي مبلغا محددا، لكنها تشير إلى كمية الصوف في الكيس.

ASG, min. 16/II, f. 171r-v (10/9/1268), 172v (24/9/1268), 180v-181r (17/11/1268).

(Venizo بجنوة الصوف السرديني بـ 1 ليفر و6 سو للقنطار والصوف البجائي بـ 4 ليفر و10 سو للقنطار، بمعنى سعر مرتفع بثلاث مرات[306]. لكن يجب أن نكون يقظين لغياب تحليل أكثر شمولية لأسعار الصوف بمختلف مصادره: هناك عدة عوامل يمكن أن تدخل في الحسبان في تكوين الأسعار، خصوصا نوع الصوف المعتبر. يعتقد روبرتو سباتينو لوبيز (Roberto Sabatino Lopez) أن الخروف الجنوبي الإسباني الذي وفّر بداية من القرن الرابع عشر أحسن الجزز كان أصله مغاربيا. وهذا ما يفسر في نظره أن الحرفيين اشتروا الصوف البربري بسعر عال[307]. لكن نسجل أن تحليلات الجزز هذه – التي لها تأويلات صعبة حقا- سمحت لـ م. ل. ريدر (M. L. Ryder) من الاستنتاج أنه لا "يوجد أي دليل أثري لتربية أغنام لها صوف رقيق في إفريقيا الشمالية"[308]، وهذا ما يشكك في المخطط التفسيري لروبرتو سباتينو لوبيز. بيد أنه أكيد على الأقل في القرن الثالث عشر، كان الإنتاج المغاربي، خصوصا انتاج بجاية، من أحسن المواد في السوق الإيطالي.

اعتمدنا إلى هنا خصوصا على الحالة الجنوية الأحسن توثيقا. لكن لم تكن جنوة الوحيدة التي استوردت صوف المغرب في هذه الفترة. أولا، ذهبت بيزا للبحث عنه في بجاية حيث تمتعت بوضعية صلبة كما يشهد على ذلك عقد استئجار في 1274 لمركب بونافنتيرا سان كنكورديو (Buonaventura San Concordio) من الميناء البيزي إلى بجاية، الذي ينص على الصوف والفراء في

(305) R. S. Lopez, « El Origen de la oveja merina », *Estudios de Historia Moderna*, 4, 1954, trad. it. « L'origine della pecora merina », *Su e giù per la Storia di Genova*, Gênes, 1975, p. 271-272.

(306) ASG, min. 16/II, f. 180v-181r (17/11/1268).

(307) Lopez, « L'Origine », art. cité, p. 271-272.

(308) M. L. Ryder, « La Storia delle pecore merino nella lana antiqua », *Laniera*, 105/4, 1993, p. 178, 204, cité par Cardon, *op. cit.*, p. 50.

شحنة العودة[309]. أيضا، توافد البنادقة على بجاية لشراء الصوف. ففي 1284، استولى الأميرال الجنوي بنديتو زاتشاريا (Benedetto Zaccaria) على رأس ثلاثين يختا على مركب بندقي ينقل حمولة من الصوف المعبأة في بجاية. كانت الحرب مسعورة بين الجمهوريتين التيرانيتين وكل حمولة يعتقد أنها بيزية يلقى القبض عليها. سمح فقط تدخل سفارة سرينسم (Sérénissime) بتقديم دليل على أنّ الصوف ملكية للبنادقة وبالتالي إرجاع الحمولة إلى أصحابها[310]. وتؤكد محاضر المجالس البندقية هذه المشتريات. ففي 1294، قرر مجلس الشيوخ فرض رسم بـ 4 ليفر لكل سونتناريو *(centenario)* صوف وفراء بلاد البربر التي يستوردها الأجانب[311]. وفي 1334 تم الترخيص لأجانب المدينة باستيراد هذا الصوف « ed altre merci grosse » بشرط تصديره كل ستة أشهر من البندقية إلى ساحل بلاد الشام[312]. وهدف هذا الإجراء دون شك قبل كل شيئ إلى ترقية صادرات مصالح البندقية، لكنه يبيّن أيضا إمكانية وصول صوف بلاد البربر إلى البندقية.

---

(309) Archivio Caetani, *Pergamene*, Fondo pisano, n° 3330 (10/8/1274), éd. G. Caetani, *Varia. Raccolta delle carte più antiche dell'Archivio Caetani e Regesto delle pergamene del fondo pisano*, Cité du Vatican, 1936, p. 12-14.

تم نشر هذا العقد أيضا، لكن بتاريخ 1264 من طرف ل. دو ماس لاتري. L. de Mas-Latrie, « Charte de nolisement de l'an 1264 pour un voyage de Pise à Bougie », *BEC*, 2e série, 4, 1847-48, p. 244-256. طوّرت بيزا صناعة صوفية هامة تمونت في قسم منها من المغرب.

P. Castagneto, *L'Arte della Lana a Pisa nel Duecento e nei primi decenni del Trecento. Commercio, industria e istituzioni*, Pise, 1996, p. 44-45.

(310) *AG*, VI, p. 51 (a. 1284).

(311) Éd. Cessi, Sambin, *Le Deliberazioni del consiglio dei Rogati, op. cit.*, p. 93 (17/2/1294).

(312) Éd. M. Brunetti, R. Cessi, *Le Deliberazioni del Consiglio dei rogati (senato) ; serie « mixtorum »*, II, *libri XV-XVI*, Venise, 1961, p. 281 (24/2/1334).

خارج إيطاليا، لا نجد في القرن الثالث عشر استيراداً للصوف البجائي، خصوصا من برشلونة أو مرسيليا. ربما ببساطة لتعذر وجود مادة توثيقية (خصوصا لبرشلونة)، لكن يمكن أن نفسره أيضا بإيجاد كتالونيا وبروفونس ومن هنا مملكة فرنسا ومدن الشمال التجارية لمصادر تموين أخرى. وإذا ما نظرنا إلى قائمة المواد المغاربية المباعة في فلوندر في نهاية القرن الثالث عشر، نجد الجلود والشمع أو الشب البجائي، لكن دون الصوف[313].

تراجع صادرات الصوف في القرن الرابع عشر

تغيّرت الوضعية بشكل جذري في القرن الرابع عشر. ففي الوثائق نستمر طبعا في العثور على "صوف بلاد البربر" (بصفة عامة دون توضيح الأصل)، لكن وروده من هنا فصاعدا كان للدلالة على نوعية رديئة. هناك إجراءات وقائية أوقفت وصول صوف المغرب وأصبحت حصته في الواردات ضئيلة.

بالنسبة للقرن الرابع عشر، لا تشير عقود الموثقين الجنويين إلا استثنائيا لمبيعات الصوف البجائي[314]. أيضا لا تتعلق عقود الاستئجار إلا نادرا بهذه المادة، رغم إشارة التسعيرات الديوانية وكتيبات التجارة إليه، وهذا ما يبين عدم اختفاء هذه المتاجرة بالكامل.

يتحدث الفلورنسي بجولوتي – الذي ترجع معلوماته إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر- مطولا عن هذه المادة الجوهرية ويروي بيع الصوف البربري في نابولي[315]، والصوف المدهّن والمنزوع الدهن في بيزا، موضحا أنه في قبالة الصوف

---

(313) Paris, BNF, ms., fonds Notre Dame, n° 274 bis, f. 18v, éd. L. de Mas-Latrie, *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-Âge*, Paris, 1866, p. 98-99.

(314) تزود الجنويون من الآن فصاعدا أساسا من السوق الإنجليزي. Lopez, « L'origine », art. cité, p. 272

(315) Pegolotti, p. 178. يعطي قيمة القنطار البربري (*barbaresco*) رتولي 56 الذي يساوي بنابولي

يسدد 5 سو بتشيولي *(picciolli)* للقنطار البربري[316]. أيضا، يتحدث الكتيب الكتالاني لعام 1385 عن صوف خرفان بلاد البربر، ويعتبره رديئًا جدا[317].

تؤكد هذه المعلومات عدة تسعيرات ديوانية توقعت فرض رسم على الصوف المغاربي على غرار تسعيرة 1329 التي وردت في معاهدة السلم الموقعة بين بيزا ومختلف مدن توسكانيا[318]. بأكثر دقة، تذكر تسعيرة بيزية لعام 1362 الصوف المدهّن والمغسول البجائي[319]. أيضا، وضعت تسعيرة ميورقية طارئة في 1368 قائمة للمواد التي استوردتها بجاية وتشير إلى الصوف الخام والمغسول[320]. إنّ الرسوم الديوانية التي دفعت على هذه الواردات كانت ضعيفة إذا ما قورنت بالرسوم المفروضة على الصوف الأوروبي، وهي إشارة تدل على قلة جودتها. أيضا، تسمح تسعيرة بندقية في 1339 بالمقارنة بين الرسوم المسددة على مختلف أنواع الصوف والتي يمكن أن نعتبرها عاكسة لقيمتها في السوق البندقي[321]: صوف بلاد البربر المغسول لم يسدد إلا 2 ليفر جملة للملياريو *(milliario)* (5 ليفر للصوف المغسول). إنّ الصوف الأوروبي الأصل فرضت عليه الرسوم أكبر: 6 ليفر على الصوف الألماني، و8 ليفر على صوف قبرص وكاندي (Candie) ولاتانا (La Tana) وصقلية وأبيلي (Apulie)، و10 ليفر على الصوف

(316) *Ibid.*, p. 204, 211.

(317) M. Gual Camarena, éd., *El primer manual hispánico de mercadería (s. XIV)*, Barcelone, 1981, p. 125.

(318) ASP, *Comune* A, 29, f. 30r (1329).

(319) ASP, *Comune* A, 240, f. 9v, 10v, 15v, éd. B. Casini, « Il "breve" delle gabelle delle porta della Degazia del Mare di Pisa del 1362 », *Studi per Enrico Fiumi*, Pise, 1979, p. 373-429.
تضع هذه التسعيرة الصوف البجائي ضمن نفس صنف صوف المدن المغاربية الأخرى، ذاكرا تنس، والجزائر ومزجران وبياجيا (؟) والقل وبونة وتونس وسوسة والمهدية وكل بلاد البربر والغرب. « tucti li paesi di Barbaria et Garbo »

(320) E. de K. Aguiló, « Mostres de lous passats per la redencio de catius cristians », *BSAL*, 10, 1904, p. 340.
الرسم الواجب تسديده هو على التوالي الثمن والثمنين *(tumens)*.

(321) لا يبدو أن الرسوم المحرمة قد أضرّت بالصوف الذي مصدره خاص.

المستورد من فرنسا والبورجوني أو أنجلترا[322]. نجد أيضا رسومًا على صوف بلاد البربر في بلرم في القرن الرابع عشر[323]. وأخيرا، تظهر تسعيرة برشلونية طارئة في 1371 صوف ذي جودة جيدة أو جودة رديئة من بين المواد الخاضعة للرسوم والمستوردة من مملكة بجاية[324].

مؤشّر أخير وفّرته لنا تنظيمات الحرف. إذ تتحدث قوانين فن الصوف الفلورنسي في النصف الأول من القرن الرابع عشر عن صوف الغرب وأ"جواخ الغرب" التي نلاقيها أحيانا في المادة الوثائقية، والتي هي دون شك ليست بالأجواخ المستوردة من المغرب، لكن أقمشة مصنوعة بهذه الصوف، ربما مقلدة للنماذج المغاربية[325].

من الصعب تفسير هذه التسعيرات أو هذه القوانين. أولا، باستثناء تسعيرة بيزا في 1362، تبقى غامضة حول المصدر الدقيق للصوف، وتكتفي بالإشارة إليها بورودها من بلاد البربر أو الغرب[326]. لا تسمح لنا هذه الوثائق من جهة أخرى بقياس حجم الوصول الفعلي لهذا الصوف إلى الموانئ الأوروبية، وهذا ما تسمح به السجلات الديوانية[327]. إنّ الشهادات حول تجارة ما هي منعزلة، كما تخبرنا بذلك وثيقة ميورقية لعام 1365 عن تاجر مسلم بلنسي سدّد رسما على استيراد

(322) ASV, *MC*, *Spiritus*, f. 97v (25/7/1339), éd. R. Cessi, L. Luzzatti, *Le Regolazione delle Entrate e delle spese (sec. XIII-XIV)*, padoue, 1925, doc. n° 133.

(323) R. M. Dentici Buccellato, *Fisco e società nella Sicilia Aragonese. Le pandette delle gabelle regie del XIV secolo, Acta curie felicis urbis Panormi*, II, Palerme, 1983, p. 55.

(324) ACA, C., Rg. 1430, f. 47r-v (12/8/1371).

(325) Hoshino, *op. cit*., p. 122-124.

(326) بإمكان هذه الكلمة أن تعني حسب الحالات المغرب الأقصى وأيضا بمعنى أكثر اتساعا المغـرب، وهو دون شك المقصود هنا.

(327) لا تظهر السجلات الجنوية التي نشرها جوهن داي في سنتي 1976–1977 بجايـة و تبـيّن أيضـا صادرات الصوف انطلاقا من تونس.

Day, *Les Douanes de Gênes, op. cit.*

الصوف الذي حمله من بجاية[328]. طبعا نواصل ايجاد الصوف المنعوت بـ" صوف الغرب" حتى القرن الخامس عشر، لكن مصدرها المغاربي الحقيقي مشكوك فيه، كما يبيّنه كتيّب التجارة لجيوفاني دإوزانو (Giovanni d'Uzzano) الذي كتب أنه يتم تصدير الصوف من بلنسية وبرشلونة إلى سان ماتيو (San Matteo) . "بمعنى صوف الغرب"[329]. فالكلمة إذن تشير في نهاية العصر الوسيط إلى نوع من الصوف دون علاقة مع مصدره الجغرافي الحقيقي، وبصفة عامة كل الصوف الأوروبي فضلا عن صوف انجلترا[330].

خسر صوف المغرب إذن الأرضية في الأسواق الأوروبية، وتوقف في القرن الخامس عشر عن جذب اهتمام التجار الكتالانيين الذين تفرغوا لتصدير صوف أراجونة بمراكب كاملة[331]. الشيئ نفسه في بيزا في النصف الأول من القرن الخامس عشر حيث وصلها الصوف من سان ماتيو (San Matteo) قرب بلنسية ونادرا من البروفانس وبلاد البربر[332].

إنّ السبب الرئيسي لهذا التراجع هو اعتبار الجزز المغاربية آنذاك نوعية متدنية مقارنة بالجزز الإسبانية وخصوصا الإنجليزية. وتباع بأرخص ثمن من

---

(328) ARM, RP 1108, f. 34r (2/3/1365).

(329) Éd. G. F. Pagnini della Ventura, « Giovanni di Antonio Da Uzzano : La Pratica della mercatura (1442) », *Della decima e di varie altre gravezze imposte dal Comune di Firenze*, IV, Lisbonne, 1766, rééd. anast. Bologne 1967, p. 108.

(330) Hoshino, *op. cit.*, p. 211.

(331) Carrère, *Barcelone*, *op. cit.*, p. 628.

أنظر أيضا حول الانتاج المحلي للصوف:

Cl. Carrère, « Aspects de la production et du commerce de la laine en Aragon au milieu du XVe siècle », *La Lana come materia prima*, *op. cit.*, p. 205-219.

(332) M. Berti, *Commercio all'ingrosso e al minuto dei panni di lana a Pisa nei primi decenni della dominazione fiorentina*, Pise, 1980, p. 22.

الأخرى[333] واستعمالها أصبح مقصورا على المنتجات الأقل فخامة. إنّ أسباب هذا التأخر في المرتبة ليست واضحة، لأننا لا نرى ما يمكنه أن يفسر انخفاض نوعية الصوف المغاربي بين القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر. يجب بالأحرى الاعتقاد بأن أصل الظاهرة هو تطور إنتاج الصوف بجودة كبيرة وبكميات كافية في أوروبا. إذا لم يكف الصوف الإنجليزي لتلبية كل حاجيات صناعة النسيج المتسعة بايطاليا في القرن الثالث عشر[334]، فإنه سمح تدريجيا بالوصول المتنامي للصوف الإسباني وغيره إلى السوق وإلى الصوافين وصناعيي النسيج بالظهور أكثر طلبا. إنها الأطروحة التي طوّرها دومنيك كاردون (Dominique Cardon) الذي يعتقد أن الأسعار المرتفعة للصوف المغاربي في القرن الثالث عشر لم تكن بسبب نوعية خاصة وإنما بسبب ندرة العرض[335].

أدى هذا التطور إلى إجراءات تهدف إلى إقصاء الصوف المغاربي من صناعة الأجواخ. نظّمت الحرف بطريقة صارمة جدا استعمال المواد الأولية لضمان الحفاظ على الجودة. إلى هذا يمكن إضافة اجراءات الحماية التي كانت تهدف إلى

---

(333) على سبيل المثال في حسابات شركة داتيني دو براتو (Datini de Prato) ما بين 1396 و1400، كان هذا الصوف أقل ثمنا: 6،06 فلورين لـ 100 رطل من صوف بلاد البربر في حين أن الأنواع الأخرى من الصوف سددت بـ 12،41 فلورين (بروفانس)، 12،02 فلورين (سان متيو)، 14،50 فلورين (ميورقة)، 19،77 فلورين (منورقة) وخصوصا 32،79 فلورين (انجلترا). تبعا لذلك، كانت الأجواخ المصنوعة بالصوف المغربي الأدنى (8،52 فلورين مقابل 38،31 فلورين للأجواخ المنجزة انطلاقا من الصوف الانجليزي). F. Melis, *Documenti per la storia economica dei secoli XIV-XV*, Florence, 1972, p. 116 أنظر أيضا: J. Heers, « Il commercio nel Mediterraneo alla fine del sec. XIV e nei primi anni del XV », *Archivio storico italiano*, 113/2, 1955, p. 194 (étude à partir de documents de la compagnie Datini, de l'année 1395). في حين أن الصوف المغربي يتفاوض عليه ما بين 3 و13،15 ليفر للقنطار والصوف الإسباني يقدر ما بين 5 و6 ليفر.

(334) بداية من 1270، ذهب الإيطاليون إلى انجلترا لجلب الصوف. أنظر:

E. Ashtor, « Il retroscena economico dell'urto genovese-pisano alla fine del Duecento », *ASLSP*, 24/2, 1984, p. 61.

(335) Cardon, *op. cit.*, p. 72.

الحفاظ على تربية المواشي في البلاد وبالتالي منع الاستيراد. فبداية من 1454 منعت ميورقة عمل الصوف الأجنبي في الجزيرة ماعدا صوف ميورقة[336]. طبعا استمر الصوف الإفريقي في الوصول، لكنه أعيد تصديره خصوصا نحو إيطاليا[337] أو استعمل لصناعة الأفرشة أو لسلسلة الأغطية[338]. نجد نفس التطور بالنسبة لرجيز (Raguse) في منتصف القرن الخامس عشر[339].

أمام منافسة متنامية وإجراءات تضييق، أصبح الصوف المغاربي هامشيا جدا في الصادرات. كان إذن منفذًا هاما لنشاطات تربية المواشي حيث انغلق تدريجيا خلال القرن الرابع عشر مع تخريب المركز الرئيسي للتصدير ببجاية.

ب) الجلود: المحافظة الدائمة على الصادرات المشهورة

وجب على كل تاجر بيع الجلود أو البشرات، ويعرف حسابهم بوحدة ما (بمئات الوحدات، بالقناطير أو بالأرطال)، حيث عرف ما هو سعر الوحدة وأخيرا كمية السلعة المباعة. كم سيكون مجموع سعر مجموعته من الجلود؟ إذا كان 100 جلد يقدر بـ 83 رطلا 3/ 5 و1/ 9 كم يقدر 32 جلدا؟ هذه اثنتان من "المشاكل" التي طرحها الرياضي البيزي فيبوناتشي (Fibonacci) في كتاب الحساب

(336) *Ibid.*, p. 69-70.

(337) *Ibid.*, p. 71. F. Melis, « La lana della Spagna mediterranea e della Berberia occidentale nei secoli XIV-XV », *La Lana come materia prima*, *op. cit.*, p. 248.

(338) Cardon, *op. cit.*, p. 71.

في القرن الثالث عشر، وصل إلى جنوة صوف الأفرشة.

(339) في جوان 1446 أمر المجس الصغير براجيز (Raguse) إحصاء كل أكياس صوف بلاد البربر ومنع مالكيها من بيعها أو تصديرها دون رخصة مسبقة. وفي أكتوبر من نفس السنة، تمّ توضيح أن الصوف المغاربي هو سبب "انتقاص وقدح" لفن الصوف الراجيزي ويجب على الجميع التخلص منه قبل نوفمبر. وأخيرا، في أوت 1447، تم اعتبار هذا الصوف كمادة تهريب.

A. Ducellier, « L’Adriatique et la Berbérie au Moyen Âge : Trafic d’appoint ou trafic caché ? », *CT*, 117-118, 1981, p. 568.

(Liber Abaci) لتفسير كيفية الإشتغال بما نسميه اليوم بالقاعدة الثلاثية[340]. نعرف أن الذي ساهم في تعريف الأوروبيين (خصوصا التجار) بقواعد نظام الحساب كان قد بدأ تعلمه للرياضيات في بجاية[341]. إنّ الأمثلة التي أخذها، على الأقل في القسم الأول من الكتاب، هي تقريبا مستلهمة من السياق التجاري الذي أمضى فيه شبابه حتى وإن لم يذكر بالضرورة بجاية. يمكننا أن نفترض اغترافه من نشاط هذا الميناء الذي يعرفه جيدا فيما يخص الأمثلة لاستدلالاته. وإذ أن الجلود هي حاضرة جدا في الكتاب، وهذا يمكن أن يعتبر بمثابة كاشف لأهمية هذه المادة في مبادلات بجاية في نهاية القرن الثاني عشر. إنّ صناعة الجلود والفراء على غرار صناعة النسيج تطورت بقوة في أوروبا في العصر الوسيط[342]وصادرات بجاية استجابت لهذا الطلب.

إنّ تصدير الجلود كان منذ البداية واحدا من الأقسام المفتاحية لتجارة بجاية. ففي 1181 نرى ديوان الميناء يمنع البيزيين من تصدير الجلود أو الفراء إذا لم يتوفروا على رأس مال قدره 500 دينار ككفالة لممارسة تجارتهم، وهذا ما أثار

(340) Leonardo Pisano (Fibonacci), *Liber abbaci*, éd. B. Boncompagni, Rome, 1857, p. 83, 88 ; trad. angl. L. Sigler, *Fibonacci's Liber Abaci*, New York, 2002, p. 127, 133.

(341) ولد فيبوناتشي دون شك ما بين 1170 و1180 وتوفي بعد 1241. وكتاب الحساب ألف في 1202.

C. Maccagni, « Leonardo Fibonacci e il rinnovamento delle matematiche », *L'Italia ed i paesi mediterranei. Vie di comunicazione, scambi commerciali e culturali al tempo delle repubbliche marittime*, Pise, 1988, p. 92.

(342) أنظر على وجه الخصوص عمل:

R. Delort, *Le Commerce des fourrures en Occident vers la fin du Moyen Âge*, Rome, 1975. Également Ph. Gourdin, « Les approvisionnements en cuir de la ville de Gênes pendant la deuxième moitié du XVe siècle (d'après les actes du notaire Nicolò Raggi) », *Nuova Rivista Storica*, LXXV/111, 1991, p. 572,

الذي يعتقد أنّ حرفيي الجلود كانوا أكثر من حرفيي الصوف.

احتجاج السلطات البيزية[343]. وليس من السهل تفسير هذا. دون شك تعلق الأمر بالكفاح ضد تجار موسوسين غادروا دون تسديد مشترياتهم وليس بتحديد للتجارة. لكن ما يهم رفعه هنا هو الأهمية الكبيرة التي يوليها البيزيون لتجارة الجلود هذه. من جهة أخرى، كان باستطاعة بعض التجار توفير كفالة بـ 500 دينار ويجب الاستنتاج أن لدينا تجار من صنف كبير.

على غرار الصوف، وصلت الجلود من بجاية إلى موانئ الشمال المتوسطية ثم أعيد تصدير قسم منها بعد ذلك نحو أسواق الداخل. يمكن أن نشك – على غرار روبار دلور (Robert Delort)– في أن كل الجلود المعروفة بـ"البجائية" التي نجدها إلى غاية انجلترا في تاريخ متأخر كانت فعلا نتيجة لواردات من جهة بجاية وحتى المغرب[344]. لكن في بعض الحالات، لا يسمح بالشك. تبيّن عقود بيع الجلود البجائية في السوق الجنوي – على غرار الصوف- تدخل التجار القادمين من داخل إيطاليا، خصوصا من بليزونس[345]. أيضا، أعطت وثيقة تعود إلى نهاية القرن الثالث عشر قائمة للسلع الأجنبية التي بيعت في الفلوندر قادمة من "مملكة بجاية"، نجد خصوصا فراء الخرفان والجلود[346]. وأخيرا، قدم وكلاء شركة داتيني دو براتو في توسكانيا لجلب الجلود البربرية من ميورقة[347]. لقد كان إذن انتشار الجلود والفراء البجائية أكثر اتساعا من انتشار الصوف المحدود بايطاليا.

---

(343) Amari, *Diplomi arabi, op. cit.*, partie latine, n° 14, p. 270 (19/5/1181) et partie arabe, n° 3, p. 10-13 (1/7/1181).

(344) Delort, *Le Commerce des fourrures, op. cit.*, p. 88-89.

(345) Cf. ASG, min. 27, f. 166r (5/6/1251) ; min. 60, f. 296r (28/7/1258).

(346) Paris, BNF, ms., fonds Notre Dame, n° 274 bis, f. 18v, éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 99.

(347) D. Abulafia, « El comercio y el reino de Mallorca, 1150-1450 », *En las costas del Mediterráneo occidental. Las ciudades de la Península Ibérica y del reino de Mallorca y el comercio mediterráneo en la Edad Media*, dir. D. Abulafia, B. Garí, Barcelone, 1996, p. 150.

تواجدت عدة أصناف من الجلود التي لم ترد كلها من نفس أنواع الحيوانات. تعلق الأمر غالبا بفراء الخرفان. نجد في المادة الخبرية الأوروبية ذكراً لبجائي [348] *(bogett, bougeye)*، حيث أنّ اشتقاقه لا يدع مجالا للشك ويشير دائما لجلود الخرفان[349]. إنّ هذا المعنى الذي يوحي في البداية إلى جلود الخرفان المستوردة من بجاية، دون أية علاقة مع الأصل الحقيقي للسلعة[350]. في القرن الثالث عشر، كانت جلود جهة بجاية مشتهرة برشاقتها وتستوردها كامل أوروبا[351]. وتعطي لنا الوثائق الجنوية بعض الأمثلة حول هذه الفترة. ففي 1225، باع سيموني بن بلدوفينو دو كوارت (Simone, fils de Baldovino de Quart) إلى برازيو براستليرو (Perazio Parastrello) البليزنسي جلود الخرفان التي نقلها من بجاية رفقة برتليمو دلا بورتا (Bartolomeo della Porta) [352]. في نفس السنة، اشترى بيترو دي سانت أمبروجيو (Pietro di Sant’Ambrogio) من إيجو بليسينو (Ugo Pulisino) 3960 جلد خروف بـ 150 ليفر و9 سو ونصف، وشهد البائع على نقل صهره جدوتو كديجا (Guidoto Codega) لها من بجاية [353]. وفي 1234، باع تمازو كبيت (Tommaso Capite Agneli) بجنوة 5843 جلدا بجائيا بـ 260

(348) أنظر على سبيل المثال تسعيرة ميورقية لعام 1368 التي تذكر البجائيين *(bugiot)*.

Éd. Aguiló « Mostres de lous », art. cité, p. 340.

(349) Delort, *Le Commerce des fourrures*, *op. cit*., p. 22.

نجد كذلك مصطلحات: bogget, bougie, budge, budye (*ibid*., p. 88)

(350) نجد أيضا شمع إسبانيا « bogy de Spayne »، وشمع رومانيا المعروف بـ « rumney » « budge »، أنظر الشمع الروماني بلومبارديا. Delort, *Le Commerce des fourrures*, *op. cit*., p. 88, 224. يشير روبار دلور إلى دراسة أنجزت انطلاقا خصوصا من أنجلترا والتي بينت أنه بداية من نهاية القرن الرابع عشر، سمّ الشمال الغربي الأوروبي بجائي « budge », « bougie » كل حمل صغير أصله من الجنوب (وحتى من رومانيا) وإسبانيا الأطلسية وأنجلترا وأسكتلندا والأركاد.

(E. W. W. Veale, *The Great Red Book of Bristol*, Bristol, 1937, p. 216)

(351) Delort, *Le Commerce des fourrures*, *op. cit*., p. 219, 224.

(352) Lanfranco, n° 1414 (31/5/1225). حول هذا البيع، وجب على البلاسونتي 97 ليفر و5 سو لسيمون

(353) Lanfranco, n° 1418 (17/6/1225).

ليفر[354]. وأخيرا في 1262، لدينا أثر لبيع من جندلفنو دو كوارتو (Gandulfino de Quarto) لـ 43 لفيفا من جلود الخرفان البجائية حيث أرسلت من جنوة إلى الشمباني[355].

استطاع التجار أيضا شراء جلود الأبقار أو العجول دون شك بنسبة ضعيفة. في قائمة المواد المستوردة من مملكة بجاية الخاضعة لرسم طارئ في برشلونة في 1371، وردت جلود الأبقار[356]. إن الرسم الميورقي الطارئ لعام 1368 يشير إلى جلود العجول[357]. في بداية القرن الخامس عشر، سجّل حتى الآن كلود كرار (Claude Carrère) استيراد الجلود البربرية التي وصلت إلى برشلونة من ميورقة حيث كانت جلود أبقار وعجول فقط [358]. أيضا في ديسمبر 1473 بمرسيليا، أجّر إيليون تروسمار (Helion Tressemare) سفينته سانت ماري وسانت بارب (Sainte-Marie-et-Sainte-Barbe) من 5000 قنطار في الميناء لعدة تجار مرسيليين لرحلة لمدة 4 أشهر إلى المغرب حيث كانت بجاية المرحلة الرئيسية، ورجعت في جويلية 1474 بحمولة من جلود الأبقار والعجول[359].

نجد بجنوة وبيزا وبرشلونة نوعًا ثالثًا من الجلود وهو البكنياس *(becunias)*. ففي 1180، نص عقد استئجار بحري جنوي على حمل أكثر من

(354) ASG, min. 18/II, f. 254r (7/9/1234).

(355) ASG, min. 35, f. 163r (8/11/1262).

أخذ جندلفينو دو كوارتو في السنة السابقة طلبيتين لرحلة إلى بجاية والظاهر أنه أعاد استثمار المنتوج في قسم منه بجلود العجول.

ASG, min. 35, f. 81v (16/9/1261) ; not. ign, *busta* 4, fi. 56 (20/9/1261).

(356) ACA, C., Rg. 1430, f. 47r-v (12/8/1371).

(357) Éd. Aguiló « Mostres de lous », art. cité, p. 340.

(358) Carrère, *Barcelone*, *op. cit*., p. 361, 589.

لكن المصدر البجائي المحض لهذه الجلود ليس واضحا.

(359) ADBR, 351E 447, f. 439v-441r (27/11/1473), 457r-458v (7/12/1473), 482r-484r (14/12/1473) ; 351E 448, f. 197r-v (11/7/1474).

500 قنطار منه[360]. في نفس الفترة، تحدث فيبوناتشي في كتاب الحساب عن تحميل الجلود وجلد البكنياس من بجاية[361]. استمرت هذه التجارة في القرن الثالث عشر وإلى ما بعده. ففي 1262، اعترف جياكومو دو بيسو (Giacomo de Besso) باستلامه للفيف من الجلد وواحد من البكنياس حملها جيانو دو برودونو (Gianuino de Predono) إلى بجاية[362]. وأخيرا، يذكر رسم برشلوني طارئ أيضا هذا البكنياس[363]. إن ترجمة هذه الكلمة تطرح مشكلا[364]. على غرار البقية، يترجمه دي كانج (Du Cange) ببشرة ويعطي له معنى الجلد اللين[365]. ربما أنّ الكلمة اشتقت من الكلمة العربية بطانة التي تشير إلى جلد الكبش المحضّر أو بطانيّة التي تعني جلدًا مزخرفًا بجزته[366]. لكن روني دوآرد (Renée Doehaerd) ونيلو كالفيني (Nilo Calvini) (في السياق الجنوي)، وشارل-إيمانويل ديفور ومارية دولراس لوبيز بيراز (María Dolores López Pérez) (بالنسبة لكتالونيا) يعتقدون عكس ذلك إنه يتعلق بجلد الماعز[367]. ليس

(360) ASG, not. ign., *busta* 1, doc. 1, doc. 10 (14/3/1180).

(361) Fibonacci, *Liber Abbaci*, *op. cit.*, p. 118, trad. p. 177.

(362) ASG, not. ign, *busta* 8, fr. 95, f. 41v (17/6/1262).

(363) ACA, C., Rg. 1430, f. 47r-v (12/8/1371).

(364) أعطينا لكلمة بزان اشتقاقًا يدل بدقة على بجاية، وهذا تأويل حر جدا.

A. de Capmany y Montpalau, *Memorias históricas sobre la marina, comercio y artes de la antigua ciudad de Barcelona*, Madrid, 1779-1792, rééd. C. Batlle et E. Giralt, 1961-1963, I, p. 273.

(365) Du Cange, *Glossarium mediae et infimae latinitatis*, Niort, 1883-1887, rééd. anast. Graz, 1954, I, p. 635.

(366) R. Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, Leyde, 1881, I, p. 97-98.

أتى الكل من الجذر بطن والذي منه بطّن، الذي يعني إضافة الجلد.

(367) Doehaerd, *Les Relations commerciales*, *op. cit.*, II, glossaire, s. v. ; Calvini, *Nuovo glossario*, *op. cit.*, 1984, p. 63 ; Dufourcq, *L'Espagne catalane*, *op. cit.*, p. 545; López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 563 ; Delort, *Le Commerce des fourrures*, *op. cit.*, p. 81.

من المستبعد أن يكون للكلمة عدة معانٍ خاصة، لكن الترجمة الأخيرة هي الأكثر معقولية بما أن وثائقنا تشير إلى الجلد المبطّن بفرو. وتؤكد هذا وثيقة جنوية لعام 1287 التي تعطي قائمة المواد الخاضعة لرسوم التصدير في ميناء تونس: إنّ هذه التسعيرة تشير إلى جلود العجول وجلود الأبقار وإلى البطائن (*pellibus becunis*) في حين أنها تتحدث في الأعلى عن الصوف والجلود المبطّنة بالفرو[368].

وأخيرا، وحتى إن تعلق الأمر بتيار هامشي، تجب الإشارة إلى جلود الثعلب التي تذكرها تسعيرة جنوية لعام 1362[369]. يشير روبار دلور (Robert Delort) أيضا إلى الجلود البربرية (*volpi barbaresci*) في البندقية والتي عرّفها بثعالب الرمال (fennecs). هل كانت هناك تجارة لجلود الحيوانات البرية على غرار الأسود؟ نعلم أن الملك روني (René) أرسل أحدا ما لجلبها من المغرب[370]، لكن لم تكن هنا إلا متاجرة محدودة لـ"فضوليات"، على غرار عمال هذا الملك الذين يعطون لنا عدة أمثلة[371].

لدينا غالبا صادرات من بجاية، بمعنى الجزز التي كانت مزخرفة بصوفها. لكن لا توضح الوثائق إذا ما كانت موضوع عملية غسل الصوف قبل ترك الميناء. هنا أيضا السوق الجنوي هو أحسن شاهد على هذه التجارة. ففي 1252 تمّ تنفيذ ستة مبيعات للجلود المبطّنة بالفرو وتوضح العقود حمل بيترو لوكفيلو (Pietro

(368) ASG, AS, 2725, n° 49 (9/6/1287), éd. Mas-Latrie, *Traités, op. cit.*, p. 125-127.

(369) Éd. Casini, « Il “Breve” delle gabelle », art. cité.

(370) ADBR, B 2485, f. 11, cité par Delort, *Le Commerce des fourrures, op. cit.*, p. 169.

(371) Cf. G. Arnaud d’Agnel, éd., *Comptes du roi René*, Paris, 1908-1910.
على سبيل المثال (janvier 1479) I, n° 405, p. 157-158 : استلم الملك "الطيور التونسية وسلوقين... تم جلبهم من بلاد البربر وأشياء أخرى غريبة".

لهذه الجزر من بجاية[372]. وفي 1271، سدّد جيوفانينو دو كوارتو (Lecavello) بن المرحوم سيموني إلى كورادو سترجيابوركو (Giovannino de Quarto) (Corrado Streggiaporco) مبلغ استئجار بحري بـ 40 ليفر و11 سو مقابل نقل 39 كيسا من الصوف و2 فاكس من الجلود المبطّنة بالفرو حيث حمّلت من بجاية[373]. أخيرا، ينص عقد بحري بيزي لعام 1274 على شحن الصوف والجلود المبطّنة بالفرو في العودة[374].

كل هذه الجلود التي صدرتها بجاية لا يبدو أنها مدبوغة. ليس لدينا في الوثائق الجنوية إلا إشارة واحدة لجلود *affaitata*، بمعنى مدبوغة[375]. هناك القرطبيات وهي جلود ماعز، كانت في البداية منتجة في قرطبة ثم قلّدت. لقد كانت موضوع ترهيف مما جعلها جلدا مبحوثًا عنه[376]، ونجدها في السوق الجنوي واردة من بجاية[377] وفي تسعيرة بربنيون لعام 1284 وضعت عليها رسم "قرطبية بجاية" [378]« cordoa de Bugia » .

(372) ASG, min. 24, f. 139r (23/5/1252 – deux actes), 139v (25/5/1252), 140r (27/5/1252), 143v (13/6/1252).
في السنة السابقة، أخذ بترينو لوكافيلو (Petrino Lecavello) بن أنريكو (Enrico) طلبية إلى بجاية. يتعلق الأمر دون شك بنفس الشخص. (ASG, min. 27, f. 199v (9/9/1251. في سبتمبر 1252، أخذ من جديد طلبية إلى بجاية. (ASG, min. 34, f. 47r (23/9/1252

(373) ASG, min. 70, f. 6r (18/7/1271).

(374) Archivio Caetani, *Pergamene*, Fondo pisano, n° 3330 (10/8/1274), éd. Caetani, *op. cit.*, p. 12-14.
أنظر أيضا تسعيرة الرسوم الطارئة الميورقية لعام 1368. Éd. Aguiló « Mostres de lous », art. cité, p. 340.

(375) ASG, min. 65, f. 28r (1/3/1258).
كذلك، لا يتعلق إلا ببيع صغير لأن السعر هو 6 ليفر.

(376) Gual Camarena, *Vocabulario*, *op. cit.*, p. 281-282.

(377) في 1288، باع تاجر جوخ بـ 28 ليفر و3 سو و9 دونيي قرطبيات بجائية. ASG, min. 87, f. 111v. (8/1/1288).

(378) Archives municipales de Perpignan, *Livre vert mineur*, f. 82-85, éd. A. Alart, « Documents sur la langue catalane des anciens comtés de Roussillon et de Cerdagne », *Revue des Langues romanes*, 4, 1873, p. 373.

بخلاف ما لاحظناه فيما يخص الصوف، صدّرت جلود المغرب إلى أوروبا دون توقف حتى القرن الخامس عشر. حتى وإن لم نر في كل "جلود بجاية" في المادة الخبرية الأوروبية منتجات مستوردة فعليا من هذا الميناء، لدينا إشارات كافية للاعتقاد باستمرار بجاية في تصدير الجلود. على عكس الوصف، ليس هناك أي نظام منع استعمال هذه المواد، التي يبدو أنها أبقت على شهرة حقيقية في الأسواق الأوروبية. ففي 1425، أمّن جابريال بونفيور (Gabriel Benviure) وجوم دو بوديو (Jaume de Podio) عدة تجار على الجلود التي ستنقل من بجاية على متن مركب جوم دومنيتشي (Jaume Dominici)[379] . سنتان بعد ذلك، نصّ عقد استئجار بحري خصوصا على الجلود (*corione*) في شحنة العودة[380]. وذكرت عقود ضمان أخرى في 1428 و1434 و1451 وأيضا عقد استئجار بحري في 1459 الجلود التي ستحمل من الميناء[381]. كذلك في 1409، صادر حاكم كالياري (Cagliari) حمولة سلع تعود لمسلمين بلنسيين، حيث لجأ المركب القادم من بجاية بسبب عاصفة. نجد في الحمولة خصوصا 94 لفافا من جلد البقر إضافة إلى 8 جلود غير مربوطين، يقدر مجموعهم بـ 948 قطعة[382]. إن هذه المتاجرة هي مؤكدة بوصول مركب إلى بلنسية في 1491 قادما من بجاية ومحملا

(379) ARM, A. Costanti, 1425, f. 75v (14/5/1425), 78r (15/5/1425), cités par Macaire, *Majorque et le Maghrib, op. cit.*, p. 349.

(380) ARM, A. Costanti, 1427, f. 347 (28/10/1427), cité par Macaire, *Majorque et le Maghrib, op. cit.*, p. 92.

(381) ARM, A. Costanti, 1428, f. 27v (28/1/1428) ; id, 1433-4, f. 38 (22/2/1434), cités par Macaire, *Majorque et le Maghrib, op. cit.*, p. 351, 302 ; ARM, P. 2505, f. 116 (19/5/1451), cité par Vaquer, « Navegació i comerç a Mallorca », art. cité, p. 113 ; ARM, P. 2520, f. 73-74v (17/3/1459), cité par Vaquer, « Comerç i capital mercantil », art. cité, p. 166.

تبيّن عقود الضمان الميورقية لسنوات 1465–1468 واردات للجلود قادمة من ألجيرو (197 رطل)، والجزائر (50)، وبجاية (40)، وبلنسية (25).

O. Vaquer, *El Comerç marítim de Mallorca. 1448-1531*, Palma de Majorque, 2001, p. 135.

(382) ARV, *Batllía*, 1144, f. 264r-v (7/5/1409).

أساسا بجلود الأبقار[383]. كانت جلود بلاد البربر مصدّرة أيضا بوفرة نحو جنوة، رغم أن مصدرها غير واضح[384]. أيضا، يورد سجل قبالة بيزا لعام 1423 عدة واردات للجلود من بلاد البربر[385]. هناك إذن تواصل لتيار هام من المبادلات مسّ كل الموانئ الكبيرة الأوروبية حتى نهاية القرن الخامس عشر.

تشهد أيضا أهمية صادرات الصوف والجلود هذه على ديناميكية تربية المواشي في البلاد الخلفية البجائية. إنّ الكميات المصدّرة لا تترك أدنى شك حول حجم هذا النشاط، وهذا ما يستدعي العودة إلى مشكل تحويل الاقتصاد الريفي إلى رعوي (la pastoralisation). إنّ الأطروحة المقبولة تقليديا تنحى إلى القول بأن ازدهار تربية المواشي كان مرتبطا بالبداوة، وبالتالي بوصول الهلاليين الرحل إلى المغرب. لا يمكننا أن نبتعد كلية عن هذا التفسير، لكن يمكننا تقديم تفسير آخر: هل ازدهار تربية المواشي كان مرتبطا بالطلب المتنامي للصوف والجلود في الأسواق الأوروبية؟ بمعنى آخر، هل تطور الصناعة النسيجية (وبأقل درجة الصناعة الجلدية) في أوروبا لم يعزز هذا التوجه الرعوي للاقتصاد الريفي في جهة بجاية؟ يمكننا الافتراض بعقلانية أن الأهمية التي أولاها التجار اللاتين للسوق البجائي أتت في قسم منها من وجود تربية مواشي هامة تخلصت من الفائض، لكن ازدهار هذه التجارة الكبيرة ساهم أيضا في تسريع هذا التحول للنشاطات الريفية.

---

(383) ARV, MR, Rg. 11060 (*Peatges del mar, any* 1491), f. 158r-v (15/4/1491).

(384) Gourdin, « Les approvisionnements en cuir », art. cité, p. 571-612, الـذي لا يـذكر إلا حالـة واحـدة مـن الجلـود المحمّلـة مـن بجايـة. ASG, *Notai antichi*, not. Girolamo Ventimiglia, *filza* 1, 51. لكن بصفة عامة، لم تتحدث هذه الوثـائق إلا عـن "جلـود بلاد البربر" دون توضيح معين.

(385) ASP, *Comune*, B, *Entrata e uscita del camerlingo delle gabelle*, *Entrata delle mercanzie*, année 1423 :

نجد من بين المنتجات المفرغـة في الميناء، الجلـود البربريـة (علـى سـبيل المثـال، و 10و)، جلـود الأبقـار (*bovis barbareschis* ، و11و)، الجلـود الخفيفـة (*soatti* ، و16و)، والجلـود الخـام (*pilosio* ، و16و)، والقرطبيات (و17ظ).

ج) منتجات أخرى مرتبطة بصناعة الجلد والصوف

وردت مواد أخرى مرتبطة بصناعة الصوف والجلد من بين صادرات بجاية، حتى وإن كانت بكيفية هامشية: الشب، والمواد الملونة و"قشور بجاية".

الشب

كان الشب أحد المواد الجوهرية للصناعة في الغرب الوسيط. لقد كان مستعملا أساسا كحامض للأنسجة، يسمح بتثبيت الألوان على الأقمشة، لكن يمكن أيضا استعماله لدبغ الجلود واستعمالات مختلفة مثل زخرفة الكتب، والتصوير الجداري أو صناعة الأدوية[386]. لم تكن المصادر الرئيسية للتمون موجودة في المغرب. إلى مصر في بادئ الأمر ذهب التجار لجلبها[387]، ثم انطلاقا من سنوات 1260 في آسيا الصغرى. سيطر شب فوصا في القرن الرابع عشر وفي النصف الأول من القرن الخامس عشر[388]، ثم بعد السيطرة التركية على هذه الجهة في 1458، عوضت بشب تولفة (Tolfa) في جهة روما[389]. لم يشكل "الشب البجائي" إذن إلا مصدر تموين ثانوي، لكنه ورد في عدة أنواع من الوثائق وكتيبات التجار والعقود التجارية. لكن مصدره يبقى غير أكيد. ربما كانت هناك معادن في الجهة، ويمكن أيضا أن نشير إلى شب كوار الذي يتحدث عنه الإدريسي والذي كان في زمنه يباع في وارجلان[390]. في جميع الحالات، كان مصدّرا من بجاية

---

(386) Gual Camarena, *Vocabulario*, *op. cit.*, p. 200-201 ; J. Delumeau, *L'Alun de Rome XVe-XIXe siècle*, Paris, 1962, p. 13 ; Liagre de Sturler, « Le commerce de l'alun », art. cité, p. 177-178.

(387) Cl. Cahen, « L'alun avant Phocée », *Revue d'histoire économique et sociale*, 41, 1963, p. 433-447.

(388) M.-L. Heers, « Les Génois et le commerce de l'alun », *Revue d'Histoire économique et sociale*, 32, 1954, p. 31-53 ; Balard, *La Romanie génoise, op. cit.*, p. 769-782.

(389) Delumeau, *L'Alun de Rome, op. cit.*

(390) Al-Idrīsī, trad. p. 81, 110-111.

ومن موانئ أخرى بالجهة. يشير فيبوناتشي إلى نقله في مشكل مرتبط بتحميل السفن. لإحداث توازن في السفينة، وجب توزيع الحمولة جيدا ووجب ايجاد توازن في وزن مختلف السلع. يوضح فيبوناتشي أن الشب يحمل في جوف السفينة -على غرار كل السلع ذات الوزن الثقيل- وهو أكثر ثقلا من الجلد بمرتين[391].

تشهد الوثائق الجنوية على تصدير الشب انطلاقا من بجاية منذ القرن الثاني عشر. نجده من بين المواد التي اشتراها كبار التجار الضالعين في التجارة الشرقية، مثل جيجليمو مالوني (Guglielmo Malone) الذي أرسل في 1161 بوينجيوفاني لركاريو (Buongiovanni Lercario) إلى بجاية لحمل الحرير والقماش الإسباني، موضحا في العقد استثمار هذا الأخير في حدود إمكانية نقوده في الشمع أو الشب[392]. ثلاث سنوات بعد ذلك، سوّى بلانكاردو (Blancardo) -وهو تاجر نشيط في السوق المصري- حساباته مع بونجيوفاني سكريبا (Buongiovanni Scriba) الذي كان على وشك الذهاب إلى بجاية والعقد يتعلق خصوصا بـ 107 قنطار وثلثين من الشب البجائي الذي تبقى من شراكة قديمة بين الرجلين[393]. وأخيرا في 1179، نجد 20 قنطارا ونصف من الشب بقنطار بجاية في عقد بين أجليرو القرطاجني (Oglierio de Carthagena) وبرناردو ريفو (Bernardo Ruffo)[394]. في القرن الثالث عشر، ورد كذلك في تسعيرة برشلونية لعام 1271 نصت على أنه في حالة بيع الشب البجائي أو الحلبي، يقسّم رسم بـ 12 دونيي للحمل بين البائع

(391) Fibonacci, *Liber Abbaci*, *op. cit.*, p. 117, trad. p. 176.

(392) *Giovanni Scriba*, n° 812 (16/4/1161).

(393) *Ibid.*, n° 1227 (28/6/1164).

(394) ASG, *Manoscritti* 102 (not. Oberto Scriba), f. 5v (13/8/1179).

والمشتري[395]. في نفس الفترة، تشير أيضا قائمة المواد ذات الأصل الأجنبي الموجودة في السوق الفلامي إلى حضور شب ريشة بجاية[396].

وتؤكد هذا وثائق تجارية جنوية تعود لنفس الفترة. في 1259، باع منه مانويل زتشاريا (Manuelle Zaccaria) في جنوة بـ 20 ليفر و15 سو لـ أردوينو (Ardoino) - صبّاغ- وبـ 20 ليفر و15 سو لأوجو جامبونيس[397] (Ugo Gambonus). في نفس السنة باع منه أوبرتو دو نوجاريا (Oberto de Nogaria) مقابل 91 ليفر و5 سو لثلاثة تجار لوكيين من بينهم أولاندو بروزيو (Orlando Barosio) الذي رأيناه من قبل يشتري الصوف بجنوة[398]. في 1272 و1273، استلم فرانشينو دو سان سنيزيو (Franceschino de San Sinesio) شبا واردًا من بجاية على متن مركب جيوفاني بورتوناريو (Giovanni Portonario) وطريدة جيوردانو دو أنسوليس Giordano *de Insulis* وشركائه[399]. أخيرا، بعد ذلك بقليل في 1276، باع بيترو تراريو

(395) AHCB, Livre vert, I, f. 232, trad. esp. Capmany y Montpalau, *Memorias históricas*, *op. cit.*, p. 867.

(396) Éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 99.

استطاع هذا الشب المرور سواء عن طريق مرسيليا أم عن طريق جنوة. Liagre de Sturler, « Le commerce de l’alun », art. cité, p. 181, 183

(397) ASG, min. 105, f. 61r (15/1/1259).

سنوات بعد ذلك في 1264، تم منح مانيال زتشاريا (Manuele Zaccaria) وأخيه بنديتو (Benedetto) معادن شب فوصا التي أنجزوا فيها صناعة كبيرة وعملوا منها ثروتهم.

R. S. Lopez, *Genova marinara nel duecento. Benedetto Zaccaria, ammiraglio e mercante*, Milan-Messine, 1933, rééd. *Benedetto Zaccaria, ammiraglio e mercante nella Genova del Duecento*, Florence, 1996, p. 17-18. Liagre de Sturler, « Le commerce de l’alun », art. cité, p. 179.

حول تاريخ إقطاع معادن فوصا، أنظر: Balard, *La Romanie génoise*, *op. cit.*, p. 770-771

(398) ASG, min. 35, f. 15r (10/9/1259).

(399) ASG, min. 109, f. 4v (8/11/1272), 46r (17/10/1273).

(Pietro Trario) الشب البجائي في سوق جنوة بـ 2000 ليفر[400]، وهذا ما يبيّن تجارة بحجم كبير.

في القرن الرابع عشر، لا يذكر بجولوتي بجاية في جدول مناطق التموين بالشب[401]، لكن كتيّب التجار الكتالانيين في القرن الرابع عشر يرتب الشب البجائي من بين المواد جيدة الجودة[402]، وفي 1355 تشهد تسعيرة سمسار من بريج (Bruges) أن الكتالانيين حملوا إليها الشب من بلاد البربر[403]. من جهة أخرى، نعلم أن موزع شركة داتيني دو بروتو تم إرساله إلى المغرب وإلى الكدية (Alcudia) لدراسة إمكانيات السوق وتلقى تعليمة للعودة بالشب[404]. للأسف، في كتيب "ممارسة التجارة" الذي حرره في 1394-1395، لا يميز مختلف الأماكن التجارية المغاربية. في هذه الفترة، كان شب فوصا الأول بعيدا في الأسواق الأوروبية.

مواد الصباغة و"القشور البجائية"

دائما على علاقة بنشاطات الصباغة، صدّرت بجاية القرميز[405]. نجد هذه المادة في عقد استئجار بحري في 1459 من بين السلع المجلوبة من بجاية والجزائر[406]. أيضا في 1454 سدد معيزر كاب يهودي من مملكة بجاية، رسم

(400) ASG, min. 63/I, f. 66v (17/10/1273).

(401) Pegolotti, p. 367.

(402) Gual Camarena, éd., *El primer manual, op. cit.*, p. 105.

(403) Cité par Liagre de Sturler, « Le commerce de l'alun », art. cité, p. 191.

(404) Dini, *Una pratica di mercatura, op. cit.*, p. 12.

(405) الجرانا هي مادة صابغة قرميزية مستخرجة من القرميز، وهي تتطفل في بعض أشجار البلوط، حيث يسمح جفاف بيضها باستخراج صباغة اللون الأحمر الناصع. أنظر:

Doehaerd, *Les Relations commerciales, op. cit.*, glossaire, s.v. « Grana ».

(406) ARM, P. 2520, f. 73-74v (17/3/1459), cité par Vaquer, « Commerç i capital mercantil », art. cité, p. 166.

أنظر أيضا تسعيرة الرسوم الميورقية الطارئة لعام 1368، التي تذكر فضلا عن ذلك صبغة الأرتسين (*ortxine*) ، مادة صابغة مستخرة من بعض طفيليات الحزاز.

دخول إلى بلنسية بـ 28 دوبل لبرميل نيلة حمل من هذه المملكة على متن يخت بندقي[407]. لكن يتعلق الأمر هنا دائما بحالات معزولة.

وأخيرا، تجب الإشارة إلى قشور بجاية (« iscorza di buggiea ») التي يتحدث عنها بجولوتي[408]، لكن لا نجدها في الوثائق التجارية[409]. شبهتها لورا بليتو بالحشيش البجائي « erba Buggiea » الذي أشار إليه بجلولوتي نفسه وتعرفه بقشور « sumac thezera » المستعمل في غسل الجلود[410]. لا يعطي لنا كتاب الممارسة *(Pratica)* أي تفاصيل لمعرفتها، لكني أميل إلى قشر دباغي، الذي استعمل في عمل الجلود بما أننا نعرف إمكانية بعض الأشجار (خصوصا الصنوبر الحلبي) في جهة بجاية إعطاء القشور.

4) ضعف صادرات المواد المصنعة

ما نصطدم به خصوصا في تحليل الصادرات هو ندرة المواد المصنعة. لاحظنا أن الصوف والجلود لم يكونا في الغالب مهيآن قبل أن يبحرا إلى أوروبا. تتأكد هذه الخاصية عندما نلاحظ المواد المصنوعة التي بيعت انطلاقا من بجاية، حتى وإن وجب دون شك تنويع الجدول للتمييز خصوصا بين الفترات وبالإشارة قدر الإمكان للتطورات.

(407) ARV, MR, Rg. 66, f. 212r-v (25/10/1454).

(408) Pegolotti, p. 295.

(409) هي مذكورة أيضا في كتيّب تاجر ميورقي في نهاية القرن الخامس عشر. Fr. Sevillano Colom, « Un manual mallorquín de Mercadería medieval », *AEM*, 9, 1974-1979, p. 524. لكن ربما يتعلق الأمر بنسخة انطلاقا من النصوص القديمة، خصوصا نص بجولوتي.

(410) Balletto, « Bougie », art. cité, p. 84.

أ) الخزفيات

تبقى المادة الأولية المصنّعة التي صدرتها بجاية غير معروفة لنا إلا بكيفية غير مباشرة، وهذا لا يسهل فهم هذا التيار التجاري: يتعلق الأمر بالخزفيات التي لا نعلمها اليوم جيدا، لكنها تطرح إشكالا يهم تطور المبادلات البحرية بين بجاية وأوروبا.

لدراسة صادرات الخزف، نجد المعطيات شحيحة زيادة على ذلك فهي ذات تفسير عسير. وقد بيّن جورج مارسي(Georges Marçais) أن لبجاية – على غرار قلعة بني حماد- انتاجا من الخزف[411]. إنّ مسألة تصديرها، خصوصا إلى أوروبا، تصطدم بغياب هذه المادة في عقود التجارة البحرية على غرار تسعيرات الديوان أو كتيبات التجار[412]. لكن يمكن محاولة مقاربتين: علم الآثار من جهة ووثائق الأرشيف من جهة أخرى.

سمحت الحفريات والأعمال التي أجريت في إيطاليا – خصوصا في بيزا- بإظهار حضور هام لخزفيات العالم الإسلامي الغربي (بما في ذلك صقلية والأندلس) في عدة جهات منها منذ منتصف القرن الحادي عشر إلى غاية منتصف القرن الثالث عشر[413]. استعملت هذه الخزفيات في تزيين واجهات الكنائس (التي

(411) G. Marçais, *Les Poteries et faïences de Bougie (collection Debruge). Contribution à l’étude de la céramique musulmane*, Constantine, 1916.

(412) أنظر:

D. Abulafia, « The Pisan *Bacini* and the Medieval Mediterranean Economy: A Historian’s Viewpoint », *Papers in Italian Archaeology*, 4, 1985, p. 287.

(413) G. Berti, L. Tongiorgi, « Ceramiche decorate (XI-XIV sec.) di importazione da vari centri del Mediterraneo e di produzione locale sulla base della documentazione in Toscana », *La Céramique médiévale en Méditerranée occidentale. Xe-XVe siècle. Colloque international de Valbonne, 11-14 septembre 1978*, Paris, 1980, p. 90.

نسميها الباسيني *(bacini)* وهي مازالت كثيرة في بيزا[414])، لكن وجدناها أيضا في الحفريات التي بينت استعمالها بشكل واسع جدا[415]. تبين هذه الموجودات تجارة هامة في المواد سوقها جيد مع غلبة عريضة لـ "تونس"، بمعنى إفريقية الشرقية[416]. في المقابل، بداية من منتصف القرن الثالث عشر، أصبحت كل الخزفيات تنتج محليا، وبدأت بيزا في تصديرها نحو الخارج[417]، وهي إشارة لانتقال تقني جعل صادرات البلدان المسلمة غير نافعة. تمّ العثور على موجودات مماثلة في عدة مدن إيطالية ليس البحرية فقط[418]، وفي الميدي (Midi) الفرنسي[419].

---

(414) G. Berti, L. Tongiorgi, *I Bacini ceramici medievali delle chiese di Pisa*, Rome, 1981, notamment les p. 162-228.

(415) G. Berti, « Pisa città mediterranea. La testimonianza delle ceramiche importate ed esportate », *Pisa e il Mediterraneo. Uomini, merci, idee dagli Etruschi ai Medici*, dir. M. Tangheroni, Milan, 2003, p. 169-170.

(416) Abulafia, « The Pisan *bacini* », art. cité, p. 292.

(417) G. Berti, L. Tongiorgi, *Ceramica pisana, secoli XIII-XV*, Pise, 1977, p. 127, 139

(418) أنظر مداخلات ملتقى فالبورن (Valbonne) الدولي (*La Céramique médiévale en Méditerranée occidentale, op. cit.*)، خصوصا:

Fr. d'Angelo, « La ceramica nell'archeologia urbana : Palermo nel basso medioevo », p. 175 ; H. Blake, « The *Bacini* of North Italy », p. 93-94 ; D. Whitehouse, « Medieval Pottery in Italy : the Present State of Research », p. 72.

(419) J. Thiriot, « Céramiques fines islamiques du Midi de la France au Bas Moyen Âge », *A Cerâmica medieval no Mediterrâneo ocidental, Lisboa, 16-22 de novembro 1987*, Mértola, 1991, p. 285-304

(الذي يتحدث عن خزفيات إسلامية مغاربية ومشرقية). أنظر كذلك بالنسبة لبروفانس واكتشافات الخزفيات في حطام السفن في البحر المتوسط. H. Amouric, F. Richez, L. Vallauri, *Vingt mille pots sous les mers. Le commerce de la céramique en Provence et Languedoc du Xe au XIXe siècle*, Aix-en-Provence, 1999, p. 12-15، الذي يعدد الواردات من إفريقية حتى النصف الثاني من القرن الثالث عشر.

كذلك كشفت الحفريات بالإسكندرية المصرية عن واردات وافرة لخزفيات إفريقية ما بين القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر[420].

تبقى النتائج التي تبيّن تيار تبادل للخزفيات (من المستحيل تقدير كميته) بين البلدان الإسلامية الغربية والشواطئ المسيحية غير دقيقة فيما يخص المصدر البجائي لما تمّ العثور عليه. إذا كانت التحليلات الجيو-كيميائية للعجين قد سمحت بالاستدلال يقينا عن مصدر القطع من القيروان والمهدية أو تونس[421]، فإن غياب أي تحاليل ليومنا هذا للخزفيات التي تم العثور عليها في بجاية يمنعنا من المقارنة الصلبة مع مختلف الأنواع المغاربية التي عثر عليها في الحفريات الأوروبية.

تبقى وثائق الأرشيف حيث تتحدث وثيقة من الجنيزة عن حمولة فخار - مغربي دون شك- حيث باعها تاجر مصري في الأندلس في حوالي 1137[422]. لكن هنا الشواهد خصوصا الأوربية صعبة التأويل. تشير ميشال كنال (Michele Canale) إلى حضور إناء مذهّب بجائي في جرد صيدلية جنوية لعام 1312[423]. بفضل عمل دقيق من الفحص في خزائن أرشيف جنوب فرنسا، وجد هنري أموريك (Henri Amouric) خمسين شهادة عن "خزفيات بجائية"، خصوصا في جرد الممتلكات المنقولة بعد الوفاة، وفي جرد الصيدليات أو في حسابات

(420) V. François, « Les céramiques médiévales d'Alexandrie : un témoignage archéologique d'importance », *Alexandrie médiévale*, dir. Chr. Décobert et J.-Y. Empereur, Le Caire, 1998, p. 62 ; R.-P. Gayraud, « Alexandrie médiévale et la Méditerranée : l'indice des importations céramiques », *ibid.*, p. 67,

يعتقد بنقل الخزفيات الحفصية على متن المراكب المسيحية، وهذا ما لا تؤكده أي وثيقة.

(421) Berti, « Pisa città mediterranea », art. cité, p. 172.

(422) Constable, *Trade and traders*, *op. cit.*, p. 168.

(423) Canale, *op. cit.*, III, p. 197 والتي لم أعثر عليها 1312 /5 /5 وثيقة بتاريخ

وتسعيرات المراصد(424). تظهر هذه الإشارات في نهاية القرن الثالث عشر في وثيقة لعام 1297(425)، لكن خصوصا بداية من منتصف القرن الرابع عشر وحتى نهاية حقبتنا على الأقل(426). تبيّن لنا هذه الوثائق الأدوات التي اعتبرت بـ *opus* (427) *de Bugea de terra*، *opera Bugie*(428) أو ببساطة –وهي السمة الغالبة– *terre de Bougea*. يتعلق الأمر بصفة عامة بأواني مزخرفة أكثر من الأدوات النفعية(429). قرّب جورج مارسي شقف الخزف الأزرق والأبيض التي تم العثور عليها في بجاية إلى شقف الخزف التي تم العثور عليها في مرسيليا في سياق القرنين الثالث عشر والرابع عشر(430)، وهذا ما يمكن أن يظهر تيار مبادلات ما. لكن الأزرق اللامع في بروفانس يعتبر بلنسيًا والتحاليل التي أجريت على شقوف

(424) H. Amouric, « Les importations de céramiques dites de Bejaia (Bougie) en Provence et Ligurie (XIIIe-XVIe siècles). Le témoignage énigmatique des textes », *A Cerâmica medieval, op. cit.*, p. 333-337, et un résumé dans Amouric, Richez, Vallauri, *op. cit.*, p. 36-38.

(425) AM, FF 501, f. 76 (inventaire des biens de Ricardus Julliani, 1297), cité par Amouric, « Les importations », art. cité, p. 333.

(426) نسجل أيضا أن روسانا إربـاني (Rossana Urbani) وجـدت في الأرشـيف الجنـوي وثيقـة مؤرخة بعام 1500 حيث تذكر:

concas undecim terre Buzee magnas. ASG, *notai antichi*, not. Cosma Abbati, *filza* 2 (15/6/1500), cité par R. Urbani, « Genova e il Maghrib tra il ’400 e ’500 (nuovi documenti archivistici) », *Genova, la Liguria e l’Oltremare tra medioevo ed età moderna. Studi e ricerche d’archivio*, Gênes, 1976, p. 202 ; أنظر أيضا Ead., « Fonti per il commercio mediterraneo ligure nell’ultimo medioevo : i rapporti con l’Africa settentrionale », *Atti del IV Convegno internazionale della ceramica, 1971*, Gênes, 1971, p. 435.

(427) ADBR, B 1153, pièce ; copie des Archives communales d’Aix-en-Provence, CC 140, pièce (tarif du péage de Meyrargues, 1367), cité par Amouric, « Les importations », art. cité, p. 334.

(428) AM, CC 195, compte de 1388, f. 108v (26/8/1388), cité par Amouric, « Les importations », art. cité, p. 334.

(429) *Ibid.*, p. 335-336.

(430) Marçais, *Les Poteries, op. cit.*, p. 18.

الخزفيات البروفانسية لهذا النوع ربطتها يقينا بالإنتاج الاسباني وأقصت المغرب[431]. ويميل هنري أموريك بالأحرى إلى مصطلح مشترك، دون علاقة مع تيار حقيقي للمبادلات[432]. يمكننا أن نضيف – بالاعتماد على هذه النتيجة- إلى أن هذه الشهادات تقع أساسا في قوس كرونولوجي لا يتناسب مع فترات العلاقات التجارية بين مرسيليا وبجاية[433]. رغم أن اسم "أرض بجاية" يوحي في فترة قديمة جدا (في القرن الثالث عشر؟) إلى وجود تيار حقيقي في مرسيليا لاستيراد خزفيات واردة من هذا الميناء. بقيت بعد ذلك هذه التسمية للإشارة إلى المنتجات المحلية. ويمكن أن نضع خطا موازيا مع كل ما تمت ملاحظته في بيزا حيث تشهد الآثار على تيار واردات الخزفيات المغاربية إلى غاية القرن الثالث عشر ثم اختفى لصالح المنتجات المحلية. يبقى كل هذا هشًّا جدا في غياب تقدم المعارف الأثرية.

ب) المنسوجات

إن مسألة صادرات النسيج ليست بمجال أقل صعوبة، لأننا لا نملك إلا آثارا قليلة للحركة التجارية. هل يجب الاستنتاج أن بجاية لم تصدر انتاجها النسيجي؟ من البديهي القول أنها وجدت صادرات ما، لكنها لم تمثل نصيبا هاما فيها.

تبيّن بعض الأمثلة وجود تجارة القماش والملابس انطلاقا من هذه المدينة. ففي 702/ 1302 نقلت حمولة من البرانس عبر البحر باتجاه بنزرت على متن مركب بجائي استولى عليه القراصنة الميورقيون، وكانت الحمولة تقدر بمبلغ 40000 دينار (أو درهم، لم يشر إلى الوحدة) [434]. ومن المحتمل وجود تيار

(431) Amouric, « Les importations », art. cité, p. 336.

(432) *Ibid.*, p. 337.

(433) À savoir essentiellement du XIIIe et du début du XIVe siècle. Cf. Valérian, « Les archives de Marseille », art. cité, p. 6-11.

(434) Éd. M. Alarcón y Santón et R. García de Linares, *Los documentos árabes de la corona de Aragón*, Madrid-Grenade, 1940, doc. 119, p. 259 (texte arabe), 263 (trad.).

مبادلات مع جهات المغرب الأخرى أو مع المشرق الإسلامي، لكنه غير مرئي للأسف. ففي الوثائق التي تظهر التجار البجائيين على متن السفن المسيحية، لم نرصد مسألة تتعلق بتصدير المنسوجات.

حقيقة نجد في المادة الخبرية الأوروبية ذكرًا لـ أجواخ الغرب" في فلورنسا على سبيل المثال[435]. لكن من الصعب تفسير مصطلح الغرب (*Garbo*)، لأنه يمكن أن يشير إلى كل المغرب أو فقط قسمه الغربي. فضلا عن ذلك، لا شيء يدل على المورد الفعلي لهذه الأقمشة. في عدة حالات، يتعلق بتسمية مشتركة تشير إلى نوع من القماش، ربما مقلّدًا لأقمشة مغاربية، أو مصنوعة بالصوف المغاربي[436]. لكن في نهاية القرن الرابع عشر، نرى في المادة الخبرية ظهور القماش المغاربي المشترى في أوروبا كـ" فضوليات". نجد من بينها عددا كبيرا في حسابات الملك روني البروفانسي (René de Provence) ، الذي يذكر "أجواخا منسوجة في بلاد البربر"، لعمل الحلل أو "الأحزمة الموريسكية"[437]. ففي 1478 وصلت الشواني الفلورنسية إلى ميناء مرسيليا وأفرغت "جوخين ملونين، فوطة كبيرة موريسكية وأربع قفاف بربرية"[438]، وفي السنة الموالية جلب التاجر جوهان جلبار (Jehan Gilbert) على متن نفس اليخوت الفلورنسية سلعا للملك من بينها "الجيبات الموريسكية"[439]. يتعلق الأمر هنا بمنتجات فاخرة وغريبة بإمكانها تحصيل مبالغ هامة، لكن يبقى حجمها صغيرا مقارنة بالصادرات الأخرى.

(435) R. Davidsohn, *Storia di Firenze*, Florence, I, 1956, p. 1181, 1183-1184.

(436) *Ibid.*, p. 1183.

(437) Éd. Arnaud d'Agnel, *Comptes du roi René*, *op. cit.*, II, n° 2689, 2698.

(438) *Ibid.*, n° 2712 (28/12/1478).

(439) *Ibid.*, n° 2716 (janvier 1479). Du Cange et Anne-Marie Bautier donnent le sens de jupe. A.-M. Bautier, « Contribution à un vocabulaire économique du midi », *Archivium latinitanis medii aevi, Bulletin Du Cange*, 27, 1957, p. 286.

لكن هذا الثوب ربما هو الذي نسميه اليوم الجبّة في تونس.

في النهاية، تجب الإشارة إلى مادتنا الخبرية، خصوصا لدراسة الصادرات المحتملة نحو البلدان الإسلامية الأخرى، حيث من البديهي أن الأنسجة البجائية لم تكن موضوع تجارة بحرية ملحوظة. بالعكس، تبيّن صادرات الأقمشة الأوروبية الكثيرة أن هذا المجال كان عاجزا.

3) صادرات أخرى

أ) الشمع

إذا كانت بجاية قد أعطت اسمها لهذا النوع من الجلود، فهي على الخصوص مصدر للاسم الذي أعطي في القرن الرابع عشر للشمع باللغة الفرنسية (chandelles) [440]. كان الشمع مصدرا نحو البلدان الأوروبية حيث كان استعماله هاما في الإضاءة[441].

لم يكن الشمع خاصية بجائية (نجده في الصادرات انطلاقا من موانئ مغاربية أخرى ومن جهات متوسطية أخرى). لكن كان للجهة معاسل وأنتجت شمع النحل، الذي أرسل على شكل صحائف من حوالي قنطار أو في صناديق[442].

من بين العقود التجارية الأولى مع بجاية، نجد في 1161 طلبية من الحرير والقماش الإسباني حيث وجب استعمال منتوج البيع في حدود الإمكان في الشمع

(440) أعطي هذا الاشتقاق المقبول عموما في قاموس ليتري Littré, I, p. 1155. إن الشهادة على هذه الكلمة في بداية القرن الرابع عشر تبين أن هذا التصدير كان هاما في القرن السابق حتى حملت المدينة اسم الشمع الذي أتى منها.

(441) في القرن الخامس عشر، طلب من أرباب شانية بندقية في بلاد البربر اعطاء 200 رطل من الشمع الأبيض إلى وكلاء كنيسة سان مارك (Saint Marc) عند العودة. أنظر على سبيل المثال:
l'*incanto* de 1454. ASV, *Senato*, *Mar*, Rg. 5, f. 17v-18r (21/1/1454).

(442) É. Baratier, F. Raynaud, *Histoire du commerce de Marseille de 1291 à 1480*, Paris, 1951, p. 409,
الذي يذكر وثيقة مرسيلية لعام 1426.

أو الشب[443]. في القرن الثالث عشر، ورد ذكر الشمع عدة مرات في حمولات المراكب في طريق عودتها. ففي 1229 بمرسيليا، وضح عقد لطلبية من 120 بوزون ميلاريس باتجاه بجاية صراحة على وجوب استعمال هذا المبلغ في شراء الشمع[444]. نعرف من جهة أخرى استقبال الفلوندر في نهاية القرن الثالث عشر الشمع الوارد إليها من بجاية[445].

استمر هذا التيار في القرن الموالي لأنّ بجولوتي يتحدث عن شمع بلاد البربر الذي خضع لرسوم بـ 3 سو للسونتنايو ببيزا[446]. أيضا، استوردت ميورقة بانتظام الشمع البجائي، كما توضحه رسوم سدّدها المدجنون واليهود العائدون من هذه المدينة: مسلمان في 1362 من بينهما بلنسي دفعا رسما على الشمع الذي حملاه على لوح بيري جاريج (Pere Garrigue) ، الأول بـ 5 كوستال (*costals*) معادلة لـ 300 رطل والثاني 4 بونتس (*ponts*) مساوية لـ 233 رطلا[447]. وفي 1365، وصل من الجزائر إلى ميورقة يهودي، محبوب فجري (Mahabub Fagrii) ومعه 4 كوستال من الشمع كانت تعود لمسلم بجائي، وهو عبد الله الأزفوني[448]. من هنا ليس مفاجئا رؤية وكلاء شركة داتيني دو براتو

---

(443) Giovanni Scriba, n° 812 (16/4/1161).

(444) Blancard, I, n° 20 (11/4/1229).

(445) Éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 98-99.

(446) Pegolotti, p. 206.

(447) ARM, RP 1108, f. 14v (18/7/1362).

(448) Id., f. 9r (17/6/1365).

يهتمون بالشمع الإفريقي في السوق الميورقي[449]. أيضا، ورد شمع مملكة بجاية في تسعيرة الرسوم الطارئة ببرشلونة في 1371[450].

في القرن الخامس عشر، هناك أيضا مادة مصدرة بانتظام، غالبا مع حمولات الجلود. هناك عدة عقود ائتمان ميورقية تتعلق بهذه الحمولات[451] وتعيد ميورقة توزيعها خصوصا على برشلونة[452]. واشترى أيضا البرشلونيون[453] والبنادقة[454] والبلنسيون[455] والمرسيليون[456] الشمع.

(449) Abulafia, « El comercio y el reino de Mallorca », art. cité, p. 150 ;

أنظر أيضا الاشارات الكثيرة للشمع "البربري" في رسائل وكلاء الشركة الذين تم ارسالهم من جيات (Gaète) بين 1387 و1405.

E. Cecchi Aste, éd., *Il carteggio di Gaeta nell'archivio del mercante pratese Francesco di Marco Datini, 1387-1405*, Gaète, 1997.

(450) ACA, C., Rg. 1430, f. 47r-v (12/8/1371).

(451) أنظر على سبيل المثال:

ARM, A. Costanti, 1411 à 1413, f. 90v (26/3/1412) ; id., 1425, f. 75v (14/5/1425), 78 (15/5/1425) ; id., 1428, f. 27v (28/1/1428), cités par Macaire, *Majorque et le Maghrib*, *op. cit.*, p. 345-351. ARM, P. 2505, f. 116 (19/5/1451), cité par Vaquer, « Navigacio i comerç a Mallorca », art. cité, p. 113.

(452) Carrère, *Barcelone*, *op. cit*., p. 359.

إن عقود الضمانات الميورقية لسنوات 1465–1468 تبيّن الشمع الوارد من الجزائر (100 رطل) وبجاية (40 رطل).

O. Vaquer, *El Comerç marítim de Mallorca. 1448-1531*, Palma de Majorque, 2001, p. 135.

(453) AHPB, Bernat Nadal, *Secundus liber comandarum*, 1395-1406, f. 181v (7/1/1405) :

طلبية من الأجواخ لبونة وبجاية مستثمرة خصوصا في الشمع.

(454) مصادرة خمسة قناطير من الشمع البجائي. ASV, *Senato, Incanti di galere*, Rg. 1, f. 60r-v (18/1/1479).

(455) ARV, *Bailía*, 1144, f. 264r-v (7/5/1409).

حمولة تحتوي خصوصا على 31 كوستال من الشمع تزن 100 قنطار وهي تعود لمسلمين بلنسيين، استولى عليها حاكم كاجلياري عند عودتها من بجاية.

طبعا، لا يمكن للشمع أن يتزعم نفس الأهمية الاقتصادية للصوف والجلود، لكنه منتوج صدرته بجاية بكيفية وبمبالغ غالبا هامة.

ب) المواد الغذائية

رغم الصعوبات، حافظت زراعة البلاد الخلفية لبجاية على مستوى جيد سواء في الحبوب أم في المنتجات الأخرى. هذا لا يشير فقط إلى أنها كانت قادرة على التخلص من الفائض وتصديره عبر البحر، خصوصا نحو البلدان الأوروبية. في الواقع، تبيّن الوثائق نقل قليل من المواد الغذائية.

رأينا أن بجاية استوردت القمح، خصوصا من صقلية. لكن تمت هذه التجارة في الاتجاهين حسب طبيعة المحاصيل في الجهة وفي الجهة الأخرى من البحر المتوسط. لدراسة الصادرات المحتملة للحبوب، من الضروري – أكثر من المواد الأخرى- تمييز مختلف جهات المغرب. ليس هناك أدنى شك في تصدير سهول إفريقية وخصوصا البلاد الخلفية الوهرانية والمغرب الأقصى للقمح نحو أوروبا، خصوصا نحو شبه الجزيرة الإيبيرية[457]. كان المغرب بداية من القرن الثالث عشر سوقا هاما لتموين بلدان لاكورونيا أراجونة بالحبوب[458]، متممة بذلك تقليدًا

(456) ينص عقدا استئجار بحري لرحلات من مرسيليا إلى بجاية خصوصا على الشمع في شحنة العودة. -ADBR, 351E 447, f. 482r-484r (14/12/1473) ; id., 351E 448, f. 536v-536bis r-v (24/1/1475). في 1465، باع الجنوي بيترو بالبو (Pietro Balbo)– صاحب بلانر *balaner* – 20 قنطارا ونصف من الشمع (بقنطار بجاية الذي يساوي قنطارا و25 رطلا) الذي وجب عليه جلبها على متن مركبه. (ADBR, 391E 123, f. 130v (2/9/1475تحقق إدوار براتيي (Édouard Baratier) ازدادت أسعار الشمع في السوق المرسيلي في القرن الخامس عشر، وهذا ما يفسر في قسم منه قلة العقود التي تذكر هذه المادة.

Baratier, Reynaud, *Histoire du commerce de Marseille*, *op. cit*., p. 409.

(457) Vernet, « Les relations céréalières », art. cité, p. 332.

(458) Dufourcq, *L'Espagne catalane*, *op. cit*., p. 544.

قديمًا لتجارة الحبوب مع الأندلس[459]. إنّ العجز الدائم للمراكز الحضرية الكتالانية- الأراجونية في القرن الرابع عشر سمح لهذه الواردات من الاستمرار، خصوصا ميورقة وبلنسية بأقل تقدير[460]. لكن تنوعت مناطق التموين تدريجيا وأصبح المغرب منطقة ثانوية جدا [461]. من جهة أخرى، كانت الموانئ المصدرة هي بالأخص تلك الواقعة بين وهران وتنس وأيضا موانئ المغرب الأقصى[462].

إذا لم يكن المغرب الشرقي منطقة كبيرة للتموين بالحبوب، فإننا نجد بعض الإشارات الدقيقة للصادرات. تنص المعاهدات المبرمة مع الحفصيين على إمكانية شراء التجار المسيحيين القمح لدولهم، بشرط عدم كونهم في وضعية قحط[463].

---

(459) Chr. Picard, « Le commerce des produits agricoles entre le Maghreb Occidental et l'Andalus au XIIe siècle », *Production et explorations africaines : actualités archéologiques en Afrique du Nord antique et médiévale, 6e Colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord (Pau, 1993)*, dir. P. Trousset, Paris, 1995, p. 177-187 ; V. Lagardère, « Le commerce des céréales entre al-Andalus et le Maghrib aux XIe et XIIe siècle », *L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Âge*, dir. M. Hammam, Rabat, 1996, p. 123-150.

(460) H. Rausell Boizas et al., « Movimiento secular de las importaciones trigueras del siglo XV mediante la ayudas de la ciudad de Valencia », *Estudis*, 2, 1973, p. 5-95.

إنّ حصة الحبوب المغاربية في واردات بلنسية هي بنسبة 5 في المائة في النصف الأول من القرن الخامس عشر، لكنها سقطت إلى أقل من 1 في المائة في النصف الثاني من القرن.

(461) M. D. López Pérez, « La circulación de cereales en el Mediterráneo occidental bajomedieval : la producción magrebí », *La Mediterrània, àrea de convergència de sistemes alimentaris (segles V-XVIII). XIV Jornades d'estudis històrics locals, Palma, 29 de novembre - 2 de desembre de 1995*, Palma de Majorque, 1996, p. 169-171 ; Ead., *La Corona de Aragón, op. cit.*, p. 526-527.

(462) López Pérez, « La circulación de cereales », art. cité, p. 172-175.

(463) معاهدة جنوة- تونس، المادة 17. أنظر:

Ph. Gourdin, « L'Afrique du Nord est-elle au Moyen Âge le "grenier à blé" de l'Europe méditerranéenne ? », *Romanité et cité chrétienne. Permanences et mutation, intégration et exclusion du Ier au VIe siècle. Mélanges en l'honneur d'Yvette Duval*, Paris, 2001, p. 158-161.

هناك إذن منافسة مع السوق المحلي الذي كان يجد أحيانا صعوبة في التموين، كما في 1336 عندما منع سكان القل التجار الكتالانيين من شراء القمح – في حين رخّص به حاكم قسنطينة- وهذا لنقص القمح في الجهة[464]. لكن وجدت هذه الحركة من قبل، كما تشهد عليه تسعيرة الرسوم الطارئة الميورقية حول واردات مملكة بجاية في 1368، التي تذكر إلى جانب منتجات تربية المواشي، القمح اللين والدقيق[465]. تبيّن عدة أمثلة صادرات الحبوب انطلاقا من بجاية. ففي 1231 بكاجلياري، أخذ إلدبراندو مالي (Ildebrando Melle) بن جوالفريدو (Gualfredo) طلبية من بندالفينو جلزو (Pandolfino Gelso) بن المرحوم رانييرو (Rainerio) بـ 15 ليفر جنوي لحملها إلى بجاية من أجل استثمارها في الحبوب والعودة إلى كاجلياري[466]. أيضا في 1399، تذكرنا وثيقة لشركة داتيني باستيراد مالقة للقمح من بجاية[467]. والشواهد كثيرة في القرن الخامس عشر. ففي 1419، رخّص مشرف بلنسية الملكي لصاحب لوح خوان دو فيلس (Joan de Villes) الذهاب لجلب القمح من بجاية والقل[468]. وفي 1427، نص عقد استئجار بحري على تحميل الدقيق من بجاية أو من القل[469]، وفي 1447 اشترك

(464) López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit*., p. 543.

(465) Éd. Aguiló « Mostres de lous », art. cité, p. 340.

(466) ASP, *Diplomatico Coletti*, 24/9/1202, éd. Fr. Artizzu, *Documenti inediti relativi ai rapporti economici tra la Sardegna e Pisa nel Medioevo*, Padoue, I, 1961, n° 4 (qui date le document de 1201), trad. J.-M. Poisson, dans coll., *Pays d'Islam et monde latin, Xe-XIIIe siècle. Textes et documents*, Lyon, 2000, p. 240-241.

(467) Archivio di Stato di Prato, n. 1010, f. 443 (1399), cité par F. Melis, « Malaga nel sistema economico del XIV e XV secolo », *Economia e Storia*, 3, 1956, p. 45.

(468) ARV, Bailia, 1219, f. 298r-v (10/10/1419), cité par M. Ruzafa Garcia, « Los operadores económicos de la morería de Valencia », *IV Simposio internacional de Mudejarismo: Economía (Teruel, 1987)*, Teruel, 1992, p. 249.

(469) ARM, A. Costanti, 1427, f. 347 (28/10/1427), cité par Macaire, *Majorque et le Maghrib*, *op. cit.*, p. 92.

الأخوان سبينولا دو لوتشولي (Spinola de Luccoli) مع تاجر من لوفنتو (Levanto) لتحميل القمح من بجاية أو الجزائر[470]. وأخيرا، تذكر تسعيرة بندقية مؤرخة في حوالي 1500 الحبوب والقمح اللين من بين المواد المستوردة من بونة وبجاية[471]. لكن كانت هذه المتاجرة ظرفية مكملة، لا تعدّل من ميزان الحبوب الذي كان عاجزا بالنسبة لبجاية بصفة عامة. هنا اختلاف محسوس مقارنة بالموانئ المغاربية الكبيرة الأخرى، كتونس ووهران وتنس أو الجزائر، وهذا ما جعل بجاية أقل جاذبية في بعض الفترات.

لا وجود للمنتجات الغذائية الأخرى تقريبا في صادرات بجاية. ليس من المستبعد احتواء الحمولات على التمر[472] أو التين، الذي يقول لنا عنه الإدريسي أنه يزرع بوفرة وكفاية لتموين عدة بلدان. توجد أيضا وثيقة لعام 1409 تذكر نقل السكر من بجاية لحساب المدجنين في بلنسية وجندية[473]. إنّ هذه الشهادة المعزولة تبقى غير كافية لاستنتاج أنه يتعلق الأمر بإنتاج محلي هام. وأخيرا، ينص عقد

---

(470) ASG, *notai antichi*, not. Risso Baromeo, *filza* 1, n° 174, cité par J. Heers, *Gênes au XVe siècle. Activité économique et problèmes sociaux,* Paris, 1961, p. 340,

يلح هيرس على أهمية صادرات القمح الإفريقي نحو جنوة. كانت حصة بجاية في هذه المتاجرة منخفضة بجانب انتاج سهل بونة وهضاب عمالة قسنطينة أو مجردة.

(471) Bartolomeo di Pasi, *Tariffa de i pesi e misure corrispondenti dal Levante al Ponente*, Venise, 1503, rééd. 1540, f. 181v-182r, cité par Brunschvig, *La Berbérie, op. cit.*, II, p. 261.

(472) نجدها تصل إلى مرسيليا من المغرب. Reynaud, *Histoire du commerce de Marseille, op. cit.*, p. 410-411. ووردت في تسعيرة الرسوم الميورقية الطارئة لعام 1368. Éd. Aguiló « Mostres de lous », art. cité, p. 340

(473) ARV, *Bailía*, 1144, f. 264r-v (7/5/1409).

ضمان لعام 1434 تحميل جوز كزارش[474] من بجاية، بمعنى "الفلفل الغيني"، المسمى أيضا "حب الجنة"[475]، إذن منتوج إفريقي أعيد تصديره.

لم يرتكز نشاط ميناء بجاية إذن على الإنتاج الغذائي إما لكون بلاده الخلفية لم تنتج فائضا للتصدير بكمية ملحوظة، أو لأنّ الفائض المحتمل لم يصل إلى البحر وإلى الميناء.

ج) الخشب ومنتجات نباتية أخرى

تشير وثيقة لعام 1338 إلى إلقاء الجنويين القبض على لوح ميورقي في ميناء تونس حيث وصلها من بجاية بحمولة من الخشب تعود للمسلمين[476]. أيضا في 1409، استولى القراصنة البلنسيون على سفينة إسلامية كانت تحمل ما بين 3000 و4000 قطعة خشب للرماية متجهة من بجاية إلى وهران، حيث كان من المفروض أن تنقل الحبوب[477]. في السنة الموالية، استولى مركب القشتاليين على قارب قرب مستغانم بحمولة من الخشب[478]. ترفع هذه الوثائق الثلاث المعزولة للأسف الستار

(474) ARM, A. Costanti, 1433-4, f. 38 (22/2/1434), cité par Macaire, *Majorque et le Maghrib*, *op. cit.*, p. 302.

(475) هي من التوابل التي عرفت نجاحا كبيرا في فرنسا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، والتي وردت من غامبيا العليا وخصوصا من القسم الساحلي الواقع بين رأس مزيرادو (Mesurado) ورأس البالم (Palmes).

B. Laurioux, « Modes culinaires et mutations du goût à la fin du Moyen Âge », *Artes Mechanicae en Europe médiévale*, Actes du colloque de Bruxelles, 16 octobre 1987 (*Archives et Bibliothèques de Belgique*, numéro spécial), dir. R. Jansen-Sieben, Bruxelles, 1989, p. 199-222, rééd. *Une histoire culinaire du Moyen Âge*, Paris, 2005 (sous presse).

(476) ARM, LLC, 1, f. 71 r-v (17/6/1338), cité par López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 388

(477) ARV, C., Rg. 626 (*Confesiones y ventas de sarracenos*), f. 2r-7v (2/8/1409), éd. J. Hinojosa Montalvo, « Confesiones y ventas de cautivos en Valencia de 1409 », *Lugarzas*, 3, 1971, p. 123-125.

(478) ARV, C., Rg. 626 (*Confesiones y ventas de sarracenos*), f. 33v-36r (30/4/1410).

حول المبادلات المغاربية-المغاربية التي أجراها المسلمون أنفسهم، سواء على متن المراكب المسلمة أم المسيحية. نرى أن بجاية صدّرت خشب بلادها الخلفية نحو جهات المغرب التي كانت أقل وفرة والتي لا يمكنها الاكتفاء بواردات تهريب التجار المسيحيين. يمكننا أن نذكر مع بجولوتي "عشب بجاية [Erba Buggiea]" [479]. وضع الإدريسي قائمة للأعشاب التي كان بالإمكان العثور عليها في منحدرات جبل قوراية، لكن نجهل نوعية العشبة التي أشار إليها بجولوتي. كصدى لهذه المعلومة، نرى في 1274 بيع في جنوة لعشبة بجائية « erba de Bugia » تسمى أرسيشة (*arcicha*) التي تدل على الكلمة العربية حشيشة، وهي عشبة جافة، لكن دون أن تقدم لنا توضيحا أكثر[480]. وأخيرا، نذكر بنص عقد بحري في 1474 على تحميل القطن من بجاية أو الجزائر[481]. حيث استطاع القطن الوصول فعليا إلى أوروبا من المغرب، لكن كان هذا نادرا وقطن البندقية ورد إليها من سوريا ومصر وهو ذو جودة أحسن[482].

د) العبيد

لم تكن بجاية أبدا مكانا لتجميع عبيد إفريقيا السوداء لأن طرابلس كانت هي أساسا منطقة تموين أوروبا[483]. حتى في القرن الخامس عشر عندما ارتفع حجم سوق العبيد الأفارقة في أوروبا، لا يبدو أن بجاية قد استعملت كميناء لركوب هذه السلع البشرية إلا في حالة استثنائية. ففي 1475، تمّ شراء عبدين

(479) Pegolotti, p. 294.

(480) ASG, min. 63/I, f. 32v (26/3/1274). تمّ البيع بـمبلغ ضعيف: 2 ليفر و17 سو.

(481) ARM, P. 2524, f. 45 (14/4/1474), cité par Vaquer, « Navigacio i comerç a Mallorca », art. cité, p. 108.

(482) Borlandi, « "Futainiers" et futaines », art. cité, p. 135.

(483) Ch. Verlinden, *L'Esclavage dans l'Europe médiévale*, I, *Péninsule ibérique - France*, Bruges, 1955, p. 361. Également Id., « Medieval "Slavers" », *Economy, Society, Government in Medieval Italy. Essays in Memory of Robert L. Reynolds. Exploration in Economic History*, 7, 1969-70, p. 1-14 (حول المبيعات باتجاه بجاية)

أسودين (رجل وامرأة) في بجاية عند عبور الخط البحري البربري لحملهما إلى الجزائر[484]. لكن هذه الحالة كانت معزولة وبعض نصوص استئجار بالمزاد العلني لشواني بلاد البربر منعت صراحة من نقل السودان على متنها مهددة المخالفين بعقوبات شديدة جدا[485].

كان النشاط الرئيسي في الصادرات هو إذن تربية المواشي، وبقية القطاعات (الأنسجة، المواد الغذائية) لم تكن غائبة كلية وإنما احتلت مكانة هامشية. هذه كانت نتيجة للمنتجات التي استقبلتها بجاية من جهتها، ولكن خصوصا نتيجة للطلب الأوروبي الذي هدف إلى إرضاء حاجيات صناعته.

الخاتمة: الميزان التجاري ومسألة المعادن الثمينة

كانت التجارة البحرية دون نقاش مصدر الديناميكية الاقتصادية وإغناء بجاية ومن هنا جهتها. اعتبر عبد الله العروي – الذي حمل نظرة قاسية على هذا النشاط– أن هذه التجارة لم تستغل إلا للحكم، مما أدى إلى إثراء العاهل ومحيطه[486]. بحصوله على المداخيل الجبائية المضمونة، يكون قد تمّ عزل الحكم عن بقية النسيج الاجتماعي[487]. إنّ هذا الحكم الذي يحمل بصمات إيديولوجية سنوات 1960[488]، يجب إعادة النظر في قسم منه على الأقل. طبعا، استفاد

(484) *Quaderno di bordo*, éd. Greco, *op. cit.*, n° 80 (14/10/1475).

(485) ASV, *Senato, Mar*, Rg. 6, f. 100v-102v (4/1/1459).

(486) قابل التجارة البحرية بالتجارة الداخلية والصحراوية التي أغنت كل البلاد حسبه.
A. Laroui, *L'Histoire du Maghreb. Un essai de synthèse*, Paris, 1970, rééd. Casablanca, 1995, p. 201.

(487) "كان دورها في الواقع... دائما سلبيا. دور في مساندة حكم متكسر وجعله متعارضا أكثر فأكثر مع المجتمع في مجموعه الذي لم يعد يعبر عن نفسه." Laroui, *op. cit.*, p. 202

(488) D. Valérian, « L'expansion européenne médiévale vue par l'historiographie maghrébine contemporaine », *Savoirs historiques au Maghreb. Constructions et usages*, 2006, Tunis- Oran, (Cahiers du CERES, série histoire,16), p. 313-330.

الحكم من التجارة البحرية بفضل مشاركته المباشرة في الصفقات وعن طريق وسيط الرسوم التي تغذي بيت ماله بطريقة مضمونة ومنتظمة. إنّ هذه الاستفادة تجنبه اللجوء إلى الضرائب غير الشرعية التي تفرض على السكان المسلمين (أو اللجوء إليها بطريقة زائدة). وسمحت له أيضا بالتحرر جزئيا من قبائل البلاد الخلفية التي تحكمت في جمع الضرائب الريفية. هناك نص من مقدمة ابن خلدون يقدم توضيحا للمسألة ويبدو أنه استند إلى الخبرة المغاربية للمؤلف. واصفا عملية تفتت الحكم، يؤكد ابن خلدون أن نفقات الدولة تزداد ويوضح نتائجها: "فتعظم نفقات السلطان وأهل الدولة على العموم... ويحتاج السلطان إلى ضرب المكوس على أثمان البياعات في الأسواق لإدرار الجباية... وتمتد أيديهم إلى جميع المال من أموال الرعايا، من مكس أو تجارة أو نقد في بعض الأحوال، بشبهة أو بغير شبهة"[489]. أيضا، عندما وضع حوصلة لنشاط الحاجب ابن تافراجين بتونس (في منتصف القرن الرابع عشر)، مدح ابن قنفذ سياسة هذا الأخير، بما يروقه فقط أنه لم يكن قادرا على فرض قوة الدولة على القبائل. لكن في نفس الجملة يشير إلى أهمية المداخيل الضريبية بفضل النشاط البحري وكأن الاثنين يعوضان بعضها البعض[490]. لكن من الخطأ التخيل أن الحكم كان الوحيد الذي استفاد من هذا النشاط. فقد أغنى قسم كبير من المبادلات الأوساط التجارية المحلية، حتى وإن كانت هذه الأوساط غير معروفة جيدا. أبعد من هذا، شجع طلب الأسواق الأوروبية مثل وصول المواد الأولية للصناعة النسيجية على انتاج بجاية وبلادها الخلفية. لكن من الصعب قياس نتائج هذه التجارة الكبيرة في الأرياف.

لكن من المحتمل مساعدة بنية المبادلات لبعض القطاعات على حساب أخرى. بصفة شاملة، كانت المدينة مصدرة لمنتجات الرعي التي في الغالب أولية. في العودة، استوردت أساسا الأنسجة الواردة من الصناعة الأوروبية. يمكن إضافة

(489) المقدمة، ترجمة، ص 572-573.

(490) الفارسية، ص 174.

عدد من التدريجات لهذا الشكل العام، لكن الصورة التي ترسم هي صورة تبادل كامل بين ضفتي البحر المتوسط[491]. شجعت حاجيات أوروبا من الصوف والجلود والفراء تربية المواشي التي ساعدها النمو الديمغرافي ووصول السكان الرحل الجدد. في هذا المعنى، ليس من المستحيل تعزيز هذا الطلب القوي للتوجه الرعوي للبلاد الخلفية وجعله أبديا. عكسيا، كان الإنتاج الحرفي قليل الطلب في أوروبا. إنّ الخزفيات التي تم تصديرها دون شك من بجاية توقفت في القرن الثالث عشر. ولم تكن الأنسجة موضوعا لمبيعات في الأسواق الأوروبية إلا استثنائيا. هذا لا يعني أن هذه الأنشطة قد اختفت لأن بجاية استمرت في استيراد المواد الأولية لقطاعها النسيجي[492]، لكنه ليس بقطاع ديناميكي حتى يصبح مصدرا. عرفت الصناعات الأوروبية خصوصا بداية من القرن الثالث عشر كيف تطور انتاج كثيف ومنافس. وانتظم الحرفيون وتمكنوا من احتلال مكانة رائدة في المجتمع حيث أصبح أي نجاح اقتصادي له قيمة. بالعكس، في بجاية، كانت الحرف خصوصا الصوف هي حرف متواضعة. إذا كانت الصناعة النسيجية البجائية لم تقض عليها المنافسة الأوروبية، فإنها لم تكن قادرة على التخلص من كمية الفائض القابل للتصدير.

كانت إذن هذه التجارة البحرية مصدرا للربح على الأقل لقسم من السكان، لكنها هشة بما أنها مرتبطة بالطلب الأوروبي كما تبينه حالة الصوف.

---

(491) إنّ مصطلح التبادل المختل الذي طوّره سمير أمين في سنوات السبعينيات كتكملة لأرغيري إمانيال (Arghiri Emmanuel) تمّ تطبيقه خصوصا على الاقتصاديات المعاصرة واستعمل لتفسير النمو المختل بين الشمال والجنوب. أنظر:

S. Amin, *L’échange inégal et la loi de la valeur*, Paris, 1973, nouv. éd. revue, 1988.

يطبّق أيضا على بنى المبادلات في البحر المتوسط في نهاية العصر الوسيط.

(492) في هذا المعنى، لا يمكننا تتبع منحنى أشتور بشكل كامل حول زوال الصناعة النسيجية في مصر. أنظر: Ashtor, « Underdevelopment », art. cité, p. 305.

إنّ مسألة الميزان التجاري هي أكثر تعقيدا وصعبة الحل. لا يوجد سجل ديوان يسمح بقياس الدخول والخروج وعقد حوصلة لذلك. بناء على ذلك، فإن معلوماتنا جزئية ولا توفر لنا أي معطى كميا. استنتج أغلب المؤرخين أنّ الميزان مائل لأوروبا. يعتقد م. بلوك (M. Bloch) أنه بداية من القرن الثاني عشر بدأ الميزان في الاستقامة لصالح الضفة الشمالية للبحر المتوسط[493]. هو نفس الحكم بالنسبة للقرن الثالث عشر أطلقه جوهن داي (John Day)[494] وكرمن باتل (Carmen Batlle) وإليزا فاريلا (Elisa Varela) في حالة برشلونة[495]، وستيفان ر. إبشتاين (Stephan R. Epstein) بالنسبة لصقلية[496] أو روبارتو سباتينو لوبيز بالنسبة لجنوة[497]. لإلياهو أشتور فقط رأي مخالف، معتبرا بقاء إيطاليا عاجزة في تجارتها مع المغرب حتى نهاية القرن الرابع عشر[498]. لكن يبقى أغلب هؤلاء المؤلفون حذرين في نتائجهم. إن استدلالاتهم تستند في الواقع إلى ملاحظات غالبا هشة. فالتبادل غير المتساوي بين المواد الخام والمواد المصنعة ذات القيمة المضافة دفعهم إلى الاعتقاد بعجز الميزان التجاري المغاربي[499]. من البديهي

(493) M. Bloch, « Le problème de l'or au Moyen Âge », *Annales d'Histoire Economique et Sociale*, 6, 1933, p. 11.

(494) J. Day, « Colonialisme monétaire en Méditerranée au Moyen Âge », *Actes du IIe colloque international d'histoire, Athènes, 1983 : Économies méditerranéennes. Équilibres et intercommunications, XIIIe-XIXe siècle*, I, Athènes, 1985, p. 313.

(495) Batlle i Gallart, Varela, « Las relaciones comerciales », art. cité, p. 38. Voir aussi Ch.-E. Dufourcq, « Le commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe chrétienne et marine musulmane : données connues et problèmes en suspens », *Actes du congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb, Tunis, 1974*, *Cahiers du CERES, Série histoire*, 1, Tunis, 1979, p. 169.

(496) Epstein, *An Island for Itself, op. cit.*, p. 309.

(497) R. S. Lopez, « Back to Gold: 1252 », *Economic History Review*, 2e s., 9/2, 1956, p. 233.

(498) Ashtor, « Pagamento », art. cité, p. 369-379, 395.

(499) R.-H. Bautier, « Les grands problèmes politiques et économiques de la Méditerranée médiévale », *RH*, 234/1, 1965, p. 18.

أنّ يكون سعر الجوخ أغلى من الصوف الذي استعمل في نسجه. لكن حتى يصبح الدليل مقبولا كلية، يجب معرفة السلع المتبادلة بصفة شاملة، وهذا ليس هو الحال هنا. الدليل الثاني هو الأكثر تطويرا وهو أن تدفق الذهب الإفريقي إلى أوروبا لا يمكن تفسيره إلا بتجارة عاجزة في المغرب.

إنّ مبادلات المعادن الثمينة التي تعتبر وسائل نقدية هي في الواقع أحسن إشارة لاختلال المبادلات[500]. لكن لا يجب الاقتصار على الذهب.

انتقلت الفضة بين أوروبا والمغرب الذي لا يتوفر عليها. إن العدد الكثير من الطلبيات الجنوية أو المرسيلية المستثمرة بالميلاريس (حقيقية أو مزيفة) تبيّن أن قسما هاما من المشتريات كانت مسددة بالفضة إلى غاية منتصف القرن الثالث عشر. فخمسة عشر من مجموع ستين طلبية مرسيلية لعام 1248 استثمرت على الأقل بالميلاريس. لكن بداية من حوالي سنوات 1260 لم تعد هذه العقود إلا استثناءً. يفسّر هذا كما رأيناه بالإجراءات القاسية ضد الدراهم المزورة المرسلة إلى أوروبا. لكن هذا الانقطاع يمكن أن يكون نتيجة لتجارة توازنت شيئا فشيئا بسبب وفرة الواردات خصوصا واردات الأنسجة.

من الصعب الفصل في مشكل الذهب. البعض جعله محرك التجارة البحرية المغاربية والقوة السياسية للسلالات الإسلامية[501]. في الواقع، كانت أوروبا في حاجة إلى الذهب الذي استعمل في تموين ضرب السكة التي عادت إلى الظهور في منتصف القرن الثالث عشر[502] وفي تسديد المواد التي تم شراؤها من المشرق[503].

(500) E. Ashtor, *Les métaux précieux et la balance des payements du Proche-Orient à la basse époque*, Paris, 1971.

(501) "كان هذا الذهب طوال قرون أحد الأسلحة الحاسمة للإسلام الغربي".

F. Braudel, « Monnaies et civilisation : de l'or du Soudan à l'argent d'Amérique. Un drame méditerranéen », *Annales ESC*, 1, 1946, p. 11.

(502) R. S. Lopez, « Settecento anni fa : il ritorno all'oro nell'occidente duecentesco », *RSI*, 65, 1953, p. 19-55.

ورد هذا الذهب إلى بجاية عبر الزاب حتى إذا كان هذا الطريق لم يسلك أبدا، لأن منافذ بحرية أخرى كانت الأهم على غرار تلمسان وموانئها المتقدمة في الغرب وتونس في الشرق.

هل كان البحث عن الذهب هو المحرك الرئيسي لتجارة الأوروبيين في المغرب؟ الكثير أكدوا ذلك دون أدلة كثيرة[504]. يمكن أن نلاحظ بالاستناد إلى هذه الأطروحة أن البندقية التي توفرت على معادن المجر[505] لم تهتم أبدا بأسواق إفريقية الشمالية. لكن يجب جعل دور الذهب نسبيا في نشاط بجاية التجاري التي صدّرت عدة مواد أخرى. ربما وجد عجز تجاري تمت تسويته بالذهب، لكن ليس هناك شيء يسمح بتأكيد أهميته، ولا تأكيد كونه الهمة الرئيسية للتجار.

---

(503) Dufourcq, *L'Espagne catalane, op. cit.*, p. 572 كان المشرق الإسلامي على الخصوص طالب للفضة. أنظر: Ashtor, *Les métaux précieux, op. cit.*, p. 32-53 حسب رأيه، كان الميزان التجاري للمبادلات بين أوروبا المسيحية والمشرق لصالح أوروبا بصفة دائمة، وهذا ما أدى إلى تدفق الفضة وخصوصا الذهب باتجاه البلدان الإسلامية. *Ibid.*, p. 65-96

(504) D. Abulafia, « Gli Italiani fuori d'Italia », *Storia dell'economia italiana*, dir. R. Romano, I, Turin, 1990, p. 275 ; J. Heers, « Le Sahara et le commerce méditerranéen à la fin du Moyen Âge », *AIEO*, 1958, p. 248 :
"إن السبب الأساسي لهذه التجارة هو دون شك تجارة ذهب السودان الذي ينطلق من كل موانئ المغرب ويصل إلى الأسواق الكبيرة في إسبانيا وإيطاليا". راجع م. مالوي هذه الأطروحة:

M. Malowist, « Les fondements de l'expansion européenne en Afrique au XVe siècle : Europe, Maghreb et Soudan occidental », *Acta Poloniae historica*, 18, 1968, p. 164-166.

(505) Ph. Grierson, « La moneta veneziana nell'economia mediterranea del Trecento e Quattrocento », *La Civiltà veneziana del Quattrocento*, Florence, 1957, p. 86.

إن وصول الذهب السوداني إلى أوروبا لا يدع مجالا للشك. إن أسعار هذا المعدن كانت مرتفعة في المدن الغربية[506]، في حين كان السوق الأحسن في المغرب، وهذا ما يشهد عليه حاخام الجزائر سيمون ديرون (Simon Duran) في نهاية القرن الرابع عشر: "من المعروف بجلاء أن الذهب غال في بلاد أيدوم (أوروبا) ورخيص في هذه البلاد (المغرب الأوسط)، لأن بلاد أيدوم تستقبل ذهبها من هذه البلاد"[507]. هناك معاينة مماثلة وضعها في نفس الفترة المقري الذي أكّد بروايته كلام لأبي حمو سلطان تلمسان: "بلاد الصحراء قبل أن يدخلها أهل مصر كان يجلب إليها من المغرب ما لا بال له من السلع فتعاوض عنه بما له بال من الثمن أي مدبر دنيا ضم جنبا أبي حمو وشمل ثوباه كان يقول لولا الشناعة لم أزل في بلادي تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبع ومن سواهم يحمل منها الذهب ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب ومنه ما يغير من العوائد ويجر السفهاء إلى المفاسد"[508].

تؤكد هذا من جهة أخرى المصادر الأوروبية. ففي 1413 كتب المشرف الملكي العام ببلنسية خوان مركادر (Juan Mercader) إلى الملك فرديناند

(506) C. Desimoni, « La moneta e il rapporto dell'oro all'argento nei secoli XII al XIV », *Atti della R. Accademia dei Lincei, serie* V, *Classe di scienze morali, storiche e filologiche*, vol. III, 1a parte, 1895, p. 45 ; C. M. Cipolla, « Studi di storia della moneta. I, Movimenti dei cambi in Italia dal secolo XIII al XV », *Studi nelle scienze giuridiche e sociali*, 29, 1948, p. 65.

(507) Cité par M. Abitbol, « Juifs maghrébins et commerce transsaharien au Moyen Âge », *Les communautés juives des marges sahariennes du Maghreb*, dir. M. Abitbol, Jérusalem, 1982, p. 230.

(508) Cité par H. Pérès, « Relations entre le Tafilalet et le Soudan à travers le Sahara du XIIe au XIVe siècle », *Mélanges de géographie et d'orientalisme offerts à E. F. Gautier*, Tours, 1937, p. 413-414.

يتعلق الأمر بأبي حمو موسى الأول (707-718/ 1308-1318) أو بأبي حمو موس الثاني (760-791/ 1359-1389)

(Ferdinand) أن "كل ذهب يرد إلى هذه المملكة جاء من أراضي المور"[509]، وفي 1445 رخّص للميورقيين بتصدير الفضة غير المضروبة نحو المغرب، "حيث تحمل كميات كبيرة من الذهب الذي يضرب بعد ذلك في سكة هذه المملكة"[510].

لكن المشكل هو تحديد مكانة بجاية في تدفق هذا الذهب. تعتقد مريان ملويست (Marian Malowist) - التي تعتبر أن الميزان التجاري كان ايجابيا للمسيحيين- أن الذهب ورد إلى أوروبا خصوصا عن طريق ضرائب الخضوع التي سددها الملوك المسلمون[511]. طبعا كانت هذه المبالغ هامة نظريا على الأقل، لأن في الواقع نادرا ما تمّ تسوية ضرائب الخضوع بصفة كاملة، ونرى أن سلطان بجاية سدد ما يجب عليه بتحرير الأسرى المسيحيين. من جهة أخرى، لم تخص ضرائب الخضوع هذه إلا صقلية وبلدان لاكورونيا أراجونة دون البلاد الإيطالية تقريبا. هذا إذن لا يمكن أن يكون التفسير الوحيد ويجب البحث عن تحديد ما إذا كان التجار قد حملوا الذهب من بجاية إلى أوروبا. تبيّن المعاهدات بحث السلاطين الحفصيين عن جذب الذهب والفضة برسوم هزيلة. لكن في الجانب الآخر، اتخذوا أيضا إجراءات ديوانية مشجعة لواردات الممتلكات، واعتبروها أكثر أهمية من الصادرات. من الصعب تأويل هذه العناصر المتناقضة. إذن من الأفضل الانطلاق من الوثائق التجارية نفسها.

---

(509) نقلا عن:

A. Unali, *Mariners, pirates i corsaris catalans a l'epoca medieval*, Barcelone, 1986, p. 158.

(510) « Que's puga traure de mallorques argent, que no sia en moneda, per portar en Berberia, de hont se trau gran quantitat d'or qui apres se bat en la seca del dit regne ». *Llibre den Abello*, cap. XXIX, n° 25 (11/4/1445), éd. J. M. Quadrado, *Privilegios y franquicias de Mallorca*, I, Palma, 1895, p. 131.

(511) M. Malowist, « Quelques observations sur le commerce de l'or dans le Soudan occidental au Moyen Âge », *Annales ESC*, 25/6, 1970, p. 1630.

تبيّن الوثائق الجنوية للقرنين الثاني عشر والثالث عشر إرساليات للذهب من بجاية. ففي 1161 على سبيل المثال، حمل بوجيوفاني لوركاريو (Buongiovanni Lercario) حريرًا وقماشًا إسبانيًا لحساب جيجلمو مالوني (Guglielmo Mallone)، ووجب عليه إعادة استعمال منتوج البيع في الشمع والشب أو الذهب[512]. وفي 1282 اعترف جيجليمو فينامور (Guglielmo Finamor) لبيترو (Pietro) وبونيفاسيو دو نيجرو (Bonifacio de Nigro) بحصوله على الدينار المزدوج الذي تسلمه في بجاية من باريسينو دو نيجرو (Paresino de Nigro)[513]. خمس سنوات بعد ذلك، استلم فرانشينو دو نجرونو (Franceschino de Negrono) من مانيال دو بتراريو (Manuele de Petrario) رصيد طلبية بـ 55 دوبل ونصف ذهب واردة من بجاية[514]، وفي 1288 أعطى مانيال دو كستروليس (Manuel de Costerolis) وصلًا بـ 180 دينار مزدوج ذهبي إلى بنسيتو ريتشيو (Ponceto Ricio) ، وكيل بيترو امبارتو دو نولي (Pietro Imberto de Noli). كان هذا الأخير قد استلم قطعا ببجاية باسم مانيال من مدين لهذا الأخير وهو لوفرانكو بورتو (Lanfranco Porto)[515]. إلى جانب بعض هذه الشهادات، تم ابرام عدة طلبيات بجنوة إلى بجاية واستثمرت في الدينار المزدوج وهذا ما يظهر تيارا معاكسا[516]. ففي 1248 تم استثمار ثلاث طلبيات على التوالي بـ 38 ليفر و3 سو و9 دونيي، 30 ليفر و25 ليفر في مجموعها أو قسم منها في الدينار المزدوج الذهبي إلى بجاية[517]. وفي 1253

(512) Giovanni Scriba, n° 812 (16/4/1161).

(513) ASG, min. 40/II, f. 27v (17/2/1282).

(514) ASG, min. 9/II, f. 42r (6/2/1287).

(515) ASG, min. 120/II, f. 82r (23/2/1288).

(516) Ashtor, « Il retroscena », art. cité, p. 58.

(517) ASG, min. 26/II, f. 72v (27/4/1248) ; min. 143, f. 183r (7/10/1248) ; not. ign., *busta* 7, fr. 92 (3/11/1248).

تم استثمار طلبية في الميلاريس ومن ريش التارين[518]. وفي 1269 حمل جديتو دو نيجرو (Guideto de Nigro) طلبيتين من الدينار المزدوج، الأولى بـ 151 ليفر و13 سو و8 دونيي والثانية بـ 509 ليفر و14 سو و2 دونيي[519]. هذه الدنانير المرسلة من جنوة وردت أحيانا من بجاية وغيرها. ففي 1286، أخذ سيميوني دو سوري دو فونتانا (Simeone de Sori de Fontana) بطلبية من جيوفاني دو سوري (Giovanni de Sori) 32 دينارا مزدوجا ذهبيا و19 بوزون ونصف بسكة بجاية[520]. كان هناك إذن تدفق للذهب البجائي نحو جنوة، لكن الحصيلة ه غير مؤكدة.

تبيّن بعض الوثائق الإيبيرية المتأخرة أيضا صادرات الذهب من بجاية. ففي 1363 سدد المسلم البلنسي عبد الله أبو رأس (Abdala Abaraso) رسما لاستيراد 190 دينارا مزدوجا ذهبيا من بجاية[521]. وفي 1405 أخذ التاجر البرشلوني نكولو دبويج (Nicolau Despuig) بطلبية من الأجواخ لاستثمارها في بونة وبجاية في سلع أو في الدينار المزدوج الذهبي[522]. وأخيرا في 1428 بميورقة، هناك عقدا ضمان يتعلقان بالذهب والفضة حيث تمّ تحميلهما من تونس وبونة والقل وبجاية[523].

تبيّن إذن العقود التجارية تدفق الذهب من بجاية نحو أوروبا، لكن أيضا في الجهة الأخرى. تظهر بوضوح نفس الوثائق صادرات منافع انطلاقا من بجاية

(518) ASG, min. 29, f. 105v (15/5/1253).

(519) ASG, min. 13/II, f. 17v-18r (28/3/1269).

(520) ASG, min. 94, f. 158v (3/6/1286).

(521) ARM, RP 3988/2, f. 34v (3/2/1363).

(522) AHPB, Bernat Nadal, *Secundus liber comandarum*, 1395-1406, f. 181v (7/1/1405).

(523) ARM, A. Costanti, 1428, f. 49v (27/2/1428), 61v (4/3/1428), cité par Macaire, *Majorque et le Maghrib, op. cit.*, p. 352.

وليس النقود. ربما أن العودة بالذهب تركت أثرا قليلا، لكن في غياب أدلة كافية بشكل أكبر، يجب أن نبقى حذرين حول فرضية عجز بجاية التجاري، وحول رصيدها من الذهب. بالمقابل، تقدم صادرات الفضة حتى منتصف القرن الثالث عشر إشارة لتجارة مربحة في البداية والتي توازنت تدريجيا.

إضافة إلى صعوبة ايجاد دليل لعجز الميزان التجاري، يجب إذن الحديث بالأحرى عن اختلال في البنية الكمية للمبادلات، التي تستطيع أن تدخل نوعا من التبعية اتجاه الأسواق المتوسطية، رغم التنوع الكبير في المواد المتبادلة.

الفصل الثالث
البحر مصدر للربح: القرصنة

توجد عدة طرق لمعالجة مسألة القرصنة. تعالجها الطريقة الأكثر انتشارا – وهي التي تصبغها باعتبارات أخلاقية- على أساس أنها تشويش للعلاقات السياسية بين ضفتي البحر المتوسط، حيث كانت هادئة ربما في الوقت العادي. إنّ مشكل هذه المقاربة هو تمسكها بالضبط بهذه المسلمة الأخيرة. في الواقع، كانت الحالة الطبيعية لهذه العلاقات بين المسيحيين والمسلمين في العصر الوسيط – بالعكس- حالة حرب، حيث توقفها الهدنات التي كانت دائما مؤقتة. فضلا عن ذلك، لم تعتبر القرصنة في هذه الفترة نشاطا مشجوبا من الناحية الأخلاقية، شرط اختيار القرصان لأهدافه وعدم مهاجمته لأناس هو معهم في سلم. كان هذا النشاط مسموحا به وقد نظّمته الأعراف والاتفاقيات التي وجب احترامها. في هذا الإطار، تحدد من حيث المبدأ بقرصنة منظمّة (course) حتى وإن كان الحد بين القرصنة "المنظمة" والقرصنة "غير المنظمة" يبقى غالبا غامضا من الناحية العملية[1].

يجب إذن دراسة هذه الممارسة على غرار التجارة كمصدر أرباح للمدينة- لكن الفرق بينهما أن القرصنة كانت تؤدي إلى تهيئة مناخ ربما تكون له آثار سلبية على الازدهار العام للجهة.

I- تطور القرصنة البجائية

كانت القرصنة نشاطا متواصلا في البحر المتوسط خلال العصر الوسيط وفي الفترة الحديثة. تركت سيطرة الإسلام على البحر خلال وقت طويل فرصة احتكار الأساطيل المسلمة له. ويؤكدها إذن ابن خلدون: "فلم تسبح للنصرانية فيه

(1) M. Mollat, « De la piraterie sauvage à la course réglementée, XIIIe-XIVe siècle », *Mélanges de l'École française de Rome. Moyen Âge - Temps modernes*, 87, 1975, p. 7-25, rééd. *Études d'histoire maritime (1938-1975)*, Turin, 1977, p. 591-609.

ألواح[2]. بقي هذا التقليد في القرون الأخيرة للعصر الوسيط، لكن اقتسم البحر ووجب على السفن المسلمة أخذ في الحسبان من الآن فصاعدا الأساطيل الإيطالية أو الكتالانية. كانت بجاية – مع موانئ مغاربية أخرى- واحدة من قواعد هذه القرصنة، التي عرفت تطورات متنوعة حسب الفترات. ولم تصبح في الواقع هامة إلا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر وتناقصت خلال القرن الموالي.

1)- نشاط محدود إلى غاية الثلث الثاني من القرن الرابع عشر

وجب انتظار ثلاثة قرون حتى تصبح بجاية في الواقع مركزا كبيرا للقرصنة في البحر المتوسط الغربي. فإلى غاية الثلث الثاني من القرن الرابع عشر، بقيت الحالات نادرة ومعزولة.

في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، اشتهرت الأساطيل المسيحية بغاراتها ضد السواحل المغاربية. هاجمت الأساطيل النورمانية في الغالب سواحل إفريقية، خصوصا ميناء جيجل القريب منها[3]، لكنها لم تجازف أبدا بمهاجمة بجاية[4]. في المقابل، أربك حضورها في مياه المغرب الشرقي الملاحة كثيرافي هذه الجهة. ففي رسالة لعام 1140، كتب تاجر يهودي من الفسطاط برؤيته في رحلة ذهابه الأسطول النورماني متجها نحو إفريقية، ومن ثمّ ليس بإمكانه من الآن فصاعدا اللحاق مباشرة بالأسكندرية، دون شك بسبب انعدام الأمن الذي أثاره الحضور الصقلي على الساحل[5]. أيضا، احتفل الإخباريون الجنويون بأنشطة القرصنة كأفعال سامية من الكفاح ضد الكافر، مشيرين أيضا لأهمية الغنيمة المحصلة. ففي

(2)المقدمة، الترجمة ص 522.

(3)الإدريسي، الترجمة ص 173.

(4)من الممكن إبرام الملوك النورمان لاتفاقيات سلم مع الحماديين.

A. Nef, *L'élément islamique dans la Sicile normande : identités culturelles et construction d'une nouvelle royauté (XIe-XIIe siècle)*, thèse de l'université Paris X-Nanterre, sous la direction de H. Bresc, 2001, p. 301.

(5)Trad. Sh. D. Goitein, *Letters of Medieval Jewish Traders*, Princeton, 1973, p. 324.

1136، أطلقت اثنا عشر شانية غارة ضد بجاية واستولت على مركب كبير على متنه عدة مسلمين، حيث حملوهم إلى جنوة[6]. دفعت جرأة القراصنة الجنويين أيضا في 1245 إلى مهاجمة مركب بيزي محمّل بالسلع في ميناء بجاية، وإحراق عدة مراكب معادية راسية أمام المدينة[7]. كانت نتيجة أنشطة القرصنة هذه حضور أسرى مسلمين في الدول المسيحية. ففي جنوة في القرن الثالث عشر، وجد العبيد المسلمين فيها بكثرة. فكانوا خصوصا من الأندلسيين الذين أسروا خلال العمليات العسكرية لحركة الاسترداد، ونلاقي أيضا المغاربة[8]. ففي 1274 على سبيل المثال، بيعت جيوفانينا – التي هي عبدة بجائية الأصل- في جنوة ب 13 ليفر إلى مواطن من تراجونة[9]، وفي 1267، ولد علي بن أحمد البجائي عبيدا في جنوة[10].

كانت القرصنة المسيحية خطيرة بكفاية لإثارة ردود فعل سكان السواحل. يروي الإدريسي لجوء سكان جيجل إلى الجبال في الصيف في وقت موسم الملاحة[11]. يؤكد حادث جرى في 1166 هذا التخوف عندما قذفت عاصفة مركبا جنويا إلى سواحل جيجل. قتل السكان قسما من الطاقم اعتقادا بأنهم قراصنة، وأسروا البقية ونقلوهم إلى بجاية[12].

هذا لا يعني عدم وجود قرصنة ببجاية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. فقد بعث البابا جريجوار السابع (Grégoire VII) في 1076 رسالة إلى

(6)سيربح كل يخت في المغامرة 700 ليفر. *AG*, I, p. 28, trad. p. 86.

(7)*AG*, III, p. 162.

(8) M. Balard, « Remarques sur les esclaves à Gênes dans la seconde moitié du XIIIe siècle », *Mélanges d'archéologie et d'histoire*, 80, 1968, p. 634-645.

(9) ASG, min. 79, f. 57v (19/2/1274).

(10) ASG, not. ign., *busta* 22, fr. 1, cité par Balard, « Remarques », art. cité, p. 641.

(11) Al-Idrīsī, trad. p. 173.

(12)*Cronica varia pisana*, Milan, 1725 (*Rerum Italicarum.Scriptores*, 6), col. 178.

الأمير الناصر الحمادي، تشير إلى حضور الأسرى المسيحيين في بجاية[13]. بعد ذلك بقليل، يروي كتاب أخبار جبل كاسينو (Mont Cassin) أسر القراصنة لرهبان الدير العائدين من سردينيا إلى صقلية، ونقلهم إلى إفريقيا في 1114. أرسل إذن رئيس الدير رجالا للتفاوض على فديتهم، لكن في النهاية تدخل الكونت رجار الصقلي لدى العزيز الحمادي وتوصل إلى تحرير الرهبان[14]. وفي 1263، هاجم البجائيون البرشلوني بيري فيرار (Pere Ferer) في ميناء سطورة[15]. أيضا، يروي الغبريني - في سياق حديثه عن استيلاء بني غانية على المدينة في 1185- أنّ بجاية كانت نقطة انطلاق الغزوات نحو بلاد الروم، ووجد بها عدة أسرى[16]. تؤكد عدة وثائق حضور هؤلاء الأخيرين في بجاية. ففي 1178، أعطى الملك ألفونسو الأراجوني إلى برنات ماركوس (Bernat Marcus) وخلفائه رخصة تفاوض لفداء الأسرى المسلمين على أراضيه وحملهم على متن جفنه إلى بجاية وسبتة وأراضي مسلمة أخرى، حيث يمكنه فداء المسيحيين[17]. أيضا في 1288، أقرض ببجاية سيموني (Simone) ابن أنسالدو دو مديلو (Ansaldo de

(13) Éd. L. de Mas-Latrie, *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-Âge*,Paris, 1866, p. 8.

(14)*Chronica Monasterii Casinensis*, éd. H. Hoffmann, Hanovre, 1980 (*Monumenta Germaniae Historica*, *Scriptores*, 34), livre IV, chap. 50, p. 516.

(15) ACA, C., Rg. 12, f. 14r (février-mars 1262).

سمح له جاك الفاتح بتعويض يصل إلى ألف بوزون من الممتلكات التي عادت إلى رعايا السلطان. في نفس السنة تلقى بريجنجر تريبون (Berenguer Tripon) وهو برشلوني آخر رخصة مشابهة للتعويض عن الأضرار التي تسبب له فيها البجائيون. ACA, C., Rg. 12, f. 76r (15/5/1263)

(16) الغبريني، ص 76، حيث يضيف بأنه كان كذلك في عصره (في نهاية القرن الثالث عشر).

(17)Archivo de la Catedral de Barcelona, *Cartes reales* 52-2, perg. (novembre 1178), éd. M. T. Ferrer i Mallol, « Els redemptors de captius : Mostolafs, eixees o alfaquecs (segles XII-XIII) », *Medievalia*, 9, 1990, appendice, doc. n° 3.

Modulo) إلى جيوفانينو (Giovannino)، أخ بائع الصوف أوبرتو دو جاريبالدو (Oberto de Garibaldo) ثلاثة عشر دينار مزدوج لفديته[18]. لكن تبقى دائما هذه الحالات نادرة[19].

لم تصبح القرصنة البجائية متواجدة أكثر في المادة الخبرية إلا في بداية القرن الرابع عشر. ففي 1303، تمكنت أسيرة مسيحية من الفرار من الميناء مع ابنها والتحقت بميورقة[20]. وفي 1312، شارك الملك سانش الميورقي في تسديد فدية أحد رعاياه المحتجز ببجاية[21]، وفي 1316 طلب من عامله في الجزيرة تنظيم أسطول للدفاع عن نفسه من القراصنة سواء المسلمين أم المسيحيين، وحدّد بستين ميلاً "باتجاه بجاية" المنطقة التي أراد حمايتها[22]. ربما تعلق الأمر بإجراء إجابة عن

(18) ASG, min. 10, f. 41v (15/7/1288).

اعترف أنسالدو دو مدلو (Ansaldo de Modulo) أمام موثق بجنوة لأوبارتو دو جاريبالدو (Oberto de Garibaldo) بتسلمه 13 ليفر كتعويض عن 13 دينار مزدوج أعارها منه في بجاية.

(19) بدراسته للوصايا الجنوية بين منتصف القرن الثاني عشر ومنتصف القرن الثالث عشر، لم يجد أ. ابشتاين إلا عددا قليلا من التركات لفداء الأسرى. وكانت نسب هذا الاشتراك للكنيسة أكثر في أفعال الفداء، لكن من الأفضل رؤيتها لقرصنة أقل انعكاسا.

S. A. Epstein, *Wills and Wealth in Medieval Genoa, 1150-1250*, Cambridge, Mass., 1984, p. 187.

(20)ARM, *Reales cedulas*, vol. 1, f. 25 (19/2/1303), éd. Ch.-E. Dufourcq, *Recueil de documents concernant les relations des pays de la Couronne d'Aragon avec le Maghreb de 1212 à 1323*, thèse complémentaire, Université de Paris, 1965, n° 556.

(21) ARM, RP, compte de 1312, f. 17, éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 980bis.

(22) ARM, Codice Sant Pere, f. 19 (27/5/1316, copie du XVe siècle), éd. J. Vich i Salom, J. Muntaner y Bujosa, *Documenta regni Majoricarum. Colección de documentos inéditos para la historia del antiguo reino de Mallorca (1229 a 1349)*, Palma de Majorque, 1945, n° 110, p. 121-123 (avec une date inexacte, corrigée d'après Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1122).

هجوم في مياه إبيزا قليلا قبل ذلك[23]. وتبيّن حالات القرصنة الأخرى التي تمّت الإشارة إليها خلال هذه السنوات بدائرة نشاط محددة جدا: ففي 1312 هاجم مركب سبتي ومركبان بجائيان سفينة تحمل سلع السفراء في ميناء بجاية[24]، وفي 1313، استولى القراصنة البجائيون على جفن برنات دارمونتيرا (Bernat d'Armentera) في ميناء القل[25]. لقي رعايا ملك أراجونة نفس المناخ العدائي. ففي 1312 طالب جاك الثاني الأراجوني من عامل بجاية[26] تحرير أحد رعاياه، وهو رامون جنيستوس (Ramon Genestos)، الذي أسر خلال عهد أبي البقاء، حينما كانت الدولتان في سلم[27]. وسنتان بعد ذلك، عبّر أربعة رعايا أراجونيين أسرى في بجاية للملك عن خيبة أملهم من فشل إقرار السلم[28].

---

(23) ARM, *Realescedulas*, vol. 3, f. 233v-234r (1/4/1316), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1202.

أجاب ملك ميورقة سلطان بجاية بأن تحرير الأسرى البجائيين مرتبط بتحرير الميورقيين الذين أسروا في إبيزا، حيث طالب بهم القنصل بلانكاس من قبل.

(24) ARM, *Realescedulas*, vol. 3, f. 11v-12 (19/1/1312), 22v-23r (c. février-mars 1312), 21-22 (26/4/1312), 22v (26/4/1312), 50 (8/8/1312), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 944, 948, 955, 956, 974.

(25) ARM, *Realescedulas*, vol. 3, f. 122v-123 (19/9/1313), 149r (14/10/1315), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1027, 1154.

(26) « Honra noble e amat Mazohar senage, regrador de Bugia ».

يتعلق الأمر بيعقوب بن خلوف قائد صنهاجة في هذه الفترة، حيث أمسك ببجاية باسم السلطان أبي بكر.

(27) ACA, C., Rg. 149, f. 185v (3/5/1312), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 958.

(28) ACA, CRD, Jaime II, *caja* 99, extra series, n° 728 (c. août 1314), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1077.

في أفريل 1315 حرّر السلطان ثمانية وثلاثين كتالانيا. ويتعلق الأمر دون شك بنفس الأشخاص.

ACA, CRD, Jaime II, *caja* 101, extra series, n° 892, éd. *Ibid.*, n° 1114 (3/4/1315). Voir aussi ACA, C., Rg. 24, f. 126-127 (13/5/1315 - 28/5/1315), éd. *Ibid.*, n° 1123, 1124, 1126.

إلى غاية سنوات 1360، تبقى الإشارات إلى القرصنة البجائية نادرة، حتى وإن تبيّن استمرار هذا النشاط. ففي 1319 رخّص الملك سانش الميورقي لفرانسيسك دو كلابر (Francesc de Claper) -الذي كان ضحية لقراصنة بجاية (per regem Bugie seu gentes suas)- بالحصول على تعويض من الضرر[29]. وفي جوان 1319، لاحق لوح بجائي قارب الميورقي جيلام ألبيزا (Guillem Albesa) في نواحي القل[30]. وفي 1337، هاجم لوح مسلّح لرعية من رعايا بجاية تاجرا بلنسيا وأسره مع قاربه، حيث تضرعوا له بتحريره[31]. سنتان بعد ذلك، أسر جفن بجائي آخر مركب الميورقي رامون نجيرا (Ramon Noguera)[32]. كان المسيحيون أيضا بانتظام يتشلون من أسرهم. ففي 1318، أعاد ميورقيون إلى الملك 3 ليفر و10 سو، وهو المبلغ الذي دفع سلفا لفديتهم[33]. وفي 1320، أعطى برينجر (Berenguer) كمندور (commandeur) أوستول (Hostoles) والمرسيداريون بجيرون (Mercédaires de Gérone)، 100 سو إلى جيلام دو بيترا لمساعدته على دفع فدية ابنه مع عدد من مرافقيه المحتجزين ببجاية[34]. وفي نفس السنة تفاوضت السلطات الميورقية على تبادل ثمانية وأربعين مسلما مقابل عشرة أسرى مسيحيين ببجاية[35]. لكن إذا ما نظرنا في توزيع 100

(29)ARM, *Reales cedulas*, vol. 6, f. 28 (24/11/1319), éd.*Ibid.*, n° 1356.

(30) ARM, *Gobernació*, 4389, f. 30r bis (1331), cité par M. D. López Pérez, *La Corona de Aragón y el Magreb en el siglo XIV (1331-1410)*, Barcelone, 1995, p. 714.

(31) ACA, C., Rg. 592, f. 26v-27r (18/5/1337).

(32) ARM, LLC, 1, f. 243r (11/2/1339), cité par López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 714.

(33) ARM, RP 3766, f. 138r (3/10/1318).

(34) ACA, *Monacales* 1276, f. 5r-6r, cité par J. W. Brodman, *Ransoming Captives in Crusader Spain. The Order of Merced on the Christian-Islamic Frontier*, Philadelphie, 1986, p. 105.

(35)ARM, *Realescedulas*, vol. 6, f. 75v-76r (25/9/1320), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1402.

ليفر التي منحها ملك ميورقة لفداء سبعة وعشرين أسيرا فقيرا، بين أكتوبر 1320 وفيفري 1321، لا نجد إلا حالة واحدة بالنسبة لبجاية، في حين أنّ واحدا وعشرين تمّت فديتهم في سبتة(36). وبين 1325 و1367، لم ينص إلا على فديتين فقط: صاحب لوح برشلوني في 1326(37)، وأشخاص من مرسية في 1348(38).إلى غاية 1370، كان الأسرى إذن نادرين في بجاية ولم يكونوا كلهم نتيجة أعمال القراصنة المحليين. في العديد من الحالات، كانوا تجارا حاضرين في المدينة وسجنهم السلطان أو ممثلهم للضغط على القوى الأوروبية(39). جلبوهم أحيانا إليها وباعهم قراصنة موانئ مسلمة أخرى، على غرار ماجرى في 1334 عندما استولى لوح سبتي مسلّح على مركبين كتالانيين وحملهما إلى بجاية(40).

(36) ARM, RP, *Dades*, vol. IVbis (livre de Pere Burgues), f. 88r-v (octobre 1320-février 1321), éd. *Ibid*., n° 1411.

(37) Éd. A. de Capmany y Montpalau, *Memorias históricas sobre la marina, comercio y artes de la antigua ciudad de Barcelona*, Madrid, 1779-1792, rééd. Barcelone, 1962, n° 120 (18/6/1326).

طلب قضاة المدينة ببرشلونة من القناصل في مملكة تونس مساعدتهم على هذا التحرير.

(38) ACA, C., Rg. 886, f. 221r (12/4/1348).

(39) هي حالة المرسيليين الذين سجنوا في 1314 بينما كانوا يتهيئون لركوب البحر. لا نعرف أسباب تغيير السلطات البجائية لهذا الموقف من قبل. دامت هذه القضية التي عبّأت سلطات مرسيليا على الأقل حتى 1317.

AM, HH 311 (3 actes, du 2 au 21/9/1314) ; AM, AA 141 (17/12/1317).

(40) ACA, C., Rg. 466, f. 8r-v (5/7/1334).

كتب ملك أراجونة إلى سلطان المغرب الأقصى ليطلب منه إنصافا ضد رجال سبتة، لوجود سلم بين الملكين. أنظر أيضا في 1324 حالة ابن الجندي الذي شكّ فيه جاك الثاني الأراجوني بكونه غرناطيا، حيث باع رعايا لاكورونيا إلى بجاية. في رسالة بعث بها إلى الملك، أجاب سلطان غرناطة بأن هذا الرجل ليس من رعيته.

Éd. M. Alarcón y Santón, R. García de Linares, *Los documentos árabes diplomáticos del Archivo de la Corona de Aragón*, Madrid-Grenade, 1940, n° 23, p. 47-49 (29 *dū l-hiğğa* 724 / 17 décembre 1324).

لم يكن إذن التغيير في بداية القرن الرابع عشر جذريا[41]، وخلال أكثر من نصف قرن، بقيت أعمال القراصنة البجائيين معزولة، دون إجراء مشترك مع التهديد المسيحي في الفترة، خصوصا التهديد الكتالاني[42].

2) بجاية، ميناء القرصنة المنظّمة: نهاية الربع الأخير من القرن الرابع عشر – الربع الأول من القرن الخامس عشر

تغيّرت الوضعية بداية من منتصف سنوات 1360، كما يشهد على ذلك ابن خلدون: "فتمت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل إفريقية لغزو بلادهم وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة[43]". لكن في الواقع لم تتضاعف الوثائق حول القرصنة البجائية إلا بداية من سنوات 1370. تتفق ثلاث سلاسل من المعطيات على تحديد فترة أزمة تمتد من الربع الأخير من القرن الرابع عشر إلى الربع الأول من القرن الخامس عشر: بلاغات حول حضور القراصنة البجائيين في المياه المسيحية، وبعثات الفداء والفداء الشخصي للأسرى.

تضاعفت حالات الاستيلاء على السفن وبلاغات حضور أساطيل القراصنة في المياه المسيحية في الواقع في هذه السنوات. ففي 1370 نبّه محلفو

(41) لم تتصاعد حالات القرصنة الملموسة في الوثائق في سنوات 1310 بسبب المعاهدات المبرمة مع ملوك أراجونة وميورقة، التي أدت إلى غزارة المراسلات الدبلوماسية.

(42) A. Díaz Borrás, *Los orígenes de la piratería islámica en Valencia : la ofensiva musulmana trecentista y la reacción cristiana*, Barcelone, 1993, p. 19.

نظمت جنوة وبيزا في 1357 سوية أسطولا من ستة أجفان موجهة لضمان أمن تجارهما وملاحقة القراصنة. غير أنه يلاحظ أن الوثيقة استطردت حول الخطر الكتالاني ولم تقل شيئا عن القراصنة المغاربة.

ASP, *Comune* A (*Instrumentari*), 29, n° 24, f. 113r-116v (20/4/1357).

(43) البربر، 3، ص 117. كتب قسم من هذا النص في حوالي 796/ 1393، لأنه أنهى قصته مؤقتا حول السلالة الحفصية بعد وفاة أبي العباس في صفحات بعد ذلك (نفسه، ص 124).

ميورقة إلى وجود قاليوطة لمغاربة بجائيين في الجهة[44]. وفي السنة الموالية نبّه المحلفون في بلنسية من جديد قضاة إبيزا إلى تهديد قاليوطة بجائية[45]. وفي 1376، وصل خبر إلى ميورقة حول تسليح بجاية لمراكب مختلفة[46]، وفي السنة الموالية أبلغ ملك أراجونة حاكم ميورقة بتسليح أمير بجاية لسبعة شواني وقاليوطات باثني وعشرين منصة ومركب (fuste) بمجاديف آخرين بهدف المجيء إلى مياه المملكة[47]. تجددت هذه البلاغات بفواصل متقاربة في 1380 [48]، و1382 [49]، و 1393 [50]، و1396 [51]، و 1398 [52]، و1400 [53]، و1407[54]

(44) AMV, *Claveria Comuna*. *Manuel d'Albarans i Censals*, I-3, f. 52r (22/4/1370).

(45) Id., I-5, f. 2r (29/5/1371).

نبّهت ميورقة أيضا بلنسية إلى نفس الخطر. Id. (2/6/1371)

(46) ARM, LLC, 42, f. 154r (2/10/1376), cité par López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 725.

(47) ACA, C., Rg. 1437, f. 47v (14/7/1377).

(48)إشاعات تسليح يخت وقاليوطتين ببجاية.

ARM, LLC, 45, f. 62v (27/8/1380), cité par López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 726.

(49) AMV, *Claveria Comuna*. *Manuel d'Albarans i Censals*, I-12, f. 43r (14/5/1382).

انتشرت إشاعة بخصوص يختين وقالوطتين.

(50) AMV, LLM, g3-5, f. 188v (23/5/1393), cité par E. Vidal Beltran, *Valencia en la época de Juan I*, Valence, 1974, p. 230. نجد مركبين قرب كليرا خرجا من بجاية أياما قبل ذلك

(51) ARM, LLC, 69, f. 120r (9/6/1396), cité par López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 726.

(52) ACA, C., Rg. 2357, f. 111v-112r (19/4/1398).

أوصي الميورقيون باليقظة الكبيرة تحسبا لهجوم أسطول قادم من بجاية.

(53) ARM, AH 77, f. 90 (26/5/1400), éd. P. Macaire, *Majorque et le Maghreb au XVe siècle*, Doctorat de troisième cycle, sous la direction de Ch.-E. Dufourcq, Université Paris X, 1977, appendice p. 502-503=

و1411[55]. نجد حالات أخرى لمراكب مسلمة دون توضيح أصولها، لكن بجاية كانت هي المدينة الوحيدة المشار إليها بوضوح في هذا الوقت كقاعدة للقراصنة. وتبيّن حسابات أندرياس دياز براس (Andrés Díaz Borrás) انطلاقا من الأرشيف البلنسي تطورا متناميا لهذا النشاط:

جدول 12: بلاغات حضور القراصنة المسلمين في بلنسية (1350-1399)[56]

1389-1390	1389-1380	1379-1370	1369-1360	1359-1350
27	39	12	0	1

إنّ بعثات الفداء التي أرسلها الثالوثيين (Trinitaires) والمرسيداريين (Mercédaires) أو ديوان الرحمة (Misericordia) بجنوة[57] هي أيضا شاهد حسن على هذه الأزمة:

=روى صاحب قارب قادم من المغرب دخول مرتد في القرصنة المنظّمة وتسليحه أربعة يخوت كبيرة وستة قاليوطات من بجاية وبونة بهدف مهاجمة ميورقة.

(54) AHCB, *Cartas Comunas Originals*, 1406-9, f. 74 (16/4/1407), cité par N. Coll Julià, « Aspectos del corso catalán y del comercio internacional en el siglo XV », *Estudios de historia moderna*, IV, 1954, p. 161.
أخبرت تراجونة بترك ستة سفن « sis fustes de rems, entre galee e galiotes armades » لبجاية لمهاجمة المسيحيين.

(55) AMV, LLM, g3-10, f. 94r (9/1/1411).

أبلغ البلنسيون برسالة من محلفي قرطاجنة بمجيء يخت ولوح من بجاية إلى المرية بنية ممارسة القرصنة على السواحل المسيحية.

(56) D'après Díaz Borrás, *Los orígenes*, *op. cit.*, p. 78. A. Díaz Borrás, R. Cariñena Balaguer, « Corsaris valencians i esclaus barbarescs a les darreries del segle XIV : una subasta d'esclaus a Valencia el 1385 », *estudis castellonensc*, 2, 1984-1985, p. 446.

(57) أنشأ في 1403 بجنوة جهاز مكلّف بفداء الأسرى، وهو ديوان الرحمة.

G. Petti Balbi, « Il consolato genovese di Tunisi nel Quattrocento », *Archivio storico italiano*, 576, 1998, p. 231.

جدول 13: بعثات فداء الأسرى ببجاية (1370–1425)

التاريخ	المدينة	المفدون	أمكنة الفداء
20/ 6/ 1373	برشلونة	2 مرسيدريين	مملكة تونس وبجاية وقسنطينة[58]
18/ 2/ 1379		فرانسيسكان	بجاية[59]
2/ 9/ 1382	برشلونة	بعثة ثالوثية	بجاية[60]
15/ 6/ 1385	ميورقة	نفسها	بجاية[61]
1388	برشلونة	2 مرسيدريين	بجاية[62]
1398	ميورقة	مرسيدريون	بجاية (وغيرها)[63]
29/ 5/ 1398	مرسيليا	1 ثالوثي	بجاية[64]
1400	برشلونة	ثالوثيين	بجاية وتونس[65]

(58) ACA, C., Rg. 1389, f. 96v-97r.

(59) منح البابا كليمون الثالث (Clément VII) صكوك الغفران للأشخاص الذين ساهموا في فداء فرانسيسكنيين و350 مسيحي في بجاية.

G. Golubovitch,*Biblioteca bio-bibliografica della Terra santa e dell'Oriente francescano*, V, Quarrachi, 1927, p. 237.

(60) ACA, C., Rg. 1438, f. 161r.

(61)ARM, LLC, 419, f. 3r, éd. P. A. Sancho, « La redención de cautivos por los frailes Trinitarios », *BSAL*, 8, 1900, p. 336.

(62)Archivo Histórico Nacional (Madrid), *Clero*, carp. 122, n° 14, cité par Brodman, *Ransoming captives*, *op. cit.*, p. 112-113.

(63) ARM, LLC, 74, f. 100v (11/7/1398), cité par López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 724.

(64) ADBR, 351E 79, [f. 33v].

(65) G. Tellez, *Historia general de la Orden de Nuestra Señora de las Mercedes*, cité par M. T. Ferrer i Mallol, « La redempcio de captius a la corona catalano-aragonesa, siglo XIV », *AEM*, 15, 1985, p. 291.

أفدى الأخ برنات دسبلا (Bernat Despla) كمندور تولوز والأخ أرنو دارسونس (Arnau Darcens) كمندور كاركسونة 128 أسيرا بتونس وبجاية. يجب أخذ الأرقام التي أعطاها جابريال تيلاز (Gabriel Tellez)، الذي كان أحد مؤرخي الجماعة في القرن السابع عشر، بحذر. ربما مغالاته في دور بعثات جماعته في الفداء، لكن أيضا استخفاف مكانة بجاية، التي انطمست في القرن السابع عشر أمام الجزائر وتونس.

2/ 8/ 1403	برشلونة	2 مرسيدريين	بونة وبجاية[66]
1404	برشلونة	ثالوثيين	بلاد البربر[67]
31/ 3/ 1404	ميورقة	2 مرسيدريين	بجاية[68]
6/ 6/ 1410	ميورقة	نفسه	بجاية وتونس وبونة والقل وقسنطينة[69]
23/ 12/ 1424	جنوة	ديوان الرحمة بجنوة	مملكة تونس[70]
27/ 2/ 1425	جنوة	نفسه	مملكة تونس[71]
5/ 3/ 1431	جنوة	نفسه	مملكة تونس[72]

تركّزت هذه البعثات إذن أساسا في الربع الأخير من القرن الرابع عشر والربع الأول من القرن الخامس عشر.

---

(66) ACA, C., Rg. 2246, f. 65r-v, éd. D. Girona Llagostera, *Itinerari del rei Marti (1396-1410)*, Barcelone, 1916, p. 118-119.

(67) اعترضت يخوت القرصنة القشتالية للكونت بيري نينيو (Pere Niño) في خليج بجاية قاليوطة أراجونية، التي كانت تحمل الإخوان الثالوثيين لفداء الأسرى في بلاد البربر.

El Victorial, crónica de don Pedro Niño, conde de Buelna, por su alférez Gutierre Diez de Games, éd. J. de Mata Carriazo, Madrid, 1940, p. 120.

(68)ARM, AH 140, f. 52v, éd. Macaire, *Majorque et Maghrib*, *op. cit.*, p. 518.

كتب حاكم ميورقة إلى أمير بجاية ليبلغه بقدوم المرسيداريين جوهان سريرا وجوهان منتجوت. هل يتعلق الأمر بنفس بعثة 1403، أو أنّ الأخوين غادرا إلى بجاية من جديد للبحث عن أسرى جدد؟ انقضى وقت كاف بين الوثيقتين لتفضيل الفرضية الثانية.

(69)ARM, AH 91, f. 96, éd. Macaire, *Majorque et Maghrib*, *op. cit.*, p. 532.

(70)ASG, AS, 508, n° 572.

كلّف ديوان الرحمة أمبروجيو سبينولا (Ambrogio Spinola) بمعالجة تحرير الأسرى الذين هم في يد ملك تونس.

(71)ASG, AS, 509, n° 75.

أرسل جيوفاني دي لرفاريا (Giovanni di Lorvaria) لفداء أسرى في مملكة تونس.

(72) ASG, AS, *Litterarum*, Rg. 2, f. 354, n° 863, cité par N. Jorga, « Notes et extraits pour servir à l'histoire des croisades au XVe siècle », *Revue de l'Orient Latin*, 6, 1898, p. 100.

لكن فضلا عن بعثات الفداء الجماعي الرسمية، يبيّن عدد كبير جدا من الوثائق الفداء الشخصي والخاص. ويمكن أن يتعلق بعقود موثقين مرتبة بتدخل تاجر في الصفقة، وتبيّن الوثائق العامة المساعدة المالية التي قدمها الملك أو المدينة أو تراخيص الصدقات. وأخيرا، باحتوائها في الغالب على تبرعات لفداء الأسرى، توضّح الوصايا أحيانا اسم الشخص موضوع الفداء ومكان احتجازه. إنّ الجدول الموالي – المقسم إلى عشريات- يمثّل عدد الأسرى المحتجزين أو المحررين في بجاية[73].

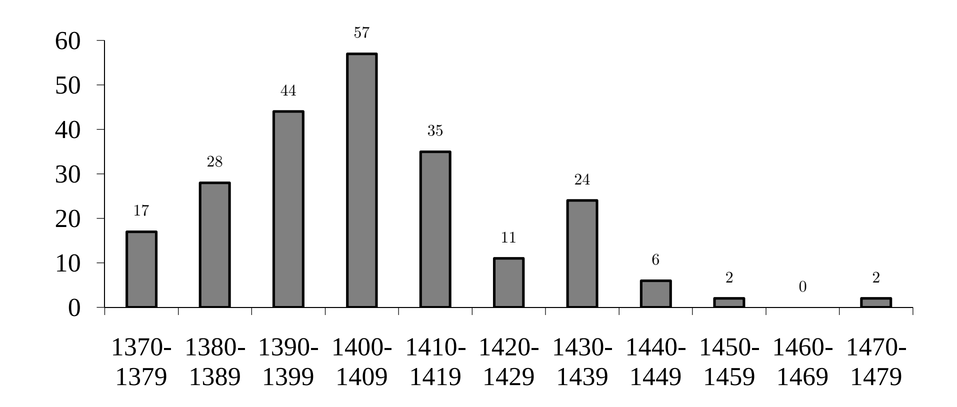
جدول 14: عدد الأسرى المحتجزين في بجاية (1370–1479)

147 -0 147 9	146 -0 146 9	1445 -0 1459	144 -0 144 9	143 -0 143 9	142 -0 142 9	141 -0 141 9	140 -0 140 9	139 -0 139 9	138 -0 138 9	-1370 1379[74]
2	0	2	6	[75]24	11	35	57	44	28	17

(73)لم يشكلوا طبعا إلا قسماً صغيراً من المجموع، لأنه لم يظهر إلا الذين استفادوا من تدخل أحد الأقارب أو المؤسسات العمومية. فضلا، فلم يقيّدوا الحالات حيث يكون مكان الاحتجاز غير موضّح.

(74) لم يظهر في الواقع الأسرى في المادة الخبرية البيزية والمرسيلية والبرشلونية والبلنسية إلا بداية من 1378.

(75) من مجموع 24 أسيرًا في هذه العشرية، سبي 22 من قارب جنوي في 1430. ASG, AS, 1779, n° 641 (10/9/1430).



يتجلي توجه واضح: بينما كانت حالات الأسر في بجاية عرضية في السبعين سنة الأولى من القرن الرابع عشر، نلاحظ ارتفاعا ملموسا ومستمرا لعدد الحالات بداية من نهاية سنوات 1370 وإلى غاية بداية القرن الخامس عشر. وهذا يؤكد ما أظهرته لنا كرونولوجية بعثات الفداء الكبرى وبلاغات مراكب القراصنة في المياه المسيحية. كانت إذن القرصنة البجائية دون نقاش أكثر نشاطا في سنوات 1375-1425[76].

تؤكد وثيقة من ديوان كتابة لاكورونيا أراجونة بتاريخ 1399 أنّ عدد المسيحيين المحتجزين في سلطنة تونس كان 1500 أسيرا[77]. يصعب التأكد من هذا الرقم الذي يجمع كل المدن القابلة لإيواء الأسرى المسيحيين (تونس وبونة

(76) لاحظ هنري براسك بالنسبة لصقلية أن التهديد الحفصي كان مقلقا بداية من حوالي 1360.
H. Bresc, « Course et piraterie en Sicile (1250-1450) », *AEM*, 10, 1980, p. 753. وسجّل جيلين من أبراج الحراسة على سواحل صقلية، الأول في 1370-1380 والثاني في 1406-1410. أنظر أيضا:

F. Maurici, « Le difese costiere della Sicilia (secoli VI-XV) », *Zones côtières littorales dans le monde méditerranéen au Moyen Âge : défense, peuplement, mise en valeur, Actes du colloque international organisé par l'École française de Rome et la Casa de Velázquez, Rome, 23-26 octobre 1996*, dir. Jean-Marie Martin, Rome-Madrid, 2001 (*Castrum*, 7), p. 195-201.
(77) ACA, C., Rg. 2242, f. 136v (17/4/1399).

والقل وقسنطينة والجزائر). لكن إذا كان مبالغا فيه لأسباب مرتبطة بالمفاوضات[78]، فإنه ليس ببعيد الاحتمال بالنظر إلى الارتفاع الملحوظ في نهاية القرن الرابع عشر.

تجمع المصادر إذن على إعطاء صورة للتطور العام للقرصنة في البحر المتوسط الغربي، الذي يبدأ في 1360-1370 ويستمر خلال الفترة التي تغطي ما بين خمسين وخمسة وسبعين سنة.

تبيّن دراسة أماكن الأسر أنّ بجاية كانت خلال هذه السنوات القاعدة الرئيسية للقرصنة بالمغرب. لهذا، نتوفر على الجرد الذي أجراه أندرياس دياز بوراس في سجلات رسائل (Llettres Missives) الأرشيف البلدي ببلنسية، التي دوّنت التبرعات الممنوحة لمساعدة فداء الأسرى[79]. وأيضا إحصائيات ماريا ثريزا فرار إي مالول (Maria Teresa Ferrer i Mallol) انطلاقا من الأرصدة البرشلونية[80]، وإحصائيات ماريا دلوراس لوبيز بيراز بالنسبة لبرشلونة وميورقة[81]. بين 1375 و1399، من مجموع 66 تبرعا في مدينة بلنسية وجّه الثلث منه (31،8 ٪)، لفداء الأسرى المحتجزين في بجاية. منح الثلث الآخر (33 ٪) للبلنسيين المسجونين في تلمسان (بمعنى لدى السلطنة العبد الوادية دون شك). وتوزّع الباقي بين بونة (ستة أسرى)، وقسنطينة (ثلاثة)، وتونس (واحد) والجزائر (واحد) ومدن سلطنة غرناطة[82]. وخلال العشرية الأولى من القرن الخامس

(78) López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 162.

(79) A. Díaz Borrás, « Atención valenciana a la redención de cautivos cristianos », *Estudis castellonensc*, 3, 1986, p. 352-353.

(80) Ferrer i Mallol, « La redempcio de captius », art. cité, p. 259.

(81) López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*,*op. cit.*, p. 720 et tableau p. 716-719.

(82) Díaz Borrás, « Atención valenciana », art. cité, p. 352-353.

عشر، كان نصف الأسرى البلنسيين المتواجدين بالمغرب محتجز في بجاية[83]. يعطي جرد ماريا دلوراس لوبيز بيراز نتائج مماثلة للفترة 1381-1413: فمن مجموع 87 أسيرا، كان 39 منهم محتجزين في بجاية (أي 46،06 ٪)، و21 في بونة (23،59 ٪)، و10 في تونس (11،23 ٪)، و8 في قسنطينة (8،98 ٪)، ولكن اثنين فقط (2،24 ٪) في مملكة تلمسان وهنين والجزائر وواحد في تنس ومملكة فاس و"بلاد البربر". ونلاحظ هيمنة بجاية دائما خلال هذه السنوات، حتى وإن بيّن هذا الحساب حصة قليلة لتلمسان. وأخيرا، نحصل على نفس النتائج انطلاقا من طلبات ترخيص الصدقات التي منحها ملك أراجونة للأسرى أو لعائلاتهم بين 1371 و1410[84].

3) تراجع بعد 1430

بداية من الربع الثاني من القرن الخامس عشر، انخفض نشاط بجاية القرصني. وهذه ظاهرة عامة بالمغرب، حتى وإن بدت غير متساوية. وأصبحت إشارات الأسرى قليلة، وأيضا الفداء الشخصي. وأصبح القراصنة المسلمون تدريجيا أقلية مقارنة مع المسيحيين قرب سواحل شبه الجزيرة الإيبيرية. ومثّلوا كذلك قسما هاما من البلاغات إلى غاية 1430[85]، لكن بعد هذا التاريخ

---

(83) يمثلون أيضا 43 ٪ من الأسرى في عشرية 1410-1419 و38 ٪ بالنسبة في العشرية اللاحقة. من خلال جرد:

A. Díaz Borrás, *El Miedo al Mediterráneo : la caridad popular valenciana y la redención de los cautivos bajo poder musulmán 1323-1539*, Barcelone, 2001, p. 197 s. (من خلال السجلات التي تحوي مساعدات مجلس المدينة لفداء الأسرى)

(84) بجاية 15 حالة (35،71 ٪)، وبونة 5 حالات (11،9 ٪)، وتونس والجزائر 3 حالات (7،14 ٪)، ودلس وتلمسان حالتان 2 (4،76 ٪). Ferrer i Mallol, « La redempcio de captius », art. cité, p. 259

(85) كانت 92 ٪ بلاغات بالقراصنة بين 1370 و1379، و95 ٪ بين 1380 و1389، و87،5 ٪ بين 1390 و1399، و85 ٪ بين 1400 و1409، و81 ٪ بين 1410 و1419، و78 ٪ بين 1420 و1429.

A. Díaz Borrás, « L’estudi de la pirateria a través dels avisaments costaners. Replegament cristià i setge islàmic a la València de la transició à la modernitat : 1480-1520 », *AEM*, 20, 1990, p. 277.

استمرت مكانتهم في التقلص[86] لصالح الجنويين. ونجري نفس المعاينة انطلاقا من الأرشيف الجنوي أو البندقي في القرن الخامس عشر، حيث تتوفر الوثائق المرتبطة بالقرصنة المسيحية (وخصوصا الكتالانية) في حين يظهر المسلمون بقلة[87].

لا يعني هذا اختفاء المشكل كلية. فالمراسلات الدبلوماسية بين سلطان تونس وجنوة وبرشلونة والبندقية استمرت في إظهار نشاط القراصنة المغاربة. لكن لم تعد بجاية مدينة كبيرة للقراصنة والأسرى كما كانت عليه خلال الفترة السابقة، وتركت مكانتها شيئا فشيئا للجزائر، التي أصبحت قاعدة القرصنة الرئيسية في إفريقيا الشمالية. إنّ تحليل أماكن أسر الأسرى البلنسيين بين 1400 و1479 يبيّن بوضوح هذا الانتقال بداية من سنوات 1430[88].

جدول 15: أماكن احتجاز الأسرى البلنسيين في المغرب (1400–1479)

السنوات	1400–9	1410–9	1420–9	1430–9	1440–9	1550–9	1560–9	1460–9	1470–9
الكدية	-	-	1	1	-	-	-	-	2
الجزائر	14	10	4	1	16	12	12	4	67
أرزيلة	-	-	-	1	1	-	-	-	2
بونة	13	4	3	1	1	-	-	-	22
بجاية	46	24	14	6	6	6	6	4	107
القل	-	4	-	-	-	-	-	-	4
قسنطينة	1	4	-	-	2	1	1	-	8

(86) 48% (1430-1439), 32,5% (1440-1449), 27% (1450-1459), 14% (1460-1469), 33% (1470-1479), 35% (1480-1489), 30% (1490-1499). *Ibid.*

(87) نجد عدة حالات في سجلات محاضر مجلس شيوخ البندقية في أرصدة الأرشيف الجنوي *Archivio Segreto*. تتعلق فيها شؤون القرصنة بصفة آلية تقريبا بالكتالانيين.

(88) انطلاقا من أرقام دياز يوراس.

Díaz Borrás, *El Miedo al Mediterráneo*, *op. cit.*, p. 197-215, 227-236 (dépouillements de AMV, LLM, g3-6 à g3-11, et Manual de consells, A-31 à A-41).

دلس	6	-	-	-	-	-	-	-	6
فاس	4	1	-	-	1	-	-	-	7
مستغانم	2	-	-	-	-	9	9	-	13
وهران	-	1	-	1	2	-	-	-	5
طنجة	-	-	1	-	4	-	-	-	5
تلمسان	-	-	-	-	-	4	4	1	5
تونس	4	7	14	4	4	5	5	2	42
بلاد البربر	4	1	1	-	9	1	1	8	25
أرض المور (المغرب)	1	-	-	2	1	-	-	14	20
المجموع	95	56	38	17	47	38	38	33	340
حصة بجاية	48,4	42,9	36,8	35,3	12,8	15,8	15,8	12,1	31,5
حصة الجزائر	14,7	17,9	10,5	5,9	34	31,6	31,6	12,1	19,7

بقيت بجاية في بداية القرن مكانا كبيرا لسبي المسيحيين في المغرب. نجد فيها دون شك عدة أشخاص تمّ سبيهم خلال نهب توريبلانكا (Torreblanca) في 1397، ولم يتم بعد فديتهم. وبداية من عشرية 1440، تجاوزتها الجزائر، لكنها بقيت مع تونس ميناءً هاما لفداء الأسرى المسيحيين. إنّ التراجع الملحوظ للنشاط في بجاية خلال الثلث الأول من القرن الخامس عشر كان إذن تقريبا معاصرا لازدهار الجزائر كميناء قرصنة.

بيد أن بجاية مثلت دور قاعدة قرصنة في نهاية القرن مع وصول الأتراك على غرار بيري رايس. كان هذا الأخير مراهقا عندما رافق خاله القرصان كمال رايس، الذي أرسله السلطان بايزيد الثاني في 1487 على رأس أسطول لنجدة

غرناطة. وشارك في أعمال القرصنة المنظمة لخاله واستقر معه لمدة سنتين ببجاية، حيث أصبحت قاعدة عملياتهم في البحر المتوسط الغربي(89). لكن كان استقرار القراصنة الأتراك متأخرا، لأن بيري رايس يروي أنه لم يأت أي تركي إلى بجاية(90). يشير ليون الإفريقي أيضا إلى عدد كبير من المراكب التي انطلقت من الميناء لسلب سواحل إسبانيا ويقدّم الحملة الإسبانية في 1510 كردة فعل على القرصنة(91). وهذا ما يؤكده نص المريني، الذي يتحدث عن ذهاب عدة بجائيين في قرصنة منظمة لمهاجمة المسيحيين بعد سقوط غرناطة(92).

كانت القرصنة البجائية إذن على امتداد فترتنا نشطة، لكن لم تكن لها نفس الديناميكية. كانت في المرحلة الأولى ظاهرة هامشية وعرضية. وبداية من الربع الأخير من القرن الرابع عشر، أصبح الميناء وكرا حقيقيا للقراصنة وأحد المراكز الرئيسية لاحتجاز الأسرى المسيحيين في المغرب. لكن لم تستمر هذه المرحلة- حيث كان ابن خلدون شاهدا عليها- إلا خمسين سنة. بداية من حوالي 1425، ضعفت الحركة، لكن دون اختفاء كلي أبدا، في حين أخذت الجزائر المناوبة شيئا فشيئا.

II- تنظيم القرصنة

بعيدا عن كونها هامشية ومختفية، كانت القرصنة نشاطا أساسيا للمدينة، على الأقل في فترة تطورها الكبير. عبّأت رجالا كثيرين، حيث تصعب الإحاطة بمنظرهم، وترجمت بتطوير أسطول هام للقيام بعمليات في قسم كبير من البحر

(89) E. Esin, « La description des côtes algériennes de Pîrî Re'îs », *Studies on Turkish-Arab relations*, Istanbul, 1986, p. 49, 55.

(90) Pīrī Reis, trad. S. Soucek, « Tunisia in the "Kitab-ı bahriye" by Pīrī Reis », *Archivum Ottomanicum*, 5, 1973, p. 149.
يريد دون شك القول بعدم تنصيب أي تركي لقاعدته مسبقا.

(91) Léon l'Africain, p. 360-361.

(92) المريني، ص 249-250.

المتوسط الغربي، بعيدا عن بجاية في الغالب. تستدعي أهمية هذه الظاهرة التساؤل عن مشاركة الحكم المحتملة وعن وجود "قرصنة منظمة" بجائية.

1) الفاعلون في القرصنة

إنّ النص الثمين جدا لمعرفة هذا التنظيم هو الوصف الذي يعطيه لنا ابن خلدون لسنوات 1360: "فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ويصطنعون الأسطول ويتخيرون له أبطال الرجال، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة، فيتخطفون منها ما قدروا عليه، ويصادمون ما يلقونه من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالبا ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى"[93]. يقدّم ابن خلدون إذن القرصنة كمشروع اقتصادي حقيقي يعود بالفائدة. استطاعت الأرباح الأولى في الغالب تمويل حملات أخرى، خصوصا وأن الاستيلاء على المراكب طوّر القدرة البحرية للأساطيل البجائية.

لكن لا نعرف تماما هوية القراصنة. لا يخرجون من المجهول إلا عندما يؤسرون ويحاكمون في أوروبا. في هذا المجال، نجد أنّ المادة الخبرية البلنسية ثمينة. عندما يريد أحد بيع أسير، يجب عليه مسبقا طلب اعتبار سببه شرعيا. ولهذا يمتثل المسلم أمام المشرف الملكي العام الذي يسأله عن هويته وأصله وظروف أسره. حتى يعلنها "حربا جيدة"، يجب إذن أن يكون من بلد ليس له علاقة سلم مع مملكة أراجونة، أو أن يكون تفرغ بنفسه لأعمال القرصنة. لكن نتفهم جيدا بالنظر للرهان بأن تصريحات المسلمين تشير في حالات قليلة إلى مهنتهم القرصنية. من جهة أخرى، تفرغت بعض المراكب ببساطة إلى تجارة نزيهة، كما تشير إليها حمولات التجارة التي تمت مصادرتها. رغم كل ذلك، فإن "اعترافات المسلمين (أبناء سارة)" مصدر ثمين لمعرفة طاقم سفن القرصنة. ففي 1423، قدّم البلنسي فرانشيش دو بالفيس -(Francesch de Bellvis) صاحب يخت مسلّح- عدة

(93) العبر، 4، ص 903، البربر، 3، ص 117 (ترجمة معدّلة).

مسلمين استولي عليهم في بحر سردينيا على متن قاليوطة بجائية ذات عشرين منصة[94]. واعترف الأسرى بخروجهم تسعة أشهر ونصف قبل ذلك بهدف مهاجمة المسيحيين، حتى – كما قالوا- وإن لم يكن لهم وقت لأسرهم.

جدول 16: طاقم قاليوطة بجائية أسرت في 1423

الاسم	العمر	الأصل	المهنة	الحالة العائلية
محمد بن قاسم	حوالي 50 سنة	ولد بتونس، يعيش في بجاية	بائع فواكه	دون زوجة وأولاد
سليمان بن محمد	20 سنة	تونس		
إبراهيم بن محمد	20 سنة	بجاية	تاجر	له أب وأم ببجاية
أحمد بن علي	حوالي20 سنة	بجاية	بائع خضر	أبواه في بجاية
أحمد بن علي	30 سنة	بجاية	كانلدور[95] لأجواخ كتانية	دون عائلة
علي بن هدار	30 سنة	تركيا، قدم إلى بجاية	كان صانع أقواس وفارس	

(94) ARV, *Batllia*, Rg. 193, f. 60r-68r.

(95)كانت وظيفة الكانلدور (*canelador*) أو الكانلتور (*canelator*) هي إنتاج الخيوط المستعملة في الصناعة النسيجية، بمعنى لفّ هذا الخيط حول السفينة. وكانت هي واحدة من الحرف الحقيرة في النسيج.

D. Cardon, *La Draperie au Moyen Âge. Essor d'une grande industrie européenne*, Paris, 1996, p. 540-541.

علي بن ناصر	20 سنة	قسنطينة، قدم إلى بجاية	*Rapaç*[96]	دون زوجة وأولاد
إبراهيم بن رحمان	18 سنة	بجاية	مربي حيوانات	
علي بن أحمد	30 سنة	بجاية	بائع خضر	دون عائلة
قاسم العوني	30 سنة	بجاية	بائع خضر	دون زوجة وأباء
عبد الله المالقي	30 سنة	مالقة	*Lavrador*	دون زوجة وأباء
علي بن أحمد	25 سنة	بجاية	جزار	دون زوجة وأباء
محلب عبد الناصر	25 سنة	بجاية	*Lavrador*	دون زوجة وأولاد، له أب
علي عبد الناصر	28 سنة	قسنطينة (مملكة بجاية)	جزار	دون زوجة ولا آباء
صالح بن محمد	25 سنة	تونس، يعيش في بجاية	تاجر فطائر	دون زوجة ولا آباء
علي زيان	30 سنة	مليانة (مملكة تلمسان)	*Lavrador*	دون زوجة
إبراهيم بن علي	25 سنة	بجاية	بائع خضر	دون زوجة وأولاد
محمد بن ميمون	30 سنة	قسنطينة	نسّاج	دون زوجة وأولاد

(96) هذه الكلمة ليست واضحة في هذا السياق. تكفّل هذا الرباص ببهائم قائد بجاية. صنّفه خوسي متتالبو من بين المهن المنزلية أو الحرفية.

J. Hinojosa Montalvo, « Tácticas de apresamiento de cautivos y su distribución en el mercado valenciano (1410-1434) », *Questions valencianes*, I, 1979, p. 29.

خليفة بن ماصوت	22 سنة	مستغانم (مملكة تلمسان)	*Lavrador*	دون زوجة وأولاد
سليمان بن عيار	30 سنة	أرض بجاية	*Lavrador*	دون زوجة، ولا أولاد وآباء
علي بن أحمد	20 سنة	بجاية	كانلادور أجواخ كتانية	دون زوجة، له أب وأم
أحمد بن علي	40 سنة	بجاية	*Lavrador*	دون زوجة

كان أغلب المساجين من بجاية، حيث هي منشأ ميناء القاليوطة، أو من جهتها[97]. لكن كان بعضهم من تونس وقسنطينة وسلطنة تلمسان (مستغانم ومليانة) والأندلس (مالقة). وكان أحدهم من تركيا ووصل إلى بجاية عبر البر[98]. كانوا رجالا شبانا لهم – باستثناء رجلين بين سن 40 و50 سنة- ما بين 18 و30 سنة[99]، وهذا لا يفاجئنا بالنظر إلى طبيعة مهمتهم. أكثر أهمية كانت وضعيتهم الاجتماعية. دون شك بتنبؤهم بفديتهم الممكن، طلب المشرف الملكي معرفة ما إذا كان للأسير أبوين في المغرب أو أحدهما، لكن لم يكن لواحد منهم امرأة ولا أولاد. وأقرّ بعضهم بافتقادهم للعائلة[100]. يجب أن نحلل المهن بجذر. فلم يقرّ ولا

(97) من المحتمل عندما يصرح الأسير بـأصله، يشير في الغالب إلى المدينة الرئيسية حيث تجلس السـلطة السياسية، وهذا ما يدل على أنه ليس من المدينة نفسها.

(98)أنظر أيضا في 1409، قارب مسلّح « barca armada » انطلق من الجزائر وأسر. كان في طاقمه علي، الذي أكد أنه من الجزائر بمملكة تلمسان، وقائد فاس وعلي التلمساني والحسن من سلطنة تـونس ومحمد البجائي وموسى بن مربلة من مملكة غرناطة، وآخرون قدموا من المغرب الأقصى.

ARV, C. 626 (« libre de confessions de sarrahins dels anys 1409 e 1410 »), éd. J. Hinojosa Montalvo, « Confesiones y ventas de cautivos en Valencia de 1409 », *Lugarzas*, 3, 1971, p. 119-120.

(99) كان معدل العمر 27،4 سنة.

(100) يمكن الاعتقاد بعدم بحث الأسرى عـن إخفـاء الأقـارب، حيـث يمكـنهم لوحـدهم أن يجعلـوهم يتطلعون إلى تحرير سريع.

واحد منهم بكونه قرصان المهنة، أو حتى بحاّر. لكن هذا غير مفاجئ، لأنّ لا أحد كانت له مصلحة في مهنة ما. هل يجب الاستنتاج بهذا القدر أنّ المهن التي أقروا بها هي مخترعة؟ ليس جليا؛ بما أنّ القرصنة لم تكن نشاطا يشغل بالضرورة كل السنة. فيمكنها إذن إنشاء تكملة ظرفية للرجال الذين يمارسون مهنا أخرى. باستثناء التركي، الذي كان رجل سلاح مهني، أقرواّ كلهم بمهن عادية جدا ومتواضعة دائما: تاجر تجزئة- وعمال (labrador) أو حرفيو نسيج. لا نعرف للأسف كل شيء حول إبراهيم بن عمار قبطان المركب، الذي توفي خلال الهجوم، كما يؤكده الذين بقوا على قيد الحياة خلال الهجوم[101]. وفي 1424، لدينا إشارة لابن عزيزة، وهو شريف بجائي، سلّح مركبا بأربعة عشر مجدافًا، وربما كان من أعيان المدينة[102]. لكن من الصعب الذهاب أبعد من هذه الافتراضات.

يعرف واحد من هؤلاء الأشخاص بدقة أكبر. ففي 1420، قدّم جوم رييرا (Jaume Riera) أمام المشرف الملكي ببلنسية أحمد بن أحمد الذي اشتراه من توما بليجري (Thoma Pelegri) صاحب يخت بميورقة. كان لأحمد 35 سنة وأصله من بجاية. ويخبرنا بكونه كان أسيرا مدة ثمان سنوات. دون زوجة ولا ولد، أقرّ مهنته كسراّج (bastarus). قادما من قسنطينة، لحق بالقل حيث وجد قاليوطة على أهبة الانطلاق مع صاحبها المسمى محمد، وهو أصيل مالقة. فهكذا أسر أحمد مع بقية أعضاء الطاقم في مياه سردينيا، حيث اقتيد إلى بلنسية. واعترف بسببه خلال الحرب الجيدة، لأنه كان رعية لسلطان تونس، فبيع بـ37 ليفر بعملة بلنسية[103].

(101) يمكن لهذا أن ينجم عن إرادة حماية قائدهم إذا ما تمّ التعرف عليه، حيث سيحكم عليه بالإعدام دون تردد.

(102) ARV, *Batllia*, Rg. 193, f. 112r (4/3/1424).

(103) Id., f. 25v-28r (1420).

كانوا إذن رجالا شبانا لم يستقروا بعد ولم ينشئوا منازل وشغلوا مكانة متواضعة في المجتمع. لكنهم لم يكونوا بهذا القدر مهمّشين أو مستأصلين، حتى وإن لم يكن أحمد بن أحمد ربما بعيدا جدا عنهم.

تبيّن قوائم القراصنة الذين أسرهم البلنسيون طواقم مجنّدة من مجمل جهات المغرب والأندلس. دون شك كانت واحدة من الميزات العامة لعالم البحر والملاحة حيث كان الحراك كبيرا. لكن يجب وضع الأندلسيين في مكانة خاصة، خصوصا أولئك الذين تركوا أرضهم في مواجهة التقدم المسيحي، حيث وجد بعضهم ملجأ في بجاية[104]. انطلاقا من فكرة تغذيتهم للحقد اتجاه المسيحيين، اعتبر بعض المؤرخين لعب هؤلاء اللاجئين دورا مهيمنا في القرصنة المغاربية[105]. حيث كانت لمعرفتهم بالملاحة وخصوصا في البلدان التي يهاجمونها دون شك مساعدة ثمينة. نجد في الواقع بعضهم في قوائم القراصنة، لكن دون أن يكون عددهم ساحقا[106]. إنّ الحادث الذي جرى في نهاية القرن الرابع عشر هو موحيا. ففي 1391، أسرت قاليوطة خوان دو سانت خوان (Joan de Sant Joan) المسلّحة، الساكن بميورقة، في مياه هذه الجزيرة ستون موريا من لاكورونيا أراجونة، غادروا

(104) D. Valérian, « Les Andalous à Bougie, XIe-XVe siècle », *Migrations et diasporas méditerranéennes, XIe-XVIe siècles*, dir. M. Balard et A. Ducellier, Paris, 2002, p. 313-330.

(105) F. Braudel, « Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577 », *RA*, 69, 1928, p. 208 : « Les Andalous ont d'ailleurs, cela ne fait aucun doute, contribué à l'accroissement de la piraterie barbaresque » ; G. Marçais, « Les Villes de la côte algérienne et la piraterie au Moyen Âge », *AIEO*, 13, 1955, p. 135 :

قوّى وصول الأندلسيين جيش "محاربي الجهاد"، لأنهم قدموا "بحقد صلب" اتجاه المسيحيين وتقنية القرصنة المنظمة التي برهنوا عليها في بلد مولدهم. حمل هذا الحكم: م. بلحميسي:

M. Belhamissi, « Le rôle de Bidjaia dans la Méditerranée aux époques hammadite, almohade et hafside », *Actes intégraux du 8e séminaire sur la pensée islamique, Bidjaia, du 25 mars au 5 avril 1974*, II, s. l., s. d., p. 71.

(106) صحيح أن القراصنة الأسرى لم تكن لهم فائدة في الإشارة إلى أصولهم من شبه الجزيرة الإيبيرية والاكتفاء بإقرارهم بالمدينة التي اختاروها لإقامتهم.

إلى بجاية بتراخيص هجرة على متن مركب جيلام جنتيل (Guillem Gentil) الميورقي. بما أنهم حملوا رخصة عبور ملكية، تبعت ذلك قضية دافع خلالها القرصان بحجة هامة: يقول بأنه تعلق الأمر بأسرى حرب جيدة، لأنّه من بين الموريين نجد الحدادين والنجارين والبحارة والصيادين، وأيضا رجالا يتقنون فنونا ومهنًا أخرى ويعرفون أماكن وموانئ وبحار لاكورونيا أراجونة. وأضاف: إذا وصلوا إلى بجاية لقدّر الله، يمكنهم أن يتسلحوا بعدة موريين، حيث يمكنهم أسر أوالتسبب في الإضرار برعايانا"، خصوصا في البليار[107]. وأخيرا في 1396، وتبعا للدعوى التي رفعها وكيل جمع من المسلمين، تمّ تحريرهم. تبيّن حجج القبطان الميورقي اعتبار المسيحيين في هذه الفترة للأندلسيين كأحد أسباب تطور القرصنة في بجاية وفي باقي موانئ المغرب.

إذا لم يكونوا بالضرورة جزءا من الأطقم، فقد لعب هؤلاء الأندلسيين من جهة أخرى دورا ملحوظا في القرصنة البجائية على امتداد السواحل الإيبيرية. في بادئ الأمر، اتهّم المسيحيون المدجنون بتشكيل "الطابور الخامس"، الجاهز لتبليغ الأعداء بالفرص. كانت الحالة الشهيرة هي نهب توريبلانكا (Torreblanca) قرب بلنسية. نزل الأسطول البجائي في وقت جرى فيه عيد هام، وهذا ما سمح

(107) ACA, C., Rg. 1994, f. 172r-v (6/7/1391) ; Rg. 1999, f. 186r-187v (20/1/1396), éd. M. T. Ferrer i Mallol,*Els Sarraïns de la Corona catalano-aragonesa en el segle XIV. Segregació i discriminació*, Barcelone, 1987, doc. 124, 136.

أنظر أيضا منح امتياز في ميورقة الذي أقصى المسلمين الذين شكّلوا تهديدا من حق الهجرة، بمعنى الحدادون، والنجارون وصناع الأسلحة والصيادون والبحارة الذين لهم معرفة بالموانئ والسواحل.

(*fabri, magistri d'axia, spaserii et aliqui pescatores et marinarii scientes portus et maritimas regni Valencie et etiam Cathalonie principatus, sequitur quod ipsi marinarii veniunt cum galeis et galeotis ad dictum regnum et alia loca et marina nostri dominii contra nostros subditos piratica exercenses*), ACA, C., Rg. 1994, f. 171v (8/7/1391), éd. J. Vincke, « Königtum und Sklaverei im aragonischen Staatenbund während des 14. Jahrhunderts », *Gesammelte Aufsätze zur Kulturgeschichte Spaniens*, 25, 1970, p. 95.

بالحصول على عدة أسرى والاستيلاء على وسائل الطقوس التي أخرجت بالمناسبة.

يمكننا طبعا الاعتقاد بالحظ، لكن من المحتمل إخطار القراصنة بهذا الحظ، حيث تحدثت كتب الأخبار المحلية عن خيانة السكان غير المسيحيين. ربما يكون يهودي قد أخبر أخاه ببجاية بالعيد، معطيا له كل التفاصيل المفيدة(108). تهم واقعية هذا الاتهام هنا قليلا، لكن الريبة تبيّن هنا جيدا كيف كان شعور سكان السواحل. بدت مساعدة الأندلسيين أيضا بمساندة سلطنة غرناطة، التي وفّرت نقطة إسناد هامة قبل الذهاب لمهاجمة السواحل المسيحية. قدموا إليها لمعرفة الأنباء الجديدة والتزود بالماء والغذاء، وهذا ما يفسّر بأن هذه الموانئ كانت مراقبة جيدا من المسيحيين. ففي 1411، نبّه محلفو قرطاجنة محلّفي بلنسية بوصول يخت ولوح بجائيين إلى المرية بالسلع، واستعدادهم مجاراة امتداد ساحل البلاد البلنسية(109). سنوات بعد ذلك في 1424، سلّح الشريف بن عزيزة البجائي مركبا وذهب في أول الأمر إلى المرية، حيث بناء على نصائح مسلمي المدينة، ذهب في قرصنة منتظمة على طول الساحل قبل أسر المسيحيين له(110).

مستأصلون آخرون، المرتدون الذين درسهم لوسيل (Lucile) وبرتلومي بن النصّار (Bartolomé Bennas sar) في الفترة الحديثة(111). في العصر الوسيط، نجد بعض حالات الرجال الذين اعتنقوا الإسلام، دون شك خلال سبيهم(112)، حيث تفرغوا للقرصنة ضد إخوانهم في الدين السابقين. ليس

(108) AMV, *Codices. Llibre de l'ofici de blanquers* (1477), cité par Díaz Borrás, *Origines*, *op. cit.*, p. 149.

(109)AMV, LLM, g3-10, f. 94r (9/1/1411).

(110) ARV, *Batllia*, Rg. 193, f. 112r (4/3/1424).

(111) L. et B. Bennassar, *Les Chrétiens d'Allah. L'histoire extraordinaire des renégats, XVIe-XVIIe siècles*, Paris, 1989.

(112)Díaz Borrás, *Origines*, *op. cit.*, p. 152.

بالإمكان قياس حجم الظاهرة، لكن ترك البعض منهم انطباعا قويا في وقت أزمة سنوات 1375–1425. تقص رواية كتاب (Llibre de Blanques) قيادة مرتد يسمى فيستا (Fusta)– حيث يعرّفه أندرياس دياز براس (Andrés Díaz Borrís) بأنه ربما القرصان فرانسيسك فيستر (Francesc Fuster)، الذي كان نشطا في هذه البحار خلال السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر- للهجوم على قرية توريبلانكا في 1397[113]. ففي 1402، تمّ الحديث في بلنسية عن هذين المرتدين المدعوين خوان دو مورفندر (Joan de Morvedre) وفيستر، اللذين تهيئا للذهاب إلى بلاد البربر للركوض في البحار[114]. لكن الأكثر شهرة كان دون شك بيري فيستر، الذي نشط بين 1396 و1409، ووضع نفسه في خدمة ملك تونس. ففي 1400، روى التاجر برنات بولو (Bernant Paulo)– الذي مارس التجارة بين ميورقة والقل- إشاعة بمقتضاها كان المرتد قد سلّح أربع شواني كبيرة وستة قاليوطات، منها النصف في بجاية والبقية في بونة[115]. وأخيرا، في 1412 نعرف أنّ مرتد - "قرصان كبير وبحار جيد" ذهب غالبا في القرصنة مع الشواني البجائية وكان يعرف جيدا سواحل جنوة- طلب من عامل بجاية رخصة لحملة ضد السواحل الليجيرية، حيث وعده بجلب ما بين ستين وسبعين إمرأة نبيلة (dominas)، مما يسمح بانتظار فدية

(113) AMV, *Codices. Llibre de l'ofici de blanquers* (1477), cité par Díaz Borrás, *Origines, op. cit.*, p. 149.

(114)*Ibid.*, p. 151.

(115)ARM, LLC, 77, f. 90r-v (26/5/1400), éd. Macaire, *Majorque et Maghrib, op. cit.*,p. 503-504.

يروى أيضا بوعده سلطان تونس مهاجمة ميناء بي (Porto Pi)، في جزيرة ميورقة إذا وفّر له الملك لهذا الغرض عشرة يخوت مسلّحة.

هامة[116]. أحيانا، يبدو أنّ بعضهم احتفظ بدينه. ففي 1381، اتّهم الجنوي أونفوريو دي بيتشاميجليو (Onofrio di Piccamiglio) بميورقة بإنشاء شركة مع وزير بجاية موّجهة لمهاجمة السفن المسيحية، حيث أنّ الجنوي شارك في الفائدة بنسبة مساهمته في رأس المال[117]. كان لهؤلاء الرجال أفضلية معرفة المناطق التي تتم مهاجمتها وعادات المسيحيين، وهذا ما جعلهم مساعدين ممتازين على الخصوص.

في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، ظهر نوع آخر من القرصنة: أصبح الميناء واحدة من قواعد القرصنة التركية، كما تبيّنه حالة بيري رايس وخاله كمال رايس[118]. أيضا، في 1498، أبلغ البحارة الجنويين الذاهبين من بجاية إلى منورقة سلطات إبيزا بحضور يختين وقالوطتين تركيتين ذات الثمانية عشر منصة[119]. لكن منع استيلاء الأسبان على المدينة ثمّ تأخير الأتراك لمرتبتها لصالح الجزائر من تطور هذا النشاط في القرن السادس عشر.

2) السفن

كانت السفن المستعملة في الغالب بمجاديف، وبأحجام متواضعة. ونادرا ما توضّح الوثائق أنواع السفن التي استعملها القراصنة. لكن النتائج هي منسجمة جدا:

(116)ASG, AS, *Litterarum*, Rg. 1, f. 176, éd. Jorga, « Notes et extraits», art. cité, *Revue de l'Orient Latin*, 4, 1896, p. 522-523 (27/5/1412).
وصل الخبر الجديد إلى مجلس الأنزياني *(Anziani)*، بفضل رسالة بعث بها أسير بيزي من بجاية، الذي تحصّل على المعلومة من جنوي كان في خدمة العامل، وكان حاضرا في وقت الحديث بين المرتد والأمير.

(117) ARM, LLC, 47, f. 9r (9/1/1381), cité par López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 728-729.

(118) R. Mantran, « La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab-ı Bahriye de Pīrī Reis », *ROMM*, 15-16, 1973, p. 159-160.

(119) AMV, LLM, g3-33, f. 150r (4/9/1498).

جدول 17: أنواع المراكب التي استعملها القراصنة البجائيون (1315-1498)

المصدر	المركب	التاريخ
ARM, *Reales cedulas*, vol. 3, f. 149r(120)	يخت	14/ 10/ 1315
ACA, C., Rg. 592, f. 26v-27r	لوح مسلّح	18/ 5/ 1337
AMV, Claveria Comuna. Manuel d'Albarans i Censals, I-3, f. 52r	قاليوطة	22/ 4/ 1370
Id., I-5, f. 2r	قاليوطة	29/ 5/ 1371
Id.	قاليوطة	2/ 6/ 1371
ACA, C., Rg. 1437, f. 47v	7 يخوت وقاليوطتان ب 22 منصة، ومراكب أخرى بمجاديف.	14/ 7/ 1377
AM, 3II, 155	يخت	8/ 1/ 1378
AMV, Claveria Comuna. Manuel d'Albarans i Censals, I-12, f. 43r	يختان وقاليوطتان	14/ 5/ 1382
ACA, C., Rg. 1438, f. 161r	قاليوطة	2/ 9/ 1382
ADBR, Dugat 1, f. 49r-50r(121)	يخت مسلّح	15/ 2/ 1395
ACA, C., Rg. 2240, f. 74r(122)	يخت	1/ 4/ 1398
ARM, AH 77, f. 90(123)	4 يخوت كبيرة و6 قاليوطات	26/ 5/ 1400
Manual de novells ardits,	يخوت	11/ 1406

(120)Éd. Dufourcq, *Recueil, op. cit.*, n° 1154.

(121)Trad. É. Baratier, *Documents d'histoire de la Provence,*Toulouse, 1971, p. 132-134.

(122)Éd. A. Ivars Cardona, *Dos creuades valenciano-mallorquines a les còstes de Berbería, 1397-1399. Estudi documental*, Valence, 1921, p. 56.

(123)Éd. Macaire, *Majorque et le Maghrib, op. cit.*, p. 502-503.

vulgarment apellat Dietari del antich consell Barceloni, I, Barcelone, 1892, p. 146		
AHCB, Cartas Comunas Originals, 1406-9, f. 74(124)	6 مراكب بمجاديف ويخوت وقاليوطات مسلحة	16/ 4/ 1407
ACA, C., Rg. 2288, f. 89v-90v	قاليوطتان مسلّحتان	29/ 9/ 1407
AMV, LLM, g3-10, f. 94r	يخت ولوح	9/ 1/ 1411
ARV, Bailia 193, f. 60r-68r	قاليوطة ب 20 منصة	1423
Id., f. 112r	فرقاطة	1424
ASG, AS, 1779, f. 272r, n° 641	يخوت وفرقاطات	9/ 10/ 1430
ARV, Bailia 193(125)	فرقاطة ب 15 منصة وفرقاطة	1433
Id.	قاليوطة	1434
AMV, LLM, g3-33, f. 150r	يختان وقاليوطاتان ب 12 و18 منصة	4/ 9/ 1498

يمكن مقابلة هذه النتائج بالنتائج التي تحصل عليها أندرياس دياز بيراز انطلاقا من المادة الوثائقية البلنسية، خصوصا بلاغات تواجد القراصنة. لاقى مراكب بمجاديف، الجريبس (grips) وهي مراكب بشراع ومجاديف)، وقاليوطات وعدد قليل من اليخوت. في القاعدة العامة، يتعلق الأمر إذن بمراكب ذات أحجام صغيرة (من ثلاثة عشر أو أربعة عشر منصة مجاديف)(126). ويعتبر أن موارد

(124) نقلا عن:

Coll Julià, « Aspectos del corso catalán », art. cité, p. 161.

(125) نقلا عن:

Hinojosa Montalvo, « Tácticas de apresamiento », art. cité, p. 9.

(126) Díaz Borrás, « L’estudi de la pirateria », art. cité, p. 279=

المغاربة المالية لم تكن كافية للتزود بمراكب كبيرة ولم يتأقلموا مع أشكال السفن الجديدة المستعملة في الحرب البحرية(127). لكن نستطيع الاعتراض من جهة أنّ موارد القرصنة كانت هامة دون شك، وأرجعت كل إمكانية استثمار كبيرة ممكنة، ومن جهة كان في هذا السياق اقتناء المراكب إما بالشراء أو بالصنع، لكن بالغنائم خصوصا. إنّ التأقلم مع الأنواع الجديدة من البواخر لم تطرح مشكلا. يجب إذن التفكير في خيار القراصنة المغاربة الذين نظروا إلى سفن مواتية أكثر.

كانت لهذه الوحدات أفضلية السرعة والترويض وإذن القدرة على الجري وراء سفن التجارة الثقيلة. استفاد القراصنة من عامل المفاجأة، أي بقدرتها على الاختفاء بسهولة عن أنظار فريستها في شقوق الساحل. وأخيرا، كان الهروب سهلا في حالة عدو أكثر قوة. في المقابل، كانت أقل فعالية في مواجهة مراكب عالية جدا ولها دفاعات جيدة. أيضا، لمجابهة مواكب التجار، وجب التجمع وتشكيل أساطيل صغيرة. تبيّن لنا الحالات المتكررة مراكب وحيدة أو ثنائية(128). لكن كانت أحيانا أساطيل صغيرة وفعالة، مثل أسطول أميرال بجاية الذي سلّحه في 1377 ، حيث تكوّن من سبعة يخوت وقاليوطات ب 22 منصة (مما يجعلها وحدات هامة) وأيضا مراكب أخرى بمجاديف(129).

=تحصّل جمال أحباب على نتائج مماثلة حول سفن قراصنة إفريقية: 21 يخت، و16 قاليوطة و10 مراكب ، و5 ألواح، ومركب كارو وناف.

J.Ahbab, *La piraterie en Ifrīqiya aux trois derniers siècles du Moyen Âge (XIIIe-XVe siècle)*, Mémoire de maîtrise, sous la direction de Fr. Micheau, Université Paris-1 (Centre de recherches d'histoire et civilisation byzantines et du Proche-Orient médiéval), 1997-1998, p. 38.

(127) Díaz Borrás, « L'estudi de la pirateria », art. cité, p. 279.

(128) Díaz Borrás, *Los orígenes*, *op. cit.*, p. 93.

(129) ACA, C., Rg. 1437, f. 47v (14/7/1377).

3) الهجمات

تأتي الغنائم إما من أسر مراكب التجارة في البحر وإما من الغارات التي تجري على السواحل، وكانت الحملات في الغالب الأعم في فصل الملاحة، بمعنى الصيف[130].

يبيّن العدد الأكبر من البحارة الأسرى في بجاية التهديد الذي أثرت به القرصنة على الملاحة. من النادر توضيح نوع السفينة المأسورة، لكن كانت في الغالب الألواح أو القوارب، واستثنائيا النافات أو اليخوت. لم يكن من السهل الاستيلاء على سفينة في البحر وكانت المفاجأة عنصرا حاسما. لهذا اختار القراصنة السواحل المنقطعة أو الجزر حيث يمكن الاختفاء بانتظار انتهاز فرصة. عندما تحدد الفريسة، يمكن لمركب القرصان الهجوم بسهولة، حيث كان أسرع من المراكب الثقيلة المحمّلة بالسلع. أحيانا، يتابع القرصان طويلا فريسته قبل بدء المعركة، كما في 1423، عندما تابعت قاليوطة بجائية بعشرين منصة –في مياه سردينيا– يخت فرانسيش دو بالفيس (Francesch de Bellvis) أثناء ليلة كاملة قبل أن يتمكن المسيحيون مع مطلع النهار من الوصول إلى الساحل ويأسرون ملاحقيهم[131]. كان الليل مناسبا للهجمات، وهذا ما دفع السلطات البلدية المرسيلية إلى منع خروج الصيادين في الليل، خصوصا مع الإنارة التي تجعلهم هدفا سهل التحديد[132]. يمكن خداع ومغالطة بحارة السفينة التي يطمع فيها عند الحاجة. ففي سبتمبر 1407، كتب مارتان ملك أراجونة إلى سلطان تونس يشتكي من عمل قرصنة نفذها بجائيون، حيث أنّ الرسالة تورد قصة الأحداث من وجهة النظر الكتالانية. ويخبرنا بأسر جوهان برتومو (Johan Berthomeu) وجوهان كونت (Johan Comte) وجوهان مكامت (Johan Macamet) وبرنات باتلر

(130) "عندما يأتي الصيف، ننطلق في حملة". Pīrī Reis, trad. Mantran, art. cité, p. 164

(131) ARV, *Batllia*, Rg. 193, f. 60r-68r.

(132) AM, BB 28, f. 199 (17/6/1382), cité par É. Baratier, F. Reynaud, *Histoire du commerce de Marseille*, II, *De 1291 à 1480*, Paris, 1951, p. 105.

(Bernat Bataller) وفرانسيش جيال (Francesch Guell) وأنتوني روس (Anthoni Ros)، رغم السلم المبرم بين المملكتين. تبعا لرسالة الاحتجاج الأولى في ديسمبر 1406، أجاب "ملك بجاية" بأنهم غنيمة حرب جيدة لأنّ المسيحيين قذفوا السهام وقتلوا الموريين. ولهذا فقد سلّموا إلى العدالة وسيحاكمون حسب "السنة والشريعة". ولتدعيم طلب التدخل، قدّم الملك للسلطات الشهادات التي جمعت حول هذه الأحداث. حسب روايات البجائيين، الذين كانوا على متن يختين، وأسروا في بادئ الأمر ثمانية رجال على متن قارب وأغاروا على الساحل، حاملين معهم رجلين وطفلين وإمرة وشابة. فقرر أصدقاء وأقارب الأسرى ركوب لوح[133]، واللحاق باليختين البجائيين، دون شك بهدف التفاوض حول فداء سريع. وبوصولهم قرب اليختين، ركبوا سفينة، حيث أوضح شاهد أنها عادة بين البحارة والرجال في البحر، مسيحيين أو مسلمين، للدلالة على طلبهم "الأمن والأمان" من القائد وأعوانه (maiores). بدورهم رفع القراصنة شراع السفينة مشيرين بموافقتهم على طلبهم. وبمجرد اقترابهم من فريستهم، رفع أحد القادة المسلمين، أو أحد المساعدين، يده عاليا ووضعها على رأسه، كإشارة لتأكيد الوعد. لكن بمجرد رسو السفن، صعد المسلمون على متنها بأسلحتهم، وهاجموا الرجال الستة وحملوهم إلى بجاية. عندما رأى بعضهم الكيفية التي جرت بها الأحداث، فضّلوا القفز إلى البحر للنجاة بأنفسهم[134]. رواية الأسر هذه هي للأسف استثنائية، وتبيّن من جهة غدر القرصان التي ألحّ عليها الشهود الكتالانيين، وبوجود قواعد مشتركة مقبولة لدى رجال البحر سواء مسلمين أم مسيحيين. إذا لم يتوصل القرصان إلى الإرساء، مثل هذه الحالة، فإن المركب الذي يطمع فيه كما في غالب الحالات، يمكن مهاجمته برمي السهام (هي من جهة رواية أمير بجاية في القضية السابقة).

(133)هي سفينة صغيرة، استعملت خصوصا في الصيد، والذي لم يمكنه منافسة يختي القرصنة.
Nouveau glossaire nautique d’Augustin Jal, Paris, 1998, p. 1027-1028.
(134) ACA, C., Rg. 2288, f. 89v-90v (29/9/1407).

تظهر بعض الوثائق قساوة هؤلاء القراصنة. ففي 1400، روي أن المرتد فيستر -الذي اشتغل بالقرصنة المنظمة بقاليوطتين- أسر في استيلاء على مائة وخمسين شخصا، وخلال الطريق، لم يكن له ماء ومئونة بكفاية، فرمى خمسين في البحر، منهم ثمانية أو عشرة كان قد رجمهم مسبقا[135].

كانت البحار المفضلة أكثر هي طبعا القريبة من الأراضي الإفريقية. ففي 1389، تمّ أسر قرصان بجائي قبالة سواحل الجزائر[136]، وفي 1403، أسرت قاليوطة بجائية مركبا ميورقيا غير بعيد عن طبرقة[137]. كان القراصنة إذن قرب قواعدهم، حيث يمكنهم الإيواء والتزود من أي نقطة على الساحل، واستفادوا من ساحل متقطع مناسب للهجمات المفاجئة. الكثير منهم كانت لهم الرهبة في هذه المناطق حيث أضيفت أضرار المسلمين إلى أضرار القراصنة المسيحيين من أصول مختلفة. ففي 1381 بوهران، سلّم تاجر من تونس إلى صاحب مركب ميورقي حريرا لحمله إلى العاصمة الحفصية. لكن خوف هذا الأخير من القراصنة المسلمين الموجودين قرب بجاية فضّل تغيير طريقه وعاد إلى ميورقة حيث تمّت مصادرة الحرير[138]. أيضا في منتصف القرن الخامس عشر، طلب مجلس شيوخ البندقية بجلب مركبين من كورفو (Corfou) لحماية شواني بلاد البربر بسبب تواجد القراصنة أو القراصنة النظاميين على طريقهم[139].

(135)ARM, AH 77, f. 90 (26/5/1400), éd.Macaire, *Majorque et Maghrib, op. cit.*,p. 502-504.

(136)AMV, *Claveria comuna, Manuals d'Albarans i censals,* I-18, f. 13r (1/9/1389).

(137) ARM, AH 84, f. 91 (23/6/1403), cité par Macaire, *Majorque et Maghrib, op. cit.*,p. 76.

(138) ARM, RP, *Reebudes*, 3810, f. 151r (1381), cité par López Pérez, *La Corona de Aragón, op. cit.*, p. 388.

هي هنا على الأقل رواية صاحب المركب.

(139) ASV, *Senato, Mar,* Rg. 6, f. 65v (22/4/1458).

تمّت بعض الغنائم في الموانئ نفسها. كان القرصان متيقنا إذن من عدم نجاة فريسته، لأنّ المراكب كانت ساكنة[140]. يمكن أن يظهر فجأة في ميناء يفترض تحكم السلطة فيه إمكانية الانصراف لاعتداءات ما. هذه الأشياء لم تكن استثنائية[141]. ففي 1263، هاجم البجائيون مركب البرشلوني بيري فيرار بستورة[142]، وفي 1315 هاجم يخت بجائي في ميناء القل الميورقي برنات دارمانتيرا (Bernat d'Armentera)[143]. وحدثت أحيانا حوادث في بجاية نفسها، مع القراصنة القادمين من مدن أخرى. ففي 1312، هاجم السبتيون يختا ميورقيا[144]، وفي 1361 هاجم رجال بادس لوح رامون باتل (Ramon Batlle)، وهو أصيل الجزيرة أيضا[145]. وفي 1397، جاء دور يخت مسلّح بوني للاستيلاء على لوح ميورقي أيضا[146]. لكن لم تكن هذه الحالات متكررة كثيرا، لأنه وجب الأخذ بعين الاعتبار تواطؤ أو على الأقل ضعف الحكم المحلي. أثارت هذه الحالات في كل مرة خصوصا غضب الملوك المسيحيين الذين احتجوا ضد خرق الحماية التي يفترض منحها للمراكب في الميناء، وهذا ما أدى إلى تعقيدات دبلوماسية إضافية.

بتكرار أكثر، وفّرت السواحل الأوروبية إمكانيات استيلاء أكبر، وبداية من 1370 تعددت الأعمال.

(140) صادر ديوان البحر أحيانا كل ما يسمح للسفن بالمغادرة دون رخصة مثل الشراع.

(141) كانت في الغالب هجمات بين المراكب المسيحية.

(142) ACA, C., Rg. 12, f. 14r (février-mars 1262), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*,n° 102.

(143)ARM, *Realescedulas*, vol. 3, f. 122v-123r (19/9/1313), éd.*Ibid.*,n° 1027.

(144)Id., f. 11v-12 (19/1/1312), éd.*Ibid.*, n° 944.

(145) ARM, LLC, 25, f. 55r-v, 57r-58r, (8/7/1361), cité par López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 701.

(146) ACA, C., Rg. 2263, f. 31v-32r (17/7/1397), 53r-54r (14/8/1397) ; Rg. 2114, f. 45v-46r (17/7/1397).

جدول 18: الاستيلاء على المراكب في المياه المسيحية (1370-1434)

التاريخ	المكان	المصدر
22/ 4/ 1370	ميورقة	AMV, Claveria Comuna. Manuel d'Albarans i Censals, I-3, f. 52r
29/ 5/ 1371	إبيزا	Id., I-5, f. 2r
2/ 6/ 1371	ميورقة	Id.
14/ 7/ 1377	ميورقة	ACA, C., Rg. 1437, f. 47v
21/ 3/ 1379	رأس فورمنتور ميورقة	ACA, C., Rg. 1263, 115v
7/ 5/ 1383	كاني (Canet)	Éd. Mario Zucchitello, « El comerc maritim de Tossa a traves del port barceloni (1357-1553) », *Quaderns d'estudis tossencs*, Tossa, 1982, p. 46
3/ 1/ 1387	بروفانس	ADBR, 351E 124, f. 6v-7r
23/ 5/ 1393	كليرا (جنوب بلنسية)	AMV, LLM, g 3-5[147]
9/ 1/ 1395	رأس الجزيرة المسماة بونتا سان مارشو	ACA, C., Rg. 1908, f. 168r
19/ 4/ 1398	ميورقة	ACA, C., Rg. 2357, f. 111v-112r
29/ 5/ 1398	كفلار (بروفانس)	ADBR, 351 E 79, [f. 33v]
8/ 10/ 1406	ألكانت	ACA, C., Rg. 2204, f. 53v-54r
11/ 1406	رأس طرطوشة	*Manual de novells ardits, vulgarment apellat Dietari del antich consell Barceloni*, I, Barcelone, 1892, p. 146
11/ 2/ 1407	ميورقة	ACA, C., Rg. 2204, f. 82v-83v
نفسه	ميورقة	Id., f. 85r-v

(147) Cité par Vidal Beltran, *Valencia*, *op. cit.*, p. 230.

6/ 6/ 1408	برنيس (Barenys)	ACA, C., Rg. 2206, f. 11v-12r
1423	سردينيا	ARV, Batllia, Rg. 193, f. 60r-68r(148)
1424	قرطاجنّة	Id., f. 112
1424	كرسيكا وسردينيا	ARV, Batllia, Rg. 193
1433	سيتج (Sitges)	Id.
1434	رأس طرطوشة	Id.

في عز الأزمة، تحرّك إذن القراصنة البجائيين في المياه الإسبانية، خصوصا حول البليار. وتواجدوا أيضا قرب كورسيكا وسردينيا، وإلى الشمال أكثر قبالة سواحل البروفانس. يمكننا أن نفترض بتوفر البجائيين من أجل هذا على قواعد تموين في إحدى الجزيرتين. في المقابل، لا يبدو تعرض الساحل الإيطالي للهجمات(149)، حتى وإن تعرضت صقلية لأعمال قراصنة إفريقيا الشرقية، خصوصا تونس(150). كانت ثلاث طرق تجارية استهدفتها إذن هذه المراكب: الطريق الذي سار بجانب الساحل الإفريقي، والطريق الذي ساير ساحل بروفانس في الشمال إلى غاية الأندلس، وأخيرا قسما من الطريق المعروف ب "الجزر" (المار بالبليار وسردينيا ثم صقلية). باستثناء السواحل الإيطالية والفرنسية، كانت إذن الطرق التجارية الكبرى في البحر المتوسط الغربي عرضة للقرصنة البجائية.

أكثر خطورة وخصوصا أكثر إهانة للمسيحيين، كانت تلك الغزوات التي جرت على السواحل، والتي تعددت في نهاية القرن الرابع عشر. كان بعضها

(148) بالنسبة للهجمات من 1423 إلى 1434: نقلا عن:

Hinojosa Montalvo, « Tácticas de apresamiento », art. cité, p. 9.

(149) كانت بعض أعمال القرصنة على طول السواحل الإيطالية، لكن بقيت الظاهرة هامشية، وهذا ما يؤكده ضعف فداء الجنويين.

J. Heers, « Gênes et l'Afrique du Nord vers 1450 : les voyages "per costeriam" », *AEM*, 21, 1991, p. 238.

(150) Bresc, « Course et piraterie en Sicile », art. cité, p. 751-765.

شهيرا، مثل غزوة توريبلانكا في 1397، التي أدت إلى إجراء انتقامي من المسيحيين[151]. كانت هذه الهجمات متكررة، خصوصا في الأرياف البعيدة عن المدن حيث لم تكن دفاعاتها جيدة. وكانت الجهات المعنية هي تلك التي رأينا القراصنة قد هاجموا فيها السفن المسيحية. كانت السواحل الإيبيرية الأكثر عرضة خصوصا بسبب السهولة التي وفرها قربها من الأراضي المسلمة[152]. ففي 1382، نزل رجال قاليوطة مورية قادمة من رأس سارفر (Cap de Cerver) وأسروا امرأة قائد (alcayt) برينجر لوبات (Berenguer Lobet) وأحد أبنائه وخادمة وأيضا كل ممتلكاتهم[153]. وفي 1406، هاجمت اليخوت برانيس (Barenys) في جنوب تراجونة ونهبوا الكنيسة وحملوا ما بين خمسين وثمانين أسيرا حيث باعوهم في بجاية[154]. تعرّض أيضا الساحل البروفانسي بجدة، خصوصا جبل المور، الذي عرف قرونا قبل ذلك القرصنة المسلمة. ففي 1395 على سبيل المثال، أسر دوس دو بانييه (Douce d'Aubagne) وأيضا أنطوان رايمو (Antoine Raymond) الذي كان في خدمته في محيط الكاديار (la Cadière)، عندما كانا ذاهبين من تولون (Toulon) إلى مرسيليا، وحملا إلى بجاية[155]. خلال سنوات الأزمة هذه، تمّ احتجاز عدة أسرى أصلاء هذه الجهة في بجاية، وخصوصا في بونة حيث ذهب التاجر توما كلومبيي (Thomas Colombier) للبحث عنهم[156].

(151) حول هذه الغزوة، أنظر: Ivars Cardona, *Dos creuades*, *op. cit*

(152) قرب مصب ريو سجيرة (Rio Segura)، بين قرطاجنة وألكانت.

(153) ACA, C., Rg. 1438, f. 161r (2/9/1382).

(154) *Manual de novells ardits, vulgarment apellat Dietari del antich consell Barceloni*, I, Barcelone, 1892, p. 146 ; AHCB, *Consellers*, VII, *Armades-Port*, 22 (18/11/1406), cité par López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 766.

(155) ADBR, Dugat 1, f. 49r-50r (15/2/1395), trad. Baratier, *Documents de l'histoire de la Provence*, *op. cit.*, p. 132-134.

(156) على سبيل المثال: ADBR, 355E 52, f. 2, 3, 21, 22, 34 (1399)

4) قرصنة منظمة أم قرصنة غير منظّمة؟

حتى الآن لم تكن إلا مسألة قراصنة، دون تمييز بين "القرصنة غير المنظّمة" (piraterie) عن "القرصنة المنظّمة" (course)[157]. نظريا، كان القرصان المنظّم قرصانا معترفا به وتحكمت فيه سلطات البلاد. لكن مصادرنا لا تميّز في الغالب تقريبا بين المبدأين. ففي 1458 بالبندقية، تمّ الحديث عن القراصنة المنظّمين وغير المنظّمين في نفس الوثيقة الخاصة بمجلس الشيوخ دون التمييز بين المصطلحين[158].أيضا، استعملت رخص القرصنة المنظّمة التي منحت في لاكورونيا أراجونة الكلمتين دون مبالاة[159]. إنّ المصادر العربية ليست أكثر وضوحا[160]. هذا لا يدل بهذا القدر على عدم وجود نوعين من الأفعال في ذهنية الناس، واحدة شرعية والأخرى لا. أشار ميشال مولا (Michel Mollat) إلى صعوبة فصل المفهومين في البحر المتوسط[161]. رغم ذلك في بداية من القرن الرابع عشر، حاول القرصان المنظّم التميّز عن القرصان غير المنظّم، وهذا بوضع قوانين وإجراءات الرقابة[162]. تشير القرصنة المنظّمة إذن إلى فعل ضبطته القوة العمومية في مقابل القرصنة غير المنظّمة. هذا يطرح مسألة العلاقات بين الحكم البجائي ونشاط النهب هذا، حيث تسمح الدراسة الدقيقة للممارسات بحلّها.

---

(157) Mollat, « De la piraterie sauvage », art. cité.

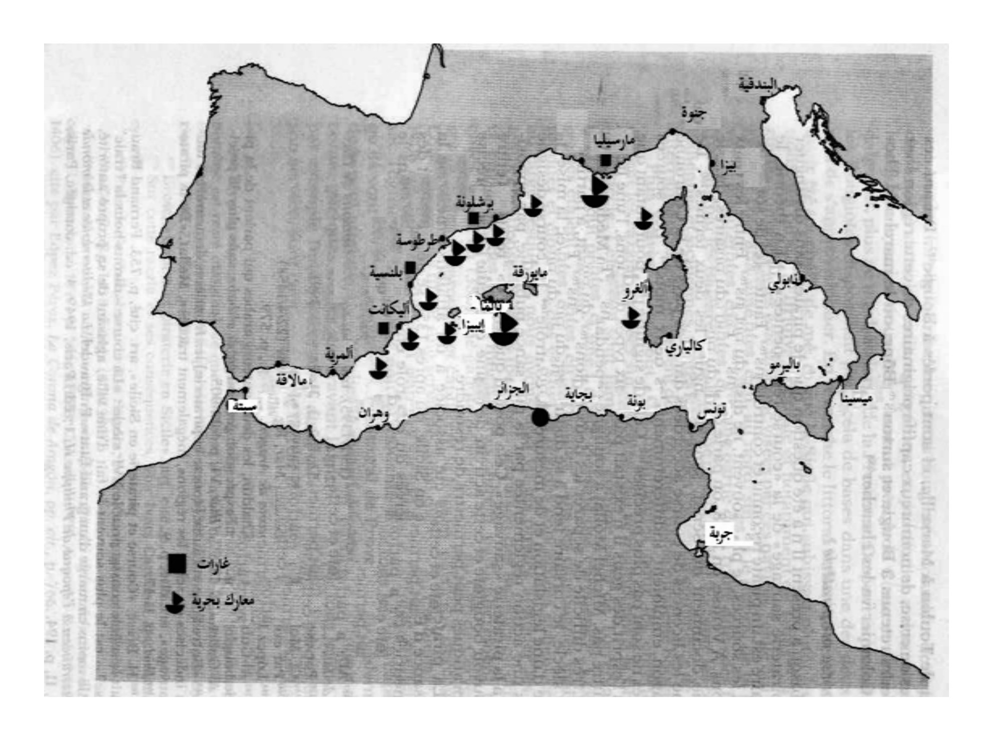
(158)على سبيل المثال: .ASV, *Senato*, *Mar*, Rg. 6, f. 65v (22/4/1458)

(159) López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 579.

(160)يستعمل المؤلفان العربيان الغبريني وابن خلدون عندما يتحدثان عن القرصنة البجائية عبارة غزا أو غزاة البحر، دون توضيح أكثر. الغبريني، ص 76-77، العبر، 6، ص 902-905.

(161)"بين الواحدة والأخرى (قرصنة منظمة وقرصنة غير منظمة)، تبقى الحدود دائما متذبذبة، ومرسومة بطريقة غير متساوية حسب الجهات".
Mollat, « De la piraterie sauvage », art. cité, p. 9.

(162)*Ibid.*, p. 11-12.



خريطة 15: هجمات القراصنة البجائيين في المياه المسيحية

ارتبطت القرصنة أحيانا بضعف قوة الدولة، كما في صقلية حيث تطورت بعد 1350 قيادات القراصنة المتحررة من تحكم الدولة[163]. لكن في الحالة الحفصية، لاحظت ماريا دلوراس لوبيز بيراز بصحة تزامن ازدهار القرصنة مع نهضة الدولة بعد أزمة منتصف القرن الرابع عشر[164]. حين أعاد أبو العباس تشكيل الوحدة الحفصية، وبقيت بجاية خاضعة للحكم المركزي في عهده وفي عهد

(163) H. Bresc, « Course et piraterie en Sicile », art. cité, p. 753.

أقام فرنان برودال نفس المعاينة بالنسبة للقرن السادس عشر: "القرصنة المنظمة – نقول القرصنة الحقيقية– كانت في الغالب من عمل المدينة، التي تصرفت بسلطتها الخاصة، أو على الأقل على هامش دولة كبيرة".

F. Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, 1re éd., Paris, 1949, 4e éd. corrigée, Paris, 1979, II, p. 194.

(164) López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 726.

على العكس، تراجعت القرصنة المرينية والعبد الوادية مع قوة هاتين الدولتين.

خلفائه أبي فارس وعثمان، حتى وإن تمتعت ببعض الاستقلالية الذاتية. تمّ حث السلطان –أحيانا– بالتكفل بشكل مرتبط ببجاية[165]، حتى وإن سوّيت الأعمال في الغالب مباشرة مع العامل. لم يكن ازدهار القرصنة من تداعيات ضعف تحكم السلطة في المدينة.

دون نقاش تورطت الدولة مباشرة أو على الأقل تسامحت أمام الظاهرة. يبيّن بيع واحتجاز الأسرى المسيحيين في بجاية من حيث المبدأ قرصنة مقبولة، وهذا لا يفاجئ في شيء. لا يجب نسيان أن الحالة العادية للعلاقات بين دولتين مسلمة ومسيحية في العصر الوسيط كانت حالة حرب، توقفها فقط الهدنات التي بقيت دائما محدودة زمنيا. مهاجمة الأعداء كان إذن مسموحا به ومسألة تحكم الدولة لا تطرح إلا في فترة الهدنة. لم تكن البلدان المعنية بالقرصنة البجائية – أساسا المجالات الكتالانية والأراجونية– في سلم مع الحفصيين في لحظة تطور هذا النشاط، ما عدا فترة قصيرة جدا. ففي 1403، أبرمت بمشقة في الواقع معاهدة لمدة خمس سنوات، لكنها أظهرت محدوديتها بسرعة ولم تجدد بعد ذلك[166].

ترك الحكم الحفصي إذن تطور ما يجب تسميته حرب القرصنة المنظّمة ضد أعداء السلطنة.

كانت مشاركة الحكم المباشرة واضحة خلال سنوات أزمة نهاية القرن الرابع عشر. ففي 1377، أخبر ملك أراجونة حاكم ميورقة بتسليح أميرال بجاية لأسطول هام قصد الوصول إلى مياه المملكة[167]. يعرف هذا الأميرال بقائد البحر محمد بن أبي مهدي، الذي لعب دورا رياديا في بجاية بين 772/1370

(165) في 1397، كتب ملك أراجونة إلى سلطان تونس للاحتجاج ضد عمل قرصنة حدث في ميناء بجاية في حين كان "ملك بجاية" في سلم مع لاكورونيا أراجونة، كما منحت رخصة مرور. ACA, C., Rg. 2263, f. 53r-54r (14/8/1397).

(166) López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 162-165.

(167) ACA, C., Rg. 1437, f. 47v (14/7/1377).

و805/ 1402 بجانب الأمير أبي عبد الله ثم ابنه وخليفته أبي العباس أحمد الذي أصبح وصيّه[168]. ووصفه ابن خلدون بزعيم البلد و"قائد الأسطول ورئيس كل الرجال الماهرين ورماة البلد"[169]. كان أيضا على رأس دار صناعة الأساطيل[170]. كان إذن شخصية من الطراز الأول في الحياة السياسية للمقاطعة والذي استثمر في هذا النشاط. أيضا في 1381، شكّ الميورقيون في الجنوي أونفريو دي بتشاميجليو (Onofrio di Piccamiglio) بكونه شريكا مع وزير بجاية في مشروع قرصنة[171].

لكن كيف كان التحكم في القراصنة الآخرين؟ لا نعرف حجم تحكم الأميرال أو "قائد البحر" فعليا في تسليح وإدارة أعمال المراكب الأخرى. أما في البلدان المسيحية، فقد فرضت العادة نفسها شيئا فشيئا بمنح رخص القرصنة المنظّمة للقبطانات الراغبين في الذهاب لمهاجمة أعداء البلاد. ففي 1250، قرّر جاك الفاتح ملك أراجونة منع الهجمات ضد رعايا الدول التي هي في سلم مع لاكورونيا، وهذا ما شكّل خطوة أولى نحو تنظيم النشاط وسمح بتمييز القرصان، الحامل لرخصة (مأجور) والقرصان الآخر الذي لم تكن له رخصة[172].

(168)العبر، 6، ص 895، البربر، 3، ص 110.

(169)نفسه.

(170)الفارسية، ص 186.

(171) ARM, LLC, 47, f. 9r (9/1/1381), cité par López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 728-729.

(172) Ch.-E. Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIIIe et XIVe siècles* : *de la bataille de Las Navas de Tolosa (1212) à l'avènement du sultan mérinide Abou-l-Hasan (1331)*,Paris, 1966, p. 90

وجد ديفور في هذا القرار إشارة لتغيير راديكالي لسياسة ملوك أراجونة. ربما شهدت حسبه على موقف أكثر هدوءا، خصوصا في مواجهة الدول المغاربية. لكن الهدف في الواقع كان التحكم في العنف في البحر وجلب الموارد منه. أنظر:

R. I. Burns, *Muslims, Christians and Jews in the Crusader Kingdom of Valencia*,Cambridge, 1984, trad.catalane, *Moros, cristians i jueus en el regne croat de Valencia*, Valence, 1987, p. 175.

وأوضحت الرخصة الأعداء المسموح مهاجمتهم وأجبرت قبطان المركب على ترك ضمانات في حالة خيانة التزاماته[173]. فهل اتخذت إجراءات ما في بجاية لمنع قبطان المراكب من النيل من أصدقاء السلطنة؟ ليس لدينا أثر لذلك، لكن يمكن ملاحظة كقاعدة عامة أنّ أعمال القرصنة كانت نادرة مع القوى التي هي في سلم معها. ووجدت حالات احتجاج من قوة مسيحية، حيث تمّت مهاجمة رعاياها خلال فترة هدنة. لكن هذه الأعمال، التي أدت طبعا إلى مراسلات دبلوماسية غزيرة، لا يجب أن تغالطنا وتبقى استثنائية. نراها تسترسل أحيانا في عدة سنوات، تمّ خلالها الاحتجاج على الأضرار، حيث ترفض في الغالب ومن النادر مساومتها. كانت أجوبة الحكم الحفصي مرشدة بما أنها تضمنت دائما عدم تسامح السلطان في وقت الهدنة مع رعاياه على أعمال القرصنة غير المتحكم فيها. إنّ الحجج المقدّمة -لا يهم سواء عن حسن أم سوء نية- لرفض الرد الإيجابي عن طلب تعويض أعفت دائما الحكم من كل مسؤولية. تمّ أحيانا تقديم أطروحة شرعية الدفاع، لكن في الغالب يزعم بحدوث الفعل قبل توقيع أو دخول السلم حيّز التنفيذ[174]، أو أيضا كون المذنبين ليسوا من رعايا السلطان[175].

---

(173) M. D. López Pérez, « Piratería y corsarismo en el Mediterráneo occidental medieval : el control de las actividades corsarias en Mallorca a finales del siglo XIV y principios del XV », *VII jornades d'estudis historics locals : la Mediterrània. Antropologia i història, Palma, 1988,*Palma de Majorque, 1990, p. 173-203.

(174)في 714/ 1314 بعد السلم المبرم بين الحفصيين ولاكورونيا أراجونة، تمّ تبادل مراسلة بين الملكين بخصوص تحرير الأسرى، وكانت المسألة المطروحة في كل مرة هي معرفة ما إذا ما حدثت الوقائع قبل أو بعد التوقيع على الهدنة.

Alarcón y Santón, García de Linares, *Los documentos árabes, op. cit.*, n° 130, p. 288-290 (18 *ǧumadā* II 714 / 29 septembre 1314). Voir aussi *ibid.*, n° 131, p. 290-294 (26 *dū l-qa'da* 715 / 21 février 1316).

(175)في 1324، أجاب سلطان غرناطة جاك الثاني الأراجوني عن رسالة شكوى حول أعمال القرصنة، وقال له أن المذنب ليس واحدا من رعاياه.

Ibid., n° 23 (29 *dū l-hiǧǧa* 724 / 17 décembre 1324).

كانت المسألة إذن هي معرفة محفزات الحكم. لم يكن لتوجه ما دون آثار سلبية على السلطنة، لقد كانت مسببات جيدة تترك القرصنة تتطور دون ردة فعل.

حلّلنا أحيانا القرصنة المسلمة كأحد مظاهر الحركة المقدسة(176). كان الهدف منهااستعادة المجالات التي فقدها الإسلام، وأيضا إضعاف العدو بحرمانه من القوى الحية القادرة على محاربة الإسلام. عدة مؤشرات تذهب في هذا الاتجاه. في بادئ الأمر، لا نجد أثرا لهجمات ضد مسلمين آخرين، إلا استثناء (177). هل يجب أن نرى فيها آثارا لحياء المؤلفين العرب أمام فضاعة عمل كهذا؟ لكن نجد في نفس النصوص اتهاما متكررا لإساءات القبائل الهلالية ولا نعرف لماذا لم تكن القرصنة موضوع إدانة مماثلة. يجب إذن الاعتقاد بالبحث عن الأهداف المسيحية لوحدها، حيث هاجم القراصنة أوفياء الديانتين دون مبالاة(178). عندما يشير المؤلفون

(176)بعيزق، بجاية، المرجع السابق، ص 297.

M. Zaki, « Jihâd et contre-djihâd en Méditerranée du XIIe au XVIe siècle », *Course et jihâd maritime*, *Revue Maghreb Europe. Histoire, économies, sociétés*, 11, 1997-1998, p. 33-48 :

"اعتقد الغرب المسيحي وغير المسيحي تجميد الجهاد الإسلامي في البحر وفي البر منذ سيطرة هذا الغرب على العالم العربي الإسلامي، سواء بقوة السلاح أو بقوة المال. تحت راية الجهاد، أجري كفاح الاستقلال الوطني في المغرب كما في المشرق. وتحت راية الجهاد، جرت دعوات توحيد ووحدة العالم الإسلامي ضد الإمبرياليات التي بحثت على استعادة السيطرة على العالم. (*ibid.*, p. 48)

(177) تتحدث فقرة للتجاني عن قراصنة جزيرة جربة الذين هاجموا المسلمين في الفترة الزيرية. لكن استنكار المؤلف يبين جيدا أنه تعلق الأمر بعمل غير عادي. ووظّف فعل "قطع" للدلالة على فعلهم، وهو المستعمل للصعاليك واللصوص الذين يقطعون الطرق، في حين دلّ على حملة ثأر الأمير بفعل "غزى"، الذي نجده في أعمال القرصنة غير المنظمة والقرصنة المنظمة ضد المسيحيين. التجاني، رحلة، تونس، 1958 (مع ملحق وتقدين، ح. ح. عبد الوهاب"، إعادة نشر، تونس، 1981، ص 125. ترجمة:

A. Rousseau, « Voyage du scheikh Et-Tidjani dans la régence de Tunis pendant les années 706, 707 et 708 de l'hégire (1306-1309) », *Journal Asiatique*, 1852-1853, p. 176.

(178) لإعادة عبارة الأب برنس: "كان القرصان مسكونا باختيار ضحاياه"

R. I. Burns, « Piracy as an Islamic-Christian Interface in the Thirteenth Century », *Viator*, 11, 1980, p. 165.

المسلمون للقرصنة المنظّمة، فإنهم يقدّمونها عموما كواحدة من الأشكال التي يمكن أن تأخذها الحرب المقدسة (الجهاد). يظهرها خطاب ابن خلدون كإشارة لا جدال فيها لاستعادة البحرية الإسلامية لقوتها(179). لكن عمليا، من الصعب إيجاد رابط ما. نعرف أنه بين 1421 و1426، تسمىّ قرصان غرناطي منضبط بالقديس الموري، وزعم أنه تصرّف من أجل الله(180). أكثر أهمية هو نص المريني فيما يخص السنوات الأخيرة للسيطرة الحفصية ببجاية. كتب أنّ ملك تونس طلب من أمير بجاية تسليح البواخر لمحاربة المسيحيين الذين غزوا الأندلس، وهذا أمام الكارثة التي مثّلتها سقوط سلطنة غرناطة. نفّذ هذا الأمر بعجالة كما أوضح المؤلف، وقامت المراكب البجائية بغزوات على السواحل الإسبانية حيث اختطفت الرجال والثروات وجرت وراء كل سفن الأعداء، وحملت الغنائم إلى بجاية، إلى درجة امتلاء المدينة بالعبيد المسيحيين(181). لكن هذا النص متأخرا، كتب بعد الاستيلاء الإسباني في 1510 وصبغ بروح الحرب المقدسة. لكن ليس مستبعدا من كون التأثر الناجم عن فقدان غرناطة كان له تداعيات ما.

(179) "وعادت لهم سورة الغلبة في هذا البحر بعد أن كانت سورة المسلمين فيه لا تقاوم إلى آخر دولة الموحدين، بكثرة أساطيله ومراكبه فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم وأزاحتهم أساطيل المغرب أياما ثم فشل ريح الفرنجة واختل مركز دولتهم بافرانسة وافترقت طوائف في أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية وأصبحوا دولا متعددة، فتمت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل إفريقية لغزو بلادهم، وشرع في ذلك أهل بجاية".البربر، 3، ص 116.

(180) AMV, LLM, g3-17, f. 143v-144v, cité par A. Díaz Borrás, *Problemas marítimos de Valencia a finales de la Edad Media : el corso, la piratería y el cautiverio en su incidencia sobre la dinámica económica. 1400-1480*, thèse de doctorat, Université de Valence, 1987, p. 178.

توترت السلطات البلنسية من شهرته، التي سمحت له بإيجاد سفن ورجال متهيئين لقتال المسيحيين في تونس وبجاية. R. Salicrú i Lluch, *El Sultanat de Granada i la corona d'Aragó, 1410-1458*, Barcelone, 1998, p. 186-187. إنّ تحليل المناقب سيكون هاما لرؤية ما إذا عبّرت الولاية أحيانا عن نفسها بأفعال قرصنة ضد المسيحيين.

(181) المريني، ص 249-250.

تبقى كل هذه المؤشرات ضعيفة. وبالعكس، لم تعترف معاهدات السلم بين القوى المسيحية والحفصيين إلا بفئتين من الأشخاص: رعايا ملك في حالة سلم مع السلطان، حيث لا يمكن مهاجمتهم، والآخرون. لم يدخل العامل الديني أبدا في حيز الاهتمام[182]. في الواقع، بالأحرى تحفيز حقيقي، يجب أن ينظر إلى الجهاد كتبرير لعمل القرصنة، موجّه ببحث مادي أكثر[183]. بالنسبة للحكم، كان بإمكان المساندة المعلنة لأعمال ما – بأقل تكاليف- جلب شرعية إضافية، سواء في السياسة الداخلية أم في اتجاه الدول الإسلامية الأخرى في الجهة. وسمحت له بتلقي دعم رجال الدين، الذين كانوا مناوبة ضرورية لدى السكان، وبطرح نفسه كقوة إقليمية مهيمنة[184].

هل كانت القرصنة وسيلة لسياسة عسكرية ضد الدول المسيحية مستقلة عن كل اعتبار ديني؟ حدّدها فارنون برودال (Fernand Braudel) بالنسبة لعصر فليب الثاني، كـ"شكل مساعد للحرب الكبرى"، أو أيضا كـ"الحرب السفلية"[185].

(182) في القرن التاسع الميلادي حدّد الفقيه المالكي الكبير سحنون حدود القرصنة ضد المسيحيين. "فيما يخص المراكب المسيحية التي تصل عندنا سواء إلى الميناء أم بالقرب منه، لا يسمح بأسرها إذا تعلق الأمر بتجار على علاقة متاجرة مع المسلمين، إلا إذا هوجموا في بلدانهم عند توجههم إلى بلاد أخرى غير بلدان الإسلام".

M. Talbi, « Intérêt des œuvres juridiques traitant de la guerre pour l'historien des armées médiévales ifrikiennes », *CT*, 15, 1956, rééd. *Études d'histoire ifriqiyenne et de civilisation musulmane*, Tunis, 1982, p. 107.

(183) أنظر حكم ر. برونشفيك R. Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines au XVe siècle*, I, Paris, 1940, p. 216. في عهد أبي فارس، "تطور القرصنة المنظمة البحرية ... الموصوفة جهاد بسرور، أثرت جليا على عدد معتبر من السكان الحضر".

(184) تمّ بصورة جيدة تحليل استعمال الجهاد هذا، وخصوصا الخطاب الداعي للجهاد، بالنسبة للمشرق في زمن الحروب الصليبية، وخصوصا في حالة صلاح الدين. أنظر:

E. Sivan, *L'Islam et la croisade. Idéologie et propagande dans les réactions musulmanes aux croisades*, Paris, 1968.

لكن بالنسبة للمغرب، لا توجد نصوص تعالج مباشرة هذا الموضوع.

(185) Braudel, *La Méditerranée, op. cit.*, II, p. 190,

الذي يفسّر تطور القرصنة المنظمة بتوقف "الحرب الكبيرة" في البحر المتوسط بعد 1574.

لكن كان ذلك أيضا تحت حكم الحفصيين؟ لا جدال في كونها وسيلة أقل كلفة للضغط على القوى التي لم يكن باستطاعة الحفصيين مجابهتها مباشرة[186]. ليس إذن مستبعدا بحث السلاطين عن خلق علاقة قوة جديدة، حيث ربما اقتطفوا منها ثمارا على الصعيد الدبلوماسي. مهما تكن فعالية سياسية ما – إذا كانت إرادية- فإنها دكنة. من الناحية الهجومية، لم يكن لها أي تداعيات، لم تنته بأي منال في المجال. وعلى الصعيد الدفاعي، إذا ما افترضنا وجود إرادة استيلاء قوة مسيحية على الجهة في تلك الفترة، فإنّ النتيجة غير مقنعة تقريبا. كان للقرصنة خصوصا أثر في تعبئة القوى المسيحية لحملات تأديبية، مثل ما تلا نهب البجائيين لتوريبلانكا[187]. فيما يخص نتائجها على العلاقات الدبلوماسية، كانت كارثية وتميّزت خصوصا بفترات انقطاع طويلة.

تكمن بكل تأكيد مصلحة الحكم في المساهمة المادية للقرصنة. فضلا عن الموارد التي استطاع الأمير جلبها من الاستثمارات التي يكون قد أجراها هو بنفسه، كانت الرسوم التي جلبها من الغنائم هامة. إذا كانت الضرائب التي تمس التجارة لم تتعد بصفة عامة نسبة 10٪، وجب على القراصنة دفع خمس غنائمهم لبيت المال[188]. كانت القرصنة إذن استجابة لتعويض تقلص الموارد الناتجة عن النشاط التجاري للميناء، بعد أزمة حادة جدا[189]. كانت هذه الحاجة مستعجلة جدا بالنسبة للحفصيين الذين كانوا في مرحلة توسع سياسي بالمغرب وفي استعادة قوتهم التي فقدوها لبعض الوقت[190].

---

(186) بعيزق، المرجع السابق، ص 298.

(187) Ivars Cardona, *Dos creuades, op. cit.*

(188) أنظر الغبريني، ص 76.

G. Cipollone, *Cristinanità-Islam : cattività e liberazione in nome di Dio : il tempo di Innocenzo III dopo « il 1187 »*, Rome, 1992, p. 191-198.

(189) López Pérez, *La Corona de Aragón, op. cit.*, p. 727.

(190) M. D. López Pérez, « Farons per a galiotes de moros : un ejemplo de organización de la defensa costera en la Cataluña medieval », *Miscel.lània de textos medievals*, 8, 1996, p. 3.

تدخل الحكم إذن دون جدال في النشاط القرصني المنظّم. سواء بتسامحه مع الظاهرة أم بتأطيره لها، جلب منها موارد، وربما شرعية إضافية. في هذا المعنى، يمكن الاعتقاد في القرصنة البجائية كأحد مظاهر العلاقات بين الإسلام والمسيحية. ويجب أيضا وضعها في سياق مغاربي لتأكيد القوة الحفصية من جديد، حيث شكلت عنصرا في السياسة الداخلية.

كان الدافع الأول للقرصنة هو إذن دون نقاش البحث عن فائدة مادية أكثر من البحث عن رهان أفضيلة سياسية أو إرضاء واجب ديني.

III- الحصيلة المادية

على غرار التجارة، كان ينظر للقرصنة كمصدر ربح. كانت "شكلا من المبادلات المكرهة في البحر المتوسط"[191]. ولكن كانت أيضا عامل إفقار. من جهة، أدت إلى إرباكات في العلاقات التجارية. إذا كانت قاعدة كبيرة للقراصنة، فإنها عانت أيضا من السلب الذي تسببت فيه البحريات المسيحية. يجب إذن الاستدلال منطقيا بمصطلح الحصيلة، ونأخذ بعين الاعتبار المنافع وأيضا الخسائر.

1) أولوية الأسرى في اقتصاد القرصنة المنظمة

استقبلت بجاية غنائم قراصنتها، لكن لم يكن مجيء قراصنة سبتة ومالقة أو تونس وأيضا المسيحيون لبيع غنائمهم في المدينة أمرا نادرا. أصبحت بجاية بداية من القرن الرابع عشر سوقا كبيرا لقراصنة البحار. ففي 1334، استولي لوح مسلّح سبتي في مياه شرشال على لوحين بلنسيين ذاهبين إلى برشك وتنس. كان المرينيون وقتها في سلم مع لاكورونيا أراجونة[192]، ولهذا -دون شك- كان من الصعب بيع الغنيمة والأسرى في أحد موانئ المغرب الأقصى، وفضّل القرصان

(191) Braudel, *La Méditerranée*, *op. cit.*, II, p. 206.

(192) López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 60.

إذن حملهم إلى بجاية[193]. ارتفعت قيمة السلع المطالب بها في رسالة موجّهة إلى أبي الحسن إلى 600 دينار مزدوج ذهبي بالنسبة للمركب الأول و350 بالنسبة للثاني، وهي مبالغ معتبرة، حيث تضاف إليها قيمة المركب نفسه. كان الميناء كذلك سوقا لترويج السلع التي نهبها المسيحيون. ففي 1442، حمل مركب بيري ألفونسو الجاليسي (Pere Alfonso de Galice) ببلنسية 440 جوخ من الصوف والنيلة باتجاه بجاية. وفي المياه الميورقية، ثار البحارة ضد أصحاب وقواد المركب، ووضعوهم بقوة في قارب وتوجهوا بهم نحو بجاية، حيث باعوا السلعة بسعر منخفض للتجار البنادقة[194]. وقد أدانت المعاهدات بشدة هذا التواطؤ ومنعت ليس فقط أعمال القرصنة نفسها، ولكن أيضا شراء الغنيمة[195].

كانت هذه الغنيمة تتكون في بادئ الأمر من السلع. ولهذا، وفرّت الغزوات على طول السواحل المسيحية الفرص، لكنها كانت محدودة. كانت المدن ذات الثراء الأكثر هي الفريسة، لكن كان الهجوم عليها صعبا وخطرا، حتى وإن لم يكن التهديد غائبا كلية. فيما يخص المناطق الريفية التي كانت الأقل غنى، فإنها لم تشكل فائدة تقريبا بالنسبة للنهب. إنّ سلب توريبلانكا قرب بلنسية في 1397 كان استثناء، لأن القراصنة وصلوا يوم عيد حينما أخرجت الأشياء الدينية الثمينة للسير. بصفة عامة، كانت الكنائس والأديرة أهدافا مفضّلة خلال الغزوات بسبب ثرائها من مواد الطقوس الثمينة. وتواجدت الغنائم المرجوة على متن السفن التجارية في البحر أو في الموانئ المغاربية. وكانت المراكب البجائية حاضرة بداية من نهاية القرن الرابع عشر على الأقل على طريقين بحريين كبيرين في البحر المتوسط الغربي، ولهذا فإن الفرص لم تفقد لاستقدام غنائم ثرية. لكن بالإضافة إلى السلع،

(193) ACA, C., Rg. 466, f. 8r-v (5/7/1334).

(194) AMV, LLM, g3-20, f. 90r-91r (24/5/1442), cité par Díaz Borrás, *Problemas marítimos de Valencia, op. cit.*, p. 377.

(195) على سبيل المثال، معاهدة بيزا – تونس، 1234، المادة 8.

تمّ البحث عن الرجال. فهم الذين تركوا أكثر أثرا في المادة الخبرية، بسبب الفداء أو محاولات الفداء الناجمة عن أسرهم[196].

أ) اليد العاملة من العبيد

سمح غنم المراكب والغزوات على الساحل في الواقع بجلب عدة أسرى إلى بجاية. يبيّن الغبريني بالنسبة للقرنين الثاني عشر والثالث عشر بيعهم في حومة المذبح، خارج المدينة قرب دار صناعة الأساطيل[197].

يظهر هؤلاء الأسرى في المادة الخبرية أساسا بمناسبة فرصة فديتهم، حيث قبل تحريرهم مقابل فدية كانوا يدا عاملة في خدمة أسيادهم. من جهة أخرى، لم يكن للبعض غير المحظوظين أي فرصة للتحرر في يوم ما وبقوا عبيدا طوال حياتهم. بالنسبة للآخرين، كانت مدة الأسر متنوعة جدا. في كتاب شعبي للدعوة للمستقبل، في فصل "السلع"، أعلن المؤلف المجهول أن الأسر سيكون قصيرا، مبينا أن احتمال محنة ما يمثل القلق[198]. كانت الحقيقة طبعا غالبا بسعادة أقل. سجّل أندرياس دياز بوراس انطلاقا من سجلات بلنسية البلدية المساعدات التي منحتها لتحرير الأسرى، حيث لاحظ انقضاء ما بين شهرين وأربع سنوات بين استفادة

---

(196) زادت مراكب القراصنة النشطة على طول سواحل إسبانيا من ربح رحلاتها بحمل المدجنين الهاربين من البلدان المسيحية.

J. E. López de Coca Castañer, « Esclavos, alfaqueques y mercaderes en la frontera del mar de Alborán (1490-1516) », *Hispania*, 139, 1979, p. 277.

(197) الغبريني، ص 76.

(198) Fr. Carreras y Candi, « Un llibre de geomancia popular del siglo XIII », *Boletino de la Real Academia de Buenas Lletras de Barcelona*, II, 1902, p. 325-338, cité par C. Batlle i Gallart, « La vida y las actividades de los mercaderes de Barcelona dedicados al comercio mediterráneo (s. XIII) », *Le Genti del mare Mediterraneo. XVII Colloquio internazionale di storia marittima, Napoli, 28-31 gennaio 1980*, dir. R. Ragosta, Naples, 1981, I, p. 333.

الشخص من المساعدة وبين عودته الفعلية[199]. أيضا لا تأخذ الأرقام في الحسبان الوقت الذي يفصل بين قبض المنح والمساعدة البلدية. وتبيّن شهادات أخرى أسرى لعدة سنوات. ففي 1396 أبرم عقد بمرسيليا لفداء ولم يطبق إلا في 1400[200]، وفي 1404 لم يتم فداء جيلام سجيرا (Guillem Segerra)، وهو بحّار من جزيرة ميورقة، إلا بعد سبع سنوات قضاها في بجاية[201].

أثناء كل هذه السنوات، كان الأسير عبدا، حيث عمل لحساب سيده. هناك معلومات قليلة حول حياته في بجاية. يلمح ابن خلدون إلى تواجدهم بهذه المعاني: "حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلاد بضجة السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم، ويغالون في فدائهم بما يتعذر منه"[202]. لم يكن مصير هؤلاء الأشخاص يحسد عليه قطعا، وفي 1403 اشتكى روجي المونكادي (Roger de Moncada) حاكم ميورقة لدى محمد بن المندي (Mahomet Benimendi)، قائد بجاية[203]، حيث طلب التخفيف من وضعية المسيحيين المحتجزين في دولته، مؤكدا على سوء معاملة أسيادهم أكثر من قبل. مشيرا إلى الموقف العطوف لرجاله اتجاه رعاياه البجائيين الأسرى في ميورقة، وطلب منه تحسين الوضعية وإلا ستصيب نفس المعاملات البجائيين[204]. وتبيّن الرسائل التي بعثها الأسرى لطلب المساعدة قساوة ظروف المعيشة، حتى وإن كان للمؤلفين توجه نحو تسويد الصورة. ففي 1384 تلقى فرانشيسكو داتيني

(199)Díaz Borrás, *Problemas marítimos de Valencia, op. cit.*, p. 422.

(200) A. Conio, « Rescat d'un captiu en Riba barbaresca », *Tres vielh procès marsilhes*, Carcassonne, 1933, p. 12-16.

(201) ACA, C., Rg. 2212, f. 100r-v (23/9/1404).

(202)البربر، 3، ص 117. لكن ملاحظته الأخيرة التي وضعت النبرة على دونية المسيحيين تخالفها الوثائق التي تبيّن فداء عديد منهم.

(203)ربما كان عامل المدينة أو قائد البحر. لا تخبرنا المصادر العربية حول هذه النقطة.

(204)ARM, AH 82, f. 112r-v (12/7/1403), éd. Macaire, *Majorque et le Maghrib, op. cit.*,p. 514-517.

(Francesco Datini) من أحد شركائه البيزي جيوفاني كاروتشي (Giovanni Carocci) رسالة كتب فيها هذا الأخير من بونة: "لم أعتقد أبدا بقدرة تحمل جسم معاناة الأوجاع التي قاسيتها والحرمان الذي أقاسيه"[205]، مضيفا، إذا لم تسدد فديته، فيفضل الموت على الحياة في هذه الظروف. في الليل، كان الأسرى مصفدون في الزنزانات[206]. واشتكوا من تغذيتهم السيئة وغالبا ما يعذبون لإجبارهم على التخلي عن دينهم أو دفع فدية عالية جدا[207]. لكن لا يجب منح مصداقية مفرطة لهذه الرسائل الموجّهة إلى استعطاف المرسل إليه، خصوصا إلى التلويح بخطر اعتناق الإسلام. على غرار قوة العمل، وجب معاملة العبيد بحد أدنى من العناية. وجب على الخصوص الحفاظ على حياة الرجال والنساء، حيث تمكّن فديتهم استقدام مبالغ هامة إلى سيدهم. وأخيرا، إذا وجدت فعليا مخاطر الردة، لم تكن كبيرة دون شك، على الأقل بالنسبة للبالغين. في الواقع، لم يمكن لسيد معتنق أن يأمل في أي فدية عودة إلى الأرض المسيحية. من جهة أخرى، كانت المرجعيات الدقيقة إلى المعاملة السيئة نادرة في المادة الخبرية[208].

خلال الأسر، وجب على الأسرى العمل لحساب سيدهم، حتى وإن نقصت الشهادات حول نشاطاتهم. معلوماتنا بخصوص تلمسان هي أفضل، حيث

(205) « Non avrei mai creduto uno corpo avesse potuto sofferire le pene che i’ò soferte e disaggi ch’io soffero ». Archivio di Stato di Prato, *filza* 546, lettre Bône-Pise du 20/7/1384, citée par D. Ventura, « Cronaca di un riscatto. Dalle lettere di Giovanni Carocci, mercante pisano “schiavo” in Tunisi (1384-87) », *Ricerche storiche*, 22, 1992, p. 3.

(206)كانت السجون في غرناطة في نهاية القرن الثالث عشر بصفة عامة مخابئ تحت الأرض، حيث قيّدت أيادي وأرجل الأسرى.

R. Salicru i Lluch, « Cartes de captius cristians a les presons de Tunis del regnat de Ferran d’Antequera », *Miscel.lania de Textos Medievals*, 7, 1994, p. 552.

(207)*Ibid*.

(208)*Ibid*.

كانت الوضعية مماثلة. ففي 1320، كتب جاك ملك أراجونة إلى السلطان العبد الوادي يطالبه بتحرير رعايا لاكورونيا. وأجابه السلطان بأنه شيء مستحيل لأن "في بلدنا لا تجرى الأعمال إلا بالأسرى، حيث أن غالبيتهم حرفيون في العديد من المجالات"[209]. أيضا، وصف يحيى بن خلدون، إخباري سلالة تلمسان، مهن الأسرى في المدينة وفي باقي دول السلطان: استعمل أبو تاشفين لإرضاء طموحاته كباني: "آلاف العمال، سواء خشابون أم قفالون أم صباغون، أخذوا كلهم من بين أسرى الحرب المسيحيين"[210]. كان العديد من الرجال المستعملين في مهن البحر أسرى، استعملوا دون شك لخبرتهم، خصوصا في الإنشاءات والتصليحات البحرية. وقد أدت هذه الوضعية إلى قلق المسيحيين. ففي 1403، كتب محلفو بلنسية إلى أمير بجاية لتذكيره بالسلم الذي أبرم بين سلطان تونس وملك أراجونة، وطلبوا تحرير باسكوال برباستر (Pasqual Barbastre) بسرعة[211]. لقد كان من بين أحسن صناع الأقواس في المدينة، وفي بجاية، أجبره الأمير على صنع الأقواس وتعليم فنونه[212]. لهذا السبب، أعطيت 30 ليفر إلى زوجته لمساعدته على عودته إلى الأرض المسيحية. ليس هناك أثر لاستعمالاتهم في الأعمال الفلاحية، لكن من

(209) ACA, *Cartasarabes*, *caja* 2, n° 72, éd Alarcón y Santón, García de Linares, *Los documentos árabes*, *op. cit.*, n° 91, p. 184-186.

(210) يحيى بن خلدون، الترجمة، 1، ص 180.

(211) AMV, LLM, g3-8, f. 35r, cité par Díaz Borrás, *El Miedo al Mediterráneo*, *op. cit.*, p. 106-107.

(212) « E estiga catiu en Bogia e, aqui, lo rey moro a forsa de cors, segons de cert fon recomptat al Consell, li faca obrer ballestes e mostrar son offici a moros e açoo redunde en gran dan de christians, com aquest sia dels mellors mestres de son offici que sien en la ciutat ». AMV, *Manual de consells*, A-22, f. 131r, cité par Díaz Borrás, *El Miedo al Mediterráneo*, *op. cit.*, p. 106-107.

المحتمل استعمال الأسرى المسيحيين في هذا القطاع، على الأقل في جوانب المدينة[213].

للتخلص من هذا الظرف، بحث الكثير من العبيد عن الفرار، لكن كان المشروع صعبا وفيه مجازفة. فالذي يقبض عليه من جديد يمكن معاقبته بشدة وتثقل ظروف احتجازه[214]. كانت حظوظ النجاح ضعيفة. وكانت الإمكانيات عبر الطريق البري أكثر تقلصا، لأنه وجب عبور مجالات واسعة يسكنها مسلمون. لكن هذه الحالة كانت متوقعة في مقترحات سلم 1444 بين ملك أراجونة والسلطان عثمان التي تنص على اعتبار المسيحيين الهاربين (من مجال مسلم؟) ويصلون إلى دول السلطان أحرارا[215]. وفي 1401، تمكن بحّار من الهروب من قسنطينة والدخول إلى برشلونة، حيث كان عملا باهرا[216]. لكن بقيت الوسيلة الأكثر تأكيدا هي طريق البحر. كان بإمكان الأسرى الركوب خفية في مركب مسيحي عند مغادرته. لكن أرباب المراكب لم يكونوا موافقين على ذلك، لأنه بإمكان حركة ما أن تؤدي إلى انتقامات ضدهم وضد التجار الذين يحملونهم. وأجبرت بعض

(213) في العصر الحديث، استعمل الأسرى في الأعمال الفلاحية، وخصوصا قرب المدن.

M. Fontenay, « Le Maghreb barbaresque et l’esclavage méditerranéen aux XVIe et XVIIe siècles », *CT*, 157-158, 1991, p. 10.

(214) Salicru i Lluch, « Cartes de captius cristians », art. cité, p. 554,

إذ يذكر حالة هارب في 1327، حيث قصّ أنفه وأذناه، وقيّد بسلاسل أثقل أكثر من السلاسل التي كانت قبل محاولته.

(215) مشروع معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1444، المادة 17.

(216) T. M. Vinyoles i Vidal, « La vita quotidiana della gente di mare (esempi barcellonesi dei secoli XIV e XV) », *Medioevo. Saggi e rassegne*, 21, 1996, p. 16.

في 1465، أدخلت رواية خوارق أسير جنوي فرّ برا من بجاية ووصل خلال خمسة أيام إلى مرسى الخرز، حيث استقبله الجنويون.

Francesco Suriano, *Treatise on the Holy Land*, trad. angl. Th. Bellorini et E. Hoade, Jérusalem, 1949, p. 239.

لكن المغامرة كانت من الخوارق.

عقود الاستئجار قبطان المركب على عدم أخذ أسير فار على متنه. ففي 1491، أجّر أنتوني جالنداس الكاليسي (Antoni Galindes de Calis) مركبه إلى تاجر برشلوني يقطن بلنسية للذهاب إلى لا ماتا (La Mata) وأليكانت (Alicante)، ثم إلى بجاية مباشرة. والتزم بعدم ركوب أي أسير في هذا الميناء وعدم القيام بأي فعل يمكن أن يلحق الضرر بالتجار[217]. رغم هذا الالتزام، تمكن الأسرى أحيانا من الصعود على متن المراكب. ففي 1429، انتهز بعضهم قدوم مركب ميورقي للتسلل إليه بفضل ظلام الليل، رغم تعهد صاحبه بعدم أخذهم. أسر السلطان حينئذ كل مسيحيي ويهود بجاية وصادر ممتلكاتهم. وكان على حاكم ميورقة الكتابة إلى الأمير ليشرح له أن صاحب المركب لم يكن له شأن في القضية وبالتالي حل المشكلة[218]. وفي القرن الخامس عشر بتونس، دفعت الجماعة البندقية تعويضا في حالة فرار سجين لتفادي الانتقامات[219]، حيث كانت بكل تأكيد أحسن وسيلة لتفادي فكرة مساعدة التجار للأسرى. فإذا تمكن البعض من الوصول إلى ديارهم[220]، فإن النجاحات كانت نادرة ووجب بالأحرى أخذ الفداء المحتمل في الحسبان.

(217) ARV, P., Rg. 2007, f. 592r-593v (5/12/1491).

أيضا في 1444، تعهد صاحب يخت منطلق إلى المغرب للتجارة على عدم الإضرار بالمسلمين ولا إركاب الأسرى الفارين، تحت طائل غرامة ب 1000 ليفر بـالريو البلنسـي. ARV, P., Rg. 796, f. 26v-30v (8/1/1443)

(218) ARM, AH 112, f. 81v-82 (24/5/1429), éd. Macaire, *Majorque et le Maghrib, op. cit.*,p. 599-600.

(219) B. Doumerc, « Le consulat vénitien de Tunis (1470-1473) », *CT*, 155-156, 1991, p. 469.

(220) في 1303، تمكنت أسيرة مسيحية من الهروب من بجاية مع ابنها، وحملت معها ممتلكـات سـرقتها. وقدم مبعوث بجائي مصحوبا برسالة احتجاج من السلطان. قرر جاك الثـاني إرجـاع الأمـلاك المسـروقة بشرط التزام السفير برضاه بهذا الحل وعدم مطالبته بالهاربة أيضا.

ARM, *Realescedulas*, vol. 1, f. 25 (19/2/1303), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*,n° 556. E. de K. Aguiló, « Cartas reales. Rubrica », *BSAL*, 20, 1924-5, p. 264.

ب) الفداء

كان فداء الأسرى قضية مالية مهمة وشكلت بذلك نشاطا اقتصاديا قائما بذاته وأحد أنماط التبادل بين ضفتي البحر المتوسط. فضلا عن التأثر الذي يحدثه قرصنة وأسر المسيحيين في أرض الكفر (وبالعكس)، يجب إذن التوقف عند المشكل بصيغ تجارية ومالية وليس بمنظور ديني أو أخلاقي.

تعبئة واسعة

توجد مادة خبرية غزيرة تتعلق بفداء الأسرى في الأرض المسلمة، والتي تشهد هي لوحدها عن تعبئة السلطات السياسية والدينية، وكذلك قسم كبير من الفاعلين الاقتصاديين ومجمل مجتمع الجهات الساحلية[221]. طرح المشكل نفسه مبكرا بسبب النزاعات المجالية في المشرق (الحروب الصليبية) وشبة الجزيرة الإيبيرية (حركة الاسترداد). إلى الدراماتيكية الشخصية، يضاف الفقدان الديمغرافي بالنسبة للبلاد، وخصوصا الخوف من مخاطر الردة. كانت الكنيسة وقسم كبير من المجتمع حساسين اتجاه التهديدات التي يلقي بها هذا الأسر على نفسية هؤلاء التعساء، حيث يمكن إغواؤهم لاعتناق (الإسلام) لتفادي مصيرهم أو على الأقل لتحسينه.

تبيّن رسائل الأسرى التي حلّلها روزر سالكرو إ لوش (Roser Salicr i Lluch) هذا الخطر بالنسبة للمسيحيين "الذين ينزعجون ليلا ونهارا للتخلي عن عقيدتهم المسيحية[222]". ألحّ هؤلاء الأخيرين على التأثير الأخلاقي والديني لظروف وجودهم القاسية ولوّحوا ضمنيا بالتهديد بالردة، وهذا لتسريع فديتهم[223]. وجدت حالات اعتناق في الواقع، حيث تبيّن أن تخوفات الكنيسة لم تكن دون أساس كلية. ففي سنوات 1430، اعتنق الإسلام البلنسي خوان

(221) أنظر خصوصا: Díaz Borrás, *El Miedo al Mediterráneo*, *op. cit.*,*passim.*

(222) ACA, C, CR Ferran I, *caxa* 13, n° 1582 (s.d., sans doute de 1414 ou 1415), cité par Salicrú i Lluch, « Cartes de captius », art. cité, p. 550.

(223) *Ibid.*, p. 564.

فينيالس (Joan Vinyles) – الذي كان أسيرا ببجاية–، وتمكن من الفرار إلى مرسية، حيث تمّ اعتباره مسلما وسجن. بيد أن أمه إيزابال (Isabel) ضغطت على المشرف الملكي العام ببلنسية، مشيرة إلى ردة ابنها تحت الذعر وبعد أن كانت له الإمكانية، لحق بالأراضي المسيحية. في النهاية، بعد القسم بفراره للتصالح مع عقيدته الحقيقية، وتمّ تحرير خوان[224]. سنوات قبل ذلك، كانت لبيري دو سيرا (Père de Serra) مغامرة مشابهة رغم أنها أقل حظا. كانت تلك مغامرة السرديني أسير جيلام دو باراتس (Guillerm de Parents) في منورقة. وتمكن مع أصحابه غير المحظوظين من الهروب من الجزيرة، لكن عاصفة أبعدتهم نحو المغرب ووصلوا أسرى إلى بجاية. اعتنق الإسلام وتمكن من الفرار بعد وقت قليل من ذلك. لكن حظوظ البحر أوصلته إلى ميورقة حيث جرى التعرف عليه ونقل إلى منورقة. لم تمنعه عودته إلى العقيدة المسيحية من بقائه سجينا لدى القادة الملكيين. رافع سيده السابق – الحريص دون شك على استعادة ملكيته– عن قضيته لدى السلطات، وأشار هو أيضا بأن اعتناقه كان تحت تأثير الذعر، وإذا لم يتخل عن عقيدته يكون قد مات[225]. بجانب الحالات الاستثنائية والموثقة جيدا، كم من أسرى خضعوا لإغواء الظروف الأحسن؟ من الصعب معرفته، لكن من المؤكد أخذ الكنيسة بجدية كبيرة مسألة الخطر المحدق بهم، حيث بحثت عن مساعدة هؤلاء الرجال على أمل العودة السريعة إلى الأرض المسيحية واعتبرتهم في خطر.

(224) ARV, *Batllia, Letras y Privilegios*, 1148, f. 151r-v (2/11/1435), cité par R. Salicrú i Lluch, « En busca de una liberación alternativa: fugas y apostasía en la Corona de Aragón bajomedieval », *La Liberazione dei 'cativi' tra cristianità e islam. Oltre la crociata e il ğihād : tolleranza e servizio umanitario. Atti del Congresso interdisciplinare di studi storici (Roma, 16-19 settembre 1998)*, dir. G. Cipollone, Cité du Vatican, 2000, p. 708.

(225) ACA, C, Rg. 2446, f. 14v (5/10/1413), cité *Ibid*.

ترجم التأثّر الذي أحدثته وضعية غير المحظوظين بمسعى مالي هام، خصوصا في الجهات الساحلية، أو بتنظيم الفداء. لهذا اعتمد الأسرى على مساعدة دولهم الأصلية، سواء المساعدة العمومية أم الخاصة، والتي سمحت بعودتهم إلى الأرض المسيحية.

إنّ المساعدة المعروفة أحسن بسبب الآثار التي تركتها في المادة الخبرية هي المساعدة العمومية التي أحضرها الملوك وأحيانا السلطات البلدية.

خصّص ملوك أراجونة وميورقة في الواقع مبالغ هامة لفداء رعاياهم. ففي 1312 شارك سانش في تسديد فدية الميورقي إستاف روشس (Estheve de Rosches) المحتجز ببجاية، بمبلغ ارتفع إلى 10 ليفر، حيث اغترفه من مبلغ خصّصه أبوه جاك الثاني لفداء المسيحيين[226]. وفي 1384 أجرى ملك أراجونة عدة تبرعات لأسرى سابقين ببجاية، بكيفية سمحت لهم بتعويض ديون خصّصت لفديتهم، وأعطى أيضا 9 سو لبلنسي كان لا يزال محتجزا[227]. تترجم المساعدات الملكية في بعض الحالات بتبرع من أسير مسلم لمبادلته[228]، حيث يعفى في الغالب من تسديد رسوم الخروج[229]. نلاقي نفس هذا الاهتمام لدى الحكم في جنوة،

(226) ARM, RP, compte de 1312, f. 17r, éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*,n° 980bis.

(227)Éd. A. Altisent, *L'almoina reial a la cort de Pere el Ceremonios. Estudi i edicio dels manuscrits de l'almoiner fra Guillem Deudé, monjo de Poblet (1378-1385)*, Poblet, 1969, cité par Ferrer i Mallol, « La redempcio de captius », art. cité, p. 276.

كانت المبالغ الممنوحة متنوعة جدا وأحيانا ضعيفة جدا (9 سو غالبا)، وأحيانا هامة أكثر (حتى إلى 6 فلورين).

(228) Par exemple ARV, MR, Rg. 35, f. 157v ; ACA, C., Rg. 2415, f. 68v-69r (23/4/1415).

(229)ARV, MR, Rg. 35, f. 156v (22/2/1414).

سواء مباشرة[230] أم من خلال ديوان الرحمة[231]. وفي صقلية، أنشأ الملوك رصيدا ماليا خاصا لفداء الأسرى، حيث موّله بالرسوم المفروضة على الوصايا والتركات[232]. وفي بيزا أيضا، تكفل مجلس المدينة بمواطنيه المحتجزين في المغرب: في 1379 بميورقة اعترف ستة أسرى بيزيين سابقين ببجاية[233] للسيد أندريا باروكتيو (Andrea Barructio)، وهو ممثل مجلس المدينة، بالمبالغ التي دفعها دون شك الميورقيون سلفا لتسديد فديتهم[234].

فضلا عن الملوك، شاركت المدن باهتمام في هذا الفداء[235]، خصوصا بلنسية التي خصّصت مجهودات مالية هامة. ففي1324، تمّ إصدار القوانين « Ordinacions per a traure cautius christians de poder de infeels »، التي طرحت الإطار القانوني لتدخل المدينة. يجمع ممثلون عن كل إبرشية المال، خصوصا جمع صدقات أيام الأعياد. يتلقى كل أسير بعد ذلك تبرعا

(230) في 1424 عيّن أمبروجيو سبينولا (Ambrogio Spinola) لمعالجة تحرير الأسرى الذين كانوا في يد السلطان. وكمكافئة، سيتلقى حسب اختياره حمولة من قاضي بيرا أو عمولة من قس كيافاري. في المقابل، يجب عليه تسديد غرامة ثقيلة في حالة الرفض. ASG, AS, 508, n° 572 (23/12/1424). وفي 1430، اشتكى مجلس المدينة لدى أبي فارس بخصوص قارب جنوي استولي عليه واقتيد إلى بجاية. وكتب أيضا إلى قنصل الجنويين بتونس ليطلب منه التدخل. ASG, AS, 1779, f. 272r-v, n° 641-642 (9/10/1430).

(231) في 1424 انتخب أربعة مرتبطين بديوان الرحمة *(Ufficio di Misericordia)* لمهمة جمع المبالغ الهامة (3000 ليفر) لتحرير السجناء الذين يحتجزهم ملك تونس. ASG, AS, 508, n° 55 (28/1/1424)

(232) S. Fodale, « Il riscatto dei Siciliani “captivi” in Barberia (XIV-XV secolo) », *Quaderni medievali*, 12, 1981, p. 62.

(233) اثنان في بيزا وواحد في ليفورن واثنان في بيومبينو (Piombino) وواحد في جزيرة ألب (Elbe).

(234) ASP, *Diplomatico, Atti pubblici*, 16/9/1379. Le total des sommes avancées dépasse les 660 florins.

(235) Díaz Borrás, « Atención valenciana », art. cité, p. 337-353.

ب 15 ليفر[236] للمساعدة على فدائه. ويلتزم وكيل المستفيد – الذي كان غالبا من عائلته- بإرجاع المبلغ إذا توفي الشخص قبل تحريره، أو إذا ارتدّ أو إذا أفدى بنفسه دون تدخل المدينة[237]. واستفاد العديد من البلنسيين المحتجزين ببجاية من هذه المساعدة، خصوصا بداية من 1375[238].

لكن بصفة عامة، استنفر هذا المشكل كافة مجتمع الجهات الساحلية. ففي بلنسية، شاركت الفرق المهنية في فداء أعضائها[239]، ونلاحظ غالبا تضامنا بين رجال نفس المهنة: ففي 1269 ببرشلونة أوضح التاجر بيري توراس (Pere Tores) بضرورة كون الأسرى الذي يفتديهم بماله تجارا[240]. وانتظمت الطرق اللائكية أيضا لتقديم المساعدة[241].

تعددت بكثرة تبرعات مساعدة الأسرى في الوصايا. في نهاية القرن الرابع عشر وفي القرن الخامس عشر، تعددت وراثة مساعدة الفداء (in aux ilium rédemptions) في كتالونيا[242]. كانت في الغالب مبالغ متواضعة جدا، موجّهة

(236) أحيانا كانت الأفضلية لأشخاص مهمين جدا، على غرار النبلاء أو أصحاب المراكب.

Díaz Borrás, « Atención valenciana », art. cité, p. 348.

(237) *Ibid*.

(238) Díaz Borrás, *El Miedo al Mediterráneo, op. cit., passim*.Id., « Atención valenciana », art.cité, p. 347.

(239) Díaz Borrás, « Atención valenciana », art. cité, p. 343.

(240) C. Batlle i Gallart, M. Casas, « La caritat privada i les institucions benèfiques de Barcelona (segle XIII) », *La Pobreza y la asistencia a los pobres en la Cataluña medieval*, I, Barcelone, 1980, p. 157. Voir également Vinyoles i Vidal, « La vita quotidiana », art. cité, p. 15-17 ; Ch. Verlinden, *L'Esclavage dans l'Europe médiévale*, I, *Péninsule ibérique - France*, Bruges, 1955, p. 538.

(241) G. Cipollone, « L'ordre de la Sainte Trinité et de la rédemption des captifs (1198). Les Trinitaires dans le Midi », *Islam et Chrétiens du Midi*, Toulouse, 1983 (*Cahiers de Fanjeaux*, 18), p. 149.

(242) N. Coll Julià, « Documentación notarial relativa a los pobres en la Cataluña del siglo XV », *La Pobreza y la asistencia à los pobres en la Cataluña medieval*, II, Barcelone, 1982, p. 298.

خصيصا لاستكمال المال الذي جرى جمعه. ففي 1419، ترك برنات روجر (Bernat Roger) -وهو تاجر برشلوني- 4 ليفر لجاكميتا (Jacmeta)، زوجة ماتيو فابر (Matheu Fabrer)، لفداء زوجها الأسير في بجاية[243]. وفي 1423، تلقت ألمادا (Alamada)، أرملة بيري لتونيس (Pere Lethonis) موثق بلان (Blanes)، من جوهانيس رونييرو (Johannis Ronerio)50 سو لفداء ابنه ووعدت بإرجاعهم في حالة وفاة هذا الأخير ببجابة قبل تحريره[244]. وفي 1434، تلقت جابرييلا (Gabriela)، زوجة البحّار البرشلوني أندرو سرفيا (Andreu Servià)، 20 سو من تومازي (Thomasie)، أرملة صاحب مركب بيري بنسجام (Pere Ponsgem) لفداء زوجها المأسور ببجاية in auxilium redemptionis sive rescat dicti viri mei, qui pro nunc captivus detinetur per infideles agarenos in civitate et regno de Bogie terre barbarorum[245]. أيضا في بلنسية احتوت أغلبية الوصايا على تركات في هذا المعنى[246]. وأخيرا، تلقى الأسرى وأقاربهم على الخصوص من الملك تراخيص صدقات لجمع المبالغ المطلوبة[247]. ففي 1406 على سبيل المثال كان جوهان فليب (Johan Felip)، قس قلعة أوبرياس (Castello d'Empurias) في أسقفية الجيرون (Gérone)، في بجاية ووجب عليه تسديد 120 دينار مزدوج للمسلم الذي احتجزه. وأعطى ملك أراجونة إلى أخيه ستيفان (Stefan) رخصة

---

(243) AHPB, A. Brocard, *Primum librum apocharum faciencium pro diversis manumissoriis*, 1410-1424 (106/37), f. 61v-62r (8/4/1419).

(244) AHPB, B. Nadal, *Manual de cartas de pago de diferentes testamentarias*, 1423-1436 (58/181), f. 12r-v (18/5/1423).

(245) AHPB, Jan Franch, *Manual*, 23, f. 118v-119r, éd. Vinyoles i Vidal, « La vita quotidiana », art. cité, p. 35.

(246) Díaz Borrás, « Atención valenciana », art. cité, p. 346. A. Borràs i Feliu, « L'ajuda als pobres en els testaments de Catalunya i Valencia del segle XV », *La Pobreza y la asistencia a los pobres, op. cit.*, p. 371.

(247) Ces licences fixaient la somme à collecter et une limite de temps.

طلب الصدقات خلال سنتين وهذا لجمع المبلغ[248]. وكان بإمكان منح هذه الرخصة إلى أسير عائد إلى الأرض المسيحية إما لتسوية ديونه[249]، وإما لتسديد فديته الشخصية وفدية أقاربه الذين تركهم في الأرض المسلمة.

لكن كان قسم كبير من التبرعات موجها بأغلبية إلى جماعات الرهبنة المتخصصة في الفداء، حيث كانوا بحاجة إلى جمع أرصدة مالية للقيام ببعثاتهم على أكمل وجه. أجبرت قاعدة الثالوثيين (Trinitaires) على تخصيص ثلث موارد كل منزل لأعمال الفداء[250]. لهذا فإنهم دعوا إلى الكرم العمومي. ففي 1388، أعطت مدينة بلنسية إلى جماعة رهبان الشكر (ordre de la Merci) 100 فلورين ذهبي أراجوني لفداء عدد من المسيحيين[251]. لكن كان المؤمنون خصوصا هم الذين ساهموا بمواردهم من خلال الصدقات ووصايا التركات. ففي الجيرون (Gérone) ما بين 1320 و1330، احتوت الوصايا على بند متعلق بفداء الأسرى (pro captivis redimendis) أو ببساطة للرهبان المرسيداريين[252]. يوجد نفس الحرص على فداء المسيحيين في الوصايا

(248) ACA, C., Rg. 2180, f. 59r-v (8/6/1406).

(249) ACA, C., Rg. 2212, f. 100r-v (23/9/1404) :

أسر جيلام سجيرا (Guillem Segerra) وهو بحّار من جزيرة ميورقة وأرسل إلى بجاية لمدة سبعة أعوام، وفدي ب 120 دينار مزدوج ذهبي. ووجب عليه في الحين تعويض الأشخاص الذين قدموا الأموال وتمّ الترخّص له لجمع الصدقات.

(250) G. Cipollone, « La redenzione e la liberazione dei cativi. Lettura cristiana e modello di redenzione e liberazione secondo la regola dei Trinitari », *La Liberazione dei 'cativi', op. cit.*, p. 380-384.

(251)AMV, *Manual de consells*, A 19, f. 25v (6/9/1388).

(252) Chr. Guillené, « Assistance et charité à Gérone au début du XIVe siècle », *La Pobreza y la asistencia a los pobres, op. cit.*, p. 198-199.

كانت المبالغ بصفة عامة متواضعة (6 سو و1 دونيي في المعدل)، لكنها أكثر أهمية من التي أعطيت للمشافي.

البرشلونية[253]. لقد أدى البحث عن المال أحيانا إلى التنافس بين جماعات الرهبان الرئيسية المتعلقة بالفداء، دون الحديث عن حالات الباحثين المزورين الذين كان عددهم كبيرا[254]. لكن لم تكف هذه الأرصدة المالية خلال سنوات الأزمة. ففي 1390، أرغم بروفانسي ثالوثي بلنسي على بيع ضرائب عقارية لتسديد فداء أخوين محتجزين في بجاية[255]. وفي 1388 عجز مرسيداريون عن تحرير ثمانية وثلاثين شخصا ونظرا لكثرة عدد المسيحيين المحتجزين في بجاية، فقد طلب من خوم (Jaume) كاردينال بلنسية الإعلان عن الغفران لكل من يعطي المال للمفدين[256].

ضوابط الفداء

الإطار القانوني

حدد الفقهاء المسلمون الإطارات المنظّمة لهذا الفداء[257]،في سياق إيديولوجي وسياسي جهادي وليس على الصعيد الاقتصادي. يذكر الونشريسي ترخيص الإسلام بفداء الأسرى مقابل دفع فدية[258]. لكنه يميّز عدة فئات من

(253)في القرن الثالث عشر، من بين 283 وصية، كان 27 منها لصالح المرسيداريين، و81 أعطت المال لفداء الأسرى دون توضيح جماعة معينة من الرهبان. من جهة أخرى، جمعت الإبريشيات تبرعات، حيث جمعت بعد ذلك عند المرسيداريين لحملها إلى مدينة الأسر.

Batlle i Gallart, Casas, « La caritat privada », art. cité, p. 156, 181.

(254) R. Sáinz de la Maza, « Los mercaderios de la Corona de Aragón durante la segunda mitad del siglo XIV », *Miscel.lania de Textos medievals*, 4, 1988, p. 228.

(255)ARV, P. 2641, f. 183r-185v, 189r (7-8/6/1390).

(256)Archivo Histórico Nacional, Madrid, *Clero*, carp. 122, n° 14 (1388), cité par Brodman, *Ransoming captives*, *op. cit.*, p. 112-113.

(257) F. D. Gazulla, « La redención de cautivos entre los musulmanes », *Boletín de la Real Academia de Buenas Lletras de Barcelona*, 13, 1928, p. 321-342.

(258) A. Benremdane, « Al-Ğihād y la cautividad en los dictámenes jurídicos o fatuas de los alfaquíes musulmanes y de Al-Wanšarīsī, en particular : el caso de los musulmanes y de los cristianos de Al-Andalus », *La Liberazione dei 'cativi'*, *op. cit.*, p. 454.

الأشخاص، بحسب جدارتهم في القيام بالحرب. كانت المسألة هي معرفة ما إذا كان ممكنا ترك عودة أحد إلى دار الحرب حيث سيكون بإمكانه بعد ذلك محاربة المسلمين. كانت الإجابة بسيطة بالنسبة للأطفال والمسنين والنساء والجرحى وكل من ليس باستطاعتهم حمل الأسلحة. يكفي إذن مبادلتهم مقابل فدية[259]. بالنسبة للرجال الشبان في المقابل، كان موقف الفقهاء مختلفا. فهم شكّلوا تهديدا مزدوجا، من جهة لأنهم كانوا قادرين على القتال، ومن جهة أخرى، لأنهم استطاعوا رؤية المسلمين خلال أسرهم وسجّلوا معلومات ذات قيمة إستراتيجية. لهذا ذهب بعض الفقهاء حتى إلى ترخيص قتلهم. لكن سمحت الأغلبية بتحريرهم، بالمبادلة فقط[260].فتوازن القوى تمّت المحافظة عليه وسمحت العملية بعودة المقاتلين الأقوياء.

حملت المسألة الأخرى التي طرحها الفقهاء على من له سلطة القانون على إجراء هذا التحرير. فالبعض اعتبره حق الإمام وحده إن استطاع، في حين سمح آخرون لسيد الأسير بتحريره بمبادرته الخاصة[261].

لكن لا يجب أن نرى في هذه الفتاوى (أندلسية غالبا أو مرتبطة بسياق حركة الاسترداد المسيحي) انعكاسا للتنافر بين الإسلام و المسيحية، حيث لا تعطي إلا موقفا نظريا. عمليا، خضع الفداء أساسا لقواعد ربحية خالصة أوللمنطق الدبلوماسي.

تختلف ضوابط الفداء في بادئ الأمر حسب ما نجدها وليس في فترة السلم. في غياب اتفاق ما، تحدد قوانين السوق وأهلية المفاوض لوحدهم سعر الفداء. يمكن للأسير الإصغاء بنفسه للسعر الذي سيسدد ويبرم عقدا مع سيده.

(259) Benremdane, art. cité, p. 454.

تعطي تفاصيل تحرير هؤلاء الأسرى الضعفاء تحايل أكثر تعقيدا. أنظر:

M. Hasnaoui, « La ley islámica y el rescate de los cautivos según las fetwas de al-Wanšarīsī e Ibn Tarkāt », *La Liberazione dei 'cativi'*, *op. cit.*, p. 554.

(260) Benremdane, art. cité, p. 454 ; Hasnaoui, art. cité, p. 554.

(261) Hasnaoui, art. cité, p. 555.

كان هذا العقد يسمى في كتالونيا[262] « tallas » أو « composiciones de alforria ». وجد هذا المبدأ أيضا في الرسائل الحفصية كما يبيّنه مشروع معاهدة 1444 التي نصّت على حالة « taglia »، التي كان لها سعر مرتفع جدا[263].

في المقابل وإبان فترة السلم، حددت المعاهدات – أحيانا بدقة كبيرة- إطار هذه العمليات وتثبيت الأسعار[264]. إنّ سلم 1403 بين ملك أراجونة وسلطان تونس هو أحسن مثال عن ذلك. ففي 6 جوان بعد سنوات الأزمة التي تميّزت بنشاطات القراصنة الحفصيين – نهب توريبلانكا وحملة الانتقامات ضد السواحل الحفصية- توصل مارتن الإنساني (Martin l'Humain) وأبو فارس إلى اتفاق لمدة خمس سنوات في كل الأراضي الموضوعة تحت سلطتهما. ليس أقل من خمس عشرة مادة تنظّم مسألة الأسرى، وهي كثيرة سواء على الأراضي الحفصية أم في مجالات لاكورونيا أراجونة. في بادئ الأمر، لتفادي خروج الأسرى عن تطبيق الاتفاق، منع نقلهم خارج المملكتين المعنيتين بالمعاهدة. إذا خالف مالك هذه القاعدة، لا يجب عليه إرجاع الأسير فحسب، وإنما أيضا تسديد غرامة مساوية لثمنه[265]. يجب أن يكون مبلغ التسديد مساويا للمبلغ الذي أنفق خلال البيع الأول، دون مراعاة أي مكسب[266]. كان الهدف هو تفادي المضاربة حول هؤلاء الرجال وزيادة مصطنعة لتكلفتهم عشية فديتهم. ففي أكتوبر 1403، وجب تحرير البلنسي باسكال بارباستر (Pasqual Barbastre)– الذي كان محتجزا منذ ثمانية

(262) M. D. López Pérez, « La financiación de las empresas corsarias catalano-aragonesas durante la Baja Edad Media : los armamentos de naves mallorquinas », *VIII jornades d'estudis historics locals : el comerç alternatiu. Corsarisme i contraban (ss. XV-XVIII), Palma de Mallorca, 1989*, Palma de Majorque, 1990, p. 96.

(263) مشروع معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1444، المادة 12.

(264) لا تطبق هذه القواعد إلا على سبي الأسرى قبل التوصل إلى السلم. يجب تحرير البقية مجانا.

(265) اتفاق سلم لاكورونيا أراجونة – تونس، 1403، المادة 3.

(266) المادة 7.=

أعوام - حيث أسر إذن خارج فترة الهدنة لدى موري في بجاية- وهذا بتسديد سعر الشراء الأول إلى سيده، طبقا للمعاهدة[267]. في الأخير بالنسبة للذين كانوا ملكية شخصية للسلطان، حدد السعر بخمسين دينار مزدوج على الرأس[268]. لا يدفع أي رسم خروج أو غيره على هؤلاء الرجال عند تحريرهم، ويمكنهم العودة إلى (مملكتهم) مع ممتلكاتهم وأموالهم[269]. في الأخير نصّ الاتفاق بدقة على بعض الحالات الخاصة: الأطفال المولودون في الأسر[270]، واستحالة العودة بالموت أو بالاعتناق[271]، وتأخر التسديد[272]، والأشخاص الذين تمّ شراؤهم خلال نفس البيع[273].

هدفت هذه الضوابط إذن إلى استرضاء ضروريات السلم ومصالح ملاك الأسرى، ووضعت سعرا معقولا أو على الأقل تقليص المضاربة التي يمكن أن تكون موضوع هؤلاء المساكين.

تمثل الفداء عمليا في حالتين. حيث استطاع الأسير الاستفادة من تحرير جماعي في إطار مفاوضة دبلوماسية (يتعلق إذن الأمر بتبادل في الغالب)، أو من عملية فداء أجرتها جماعات الرهبان المفدين على غرار الثالوثيين أو المرسيداريين. خارج هذا الإطار كان الفداء متفاوضا عليه شخصيا.

(267) ACA, C., Rg. 2177, f. 9r (2/10/1403). =رسالة بعثها ملك أراجونة إلى أبي فارس

(268) اتفاق سلم لاكورونيا أراجونة – تونس، 1403، المادة 13.

(269) المادة 9، 11.

(270) إذا ما ولدوا قبل توقيع السلم وسنهم أقل من عشر سنوات، لا يسددون إلا نصف سعر فداء أبويهم، وإذا ولدوا بعد التوقيع، فإنهم أحرارا. المادة 5.

(271) المادة 4.

(272) المادة 8.

(273) يمكنهم فداء أنفسهم فرديا. المادة 12.

بعثات الفداء الرسمية وتبادل الأسرى

كانت العمليات المعروفة أكثر هي الفداء والتبادل الجماعي عبر الطريق الدبلوماسي، لأنها تركت مادة خبرية غزيرة، في الغالب في السنوات التي تبعت إمضاء معاهدة سلم.

تعطينا سنوات 1312-1320 مثالا موثّقا جدا. ففي 1312 أمضى أبو بكر سلطان بجاية المستقل سلما مع الملك سانش الميورقي، وسنتان بعد ذلك مع جاك الثاني الأراجوني. ونصّ اتفاق 1314 على تحرير كل الأسرى المحتجزين على أراضي السلطان ونفس الشيء تحرير كل البجائيين الأسرى على أراضي ملك أراجونة. ونصّ من جهة أخرى على أنه في حالة هجوم خلال فترة الهدنة، يجب تعويض الأضرار خلال الثلاثة أشهر التي تلي الشكوى[274]. اقتصرت معاهدة 1312 على منع القرصنة، وهذا ما شكّل إطارا قانونيا للشكاوى اللاحقة[275]. في السنوات التي تلت، تلاقت السفارات للمطالبة بتحرير الأسرى، والمجيء للبحث عن هؤلاء الأخيرين، أو عكس ذلك للاحتجاج ضد بطئ العملية. ففي 1315 تلقى جاك الثاني الأراجوني تقرير برنات بنينكاسا (Bernât Benecasa) -قنصل بجاية بالنيابة- الذي وصل يوم 5 فيفري برفقة سفير السلطان فران خوفي (Ferrand Jove).في الغد كان في استقبال برنات الحاجب ابن غمر، الذي التزم بدفع الإتاوة التي يدين بها لملك أراجونة. بعد عدم تمكنه من جمع المبلغ المقدر بألف دينار، أدخل الحاجب إلى الفندق ثمانية وثلاثين من رعايا لاكورونيا أراجونة، الذين شكّلوا قيمة الدنانير الموعودة[276]. وألح على تحرير البجائيين الذين أسروا على متن مركب الميورقي فورنال (Fournels)، والتزم بتسديد

(274)معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1314، المادة 11، 15.

(275)معاهدة ميورقة – بجاية، 1312، المادة 8.

(276)من بين الواحد والأربعين أسيرا، توفي واحد، وتمكن آخر من الفرار، وأعطي الثالث إلى تورنـاميرا (Tornamira)، الذي قدم على متن يخت من ميورقة.

فديتهم خلال ستة أشهر بمبلغ ألف دينار. طلب فقط كإجراء استثنائي إعادة رجل فقير وزاهد في أقرب وقت ممكن[277]، الذي يعود إلى فرانسيسك مارداس (Francesc Marrades)، الذي كان شيخ مدرسة في بلده[278]. أيام بعد ذلك وعد جاك الثاني الحاجب بالتدخل لصالح هذا الرجل القديس[279]، وطمأنه بتحرير بقية الأسرى عندما يتلقى الألف دينار التي وعده بها[280]، وأمر لهذا المشرف الملكي العام بمملكة بلنسية بالبحث عن البجائيين الذين كانوا على متن سفينة برنات دو فورنال. وجب على المشرف الملكي تحديد سعر الفداء بإنصاف، وهذا حتى لا يتجاوز الألف دينار التي وعد بها السلطان، كما دعي أيضا عدم التأخر في تحرير شيخ المدرسة الذي طالب به ابن غمر[281]. وأخيرا، طلب جاك الثاني من المشرف الملكي إلغاء الالتزام الاحتفالي الذي عقده رعاياه المحررون، الذين طالبوه به عند وصولهم إلى بلنسية، بوعدهم بدفع 1000 دينار[282].

مع ميورقة دائما، أعطت معاهدة 1312 إمكانية عودة الأسرى، وفي 1313 نظّم المفوض الميورقي جريجوي سالومبي (Grégori Salembé) تبادلا. لكن الملك سانش أعاب على هذا الأخير جرّه إلى نفقات مفرطة وطلب فتح

(277) « Quells tenen per sant en la lur lig. »

(278) ACA, CRD, Jaime II, *caja* 101, *extra series*, n° 892 (3/4/1315), éd. H. Finke, *Acta Aragonensia. Quellen zur deutschen, italienischen, französischen, spanischen zur Kirchen- und Kulturgeschichte aus der diplomatischen Korrespondenz Jaymes II (1291-1327)*, Berlin-Leipzig, 1922, III, p. 511-513 (avec une date à corriger).

(279) ACA, C., Rg. 24, f. 126r (13/5/1315), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1124.

(280) Id., f. 126r (18/5/1315), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1123 ; Capmany, *Memorias*, *op. cit.*, n° 98, p. 142-143.

(281) Id., f. 126v (18/5/1315), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1125.

(282) Id., f. 126v-127r (28/5/1315), éd. *Ibid.*, n° 1126.

تحقيق[283]. وتسمح الشهادات التي جمعت لصالح سالومبي من تتبع المفاوضات التي قادها بهدف هذا التبادل[284]. كان محاور السفير هو الفقيه (alfaqui) البجائي، بمعنى الحاجب ابن غمر الذي أدار شؤون الدولة باسم أبي بكر. لكن لم يحاوره مباشرة. لقد جرت المحادثات في شانية ميورقية راسية في الميناء أمام باب الصناعة. كان في بادئ الأمر جارسيا بيراز دو مورو (Garcia Pérez de Moro) قائد مليشيات بجاية المسيحية وسيطا، حيث تصرف باسم الحاجب ورجع إليه بانتظام لتبليغه بالمحادثات. في أول الأمر اقترح ابن غمر تسليم اثني عشر ميورقيا وطالب مقابلهم خمسين رعية من رعايا السلطان الأسرى على أراضي سانش[285]. توافق في النهاية جارسيا لوبيز وسالومبي على تحرير ثلاثين منهم، لكن الحاجب رفض وأرسل قائده على متن يخت، حيث لم يطالب في هذه المرة إلا بأربعين شخصا. أمام رفض سالومبي من جديد، الذي لم يرد اجتياز الثلاثين، تفرق الرجلان دون اتفاق. التقى جارسيا لوبيز في طريقه ببنيت بلونكاس (Benet Blancas)، قنصل الميورقيين، والجنوي أندريول دو بلمونت (Andriol de Bellmunt) (أندريولو بلوندو؟) (Andreolo Belmondo)، اللذين أرسلهما الحاجب للحديث مع سالومبي. صعد الرجال الثلاثة على متن مركب وتوصلوا في النهاية إلى اتفاق تفاهم: سيبادل اثني عشر ميورقيا باثني وثلاثين بجائيا، اثنان منهما سيدفع ثمنهما القنصل. كان لسالومبي حرية اختيار المسلمين المحرّرين، حيث فضّل الذين مناهم سهل وذوي الأسعار المنخفضة. رجع القائد لرؤية ابن غمر، الذي أعطى موافقته وأرسل إبراهيم أرجنتر (Ibrahim Argenter) مع

(283) ARM, *Realescedulas*, vol. 3, f. 104v-105r (17/8/1313), éd. E. de K. Aguiló, « Incident surgit ab motiu del canvi d'esclaus cristians y moros, pactat despres de la pau », *BSAL*, 15, 1915, p. 226.

(284) ARM, *Realescedulas*, vol. 3, f. 107v-112v (août 1313).

نشر أجيلو مجمل هذا الملف: Aguiló, « Incident », art. cité, p. 226-233.

(285) يوضح أحد الشهود: من بجاية وقسنطينة والقل وجيجل.

سالومبي لاستلام الرجال المحررين. عفا في نهاية المطاف سانش عن سالومبي وقبل بإرسال اثني وثلاثين بجائيا رفقة ممثل السلطان.

أعطى هذا التحرير إذن مفاوضات على أعلى مستويات الدولة، وهذا لا يستبعد مساومات حادة، حيث أمكنها الاستمرار لسنوات ودون أن تؤدي إلى اتفاق.

نشاط جماعات الرهبان

ساعدت الكنيسة في تطور الجماعات المتخصصة في أنشطة الفداء، نظرا لانشغالها بمشكل خطر الردة. ففي 1198، أيّد إينوسونت الثالث (Innocent III) نظام الثالوثيين (Trinitaires)[286]، وفي 1218 (أو في 1223)، أسّس بيار دو نولساك (Pierre de Nolasc) وريمون دو بنيافور (Raymon de Pe□afort) نظام جماعة المرسيداريين[287] (Mercédaires). أعطت هاتان الجماعتان لنفسيهما مهمة مساعدة عودة المسيحيين المحتجزين في أرض الإسلام[288]. وتركتا للأسف قليلا من الأرشيفات النافعة لمعرفة نشاطاتهما في الفداء[289]. بحث مؤرخوها في العصر الحديث عن رواية الأفعال السامية لإخوانهم، لكن مبالغاتهم المبنية على قصص مشبوهة وغالبا ذات خوارق،

(286) S. Pagano, « Il testo della Regola dei Trinitari (1198) : redazione, annotazioni diplomatiche, aggiornamenti del secolo XIII », *La Liberazione dei 'cativi'*, *op. cit.*, p. 72-76.

(287) Y. Dossat, « Les ordres de rachat, les Mercédaires », *Assistance et Charité*, Toulouse, 1978 (*Cahiers de Fanjeaux*, 13), p. 376.

اعترف جريجوار التاسع (Grégoire IX) بجماعة الرهبان هذه في 1235.

Sáinz de la Maza, « Los mercaderios », art. cité, p. 221.

(288) ساهم متدينون آخرون في هذا الفداء بالمغرب، لكن بصفة هامشية جدا، على غرار الدومينكانيين والفرانسيسكيين.

(289) وصف إيف دوسا (Yves Dossat) المرسيداريين ب"فقراء الأرشيف"، ونفس المعاينة يمكن إجراؤها بالنسبة للثالوثيين Dossat, art. cité, p. 366 ; Cipollone, « L'ordre de la Sainte Trinité », art. cité, p. 137. يتعلق أرشيفهم في جوهره الأساسي بالتراث العقاري.

جعلت استعمالها صعبا[290]. تبقى السنوات الأولى لنشاطهم في المغرب إذن مجهولة جدا. في منتصف القرن الثالث عشر، لم يكن للمرسيداريين إلا خمسة عشر دارا، جمعت مائة راهب[291]. ظهر هؤلاء المتدينون في المادة الخبرية على الخصوص بداية من الربع الأخير من القرن الرابع عشر.

يتولى البعثات دائما أشخاص من الدرجة الأولى ومن ذوي الخبرة، عيّنهم مجلس رهبان الجماعة[292]. ففي 1373، غادر كموندور المرسيداريين في ميورقة وبامبلونة (Pampelune) إلى سلطنة تونس[293]، وفي 1388 ذهب كومندور المرسيداريين ببرشلونة وبساجنتو (Sagunto) إلى بجاية[294]. أيضا في 1398، وصل كومندور منازل تولوز (Toulouse) وبوردو (Bordeaux) إلى ميورقة بعد تحريرهم لثلاثة عشر شخصا في بجاية[295]. غادرت البعثات بالأموال التي خصصوها لهذا الفعل وأحيانا بالمبالغ التي سلمها لهم الخواص لتحرير أحد أقاربهم. ففي 1407، سلّمت أم برترون رودولف (Bertrand Rodolphe)–

(290)بالنسبة للثالوثيين، أنظر:

P. Dan (v. 1580-1649), « Les plus illustres captifs », *RA*, 27, 1883, p. 11-35, 191-206, 355-79 ; 28, 1884, p. 49-67, et à part, Paris, 1902.

بالنسبة للمرسيداريين:

G. Tellez (1581-1648), *Historia general de la Orden de Nuestra Señora de las Mercedes*, I (1218-1567), éd. M. Penedo Rey, Madrid, 1973.

(291) Dossat, art. cité, p. 382.

(292) López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 721 ; Brodman, *Ransoming captives*, *op. cit.*, p. 108.

(293) ACA, C., Rg. 1389, f. 96v-97r (20/6/1373).

(294)Archivo Histórico Nacional, Madrid, *Clero*, carp. 122, n° 14, cité par Brodman, *Ransoming captives*, *op. cit.*, p. 112-113.

(295) ARM, AH 74, f. 100v, éd. Macaire, *Majorque et le Maghrib*, *op. cit.*, p. 494-495.

من بين الأسرى المحررين، نجد البعض أصله من مملكة فرنسا وصقلية وميورقة وبرشلونة، إلخ.

وهو بحّار من سان ماكسيمان (Saint-Maximin)- ستين فلورين إلى الأخ رايمون دو ريب (Raymond de Ruppe)، من دير مبونبلييه لفداء ابنها(296).

في بعض الحالات، يمكن للمتديّن تسبيق المال، الذي يجب تعويضه عندما يرجع الشخص إلى أهله. ففي 1398، وعد الأخ جون دو بلمريس (Jean de Bléerais)، -الذي انتخبه مجلس رهبان الثالوثيين بمرسيليا لبعثة فداء إلى بجاية- ألازاسي (Alsace)، زوجة لورون فاسالي (Laurent Vass allie)، بمعالجة تحرير زوجها في أحسن الظروف الممكنة. في حالة النجاح، وجب عليها تسديد 50 فلورين إلى مجلس رهبان مرسيليا(297). وأخيرا، كان بإمكان المفدين المغادرة رفقة أسرى مسلمين بهدف مبادلتهم. ففي 1431، اشترى كمندور الدير المرسيدايري ببلنسية موسى بن كلمة البجائي ومنصور بن علي الجزائري لمبادلتهما بالمسيحيين(298). أحيانا، اقتصر دورهم على مساعدة الفداء ماليا وجرى بواسطة تاجر(299)، مثل في 1320 عندما أعطى كمندور دار الجيرون 100 سو إلى جيلام دو بيترا (Guillem de Petra) لمساعدته على جمع الفدية المطلوبة لابنه المحتجز في بجاية(300).

كانت المهمة صعبة(301)، ولهذا كان يجب الطلب من السلطات الحفصية تسهيل المسعى، وهذا ما أدى إلى تدخل الملك. ففي أوت 1403، كتب الملك الأراجوني مارتان إلى قائد بجاية محمد كريسكو (Mahomet Cresco) يخبره بقدوم الأخوين المرسيداريين خوان كريرا (Johan Cirera) وخوان دو منتاجوت

(296) ADBR, 351E 138, f. 5r-v (26/3/1407). En cas d’insuccès, les soixante florins lui seront rendus.

(297) ADBR, 351E 79, f. 33v (29/5/1398).

(298) ARV, MR, Rg. 31, f. 136r (12/5/1431).

(299) Sáinz de la Maza, « Los mercaderios », art. cité, p. 238.

(300) ACA, *Monacales* 1276, f. 5r-6r (2/1/1320), cité par Brodman, *Ransoming captives*, *op. cit*., p. 105.

(301) تقاسم البعض مصير الرجال الذين حرّروهم. في 1390، احتجزوا أسرى في بجاية.
ARV, P. 2641, f. 183r-185v, 189r (7-8/6/1390).

(Johan de Montagut)، وطلب منه مساعدتهم في مهمتهم[302]. بعض الأشهر بعد ذلك في مارس 1404، كتب حاكم ميورقة إلى "ملك بجاية" في نفس المعنى، عشية مغادرة مرسيداريين[303]. طلب منه خصوصا السهر على فداء الأسرى بسعر بيعهم الأول، طبقا للسلم المبرم[304]. بصفة عامة، تلقت هاتان الجماعتان دائما مساندة السلطات المسيحية، سواء أكانت مادية أم دينية، وهذا ما سهّل من مهمتهما[305].

عندما يحّرر الأسير ويرجع إلى أهله، كان مدينا لجماعة الرهبان التي ساعدته. فيلتزم بطاعة الإخوان وإتباعهم لمدة سنة ويوم[306]. ووجب عليه أن يسدد لهم كامل التبرعات وتركات الوصايا التي كانت موجهة له، وهذا إلى غاية تغطية كلفة الفداء زيادة عن المصاريف التي حدثت[307]. بالمقابل، وجب على الإخوان إطعامه وكسوته وعندما تنقضي هذه السنة، يسمح له بالعودة إلى أهله.

من الصعب تقدير نتائج هذه البعثات إلى بجاية. ليس ممكنا الاستناد إلى الروايات المتأخرة في حين أن المعطيات الرقمية نادرة: 38 فداء للمرسيداريين في

(302) ACA, C., Rg. 2246, f. 65v (2/8/1403). ACA, C., Rg. 1389, f. 96v-97r (20/6/1373) :

رسالة الملك بيار الأراجوني إلى السلطان.

(303)إلا إذا تعلق بنفس البعثة السابقة، وهذا غير مستبعد.

(304) ARM, AH 140, f. 52v, éd. Macaire, *Majorque et le Maghrib*, *op. cit.*,p. 518-520.

(305) Díaz Borrás, « Atención valenciana », art. cité, p. 342.

(306)على سبيل المثال: ARM, AH 91, f. 96 (6/6/1410), éd. Macaire, *Majorque et le Maghrib*, *op. cit.*,p. 532-535. حرّر المرسيداريون ستة وثلاثين مسيحيا في بجاية وتونس وبونة والقل وقسنطينة، حيث وعدوه بإتباع الإخوان أثناء عام ويوم. أنظر:

Verlinden, *L'Esclavage* …, I, *Péninsule ibérique - France*, *op. cit.*, p. 542-543.

(307) ARM, *Extraordinaris*, 470, f. 73r-75v (26/5/1410) ; ARM, LLC, 91, f. 96r-v (6/6/1410), cités par López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 721.

1388[308]، 36 مسيحي في بجاية وتونس وبونة والقل وقسنطينة قدّمت أمام حاكم ميورقة في 1410[309]، لكن في 1379 جرى إرجاع 350 شخصا من بجاية[310]. كان قليلا بصفة عامة، لكن يجب أخذ بعين الاعتبار أيضا المساعدات المالية المتنوعة، التي كانت حاسمة. لكن بقيت هذه المجهودات غير كافية وبقي نشاط اللائكيين سواء المتخصصين في الفداء أم التجار العاديين مهيمنا.

الفداء الشخصي :

إذا لم يستفد الأسير من إجراءات التحرير الجماعي، فقد كان مجبرا على إيجاد وسائل لتحرير نفسه بنفسه. لهذا يجب في أول الأمر أن يتوافق على سعر مع سيده. وليس من المستبعد نجاح البعض في التحرر بوسائلهم الخاصة، دون مساعدة خارجية. يترك مشروع معاهدة 1444 انطباعا بامتلاك البعض لأملاك وأموال حيث يعتزمون دفع المبلغ كاملا أو قسما منه إلى السيد مسبقا[311].لكن في الغالب كان ضروريا استدعاء مساعدة خارجية وإلى تضامن إخوانه في الدين. يجب إذن تنظيم الفداء ماديا، خصوصا تحويل الأرصدة المالية.

عندما يكون عدة أعضاء من نفس العائلة أسرى، يمكن للسيد ترك أحدهم (الأب بصفة عامة) يدخل إلى الأرض المسيحية لجمع المال، مطالبا على الخصوص بالصدقات، وتبقى بقية العائلة ضمان. ففي 1406، تحصل دمنيكو أونو (Domenico Uno) وابنته دلسيا (Dulcia)، من توريبلانكا، على رخصة صدقة لمدة ثلاث سنوات بمبلغ 500 دينار مزدوج. فقد تمّ تحريرهما بعدما جمعا

(308)Archivo Histórico Nacional, Madrid, *Clero*, *carp*. 122, n° 14 (1388), cité par Brodman, *Ransoming captives*, *op. cit.*, p. 112-113.

(309) ARM, AH 91, f. 96 (6/6/1410), éd. Macaire, *Majorque et le Maghrib*, *op. cit.*,p. 532.

(310)Golubovitch, *Biblioteca bio-bibliografica*, *op. cit.*, p. 237.

(311)مشروع معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1444، المادة 15.

هذا المبلغ، لكن بقي كل من جلومينا (Guillomina) زوجة دمنينسيو وابنته الأخرى جلومينا (Guillomina) في بجاية ككفالة (pingre) [312].

كان الوسطاء في الغالب ضروريين، حيث يجب على الأسير النجاح في وضع اتصال معهم في بادئ الأمر. الذين كانوا في مدينة بجاية نفسها تجاوروا مع التجار المسيحيين، وهذا ما سمح بنقل أخبارهم الجديدة إلى أقاربهم. ففي 1395 على سبيل المثال دوس دوبانييه (Douce d'Aubagne) - التي أسرت مع خادمها أنطوان رايمون (Antoine Raymond) وحمل إلى بجاية- حرّر لها أنطوان جارسيا (Antoine Garcia) "جرّاح" بجاية عقدا. واختارت وكيليها المحامي جوفر رايمون[313] من تولون (Jaufre Raimond de Toulon) ورايمون بوني (Raimond Bonet) من مرسيليا. باسمها، وجب عليهما بيع ممتلكاتها لفديتها (أو إذا ماتت، فداء أنطوان ريمون)[314]. كان بإمكان أحد أقربائها المجيء لتسديد الفدية، ولكن غالبا ما لجأ الأسير إلى رجال متخصصين في هذا النوع من القضايا.

أجرى الحصة الأكبر من الفداء في الواقع رجال خواص، لم يكونوا بالضرورة متخصصين فيه، حيث جلبوا ربحا منه. في هذا المعنى، كان الأسرى مصدر ربح أيضا لهؤلاء الوسطاء، الذين عالجوا هذه القضايا قبل كل شيء بهدف إرباح استثماراتهم. اقتصر أحيانا تدخلهم على قروض بسيطة ممنوحة إلى الأسرى للسماح بتحريرهم. ففي 1288، عوّض أوبارتو دو جاريبالدو (Oberto de Garibaldo) وهو بائع صوف جنوي لأنسالدو دو مديلو (Ansaldo de 13Modulo) ليفر ثمن 13 دينار مزدوج كان سيميوني بن أنسالدو قد أعارها

(312) ACA, C., Rg. 2204, f. 51r-v (25/9/1406).

(313) كان هذا الشخص قدم للبحث عليها، لكنه لم يستطع جمع المبلغ الضروري وغادر متمتما.

(314) ADBR, Dugat 1, f. 49r-50r (15/2/1395), trad. Baratier, *Documents d'histoire de la Provence*, *op. cit.*, p. 132-134.

إلى جيوفانينو أخ جاريبالدو لفديته ببجاية[315]. أيضا في 1404 ببرشلونة، تلقى علي بن منديل وأحمد بن صابر البجائيان اللذان كانا أسيرا رامون فيفالر (Ramon Fivaller) وجابريال سبيلا (Gabriel Sapila) من التاجر نكولو دو بويج ما يعادل 50 دينار مزدوج مورسكي ذهبي من عملة برشلونة، موجّهة لإتمام مال فديتهم، ووعداه بإرجاعها له في بجاية[316]. يمكن إيصال المبالغ المجموعة في الواقع عن طريق التجار أو أن تكون موضوع عمليات صرف. ففي 1455، أجرى تاجر برشلوني عدة تركات لصالح الأسرى المسيحيين، منها واحد محتجز ببجاية، وطالب بتسديد المبالغ عن طريق وسيط برشلونة ([317] Taula de canvi de Barcelone).

كان بإمكان تدخل هؤلاء التجار أن يكون أكبر، وذهب بعضهم بنفسه إلى البحث عن الأسير في المغرب. كان وضع هؤلاء الوسطاء متنوعا. ففي إسبانيا، تمّ تقنينه منذ أمد طويل على أساس العلاقة مع عمليات فداء عابرة للحدود[318]. سميّت هذه القوانين بالمستلف (mostalafs) والفقوق (alfaqueques) أو أيضا إكسيا (exea). في كتالونيا رجع حق فداء الأسرى إلى الملك الذي منحه لأشخاص أو عائلات مقابل بعض المبلغ[319]. حدد أحيانا أجر العمل، كما في أراجونة حيث

(315) ASG, min. 10, f. 41v (15/7/1288).

لا توضح الوثيقة ما إذا كان هذا القرض قد كان موضوع عقد مكتوب أم لا (دون شك في بجاية).

(316) AHPB, Bernat Nadal, *Manual*, 8/11/1404 - 14/5/1405 (58/33), f. 27r-v (4/1/1404).

(317) AHPB, A. Vilanova, *Primi libri manumissoriarum et tutelarum*, 1448-1458 (165/101), cité par Coll Julià, « Documentación notarial », art. cité, p. 305 ; sur la *taula* de Barcelone, cf. Cl. Carrère, *Barcelone au temps des difficultés, 1380-1462*, Paris, 1967, p. 75-80.

(318) Ferrer i Mallol, « Els redemptors de captius », art. cité, p. 85-106.

(319) في نوفمبر 1178، ترك الملك ألفونس لتروبادور للبرشلوني برنات ماركوس (Bernat Marcús) وخلفائه المهمة بـ 500 سو برشلوني. طلب برنات ماركوس رخصة حمل على مركبه ومراكب أخرى للملكة أسرى مسلمين إلى أراضيهم الأصلية وفداء المسيحيين في الأراضي المسلمة=.

وضعت الخدمة بنسبة 10٪، وإذا تعلق الأمر بتبادل بـمرفيدي (maravedi) ذهبي[320]. بكاتولونيا في القرن الرابع عشر، وجب عليهم القسم أمام قائد ملكي واستفادوا إذن من حصانة على غرار ممثلي الملك. ووجب عليهم امتلاك صفات المفاوضين والتجار، وفي قشتالة – على غرار الأراضي الكتالانية- اشترط معرفتهم باللغة العربية[321]. كانت هذه المهمة المربحة جدا يرافقها في قشتالة منع الاتجار[322]، لكن هذا المنع لم يكن دائما محترما، ولم يوجد مثل هذا التقنين في كتالونيا[323]. في المقابل، لم يكن هناك بمرسيليا تنظيم خاص، وتمّ الاستمرار في حمل السلع باتجاه المغرب[324].

عقد الشخص المكلف بالفداء عقدا مع الأسير أو أحد أقاربه، حيث نصّ على المبلغ المقدّم وضوابط التعويض. في بعض الحالات، يعطى مال الفداء مسبقا بشكل أو بآخر. وتسمح عدة وثائق مرسيلية بدراسة ضوابط هذه العمليات[325].

=الأماكن المشار إليها هي بجاية وسبتة، وأضاف أراضي مسلمة أخرى. منح الملك الأمان لهؤلاء المسلمين على أراضيه في الذهاب والإياب.

ACA, *Cartesreales* 52-2, perg., éd. Ferrer i Mallol, « Els redemptors de captius », art. cité, appendice, doc. 3.

(320) J. W. Brodman, « Municipal Ransoming Law on the Medieval Spanish Frontier », *Speculum*, 60/2, 1985, p. 328.

(321)كان بيري مارتناز دو مورا (Pere Martinez de Mora) في القرن الرابع عشر أيضا ترجمانا في الدار الملكية.

Ferrer i Mallol, « Els redemptors de captius », art. cité, p. 88.

(322) Ch.-E. Dufourcq, « Un projet castillan du XIIIe siècle : la “croisade d’Afrique” », *RHCM*, 1, 1966, p. 47.

(323)Ferrer i Mallol, « Els redemptors de captius », art. cité, p. 89.

(324) D. Valérian, « Les archives de Marseille, sources de l’histoire du Maghreb médiéval : le cas du port de Bougie (XIIIe-XVe siècle) », *Annales du Midi*, 113, 2001, p. 20-21.

(325) P. Malausséna, « *Promissio redemptionis :* le rachat des captifs chrétiens en pays musulman à la fin du XIVe siècle », *Annales du Midi*, 80, 1968, p. 255-281.

جرت في العادة وعود الفداء في الربيع، بمعنى قبل ذهاب المراكب إلى المغرب. يتعهد التاجر بالذهاب "إلى أرض الموريين الكفار أعداء المسيحية"[326]. إذا ما دفع المال مسبقا، يلتزم أصحاب الطلب بممتلكاتهم الحالية والقادمة، وفي الحالة العكسية، يحرر موثق عقد محدد، حيث يعد التاجر بإتمام المبلغ الذي عهد له عند الحاجة، وعكسيا بتعويض المال غير المستعمل[327]. وإذا لم يجر الفداء بسبب وفاة أو هروب الأسير أو كون العملية لا يمكنها أن تجري، فيجب على التاجر تعويض المبالغ التي تلقاها[328].في المقابل، إذا ما فدي الأسير وتوفي خلال رحلة العودة، يسدد المبلغ.في حالة أسر جديد خلال الطريق، فإن التاجر ليس مسئولا في مرسيليا بينما في برشلونة لم يكن كذلك إلا إذا كان القرصان المخطئ مسيحيا[329].

لإجراء الافداء، كان ممكنا المجيء بالمال، وأيضا مع أسير مسلم لمقايضته. ففي 1410 ببرشلونة على سبيل المثال، اعترف أنطوني سردا (Antoni Serda) بدينه إلى جيلام دو فنوليتو (Guillem de Fonolleto)، وهو تاجر من هذه المدينة، المقدر بـ85 دينار مزدوج بقيمة 66 ليفر و10 سو. كان هذا المبلغ هو قيمة أسير بجائي مسلم أخذه عنده لمقايضته ب بريكو (Perico)، أب أنطوني (Antoni)[330]. لأجل هذه العملية، تمّ في بلنسية تسديد رسم مسّ كل خروج لمسلم من المملكة. ففي 1458، اجتاز محمد لعرشات وهو أصيل بجاية وأسير سابق لنكولو جوليا (Nicolau Julia)– إلى أرض المور ليقايض بمسيحي محتجز ببجاية، حيث وجب تسديد رسم خروجه ب 136 سو[331]. مبدئيا، ورأفة

(326) *Ibid.*, p. 261.

(327) وجب عليه إعطاء دليل على المبالغ التي التزم بها عند عودته. *Ibid.*, p. 269

(328) *Ibid.*, p. 270 ; López Pérez, « La financiación », art. cité, p. 98.

(329) *Ibid.*, p. 98.

(330) AHPB, Juan Nadal, *Manual*, 9/5/1410 - 16/10/1410 (54/17), f. 28r (16/6/1410).

(331) ARV, MR, Rg. 69, f. 170r (18/2/1458).

وتسهيلا لهذه الإجراءات، وجب على كل مالك مسلم إعادة بيعه بالسعر الذي اشتراه به، دون البحث عن ربح. عمليا، كان قبول السيد إجباريا لفكه من يد عاملة نافعة، في حين وضعته محنة العائلات في وضعية للتفاوض على السعر بشكل أحسن. وتظهر وثيقة في 1488 الصعوبات التي اعترضت تسليم هؤلاء المغاربة. ففي رسالة بعثت إلى محلفي ميورقة، غضب الملك فرديناند من رفض أحد رعاياه – الذي اكتسب أسيرا أصيل بجاية ب 40 ليفر- فكه ب 250 دينار مزدوج على الأقل، وهو مبلغ أكثر بخمس مرات تقريبا. طلب الملك إذن إجبار المالك على بيع هذا الرجل بسعر الشراء، بموجب قاعدة قديمة تجبره. حقيقة أنّ سيد هذا العبد المسلم كان مسامت (Maçamet)، وهو فقيه من مملكة ميورقة، ولم يتحمس دون شك على تحرير مسيحي[332]. كان في الغالب، يتمّ إرسال مسلم أصيل هذه المدينة أو نواحيها. لم تكن الحالة دائمة، إذ نلاحظ تعبئة كبيرة بين موانئ السلطنة الرئيسية أو مدن الداخل، مع مبادلات معقدة أحيانا. ففي 1409، فدى أندرياس بيراز دو تدلا (Andrés Pérez de Tudela) ابن حسن من دلس أسير قرطاجنة في مملكة قشتالة ب 440 سو لاقتياده إلى بجاية ومقايضته بجنيس بيراز الطليطلي (Genius Pérez)، أخ أندرياس[333]. وفي 1434 أرسل علي الجزائري (Ali Algunirini) أصيل بجاية إلى الجزائر لمبادلته بلورنس روس (Lorenç Ros)، صاحب مركب برشلوني مأسور ببجاية[334].

(332) ACA, C., Rg. 3565, f. 153v-154 (15/3/1488), éd. A. de la Torre, *Documentos sobre relaciones internacionales de los Reyes católicos*, III, Barcelone, 1951, a. 1488, n° 57, p. 60-61.

كانت حالة استثنائية، لكنها تستحق الملاحظة. لم يكن لفقيه مسلم أي ضمير في بقاء أحد إخوانه في الدين أسيرا، لكن أكثر من ذلك يرفض تسهيل عودته إلى داره.

(333) ARV, MR, Rg. 28, f. 14r (1409).

(334) ARV, MR, Rg. 52, f. 116r (19/6/1434).

كان بالإمكان أن يعهد بالمبلغ على شكل سلع للتفاوض في عين المكان. ففي 1396 أبرم توما كلومبيي (Thomas Colomier)-وهو تاجر ومواطن مرسيلي مختص في هذا النوع من العمليات خصوصا في بونة وبجاية- عقدا مع برتراندات إسنارد (Bertrandet Isnard) التولوني. كان الأب والأخ برتراندات أسيرين في بجاية ووصلت الفدية إلى 118 دينار ذهبي ونصف من عملة بلاد البربر، بمعنى مبلغ 176 فلورين. لهذا أعطى برتراندات إلى توماس كلومبيي 100 فلورين رجيني « de regina » ليكملها بأربعة جرار زيت تحوي 28 ميزارولي (mezarolie)، حيث المزاروليا (mezarolia) بثلاث فلورين. وجب على كلومبيي حمل الكل (بقيمة 184 فلورين) إلى بجاية، لبيع الزيت بأحسن سعر وفداء الرجلين بمنتوج هذا البيع، ملتزما بإعادة ما زاد على ما تلقاه. ولم يتوصل إلى فداء الرجلين، إلا بعد سنوات عدة أي حتى يوم 7 أوت 1400 حيث أمضى جون إسنارد عقد فداء مع كلومبيي. أمام عدة تجار مسيحيين، اعترف في الحين بأنه في يد التاجر البجائي مسيمت حبيلي (Massumet Hibili)، ووعد بتسديد 108 دينار ذهبي ونصف إلى كلومبيي كان قد دفعها إلى صاحب الأعمال، وأيضا عشرة دنانير مزدوجة يسددها كل أسير سابق عند باب البحر عند مغادرته المدينة. وألزم نفسه بكل الممتلكات الحالية والقادمة والتزم بالبقاء في طاعة كلومبيي وعدم تركه قبل تعويضه للمبلغ كلية. لكن بمجرد عودته اعتبر إسنارد أنّ التاجر كسب أرباحا ببيعه للزيت في بجاية، وبالتالي برّأ نفسه، لكن كلومبيي أكّد فقدانه للمال في العملية ورفع قضية ضد خوان ديديي (Joan Didier)، الذي حمّل نفسه ضامنا لبرتراندات، حيث طالبه ب 52 فلورين و9 جروس[335].

يبيّن هذا المثال كيف كان فداء الأسرى نشاطا عاديا بالنسبة لكلومبيي، الذي مارسه قبل رجل الأعمال هذا. تدخل هذا الشخص في الواقع في الفداء

(335)Éd. Conio, « Rescat », art. cité, p. 12-16.

باستمرار، رابحا مبالغ هامة. فنجده من جديد في 1401 عندما طلب منه قروي من سي فور (الأفران الستة)(Six-Fours) وهو غليوم أدوبار (Guillaume Audebert) تحرير زوجته وابنته أو إذا توفيتا، يعوضان بابنيه، حيث كانوا كلهم أسرى في بجاية[336]، وفي عدة عمليات أخرى من نفس النوع. ونظّم بانتظام عدة رحلات إلى المغرب، خصوصا إلى بونة، لحسابه الخاص ولحساب التاجرين جاكم دو فافاس (Jacme de Favas) وبرتلومي سمودال (Barthelemy Symondel). أصله برشلوني، استقر في مرسيلياحيث تزوج بابنة تاجر[337]. لكنه احتفظ باتصالات عديدة مع بلدان لاكورونيا أراجونة، حيث سهّلت دون شك علاقاته مع الأسواق المغاربية، ومزجت نشاطاته واستثماراته دائما بين السلع و الفداء. أحيانا، كان شريكاه فافاس وسنمودال من يتصلان بالعائلات، لكن كان هو دائما من يسافر ويقوم بالفداء [338].

بصفة عامة، كان رعايا لاكورونيا أراجونة في الغالب، والميورقيون خصوصا، من أجروا هذه العمليات. ساعدتهم علاقاتهم التجارية وربما أيضا معرفتهم المباشرة بالمسلمين في هذه العمليات. مرّ المرسيليون[339] والبيزيون[340] في الغالب على طريقهم، وهذا ما يبيّن الاعتراف بمهارتهم في هذا الميدان. من بين هؤلاء الوسطاء، احتّل اليهود وبعدهم التجار-دعاة المسيحية مكانة هامة. ففي

(336) Paris, BNF, nouvelles acquisitions latines, 1352, f. 85v (6/4/1401).

(337) Malausséna, art. cité, p. 261-262.

(338)*Ibid.*, p. 262-263.

(339)في 1387 طلب بيار دوبس (Pierre d'Aups) من التاجر الميورقي أنتوني سورال (Antoni Saurel) فداء ابنه بيار وهو بحّار تولوني أسر في بحر بروفانس ونقل إلى بجاية. ووعده بتسديده حتى 140 دينار مزدوج ذهبي عند بلوغ خبر وصول ابنه إلى ميورقة أو مرسيليا أو تولون. إذا لم يسدد، يمكن للميورقي الاحتفاظ بالأسيرين. ADBR, 351E 124, f. 6v-7r (3/1/1387).

(340) ASP, *Diplomatico, Atti pubblici*, 16/9/1379.

1404 على سبيل المثال، تدخل اليهودي الميورقي جهان براشون (Johan Barachon) في تحرير المنورقي رامون جوميلة (Ramon Gomila)، الأسير في بجاية[341]، وفي 1399، حرّر دالمو منتجوت (Dalmau Montagut) -وهو تاجر متجول بالجزيرة- سورا (Saura) زوجة بيري توراس(Pere Torres)مع حفيدها[342].

كما في المبادلات التجارية، من الصعب التقدير الكمي لأرباح القرصنة. جلبت الغنيمة واستغلال الأسرى كيد عاملة رقيقة دون شك ثروات هامة، لكن المعطيات المتوفرة الوحيدة هي المبالغ المرفوعة من الفديات المسددة للفداء.

بين 1378 ومنتصف القرن الخامس عشر، أمكن جمع خمسين سعر فداء[343]. في الغالب، المبلغ المعبّر عنه هو بالدينار المزدوج الذهبي، بمعنى الدينار وهي العملة المستعملة في بجاية لتسديد حقوق مالك الأسير.

(341) ARM, A. Costanti, 1404, f. 13 (4/1/1404), cité par Macaire, *Majorque et le Maghrib, op. cit.*,p. 104, 145.

(342) ARM, AH 75, f. 163 (9/9/1399), éd. Macaire, *Majorque et le Maghrib, op. cit.*,p. 500-502.

كان دلمو دو منتاجوت هذا تاجرا نشطا على علاقة خصوصا مع بجاية. ففي1396، تلقى رخصة تجارة إلى هذه المدينة.

ARM, *Guiatges* 5, f. 99r (19/2/1396).

(343)أحيانا لم يكن المبلغ المشار إليه في الوثيقة إلا قسما من سعر الفداء، وهو المبلغ الذي كان موضوع عملية تجارية أو تبرع. لم يحتفظ بهذه الوثائق في الجدول. ولا تسمح بعض الحالات بمعرفة ما إذا كان الأمر متعلقا بكل المبلغ أو قسم منه فقط. وأخيرا، يجب أخذ بعين الاعتبار في بعض الأرقام الفائدة التي حققها الوسطاء.

جدول 19: أسعار فداء الأسرى بالدينار المزدوج (1378-1441)

التاريخ	السعر بالدينار المزدوج	المصدر
8/ 1/ 1378	200	AM, 3II 155
23/ 11/ 1379	160	ADBR, 351E 659, f. 61v-62v
3/ 1/ 1387	140	ADBR, 351E 124, f. 6v-7r
1388	3840 لـ38 أسير	Archivo Histórico Nacional, Madrid, *Clero*, carp. 122, n° 14(344)
15/ 7/ 1396	118 بقيمة 176 فلورين	Éd. Conio, « Rescat d'un captiu », art. cité, p. 12-16
14/ 2/ 1397	70	Paris, BNF, nouvelles acquisitions latines, 1348, f° 2r
9/ 9/ 1399	154	ARM, AH 75, f. 163
23/ 9/ 1404	120	ACA, C., Rg. 2212, f. 100r-v
8/ 6/ 1406	120	ACA, C., Rg. 2180, f. 59r-v
25/ 9/ 1406	500 لـ 4 أسرى	ACA, C., Rg. 2204, f. 51r-v
11/ 2/ 1407	120	Id., f. 82v-83v
نفسه	100	Id., f. 82v-83v
نفسه	170	Id., f. 82v-83v
نفسه	100	Id., f. 84r-v
نفسه	120	Id., f. 85r-v
26/ 3/ 1407	60	ADBR, 351E 138, f. 5r-v
24/ 8/ 1407	200	ACA, C., Rg. 2205, f. 57r
26/ 9/ 1407	200	ACA, C., Rg. 2204, f. 180r-v
نفسه	200	Id., f. 182r-v
22/ 11/ 1407	200	ACA, C., Rg. 2205, f. 74r
27/ 4/ 1408	200	ACA, C., Rg. 2207, f. 48v
27/ 1/ 1409	100	ACA, C., Rg. 2206, f. 91v-92r
20/ 10/ 1409	70	ACA, C., Rg. 2208, f. 108r-v

(344) Cité par Brodman, *Ransoming captives*, *op. cit.*, p. 112-113.

16/ 6/ 1410	85 بقيمة 66 فلورين و10 سو برشلونية	AHPB, Juan Nadal, *Manual*, 9/5/1410 - 16/10/1410 (54/17), f. 28r
2/ 11/ 1419	137	AHPB, A. Brocard, *Primum librum apocharum faciencium pro diversis manumissoriis*, 1410-1424, f. 75r
8/ 5/ 1441	140	AHPB, A. Vilanova, l. 4, m. 6 (165/5)[345]

جدول 20: أسعار فداء الأسرى بالعملات الأروبية (1379–1427)

التاريخ	المبلغ	المصدر
16/ 9/ 1379	149 فلورين و30 سو من الدونيي البيزي	ASP, *Atti publici*, 16/9/1379
نفسه	53 فلورين و3/ 4	Id.
نفسه	153 فلورين و1/ 2	Id.
نفسه	83 فلورين و26 سو من الدونيي البيزي	Id.
نفسه	82 فلورين 2/ 3	Id.
نفسه	147 فلورين 1/ 4	Id.
22/ 12/ 1388	200 فلورين	AMV, mc A 19, f. 28r
17/ 9/ 1395	140 ليفر برشلوني	AHPB, Bernat Nadal, *Manual*, 10/5/1395 - 13/11/1395, f. 74r
22/ 9/ 1395	165 ليفر برشلوني	Id., f. 76v-77r
29/ 5/ 1398	50 فلورين	ADBR, 351 E 79, [f. 33v]
27/ 10/ 1403	100 ليفر بلنسي	ACA, C., Rg. 2199, f. 114r-v
8/ 2/ 1405	111 ليفر و7 سو و1 دونيي برشلونيين	AHPB, Bernat Nadal, *Manual*, 8/11/1404 - 14/5/1405, f. 45r

(345)Éd. partielle P. Mainoni, *Mercati lombardi tra Barcelona e Valencia nel Basso medioevo*, Bologne, 1982, p. 106.

ACA, C., Rg. 2204, f. 67r	240 ليفر برشلوني	1/ 12/ 1406
ARV, MR, Rg. 28, f. 14r	440 سو	1409
ARV, MR, Rg. 35, f. 156v	100 فلورين	22/ 2/ 1414
ACA, C., Rg. 2415, f. 68v-69r	100 فلورين	23/ 4/ 1415
Id., f. 69v-70r	100 فلورين	24/ 4/ 1415
Id., f. 71r-v	100 فلورين	4/ 5/ 1415
ADBR, 351E 188, f. 52r-53v	81 فلورين	12/ 7/ 1427

كانت الأسعار التي سدّدها الأسرى إذن متنوعة جدا، وارتبطت دون شك في قسم منها بقيمة الشخص المفتدى، وسنه وجنسه وحالته البدنية. لكن إجمالا، تنوع المبلغ بين 60 و200 دينار مزدوج، حيث تحددت غالبيتها ما بين 100 و150 دينار مزدوج [346]، بمعنى المبالغ المنطقية. كان سعر السوق هذا أعلى بكثير من السعر المثبّت للفداء السلطاني في 1403، حيث كان 50 دينار مزدوج للشخص[347]. يمكننا مقارنتها أيضا مع الأسعار التي سدّدها سلطان تونس لفداء المسلمين الأسرى في الفترة لدى أنسالم ترميدا (Anselme Turme da): من 60 إلى 70 دينار للشباب ومن 40 إلى 50 للكبار والرجال الناضجين[348]. يفسّر

(346)حسب جامس و. برودمان (James W. Brodman)، يمثّل هذا المبلغ سنة أو سنتين من موارد حارث الأرض.

Brodman, *Ransoming Captives*, *op. cit.*, p. 125.

(347)معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، المادة 13. في مشروع معاهدة 1444 بين لاكورونيا أراجونة وتونس، نصّ على أنه إذا لم يتذكر بسعر الفداء، فإنّ السجناء الذين أسروا قبل المصادقة على الهدنة سيشترون بمعدل سعر 30 ديكا.

Fr. Cerone, « Alfonso il Magnanimo ed Abu ‘Omar Othmân, Trattative e negoziati tra il Regno di Sicilia di qua e di là dal Faro ed il Regno di Tunisi (1432-1457) », *Archivio storico per la Sicilia Orientale*, 10, 1913, p. 54.

(348) Trad. M. de Epalza, *La Tuhfa, autobiografía y polémica islámica contra el Cristianismo de ‘Abdallāh al-Tarğumān (fray Anselmo Turmeda),Atti della Accademia nazionale dei Lincei*, *Memorie*, *Classe di scienze morali*, *storiche e filologiche*, série VIII, vol. XV, Rome, 1971, p. 252-253.

هذا الاختلاف دون شك بالأرباح الهامة التي حققها أسياد الأسرى، وأيضا الوسطاء.

كانت القرصنة إذن دون جدال مصدر للغنى، على الأقل لقسم من السكان. ببيعهم لغنائمهم، حقق ملاك السفن والقراصنة لأنفسهم أرباحا أساسية إذا كانت حمولاتهم مثمرة. يروي ابن خلدون بأن الأرباح كانت مقسمة بين المستثمرين وفقا للمساهمة في رأس المال[349]، وهذا ما يبيّن تنظيما متناميا بهدف تحقيق الأرباح. إنّ الذين اشتروا الأسرى جلبوا منهم المال بتسخيرهم في العمل، ثم باحتمال تسلم فدية مرتفعة (خصوصا خارج فترات الهدنة). وجد مختلف وسطاء الفداء (مسيحيين وأيضا مسلمين[350]) في هذا النشاط وسيلة لزيادة رأس مالهم، المستثمر في الغالب بالموازاة مع العمليات التجارية. وأخيرا، كان بيت مال الأمير ممولا من الرسوم المفروضة على الغنائم والرسوم التي سدّدها الأسير قبل مغادرته[351]، ورأينا في عدة مرات الأمير نفسه كان مالكا لعدة أسرى.

(349)البربر، 3، ص 117.

(350)في حوالي 1368، مولت لاكورونيا أراجونة عملية فداء أجراها الميورقيون، التي فرضت رسما خاصا على التجارة البجائية لتعويضها. أعطت الوثيقة تفاصيل المصاريف التي دفعت، وتشير خصوصا إلى المبالغ التي أعطيت إلى أميرال بجاية (250 دينار)، وأيضا إلى القائد ومعاونين آخرين (421 دينار و4 أثمان للكل). رغم أن الأمر لا يتعلق إلا بفداء عشرة أسرى (بمبلغ 1100 ليفر)، وهذا ما يعطي فكرة عن أهمية المبالغ التي يراهن عليها، حتى وإن كان قسم من 250 دينار التي تسلمها الأميرال ربما موجها إلى بيت المال (لم يظهر أي رسم لهذا الحساب).

Éd. E. de K. Aguiló, « Mostres de lous passats per la redencio de catius cristians », *BSAL*, 10, 1904, p. 340.

(351)فداء جون إسنار، الذي وجب عليه تسديد 10 دينار مزدوج عند باب البحر للفداء من 108 دينار مزدوج.

2) السلبي

أكسبت القرصنة إذن ثروات لا جدال فيها، لكنها كانت أيضا مصدرا لصعوبات وكان بإمكانها أن تؤدي إلى إفقار. بتعريضها خصوصا للعلاقات الهادئة مع الدول المسيحية إلى الخطر، أثارت ردة أفعال وأضرّت بالتجارة، وأيضا بأمن الجهات الساحلية.

أ) حالة حرب كامنة

إذا لم تكن القرصنة الحفصية مسئولة عن المناخ العدائي الذي ساد في البحر المتوسط، من الواضح مساهمتها فيه. ومن غير الجدوى البحث عن المسئول الأول عن طور العنف هذا. لم يكن الكتالانيون – على غرار الجنويين- بكل تأكيد آخر من دفع بنفسه في هذا النشاط المربح والمقسوم جدا في البحر المتوسط(352). وجدت القرصنة المنظّمة شرعية في اعتداء الخصم، حتى وإن كانت دوافع أخرى هي المحرك العميق لها. لم تؤد إذن القرصنة الحفصية إلى ظهور هجمات مسيحية ضد رعايا السلطان، لكنها أعطت تبريرا جعل تنامي الحملات التي شنت ضد السواحل المغاربية، وأيضا أعمال انتقامية هامة أحيانا أمرا ممكنا.

ارتكزت إجابة المسيحيين على أعمال القرصنة البجائية – على الأقل في البداية- على مبدأ المسؤولية الجماعية. كانت الانتقامات الوسيلة البسيطة والبدائية للرد على أي اعتداء. وكانت أيضا المكلفة جدا والأكثر مجازفة، حيث عانى منها الكل. أرسل المسيحيون بانتظام الأسطول لمعاقبة الدول المشكوك في قيامها بأعمال ما، خصوصا في سنوات قوة القرصنة الحفصية. كانت الأشهر في هذه الحملات تلك التي ردت على نهب البجائيين لقرية توريبلانكا في 1397. بعد محاولة

(352) "لا تختص القرصنة المنظمة بضفة واحدة، وبمجموعة واحدة، ومسئول واحد، ومذنب واحد. إنها مرض مزمن".

Braudel, *La Méditerranée*, *op. cit.*, II, p. 192.

دبلوماسية للسلطان لكن دون جدوى، لقد نهب أسطول بلنسي وميورقي بونة ودلس، دون مهاجمة بجاية مباشرة[353]. كان لهذه العملية نتائج دبلوماسية لا يمكن دحضها، حيث أجبرت الحفصيين للتفاوض على معاهدة سلم في 1403، التي وضعت حدا للقرصنة، على الأقل لإفراطاتها[354]. لكن كان الثأر في الغالب عمل الضحايا أنفسهم، الذين بحثوا عن الحصول على تعويض عن الضرر. بحث تنظيم "حق الإشارة" على تفادي تصاعد العنف دون نهاية الذي أثارته ردات الفعل غير المنضبطة. كان هذا الحق السيادي ممنوحا لضحية أعمال القرصنة حتى يتمكن من تعويض الأضرار التي تسببت فيها. ولم يكن ممنوحا إلا عندما تنتهي كل الطعون القانونية وعندما يرفض الملك الخصم التعويض وإحقاق الحق[355]، وهذا ما يفترض حدا أدنى من العلاقات الدبلوماسية بين الدول وتبادل البريد والسفارات. وتبيّن عدة أمثلة ممارسة هذا الحق. ففي 1263، رخّص جاك الفاتح للبرشلوني بيري فيرار (Pere Ferrer)– الذي هاجمه البجائيون في ميناء ستورة– بمصادرة حتى ألف بوزون من الممتلكات التي تعود لرعايا سلطان تونس[356]. وفي السنة الموالية منح الملك رخصة إلى المواطن البرشلوني برينجر تريتون

---

(353) López Pérez, *La Corona de Aragón, op. cit.*, p. 159-161, 739-742. Cf. Ivars Cardona, *Dos creuades, op. cit.*
لم تكن بجاية أبدا مباشرة هدف حملات الثأر. ربما يرجع هذا إلى صلابة دفاعاتها، وأيضا إلى إرادة عدم إفساد العلاقات مع مدينة تجارية من الدرجة الأولى بالنسبة للميورقيين والبلنسيين.

(354) López Pérez, *La Corona de Aragón, op. cit.*, p. 161.

(355) R. de Mas-Latrie, « Droit de marque et de représailles au Moyen Âge », *BEC*, 6e série, 2, Paris, 1866, p. 529-577, وصف دوماس لاتري إجراءها بشكل دقيق. أنظر أيضا في هذا السياق الجنوي:
A. Aromando, « Le rappresaglie a Genova, viste e illustrate attraverso una controversia della fine del Trecento », *Memorie della Accademia lunigianese di scienze Giovanni Capellini, Scienze storiche e morali*, 42, 1972, p. 17-79.

(356) ACA, C., Rg. 12, f. 14r (février-mars 1262), éd. Dufourcq, *Recueil, op. cit.*, n° 102.

(Berenguer Triton) لتعويض ما يدين به للسلطان والأضرار التي تعرض لها من قبل البجائيين[357]. ففي 1319، نبّه الملك سانش الميورقي القائم العام بالجزيرة عن نيته منح ترخيص إلى فرانشيسك دو كلابر (Francesc de Claper)، ضحية أيضا للقراصنة البجائيين[358]. نصف قرن بعد ذلك، احتجت ميورقة لدى السلطان ضد هجوم يخت حفصي ضد مركب ميورقي قرب جيجل. كما في 1380، لم يدفع أي تعويض، فهدّد حاكم الجزيرة الحفصيين بمنح المشتكين حق الإشارة ضد رعايا السلطان إذا لم يتوصل إلى اتفاق[359]. كان هذا الشكل من الثأر طبعا أقل دمارا من الحملات التأديبية. لكنه استند أيضا إلى مبدأ المسؤولية الجماعية وبناء عليه أدى إلى هجمات ضد الأبرياء، حيث يمكنهم بدورهم إثارة أفعال عدائية، وهذا ما زاد من اللا أمن في البحر وعلى السواحل. خصوصا، وأنها مثّلت عائقا حادا بوضع التجار الأوروبيين الحاضرين في بجاية في خطر، حيث جرى توقيفهم بصفة منتظمة كرد فعل على أعمال القرصنة.

لكن المشكل كان في مكان آخر، وتجاوز ردة الفعل المنتظمة إلى الغارات أو إلى أسر المراكب. المحادثات الدبلوماسية مع لاكورونيا أراجونة أو مملكة ميورقة تبينه بوضوح: لقد كانت القرصنة الحفصية العائق الأول لإعادة العلاقات الهادئة أكثر بين القوى في النصف الثاني من القرن الرابع عشر وخلال القرن الخامس عشر. وإذا كانت القاعدة المقبولة سوية في الفترة تمكّن من مهاجمة كل رعية ملك كانت معه في حرب. في غياب معاهدة سلم، كان مسموحا بمهاجمة الرعايا

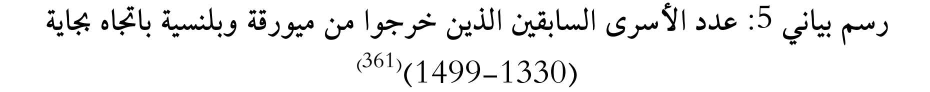
(357) ACA, C., Rg. 12, f. 76r (15/5/1263).

(358) ARM, *Reales cedulas*, vol. 6, f. 28 (24/11/1319), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1356.

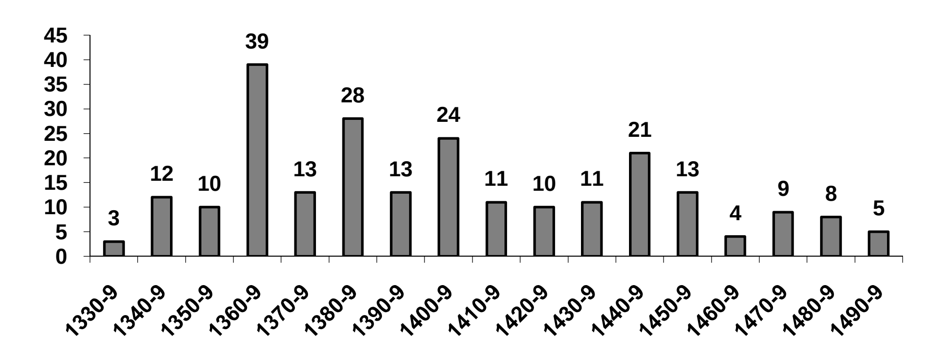
(359) ARM, *Suplicacions*, 24, f. 147r-157r (22/10/1364), ARM, *Governació*, 4496, f. 285v-286r (5/10/1380). Cité par López Pérez, *La Corona de Aragón*, *op. cit.*, p. 709-710.

الحفصيين حيث تكمل المصلحة المادية الباقي، وهذا ما ساهم في زيادة اللا أمن على سواحل إفريقية.

تعددت الهجمات المسيحية -خصوصا الكتالانية- حيث نرى تدفق الأسرى من أصول بجائية (أو من جهتها) إلى بلدان لاكورونيا أراجونة[360]. تبيّن السجلات الحاوية للرسوم التي سدّدها المسلمون الذين خرجوا من ميورقة أو من بلنسية خصوصا الكثير من الأسرى السابقين عائدين إلى بجاية في هذه السنوات.



رسم بياني 5: عدد الأسرى السابقين الذين خرجوا من ميورقة وبلنسية باتجاه بجاية (1330-1499)[361]



(360) لايبدو في المقابل بأن القرصنة الجنوية كانت هامة على طول سواحل المغرب في هذه الفترة. بداية من القرن الرابع عشر في جنوة، كان العبيد في أساسهم مشارقة.

M. Balard, « Le minoranze orientali a Genova (secc. XIII-XV) », *La Storia dei Genovesi*, III, Gênes, 1983, p. 71-90.

(361) ARM, RP, Rg. 3775 à 3892 ; ARV, MR, Rg. 2 à 102 ; ACA, RP, MR, Rg. 1008, 1714, 1716.

لا تشير السجلات الميورقية إلا للوجهة، وليس لأصل الأسير السابق. يمكن أنه يتعلق الأمر بمسلمي جهات أخرى في المغرب أو الأندلس، الذين ذهبوا للاستقرار ببجاية بعد خروجهم. لكن سجلات بلنسية – التي تعتبر دقيقة جدا حول هذه النقطة- تبيّن بصفة دخول الأسرى إلى المدينة التي انتموا إليها. من جهة أخرى، لم تأخذ الحسابات بعين الاعتبار حالات عديدة من العودة نحو "بلاد البربر" أو "أرض الموريين"، وهي غير موضّحة.

تميّز منتصف القرن الرابع عشر، وخصوصا سنوات 1360، إذن بنمو النشاط القرصني الكتالاني ضد سواحل بجاية، في حين أصبحت الوضعية أكثر هدوءا بعد 1450. لم تتعرض بجاية ذاتها لهجوم من المسيحيين وجرت الغنائم خلال الغزوات على الساحل القريب من المدينة(362)، أو على متن مراكب الصيد أو التجارة المسلمة(363). لكن الأرقام التي تحصلنا عليها متواضعة، حتى في الأزمة الحادة. في تفاوضه مع جريجوري سالومبي في 1313، طالب الحاجب ابن غمر بخمسين بجائيا أسرى في مملكة ميورقة، وهنا كذلك الرقم ليس بكثير.

انشغل الملوك الحفصيون بإعادة رعاياهم إلى أرض الإسلام، حتى وإن كانت الميكانيزمات غير معروفة جيدا إلا لفداء المسيحيين. وتضيئنا قليلا شهادة أنسالم ترمودا بخصوص السلطان أبي فارس حول الموضوع. أفدى السلطان الأسرى بمال بيت المال، ملّحا على التجار المسيحيين استقدام المسلمين الأسرى، وأنشأ الأوقاف بهدف هذا الفداء (364)، وأرسل بسرعة الرجال إلى الأرض

(362) في 871/ 1466 كان عبد الباسط على متن شانية جنوية كبيرة ذاهبة من وهران إلى تونس. حينما كانوا قرب بجاية، توجهوا إلى البر ففرّ السكان بمجرد رؤيتهم، ظنا منهم أنهم قراصنة افرنجة غيّروا لباسهم للخديعة. عبد الباسط بن خليل، الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، ترجمة:

R. Brunschvig, *Deux récits de voyages inédits en Afrique du Nord au XVe siècle, ‘Abd al-Bāsit b. Halīl et Adorne*, Paris, 1936, rééd. 2001, p. 83.

أنظر أيضا: *Ibid.*, p. 75-76. سمع في وهران بأنّ المراكب المسيحية زرعت الرعب في جهة بجاية، واستولت على المسافرين وأسرت عددا من المسلمين.

(363) في 702/ 1303، اشتكى سلطان تونس لدى جاك الثاني الأراجوني من أسر جفن بجائي محمّل بسلعة من عمائم وبرانيس بقيمة 4000 دينار، وذلك قرب بنزرت.

Éd Alarcón y Santón, García de Linares, *Los documentos árabes*, *op. cit.*, n° 119, p. 259, 263 (*šawwāl* 702/mai-juin 1303).

(364) Trad. Epalza, *La Tuhfa*, *op. cit.*, p. 250-255.

في مدحه للسلطان، سجّل بأن كل موارد الرسوم على واردات وصادرات تونس كانت مستعملة في فداء الأسرى الذين كانوا في يد الكفار. وقد كلّف السلطان التجار المسيحيين بهذا الفداء، وهذا ما أثار تدفق الأسرى السابقين إلى الميناء. ويتزامن هذا مع تشكيل أوقاف لفداء الأسرى أيضا في مصر في سياق الحروب الصليبية. أنظر: =

المسيحية لاسترجاع المسلمين(365). لا نتوفر على فعل ما من أمراء بجاية، لكن نعلم أنهم أرسلوا سفارات لفداء الأسرى(366) ورأيناهم تدخلوا غالبا في عمليات التبادل. فضلا عن فعل الملك أو ممثليه، استطاع الأسير الاستفادة من تضامن المجتمع. فقد فدى عبد الباسط بتونس أسيرا تركيا تعيسا قدم مع مسلمين آخرين على متن مركبين مسيحيين، لكن لم يتمكن من التحرر، لأنه لا يعرف العربية وظنّوا أنه كافر(367). في بلدان لاكورونيا أراجونة، استطاع المغاربة الاستفادة من مساعدة الجاليات المسلمة، بطلب رخصة صدقة(368). ربما لعبت الطرق الصوفية أيضا دور الوسيط، على غرار جماعات الثالوثيين والمرسيداريين في العالم المسيحي. هذه الفرضية ليست للتفنيد(369)، لكن تخصنا الشهادات بالنسبة للمغرب.

=S. H. Abdel Wahab, « Captives Waqf in Syria and Egypt (491-589H./1097-1193 A.D.) », *La Liberazione dei 'cativi',op. cit.*, p. 559-570.

(365)تدخل ترميدا (Turmeda) نفسه كمترجم في فداء أسير في 1421.
ACA, C., Rg. 2672, f. 110r, cité par Salicru i Lluch, « Cartes de captius », art. cité, p. 555.

(366)في 1310، أرسل أمير بجاية المترجم سيت (Sayt) في سفارة للحديث عن بعض رعاياه الذين سباهم البلنسيون بين دلس والجزائر. ACA, CRD, *caja* 20, n° 3975 (5/11/1310), éd. A. Giménez Soler, « Documentos de Túnez, originales ó traducidos, del Archivo de la Corona de Aragón », *Anuari de l'Institut d'estudis Catalans*, 3, 1909-10, p. 228-229 (avec une date inexacte). في السنة الموالية، أجابه جاك الثاني بأن الأسرى سيعادون وأن القراصنة سيدفعون ثمن أعمالهم.
ACA, C., Rg. 239, f. 129v (12/8/1311), éd. *Ibid.*, p. 229.

(367) دفع 40 دينار لتحريره. عبد الباسط، المصدر السابق، ص 20-21.

(368) López Pérez, « La financiación », art. cité,p. 97. M. T. Ferrer i Mallol, « L'emigració dels sarraïns residents a Catalunya, a Aragó i al País Valencià durant la baixa edat mitjana », *L'expulsió dels moriscos : consequències en el món islàmic i el món cristià*, Barcelone, 1994, p. 26.

(369)Cela a été le cas en Orient au XIVe siècle.E. Ashtor, « Observations on Venetian Trade in the Levant on the XIVth Century », *Journal of European Economic History*, 5, 1976, p. 542.

ب) التداعيات على التجارة

لدينا عادة الاعتقاد بتشكيل القرصنة لعائق حاد على التجارة. ذهبت نوريا كول جوليا (Nuria Coll Julià) إلى غاية منحها مسؤولية أزمة التجارة الدولية في القرن الخامس عشر[370]. على الرغم، إذا كان من البديهي أن يكون لهذا الخطر الإضافي ضرر حقيقي على الملاحة في البحر المتوسط، فإن تداعياته على النشاط التجاري يجب تحليلها بتدرج على نحو ملحوظ.

يوحي موقف التجار ورجال البحر في هذا المعنى بعلاقاتهم بالظاهرة والحوادث الفعلية للقرصنة على نشاطهم. نلاحظ في بادئ الأمر استفادة البعض منهم من مناخ القرصنة هذا. ولم يكن نادرا تحول تاجر إلى قرصان عندما تحين له فرصة غنيمة جيدة. لاحظت ماريا دلوراز لوبيز بيراز بالنسبة لبلدان لاكورونيا أراجونة عدم ظهور أغلب أسماء أرباب القرصنة إلا سجلات الرخص (guiatges)، حيث أظهرت نشاطا مناسباتيا وأشارت إلى وجود هؤلاء الرجال أحيانا في وجهة أخرى، ممارسين لنشاط تجاري مع نفس البلدان التي هاجموها من قبل[371]. بالنسبة للكثير، أعطى مناخ التوتر الذي ساد في البحر المتوسط الغربي، خصوصا على طول سواحل المغرب، إمكانية ممارسة نشاطات إضافية للتجارة مع الموانئ الإفريقية. وفتح فداء الأسرى أيضا حقل الاستثمارات المربحة للتجار الذي عملوا كوسطاء، على غرار ما رأيناه بالنسبة لتوماس كلومبيي في مرسيليا. كانت إذن القرصنة بالنسبة للكثيرين مصدر غنى وتكديس رأس المال الذي كان بإمكانهم استثماره بعد ذلك في النشاطات التجارية.

(370) Coll Julià, « Aspectos del corso catalán », art. cité, p. 159.

(371) López Pérez, *La Corona de Aragón, op. cit.*, p. 625-626,
الذي يشير إلى حالة خوان ريبول (Joan Ripoll)، الذي تناوب على النشاطين بين 1376 و1408.

من جهة أخرى، إذا كان الخوف من القرصان حقيقيا، فإنه لم يكن كافيا لمنع السفن من الذهاب. استمر نشاط الميورقيين في بجاية في عز أزمة القرنين الرابع عشر والخامس عشر، في حين شكلت مراكبهم هدفا مثاليا. كان التهديد طبعا حقيقيا، من قبل المسيحيين أو من المسلمين على حد سواء. لكن على خلاف مخاطر البحر الأخرى (عواصف، غرق)، كان ممكنا إيجاد تنظيم للحد من التداعيات. في بادئ الأمر، استفادت حمولات السلع من الائتمان البحري[372]، وهذا ما جنّب تدمير المستثمر في حالة أسر المركب. خصوصا، حين انتظمت الملاحة لإعطاء فرائس أقل سهولة. استعلم القباطنة خلال التوقفات عن حضور القراصنة في الطريق وكيّفوا مسلكهم حسب ما استجد من الأخبار. كما حملت المراكب على متنها الأسلحة وتجمعت، وحرستها أحيانا يخوت خفيفة قابلة للدفاع عنها بفعالية[373]. وقد أطّرت سلطات الموانئ خصوصا بداية من القرن الرابع عشر بدقة متناهية الملاحة التجارية، لجعلها أقل عرضة للمخاطر. إنّ كتاب الملاحة (Liber Gazarie) الذي نظّم الحياة البحرية بجنوة[374] وافق على سفر المراكب لوحدها باتجاه المغرب، لكنه حدّد بدقة شروط السلاح[375]. إن استعمال الجنويين

(372) أنظر بالنسبة لجنوة:

M. Balard, « Assurances et commerce maritime à Gênes dans la seconde moitié du XIVe siècle », *Les transports au Moyen Âge. Actes du VIIe congrès des Historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public*, *Annales de Bretagne et des pays de l'ouest*, 85, 2, 1978, p. 273-282.

(373) M. T. Ferrer i Mallol, « La navegació de conserva a l'edat mitjana », *AEM*, 24, 1994, p. 453-464.

(374) حرّر بين 1316 و1344.

(375) G. Forcheri, *Navi e navigazione a Genova nel Trecento (il liber Gazarie)*, Gênes, 1974, p. 113.

أنظر أيضا بالنسبة للقرن الخامس عشر:

M. T. Ferrer i Mallol, « Dos registres de l'"Oficium maris" de Génova (1402-1403, 1408-1410) », *Atti del I congresso storico Liguria-Catalogna*, Bordighera, 1974, p. 249-252.

لسفن كبيرة جدا مسلّحة بقوة جعل مهاجمتها من مراكب القراصنة ذات الحجم الصغير صعبا[376]. لكن النظام الذي وصل إلى ذروة غايته هو نظام البندقية. حيث أجبر مجلس الشيوخ الشواني أثناء سفرها إلى بلاد البربر اتخاذ الرفقة. فنظّمت بدقة السلاح الواجب حمله، والذي جرى تدعميه بصفة منتظمة. بداية من 1439، كما حدد أعضاء مجلس الشيوخ عدد الرماة على متنها، وبداية من 1461، وزعت الأسلحة والذخيرة على كل رجل من الطاقم[377]. في وقت الحاجة، أرسل مجلس الشيوخ أسطول إسناد إذا ما أبلغ بخطر معين. ففي 1470، أرسلت شواني خفيفة لنجدة شواني الخط البحري (mude) باتجاه بلاد البربر والإيج-مورت (Aigues-Mortes) والفلوندر، الذين انطلقوا في 1469، بسبب قرصان مسيحي يسمى كلومبو (Colombo)، الذي هدد المراكب[378]. ساهم كل هذا في زيادة تكاليف النقل وتحديد عدد الاجتيازات. لكن إجراءات الحماية هذه جعلت مشاريع القراصنة مثمرة بصعوبة والرحلات أكثر أمنا.

كانت أضرار القرصنة على التجارة إذن حقيقية، لكنها محدودة. لم يكف التعرض للخطر من ردع التجار وأصحاب المراكب من الانطلاق في البحار. وأصبحت الوضعية حادة عندما أحدثت أعمال القرصنة البجائية قطيعة في العلاقات الدبلوماسية وأحيانا استحالة اللحاق ببجاية لممارسة التجارة. وجب إذن تفادي أخذ قرارات تذهب في هذا الاتجاه. كان التباين كبيرا في الواقع بين ردات فعل الملوك – التي كانت غالبا عنيفة وجذرية- وردات فعل الأوساط

---

(376) Heers, « Gênes et l'Afrique du Nord », art. cité, p. 244.

كان ثقل هذه المراكب معرقلا أيضا، لأنها لم تستطع مواجهة هجوم بسرعة.

Balard, « Assurances », art. cité, p. 277.

(377) B. Doumerc, *Venise et l'émirat hafside de Tunis (1231-1535)*, Paris, 1999, p. 90-91.

(378) ASV, *Senato*, *Mar*, Rg. 9, f. 52r (13/7/1470), cité par L. Greco, « Sulle rotte delle galere veneziane : il cartulario di bordo del prete Giovanni Manzini (1471-1486) », *Archivio Veneto*, sér. V, 172, 1991, p. 11.

التجارية، التي تمنّت قبل كل شيء المحافظة على مصالحها التجارية في بجاية. كان هؤلاء التجار طبعا موافقون على الكفاح ضد القرصنة، حيث كانوا في الغالب أوائل الضحايا، لكن بشرط عدم الإضرار بمصالحهم الاقتصادية. إنّ السياسة المطبقة لا يجب عليها إذن تعطيل العلاقات الاقتصادية. لهذا وجب تفادي المقاطعة الاقتصادية بأي ثمن مع المدن المغاربية الهامة، وتفادي أيضا كل فعل عنيف يؤدي إلى ثأر الحكم الحفصي ضد التجار.

سعى الملوك المسيحيون في الغالب إلى منع التجارة مع بجاية أو مع الموانئ الحفصية بصفة عامة. كان لهذا الإجراء هدف مزدوج لمعاقبة المدينة أو المجال الذي يأوي القراصنة، وحماية التجار بمنعهم من اللحاق بالجهات التي اعتبرت خطيرة. ففي جوان 1368، تبعا لأسر ملك بجاية لتجار ميورقيين منعت كل تجارة مع هذا الميناء[379]. لكن أشهرا بعد ذلك، اشتكى محلفو ميورقة من هذه المقاطعة، مما حتّم على الملك مراجعة قراره[380]. وفي السنة الموالية، سنّ منع جديد للتجارة مع بجاية وجهتها، تبعا لأسر لوح برشلوني. لتفادي تعريض نشاطهم للخطر، اقترح تجار الجزيرة تبادلا للأسرى. لكن الملك رفض هذه المرة رفع المنع[381].احتجاج أيضا في سبتمبر 1382 ضد احتجاز تجار من قلعة أمبورياس (Castel d'Ampurias) بالجزائر، فأعلن الملك من جديد مقاطعة السلطنة[382]. لكن بسرعة تراجع عن قراره، معترفا بتسببه في أضرار كبيرة ليس للتجار فحسب بل أيضا لبيت مال المملكة[383]. في السنة الموالية ولتفادي الثأر حينما كان يتهيأ لإرسال مراكب لمكافحة القراصنة، منع الملك من جديد كل علاقة مع بجاية وبونة والقل والجزائر

(379) ACA, C., Rg. 1426, f. 137r-v (27/6/1368).

لا يتعلق الأمر هنا بالقرصنة بمعناها المعروف، لكن بأسر السلطات البجائية لتجار في الميناء ذاته.

(380) ACA, C., Rg. 1427, f. 63r-v (23/11/1368).

(381) ACA, C., Rg. 1427, f. 141v-142r (27/3/1369).

(382) ACA, C., Rg. 3827, f. 68r-v (7/8/1382).

(383) ACA, C., Rg. 3827, f. 68v-69r (26/9/1382).

ودلس. لكنه استثنى الميورقيين من هذا الإجراء بسبب امتيازاتهم البحرية للتجارة مع المسلمين[384]. وتبنّت هذه السياسة أيضا جنوة[385] والبندقية[386]، لكن دون نجاح. إذ أجبرتهم معارضة الأوساط التجارية في كل مرة على التخلي بسرعة عن إجراءات هذه المقاطعة .

وجب من جهة أخرى تفادي إعطاء تبرير لأفعال الثأر الحفصية. كان التجار في الواقع بالميناء نفسه وليس في عرض البحر عرضة للأسر. كانوا هناك تحت حماية الموظفين الحفصيين، لكن مع إمكانية توقيفهم في أي لحظة، حيث تصادر أملاكهم. وقد وضعت كل إجابة عدائية وغير مبالية على القرصنة البجائية المسيحيين المقيمين إذن في الخطر.

رغم إصابتها المباشرة أكثر بالظاهرة، كانت الأوساط التجارية على النقيض من ذلك إذ هي التي أوقفت الإجراءات الجذرية جدا ضد القرصنة. في هذا المعنى، كانت التجارة أكثر معاناة من تداعيات ردة فعل السلطات المسيحية على القرصنة أكثر من القرصنة في حد ذاتها.

يجب إذن اعتبار القرصنة نشاطا موازيا للتجارة. على غرارها، سمحت بظهور استثمارات فيها مجازفة وربح على حد سواء. ومثلها كانت منظّمة وخاضعة لقواعد اعترف بها الجميع بصفة عامة. يقع تطورها الأكبر في فترة تميّزت

---

(384) ACA, C., Rg. 1446, f. 34r-v (8/9/1383).

(385) في 1423، تبعا لأعمال القرصنة وللاحتجاج ضد أسر الجنويين في مملكة تونس، قررت حكومة المدينة منع التجارة مع السلطنة تحت طائل غرامة ثقيلة.

ASG, AS, *Diversorum communis Ianue*, Rg. 507, f. CXXVIIr, doc. n° 358a (15/11/1423), cité par L. Balletto, « Gênes et le Maghreb au XVe siècle », *L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Âge*, dir. M. Hammam, Rabat, 1996, p. 94.

(386) على سبيل المثال: ASV, *Senato, Incanti di galere*, Rg. 1, f. 60r-v (18/1/1479)

على حد سواء بتأكيد الحكم الحفصي من جديد وبتبعات أزمة منتصف القرن الرابع عشر، التي أثّرت بعمق على نشاط الميناء التجاري.

إذا لم تُزل القرصنة كلية تجارة الأوروبيين في بجاية، فقد جعلتها أكثر احتمالا للخطر، وأثرت بثقلها على العلاقات السياسية بين الحفصيين والقوى المسيحية. رغم الموارد الهامة التي جلبتها للبعض، فقد كانت هي سبب بحث البعض والبعض الآخر عن تحديد الإفراط فيها والاستعداد لإمضاء اتفاقيات سلم.

أسست بجاية في موقع ساحلي لأسباب إستراتيجية قبل كل شيء، وعرفت ازدهارا حقيقيا بفضل البحر. كان هذا الأخير مصدر ثرائها، لأنه فتح المدينة على سوق ممتد من الآن فصاعدا إلى مجمل أوروبا المسيحية والشرق الأوسط. جلبت منه بجاية موارد أكملت إنتاجها الخاص وإنتاج جهتها. وسمح لها هذا البحري في بعض المجالات أن تكون مرتبطة ببلادها الخلفية حينما أعاقت الفوضى السائدة فيها نقل السلع. عكسيا، وجد البجائيون في الأسواق الأوروبية منافذ لمنتجاتهم النافعة، خاصة لتوفير المواد الأولية للصناعة النسيجية والجلدية المزدهرة في أوروبا. كان البحر أيضا أرضية مثالية للمغامرين الذين تعاطوا القرصنة. وجعل وجود الغنائم والأسرى نشاطا مثمرا لهم على وجه الخصوص.

وعلى غرار القرصنة، لم تمس طبعا التجارة الدولية الكبرى مباشرة إلا قسما ضعيفا من السكان. لكن انعكاساتها غير المباشرة كانت كبيرة، بمساهمة رؤوس الأموال الهامة والنشاطات الموضوعة. تربية الماشية على سبيل المثال شجع عليها دون شك طلب الصناعات الأوروبية. واستفاد قطاع النسيج من المواد الأولية التي لم تعطه له بكميات كافية فلاحة الجهة. لكن تجب الإشارة أيضا بأنّ هذه التجارة الدولية مثّلت كذلك منافسة صعبة الدعم بالنسبة للمنتجات كالأنسجة، أو أيضا المنتجات الفلاحية.

هل يجب الاعتقاد بتوجيه بجاية ظهرها نحو البر؟ دون شك في قسم منها، بما أنها لم تكن كلية مرتبطة بالداخل في كل تمويناتها. لكن بقيت البلاد الخلفية مكملا ضروريا للتجارة البحرية الكبيرة. يبيّن الوصول الحاشد لمنتجات تربية الماشية البقاء الكثيف للمبادلات مع الأرياف. إنّ فشل سياسة الاحتلال الضيقة للأسبان يجلب لها التأكيد. بتحديدهم مستقراتهم في بعض مدن الساحل وبتركهم البلاد الخلفية للإقطاعيين المسلمين الصاعدين، فقد حرموا هذه الموانئ من علاقاتها الطبيعية مع مجالها الحيوي[387]. تشهد خيبة أمل الأسبان الذين أرسلوا للامساك بالمدينة على استحالة العيش فقط من موارد البحر بالنسبة لبجاية. ففي 1534، كتب برافان دو ربيرا (Perafan de Ribera) قائد المدينة إلى الإمبراطور يشتكي من وضعيته مفكرا في رفاقه في السلام الذين ذهبوا في نفس الفترة نحو أمريكا الغنية: "أرغب أن تعلم جلالتكم أن بجاية ليست هي البيرو، حيث يمكننا جمع الذهب واللؤلؤ بالتجول في البلاد: في إفريقيا، لا نجد إلا الأتراك أو الموريين[388]".

إذا احتفظت بجاية بعلاقاتها ببلادها الخلفية، فإنها كانت مرتبطة أكثر فأكثر بالتطور العام للاقتصاد المتوسطي والأوروبي. ويبين مثال صادرات الصوف هشاشة هذه الوضعية. كان هناك تناقض كبير: بانفتاحها على البحر فقد شاركت في النشاط البحري، ولكن في الوقت ذاته أقحمت نفسها في المسالك التجارية التي لم يكن لها تحكم فيها.

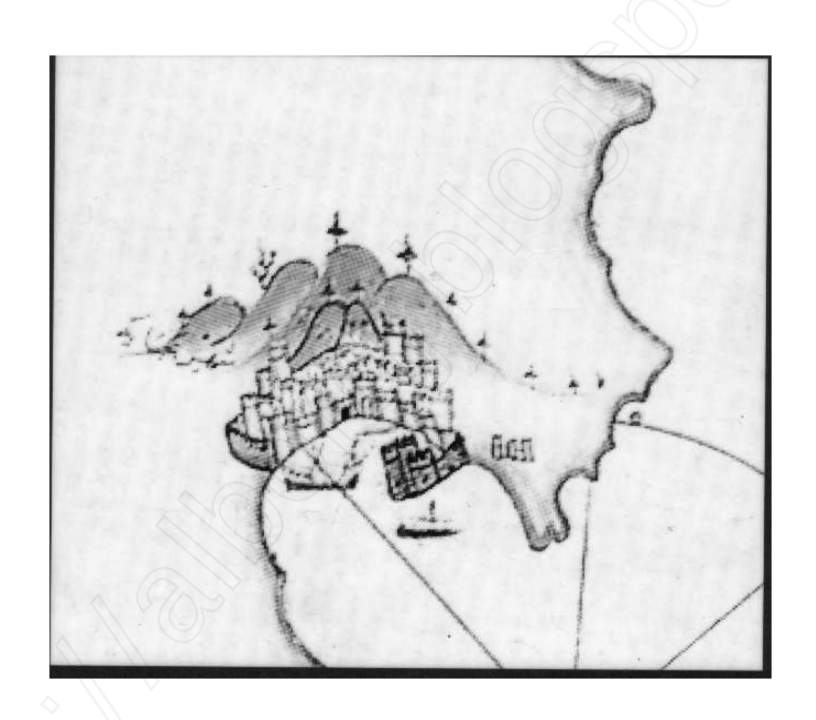
(387) R. Ricard, « Les établissements européens en Afrique du Nord du XVe au XVIIIe siècle et la politique d'occupation restreinte », *RA*, 79, 1936, p. 687-688.

(388) « Bugia no es el Perù, donde hay oro y perlas en las cabalgadas ; aqui no hay sino Turcos y Moros ». Archives de Simancas, *Estado, legado* 461, éd. É. de La Primaudaie, « Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506-1574) », *RA*, 19, 1875, n° 31, p. 279-280.

بجاية ميناء مغاربي

1510_1067

(الجزء الثاني)



تأليف /دومنيك فاليرين

ترجمة د .علاوة عمارة (ج. قسنطينة)

كــتاب: بجاية ميناء مغاربي (1067 -1510)

- تأليف : دومنيك فاليرين
- ترجمة : د.علاوة عمارة
- قياس الصفحة: 23/15.5
- عدد الصفحات: 344

(الجزء الثاني)

الإيداع القانوني: 2014-5059

رادمك: 978-9947-821-80-0

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرونكلين روزفلت ــ الجزائر

ص. ب: 575 الجزائر _ ديدوش موراد

الهاتف: 021.23.07.24/25

الفاكس:021.23.07.07

القسم الثالث
ارتباط قوي بالظرفية المتوسطية

كان النشاط التجاري لبجاية دونما نقاش مصدرا للثروة والازدهار. في هذا المعنى، نرصد توسّع وتطور الملاحة والمبادلات كثيرا الفضاء الاقتصادي الذي ارتبطت به المدينة، فلقد أظهرت دراسة المنتجات أن بجاية كانت على علاقة مباشرة وغير مباشرة مع كل الفضاءات الاقتصادية المتطورة المعروفة في العالم. لكن أدى هذا الانفتاح على البحر في ذات الوقت إلى ارتباط واسع ومباشر بهذه الأسواق الجديدة نظرا لطبيعة التجارة التي سحبت للفاعلين المحليين قسماً كبيراً من المبادرة.

مقارنة بالفترات السابقة (خاصة الأغلبية والفاطمية والزيرية)، مسّ التغيير الجذري كافة المبادلات، حيث كانت العلاقات بين الغرب والشرق منتظمة وكثيفة. لقد تراخت العلاقات السياسية منذ مدة لكن بقي الفضاء الاقتصادي موحد، حيث تعكسه جيدا وثائق الجنيزة بالقاهرة إلى غاية القرن الحادي عشر[1].

إذا احتفظت تونس دائما بعلاقات قوية مع المشرق، فإنّ بجاية وقسما كبيرا من المغرب اتجها بنشاطهما نحو البحر المتوسط الغربي[2]. إذ انفصمت العلاقات السياسية مع الشرق بعد سقوط الحمّاديين، سيما بعدما رفض الخليفة الموحدي عبد المؤمن مساعدة صلاح الدين في 1190[3]. لقد حافظ المماليك على العلاقات

(1) Sh. D. Goitein, « The Unity of the Mediterranean World in the “Middle” Middle Ages », *Studia Islamica*, 12, 1960, p. 29-42.

(2) إنها حالة الأندلس أيضا، أنظر:

O. R. Constable, *Trade and Traders in Muslim Spain. The Commercial Realignment of the Iberian Peninsula, 900-1500*, Cambridge, 1994, p. 1-3, 14.

(3) M. Gaudefroy-Demombynes, « Une lettre de Saladin au calife almohade », *Mélanges René Basset*, II, Paris, 1928, p. 284-289=

مع تونس لكن دورهم في الحياة السياسية الحفصية بقي عرضيا[4]. واحتفظ الحج ورحلات طلب العلم كذلك بتقاليد علاقات ثقافية وفكرية ترجمت ربما بهجرات مستمرة أكثر[5]. لكن بجاية تأثرت بالأندلس أكثر من القاهرة ودمشق[6]. وكان

=يجب إذن مراجعة هذه النتيجة للتبيين بعدم إبرام أي عقد جنوي في 1190 يتعلق بالمغرب، وهذا ما يمكن تفسيره بانغلاق الموانئ الموحدية في وجه المسيحيين أو على الأقل بالنسبة للجنويين الذين شاركوا في الحملة الصليبية الثالثة، أنظر:

D. Valérian, « Gênes, l'Afrique et l'Orient : la place du Maghreb dans la politique génoise en Méditerranée (seconde moitié du XIIe siècle) », *Chemins d'outre-mer. Etudes d'histoire sur la Méditerranée médiévale offertes à Michel Balard*, éd. D. Coulon, C. Otten, P. Pagès, D. Valérian, Paris, 2004, p. 835-837.

(4) M. Chapoutot-Remadi, « Les relations entre l'Égypte et l'Ifrīqiya aux XIIIe et XIVe siècles d'après les auteurs mamluks », *Actes du premier congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb*, I, *Cahiers du CERES, Série histoire*, 1, Tunis, 1979, p. 139-159.

(5) أنظر:

L. Pouzet, « Maghrébins à Damas au VIIe/XIIIe siècle », *Bulletin d'études orientales*, 28, 1975, p. 167-199.

يلاحظ أن ثلاثة أرباع هؤلاء الغربيين من الأندلسيين. يتبين حضور خمسة أو ستة زواويين يحتمل أن أصلهم من ناحية بجاية، وهذا ما بقي محدودا. نلاقي كذلك أشخاصا أصلهم من بجاية من بين النخب المدنية في القاهرة في أواخر العصر الوسيط أو في حلب في الفترة الأيوبية لكن بقي عددهم ضعيفا.أنظر:

Petry, *The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Ages*, Princeton, 1981, p. 74-75 ; A.-M. Eddé, *La Principauté ayyoubide d'Alep (579/1183-658/1260)*, Stuttgart, 1999, p. 392-394

(والذي يعني خاصة محمد بن إبراهيم البجائي الزواوي توفي في 683ـ/ 1285).

(6) أنظر:

R. Arié, « Les relations entre le royaume nasride de Grenade et le Maghreb de 1340 à 1391 », *Relaciones de la Península ibérica con el Magreb siglos XIII-XVI. Actas del coloquio (Madrid 17-18 diciembre 1987)*, dir. M. Garcia Arenal et M. J. Viguera, Madrid, 1988, p. 33 ; O. Petit, « Les relations intellectuelles entre l'Espagne et l'Ifrīqiya aux XIIIe et XIVe siècles », *IBLA*, 127, 1971, p. 93-121 ; M. Talbi, « Les contacts culturels entre l'Ifrīqiya hafside et le sultanat nasride d'Espagne (1232-1492). Contribution à l'histoire des mentalités », *Actas del II coloquio hispano-tunecino de Estudios Históricos, Madrid-Barcelona, 1972*, Madrid, 1973, p. 63-90, rééd. *Études d'histoire ifriqiyenne et de civilisation musulmane médiévale*, Tunis, 1982, p. 263-293.

تعديل التيارات جذريا خصوصا على الصعيد الاقتصادي والتجاري. لقد كانت بجاية في الغالب على اتصال بالمشرق بواسطة التجار الأوربيين الذين بحثوا عن المواد المشرقية لإعادة بيعها بعد ذلك بالمغرب. في الوقت ذاته أعطت مصر لتجارتها وجهة مشرقية أكثر[7].

تسبّب هذا التوجّه الاقتصادي نحو أوروبا المسيحية في تبعية واسعة لبجاية، حيث اشتركت فيها كل الجهات التي شاركت في التجارة المتوسطية، لكن بمقدار عظمتها وكذا سرعتها ترك البجائيون المبادرة للتجار الأوروبيين في التجارة البحرية. فإذا ما بقوا أسياد النقل البرّي، فقد ارتبط قسم من نشاط المدينة من الآن فصاعدا بنشاط مينائها.

منذ ذلك الوقت أصبحت بجاية في وضعية سلبية تجاه طلبات الأسواق الأوروبية. ونتج عنها تبادل غير متوازن تعرضت له أكثر فأكثر. لكن النتيجة الأكثر أهمية هي تبعية بجاية مقارنة مع ظرفية أكثر اتساعا، والتي ضمّت جنوب أوروبا وفيما وراء كل البحر المتوسط وأوروبا. يسمح لنا الأخذ بعين الاعتبار السياق المزدوج المغاربي المتوسطي على السواء بمتابعة وتفسير تطور المدينة وازدهارها بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر.

(7) J.-Cl. Garcin, « Pour un recours à l’histoire de l’espace vécu dans l’étude de l’Égypte arabe », *Annales ESC*, 35/3-4, 1980, p. 443-449 ; Sh. D. Goitein, *A Mediterranean Society. The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza*, Berkeley - Los Angeles, I, *Economic Foundations*, 1967, p. 149.

الفصل الأول
تجارة لم يتحكم فيها البجائيون إلا جزئيا

لتفسير مميزات تجارة بجاية وتطورها خلال الفترة يجب البحث عن الفاعلين الرئيسيين الذين بإدماجهم للمدينة في الشبكات الدولية، كانوا من محركات نشاطها الاقتصادي. طبعا كل هذا لا يمكن أن يقتصر على التجارة البحرية الكبيرة حيث كانت فيها قطاعات كثيرة من الأنشطة في أغلبها أجنبية. لكن بالنظر للأرباح الكبيرة التي كانت قادرة على جلبها، لعبت هذه التجارة الكبيرة دورا هاما في الحياة الاقتصادية للمدينة. منذ زمن طويل وأمام شح المصادر اعتبرنا أن المغاربة تركوا كلية هذا النشاط بين أيدي التجار الأوربيين. تستحق المسألة هنا إعادة تناولها ويجب توضيح الإجابات جيدا حيث وجدت مشاركة بجائية لم تقتصر فقط على استقبال البضائع في الميناء والمبادلات مع البلاد الخلفية. على الرغم من بقائها محدودة وأسباب هذا الانطواء هو في صميم مشكلة تطور المدينة الاقتصادي. على العكس فالتجارة حركت عددا كبيرا جدا من الفاعلين في الموانئ الأوروبية الرئيسية التي كانت على علاقة مع المغرب. في جنوة وبيزا ومرسيليا وميورقة، إنه؟؟ قسم هام من المجتمع الحضري الذي شارك في هذا النشاط وأرباحه. هذا الفرق الواجب البحث فيه وتفسيره، هو أساسي لفهم تطور تجارة بجاية.

1- مشاركة ضعيفة للبجائيين في التجارة البحرية

إنّ الوسط التجاري البجائي هو مجهول بالنسبة لنا، لأن المصادر الأدبية العربية لم تتحدث عنه. يمكن لكتب الأخبار أو تراجم العلماء بالمناسبة أن تلمّح للنشاطات التجارية لشخصية ما، لكن إطلاقا دون الإثقال بهذا المظهر الحياتي[8].

---

(8) أ نظر: Constable, *Trade and Traders, op. cit.*, p. 54-55.

كتب كذلك كلود كارار (Claude Carrère) عن نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر: "اقتصر المسلمون باستقبال التجار الأجانب في موانئهم، ولم يـذهبوا إلى الأرض المسـيحية إلا لشـيء آخـر وهو الغزوات".

توحي كتب الرحلات - القليلة بالنسبة لبجاية – بوجود التجار المتجولين، غير أنها تهتم أكثر بالنخب الدينية. فيما يخص وثائق الأرشيف الأوروبية، فإنها لا تدخل تقريبا التجار الأجانب. تجازف مصادرنا إذن بالتضليل واستخفاف مكانة المسلمين في الأعمال التجارية. على الرغم من كون هؤلاء الشركاء البجائيين وسطاء أساسيين، على الخصوص للوصول إلى الأسواق الداخلية حيث لم يخاطر الأجانب بالوصول إليها. في المقابل، من الصعب تقييم مكانتهم في التجارة المتوسطية. ترى الفكرة الأكثر شيوعا أن المسلمين تركوا التجارة البحرية الكبيرة في القرن الثاني عشر، لصالح القوى البورجوازية الرأسمالية في أوروبا الجنوبية حصريا [(9)]. وهذا يتطلب مراجعة تلك الفكرة، لأن البجائيين كانوا حاضرين جيدا في المبادلات البحرية الدولية حتى وإن كانت مكانتهم ضعيفة مقارنة بمكانة التجار الأوربيين. لكن إذا لم يكن هناك اختفاء كلي فإنه يوجد تراجع واضح.

1) حيز تجاري محدود

كون التجارة الداخلية كانت الفعل الحصري للتجار المحليين، هذا لا يدخله الشك. كما رأينا، فإن الأوربيين لم يغامروا إلا قليلا خارج أسوار المدينة. في المقابل، كانت مشاركة البجائيين في التجارة البحرية الكبيرة أقل وضوحا. على الرغم من أن الإشارات لا تخطئ إجمالا، لكن إذا دفع بعضهم إلى غاية الموانئ المسيحية، فإن الأغلبية حددت حيز نشاطها بالبلدان الإسلامية.

(9) Cl. Carrère, *Barcelone, centre économique à l'époque des difficultés, 1380-1462*, Paris-La Haye, 1967, p. 625.

أ) تجارة تعدت قليلا حدود دار الإسلام

يوجد تقليد طويل للتجار المتجولين في العالم الإسلامي. لقد كان تنقلهم في قلب دار الإسلام متكررا ومتعددا منذ القرون الأولى للإمبراطورية الإسلامية[10]. رغم اختفاء الوحدة السياسية، سهّلت من الرحلات وحدة اللغة وتقارب العادات. قبل تأسيس بجاية كان الأفارقة يتوجهون بانتظام إلى أعمالهم بالمشرق[11]، في المغرب الأوسط والأقصى وكذلك في الأندلس[12]. أيضا، نصادف في الفترة الحمادية تجارًا مصريين مروا عبر بجاية ومارسوا التجارة بين الأندلس والإسكندرية[13] ووثائق الجنيزة تبيّن أهمية هذا المحور التجاري إلى غاية القرن الحادي عشر[14].

بداية من منتصف القرن الحادي عشر، عدة عوامل أدّت إلى تغييرات ملحوظة. الأول هو تفاقم اللاّأمن على الطرق بسبب استقرار قبائل بدوية جديدة

---

(10) Y. Ragheb, « Les marchands itinérants du monde musulman », *Voyages et voyageurs au Moyen Âge. XXVIe congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, Limoges-Aubazine, mai 1995*, Paris, 1996, p. 177-215.

(11) Sh. D Goitein, « La Tunisie du XIe siècle à la lumière des documents de la Geniza du Caire », *Études d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal*, II, Paris, 1962, p. 559-579.

(12) Constable, *Trade and traders, op. cit.*, p. 31-33 ; Chr. Picard, *L'Océan atlantique musulman. De la conquête arabe à l'époque almohade. Navigation et mise en valeur des côtes d'al-Andalus et du Maghreb occidental (Portugal-Espagne-Maroc)*, Paris, 1997, p. 400-401.

(13) ابن ظافر الأزدي، بدائع البداية، تحقيق إبراهيم.فضل، القاهرة، 1970، ص:181. أنظر: A. Amara, *Pouvoir, économie et société dans le Maghreb hammadide (395/1004 - 547/1152)*, thèse de l'Université Paris 1, sous la direction de Fr. Micheau, Paris, 2002, p. 424.

(14) Constable, *Trade and traders, op. cit.*, p. 175.

جرت هذه التجارة في الغالب عن طريق تجار إفريقية. Goitein, *A Mediterranean Society, op. cit.*, I, p. 213.

وضعف تحكم الدولة. كان الطريق البري الساحلي المار عبر طرابلس للوصول إلى مصر والشرق الأدنى على الخصوص خطيرا[15] والفتاوى المتكررة التي تسمح بالعدول عن الحج بسبب انعدام الأمن خير شاهد على ذلك[16]. في باقي المغرب كان الخطر أقل حدوثا لكن بقيت الطرق صعبة السلوك. لكن لم تكف هذه الأخطار هنا لوقف كل تنقل تجاري. لقد سافر ابن بطوطة بين تلمسان وبجاية بصحبة تجار تونسيين سلكوا طريق الشمال مرورا بمليانة وبجاية وقسنطينة. للوصول إلى هذه المدينة وجب عليهم المشي بسرعة خوفا من نهب البدويين[17].

يظهر هؤلاء التجار البجائيين في الواقع خاصة في المصادر الأوروبية حتى وإن كانوا بكيفية هامشية. لا بد من تفسير هذه المعطيات بحذر كون أن هذه الوثائق لا تظهر إلا الرحلات التي جرت عبر السفن، وتوجد مجازفة لتضخيم دور الطريق البحري. رغم هذه التحفظات القائمة، من الواضح تعويض البحر للطريق البري لقسم كبير من مبادلات ما بين الجهات. في عصر فردناند الأول الأراجوني، كان مسلم من الكدية (في سلطنة فاس) مضطرا للذهاب إلى بجاية من أجل أعماله التجارية، فرأى من الأضمن له الذهاب أولا على متن مركب مسيحي حتى ميورقة للحاق بعد ذلك ببجاية[18]. يقدم الطريق البحري إذن إيجابيات واضحة[19]، كون أوقات المسيرة قصيرة جدا والرحلة مضمونة، رغم خطر القراصنة أو العواصف. من جهة أخرى، كانت قدرات نقل المراكب على صغرها

(15) Goitein, *A Mediterranean Society*, *op. cit.*, I, p. 276-280.

(16) أنظر:

V. Lagardère, *Histoire et société en Occident musulman au Moyen Âge. Analyse du Mi‘yār d’al-Wanšarīsī*, Madrid, 1995, p. 29-30.

(17) ابن بطوطة، ص: 377–378.

(18) ACA, *Real Procesos*, 102/21, cité par A. Unali, *Marinai, pirati e corsari catalani nel Basso Medioevo*, Bologne, 1983, p. 43.

لم يكن هذا الاختيار سليما جدا، لأن القراصنة أسروه.

(19) Picard, *L’Océan Atlantique*, *op. cit.*, p. 379.

أكبر مقارنة بقدرات الدواب. وأخيرا، تحولت الطرق البرية نحو الشمال مع التخلي عن الطريق الجنوبي، وتتبع أساسا الساحل المتوسطي فالأقطاب الاقتصادية الرئيسية تواجدت من الآن فصاعدا على الساحل، وكانت إذن سهلة الوصول عبر السفن[20].

كان بإمكان أصحاب السفن المسيحية نقل التجار المسلمين أو شحن سلعهم من ميناء إلى آخر. نعرف رحلة الحاج الأندلسي ابن جبير الذي أبحر في 578/ 1183 من سبتة على متن سفينة جنوية باتجاه الإسكندرية[21].وفي عودته اعتزم أولا ركوب سفينة من صور إلى بجاية[22]، قبل الإبحار أخيرا إلى صقلية مع مسلمين آخرين. نصّت معاهدة 1278 بين تونس ومملكة أراجونة على إمكانية تأجير الربان لسفنهم للتجار المسلمين[23] وعدد من الشواهد تكشف أن هذا الاستعمال كان ساريا نسبيّا في بعض الرحلات على الأقل. يروي الغبريني أن بجائيا أراد الذهاب إلى الحج حيث وجد في الميناء سفينة مسيحية قادمة من سوريا[24]. أيضا في 1316 حملت سلع على متن باخرة ميورقية بقيمة تراوحت ما بين 180 و200 دينار كانت للبجائيين آرنداسي (Arrendassi) وغاراني (Rharani) اللذان تسلماها في طلبية من محمد بن عصمة بالمرية[25]. وفي سنة

(20) قدم الإدريسي الطرق البرية بطريقة ذات دلالة ولكن الطرق البرية وكذلك المسالك الساحلية مشيرا إلى المسافات بين الموانئ. مثل: الإدريسي، ص 175-178.

(21) ابن جبير، الرحلة، ترجمة: ب.شارل دومينيك، « Relation des péripéties qui surviennent pendant les voyages (*Rihla*) *Voyageurs arabes*, Paris, 1995, p. 71.

(22) نفسه، ص: 327.

(23) معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1278، المادة 7.

(24) الغبريني، ص 80.

(25) ACA, CRD, Jaime II, *caja* 136, *Judíos y musulmanes*, n° 524 (29/5/1316), éd. (avec une cote erronée) par Ch.-E. Dufourcq, *Recueil de documents concernant les relations des pays de la couronne d'Aragon avec le Maghreb de 1212 à 1323*, thèse complémentaire, Université de Paris, n° 1224.

1368 تمّ أسر عشرة مسلمين من بجاية خلال رحلتهم على متن مركب جيلام سيرا (Guillem Serra) الميورقي حيث بيعوا في سردينيا[26]. وأخيرا في 1403 ذهب مسلمون على متن قاليوطة برشلونية من بجاية إلى الجزائر[27]. لكن كان النظام الأكثر اتقانا في القرن الخامس عشر هو نظام الشواني البندقية التي استدارت نحو؟؟ السواحل الإفريقية وأخذت على متنها التجار المسلمين. من تونس حملتهم شواني الترافيجو (*Trafego*) إلى غاية المشرق وبالخصوص إلى الإسكندرية[28]. في الفترة نفسها حمل أيضا الجنويون[29] والكتالانيون[30] التجار المسلمين من إفريقية نحو الأسكندرية لكن دون وضع نظام مساو لنظام الخطوط البحرية البندقية[31].

هؤلاء التجار البجائيين طوروا أعمالهم التجارية في مجمل العالم الإسلامي. في فترة سلطان بجاية أبي زكرياء أجرى فضل وكيل القصر عدة رحلات إلى

(26) ACA, C., Rg. 1427, f. 27v-28r (16/10/1368).

(27) ARM, RP 3826, f. 147v (1403).

(28) B. Doumerc, *Venise et l'émirat hafside de Tunis (1231-1535)*, Paris, 1999, p. 114.

(29) J. Heers, « Gênes et l'Afrique du Nord vers 1450 : les voyages "per costeriam" », *AEM*, 21, 1991, p. 233-245.

أنظر كذلك شهادة أنسالم أدومو (Anselme Adorno) الذي روى أنه ركب في تونس على متن سفينة جنوية عائدة من المشرق برفقة مائة موري، رجال ونساء، وبعض التجار والحجاج.

J. Heers, G. de Groer, éd. et trad., *Itinéraire d'Anselme Adorno en Terre Sainte (1470-1471)*, Paris, 1978, p. 140-141.

(30) أنظر:

Emmanuel Piloti, *Traité d'Emmanuel Piloti sur le passage en Terre Sainte (1420)*, éd. P. H. Dopp, Louvain-Paris, 1958, p. 229-231.

بخصوص سفينة كاتالانية أسرت في ميناء الإسكندرية على متنها عدد من التجار المغاربة متجهين نحو تونس.

(31) دون شك كان للشواني الفلورنسية كذلك هذه الوظيفة لكننا لا نعرف دورها جيدا. أنظر:

M. E. Mallett, *The Florentine Galleys in the Fifteenth Century*, Oxford, 1967, p. 72-74.

الأندلس وإلى تونس لممارسة تجارة النسيج[32]. نجد هؤلاء التجار في موانئ المغرب الأخرى مثل تونس والجزائر أو وهران أو في المدن الداخلية مثل تلمسان. في هذه المدينة تحصل الأمير أبو زكرياء على مساعدة التجار البجائيين، حيث سمحت له ببناء وتدريب جيش واستعادة السلطة في 684/ 1286[33]. أمثلة أخرى تقدمها لنا وثائق الأرشيف. ففي شوال 702/ ماي-جوان 1303 ببنزرت أوقف شيطي ميورقي مركب مسلم قادم من بجاية بحمولة من العمائم والبرانس بقيمة 40000 (دينار؟)[34]. وفي 705/ 1305 مرّ قارب بجائي في مياه بنزرت حيث أسره بلنسيون، وفي 1315 سافر تجار من تونس وبجاية وتلمسان في سفينة تلمسانية على طول السواحل العبد الوادية[35]. تستمر الشواهد عن هذه التجارة بين الموانئ المغاربية في القرن الخامس عشر سواء على متن مراكب مسيحية أم مسلمة. ففي 1410 حضر أسيران مسلمان من مملكة تونس (واحد من قسنطينة والآخر من جيجل) أمام المشرف الملكي العام لبلنسية ليعلن عليهما حربًا جيدة حسنة. لقد أكدوا على تعرضهم للسبي على متن سفينة بجائية ذاهبة إلى وهران محملة بالخشب والجلود[36]. أيضا، أثناء مرور سفن بندقية على بجاية سنة 1475 حمل مسلم يسمى بوزيوتو (البجائي؟) على متنها عبدين أسودين لبيعهما في الجزائر. لكن في

(32) *Berbères*, II, p. 422.

(33) *Ibid.*, p. 399.

(34) *Ibid.*, texte p. 259, trad. p. 265.

(35) ACA, C., Rg. 242, f. 261v-262r (26/10/1315), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1163 ; Archivo Histórico de la Ciudad de Barcelona, *Llibre del Consell*, vol. 3, f. 33v-34 (6/11/1315), éd. A. de Capmany y Montpalau, *Memorias históricas sobre la marina, comercio y artes de la antigua ciudad de Barcelona*, Madrid, 1779-1792, rééd. C. Batlle et E. Giralt, Barcelone, 1961-1963, n° 99, p. 143-145.

(36) ARV, C., Rg. 626, f. 33v-36r (2/5/1410).

هذا الميناء رفض ربان مركب تومازو زن (Tomaso Zen) تسليمهما[37]. في النهاية هذه التجارة الداخلية في المغرب أكّدتها المصادر العربية خاصة بعض النوازل الفقهية. أشارت فتوى لأبي عبد الله بن العباس (ت 871/ 1466) ولأبي عبد الله محمد بن أحمد بن القاسم العقباني (ت 871/ 1467) إلى تاجر من الجزائر قادم من بجاية بالحرير والحنابل (أغطية أو زرابي). تواجد بها شخص يسمى محمد البجائي الذي ترك له ممتلكاته في المستودع واشترى سلعا مختلفة واعتزم توجيهها أولا عبر البحر إلى الجزائر قبل تغيير رأيه واختيار متابعة الطريق البري[38].

إلى الغرب أكثر، كانت التجارة نشطة مع الأندلس. ففي النصف الأول من القرن الثاني عشر زاوج ابن الرمانة -وهو عالم ولد في قلعة بني حماد ودرس في هذه المدينة وفي بجاية ورحل إلى الأندلس- بين التجارة وطلب العلم[39].

في النهاية مارس البعض التجارة مع الشرق الأدنى وبالخصوص مع مصر. تظهر وثائق الجنيزة عددا من اليهود الإفريقيين في الأسكندرية وفي القاهرة[40]، لكن شلومو.د.جواتين (Shelomo D. Gotein) لاحظ تناقص وجودهم انطلاقا من منتصف القرن الحادي عشر. رغم أن حركتهم لم تتوقّف كلية. ففي القرن الخامس عشر نقلت الشواني البندقية تجار إفريقية انطلاقا من تونس على

(37) Éd. L. Greco, *Quaderno di bordo di Giovanni Manzini : prete-notaio e cancelliere (1471-1484)*, Venise, 1997, p. 54, 56 (14/10/1475).
(38) Analyse dans Lagardère, *Histoire et société, op. cit.*, p. 147.
(39) استقر في النهاية بفاس أين أصبح قاضيا في 536ـ/ 1142 وتوفي في 567ـ/ 1172.
R. Bourouiba, *Les H'ammadites*, Alger, 1984, p. 167.
هذه الصورة للعالم التاجر قديمة ومستمرة في الإسلام، أنظر:
H. Touati, *Islam et voyage au Moyen Âge*, Paris, 2000, p. 99-101 ; H. Ferhat, *Sabta des origines au XIVe siècle*, Rabat, 1993, p. 312-313.
(40) Goitein, *A Mediterranean Society*, *op. cit.*, I, p. 59.

الخطوط التجارية، وضمنت أيضا سفن إسلامية هذه الروابط. وفي 1453 أمر ملك أراجونة خوان لول (Joan Llull) بالذهاب بسفينتيه و"السير على طول السواحل البربرية إلى غاية الأسكندرية لمحاولة مباغتة موكب السفن التجارية التي عادة ما تسير بمحاذاة السواحل من الإسكندرية إلى تونس. فرخص له لمهاجمة ومصادرة -في سياق "الحرب الحسنة"- كل مركب "موري أو تركي أو كفار آخرين أو أعداء العقيدة المسيحية"[41]. لكن لا نعرف جيدا ما إذا شارك البجائيون بكثرة في هذه التنقلات أو إذا كانت هذه الأخيرة مارسها تجار إفريقية الشرقية.

ب) حضور استثنائي في الموانئ المسيحية

إذا كان ذهاب التجار البجائيين إلى جهات أخرى من العالم الإسلامي عاديا، فإنه كان في المقابل العثور عليهم في الموانئ المسيحية استثنائيا[42]. لم يُعترض على مجيئهم معارضة مطلقة، لكن كان من النادر مجيئهم لممارسة التجارة في موانئ الشمال الكبرى.

تبنى الفقهاء المسلمون حول هذه المسألة موقفا فيه ضبابية. من جهة، منعوا الذهاب للتجارة عند المسيحيين لأسباب دينية وإستراتجية على حد سواء، ومن جهة أخرى، تصوروا حالات يفترض وجود هذه المبادلات بصورة جيدة. كان الموقف المبدئي هو المنع كما تظهره فتاوى المازري (ت 536/ 1141) المتعلقة بالتجارة مع صقلية المسلمة: "لا يمكن لمسلم الذهاب إلى أرض خاضعة لأحكام الكفر مهما تكن حاجياته". وقدّم لهذا الحجة التالية: "إذا ما ذهبنا عندهم، سيرتفع

(41) Ch.-E. Dufourcq, « La continuité des activités catalano-aragonaises dans les États musulmans méditerranéens d'Alphonse le Magnanime à Ferdinand le Catholique », *IX Congresso di storia della Corona d'Aragona*, Naples, 1982, p. 211.

(42) D. Valérian, « Ifrīqiyan Muslim Merchants in the Mediterranean at the End of the Middle Ages », *Mediterranean Historical Review*, 14/2, 1999, p. 50-54.

سعر المواد في بلدهم وسيجمعون منا مبالغ معتبرة، يستعملونها لقتال المسلمين وغزو بلدهم"[43]. لكن في فتاوى أخرى لمازري نفسه توقع إمكانية السفر إلى صقلية كواقع[44]. إنّ موقف الفقهاء الجازم كان في الواقع متذبذبا من حيث الممارسة[45].

من الجهة المسيحية، لم يكن هناك اعتراض على قدوم المسلمين. فتحتوي المعاهدات -التي تفصّل في شروط التواجد المسيحي في المجال الحفصي- في الغالب على بنود المعاملة بالمثل. سمح اتفاق 1270 بين فليب لو أردي (Philippe le Hardi) وشارل دانجو (Charles d'Anjou) من جهة والمنتصر سلطان تونس من جهة ثانية للتجار رعايا السلطان بالمجيء لممارسة التجارة في دولتي هذين الملكين" "سيكون في أمان الله تعالى كل مسلمي دولة أمير المؤمنين والأراضي الخاضعة له والأماكن التي تتبعه عند ذهابهم إلى دولة أحد الملكين المذكورين آنفا. لا يتعرض أحد منهم لشتم لا في شخصه ولا في ممتلكاته، ولا لضرر كبير أو صغير. سيكون في منأى عن كل عداء من السفن التي تخرج من الأراضي الخاضعة

(43) تحليل في:

Lagardère, *Histoire et société*, *op. cit.*, p. 128 ; H.-R. Idris, « Commerce maritime et kirād en Berbérie orientale d'après un recueil inédit de fatwās médiévales », *JESHO*, 1961, p. 228-229.

(44) Lagardère, *Histoire et société*, *op. cit.*, p. 316.

حول فتاوى المازري، أنظر التوضيح الأخير ل أ. ل. إيدوفتش:

A. L. Udovitch, « I musulmani e gli ebrei nel mondo di Federico II : linee di demarcazione e di comunicazione », *Federico II e il mondo mediterraneo*, dir. P. Toubert, A. Paravicini Bagliani, Palerme, 1994, p. 191-192.

(45) Cf. Constable, *Trade and traders*, *op. cit.*, p. 59-60 ; A. Nef, *L'élément islamique dans la Sicile normande : identités culturelles et construction d'une nouvelle royauté (XIe-XIIe siècle)*, Thèse de l'université Paris X - Nanterre, sous la direction de H. Bresc, 2001, p. 550-551.

للأمراء المذكورين". إذا ما هاجمهم أحد رعايا الملكين، سيعوضون "إذا ما أثبتوا هذا الضرر بذهابهم إلى البلدين المذكورين آنفا أو بالعودة إليهما[46]".

في بعض الحالات لم تتعد هذه الاتفاقات التعبير عن معاملة نظريا بالمثل[47]. لكن لم تكن الحالة نفسها في المعاهدات الكتالانية، التي هي مفصّلة أكثر. فمعاهدة 1271 بين لاكورونيا أراجونة وتونس تحتوي على عدة مواد تضمن حماية الرعايا الحفصيين على أراضي المملكة[48]. لا يتعلق الأمر في هذه الحالة ببساطة ببند معاملة بالمثل مجانية، لأنه تمّ افتراض مجيء مسلمي إفريقية فعليّا. ففي 1343، بعد استيلائه على ميورقة التي كانت لجاك الثالث الميورقي، منح بيار لوكريمونيو إعفاء للتجار المغاربة (يهودا ومسلمين) الذين قدموا لممارسة التجارة في الجزيرة، وحدد حقوق الجمركة التي وجب عليهم دفعها[49]. أيضا، طالب مزاد علني أقيم بميورقة في 1386 بمنع شتم أوسوء معاملة بسوء كل مسلم أو مسلمة أجنبي موجود في

(46) معاهدة مملكة فرنسا وأنجو – تونس، 1270، المادة 1. تنص نفس المعاهدة أيضا: "إذا كان أي مركب يعود لأحد المسلمين المذكورين آنفا أو سفينة ما تعود للمسيحيين وعلى متنها أحد المسلمين المذكورين آنفا، غرقت في أحد مراسي دول الأمراء المذكورين سابقا، وفي الأماكن الخاضعة لهم، على كل طرف السهر على الحفاظ على كل ما سيلقى على سواحل دوله، سواء أشخاص أم ممتلكات ويرجع الكل إلى المسلمين". (المادة 3).

(47) في معاهدة 1313 بين بيزا وتونس على سبيل المثال، تؤكد المادة السادسة والأربعون والأخيرة على تأمين كل مسلم رعية للسلطان ذاهبا إلى بجاية أو إلى بلدان تحت سيطرتها، في شخصه وممتلكاته.

(48) معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1271، المادة 1، 4، 7، 12، 13.

(49) حدد ب 5 في المائة (*vintè*) عوض 10 في المائة (*deè*) حقوق على الواردات والصادرات لخمس سنوات.

ACA, C., Rg. 1409, f. 91v-92r (15/10/1343), éd. A. Pons, *Los Judíos del reino de Mallorca durante los siglos XIII y XIV*, Palma de Majorque, 1984, II, n° 103-104.

جدّد هذا الإجراء بيار الثالث دون توضيح نسبة الرسوم، لكن سجلات الرسوم لسنوات 1350 كان لها نسبة 10 في المائة من جديد.

الجزيرة سواء في بعثة أم في تجارة أم لأي سبب آخر[50]. كانت هذه الحماية في حدود الإمكان فعلية وموضوع عناية، لأن المشرف الملكي لميورقة أبلغ الملك جاك الثاني بالتجاوزات التي ارتكبها برنات دو ساريا (Bernat de Sarria) وأسطوله ضد مسلمي بجاية وتونس "وأماكن أخرى ببلاد البربر"، الذين مارسوا التجارة مع الجزيرة، وذلك بتسديد حقوق معتاد عليها بانتظام[51]. أيضا، في رخصة مرور منحت ببلنسية في 1406، التزم ربان مركب على عدم مهاجمة سفن لاكورونيا أراجونة "لا للرهبان الدعاة ولا لليهود ولا للمسلمين من أي جهة من بلاد البربر قدموا لممارسة التجارة سواء في المدينة أم في مملكة ميورقة وفي أي مكان من ممالك وأراضي السيد الملك المذكور آنفا[52]".

لكن كانت وضعية بلدان لاكورونيا أراجونة خاصة، بسبب ماضيهم المسلم وتواجد المدجنين. في إيطاليا لم تكن هناك إجراءات ما مشجعة، لكنها وجدت في المقابل في مرسيليا كما يوضحه اتفاق في 1290 بين الأسقف ومجلس المدينة، الذي نصّ على إمكانية قدوم المسيحيين واليهود والمسلمين إلى مرسيليا للاتجار بحرية وفي أمن تام[53]. أيضا رخّصت رسالة الملك روني (René) بتاريخ 9 أفريل 1472

---

(50) Éd. E. de K. Aguiló, « Rubrica dels llibres de pregons de la antiga curia de la governació, llibre I, any 1385 », *BSAL*, 9, 1901-1902, p. 14 (23/4/1386).

(51) ACA, CRD, Jaime II, *caja* 1, n° 326 (16/09/1297).

(52) *Neque conversis seu judeis autem etiam sarracenis de quibusvis partibus barbarie venientibus mercantiliter, tam ad civitatem et regnum Maioricarum quam ad quascumque alias partes regnerum et terrarum predictum domini regis*. ARV, C., *Libres de armaments de fustes de la cort de la Batlia general del Regne de Valencia*, 702, f. 13v-16v (25/1/1406).

(53) *Cives et homines supradicti, sive sint christiani, sarraceni, vel judaei, possint libere et secure intrare et manere et exire in civitate vicecomitali, et negociari, et suas merces et avera vendere et emere...*, cité par G. B. Dapping, *Histoire du commerce entre le Levant et l'Europe depuis les Croisades jusqu'à la fondation des colonies d'Amérique*, Paris, 1830, I, p. 286.
لا يوضّح النص أصل المسلمين واليهود المعنيين.

التجارة في مرسيليا بكل أمان سواء عبر البر أم البحر و"منع الكفار من تصدير الأسلحة"[54]. وتمّ توضيح إمكانية القدوم لمرسيليا للتجارة كل أشخاص "ممالك وجهات وأقسام العالم"، بغض النظر عن دينهم، بشرط أن لا يكون ملكهم في حرب مع مرسيليا ولا يتعاطوا القرصنة. وأضافت الوثيقة: "وأيضا إذا ما كانوا من مملكة تونس وبجاية أو رعايا لأي دولة كافرة".

بالرغم من أن التواجد الفعلي للتجار البجائيين غير منصوص عليه خارج بلدان لاكورونيا أراجونة بعد القرن الثاني عشر، فقد تحدث بنيامين الطليطلي في حوالي 1165 عن مسلمين بمنبيلييه[55]، لكن هذه الشهادة معزولة. نلاقي طبعا مسلمين من موانئ أخرى بإفريقية وبالمشرق وفي مرسيليا[56] وجنوة[57] وبيزا[58] أو أيضا

(54) AM, AA 149, 9/4/1472.

(55) *The Itinerary of Benjamin of Tudela*, éd. et trad. M. N. Adler, Londres, 1907, p. 3. « Men come for business there from all quarters, from Edom, Ishmael, the land of Algarve, Lombardy, the dominion of Rome the Great, from all the land of Egypt, Palestine, Greece, France, Asia and England. »

(56) في 1227 عقد حكيم وهو مسلم من الأسكندرية عقدا مع برنار منديال بمرسيليا أمام الموثق جنيار (Januaire). Blancard, I, n° 14

(57) G. Jehel, *Les Génois en Méditerranée occidentale (fin XIe-début XIVe siècle), ébauche d'une stratégie pour un empire*, Amiens, 1993, p. 280.
يطرح التعرف عليهم كتجار مشكلا. أنظر أيضا:

G. Jehel, « Jews and Muslims in Medieval Genoa: from the Twelfth to the Fourteenth century », *Mediterranean Historical Review*, 10, 1995, p. 120-132.

(58) اشتكى الرهبان دنزيوني (Donizione) كاتب سيرة الأميرة ماتيلد (Mathilde) من تواجد مسلمين في ميناء بيزا في نهاية القرن الحادي عشر.

Vita Mathildis celeberrimae principis Italiae carmine scripta a Donizone presbytero, éd. L. Simeoni, Bologne, 1930-1940 (*Rerum Italicarum Scriptores*2, V, *parte* 2), p. 53.

أنظر أيضا شهادة البندكتي الإسلندي نكولاس (Nikolás)، الذي رأى مسلمين خلال مروره ببيزا في حوالي 1150=

في صقلية[59]، مما يترك انطباعا بتواجد البجائيين أيضا في هذه الموانئ. لكن لم يبق من ذلك أثر، ويمكن أن نعتبر ذلك استثنائيا[60].

كان إذن هؤلاء التجار أساسا في بلدان لاكورونيا أراجونة المسلمة سابقا. لكن رغم التشجيع والحماية التي ضمنها الملوك والتي تمّ التأكيد عليها بانتظام، بقيت الحالات نادرة. لا نعرفها إلا من خلال الرسوم التي وجب على هؤلاء الرجال تسديدها للإقامة في البلاد أو عند مغادرتها أو أيضا حقوق ديوان الجمارك على المنتجات المستوردة والمصدّرة[61]. لكن سلاسل الوثائق غير مستمرة وحضور

=Trad. M. Scovazzi, « Il viaggio in Italia del monaco islandese Nikolas », *Nuova Rivista storica*, 51, 1967, p. 360 : « Ce sont des hommes d'Egypte, des Syriens et des Africains. »

(59) في أكتوبر 1438 عيّن رايسي علي مرسان الساكن في الحمامات ببلاد البربر الوكيل فرانشيسكو دو لي فرو (Francesco de lu Ferru) للمطالبة بقروضه في لكاتا (Licata)، على الساحل الجنوبي للجزيرة.

Archivio di Stato di Trapani, not. Miciletto (10/10/1438), cité par C. Trasselli, « Sicilia, Levante e Tunisia nei secoli XIV e XV », *Mediterraneo e Sicilia all'inizio dell'epoca moderna*, Cosenza, 1977, p. 128.

أيضا نصّت تسعيرة قبالة تراباني (Trapani) على رسم ب 5 في المائة لسلع المسلمين ويهود بلاد البربر إلا بالنسبة ليهود جربة وجزيرتي قرقنة وبنتاليريا.

R. M. Dentici Buccellato, éd., *Fisco e società nella Sicilia Aragonese. Le pandette delle gabelle regie del XIV secolo, Acta curie felicis urbis Panormi*, 2, Palerme, 1983, p. 81.

(60) نذكر أيضا هذا النص الطريف لداعية دمنيكاني في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وهو برتلومي التوري (Barthelemy de Tours)، الذي ندّد ب "تجار إفريقيا ولومبارديا وأماكن أخرى الذين حملوا سلعهم المتواضعة إلى باريس لبيعها بسعر جيد ويعودون بثراء إلى بلدانهم".

(*sicut mercatores de Africa et Lombardia et aliis villis, Parisius portant merces suas viles ut melius vendantur et sustententur in terris suis*). » Paris, BNF, manuscrits latins, n° 14952, f. 32, cité par M.-M. Dufeil, « Traces d'Orient à Paris au XIIIe siècle », *RHCM*, 3, 1967, p. 48-49.

(61) M. D. López Pérez, « Los operadores magrebíes en la Corona de Aragón a finales del trescientos y principios del cuatrocientos : las actividades mercantiles de judíos y musulmanes norteafricanos », *XIV Congresso di Storia della Corona d'Aragona, Sassari-Alghero, 19-24 maggio 1990*, III,=

التجار المغاربة يقيّم إذن بنقصان. يمكننا تكملة هذه المعطيات ببعض الوثائق التجارية النادرة والشكاوى التي هي نتاج أعمال القرصنة ضد المغاربة الذين وفدوا للتجارة مع بلدان لاكورونيا.

كانت ميورقة الوجهة الرئيسية لهؤلاء التجار المغاربة[62]، حيث كانت الجزيرة على اتصال كبير مع بجاية واحتفظت بسكانها المسلمين الذين كان عددهم غير كثير، لكنهم كانوا نشطين[63]. ففي جويلية 1279 تلقى محمد وهو مسلم بجائي حر قرضا من مسيحي يدعى أندري سافر (André Safre)، لتسديد رسم إقامة بلاكورونيا[64]. وفي 1285، أعار علي البجائي ومحمد القرطبي 26 ليفر من ريو بلنسي لبرناردو دو روزان (Bernardo de Rosanes) وجوهانز دومنجاز (Johannes Dominguez)، حيث استعمل قسما كبيرا منه في تعويض أ. دو فيلمار (A. de Vilamar)، اللذين كان قد أعار لهما ما مجموعه 31 دينار مزدوج في إفريقيا وفي ميورقة. شهر بعد ذلك، الشخصان ذاتهما أعارا 30 ليفر من ماتيو دو بورتو فنيري (Mathieu de Porto Venere)، منها 27 ذهبت إلى برناردو (Bernardo) وجيوفاني (Giovanni)، وفي نفس اليوم وعدهما

=Sassari, 1996, p. 558 ; Ead., *La Corona de Aragón y el Magreb en el siglo XIV (1331-1410)*, Barcelone, 1995, p. 358-359.

(62) Cf. J. Sastre Moll, « Estancia y salida de musulmanes libres y esclavos durante el reinado de Sancho I y Felipe de Mallorca », *BSAL*, 44, 1988, p. 125-170.

(63) Cf. N. E. Gais, « Aperçu sur la population musulmane de Majorque au XIVe siècle », *RHCM*, 9, 1970, p. 19-30. قدّر جام ساستر مول (Jaime Sastre Moll) هؤلاء السكان بحوالي 5000 شخص (أحرارا أم لا) في الربع الأول من القرن الرابع عشر، بمعنى من 8 إلى 10 في المائة من سكان الجزيرة. Sastre Moll, « Estancia y salida », art. cité, p. 170.

(64) ARM, P. 351, f. 104, éd. A. Santamaría Arández, *Ejecutoria del reino de Mallorca*, Palma de Majorque, 1990, p. 95.

ماتيو (Mathieu) بإخراجهما من الجزيرة يوم 15 أوت[65]. أيضا في 1354 أخذ التاجر البجائي أحمد الزواوي طلبية من الميورقي برنات برو (Bernat Bru) ب 5 ريو ميورقية وتعهد بحملها إلى بجاية مع تاجر آخر من الجزيرة وهو أنتوني جارثيا (Antoni Garcia)[66].وأخيرا في 1423 تحصل علي بن غرنيط وهو تاجر بجائي آخر على رخصة مرور له ولأصحابه ووكلائه وموزعيه مقابل دفعهم على غرار كل موري أو يهودي أجنبي رسم دخول[67]. تبيّن هذه الأمثلة – على الأقل للبعض من هؤلاء التجار– تنظيما مستقرا جدا لتجارتهم مع البلدان المسيحية.

بالإضافة إلى الانشغالات التجارية، ربما قدم البعض لافتداء الأسرى المسلمين. ففي 1313 قدم إبراهيم أرجوني البجائي للبحث عن اثني وثلاثين أسيرا من ميورقة وعد بها جريجوري سالومبي (Grégori Salembé) السلطات البجائية[68]. وفي 1384 كلّف محمد الفيات البجائي بالذهاب للبحث عن رعية لسلطان أراجونة كان أسيرا في مملكة غرناطة[69]. لكن نحن هنا أمام حالات تتأرجح بين الدبلوماسية والتجارة.

(65) ARM, P. 351 (19/4/1285 [?] et 24/5/1285), cité par E. Lourie, « Free Moslems in the Balearics under Christian Rule in the Thirteenth Century », *Speculum*, 45, 1970, p. 634.

(66) Arxiu Capitular de Mallorca, *Protocolos* 14580, f. 58v (Majorque, 2/7/1354), cité par López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 377.

(67) ARM, LLC 99, f. 295 (1/10/1423), cité par P. Macaire, *Majorque et le Maghrib au XVe siècle*, thèse de troisième cycle, sous la direction de Ch.-E. Dufourcq, Université Paris X, 1977, p. 454.

(68) ARM, *Reales cedulas*, vol. III, f. 110 (08/1313), éd. E. de K. Aguiló, « Tractat de pau entre el Rey de Mallorca Don Sanxo i el de Bugia Boyahia Abubechre, firmat a Mallorca (1312) », *BSAL*, 15, 1915, p. 227-228, 230.
يتعلق الأمر هنا ببعثة رسمية في إطار تبادل الأسرى.

(69) ACA, C., Rg. 1389, f. 165r (30/1/1384).

أنظر: في 1353 حالة تونسي: محمد الرشيد، وهو تاجر واعتبر أيضا الفكاك أي مفتدي الأسرى] (*alfaqueque*)، حيث غادر ميورقة إلى تونس على متن مركب ميورقي.

ARM, RP 1353, f. 30v (1353).

جدول 21: مسلمون ويهود متواجدون في ميورقة وبلنسية (1279-1500)

التاريخ	الاسم	مكان الإقامة	المصدر
1279/7	محمد	ميورقة	ARM, P. 351, f. 104[70]
1285/4/19	علي	نفسها	ARM, P. 351[71]
1285/7/27	محمد	نفسها.	نفسه.
القرن 14	ميمون بن ميمون	نفسها	ARM, RP 1106[72]
القرن 14	يوسف الكودي	نفسها	نفسه
1311/3/2	محمد	نفسها	ARM, RP 1865, f. 42v
1311/5/17	إيكسا وابنها صال	نفسها	Id., f. 28r
1311/10/7	موسفريق	نفسها.	Id., f. 28v
1311/8/20	صيدانا، مينور	نفسها	Id., f. 29v
1314/7	عصمت بن إبراهيم	نفسها.	ARM, RP 3764, f. 40v
1316/3/23	بجائي	بلنسية	ACA, CRD, Jaime II, *caja* 60, n° 11052[73]
1316/11/19	عيسى	ميورقة	ARM, RP 3765, f. 28r
1318/9/4	أرزوس	نفسها	ARM, RP 3766, f. 25v
1320/5/6	عيسى	نفسها	ARM, RP 3767, f. 30r

(70) Éd. Santamaría Arández, *Ejecutoria, op. cit.*, p. 95.

(71) Cité par Lourie, « Free Moslems », art. cité, p. 634 (idem pour le suivant).

(72) Cité par López Pérez, *La Corona, op. cit.*, p. 376 (idem pour le suivant).

(73) Éd. A. Masia de Ros, *La Corona de Aragón y los estados del Norte de Africa*, Barcelone, 1951, n° 138.

1320/7/1	مريم كاباشا	نفسها	Id., f. 31r
1320/9/17	عيسى	نفسها.	Id., f. 31v
1325/10/22	عيسى	نفسه	ARM, RP 3769, f. 41r
1326/3/1	أرزوس	نفسها.	Id., f. 43r
1327/11/6	عيسى	نفسه	ARM, RP 3770, f. 39v
1327/12/18	أرزوس	نفسه	Id., f. 40r
1328/9/2	عيسى	نفسها	ARM, RP 3771, f. 38r
1328/9/2	عيسى	نفسها	Id., f. 47r
1329/2/4	أرزوس	نفسها	Id., f. 40v
1329/2/19	أرزوس	نفسها	ARM, RP 3772, f. 43r
1329/2/21	عيسى	نفسها .	ARM, RP 3771, f. 41r
1351/1/12	عبد الله بن علي أبنت قيلاش، محمد عبد الله	نفسها	ARM, LLC 12, f. 148r
1354/7/2	حامد التزواهي	نفسها	ACM, P. 14580, f. 58v(74)
1362/7/28	سعيد القفصي	نفسها	ARM, RP 1008, f. 14v
1365	محمد بن قري	نفسها	ARM, RP 1108, f. 10v

(74) Arxiu Capitular de Mallorca, *Protocolos*, cité par López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 377.

1366/6/17	عبد الله زفوني	نفسها	ARM, RP 1106, f. 9r
1367/7/30	البوفريز أريان ويوسف بن علي.	نفسها	ACA, C., Rg. 1389, f. 70v
1373/6/30	ميمون بن محمد	نفسها	ARM, LLC 40, f. 73r–v
1450/2	سليم وعمت	نفسها	ARM, RP 3864, f. 331
1450/10/26	سالف ماليني يهودي	نفسها.	ARM, P. 2507, f. 172(75)
1452/4/20	علي	نفسها	ARM, RP 3865, f. 30
1454/10/25	موازي كاب يهودي	بلنسية	ARV, MR, Rg. 66, f. 212r–v
1491/3/28	هوبيدا يهودي بربري من بجاية	نفسها	ARV, MR, Rg. 102, f. 189v
1493	راش قاسم	مملكة أراجونة	ACA, C., Rg. 3569, f. 197r–v(76)
1500/12/14	إبراهيم بوقيس	بلنسية	ARV, Batllia, Rg. 1162, f. 123v-124r

تماشى تواجد البجائيين في ميورقة إجمالا مع فترات السلم مع الحفصيين، لأننا نجدهم في سنوات 1320 وفي بداية سنوات 1360. كان حضورهم في بلنسية

(75) Cité par O. Vaquer, « Navegació i comerç a Mallorca, segle XV, segonda meitat », *Fontes rerum Balearium*, 1990, p. 110.
أمّن تاجر بلنسي على أشرعة قطنية حملت إلى الجزائر.

(76) Éd. A. de la Torre, *Documentos sobre relaciones internacionales de los reyes católicos*, IV, Barcelone, 1951, n° 158, p. 226.

نادرا أكثر أو غير ملحوظ كثيرا، حتى وإن وجدناهم تكرارا بداية من منتصف القرن الخامس عشر[77]. لكن عددهم بقي غير كثير[78].

إنّ مؤشرات نشاط التجار البجائيين هي إذن نادرة. إذا ما افترضنا أن قلة النصوص العربية يخفي عنا الأهمية الفعلية لهؤلاء الفاعلين في البلدان المسلمة، تجب ملاحظة محدودية تواجدهم خارج هذا الفضاء.

لتفسير هذه الظاهرة، لا يمكن الإشارة إلى الإجراءات المقيدة لهم. ففي ميورقة وبلنسية على الأقل، سهّلت السلطات قدومهم، حيث منحت لهم الحماية. يمكن أن نعتقد في الأسباب الضريبية، حيث أن مختلف الحقوق التي سدّدها المسلمون واليهود الأجانب ربما كانت كابحا لقدومهم. في الواقع لجأ البعض منهم إلى ممارسات سمحت لهم بتفادي تسديد الحقوق الإضافية[79]. لهذا أمكنهم إجراء

(77) في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، كان الإفريقيون بصفة عامة عددهم كبيرا في بلنسية.

J. Guiral Hadziiossif, « L'apport des communautés juives et musulmanes de Valence au commerce méditerranéen au XVe siècle », *Économies méditerranéennes. Équilibres et intercommunications, XIIIe-XIXe siècle. Deuxième colloque international d'histoire du Centre de recherche Néohelléniques (Athènes, 18-25 septembre 1983)*, Athènes, 1985, p. 469 ; J. Hinojosa Montalvo, « Sobre los mercaderes extrapeninsulares en la Valencia del siglo XV », *Saitabi*, 26, 1976, p. 85. Leur présence devient cependant exceptionnelle à partir de 1475. J. Guiral Hadziiossif, « Les relations commerciales du royaume de Valence avec la Berbérie au XVe siècle », *Mélanges de la Casa de Velázquez*, 10, 1974, p. 102, 108.

(78) في وثيقة لعام 1320 لمجلس برشلونة، تمّت المطالبة بالثأر ضد عمل قرصني تونسي وطلب مصادرة ممتلكات الرعايا الحفصيين مسلمين ويهود بميورقة. AHCB, Rg. GC, vol. VI, f. 38 (13/5/1320), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1377. صحيح أن سجلات التراث الملكي لا تأخذ بعين الاعتبار إلا المقيمين وليس التجار العابرين، الذين كانوا كثر. Hinojosa Montalvo, « Sobre los mercaderes », art. cité, p. 85

(79) في 1327 نزل تجار من تونس بميورقة وفي لحظة تسديدهم للرسم المفروض على التجار المسلمين الأجانب، حاولوا تقديم أنفسهم على أنهم مدجنين أحرار رعايا ملك أراجونة.

Ch-E. Dufourcq, « Aspects internationaux de Majorque durant les derniers siècles du Moyen Âge », *Mayurqa*, 11, 1974, p. 37.

رسالة تبادل مع تاجر كاتالاني في المغرب، أو عقد اتفاق ما قبل البيع، حيث تنقل السلع رغم مخاطر التاجر الكتالاني، ولا تسدد إلا بوصولها إلى المغرب[80]. توحي بعض الوثائق في الواقع بأن التجار البجائيين كانوا "مستقرين" وحمل المسيحيون سلعهم إليهم. ففي 1365 سدّد اليهودي الميورقي المحبوب الفقيه رسما في ميورقة بأربعة كوستال (*costals*) من الشمع القادم من الجزائر، والذي يعود لمراسله عبد الزفوني، وهو موري (*moro*) من بجاية[81]. أيضا في 1406، وصل من بجاية جوهان دولو (Johan Deulo)، وهو ربان مركب مع سلع مختلفة "مسيحية ومسلمة على حد سواء"، عندما أجبره الطقس السيئ على الإرساء بإبيزا، وفيها سرقت حمولته[82]. ليست هناك مسألة أسرى في هذه القضية، وهذا ما يبيّن بأنّ البجائيين لم يكونوا على متنها، وعهدوا دون شك بممتلكاتهم إلى ربان المركب، أو إلى التجار المسيحيين.

يمكن أن يفسّر ضعف تواجد التجار المغاربة في الموانئ المسيحية أيضا بغياب هياكل استقبال للجماعات مماثلة للهياكل التي نجدها في الموانئ المسلمة بالنسبة للمسحيين. خصوصا وأننا لا نجد تقريبا فنادق على نمط فنادق المسيحيين في أرض الإسلام[83]. أيضا لا تتحدث الاتفاقيات – على غرار اتفاق 1270 بين لاكورونيا

(80) López Pérez, « Los operadores magrebíes », art. cité, p. 565-566.

(81) ARM, RP 1108, f. 9r (17/6/1365).

(82) ARV, Batllia, 1144, f. 145r (14/6/1406).

(83) أشار جام ساستر مول إلى بناء فندق للمسلمين في ميورقة في 1311.

J. Sastre Moll, « El puerto de la ciutat de Mallorca durante el reinado de Sancho y la regencia de Felipe de Mallorca (1311-1330). Rentas reales= portuales y su reinversion », *Miscel.lania de Textos medievals*, 7, 1994, p. 160.

أنظر أيضا: M. T. Ferrer i Mallol, « Les mudéjars de la Couronne d’Aragon », *REMMM*, 63-64, 1992, p. 186. ربما أنه استعمل لمسلمي الجزيرة وأيضا للتجار العابرين. كان تواجده لمدة قصيرة لأننا نلاحظ عشرين سنة بعد ذلك فراغات في إقامات المغاربة المؤقتة في الجزيرة. أيضا في 1268 بني فندق وحوانيت في برشلونة لاستعمالها من قبل المسيحيين واليهود والمسلمين.=

أراجونة وتونس- عن أي تنظيم جماعي في موانئ لاكورونيا. وحدها تتحدث معاهدة 1477 بين ملك نابولي فردناند وعثمان عن المعاملة بالمثل فيما يتعلق بالفندق، لكن لا شيء يدل على تطبيق هذا البند[84]. بيد أن التاجر المنعزل حتى وإن كان تحت حماية العاهل اعترضته صعوبات العيش في الخارج، على الأقل لتنمية أعماله. عندما وجد الخميادو، في بلنسية على سبيل المثال، تمكن المغاربة دون شك من الاندماج والحصول على هيكل استقبال مسلم. وفي ميورقة حيث لم تكن مؤسسة ما[85]، استقبل السكان المسلمون المغاربة الوافدين للتجارة[86]. كانت الوضعية أصعب طبعا في البلدان التي لم تقطنها جالية مسلمة. وتطرح المادة الغذائية مشكلا أيضا هاما باستمرار في المدن المسيحية[87]. وأخيرا ورغم ضمانات الملوك المسيحيين ورخص العبور، كانت هناك إمكانية للثأر بسبب القرصنة البجائية[88].

لكن ولا سبب واحد يفسّر كلية ندرة التجار المغاربة في الأرض المسيحية. ويجب إذن الاستدارة إلى مجتمع الانطلاق في بجاية نفسها لمحاولة الإحاطة بالوسط التجاري.

=O. R. Constable, *Housing the Stranger in the Mediterranean World. Lodging, Trade, and Travel in Late Antiquity and the Middle Ages*, Cambridge, 2003, p. 189.

(84) معاهدة ملك نابولي – تونس، 1477، المادة 5.

(85) D. Abulafia, *A Mediterranean Emporium. The Catalan Kingdom of Majorca*, Cambridge, 1994, p. 61.

(86) Constable, *Housing the Stranger, op. cit.*, p. 190-191.

(87) Constable, *Trade and Traders, op. cit.*, p. 59.

تشير أيضا إلى مسألة الحمامات. في الموانئ المغاربية نعرف وجود تمييز في هذا الميدان وأنّ المسيحيين كان لهم حق استعمال الحمامات حيث يخصص لهم يوم.

(88) في 1316 قدم بجائي إلى البلاد البلنسية لشراء الزيت وتهيأ للمغادرة إلى موطنه، حيث أوقفه المشرف الملكي للثأر من أسر تاجر بلنسي ببجاية. ACA, CRD, Jaime II, *caja* 60, n° 11052 (23/3/1316), éd. Masia de Ros, *op. cit.*, n° 138. ولهذا أصبح تواجدهم استثنائيا بعد 1370 في فترة قوة القرصنة البجائية.

2) أوساط تجارية ضيقة

تنذر المعطيات لدراسة الوسط التجاري البجائي، وهي ليست مقصورة على هذه المدينة وهي قابلة للتعميم على قسم كبير من العالم الإسلامي في هذه الفترة. مرة أخرى هناك إحساس كبير بغياب وثائق الأرشيف، ويجب الاقتصار على معلومات هزيلة يمكن للنصوص المتوفرة أن تقدمها، حيث تقدم صورة دون شك مشوهة عن الواقع. فقط تمّت الإشارة إلى بعض المجموعات التي أوضحتها المصادر، وهم الأندلسيون واليهود والنخب السياسية. لا يجب الاستنتاج بكونهم هم فقط من شارك في التجارة الدولية الكبيرة أو أنهم مارسوا نوعا من الاحتكار. لكن يبدو جليا أنهم استفادوا من وضعية ملائمة على الخصوص، وكانوا فيها وسطاء مفضّلين مع التجار الأوروبيين..

أ) الأندلسيون

إنّ مشاركة الأندلسيين في التنشيط التجاري للميناء قديمة، لأنهم كانوا متواجدون قبل تأسيس الناصر للمدينة في المرسى حيث قاموا فيه بمبادلات[89]. تأكد دورهم بعد ذلك عندما استقر عدد كبير منهم في بجاية، خصوصا بداية من القرن الثالث عشر. ولفهم مكانتهم في الوسط التجاري البجائي، تجب الإشارة إلى أقدمية العلاقات بين بجاية ومسلمي إسبانيا، وأيضا الروابط التي واصل هؤلاء الأخيرين في عقدها بعد استقرارهم بالمغرب مع وطنهم السابق.

عدّ الأندلسيون مبكرا من بين الفاعلين في التجارة البحرية وتنشيط الموانئ على طول السواحل المغاربية[90]. كانت المرية ومالقة واشبيلية على علاقة مع

(89) البكري، الترجمة ص 166.

(90) بداية من عصر الخلافة الأموية، كانوا نشطين في إفريقية:

O. R. Constable, « Muslim Merchants in Andalus International Trade », *The Legacy of Muslim Spain*, dir. S. Kh. Jayyusi, Leyde, 1992, p. 763.

أسواق المغرب، التي انفتحت على الشرق الأدنى وخصوصا مصر[91]. عرفت فترة الخلافة الأموية خصوصا تطور تجارة الأندلسيين على طور السواحل الإفريقية إلى بونة على الأقل. وأسسوا مدنا لاستعمالها كمواقف في هذه التجارة، على غرار تنس في 262/ 875 ووهران في 290/ 902[92]. إلى غاية الفترة الموحدية، كانت هذه التجارة مزدهرة، حيث ساعدتها الوحدة الجديدة للفضاء المسلم الغربي[93]. استمر هذا التقليد بعد القرن الثاني عشر، غالبا باستعمال المراكب المسيحية. ففي 1337 قدم مسلمو المرية للتجارة ببجاية على متن قارب للبلنسي أندرو دو برجا (Andreou de Bergé)، الذي استولى عليه لوح القراصنة البجائيين[94]. واستعملت موانئ الأندلسيين في الواقع مبكرا كنقاط ارتكاز في التجارة الإفريقية للأوروبيين. هي حالة الجنويين[95] بداية من القرن الثاني عشر، وربما أيضا

(91) Constable, *Trade and Traders*, *op. cit.*, p. 18-20, 31.

حول اشبيلية: أنظـر: Picard, *L'Océan atlantique*, *op. cit.*, notamment p. 108-112, 400-401

حول مالقة:

F. Melis, « Malaga nel sistema economico del XIV e XV secolo », *Economia e Storia*, III/1, 1956, p. 19-59 ; III/2, p. 139-163, rééd. *I Mercanti nell'Europa medievale e rinascimentale*, Florence, 1990, p. 135-213 ; M. I. Calero Secall, « Málaga : un puerto en una ciudad », *Al-Andalus y el Mediterráneo*, Barcelone-Madrid, 1995, p. 115-122.

(92) J. D. Latham, « Towns and Cities of Barbary – the Andalusian Influence », *Islamic Quarterly*, 16, 1972, p. 190, rééd. *From Muslim Spain to Barbary*, Londres, 1986.

(93) Constable, *Trade and Traders*, *op. cit.*, p. 33.

(94) ACA, C., Rg. 592, f. 26v-27r (18/5/1337).

(95) D. Abulafia, « Gli inizi del commercio genovese a Maiorca e il patto maiorcino-genovese del 1160 », *Oriente e Occidente tra medioevo ed età moderna. Studi in onore di Geo Pistarino*, dir. L. Balletto, Gênes, 1997, p. 9-10.

يعتقد هذا المؤلف بمبالغة –دون شك– أن ميورقة كانت في أعين البيزيين والجنـويين نقطـة رصـد للبحـر المتوسط الغربي وأنّ المعاهدة التي أبرمت مع جنوة وميورقة في 1160 سمحت بتنمية التجـارة مـع سـبتة وبجاية. لكن لم تجر أغلب الرحلات بين جنوة وبجاية بواسطة ميورقة، وهذا ما يشكل التفافا هامـا. أنظـر أيضا: =

البيزيين، وتأكد هذا الدور بعد ذلك. ففي 1253 حرّر عقد استئجار بحري في جنوة لرحلة إلى مالقة ثم إلى المغرب. لكن كان التوقف في مالقة قصيرا لأنه لم يدم إلا ثلاثة أيام ولم يكن هدفه تجاريا فقط[96]: يوضّح العقد ضرورة استشعار الأخبار الجديدة عن سبتة. إذا لم تكن الظروف الأمنية كافية، يجب الذهاب مباشرة إلى بجاية أو إلى تونس، حيث يمكن قضاء الشتاء (كان من المفروض الانطلاق من جنوة يوم 8سبتمبر) [97]. وجد إذن تقليد تجاري جنوي لدى سكان المدن الساحلية الكبيرة في إسبانيا المسلمة وعلاقات تجارية قديمة مع بعض موانئ المغرب كبجاية. في المجالات التي سيطرت عليها الممالك المسيحية، استمر المدجنون في أداء دور ما في التجارة المغاربية[98]. كانت الحالة كذلك خصوصا في بلنسية حيث بقي السكان المسلمون مهمين لفترة طويلة. فعائلة ريبول (Ripoll) كانت لها استثمارات امتدت على كل البحر المتوسط إلى غاية الأسكندرية وحتى في فلورنسا[99]. ونرى

=B. Garí, « El reino de Granada y la política comercial genovesa en la Península ibérica en la segunda mitad del siglo XIII », *Relaciones exteriores del Reino de Granada. IV Coloquio de historia medieval andaluza*, Almeria, 1988, p. 287-296 ; G. Doxey, « Diplomacy, Trade and War. Muslim Majorca in International Politics, 1159-1181 », *Journal of Medieval History*, 20/1, 1994, p. 39-61.

(96) حتى وإن أعطى العقد تسعيرات لاستئجار بحري للسلع المحمّلة في مالقة إلى بجاية.

(97) ASG, min. 29, f. 164r (20/7/1253), éd. E. H. Byrne, *Genoese Shipping in the Twelfth and Thirteenth Centuries*, Cambridge (Mass.), 1930, p. 120-124.

(98) R. Arroyo, « El comercio valenciano de exportación con Italia y Berbería a finales del siglo XIV », *VIII Congreso de historia de la Corona de Aragón*, II, Valence, 1973, p. 255-289.

لعب المعتنقون دورا هاما:

J. Boswell, *The Royal Treasure: Muslim Communities under the Crown of Aragon in the 14th Century*, New Haven et Londres, 1977, p. 58-61.

(99) في 1448 بالأسكندرية، عيّن التاجر غالب ربولي (Galip Ripoli) الوكيلين إبراهيم وبن رنتسي وهما تاجران مسلمان لبيع الفلفل باسمه إلى صاحب رودس الأكبر. Éd. F. Rossi, *Servodio Peccator, notaio in Venezia e Alessandria d'Egitto (1444-1449)*, Venise, 1983, n° 23, p. 46-47 (14/10/1448). في النصف الثاني من القرن الخامس عشر=

أعضاءها في بلنسية يسددون رسوما للسفر إلى بجاية وموانئ مسلمة أخرى(100)، وفي 1422 لحق كعات ربول (Caat Ripoll) ببجاية للاستفسار عن جديد أخ زوجته علي بن غرنيط الذي كان قد تكفل به(101). بصفة عامة كان المدجنون في بلنسية نشطين جدا في التجارة المتوسطية(102)، ورخّص لهم الملوك بالذهاب إلى المغرب للإقامة المؤقتة به(103). فبين 30 سبتمبر و4 أكتوبر 1458 ركب ثلاثة وعشرون مسلما ويهوديا واحدا من المملكة على الشواني البندقية إلى بلاد البربر(104).

=كان لمحمد ربول وعلي تشوبيو نشاطات في المغرب ومملكة غرناطة وفي إيطاليا. كما كان لهما فرع في فلورنسا حيث كان لهما موزع-وكيل وهو إبراهيم عمر رفقة خادم وهو محمد فريج. وفي 1452 ترك علي تشوبيو في إدارة أعماله في مملكة غرناطة والمغرب لابنه كعات تشوبيو وفي نفس الفترة اقتسم محمد ربول أنشطته بين أولاده الثلاثة وهم أحسن وعبد الله ومحمد الصغير، الذي وضع على رأس فرع تونس من 1452 إلى 1459، في بادئ الأمر بشراكة مع أحسن ثم وحيدا. واستقدم إليها ابنه أزمت ليتلقى تعليمه.

J. Guiral, « L'organisation de la production rurale et artisanale à Valence au XVe siècle », *AEM*, 15, 1985, p. 420.

ونجد من جديد في 1470 عبد الله ربولو *maurus filius sidi Mahometh de Tunisio* ، حيث يشير اسمه إلى استقراره بتونس. وبعد ذلك بقي أعضاء من هذه العائلة في بلنسية حيث اعتنقوا المسيحية، ولكنهم احتفظوا بنشاط تجاري مع المغرب بفضل روابطهم العائلية خصوصا. حول هذه العائلة، أنظر:

M. Ruzafa Garcia, « Els orígens d'una família de mercaders mudèjars en el segle XV : Caat Ripoll (1381-1422) », *Afers*, 7, 1988-89, p. 169-188.

(100) على سبيل المثال: ARV, MR, Rg. 43, f. 91v-92r (21/4/1423): سدّد غالب ربول من مريرة بلنسية رسما للسفر إلى بجاية لكل من يوسف قاسم ومحمد بن قاسم وقاسم بن يوسف وعلي بن قاسم وهو مسلمون من فراجة (La Fraga) في مملكة أراجونة.

(101) ARV, MR, Rg. 50, f. 80v-82r, cité par Ruzafa Garcia, « Els orígens », art. cité, p. 184.

(102) M. Ruzafa Garcia, « Los mudéjares en desarrollo mercantil valenciano del cuatrocientos », *Revista d'historia medieval* (Valence), 2, 1991, p. 179-189.

(103) ففي 1408 سمح مارتان الأول بمنح رخص تسمح للمسلمين بالإقامة إلى غاية خمس سنوات في المغرب=.

جدول 22: تجار مسلمين ويهود من مملكة بلنسية نشطون ببجاية
(1492-1336)

التاريخ	الاسم	طبيعة المعلومة	المصدر
8/ 1/ 1336.	ڤينا الخليفة مسلم من مورلة (مملكة بلنسية)	رخصة للتجارة	ARV, Batllia, 1142bis, f. 53v-54r
1336/1/13	يحي بن حسن مسلم من أوندارا (مملكة بلنسية).	رخصة للتجارة	Id., f. 54v
1337/9/1	ميمون فيستر وأيمت رابولي تاجران من بلنسية	قبض عليهما على متن مركب رامون بيجور دو بالافيرجال من طرف يخت ذاهب من مالقة إلى بجاية	ACA, C., Rg. 587, f. 158r-v
1343/2/26	ميمون فيستر تاجر من بلنسية	رخصة للاستيراد من مملكتي بجاية وتونس 1000 سالمي حمولة من السلع غير الممنوعة	ACA, C., Rg. 874, f. 59v-60r

=ARV, *Lletres y privilegis*, Rg. 2, f. 234v (15/7/1408), éd. L. Piles Ros, *Estudio documental sobre el bayle general de Valencia, su autoridad y jurisdicción*, Valence, 1970, n° 47bis.

(104) ARV, C., Rg. 705, f. 277r-296v (30/9 - 4/10/1459).

بالنسبة لسبعة عشر منهم، كان هدف الرحلة هو التجارة (أساسا لبيع الحرير والأجواخ البلنسية)، وسافر خمسة للدراسة وواحد لاسترجاع دين والأخير لتركة.

1363 /3 /2	عبد الله أبو رأس من بلنسية	دفع ضريبة الاستيراد لعمودين من الشمع الجزائري و190 دوبل	ARM, RP 3988/2, f. 34r
1363/5/9	سيد أسيبا من بلنسية	دفع رسم استيراد ل 2 كستال من شمع الجزائر	Id., f. 9v
1363 /07 /18	محمد كسي بيورو من بلنسية	دفع رسم استيراد لخمسة كستال من الشمع.	Id., f. 14v
1363/7/28	سايت القفص	دفع رسم الاستيراد لأربع كتل من الشمع	Id.
1394	محمد	رسم تصدير مرجل من النحاس	ARV, MR, Rg. 12, f. 249v
1399	سليمان	رسم تصدير لنصف قنطار من القصدير، ومرجل ومقلاة نحاسية.	ARV, MR, Rg. 19, f. 34r
1404/1/16	سليمان أبو النقال	رسم تصدير على مواد خياطة (« coses vedades »)	Éd. J. Hinojosa Montalvo, *Coses vedades, en 1404*, Valence, 1972, n° 38, p. 15
1409/5/7	يوسف كسيبيو من خميادو بلنسية وموزعه ببجاية يحي الرواغ، سليمان بن	استيراد مشاط تونسية، واستيراد القماش والشمع، وجلد البقر والسكر، صادرها حاكم كاجلياري.	ARV, *Batllia*, 1144, f. 264r-v

	عطال البلنسي، وكعات تشوماد من ڤانديا[105].		
1492/6/22	شالمو المالقي يهودي من كزاتيفا ومقيم ببلنسية.	استئجار بحري إلى وهران وبجاية والجزائر أو تنس	ARV, P., Rg. 2009, f. 315r-316v

كانت الجماعة المسلمة أقل أهمية في ميورقة ومكانتها في التجارة البحرية الكبيرة قليلة. اعتبر دافيد أبو العافية أن الميورقيين اقتصروا على الملاحة الساحلية وعلى تجارة مواد ضعيفة القيمة[106]. لكن قدم بعض مسلمي لاكورونيا أو المقيمين في المجالات النصرية إلى الجزيرة للذهاب بعد ذلك إلى المغرب، وخصوصا إلى بجاية. ففي 1242 تهيأ أموكس دو كلديس (Amicus de Caldis) والمسلمان فرج السرقسطي وعبد الله الفرشي الليدي للذهاب في أعمال إلى بجاية وربما إلى سبتة[107]. أيضا في 1247 قدم أحمد بن حقير اللقنتي إلى بالما (Palma) واستأجر لوحا يعود إلى برنات دو كوارت (Bernat de Quart) من سان فليو (Sant Feliu)، في رحلة من القنت إلى الجزائر أو بجاية، وهذا ما يوضح عمليات أكيدة واسعة النطاق[108].

(105) يظهر يوسف تشوبيو هذا أيضا كوسيط لافتداء الأسرى في الأرض المسلمة.

A. Díaz Borrás, *El Miedo al Mediterráneo : la caridad popular valenciana y la redención de los cautivos bajo poder musulmán 1323-1539*, Barcelone, 2001, p. 69.

(106) D. Abulafia, *A Mediterranean Emporium*, *op. cit.*, p. 63-64.

(107) ARM, P. 342, f. 160r (février 1242), cité par Abulafia, *A Mediterranean Emporium*, *op. cit.*, p. 123.

(108) ARM, P. 343, f. 243v-244 (29/12/1247), éd. Santamaría Arández, *Ejecutoria*, *op. cit.*, n° 51, p. 639-640.

بداية من منتصف القرن الثالث عشر، أجبر تقدم حركة الاسترداد عددا كبيرا من الأندلسيين على الفرار من إسبانيا واللجوء إلى المجال المسلم[109]. اختار عدد كثير منهم الاستقرار ببجاية بسبب علاقاتها القديمة مع الأندلس وأيضا لازدهارها. وشكلوا بسرعة جماعة هيكلها الشعور القوي نظرا لوضعيتهم في المنفى[110]. وحملوا معهم تقاليد تجارية، وخبرات في ميدان التجارة وأيضا بالنسبة للذين لم يهاجروا في الحين بعد السيطرة، وتأقلموا مع الأعراف المسيحية في الوسط الذي عاشوا فيه. في القرن الرابع عشر شغلوا المناصب الهامة في التجارة، وخصوصا في ديوان البحر[111]. واحتفظوا بشبكات فعالة وعقدوا علاقات تجارية مع إخوانهم في الدين القاطنين بإسبانيا. بقيت الصلات خصوصا العائلية في الواقع قوية كما تبينه الأسباب المذكورة لتبرير الرحلات انطلاقا من بلنسية،

(109) Cf. D. Valérian, « Les Andalous à Bougie, XIe-XVe siècle », *Migrations et diasporas méditerranéennes, XIe-XVIe siècles*, dir. M. Balard et A. Ducellier, Paris, 2002, p. 313-330 ; J. D. Latham, « Toward a Study of Andalusian Immigrations and its Place in Tunisian History », *CT*, 19-20, 1957, p. 203-252, trad. fr. « Contribution à l'étude des immigrations andalouses et leur place dans l'histoire de la Tunisie », *Recueil d'études sur les Moriscos andalous en Tunisie*, dir. M. de Epalza et O. R. Petit, Madrid-Tunis, 1973, p. 21-63, rééd. *From Muslim Spain to Barbary*, Londres, 1986.
م. ح. بلخوجة، "الهجرات الأندلسية إلى إفريقية في القرن 7 ه/ 13م"، الكراسات التونسية، 69-70، 1970، ص 129-137.

(110) م. الطالبي، "الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين"، الأصالة، 26، 1975، إعادة نشر: دراسات في تاريخ إفريقية والحضارة الإسلامية الوسيطة، تونس، 1982، ص 201، 203، Valérian, « Les Andalous », art. cité, p. 327-328.

(111) في سبتة التي استقبلت عدة أندلسيين، تولى البلنسي ابن خلاص رئاسة ديوان البحر في النصف الأول من القرن الثالث عشر. وتحصل من الخليفة الموحدي الرشيد على استفادة مسلمي بلنسية وسكار وشاطبة من امتيازات ضرائبية على وجه الخصوص. وبصفة شخصية، استثمر في التجارة وعقد شراكة مع المرسيليين وأصبح غنيا بسرعة.

H. Ferhat, « Le rôle de la minorité andalouse dans l'intervention hafside à Sabta », *Le Maghreb aux XIIe et XIIIe siècles : les siècles de la foi*, Casablanca, 1993, p. 147-148 ; Ead., *Sabta*, *op. cit.*, p. 121-122.

مقدمين الحاجة للذهاب للتكفل بتركة[112]. ففي 1366 كتب الملك بيار الأراجوني إلى سلطان بجاية ليطلب منه الاستقبال الجيد لوكيل المسماة فاطمة، لاسترجاع الأملاك التي ورثتها من رعايا السلطان. كانت فاطمة هذه هي بنت ميمون فوستر (Maymo Foster) -الذي رأيناه يتاجر عامي 1337 و1343 ببجاية- وزوجة فرج دو بلفيس (Farig de Belvès)، وهو مسلم من دار الملك[113]، ينحدر من عائلة مورية بلنسية نشطة في الأعمال التجارية. دون أن نتمكن من دراستهم بالتفصيل، يبدو هنا وجود شبكات تجارية استندت على الروابط العائلية الممتدة.

استفاد التجار البجائيون طبيعيا من العلاقات مع المدجنين. ففي 1270 تلقى المسلم (وهو بلنسي دون شك) إبراهيم بن خلف من الملك جاك الثاني رخصة لشراء مركب برنات ماسو (Bernat Masot)، أو قسما منه. كان بإمكانه استعماله في التجارة وفي الشراكة لذات الغرض مع المسيحيين أو المسلمين في تونس وبجاية أو في مكان آخر، حيث أخذ تحت حمايته شركاءه المستقبليين وسلعهم[114]. أيضا في 1316 أعطى محمد بن عصية من المرية طلبية إلى أرنداسي

(112) على سبيل المثال ARV, MR, Rg. 31, f. 23v-24r (1410): رخّص لصال بن بصال الذهاب إلى بجاية لاسترجاع تركة. أنظر أيضا: ARV, C., Rg. 705, f. 192r-v (1457). يشار إلى الروابط العائلة في 24 في المائة من الرخص التي أعطيت في بلنسية في القرن الخامس عشر للذهاب إلى المغرب أو إلى سلطنة غرناطة.

M. Ruzafa Garcia, « Las relaciones económicas entre los mudéjares valencianos y el reino de Granada en el siglo XV », *IV Coloquio de Historia Medieval Andaluza. Relaciones exteriores del reino de Granada. Almería, 1985*, Almeria, 1988, p. 352.

(113) "موري دار نوسترا". كان آل بلفيس قضاة الملك ابن عن أب.

Guiral Hadziiossif, « L'apport des communautés juives », art. cité, p. 467.

(114) ACA, C., Rg. 16, f. 206r-v (23/8/1270), éd. R. I. Burns, « Les mudéjars du royaume de Valence au temps des Croisades : une majorité traitée en minorité dans un royaume du Moyen Âge », *Minorités et marginaux en Espagne et dans le Midi de la France (VIIe-XVIIIe siècle)*, Paris, 1986, p. 112-113.

(Arrendassi) والغراني (Rharani) البجائيين سلعا لحملها على متن مركب الميورقي بليسيي (Pelicier)، بقيمة من 180 إلى 200 دوبل[115]، وفي 1365 سدّد محبوب الفجري وهو يهودي ميورقي رسما لاستيراد أربعة كستال من الشمع القادم من بجاية وأعلن بأنها تعود إلى عبد الله الزفوني، وهو موري من بجاية[116].

استعمل الأندلسيون سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين كمناوبة للتجار المغاربة، حيث استقروا ببجاية وفي بقية المغرب حيث استمروا في إبرام علاقات تجارية مع شبة الجزيرة الإيبيرية. روى عبد الباسط أنه في فترة إقامته بتونس في 866/ 1462، كان رئيس تجار المدينة أندلسي الأصل واسمه أبو القاسم الغرناطي الأندلسي، وهذا ما يشير إلى المكانة التي احتلتها الجماعة في التجارة[117]. رأينا من جهة أخرى أن الحاجب ابن غمر تاجر في شبابه مع الأندلس، حيث حافظ على العلاقات[118]. وفي الأخير في 1423 بقي علي بن غرنيط البلنسي الأصل والبجائي الإقامة مرتبطا بالعائلات الكبيرة في المريرة (بلنسية)، على غرار آل ربول (Ripoll) وآل بلفيس (Bellvis) ، وقدم إلى ميورقة من أجل أعماله التجارية[119].

هذه الإشارات جزئية، لكنها تبيّن جيدا فئة من التجار المرتبطين بشبه الجزيرة الإيبيرية، المسيحية أو المسلمة، وشكّلوا أحد العناصر الديناميكية للوسط التجاري البجائي.

(115) ACA, CRD, Jaime II, *caja* 136, *Judíos y musulmanes*, n° 524 (29/5/1316), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 1224.

(116) ARM, RP 1108, f. 9r (1365).

(117) عبد الباسط بن خليل، الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، ترجمة:

R. Brunschvig, *Deux récits de voyages inédits en Afrique du Nord au XVe siècle, ʻAbd al-Bāsit b. Halīl et Adorne*, Paris, 1936, rééd. 2001, p. 21.

(118) البربر، 2، ص 422.

(119) ARM, LLM 99, f. 295 (1/10/1423).

ب) اليهود

شكّل اليهود جماعة نشطة في التجارة ومتواجدة في العالم المسيحي والبلدان المسلمة على حد سواء، وهو ما سمح لهم بالاستفادة، على غرار الأندلسيين، من شبكات لصالح أعمالهم.

كان حضورهم في بجاية دون شك قديما، وكانوا متواجدين في قلعة بني حماد، حيث ازداد عدد سكانها اليهود بصورة محسوسة بعد استيلاء الهلاليين على القيروان(120). واستقروا بعد ذلك في بجاية، حيث كان يشهد على تواجدهم في الفترة الموحدية(121). رغم السياسة الدينية لخلفاء مراكش التي كانت نتيجتها الاختفاء الكامل لآخر الجماعات المسيحية المحلية، والتي أدت أيضا إلى تناقص عدد اليهود بشكل كبير. لكن على نقيض ما حلّ بالمسحيين، صمد اليهود ضد هذه الاضطهادات، حيث قلت كثافتها بسرعة. إذا ما فضّل البعض ترك الجهة إلى مصر أو إلى البلدان المسيحية، وبقي عدد كبير منهم أو عاد بسرعة(122). نظرا للسياسة الحفصية التي كانت ملائمة لهم أكثر(123).

ازداد عددهم بقوة خصوصا بعد لجوء الأندلسيين، ودفعهم جو اللاتسامح والشعور باللاأمن اللذين سادا المجالات التي استولى عليها المسيحيون إلى البحث عن بلدان أقل عرضة للأخطار. في بداية حركة الاسترداد، بقيت وضعيتهم في

(120) H. Z. Hirschberg, *A History of the Jews in North Africa*, I, *From the Antiquity to the Sixteenth Century*, Leyde, 1974, p. 116 ; Bourouiba, *Les H'ammadites*, *op. cit.*, p. 169.

(121) Hirschberg, *op. cit.*, p. 117.

(122) حول الفترة الموحدية، أنظر: Hirschberg, *op. cit.*, p. 120-139.

(123) A. Cahen, « Les Juifs dans l'Afrique septentrionale », *Recueil de la Société archéologique de Constantine*, 11, 1867, p. 145. I. Jadla, « Les Juifs en Ifrīqiya à l'époque hafside », *Histoire communautaire, histoire plurielle. La communauté juive de Tunisie. Actes du colloque de Tunis, 25-27 février 1998*, Tunis, 1999, p. 145-151.

إسبانيا محتملة، لكن بداية من القرن الرابع عشر وخصوصا بعد المذابح المنظمة في نهاية القرن، كانت ضرورة اللجوء ملحّة جدا. أدت الأزمة الكبيرة المعادية لليهود في 1391 إلى الرحيل الجماعي أو إلى اعتناق المسيحية، خصوصا في ميورقة(124). بسرعة كبيرة دعا الملوك الكتالانيين اليهود إلى العودة للاستقرار على أراضيهم(125)، لكن مواصلة السياسة المعادية لليهود في القرن الخامس عشر عجّلت بالرحيل إلى غاية أزمة 1492 واختفائهم من أراضي الملوك الكاثوليك. جرت هذه الهجرات باتجاهات متعددة، خصوصا إلى المغرب حيث استقر عددهم أكبر بمدينة الجزائر وفي جهتها، واستقبلت بجاية أيضا عددا منهم، كما تبيّنه خصوصا مجاميع أجوبة *(responsa)* الحاخامات. وشكّلوا فيها في القرن الرابع عشر جماعة منفصلة عن جماعة اليهود المحليين، حيث كانوا في نزاع معها أحيانا(126).

تمّت الإشارة في الغالب إلى مكانتهم في التطور الاقتصادي للمغرب، وأدوا دون شك دورا هاما في بعض القطاعات التجارية منذ أمد طويل، خصوصا في التجارة البعيدة(127).

نجدهم في بادئ الأمر في التجارة الداخلية، خصوصا كوسطاء في التجارة الصحراوية. تواجدت منهم جماعة هامة في وارجلان بين القرن العاشر والقرن

(124) M. D. López Pérez, « El pogrom de 1391 en Mallorca y su repercusión en los intercambios comerciales con el Magreb », *I Col.loqui d’Història dels Jueus a la Corona d’Aragó, Lérida, 1989*, Lérida, 1991, p. 242-243.

(125) *Ibid*., p. 249.

(126) استشارة قانونية أعطاها سليمان سيمون بن دوران، أشار إليها: Hirschberg, *op. cit.*, p. 386-387

(127) إنّ اليهود المغاربة حاضرون بصورة كبيرة في وثائق الجنيزة وضمنوا في هذه الفترة تجارة نشطة بين المغرب ومصر. فضلا عن دراسات شالمو د. جواتين (Shelomo D. Goitein)، أنظر:

A. Greif, « Reputation and Coalitions in Medieval Trade: Evidences on the Maghribi Traders », *Journal of Economic History*, 48, 1989, p. 857-882.

الثاني عشر، وبصفة عامة، في كل المراكز الحضرية الواقعة على حافة الصحراء[128]. بمجرد عبور الأزمة الموحدية، عاد ازدهار هذه المجموعات، حيث اعتبر ميشال أبي الطبول (Michel Abitbol) الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثالث عشر ونهاية القرن الرابع عشر عصرا ذهبيا لتجارة اليهود الصحراوية[129]. نجدهم في تقورت[130] وفي توات[131]، بمعنى في منافذ الطرق الصحراوية، التي يمكنها الامتداد باتجاه بجاية[132]. اعتبر الكثيرون مشاركتهم في التجارة الصحراوية بالأكيدة، حتى وإن اعتبر إلياهو أشتور بأنها لم تكن ذات دلالة[133]. كانت معرفتهم بجغرافية إفريقيا السوداء على كل حال بيّنة[134]. أيضا تبيّن كتابات الحاخامات علاقات جماعات الحواف الصحراوية هذه مع مدن الشمال على غرار تلمسان وقسنطينة أو بجاية[135].

كان اليهود في بجاية نشطين في التجارة، حيث تظهر أجوبة الحاخام رشباش تجارتهم في الملح والجلود والأنسجة والشمع والعبيد غير المختونين (بمعنى السود

(128) M. Abitbol, « Juifs maghrébins et commerce transsaharien au Moyen Âge », *Les communautés juives des marges sahariennes du Maghreb*, dir. M. Abitbol, Jérusalem, 1982, p. 233-235.

(129) Abitbol, « Juifs maghrébins », art. cité, p. 231.

(130) *Ibid.*, p. 243, انطلاقا من أجوبة الحاخامات

(131) J. Oliel, *Les Juifs au Sahara. Le Touat au Moyen Âge*, Paris, 1994.

(132) انطلق طريقان من توات نحو الشمال واحدة باتجاه تلمسان وفاس والأخرى نحو ميزاب ووارجلان. *Ibid.*, p. 57

(133) Abitbol, « Juifs maghrébins », art. cité ; Oliel, *op. cit.*, *passim*. E. Ashtor, « Gli Ebrei nel commercio mediterraneo nell'alto medioevo (sec. X-XI) », *Gli Ebrei nell'alto medioevo*, Spolète, 1980 (*Settimane di studio del centro italiano di studi sull'alto medioevo*, XXVI), p. 401-464 et la discussion avec Tadeusz Lewicki, p. 465-466.

(134) Ch. de La Roncière, « Une nouvelle carte de l'école cartographique des Juifs de Majorque », *Comité des travaux historiques et scientifiques : Bulletin de la section de Géographie*, 47, 1932, p. 113-118. Oliel, *op. cit.*, p. 83-85.

(135) Abitbol, « Juifs maghrébins », art. cité, p. 234, 247.

أو المسيحيين) [136]. استفادت مشاركتهم في التجارة البحرية الكبيرة من وجود جماعات موزّعة على المحيط المتوسطي، حيث كانت في الغالب على علاقة مع بجاية. تواجدت هذه الجماعات في الشرق الأدنى، وخصوصا في مصر[137]، وفي مدن المغرب الأخرى خصوصـــا في إفريقية[138]، وفي شبه الجزيرة الإيبيرية[139]، وفي مرسيليا[140] وصقلية[141]، ولكن بقلة في جنوة والبندقية[142]. كان هؤلاء اليهود المتوسطيون نشطين في التجارة البجائية، وهذا ما سمح لإخوانهم في الدين في بجاية بالاستفادة من شبكتهم التجارية.

(136) *Ibid.*, p. 247.

(137) Goitein, *A Mediterranean Society*, *op. cit.*, *passim*.

(138) H. Toukabri, « La communauté juive de l'Ifrīqiya au temps des Fatimides et des Zirides », *Histoire communautaire, histoire plurielle. La communauté juive de Tunisie. Actes du colloque de Tunis, 25-27 février 1998*, Tunis, 1999, p. 135-143 ; Id. *Les Juifs dans la Tunisie médiévale (909-1057) d'après les documents de la Geniza du Caire*, Paris, 2002 ; Jadla, « Les Juifs en Ifrīqiya », art. cité.

(139) L. Piles Ros, *La Judería de Valencia*, Barcelone, 1991 ; José Hinojosa Montalvo, *The Jews of the Kingdom of Valencia, from Persecution to Expulsion, 1391-1492*, Jérusalem, 1993 ; J. Régné, *History of the Jews in Aragon. Regesta and Documents 1212-1327*, Jérusalem, 1978.

(140) I. Loeb, « Les négociants juifs à Marseille au milieu du XIIIe siècle », *Revue des Études Juives*, 16, 1888, p. 73-83.

(141) Sh. Simonsohn, *The Jews in Sicily*, I, *383-1300*, Leyde - New York - Cologne, 1997.

(142) R. Urbani et G. N. Zazzu, *The Jews in Genoa*, I, *507-1681*, Leyde - Boston - Cologne, 1999, p. X-LVI ; Jehel, « Jews and Muslims », art. cité, p. 120-132 ; A. Agosto, « L'Archivio di Stato di Genova e le fonti relative alla storia degli Ebrei genovesi dal XV al XVIII secolo », *Italia Judaica. Gli ebrei in Italia tra Rinascimento ed età barocca. Atti del II convegno internazionale, Genova, 10-15 giugno 1984*, Rome, 1986, p. 91 ; C. Roth, « Genoese Jews in the XIIth Century », *Speculum*, avril 1950, p. 190-197 ; D. Jacobi, « Les juifs à Venise du XIVe au milieu du XVIe siècle », *Venezia, centro di mediazione tra oriente e occidente (sec. XV-XVI)*, Florence, 1977, p. 165-169.

بالنسبة للقرن الحادي عشر، تبيّن وثائق جنيزة القاهرة دور هذه الجماعة في المبادلات المتوسطية. استقرّ عدد كبير من اليهود المغاربة في القاهرة بسبب الاضطرابات التي سادت في المغرب، وأيضا بسبب تعديل تيارات المبادلات في البحر المتوسط لصالح مصر(143). ولكنهم احتفظوا بروابط عائلية خصوصا مع إخوانهم في الدين المقيمين في ذات المكان(144). ترجع أغلب رسائل الجنيزة التجارية للأسف إلى القرن الحادي عشر(145)، ولا تسمح برؤية المكانة التي احتلوها في هذه المبادلات التي تعلقت خصوصا بإفريقية الشرقية وخصوصا تونس. رسالة واحدة منها مؤرخة في حوالي 1135 تبيّن أبا سعيد، الذي قدم من مصر على متن سفينة مسيحية ووصل إلى بجاية، حيث أجرى كما تقول تجارة رابحة(146). لكن يجب مراجعة أهمية اليهود في التجارة المتوسطية، حيث أشار إلياهو أشتور إلى عدم ترك غزارة وثائق الجنيزة تغوينا وتدفعنا إلى الخطأ. خصوصا كما سجّل أنه بداية من القرن الثاني عشر، أصبحت مكانتهم هامشية(147). لكن نستمر في رؤيتهم بدرجات متفاوتة حسب الأماكن والفترات يشتغلون بالتجارة الدولية انطلاقا من الموانئ الأوروبية على الخصوص.

في مرسيليا في القرن الثالث عشر، كانوا حاضرين بقوة في التجارة مع بجاية(148). من بين 367 عقدا تخص عام 1247 التي نشرها لويس

(143) Goitein, *A Mediterranean Society*, *op. cit.*, I, p. 32, 41, 56.

(144) *Ibid.*, p. 48.

(145) *Ibid.*, p. 148.

(146) Trad. Sh. D. Goitein, *Letters of Medieval Jewish Traders*, Princeton, 1973, p. 324.

(147) Ashtor, « Gli Ebrei », art. cité, en particulier la discussion avec Shelomo D. Goitein, p. 472-476.

اعتبر هذا الأخير بأنهم همّشوا في هذه التجارة وبنفس الدرجات مع المسلمين.

(148) Cf. D. Valérian, « Les archives de Marseille, sources de l'histoire du Maghreb médiéval : le cas du port de Bougie (XIIIe-XVe siècle) », *Annales du Midi*, 113, 2001, p. 12-13.

بلونكار[149] (Louis Blancard)، 45 منها (12،25 في المائة) تتعلق باليهود. ونجدهم في 20 في المائة من العقود باتجاه المغرب مع مكانة خاصة لبجاية: بينما لا يظهر اليهود إلا في عقد واحد من 23 عقدا يخص سبتة (كانت الوجهة الثانية للمرسيليين بالمغرب) فهم حاضرون في 23 عقدا من مجموع 58 باتجاه بجاية[150]. يتعلق الأمر عموما باستثمارات متوسطة، أقل من التي قام بها التجار المسيحيون[151]. في المقابل، كان وزنهم ضعيفا، لأن من بين 160 شخصا معنيا بالرحلات في 1248، ثلاثة فقط منهم يهود[152]. يبيّن أولئك المشتركين في التجارة البجائية مجموعة مهيكلة بمتانة. ففي 1248 انطلق مركبان إلى بجاية وهما للقديس جيل (Saint-Gilles) والقديس فرانسوا (Saint-François). بالنسبة للأول، لم يظهر اليهود إلا في ثلاثة عقود (من 22) وفي الثاني في 17 وثيقة (من 29)، وهذا ما يظهر تجميعهم لاستثماراتهم في واحد من المراكب، حيث احتلت سلعهم مكانة هامة. من بينهم تتضح عائلة فرسول (Ferrussol)، حيث استقل عدد من عناصرها المراكب التي سافرت في 1248. كما نراهم يبرمون عقودا سواء في العائلة[153] أم مع يهود آخرين، حيث يعهدون لهم بالطلبيات[154]، أم في الأخير

(149) Blancard, II.

(150) تختلف هذه النتائج مع نتائج لويس ستوف (Louis Stouff) الذي أحصى عقدين من 29 بالنسبة لسبتة و20 من 83 بالنسبة لبجاية.

L. Stouff, « Les Juifs d’Arles et leurs relations avec les communautés de la Méditerranée occidentale au bas Moyen Âge », *Les relations intercommunautaires juives en Méditerranée occidentale, XIIIe-XXe siècle, Abbaye de Sénanque, 1982*, dir. J-L. Miège, Paris, 1984, p. 11.

(151) *Ibid.*, p. 10 ; D. Iancu-Agou, « Les relations entre les Juifs de Marseille et les communautés juives d’Afrique du Nord à la fin du XVe siècle », *Les relations intercommunautaires juives, op. cit.*, p. 24,

حيث يتحدث عن "تجارة صغيرة خالية من رؤوس الأموال".

(152) A. Sayous, « Le commerce de Marseille avec la Syrie au milieu du XIIIe siècle », *Revue des Études Historiques*, 1929, p. 396.

(153) Blancard, II, n° 474 (10/4/1248), 810 (27/5/1248), 814 (id.), 815 (28/5/1248).

مع أصحاب الطلبيات المسيحيين[155]. يظهر تجار يهود عدة مرات مثل جوزيف بن موسى البلرمي، الذي ركب على متن مركب سان فرانسوا وأخذ ست طلبيات بمجموع حوالي 90 ليفر[156]. كان دورهم هاما خاصة في التوابل لأننا نلاحظ أن العقود المهمة جدا لرحلة مركب القديس فرانسوا تعلقت بالزعفران والقرنفل، التي مرّت تقريبا كلها عن طريق اليهود[157]. كانت الاستثمارات الأخرى في المقابل ذات مستوى منخفض من مستويات المسيحيين: كان معدل مبلغ طلبيات المسيحيين من 103 ليفر و14 سو و6 دونيي في حين كان بالنسبة لليهود 71 ليفر والمعدل هو 17 ليفر و4 سو و8 دونيي، بينما ارتفع إلى 31 ليفر و5 سو و8 دونيي بالنسبة للمسيحيين. لكن اختفى اليهود تقريبا كلية من التجارة البحرية المرسيلية بعد القرن الثالث عشر[158].

كان يهود مرسيليا مرتبطين في الغالب بيهود ميورقة، حيث تواجدت جماعة هامة كانت روابطها متينة مع جنوب فرنسا. رغم سياسة الملوك الكتالانيين التي كانت أحيانا فوضوية ورغم المذابح المنظمة، فإن اليهود الميورقيين استطاعوا الذهاب إلى المغرب للتجارة بصفة منتظمة جدا. ففي 1242 سافر برنات مروليس (Bernat Marellus) إلى بجاية بأموال صامويل بن خافي وعشرة جرار

(154) *Ibid*., n° 568 (22/4/1248), 572 (id.), 586 (24/4/1248), 613 (28/4/1248), 618 (id.).

(155) *Ibid*., n° 466 (10/4/1248), 603 (27/4/1248), 621 (28/4/1248).

عندما يكون صاحب الطلبية يهوديا يكون الطالب يهوديا دائما. أنظر أيضا:

Stouff, « Les juifs d'Arles », art. cité, p. 10.

(156) Blancard, II, n° 499 (14/4/1248), 500 (id.), 578 (23/4/1248), 598 (27/4/1248), 599 (id.), 657 (8/5/1248).

(157) من بين 7 طلبيات من الزعفران، خمسة أخذها يهود، وكذلك نفس الشيء في 4 طلبيات من القرنفل أيضا.

(158) Iancu-Agou, « Les relations », art. cité, p. 26.

زيت[159]. أيضا في 1303 أرسل قناصل بجاية إلى ميورقة أربعة يهود ليحاكموا بها[160]. كانت أهمية أعمالهم التجارية في بجاية كافية لأن يعفي الملك جاك الثاني في 1308 جماعة الجزيرة من المشاركة في النفقات التي أجريت للأسطول المسلح ضد سلطان بجاية، حيث لم يرد -دون شك- ما يشير إلى صعوبات في وضعهم[161]. تتواصل الشهادات حول رحلات اليهود الميورقيين إلى بجاية حتى 1430. لكن بداية من 1391 كان المعتنقون من يغادر، حيث يتعهدون بالرجوع إلى الجزيرة في أجل سريع[162]. انتهز بعضهم في الواقع الفرصة أحيانا للعودة إلى العقيدة اليهودية حيث تمّ ردعهم[163]. حتى بعد أزمة 1391 تبين عدة عقود يهودا ميورقيين يتاجرون مع المغرب[164]، بالشراكة أحيانا مع المعتنقين أو مع المسيحيين[165]. في المقابل، حمل الاعتناق الجماعي للمسيحية في 1435 ضربة قوية لهذه الجماعة[166].

(159) ARM, P. 342, f. 149v (janvier 1242), cité par Abulafia, *A Mediterranean Emporium*, *op. cit.*, p. 124.

(160) ARM, *Reales cedulas*, vol. 1, f. 37r-38r (28/6/1303), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 574-575.

(161) ARM, *Reales cedulas*, vol. 2, f. 202r (12/9/1308), éd. A. Pons, « Los Judíos del reino de Mallorca durante los siglos XIII y XIV », *Hispania*, 20, 1960, n° 32, p. 435-436.

(162) على سبيل المثال: ARM, *guiatges* 5, f. 99r (19/2/1396). تلقى دلمو دو منتجوت (Dalmau de Montagut) وجورجيو يوليانوس (Georgio Julianus) رخصا للذهاب إلى بجاية على متن لوح برنات أمات (Bernat Amat) وتعهدا بالعودة خلال ثلاثة أشهر. أنظر:

J. Guiral Hadziiossif, « Les convers à Valence à la fin du XVe siècle », *Mélanges de la Casa de Velázquez*, 11, 1975, p. 81-98.

(163) López Pérez, « El pogrom de 1391 », art. cité, p. 244.

(164) على سبيل المثال ARM, *guiatges* 6, f. 86r (22/6/1403) : رخصة لكوستال من خيط البورجونيون استورده اليهودي أبراع ساكالي (Abraae Sacalli) إلى بجاية.

(165) López Pérez, « El pogrom de 1391 », art. cité, p. 254-258.

(166) Abulafia, *A Mediterranean Emporium*, *op. cit.*, p. 91.

على عكس ذلك لا يبدو تواجد يهود مملكة بلنسية في التجارة مع بجاية[167]. تبيّن سجلات التراث الملكي في الواقع عدة يهود نشطين في المغرب الأوسط والأقصى، وفي تونس ولكن دون بجاية. نفس الشيء بالنسبة ليهود صقلية الذين درسهم هنري برسك (Henri Bresc)، حيث كانوا على علاقة بإفريقية الشرقية على الخصوص[168].

استفاد يهود المغرب – حيث ازداد عددهم بوصول اللاجئين الأندلسيين- دون شك من الشبكات المتوسطية هذه. استطاعوا التنقل في البلدان المسيحية والمسلمة على حد سواء واستفادوا – خصوصا في داخل المغرب- من جماعات مستقرة بصلابة. أخيرا، كانوا في الغالب مستعربين[169]، كان لهم الأفضلية بأن يكونوا وسطاء بين المسيحيين والمسلمين. نجدهم في الغالب مترجمين سواء في المغرب أم في الموانئ المسيحية[170]، ولم تكن لهم صعوبات في الأعمال مع تجار الديانتين الأخريين[171]. ففي 1306 أعطى فيرمان جيني (Firmin Ginies)، وهو تاجر مرسيلي، وكالة لاستعادة دين اليهودي البجائي فتال (Vital) وابنه، الناجم عن طلبيتين من 69 ليفر و21 ليفر و8 سو[172]. تجاوزت تجارتهم إذن إطار الشبكات الجماعية وأدوا بالعكس دورا أساسا كوسطاء.

(167) R. Ferrer Navarro, « Los judíos en el comercio valenciano durante el siglo XIV », *Primer congreso de historia del País Valenciano, Valencia, 1971*, Valence, 1973, p. 553-566. Hinojosa Montalvo, *The Jews of the Kingdom of Valencia, op. cit.* ; Id., « Actividades comerciales de los judíos en Valencia (1391-1492) », *Saitabi*, 29, 1979, p. 21-42.

(168) H. Bresc, *Arabes de langue, juifs de religion. L'évolution du judaïsme sicilien dans l'environnement latin, XIIe-XVe siècles*, Paris, 2001.

(169) على الأقل لحالة يهود شبه الجزيرة الإيبيرية وأيضا صقلية. أنظر حول الأخيرين: *Ibid.*, p. 39-51

(170) Hirschberg, *op. cit.*, p. 374-375 ; Bresc, *Arabes de langue, op. cit.*, p. 40.

(171) Goitein, *A Mediterranean society*, *op. cit.*, I, p. 293-295.

(172) ADBR, 381E 371, f. 49v-50r (2/1/1306).

استطاع اليهود البجائيون بسهولة الذهاب إلى بلدان لاكورونيا أراجونة، حيث استفادوا بصفة عامة من حماية الملوك(173)، ووجدوا جماعات يهودية. ففي 1454 استورد موزر كاب (Moiser Cap)، وهو يهودي من مملكة بجاية، إلى بلنسية برميل نيلة على متن شانية بندقية(174). وفي 1451 ثم في 1456 كان التاجر اليهودي البجائي سالفس مليتي (Salves Militi) متواجدا في ميورقة(175). وفي 1482 بعد مصادرة مشرف الجزائر لمتلكات تاجر من قلعة أومبارياس (Castel d'Ampurias)، حيث تقرّر في ميورقة حجز ممتلكات يهود الجزائر وبجاية التي كانت في حوزة جوهان فيدال (Johan Vidal) ولويس مارتيناز (Luys Martinez)(176). وأخيرا في 1491 وصل عبيدة وهو يهودي من بلاد البربر إلى بلنسية على متن مركب بيرو فالس، قادما من بجاية محملا بالبضائع(177).

(173) بنفس صفة التجار المسلمين المغاربة. استفادوا خصوصا من تخفيضات على الرسوم وبضمان لحمايتهم، سيما بعد أزمة 1391 التي أدت إلى فرار عدد منهم نحو المغرب.

L. Piles Ros, « El Dret del XXe e XXXXXe. (Para favorecer las relaciones comerciales de los judíos nor-africanos con el Reino de Valencia, 1393-1495) », *Sefarad*, 44, 1984, p. 218-219.

(174) ARV, MR, Rg. 66, f. 212r-v (25/10/1454).

(175) ARM, P. 2505, f. 103v ; P. 2525, f. 196v, cité par O. Vaquer Bennasar, *El Comerç Marítim de Mallorca. 1448-1531*, Palma de Majorque, 2001, p. 155,

حيث يشير أيضا إلى حالة بنيامين عمار وهو تاجر يهودي بجائي كان متواجدا في الجزيرة حيث أخذ في 1454 طلبية المعتنق لويس بلفيور (Lluís Bellviure) إلى بلاد البربر بقيمة 2531 ليفر ARM, P., M-178, f. 24)، وأيضا حالة مكسي كاب الذي هو أيضا تاجر يهودي من بجاية كان متواجدا في 1455 (ARM, P. 2522, f. 29v, 54). بصفة عامة، لاحظ بأن التجار المغاربة الحاضرين في ميورقة كانوا يهودا، حيث أصل غالبيتهم من الجزائر.

(176) ACA. C., Rg. 3827, f. 68r-v (7/8/1482).

كان جوهان فيدال (Johan Vidal) معتنقا، وهذا ما سهّل علاقاته مع اليهود المغاربة. أنظر:

Vaquer Bennasar, *El Comerç Marítim*, *op. cit.*, p. 148.

(177) ARV, MR, Rg. 102, f. 189v (28/3/1491).

أنظر أمثلة أخرى في: Piles Ros, « El Dret del XXe », art. cité, p. 245 s.

على غرار المسلمين، استفاد اليهود الأندلسيون من شروط ملائمة أكثر، بفضل شبكاتهم العائلية. فقد التحق الحاخام جوزيف بن أبراهام زمرون ببجاية رفقة عائلته، بعد دراسته وانطلق في التجارة(178). أيضا في 1393 قدم إلى بلنسية فوكس عبد الفاش -وهو يهودي ميورقي سابق استقر بالمغرب- ليحمل إليها سلعا وغادر بأجواخ زرقاء والقرنفل وأخزمة وطرطار(179). كانت الروابط قوية خصوصا مع اليهود والمعتنقين المتواجدين على الأرض المسيحية. تبيّن أجوبة الحاخام الميورقي سيمون بن زماح ديران (Simeon ben Zemah Duran) - الذي استقر بالجزائر بعد مذبحة 1391- استقرار يهود أندلسيين ببجاية وتجارتهم مع العالم المسيحي. ففي سنوات 1390 لدينا أثر لموسى عمر أصيل ميورقة الذي استقر ببجاية ومارس التجارة، حيث تسلم الخمر من أخ زوجته المعتنق بميورقة(180). قضية أخرى مرتبطة بفعل القرصنة تبيّن سفينة على متنها تجار يهود(181). استطاعت هذه الديناميكية أن تؤدي إلى منافسة بين اليهود المحليين واليهود الأندلسيين كما تشهد على ذلك أجوبة الحاخامات. بعد 1391 تسبب تدفق اليهود الجدد نحو المغرب في الواقع في توترات لدى الجماعة. ففي بجاية لم يتحمل اليهود المحليين (*toshavim*) منافسة "المطرودين" (*megorashim*)، حيث اشتكوا إلى الحاخام ديران الذي أجابهم: "قبل وصول يهود بلاد أدوم (أوروبا) إلى مدينتكم كنتم تعيشون في بحبوحة من صلاتكم بالعرب الذين كانوا في حاجة إلى حرفكم، حيث قدموا لكم أقساطا عينية لتجارتكم ولمعيشتكم. وعلى غرار اللاجئين الذين قدموا إلى مدينتكم بأموال سمحت لهم بتجاوزكم في صناعة المواد

---

(178) Hirschberg, *op. cit.*, p. 458.

(179) ARV, MR, *Batllia general* (*Cuentas de administración*), Rg. 11, f. 267r (1393).

(180) E. Gutwirth, « El comercio hispano-magrebi y los judíos (1391-1444) », *Hispania*, 45, 1985, p. 204.

(181) I. Epstein, *The Responsa of Rabbi Simon B. Zemah Duran as a Source of the History of the Jews in North Africa*, New-York, 1930, p. 53.

الحرفية، فضّلهم العرب عليكم، حيث وجدوا فيهم كل ما يحتاجونه[182]." تبيّن هذه الإجابة أنه فضلا عن المعارف التقنية المهنية، قدم الأندلسيون برؤوس أموال أكثر أهمية من التي توفّر عليها اليهود المحليين، ومارسوا بذلك منافسة اعتبرت مخادعة[183]. ومن المحتمل وجود هذه المنافسة في الأعمال التجارية أيضا.

مثّل اليهود إذن خصائص مشتركة مع الأندلسيين بسبب الشبكات التي استطاعوا أن يستفيدوا منها على ضفتي البحر المتوسط، والتي سهّلت أعمالهم التجارية. في المقابل بخلاف الأندلسيين، لم يشاركوا في الحكم ولم يستفيدوا من أفضلية القرب من الأمير الذي يمكن أن يقدمها للتجارة.

ج– دور الحكم والنخب السياسية

كان السلطان ومحيطه في الواقع من بين الفاعلين في التجارة البجائية ولعبا دورا هاما[184]. لعب الحكم في العالم الإسلامي في الغالب دورا نشطا في التجارة

(182) Cité par Abitbol, « Juifs maghrébins », art. cité, p. 187.

حول هذا التنافس داخل الجماعة أنظر أيضا:

J. Shatzmiller, « Au sein de la communauté juive : l'étranger et sa concurrence économique », *Forestieri e stranieri nelle città basso-medievale*, Florence, 1988, p. 223-233.

(183) كان للمسلمين واليهود الحق في بيع ممتلكاتهم قبل مغادرة المجالات المسيحية وقد ضمنت لهم ذلك معاهدات التنازل.

L. P. Harvey, *The Islamic Spain. 1250 to 1500*, Chicago-Londres, 1990, p. 125, 314-316.

(184) حول مكانة النخب السياسية في المجتمع البجائي، أنظر: م. ص. بعيزق، بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية، رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، إشراف م. شبوتو–الرمادي، 1995، ص 398–422.

D. Valérian, « Les élites politiques et l'activité économique des ports musulmans (XIIIe - XVe siècle) », Architecture, institutions et sociétés portuaires des cités maritimes de la Méditerranée (IXe - XIIIe siècle), Seventh International Conference on Urban History (European Association of Urban Historians), *European City in Comparative Perspective*, Athens - Piraeus 27-30 October 2004.

الدولية الكبيرة، على غرار حالة مصر[185] والأندلس[186] وعدة مدن بالمغرب مثل سبتة[187] أو تونس[188]. في بجاية، كانت مشاركة النخب السياسية بادية، حتى وإن وجب الاعتراف بمنح مصادرنا– بطبيعتها- الحكم مكانة أكبر دون شك من تلك التي كانت له في الواقع . تظهر هذه النخب السياسية في كتب الأخبار العربية أو في المادة الخبرية الدبلوماسية، ومن الطبيعي إذن أن تكون مرئية أكثر من التجار الآخرين. لا تبقى إلا إذا كانت مكانتها مهيمنة إذا ما تحفظنا على هذا الواقع المشوّه.

منحت أولا تسهيلات كبيرة لأعوان الحكم. بداية من المعاهدات الأولى، نصّت على إمكانية كراء السلطان إلى غاية الثلث للسفن الحاضرة في الميناء[189]. ضمنت هذه الاتفاقيات فضلا عن ذلك العمليات المقامة باسم العاهل بواسطة أحد أعوانه[190]، وهذا ما شجّع التجار على تفضيل هؤلاء الشركاء. أيضا،

(185) Goitein, *A Mediterranean Society*, *op. cit.*, I, p. 310 ; A. L. Udovitch, « Merchants and *Amīr*s: Government and Trade in Eleventh Century Egypt », *Asian and African Studies*, 22, 1988, p. 61.

نجد من بين الفاعلين في التجارة الكبيرة، السلطان وأعضاء بيته، والعمال، والقادة العسكريين، والقضاة، إلخ.

(186) Constable, *Trade and Traders*, *op. cit.*, p. 123-126 ; Picard, *L'Océan atlantique*, *op. cit.*, p. 459 ; R. Arié, « Aperçus sur le royaume nasride de Grenade au XIVe siècle », *Quaderni di studi arabi*, 5-6, 1987-1988, p. 68.

(187) كانت الوضعية في سبتة خاصة، لأن النخبة التجارية هي التي تولت الحكم السياسي. Ferhat, *Sabta*, *op. cit.*, p. 213-259.

(188) في بداية القرن الحادي عشر، نعلم أن سفن سلطان تونس فقط كانت متوفرة، وكان من الواجب تدخل أحد الأعيان لحمل سلعه بسعر مرتفع جدا. Goitein, *A Mediterranean Society*, *op. cit.*, I, p. 310.

(189) ظهر هذا البند منذ المعاهدة بين بيزا والحفصيين لعام 1234 (المادة 6): يتعلق الأمر بحمل المخازن (les *res magazeni*). كررت هذه القاعدة بانتظام بعد ذلك.

(190) على سبيل المثال، معاهدة بيزا – تونس، 1353، المادة 27: إذا باع بيزي أو اشترى سلع واحد من المشتغلين أو كان له وعد بيع جرى أمام شهود، لا يمكن إلغاء هذا الإجراء على نافقيه [على نفقته]، إلا في حالة غش أو مغالطة. أنظر أيضا معاهدة بيزا – تونس، 1313، المادة 41، 42، 43. تتحدث

يتحدث سلم 1403 بين لاكورونيا أراجونة وتونس عن ديون لدى البلاط أو أعوان السلطان التي يمكن للتجار الكتالونيين أو الصقليين التخلي عنها لرعايا آخرين من لاكورونيا(191). لم يكن الديوان فقط جهازا لاسترجاع الرسوم بل كان أيضا مكلفا بتسيير شؤون السلطان مع التجار المسيحيين. إنّ التمييز بين موارد الدولة وموارد السلطان كشخص لم يكن دائما واضحا ومتشددا، على غرار ما كان في هذه الفترة(192). يمكن لكلمة *curia* في الوثائق اللاتينية الإشارة ببساطة إلى الديوان، لكن أيضا إلى الجهاز التجاري المرتبط بالسلطان. ففي 1272، تلقى فرانشينو دون سان سنيكسيو (Franceschino de San Sinexio) في جنوة شبا أفرغته سفينة جيوفاني برتوناريو (Giovanni Portonario) وطريدة جيوردانو دو أنسولس (Giordano de Insu lis) وشركائه. تمّ شراء هذا الشب من بجاية (*a curia Buzee seu a nuancions régis sue curie Tune xi*)(193). يغوينا وضع متواز مع الوضعية المصرية التي وصفها كلود كهان انطلاقا من كتاب المخزومي. لقد احتكر الحكم الفاطمي في الموانئ المتوسطية لبعض المواد الهامة، حيث لم يكن بوسع المسيحيين اكتسابها إلا بشرط حملهم كمقابل الخشب والحديد اللذين تكتسبهما عليها الدولة(194). يقوم ديوان التجارة – المتجر- بالإشراف على المشتريات والمبيعات لحساب الدولة(195). لهذا فقد كان للمتجر خصوصا احتكار بيع الشب، وهي مادة رأينا أهميتها في تجارة

معاهدة 1343 بين جنوة وتونس عن بيوع عن طريق أحد أعوان المشرف *officiario vel musirifo alte regie magestatis* (المادة 18). في حالة وفاة العاهل، لا يمكن لخليفته الطعن في البيع.

(191) معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1403، المادة 46.

(192) « Bayt al-Māl », II, « aspect historique », *EI²*, I, p. 1178-1181 (Cl. Cahen).

(193) ASG, min. 109, f. 4v (8/11/1272) ; ASG, min. 109, f. 46r (17/6/1273).

(194) Cl. Cahen, « Douanes et commerce dans les ports méditerranéens de l’Égypte médiévale », *JESHO*, 7, 1964, p. 258.

(195) *Ibid.*, p. 257.

الأوروبيين[196]. لكن ليس هناك ما يشير بالنسبة لبجاية إلى وضعية احتكار لبيع الشب أو مواد أخرى. لقد احتل الديوان مكانة مفضّلة مقارنة مع بقية الفاعلين في التجارة البجائية. تعددت في الواقع علاقات التجارة مع الحكم. ففي 1441، دافع القنصل الجنوي أمام سلطان تونس عن قضية برتوني دي فانتميجليا (Bertone di Vintimiglia) الذي قدم إلى إفريقيا لاسترجاع ممتلكات مارينو دو ماريني (Marino de Marini) الموزع السابق للاركاري (Lercari) وأمبريالي (Impériale)، الذي توفي فجأة في بجاية، حيث كان يدين إلى ديوان بجاية[197]. أيضا في 1445، ذهب مركب فليبو دو نجرونو (Filippo de Negrono) في رحلة *(per costeriam)* إلى كيو (Chio) وأفرغ سلعا في بجاية منها أجواخا بيعت إلى "ملك بجاية"[198].

شاركت أيضا النخب المقربة من الحكم في هذه التجارة. ففي 1316، هاجمت زوارق برشلونة مركب بليس (Palis) واستولت على سلع ملك للحاجب ابن غمر، قيمتها 700 دينار. وكان هذا الأخير قد عهد بها في طلبية إلى محمد بن ليلية، وهو مسلم من المرية أسر خلال الهجوم. لهذا طلب نائب قنصل الكتالانيين ببجاية من جاك الثاني إعادة هذه الممتلكات، وإلا "سيكون هناك خطر على التجار الكتالانيين في بجاية"[199]. هنا أيضا يبدو أن هؤلاء الأشخاص ونظرا لوزنهم السياسي، استفادوا من وضعية ملائمة أكثر من بقية التجار.

---

(196) Cl. Cahen, « L'Alun avant Phocée », *Revue d'histoire économique et sociale*, 1963, p. 433-447 ; Id., « Douanes et commerce », art. cité, p. 260.

(197) ASG, AS, Rg. 1786, f. 405v-406r (4/5/1441), cité par G. Petti Balbi, « Il consolato genovese di Tunisi nel Quattrocento », *Archivio storico italiano*, 576, 1998, p. 246.

(198) ASG, Archivio di San Giorgio, *sala* 38/54, *Caratorum Veterum*, n° 1552, f. 318r. Cf. Heers, « Gênes et l'Afrique du Nord », art. cité, p. 243.

(199) ACA, CRD, Jaime II, *caja* 59, n° 10769 (22/2/1316), éd. Masia de Ros, *op. cit.*, n° 146.

تبيّن لنا إذن المادة الخبرية جليا هذه "المجموعات" الثلاث . لا يجب الاستنتاج بهذا القدر أنهم الوحيدون الذين شاركوا في التجارة البحرية. تبقى مكانة النخب الدينية غير معروفة لدينا في حين نعلم أن دورها كان ملحوظا، في الأندلس على سبيل المثال(200) أو في سبتة(201). من الصعوبة خصوصا تحديد برجوازية تجارية بوضوح على أنها جماعة اجتماعية مميّزة(202). ينص عليها في سبتة لأنها دخلت في اللعبة السياسية واستولت على الحكم خلال وقت ما. لا نملك جوابا على عدم وجودها في بجاية أيضا، رغم أنّ لها ظروفا مشابهة كثيرا للميناء المغاربي الكبير. لكن من الممكن تهميش الجماعات المهيمنة -التي كانت لها تسهيلات للتجارة مع البلدان الأوروبية- لفئات التجار الأخرى.

شارك إذن البجائيون في التجارة البحرية باستقبالهم للتجار الأوروبيين وبالاشتراك معهم وأيضا بحمل سلعهم إلى الموانئ المسلمة والمسيحية في البحر المتوسط. رغم ذلك، يتبيّن بقاء مكانتهم محدودة، وخصوصا دون وزن مشترك مع تجارة المتعاملين المسيحيين، بما في ذلك المسيرات الداخلية في العالم الإسلامي.

3) عدم كفاية الأسطول التجاري

يتجه الواقع – وهو استقلال التجار حتى الآن في الغالب لمراكب مسيحية- إلى إظهار اختفاء الأساطيل التجارية المسلمة بعد الفترة الموحدية. باستثناء بعض الوثائق الصعبة التأويل، لا نرى فعليا سفنا إفريقية في الموانئ المسيحية، حيث أن حركة السير نعرفها جيدا من خلال بعض سجلات الديوان.

(200) Picard, *L'Océan atlantique*, *op. cit.*, p. 395, 484-503.

(201) Ferhat, *Sabta*, *op. cit.*, p. 306-307, 311-314.

(202) بالنسبة لإسبانيا المسلمة، أنظر: Picard, *L'Océan atlantique*, *op. cit.*, p. 507

هنا أيضا، من الملائم أن ينظر إليها من خلال نتائج عامة جدا[203]، وضرورة البحث في إشارات بقاء هذه الملاحة التجارية[204].

وجدت في بجاية دور الصناعة البحرية، التي أنشئت مبكرا، دون شك في وقت تأسيس الناصر للمدينة. في روايته لهذا الحدث، كتب النويري أن ابن البعبع "رسم له المدينة وأشار له بدار الصناعة والميناء"[205]. أقل من قرن بعد ذلك، تحدث الإدريسي في وصفه للمدينة: "وبها دار لصناعة الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي لأنّ الخشب في جبالها وأوديتها كثير موجود ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران"[206]. بامتياز نادر في العالم الإسلامي المتوسطي، كانت بجاية في الواقع مخرج جهة غنية بالغابات ومناجم الحديد، ولم ترتبط بالخارج بالنسبة لمواد الصناعات البحرية[207]. سنوات بعد الإدريسي، تحدث صاحب كتاب الاستبصار عن دار صناعتين لإنشاء المراكب وصناعة السفن: "لصناعة

(203) J. Heers, « Types de navires et spécialisations des trafics en Méditerranée à la fin du Moyen Âge », *Le Navire et l'économie maritime du Moyen Âge à la fin du XVIIIe siècle, principalement en Méditerranée, Actes du 2e colloque international d'histoire maritime, 1957*, Paris, 1958, p. 108 :=

"=لا نجد (أسطولا) في المشرق ولا في العالم الإسلامي: ليس بعد في تركيا، على الأقل حتى وضع اليد على القسطنطينية على ما يبدو، ولا أبدا على طول الساحل الإفريقي"

(204) لا يوجد في العصر الوسيط اختلاف فعلي بين مركب تجاري ومركب حربي أو قرصني. حول أسطول بجاية الحربي، أنظر:

D. Valérian, « Contribution à l'étude de la guerre dans le Maghreb médiéval : Bougie et la mer de la fin du XIe au début du XVIe siècle », *Mésogeios*, 7, 2000, p. 126-142.

(205) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق ح. نصار وع. الأهواني، القاهرة، 1983، ص 225.

(206) الإدريسي، النص ص 116، الترجمة ص 166.

(207) M. Lombard, « Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée musulmane du VIIe au XIe siècle », *Le Navire et l'économie maritime du Moyen Âge au XVIIIe siècle, principalement en Méditerranée, Actes du IIe colloque international d'histoire maritime*, Paris, 1958, p. 53-106.

المراكب وإنشاء السفن"[208]. لكن استعمال دار الصناعة الثانية تتوافق دون شك مع سياسة الموحدين الملاحية الكبيرة[209]، ولم تمتد إلى أبعد من ذلك. في منتصف القرن الرابع عشر خلال مرور أبي عنان المريني ببجاية، يحكي مادحه النميري، ذهابه لتفقد دار الصناعة في ربض المدينة بعد وصوله مباشرة، وأمره باستعمال الأجفان الموجودة بها في قتال الأعداء[210]. أخيرا، يشير ابن قنفذ بالنسبة لنهاية القرن الرابع عشر لدار صناعة أو منجرة سيّرها القائد ابن أبي مهدي، والتي استعملت دون شك لإنشاء المراكب[211]. إنّ مظهر هذه البناية غير معروف، ونعلم فقط بموقعه خارج سور المدينة الرئيسي، من الجانب الغربي. في بقية المدن، مثل مالقة، كانت له مساحة هامة، مع الأبراج والتحصينات[212].

تشير النصوص العربية إلى هذه السفن التي استعملت في التجارة البحرية، حتى وإن قلّ ذكرها وصعب التعرف عليها. يذكر الغبريني حالة موثق قام بتحرير عقد بيع سفينة[213]. ويبيّن البرزلي في واحدة من فتاويه حالة تاجر اشترى مركبا واكترى النوتية وسدّد ضمانتهما لحمل السلع، لكن الروم استولوا عليه في الميناء

---

(208) الاستبصار، النص ص 130، الترجمة ص 35.

(209) Chr. Picard, *La mer et les musulmans d'Occident au Moyen Âge. VIIIe-XIIIe siècle*, Paris, 1997, p. 81 ; Id., *L'Océan atlantique*, *op. cit.*, p. 280-289.
إلا إذا كان المؤلف بإشارته لدار صناعتين، أراد الإشارة إلى منطقة مستودعات أو ورشات إنشاء المراكب.

(210) ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق م. بن شقرون، بيروت، 1990، ص 266.

(211) الفارسية، ص 186.

(212) Picard, *L'Océan atlantique*, *op. cit.*, p. 275-277 ; Id., « Les arsenaux musulmans de la Méditerranée et de l'océan Atlantique (VIIe-XVe siècle) », *Chemins d'outre-mer. Etudes d'histoire sur la Méditerranée médiévale offertes à Michel Balard*, éd. D. Coulon, C. Otten, P. Pagès, D. Valérian, Paris, 2004, p. 700 ; L. Torres Balbás, « Atarazanas hispanomusulmanas », *Al-Andalus*, 1946, 11, p. 188-196.

(213) الغبريني، ص 86.

قبل وضع الشراع وأسر التاجر مع قسم من الطاقم[214]. وتدل خصوصا عدة وثائق متعلقة بالقرصنة المسيحية ضد المسلمين على وجود أسطول تجاري. تبيّن سلسلة من شكاوى سلطان تونس في حوالي 1305 عدة سفن إفريقية تتاجر مع بجاية وأسرها القراصنة الكتالونيون. ففي شوال 702/ ماي-جوان 1303، نقل جفن إفريقي حمولة من بجاية إلى بنزرت حيث فتّشه شوني ميورقي، مع جفن صغير لبونيين، محملا بسلع بقيمة 5000 دينار[215]. وفي 1310، اشتكى سلطان قسنطينة إلى جاك الثاني الأراجوني عن أعمال قرصنة ارتكبها في البحر شونيان بلنسيان على حساب سفينتين بجائيتين بين دلس والجزائر[216]. سنوات بعد ذلك في 1314، احتج أبو بكر نفسه على الاستيلاء على مركب بين بجاية وجيجل[217]. وفي 1409، أسر البلنسيون مركبا بنوتيته ومسافرين من ممالك فاس وتلمسان وبجاية وتونس، الذين عملوا في التجارة إلى غاية مالقة حيث يبيعون القمح المشترى في وهران مع الرماح المستقدمة من بجاية[218]. في السنة الموالية، أسر مركب قشتالي مركبا بجائيا قرب مستغانم، محملا بالخشب والجلود باتجاه وهران

(214) نقلا عن: Idris, « Commerce maritime », art. cité, p. 236

(215) Éd. Alarcón y Santón, García de Linares, *op. cit.*, n° 119, texte p. 259, trad. p. 263.

(216) ACA, CRD, Jaime II, *caja* 20, n° 3975 (5/11/1310), éd. (avec une date erronée) A. Giménez Soler, « Documentos de Túnez, originales ó traducidos, del Archivo de la Corona de Aragón », *Anuari de l'Institut d'Estudis Catalans*, 3, 1909-10, p. 229-230. Jacques II d'Aragon lui donne alors satisfaction. ACA, C., Rg. 239, f. 129v (12/8/1311).

(217) ACA, CRD, Jaime II, *caja* 25, n° 4780 (traduction contemporaine ; 17 *safar* 714 / 2 juin 1314), éd. Giménez Soler, « Documentos de Túnez », art. cité, p. 232.

(218) ARV, C., Rg. 626, f. 2r-7v (2/8/1409), éd. J. Hinojosa Montalvo, « Confesiones y ventas de cautivos en la Valencia de 1409 », *Lugarzas*, 1971, p. 123-125.

وعلى متنه ستة وعشرين شخصا[219]. وأخيرا، في 1420، تمّ اعتراض مركب في مياه الجزائر يحمل الخشب البجائي إلى وهران وعلى متنه أحد عشر مسلما[220].

إشارة أخرى لوجود هذه البحرية هي بيع المسيحيين مراكب للمسلمين أو شركات امتلاك السفن[221]. رأينا كيف اعتزمت المعاهدات بيع مراكب للمسلمين، خرقا لمنوعات الكنيسة. تنص قوانين مرسيليا ونص قنصلية البحر (*Consulat de mer*) أيضا على هذه الإمكانية. أكدّت بعض أعمال القرصنة هذه القابلية. ففي 1423 على سبيل المثال، تلقى علي بن قرنيط البجائي ترخيصا للتجارة مع ميورقة على متن مراكبه ومراكب أخرى، وهذا ما يفترض امتلاكه لمراكبه الخاصة التي أبحرت بين بجاية وميورقة[222].

رغم ذلك، فمن النادر وجود سفن إفريقية في الموانئ المسيحية. لم تظهر ولا واحدة منها في سجلات جنوة الديوانية في نهاية القرن الرابع عشر، أو في برشلونة في منتصف القرن الخامس عشر[223]. لم تلق جاكلين جيرال (Jacqueline Giral) بالنسبة لبلنسية ما بين 1410 و1520 إلا قاربين مغربيين، الأول يعود ليهودي من مستغانم والثاني لروميرو التونسي (Ramiro)، الذي صدّر السلع نحو تونس[224]. وفي 1439، نلاقي طبعا جياكومو دي أندريا دو بكتوريا

(219) ARV, C., Rg. 626, f. 33v-36r (2/5/1410).

(220) ARV, Batllia, Rg. 193, f. 29r-v.

(221) أنظر حالة مركب امتلكه المسيحيون والمسلمون على حد سواء بتونس في 1277.

Alarcón y Santón et García de Linares, *op. cit.*, n° 115, p. 245-246 (2e décade de *rabī‘* II 676 / 11-21 septembre 1277).

(222) ARM, AH 99, f. 295 (1/10/1423), éd. Macaire, *Majorque et le Maghrib, op. cit.*, p. 561-563.

(223) J. Day, *Les Douanes de Gênes 1376-1377*, Paris, 1963 ; Cl. Carrère, « Le droit d'ancrage et le mouvement du port de Barcelone au milieu du XVe siècle », *Estudios de historia moderna*, 3, 1953, p. 67-156.

(224) Guiral, « Les relations commerciales de Valence avec la Berbérie », art. cité, p. 106.=

(Giacomo di Andrea de Pectora) ، وهو بيزي يقطن بتونس، الذي دخل على متن فرقاطة مورية إلى تراباني (Trapani)[225]، لكن كانت هذه حالة معزولة. يفسّر هذا السكوت في جزء منه بحالات امتلاك مشترك للمراكب[226]، حيث يخفي رئيس المركب مشاركة الأجانب في رأس المال لتفادي دفع رسوم قوية في الميناء[227]. لكن ممارسة الملكية المشتركة مع المسلمين لا يبدو أنها كانت عامة[228].

إلى هذه الأسباب الضريبية، يمكن إضافة الإجراءات التي هدفت إلى منع السفن الأجنبية من القدوم لتفريغ حمولتها في ميناء أوروبي. سدّد الأرباب الأجانب رسما خاصا في ميورقة، لكنه لم يكن خاصا بالمسلمين[229]. أيضا في

=لكن التعرف على روميرو كمسلم غير مؤكد. أنظر أيضا بالنسبة لميورقة:

A. Riera Melis, « La llicencia per a barques de 1284. Una font important per a l'estudi del comerç exterior mallorqui del darrer quart del segle XIII », *Fontes rerum Balearium*, 3, 1979-1980, p. 121-140 ; Sastre Moll, « El puerto de la ciutat de Mallorca », art. cité, p. 163-164,

الذي يشير إلى مركب مسلم في سجلات تقسيم الميناء.

(225) Archivio di Stato di Trapani, not. Miciletto (9/1/1439), cité par Trasselli, « Sicilia, Levante e Tunisia », art. cité, p. 128.

لا تشير هذه العبارة إلى مركب هو ملكية للمسلمين. يمكن لها أيضا الإشارة إلى نوع خاص من المراكب.

(226) فأحمد بن بيان (Hamet ben Bien) – الذي أتى إلى ميورقة بانتظام– امتلك باسم السلطان الحفصي، نصف يخت سانتا ماريا (Santa Maria)، مع تاجرين ميورقيين، الأخوان أنتوني (Antoni) وجوم كانيال (Jaume Canyelles)، وانكشف هذا الامتلاك المشترك عندما باعا السفينة إلى التجار البروفانسيين بمبلغ إجمالي يقدر ب 8058 ليفر ميورقي، حيث ذهب النصف إلى السلطان.

ACA, C., Rg. 1422, f. 87r-88r (13/3/1363).

(227) في ميورقة، إذا كان المركب هو ملك لشركة يتدخل من خلالها تاجر من الجزيرة، تخفّض الضريبة وفقا لحصة الميورقي.

Sastre Moll, « El puerto de la ciutat de Mallorca », art. cité, p. 161.

(228) López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 382-383.

(229) Sastre Moll, « El puerto de la ciutat de Mallorca », art. cité, p. 161

أنظر أيضا:=

برشلونة في 1227، تمّ إقرار إجبارية تحميل كل سلعة باتجاه المشرق أو المغرب على متن مركب برشلوني إذا كان متوفرا(230)، وفي جنوة في نهاية القرن الرابع عشر، وجب استخدام السفن الجنوية لكل تجارة بعيدة(231). فضلا على عدم استهداف هذه الإجراءات للمراكب المغاربية بشكل خاص، لم يتم تطبيقها دائما بصرامة.

وجدت إذن مراكب تجارية بجائية تشهد عليها النصوص حتى القرن الخامس عشر. لكن الحالات التي أحصيت كانت نادرة، حتى وإن لم تكن المادة الخبرية ملائمة لقياس سعتها(232). على غرار التجار المتجولين، اقتصر إشعاع نشاط المراكب البجائية على العالم الإسلامي، خصوصا الغربي(233). لكن المسألة هي معرفة متى بدأ ضعف البحرية البجائية. إلى غاية القرن الحادي عشر، دون نقاش سيطرت الأساطيل المسلمة على البحر المتوسط(234). وإلى غاية الفترة الموحدية، كانت دور صناعة المراكب والسفن نشطة جدا في المغرب، حتى وإن

=M. D. López Pérez, « Las asociaciones de fletadores mallorquines bajomedievales : ¿ un intento de monopolización del comercio magrebí ? », *AEM*, 24, 1994, p. 89-104

منع في منتصف القرن الرابع عشر نقل السلع إلى المغرب على متن المراكب التي أجرها التجار الأجانب أو غير المتّبعين لجمعية تجار الميناء.

(230) AHCB, *Llibre Vert*, vol. I, f. 213 (12/10/1227), cité par Ch.-E. Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIIIe et XIVe siècles* : *de la bataille de Las Navas de Tolosa (1212) à l'avènement du sultan mérinide Abou-l-Hasan (1331)*, Paris, 1966, p. 32.

(231) Day, *Les Douanes de Gênes*, *op. cit.*, p. XI.

(232) ليس من الممكن على الخصوص معرفة بأي نوع من المراكب تعلق الأمر. إضافة إلى العدد القليل من الحالات، هناك عدم دقة في المصادر، غير العربية غالبا.

(233) نلاقي طبعا المراكب الإفريقية على الطرق الشرقية، خصوصا باتجاه مصر. لكن يبدو أنها قدمت من تونس وموانئ السلطنة الشرقية.

Valérian, « Ifrīqiyan merchants », art. cité, p. 49-50.

(234) نعرف العبارة الشهيرة لابن خلدون حول البحرية الإسلامية في هذه الفترة: "وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا، واختلفت في طرقه سلما وحربا، فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح"، المقدمة، ص 522.

أعوزتنا المادة الخبرية لرؤية المراكب التجارية[235]. امتدح صاحب كتاب الاستبصار نشاط الميناء ووصف – دون مبالغة- السفن المسلمة القادمة من الأسكندرية واليمن والهند والصين وبلدان أخرى. لكنه يشير أيضا إلى حضور مراكب الروم القادمة من سوريا وجهات أخرى بعيدة من بلاد الروم[236]. بدأ إذن إحساس بالانحطاط خصوصا بداية من القرن الثالث عشر. نسب الإخباري الكتالاني برنات دسكلو (Bernat Desclot) - مع إفراط في الوطنية- لأميرال مسيحي في نهاية القرن الثالث عشر العبارة التالية التي تلمح إلى عبارة ابن خلدون: "الآن، حتى السمك لا يحاول بجسارة، ولا سفينة شراعية، ولا أي مركب آخر، يخاطر بنفسه فوق الأمواج دون جواز مرور من ملك أراجونة[237]".

تمّ تفسير تراجع الأسطول التجاري بطرق مختلفة. لقد فسر في بادئ الأمر بقدّم القصور التقني في إنشاء وتدبير المراكب[238]. رغم أن تقنيات الملاحةلم تكن خافية عن الملاحين الإفريقيين والتذكير البسيط بأهمية نشاط القرصنة يكفي لإظهارها. ولا يفسّر جيدا من جهة أخرى هذا التأخر التكونولوجي بالنسبة للإنشاءات البحرية. إنّ الجديد في هذا الميدان – الذي بقي قليلا حتى نهاية القرن

---

(235) Picard, *La Mer et les musulmans d'Occident*, *op. cit.*, p. 75-96.

(236) الاستبصار، النص ص 130، الترجمة ص 36.

(237) Bernat Desclot, *Cronica*, chap. 166, cité par Ch.-E. Dufourcq, *La Vie quotidienne dans les ports méditerranéens au Moyen Âge (Provence, Languedoc, Catalogne)*, Paris, 1975, p. 100.

(238) يتحدث روبار برونشفيك عن "التقنية المتأخرة": "إنّ التقدم التقني الملحوظ الذي حققه الأوروبيون في القرون الأخيرة من العصر الوسيط في الإنشاءات البحرية وقيادة المراكب لم يتابعه رجال بلاد البربر طبعا إلا من بعيد وبطريقة غير مكتملة".

R. Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines au XVe siècle*, II, Paris, 1947, p. 97.

أنظر أيضا رأي إ. أشتور المماثل:

E. Ashtor, « L'artiglieria veneziana e il commercio di Levante », *Armi e cultura nel Bresciano, 1420-1870*, *Ateneo di Brescia*, 1981, p. 151, rééd. *East-West Trade in the Medieval Mediterranean*, Londres, 1986.

الثالث عشر- لم يكن معقدا ولم يكن صعب الاستيعاب[239]، في حين أن إمكانيات المبادلات كانت متكررة سواء مع المشرق أم مع إسبانيا المسيحية أم إسبانيا المسلمة[240]. إنّ وجود دليل موانئ مغاربي، الأول بتاريخ النصف الأول من القرن الرابع عشر، يبيّن من وجهة أخرى معرفة طرق الملاحة في البحر المتوسط[241]. لقد تمّ أيضا تفسير هذا التراجع بالافتقاد إلى الوسائل[242]. لكن إذا ما صحّ تطبيق هذا التفسير على مصر الفقيرة في الخشب، يصعب التلميح إليه بالنسبة لبجاية التي توفرت على موارد بلاد القبائل. من جهة أخرى، كان احترام التجار المسيحيين للممنوعات البابوية احتماليا جدا فيما يخص السفن ومواد الصناعة.

لقد تمّ أيضا التأكيد على تمتع التجار المسلمين بأمن أكبر على متن السفن المسيحية في مواجهة القرصنة، وهذا ما دفعهم ربما إلى إهمال الإنشاءات

(239) لا يميّز جون ه. بريور (John H. Pryor) بين الاختلاف المحتمل بين سفن التجار المسلمين والمسيحيين في البحر المتوسط الغربي في بداية القرن الرابع عشر، حتى وإن رجع الابتكار التقني إلى المسيحيين.

J. H. Pryor, *Geography, Technology and War. Studies in the Maritime History of the Mediterranean, 649-1571*, Cambridge, 1988, p. 46, 162.

(240) نفكر في الموحدين المستقرين في إفريقية الذين أقاموا – بالنسبة للبعض منهم- في بلاد لاكورونيا أراجونة، لكن أيضا في التجار الذين استعانوا بالسفن المسيحية. سمحت السفن التي أشتريت من المسيحيين أو أسرها القراصنة بالانتقالات التكنولوجية أيضا.

(241) J. Vernet-Ginés, « The Maghreb Chart in the Biblioteca Ambrosiana », *Imago Mundi*, 16, 1962, p. 1-16 ; S. Soucek, *Piri Reis and Turkish Mapmaking after Colombus. The Khalili Portulan Atlas*, Londres, 1996, p. 30 ;

أنظر أيضا بالنسبة للقرن السادس عشر:

M. Chapoutot-Remadi, « Les Charfi et la cartographie », *Itinéraires du savoir en Tunisie*, dir. H. Annabi, M. Chapoutot-Remadi et S. Kamarti, Tunis-Paris, 1995, p. 84-95 ; M. T. Mansouri, « Une famille de cartographes tunisiens : les Sharfi », *La Méditerranée médiévale. Perceptions et représentations*, dir. H. Akkari, Paris-Tunis, 2002, p. 263-277.

(242) Lombard, « Arsenaux », art. cité, p. 53-106.

البحرية[243]. يبدو أن هناك اتفاقية مقبولة في البحر المتوسط تقرر في الواقع أنّ "الصيوان يغطي السلعة"[244]. لكن هذه الفرضية تثير اعتراضين. من جهة، تنص المعاهدات المبرمة مع الدول المغاربية على وجوب عدم مهاجمة القراصنة لرعايا الملك إن كان معه سلم[245]، وتستثني رخص القرصنة إذن هذه السفن من الغنائم الممكنة، دون الأخذ في الاعتبار دين المالك أو القبطان. ومن جهة أخرى، لم يكن للقراصنة تقريبا أي اعتبارات دينية وهاجموا على السواء السفن المسيحية والمسلمة.

(243) Ch.-E. Dufourcq, « Le commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe chrétienne et marine musulmane : données connues et problèmes en suspens », *Actes du premier Congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb, Tunis, 1974, Cahiers du CERES*, Série histoire, 1, Tunis, 1979, p. 180 ; Pryor, *Geography*, *op. cit.*, p. 159.

(244) J.-M. Pardessus, *Collection des lois maritimes antérieures au XVIIIe siècle*, Paris, 1828-1845, III, p. 82.

(245) طبقت السلطات المسيحية جيدا هذه القاعدة، كما تبيّنه محاولات القراصنة لاستدارة وإخفاء شنيعتهم. إذا منعهم سلم من الاستيلاء على شخص، يجبرون ضحاياهم على الاعتراف بأصولهم من دولة غير معاهدة. ففي 1304، أسر قرصان بلنسي، بيري ربالطا (Pere Ribalta)، تونسيين رغم الهدنة بين تونس ومملكة أراجونة، وأجبرهم على الاعتراف بأنهم بجائيين (لم تكن هناك هدنة مع بجاية)، قائلا لهم: إذا قبلوا سيبيعهم كعبيد إلى بنتليريا (Pantelleria)، حيث يمكنهم أن يكونوا موضوع فداء بسهولة. في الحالة المعاكسة، يبيعهم إلى رومانيا حيث لا يمكنهم الرجوع إلى بلدهم. ACA, CRD, Jaime II, *caja* 21, n° 4160 (26/07/1304), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 654

إنّ الأسرى الذين أجبروا على إعلان بجائيتهم بيعوا إذن في بنيليريا. لكن برتومو المالطي (Barthomeu de Malta) – تاجر من مسينا– الذي صعد على متنها لشرائهم تعرّف على واحد منهم، وهو صاحب السفينة الأسيرة، الذي رآه في رحلة سابقة إلى تونس. كانت هذه الممارسات منتشرة جدا، حيث يعود الأسرى عن اعترافاتهم بمجرد وصولهم. قرّر جاك الفاتح (Jacques le Conquérant) عدم إمكانية الرجوع عن الكلام عند الوصول إلى الميناء.

Aureum Opus, Regalium privilegiorum civitatis et regni Valencie, Valence, 1515, p. 442, cité par Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 654.

مبدئيا، الذين يصعدون على متنها كانت لهم حماية[246]، لكن عمليا، كانت التجاوزات ممكنة ومتكررة[247]، لأن تبرير القراصنة هو حضور كفار على متنها لأسر المراكب. كان أيضا نفس الشيء بالنسبة لسلطات الميناء، التي لم تتردد في سجن المسلمين الموجودين في السفن المسيحية[248]. إعتاد الحفصيون على إجبار ربان المراكب على ترك رهينة كضمانة[249]. إنّ هذا التفسير هو ربما مقبول عندما تكون السفن محمية، كما هو حال المراكب الجنوية التي استفادت في هذا الصدد من سمعة أمنية كبيرة، لم تكن كذلك بالنسبة لأغلب سفن التجارة.

(246) ينص مشروع معاهدة 1444 بين لاكورونيا أراجونة وتونس (المادة 19) على عدم أسر المسلمين في حالة كرائهم لمراكب القشتاليين والبنادقة والفلورنسيين أو حتى الرودسيين أو أي أمة مسيحية أخرى لم تكن في حرب مع لاكورونيا.

Le projet de traité de 1444 entre la Couronne d'Aragon et Tunis (art. 19) prévoit que si des musulmans nolisent des navires de Castillans, Vénitiens, Florentins, ou même de Rhodes, ou toute autre nation chrétienne qui n'est pas en guerre avec la Couronne, ils ne seront pas capturés.

(247) تتحدث فتوى لابن عرفة في القرن الرابع عشر عن عادة أخذها المسلمون لركوب المراكب المسيحية للذهاب من إفريقية إلى الأسكندرية وخطر خيانة المسيحيين لهم، تحليل: Lagardère, *Histoire et société*, *op. cit.*, p. 33. لكن في القرن الخامس عشر، زعم البرزلي عدم تجرئ المسيحيين الإخلال بتعهدهم لأن سلطان تونس كان قويا ومحترما. Analyse dans *ibid.*, p. 38.

(248) في 1464، استولي على اثنين من ثلاث سفن موكب الترافيجو *(Trafego)*، -القادم من الأسكندرية والمحمّل بالكتان والتوابل التي نقلها التجار المسلمون إلى المغرب- في رودس، وهذا خرقا لجواز المرور. وكان قد اتفق أصحاب السفن والمسلمون على تفادي هذا الميناء، لكن "حظ البحر" أجبرهم على التوقف به وسجن 220 مسلما. هدّدت البندقية صاحب رودس الكبير بقنبلة المدينة إذا لم يرجع المراكب والأسرى في الوقت.

« che dura una candela da un soldo ». Domenico Malipiero, *Annali Veneti, dall'anno 1457 al 1500*, *Archivio Storico Italiano*, 7, 1843-1844, p. 614-615.

(249) في 1382، غادر الميورقي بيري بيدرو (Pere Pedro)، صاحب مركب، بالما (Palma) إلى وهران، حيث حمّل قمح تاجر مسلم إلى بجاية. أجبر على ترك رهينة أنتوني ماركدر (Anthoni Mercader)، الذي هو كاتب المركب. بينما ذهب صاحب المركب إلى إبيزا حيث أفرغ الحمولة وتاجرا مسلما وآخرين، ومكث أنتوني في سجن السلطان. ACA, C., Rg. 1444, f. 113r-v (29/5/1382)

وأخيرا، استطعنا أيضا تقديم تغيير موقف المسلمين اتجاه البحر. نترك جانبا الاعتبارات المشكوك فيها حول عجز الإسلام عن الاهتمام بالبحر[250]. من الوضوح أن إفريقية كانت – في بعض الفترات على الأقل- بلاد البحارة والتجار الذين لم يترددوا في ركوب البحر. كانت للأغالبة والزيريين وأبناء عمومتهم الحماديين، دون الحديث عن الموحدين، سياسة بحرية فعلية[251]. هل يجب الاعتقاد إذن بوجود تغيّر في الموقف بعد القرن الثاني عشر؟ لقد تغيّر في الواقع الخطاب حول البحر بداية من هذه الفترة[252]. إنّ الشعور بالخطر أصبح أكبر، خصوصا حين تضاعف الإحساس بكونهم أجانب في المياه. في نهاية القرن الرابع عشر، تحسّر ابن خلدون بأن أصبح المسلمون "في البحر أجانب، باستثناء نذر من سكان الساحل[253]". يندرج هذا الخطاب مع مثيله المهيمن عند الكثير من مؤلفي هذه الفترة، وهو تراجع الإسلام أمام المسيحية[254]. لكن في أي اعتبار يترجم فكر النخب هذه – الذي تعكسه هذه النصوص – فكر رجال البحر؟ إنّ مخاطر الملاحة غدّت مخاوف عند البحارة أو التجار، وهذا لا شك فيه، لكن هذا لم يكن جديدا وليس خاصا

(250) طوّر مؤخرا. ك. بلانول هذه الأطروحة كثيرا. X. de Planhol, *L'Islam et la mer. La mosquée et le matelot, VIIe-XXe siècle*, Paris, 2000. إنّ الكتاب الذي نشر ضمن سلسلة "تاريخ وانحطاط" يندرج ضمن تقليد دراسة الإسلام ككل غير قابل للتغير وغير قادر على التأقلم. في الفقرة الموسومة ب "أسباب الفشل: جو ثقافي"، يطرح قواعد منطقه: "ولأول وهلة، تحقق يفرض نفسه. لم تهتم الحضارة المتنامية للإسلام الكلاسيكي في أي لحظة فعليا بالبحر، ولم تجد الوسائل المحظية لعظمته، مبدأ نجاحاته ... في الأسوأ، كان الإسلام معاديا للبحر، وفي الأفضل، تجاهله". *Ibid.*, p. 41-42.

(251) Chr. Picard, « L'échec maritime musulman ? », *La puissance maritime*, dir. Chr. Buchet, J. Meyer, J.-P. Poussou, Paris, 2004, p. 123-133.

(252) M. T. Mansouri, « Perceptions arabes de la Méditerranée médiévale : de la maîtrise à la crainte », *Sailing Ships of the Mediterranean Sea and the Arabian Gulf*, Koweït, 1998, p. 56-57.

(253) المقدمة، الترجمة ص 525. أيضا كانت هذه الوضعية مرتبطة أكثر باعتبارات سياسية (انشقاق السلطان) من ثورة الذهنيات.

(254) G. Martinez-Gros, « Ibn Khaldūn et la mer », *Mésogeios*, 7, 2000, p. 99-112 ; A. Cheddadi, « Les Musulmans et la Méditerranée », *Qantara* (Paris), 1992, rééd. *Ibn Khaldoun revisité*, Casablanca, 1999, p. 69-74.

بالمسلمين. تسبب هذا الشعور بداية من القرن الثالث عشر بالعدول عن الملاحة، الذي هو في المقابل فيه نظر. تأتي جرأة القراصنة هنا لمخالفة هذه الأطروحة.

إنّ المشكل لم يرتبط بالملاحة بصفة خاصة ويجب التفكير فيه كواحد من مظاهر التراجع العام للمتعاملين البجائيين مع متعاملي أوروبا المتوسطية.

4) أسباب هذا التراجع

بالرغم من الشهادات حول نشاط التجار المسلمين وبقاء بحرية تجارية، يتبيّن انخفاض مشاركة البجائيين في التجارة البحرية الكبيرة، خصوصا وأنها أقل بكثير من مثيلتها الأوروبية. هناك تغيير جذري، حتى وإن كان تدريجيا مع وضعية البحر المتوسط الغربي حتى القرن الثاني عشر كما تظهره لنا خصوصا وثائق الجنيزة. يصعب تفسير هذا التراجع، والذي هو في قلب المشكل المطروح من قبل أغلب المؤرخين، وهو تراجع أو انكماش اقتصاديات الجنوب مقارنة مع التوسع العام للضفة الشمالية للبحر المتوسط. إذا لم يستفد المغرب بقدر المستطاع من هذا الانطلاق، فلأنه قبل كل شيء وجد نفسه في وضعية سلبية وترك التجار الأوروبيين ينظمون المبادلات البحرية لصالحهم.

تبقى أسباب هذا التطور أيضا مجهولة كثيرا، وليست هنا مسألة تجرأ لتفسير تطور المغرب العام في نهاية العصر الوسيط[255]. علاوة على ذلك، هل يمكننا انطلاقا من وضعية بجاية طرح بعض الفرضيات، وخصوصا تفنيد بعض التفسيرات الساذجة جدا.

---

(255) Cl. Cahen, « Quelques mots sur le déclin commercial du monde musulman à la fin du Moyen Âge », *Studies in the Economic History of the Middle East*, dir. M. A. Cook, Londres, 1967, p. 31-36, rééd. *Les Peuples musulmans dans l’histoire médiévale*, Damas, 1977, p. 359-366.

إنّ الأطروحتين اللتين تجابهتا في الغالب (للتبسيط أطروحة المؤرخين الاستعماريين وأطروحة المؤرخين ما بعد الاستعماريين) لا يمكن في الواقع اعتبارهما مرضيتين.

بحث الأوائل – الذين تعلقوا بتحديد خصائص المسلم أو المغاربي[256]– على إظهار عدم الأهلية العميقة والعامة لهؤلاء الرجال على تطوير اقتصاد رأس مالي. أضيفت الاعتبارات العرقية حول عدم القدرة على الاستثمار (وعلى الجهد) الدائم إلى نظريات حول عدم توافق الإسلام العميق مع التنمية الرأسمالية. إنّ الحجة الأساسية هي قدر المسلمين المحتمل، الذي يكون قد عرقل كل مبادرة. فسّرت ضوابط الفقه الإسلامي، خصوصا منع الربا، ككابح للتطور الاقتصادي والتجاري. وأخيرا، استند إلى تحريم الإبداعات للتأكيد المبدئي على أن الإسلام منع كل تطور للقانون التجاري، والذي يكون ربما قد أدى بسرعة إلى تأخر هام اتجاه أوروبا الغربية[257].

(256) اعتبر روبار برونشفيك –الذي يرفض ربط هذا "الجمود" أو "التطور الضعيف جدا" للمجتمع الإسلامي بالإسلام– رفض التجديد ب"موقف ذهني" و"سمة بسيكولوجية جماعية".

R. Brunschvig, « Capitalisme et islam traditionnel » (conférence inédite de 1960), *Études sur l'Islam classique et l'Afrique du Nord*, Londres, 1986, p. 7.

(257) G.-H. Bousquet, « Dans quelle mesure l'enseignement dogmatique a-t-il pu entraver l'évolution des institutions économiques et sociales de l'Islam ? », *Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam. Actes du symposium international d'histoire et de civilisation musulmane, Bordeaux, 25-29 juin 1956*, dir. R. Brunschvig et G. E. von Grünebaum, Paris, 1977, p. 187-188.

حسب رأيه، يبدو أن الفقه "وفّر تعاليم تعترض التقدم الاقتصادي والعلمي". تتبعه قائمة لكل المقدرات المفترضة التي تسبب فيها الإسلام: التقدم العلمي، وعقلانية الإجراءات الاقتصادية، والخوف من البدع، غياب تكديس رأس مال منتج، جهل بالتقنيات الحديثة في المحاسبة، ومنع القرض بالفائدة، واشمئزاز من أنظمة الضمان... إلخ. أثارت هذه المداخلة نقاشا حادا. حول مسألة البدع، أنظر موقف م. طالبي الموضّح: =

رفض ماكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) كل هذه الحجج، التي تستند إلى فكرة مجتمعات إسلامية ثابتة في جوهرها[258]. وبيّن أن الإسلام – الذي هو دين ولد في وسط تجاري- لم يكن سببا في جمود الاقتصاد، وأن مبادئه لم تختلف أساسا عن مبادئ مسيحية تلك الفترة. هدف منع الربا خصوصا إلى تفادي الإفراط وكان له آثار محدودة عمليا، حيث كانت عمليات التحويل جارية[259].

لم يكن تأخر التقنيات التجارية باديا أيضا. إنّ عقد القراض – الذي سمح رغم الضوابط الصارمة بليونة فعلية- ليس له ما يشهي الطلبية الغربية[260]. وجدت من جهة أخرى تقنيات قرض أو صرف سمحت بتطوير الأعمال التجارية[261]. فيما يخص قدر المسلمين المفترض، أقر كلود كهان بصحة وجوده أيضا في الفكر البروتستانتي ولم يمنع أبدا التطور الرأسمالي[262].

=M. Talbi, « les *bida‘* », *Studia islamica*, 12, 1960, p. 43-77, rééd. *Études d’histoire ifriqiyenne et de civilisation musulmane médiévale*, Tunis, 1982, p. 319-349.

(258) M. Rodinson, *Islam et capitalisme*, Paris, 1966, et Id., « Les conditions religieuses islamiques de la vie économique », *Handbuch der Orientalistik*, sechster Band - *Geschichte der Islamischen Länder*, sechster Abschnitt, *Wirtschaftsgeschichte des vorderen Orients in islamischer Zeit*, Teil 1, Leyde-Cologne, 1977, p. 18-30 ; J. L. Abu-Lughod, *Before European Hegemony. The World System AD 1250-1350*, Oxford, 1989, p. 216-224.

(259) Rodinson, « Les conditions religieuses », art. cité, p. 21.

(260) Cahen, « Quelques mots sur le déclin commercial », art. cité, p. 362. Voir également A. L. Udovitch, « At the Origins of the Western *Commenda* : Islam, Israel, Byzantium ? », *Speculum*, 37, 1962, p. 202-207 ; Idris, « Commerce maritime », art. cité, p. 225-239 ; Picard, *L’Océan Atlantique*, *op. cit*., p. 455-456,

الذي أشار إلى عجز هذه التقنيات، خصوصا في ميدان الضمان. لكن لم يتطور هذا الأخير في الغـرب إلا بداية من القرن الرابع عشر في وقت كان انكماش التجار المسلمين باديا.

(261) أنظر على الخصوص:

A. L. Udovitch, *Partnership and Profit in Medieval Islam*, Princeton, 1970 ; Id., « Bankers without Banks: Commerce, Banking and Society in the=

كرد فعل بالأساس على الأطروحات التقليدية حول مسؤولية الهلاليين في أزمة المغرب وفي سياق معارضة الأشكال الجديدة للاستعمار الاقتصادي، بحث الكثير في تفسير صعوبات المغرب في نهاية العصر الوسيط بإرادة الأوروبيين إقصاء الفاعلين المغاربة من الازدهار والتجارة المتوسطية. هي الأطروحة التي شرحها خصوصا عبد الله العروي في 1970، حيث أشار خصوصا إلى التقاء الأهداف السياسية بالإمبريالية الاقتصادية[263]. تستدعي هذه الأطروحة عدة اعتراضات. في بادئ الأمر، إنّ اصطدام المصالح التجارية والسياسية ليست بادية بتاتا، وتبيّن عدة أمثلة لنا عكس ذلك المصالح المتشعبة[264]. من ناحية أخرى، ليس ممكنا بوضوح استخراج سياسة توسع اقتصادي غربي بصفة عامة. مما لا جدال فيه هو أنّ جنوة وبيزة وملوك أراجونة وآخرون كانت لهم سياسات معينة، خصوصا اتجاه

=Islamic World of the Middle Ages », *The Dawn of Modern Banking*, Yale, 1979, p. 255-273.

(262) Cahen, « Quelques mots sur le déclin commercial », art. cité, p. 362.

(263) "إنّ ضعف الدول المغاربية كان ظرفا ملائما، والإمبريالية التجارية كانت وسيلة – خنق الموانئ المغاربية واحتكار للتجارة في البحر المتوسط– لسياسة كانت الحماسة الدينية محركها". A. Laroui, *L'Histoire du Maghreb. Un essai de synthèse*, Paris, 1970, rééd. Casablanca, 1995, p. 219. قبل ذلك بقليل، تحدث عن القرصنة كـ"نموذج حرب موجهة للإجابة على استحالة المغاربة تقريبا امتلاك تجارة منتظمة في البحر المتوسط بداية من القرن الثالث عشر"، في حين أنهم كانوا "غير قادرين على الدفاع على تجارتهم الخالصة". *Ibid.*, p. 217. نجد موضوع تراجع التجار المسلمين المحليين أمام التوسع التجاري الأوروبي في سياق المشرق المسلم (أنظر أعمال أشتور) والبيزنطي. أنظر رفض ميشال بلار في هذه الفكرة:

M. Balard, « Les hommes d'affaires occidentaux ont-ils asphyxié l'économie byzantine ? », *Europa medievale e mondo bizantino. Contatti effettivie possibilità di studi comparati (tavola rotonda del XVIII Congresso del CISH, Montréal, 29 agosto 1995)*, dir. G. Arnaldi et G. Cavallo, Rome 1997, p. 255-265.

(264) D. Valérian, « Le facteur économique dans la politique catalane à Bougie (XIIIe-XVe siècle) », *L'Expansio catalana a la Mediterrània a la baixa edat mitjana*, dir. M. T. Ferrer i Mallol et D. Coulon, Barcelone, 1999, p. 145-160.

المغرب. لكن البحث في إرادة الغرب المعتبرة ككل متكامل يكون ربما إعطائه وحدة كانت بعيدة عن مناله. بالعكس، بحث التجار المسيحيون على كسب الأسواق وإقصاء منافسيهم الأوروبيين[265]. في أي وثيقة لم يظهر الإيطاليون والكتالانيون أو البروفانسيون توتراً -أيا كان- تسبب فيه التجار المغاربة. أيضا، بحثنا دون جدوى عن إجراءات عنصرية في موانئ أوروبا المتوسطية ضد هؤلاء التجار. بالعكس، كما رأينا، تبيّن عدة وثائق إرادة تسهيل مجيئهم. لا تجب هنا رؤية إشارة لانفتاح خاص اتجاه هؤلاء المغاربة، لكن بالأحرى دليل على عدم تشكيلهم لتهديد جاد للتجار المحليين. يمكننا طبعا الحديث عن لا تسامح نما في سياق الحروب الصليبية وأنّ المناخ لم يكن ملائما لمجيء مسلم إلى الموانئ الأوروبية. لكن في الموانئ الإيبيرية، ليس هناك أثر لردة فعل لعنف ديني ضد التجار المسلمين، بينما الحدود مع الإسلام كانت قريبة وأيدلوجيا الاسترداد أُشربها المجتمع. وأخيرا، إذا ما افترضنا أن هذه الأطروحة صحيحة، فإنها لا تفسّر لماذا عوّض الأوروبيون أيضا جزئيا التجار البجائيين في المدن التجارية المسلمة في المشرق وأيضا في المغرب.

عوضا من استدعاء أحكام عامة جدا وغير مؤسسة في الغالب، من الأفضل إذن البحث عن فهم معادلة: لماذا في السياق الحفصي لم يكن للتجار الديناميكية الضرورية لمنافسة التجار المسيحيين بفعالية ؟

يتعلق المشكل الأول بسياسة الدولة الحفصية. هل استفاد التجار البجائيون من تشجيع أو تأطير من الحكم، كما كان الحال في المدن الكبرى في أوروبا الجنوبية؟ لا نعرف تقريبا شيئا عن سياسة الحفصيين التجارية (والاقتصادية بصفة عامة). لقد ساعدوا دون شك على تطوير التجارة البحرية كما تبيّنه الجهود لعقد

(265) أنظر خصوصا النزاع بين جنوة وبيزا:

D. Valérian, « Gênes et Pise : une concurrence pour le marché bougiote », Colloque « Bougie et sa région à travers les âges », Bougie, 9-12 novembre 1997 (à paraître).

الهدنات مع الدول المسيحية، والتي أدت في الغالب إلى تقليص ظاهرة القرصنة. لكن جهودهم كما نراها في المادة الخبرية اللاتينية تحمل خصوصا على استقبال التجار الأوروبيين. لم تكن هناك على ما يبدو محاولة تهدف إلى تنصيب بنى تأطير لرعاياها في الموانئ الأجنبية. لا نجد مطلقا مؤسسة تهدف إلى تشجيع وتنظيم التجارة البحرية(266). لا يمكن مقارنة قائد البحر أو صاحب الديوان بقناصل البحر في بيزا أو شخصيات أخرى مماثلة في الموانئ المسيحية. ربما يجب النظر إليها هنا كتعبير عن سياسة تترك التجارة للمبادرة الفردية وتحدد تدخل الدولة. يمكننا أيضا تقديم فرضية عدم استحسان نظام الحكم التصادم مع النخب الدينية بمساعدة تنقل أو استقرار المسلمين في الأرض المسيحية. لكن السبب الرئيسي لغياب مؤازرة التوسع التجاري يرجع بالأحرى إلى تنظيم الحكم. كانت مشاركة النخب الاقتصادية في القرارات في الواقع ضعيفة، حتى وإن وجب الاعتراف بغموض المجالس (الشورى، المشيخة) بالإضافة إلى تشكيلاتها. نعرف فقط في عصر الغبريني هيمنة القاضي على الشورى. أيضا عندما تدخلت هذه النخب في الحياة السياسية، كان في الغالب للحفاظ على مواقعها ومناصبها ضد الرجال القادمين من الخارج، أو للاحتجاج ضد الضرائب، دون إبداء مصالح تجارية واضحة. تبيّن فقط تدخل ممثلي الوسط التجاري كالمساعدة التي قدمها التجار البجائيون لاغتصاب أبي زكرياء السلطة في 684/ 1285. لكن لا نعرف كلية دوافعهم. لا يبدو إذن توفر رجال التجارة على بدائل قوية لدى الحكم لمساعدة أعمالهم التجارية. طبعا كانت ربما للنخب الدينية مصالح في المبادلات البحرية، دون شك أكبر من التي تظهرها النصوص. كانت أيضا حالة الأمراء وأقربائهم.

(266) A. L. Udovitch, « Time, the Sea and Society: Duration of Commercial Voyages on the Southern Shores of the Mediterranean during the High Middle Ages », *La Navigazione mediterranea nell'alto Medioevo*, Spolète, 1978 (*Settimane di studio del centro italiano di studi sull'Alto Medioevo*, XXV), II, p. 520.

إنها جماعات مقيّدة نسبيا وفي حالة الحكم السياسي، ينظر إلى التجارة البحرية كنمط استثماري لرؤوس الأموال ومصدرا للموارد الضريبية.

إنّ المظهر الوحيد المعروف للسياسة الاقتصادية هو السياسة الجمركية، التي لم تكن خاصة ببجاية حيث وجب تطبيق الاتفاقيات التي أمضاها السلطان. منتقدا بشدة آثار التجارة البحرية، ويعتقد عبد الله العروي ببحث الحكم على جذب التجار المسيحيين لهدف ضريبي قبل كل شيء، حيث وجد في الرسوم الجمركية موارد سهلة التحكم، وهذا محتمل[267]. وأضاف أنّ هذه السياسة أدت إلى عداوة التجار المحليين الذين همّشوا حسب رأيه[268]. لكن لا يبدو أنّ هؤلاء المسيحيين قد استفادوا من معاملة جمركية مفضّلة مقارنة بالآخرين. لا نعرف حقا تفاصيل كل هذه الأعباء الضريبية التي وقعت على التجار البجائيين، لكن لا شيء يسمح بالاعتقاد بعنصريتها على وجه الخصوص.

لاحظ كلود كهان في موضوع مصر في عصر المخزومي مساعدة السياسة الجمركية بوضوح للواردات، وليس الصادرات التي يمكنها تحفيز الإنتاج المحلي[269]. وبيّن أن هذا الموقف السلبي هو إشارة "لاقتصاد مضاربة وكسب"[270]. كان هدف الدولة والأرستقراطية – يضيف- هو الحصول على عناصر قوتهما أو رفاهيتهما وليس ترويج إنتاج[271]. حسبه، لم توجد أبدا في الشرق الأوسط فكرة تموين تجارة بفضل فائض الإنتاج لضمان أو زيادة العمل وموارد المنتجين (أو ببساطة لتوازن

(267) Laroui, *op. cit.*, p. 195, Cl. Cahen, « Quelques problèmes concernant l’expansion économique musulmane au haut Moyen-Âge », *L’Occidente e l’Islam nell’alto Medio Evo*, Spolète, 1965 (*Settimane di studio del Centro Italiano di Studi sull’Alto Medio Evo*, XII), I, p. 424.

(268) Laroui, *op. cit.*, p. 195.

(269) Cahen, « Douanes et commerce », art. cité, p. 255, 264-265.

(270) Cahen, « Quelques mots sur le déclin », art. cité, p. 364.

(271) *Ibid.*, p. 364.

القيم التجارية بين الواردات والصادرات) [272]. وتبيّن المعاهدات التي وقّعها الحفصيون توجها مشابها، ربما ساعدته موارد ذهب السودان، والتي خلقت حلا سهلا سمح باكتساب ممتلكات دون إجبارية مبادلتهم بمنتجات محلية أخرى.

وراء سياسة الدولة، تطرح أيضا مسألة رأس المال المتوفر للاستثمارات التجارية. حمّلت النخب السياسية مسؤولية الركود، بما أنها ربما دعّمت "تجارة طفيلية" على حساب زيادة الإنتاج[273]. تستند هذه الفكرة على فرضية زراعة غير قادرة على استخراج فائض، وبالتالي لا يأتي الغنى إلا من الأرباح التجارية[274]. لم ينظر للمغرب إذن إلا كمنطقة عبور بين ثروات السودان وأوروبا، منميا بذلك نمطا إنتاجيا مصطنعا"، وإذن هشًّا على وجه الخصوص[275]. لكن يتطلب إعادة النظر في فكرة غياب الاستثمار في النشاط البحري.

كان لرؤوس الأموال عدة مصادر: الإنتاج الزراعي والصناعي، التجارة نفسها، وأخيرا أرباح نشاط القرصنة. ليس بالإمكان تقدير الفائض من الناحية الكمية بسبب طبيعة المادة الخبرية، بيد أنه من الممكن تقدير ديناميكية كل قطاع

(272) *Ibid.*, p. 365.

(273) محمد القبلي الذي استلهم من كلود كهان كتب ما يلي: "وجد اقتصاد المغرب عمليا محكوما بنمط إنتاج عقم قائم على فلاحة جوهرية، لكن خصوصا على مركنتية طفيلية، سهلة ومستقلة، مبنية على المضاربة والكسب الكمي، بصفة أخرى على الاستهلاك وجمود الثروات، دون مراعاة كل نمو داخلي للثروات، لأن كتلة المنتجات الموجهة للتصدير "تعبر البلاد ولا تنتمي إليه".

M. Kably, *Société et religion au Maroc à la fin du « Moyen Âge » (XIVe-XVe siècle)*, Paris, 1986, p. 96-97. M. F. Vidiásov, « Le Maghreb médiéval : “mercantilisme parasitaire” ou société productrice ? », *Anaquel de Estudios Arabes* (Madrid), 3, 1992, p. 241-246.

(274) Y. Lacoste, *Ibn Khaldoun. Naissance de l’Histoire, passé du tiers-monde*, Paris, 1966, rééd. 1981, p. 39 :

"في المجتمع المغربي، حيث يبقى مستوى القوى الإنتاجية فقير جدا- لا يؤدي الغنى الذي لا شك فيه أي فائض يقتطع من الجماعات القبلية غير المنتجة كثيرا وحجم الفوائد التجارية، التي أصبحت ممكنة بالموقع الاستثنائي لإفريقيا الشمالية على طرق التجارة الدولية الكبيرة".

(275) *Ibid.*, p. 44.

بالأقل أو بالأكثر. في بادئ الأمر لا شيء يسمح بالاعتقاد خصوصا بنكبة القطاع الزراعي. إنّ وفرة صادرات الصوف والجلود تبيّن بالعكس وعيا ديناميكيا وقادرا على استخراج فائض للتصدير[276]. أيضا إنّ النشاط الصناعي منصوص عليه في بجاية كما في جهتها. لكن يبدو أنها انتظمت حول بنى متواضعة ونادرا ما تمّ تصدير منتجاتها عبر البحر، وهذا ما يوحي بديناميكية محدودة.

يمكن تفسير عدم كفاية الإنتاج بعدة أسباب. السبب الأول الأساسي هو ديموغرافي. إنّ إخلاء الأرياف من السكان كان دون نقاش عامل إبطاء للنمو وحدّد من الفائض القابل للتصدير نحو الميناء. التفسير الثاني هو الثقل الزائد في الاقتطاعات الضريبية التي قامت بها الدولة وأيضا القبائل في المناطق ذات التحكم القليل. يمكن طبعا استثمار الرسوم التي يجبيها الحكم السلطاني في النشاطات التجارية للعاهل أو العامل. لم تكن دون شك حالة الرسوم التي فرضتها القبائل، والتي لا نعرف جيدا حجمها، لكن يبدو أنها أثرت على موارد المنتجين الزراعيين. أشار ماكسيم رودينسون بالنسبة لنهاية العصر الوسيط إلى استقرار زهد يدعو إلى الاعتكاف عن الدنيا (والذي يسميه الاتجاهات السلبية)، حيث توجهت صورة القديس لتعويض صورة التاجر في سلم القيّم. إنّ هذا الموقف ليس بالضرورة إدانة للثراء والعمل[277]، لكنه يمثّل بالنسبة للرأسمالية "ضياع بريقها"[278]. يصعب تقدير أثر هذه الاتجاهات، لكن يظهر جيدا جامع الغبريني أمثلة لزهاد عاشوا نشاطا مهنيا متواضعا، ولا نستطيع نفي مساهمة تحوّل هذه الذهنيات الدينية في عرقلة ازدهار القطاع الصناعي وتحديثه.

(276) إنّ امتلاك النخب الحضرية لملكيات زراعية هو غير مرئي في النصوص ومن الصعب التأكيد على تمويل هذا الإنتاج لاستثمارات تجارية.

(277) بالنسبة لسبتة، أنظر: Ferhat, *Sabta*, *op. cit.*, p. 318

(278) Rodinson, « Les conditions religieuses », art. cité, p. 26-29.

في هذا المعنى، كان التطور مغايرا جدا في العالم المسيحي.

يمكن أن يأتي رأس المال أيضا من أرباح التجارة نفسها سواء برية كانت أم بحرية. من المحتمل إثراء هذه المبادلات للعديد من الوسطاء الذين عملوا في الميناء أو نقلوا المنتجات إليه. وأخيرا، استثمرت أرباح القرصنة المرتفعة جدا في نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر في التجارة عندما أصبحت هذه الأخيرة نشطة بداية من سنوات 1420.

لكن إجمالا، شكّل فقدان حركية المنتجات الزراعية والصناعية كابحا للاستثمار في التجارة البحرية. ليس إذن إلى هذا الحد كانت للتجارة آثار سلبية على الإنتاج والعكس.

وأخيرا، تطرح مسألة اختيار الاستثمارات نفسها. لماذا لم تخصص إلا رؤوس أموال قليلة في إنشاء المراكب وفي التجارة البحرية الكبيرة في حين ثمّن النشاط التجاري في البلدان المسلمة؟ استعمل المال في ميادين أخرى كما أشارت حليمة فرحات بالنسبة لسبتة، والتي بيّنت تحويل استثمارات التجارة نحو العقار بداية من القرن الثالث عشر[279]. ربما اختفى "بريق التاجر" كما ألمح إلى ذلك ماكسيم رودنسون، حتى وإن بقيت التجارة مصدرا مشرفا للإيرادات[280]. يذكر الغبريني بعض حالات الفقهاء الذين مارسوا التجارة، ورأينا مشاركة المقربين من الحكم في العمليات البحرية، وهذا ما يبيّن نشاطا مقدّراً اجتماعيا. إنّ فئة التجار الكبار منصوص عليها في مصر[281]، كما في سبتة حيث شكلوا نخبة المدينة الاجتماعية[282]. يبيّن واقع مشاركة التجار البجائيين في تمويل جيش الأمير أبي

(279) H. Ferhat, « Remarques sur l’histoire des villes et la fragilité du tissu urbain avant le XVe siècle », *Sciences sociales et phénomènes urbains dans le monde arabe*, Casablanca, 1997, p. 101.

(280) الغبريني، ص 177، 218. لكننا لا نعلم حجم تجارتهم، التي يبدو بالأحرى أنها محلية.

(281) E. Ashtor, *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*, Londres, 1976, notamment p. 320-321.

(282) Ferhat, *Sabta*, *op. cit.*, p. 309.

زكرياء[283] في حوالي 683/ 1384 توفر البعض منهم على الأقل على رؤوس أموال دائمة. لكن حضور التجار -حتى إن كانوا من الصنف الكبير - لا يعني أبدا جذب التجارة لكثير من الأشخاص. تبين المصادر رغم محدوديتها بالعكس وسطا ضئيلاً يقتصر على بعض فئات الفاعلين، الذين لم يشكلوا بالضرورة جماعة منسجمة ومتحدة بالمصالح المشتركة. لا يجب الاستنتاج بالضرورة بوضع الحكم لاحتكار ما[284]، لكن بالأحرى مارست بعض الجماعات – الأفضل تموقعا بعلاقتها مع العالم الإسلامي والمسيحي، وربما أكثر صلابة ماليا- الأهم في هذا النشاط. لم تكن هناك تعبئة واسعة، كالتي كانت في نفس الفترة في الموانئ الأوروبية الكبيرة.

يجب البحث عن السبب الرئيس لتراجع التجار البجائيين أمام شركائهم المسيحيين خصوصا في عجز رؤوس الأموال المستثمرة. يترجم الفائض قليل الأهمية بالضعف الديمغرافي وبتواضع مؤسسات الإنتاج. من جهة أخرى، إذا بقيت التجارة نشاطا مشرفا، فيبدو أنها لم تصبغ المجتمع الحضري إلى درجة تعبئة شاملة لرؤوس الأموال. يجب وضع هذا على علاقة بغياب تأييد وتحفيز الحكم، الذي فضّل تسهيل مجيء التجار اللاتين على تشجيع رعاياه على ركوب البحر والاستثمار في الأسواق الأوربية.

تبقى كل هذه الفرضيات – يجب الإقرار بذلك- هشّة في غياب معرفة جيدة لهذا المجتمع الحضري. من الواضح في جميع الحالات أن بنى التجارة البجائية كانت ضعيفة جدا لمنافسة التجار ومالكي السفن الأوربيين بفعالية، حيث أنّ قوتهم لم تتوقف عن ثباتها. طوّر هؤلاء الأخيرين – الذين دفعتهم على السواء حاجيات اقتصاد في قمة النمو وضرورة إيجاد أسواق جديدة لتصريف الإنتاج-

(283) البربر، 2، ص 399.

(284) على الأقل الاحتكار الرسمي. سجّل ابن خلدون – ليس دون معنى جيد- "إذا كان الملك أغنى منهم (أي الصنائع الأخرى) وينافسهم، فليس بإمكان أحدهم الحصول على ما يرغب فيه، وهذا ما يترتب عليه انزعاج واستياء". المقدمة، الترجمة، ص 575.

تجارة قوية وهجومية والتي انتهت بإبعاد التجار المسلمين حتى إلى المسالك الداخلية في عالم الإسلام.

II. غلبة التجار المسيحيين

كان المسيحيون دون نقاش الفاعلين الأكثر عددا في التجارة البحرية، حيث يعرفون نسبيا من خلال المادة الوثائقية. استفادت أعمالهم التجارية من التطور السريع للتقنيات التجارية والإنشاءات البحرية. من جهة أخرى، ساهم تطور الذهنيات والأرباح الناجمة عن التجارة في تثمين مهنة التاجر. كانت نتيجة هذا التطور المزدوج هي مشاركة أطياف واسعة من مجتمع المدن التجارية بأوروبا الجنوبية في التجارة البحرية.

1) وسائل التوسع التجاري

بداية من القرن الثالث عشر، سمح تطور التقنيات التجارية الفعّالة واللينة في ذات الوقت لأوساط مختلفة من المشاركة في التنشيط التجاري المتوسطي. في نفس الوقت أعطى ازدهار الإنشاءات البحرية وسائل نقل سمحت بربط الأسواق الإفريقية والمتوسطية بصفة عامة. كل هذا معروف ودرسه جيدا مؤرخو التوسع الأوروبي والبحرية[285] والقانون التجاري[286]. إذ طوّر كل ميناء تقاليده الخاصة، ومن الممل عرض التفاصيل، لكن يجب التذكير بسرعة ببعض الخصائص المشتركة.

---

(285) أنظر خصوصا: Pryor, *Geography, op. cit., passim* ، وسلسلة الملتقيات الدولية للتاريخ البحري التي نظّمها مشال مولا (Michel Mollat).

(286) إنّ البيبليوغرافيا حول هذا الموضوع غزيرة، أنظر على الخصوص:

A.-E. Sayous, *Le Commerce des Européens à Tunis depuis le XIIe siècle jusqu'à la fin du XVIe siècle*, Paris, 1929, en particulier p. 32-36.

لنفس المؤلف، عدة مقالات حول تقنيات برشلونة ومرسيليا التجارية في القرن الثالث عشر، والتي أخذت ثانية في:

El mètods comercials a la Barcelona medieval, Barcelone, 1975 et *Commerce et finance au Moyen Âge*, Londres, 1988 ; J. H. Pryor,

أ) تطور التقنيات التجارية

يتعلم التاجر بداية من شبابه تقنيات التجارة. أولا في المدرسة[287]، ولكن خصوصا بمرافقة الأكابر يأخذ التاجر الشاب تلقينه[288]. ليوناردو البيزي (Leonardo Pisano)المعروف بفيبوناتشي (Fibonacci) هو مثال عن هؤلاء الشباب الذين ذهبوا إلى ما وراء البحر لتعلم مهنتهم، والبحث عن التحول في تاريخ المعارف الرياضية المطبّقة في التجارة. في نهاية القرن الثاني عشر، رافق وهو مراهق أباه، حيث كان كاتب البيزيين في بجاية. صاحب هناك أستاذا نقل له قسما من المعرفة الرياضية العربية. بعودته إلى بيزا كتب كتاب الحساب *(Liber Aba ci)* ، الذي أصبح قاعدة المعارف الحسابية التي استعملها التجار خلال كل العصر الوسيط، جاعلا من العمليات المعقدة الضرورية للتجارة البحرية سهلة الإدراك[289].

« Mediterranean Commerce in the Middle Ages : a Voyage under Contract of Commanda », *Viator*, 14, 1983, p. 133-194 ; Id., « The Origin of the Commenda Contract », *Speculum*, 52, 1977, p. 5-37 ; sur les contrats génois voir M. Balard, *La Romanie génoise (XIIe-début du XVe siècle)*, Rome-Gênes, 1978, p. 599-641 ; R. Doehaerd, *Les Relations commerciales entre Gênes, la Belgique et l'Outre-Mont, d'après les archivesnotariales génoises aux XIIIe et XIVe siècles*, Bruxelles-Rome, 1941, notamment p. 106-141.

حول بلاد لاكورونيا أراجونة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، أنظر أساسا:

López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 401-431 ; sur Venise G. Luzzatto, « La commenda nella vita economica dei secoli XIII e XIV con particolare riguardo a Venezia », *Convegno internazionale di studi storici del diritto marittimo medioevale di Amalfi*, *ottobre 1934*, I, Naples, 1934, rééd. *Studi di Storia economica veneziana*, Padoue, 1954, p. 59-79.

(287) بداية من القرن الثالث عشر، نظّمت المدن التجارية مدارس لأبناء البرجوازية. بعد تعلمهم القراءة والكتابة بشكل صحيح، يمر الطفل إلى الحساب، في حوالي 11 سنة، ويخصّص له من اثنين إلى ثلاث سنوات حسب قدراته واحتجاجاته.

A. Sapori, *Mercatores*, Milan, 1941, p. 151-157.

(288) A. Sapori, « La cultura del mercante medievale italiano », *Studi di storia economica*, I, Florence, 1955, p. 65-66.

(289) Leonardo Pisano, *Liber abbaci*, éd. B. Boncompagni, Rome, 1857, p. 1 ; trad. angl. L. Sigler, *Fibonacci's Liber Abaci*, New York, 2002, p. 15=.

موازاة مع تطوير تقنيات المحاسبة، عرف القانون التجاري تقدما هاما، سمحت بتمويل التجارة البحرية الكبيرة. كان العقد الأكثر استعمالا وبساطة هو الطلبية، التي نجدها في موانئ أوروبا الجنوبية الرئيسية. يعطي صاحب رأس المال مبلغا ماليا أو سلعا لحملها وجعلها مثمرة في مكان آخر. يجب على الطالب بيع السلع واستثمار الأموال المتحصل عليها من جديد سواء في مشتريات محددة في العقد أم في الغالب بحسب الأفضلية الممكنة في السوق. بعد عودته، يسلم رأس المال إلى صاحب الطلبية في حين يتم اقتسام فائدة العملية بين الاثنين، حيث يحتفظ التاجر في الغالب بالربع[290]. سمح هذا النوع من العقد لكل شخص حتى من دون رأس مال أولي من المشاركة في التجارة، وإذا كان بارعا ومحظوظا، يربح بسرعة. هو إذن يتلاءم خصوصا مع المتعاملين الصغار، الذين لا يأتون هنا إلا بعملهم. فيما يخص الشركات البحرية، فقد أشركت عدة مستثمرين. إنّ التاجر الذي يقوم بالرحلة يشارك عموما بثلث رأس المال ويتلقى نصف الفائدة. يجب عليه إذن التوفر على موارد للاستثمار، ولا يلائم هذا النوع من العقد الجميع. من الواضح أن التاجر يحمل هو نفسه سلعه أو رأس ماله. في هذه الحالة، لم يكن من الضروري تحرير عقد وهذه العمليات لم تترك أثرا في المادة الوثائقية. أكثر تعقيدا من ذلك، عمليات الصرف التي كانت ضرورية للتوفر على العملات السارية في الأماكن الأجنبية، كما بإمكانها أيضا أن تكون أنماطا استثمارية أو قروضا بفوائد متنكرة.

=Sapori, « La cultura », art. cité, p. 60-65, 72-78 ; sur Fibonacci et son influence voir les actes du colloque *Leonardo Fibonacci. Il tempo, le opere, l'eredità scientifica*, dir. M. Morelli et M. Tangheroni, Pise, 1994, en particulier Dj. Aïssani et al., « Les mathématiques à Bougie médiéval et Fibonacci », p. 67-82 ; T. Antoni, « Leonardo Pisano detto il Fibonacci e lo sviluppo della contabilità mercantile nel Duecento », p. 45-50.

(290) يحتفظ استثنائيا التاجر بربع الربح. أحيانا، يمكننا إيجاد أيضا عقود لا تنص على أجر حاملها. لكن يمكن إخفاء الفائدة.

تطورت بداية من القرن الرابع عشر أنظمة ائتمان سمحت بتحديد مخاطر الملاحة في المسيرات الأكثر عرضة لها، وبناء على ذلك شجعت الاستثمارات[291]. في جنوة بداية من 1340، قدم العقد على شكل قرض افتراضي لمبلغ يتعهد المؤتمن بتعويضه، إلا إذا وصلت السلعة أو المركب إلى وجهتها. بعد 1362، كانت الصيغة بالأحرى صيغة البيع، دائما افتراضية، حيث يتم التسديد في حالة الضرر[292]. إنّ معدلات الضمان كانت ضعيفة كثيرا، ولم تؤثر إذن بإفراط في تكاليف النقل. بجنوة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، كانت من 5 إلى 10 في المائة[293]، وفي برشلونة في سنوات 1450-1460، تنوعت المعدلات بين 8 و16 في المائة لرحلة ذهاب وإياب نحو الجزائر أو بجاية[294].

وأخيرا مع تطور المؤسسات الأوروبية في الموانئ المسلمة، كان لبعض الشركات ممثلون دائمون في عين المكان. استقبل هؤلاء الأخيرين السلع، وباعوا واشتروا في السوق المحلي. إنّ هذه المؤسسات الكبيرة المنتشرة غالبا في الأماكن

(291) حول المظاهر القانونية لهذا النوع من العقد:

E. Bensa, *Il Contratto di assicurazione nel medio evo*, Gênes, 1884. Voir également M. Balard, « Assurances et commerce maritime à Gênes dans la seconde moitié du XIVe siècle », *Les Transports au Moyen Âge. Actes du VIIe Congrès des Historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public*, *Annales de Bretagne et des pays de l'Ouest*, 85/2, 1978, p. 273-282 ; J. Heers, « Le prix de l'assurance maritime à la fin du Moyen Âge », *Revue d'histoire économique et sociale*, 37, 1959, p. 7-19, rééd. *Société et économie à Gênes (XIVe-XVe siècle)*, Londres, 1979. Sur les assurances à Barcelone, voir principalement M. del Treppo, *I Mercanti catalani e l'espansione della Corona d'Aragona nel secolo XV*, Naples, 1972, p. 423-440, et Id. « Assicurazioni e commercio internazionale a Barcellona nel 1420-1429 », *RSI*, 69, 1957, p. 508-541 ; 70, 1958, p. 44-81.

(292) Balard, « Assurances », art. cité, p. 274-275.

(293) *Ibid.*, p. 279.

(294) AHPB, Pere Bastat, *Liber securitatum*, 9/8/1454 - 24/1/1461, f. 55v-56r (1/7/1455) ; AHPB, A. Vilanova, *Liber securitatum*, min. 6 (165/95), non folioté (18/12/1466).

التجارية الكبرى لا يبدو أنها صانت ممثلين دائمين في بجاية. وتطورت بداية من نهاية القرن الثالث عشر وخصوصا في القرن الرابع عشر، في وقت كان من الأفضل أن يكون لها عون في تونس له سلطة على كامل الفضاء الحفصي. كان لبعض التجار المهمين مراسل مستقر في بجاية، يكون أحيانا عضوا من العائلة، أو شريكا أو موظفا.

تطورت وتحسنت إذن تقنيات التجارة - البسيطة والفعّالة على حد سواء- تدريجيا، حيث درت أرباحا سريعة وهامة للأعوان المقاولين، حتى وإن كانوا متواضعين، الذين قبلوا السفر أو المجازفة بأموالهم في الأسواق البعيدة. كان لرؤوس الأموال المستثمرة عدة أصول[295]. موّن فائض الفلاحة والصناعة التقليدية التجارة البحرية، لكن كانت التجارة نفسها خصوصا هي التي موّنت رؤوس الأموال الأكبر عددا، بأرباحها الكبيرة التي جلبتها[296]. استفادت طبقات

(295) نوقشت مسألة الموزع المشعل والأصل الأول لرؤوس أموال الثورة التجارية. قدمنا أثر النمو الديمغرافي وازدهار الانفتاح في الأرياف، حيث تطلّب البحث عن مخارج تجارية بعيدة. إنّ الأرباح التي أنجبتها أوائل أعمال القرصنة ضد السواحل المسلمة في القرن الحادي عشر أعيد استثمارها في العمليات التجارية. وأخيرا، جعلت النشاطات الحضرية والحرفية ضروريا وممكنا البحث عن أسواق لترويج المنتجات، لكن أيضا لاستيراد المواد الأولية. أنظر:

R. S. Lopez, *La Révolution commerciale dans l'Europe médiévale*, Paris, 1974, en particulier p. 98-100 ; Id., « Aux origines du capitalisme génois », *Annales d'Histoire Économique et Sociale*, 9, 1937, p. 429-454.

لكن مسألة الأصول هذه بالنسبة لنا هي قليلة الأهمية. هناك خصوصا التقاء عدة عوامل موجّهة نحو النمو بداية من القرن الحادي عشر وتصرفت الظواهر بطريقة متبادلة الواحدة مع الأخرى. أنظر:

M. Tangheroni, *Commercio e navigazione nel Medioevo*, Bari, 1996, p. 127-130.

(296) في منتصف القرن الثاني عشر، ضاعف بثلاث مرات أنجو دلا فولتا (Ingo della Volta) – من عائلة نبيلة ومالك كبير لعقارات- رأس ماله في سنتين، بثلاثة عقود متوالية من طلبية وشراكة. وربح شريكه أنسالدو بيالاردو (Ansaldo Baialardo) – الذي سافر دون رأس مال انطلاقًا- في نفس الوقت حوالي 150 ليفر، وهو مبلغ كبير في هذه الفترة.

Lopez, « Aux origines du capitalisme génois », art. cité, p. 449.

واسعة من المجتمع من هذا النشاط، بقدر تطور الذهنيات سريعا. إنّ الإدانات التي صاغتها الكنيسة ضد الربا جرى استدارتها بسهولة(297). ونلاحظ خصوصا تثمين النشاط التجاري(298)، حيث أصبح التاجر شخصًا في نظر المجتمع ينتمي إلى نخب المدينة السياسية. يعرّف الإخباري الجنوي كفارو (Ca faro) المواطن الجيد بتاجر يذهب عبر البحر، يستثمر ويثري رأس ماله، ويعتبر التجارة نشاطا لامعا. أيضا، يبيّن كتاب أخبار مدينة ينوسيس (*Chroniqua Civitatis Ianuensis*) للأسقف الدومنيكاني جاك دو فوراجين (Jacques de Varaigne) ورود نجاح المدينة من النشاط التجاري(299).

ب) ازدهار أساطيل التجارة

كان إنشاء واستغلال المراكب المحرك الآخر للتوسع التجاري الأوروبي في البحر المتوسط. إنّ دور الصناعة البحرية الحاضرة في كل الموانئ الكبرى هو تزويد

(297) J. Le Goff, *La Bourse et la vie*, Paris, 1986 ; A. Sapori, *Le Marchand italien au Moyen Âge*, Paris, 1952, trad. it. *Il Mercante italiano nel Medioevo*, Milan, 1981, p. 25-26 ; Id., « Economia e morale alla fine del Trecento. Francesco di Marco Datini e ser Lapo Mazzei », *Studi di storia economica*, I, Florence, 1955, p. 155-179 ; A. Spicciani, « La produttività del capitale monetario e la questione dell'interesse nella dottrina teologico-canonistica dei secoli XIII e XIV », *Fonte Avellana nella società dei secoli XIII e XIV, Atti del terzo convegno del Centro di Studi avellaniti*, Fonte Avellana, 1979, p. 325-362, rééd. *Capitale e interesse tra mercatura e povertà nei teologi e canonisti dei secoli XIII-XV*, Rome, 1990, p. 17-48.

(298) R. S. Lopez, *Storia delle colonie genovesi nel Mediterraneo*, Bologne, 1938, rééd. Gênes, 1996, p. 27 ; J. Favier, *De l'or et des épices. Naissance de l'homme d'affaires au Moyen Âge*, Paris, 1987, p. 407-417.

(299) G. Airaldi, « Aspetti dell'espansione mediterranea genovese », *L'Italia ed i paesi mediterranei. Vie di comunicazione, scambi commerciali et culturali al tempo delle repubbliche marittime*, Pise, 1988, p. 38-39 ; R. S. Lopez, « Le marchand génois. Un portrait collectif », *Annales ESC*, 13/3, 1958, rééd. *Su e giù per la storia di Genova*, Gênes, 1975, p. 22-25.

التجارة بوسيلة نقل سريعة وبسعر معقول وأكثر فأكثر متأقلما مع الحاجيات[300].
كان التمويل المالي في الغالب مقاسمة بين عدة مستثمرين[301]، ورغم مخاطر الملاحة، كانت الأرباح هامة وسريعة. في القرن الثاني عشر بجنوة، تنوعت أسعار المراكب بين 36 ليفر بالنسبة للشيني (une saète) ، و95 ليفر لبكيوس *(bucius)*، وعدة مئات ليفر للناف(nave) [302]. ازدادت الأسعار بسرعة حسب قدرة استيعاب المراكب، وفي منتصف القرن الثالث عشر، تجاوزت 2000 ليفر مع تجهيزاتها[303]. إنّ دراسة أنواع المراكب التي ترددت على ميناء بجاية معقدة بالنظر إلى الريب الذي ظلّت عليه مفردات اللغة، حيث تطورت وتنوعت من ميناء إلى آخر[304]. لكن إجمالا، نلاحظ أن المراكب التي استعملت في التجارة البجائية كانت بأحجام متوسطة، وشراعية في الغالب.

(300) أنظر على سبيل المثال بالنسبة لجنوة:
Lopez, *Storia delle colonie*, *op. cit*., p. 40-41 ; Balard, *La Romanie*, *op. cit.*, p. 539-543.

(301) R. Di Tucci, *Studi sull'economia genovese del secolo* XII. *La nave e i contratti marittimi*, Turin, 1933, p. 43 ; Lopez, *Storia delle colonie*, *op. cit*., p. 42-43 ; Byrne, *Genoese Shipping*, *op. cit.*, p. 13.

(302) E. Bach, « Études génoises ; le minutier de Lanfranco », *Studi in onore di Armando Sapori*, I, Milan, 1957, p. 388 ; H. C. Krueger, « Navi e proprietà navale a Genova (seconda metà del sec. XII) », *ASLSP*, n.s., 25, fasc. 1, 1985, p. 159-160.

(303) Byrne, *Genoese Shipping*, *op. cit.*, p. 22.

(304) Heers, « Types de navires », art. cité, p. 108.

جدول 23: أنواع مراكب التجارة (1150-1500) [305]

1150-1200

	جنوة	أخرى
Nave	18	بيزا (1)، البندقية (2)، برشلونة (1)، سافون (2)
Bucius	1	

1201-1250

	جنوة	مرسيليا	برشلونة	ميورقة	أخرى
Nave	26	19	2		بيزا (2)، سافون (4)
Bucius	5	2			
Linh	1		1	3	سافون (1)، بيزا (1)
Taride	1				

(305) عندما يكون أصل المركب أو صاحبه غير مشار إليه، افترضنا أنه من الميناء الذي حررت فيه الوثيقة. لم تؤخذ هنا بعين الاعتبار مراكب الخطوط البندقية والفلورنسية.

1300-1251

	جنوة	مرسيليا	برشلونة	ميورقة	أخرى
Nave	26	1	3	5	بيزا (2)، صقلية (2)، سافون (1)، البندقية (1)،غير معلومة (1)
Bucius	8	3			بيزا (1)، صقلية (1)، سالرن (1)، مجهولة (4)
Linh	4		2	2	بلنسية (1)
Taride	3	1	1		بيزا (1)
Vassello					3[306]
Barca	1				
Galère					سافون (1)

1350-1301

	جنوة	مرسيليا	برشلونة	ميورقة	بلنسية	أخرى
Linh		4	3	28	2	1
Nave	6		4	16	1	1
Coca	4		2	12		بيزا (1)
Galère	5	5		1		
Barca				4	1	
Taride	1			2		
Caraque		1				

(306) مراكب ذات أصل مجهول، جاءت لنقل الحبوب من صقلية أو من كامبانيا (Campanie).

1400-1351

	جنوة	ميورقة	برشلونة	أخرى
Coca		48	1	بلنسية (2)، قشتالة (1)
Linh		38	2	منورقة (1)، كليوري (1)
Barca		27	1	أجد (1)، منورقة (1)، إبيزا (1)
Nave	1	16	2	قشتالة (4)، كليوري (2)
Panfile		8		منورقة (2)
Galiote		1		
Galère			1	

1450-1401

	جنوة	ميورقة	برشلونة	بلنسية	أخرى
Nave	7	67	1	4	كليوري (1)، قشتالة (9)، مرسيليا (1)، جيرون (1)، البرتغال (1)
Linh		13	2	2	طرطوشة (1)، إبيزا (1)
Coca	1	11			كليوري (2)
Barca		9			
Galère		4		2	
Balaner		5			
Galiote		2		2	
Caravelle		1			
Brigantin		1			

1500-1451

	جنوة	ميورقة	برشلونة	بلنسية	أخرى
Nave		20	1	3	ابيزا (1)، سرقسطة (1)، البندقية (1)، مرسيليا (1)، بسكاي (3)
Balaner	1	16	2	1	سان فيليو دو جكسول (San Feliu de Guixol) (1)
Caravelle		5		5	
Galère		3			جالي دو فرونس Galée de France (1)
Barca		2	1		
Fuste		1			
Laut		1			

الأجفان أو الشواني أو المراكب الكبيرة[307] (naves) هي السفن التي ترددت أكثر على ميناء بجاية. تشير نفس الكلمة إلى عدة أنواع مختلفة حسب الفترات.

في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، كانت سفينة دائرية طولها من 23 إلى 37م، بصارية أو بصاريتين في الغالب وشراع لاتينية[308]، حيث كانت فائدتها

(307) لم يكن هذا خاصا ببجاية. كانت الناف هي السفن الأكثر عددا التي غادرت ميناء جنوة في القرن الثاني عشر وسيادتها بقيت دائما دالة في القرن الموالي.

Krueger, *Navi*, *op. cit.*, p. 24-26, 155-156 ; Balard, *La Romanie*, *op. cit.*, p. 553 ; pour Venise voir J.-Cl. Hocquet, *Voiliers et commerce en Méditerranée*, *1200-1650*, Lille, 1979, p. 100-102.

(308) H. C. Krueger, « The Routine of Commerce between Genoa and Northwest Africa during the Late Twelfth Century », *The Mariner's Mirror*, 19/4, 1933, p. 431 ; Balard, *La Romanie*, *op. cit.*, p. 553-554.

الرئيسية في قدرتها الاستيعابية الكبيرة. في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، يعطي كرودجر (Krueger) حمولة تصل حتى 1500 قنطارًا بالنسبة للناف الجنوية، بمعنى حوالي 100 طن متري[309]. ازدادت قدرتها بعد ذلك لتصل إلى 1000 طن[310]، وهذا ما تطلّب وجود طاقم هام أحيانا بأكثر من 100 رجل[311]. لكن الوحدات المستعملة في التجارة البجائية كانت في الغالب ذات حجم متواضع. ففي 1180، أجّر بالدو دو أفريكا (Baldo de Africa) وكلاريو (Clario) وشركاؤهما نافًا لأربعة تجار جنويين إلى بجاية. خدم المركب اثنا عشر بحارا، إضافة إلى اثنين من مالكيها، وكان مجموع شحن العودة المنصوص عليه في العقد 481 قنطار[312]. لا نعرف ما اذا كان هؤلاء التجار هم فقط من استأجروا السفينة، لكن حجم الطاقم يبيّن أنّ المركب كان متوسطا. يمكن إجراء معاينة مماثلة بالنسبة لناف جياكومو كابرا (Giacomo Capra) وأنسلمو برباريا (Anselmo Barbaria) ، الذي أجّر في 1201 إلى بجاية. تشكّل طاقمه من ثمانية وعشرين بحارا، وقدرة الاستيعاب المخصصة للتجار كانت ألف قنطار[313]. في القرن الثالث عشر، كانت الحمولة أكثر ارتفاعا "غلاء". ففي 1253، أجّر ججليولمو دانييلي دو نولي (Guglielmo Danielle de Noli) نافه سان بيترو (San Pietro) -التي خرجت من دار الصناعة البحرية بسامبييردارينا (Sampierdarena) - في رحلة إلى بجاية. وصف عقد الكراء المركب بدقة: له عدة ظهور ومقصورة وصواريان ، وثمانية قطع جديدة للاستشعار[314]، وثمانية عشر مرساة، وخمسة وعشرون حبلاً

(309) Krueger, *Navi*, *op. cit.*, p. 168.

(310) Hocquet, *Voiliers*, *op. cit.*, p. 100.

(311) Balard, *La Romanie*, *op. cit.*, p. 553-554.

(312) ASG, not. ign., *busta* 1, doc. 1, n° 10 (14/3/1180).

(313) Giovanni di Guiberto, n° 348 (3/8/1201).

(314) يتعلق الأمر بالعمود الذي يحمل الشراع اللاتيني.

Nouveau glossaire nautique d'Augustin Jal, I, Paris-La Haye, 1970, p. 30.

(*augmentais*) التي منها اثني عشر حبلا جديدا، واثني عشر حبلا لربط السفن (*grouillis*)، وأربعة *mollis gropialum novorum* ، وخمسة أشرعة قطنية جديدة، وأشياء أخرى للاستعمال. جهّزت أيضا بقاربين واحد بارسكالمو (*pariscalmo*) [315]، وآخر بمجاديف. كان للمركب خمسون بحارا لخدمته، منهم ثمانية قواّسين (*balustrai*)، ومرشدين (*nauclerii*) وقبطان. وصل مجموع الحمولة إلى 3000 قنطار، موزّعة بين التجار[316]. في نفس السنة، ذهب ناف آخر، وهو الستيلا (Stella) ، بـ 5000 قنطارا مع خمسين بحارا منهم ستة قواّسين، باتجاه مالقة وسبته وبجاية[317]. وفي 1274، أجّر ناف بونافنتيرا (Buonaventura) – بطاقة استيعاب 2500 قنطار- في بيزا من أجل رحلة إلى بجاية ووصف العقد بدقة السفينة التي وعد بها التجار. يجب أن تكون في حالة جيدة (*bene conciam*)، ومغلقة الحزوز جيدا، وبها صواريان سليمان وصلبان، وعريشان، وثمانية كشافات، وسبعة عشر حبلا منها اثنان جديدان، وخمسة عشر مرساة، وقارب بريسكالمو (*pariscalmo*) وقارب قندولا (*gondola*). خدم السفينة ستة وثلاثون رجلا مسلحين بكفاية، منهم الربان، والكاتب وأيضا ستة خدام "عمال" (*familias sive fanti bus*)[318]. وأخيرا في نهاية القرن، تبيّن وثيقة مرسيلية ناف سانتا ماريا

---

(315) Du Cange (*Glossarium mediae et infimae latinitatis*, Niort, 1883-1887, rééd. anast. Graz, 1954, V, p. 29)
يشير ديك انج فقط إلى كونه نوعا من المراكب. يتعلق الأمر هنا بوضوح بقارب موجه للتنقل بين السفينة والساحل. توضّح الوثيقة أنّ لهذا القارب (*barca*) طاقمه والمجاديف. يقول بجولوتي أنها واحدة من الأسماء التي استعملت للدلالة على البكول. « piccole barche e piccole vaselle che conducono le mercatantie da uno paese a un altro ». Pegolotti, p. 17 لكن يتحدث نفسه بالنسبة لنابولي على استعمالهما لنقل السلع إلى المراكب. *Ibid.*, p. 187.

(316) ASG, min. 29, f. 149v (8/7/1253), éd. Byrne, *Genoese Shipping*, *op. cit.*, p. 112-113.

(317) ASG, min. 29, f. 164r (20/7/1253), éd. *Ibid.*, p. 120-124, et analyse détaillée du document p. 45-46.

(318) درس هذه الوثيقة كل من:=

(Santa Maria) الميورقية بظهرين مع ستة وعشرين بحارا وستة عمال (*serviciales*)، والتي أجّرت باتجاه بجاية ب 1500 قنطار[319]. تبيّن هذه الأمثلة أنّ الناف كانت لها طبعا طاقة كبيرة، لكن لم تكن لها قياسات هامة مثل التي نجدها على سبيل المثال في تجارة جنوه الشرقية[320].

حدث تغيير أساسي بين نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر مع اتخاذ الشراع المربعة مكان الشراع اللاتينية لهذه العمارات الكبيرة، ثم دمج لهذين النوعين من الشراع[321]. في بداية القرن الرابع عشر، تطور في البحر المتوسط عنصر آخر من هذه "الثورة الملاحية"، دفّة قيادة السفينة المثبّتة في وضعية محورية عوضا عن حجر الدفةّ الجانبي[322]. في جنوه، يرمز ظهور هيكل السفينة (*coca*[323]) بشكله المربع، عوضا عن محور الدولاب اللاتيني لهذا التغيير بداية من سنوات 1290[324]. وشكّلت أفضلية للمناورة بطاقم منخفض أكثر، وحفاظا على قدرات استيعاب هامة. وسمحت إذن بأرباح محسوسة من الإنتاجية، وانخفاض في تكاليف النقل، وهذا ما يفسّر تفضيلها في الحمولات المزاحمة والثقيلة.

=L. de Mas-Latrie, « Charte de nolisement de l'an 1264 pour un voyage de Pise à Bougie », *BEC*, 2e série, 4, 1847-1848, p. 244-256, repris dans Id., *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-Âge*, Paris, 1866, p. 38-43. Il a été réédité, avec la date de 1274, par G. Caetani, *Varia. Raccolta delle carte più antiche dell'Archivio Caetani e Regesto delle pergamene del fondo pisano*, Cité du Vatican, 1936, p. 12-14.

(319) AM, 2II 62, 6/10/1297.

(320) Balard, *La Romanie*, *op. cit.*, p. 562-563.

تصل قدرات استيعاب النافات الجنوية حتى 8000 قنطار. Byrne, *Genoese Shipping*, *op. cit.*, p. 5.

(321) Tangheroni, *Commercio e navigazione*, *op. cit.*, p. 189.

(322) *Ibid.*, p. 190-191 ; Pryor, *Geography*, *op. cit.*, p. 39.

(323) تسمى أيضا *navis-coca* ، كانت الكلمتان مترادفتين في النصف الثاني من القرن الرابع عشر. Balard, « Assurances », art. cité, p. 277.

(324) Balard, *La Romanie*, *op. cit.*, p. 555-557.

ففي 1339، حمل مركب (*coca bayonesca*) لرئيس جنوي 130 مويد من ملح إبيزا (Ibiza) إلى بجاية[325]. وفي 1348، أجّر كوم دو أنفوسيس (Côme de Anfusiis) مركبه القديسة ماريا دو سبلكرو (Santa Maria de Sépulcraux) لنقل ملح إيراس (Hyères) إلى بجاية، وتوضّح الوثيقة أنّ له غطاءان وحجرة محورية، ويخدمه خمسة وأربعون بحارا بما في ذلك الربان وصاحب المركب[326]. كما بالنسبة للناف في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، لم تصل المراكب إلا استثناءً الأحجام الكبيرة. كان البعض منها أيضا متوسطا جدا، على غرار سفينة ميورقية أجّرت في 1358، مع طاقم من خمسة رجال، لحمل الملح من إبيزا إلى بجاية[327]، أو في نفس السنة، سفينة جيلام سابي (Guillerm Sadet) ، التي خدمها ثمانية بحارة، لربط إبيزا بالقل وبجاية أو دلس[328]. لكن في الغالب، استمّر في استعمال مصطلح ناف (nef) للدلالة على هذه المراكب ذات الشراع المربعة أو المختلطة[329]. كانت الناف الكتالانية والميورقية – كثيرة العدد دائما من هذا النوع إلى غاية نهاية القرن الخامس عشر، حيث أدمجت تحولات بداية القرن الرابع عشر[330]. نجدها غالبا على طريق بجاية. ففي 1405، أجّر أرنو فونت (Arnaud Font) نافه القديسة ماريا (Santa Maria) بطاقم من ستة عشر

(325) ARM, AH 1, f. 279v (1339), cité par J.-Cl. Hocquet, « Ibiza, carrefour du commerce maritime et témoin d'une conjoncture méditerranéenne (1250-1650) », *Studi in memoria di Federigo Melis*, I, Naples, 1978, p. 498.
يساوي المويد (*mondin*) إذن 1670 كلغ. *Ibid.*, p. 497.

(326) ASG, min. 233, f. 219v-220r (13/6/1348).

(327) Arxiu Capitular de Mallorca, *Protocolos* 14584, f. 127v (6/7/1358), cité par López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 477.

(328) Id., f. 62r (9/4/1358), cité *ibid.*, p. 451.

(329) هي أيضا حالة جنوة في القرن الخامس عشر. Heers, « Types de navires », art. cité, p. 111

(330) حول النافات الكتالانية والميورقية، أنظر خصوصا:
Del Treppo, *I Mercanti catalani*, *op. cit.*, p. 447-450 ; Carrère, *Barcelone*, *op. cit.*, p. 280-282 ; López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 269-298.

شخصا للمناورة وعشرة بحّارة وستة خدام"عمال"[331]. وفي 1450، أجّر ناف بطاقم من أربعين رجلا باتجاه بجاية[332]. وأخيرا في 1460، غادر ناف برينجر إسارن السرقسطي (Bérenger Iseran de Saragosse) ميورقة إلى برشلونة وإبيزا بأربعين بحارا وخادما، حيث حمل الملح إلى ميورقة وبجاية والجزائر[333].

إلى جانب هذه الناف والكوك، ضمنت عدة سفن بحجم أقل الروابط مع بجاية. لمركب البكيوس *(bucius)* -الذي نلاقيه في عدة عقود في القرنين الثاني عشر والثالث عشر[334]- معنيين مختلفين: معنى "نوع من المراكب غير معروف جيدا من عائلة السفن الشراعية" أو مقترن بكلمة *navis*، بمعنى "نوع من سفن الشحن"[335]. في وثائقنا، يستعمل أحيانا وحيدا أو تحت صيغة *bucius navis* ou *bucius de ascherio* (ou *ascharis*). ربما كان البعض منها، غير معروف، مراكب بمجاديف من نوع السفن الشراعية، لكن من المحتمل أنها كانت مراكب قريبة من الناف. في وثيقتين لعام 1264، هي مسألة مركب القديس جيوفاني (San Giovanni) الذي غادر إلى بجاية، حيث اعتبر تناوبا *bucius* و *navis*[336] *ligno vel nave*. كانت أحجامها دائما متواضعة[337]، مثل ما في

(331) ARM, A. Costanti, 1403-5, f. 144r (4/9/1405), cité par López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 458.

(332) ARM, P. 2507, f. 21 (29/1/1450), cité par Vaquer, « Navegació i comerç », art. cité, p. 96.

(333) ARM, P. 2521, f. 187-188v ; P. 2516, f. 13v (21/1/1462), cité *ibid.*, p. 104.

(334) آخر إشارة بتاريخ 1276، مع عدة مراكب حاملة لحبوب صقلية إلى بجاية.
Archivio di Stato di Napoli, *Registri Angioini*, vol. XXII, f. 172r-173v (10/6/1276), éd. N. Nicolini, *Codice diplomatico sui rapporti veneto-napoletani durante il regno di Carlo I d'Angiò*, Rome, 1965, n° 153 ; pour Gênes on en rencontre jusqu'en 1268. ASG, min. 55/I, f. 179v (15/2/1268).

(335) *Nouveau glossaire nautique*, *op. cit.*, p. 164.

(336) ASG, min. 61, f. 18r (5/3/1264).

العقد الأول نشره أ. فيريتو:=

1257 مع بكيوس نافيس *bucius navis* بصاريتين، وحجرتين واثني وثلاثين بحارا[338]، وهذا ما يجعل منه مركبا غير مختلف كثيرا عن الناف التي رأيناها سابقا. أيضا في 1262، خدم مركب *bucius de ascharis*[339] القديس جيوفاني (San Giovanni) ثلاثة عشر بحارا، وثلاثة خدام "عمال"وربان واحد (*nauclerius*)، حيث نصّ على حمولة من 500 إلى 1000 بوندي بالبندي البجائي [340]. وفي 1253، أعطى مركب القديس فرانشيسكو *bucius de ascharis* San Francesco في طلبية بقيمة إجمالية قدرت بـ 648 ليفر و11 سو[341]. دوّن كرودجر (Krueger)، بالنسبة للنصف الأول من القرن الثاني عشر، عدم العثور على هذا المركب إلا في الرحلات المحدودة (صقلية، إسبانيا، بجاية)، وعدم العثور عليه أبدا بالنسبة للمشرق[342]. لكن نجده أحيانا في القرن الثالث عشر على طرق رومانيا[343].

=A. Ferretto, *Documenti intorno alle relazioni fra Alba e Genova (1141-1270)*, *Biblioteca della Società storica subalpina* (Pignerol), 22, 1906, n° 304.

(337) Balard, *La Romanie*, *op. cit.*, p. 561-562.

(338) ASG, not. ign., *busta* 3, fr. 35, f. 28v (9/2/1257).

(339) لا توجد هذه الكلمة في قاموس مصطلحات جال (*Glossaire* de Jal)، ولم أجد بما تعلق الأمر.

(340) ASG, min. 71, f. 129r (25/11/1262).

(341) ASG, min. 29, f. 54r, 61r (25/4/1253).

(342) Krueger, *Navi*, *op. cit.*, p. 27.

(343) Balard, *La Romanie*, *op. cit.*, p. 561. اختفى بعد 1275

نجد اللوح (Le Linh, *lignum*) في بجاية بداية من القرن الثالث عشر قادما من سافون[344]، وبرشلونة[345]، وجنوة[346]، وبيزا[347]، وميورقة[348]، بلنسية[349] كان واحدا من المراكب التي ترددت بكثرة انطلاقا من ميورقة خصوصا في القرن الرابع عشر وإلى غاية حوالي 1410. يدل هذا الاسم دون شك على سفن مختلفة الأحجام، أقل من الناف والكوك. كان البعض منها متواضعا جدا، مثل سفينة بربينيوس فورستر (Perpinianus Forster)، التي عدد خدمها طاقم من خمسة بحارة منهم الربان توماس كتالا (Thomas Catala)[350]. كان

(344) D. Puncuh, éd., *Il Cartulario del notaio Martino, Savona, 1203-1206*, Gênes, 1974, n° 362 (18/11/1203).

نقل لوح سافون الذي خدمه تسعة رجال، الملح إلى بجاية.

(345) Archivo de la Catedral de Barcelona, Diversorum C(d), *capsa* 8, n° 132 (11/9/1213), éd. A. Garcia i Sanz, M. T. Ferrer i Mallol, *Assegurances i canvis maritims medieval a Barcelona*, Barcelone, 1983, n° 5, p. 308-309 ; Archivo de la Catedral de Barcelona, Diversorum, *caja* 24, n° 3338 (15/4/1254), éd. Sayous, *El mètods comercials*, *op. cit.*, n° 16, p. 155-156.

(346) AG, III, p. 151 (1244) ; ASG, min. 61, f. 245v (28/1/1261) ; ASG, min. 70, f. 6r (18/7/1271).

(347) AG, III, p. 162 (1245).

(348) ARM, P., *Contratos civitatis et Partis foranae*, 343, f. 160 (12/4/1247), éd. Santamaría Arández, *Ejecutoria*, *op. cit.*, n° 35, p. 619-620. Plusieurs départs de linhs de Majorque en 1284 : par exemple ARM, RP 1105, f. 2r-v (25/1/1284), éd. Riera Melis, « La llicencia per a barques », art. cité, p. 121-140.

(349) P. Gulotta, éd., *Le Imbreviature del notaio Adamo de Citella a Palermo (2° registro, 1298-99), Fonti e Studi del corpus membranarum italicarum, ser. 3, Imbreviature matricole statuti e formulari notarili medievali*, 2, Rome, 1982, n° 283 (16/3/1299).

أجّر عدة تجار كتالانيين وبلنسيين اللوح ذا الظهر الذي هو للبلنسي برناردو برفات (Bernardo Perfette) إلى بلرم لنقل القطن إلى بجاية.

(350) ARM, P., A. Costanti, 1409, f. 99v (2/7/1409), cité par Macaire, *Majorque et le Maghrib*, *op. cit.*, p. 95.

بالإمكان تشغيلها بالشراع والمجاديف، مثل اللوح المجهّز بثمانية عشر مجدافا وعلى متنه 21 شخصا، الذي أجّره بارنات مارت (Bernat Marti) إلى بجاية في 1359[351]. نرى ظهور ألواح أورلو *(orlo)* أو بونديس *(bandis)* في المادة الوثائقية. الأول منصوص عليه بين 1336 و1402 بالنسبة للمراكب الميورقية الذاهبة إلى بجاية، حيث اشتغلت بالشراع[352]، بينما كان النوع الثاني أقل ترددا[353]، وهو مزود بمجاذيف منها مجذاف في كل منصة[354]. لكن في جنوة، دلّ أيضا على مركب صغير شراعي، مختلف تقريبا عن لوح أرلو. كان باستطاعته نقل حمولات متواضعة تتراوح ما بين 30 إلى 100 طن متري[355]. هو مركب من هذا النوع الذي يظهره عقد كراء بحري بتاريخ 1359، لوح بنديس ميورقي بستة رجال فقط لخدمته[356].

ينص على الطريدة في بجاية بين 1242 و1336[357]، التي لها أيضا أحجام متوسطة[358]. حسب الحالات، يتعلق الأمر بمركب بمجاذيف أو بشراع. ففي

(351) Arxiu Capitular de Mallorca, *Protocolos* 14585, f. 121v (24/7/1359), cité par, López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 453.

(352) *Nouveau glossaire nautique*, *op. cit.*, p. 1119.

(353) على سبيل المثال: ARM, RP 3826, f. 147v (16/8/1403)

(354) *Nouveau glossaire nautique*, *op. cit.*, p. 1119.

(355) Balard, *La Romanie*, *op. cit.*, p. 558 ; Id., « Navigations génoises en Orient d'après des livres de bord du XIVe siècle », *Académie des Inscriptions et Belles-Lettres. Comptes rendus des séances de l'année 1988*, Paris, 1988, p. 783.

(356) Arxiu Capitular de Mallorca, *Protocolos* 14585, f. 284r-v (11/1/1359), cité par López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 452

(357) بصفة عامة، اختفت من التجارة المتوسطية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر.

Hocquet, *Voiliers*, *op. cit.*, p. 103. Sur ce navire, voir M. Balard, J.-Cl. Hocquet, J. Hadziiossif, H. Bresc, « Le transport des denrées alimentaires en Méditerranée à la fin du Moyen Âge », *Maritime Food Transport*, dir. Kl. Friedland, Cologne, 1994, p. 117-120.

جنوة، كانت سفينة بمجاذيف، حيث باستطاعتها نقل حمولات تصل حتى 150 طن متري في نهاية القرن الثالث عشر[359]. وفي البندقية على العكس من ذلك هو مركب دائري قريب من الناف، موجه لنقل السلع الضخمة والوضيعة"الخفيفة"[360]. فعلى سبيل المثال في 1300، أجّر بون إستاف المرسيلي (Pons Esteve de Marseille) طريدته سان سوفور (القديس المنقذ (Saint-Sauveur) إلى القل وبجاية وجيجل. خدمها تسعة عشر بحارا وأربعة أطفال، وهذا ما يشير إلى أنه مركب متوسط[361].

إنّ تفحص الحمولات إذا ما كان ممكنا، يبيّن بالأساس منتجات للوزن مثل الملح[362] والحبوب[363] والشب[364].

ظهر القارب *(barca)* في نهاية القرن الثالث عشر في جنوة[365]، ولكنه استعمل خصوصا في ميورقة في القرن الرابع عشر. كان البعض منها مزوّد على

---

(358) إذا ما اعتبرنا رخص تصدير الحبوب التي أعطيت لنابولي في 1276 لمختلف المراكب، نلاحظ أن الطرائد حملت بمعدل 266 سالمي مقابل 307 ل *buccii* les، و366 ل *vasselli* les، وخصوصا 906 سالمي للنافات. أنظر:

Nicolini, éd., *Codice diplomatico, op. cit.*, n° 153 (24/7/1276), 160 (4/12/1276).

(359) Balard, *La Romanie, op. cit.*, p. 560.

(360) Hocquet, *Voiliers, op. cit.*, p. 103.

(361) ADBR, 381E 4, f. 32v-33r (30/10/1300) ; AM, 1II 6, f. 51r-52r (id.).

تعطي الوثيقة الثانية طاقمًا من خمسة عشر بحار فقط.

(362) ARM, Guiatges 1, f. 88v-89r (12/5/1336).

(363) Archivio di Stato di Palermo, not. Bartolomeo de Citella, f. 434v (13/8/1309), éd R. Zeno, *Documenti per la storia del diritto marittimo nei secoli XIII e XIV*, Turin, 1936, p. 164-165 ;=

أيضا ثلاث رخص منحت في نابولي في 1276 لنقل الحبوب إلى بجاية على متن الطرائد.=

= éd. Nicolini, *Codice diplomatico, op. cit.*, n° 153 (24/7/1276).

(364) ASG, min. 109, f. 4v (8/11/1272), 46r (17/6/1273).

(365) ASG, min. 96, f. 54r (10/6/1270).

غادر أكاردو سردينا (Aicardo Sardina) على قاربه الذي خدمه ثلاثة عشر رجلا (بما في ذلك هو) إلى بجاية ثم ميورقة.

الأقل بمجاذيف، مثل الذي أجّرته جوليا أولزينا (Julia Olzina) في ميورقة في 1369، وهو قارب مدعّم بثمانية عشر مجذافا وتسعة عشر رجلا على متنه، حيث وجب عليه الذهاب إلى دلس وبجاية(366). إذن هي أيضا سفينة بأحجام متواضعة وبطواقم غير هامة كثيرا.

كانت الأنواع الأخرى من المراكب نادرة. ظهر البنفيل (Le panfile) في النصف الثاني من القرن الرابع شعر، للأسطول الميورقي بالأساس. في جنوة في نفس الفترة، كان مركبا للحمولة بأحجام مذهلة، تقارن بالكوكات (coques)(367). إنّ البلنار (Le *balaner*) الذي نجده خصوصا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، كان قريبا من الناف(368). ففي 1459، كان كل من بيري أملار (Perré Ameller) وبيري بجول (Perré Pujols) صاحبا مركبين بلارنين، واحد بخمسين رجلا، والآخر بخمسة وأربعين، اللذين ساقهما إلى الجزائر، وبجاية، وبونة، وتونس(369). في السنة الموالية، ذهب البرشلوني جيلام لومبارت (Guillem Lombart) بمركبه بلنار القديسة ماريا (Santa Maria) مع طاقم من ثلاثين رجلا(370). ظهر الكارفال (caravelle) في فترة متأخرة في 1440(371)، حيث كانت طاقة استيعابه مماثلة لطاقة السفن التي ظهرت حتى تلك الفترة. ففي 1491 في بلنسية على سبيل المثال، أجّر بيري ريبالتس (Pere Ribesaltes)

(366) Arxiu Capitular de Mallorca, *Protocolos* 14585, f. 84r-v (9/4/1359), cité par López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 453.
أنظر أيضا: *id.*, f. 143v (12/8/1359). الباركة مجهّزة بإثني عشر مجداف وستة رجال.

(367) Balard, *La Romanie*, *op. cit*., p. 559.

(368) Dufourcq, *La Vie quotidienne*, *op. cit.*, p. 59 ; Heers, « Types de navires », art. cité, p. 117.

(369) ARM, P. 2520, f. 73-74v (17/3/1459), cité par O. Vaquer, « Comerç i capital mercantil a Mallorca (1448-1480) », *La Mediterrània. Antropologia i història*, Palma, 1990, p. 166.

(370) ARM, P. 2521, f. 54v-56 (24/3/1460), cité par Vaquer, « Navigacio i comerç », art. cité, p. 101.

(371) ARM, guiatges 8, f. 16v (2/6/1440).

كارفال لانجال (caravelle l'Angel) مع طاقم من عشرين رجلا بحمولة بـ 1500 قنطار، بعثت في رحلتين إلى بجاية[372]. في نفس السنة، أجّر مركب القديسة ماريا دو غراثيا (Santa Maria de Gracia) الذي يخدمه خمسة عشر رجلا إضافة إلى ربانه، في رحلة نحو الوجهة ذاتها[373]. وأخيرا، في 1492، كان لمركب كرفال أنتوني جوهان (Antoni Johan) طاقم من أربعين شخصا[374].

ضمنت أغلب المراكب الروابط مع بجاية، وكانت إذن ذات أحجام متوسطة، مع بعض الاستثناءات[375]. اشتغلت أساسا بالشراع، حتى وإن كان للبعض منها نظام المجاذيف.

كانت في المقابل السفن الشراعية التجارية نادرة[376]. إنّ هذه "السفن الضخمة" للاستعمال التجاري، كانت مراكب هامة، خصوصا في أسطولي البندقية وفلورنسا في القرن الخامس عشر[377]. ففي 1313، حملت سفينة القديسة ماريا (Santa Maria)من جنوة إلى بجاية 3000 إلى 4000 مين جنوي من شعير سردينيا[378]. وفي 1350، غادرت سفينة سيموني لومليني (Simone

(372) ARV, P., Rg. 2007, f. 161v-163v (14/3/1491).

(373) Id., f. 454v-456r (29/7/1491).

(374) ARV, P., Rg. 2009, f. 315r-316v (22/6/1492).

سميت هذه السفينة fuste في نفس الوثيقة.

(375) وضع فديريجو ميلس (Federigo Melis) معاينة مماثلة بداية من أرشيفات شركة داتيني دو براتو لرحلات باتجاه المغرب.

F. Melis, « Werner Sombart e i problemi della navigazione nel Medio Evo », *Biblioteca della rivista Economia e storia*, 8, 1964, rééd. *I Trasporti e le comunicazioni nel Medioevo*, Prato, 1984, p. 21.

(376) ظهرت في جنوة والبندقية في نهاية القرن الثالث عشر. Pryor, *Geography*, *op. cit.*, p. 43

(377) Heers, « Types de navires », art. cité, p. 109.

(378) ASG, min. 77, f. 212v-214r-v (13/6/1313).

في 1311 كان مين (La mine) جنوة يساوي 105،7 ليتر.

P. Rocca, *Pesi e misure antiche di Genova e del Genovesato*, Gênes, 1871, p. 109.

(Lomellini) جنوة إلى بجاية بطاقم من ستة وعشرين رجلا[379]. نجدها أيضا انطلاقا من مرسيليا وميورقة وبرشلونة وبلنسية. ففي 1443، غادر لويس بلونش (Lluis Blanche) بشانيته التجارية الكبيرة ذات المائة والخمسين مجذافا إلى ميورقة والجزائر وبجاية وتونس،حيث التحق بسفينة بندقية أخرى كبيرة، حيث تابع معها نحو طرابلس ورودس والأسكندرية[380]. لكن النظام الذي وصل إلى الأفضل هو نظام الشواني البندقية. فبداية من 1436، نظّم مجلس شيوخ البندقية رحلات سنوية نحو المغرب. الخط البحري باتجاه بلاد البربر (*muda*)، التي استمرت إلى غاية نهاية القرن الخامس عشر، سمحت بتطوير تجارة البندقية على طول سواحل المغرب[381]. أنشأ نظام مماثل في فلورنسا بداية من 1445، لكن بأقل نجاح[382]. كانت لهذه السفن التجارية الكبيرة – التي سافرت في مواكب ومسلّحة جيدا- طاقات حمولة هامة، مع احتفاظها بأفضلية سرعة ومناورة الشانية[383].

(379) ASG, min. 331/I, f. 228r-v (19/5/1350).

(380) ARV, P., Rg. 796, f. 26v-30v (8/1/1443) ; cf. E. Cruselles, « La organización del transporte marítimo en la Valencia de la primera mitad del siglo XV », *AEM*, 24, 1994, p. 155-177.

(381) A. Tenenti, C. Vivanti, « Le film d'un grand système de navigation. Les galères marchandes vénitiennes aux XIVe-XVIe siècles », *Annales ESC*, 16/1, 1961, p. 83-86 ; Doumerc, *Venise et l'émirat hafside, op. cit.*, p. 81-101 ; D. Stöckly, « Les premiers convois de galées commerciales vénitiennes en direction de la Barbarie au milieu du XVe siècle », *CT*, 155-156, 1993, p. 479-511 ; Ead., *Le Système de l'incanto des galées du marché à Venise (fin XIIIe-milieu XVe siècle)*, Leyde, 1995, p. 169-173, 188-191.

(382) Mallett, *The Florentine Galleys*, *op. cit.*, p. 73-74.

(383) Fr. C. Lane, « La marine marchande et le trafic maritime de Venise à travers les siècles », *Les sources de l'histoire maritime en Europe du Moyen-Âge au XVIIIe siècle, actes du IVe colloque international d'histoire maritime, Paris, 20-23 mai 1959*, Paris, 1962, p. 7-32 ; Id., *Venetian Ships and Shipbuilders of the Renaissance*, Baltimore, 1934, trad. *Navires et constructeurs à Venise pendant la Renaissance*, Paris, 1965 ; A. Sacerdoti,=

إنّ المراكب التي تنقلت إلى بجاية كانت إذن في الغالب ذات حجم متوسط، لكنها قادرة على نقل حمولات ثقيلة. لم يلمسها إذن فعليا التطور نحو الضخامة التي ميّزت الإنشاءات البحرية في نهاية العصر الوسيط[384]. يفسّر هذا خصوصا بقصر المسافات، التي جعلت تعدد الرحلات أمرا ممكنا خلال نفس السنة. من الصعب تحديد أوقات العبور، لأنها ترتبط بعدة عوامل سواء أكانت طبيعية أم بشرية[385]، لكنها كانت في الغالب قصيرة جدا. بالنسبة للقرن الثاني عشر، احتسب هيلمار كرودجر (Hilmar C. Kreuger) العبور من أربعة عشر إلى ستة عشر يوم من جنوة إلى بجاية في الظروف العادية[386]. ولاحظ شارل إيمانوال ديفور تنوع وقت الملاحة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، بين تسعة وعشرة أيام للرحلة بين ميورقة وبونة، وأحيانا ثلاثة أسابيع للذهاب من ميورقة إلى تونس[387]. وأخيرا، تبيّن وثائق أرشيف داتيني (Datini) مسيرات من يومين إلى ستة أيام لربط ميورقة بتونس أو الجزائر، وسبعة أيام للذهاب من تونس إلى بيزا أو جنوة[388].

=« Note sulle galere da mercato veneziane nel XV secolo », *Bollettino dell'Istituto di storia della società e dello stato veneziano*, 4, Venise, 1962, p. 83-86.

(384) M. Tangheroni, « Trasporti navali e commercio marittimo nell'Italia del Quattrocento », *La Penisola italiana e il mare. Costruzioni navali, trasporti e commerci tra XV e XX sec.*, dir. T. Fanfani, Naples, 1993, p. 35.

(385) لعبت ظروف الملاحة (الرياح والتيارات) دورا هاما وأدخلت تنوعات هامة حسب الفصول والاتجاهات المختارة. ساهمت التوقفات أيضا في تمديد وقت المسافة المقطوعة.

(386) Krueger, « The Routine of Commerce », art. cité, p. 429.

(387) Dufourcq, *L'Espagne catalane*, *op. cit.*, p. 47.

حسب مسافة الرحلة بمعدل يتراوح ما بين 40 إلى 80 ميل في اليوم.

(388) F. Melis, « La situazione della marina mercantile all'inizio dell'epoca enrichina : fattori tecnici ed economici di sviluppo », *Actas do Congresso internacional de história dos descobrimentos*, V, Lisbonne, 1961, rééd. *I trasporti e le comunicazioni nel Medioevo*, Florence, 1984, p. 115.

كانت تكاليف النقل منخفضة نسبيا، بسبب الحجم المنخفض للطواقم والمسافات وثمار الإنتاجية المتحصّل عليها نتيجة تقدّم التقنيات البحرية، والتي سمحت بمنافسة فعّالة للبحرية الإسلامية الموجودة، وخصوصا تطوير العلاقات التجارية المنتظمة والمفتوحة لكل التجار الكبار، وأيضا الفاعلين من الطراز المتواضع(389).

2) الأوساط التجارية المسيحية: تعبئة فئات المجتمع العريضة

كانت أوساط الأعمال التجارية التي على علاقة ببجاية في الواقع متنوعة جدا. نجد فيها على حد سواء المستثمرين والتجار المتنقلين، وفي الحالتين بمستويات متنوعة. لا يمكن إجراء دراسة شاملة لهؤلاء التجار الأوروبيين، بما أنّ المادة الخبرية غير متكافئة من ميناء إلى آخر ومن حقبة إلى أخرى. إنّ الرصيد الأكثر غنى هو رصيد جنوة إلى غاية نهاية القرن الثالث عشر، والذي سيستعمل كقاعدة أساسية في هذه الدراسة. سنتعلق في البداية بالفاعلين في التجارة الجنوية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، ثمّ في سنوات 1250. إنّ المعطيات المتوفرة بالنسبة للموانئ الأخرى – قليلة العدد- ستكمل هذه الصورة، خصوصا بالنسبة للفترات المتأخرة.

أ) جنوه، النصف الثاني من القرن الثاني عشر

"جنوي، إذن هو تاجر" كما يقول مثل قديم. في هذا الميناء الكبير، كان في الواقع قسم كبير من السكان معنيا بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالنشاط التجاري(390).

(389) Picard, *L'Océan atlantique*, *op. cit.*, p. 420.

حول تحسن الإنتاجية، أنظر خصوصا:

Fr. C. Lane, « Progrès technologiques et productivité dans les transports maritimes de la fin du Moyen Âge au début des Temps modernes », *Revue historique*, 510, 1974, p. 277-302, et notamment p. 287-292.

(390) R. S. Lopez, « Le marchand génois », art. cité, p. 17, 22.

ترك لنا خمسة موثقين جنويين وثائق في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. يتعلق الأمر بجيوفاني سكريبا [391] (Giovanni Scriban 1156-1180)، وأبرتو سكريبا دو مركاتو [392] (Oberto Scriban de Mercator 1179-1190)، وجيجليمو كاسيناسي [393] (Guglielmo Cassinesse 1191-1192)، وأوبرتو دو بلاسنتيا [394] (Oberto de Palecentia 1197-1198)، وبونفلانو (Bonvollano 1198)[395]. 128 عقدا يتعلق ببجاية، حيث تظهر حوالي 200 اسم متعامل، وتتوزع في خمسين طلبية، وحوالي خمسين شركة، وعشر عمليات صرف، وسبعة قروض بحرية وعقد كراء بحري. خلال سنوات 1156–1164 (عقود جيوفاني سكريبا)، كانت الشركات أكثر من الطلبيات[396]، في حين أنّ العلاقة انقلبت في نهاية القرن[397].

(391) Éd. M. Chiaudano, M. Moresco, *Il Cartolare di Giovanni Scriba*, Turin, 1935.

(392) Éd. M. Chiaudano, *Notai liguri dei secoli XII e XIII*, IV, *Oberto Scriba de Mercato 1186*, Gênes, 1940 ; M. Chiaudano, R. Morozzo della Rocca, *Notai liguri dei secoli XII e XIII*, I, *Oberto Scriba de Mercato 1190*, Gênes, 1938.

تجب أيضا إضافة بعض الوثائق المعزولة غير المنشورة إلى حد الآن لنفس الموثق.

ASG, *Manoscritti* 102 (1179) ; ASG, not. ign., *busta* 1, doc. 1 (1180) ; ASG, min. 2 (1182-1184).

(393) Éd. M. W. Hall-Coll, H. C. Krueger, R. L. Reynolds, *Notai liguri dei secoli XII e XIII*, II, *Guglielmo Cassinese, 1190-1192*, Turin, 1938.

(394) ASG, min. 56 ; ASG, *Manoscritti* 102.

(395) Éd. J. E. Eierman, H. C. Krueger, R. L. Reynolds, *Notai liguri del sec. XII*, III, *Bonvillano (1198)*, Turin, 1939.

(396) ثمانية عشر عقد شركات، وتسع طلبيات، وتضاف إليهم العقود التي تظهر تاجر يحمل سلع مستثمر دون فائدة معلنة، والقروض البحرية وعمليتي صرف.

(397) سبعة وعشرون شركة لثلاث وأربعين طلبية، وأيضا سبعة قيود تدمج النوعين من العقود. نفس المعاينة أقامها بلار بالنسبة لتونس.

M. Balard, « Notes sur le commerce génois en Tunisie au XIIIe siècle », *CT*, 155-156, 1991, p. 373.

أول ملاحظة هي غياب تخصص التجار[398]. من جهة أخرى، نادرا ما يعود اسم لسنتين متتاليتين، واستثنائيا أكثر من سنتين. طبعا، لم يحتفظ بكل الوثائق، لكن الانطباع الذي يستخرج هو المتعلق بالمستثمرين المتوسطين والتجار المناسباتيين. يؤكد هذه المبالغ الضعيفة الملتزم بها.

جدول 24: الاستثمارات الجنوية المتوسطة (بالليفر) باتجاه المغرب والمشرق (1161-1158)[399]

	بجاية	سوريا	الأسكندرية	تونس	سبتة
1158	49،90	189،54	105،53	49،90	0
1160	104،12	284،33	102،21	60	88،75
1161	62،66	254،62	117،28	0	77،98

إنّ المبالغ المستثمرة في بجاية هي إذن مشابهة لتلك التي نجدها في سبتة وتونس في نفس الفترة، لكنها تقل عن الأعمال التجارية في سوريا أو في مصر. يسمح توزيع العقود حسب المبالغ الملتزم بها بهذه المعاينة:

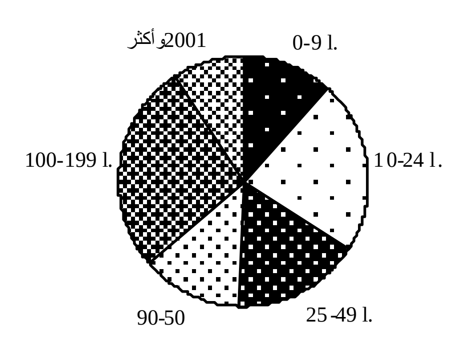
(398) ليس هناك ميزة خاصة ببجاية. أنظر:
A. Sapori, « Il commercio internazionale nel Medioevo », *Studi di storia economica*, I, Florence, 1955, p. 523.

(399) Calculs de D. Abulafia, *The Two Italies: Economic Relations between the Norman Kingdom of Sicily and the Northern Communes*, Cambridge, 1977, p. 111-119.

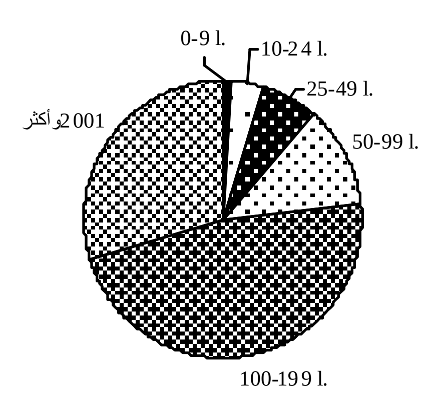
جدول 25

الاستثمارات في بجاية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر[400]

رأس المال المستثمر	عدد العقود		المبالغ الإجمالية	
9-0	9	11,7%	47 l. 16 s. 6 d.	%0,7
24-10	17	22,1%	250 l. 4 s. 1 d.	%4
49-25	13	16,8%	430 l. 16 s.	%6,8
99-50	10	13%	737 l. 10 s. 6 d.	%11,7
199-100	21	27,3%	2969 l. 18 s. 6 d.	%47
200 وأكثر	7	9,1%	1880 l. 15 s.	%29,8
المجموع	77		6317 l. 7 d.	



التوزيع حسب عدد العقود



التوزيع حسب القيمة

من حيث القيمة، تمثل العقود الكبيرة – أكثر من 100 ليفر- أكثر من ثلاثة أرباع الاستثمارات. لكن العمليات المتوسطة (بين 10 و100 ليفر) هي السائدة من حيث عدد العقود. لكن يجب تحليل هذه النتائج العامة جدا بالنظر بدقة إلى الأوساط التجارية المهتمة بسوق بجاية، وذلك لفهم تركيبة هذه التجارة.

كانت العائلات التجارية الكبرى غائبة تقريبا عن التجارة البجائية، لكن عندما نلاقيها، فهي من أجل الاستثمارات الهامة. فقد استثمر إنجو دلا فولتا (Ingo d'Ella Volta) وأبيزوني دي أميكو كليريكو (Opizone di Amico Clerico)، اللذان شكلا شركة- 128 ليفر ونصف إلى بجاية في 1160، وهو المبلغ الوارد من أرباح رحلة إلى ما وراء البحر[401]. أربع سنوات بعد ذلك، أعطى أبناء المرحوم جيجليومو دلا فولتا (Guglielmo d'Ella Volta) طلبية إلى

(400) لم تؤخذ بعين الحسبان إلا العمليات في ميناء بجاية لوحده. إنّ العلميات التي تتضمن رحلة معقدة أكثر بعدة وجهات لم تؤخذ بعين الاعتبار. من بين سبعة عقود تنص على رحلة إلى المشرق وبجاية، ستة كانت ذات استثمارات تفوق 100 ليفر.

(401) Giovanni Scriba, n° 741 (26/8/1160).

إيجو سكوتو (Ugo Scotto) بـ 100 ليفر لحملها إلى الأسكندرية ومن هنا إلى بجاية وسبتة والغرب أو إسبانيا (الأندلس). في عودته، وجب على إيجو سكوتو تسليم رأس المال والفوائد إلى إنجو دلا فولتا[402]. كان هذا الأخير نشطا خصوصا في أسواق المشرق: بين 1156 و1164 استثمر ما مجموعه 9031 ليفر إلى الأسكندرية، و2077 إلى القسطنطينية[403]. لم تكن بجاية إذن بالنسبة له إلا تكملة صغيرة، من المحتمل مرحلة على طريق العودة من مصر. ففي 1156، عقد أخوه جيجليومو بيروني[404] (Guglielmo Burone)، شراكة مع إدوني ريكا (Idone Rica)، لنقل 200 ليفر إلى بجاية[405]. سنتان بعد ذلك، استثمر أيضا 364 ليفر وإدون ملوني (Idone Malone) 128 ليفر (زائد 8 ليفر التي سيحتفظ فيها بمجموع الفوائد). حول هذه الشركة، سيحمل 58 ليفر ونصف إلى بجاية، والباقي إلى ما وراء البحر[406]. وفي 1160، أعطى الرجلان – شريكان دائما- طلبية إلى جيجليومو سريولو (Guglielmo Ciriolo) وأجوني إيلي (Ugone Elie) بـ 200 ليفر إلى الأسكندرية، ومن هنا كان للتاجرين حرية الذهاب حيثما وجدا الأفضل خصوصا إلى بجاية[407]. شكّل في نفس السنة جيجليومو بيروني شركة مع حفيد أتون دو كستلو (Otton de Castillo)، واستثمرا 100 ليفر في رحلة إلى المشرق والمغرب. من بين المراحل الممكنة، تذكر الوثيقة القسطنطينية وكريت والأسكندرية وبجاية وإسبانيا وبروفانس وجنوه والإسكندرية من جديد[408]. على غرار حالة إنجو دلا فولتا، اندمجت بجاية بالنسبة

(402) Giovanni Scriba, n° 1276 (11/8/1164).

(403) E. H. Byrne, « Genoese Trade with Syria in the Twelfth Century », *American Historical Review*, 25/2, 1920, p. 202-204.

(404) E. Bach, *La Cité de Gênes au XIIe siècle*, Copenhague, 1955, p. 109.

(405) Giovanni Scriba, n° 59 (16/4/1156).

(406) *Ibid.*, n° 401 (27/6/1158).

(407) *Ibid.*, n° 705 (28/7/1160).

(408) *Ibid.*, n° 752 (27/8/1160).

إليه في الفلك المشرقي أساسا. من جهة أخرى، كان جيجليومو مشاركا كثيرا في الأعمال التجارية في ساحل بلاد الشام. كان صليبيا ونائبا في سوريا لصالح جمهورية جنوة، وكان قنصلا عدة مرات. توسعت استثماراته إلى الدول اللاتينية والقسطنطينية وفرنسا وإسبانيا وسبته[409]. منتميا لنفس الوسط، حمل جيجليومو فونتو (Guglielmo Vento) بواسطة بونجيوفاني سكريبا (Buongiovanni Scriban) ستة سنتناريا من الفلفل و85 ليفر إلى بجاية[410]. كانت له أعمال تجارية هامة خصوصا في سوريا والأسكندرية، وموزعين في سردينيا وصقلية وإسبانيا. كان أيضا قنصلا وسفيرا عدة مرات[411]. انتمى كل هؤلاء الرجال إلى نخب المدينة السياسية والاقتصادية. وشاركوا في المؤسسات البلدية ومارسوا شبه احتكار للتجارة الشرقية، على الأقل في سوريا اللاتينية[412].

في النهاية، ظهر شخص أخير، هويته هي محل جدال. يتعلق الأمر بـ بلانكاردو (Blancardo). ففي 1160، استثمر 104 ليفر في شركة إلى بجاية مع بيونجوفاني لركاريو (Buongiovanni Lercario)[413]. وعهد في السنة الموالية إلى نفس الشخص بـ 80 ليفر، في حين وضع بيونجوفاني 40 ليفر[414]. سنتان بعد ذلك، أعطى طلبية بـ 40 ليفر إلى إبيزا وبجاية[415]، وفي 1164، شكّل شركة مع بيونجوفاني سكريبا (Buongiovanni Scriba)، حيث ورد قسم من أرصدته المالية من بيع 107 قنطار من الشب البجائي[416]. رأى أوجان بايرن (Eugene

(409) Byrne, « Genoese Trade with Syria », art. cité, p. 206 ; Bach, *La Cité de Gênes*, *op. cit.*, p. 109.

(410) Giovanni Scriba, n° 1222 (23/6/1164).

(411) Byrne, « Genoese Trade with Syria », art. cité, p. 207.

(412) *Ibid.*, p. 198 ; Bach, *La Cité de Gênes*, *op. cit.*, p. 57-58, 68-70.

(413) Giovanni Scriba, n° 639 (8/5/1160).

(414) *Ibid.*, n° 805 (1161).

(415) *Ibid.*, n° 1084 (28/8/1163).

(416) *Ibid.*, n° 1227 (28/6/1164).

(Byrne) في بلانكاردو هذا يهوديا مشرقيا[417]. وشكك بنيامين نلسون[418] (Benjamin Nelson) في هذه الفرضية، لكن ما هو أكيد هو مشاركته الكبيرة في تجارة بلاد الشام. فهو تدخل في عدة عقود كرأسمالي، بائع للقماش وله أعمال تجارية في سان جيل (Saint-Gilles)، ومنبيلييه (Montpellier)، وبيزا، وسالرن، وإشبيلية وسردينيا والأسكندرية[419].

تصرّف كل هؤلاء التجار كشركاء وكانت بجاية بالنسبة إليهم مرحلة في رحلاتهم المرتكزة أساسا على بلاد الشام. فقد ضمنوا روابط بين الجهات المسلمة في المشرق والمغرب وإعادة توزيع للمواد الشرقية مثل الفلفل، انطلاقا من جنوة. إنّ المبالغ التي دفعها كبار التجار هؤلاء كانت طبعا هامة، مماثلة للاستثمارات المتوسطة للجنويين ببجاية، لكنها لم تمثل دائما إلا قسما ضعيفا من أعمالهم التجارية[420].

(417) E. H. Byrne, « Easterners in Genoa », *Journal of the American Oriental Society*, 38/1, 1918, p. 181.

(418) B. N. Nelson, « Blancardo (the Jew ?) of Genoa and the Restitution of Usury in Medieval Italy », *Studi in onore di Gino Luzzatto*, I, Milan, 1949, p. 96-116.

(419) Byrne, « Easterners in Genoa », art. cité, p. 181.

درس أيضا أوجان هـ. بيرن (Eugene H. Byrne) دور سليمان السالرني (Soliman de Salerne) الذي اعتبره يهوديا أيضا، وكان قويا بالأسكندرية لمدة طويلة (حيث استقر كل سنتين تقريبا)، وكان مالكا شريكا لمركب قاده بنفسه إلى الأسكندرية في 1160. *Ibid.*, p. 179-180 .. في 1163، استثمر 120 ليفر في شركة باتجاه بجاية. Giovanni Scriba, n° 1111 (22/9/1163)

(420) H. C. Krueger, « Genoese Trade with North-west Africa in the XIIth Century », *Speculum*, 8, 1933, p. 387.

فقد استثمر جيجليومو بروني (Guglielmo Burone) حوالي 2500 ليفر في التجارة المتوسطية وكانت أعماله التجارية في بجاية ثانوية بالنسبة له. اعتبر هيلمار س. كرودجر (Hilmar C. Krueger) أن المخاطر السياسية كانت أكبر في المغرب من المشرق، والذي لم يكن تقريبا الحالة بالنسبة للفترة المعتبرة، التي هيمنت عليها قوة واستقرار الإمبراطورية الموحدية. يمنع غياب الوثائق من قياس أثر مغامرة بني غانية المرابطين على التجارة البحرية. في المقابل، هيلمار س. كرودجر على حق عندما أشار إلى تقلص السوق بالنسبة للعائلات الكبيرة. *Ibid.*, p. 388 .. أنظر:

Valérian, « Gênes, l’Afrique et l’Orient », art. cité, p. 830.

لكن كان وجود هؤلاء التجار بنسبة قليلة في التجارة المغاربية، لأن أغلب المتعاملين كانوا متواضعين. لا يجب في الواقع الأخذ بتجارة الشام كعرض وحيد، حيث راهنت خصوصا على رؤوس الأموال الهامة. إنّ المبالغ التي استثمرت في بجاية كانت طبعا قليلة أكثر، لكن بقيت رغم ذلك مرتفعة مقارنة بالمستوى العام للمعيشة(421). من الصعب دراسة هؤلاء المقاولين الصغار، لأنهم لم يبرزوا في المادة الخبرية إلا نادرا، ولم يتخللوا في بعض الحالات إلا في وثيقة (إذا ما أقصينا حضورهم كشهود). كانت الجماعة الأكثر أهمية والوحيدة التي يمكن الإحاطة بها بقليل من الدقة. هي إذن جماعة المتعاملين المتوسطين، حيث ستسمح بعض الأمثلة الإحاطة بها بالأفضل.

كان رولاندو دو كنيتو (Rolando de Caneton) صانع وتاجر الأجواخ والأنسجة القطنية وأنسجة الفرو بجنوه. اشترى منها كثيرا من تجار لمبارديا وفرنسا والفلوندر(422). أعاد تصدير هذه الأنسجة عبر البحر وعهد بها في طلبية وأحيانا بشراكة مع أردينو دو كنيتو (Ardu no de Caneton)، في عمليات خصّص فيها مبالغ متوسطة بصفة عامة، نادرا ما فاقت عشرين ليفر، وأحيانا أقل. كانت الوجهات متنوعة ونجد فيها على السواء كتالونيا ومسينا ونابولي وسردينيا وكرسيكا وتونس وسبتة والقسطنطينية. نراه مستثمرا في مرتين في تجارة بجاية. ففي 1200، واجهته قضية مع فيلانو أساسينو (Villa no Assassinons)، الذي كان قد حمل له ثلاث سنوات قبل ذلك أجواخا إلى بجاية

(421) يكفي من سبعة إلى عشر ليفر إذن لتغذية عائلة فقيرة جدا خلال سنة، وتكفي 18 ليفر لسد حاجيات عائلة ذات مستوى متوسط.

Bach, *La Cité de Gênes*, *op. cit.*, p. 99.

(422) حول أعمال هذا التاجر، أنظر:=

=M. Chiaudano, « Mercanti genovesi del secolo XII », *Ricerche storiche ed economiche in memoria di Corrado Barbagallo*, dir. L. di Rosa, II, Naples, 1970, p. 127-132.

بقيمة 50 ليفر[423]. وفي 1201، عهد إلى أتون جنتاردو (Otton Gontardo) بطلبية من 50 ليفر، استثمرت في قطعتين من النسيج القرمزي *(scarlat)* وواحدة من النسيج الأخضر (*viridis*) ، وثمانية خيوط نسيجية[424]. كانت بجاية إذن بالنسبة إليه سوقا من بين أسواق البحر المتوسط الأخرى، حيث يمكن القيام بعمليات هامة.

آل كفرونكو (Les Cavarunco) هم مثال آخر لهذه العائلات المتوسطة التي تخصصت في التجارة المتوسطية التي ضمّت بجاية[425]. تصرّف جيوناتا كفرونكو (Gionata Cavarunco) كمستثمر شريكا في الغالب مع جنويين آخرين مثل إمبرتو فيزاستلو[426] (Imberto Vezastello)، وأجيريو سكوتو (Ogerio Scoto) وخصوصا أدوني دو ميلازو (Oddone de Milazzo). ففي أفريل 1191، أخذ أونريكو جرونديا (Enrico Gerundia) طلبية بـ 55 ليفر من جيوناتا (Gionata) وأوجريو (Ogerio) إلى بجاية، ومن المحتمل من هنا إلى الأسكندرية[427]. استثمر أيضا جيوناتا (Gionata) في رحلات نحو سبتة والمغرب الأقصى وإسبانيا وتونس[428]، بمسيرات ضمّت خصوصا صقلية أو ما وراء البحر. في أوت، أنشأ شركة مع سيمون بولجارو (Simone Bulgaro) وأودوني ملازو (Oddone Melazo) لصقلية وتونس وما وراء البحر. قام سيموني بالرحلة في حين أنّ جيوناتا ذهب إلى بجاية، خصوصا بطلبية رايناالدو

(423) Giovanni di Guiberto, n° 98 (1200).

(424) *Ibid.*, n° 511 (30/8/1201).

(425) حول هذه العائلة، أنظر: Krueger, « Genoese Trade », art. cité, p. 392

(426) Guglielmo Cassinese, n° 19 (12/1190) : société pour Naples, Sicile, outre-mer.

(427) *Ibid.*, n° 438 (7/4/1191).

(428) *Ibid.*, n° 460 (13/4/1191), 488 (22/4/1191), 491 (22/4/1191), 493 (23/4/1191).

ستروجنونو (Rainaldo Strugnono) بـ 15 ليفر[429]. تخبرنا وثيقة مؤرخة في سبتمبر من نفس السنة بوفاة جيوناتا، لكننا لا نعرف إن استطاع الذهاب إلى بجاية أم لا[430]. استعاد ونظّم ورثته أعماله التجارية أو أعضاء آخرين من العائلة، الذين حافظوا على التركيبة العامة لاستثماراته[431]. في أكتوبر من نفس السنة، أعطى أوجريو كفارونكو (Ogerio Cavarunco) طلبية إلى بجانو دو فولتا (Pagano de Volta) بـ 50 ليفر إلى سبتة والغرب ثم تونس وبجاية[432]، وإلى أونريكو لوكافيلو (Enrico Lecavello) بـ 50 ليفر و15 سو إلى بجاية[433]. في السنة الموالية، عهد بطلبية بـ 25 ليفر إلى رايموندو كفارونكو (Raimondo Cavarunco) حيث وجب عليه اصطحابها إلى بجاية[434]، وحمل أيضا باسم جياكومو فسيانو (Giacomo Ficiano) لفافتين من نسيج القطن بقيمة تقدّر بـ 38 ليفر[435]. تدخّل أيضا روبالدو كفارونكو1(ubaldo Cavarunco R)كتاجر أو مستثمر[436]. كان لهذه العائلة إذن مصالح في مجمل البحر المتوسط. نرى أعضاءها في المغرب الأقصى، وفي الأندلس، وفي إفريقية، وفي صقلية، وأبعد من ذلك في المشرق. كانوا شركاء لآل سكوتو (Scotto) وآل ميلاتزو

(429) *Ibid.*, n° 905 (24/8/1191), 913 (27/8/1191).

(430) *Ibid.*, n° 1109 (24/9/1191).

(431) *Ibid.*, n° 1112 (24/9/1191), 1136 (26/9/1191), etc.

(432) *Ibid.*, n° 1208 (10/10/1191).

(433) *Ibid.*, n° 1212 (10/10/1191).

(434) *Ibid.*, n° 1898 (26/4/1192).

أخذ رايموندو (Raimondo) أيضا 50 ليفر من أدوني دو ميلاتزو (Oddone de Milazzo)، شريك جيوناتا (Gioanata) السابق.

(435) *Ibid.*, n° 1774 (21/3/1192).

(436) في 1191، حمل طلبية بـ 31 ليفر جنوي و12 ليفر من جوزة الطيب إلى سبتة. *Ibid.*, n° 492 (23/4/1191). وفي 1192، تدخل بثلث في طلبية ب 118 ليفر حملها بالدوينو (Balduino) ابن أجيريو سكوتو (Ogerio Scotto) إلى بجاية. أعطى أجيريو سكوتو وأدوني ميلادزو – شركاء جيوناتا السابقين– الثلثين المتبقيين. *Ibid.*, n° 1894 (26/4/1192).

(Milazzo)، النشطين أيضا في التجارة البجائية. لم تكن أبدا المبالغ المستثمرة - على غرار ما هو لرولاندو دو كانيتو- ضخمة، بـ 50 ليفر في الغالب.

وأخيرا، تندر العمليات بمبالغ ضعيفة، أقل من 10 ليفر. ففي 1158، تلقى لمبارتو عاصر العنب (Lamberto *Calcator)* من أتوني بونو (Ottone Bono) قرضا بحريا بـ 8 ليفر، حيث وجب عليه إرجاع 10 ليفر عند عودته من بجاية[437]. وفي 1180، كان الجزّار أوبرتو لونجو (Oberto Longo) في شراكة مع جيوفاني دو روتشو (Giovanni de Recco) واستثمر 5 ليفر[438]. في نفس السنة، أخذ مريزيو دي أونريكو ترونشيرو (Maurizio di Enrico Trancherions) طلبية من جيجليمو فيراري (Guglielmo Ferrari) وبرناردو دي أتوني بوزولو (Bernardo di Ottone Pezollo) بمجموع 4 ليفر[439].

كان هؤلاء المتعاملون الصغار قليلين. خصّصت مبالغ تقع بين 10 و100 ليفر لأغلب المعاملات، حتى وإن لم تكن الاستثمارات الكبيرة (التي تفوق 100 ليفر) نادرة [440].

ب) سنوات 1250

في منتصف القرن الثالث عشر، كانت التجارة الجنوية مزدهرة خصوصا مع بجاية. احتفظ بـ 600 عقد لسنوات 1250، وهذا ما يسمح بدراسة دقيقة للأوساط المرتبطة بالسوق البجائي. من الآن فصاعدا، هيمنت الطلبية في العقود، في حين

(437) Giovanni Scriba, n° 508 (9/10/1158).

(438) Giovanni Scriba (fragments du cartulaire du notaire Lanfranco, 1180), n° 11, p. 282 (3/4/1180).

(439) *Ibid.*, n° 9, p. 281 (3/4/1180).

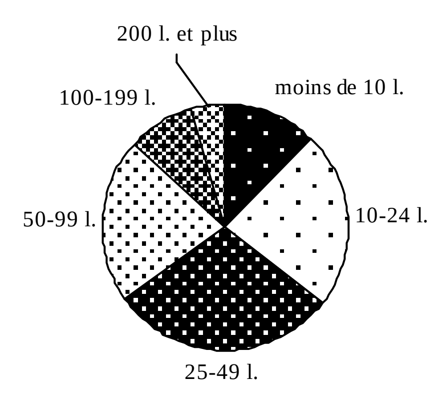
(440) لكن يجب تنويع حصة التجار الكبار هذه بما أنّ الموثقين على غرار جيوفاني سكريبا عملوا كثيرا لهذه الفئة من المتعاملين، تاركين في الظل أناسا متواضعين. Bach, *La Cité de Gênes*, *op. cit.*, p. 61

اختفت الشركة[441]. سمح هذا النوع من العقود بتوسيع جماعة الأشخاص الذين اهتمّوا بهذه التجارة. ليس بالضرورة امتلاك أموال للاستثمار في أعمال تجارة، وبإمكان أي واحد الذهاب لتنمية رأس المال المعطى في الطلبية. أيضا، يمكن لأي تاجر أخذ طلبيات متعددة، واردة من المستثمرين المناسباتيين الصغار.

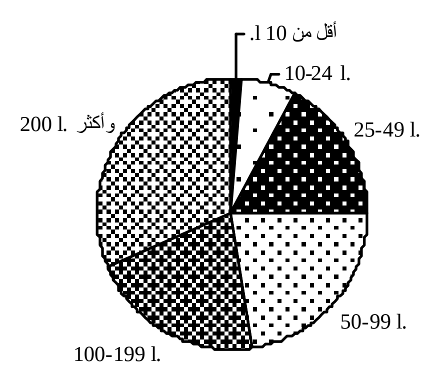
جدول 26: المبالغ المستثمرة في التجارة الجنوية ببجاية (1250-1259)

المبالغ المستثمرة بالليفر الجنوي	عدد العقود		مجموع الاستثمارات (بالليفر الجنوي)	
أقل من 10	47	12,3%	235	1,1%
10-24	89	23,3%	1443	6,8%
25-49	113	29,7%	3619	17,1%
50-99	81	21,3%	4807	22,7%
100-149	34	8,9%	4406	20,8%
150-199	17	4,5%	6687	31,5%
200 فما فوق	381	12,3%	21197	1,1%
المجموع	47		235	

(441) كانت هنا ظاهرة عامة في جنوة في القرن الثالث عشر، لكنها كانت في باكورتها في المغرب. أنظر:
Balard, « Notes sur le commerce génois en Tunisie », art. cité, p. 373.



التوزيع حسب عدد العقود



التوزيع حسب القيمة

أصبحت العقود الكبيرة (ذات مائة ليفر وأكثر) نادرة بعدما كانت كثيرة في القرن السابق. من حيث القيمة، تمثّل أيضا أكثر من نصف المبالغ المخصصة للتجارة البجائية. بقيت الاستثمارات الصغيرة قليلة في [في ماذا؟؟] وقيمتها غير معبّرة. في المقابل، أصبحت الأعمال التجارية المتوسطة (بين عشرة ومائة ليفر)

مهيمنة، حيث مثّلت ثلاثة أرباع العقود (مقابل النصف في الفترة السابقة)، ونصف المبالغ المخصّصة تقريبا (مقابل 22،5 في المائة).

إنّ المجموعة التي اختنقت أكثر هي إذن مجموعة المستثمرين المتوسطين. ليس سهلا دائما رسم صورتهم، وستسمح بعض الأمثلة بالإحاطة بهم بصفة أفضل.

لعائلة ألبانو (Albano) تمثيل كبير في هذا الصنف من التجار، ففي 1250، أعطى تاجر التوابل جيجليامو (Guglielmo) طلبية سكر بـ 14 ليفر إلى فينو دو لفانيا (Vinoy de Alagna) إلى بجاية[442]. يتعلق الأمر بشركة في 1251[443] و1253[444]. فيما يخص جيوفاني، فقد كان رأسماليا وتاجرا على حد سواء. ففي 1251 أعطى طلبية إلى نكولوسو ألبانو (Niolos Al pano) بـ 19 ليفر و5 سو، وأخذ من فليبو دو فنيراندو دو نولي (Filippo de Venerando de Noli) 200 ليفر باتجاه بجاية[445]. مارس تجارة الصوف، لأنّ ألبينو دو توري (Albinos de Torre) تلقى في 1252 تسعة عشر كيسا من الصوف أرسلها جيوفاني (Giovanni) من بجاية بواسطة ابن أخيه إديتو ألبانو (Ideto Al pano)[446]. في السنة الموالية، أعطى له إديتو ذاته سلعا واردة من بجاية[447]، وفي 1257، نجده من جديد يعطي طلبية بـ 50 ليفر باتجاه تونس[448]. تدخل أعضاء آخرون من العائلة سواء كتجار أم كمستثمرين. خصّصت النساء والأرامل تحديدا رؤوس أموال على غرار جياكمينا (Giacomina) في 1253، زوجة

(442) ASG, min. 27, f. 13v (29/10/1250).

(443) ASG, min. 27, f. 162v (31/5/1251).

عهد بطلبية من 10 ليفر إلى جيجليمو دو سكسيرو (Guglielmo de Suxero).

(444) ASG, min. 29, f. 109r (16/5/1253).

استثمر 18 ليفر و10 سو في ثلاثة براميل من العسل وقنطار ونصف من خشب الألواس.

(445) ASG, min. 27, f. 169r (7/6/1251) ; min. 27, f. 167v (7/6/1251).

(446) ASG, min. 34, f. 45r (3/9/1252).

(447) ASG, min. 29, f. 88v (4/5/1253).

(448) ASG, not. ign., *busta* 3, fr. 35, f. 18v (29/1/1257).

جياكومو (Giacomo)، وستيفانيا (Stefania) ، أم جيوفاني (Giovanni) ، وأدولينا (Adelina)، أرملة سموني (Simone) [449]. لم تكن طبعا عائلة كبار التجار، لكن بحملهم أو استثمارهم لمبالغ هامة أحيانا (192، 200، 350 ليفر) باتجاه بجاية، وبما أنهم استنجدوا أحيانا بمتعاملين من خارج المجموعة العائلية، فقد حقّقوا أغلب أعمالهم التجارية فيما بينهم.

من بين هؤلاء التجار الذين كانوا على علاقة بآل ألبانو، نجد آل فنيراندو دو نولي (Venerando de Noli) الذين استثمروا مبالغ هامة في بجاية خلال 1251 و1253. فضلا عن 200 ليفر التي عهد بها إلى فليبو فنيراندو دو نولي (Filippo Venerando de Noli). في 1251، أخذ جيوفاني ألبانو في نفس الرحلة 60 ليفر من بلموكسيو دو برنزانو دو نولي[450] (Palmuxio de Bernizano de Noli)، وأخذ نكولوسو ألبانو (Nicoloso Alpano) 25 ليفر من فليبو (Filippo)[451]. في جويلية 1253، سافر فليبو فنيراندو (Filipino Venerando) ابن بلموكسيو (Palmuxio) إلى بجاية وأخذ طلبيتين هامتين بـ 231 ليفر و 233 ليفر و10 سو، والتي استثمرت كلها بالبوزون الميلاريس. عهد له بالأولى أبوه والثانية فليبو فنيراندو دو نولي[452]. فضلا عن ذلك، أعطى هذا الأخير في سبتمبر طلبية بـ 50 ليفر إلى جيوفاني ألبانو[453] (Giovanni Alpano). تبيّن هذه العقود الروابط بين المستثمرين والتجار من نفس الأصل (هنا نولي (Noli)، قرب جنوة)، غالبا تنحدر البقية من نفس الأسرة.

(449) ASG, min. 29, f. 217v-218r (15/9/1253) :
عهد إلى جيوفاني بطلبيتين على التوالي بـ 56 ليفر و5 سو و350 ليفر.
(450) ASG, min. 27, f. 167v (7/6/1251).
(451) ASG, min. 27, f. 169v (id.)
(452) ASG, min. 29, f. 163r (22/7/1253).
(453) ASG, min. 29, f. 217v (15/9/1253).

اختصّ البعض في تجارة صوف وشب بجاية. هي حالة جندلفينو دو كوارتو (Gandulfino de Quarto) في 1259، الذي باع في جانفي وفيفري ما مقداره 917 ليفر من الصوف استوردها من بجاية إلى السوق الجنوي[454]. في سبتمبر[455] ونوفمبر من نفس السنة، شارك مع مانويلي زتشاريا[456] (Manuele Zaccaria)، حيث باع معه 1365 ليفر من الصوف[457]. تبيّن المبالغ المتحصّل عليها في وقت قليل أعمالا هامة كبيرة، لكننا لا نعرف هل تعلق الأمر بالنسبة إليه بسنة استثنائية أم أنه تخصص في تجارة الصوف، وذهب إلى المغرب بانتظام.

يقدّم سيموني دو كوارتو (Simone de Quarto) مثالا عن هؤلاء التجار الذين اغتنوا بحملهم لطلبيات الآخرين قبل استثمارها بدورهم. ففي 1251، حمل إلى بجاية 46 ليفر منها 37 ليفر و10 سو بأوزان ذهب مسجّلة لأوبرتو كفارينو (Roberto Caffaraino). وفي جويلية 1253، رحل ثانية إلى بجاية بالفانتان وأنسجة قطنية بقيمة 187 ليفر حيث عهد له بها جيوفاني أشيريو (Giovanni Asche rio)[458]. وفي نوفمبر من السنة الموالية، عاد إلى جنوة بالصوف الذي باعه مقابل مجموع بأكثر من 72 ليفر[459]. وفي جانفي 1255، روّج من جديد الصوف الوارد من بجاية[460]. سنتان بعد ذلك، كان دائما على علاقة أعمال تجارية مع

(454) ASG, min. 105, f. 64r-65r, 66v-67r, 68r-v, 75v, 76v-77r, 79v-80r, 92r (20/1 - 28/2/1259).

(455) ASG, min. 34, f. 211r (9/9/1259). في بداية كل شهر، باع لوحده الصوف ب 50 ليفر.

(456) ASG, min. 105, f. 61r (15/1/1259), 63v (20/1/1259)

باع مانويلي زتشاريا (Manuele Zaccaria) أيضا الصوف والشب لحسابه الخاص.

(457) ASG, min. 34, f. 202r ; min. 35, f. 15v, 22r-v, 26v-27r, 33r, 46r, 126r-v, 128v, 134r (4/9 - 15/11/1259).

(458) ASG, not. ign., *busta* 21, fr. 200, f. 6v (4/10/1251) ; min. 29, f. 165v (24/7/1253).

(459) ASG, not. ign. *busta* 10, fr. 104 (11/9/1254).

ثلاثة بيوع في نفس اليوم. لا تسمح حالة الوثيقة بقراءة كل المبالغ.

(460) ASG, min. 20/II, f. 3v (2/1/1255).=

المغرب، لكن من الآن فصاعدا كمستثمر. فقد أعطى طلبيتين بـ 30 ليفر باتجاه بجاية في أفريل وأخرى بـ 75 ليفر أرسلت في ماي إلى تونس[461].

يمثّل أيضا أوبرتو دو لوفنتو (Oberto de Levanto)، وهو تاجر توابل، هؤلاء المستثمرين المتوسطين الذين كانوا على علاقة بالأسواق المغاربية. ففي جوان 1251، استثمر مع إخوانه 51 ليفر و10 سو في بجاية[462]. وفي أفريل من السنة الموالية، اعترف له الأستاذ جيراردو دو لونجيس (Gherardo de Longis)، طبيب الجنويين ببجاية، بدين بـ 2 ليفر، استدانها الأستاذ جيجليومو المونبيليي (Guglielmo de Montpellier)[463]، واستثمر في ماي 56 و20 ليفر في رحلة باتجاه بجاية. وفي سبتمبر 1253، نقل له ألبارتينو ألباريو (Obertino Albario) طلبية بـ 32 ليفر و13 سو، مشكلة من 160 قصبة من القماش العريض من سفوسة (Safusa)[464]؟ وفي مارس 1254، أخذ جيوفاني بونافنتيرا طلبية بـ 36 ليفر و10 سو من أوبرتو دو لوفونتو (Oberto de Levanto)، وتضاف إليها 135 ليفر و7 سو و5 دونيي عهد له بها أوبرتو (Oberto) باسم توليميو دو تولومي (Tolomeo de Tolome)[465]. وفي ماي من نفس السنة، استثمر 36 ليفر و18 سو دائما إلى بجاية[466]. نجده أخيرا في المرة الأخيرة في 1261، حيث عهد بطلبية بـ 16 ليفر[467]. استثمر أيضا خلال هذه السنوات في الرحلات إلى تونس، دائما بمبالغ متوسطة: 8 ليفر في

=باع في نفس اليوم الصوف التي لم يوضح أصلها، لكن ربما كانت إفريقية. ASG, min. 20/II, f. 19v (18/1/1255).

(461) ASG, min. 54, f. 86v (16/4/1257), 127v (16/5/1257).

(462) ASG, min. 27, f. 166v (6/6/1251).

(463) ASG, min. 34, f. 57v (15/4/1252).

(464) ASG, min. 18/I, f. 82r (16/9/1253).

(465) ASG, min. 30/I, f. 44v (26/3/1254).

(466) ASG, min. 30/I, f. 77r (13/5/1254).

(467) ASG, min. 35, f. 82v-83r (20/9/1261).

1251[468]، و12 ليفر في 1252[469]، 49، و231 و67 ليفر ونصف في 1253[470]، وأخيرا 54 ليفر و2 سو و4 دونيي، و12 ليفر و13 سو و6 دونيي، و25 ليفر، و7 ليفر في الخمر[471]. وأخيرا، في 1254، 54 ليفر و2 سو و4 دونيي، و12 ليفر و13 سو و6 دونيي، و25 ليفر و7 ليفر في الخمر. وفي مارس 1253، كانت له أيضا أعمال تجارية في صقلية[472].

إنّ الجواخين – الذين رأيناهم يشترون الصوف من بجاية– عهدوا في الغالب بطلبيات مستثمرة في الأنسجة. ففي 1251 أعطى الجوخي جيجليومو دو كاموجلي (Guglielmo de Camogli) طلبية بـ 20 ليفر إلى جيوفاني دو بونفيلانو (Giovannino de Bonvillano)، وفي السنة الموالية عهد إلى جيانينو دو سانت أمبروجيو (Giannino de Sant'Ambrogio) 14 ليفر و6 سو من أجواخ ميزالاني (*mezzalane*)[473]. وفي ماي 1252، استثمر أيضا 29 ليفر ونصف باتجاه تونس[474].

تميّز هؤلاء الفاعلون المتوسطي النطاق – المجهولون غالبا – باستثمارات كثيراً ما تكون أقل من 50 ليفر، لكن مع عمليات هامة أحيانا. مارس أصحاب الطلبيات مهنة أخرى، خصوصا المتعلقة بصناعة الصوف والنسيج. نمىّ التجار

(468) ASG, min. 27, f. 184r (4/11/1251).

(469) ASG, min. 34, f. 74v (11/5/1252).

في مارس 1253 أجّر بنكو في حانوته الذي يديره جياكومو دالبارو.

« in Ripa di Genova ». R. S. Lopez, « L'Attività economica di Genova nel marzo 1253, secondo gli atti notarili del tempo », *ASLSP*, 64, Gênes, 1935, n° 90, p. 219.

(470) ASG, min. 18/I, f. 52v (18/8/1253), 55v (20/8/1253), 56r (20/8/1253).

(471) ASG, min. 30/I, f. 38r-39v (23/3/1254).

(472) طلبية بـ 10 ليفر إلى صقلية يوم 29/ 3/ 1253. Lopez, « L'attività », art. cité, n° 129, p. 225

(473) ASG, min. 27, f. 167v (7/6/1251) ; min. 18/II, f. 49r (6/3/1252).

(474) ASG, min. 34, f. 74v (11/5/1252).

المتنقلون رأس مالهم، لكن أيضا زوّدوهم بالصوف والشب، وروّجوا سلعهم في سوق بجاية.

لم تكن أوساط الأعمال الجنوية الكبيرة غائبة بهذا القدر عن التجارة البجائية. تظهر أسماء هذه العائلات بصفة عامة كمستثمرين، وعلى غرار القرن الثاني عشر، تدخلوا بمبالغ متواضعة مقارنة بأعمالهم التجارية الأخرى.

من بين كبار المستثمرين هؤلاء، نجد خصوصا عدة بنكيين. تطورت المهنة مبكرا في جنوة[475]. وكانت مزدهرة في بداية سنوات 1250، لكنها مرّت بأزمة حادة بين 1256 و1259[476]. وفي 1253 أعطى نكولو كالفو (Nicolò Calvo)، وهو واحد من أنشط بنكيي المدينة إلى غاية إفلاسه في 1256[477]، طلبيتين باتجاه بجاية، مستثمرا 12 ليفر في ماي و25 ليفر في جويلية[478]. اهتمّ أيضا لوفرانكو دي سان جيورجيو (Lanfranco di San Giorgio) ونكولوسو دو فيدريتو (Nicoloso de Vedereto) -بنكيان شريكان أحيانا- بالسوق البجائي. هما صاحبي طلبيات في عدة عقود[479]، وفي 1252، تحصّل لوفرانكو في المزاد العلني على كتابة بجاية *(scribania)* مع مانويلي ستريجيابوركو (Manuele Streggiaporco)، معطيا سهمين في طلبية إلى أجليريو دو فونتانا (Oglerio [480]de Fontana). أيضا استثمر البنكي جياكومو رفالدو (Giacomo Ravaldo) أموال بنكه أو أمواله الخاصة في عدة

(475) حول بدايات البنك في جنوة، أنظر:

R. S. Lopez, *La prima crisi della banca di Genova (1250-1259)*, Milan, 1956, p. 19-38.

(476) *Ibid.*, p. 87-92.

(477) *Ibid.*, p. 40.

(478) ASG, min. 29, f. 111v (17/5/1253), f. 164v (24/7/1253).

(479) ASG, min. 28, f. 93v (24/5/1251) ; min. 27, f. 245r (23/5/1252) ; min. 29, f. 56v (19/4/1253), éd. Doehaerd, *Les Relations commerciales*, *op. cit.*, II, n° 837 ; ASG, min. 29, f. 60r (22/4/1253).

(480) ASG, min. 34, f. 79v-80r (15/5/1252).

رحلات نحو بجاية بين 1252 و1254، بمجموع 345 ليفر[481]. كانت المبالغ التي استثمرها -بين 12 و116 ليفر- متوسطة، لكن كانت عملياته منتظمة. أصله غير معروف، لكنه كان على علاقة مستمرة مع أهل المدينة البليزنسيين[482]. ففي 1254 عهد إلى جيجليومو لوتشاكورفو (Guglielmo Leccacorvo) -بنكي بليزونس (Plaisance)- بطلبيتين ب 55 ليفر 7 سو 4 دونييى، و116 ليفر 10 سو إلى نكولو (Nicolò) وتيديسيو فييشي (Tedisio Fieschi)، وهي الأموال التي وردت إليه من شركة أبيزوني (Opizone) [483].

في الواقع كان حضور بنكيي ورجال أعمال بليزونس قوي جدا في جنوة، واستثمروا في التجارة الدولية[484]. لكن احتلت بجاية دائما مكانة ضئيلة في أعمالهم

(481) ASG, min. 34, f. 56r (12/4/1252), 81v (15/5/1252) ; min. 18/I, f. 82r (16/9/1253) ; min. 30/I, f. 45r (26/3/1254), 78r (14/5/1254), 85v (16/5/1254).

في آخر عقد، صاحب الطلبية – جيوفاني سانت أنجريزي- حمل أيضا 90 أوقية من ذهب بايولا.

(482) استثمر أيضا في رحلاته إلى كورسيكا وسردينيا: 80 ليفر و7 سو و6 دونيي، و25 ليفر و3 سو و4 دونيي يوم 8/ 3/ 1253.

Lopez, « L’Attività », art. cité, n° 37-38, p. 212.

(483) ASG, min. 30/I, f. 45r (26/3/1254), 78r (14/5/1254).

أجريت عملية مماثلة مع نفس الأشخاص أياما قبل ذلك إلى تونس.

ASG, min. 30/I, f. 37r (22/3/1254), éd. Lopez, *La Prima crisi*, *op. cit.*, n° 99, p. 153-154 (la date est à corriger).

(484) R.-H. Bautier, « Les Marchands et banquiers de Plaisance dans l’économie internationale du XIIe au XVe siècle », *Il « Registrum magnum » del Comune di Piacenza : Atti del Convegno Internazionale di studio, Piacenza, 1985*, Plaisance, 1987, p. 182-237 ; Lopez, *La Prima crisi*, *op. cit.*, p. 41-46 ; G. Jehel, « Les Placentins en Afrique du Nord au Moyen Âge », *Precursori di Cristoforo Colombo. Mercanti e banchieri piacentini nel mondo durante il medioevo. Atti del Convegno Internazionale di Studi, Piacenza, 10-12 settembre 1992*, Bologne, 1994, p. 169-179.

كانوا أيضا نشطين في مرسيليا في نفس الفترة. أنظر:

P. Racine, « À Marseille en 1248 : l’activité des hommes d’affaires de Plaisance », *Annales du Midi*, 78, 1966, p. 221-233.

التجارية. هي على سبيل المثال حالة عائلة آل لوتشاكورفو القوية (Leccacorvo)[485]. فضلا عن عقدي طلبية مع جياكومو رفالدو (Giacomo Ravaldo)، تدخل جيجليمو لوتشاركورفو (Guglielmo Leccacorvo) في عملية صرف مع بجاية في أكتوبر 1250. تلقى من جيجليمو (Guglielmo) ابن المرحوم جياكومو كورتيجيانو (Giacomo Corteggiano) مبلغا بالعملة الجنوية والذي وجب عليه إعادته ببجاية بـ 660 بوزون ميلاريس[486]. وفي مارس 1253، استثمر أيضا في رحلات إلى آسفي[487] وما وراء البحر[488] وأسواق البر[489] وإسبانيا[490] وتونس[491].

كان سيميوني دو جوالتيريو (Simone de Gaulerions) - وهو بنكي أيضا في بليزونس حسب روبارتو س. لوبيز (Roberto S. Lopez)[492]– في المقابل هو مرتبط جدا بالسوق البجائي وأيضا بالسوق التونسي. ففي 1252، أرسل طلبيتين من الأجواخ *(canonnai)* بقيمة إجمالية تقدر بـ 169 ليفر

(485) حول هذا البنك، أنظر:

Lopez, *La Prima crisi*, *op. cit.*, p. 60-68 ; G. Airaldi, G. Marcenaro, dir., *Credito e banca dall'Italia all'Europa, secoli XII-XVIII*, Gênes, 1992, p. 24.

(486) ASG, min. 27, f. 8v (26/10/1250).

(487) عهد ب 200 ليفر مع جياكومو رفالدو (Giacomo Ravaldo) إلى كرستيانو جريمالدي (Cristiano Grimaldi) يوم 14/ 3/ 1253.

Lopez, « L'attività », art. cité, n° 63, p. 215.

(488) 400 ليفر في طلبيتين يوم 14/ 3/ 53. *Ibid.*, n° 64-65, p. 215-216

(489) حمولة ب 400 ليفر بروفانسي يوم 17/ 3/ 1253. *Ibid.*, n° 73, p. 217

(490) 100 ليفر في طلبية (17/ 3/ 1253). *Ibid.*, n° 74, p. 217

(491) ثلاث طلبيات بـ 400 ليفر يوم 22/ 3/ 1253. *Ibid.*, n° 99-100, p. 220 ; n° 102, p. 221

(492) R. D. Face, « Symon de Gualterio: a Brief Portrait of a Thirteenth-century Man of Affairs », *Economy, Society, Government in Medieval Italy*=. =*Essays in Memory of Robert L. Reynolds. Exploration in Economic History*, 7, 1969-70, p. 76.

يعتبر فاس –على النقيض من روبرتو س. لوبيز– بعدم وجود حق لإعطائها أصل بليزونسي.

و11سو و6 دونيي[493]. كانت نشاطات رجل الأعمال هذا مزدهرة في مارس 1253: باع الصوف بـ 1321 ليفر، واشترى الأجواخ من فرنسا بـ 556 ليفر، وأعطى طلبية من الزعفران والحرير باتجاه مرسيليا بمبلغ إجمالي يقدر بـ 770 ليفر، وتدخل في عمليات الصرف في أسواق الشامباني (Champagne)، واشترى ثلاثة أرباع يخت مقابل 390 ليفر[494]. كانت له أيضا أعمال تجارية في ميورقه وصقلية وسردينيا وعكا وآسفي وتونس وبجاية طبعا[495]ا. يتعلق الأمر إذن بتاجر كبير جدا، حيث كانت تركته عند وفاته بمجموع 6000 ليفر. سوريا وبجاية هما اللتان جذبتا أكثر استثماراته: في أفريل خصّص 1250 ليفر في ثلاثة عقود موجهة إلى بجاية[496]. وأرسل خصوصا إلى بجاية اليخت الذي ترجع إليه ملكية ثلاثة أرباعه، وهو القديس فرانشيسكو[497] (San Francesco). وتدخل يوم 19 في عملية صرف أو قرض بـ 1180 ليفر (ترجع إلى جنوة عند العودة) [498]. من جهة أخرى، أعطى طلبيتين بمبالغ هامة: أخذ منه جياكومو دو ماري (Giacomo de Mari) 498 ليفر و11 سو، وجياكومو فريتشانو (Giacomo Frexano) 1000 ليفر[499]. وفي ماي كان حجم الاستثمارات أقل ارتفاعا (1054 ليفر) وركّزت بجاية وحدها ثلاثة أعماله التجارية[500]. عهد بثلاث طلبيات بمجموع

(493) ASG, min. 27, f. 244v (23/5/1252).

(494) Lopez, « L'Attività », art. cité, p. 189-190.

(495) Face, art. cité, p. 80-81.

(496) *Ibid.*, p. 81.

(497) ASG, min. 29, f. 54r (25/4/1253)=

=يعود الربع المتبقى إلى نكولوسو دو ماري (Nicoloso de Mari) أب جكوبو (Jacobo) الذي سافر إلى بجاية.

ASG, min. 29, f. 61r (25/4/1253).

(498) ASG, min. 29, f. 54r (19/4/1253).

ليس بأكيد أن الصرف كان هنا، رغم شكل القيد، لعدم الإشارة إلى المبلغ بالبوزون. يتعلق بقرض متنكر. يرى فاس Face (art. cité, p. 81) أنه ربما مثال مثمر لائتمان بحري.

(499) ASG, min. 29, f. 54r (25/5/1253), 65v (28/4/1253).

(500) Face, art. cité, p. 82.

325 ليفر، منها 100 حملها سميوني دوريا (Simone Doria) ابن المرحوم مارتينو (Martino)[501]. وبين 9 و15 سبتمبر، أبرم عدة عقود لرحلة إلى بجاية: صرف 210 بوزون ميلاريس مع أندريا دو نيجرو (Andrea de Nigéro)، وطلبيتين، الواحدة بـ 109 ليفر و9 سو و6 دونيي في الميلاريس (عهد بها إلى أندريولو أمبياكو (Andriolo Embriaco) ، والأخرى بـ 40 ليفر في القطن (عهد بها إلى باسترينو ستراجيابوركو (Pasturino Streggiaporco) [502]. توفي بعد ذلك بقليل، وفي مارس 1254، أعطى نكولو دو نيجرو (Nicolò de Nigro)- وصي ابنه- توكيلا إلى بالديزوني ستراجيابوركو Baldizone (Streggiaporco) لاسترجاع 180 بوزون ميلاريس من بجاية[503]. أنشأ إذن سيميوني دو جوالتيريو أعمالا واسعة مع مختلف الأماكن التجارية، خصوصا بجاية، التي أخذت قسما هاما من استثماراته. كان على علاقة بعدة عائلات تجارية جنوية كبيرة، والتي نجدها في عقود التجارة مع بجاية: آل دوريا (Doria)، وآل ستراجيابوركو (Streggiaporco)، وآل دو ماري (de Mari)، وآل أمبرياكو (Embriaco)، وآل نيجرو (Nigéro).

جذبت بجاية إذن عدة أصناف من التجار الجنويين. نجد خصوصا التجار والمستثمرين الصغار والضعاف الحجم، حيث لم تكن التجارة نشاطهم الأساسي، لكنهم وجدوا الفرصة لرحلة أو رحلتين وإمكانية الحصول على أرباح دون إحضار رأس مال هام. بهذا القدر، لم يكن هذا السوق متروكا من المتعاملين الكبار في التجارة الأوروبية، لكن لم تكن بجاية بالنسبة لهم إلا عنصرا ثانويا لشبكة أعمال

(501) ASG, min. 29, f. 75r (2/5/1253), 97v (10/5/1253), 115v (20/5/1253).

(502) ASG, min. 18/I, f. 73v-74r (9/9/1253), 218r (15/9/1253), 80r (15/9/1253).

(503) ASG, min. 30/I, f. 44v (26/3/1254).

تجارية واسعة أكثر، والتي ضمّت في الغالب أسواق المشرق الغنية، وهذا ما سمح بالتنويع في استثماراتهم وإيجاد مواد خاصة بالمغرب[504].

ج) المدن التجارية الأخرى

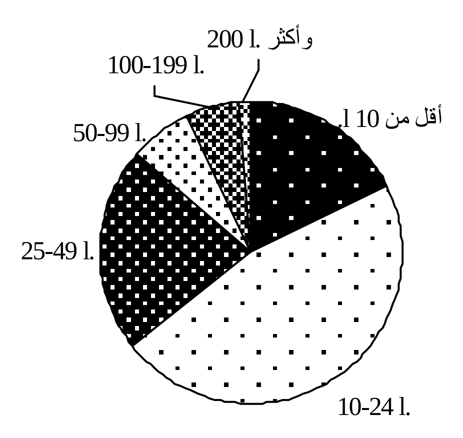
كانت خصائص الأوساط التجارية هذه نفسها بالنسبة للموانئ النشطة الأخرى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، حتى وإن كانت المادة الخبرية أقل وفرة. في مرسيليا، تدخل العديد من المتعاملين الصغار والمتوسطين في التجارة البجائية سواء لاستثمار الأموال فيها أم لحمل طلبيات إليها.

جدول 27: الاستثمارات البجائية في بجاية (القرن الثالث عشر)

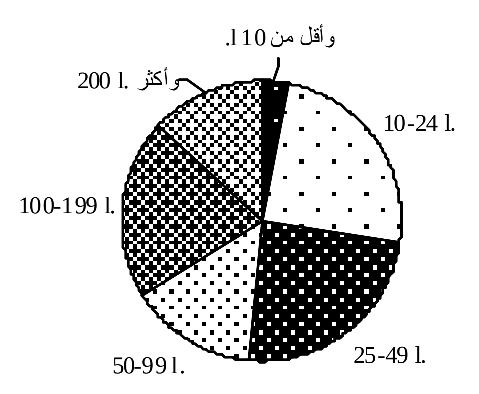
المبالغ المستثمرة (بالليفر)	عدد العقود		مجمل الاستثمارات (بالليفر)	
أقل من 10	13	17,8%	68,1	3%
24-10	34	46,6%	565,6	24,5%
49-25	16	21,9%	552,4	24%
99-50	5	6,8%	334,5	14,5%
199-100	4	5,5%	484,2	21%
200 وأكثر	1	1,4%	300	13%
المجموع	73		2304,85	

(504) تؤكد هذه النتائج دراسة الأوساط التجارية التي أنجزتها لورا باليتو (Laura Balletto) انطلاقا من الوثائق الجنوية لسنوات 1222 إلى 1226.

L. Balletto, « Tra Genovesi e Musulmani nel XIII secolo », *Mésogeios*, 7, 2000, p. 158-162.



توزيع الاستثمارات حسب عدد العقود



توزيع الاستثمارات حسب القيمة

كانت مكانة المستثمرين الصغار والمتوسطين (حتى 50 ليفر) هامة جدا من جنوة (أكثر من 85 في المائة من العقود)، في حين تقل العقود التي لها أكثر من 100 ليفر[505].

أنشأت عائلة منديال (Manduel) خصوصا شبكة ممتدة في أوروبا والبحر المتوسط، حيث لعبت فيها بجاية دورا هاما[506]. استقر إتيان (Etienne) (الأب) في مرسيليا في نهاية القرن الثاني عشر أو بداية القرن الثالث عشر، وطوّر فيها أعماله التجارية إلى غاية وفاته في 1230. خلفه ابناه برنار (Bernard) وجون (Jean)، إلى غاية سجن ثم الحكم بالإعدام على جون. تصرّفا كصاحبي طلبيات، مع ميل إلى الأسواق المغاربية، وخصوصا البجائية[507]. كانت استثماراتهما أيضا هامة في المشرق اللاتيني وفي مصر، وأيضا في الأسواق الأوروبية الكبيرة وفي بقية الموانئ النشطة مثل برشلونة أو مسينا[508]. إنّ أعمالهما التجارية في بجاية بين

---

(505) يمكن مقارنة هذه الأرقام مع توزيع الاستثمارات التي حملت على مركب سان إسبري (Saint-Esprit) باتجاه سوريا في 1248: 4،25 في المائة من العقود هي أقل من 10 ليفر، و50 في المائة بين 10 و50 ليفر، و20،3 في المائة بين 50 و100 ليفر و25،45 في المائة بأكثر من 100 ليفر. Sayous, « Le commerce de Marseille avec la Syrie », art. cité, p. 396-397. على غرار جنوة، جذبت التجارة المشرقية رؤوس أموال كبيرة جدا.

(506) نشر بلونكار وثائق عائلة مونديال (Manduel):

L. Blancard, *Documents inédits sur le commerce de Marseille au Moyen Âge*, Marseille, 1884-1885.

جاءت هذه الوثائق من مصادرة ممتلكات وأوراق جون منديال، الذي أوقف في 1262 لأسباب سياسية.

(507) من بين حوالي 79 وثيقة، 51 تتعلق بالمغرب، من بينها 24 ببجاية و15 بسبتة، في حين أن 14 هي عقود إلى المشرق (عكا والأسكندرية ودمياط وسوريا) و14 لأماكن أوروبية أخرى.

(508) حول هؤلاء التجار الثلاثة، أنظر:

A.-E. Sayous, *Les Opérations du capitaliste et commerçant marseillais Étienne de Manduel entre 1200 et 1230*, Bordeaux, 1930, et Id., *L'Activité de deux capitalistes-commerçants marseillais vers le milieu du XIIIe siècle : Bernard de Manduel (1227-1237) et Jean de Manduel (1233-1263)*, Paris, 1929.

1210 و1255تعتبر معروفة، ومن بين عشرين عقداً، يدور معدّل الاستثمارات حول 20 ليفر، وهذا ما يبقى رغم ذلك متوسطا.

إنّ الوثائق البيزية نادرة ولا تمثّل حجم تجارة هذا الميناء مع المغرب. إنّ الأسماء التي هيمنت هي أسماء العائلات الكبيرة مثل آل لافرونشي (Lanfranchi)، وآل لانفروندتشي (Lanfreducci)، وآل أيوتاميكريستو (Aiutamicristo)، وآل دال باجنو (Dal Bagno)، وآل بوكا (Boca)، مع بروز عائلات جديدة من الشعب *(popolo)* في حوالي منتصف القرن الثالث عشر[509]. ففي 1269، أخذ بوتشو روسو (Duccio Rosso) – من دار آل لافرونشي[510]– في عقد شراكة 15 ليفر من سولاتشيو (Sollaccio) ابن المرحوم لمبارتو فيناريو (Lamberto Vinario) إلى بجاية[511]. وفي 1277، سافر من جديد إلى بجاية بأموال جيدوني بننكاسا (Guidone Benencasa)[512]. وفي 1278، عمل لوبو دو جيراردو روسو (Lupo de Gherardo Rosso)، وهو من نفس العائلة– وصيته ببجايةحيث استقر دون شك[513]. تبيّن هذه الوثيقة أنه طوّر فيها عدة أعمال تجارية عديدة وهامة[514]. كانت عائلة لافرانشي روسي هذه

(509) O. Banti, « I Rapporti tra Pisa e gli stati dell’Africa settentrionale tra l’XI e il XIV secolo », *Le Ceramiche medievali delle chiese di Pisa*, Pise, 1983, p. 23.

(510) حول آل لافرونشي وشبكة أعمالهم التجارية، أنظر:

E. Cristiani, *Nobiltà e popolo nel comune di Pisa*, Naples, 1962, p. 408-409.

(511) Éd. A. Guidi, *Atti di ser Leopardo del Fornaio dai registri n° 3 e n° 4 della serie contratti dell’Archivio della Mensa arcivescovile di Pisa (1259-1270)*, tesi di laurea, sous la direction de M. Luzzati, Université de Pise, 1975-6, n° 117.

نشر ماس لاتري نفس الوثيقة مؤرخة ب 1261 Mas-Latrie, *Traités de paix*, *op. cit.*, p. 37

(512) ASP, *Diplomatico Trovatelli*, 12/3/1277.

(513) ASP, *Diplomatico Roncioni*, 17/10/1278.

(514) M. Bensaci, « Familles et individualités pisanes en relation avec le Maghrib », *CT*, 113-114, 1980, p. 60-63.

واحدة من العائلات الأكثر نشاطا في تجارة بيزا البحرية[515]، ونفس الشيء بالنسبة لآل لانفروندتشي (Lanfreducci)، حيث لهم مصالح في التجارة البجائية[516]. في القرن الرابع عشر، شاركت عائلات الشعب الكبيرة مثل آل أجلياتا (les Agliata) أيضا في هذه التجارة[517]. لكن بالنسبة لكبار التجار هؤلاء، لم تكن بجاية أبدا وجهة كلية، فقد حملت أعمالهم أيضا على أسواق كبرى أخرى في البحر المتوسط. يمكن فعل تحقق مماثل بالنسبة للبندقية، حتى وإن تنقصنا الوثائق التجارية. في نهاية القرن الثاني عشر، أجرى التاجر رومانو مايرانو (Romano Mariano) عدة عمليات صرف في بجاية وباع فيها بختا[518]. لكنه نشيط خصوصا في الأسواق المشرقية ولم ينطو على بجاية إلا تبعا للمشاكل التي تلقاها البنادقة في القسطنطينية[519].

(515) حول عائلة لنفراشي روسي (Lanfrachi Rossi)، أنظر: Cristiani, *op. cit.*, p. 413-415

(516) ASP, *Diplomatico S. Silvestro di Pisa*, 29/1/1315.

حول هذه العائلة، أنظر: Cristiani, *op. cit.*, p. 416

(517) في أفريل 1326، أجّر سيتشو أجلياتا (Cecco Agliata) مركب إلى كاجلياري وجيجل وبجاية والقل. ASP, *Diplomatico Alliata*, 27/4/1326. وفي جوان، ذهب مركبه الخاص به إلى بجاية. ASP, *Ospedali riuniti di S. Chiara*, n. 1969, f. 96r (16/6/1326). أنظر: M. Berti, « Commende e redditività di commende nella Pisa della prima metà del Trecento (da documenti inediti) », *Studi in onore di Federigo Melis*, II, Naples, 1978, p. 124-125.

حول هذه العائلة الهامة، أنظر: M. Tangheroni, *Gli Alliata, una famiglia pisana nel medioevo*, Padoue, 1969

(518) Éd. R. Morozzo della Rocca, *Documenti del commercio veneziano nei sec. XI-XIII*, I, Turin, 1940, p. 279-293 (documents allant du 9/6/1177 à février 1179).

(519) G. Luzzatto (sous le pseud. de G. Padovan), « Capitale e lavoro nel commercio veneziano dei secoli XI e XII », *Rivista di storia economica*, 6, 1941, rééd. *Studi di storia economica veneziana*, Padoue, 1954, p. 93 ; voir également S. Borsari, « Il commercio veneziano nell'imperio bizantino nel XII sec. », *RSI*, 1964, p. 991.

في برشلونة وفي بلاد لاكورونيا أراجونة بصفة عامة، تبيّن الوثائق التجارية النادرة للقرن الثالث عشر على السواء عددا كبيرا من المقاولين، من بينهم الملوك أنفسهم[520] والتجار المتواضعين جدا، حيث اقتصر نشاطهم في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وذلك بمبالغ استثمارية متوسطة[521].

بالنسبة للقرنين الرابع عشر والخامس عشر، من الصعب مباشرة دراسة للأوساط التجارية النشطة في بجاية. ستساعد دون شك دراسة آلية لموثقي ميورقة من النظر إليها بشكل أوضح. تبيّن الوثائق التي اكتشفها بيار مكار (Pierre Macaire) وأنوفر فاكر (Onofre Vaquer) وسطا نشطا طبعا، لكن باستثمارات متوسطة بصفة عامة، حتى وإن برزت بعض الأوجه في المادة الخبرية. وتسمح سجلات وثائق النصف الثاني من القرن الخامس عشر التي نشرها أنوفر فاكر من الحصول على فكرة عن الوسط التجاري الميورقي[522].

في سنوات 1450–1460، كانت عائلة آل باردو (Pardo) المعتنقة حاضرة جدا في تجارة بجاية. ففي 1451، أمّن جابريال (Gabriel) حمولة من

---

[520] Dufourcq, *L'Espagne catalane*, *op. cit.*, p. 65-66.

[521] تمّت جيدا دراسة هذا الوسط التجاري البرشلوني في القرن الثالث عشر في عدة مقالات لكرمان باتل (Carmen Batlle).

C. Batlle i Gallart, « La presencia de mercaders catalans al nord d'Africa durant el segle XIII », *Homenatge a la memoria del prof. Emilio Saez*, Barcelone, 1989, p. 99-109 ; Ead., « Uns mercaders de Barcelona al Nord d'Africa a mitijan segle XIII », *Acta Mediaevalia*, 10, 1989, p. 145-157 ; Ead., en collaboration avec C. Cuadrada, « Berenguer de Bonastre, un negociante barcelonés en el Norte de Africa (segunda mitad del siglo XIII) », *Sardegna, Mediterraneo e Atlantico tra medioevo ed età moderna. Studi storici in memoria di Alberto Boscolo*, dir. L. Arienzo, II, *Il Mediterraneo*, Rome, 1993, p. 129-150 ; Ead., en collaboration avec E. Varela, « Las relaciones comerciales de Barcelona con el norte de África (siglo XIII) », *Anales de la Universidad de Alicante*, 7, 1988-1989, p. 23-52.

[522] Vaquer, « Navegació i comerç », art. cité, p. 95-142.

أجريت الدراسة انطلاقا من وثائق سنوات 1450–1460.

الشمع والجلود ذاهبة من بجاية. وفي 1454، أعطى توماس باردو (Tomas Pardon) طلبية بـ 125 ليفر من القماش لحملها إلى الجزائر وبجاية. امتلك الأب باردو -الذي أجرى عدة أسفار إلى بجاية بين 1450 و1452 بصفة تاجر- في 1456 مركب كبير ذهب إلى بجاية وتونس، وفي 1461 مركب بلانار، الذي أجّره إلى بجاية. وفي 1460، أجّر لويس باردو (Lluis Pardo) مركب جيلام لومبارت من برشلونة، لرحلة تنطلق من برشلونة للذهاب إلى إبيزا وميورقة والقل واستورة وبجاية وفي العودة ميورقة. لم يحد هؤلاء التجار نشاطهم بميناء بجاية فقط، واستثمروا أو شاركوا في رحلات غطّت مجمل طرق البحر المتوسط التجارية في تلك الفترة، مع ميل إلى الحوض الغربي. بين 1448 و1451، عقد توماس عقد ائتمان إلى بلنسية، وأعطى طلبيات إلى المشرق، وسافون وصقلية. أجّر بيري مراكبه بين 1448 و1460 لرحلات إلى بلرم، ومسينا ورودس وتونس والجزائر وبلاد البربر، وتدخل في عدة عقود ائتمان إلى بلنسية وتاراجونة (Tarragone) وشرشال ونابولي وجيات (Gaète). أبرم جابريال – الذي تخصص في الائتمان- عقودا تتعلق بالكدية (Alcudia) والجزائر وتنس وشرشال وكاجلياري (Cagliari) وإبيزا ونيس وسافون وتاراجونة وكاليوري ونابولي وجيات وبيرا (Péra) ورودس أو القسطنطينة. وأخيرا، كان لويس تارة مستثمرا (حيث له موزع في الجزائر، ومؤتمن لرحلات باتجاه نابولي والقل والجزائر وكاجلياري والكدية بميورقة، وصاحب طلبيات إلى رومانيا ورودس والأسكندرية وصقلية) وتارة تاجرا متنقلا (كراء إلى برشلونة وبلنسية ومورفاندر وكيوتاديللا وإبيزا ونابولي وجيات ورودس والقسطنطينة). يقومون بعد ذلك بإعادة توزيع المواد المغاربية على الأسواق الأوروبية الأخرى. في ديسمبر 1467، أمّن بو باردو (Pau Pardo) حمولة من جلود البقر -منها 120 وردت من بلاد البربر- باتجاه نيس (Nice)[523].

(523) M. Barcelo i Crespi, « Niçards a la Mallorca baixmedieval », *AEM*, 24, 1994, p. 75.=

كانت هذه العائلة دون شك استثنائية، مثل عائلة بالفيوري (Bellviure)، التي مدّت نشاطاتها التجارية على مجمل الحوض المتوسطي[524]. بقي البعض – الذي مارس التجارة أيضا في المشرق وفي البحر المتوسط الغربي- تجارا متوسطي الحجم. هي حالة جبريال بلجمانس (Gabriel Plegamans)، الذي أخذ طلبية بـ 125 ليفر من القماش، حملت إلى بجاية على متن ناف فراتشيسك فيدال (Francesc Vidal). نلاقي نفس الرجل في 1458، حاملا عدة طلبيات مستثمرة في القماش باتجاه رودس وموانئ أخرى بالمشرق، بمجموع 490 ليفر. كان لتجار آخرين قسم من النشاط المحدود، مثل برتومو ميرو (Bartomeu Miro)، الذي ذهب إلى بجاية في 1455 و1460. وفي 1461 و1454، كان قد سافر مع بيري ديسبي (Père De spi) إلى القل،حيث جلب على الخصوص الذهب والجلود والشمع. اقتصرت إذن نشاطاته على المغرب، بالخصوص القسم الغربي من السلطنة الحفصية. نفس الشيء بالنسبة لخوان رفال (Joan Ravell)، الذي أخذ في أكتوبر 1454 طلبية بـ 116 ليفر و17 سو و5 دونيي من القطن والزيت، حيث وجب حملهم إلى بجاية أو الجزائر. في مارس من نفس السنة، حمل أيضا طلبية من القماش بمبلغ 41 ليفر إلى بلاد البربر، وفي 1457، أخذ طلبية بـ 150 ليفر من القماش باتجاه الجزائر. أيضا، أجّر أنتوني سالوم (Antoni Salom) في 1462 ناف إسارن السرقسطي (Isern de Saragosse) للذهاب إلى برشلونة وإبيزا وميورقة وبجاية والجزائر. كان معتادا على هذه الموانئ لأنه كان قد نقل في 1451 القماش والقطن والزيت إلى "أرض المور"، وفي 1455، وأخذ طلبية بـ 54 ليفر من القطن إلى الجزائر. نلاقي إذن على الخصوص عدة متعاملين

=أنظر أيضا: Vaquer Bennasar, *El Comerç Marítim, op. cit.*, p. 145-148, 183-184, 330-331، الذي بيّن العلاقات الزوجية بين أحسن عائلات ميورقة ومملكة أراجونة.

(524) كانت هي أيضا عائلة من المعتنقين، التي استطاعت الحفاظ على علاقة متينة مع الجاليات اليهودية في الجهة.

من الحجم المتوسط، سواء من خلال المبالغ المستثمرة أو المحمولة أو من خلال إشعاع نشاطهم.

كانت على الخصوص ثلاثة أنواع من الفاعلين الأوروبيين في التجارة البجائية. وجد تجار كبار جدا في بجاية سوقا مكملا للمشرق. اشتروا بها بعض المواد في شروط حسنة أو وجدوا فيها أرضية انزواء في حالة الصعوبات في المشرق. لكن بقيت حصة بجاية ضعيفة في نشاطهم. نجد جماعة هامة من التجار خصوصا المتوسطين منهم، أحيانا متخصصين في المغرب. كانت المبالغ المستثمرة في الغالب متواضعة، لكن سمحت لهم الانطلاقة بتنمية رأس مالهم بسرعة. نجدهم في كل الموانئ الكبرى في جنوب أوروبا مشكّلين دعامة تجارة بجاية. وأخيرا، في جنوه ومرسيليا، (ربما توجد الظاهرة في وجهة أخرى)، جذبت الأرباح المحتملة صغار المتعاملين. إذن كان التجار المناسباتيين هم من حمل الطلبية ثم اختفوا من المادة الخبرية ربما لأنهم غير مهنيين في التجارة حيث استثمروا مبالغ ضئيلة جدا في الغالب مقارنة مع المبالغ التي خصصت للتجارة البحرية بصفة عامة.

قد جذبت بجاية عددا كبيرا من المتعاملين الاقتصاديين في المدن التجارية في جنوب أوروبا. لكنها لم تستطع –طبعا- مجاراة أسواق المشرق، التي كانت تجارتها شأن كبار التجار. بيد أنها سمحت بتنمية رأس مال، حتى وإن كان متواضعا، في العمليات قصيرة المدى. إنّ تطور عقود الطلبيات جعل في الإمكان المشاركة في الأعمال التجارية وفي الفوائد. إنّ العدد الكبير من السفن التي غالبا ما كانت ذات حجم متواضع، ضاعف إمكانيات الذهاب إلى بجاية والعودة منها بسرعة.

أدّت هذه التعبئة المالية والبشرية – الشاملة والمتنوعة- إلى نجاح التجار المسيحيين في بجاية. بالعكس، لم يطور البجائيون قطاعا تجاريا بقوة موازية ومنذ ذلك الحين – أي بداية من القرن الثالث عشر- استبعدوا بصورة جلية من التجارة البحرية الكبيرة.

الفصل الثاني

تطور مرتبط بتحولات في المغرب والبحر المتوسط

بأخذها مكانة في التجارة المتوسطية، اندمجت بجاية في فضاء اقتصادي واسع. لم تكن مرتبطة فقط بالأسواق المسلمة وامتداداتها الآسيوية والإفريقية كما في نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر، و بأسواق أوروبا الجنوبية أيضا. فعن طريق تجار الموانئ المسيحية الكبرى في إيطاليا وبروفانسيا أو إسبانيا كانت بجاية على اتصال بمجمل البحر المتوسط الغربي منه والشرقي ومع بقية أوروبا وآسيا البعيدة. لكن بتضييع قسم كبير من التحكم في التجارة البحرية، أصبح البجائيون مرتبطين بالمتعاملين الاقتصاديين الأوروبيين وبالتالي بتطور ظرفية مدن أوروبا الجنوبية. لكن بقي الميناء أيضا مرتبطا إلى حد بعيد ببلاده الخلفية وكان من الخطورة استقدام الكل إلى التجارة البحرية الكبيرة. بالرغم من افتقادنا إلى معلومات دقيقة حول بقية الاقتصاد الحضري، فإن المبادلات الدولية مؤشر جيد لازدهار المدينة أو على الأقل بعض قطاعات النشاط. وتسمح الوثائق التجارية الأوروبية بتتبع تطور ازدهار الميناء ومحاولة وضع تحقيب زمني لذلك، والذي لا يتماشى بالضرورة مع تحقيب الأحداث السياسية.

إن هذا التحقيب هو بالضرورة واسع، إذ ليس من الممكن تتبع الهزات العديدة -والمرئية أحيانا- لنشاط الميناء طوال الفترة المختارة للدراسة. إن الأزمات القصيرة هي في الواقع كثيرة -وكلها لم ترو لنا. تنتشر الأنباء الجديدة بسرعة[1]

---

(1) كانت عودة المراكب إلى أوروبا فرصة للاستعلام حول تطور الوضعية في الموانئ المغاربية ولحّت المراسلات المكتوبة بين التجار على ظروف الأسواق والمخاطر والمناسبات. وهذه المراسلات معروفة خصوصا من خلال وثائق جنيزة القاهرة، وأرشيفات شركة داتيني دو براتو في القرن الرابع عشر، أو رسائل التجار البنادقة في القرن الخامس عشر.=

وتعرف أقل الصعوبات التي تواجهها بجاية بسرعة في أسواق الجهة الكبرى، وهـذا ما يؤدي إلى تقلص نشاط الميناء[2]. لكن مـن الممكـن التمييـز هنـا بـين الأزمـات الدقيقة من جهة، والحقب الكبرى للازدهار والأزمة من جهة أخرى.

إن أسباب هذه التطورات هي طبعا متعددة. والصعوبات هي قياس آثـار العوامل الداخلية المغاربية وعوامل حركات الاقتصاد المتوسطي والأوروبي.

طوّرت بجاية بسرعة نشاطا بحريا مهما. بعد أقل من قـرن مـن تأسيسـها، أصبحت واحدة من أكبر الموانئ المغاربية. وامتدت فـترة الازدهـار هـذه إلى غايـة العشرية الأولى من القرن الرابع عشر. وتبدأ حينئذ أزمـة طويلـة موسـومة بفتـور نسبي للتجارة الدولية تزامن مع نمو القرصنة. انطلاقا من منتصف القـرن الخـامس عشر، استأنف التجار الأوروبيون المجيئ لتنفيذ أعمال في المدينة، لكنها لم تسـترجع المكانة التي كانت قد احتلتها من قبل في القرن الثالث عشر.

=Sh. D. Goitein, *Letters of Medieval Jewish Traders*, Princeton, 1973 ; F. Melis, « Intensità e regolarità nella diffusione dell'informazione economica generale nel Mediterraneo e in Occidente alla fine del Medioevo », *Histoire économique du monde méditerranéen, 1450-1650. Mélanges en l'honneur de Fernand Braudel*, Toulouse, 1973, p. 389-424, rééd. *I Trasporti e le comunicazioni nel Medioevo*, Florence, 1984, p. 179-223 ; B. Doumerc, « Par Dieu écrivez plus souvent ! La lettre d'affaires à Venise à la fin du Moyen Âge », *La circulation des nouvelles au Moyen Âge. XXIVe Congrès de la SHMES, Avignon, juin 1993*, Rome-Paris, 1994, p. 99-109.

(2) إن عقود الكراء البحري خصوصا توضيح اختيار الوجهة المتبعة بحسـب سمـاع الأخبـار الجديـدة. ويستعلم التجار حول الظروف السياسية (وبالتالي أمن الميناء) وأيضـا حـول احتمـالات السـوق. علـى سبيل المثال:

ASG, min. 29, f. 164r (20/7/1253), éd. E. H. Byrne, *Genoese Shipping in the Twelfth and Thirteenth Centuries*, Cambridge (Mass.), 1930, p. 120-124.

I- العصر الذهبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر

إنّ السنوات الأولى لتطور بجاية مجهولة كثيرا. إنّ أول شهادة – بعد شهادة البكري (سابق لتأسيس المدينة الحمادية) هي شهادة الإدريسي[3]، الذي وصف نشاطا تجاريا كبيرا وشبكات برية وبحرية ممتدة جدا، وهذا ما تؤكده أولى الوثائق التجارية الجنوية المعاصرة. فهو بذلك يظهر نتيجة تطور أكثر قدما والتي يجب أن نتنازل عن الإحاطة بإيقاعاتها.

لكن يبدو أن البدايات كانت بطيئة. طبعا وجدت علاقات تجارية مع العالم الإسلامي ودون شك أيضا مع الجهات المسيحية القريبة[4]. ففي حوالي 1135 كتب تاجر يهودي إلى أخيه الأكبر بالقاهرة يخبره بسفره على متن مركب مسيحي من مصر إلى بجاية حيث قام بأعمال هامة[5]. إنّ هذه الحالة لم تكن دون شك معزولة، لكن لا تسمح المادة الوثائقية بمعرفة كثافة تجارة بجاية حتى منتصف القرن الثاني عشر. وتظهر شواهد العلاقات بين المدن الإيطالية الشمالية والمغرب في نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر مناخ عداوة تسيطر عليه

(3) لكن تظهر شهادة البيدق –حول الثراء الفاحش للبجائيين في نظره عند مرور المهدي بن تومرت بالمدينة– ازدهاراً كبيراً في نهاية القرن الحادي عشر. البيدق، الترجمة، ص 79.

(4) يتعقد روبارتو سباتينو لوبيز بحصول الجنويين والبيزيين على اتفاقيات تجارية مع الحماديين والزيريين في سنوات 1060–1080. R. S. Lopez, *Storia delle colonie genovesi nel Mediterraneo*, Bologne, 1938, rééd Gênes, 1997, p. 28. تلمح النصوص المحفوظة في الغالب إلى اتفاقيات قديمة أكثر (ربما شفوية). أيضا، يميل الهادي روجي إدريس إلى وجود معاهدة بين الحماديين والنورمانيين بصقلية. H.-R. Idris, *La Berbérie orientale sous les Zirides, Xe-XIIe siècle*, Paris, 1962, p. 308. وهو أيضا رأي أنليز ناف: A. Nef, *L'élément islamique dans la Sicile normande : identités culturelles et construction d'une nouvelle royauté (XIe-XIIe siècle)*, thèse de l'université Paris X, sous la direction de H. Bresc, 2001, p. 301.

(5) Goitein, *Letters*, *op. cit.*, p. 323.

القرصنة[6]. ففي 1136 شنّ اثنا عشر يختا جنويا غارة ضد بجاية واستولوا فيها على مركب وعدة مسلمين[7].

يجب أخذ عدة عوامل في الحسبان لتفسير هذه المشاكل. في بادئ الأمر إن التجارة المغاربية مرّت بصعوبات تشهد عليها وثائق الجنيزة[8]. في بداية القرن الحادي عشر، كتب يهود إفريقية مراسلاتهم إلى نظرائهم في مصر لطلب مساعدتهم على الهجرة، وفي رسالة أخرى لنفس الفترة هنأ يهودي مراسله على استقراره بمصر لأن "الغرب (الإسلامي) لا يساوي شيئا من الآن فصاعدا"[9]. لقد نمّى التجار الأوروبيون أيضا مبادلاتهم مع الشرق المتوسطي مفاضلة عن المغرب، كما هو حال الألمفاتيين والبنادقة في وقت مبكر جدا، ثم بعد ذلك بقليل البيزيين والجنويين[10]. نحن إذن نشاهد تنقّلا نحو الشرق حيث أن مصر هي المستفيد الأول. ويفسّر هذا التغيير بسياسة الفاطميين الذين بحثوا عن جذب التجارة دون

(6) G. Jehel, *L'Italie et le Maghreb au Moyen Âge. Conflits et échanges du VIIe au XVe siècle*, Paris, 2001, p. 38-43.

(7) *AG*, I, p. 28, trad. p. 86. Cf. également M. Tangheroni, « Sui rapporti commerciali tra Pisa e la Tunisia nel Medioevo », *L'Italia ed i paesi mediterranei. Vie di comunicazione, scambi commerciali e culturali al tempo delle Repubbliche marittime*, Pise, 1988, p. 83.

(8) Sh. D. Goitein, *A Mediterranean Society. The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza*, I, *Economic Foundations*, Berkeley-Londres, 1967, p. 32.

(9) *Ibid.*, p. 56.

في القرن العاشر وأيضا في السنوات الأولى من القرن الحادي عشر، كانت إفريقية هي دائما محور التجارة المتوسطية. *Ibid.*, p. 212.

(10) Cl. Cahen, « Quelques problèmes concernant l'expansion économique musulmane au haut Moyen-Âge », *L'Occidente e l'Islam nell'alto Medio Evo*, Spolète, 1965 (*Settimane di studio del Centro Italiano di Studi sull'Alto Medio Evo*, XII), I, p. 428 ; Id., *Orient et Occident au temps des Croisades*, Paris, 1983, p. 36-41 ; A. L. Udovitch, « Fatimid Cairo : Crossroads of Word Trade – From Spain to India », *L'Egypte fatimide, son art et son histoire*, dir. M. Barrucand, Paris, 1999, p. 681-691.

المرور بالوسيط الإفريقي[11]. أشار جون دوفيس أيضا لتحويل طرقات الذهب نحو الغرب في نهاية القرن العاشر[12]. وأخيرا، تضاف الاضطرابات الخاصة بإفريقية إلى هذه الصعوبات، خصوصا في النزاع الزيري والحمادي وأيضا تنقلات القبائل الهلالية.

إذن بداية من منتصف القرن الثاني عشر يمكن أن نبدأ فعليا دراسة نشاط الميناء، بمعنى لحظة إرساء السيطرة الموحدية. لم يتوقف نمو هذا النشاط حتى بداية القرن الرابع عشر. أرسلت إليه أغلب المدن التجارية في أوروبا الجنوبية تجارا، حتى وإن سيطر البيزيون والجنويون على التجارة أثناء مرحلة طويلة. لكن تحليل الشبكات التجارية يصطدم باختلال غنى الرصيد الوثائقي من عدمه والصورة المتحصّل عليها توجد مشوّهة لصالح جنوة أساسا، حيث أن نشاطها معروف جدا بفضل رصيدها الاستثنائي للموثقين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. لا يوجد مثيل له في بيزا وبرشلونة والبندقية أو في نابولي، وهذا لا يعني بالضرورة أن هذه الموانئ لم تعقد علاقات متتابعة مع بجاية. أخيرا، من الصعب تقدير التجارة المباشرة مع المشرق، كما في بقية الغرب الإسلامي، سواء تعلق الأمر بالتجارة البرية أم البحرية. إن هذه التحفظات المنجزة، تبين أن بجاية لم تعقد علاقات مكثّفة مع المدن الرئيسية في البحر المتوسط.

استفادت بجاية من ظرفية مزدوجة ومناسبة، تتمثل في الازدهار الموحدي والقرن الأول الحفصي، وفي أوروبا من الثورة التجارية ونمو المبادلات البحرية.

(11) Cahen, « Quelques problèmes », art. cité, p. 428.

(12) J. Devisse, « Commerce et routes du trafic en Afrique occidentale », *Histoire générale de l'Afrique*, III, *L'Afrique du* VIIe *au* XIe *siècle*, dir. M. El-Fasi, Paris, 1990, p. 428-429.

1) النصف الثاني من القرن الثاني عشر: تطور العلاقات التجارية مع المدن الإيطالية

"وهي مرسى عظيمة تحط فيها سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم، وسفن المسلمين من الإسكندرية بطرف بلاد مصر وبلاد اليمن والهند والصين وغيرها[13]." بهذه الكلمات انبهر صاحب كتاب الاستبصار، ربما بشيء من المبالغة[14]، أمام النشاط البحري لبجاية في الفترة الموحدية. في نهاية القرن الثاني عشر، أصبحت المدينة في الواقع واحدة من كبرى موانئ الضفة الجنوبية للبحر المتوسط.

إن استيلاء عبد المؤمن على المدينة وضع حدا لاستقلال العاصمة الحمادية، لكنه لم يضر بازدهارها. بالعكس، فقد أدمجها في فضاء واسع موحّد من الأندلس إلى إفريقية. بقيت إذن بجاية -مع قسنطينة- قطبا مسيطرا على الجهة، كما يشهد بذلك تنصيب عمال من طراز كبير فيها. بدأت الآثار العنيفة جدا للهجرات الهلالية تترك بصماتها في نفس الوقت مع العودة إلى نظام سياسي صلب والاستقرار النسبي للجماعات القبلية. إن الأزمة الهامة الأولى هي أزمة بني غانية في 1184، لكنها لم تؤثر على بجاية إلا لفترات قليلة من الوقت، وانتقل المشكل بسرعة نحو الجنوب وخصوصا نحو الشرق.

عرفت أوروبا في ذات الفترة نموا اقتصاديا ملحوظا، والذي ساندته ديمغرافية حيوية، مسّت جميع قطاعات الانتاج في المدن كما في الأرياف. أتبعت

(13) الاستبصار، ص 35.

(14) لكن لا يجب أن نطرح على هذه الشهادة نظرة أكثر نقدية: في القرن الرابع عشر التقى ابن بطوطة في الصين بتاجر من سبتة كان قد سافر إلى الهند. ابن بطوطة، ص 985. إن قدوم السفن من الجهات البعيدة هو غير محتمل ويتعلق الأمر بالأحرى بأسطورة.

اللحظة حيث نمت "الثورة التجارية"[15] إيقاعات مختلفة حسب الجهات، وهـي الـتي ما زال يتناقش حولها المؤرخون[16]. هذا النمو كان مبكرا في إيطاليا ومتـأخرا عنـه في كتالونيا أو بروفانسيا. في جميع الحالات، يلمس آثارهـا علـى التجـارة المغاربيـة بداية من النصف الثاني من القرن الثاني عشر. موازاة مع هذا التمدد الاقتصادي، ربحت المسيحية بداية من القرن الحادي عشر مجالات أخرى على حساب الإسلام. وإذا لم تكن هنالك آثار دائمة للهجمات ضد السواحل المغاربية فإن الجزر الكبرى في البحر المتوسط الغربي مرّت كلها تدريجيا تحت المراقبـة الإيطاليـة أو الكتالانيـة وأصبحت قواعد أساسـية للتجـارة والملاحـة، كمـا هـو حـال صـقلية وسـردينيا خصوصا وبعد ذلك ميورقة.

إنّ البيزيين والجنويين هم أوائل الذين نموّا تجارة نشـطة في بجايـة.إنّ وثـائق الأرشيف التي تسمح بدراسة هذه المعاملات التجارية ليست متوفرة إلا بداية مـن منتصف القرن الثاني عشر[17]، لكنها تبيّن مبادلات ملحوظة قبل ذلك، حيـث أن البدايات يجب أن توضع قبل ذلك بقليل. أشار الإدريسي إلى الازدهـار التجـاري لهاتين المدينتين حتى وإن لم يتحدث بصراحة عن علاقاتها مع المغـرب[18]. يصـف معاصره الزهـري البيـزيين "كتجـار علـى الـبر والبحـر حيـث يـذهبون إلى الشـام

(15) R. S. Lopez, *La Révolution commerciale dans l'Europe médiévale*, Paris, 1974, et plus récemment M. Tangheroni, *Commercio e navigazione nel Medioevo*, Bari, 1996, p. 127-186.

(16) *Ibid.*, p. 129-130.

(17) وردت بجاية في وثيقة من بين الموانئ التي يـتردد عليهـا الجنويـون. يتعلـق الأمـر بتسـعيرة ديوانيـة محفوظة في سجل نسـخ الوثـائق الـتي علـى صـلة بأسـقفية جنـوة، جمعـت سـنة 1143. *Registrum Curiae*. Éd. L. T. Belgrano, « Registro della Curia arcivescovile di Genova », *ASLSP*, 2, 1862, p. 9. الأول العمل الأول هو عقد شركة في 1156. Giovanni Scriba, n° 59 (16/4/1156).

(18) الإدريسي، الترجمة، ص 371-372.

والإسكندرية ومدن مصر وأيضا أقاصي المغرب والأندلس"[19]. أبرمت الجمهوريتان بسرعة اتفاقيات مع الموحدين، أسياد المغرب الجدد. ففي 1161، وقّعت جنوة معاهدة لمدة خمس عشرة سنة، تضمن أمن الجنويين في البر والبحر. تمّ تحديد الرسوم المدفوعة بثمانية في المائة ما عدا في بجاية حيث تكون عشرة في المائة، وربع المداخيل تعود إلى مجلس مدينة جنوة[20]. وفي 1166، أمضت بيزا بدورها معاهدة مع الموحدين صالحة مدة حكم الخليفة يوسف بن يعقوب[21]. كانت موانئ إيطاليا الجنوبية أيضا على علاقة بالمغرب، متبعة في هذا تقليدا قديما أبقاه النورمان.

---

(19) الزهري، كتاب الجغرافية، نشر محمد صادق:

Mappemonde du calife al-Ma'mūn reproduite par al-Fazārī (IIIe/IXe siècle), rééditée et commentée par al-Zuhrī (VIe/XIIe siècle), éd. M. Hadj Sadok, *Bulletin d'Etudes Orientales*, 21, 1968, p. 229.

ترجم الفقرة كر. بيكار:

Chr. Picard, *L'Océan atlantique musulman. De la conquête arabe à l'époque almohade. Navigation et mise en valeur des côtes d'al-Andalus et du Maghreb occidental (Portugal-Espagne-Maroc)*, Paris, 1997, p. 415.

(20) *AG*, I, p. 62, trad. p. 124.

إن سبب هذا البند الجمركي ليس واضحا، لكن ربما يعني تعويضا عن ضرر أعمال القرصنة. يشير مخطوط آخر استعمله لويس دو ماس لاتري إلى أن 1/ 5 من الرسوم المستلمة في بجاية يدفع من جديد إلى مجلس المدينة (القومون). هذا الرقم أشار إليه أيضا كتاب الأخبار لأجوستينو جيوستنياني. Agostino Giustiniani, *Annali della Repubblica di Genova*, éd. G. B. Spotorno, Gênes, 1854, I, p. 204. Hilmar C. Krueger pense que ce traité a été renouvelé en 1176. H. C. Krueger, « Genoese Trade with North-west Africa in the XIIth Century », *Speculum*, 8, 1933, p. 379. تمّ إرسال سفارة إلى الخليفة الموحدي سنة 1191 والتي توصلت إلى معاهدة سلم جديدة. *AG*, II, p. 41

(21) Bernardo Marangone, *Annales Pisani*, éd. M. Lupo Gentile, Bologne, 1936-1940 (*Rerum italicarum, scriptores*2, VI, 2), p. 40.

بعد وفاة الخليفة في 1186، أرسلت بيزا سفارة التي جدّدت الهدنة لمدة خمسة وعشرين سنة. وبهذا فإن البيزيين لهم حق التجارة في سبتة ووهران وبجاية وتونس. النص العربي مع الترجمة الإيطالية:

M. Amari, *Diplomi arabi del R. Archivio fiorentino*, Florence, 1863, partie arabe, n° 5, p. 17-22.

في 1181 أمضى ملك صقلية غليوم هدنة مع الموحدين لمدة عشر سنوات(22). لكن تنقص الوثائق لتقدير حقيقة هذه التجارة في بجاية في القرن الثاني عشر. إنّ أمالفي التي كانت واحدة من أوائل المدن التي نمّت أعمالها مع العالم الإسلامي(23) هي على الخصوص غائبة تماما في المادة الخبرية(24). الأمر ذاته بالنسبة لجيات (Gaète) التي نعرف أنها تاجرت مع تونس(25). أخيرا، كانت البندقية على علاقة ببجاية كما تبينه أعمال التاجر رومانو ميرانو (Romano Mairano)، لكن لا ندري إذا ما كانت هناك علاقات رسمية أو اتفاقيات سلم مع الموحدين(26).

---

(22) *Breve Chronicon [Chronique anonyme du Mont Cassin]*, Milan, 1724 (*Rerum italicarum scriptores*, 5), col. 70 ; L. de Mas-Latrie, *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-Âge*, Paris, 1866, p. 152.

(23) أنظر شهادة غليوم دو بويي (Guillaume de Pouille) في نهاية القرن الحادي عشر. *La Geste de Robert Guiscard*, éd. et trad. M. Mathieu, Palerme, 1961, p. 190-191.: "يعبر سكانها البحر كثيرا ويعرفون العرب والليبيين والصقليين والأفارقة وهم معروفون تقريبا في العالم بأسره ويجبون حمل الأشياء التي اشتروها".

(24) كان تراجع أمالفي عام جدا، أنظر:

G. Galasso, « Il commercio amalfitano nel periodo normanno », *Studi in onore di Riccardo Filangieri*, I, Naples, 1959, p. 81-103 ; Cl. Cahen, « Amalfi en Orient à la veille, au moment et au lendemain de la première croisade », *Amalfi nel Medioevo : convegno internazionale, 14-16 giugno 1973*, Salerne, 1977, p. 269-283.

إن تطور جنوة وبجاية كان كارثيا لتجارة أمالفي الكبيرة، إضافة إلى مرورها تحت السيطرة النورمانية. أنظر:

A. O. Citarella, « Il declino del commercio marittimo di Amalfi », *Archivio storico per le province napoletane*, s. III, 13, 1975, p. 9-54.

(25) M. Merores, *Gaeta im frühen Mittelalter (8. bis 12. Jahrhundert)*, Gotha, 1911, p. 103.

(26) إن حالة الوثائق الجنوية لا تسمح بمعرفة حجم هذه التجارة بين البندقية وبجاية.

إن الأرشيفات البيزية هي للأسف فقيرة جدا لدراسة العلاقات التجارية مع بجاية بدقة. أُحتفظ بوثيقة واحدة لهذه الفترة، وهي شكوى مرسلة إلى الخليفة في 1181 بخصوص صعوبات واجهت تجار المدينة التسكانية تسبب فيها مسؤول بديوان بجاية[27]. تبيّن أيضا بعض الشواهد مجيئ أناس من سافون إلى بجاية في الربع الأخير من القرن الثاني عشر[28].

إذن المبادلات معروفة خصوصا من خلال عقود الموثقين الجنويين. لا تسمح الأرقام المطلقة للاستثمارات الجنوية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر من رسم صورة تطور واضح بسبب ضعف عدد العقود المحتفظ بها بالنسبة لهذه الفترة. في المقابل، تظهر جيدا المكانة النسبية لبجاية في التجارة الجنوية بالبحر المتوسط وخصوصا بالمغرب.

بالنسبة لسنوات 1158-1161، تبيّن حسابات دافيد أبو العافية المكانة المتواضعة للمغرب في الاستثمارات الجنوية[29]:

---

(27) Amari, *Diplomi*, *op. cit.*, texte latin, partie latine, n° 14, p. 270, texte arabe et trad. it., partie arabe, n° 3, p. 10-13 (1/7/1181).

(28) في سنة 1178، قتل رجل مسلم السافوني أنسالدو فلاندول (Ansaldo Flandole) ببجاية. *Il Cartulario di Arnaldo Cumane e Giovanni de Donato, Savona, 1178-88*, éd. L. Balletto, Rome, 1978, n° 119.

حول سافون، أنظر:

F. Noberasco, « Savona allo spirale del secolo XII », *Atti della Società savonese di Storia Patria*, 14, 1932, p. 233-234 ; S. Origone, « Commercio marittimo nella Savona del XII secolo », *Società savonese di storia patria. Atti e memorie*, 30, 1994, p. 51-61. لكن جنوة عرقلت تجارة سافون حيث أجبرت في 1153 قبطان المراكب بالمرور عن طريق جنوة إذا ما تمنوا الذهاب إلى ما بعد سردينيا. ووجب عليهم إذن حمل الأغلبية من تجار جنوة.

A. Bruno, « Antico commercio e navigazione dei Savonesi nel Mediterraneo e nel Levante », *Bollettino della società Storica savonese*, I, 1898, p. 112.

(29) D. Abulafia, *The Two Italies: Economic Relations between the Norman Kingdom of Sicily and the Northern Communes*, Cambridge, 1977, p. 111, 113, 119.

تم حساب النسب المئوية انطلاقا من مجموع الاستثمارات الجنوية للوجهة المعروفة.

جدول 28: توزيع الاستثمارات الجنوية (1158–1161)

السنوات	صقلية	سوريا–مصر	المغرب	بجاية
1158	34%	37%	7,4 %	3,6%
1160	%16,4	25,3%	19,5%	11,8%
1161	13,5%	48,8%	9,7%	2,8%

تركزت إذن أساسا هـذه الاسـتثمارات[30] في صـقلية والمشـرق (سـوريا ومصر)، بمعنى أن المغرب بقي هامشيا. لكن يجب تنويع هذه النتـائج. في الواقـع، عمل الموثق جيوفاني سكريبا - الذي يعد المصدر الوحيد المتاح لهذه السنوات- في قسم كبير لزبـون ينتمـي للنخـب الحاكمـة في المدينـة[31]، وأقـل بالنسـبة للتجـار المتوسطين الذين هم نشطين جدا في المغرب. مـن الممكـن القـول إذن أن التجـارة الإفريقية لم يعط لها اعتبار كثير. مع التأكيد أن المدن الـتي كـان الـتردد عليهـا هـي تونس وقابس وطرابلس وسلا وأيضا سبتة وبجاية.

جدول 29: الاستثمارات الجنوية في بجاية وتونس وسبتة (1155–1164)[32]

	بجاية		تونس		سبتة		مجموع المغرب[33]
1155	0	%0	5	%100	0	%0	5
1156	200	%100	0	%0	0	%0	200
1157	148	%32,6	234	%51,5	0	%0	454
1158	106	%99,1	1	%0,9	0	%0	107
1159	109	%100	0	%0	0	%0	109

(30) تجب إضافة رومانيا التي جذبت في 1160 19،25 % من الاستثمارات. حول التجارة الجنويـة في سوريا في القرن الثاني عشر وتطوره السريع بداية من 1150، أنظر:
E. H. Byrne, « Genoese Trade with Syria in the Twelfth Century », *American Historical Review*, 25/2, 1920, p. 192-194.

(31) Erik Bach, *La Cité de Gênes au XIIe siècle*, Copenhague, 1955, p. 61.

(32) من خـلال: Krueger, « Genoese Trade with North-west Africa », art. cité, p. 380

(33) منها طرابلس وقابس والغرب وسلا وبلاد البربر.

1160	773	%61,6	60	%4,8	355	%28,3	1254
1161	225	%21,2	0	%0	744	%70,1	1061
1162	41	%9,3	66	%15	214	%48,6	440
1163	409	%28,8	227	%16	150	%10,5	1422
1164	518	%61,5	0	%0	220	%26,1	842
المجموع	2529	%42	802	%13,3	1683	%28	6015

في مجمل العشرية، كانت بجاية هي أول وجهة في المغرب، لكن بداية من 1160، وجب عليها الإعتداد بمنافسة سبتة لها. لكن في المقابل، بقيت تونس بعيدا في المؤخرة ما عدا في 1157 (سنة 1155 ليست ذات دلالة).

تبيّن وثائق سنوات 1182–1191 (الموثقان أوبرتو سكريبا دو ماركاتو (Oberto Scriba de Mercato) وجيجليمو كاسنيزي (Guglielmo Cassinese)) مكانة هامة بالنسبة للمغرب في الاستثمارات الجنوية، وهذا ما يفسّر في قسم منه تطور وضعية الجنويين في المشرق[34].

(34) D. Valérian, « Gênes, l’Afrique et l’Orient : la place du Maghreb dans la politique génoise en Méditerranée (seconde moitié du XIIe siècle) », *Chemins d’outre-mer. Etudes d’histoire sur la Méditerranée médiévale offertes à Michel Balard*, éd. D. Coulon, C. Otten, P. Pagès, D. Valérian, Paris, 2004, p. 835-837.

جدول 30: الاستثمارات الجنوية (1182–1191) [35](بالليفر الجنوي)

	1182	183	1 184	1186	1190	1191	المجموع
سبتة	2113,1		973	1983,15	0	4672,3	9741,55
حصة سبتة/المغرب	*78,4%*		*83,2%*	*76,3%*	*0*	*44,6%*	*57,2%*
بجاية	430,25		47,4	0	0	2081,4	2559,05
حصة بجاية/المغرب	*16%*		*4,1%*	*0*	*0*	*19,9%*	*15%*
تونس	150		149,05	600,4	0	1460,44	2359,89
حصة تونس/المغرب	*5,6%*		*12,7%*	*23,1%*	*0*	*13,9%*	*13,9%*
وهران	0		0	5,5	0	400	405,5
الغرب	0		0	10	86	1047	1143
طرابلس	0		0	0	0	389,65	389,65
إفريقية (المهدية)	0		0	0	0	225	225
بلاد البربر	0		0	0	0	205,7	205,7
مجموع المغرب	2693,35		1169,45	2599,05	86	10481,49	17029,34
حصة المغرب/الكل	*39,6%*		*28,2%*	*21,9%*	*1,2%*	*25,5%*	*23,9%*
الأسكندرية	540,6		174,7	246,6	0		961,9
سوريا	127		1196,05	3549,4	1721,25	8921,25	15514,95
القسطنطينة	0	0	0	1917,95	0	5096,45	7014,4

(35) تمّ وضع هذا الجدول انطلاقا من جرد باش. Bach, *La Cité de Gênes*, *op. cit.*, annexes.

مجموع المشرق	667,6	0	1370,75	5713,95	1721,25	14017,7	23491,25
حصـــــــة المشرق/ الكل	*9,8%*	*0*	*33,1%*	*48,2%*	*24,1%*	*34,1%*	*32,9%*
صقلية	1005,5	310	689,3	2159,85	3159,05	7697,7	15021,4
سردينيا	829,25	0	193	188,2	1226,55	2935,35	5372,35
كورسيكا	15	0	62,5	0	16	31,5	125
سالرن	221	0	8,4	0	0	0	229,4
نابولي	0	0	6	672,05	10	3402,9	4090,95
الإمارة	0	0	6	0	0	0	6
روما	68,75	0	6,1	140,6	230	229	674,45
كونيتو	0	0	0	0	92	0	92
بيزا	0	0	0	0	51,25	471,75	523
مارام	350,2	21	506,85	165,9	305,75	191,4	1541,1
مونبليي	115	0	0	0	0	0	115
ميدي فرنسا	0	0	0	207,9	146,2	671,7	1025,8
ميورقة	830,55	0	100	0	110	43,75	1084,3
كتالونيا	0	0	20	0	0	907,3	927,3
إسبانيا	0	0	3	0	0	0	3
المجموع	6796,2	331	4141,35	11847,5	7154,05	41081,54	71351,64

جذب المغرب إذن خلال هذه الفترة ربع الاستثمارات الجنوية مقابل ثلث للمشرق، لكن معدل المبالغ المستثمرة باتجاه الأسواق المشرقية هو أكبر بمرتين منه بالمغرب[36]. إلى غاية 1190، ثلاثة موانئ فقط في الجهة كانت معنية بالتجارة الجنوية: تونس وبجاية وسبتة. إنّ المعاهدات المبرمة مع الموحدين منعت في الواقع

(36) *Ibid.*, p. 51.

الوصول إلى ميناء آخر ما عدا في حالة الضرورة[37]. لكن مراتب هذه المدن تعدّلت مقارنة بسنوات 1150-1160: من الآن فصاعدا سبتة هي المدينة الأكثر أهمية وركّزت أكثر من ثلاثة أرباع الاستثمارات الجنوية حتى 1186، وتقاسمت تونس وبجاية المرتبة الثانية. في بعض السنوات، الأولى تتجاوز الثانية بفارق شاسع، وهو ما يسجّل بواكير تغيير دائم كما هو الحال سنة 1186 حيث لم يبرم أي عقد باتجاه بجاية. لا بد هنا من رؤية الآثار العابرة لأزمة بني غانية الذين نزلوا في نهاية 1184 ونشروا الاضطراب بالجهة خلال بعض الوقت. ركدت التجارة سنة 1190 بالنسبة لمجمل المغرب، ربما لتجدد التوتر بسبب الحروب الصليبية والمجهودات التي وفّرتها جنوة في المشرق[38]. لكن ابتداء من السنة الموالية، استأنفت المبادلات بمستوى جيد حينما تمّ التوقيع على سلم جديد.

2) القرن الثالث عشر الجميل

استمر ازدهار النصف الثاني من القرن الثاني عشر إلى نهاية الفترة الموحدية وخلال القرن الحفصي الأول. إن سيطرة الحفصيين بتونس على المدينة تمّت دون عنف ظاهر. حينئذ شاركت بجاية في ازدهار إفريقية وعرفت إشعاعها الأكبر في المغرب وفي البحر المتوسط.

في نهاية القرن الثالث عشر أو في بداية القرن الرابع عشر كتب القاضي الغبريني عنوان الدراية، وهو مجموع تراجم لعلماء بجاية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر، والذي يفتخر فيه بمدينته، موضحا إشعاعها الفكري. إن الشخصيات التي يقدمها ليست في غالبيتها بجائية الأصل[39]، لكن قدمت إليها

(37) تتحدث معاهدة 1236 بين جنوة والحفصيين – هي أقدم معاهدة معروفة- ببساطة عن "المدن الاعتيادية التي يسمح فيها بالاتجار (المادة 1). وتوضح المعاهدة البيزية مع الموحدين في 1186 أن الموانئ التي ينفذ إليها المسيحيون هي سبتة وبجاية وتونس.

(38) Valérian, « Gênes, l’Afrique », art. cité, p. 835-837.

(39) أكثر من ثلثي الشخصيات المذكورة هي أجنبية عن المدينة.=

أحيانا للاستقرار النهائي، جذبتها بازدهارها وبحيويتها الفكرية والدينية وبقوة أمرائها[40]. كثير منهم قدم من المغرب الأوسط، وتظهر المدينة في هذا المجموع كقطب كبير لجهة تمتد من بونة إلى الجزائر[41]. إلى ما بعد مقاطعتها، جذبت بجاية أيضا من بعيد، من الأندلسيين بالأساس. إذ دفعت حركة الاسترداد (Reconquista) وتراجع الحدود في إسبانيا كثيرا من المسلمين واليهود إلى المنفى. فالكثير منهم اختار بجاية التي دائما ما عقدت روابط مع شبه الجزيرة الأيبيرية[42]. وساهموا في تنشيط الاقتصاد وخصوصا التجارة البحرية[43]. وفي الأرياف بعد الهجرات الكبرى الأخيرة للقبائل خلال أزمة بني غانية، استقر السكان، ونشأ توازن مما ساهم في الازدهار. ولم تكن الطرق مضمونة طبعا، لكن لا شيء يشير إلى توقف المبادلات الداخلية. في الجنوب، أمسكت عائلة بني مزني المستقرة ببسكرة بالمنفذ المؤدي إلى محاور القوافل الصحراوية، والتي رغم وفائها الهش للحفصيين والنزاعات المتكررة وجب عليها ضمان أمن تجارة كانت نافعة لها.

إن النزاعات لم تكن طبعا غائبة في هذه الفترة. لكن وإلى غاية نهاية حكم المستنصر، كانت قوة سلطان تونس كافية لضمان الاستقرار السياسي. ومازال العبد الواديون – على غرار المرينيين- ضعيفين جدا للتشويش على الأراضي الحفصية. رغم أنه نحو نهاية القرن الثالث عشر بدأت النزاعات في الاستئناف من جديد. بين سنتي 1283 و1318 كانت بجاية مقرا لدولة مستقلة بطريقة متواصلة تقريبا. لكن لم ينتج عنها حروب مضرة للبلاد وفترة الانفصال الطويلة هذه هي

=D. Urvoy, « La structuration du monde des ulémas à Bougie au VIIe/XIIIe siècle », *Studia Islamica*, 43, 1976, p. 97.

(40) لكن البعض لم يقم إلا بالمرور بها، لأن بجاية كانت واقعة على الطريق الذي يصل إلى المشرق.

(41) Urvoy, « La structuration », art. cité, p. 98.

(42) D. Valérian, « Les Andalous à Bougie, XIe-XVe siècle », *Migrations et diasporas méditerranéennes, XIe-XVIe siècles*, dir. M. Balard et A. Ducellier, Paris, 2002, p. 313-330.

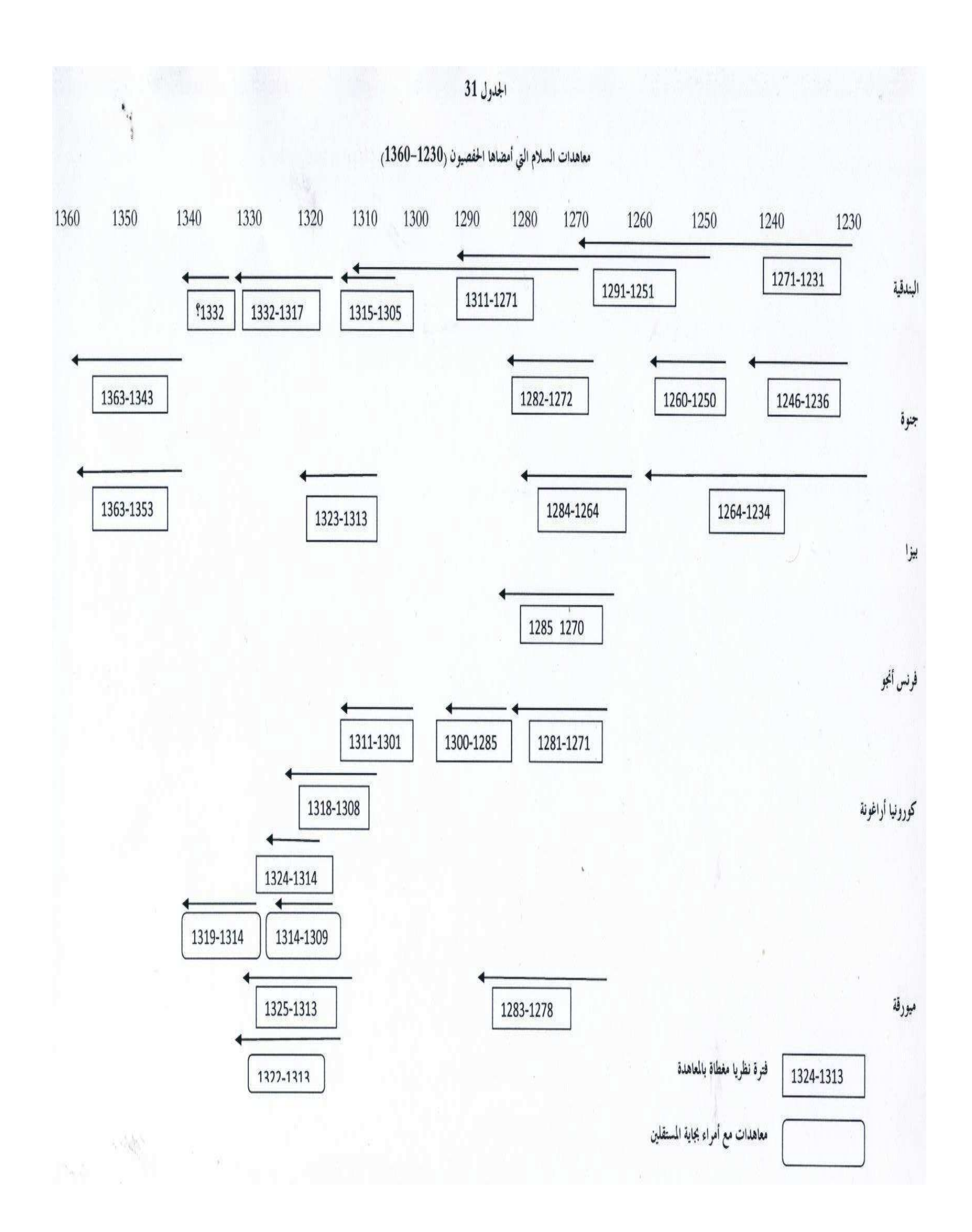
(43) *Ibid.*, p. 323-327.

خصوصا إشارة لازدهار مدينة قادرة على مساندة طموحات أميرها. فيما يخص الهجمات القادمة من الغرب، لم تكن تهديدا جديا حتى سنوات 1310.

إن أي سياق كهذا لم يستطع إلا مساندة الازدهار وجذب التجار إلى الميناء. في أوروبا، امتد التطور الاقتصادي والتجاري في القرن الثالث عشر إلى جهات كثيرة. وتطورت صناعة النسيج وصناعة الجلود في المدن الكبرى الجنوبية، متطلبة مواد أولية ومنافذ لمنتجاتها. لقد ساعد غنى المدن الاستثمارات في التجارة البعيدة، التي تعني فئات عريضة من السكان. ومن الآن فصاعدا، لم يكن الإيطاليون لوحدهم من تردد على بجاية، فهناك أيضا البروفانسيون وخصوصا الكتالانيون.

منذ بدايات السلالة الحفصية تضاعفت المعاهدات مع القوى الأوروبية الرئيسية: في 1231 مع البندقية (لمدة 40 سنة)، وفي 1234 مع بيزا (لمدة 30 سنة)، وفي 1236 مع جنوة (لمدة 10 سنوات). وتنص هذه الاتفاقيات على مجيء التجار إلى الموانئ الكبرى في السلطنة من بينها بجاية طبعا. تبعا لذلك، جددت هذه الاتفاقيات دوريا. إن البندقية التي أمضت هدنات لمدة أطول (30 أو 40 سنة) كانت على سلم بكيفية مستمرة تقريبا في القرن الثالث عشر. ظاهريا لم يكن الحال كذلك بالنسبة لجنوة حيث أن الهدنات كانت قصيرة جدا، لكن ليس مستبعدا ضياع نصوص بعض المعاهدات. ففي 1264، مدّدت بيزا لمدة عشرين سنة اتفاق 1234 الذي وصل إلى نهايته. لكن على إثر انتهاء هذه الفترة الجديدة، لم تجدّد المعاهدة. يفسّر هذا بالهزيمة القاسية التي تعرضت لها بيزا في جنوة في 1284 في معركة ملوريا (Meloria) ، والتي أضعفت بصفة دائمة قوتها على الأقل على الصعيد السياسي[44].

(44) حول أثر النزاع بين جنوة وبيزا في نهاية القرن الثالث، أنظر على الخصوص أعمال ملتقى:
Genova, Pisa e il Mediterraneo, per il VII centenario della battaglia della Meloria, Genova, 24-27 ottobre 1984, ASLSP, n. s., 24/2, 1984, notamment G. Pistarino, « Politica ed economia del Mediterraneo nell'età della Meloria », p. 23-50 ; M. Balard, « Génois et Pisans en Orient (fin du XIIIe - début du XIVe siècle) », p. 179-209.



أثـارت حملـة لـويس التاسـع (Louis IX) وشـارل دانجـو (Charles d'Anjou) الصليبية في 1270 أزمة مسّت جماعات التجار الأوروبـيين في المـوانئ الحفصية. حتى وإن لم تمس المعارك بجاية مباشـرة، يبـدو أن المسـيحيين المسـتقرين في المدينة فضلوا الفرار، وهـذا مـا يشـهد عليـه تعـيين القـس جـافيرو (Jaffero)

في 1271، عميد كنيسة البيـزيين في بجايـة والـذي كـان قـد اضـطرّ لـترك المدينـة في السنة السابقة[45]. لقد طالب به التجار المتواجـدون في المينـاء، وهـذا مـا يبـيّن عودة هؤلاء أو عدم مغادرة بعضهم المغرب. في نفس السنة ذهب القـس الجنـوي نكولو (Nicolò) إلى بجاية رفقـة الإكليريكـي جيـاكومينو (Giacomino) [46]، ودون شك أن كنيسة فندق الجنويين وجدت نفسها مؤقتا بـلا كـاهن يرعاهـا. إنّ العودة إلى الحياة العاديـة كانـت إذن سـريعة جـدا كمـا تشـهد علـى ذلـك أربـع معاهدات موقعة من الحفصيين بين سنتي 1270 و1272 والتي أعادت العلاقـات الودية. وفي 1271 خصوصا، أبرم ملك أراجونة اتفاقا مع تـونس، معطيـا إطـارا قانونيا للنشاطات المتزايدة للكتـالانيين في السـلطنة. مـن الآن فصـاعدا أصـبحت العلاقات السياسية مع المدن الإيطالية عرضـية أكثـر[47]، وطـرح ملـوك أراجونـة وميورقة أنفسهم كمحادثين ذوي حظوة مع الحفصيين. أقرّت المعاهدات المتجـددة سـلما مسـتمرا تقريبـا إلى غايـة بـدايات سـنوات 1320. وفي 1309، 1312 و1314، أبرم الملوك الكتالانيين اتفاقيات مباشرة مع بجاية التي أصبحت مستقلة.

إن التجار المحميين بمعاهدات لهم فوائد: أمنهم مضمون، والرسوم الجمركية مثبّتة وترافق هذه الضمانات بصفة عامة بنى الجماعات الخاصة بها لتلبية حاجياتها في بجاية. في القرن الثالـث عشـر، كانـت بجايـة إذن علـى علاقـة بأغلـب القـوى التجارية الكبيرة في البحر المتوسط. لكـن ديناميكيـة التجـار الأوروبـيين وضـعتها خصوصا على اتصال مع الإيطاليين والبروفانسيين والكتالانيين[48].

(45) Éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 47 (29/4/1271).

(46) ASG, min. 95, f. 149v (12/2/1271).

(47) إن غياب معاهدة محفوظة لا يعني بالضرورة تـدهورا في العلاقـات السياسـية والتجاريـة. واصـل الجنويون على غرار البيزيين المجيئ إلى بجاية لأعمالهم.

(48) لكن كان بإمكان الأمم الأخرى أن تضع نفسها تحت حماية قوة يعترف بها الحفصيون.

واصل الأوائل -الـذين كـانوا بالأسـاس البيـزيين والجنـويين - علاقـاتهم المتطورة في القرن السابق.

إنّ ندرة الوثائق البيزية لا يجب أن تخدعنا. يبيّن حـادث في 1285 وضـعية ريادية للبيزيين في بجاية. اسـتأجر البنـدقي مـارينو سـاندو (Marino Sanudo) مركبا للذهاب لحمل الصوف والفراء من بجاية وجيجل. أقسم – على غرار بقيـة كل القبطانات– بعدم الذهاب إلى بيزا ومعلنا عدم العودة إلى جنوة أو البندقية بعد إقامته بإفريقيـة. لكـن في عودتـه، ألقـى عليـه الأمـيرال الجنـوي بنـديتو زتشـاريا (Benedetto Zaccaria) القبض في البحر قرب بيومبينو (Piombino)، متهما إيـاه بالـذهاب إلى المينـاء البيـزي (Porto Pisano)، ومعتـبرا أن البيـزيين هـم المسيحيون الوحيدون الذين لهم علاقة بهذه الجهات[(49)]. هنـاك دون شـك مبالغـة من الجنويين الذين كانوا قد باعوا في بعض السـنوات السـابقة في جنـوة الصـوف والشب الوارد من بجاية. لكن يوحي هذا الحادث العرضي بأهميـة بيـزا في سـوق بجاية[(50)]. أيضا، عندما أراد الملك الأراجوني جاك الثاني تحضير اتفاق مع سـلطان بجاية أبي زكريا في 1298، فـإن تـاجرا جنويـا – رايـنيرو مارتشـيلي (Rainier Marcellin) – هو الذي أرسله له، وهذا ما يبيّن مكانة وقيمة هذه الأمة[(51)]. من

(49) *In quo loco pauci utuntu christiani nisi solummodo Pisani*. ASG, *Materie politiche, Mazzo* V, n° 2724, éd. R. S. Lopez, *Genova marinara nel Duecento, Benedetto Zaccaria, ammiraglio e mercante*, Milan, 1933, p. 261.

(50) تقول فكرة مستمرة لدى مؤرخي بيزا أن دخول التجار المسيحيين إلى بجاية كـان خاضـعا لرخصـة البيزيين. وتستند هذه الفكرة إلى قراءة خاطئة لمادة من معاهدة 1264 التي ترجمهـا هـرليري (Herlihy) كمـا يلـي: "لا يمكـن لأي مركـب مسـيحي الـدخول إلى مـوانئ تـونس وبجايـة إلا برخصـة البيـزيين". D. Herlihy, *Pisa in the Early Renaissance*, New Haven, 1958, p. 165, trad. it. *Pisa nel Duecento*, Pise, 1973, p. 197.
في الحقيقة يتعلق الأمر هنا بشرط عادي جـدا لا يعـني الفنـدق حيـث أن الوصـول إليـه يمكـن أن يمنـع. معاهدة بيزا–تونس، 1264، المادة 16.

(51) ACA, C., Rg. 252, f. 194 (12/5/1298), éd. Ch.-E. Dufourcq, *Recueil de documents concernant les relations des pays de la Couronne d’Aragon*

جهة أخرى، تظهر عدة وصايا مكتوبة ببجاية جماعة هامة نشطة مجتمعة في فندقها[52]. إنّ بيزا في القرن الثالث عشر هي في واقع الأمر واحدة من المدن الكبرى الإيطالية، حيث كانت الصناعة الجلدية فيها متطورة جدا على الأقل إلى غاية سنوات 1250. ينتشر الفراءون في محيط ساحة سان نكولا (Piazza San Nicolae) حيث تصل سلع ما وراء البحر[53]. بعد 1250، تطوّر القطاع الصوفي بمساعدة اللومبارديين خصوصا[54]، ودفعت احتياجات هذه الأنشطة إلى تطوير العلاقات مع المغرب. إنّ توسع بيزا في البحر المتوسط – حتى وإن لم يصل إلى مستوى التوسع الجنوي دون شك - كان رغم كل ذلك هاما جدا في هذه الفترة. في نهاية القرن الثاني عشر، تمّ إنشاء النظام البحري (Ordo Maris) الذي جمع العائلات الكبرى المرتبطة بالتجارة البحرية[55]، وتبيّن القوانين البحرية المحرّرة في نهاية القرن الثالث عشر نشاطا هاما، خصوصا في المغرب[56]. وبخضوعهم لمنافسة قوية في المشرق، طوّر البيزيون تجارتهم في المغرب وفي سردينيا –الأكثر قربا

---

avec= le Maghreb de 1212 à 1323, thèse complémentaire, Université de Paris, 1965, n° 463.

(52) ASP, *Diplomatico Monastero degli Olivetani di Pisa*, 21/8/1276 ; id, 1290 ; ASP, *Diplomatico Roncioni*, 17/10/1278.

(53) Herlihy, *Pisa nel Duecento*, *op. cit.*, p. 170-182.

(54) *Ibid*, p. 186 أخذ الصوافون بسرعة مكانة هامة في الحياة السياسية. ففي 1268، أصبح الصوف "نظاما"، بمعنى فنا كبيرا *Ibid.*, p. 93. P. Castagneto, *L'Arte della Lana a Pisa nel Duecento e nei primi decenni del Trecento. Commercio, industria e istituzioni*, Pise, 1996.

(55) إن تاريخ تأسيسها غير مؤكد، لكنها تقع بين 1161 (حسب جون-ماري باردوسي Jean-Marie Pardessus) و1201 (حسب أدولف شوب Adolf Schaube).

M. Chiaudano, « Breve Curiae Maris pisanae civitatis », *Novissimo digesto italiano*, II, Turin, 1974, p. 575.

يضعها دافيد هرليري في 1201. Herlihy, *Pisa nel Duecento*, *op. cit*., p. 92.

(56) A. Schaube, *Das Konsulat des Meeres in Pisa*, Leipzig, 1888, p. 194-207. Ces statuts ont été édités par Fr. Bonaini, *Statuti inediti della città di Pisa dal XII al XIV secolo*, Florence, 1845-1870.

منهم- لكن دون إهمال السوق المصري حيث حافظوا هناك على وضعيات قوية تقليديا[57]. نحو نهاية القرن الثالث عشر، تقلصت القوة البيزية، لكن دون المبالغة في تصوير هذا التراجع. إن نكبة ميلوريا أمام الجنويين – التي تمّ تحميلها مسؤولية اختفاء البيزيين منذ مدة طويلة عن الأسواق المتوسطية- لم تترك أثرا حاسما على التجارة. طبعا، الأسطول الحربي قضي عليه، لكن هذا لم يؤثر على البحرية التجارية[58]. فقد منعت معاهدة 1288 ثم معاهدة 1299 بين الجمهوريتين المتخاصمتين الجنويين من التجهز إلى الوجهات الواقعة إلى ما بعد سردينيا[59]، لكن التجار واصلوا نشاطاتهم باستعارة مراكب قوى بحرية أخرى. إلى غاية سنوات 1320، كانوا على كل حال دائما متواجدين في بجاية ولهم فيها قنصل سنة 1313[60] وقس في 1317 و1323[61].

مع البيزيين كان أيضا التجار التسكانيين من ليك وسيينا وفلورنسا على علاقة بالمدن المغاربية[62]. مرّ الفلورنسيون أحيانا بواسطة الجنويين لأسباب

---

(57) Herlihy, *Pisa nel Duecento*, *op. cit.*, p. 195-196 ; Balard, « Génois et Pisans en Orient », art. cité, p. 184-188.

(58) Balard, « Génois et Pisans en Orient », art. cité, p. 208.

(59) O. Banti, « I trattati fra Genova e Pisa dopo la Meloria fino alla metà del secolo XIV », *Genova, Pisa e il Mediterraneo tra Due e Trecento*, *op. cit.*, p. 358.

(60) يشهد كولو مارجر (Colo Margar) قنصل البيزيين في بجاية على عملية تبادل الأسرى الميورقيين.

E. de K. Aguiló, « Incident surgit ab motiu del canvi d'esclaus cristians y moros, pactat despres de la pau », *BSAL*, 15, 1915, p. 231.

(61) Archivio della Mensa Arcivescovile di Pisa, *Protocoli notarili*, Rg. 7, f. 35 (14/9/1317), 176v (1323), éd. M. Bensaci, *Pise et le Maghrib au Moyen Âge*, doctorat de troisième cycle, sous la direction de Ch.-E. Dufourcq, Université Paris X, 1979, p. 232.

(62) Tangheroni, « Sui rapporti commerciali », art. cité, p. 86.

سياسية[63]، ربما أمضوا هم أنفسهم اتفاقيات مباشرة مع الحفصيين رغم أنه لم يحتفظ بأي معاهدة من هذه الفترة[64].

إنّ الخصوم الكبار للبيزيين هم الجنويون دون منازع[65]. جذب المشرق أغلب الاستثمارات ورجال الأعمال الأكثر قوة. لكن بقي المغرب كما في القرن السابق وجهة يتردد عليها. لكن بخلاف بيزا، طوّرت جنوة شبكة تجارية متنوعة حيث كان تجارها حاضرين بقوة في المشرق[66]، وهذا ما أعطى لهم منفذا لأسواق الشام ومخارج طرق التوابل. علاقاتها هي أيضا وطيدة مع المراكز العمرانية الكبرى في لومبارديا وإلى أبعد منها في الألب وبروفانسيا وخصوصا مع أسواق الشمباني والفلوندر[67]. كان الجنويون إذن قابلين للعب دور الوسيط في بجاية مع

---

(63) R. Davidsohn, *Storia di Firenze*, Florence, VI, p. 745.

(64) يتحدث جيوفاني فيلاني (Giovanni Villani) عن إعفاءات ممنوحة للفلورنسيين في حوالي 1252. Giovanni Villani, *Nuova Cronica*, livre 7, chap. 53, éd. G. Porta, I, Parme, 1990, p. 347

حسب هذا الكتاب الاخباري، تحصل الفلورنسيون على حماية وفندق مع كنيستهم الخاصة بهم في تونس. أنظر:

L. de Mas-Latrie, « Relations commerciales de Florence et de la Sicile avec l'Afrique au Moyen Âge », *BEC*, 4e série, 5, 1859, p. 210-211.

(65) حول هذه المنافسة ببجاية، أنظر:

D. Valérian, « Gênes et Pise : une concurrence pour le marché bougiote », Colloque « Bougie et sa région à travers les Âges », Bougie, 9-12 novembre 1997.

(66) إن تواجدهم كان مبكرا جدا في الدول اللاتينية بسوريا-فلسطين. وقاموا بتقوية وضعيتهم بقوة في رومانيا بعد 1261. بالمقابل، كانت التجارة المصرية موضوع متغيرات حسّاسة بسبب الظرف السياسي.

إنّ البيبليوغرافيا حول التوسع الجنوي في المشرق هي غزيرة جدا. أنظر:

Lopez, *Storia delle colonie genovesi*, *op. cit.*, avec la mise à jour bibliographique de M. Balard, Gênes, 1997 ; Byrne, « Genoese Trade with Syria », art. cité, p. 191-219 ; M. Balard, *La Romanie génoise (XIIe-début du XVe siècle)*, Rome-Gênes, 1978.

(67) R. Doehaerd, *Les Relations commerciales entre Gênes, la Belgique et l'Outre-Mont, d'après les archives notariales génoises aux XIIIe et XIVe siècles*, Bruxelles-Rome, 1941 ; É. Baratier, « Les relations=

أسواق أخرى لتموينها بمنتجات الشرق والأنسجة الأوروبية وفي العودة يأتون للبحث عن المواد الضرورية للصناعات الأوروبية. إنّ المعاهدات الموقعة مع تونس تشهد باهتمام جنوة بإفريقية. حيث تمّ تجديد هذه المعاهدات بانتظام في 1223 و1236 و1250 وفي 1272[68]. وتؤكد اتفاقية مبرمة بين جنوة والسلطان في 1287 على سلم أبرمه سابقا جياكومو دوريا (Giacomo Doria)[69]. تسمح هذه الاتفاقيات ببسط نشاطات الجنويين في بجاية، وتشهد عدة عقود تجارية مبرمة في جنوة على ذلك.

بتطورها السريع، أطمست جنوة الموانئ الأخرى المجاورة، لكن سافون (Savone) احتفظت ببعض الروابط المباشرة مع المغرب، رغم الشروط التي فرضتها عليها جارتها المنافسة مبكرا[70]. ففي 1250، أدرجت قضية بحّار سافر إلى

=commerciales entre la Provence et la Ligurie au bas Moyen Âge », *Atti del I Congresso storico Ligura-Provenza*, Bordighera-Aix-en-Provence-Marseille, 1966, p. 147-168.

(68) تمّ توقيع الاتفاق الأول مع حاكم تونس الموحدي (مومني). لكن ليس هناك استمرارية إلا لبيزا ومدة المعاهدات هي قصيرة (عشر سنوات مقابل عشرين سنة لبيزا). لم يحتفظ بأي معاهدة في الفترة الواقعة بين نهاية هذه الأخيرة ومعاهدة 1272، لكن في وثيقة 1261 وردت سلطنة تونس من بين البلدان التي على سلم مع الجمهورية.

Éd. S. Dellacasa, *I* Libri Iurium *della Repubblica di Genova*, I/4, Gênes, 1998, n° 749, p. 281.

(69) Éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 125-127.

كانت بجاية في هذا التاريخ مستقلة عن تونس. هذا لم يمنع ممثل جنوة لوشيتو بجنولي (Lucheto Pignoli) من المطالبة بتعويض الأفعال التي تحدث ببجاية. إن هذا النص الذي ليس هو معاهدة سلم بالمعنى الصحيح لا يوضح مدة هذا التمديد. فيما يخص الاتفاق المذكور والموقّع من طرف جياكومو دوريا (Giacomo Doria)، لا يبدو أنه يتعلق باتفاق 1272 الذي فاوضه عليه أوبيزوني أدالرادو (Opizone Adalardo). يجب إذن الافتراض بوجود معاهدة تمّت بين التاريخين ولم يحتفظ بها.

(70) في 1202، أثقلت اتفاقية جديدة الشروط السابقة وفي 1227 دمّر الجنويون ميناء سافون.

N. Cerisola, *Storia del porto di Savona*, Savone, 1968, p. 25. En 1251 à nouveau, Gênes impose de fortes limitations au commerce direct des Savonais. G. Airaldi, « I “Registri della catena” del Comune di Savona », *Miscellanea di storia savonese*, Gênes, 1978, p. 41.

لكن في 1270 لم تعد تطلب تراخيص الملاحة في جنوة، لكن في سافون وهذا ما سهّل التجارة.

Cerisola, *op. cit.*, p. 27-28.

بجاية على متن مركب سافوني[71]. وفي 1278، سافر ثلاثة تجار سافونيين من جنوة على متن مركبهم الذي ذهب إلى ميورقة وإبيزا وميورقة والغرب وسبتة وبجاية[72]. لكن بالنسبة لبجاية، بقيت سافون هامشية تحت ظل جنوة.

بالنسبة للجمهوريتين التيرانيتين، كانت سردينيا محطة مفيدة على طريق إفريقيا دون المبالغة في أهميتها[73]. من جهة أخرى، كانت الجزيرة موضوع شجار بين المتنافسين قبل أن تمر تحت السيطرة الأراجونية في 1324[74]. استعملت كاجلياري (Cagliari) بالنسبة لبيزا وتوريس (Torres) وألجيرو (Alghero) بالنسبة لجنوة، كنقطة ارتكاز للتجارة المغاربية[75]. ففي 1191، غادر روجيريو دا بجلي (Rongerions da Puglie) جنوة إلى سردينيا وبجاية[76]. سبع سنوات بعد ذلك، أدى مركب إرسا (Ursa) نفس السفرية وعلى متنه برتليمو بوتريو (Bartolomeo Botero) [77]. وفي 1231 بكاجلياري، أبلغ البيزي إلدبراندو ميلي (Ildebrando Melle) بحمل 15 ليفر من العملة الجنوية في إطار شركة

(71) Éd. V. Pongiglione, « Il libro del podestà di Savona dell'anno 1250 », *Atti della Società savonese di storia patria*, 28, 1956, p. 128.

(72) F. Bruno, « Le convenzioni commerciali e la marina savonese dai tempi più antichi sino alla fine del sec. XIV », *Atti della Società savonese di storia patria*, 7, 1924, p. 22.

(73) Fr. Artizzu, *La Sardegna pisana e genovese*, Sassari, 1985, p. 234-235 ; Ph. Gourdin, « Les relations entre la Sardaigne et le Maghreb au Moyen Âge », *Mélanges de l'École française de Rome, Moyen Âge*, 113/1, 2001, p. 129-147.

(74) D. Abulafia, *The Western Mediterranean Kingdoms, 1200-1500*, Londres, 1997, p. 123-127.

(75) A. Boscolo, « Aspetti dell'economia della Sardegna dal periodo della supremazia pisana-genovese al primo periodo della dominazione aragonese », *Sardegna, Pisa e Genova nel Medioevo*, Gênes, 1978, p. 141. Cagliari reste un relais important à l'époque aragonaise. M. Tangheroni, « Il *Regnum Sardinie* nell'economia della Corona d'Aragona », *Medioevo Tirrenico*, Pise, 1992, p. 74.

(76) Guglielmo Cassinese, n° 112 (23/1/1191).

(77) Bonvillano, n° 193 (20/11/1198).

بحرية من ميناء نيبوليس (Porto Neapolis) إلى بجاية حيث وجب عليه استثمار المبلغ في الحبوب والعودة إلى كاجلياري[78]. وفي 1290، يشهد أرساتشو دو أولياسترو (Arsacco de Oliastro) السرداني في وصية معمولة ببجاية[79]. أخيرا، في 1313، تمّ كراء يخت القديسة ماريا (Santa Maria) بجنوة لحمل الشعير من سردينيا ونقله إلى بجاية[80]. في الفترة الأراجونية، تنعدم الوثائق التجارية لتتبع هذه المتاجرة، لكن تسعيرة جمركية لعام 1329 تنص على رسوم وجب تسديدها في الجزيرة على كل "يهودي من بلاد البربر أو مسلم"[81].

كانت البندقية ثالث أكبر موانئ إيطاليا الشمالية. كانت السرينيسما على سلم مستمر مع الحفصيين من 1230 إلى بداية القرن الرابع عشر[82]، حتى وإن كانت تهتم أكثر بالمشرق على غرار جنوة. فقد سيطرت البندقية في رومانيا بين الحملة الصليبية الرابعة و1261 وتجارها كانوا أكثر تواجدا في أسواق سوريا ومصر. من جهة أخرى، حتى في أفريقية، جذبت تونس أكثر البنادقة حيث شكّلوا

(78) ASP, *Diplomatico Coletti*, 24/9/1231, éd. Fr. Artizzu, *Documenti inediti relativi ai rapporti economici tra la Sardegna e Pisa nel Medioevo*, I, Padoue, 1961, n° 4, p. 8-9, avec la date de 1202 (style pisan), corrigée par J.-M. Poisson, dans AA. VV. [UMR 5648 Histoire et archéologie des mondes chrétiens et musulmans médiévaux], *Pays d'Islam et monde latin, Xe-XIIIe siècle. Textes et documents*, Lyon, 2000, p. 240-241 (avec trad. du document).

(79) ASP, *Diplomatico Monastero degli Olivetani di Pisa*, 1290.

(80) ASG, min. 77, f. 212v-214r (13/6/1313).

(81) *Quilibet Iudaeus Barbariae et quilibet Saracenus*. Éd. R. Di Tucci, « La condizione dei mercanti stranieri in Sardegna durante la dominazione aragonese », *Archivio Storico Sardo*, 7, 1911, p. 25.

(82) معاهدات في 1231، و1251 و1271 و1317 و1332 (ضاع نص هذه المعاهدة الأخيرة). أنظر:

A. Sacerdoti, « Venezia e il regno hafsida di Tunisi : trattati e relazioni diplomatiche (1231-1534) », *Studi veneziani*, 8, 1966, p. 304-316.

جماعة مهمة بقنصلها وفندقها[83]. على الرغم من نـدرة الشـواهد، عقـد البنادقـة أيضا علاقات مع بجاية. ففي 1207 عندما كتـب أحمـد بـن ابـراهيم البجـائي إلى الأنزياني (Anziani) وإلى قناصل بيزا ليطلب منهم أن يكونوا مترجميه، أحـال إلى العادة التي يتبعها البنادقـة بعـدم قبـول ترجمـان إلا أن يكـون معتمـدا لـديهم[84]. تواجدت إذن في بجاية جماعة هامة بكفاية لتبرير اسـتعمال ترجمـان خـاص. أيضـا، قـبض بنـديتو زاتشـاريا (Benedetto Zaccaria) علـى المركـب الـذي اكـتراه البندقي مارينو سانيدو (Marino Sanudo) في 1285 مما يبيّن وجـود علاقـات تجارية مع بجاية. ففي 1273 أعطى القنصل الكبير للسفن التي تذهب إلى الفلوندر إمكانية المرور عند عودتها عن طريق تونس[85] ويمكن إذن لبجاية أن تكون محطـة قبل الوصول إلى العاصمة الحفصية. بالرغم من تقلص حجـم هـذه التجـارة مـع المغرب كما يظهره التحمس القليل للقناصل المعيّنين لتـونس[86]. مـن دون شـك أيضا، كانت موانئ البحر الأدرياتيكي على علاقة بإفريقية، لكـن هـذه التجـارة لم تترك آثارا في المادة الوثائقية[87].

(83) A. Sacerdoti, « Il consolato veneziano del regno hafsida di Tunisi (1274-1518) », *Studi Veneziani*, 11, 1969, p. 531-535 ; B. Doumerc, *Venise et l'émirat hafside de Tunis (1231-1535)*, Paris, 1999, p. 21-26, 33-38 ; R. Cessi, *Venezia nel Duecento : tra Oriente e Occidente*, Venise, 1985, p. 78, 102, 168, 262.

(84) Éd. et trad. it. Amari, *Diplomi*, *op. cit.*, partie arabe, n° 25, p. 76.

(85) R. Cessi, « Le relazioni commerciali tra Venezia e le Fiandre nel sec. XIV », *Politica ed economia di Venezia nel Trecento*, Rome, 1952, p. 76.

(86) وجب على المنتخب قبول منصبه في ثلاثة أيام تحت طائلة حرمانه من الانتخاب لوظائف أخرى: Doumerc, *Venise et l'émirat hafside, op. cit.*, p. 25.

(87) A. Ducellier, « Raguse, l'Italie et la Berbérie au Moyen Âge : à propos de quelques documents inédits ou peu connus », *CT*, 61-64, 1968, p. 27-44 ; Id., « L'Adriatique et la Berbérie au Moyen Âge : trafic d'appoint ou trafic caché ? », *CT*, 117-118, 1981, p. 561-572.

كان توجه جنوب إيطاليا وصقلية أكثر نحو تونس وموانئ إفريقية الشرقية أكثر منه نحو بجاية. لكن هذه العلاقات لم تكن غائبة تماما مع غرب السلطنة حتى وإن تنقصنا هنا المصادر لانجاز واعطاء وصف دقيق عنها.

لا نتوفر على أرشيف وثائقي لموانئ إيطاليا الجنوبية في هذه الفترة، لكن في 1248 تبيّن وثيقة مرسيلية تاجرا من نابولي يتدخل في عملية صرف في بجاية، شاهدا على تواجد تجار كامبانيا[88]. إنّ الإشارات الأكيدة إذن هي كتب التجار. يعطي كتاب الذاكرة (Memoria) الذي هو عمل مؤلف بيزي مجهول مؤرخ في 1278 عدة معادلات مكاييل بين بجاية وموانئ متزوجيورنو (Mezzogiorno). يذكر المؤلف جوز وبندق وقسطل نابولي أو زيت البوييه (Pouilles). ويعطي معادلات قنطار الكتان في بجاية وفي صقلية[89]. في بداية القرن الرابع عشر، أخذ الفلورنسي بجولوتي بهذه المعلومات وأضاف لها معادلات حبوب صقلية والبوييه، وأيضا بالنسبة لزيت نابولي[90]. لكن من الصعب تقدير هذه التجارة، التي تشهد على تجارة الحبوب فيها بعض وثائق أنجو (Anjou) الإنشائية[91]. بعد معاهدة 1270 بين شارل دانجو والحفصيين، منحت في واقع الأمر عدة رخص تصدير قمح وشعير البوييه (Pouilles) إلى بجاية[92]. لكن تمّت عمليات نقل الحبوب خصوصا انطلاقا من صقلية، لأنّ الجزيرة كانت نقطة ارتكاز للتجار القادمين من

(88) Blancard, II, n° 926 (26/6/1248).

(89) Éd. R. S. Lopez, G. Airaldi, « Il più antico manuale italiano della mercatura », *Miscellanea di studi storici*, II, *Collana storica di fonti e studi* 38, Gênes, 1983, p. 123. G. de Gennaro, « Commercio e navigazione nella Puglia medioevale », *Economia e Storia* (Milan), 1971, p. 75.

(90) Pegolotti, p. 113, 167, 169, 188.

(91) G. Yver, *Le Commerce et les marchands dans l'Italie méridionale aux XIIIe et XIVe siècles*, Paris, 1903, p. 104-126.

(92) Éd. N. Nicolini, *Codice diplomatico sui rapporti veneto-napoletani durante il regno di Carlo I d'Angiò*, Rome, 1965, n° 142 (25/12/1275), 162 (16/1/1277), 176 (5/5/1277).

موانئ القارة[93]. وهذه كانت في واقع الأمر محطة نحو الأسواق المغاربية وتجارتها كانت في قسم كبير منها مضمونة من الجنويين والبيزيين أو الكتالانيين[94]. ففي 1276، حملت عدة مراكب الحبوب إلى بجاية انطلاقا من ترابانى (Trapani) وأجرجانتي (Agrigente) وسياتشا (Sciascia) وبلرم ومازر وليكاتي (Licité). من أصل عشرة معلومة المصدر، ثلاثة منها ترجع إلى صقليين (من مسينا) في حين أن أربعة بيزية، وواحد طرطوشي وواحد كتالاني وواحد من سالرن (Salerne). أيضا عندما يكون أصل التجار الذين يتحصلون على رخصة التصدير مذكورا، هم في الغالب بيزيون (ست حالات)، وآخرون من كامبانيا (سلارن وأمالفي Amalfi) [95]. بيد أننا نلاقي -خصوصا عند موثقي بلرم- تجارا صقليين يذهبون إلى بجاية، لكن في الغالب على علاقة بالجنويين. ففي أفريل 1287، التزم جوالتيرو دو بنيتو (Gualterio de Bonito) (مواطن من مسينا لدى برتلوميو إمبراطوري (Bartolomeo Imperator) - وهو مواطن بلرمي- بالذهاب إلى بجاية لاسترجاع 2250 دينار ذهبي مزدوج كان مدينا بها الجنوي فرانشيسكو سكوارسفيكو (Francesco Squarciafico)، حيث أن العقد بين الرجال الثلاثة الذي أنجزه الموثقون الجنويون ببلرم. استثمر نصف هذا المبلغ في طلبية من

(93) Abulafia, *The Two Italies*, *op. cit.*, p. 44 ; Id., « Gli Italiani fuori d'Italia », *Storia dell'economia italiana*, dir. R. Romano, I, Turin, 1990, p. 276, rééd. *Commerce and Conquest in the Mediterranean, 1100-1500*, Londres, 1993.

(94) D. Abulafia, « A Tyrrhenian Triangle: Tuscany, Sicily, Tunis, 1276-1300 », *Studi di storia economica toscana nel Medioevo e nel Rinascimento in memoria di Federigo Melis*, Pise, 1987, p. 53-75.

(95) Éd. Nicolini, *Codice diplomatico*, *op. cit.*, n° 153 (24/7/1276) ; *I Registri della Cancelleria angioina ricostruiti da Riccardo Filangieri con la collaborazione degli archivisti napoletani*, XXIII, Naples, 1971, n° 237 (8/8/1280). Cf. D. Abulafia, « Sul commercio del grano siciliano nel tardo medioevo », *La Società mediterranea all'epoca del Vespro : XI congresso della Corona d'Aragona, Palermo-Trapani-Erice, 25-30 aprile 1982*, II, Palerme, 1983, p. 5-22.

منتجات لبيعها في جنوة أي اشترى سلعا وحملها إلى بلرم[96]. في أوت من نفس السنة، أجّر الجنوي أندريولو دلا فولتا (Andreolo della Volta) مركبه لتاجر من مسينا لحمل 250 سالمي من القمح إلى بجاية أو إلى جنوة[97]. على غرار سردينيا، كانت صقلية في الغالب مرحلة على طريق إفريقيا لتجار شمال شبه الجزيرة[98]. ففي 1292، تلقى تومازو ستانكونو (Tommaso Stancono) بجنوة طلبيتين لحملهما من صقلية إلى بجاية على متن مركبه[99]، وفي نفس السنة أجّر ثلاثة سافونيين مركبهم لحمل 1500 سالمي حبوب من صقلية إلى بجاية أو إلى جنوة[100]. أيضا في 1309، انطلقت طريدة الجنويين جياكومو بنيتو (Giacomo Bonito) وجيجليمو كستاسارفي (Guglielmo Costa servi) من صقلية لحمل القمح من سياتشا باتجاه بجاية[101]. لم يكن الجنويون والبيزيون وحدهم من استعمل صقلية كنقطة استناد. بعد الأعياد الدينية الصقلية، أدمجت الجزيرة في مجالات لاكورونيا أراجونة واستخدمت كمناوبة لتجارها. ففي 1286، باع برينجر دو كونك (Bérenger de Conques) -الذي كان قد تلقى في السنة السابقة رخصة لحمل الحبوب من صقلية إلى برشلونة- لكن في الواقع حمولته توجه بها إلى

(96) Éd. P. Burgarella, *Le imbreviature del notaio Adamo de Citella a Palermo*, Rome, 1981, n° 266, p. 162-163 (24/4/1287).

(97) Éd. Burgarella, *Le imbreviature, op. cit.*, n° 394, p. 235-236 (25/8/1287).

(98) نادرا ما تعطي العقود توقفات الرحلة، لكن أحيانا يأخذ التاجر عدة طلبيات لنفس الرحلة بعدة اتجاهات موضّحة. على سبيل المثال، برتلومو دو نارفي (Bartholomeo de Nervi) حمل الأجواخ والزعفران إلى بجاية وكذلك الفيتان إلى صقلية.

ASG, min. 2, f. 157r (8/7/1214).

(99) ASG, min. 71, f. 242r (1/4/1292).

(100) ASG, min. 63/I, f. 189v (14/6/1292).

(101) *Archivio di Stato di Palermo*, not. Bartolomeo de Citella, f. 434v (13/8/1309), éd. R. Zeno, *Documenti per la storia del diritto marittimo nei secoli XIII e XIV*, Turin, 1936, p. 164-165.

بجاية ووجب محاسبته بعد عودته[102]. وفي 1294 وبطريقة أكثر قانونية، تمّ تـأجير سفينة تاراجونية لتاجر برشلوني للذهاب بها لجلب القمح مـن صـقلية وحملـه إلى بجاية أو إلى موانئ أخرى[103]. أيضـا، خمـس سـنوات بعـد ذلـك، أجّـر البلنسـي برناردو برفاتي (Bernardo Perfette) لوحه إلى كاتالاني من تراباني وتـاجرين ميورقي وبرشلوني لحمل القطن من بلرم إلى بجاية[104].

في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، كثّف الكتالونيون والميورقيون من تواجدهم في بجاية وفي موانئ مغاربية أخرى. لقد كـان البرشـلونيون قـد وضـعوا أوتادهم في النصف الأول من القرن، وأول وثيقة تشهد برحلة برشلوني إلى بجايـة مؤرخة في 1213[105]. بعد 1212–1213، اتجهت بلدان لاكورونيا أراجونة نحو الجنوب والبحر المتوسط وبدأت في تطوير نشاطاتها هناك. وأعطـت لهـا السـيطرة على ميورقة في 1229–1230 نقطة استناد حاسمة في اختراقها التجاري للأسواق المغاربية[106]. رغم ندرتها بالنسبة لهذه الفترة، تبـيّن الوثـائق التجاريـة أن إفريقيـا كانت وجهة مفضّلة.

(102) ACA, C., Rg. 65, f. 125v ; id., Rg. 58, f. 44r (avril 1286).

(103) ACA, *Clero*, *Monacales*, *Pergaminos de la cartuja de Montalegra*, année 1294 (5/7/1294), éd. Dufourcq, *Recueil*, *op. cit.*, n° 411.

(104) Archivio Comunale di Palermo, Adamo de Citella, f. 92v (16/3/1299), éd. Zeno, *Documenti*, *op. cit.*, n° 72, p. 53 ; P. Gulotta, *Le Imbreviature del notaio Adamo de Citella a Palermo (2° registro, 1298-99)*, Rome, 1982, n° 283, p. 222-223.

(105) Archivo de la Catedral de Barcelona, *Diversorum* C(d), *capsa* 8, n° 132 (11/9/1213), éd. A. Garcia i Sanz, M. T. Ferrer i Mallol, *Assegurances i canvis maritims medieval a Barcelona*, Barcelone, 1983, n° 5.

(106) Ch.-E. Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIIIe et XIVe siècles : de la bataille de Las Navas de Tolosa (1212) à l'avènement du sultan mérinide Abou-l-Hasan (1331)*, Paris, 1966, p. 12. En 1230 « l'Empire catalano-aragonais, qui avait été naguère occitanien, devenait définitivement méditerranéen ». *Ibid.*, p. 87.

جدول 32: عقود بارشلونية (1200–1290): توزيع حسب الجهات[107]
(عدد العقود والمبالغ المستثمرة بالسو البرشلوني)

	المغرب	ما وراء البحر	رومانيا	إسبانيا المسيحية	صقلية	جنوب فرنسا
قبل 1250	3 (187 s.)	2 (962 s.)	0	3 (287 s.)	2 (208 s.)	2 (365 s.)
1250–69	8 (723 s.)	5 (784 s.)	2 (451 s.)	3 (420 s.)	2 (823 s.)	1 (80 s.)
1270–90	14 (303 s.)	3 (290 s.)	9 (509 s.)	10 (354 s.)	5 (193 s.)	1 (150 s.)
المجموع	25 (431 s.)	10 (663 s.)	11 (606 s.)	16 (279 s.)	9 (270 s.)	4 (240 s.)

في منتصف القرن الثالث عشر، مثّلت التجارة المغاربية ثلثي تجارة برشلونة، إذا ما صدّقنا أكرية رسوم الموانئ[108]. بداية من 1250، قنّن جاك الأراجوني القرصنة ومنع مهاجمة رعاياه لملوك على سلم مع لاكورونيا، وهذا ما ساعد على تطوير العلاقات الهادئة مع البلدان المغاربية[109]. نشأ إذن توافق (modus vivendi) رغم غياب سلم صريح إلى غاية 1271[110]. والمؤشر على نمو حجم

(107) من خلال:

St. P. Bensch, *Barcelona and its Rulers, 1096-1291*, Cambridge, 1995, p. 288.

(108) *Ibid.*, p. 294. C. Cuadrada, A. Orlandi, « Ports, tràfics, vaixells, productes : Italians i Catalans a la Mediterrània baixmedieval », *AEM*, 24, 1994, p. 33.

(109) Dufourcq, *Espagne catalane*, *op. cit.*, p. 90-91.

(110) في 1260، رفض جاك الأراجوني مساعدة ملك قشتالة ضد ملك تونس.

العمليات التجارية مع بجاية هو ارتفاع سعر كراء فندق الكتالانيين في بجاية بداية من 1250[111]. إنّ إدماج صقلية في 1282 ساعد أيضا على هذا التطور التجاري.

أصبحت ميورقة بسرعة الميناء الرئيسي للمملكة على علاقة مع المغرب. حتى قبل سيطرة الكتالانيين في 1230، كانت مرسى هاما للتجارة الأوروبية باتجاه افريقيا. توافد عليها البيزيون والجنويون بانتظام في القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر[112]. وهي آخر جزيرة كبيرة في البحر المتوسط الغربي تسقط تحت السيطرة المسيحية، حيث أضحت سريعا واحدة من أقطاب التجارة المغاربية. تقع بامتياز على واحد من الطرق المؤدية إلى إفريقيا الشمالية، استفادت أيضا من روابط مفضّلة مع العالم الإسلامي. لقد كانت واحدة من الأراضي المسيحية التي نادرا ما استقبلت المسلمين، خصوصا من بجاية، وتجارها اليهود كانوا أيضا نشطين في التجارة المغاربية. رخّص البابا جريجوار التاسع (Grégoire IX) في 1241 لأسقف ميورقة للمطارنة بممارسة التجارة مع بلدان الإسلام في زمن السلم، حتى لبيع القوت ولكنه ذكّرهم بعدم وجوب تصدير ما يمكن استعماله لمحاربة المسيحيين مهما تكن الحالة[113]. جعلت هذه الظروف من الجزيرة عنصرا جوهريا للشبكة التجارية التي وحّدت أوروبا مع إفريقيا.

في نفس سنة مرسوم جريجوار التاسع توجد شهادة لرحلة تجارية باتجاه بجاية[114]، ففي 1247 قدمت إليها ثلاثة مراكب على الأقل[115]. وفي 1276،

ACA, C., Rg. 11, f. 254 (29/4/1260), éd. A. Huici Miranda, M. D. Cabanes Pecourt, *Documentos de Jaime I de Aragón*, 4, Saragosse, 1982, n° 1183, p. 264-265.

(111) Dufourcq, *Espagne catalane, op. cit.*, p. 177-178.

(112) D. Abulafia, *A Mediterranean Emporium. The Catalan Kingdom of Majorca*, Cambridge, 1994, p. 108-112.

(113) *Les Registres de Grégoire IX*, éd. L. Auvray, III, Paris, 1908-1910, n° 5960 (9/4/1241).

(114) ARM, P. 342, f. 41v, cité par Fr. Sevillano Colom, J. Pou Montaner, *Historia del puerto de Palma de Mallorca*, Palma de Majorque, 1974, p. 154.

أصبحت مملكة ميورقة مستقلة وسنتان بعد ذلك أمضى ملكها جاك الثاني معاهدة سلم مع الحفصيين. كانت إذن الجماعة التجارية هامة بكفاية في بجاية لتبرير تعيين قنصل في 1302 ومنح فندق خاص بها. تسمح وثيقة لعام 1284 بتقدير مكانة بجاية في تجارة الجزيرة في نهاية القرن الثالث عشر. يتعلق الأمر بسجل جمركي سجّل بين 23 فيفري و18 مارس كل انطلاقات المراكب الميورقية أو على متنها سكان الجزيرة أو السلع التي ترجع إليهم(116). قرابة الثلاثة أرباع من هذه المراكب تمّ تسييرها نحو المغرب. كانت الوجهة الأولى بجاية بست رحلات ثم تأتي القل (أربع رحلات) والكدية، ووهران والجزائر ومتسما (مستغانم ؟) وبونة وهنين (ثلاثة) وجيجل ومزجران ودلس وبرشك (اثنتان) وتنس وتونس(117) في الأخير (واحدة). بداية من 1311، كثرت الانطلاقات على غرار إحدى عشر مركبا ذهبت إلى بجاية في 1314(118).

وجد الجنويون -وبحجم أقل- البيزيون في ميورقة نقطة ارتكاز أساسية لأعمالهم الإفريقية(119). ففي 1270 ذهب قارب الجنوي أكاردو ساردينا (Aicardo Sardina) إلى بجاية ثم إلى ميورقة(120). وفي 25 فيفري 1284 سافر رجل الأعمال الجنوي نكولوسو بنتكسيلو (Nicoloso Pontixello) من

(115) Éd. A. Santamaría Arández, *Ejecutoria del reino de Mallorca*, Palma de Majorque, 1990, n° 35 (12/4/1247), 45 (6/11/1247), 51 (29/12/1247).

(116) نشر هذه الوثيقة أ. ريرا مليس:

A. Riera Melis, « La llicencia per a barques de 1284. Una font important per a l'estudi del comerç exterior mallorqui del darrer quart del segle XIII », *Fontes rerum Balearium*, 3, 1979-1980, p. 121-140.

(117) المركب الذي ذهب إلى تونس توقف من جهة أخرى في بجاية.

(118) ARM, RP 3764, f. 25-47 (1314).

(119) D. Abulafia, « El comercio y el reino de Mallorca, 1150-1450 », *En las costas del Mediterráneo occidental. Las ciudades de la Península Ibérica y del reino de Mallorca y el comercio mediterráneo en la Edad Media*, dir. D. Abulafia, B. Garí, Barcelone, 1996, p. 125.

تحصلوا على امتيازات في الجزيرة ويبدو أن النزاع بين جنوة ولاكورونيا أراجونة لم يضايق أعمالهم.

(120) ASG, min. 96, f. 54r (10/6/1270).

الجزيرة إلى بجاية وووعد بالعودة في أفريل[121]. وأخيرا، تمّ كراء مركب ليوناردو سبينولا (Leonardo Spinola) لتاجر من بليزونس للذهاب إلى مرسيليا ثم ميورقة وبجاية[122].

بين إيطاليا وشبه الجزيرة الإيبيرية، وجدت مدن الساحل المتوسطي الفرنسي صعوبات لإيجاد مكانتها في التجارة المغاربية. توصلت مرسيليا لوحدها إلى تطوير علاقات هامة في حين بقيت الموانئ الأخرى منكمشة. كان للمنبوليين أعمال تجارية في المشرق (قبرص وأرمينيا)، لكن بدرجة أقل في المغرب أو بواسطة مرسيليا وجنوة وموانئ مملكة أراجونة[123]. ففي أفريل 1248، نرى أرمو لوماتر الأجادي (Armand Lemaître d'Agde) ينقل النيلة القبرصية من مرسيليا إلى بجاية[124]. وفي ماي – دائما في مرسيليا- تلقى برنار كادبيو المونبليي (Bernard Cadebiou de Montpellier) وبيار كابي مايي الألبي (Pierre Capus Maillet d'Albi) طلبية من 36 بوزون ميلاريس لحملها إلى بجاية[125]. كان الأربونيون (Narbonnais) أيضا على علاقة بالمغرب[126]، كما يظهره مثال الرحلة التي قام بها في 1337 لوح برنار سيجان النربوني (Bernard Seguin

(121) Éd. Riera Melis, « La llicencia per a barques », art. cité, p. 16.

(122) ASG, min. 78, f. 252v (24/3/1292).

(123) J. Combes, A.-É. Sayous, « Les commerçants de Montpellier aux XIIIe-XIVe siècles », *RH*, 188-189, 1940, p. 374.

لم يستطع أسطولهم أن يصل إلى حجم له دلالة. إن أقدم سجلات الموثقين المونبليين مؤرخة بـ 1293 و1301، وهذا لم يمنع من قياس نشاط الميناء في القرن الثالث عشر. J. Combes, *Montpellier et le Languedoc au Moyen Âge*, Montpellier, 1990, p. 52. لكن لا تبيّن وثائق القرن الرابع عشر تقريبا تجارة مع المغرب (معلومات شفوية لـ كاترين رايرسن (Kathryn L. Reyerson) في مارس 1998).

(124) Blancard, II, n° 605 (27/4/1248).

(125) *Ibid.*, n° 672 (8/5/1248).

(126) C. Port, *Essai sur le commerce maritime de Narbonne*, Paris, 1854, p. 135.

de Narbonne) بين مرسيليا وبجايـة[127]. وأخـيرا، تسـعيرة جمركيـة باربنيونيـة لعامي 1284 و1295 تشير إليها ب« cordoa de Bugia »[128].

إنّ المرسيليين هم الذين طوّروا التجارة مـع إفريقيـا الشـمالية[129]. كانـت اتصالاتهم الأولى بواسطة الجنويين دون شك نحو سبتة[130]. وكانت لديهم أيضـا وضعيات صلبة في ميورقه حيث تحصّلوا على امتيازات بعد الفتح الكتالاني[131]. توجد واحدة من الإشارات الأولى لهذه التجارة في قوانين ميناء مرسيليا. في الرواية الأكثر قدما التي تعود إلى بداية القرن الثالث عشر، كانت بجاية وسبتة هما الميناءان الوحيدان المـؤهلان لاسـتقبال قنصـل مرسـيلي[132]. لكـن يمكـن أن نعتـبر هـذه القوانين – التي هي مبلورة ومنجزة من قبـل- بمثابـة انعكـاس لوضـعية تعـود إلى نهاية القرن السابق. في القرن الثالث عشر، تبيّن العقود التجارية علـى كـل حـال المكانة المهمة التي احتلتها بجاية في تجارة المدينة البروفانسية.

(127) ADBR, 391E 11, f. 5v (11/4/1337).

(128) Éd. J. B. Alart, « Documents sur la langue catalane des anciens comtés de Roussillon et de Cerdagne », *Revue des Langues romanes*, 4, 1873, p. 373 ; 5, 1874, p. 86. Ces cuirs peuvent cependant venir par l'intermédiaire de Majorque.

(129) D. Valérian, « Les archives de Marseille, sources de l'histoire du Maghreb médiéval : le cas du port de Bougie (XIIIe-XVe siècle) », *Annales du Midi*, 113, 2001, p. 5-26.

(130) É. Baratier, « Le commerce de Marseille avec l'Afrique du Nord avant 1599 », *Marseille, Revue municipale*, 11, 1951, p. 35.

أنظر معاهدة السلم بين مرسيليا وجنوة في 1138 التي تعطي المرسيليين إمكانية الانتفاع مـن الوضـعيات الجنوية في المغرب.

Éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 88-89.

(131) Cl. Carrère, « Marseille, Aigues-Mortes, Barcelone, et la compétition en Méditerranée occidentale au XIIIe siècle », *AEM*, 10, 1980, p. 165.

(132) *Statuts municipaux de Marseille*, livre I, chap. 18, éd. Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 90.

جدول 33: توزيع الطلبيات المرسيلية حسب الاتجاهات (القرن الثالث عشر)(133)

(حسب عدد العقود)

	Manduel(134)	Amalric(135)	آخرون	المجموع
جنوب فرنسا	2	9	5	16
شمال فرنسا وانجلترا	5	10	1	16
ايطاليا	2	43	20	65
مملكة صقلية	4	116	1	121
شبه الجزيرة الإبيرية	5	28	4	37
الشرق المتوسطي	13	184	28	225
المغرب	43	73	1	117
من بينها:				
الجزائر		1		1
بلاد البربر	1	3		4
بجايه	21	50	1	72
سبته	12	18		30
وهران	3			3
تلمسان	2			2
تونس	4	1		5
المجموع	74	463	60	597

(133) من خلال حسابات:

J. H. Pryor, *The Commenda in the Mediterranean Maritime Commerce during the XIIIth Century : a Study Based on Marseilles*, thèse dact., Université de Toronto, 1974, p. 256-257.

(134) Documents relatifs aux affaires de la famille Manduel (1200-1253). Blancard, I.

(135) Notules du notaire Amalric, 13 mars - 29 juillet 1248. Blancard, II.

يمثّل المغرب أكثر بقليل من ثلث العقود لكـن بقيمـة معـدلات أقـل مقارنـة بتجارة الشرق المتوسطي[136]. كانت بجايه الوجهة الأكثر أهمية في الجهـة بـ 61،5 % من الطلبيات، تتبعها عن بعد سبتة (25،6 %)، وبقية الموانئ -خصوصا تونس- التي تمّ تجاهلها. شكّل المرسيليون جماعة حول قنصلهم وفندقهم، حتـى وإن لم يكـن هناك أثر لمعاهدة سلم قبل معاهدة 1270، فقد وجدت بكل تأكيـد اتفاقيـات علـى غرار ما كان للمدن الإيطالية[137]. رغـم الصـعوبات العـابرة، واصـل المرسـيليون التردد على الميناء إلى غاية سنتي 1314-1315. أجبرتهم أزمة أسبابها غامضة علـى ترك هذا السوق، ورغم المجهودات المدعومة من المجلس البلدي وملك نابولي، فإنهم لم يستطيعوا استئناف العلاقات العادية مع المدينة قبل فترة طويلة[138].

ربطت بجاية إذن علاقات مع موانئ جنوب أوروبا الرئيسية، لكن تواجدت أيضا تجارة غير معروفة جيدا مع الغرب الإسلامي والمشـرق. لقـد كـان للتجـار البجائيين في واقع الأمر علاقـات تجاريـة مـع بقيـة العـالم الإسـلامي. لكـن هـذه المبادلات تبدو خصوصا من خلال نشاط الأوروبيين الذين ربطوا مـوانئ إفريقيـا الشمالية والأندلس والشرق المتوسطي. شـكّلت بجايـة إذن مرحلـة في السـفريات المعقدة على مستوى البحر المتوسـط. في الغالـب، لا توضـح العقـود التجاريـة – باستثناء الكراء البحري- المراسي. إذ يكتفي الموثق بالكتابة أنه انطلاقـا مـن بجايـة يمكن أن يذهب المستفيد من الطلبية إلى أسواق أخرى تناسبه. تفسّـر هـذه المرونـة بالفعل أخذ التجار لمعلوماتهم في الموانئ الـتي يصـلون إليهـا ويكيفـون مسـلكهم حسب الفرص التي تتاح لهم.

(136) Pryor, *The Commenda*, *op. cit.*, p. 269.

(137) أدرجت معاهدة 1270 -بين سلطان تونس من جهـة وشـارل دانجـو وملـك فرنسـا مـن جهـة أخرى- مرسيليا. في 1325، قرر مجلس المدينة محاولة تجديد الاتفاقيات السابقة مع "ملك تـونس وبجايـة"، وهذا ما يبيّن وجود معاهدات ما.(AM, BB 14, f. 6v (1325

(138) Valérian, « Les archives de Marseille », art. cité, p. 8-9.

أقامت المراكب في البداية صلات بين الموانئ المسلمة والغرب. ففي 1201، انطلق مركب لنفرانكو دو تيركا (Lanfranco de Turca) من سافون في رحلة طويلة قادته على التوالي إلى جنوة ومرسيليا وسبته ووهران وبجاية وتونس ومسينا والإسكندرية ثم من جديد سبتة والإسكندرية حيث رجعت به إلى العاصمة الليجيرية[139]. في 1253، تمّ عقد كراء بحري بجنوة ينص على الانطلاق يوم 8 سبتمبر من ميناء مالقة الإسباني حيث سيذهب المركب إلى سبته أو إلى الإسكندرية إذا سمحت الظروف الأمنية (وإلا سيذهب مباشرة إلى بجاية أو تونس). بذلك ستتم العودة إما مباشرة نحو جنوة وإما عن طريق بجاية أو تونس[140]. أيضا من بين المراكب التي غادرت ميناء ميورقة إلى بجايه في بداية 1284، أعلن واحد منهم محطة إرساء في جيجل وآخر في القل والثالث يذهب أيضا إلى تونس[141]. وأخيرا في 1292، ذهب يخت سافوني من جنوة إلى بيزا ثم إلى القل وجيجل[142].

كانت بجاية أيضا على علاقة بالمشرق الإسلامي. لكن من الممكن استخدام تونس كوسيط في هذه التجارة، خصوصا مع مصر حيث المسيرات المباشرة كانت نادرة جدا. لكن المذكرة الجنوية لعام 1278 أعطت معادلات المكاييل بين

---

(139) Éd. D. Puncuh, *Il Cartulario del notaio Martino, Savona, 1203-1206*, Gênes, 1974, n° 445, 446.

(140) ASG, min. 29, f. 164r (20/7/1253), éd. Byrne, *Genoese Shipping*, *op. cit.*, p. 120-124.

حول دور مالقة في التجارة الأندلسية، أنظر:

Cr. Torres Delgado, « El reino nazari de Granada (1232-1492). Aspectos socioeconómicos y fiscales », *Actas del II coloquio de historia medieval andaluza, Sevilla 8/10 abril 1981*, Séville, 1982, p. 316-317 ; M. I. Calero Secall, « Málaga : un puerto en una ciudad », *Al-Andalus y el Mediterráneo*, Barcelone-Madrid, 1995, p. 115-122.

(141) Éd. Riera Melis, « La llicencia per a barques », art. cité, p. 130-131, 134-135 (25/1-15/2/1284).

(142) ASG, min. 71, f. 65r (18/1/1292).

الإسكندرية وبجاية، وهذا ما يوحي بعلاقات تجارية بين المدينتين(143). أيضا، يتحدث بيجولوتي في بداية القرن الرابع عشر عن البيع في الميناء المصري "لقشر بجاية"(144). وأخيرا، وجدت علاقات مع الشرق المسيحي(145). يخبر الدليل البيزي التجار بأن قنطار الكتان الموزون في عكا يساوي ثلاثة قناطير وتسع روتولي (roto li) ببجاية(146). وفي 1290، تمّ عقد كراء بحري في كافا (Caffa) لنقل الحبوب إلى سوريا وتونس وبجاية وجنوة وبروفانسيا أو إلى إسبانيا بحسب اختيار التجار(147). وأخيرا في 1301، ترك يخت القديس جيوفاني (San Giovanni) ميناء فماجوست (Famagouste) محمّلة بالقطن إلى تونس حيث بقي هناك ثلاثة أيام ثم ذهب إلى بجاية(148). رغم أن هذه الأمثلة كثيرة(149)، فإنّ منتجات الشرق عبرت غالبا عن طريق الموانئ الأوروبية قبل الوصول إلى بجايه.

(143) Lopez, Airaldi, « Il più antico manuale », art. cité, p. 122. Cf. L. Balletto, « Bougie nei manuali toscani di mercatura del due-trecento », *Italia e Algeria, aspetti storici di un'amicizia mediterranea*, dir. R. H. Rainero, Milan, 1982, p. 84.

(144) Pegolotti, p. 70.

(145) في القرن السابق، نوى ابن جبير في لحظة ما الركوب من صور على متن مركب جنوي ذاهبا إلى بجاية. ابن جبير، الرحلة، ترجمة بول-شارل دمنيك.

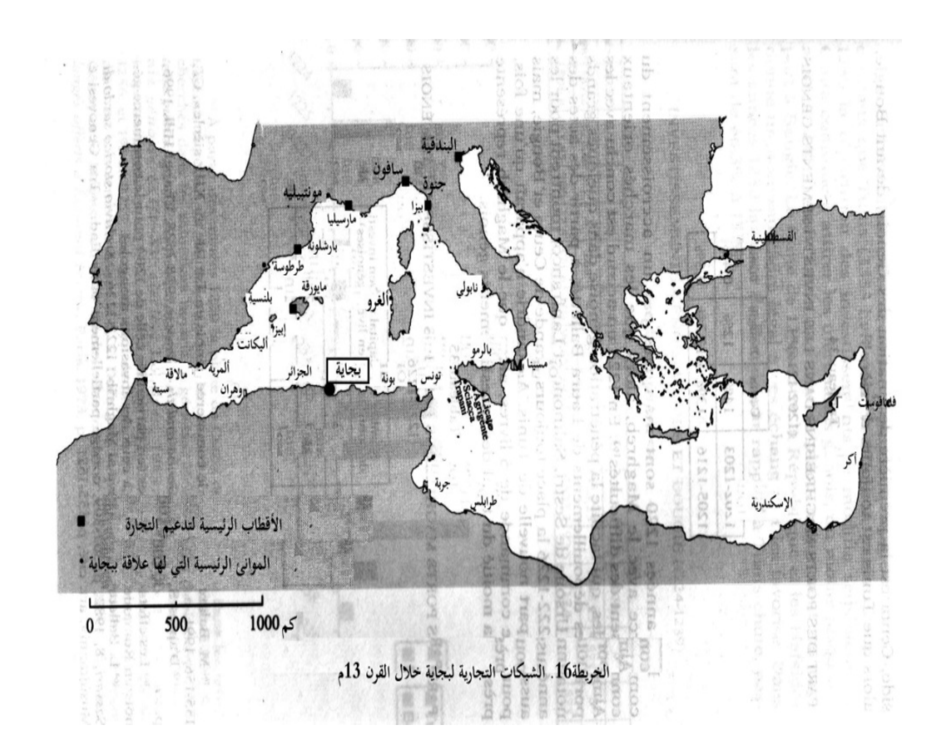
Ibn Ğubayr, *Rihla*, trad. Paule Charles-Dominique, « Relation des péripéties qui surviennent pendant les voyages (*Rihla*) », *Voyageurs arabes*, Paris, 1995, p. 327.

(146) Lopez, Airaldi, « Il più antico manuale », art. cité, p. 122.

(147) Éd. M. Balard, *Gênes et l'Outre-Mer, I, Les actes de Caffa du notaire Lamberto di Sambuceto, 1289-1290*, Paris-La Haye, 1973, n° 886 (9/8/1290).

(148) Éd. V. Polonio, *Notai genovesi in Oltremare. Atti rogati a Cipro da Lamberto di Sambuceto (3 luglio 1300-3 agosto 1301)*, Gênes, 1982, n° 186 (11/1/1301).

(149) تجب الإشارة إلى أن طبيعة المادة التوثيقية المشكّلة أساسا من عقود الموثقين في الموانئ الأوروبية الكبرى تساهم في التقليل من هذه العلاقات المباشرة مع المشرق والمغرب.



الخريطة16. الشبكات التجارية لبجاية خلال القرن 13م

عقدت إذن بجاية بين منتصف القرن الثاني عشر والسنوات الأولى للقرن الرابع عشر علاقات مباشرة وغير مباشرة مع كل الموانئ الكبيرة في البحر المتوسط وبذلك فهي مندمجة في شبكة تجارية كبيرة جدا. من الصعب تقدير آثار هذه التجارة على نشاطها، لكن المدينة كانت مزدهرة من دون نقاش. جذبت إليها طبعا أقل من الوجهات نحو الشرق المتوسطي، لكنها كانت واحدة من أكبر موانئ المغرب. ويسمح تحليل الوثائق بتوضيح مكانتها المتعلقة بالتجارة المغاربية[150].

كانت موانئ إفريقيا الشمالية الكبرى هي إذن سبته وبجايه وتونس، فيما لا تظهر الأخرى (وهران والجزائر وجيجل والقل) إلا بكيفية عرضية.

(150) بالنسبة لهذه الفترة، لم تكن أرشيفات جنوة وحدها من أعطى سلسلة من المعطيات ذات الدلالة. إن تطور الاستثمارات الجنوية في المغرب لم يكن طبعا نفسه في بقية الموانئ الأوروبية حيث كانت الوضعية مختلفة. وتبيّن الحصة المأخوذة في المبادلات من طرف الوجهات المغاربية الثلاثة.

في بداية القرن، كان سير المغرب كسوق استبدال مقارنة مع سوق الإسكندرية، وتزايدت الاستثمارات تدريجيا[151]. إلى غاية تأسيس السلالة الحفصية، كانت سبتة هي أول وجهة للجنويين قبل بجاية في حين كانت تونس الأخيرة[152].

جدول 34: حصة الموانئ المغاربية من الاستثمارات الجنويه
(1216-1202) [153]

	سبتة	بجاية	تونس
1203-1202	%14	%12	%0,4
1216-1205	%13	%13,7	%0,5

تتميز سنوات 1220 بنمو التجارة مع المغرب في حين أن الأسواق المشرقية عرفت صعوبات[154]. ففي 1223 عقد اتفاق مع الموحدين وهذا ما سهّل النفاذ الجنوي إلى عدد من الموانئ. يبيّن جرد لورا باليتو (Laura Balletto) انطلاقا من عقود توثيق إرسوني دو سيستري (Ursone de Sestri) وسالموني (Salmone) ولنفرانكو (Lanfranco) لسنوات 1222-1226 دائما المكانة الكبيرة لسبتة

(151) E. Bach, « Études génoises ; le minutier de Lanfranco », *Studi in onore di Armando Sapori*, I, Milan, 1957, p. 379.
في 1210، تم ابرام 24 عقد لسوريا، 17 للإسكندرية و35 بالنسبة للمغرب. وفي 1216 و1225 اختفت مصر من المادة الوثائقية. سجّل الموثق إذن 71 عقد بالنسبة لسوريا في 1216 و15 في 1225. بالنسبة لنفس السنوات، هناك 19 و78 عقد يعني المغرب. أنظر:
L. Balletto, « Tra Genovesi e Musulmani nel XIII secolo », *Mésogeios*, 7, 2000, p. 155.

(152) M. Balard, « Note sur le commerce génois en Tunisie au XIIIe siècle », *CT*, 155-156, 1991, p. 370-371.

(153) D'après St. Epstein, *Genoa and the Genoese, 958-1528*, Chapel Hill, 1996, p. 97.

(154) تضاف آثار الحروب الصليبية (خصوصا حملة 1204 بالنسبة للتجارة الجنوية في رومانيا) إلى آثار الغزوات المغولية.

وبجاية، وأيضا الحصة الجديدة لتـونس. لا تظهـر الإسـكندرية إلا مـرة واحـدة في طلبية ب 5 ليفر في حين أن المغرب سـيمثل تقريبـا نصـف مجمـوع الاسـتثمارات الجنوية.

جدول 35: حصة الموانئ المغاربية في الاستثمارات الجنوية (1222–1226) [155]

	عدد العقود	معدل رأس المال المستثمر (بالليفر الجنوي)
سبتة	93	52
بجاية	30	26
تونس	41	31

لكن بالنسبة لمجمل العشرية، جذبت بجاية أكثـر رؤوس أمـوال مـن تـونس (3353 ليفر مقابل 1703). بدايـة مـن سـنوات 1230، تعـدّل بشـكل حسـاس توزيع الاستثمارات. استمرت سبته في جذب التجار الجنويين على الأقل إلى غاية سنوات 1240[156]، لكن تونس أكدت مكانتها، خصوصا مقارنة مع بجاية. تعطي

(155) L. Balletto, « Da Genova al Maghrib : 1222-1226 », *Archivio storico sardo di Sassari*, 8, 1982, p. 307-309, corrigé partiellement dans Ead., « Tra Genovesi e Musulmani », art. cité, p. 155-157.

(156) انطلاقا من سنوات 1250، أصبحت مكانة سبتة ضعيفة في الاستثمارات الجنوية. أنظر:

M. Balard, « Les Génois en Romanie entre 1204 et 1261. Recherches dans les minutiers notariaux génois », *Mélanges d'Archéologie et d'histoire publiés par l'École française de Rome* 78, 1966, rééd. *La mer Noire et la Romanie génoise (XIIIe-XVe siècle)*, Londres, 1989, tableau h. t. : 11% des investissements en 1251, 5% en 1252, 4% en 1253, 12% en 1254, 5% en 1255, 2% en 1256, et 1% en 1257.

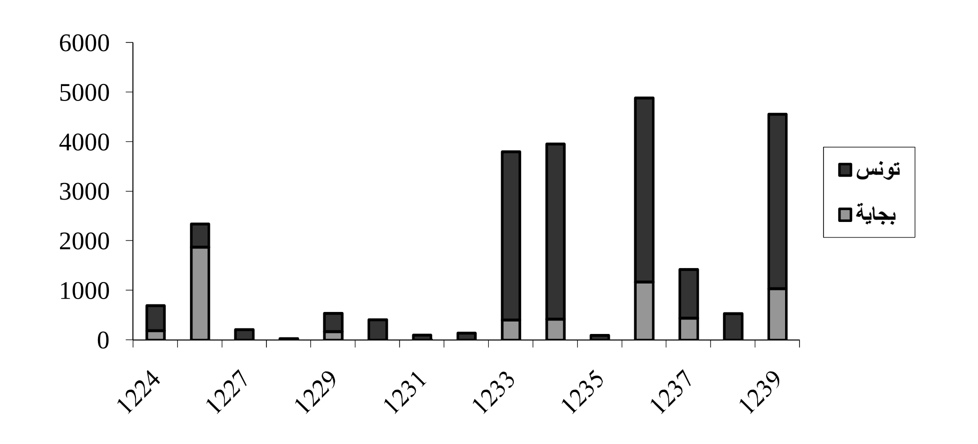
بدأ تقلص مكانة سبتة بعد 1212، لكنها كانت بطيئة جدا في البداية.

Ch.-E. Dufourcq, « Aperçu sur le commerce entre Gênes et le Maghrib au XIIIe siècle », *Économies et sociétés au Moyen Âge. Mélanges offerts à Édouard Perroy*, Paris, 1973, p. 726.

معاهدة 1236 بين الجمهورية والحفصيين إطارا قانونيا جديدا لهذه المبادلات وساعدتها. لكن في سنوات 1230، سقطت مكانة بجاية مقارنة مع تونس بتراجعها من 66،3 % إلى 17،5 %.

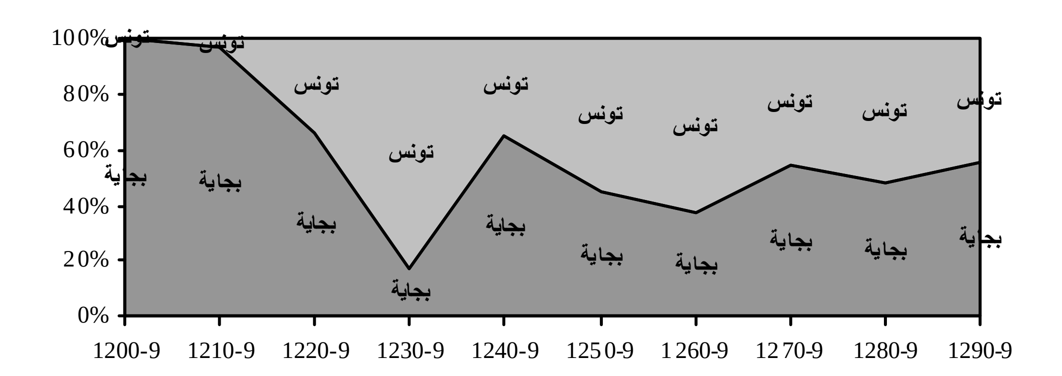
جدول 36: الاستثمارات الجنوية في تونس وبجاية (1224-1239)
(بالليفر الجنوي)

السنة	بجاية	تونس
1224	187,2	506,8
1225	1872,8	463,85
1227	6,3	200
1228	4	22,5
1229	168	371,6
1230	-	410
1231	5	90,85
1232	-	140
1233	401,5	3396,15
1234	423,25	3532,2
1235	-	92,5
1236	1168,25	3719,4
1237	440,25	981,1
1238	5	523
1239	1037,35	3520,55



جدول 37: الاستثمارات الجنوية في بجاية وتونس في القرن الثالث عشر
حسب فترات عشرية

	رأس المال المستثمر (بالليفر الجنوي)		حصة بجاية/ تونس
	بجاية	تونس	
9-1200	9 751 l. 8 s.	0	%100
9-1210	1 822 l. 11 s.	52 l. 14 s.	%97,20
9-1220	3 353 l. 6 s.	1703 l.	%66,30
9-1230	3 480 l. 12 s.	16 405 l. 15 s.	%17,50
9-1240	2 480 l. 1 s.	1 307 l. 6 s.	%65,50
9-1250	25 290 l. 16 s.	31 597 l. 17 s.	%44,50
9-1260	7 868 l. 11 s.	13 340 l. 15 s.	%37,10
9-1270	2 443 l. 14 s.	2 039 l. 5 s.	%54,50
9-1280	4 033 l. 15 s.	4 357 l. 8 s.	%48,10
9-1290	4 678 l. 10 s.	3 737 l. 11 s.	%55,60



إن الحالة غير العادية في المنحنى لا يمكن أن تفسّر إلا بثغرة في المادة الوثائقية. يجب إذن استنتاج أن الفتح الحفصي لبجاية أدى إلى تراجع المدينة بشكل محسوس مقارنة مع تونس. هل جذبت الجنويين القوة الجديدة بتونس؟ أم يجب الاعتقاد بأن السلطان قام بإجراءات هدفت إلى تحديد وزن بجاية ومساعدة التجار في العاصمة؟ لا تسمح أي وثيقة بالإجابة، لكن ليس مستبعدا بحث تونس عن عرقلة تجارة منافستها.

لكن عاد التوازن بسرعة بين المدينتين اللتين اقتسمتا من الآن فصاعدا تقريبا مجموع الأعمال الجنوية في المغرب.

إلى غاية نهاية القرن، وبتبديلات خفيفة، توازن إذن توزيع الاستثمارات بين المدينتين. إن الوثائق المتوفرة هي وثائق منتصف القرن مع انحدار ملحوظ في سنوات 1250. ربما يوضع هذا على علاقة بالصعوبات التي واجهتها في سوريا-فلسطين بسبب الغزوة المغولية[157]. بعد ذلك، تحولت مصالح جنوة في قسم منها إلى الشرق، خصوصا بعد 1261 في رومانيا[158]. لكن إذا كانت عقود الطلبيات نادرة أكثر فأكثر بالنسبة للمغرب، نجد بالمقابل عدة بيوع مألوفة للصوف البجائي في السوق الجنوي، وهو دليل على استمرار التجارة.

خلال كل هذه السنوات، لم تتأثر الأعمال التجارية بصفة دائمة بالأزمات التي عرفتها الجهة. طبعا، في 1270، لم يعقد أي عقد في جنوة، لكن بداية من 1271 استأنفت الحركة. فيما يخص نزاعات الأسرة الحفصية خلال سنوات 1280، فإنها لم تمنع التجار الجنويين من المجيء بانتظام إلى الميناء. بالعكس،

(157) M. Balard, « Les républiques maritimes italiennes et le commerce en Syrie-Palestine (XIe-XIIIe siècle) », *AEM*, 24, 1994, p. 341.

(158) Balard, « Note sur le commerce génois en Tunisie », art. cité, p. 373 ; Id., *La Romanie génoise*, *op. cit.*, p. 45 s. ; R.-H. Bautier, « Les relations commerciales entre l'Europe et l'Afrique du Nord et équilibre économique méditerranéen du XIIe au XIVe siècle », *Bulletin philologique et historique (jusqu'à 1715)*, 1955, p. 400.

أصبحت بجاية مستقلة في وقت ازدهار تجاري كبير. وحتى خلال سنوات الانفصال تكاثر عدد الجماعات الأوروبية في الميناء. سمحت هذه الحركية بإيجاد مصادر ضريبية هامة لم تكن سببا في نجاح الأميرين أبي زكرياء وأبي البقاء.

عرفت التجارة البجائية إذن خلال القرن الثالث عشر الطويل ازدهارا كبيرا. وقد سهّل الاستقرار الموحدي ثم الحفصي هذا الازدهار، وأيضا عوامل خارجية عن المغرب. سّهلت حركية الأوساط التجارية الإيطالية -وبعد ذلك بقليل- البروفانسية والكتالانية تطوير المبادلات. من جهة أخرى، أدت الصعوبات التي لاقتها في الشرق بتحويل الاستثمارات نحو المغرب بحجة تعويض الخسارة. على امتداد هذه الفترة كانت بجاية واحدة من الوجهات المفضلة لدى التجار الجنويين وتأكيد تونس كعاصمة لم يسحب منها هذا الدور، ما عدا ربما في السنوات التي جاءت مباشرة بعد الفتح الحفصي[159].

طبعا ظهرت أولى الاحتكاكات بداية من 1280 مع الكتالانيين[160]. لكنها بقيت محدودة ولم تمنع من مواصلة الأعمال. امتدت فترة الازدهار هذه حتى العشرية الأولى من القرن الرابع عشر وتبعتها أزمة طويلة الأمد أثرت بعمق على الأنشطة التجارية للميناء.

II- أزمة القرن الرابع عشر

بدأت الوضعية في التدهور في سنوات 1310-1320، وبذلك ضعفت حركة الميناء التجارية بشكل ملموس. توقف المرسيليون عن المجيئ بعد 1315 في حين تندر الوثائق الجنوية أو البيزية. إن الكتالانيين وخصوصا الميورقيين هم الوحيدون من واصلوا التردد على الميناء. في الوقت ذاته، شهدت العلاقات الدبلوماسية فتورا بسبب النزاعات ومعاهدات السلم الاستثنائية. وبالمقابل عرفت

(159) استدارت البندقية وإيطالية الجنوبية وصقلية أكثر نحو إفريقية الشرقية لأسباب جغرافية خصوصا.

(160) أنظر الرواية المفصّلة لهذه الصعوبات في:

Dufourcq, *L'Espagne catalane*, *op. cit*., p. 279 s.

القرصنة تطورا، كان في البداية بطيئا انطلاقا من 1310 ثم أصبح ملحوظا بداية من سنوات 1360-1370. الكل يشير إذن إلى أزمة تجارة بجاية البحرية.

1) تراجع التجار الإيطاليين والبروفانسيين وتطور ميورقة

خلال الفترة السابقة استقبل التجار القادمون من كل موانئ البحر المتوسط الغربي الكبرى، نرى شيئا فشيئا الإيطالين والبروفانسيين يهجرون المدينة، وفي الوقت ذاته أصبح الميورقيون -الذين كانوا أقوياء منذ القرن الثالث عشر- وسطاء مفضّلين في المبادلات بين أوروبا والمغرب.

إن انسحاب المرسيليين كان فجائيا وسريعا[161]. ففي 1314، تبعا لنزاع في الميناء لأسباب تبقى مجهولة، توقفت العلاقات رغم مجهودات المدينة البروفانسية لإعادة تنشيط المبادلات. ففي جويلية من هذه السنة، عندما كانت سفينة مرسيلية تتجهز للذهاب، نزع ممثل سلطان بجاية سلاح المركب وسجن رجالها وباع سلعهم. نادى عدة أسرى بتدخل السلطات المرسيلية والحادث اعتبر خطيرا ليهتم به مجلس المدينة والملك: طلب المجلس في 1314 من ضابط العدالة الملكية البروفانسية بتهيئة مصاريف سفارة إلى السلطان[162]، لكن القضية تباطأت عدة سنوات. وأرسل الملك روبار (Robert) من نابولي رسالتين في أفريل 1315[163]، مشتكيا من القضية لدى ضابط العدالة الملكية البروفانسية. كتب هذا الأخير في 1317 إلى الكلافار الملكي (Clavaire royal) يطلب منه التمويل المالي لمهمة جديدة إلى بجاية[164]. يمكننا أن نعتقد أن هذا الحادث في عمقه هو سبب للقطيعة الدائمة وحوادث أخرى من نفس الطبيعة لم تكن لها آثار طويلة الأمد. إذ بعد 1314

(161) Valérian, « Les archives de Marseille », art. cité, p. 8-9.

(162) AM, HH 311 (3 actes, du 2 au 21/9/1314).

(163) Éd. Ch. Perrat, « Actes du roi Robert d’Anjou relatifs à la Provence, extraits des registres détruits des archives de Naples, 1314-1363 », *Bulletin philologique et historique (jusqu’en 1715)*, 1950, n° 74, p. 152 (10/4/1315).

(164) AM, AA 141, 17/12/1317.

تناقصت بقوة الأنشطة المرسيلية في بجاية. أصبحت العقود استثنائية، لكن لم يستطع المجلس البلدي كراء الفندق، وهذا لا يورد شيئا وهو من جهة أخرى مشار إليه على أنه متهدم في حسابات العشريات اللاحقة[165]. تبيّن الأهمية التي أولاها الملك نفسه لقضية 1314 والإلحاح على استئناف العلاقات مع بجاية[166] إرادة مرسيليا في المحافظة على هذا السوق المهم لها[167].

مسّ هذا التراجع أيضا المدن الإيطالية. إنّ الوثائق البيزية لهذه الفترة تعد استثنائية حتى وإن كانت تبيّن بقاء العلاقات التجارية بين الميناء التوسكاني وبجاية. في سبتمبر 1321 طلب البابا جون الثاني والعشرين (Jean XXII) بناء كنائس معمودية في الأماكن التي يوجد فيها البيزيون بالكيفية نفسها التي لهم عليها في مملكتي تونس وبجاية[168]. أيضا، في أفريل 1326 أجّر برشلونيون مركبهما لبيزيين من بينهم ستشو أجلياتا (Secco Agliata) لحمل ملح كاجلياري إلى بجاية

(165) على سبيل المثال: ADBR, B 1517, f. 3v (1316) ; B 1940, f. 171v (1331) ; B 1942, f. 3r (1358)

بالرغم من أنه في 1347 أنجز الموثق الجنوي ببجاية عقدا في فندق المرسيليين لكن للتجار الميورقيين. ASG, min. 275/II, f. 48r (29/11/1347)

(166) في خلال السنوات التي تبعت عدة استئنافات حاول المرسيليون اعادة الروابط مع بجاية، لكن في كل مرة دون نجاح.

AM, BB 14, f. 6v (1325) ; BB 17, f. 73r (13/6/1332) ; BB 18, f. 14r-15r (3/2/1337), 30r-v, 33r (5/5/1337).

(167) إن التراجع المرسيلي لم يكن خاصا ببجاية فقط. عرفت المدينة أزمة بسبب السياسة المتوسطية لبيت دانجو وأيضا للمنافسة الإيطالية والكتلانية على الخصوص.

É. Baratier, « Influence de la politique angevine sur le déclin commercial de Marseille, aux XIIIe et XIVe siècles », *VI Congreso de historia de la Corona= =de Aragón, 1957*, Madrid, 1959, p. 686 ; voir également G. Lesage, *Marseille angevine. Recherches sur son évolution administrative, économique et urbaine, de la victoire de Charles d'Anjou à l'arrivée de Jeanne 1re (1264-1348)*, Paris, 1950, p. 145 s.,

يتحدث هذا الأخير عن انحطاط اقتصادي بداية من 1309.

(168) G. Mollat, éd., *Jean XXII. Lettres communes*, n° 14 476, IV, Paris, 1910, p. 7.

وموانئ أخـرى[(169)]. في نفـس السـنة، مركـب ساتشـو نفسـه ذهـب مـن جيـات (Gaète) إلى بجايـة[(170)]. لكــن هــذه هــي آخــر الوثــائق التجاريــة البيزيــة. إنّ قوانين (Statuts) نظام البحر الذي تؤرخ روايتـه اللغـة العاميـة بــ 1343 تـذكر حتى الآن قنصلي الميناءين الكبيرين لإفريقية وطريقة انتخابهمـا[(171)]. لكـن هـذه الرواية تأخذ من الرواية اللاتينية لـ 1303[(172)]، وذكر بجاية في هذا الـنص الـذي هو قانوني قبل كل شيء لا يوحي بأن هناك قنصلا متواجدا بها في هـذا التـاريخ. في الحقيقة، عرفت التجـارة البيزيـة بعـض التجـدد بدايـة مـن 1350 (تمّ إمضـاء معاهدة مع تونس في 1353) [(173)]، لكن لا يبدو أن بجاية كانت ميناءً يتردد عليه كثيرا. لكن في 1366 أرسل فليبـو أجليا‌تـا (Filippo Agliata) لطلـب معاهـدة سلم من جديد مع سلطان بجاية أبي العباس وهذا الأخير أجابه بالكتابـة إلى جميـع رعاياه في بونة والقل وجيجل لاسـتقبال البيـزيين بطريقـة لائقـة[(174)]. يبـيّن هـذا التبادل الدبلوماسي وجود إرادة للتجارة لدى الطرفين ولكن في واقع الأمر لم يكن تواجد البيزيين كبيرا في موانئ المقاطعة.

---

(169) ASP, *Diplomatico Alliata*, 27/4/1326.

(170) ASP, *Ospedali riuniti di S. Chiara*, n. 1969, f. 96r (16/6/1326). Le même repart en août pour les foires de Salerne et Tunis. *Id.*, f. 100r (30/8/1326).

(171) *Breve dell'ordine del mare* (1343), éd. Bonaini, *Statuti*, *op. cit.*, III, art. 136, p. 575-576.

(172) *Breve Curiae Maris pisanae civitatis* (1305), art. 39 (*De electione consulum in marinis partibus*), éd. Bonaini, *Statuti*, *op. cit.*, III, p. 372.

(173) جعلت العلاقات الجيدة مع الجنويين استئنافا ممكنا للروابط المباشرة مع إفريقيا.

G. Petti Balbi, *Simone Boccanegra e la Genova del '300*, Gênes, 1991, p. 331.

(174) Éd. Amari, *Diplomi*, *op. cit.*, partie arabe, n° 32, p. 115-118 (30 *ramadân* 767 / 10 juin 1366).

يوجد في هذه الرسالة تفسير فضولي إيطالي مكتوب بالأحرف العربية. *Ibid.*, n° 33, p. 119-122

إن البنادقة الذين لم يفضلوا إلى غاية الآن المغرب تحوّلوا عنه كثيرا. فتـدهور مناخ العلاقات السياسية من 1290 إلى حوالي 1330(175) أدى إلى توقيف التجار البنادقة من قبل الحفصيين في 1332 وإلى مقاطعة تمّ تجميـدها بسـرعة(176)، لكـن دون أن تسـتأنف العلاقـات النشـطة. وجـب انتظـار 1391 أو 1292 لإمضـاء معاهدة جديدة(177).

ينطبق التحول عن السوق البجائي أيضا على صقلية وإيطاليا الجنوبية(178). طبعا يتحدث بجولوتي عن العلاقات بين البوييـه أو نـابولي وبجايـة، لكنـه يظهـر خصوصا أهمية تونس(179).

فيما يخص الجنويين، واصلوا ترددهم على المينـاء، لكـن أعمـالهم تقلصـت كثيرا. إن سجلات الموثقين هي للأسف فقيرة بالنسبة لسنوات 1320-1340 ولا تسمح برؤية حدوث التغيير(180). بعـض الوثـائق لوحـدها فقـط تطفـو وتسـمح بالتحقق من استمرار العلاقات، لكن دون امكانيـة تقـدير أهميتهـا. ففـي 1323

(175) Sacerdoti, « Venezia e il regno hafsida », art. cité, p. 309-311.

تمّ توقيع معاهدات في 1305 و1317 (لمدة 15 سنة) و1332. *Ibid.*, p. 312-314 .

(176) Éd. M. Brunetti, R. Cessi, *Le Deliberazioni del Consiglio dei rogati (senato) ; serie « mixtorum »*, II, *Libri XV-XVI*, Venise, 1961, p. 49 (11/7/1332), 163 (3/5/1333).

(177) Doumerc, *Venise et l'émirat hafside*, *op. cit.*, p. 32-41.

استـقبلت تـونس دائمـا في هـذه الفـترة جماعـة بنادقـة. Sacerdoti, « Venezia e il regno hafsida », art. cité, p. 319-320.

(178) H. Bresc, *Un monde méditerranéen ; économie et société en Sicile, 1300-1450*, Rome, 1986, p. 334-335.

في حين أن تونس وطرابلس استمر التردد عليهما، لا نجد وثيقة عن بجاية بعد 1350.

(179) Pegolotti, p. 130-137.

(180) L. Liagre de Sturler, *Les relations commerciales entre Gênes, la Belgique et l'Outremont d'après les archives notariales génoises (1320-1400)*, Bruxelles-Rome, 1969, I, p. XXXV. G. Airaldi, « Da Genova al Maghreb nel Basso Medioevo », *Italia e Algeria, aspetti storici di un'amicizia mediterranea*, dir. R. H. Rainero, Milan, 1982, p. 73, parle d'un « iato informativo tra Duecento e Quattrocento per l'area nordafricana ».

ذهب مركب جنوي إلى بجاية[181] وفي 1328 بيع الصوف الأبيض البجائي لصوّاف من جنوة[182]. وفي 1336 انفصل يخت السبينوليين -الذي كان جزءا من مركب ذاهبا إلى اليونان وسوريا- ليلتف عن طريق المغرب حيث استولى عليه قراصنة موناكو حينما كان يتهيأ للدخول إلى ميناء بجاية بغرض الاتجار فيها[183]. من جهة أخرى أدت الصعوبات المتكررة التي واجهها الجنويون إلى مقاطعة الإرساء المغاربي في 1340 وتوسيع الإرساء بالإسكندرية في 1316[184]. بعد منتصف القرن الرابع عشر وربما تبعا لمعاهدة 1343 بين الجمهورية والسلطنة، يبدو أن الأعمال التجارية استؤنفت بحيوية. في 1347، كان هناك موثق حاضرا في الميناء لإنجاز عدة عقود في فندق الجنويين[185]. يظهر عدد من المواطنين في هذه العقود من بينهم القنصل رافاييلي سبينولا (Rafael Spinola). وهو مؤشر على وجود جماعة وافرة في هذه الفترة وحضور واحد من سبينولا (Spinola) على رأسها يبيّن من جهة أخرى استمرار السوق في جلب اهتمام العائلات النبيلة الكبيرة للأرض الأم[186]. يوجد سيموني لوكافيلو (Simone Lecavello) –

(181) ASG, not. ign., *busta* 5, fr. 63, f. 105r (22/9/1324).

(182) ASG, min. 193, f. 16r (10/1/1328).

ليس بالإمكان معرفة ما إذا كان هذا الصوف قد حمل مباشرة من بجاية إلى جنوة.

(183) Giorgio Stella, trad. G. Monleone, « Gli Annali di Giorgio Stella, 2° volume (1333-1382) », *La Berio*, X, 1, 1970, p. 35.

(184) G. Forcheri, *Navi e navigazione a Genova nel Trecento (il liber Gazarie)*, Gênes, 1974, p. 50. Petti Balbi, *Simone Boccanegra*, *op. cit.*, p. 354-355.

(185) ASG, min. 275/II, f. 48r-50v (notaire Ianoto Berignano).

(186) Sur cette famille au XIVe siècle, Petti Balbi, *Simone Boccanegra*, *op. cit.*, p. 161-162. En 1342 Antonio Spinola a notamment des affaires à Tunis. *Ibid.*, p. 162, 224. M. L. Chiappa Mauri, « Il commercio occidentale di Genova nel XIV secolo », *Nuova Rivista storica*, 57, 1973, p. 574

كان أيضا حاضرا في تونس في هذه السنة بيترو لوكساردو (Pietro Luxardo) وسيموني (Simone) وفرانشيسكو لوكافيلو(Francesco Lecavello) وبرتلومو دو فيدرتو (Bartolomeo de Vedereto).

الذي كان حاضرا من بين التجار المتدخلين في عقود 1347 هذه- ثم في وثيقة في جوان 1348، وهذا ما يبيّن استمرارية ما في العلاقات مع بجاية على الأقل بالنسبة لبعض التجار. في جنوة، أجّر مركب كوسما دو أنفوسيس (Cosima de Infusais) لحمل الملح من هيراس (Hyères) إلى بجاية[187]. وفي 1350، نجد أيضا عقد كراء بحري[188]، لكن تبعا لذلك – رغم تجديد المعاهدات مع الحفصيين في 1384 و1391- اختفت شواهد العلاقات مع الميناء القبائلي، حيث أن تونس هي الميناء المغاربي الوارد في قائمة سنة 1380 لقناصل جنوة فيما وراء البحر[189]. للسجل الذي أنجزه الموثق أندريلو كايتو (Andreolo Cuito) بين 1374 و1379 -حيث تمّ حفظ عقود لعدة موانئ متوسطية وأطلسية[190]- دلالة، لأننا لا نجد شيئا بالنسبة للمغرب[191]. تبيّن عقود الضمان البحري –التي تخبر عن حركة ميناء جنوة بداية من منتصف القرن الرابع عشر[192]- طبعا بعض

(187) ASG, min. 233, f. 219v-220r (13/6/1348).

في نفس اليوم أخذ من أنتونيو أدورنو (Antonio Adorno) ابن المرحوم جيجليمو (Guglielmo) 550 ليفر لإرجاعها ببجاية لوكيل أنتونيو بالدينار الذهبي المزدوج (31 سو للدينار الذهبي الواحد).
Id., f. 220r.

(188) ASG, min. 331/I, f. 228r-v (19/5/1350).

(189) ASG, AS, *Diversorum cancellariae Communis Janue*, Rg. 1 [*AS*, Rg. 496], f. 11v-15r (5/1/1380), éd. M. Buongiorno, *L'Amministrazione genovese nella « Romania »*, Gênes, s. d., p. 277-286.

(190) نابولي، أمالفي، إيج-مورت (Aigues-Mortes)، آرل (Arles)، هيراس (Hyères)، سردينيا، صقلية، برشلونة، اشبيلية، قرطاجنة، ميورقة، طرطوشة، قبرص، كفا (Caffa)، بيرا (Péra)، رومانيا، بيروت، الأسكندرية، انجلترا والفلوندر.

(191) ASG, min. 310.

(192) M. Balard, « Assurances et commerce maritime à Gênes dans la seconde moitié du XIVe siècle », *Les transports au Moyen Âge. Actes du VIIe congrès des Historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, Annales de Bretagne et des pays de l'Ouest*, 85/2, 1978, p. 278.

الرحلات إلى تونس[193]، لكن دون أي رحلة إلى بجاية. أيضا، تظهر سجلات ديوان جنوة لسنوات 1376-1377 بعض الرحلات إلى العاصمة الحفصية، لكن من دون الموانئ المغاربية الأخرى[194]. بصفة عامة، استفادت تونس من آثار السلم لعام 1391[195]، في حين أن بجاية بقيت بعيدة عن الأعمال التجارية الجنوية. ليس من المستبعد أن تكون المراكب التي ضمنت الروابط الأفقية، خصوصا بين مصر وإسبانيا، قد رست في الميناء، لكن ليس هناك أثر لذلك.

إذا كان الإيطاليون قد خفّضوا من استثماراتهم ببجاية، فإنه لم يكن كذلك بالنسبة للكتالانيين ولا للميورقيين الذين أصبحوا التجار الرئيسيين الحاضرين في الموانئ المغاربية، حيث مدّدوا بذلك تطورا كان بدأ في منتصف القرن الثالث عشر. بقيت برشلونة بمعزل عن هذه الحركة واستثماراتها جرت في المشرق أو في الموانئ السردينية والصقلية[196]. عقدت بلنسية علاقات مع المغرب، لكن بالأحرى مع الموانئ الغربية خصوصا وهران[197]. في القرن الرابع عشر، انطلقت المراكب

---

(193) على سبيل المثال: ASG, min. 309/II, f. 105v (8/8/1370). أحيانا لا توضح الوجهة والموثق يكتب ببساطة بلاد البربر *(partes Barbarie)* أو تونس أو جهات أخرى. ASG, min. 312, f. 23r (10/1/1393), f. 26v (13/1/1393). يمكن ان نفترض إذن أن بجاية كانت جزءا من هذه الموانئ لكن دون تأكيد.

(194) J. Day, *Les Douanes de Gênes 1376-1377*, Paris, 1963.

(195) عدة عقود بالنسبة لتونس في سجلات أندريولو كايتو (Andreolo Caito) لسنوات 1390. ASG, min. 312 (1393), 313 (1393-1396)

(196) M. D. López Pérez, *La Corona de Aragón y el Magreb en el siglo XIV (1331-1410)*, Barcelone, 1995, p. 173-178, 205.

استخدمت الموانئ المغاربية غالبا للرسو نحو الشام وآسيا الصغرى، لكن كان ميناء تونس هو المفضّل.

(197) D. Pérez Pérez, E. Pascual-Leone Pascual, « Algunos aspectos del comercio valenciano a fines del siglo XIV », *VII Congreso de Historia de la Corona de Aragón*, 2, Barcelone, 1962, p. 529-546.=

لا يعتمد هذا العمل إلا على سجلات « coses vedades »، بمعنى تراخيص تصدير المواد الممنوعة (غالبا المعدن). إن مكانة المغرب هي إذن متنقصة. أنظر أيضا: =

خصوصا من ميورقة باتجاه المغرب. من مستودع بسيط، أصبحت الجزيرة بسرعة مركزا للإنتاج الحرفي حيث جاءت بعض العائلات البرشلونية الكبيرة للاستثمار[198]. من 1298 إلى 1343 كانت الجزيرة مستقلة عن بقية الفدرالية الأراجونية وأبرمت معاهدات السلم مباشرة مع الحفصيين في تونس أو في بجاية[199]. توفر الميورقيون بداية من 1302 على فندقهم وقنصلهم الخاص[200]. كانت العلاقات متوترة أحيانا بين القوتين بسبب أعمال القرصنة[201]، لكن الأعمال التجارية لم تتوقف بصفة دائمة[202].

=R. Arroyo, « El comercio valenciano de exportación con Italia y Berbería a finales del siglo XIV », *VIII Congreso de historia de la corona de Aragón, Valencia, 1967*, II, Valence, 1973, p. 255-289, qui montre la place dominante d'Oran, Alger et Hunayn. Beaucoup de voyages se font cependant pour une destination maghrébine imprécise (« Berbérie »). R. Ferrer Navarro, *La exportación valenciana en el siglo XIV*, Saragosse, 1977, p. 94-96.

(198) Abulafia, *A Mediterranean Emporium, op. cit.*, p. 106-107.

(199) أنظر معاهدة 1312 المبرمة مع بجاية والتي ضاع نصها والتي كانت سارية المفعول في 1305 وأيضا في 1307. ARM, *Reales cedulas*, vol. 2, f. 103v-104r (28/6/1305), éd. Dufourcq *Recueil, op. cit.*, n° 671 ; ARM, *Reales cedulas*, vol. 2, f. 178 (9/5/1307), éd. A. Pons, « Als mercaders mallorquin qui mercadetgen a Bugia », *BSAL*, 24, 1932-3, p. 262. رافقت هذه الهجمة الدبلوماسية اجراءات حماية التجارة الميورقية. في 1301، منع الملك الرعايا المباشرين للاكورونيا أراجونة على غرار الرعايا الأجانب الآخرين بيع منتجات المغرب في الجزيرة التي لم ترد على متن مراكب ميورقية. Dufourcq, *L'Espagne catalane, op. cit.*, p. 419-421.

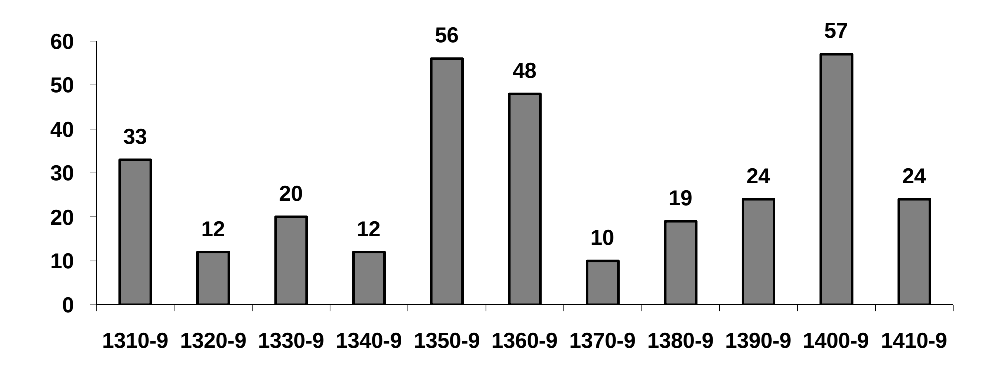
(200) في بداية القرن الرابع عشر، كان للميورقيين أيضا قنصليات خاصة بهم في بونة والقل وجيجل وقسنطينة وتلمسان والمنصورة (قرب تلمسان والجزائر. D. Abulafia, « El comercio y el reino de Mallorca », art. cité, p. 137.

(201) Sur la chronologie des relations entre le royaume de Majorque et les Hafsides, voir principalement Dufourcq, *L'Espagne catalane, op. cit.*, p. 446-447, 496-497.

(202) في الحاجة، استخدمت بلنسية كبديل للتجارة الميورقية في حالة المقاطعة *Ibid.*, p. 447.

بين 1310 و1419 تبيّن الوثائق الميورقية 315 مركبا انطلق من الجزيرة إلى بجاية[203]، وهذا ما يسمح بتتبع هذه التجارة.


رسم بياني 5: عدد السفن التي غادرت ميورقة إلى بجاية (1310-1410)



يبيّن التوزيع العشري لهذه الانطلاقات أنه رغم الفتور بين 1320 و1350 ثم 1370 ونهاية القرن الرابع عشر فإن الحركة غير منقطعة تقريبا. بخلاف ما لوحظ بالنسبة للقرن الثالث عشر، حيث الوجهات المغاربية تعتبر متنوعة جدا. فإذا كانت بجاية تقاسمت أساس التجارة الأوروبية مع سبتة وتونس، فقد وجب عليها من الآن فصاعدا الأخذ في الحسبان منافسة الموانئ العبد الوادية والمرينية، الأكثر قربا من اسبانيا، وأيضا القل وبونة. يلاحظ هذا التوجه بداية من العشريات الأولى للقرن الرابع عشر ويتأكد بعد ذلك. بين 1311 و1330، من بين 349 رحلة من ميورقه إلى المغرب، 125 منها كان هدفها المغرب الأقصى (وهذا ما يبقى مهما، ذكرت سبتة 40، وأنفا 37 والكدية 24[204])، و111 المغرب

(203) يتعلق الأمر أساسا بتراخيص ذهاب المسلمين والتي تشير إلى اسم المركب والوجهة.

(204) الكدية هي مليلة أو موضع قريب منها. Fr. Sevillano Collom, « Mallorca y Valencia : relaciones marítimo-mercantiles en el siglo XIV », *Primer Congreso de Historia del País valenciano*, II, Valence, 1980, p. 540. أنفا هي الدار البيضاء الحالية.

الأوسط – الذي بدأ يفقد الأهمية- (26 إلى مستغانم-مزجـران، 24 إلى الجزائـر، 16 إلى تنس و15 إلى تلمسان)، و113 إفريقية (مـن بينهـا 41 إلى بجايـة و23 إلى تونس و12 إلى القل) [205]. يتأكد هذا التوجه بعد ذلك والحسابات الـتي أنجزتهـا ماريا دولوراس لوبيز بيراز بالنسبة للقرن الرابع عشر تبيّن بوضوح منافسة المغرب الأوسط في حين أن المغرب الأقصى أصـبح هامشـيا في المبـادلات الميورقيـة. بـين 1330 و1336 منحت عدة تراخيص لحمل الملح من إبيزا إلى المغرب. ستة عشـر منها تخص رحلات إلى المغرب الأوسط (شرشال سبعة، دلس أربعة، برشـك[206] ثلاثة، تونس والجزائر واحدة)، وأربعة عشـر إلى إفريقيـة الشـرقية. لكـن بجايـة لم تستقبل إلا أربعة من هذه المراكب في حـين أن بونـة والقـل همـا وجهتـان لأربـع حمـولات لكليهمـا فيمـا تم مـنح رخصـتين لجيجـل[207]. انطلاقـا مـن الـرخص (gunitages) الممنوحة في 1341 و1342 نرسم صـورة مشـابهة: رحلـة واحـدة للمغرب الأقصى، ثلاثة وثلاثون للمغرب الأوسـط[208] وثمانيـة لإفريقيـة (مـن بينها ثلاثة لبجاية وثلاثة للقـل وواحـدة لتـونس) [209]. أخـيرا، تعطـي رخـص سنوات 1359 إلى 1361 النتـائج التاليـة: خمـس انطلاقـات للمغـرب (الكديـة)

---

(205) J. Sastre Moll, « El puerto de la ciutat de Mallorca durante el reinado de Sancho y la regencia de Felipe de Mallorca (1311-1330). Rentas reales portuales y su reinversion », *Miscel.lania de Textos medievals*, 7, 1994, p. 168 ; Id., *Economía y sociedad del reino de Mallorca. Primer tercio del siglo XIV*, Palma de Majorque, 1986, p. 48, 51.

بالنسبة لسنوات 1325-1330 لاحظ ساستر مول تقلص مكانة بجاية مقارنة مع تونس وتطـور المغـرب الأقصى.

(206) برشك هي مدينة قوراية الحالية بين تنس وشرشال. أنظر الإدريسي، الترجمة، ص 163-164.

(207) López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 311-313.

(208) الوجهات الأكثر سريانا هي الجزائر (ثمان رخص)، وتنس وشرشال (سبعة)، ومستغانم ودلـس (ثلاثة) وبرشك (اثنين) وأخيرا مزجران ووهران وهنين (واحد).

(209) López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 217.

وثمانية وخمسون للمغرب الأوسط[210] وثلاثون لإفريقية (من بينها سبعة عشر لبجاية وخمسة للقل وتونس وثلاثة لبونة) [211].

تدعو هذه النتائج إلى عدة ملاحظات. في بادئ الأمر، المغرب الأوسط هو من الآن فصاعدا أكثر أهمية من إفريقية. يفسّر هذا التحول بحاجة ميورقة للتموين بحبوب سهول هذه الجهة لقربها من هذه الوجهات أو ربما لتوفرها أكثر على الذهب السوداني. إن المدن الهامة كثيرة ومراتبها تتنوع حسب السنوات أو المصادر. لكن تجب ملاحظة النشاط الخاص لهنين-وهو ميناء تلمسان - وشرشال ودلس وخصوصا الجزائر. هذان الميناءان الأخيران كانا جزءا من مقاطعة بجاية في القرن الثالث عشر، لكن سحبا منها بفعل الفتوحات العبد الوادية والمرينية. ليس من المستبعد أن ضياع السيطرة على هذه المدن قد أدى إلى منافسة شديدة بالنسبة لبجاية. في الجانب الإفريقي، من النادر ظهور تونس في الوثائق الميورقية. كانت العلاقات إذن بالأساس مع القسم الغربي للسلطنة. لكن إذا ما بقيت بجاية المدينة الأولى التي تتردد عليها المراكب الميورقية، وجب عليها الاعتماد على الموانئ الشرقية الأقل أهمية. لم تستطع جيجل أبدا الوصول إلى وضعية ملحوظة، لقربها كثيرا (أقل من 100 كلم) وتبعيتها لجارتها. في المقابل، أصبح القل -الذي كان هو ميناء قسنطينة- وبونة وجهتين مقصودتين، استفادت الأولى دون شك – على غرار دلس- من انحسار حيز السيطرة السياسية البجائية.

إن صورة التجارة المغاربية إذن مغايرة جدا لصورة القرن السابق. احتفظت بجاية بمكانة ريادية، لكن وجب عليها أن تأخذ في الحسبان منافسة موانئ جديدة. تأكد هذا التوجه بعد ذلك. بين 1385 و1419، تمّ تسجيل 580 رحلة للمغرب

---

(210) مع غلبة مستغانم والجزائر (على التوالي ستة عشر وأربعة عشر رخصة) متبوعتان بدلس (عشرة) وشرشال (ثمانية) وتنس (خمسة) وهنين (أربعة) ووهران (واحد).

(211) López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 238.

انطلاقا مـن ميورقـة في سـجلات التراخـيص (guiatges) (بعضـها لوجهـات متعددة). قرابة الثلثين كانت وجهتها موانئ السـلطنة العبـد الوادية والبقيـة نحـو إفريقية أساسا[212].

جدول 38: توزيع انطلاق السفن الميورقية نحو المغرب حسب الوجهة

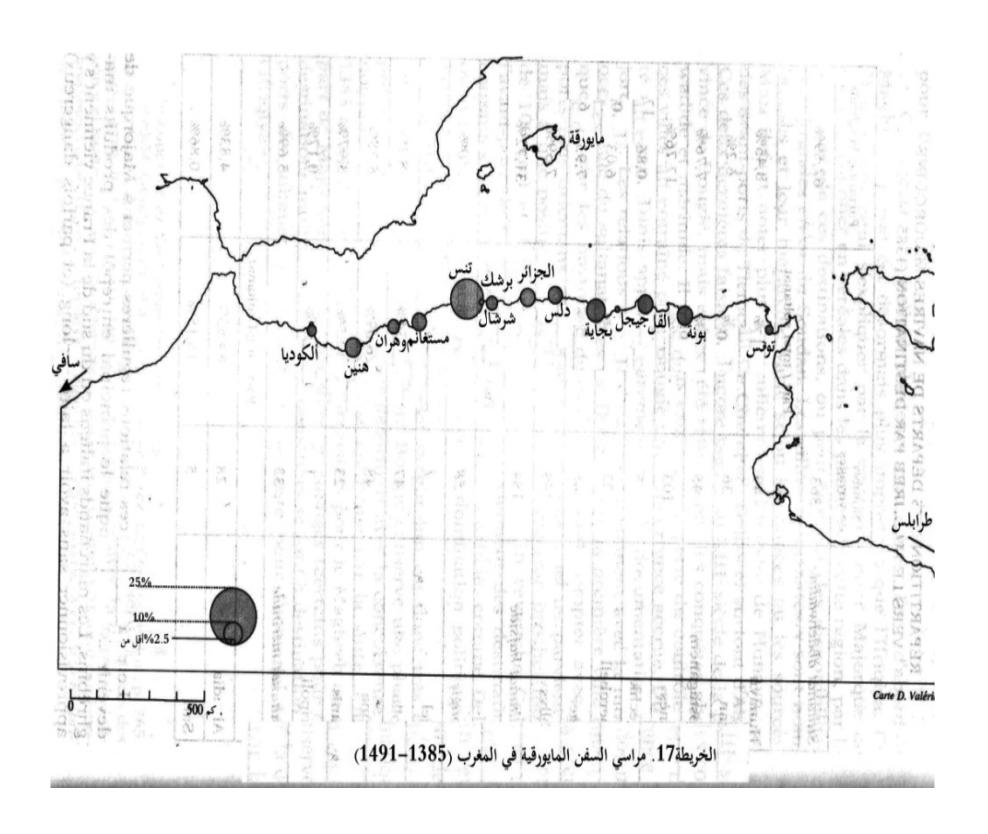
(1419-1385)

	عدد الرحلات		الحصة الاجمالية للمغرب
السلطنة عبد الوادية	363		%62,59
		الحصة الاجمالية للسلطنة	
هنين	49	%13,5	%8,45
وهران	36	%9,92	%6,2
مستغانم	45	%12,4	%7,76
تنس	103	%28,37	%17,76
برشك	5	%1,38	%0,86
الجزائر	35	%9,64	%6,03
دلس	46	%12,67	%7,93
السلطنة الحفصية	44	%12,12	%7,59
	184		%31,72
بجايه		الحصة الاجمالية للسلطنة	
جيجل	*58*	*%31,52*	*%10*

(212) ARM, Guiatges, Rg. 4 à 7 مـن خـلال López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 265. ينتج عن جرد عقود الموثقين لسنوات 1350 نتائج مشابهة. أنظر أيضا:

Ead., « La Corona de Aragón y el Norte de Africa : las diferentes áreas de intervención mercantil catalano-aragonesa en el Magreb a finales del siglo XIV y principios del XV », *Acta historica et archaeologica mediaevalia*, 11-12, 1990-1991, p. 315.

القل	7	%3,8	%1,21
بونه	47	%25,54	%8,1
تونس	48	%26,09	%8,28
طرابلس	23	%12,5	%3,97
	1	%0,54	%0,17
السلطنة المرينية	33		%5,69
		الحصة الاجمالية للسلطنة	
الكدية	28	%84,85	%4,83
آسفي	5	%15,15	%0,86



الخريطة17. مراسي السفن المايورقية في المغرب (1385–1491)

سمح بقاء العلاقـات المنتظمـة لميورقـة مـن أن تصـبح المسـتودع الرئيسـي للمنتجات المغاربية. أتى إليها التجار الإيطاليون أو تجـار جنـوب فرنسـا للتمـوين دون القيام برحلة طويلة (وأحيانا خطيرة) نحو شواطئ إفريقيا الشمالية[213]. ففي 1330 وصل تاجران جنويان – لودفيكـو إمبراسـيو (Lodovico Embracio) وجياكومو سيرالو (Giacomo Serrallo)- إلى منورقة قادمين مـن بجايـة علـى متن مركب ميورقي[214]. رغم النزاعات الكثيرة خصوصا بين لاكورونيا أراجونـة وجنوة، تردد التجار الإيطاليون وواظبوا على ميناء بالما (Palma)، حيث تحصـلوا هناك على أفضلية في وقت السيطرة واحتفظوا بمكانة هامة، رغم تطـور المتعـاملين الكتالانيين والميورقيين[215]. وصلت وضعية القوة إلى أوجها عندما منع الملك بيار لوسيريمونيو هؤلاء الإيطاليين (ما عدا البيزيين) في 1353، مشيرا خصوصا لتبرير قراره أن لهم إمكانيات رأس المال التي تدفعهم إلى وضعيات احتكار على حسـاب الكتالانيين[216]. تمّ تطبيق هذا الإجراء خلال بعـض السـنوات، لكـن الإيطـاليين عادوا بسرعة. ففي 1371 حينما كان هناك منع لسكان الجزيـرة مـن الـذهاب إلى المغرب، رخّص الملك للخرجات المتجهة إلى المـوانئ المغاربيـة الواقعـة بـين هـنين وتونس لحمل السلع الموجهّة إلى بيزا[217]. من جهة أخرى، تظهر الوثائق الجنويـة

(213) استمر تردد الإيطاليين على موانئ إفريقية الشرقية وحدها، خصوصا تونس، بصفة منتظمة. لكن ميورقة كانت علاقاتها أقل مع هذا القسم من المغرب.

(214) ARM, *Supplicationes*, vol. XIII, f. 65 (17/9/1331), cité par Ch.-E. Dufourcq, « Aspects internationaux de Majorque durant les derniers siècles du Moyen Âge », *Mayurqa*, 11, 1974, p. 10.

(215) *Ibid.*, p. 6.

(216) M. T. Ferrer i Mallol, « Els Italians a terres catalanes (s. XII-XIV) », *AEM*, 10, 1980, p. 401.

(217) ACA, C., Rg. 1430, f. 7v (4/7/1371), éd. Dufourcq, « Aspects internationaux », art. cité, appendice, doc. n° 1.

لهذه الفترة عمليات استيراد منتجات إفريقية خالصة من ميورقة[218]. أيضا تبيّن مراسلة شركة داتيني دو براتو أهمية هذا السوق من الشمع والجلود بأقل درجة[219]. عندما أراد موزع هذه الشركة أمبروجيو دي لوانزو دي روتشي (Ambrogio di Lorenzo di Rocchi) الذهاب إلى الكدية[220] في 1395، وجب عليه المرور بميورقة، لأنه كان من السهولة الركوب إلى المغرب. أخيرا، قدم أيضا البروفانسيون واللونجدوسيون للتزود في الجزيرة بالمنتجات الإفريقية، خصوصا بعد انقطاع العلاقات المباشرة بين مرسيليا وإفريقيا[221].

إن القرن الرابع عشر هو إذن مطبوع بتقلص الشبكة التجارية البجائية التي رأت انخفاض علاقاتها مع إيطاليا وبروفانسيا ووجب عليها أيضا الأخذ في الحسبان المنافسة المتنامية لموانئ أخرى في الساحل المغاربي.

2) أسباب الأزمة

تفسّر عدة عوامل هذا التطور. في بادئ الأمر لقد تغيرت الوضعية السياسية لبجاية ومرّت المدينة خصوصا بفترة صعبة من تاريخها. لكن هذا لا يفسّر بالظرفية المغاربية ويجب تحليل هذه الأزمة في سياق أكثر اتساعا.

سجّل حصار العبد الواديين لبجاية في 1313 بداية أزمة سياسية وعسكرية طويلة. وجب على المدينة في بادئ الأمر مجابهة حملات تلمسان التي قدمت سنويا تقريبا لمهاجمة الجهة. إذا كانت لم تتوصّل إلى السيطرة على بجاية، فإن جيوشها

---

(218) على سبيل المثال: ASG, min. 312, f. 7r-v (2/1/1393). في حمولة ذهبت من ميورقة إلى جنوة نجد (دون الإشارة إلى المصدر) الصوف والجلود والأنسجة والشمع والتمور، إلخ.

(219) Abulafia, « El comercio y el reino de Mallorca », art. cité, p. 150.

(220) وجب عليه فيها بيع الأجواخ الفلورنسية وشراء الصوف والشب. كانت أيضا مهمته استعلام الأسعار وحالة الأسواق بنية رحلات قادمة.

B. Dini, *Una pratica di mercatura in formazione (1394-5)*, Florence, 1980, p. 12.

(221) Dufourcq, « Aspects internationaux », art. cité, p. 31, 34.

خرّبت البلاد وأوقفت علاقات الميناء ببلاده الخلفية، خصوصا في الفصل الجميل في وقت مجيئ المراكب للاتجار. إن تراجع بجاية النسبي الذي يلاحظ من خلال حركات السفن الميورقية في سنوات 1325-1330 له دلالة من هذه الزاوية[222]. سمح انطماس العبد الواديين بداية من 1332 براحة قصيرة لها لكنه ترك بسرعة المكان للمرينيين الذين بحثوا عن الاستيلاء على إفريقية الحفصية بين 1347 و1358. كانت بجاية في عدة مرات في أيدي سلاطين فاس وكانت الجهة من جديد مسرحا لتنقلات الجيوش. عانت المدينة نفسها من هذه الحروب مباشرة، خصوصا خلال الحصارات العبد الوادية التي لم تخرج منتصرة منها إلا بفضل التموين الذي سمح به البحر والذي قطعها عن مجالها الحيوي. إن الفضاء الذي تحكمت فيه سواء في الشرق أم في الغرب وجد نفسه مقلّصا بشدة في حين استفادت قبائل الرحل الرئيسية في البلاد الخلفية من هذه النزاعات الجهوية لفرض سيطرتها. فيما مضى في نهاية القرن الثالث عشر أدت الصراعات بين بجاية وتونس إلى ضعف ترجمته منح أكبر عدد من الاقطاعات للقبائل البدوية. استمرت هذه الحركة إلى حين استعادة أبي العباس (772/ 1370-796-1394) السيطرة عليها. في هذه الظروف ازداد اللاأمن في الأرياف وتأثرت بها بكل تأكيد التجارة الداخلية. من جهة أخرى، اضطربت الطرقات نتيجة هذه الوضعية وتأثرت الحركة في منفذ المحور الصحراوي خصوصا نتيجة عصيان بسكرة المتكرر.

من الصعب تقدير الخسائر البشرية في هذه الحروب، لكن لا يمكن تجاهلها. وتبقى الكارثة الكبرى هي الطاعون الذي مسّ الجهة في وقت فتح أبي الحسن المريني في 1347 واستمر في ضرباته على فترات.

(222) استفادت تونس من جهة وموانئ أخرى بالمغرب الأوسط من هذا التراجع.

إلى هذه العوامل المغاربية، يجب إضافة تطور الاقتصاد المتوسطي، خصوصا تطور المدن التي كانت على علاقة ببجاية في القرن الثالث عشر. من الممل الدخول هنا في تفاصيل التطور السياسي والاقتصادي الخاص بكل ميناء من هذه الموانئ[223]. لكنها تشترك في بعض السمات التي تفسّر تقلص المبادلات مع المغرب وبجاية خصوصا.

عرفت أوروبا في مجملها في هذه الفترة تراجعا، بعد النمو الاستثنائي في القرنين الحادي عشر – الثالث عشر، وعادت الوضعية وفق تسلسل زمني متنوع حسب الجهات، وحدث التغيير بين نهاية القرن الثالث عشر وطاعون 1348[224]. يترجم هذا بأزمة زراعية وصناعية، وتقلص دراماتيكي للسكان وانقباض المبادلات[225].

كونها مرتبطة بالتجار الأوروبيين الذين ضمنوا قسما كبيرا من تجارتها البحرية، تأثرت بجاية بتراجع هذه الوضعية. إن طبيعة هذه المواد التي تباع أو تشترى هي في الواقع حساسة جدا خصوصا لتطور صناعة النسيج في أوروبا. بيد أن ظاهرة ثانية ساهمت أيضا في تحويل التجار اللاتين عن هذا السوق. لم يعد

---

(223) أنظر مداخلات الملتقى الثامن لتاريخ لاكورونيا أراجونة، خصوصا:

V. Salavert i Roca, « La Corona de Aragón en el mundo mediterráneo del siglo XIV », *VIII Congreso de historia de la Corona de Aragón, Valencia,1967*, II, Valence, 1973, p. 31-64 ; A. Boscolo, « Problemi mediterranei dell'epoca di Pietro il Cerimonioso. 1353-1387 », *ibid.*, p. 65-99 ; A. Santamaría Arández, « Mallorca en el siglo XIV », *AEM*, 7, 1970-1971, p. 165-238 ; Petti Balbi, *Simone Boccanegra, op. cit., passim.*

(224) A. Riera Melis, « El Mediterrani occidental al darrer quart del segle XIII : concurrència comercial i conflictualitat politica », *AEM*, 26/2, 1996, p. 731-733 ; G. Fourquin, « Une conjoncture dramatique ? », *Histoire économique et sociale du monde*, I, *L'ouverture du monde, XIVe-XVIe siècle*, dir. B. Bennassar et P. Chaunu, Paris, 1977, p. 307-325.

(225) إلى جانب هذه الأسباب الأوروبية الخالصة، تجب إضافة الصعوبات في المشرق.

B. Z. Kedar, *Merchants in Crisis. Genoese and Venetian Men of Affairs and the 14th c. Depression*, New Haven - Londres, 1976, trad. it. *Mercanti in crisi a Genova e Venezia nel '300*, Rome, 1981, p. 13.

اعتبار الصوف الإفريقي ذي جودة إلى درجة منعه من صناعة الأقمشة. يجب الأخذ في الحسبان منافسة الصوف الانجليزي الذي بيع بداية من نهاية القرن الثالث عشر في أوروبا المتوسطية، وأيضا مع تطور تربية الحيوانات في إسبانيا[226]. استمر بيع الإنتاج المغاربي طبعا[227]، لكنه أضاع سيادته وخصوصا أنه أصبح يتناسب مع نوعيات أقل جودة ويباع بسعر منخفض. إن تجارة بجاية التي تخصصت في قسم منها بتصدير الصوف في القرن الثالث عشر، وجدت نفسها محرومة من سوق جوهري، لا يمكن تعويضه بسهولة.

عانت بجاية أيضا من تطور التوزيع الجغرافي للاستثمارات الأوروبية. من الآن فصاعدا، تخلّت المدن الإيطالية عن نشاطاتها في المغرب للتركيز على الشرق المتوسطي[228]. واستمرت طبعا بجاية في استقبال الإيطاليين، لكن دون حجم مشترك مع وضعية القرن السابق. لوحدها تونس – الواقعة على طريق البحر المتوسط الشرقي- جذبت الاستثمارات الهامة من جنوة أو من البندقية[229]. من جهة أخرى، تحول تنظيم التجارة في أكبر ميناءين إيطاليين. وانمحت صورة التاجر

(226) F. Melis, « La lana della Spagna mediterranea e della Berberia occidentale nei secoli XIV-XV », *La Lana come materia prima. I fenomeni della sua produzione e circolazione nei secoli XIII-XVII. Atti della I settimane di studio, Istituto internazionale di storia economica F. Datini, aprile 1969*, dir. M. Spallanzani, Florence, 1974, p. 241-251.

(227) López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 549-550.

(228) تطورت التجارة الشرقية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر عندما رفعت البابوية قرارات المنع.

E. Ashtor, « Underdevelopment in the Pre-industrial Era. The Case of Declining Economies », *Journal of European Economic History*, 7, 1978, p. 298.

(229) A.-É. Sayous, *Le Commerce des Européens à Tunis depuis le XIIe siècle jusqu'à la fin du XVIe siècle*, Paris, 1929, p. 69-92 ; Ph. Gourdin, « Les marchands étrangers à Tunis à la fin du Moyen Âge », *Tunis cité de la mer. Actes du Colloque de Tunis (1997)*, Tunis, 1999, p. 157-184 ; Petti Balbi, *Simone Boccanegra*, *op. cit.*, p. 358-359.

المتنقل أمام صورة الممثل الدائم المستقر في ما وراء البحر[230]، وأجبر تنظيم الفروع المصرية تركيز نقاط إسناد شبكة الأعمال التجارية[231]. هذا لم يقص الوجهات الثانوية، لكنه مدّد زيادة المدن ذات الموقع الأفضل كتونس. وفي غرب قناة صقلية، تركت الأرضية في قسم منها للميورقيين، الذين اكتسبوا وضعية مهيمنة على أغلب الأسواق المغاربية. كانت دون شك نتيجة تحول الإيطاليين عن الجهة، ولكن ليس من المستعبد بحث الميورقيين عن فرض احتكار هذه التجارة بين الجزيرة والشواطئ الإفريقية. فعندما بحث وكيل شركة داتيني في 1395 الركوب من ميورقة إلى الكدية، منعه الاحتكار الميورقي[232]. أيضا أعفت معاهدة سلم 1428 بين جنوة ولاكورونيا أراجونة الجنويين من منع التجار الأجانب من الاتجار مع المغرب انطلاقا من ميورقة[233]، وهذا ما يبيّن جيدا وجود إجراءات حماية. لكن إذا كان بإمكان الميورقيين تحديد ذهاب السفن، لم يكن بإمكانهم منع أمم أخرى من التردد على الموانئ المغاربيه.

بالنسبة لهؤلاء التجار الميورقيين، كان المغرب الأوسط (مدينة الجزائر على خط طول بالما) المنطقة الأكثر قربا. ليس مستبعدا من جهة أخرى أن يؤدي فقدان تحكم بجاية السياسي في دلس وخصوصا الجزائر بتطوير نشاط هذين الميناءين. على كل حال يتطابق الازدهار مع هذه الفترة. بين تونس ومدن المغرب الأوسط، تواجدت بجاية في زاوية ميتة للتجارة البحرية. طبعا، توفرت على ورقات رابحة كافية لجذب التجار، لكن لم تكن لها الوضعية المركزية التي شغلتها في القرن الثالث عشر.

---

(230) Kedar, *Mercanti*, *op. cit.*, p. 43-70.

(231) U. Tucci, « Le colonie mercantile italiane e il commercio internazionale nel Medioevo », *Ateneo Veneto*, 181, 1993, p. 22.

(232) Dini, *Una pratica di mercatura*, *op. cit.*, p. 14.

(233) M.-M. Costa, « La pau del 1428 i els mercaders genovesos de la Corona d’Aragó », *AEM*, 10, 1980, p. 562.

3) علاقات نزاع أكثر فأكثر مع القوى الأوروبية

واكب تقلص المبادلات التجارية تفاقم النزاعات بين بجاية وقوى الشمال. طبعا تعود الصعوبات مع الدول المسيحية إلى فترة قديمة. بداية من نهاية القرن الثالث عشر، أظهر الملوك الكتالانيين مطامع امبريالية في المغرب، خصوصا في السلطنة الحفصية. ذهب هذا الضغط إلى التشدد بمناسبة حروب النصف الأول من القرن الرابع عشر واحتلت بجاية مكانة ريادية في دبلوماسية برشلونة وميورقة. تمّ تأويل هذا كإشارات للهجمة المسيحية ضد المغرب(234). صحيح في قسم منه، لكن يجب وضع المشكل في سياق القرن الرابع عشر فقط. واجه الحكم الحفصي في بجاية صعوبات سياسية ودبلوماسية، زاد من حدّتها انخفاض مصادر الدخل الضريبية. أدت هذه الوضعية الاقتصادية والسياسية بالملوك إلى الالتفات أكثر نحو البحر، حيث أضحى من عوامل بقائهم. ويترجم هذا في بادئ الأمر بموقف أكثر عدائية من لاكورونيا أراجونة التي انتهزت حالة الضعف والتبعية ثم تطور القرصنة.

تعددت دوافع هذه السياسة الهجومية للاكورونيا أراجونة. بالنسبة للملوك الكتالانيين، إن إفريقيا هي أولا امتداد لشبه الجزيرة الأيبيرية، ويجب مواصلة مجهودات حركة الاسترداد إلى ما بعد مضيق جبل طارق(235). هناك بعد ديني بديهي في هذه المشاريع، لكن لا تجب المبالغة فيه. خلال القرن الثالث عشر، طبعا

(234) شارل إيمانويل ديفور الذي درس بالخصوص سياسة لاكورونيا أراجونة بمعاني الامبريالية حتى وإن اعترف دائما بأولية المصالح الاقتصادية. أنظر:

Ch.-E. Dufourcq, « Un impérialisme médiéval face au Maghreb : la naissance et l'essor de l'Empire catalan, d'après des travaux récents », *CT*, 79-80, 1972, p. 101-124.

(235) Ch.-E. Dufourcq, « Rapports entre l'Afrique et l'Espagne au XIIIe siècle », *Medievalia*, 1, 1980, p. 88-102. A. Giménez Soler, « Episodios de las relaciones entre la corona de Aragón y Túnez », *Anuari de l'Institut d'Estudis Catalans*, 1, 1907-1908, p. 197.

أكّد هذا الأخير على أن سياسة جاك الثاني الأراجوني هدفت إلى تأكيد سيادته عن طريق ضريبة الخضوع أكثر من أن تسيطر على الأسواق.

بذلت مجهودات لتحويل المسلمين إلى المسيحية[236]، لكن فشلها السريع وضع حدا لهذا الحلم[237]. في بداية القرن الرابع عشر، حاول أيضا رامون لول (Ramon Llull) إقناع سكان بجاية حيث ألقى مواعظ باللغة العربية قبل أن يطرد بسرعة إلى أوروبا[238]. بعد عودته، حرّر كتابا اقترح فيه على البابا تكوين مبشرين لإلقاء المواعظ وأيضا استئناف السيطرة على مملكة غرناطة ومجمل إفريقيا إضافة إلى الأرض المقدسة[239]. وقد شجعت بعض الأوساط الدينية دون نقاش السيطرة المسيحية على المغرب. يبقى من الصعب تقدير تأثيراتها على الأمراء والأطماع السياسية الخالصة كانت محددة لدى هؤلاء الأخيرين. منذ نهاية القرن الثالث عشر، فكر الملوك الكتالانيون-الأراجونيون في الواقع على توسيع سيطرتهم بكيفية أو بأخرى على حساب الدول المغاربية. واستعملوا حالة النزاع المستمر التي تسيطر على الجهة ولعبوا دورا في هذه الصراعات. وضعت محاولة النزول عقيمة الجدوى بالقل في 1282 [240]-طبعا ليس أكيدا أنها كانت تهدف

(236) A. Unali, « Pénétration religieuse et territoriale des chrétiens au Maghreb au XIIIe siècle », *Mésogeios*, 7, 2000, p. 143-152 ; A. Ajello, La *Croce e la Spada. I Francescani e l'Islam nel Duecento*, Naples, 1999, p. 16-28, 33-35.

(237) R. I. Burns, *Muslims, Christians and Jews in the Crusader Kingdom of Valencia*, Cambridge, 1984, trad. catalane, *Moros, cristians i jueus en el regne croat de Valencia*, Valence, 1987, p. 160.

(238) D. Urvoy, *Penser l'islam : les présupposés islamiques dans l'« Art » de Lull*, Paris, 1980, p. 218, 231 ; A. Llinares, « Raimond Lulle et l'Afrique », *RA*, 105, 1961, p. 106-107.

(239) *Ibid.*, p. 111 ; J. Tolan, *Les Sarrasins*, Paris, 2003, p. 354-362.

(240) L.-Ch. Féraud, « Expédition du roi Pierre III d'Aragon à Collo (au XIIIe siècle) d'après une chronique catalane », *RA*, 16, 1872, p. 241-258 ; A. Solal, « Au tournant de l'histoire méditerranéenne du Moyen Âge : l'expédition de Pierre III d'Aragon à Collo (1282) », *RA*, 101, 1957, p. 247-271 ; R. Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides*, I, Paris, 1940, p. 219-223.

للاستيلاء على المغرب[241]- حدا ولمدة طويلة لحلم السيطرة على المجال[242]. هـذا لم يمنع الملوك الكتـالانيين والميـورقيين مـن البحـث عـن التـدخل في الشـؤون الداخليـة للسلطنة. وأعطى لهم الصراع بين بجايـة وتـونس عـدة مـرات الفرصـة. ففـي خـلال الحرب الأهلية في 1279 بإفريقية، ساند بيار الثالـث (Pierre III) أبـا اسـحاق أمـير بجاية ضد الواثق بتونس: أثناء هجوم الأول من بجاية، شنّ ملـك أراجونـة حملـة ضـد قابس لفتح جبهة ثانية[243]. لكن كان الفشل واضحا، لأنه بمجرد الصعود إلى العرش بالمساعدة الكتالانية، لم يقبل السلطان الجديد أبدا أدنى خضوع لبرشلونة[244].

إن الإشارات البديهية لإرادة الملوك المسيحيين فرض سـيطرة سياسـية هـي المجهودات المتواصلة لتسديد الحفصيين ضريبة خضوع. لكن مسألة ضريبة الخضوع معقدة. يجب في بادئ الأمر تعريف هذه الكلمة والبحث عن أصل هـذه المطالبـة. مبدئيا يتعلق بمال مدفوع مقابل السلم ويسجّل وضعية دونية سياسيا. لا يمكن إذن استعماله للدلالة على مبالغ أحيانا هامة تدفعها بجايـة أو تـونس مقابـل المسـاعدة

(241) بسرعة ركب الجيش الكتالاني البحر للسيطرة على صقلية، تاركا بذلك المدينة.

(242) إن معاهدة منتجيديو (Monteagudo) لعام 1291 التي قسّمت المغرب بين حيزين للسـيطرة: لاكورونيا أراجونة (في شرق ملوية) وقشتالة- لم تتّبع في إفريقية.

Ph. Gourdin, « Le “partage” du Maghreb entre l’Aragon et la Castille au traité de Monteagudo (1291) », *Le Partage du monde. Échanges et colonisation dans la Méditerranée médiévale*, dir. M. Balard et A. Ducellier, Paris, 1998, p. 399-409 ; D. Valérian, « Le facteur économique dans la politique catalane à Bougie (XIIIe-XVe siècle) », *L’Expansio catalana a la Mediterrània a la baixa edat mitjana*, dir. M. T. Ferrer i Mallol et D. Coulon, Barcelone, 1999, p. 156-157.

(243) Jerónimo Zurita, *Anales de la Corona de Aragón*, éd. A. Canellas Lopez, Saragosse, 1967-73, vol. 2, livre IV, chap. 13, p. 50-51 (a. 1281).

إن النص غير واضح فيما يخص سير الوقائع، لكن تأويلها من الإخباري هـو في المقابـل واضـح: "وضـع كونراد لونسيا (Conrad Lancia) ملك تونس (أبا اسحاق) في زمام مملكته".

(244) دفع هذا الفشل العاهل الكتالاني لاقتراح مساعدته لحاكم قسنطينة ابن الـوزير وهـو مـا انتهـى بإنزال في القل في 1282.

البحرية التي قدمت لها ضد تلمسان، أو تعويض عن أعمال القرصنة(245). إن مطالبة لاكورونيا أراجونة الحفصيين بدفع ضريبة الخضوع تندرج في تقليد ضريبة السلم (parias) التي دفعتها الدول الإسلامية في الأندلس إلى القوى المسيحية. لكن مطالبة أخرى تضاف إلى الأولى بعد دخول صقلية تحت السيطرة الأراجونية. يعتبر الملوك أنفسهم ورثاء للسياسة الإفريقية للمملكة النورمانية بصقلية، وإذن ضريبة خضوع دفعتها فيما مضى تونس إلى بلاط بلرم(246).

أعطت الصعوبات التي لاقاها الحفصيون في القرن الرابع عشر فرصة لاستئناف الهجمات، وجعلت الهجمات العبد الوادية والمرينية اتفاقا سياسيا وعسكريا ضروريا مع الكتالانيين. كانت المباحثات دائما طويلة وعرفت عدة ارتدادات وفشلا متتاليا والذي ليس من الفائدة الرجوع إليه هنا(247). أضرت

(245) Valérian, « Le facteur économique », art. cité, p. 157-158.

(246) D. Abulafia, « The Norman Kingdom of Africa and the Norman Expeditions to Majorca and the Muslim Mediterranean », *Anglo-Norman Studies*, 8, *Proceeding of the Batlle Conference*, *1984*, dir. R. Allen Brown, Woodbridge, 1985, p. 35-36, rééd. *Italy, Sicily and the Mediterranean, 1100-1400*, Londres, 1987.

طالب شارل دانجو بنفس الصفة السلطات تسديد ضريبة خضوع ثقيلة بعد الحملة الصليبية لعام 1270. معاهدة ملك فرنسا، ملك دانجو صقلية، وملك نافار- تونس 1270، المادة 12. يجبر النص المستنصر بدفع مبالغ مدينا بها منذ خمس سنوات بموجب اتفاقات مبرمة مع الامبراطور، وهذا ما يبيّن هنا الرغبة في امتداد السياسة الصقلية.

(247) حول التسلسل الزمني للعلاقات السياسية بين لاكورونيا أراجونة والحفصيين في القرن الرابع عشر، أنظر على وجه الخصوص:

Dufourcq, *L'Espagne catalane*, *op. cit.*, p. 404-425 ; Id., « Les relations de la péninsule ibérique et de l'Afrique du Nord au XIVe siècle », *AEM*, 7, 1970-71, p. 39-65 ; López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 137-165 ; Ead., « La Corona de Aragón i el Magreb : politica i comerç (1331-1410) », *Butlleti de la Societat catalana d'Estudis historics*, 5, 1994, p. 121-134 ; F. Udina Martorell, « Las relaciones entre Túnez y la Corona de Aragón en el segundo tercio del siglo XIV hasta 1360 », *AEM*, 10, 1980, p. 337-342 ; Id., « Sur les rapports entre la Tunisie et l'Aragon entre 1360 et 1379 », *Actas del*=

أحيانا هذه النزاعات بالمبادلات التجارية سواء بالمقاطعة التي تلفظ بانتظام ضد بجاية أم ضد مجمل الموانئ الحفصية، أم لفترات طويلة دون هدنة. إذا ما وجب على الحفصيين التخلي في ثلاث استئنافات وقبول ضريبة خضوع[248]، فإنهم عرفوا في الغالب مقاومة الضغوطات الكتالانية ولم يدفعوا أبدا المبالغ التي وعدوهم بها كاملة[249]. إن السبب الرئيس لفشل الطموحات السياسية الكتالانية هي الحاجة التي ذكّر بها دائما التجار رعايا ملوك أراجونة وميورقة بإبقاء ظروف تجارة حيوية بالنسبة لهم[250]. وأخيرا بداية من 1370، بعد توطيد قوة السلاطين، توقف هؤلاء على تبعية المساعدة الخارجية ولم تعد مسألة ضريبة الخضوع تقريبا. تحول النزاع وقتئذ إلى مشاكل القرصنة.

رأينا أن القرصنة كانت ظاهرة قديمة، تطورت خصوصا في بجاية بداية من سنوات 1315 وعرفت أوجها بين 1375 و1429. يدعو هذا التسلسل الزمني إلى تحليل الظاهرة كأثر لأزمة عامة عرفتها بجاية في القرن الرابع عشر. ساهم تراجع الفوائد التي جلبتها التجارة منذ بداية القرن خصوصا في توجيه البعض نحو نشاط بديل. لكن تجب الملاحظة أيضا أن التطور الكبير للقرصنة كان بعد نهاية الحروب الطويلة ضد العبد الواديين والمرينيين، وخصوصا لوصول الطاعون الأسود. إن الانخفاض الديمغرافي الذي نتج عنه أدى دورا في البحث عن يد عاملة من

=*II coloquio hispano tunecino de estudios históricos, Madrid-Barcelona, 1972*, Madrid, 1973, p. 49-62.

(248) في 1312 (سلم بجاية- ميورقة) و1314 (بجاية- برشلونة) ثم في 1360 (الحفصيون-أراجونة). تؤخذ هذه الضريبة من منتوج الرسوم الديوانية التي يسددها التجار الكتالانيين في الموانئ الحفصية.

(249) López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 137-138 ; M. Sanchez Martinez, « Las relaciones de la Corona de Aragón con los países musulmanes en la época de Pedro el Ceremonioso », *Pere el Ceremoniós e la seve epoca*, Barcelone, 1989, p. 85.

(250) Valérian, « Le facteur économique », art. cité, p. 159.

الأسرى[251]. إن القرصنة هي إذن أثر لأزمة النشاط التجاري وأيضا أثر لمشاكل عامة جدا عرفتها المدينة وجهتها. وجد الخواص على غرار الدولة مداخيل بديلة، لكن في الوقت ذاته ساهم هذا التطور في تدهور العلاقات السياسية مع الدول المسيحية. إن وفرة المراسلات الدبلوماسية بين الحفصيين والملوك الكتالانيين تبيّن أن مناخ الحذر كان في قسم منه بسبب هجمات القراصنة[252]. نفس الانطباع بالنسبة للعلاقات مع جنوة التي اضطربت بانتظام بسبب القرصنة[253]. وترجم هذا بقطيعة دبلوماسية طويلة وترخيص القرصنة المسيحية ضد السواحل الحفصية وحملات الثأر، على غرار حملات 1397 و1399 ضد بونة ودلس. شجّعها تقلص التجارة في منتصف القرن الرابع عشر، منعت القرصنة إذن استئنافا سريعا للمبادلات الهادئة حتى وإن لم توقف التجارة كلية.

إن القرن الرابع عشر هو إذن فترة أزمة وضعف بالنسبة لبجاية. شكّلت دون شك مشاكل نهاية القرن الثالث عشر وخصوصا النزاعات السياسية مع تونس التي تنذر بمجيئ اختلالات دائمة. لكن استقلالية بجاية أظهرت بشكل واضح ثراء المدينة الذي كان قادرا لأن يصبح نقطة انطلاق لتوحيد المجالات الحفصية. بداية من أولى الهجمات العبد الوادية، تغيرت الوضعية بكيفية ذات دلالة. أصبحت الحروب صعبة أكثر على المدينة وبلادها الخلفية واستمرارها

---

(251) في مذكرة بتاريخ 1349، اقترح حاكم ميورقة ترك سكان الجزيرة يقومون بالقرصنة بكيفية مراقبة، لأنه بعد الطاعون، تناقص عدد السكان (خصوصا العاملين). وأضاف بأن هذا يسمح بمحاربة المسلمين الذين لا سلم معهم. ARM, Governaciò, 4380, f. 24r-25r (10/4/1349), cité par López Pérez, La Corona, op. cit., p. 583-584. وجد هذا التفكير أيضا في الجانب المغاربي.

(252) حول التسلسل الزمني للعلاقات السياسية بين لاكورونيا أراجونة والحفصيين في نهاية القرن الرابع عشر، أنظر خصوصا:

López Pérez, *La Corona*, *op. cit.*, p. 155-165.

(253) E. Marengo, *Genova e Tunisi (1388-1515)*, *ASLSP*, 32, Gênes, 1901, p. 24-36.

أطول. وتفاقمت الوضعية بوصول الطاعون في 1358 الذي عزّز من التقلص الديمغرافي القديم من قبل. يفسّر فتور النشاط التجاري أيضا بتطور المبادلات مع البلدان المسيحية نفسها التي مسّتها أزمة اقتصادية وديمغرافية. انخفضت إذن أهمية السوق البجائي لدى الإيطاليين الذين استداروا أكثر نحو الشرق المتوسطي وفضّلوا روابطهم مع تونس. من جهة أخرى، إذا كان الميورقيون عوّضوا في قسم الجنويين أو البيزيين، فإنهم طوّروا نشاطاتهم في حيز أكثر اتساعا، يمتد من وهران إلى بونة حيث فقدت فيه بجاية دورها الريادي. إن هذا الضعف كان فرصة للملكية الكتالالونية-الأراجونية للبحث عن سيطرة سياسية بفرض ضريبة خضوع. لكن فشل هذه المحاولات المتكررة يبيّن أن البلاد كانت لا تزال قادرة على مقاومة الضغوطات السياسية الخارجية. ومن جهة أخرى، السلالة الحفصية استعادت قوتها السياسية بعد 1360.

رغم ذلك خرجت بجاية ضعيفة جدا من هذه المحنة. إذا سمح لها تطور القرصنة بتعويض قسم من الخسائر التي تسبب فيها انخفاض المبادلات التجارية فإنه منع المدينة من أن تجد المكانة التي كانت عليها في المغرب قرن قبل ذلك. سياسيا، تقلص حيز نفوذها في الشرق والغرب، واقتصاديا وجب عليها من الآن فصاعدا الأخذ في الحسبان منافسة الموانئ القريبة والنشطة.

III- استئناف نسبي بداية من الثلث الثاني من القرن الخامس عشر

انتهى القرن الرابع عشر بعد فترة طويلة من الأزمة مع استعادة القوة الحفصية. لكن بجاية خرجت ضعيفة جدا من هذه السنوات سواء على المستوى السياسي أم على المستوى الاقتصادي. إن فشل محاولات اغتصاب السلطة في عهدي أبي فارس وعثمان يعتبر إشارة للقوة التي وجدتها تونس من جديد وأن ضعف بجاية لم يتمكن – كما كان في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع

عشر- من مساندة طموحات الأمـراء الحفصـيين المنشـقين. رافـق فـترة الضـعف السياسي فتور ملحوظ للاقتصاد.

رغم ذلك في بداية سنوات 1430 بدأ نشـاط المينـاء في الاسـتئناف تحـت تأثير وضعية جديدة. لم تعد بجاية ميدانا للميورقيين وحدهم، وهذا ما يدل على أن الإيطاليين والبروفانسيين اعتبروها من جديـد سـوقا فيـه فائـدة، واحتلـت بـذلك مكانة ملحوظة على خطوط الملاحة الكبرى.

1) وضعية ملائمة أكثر

بينما توحدت عدة عوامل إضعاف بالمغرب ووضعية أوروبية غير ملائمـة في القرن الرابع عشر، سجّلت بداية القرن الخامس عشر عودة الاستقرار السياسي إلى إفريقية، وهذا ما سهّل استئناف علاقـات دبلوماسـية جيـدة ونمـو في أوروبـا، والكل تنافس على تحريك القطاع الاقتصادي.

أ- عودة الاستقرار إلى إفريقية

سجّلت فترتا حكم أبـي فـارس (796/ 1394-837/ 1434) وعثمـان (839/ 1435-893/ 1488) استقرارا حقيقيـا سياسـيا داخليـا في إفريقيـة[254]. واختفت التهديدات العبـد الواديـة والمرينيـة فعليـا وتوصـل السـلاطين إلى إبقـاء خضوع عمال المقاطعات الغربية في حين فقـدت القبائـل اسـتقلاليتها. حلّـت إذن بصفة دائمة الأزمات بسرعة. في هذا الفضـاء احتفظـت بجايـة بمكانتهـا كعاصـمة للثغر الغربي، لكنها فقدت نهائيا التحكم في مقاطعة قسنطينة والـزاب. في المقابـل ترجم تراجع القوة العبد الوادية بإعادة ادمـاج مـدينتي الجزائـر ودلـس في منطقـة نفوذها. لا تصف نصوص هذه الفترة بكيفية كاملة شبكة الطرقـات بـين الـداخل والساحل، لكن الشبكة تغـيرت بشـكل محسـوس مقارنـة مـع الفـترات السـابقة.

(254) أنظر حول فترتي حكمها: Brunschvig, *La Berbérie, op. cit.*, I, p. 210-276.

في الشرق، استدار قسم هام من القبائل الكبرى مـن الآن فصـاعدا نحـو قسـنطينة ومنفذها البحري القل. ونفس الملاحظة تنسحب علـى طـرق وارجـلان وبسـكرة الصحراوية، التي وصلت فيما مضى إلى بجاية أساسـا، وأصـبحت تمتـد أكثـر نحـو قسنطينة وتونس. توفرت المجالات التي ربحتها في الغرب على منافذ بحرية خاصـة. في حين أصبحت الجزائر وبأقل درجـة دلـس في القـرن السـابق مينـاءان نشـيطان مؤهلان لتمرير منتجات بلادهما الخلفية واصطياد تدفق الذهب الوارد عن طريق توات وغرداية. مجملا، إن المجال الحيوي لبجاية تقلص لكنه ربح الاستقرار.

ب) علاقات أقل نزاعا مع القوى المسيحية

نتابع في حوض البحر المتوسط الغربي عودة تدريجية -رغـم أنهـا لم تكـن كاملة- إلى استقرار أكبر. إن العلاقات بين الحفصيين والقـوى الأوروبيـة معروفـة جيدا بالنسبة لهذه الفترة بفضل وفرة وثائق الإنشاء المحفوظة. لكنها بقيت مفصولة بأزمات مرتبطة بالقرصنة سواء المسيحية أم المسلمة، أم بالحوادث الواقعة في الميناء. في هذا الصدد، إن غياب المراسلات بين جنوة والحفصيين بين بداية القرن الخامس عشر و1427 يجب تأويله كإشارة لانقطاع العلاقات الدبلوماسية. تمّ طبعا انتخاب قنصل لتونس في 1423[255]، لكن تلك حالة معزولة. بالعكس، منعت جنوة كل تجارة مع الأراضي الحفصية في 1423[256]. لم ترجع الوضعية إلى حالتها إلا بداية من سنوات 1430 فقط، حيث عقدت معاهدة في 1433 لمدة عشرين سنة، أكدّت اتفاقا قديما مبرما مع دوق ميلانو الذي كان سيدا لجنوة[257]. تبعـا لـذلك، كانـت العلاقات ودية مع عثمان وفي 1445 جـددت المعاهـدة السـابقة لمـدة اثـني عشـر

(255) Marengo, *Genova e Tunisi*, *op. cit.*, p. 36. تغيب أيضا المراسـلات مـع القناصـلة الجنويين الحاضرين في تونس.

(256) G. Petti Balbi, « Il consolato genovese di Tunisi nel Quattrocento », *Archivio storico italiano*, 576, 1998, p. 230.

(257) معاهدة جنوة – تونس، 1433، الديباجة.

سنة[258]. في 1465 تمّ تأكيد السلم وهذه المرة لمدة ثلاثين سنة[259]. لم تؤد مشاكل القرصنة التي تعني تونس أكثر إلى قطيعة في الروابط السياسية بين الدولتين[260]. ميّز تطور مشابه سياسة لاكورونيا أراجونة. بعد فشل محاولة ضد جربة في 1432، اختار ألفونسو الحليم (Alphonse le Magnanime) طريقا أكثر هدوءا[261]. ففي 1438 تمّ إبرام هدنة (نصها ضائع) [262]، وفي 1444 تمّ تحرير فصول من اتفاق سلم، لكن دون المصادقة عليه[263]. واجه اقرار علاقات مستقرة وودية – على غرار جنوة- مسألة الأسرى المقبوض عليهم في السلطنة وأيضا القرصنة الكتالانية. وجب انتظار 1447 لتوقيع اتفاق لمدة ثلاثين سنة بعد مباحثات طويلة[264]. رغم غياب معاهدة صريحة أثناء هذه السنوات، ساد توافق بين الدولتين[265]. طبعا تأتي بانتظام مشاكل الديوان أو القرصنة لإحداث اختلال حالة التعايش الهادئة المشتركة، لكن دون أن تؤثر فيها بكيفية دائمة. ففي أوت

---

(258) معاهدة جنوة – تونس، 1445، الديباجة.

(259) معاهدة جنوة – تونس، 1445، الديباجة. لم تجدد بعد ذلك إلا في 1507. Marengo, *Genova e Tunisi*, *op. cit.*, p. 120.

(260) أنظر: نفسه، ص 49-97. هذه الاعتداءات هي من فعل الرعايا الحفصيين على غرار الجنويين.
L. Balletto, « Battista Aicardo di Porto Maurizio, detto Scarincio, corsaro-pirata del secondo Quattrocento », *Corsari, « Turchi » e Barbareschi in Liguria. Atti del I convegno di Studi, Ceriale, 7-8 giugno 1986*, Albenga, 1987, p. 149-151.

(261) Fr. Cerone, « Alfonso il Magnanimo ed Abu 'Omar Othmân. Trattative e negoziati tra il Regno di Sicilia di qua e di là dal Faro ed il Regno di Tunisi (1432-1457) », *Archivio storico per la Sicilia Orientale*, 9, 1912, p. 46.

(262) *Ibid.*, p. 48-49.

(263) Cerone, « Alfonso il Magnanimo », art. cité, *Archivio storico per la Sicilia Orientale*, 10, 1913, p. 25-28.

(264) *Ibid.*, p. 75 ; معاهدة لاكورونيا أراجونة – تونس، 1445، الديباجة

(265) Ch.-E. Dufourcq, « La continuité des activités catalano-aragonaises dans les États musulmans méditerranéens d'Alphonse le Magnanime à Ferdinand le Catholique », *IX Congresso di storia della Corona d'Aragona*, Naples, 1982, p. 207.

1482 تبعا لتوقيف مشرف ديوان الجزائر لتاجر مـن كاسـتل أمبريـاس (Castel d'Ampurias)، أعلن عن مقاطعة موانئ جهة بجاية وانتقم بمصادرة أملاك يهـود الجزائر وبجاية الموجودة ببجايـة[266]. لكـن بسـرعة، منـذ شـهر أكتـوبر، أجـبرت ضغوطات الأوساط التجارية الملك على تعليق هذا الإجراء[267].

خارج هذين المتعاملين التقليديين للحفصيين، استأنفت كل قـوى أوروبـا الجنوبية روابطها مع إفريقية. جددت البندقية اتفاقاتهـا السـلمية في 1427 ثـم في 1438 وبقيت علاقاتها ودية حتى نهاية حكم عثمان[268]. أيضا، جددت صـقلية الهدنة مع تونس بعد 1438[269]. توصّل الفلورنسيون الذين عوّضوا البيـزيين في البحر المتوسط إلى اتفـاق في 1421، وتمّـت المصـادقة عليـه في 1423 قلـيلا بعـد امتلاك ليفورن [270] (Livourne) . وأخيرا، ملوك فرنسا – الذين أخذوا بسياسة الملك روني [271] (René) وأضافوا عليها- عقدوا علاقات مستمرة مـع المغـرب بعد ربط بروفـانس بفرنسـا في 1481[272]. في هـذا السـياق، نجـد قـرارات المنـع

(266) ACA, C., Rg. 3827, f. 68r-v (7/8/1482).

(267) Id., f. 68v-69r (26/9/1482).

(268) Sacerdoti, « Venezia e il regno hafsida », art. cité, p. 334-342 ; B. Doumerc, « Venise et la dynastie hafside à la fin du XVe siècle », *CT*, 117-118, 1981, p. 574-576.

على غرار جنوة ولاكورونيا أراجونة، وجب على جنوة أخذ في الحسبان مشـاكل القرصـنة والأسـرى، لكن فدية الأسرى الذي يتطلب محادثات طويلة لم يوقف العلاقات السياسية والاقتصادية.

(269) Mas-Latrie, « Relations commerciales de Florence et de la Sicile », art. cité, p. 220.

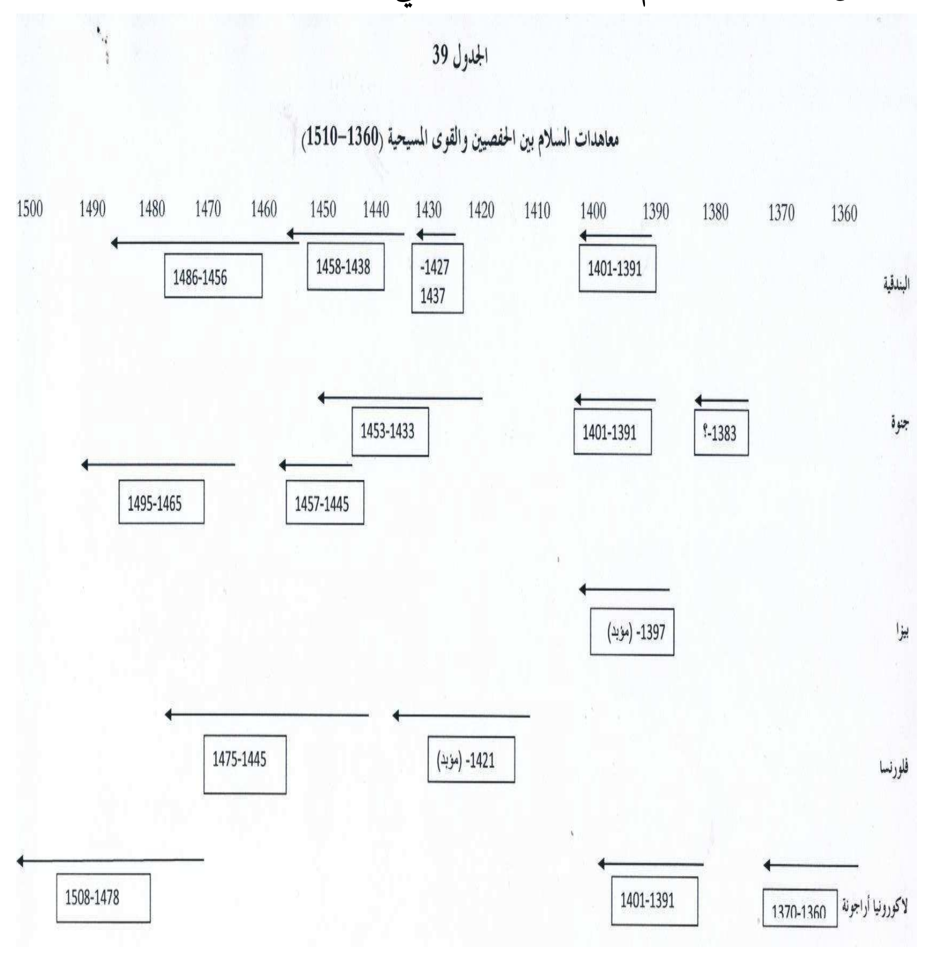
(270) *Ibid.*, p. 209, avec la date de 1424 corrigée dans Mas-Latrie, *Traités*, *op. cit.*, p. 344-354.

(271) أرسل الملك روني ممثلين إلى أمير بجاية.

Éd. G. Arnaud d'Agnel, *Comptes du roi René*, Paris, 1908-1910, II, p. 347-348, 375 (mai et juin 1479).

(272) في 1460 دخل شارل السابع (Charles VII) في اتصال مع السلطان الحفصي. حول السياسة المتوسطية لفرنسا، أنظر:=

البابوي للاتجار مع الكفار المتجددة بانتظام تمّت استدارتها بسهولة عن طريق الرخص الاستثنائية (رغم أنها أحيانا نفعية) التي منحتها البابوية(273).



=M. Mollat du Jourdain, « Les intérêts commerciaux français en Méditerranée au temps d'Alphonse le Magnanime », *XIV congresso di storia della Corona d'Aragona, Sassari-Alghero, 19-24 maggio 1990*, vol. II, t. 2, Sassari, 1996, p. 629-642. Voir également L. de Mas-Latrie, « Chartes inédites relatives aux États de Bougie et de Bône (1268-1293-1480) », *BEC*, 1re série, 2, 1840-1841, p. 396-397.

(273) L. Balletto « Commerciando con gli infedeli in Siria, in Egitto e in Tunisia (1418-1423) », *Genova, Mediterraneo, Mar Nero (secc. XIII-XV)*, Gênes, 1976, p. 35-43.

ج) الاستئناف الاقتصادي في أوروبا

كان الانخفاض الكبير في القرن الرابع عشر قد أضرّ بحركية التجارة الأوروبية في البحر المتوسط، وترك مكانه بداية من سنوات 1450 – وأحيانا قبل- لفترة جديدة من تطور أوروبا[274]، كما يمكن أن تشهد على هذا الازدهار بعض المدن الإيطالية على غرار فلورنسا والبندقية أو جنوة، لكن أيضا الموانئ الإيبيرية وخصوصا شمال أوروبا[275].

تحول مركز ثقل التجارة الدولية نحو الغرب. أدى سقوط القسطنطينية في 1453 وما بقي من الممتلكات المسيحية في آسيا الصغرى إلى تحول الاستثمارات نحو أسواق أخرى. أجبرت أيضا الصعوبات الاقتصادية في مصر وسوريا[276] على إعادة تنظيم الأنشطة التجارية مع العالم الإسلامي، على الأقل بالنسبة للجنويين[277]. أدى المغرب وأيضا الأندلس وظيفة أسواق احتياطية[278]، حتى وإن لم يصلا إلى المنافسة الكاملة لأسواق المشرق. استثمر الجنويون في سلطنة غرناطة في زراعات المضاربة على غرار السكر والعنب والكروم أو في تربية دودة

(274) R. Fossier, « Le second souffle de l'Europe », *Le Moyen Âge,* dir. R. Fossier, III, Paris, 1983, p. 389.

(275) *Ibid.*, p. 414-418.

(276) E. Ashtor, *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*, Londres, 1976, p. 301-331.

(277) في واقع الأمر استمر تردد البرشلونيين والبنادقة على الأسواق السورية والمصرية. أنظر:
E. Ashtor, « The Volume of Trade in the Later Middle Ages (1370-1498) », *Journal of European Economic History*, 4, 1975, p. 573-612, rééd. *Studies in the Levantine Trade in the Middle Ages,* Londres, 1978 ; D. Coulon, *Barcelone et le grand commerce d'Orient au Moyen Âge. Un siècle de relations avec l'Égypte et la Syrie-Palestine (ca. 1330 - ca. 1430),* Madrid-Barcelone, 2004.

(278) J. Heers, *Gênes au XVe siècle. Activité économique et problèmes sociaux*, Paris, 1961, p. 1.

القز[279]، في حين بقي المغرب سوقا تقليديا للأنسجة الأوروبية ومكانا للتموّن خصوصا بالجلود والشمع[280]. من جهة أخرى، ليس مستبعدا أن يكون فقدان مناجم الشب في فوسيا (Phocée) في 1455 سببا أدى إلى البحث عن مصادر جديدة للتزود في المغرب إلى غاية اكتشاف مناجم تولفا في سنوات 1460[281]. رافق هذا الانتقال تكثيف العلاقات مع أوروبا الأطلسية الذي بدأ في القرن السابق والذي استفاد المغرب في قسم منه[282]. كان الجنويون نشطين جدا على هذا الطريق، خصوصا جمهورية البندقية التي نظّمت منذ القرن الرابع عشر الخط البحري باتجاه الفلوندر، ليرتبط البحر المتوسط الغربي بموانئ الفلوندر وأنجلترا، باجتياز أحيانا الموانئ المغاربية[283].

2) استئناف النشاط التجاري البجائي

سمح إعادة تنشيط العلاقات التجارية بين أوروبا والمغرب لبجاية من أن تجد من جديد جزءا من المكانة التي فقدتها في القرن السابق. ومعه أصبح الميناء جذابا ولم يعد الميورقيون لوحدهم من يأتون لممارسة التجارة. وجد متعاملون إيطاليون وبروفانسيون قدماء من جديد أنفسهم في طريق بجاية عندما عرفت

(279) *Ibid.*, p. 21 ; J. Heers, « Le royaume de Grenade et la politique marchande de Gênes en Occident », *Le Moyen Âge*, 63, 1957, p. 87-121, rééd. *Société et économie à Gênes (XIVe-XVe siècle)*, Londres, 1979.

(280) أنظر حول المواد التي استوردتها ميورقة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر:

O. Vaquer, « El comerç marítim de Mallorca a la segona meitat del segle XV », *Randa*, 29, 1991, p. 113-116 ; pour Gênes, voir R. Urbani, « Genova e il Maghrib tra il ’400 e ’500 (nuovi documenti archivistici) », *Genova, la Liguria e l’Oltremare tra medioevo ed età moderna. Studi e ricerche d’archivio*, Gênes, 1976, p. 190-192.

(281) J. Delumeau, *L’Alun de Rome XVe-XIXe siècle*, Paris, 1962, p. 19.

(282) J. Heers, *L’Occident aux XIVe et XVe siècles*, Paris, 1963, p. 175-194.

(283) D. Stöckly, *Le système de l’incanto des galées du marché à Venise (fin XIIIe - milieu XVe siècle)*, Leyde, 1995, p. 152-165.

الموانئ الإفريقية على طول السواحل الإفريقية من الشرق إلى الغرب تطورا، مما وضع بجاية على علاقة مع أسواق المشرق والأطلسي.

أ) عودة المتعاملين التجاريين القدامى

ساعدت وضعية أوروبا الجديدة والبحر المتوسط تكثيف المبادلات التجارية مع المغرب، واستمرت بجاية في كونها واحدة من الوجهات الهامة للمراكب المسيحية. لكن التطور الملحوظ في النصف الثاني من القرن الرابع عشر تأكّد بتطور موانئ منافسة، خصوصا الجزائر وتونس. بقيت ميورقة في هذه التجارة متعاملا مفضّلا، لكن وزنها النسبي تناقص بسبب عودة الإيطاليين والبروفانسيين.

إلى غاية سنوات 1450، كان ذهاب المراكب الميورقية إلى بجاية منتظما. ما عدا ثغرة بين 1430 و1433 (التي تتوافق مع فترة سياسة أراجونية معادية)، سافرت السفن كل سنة[284]. بعد ذلك في المقابل، أصبحت الشواهد حول السفريات إلى بجاية نادرة.

جدول 40: عدد السفن التي ضمنت صلات ميورقة ببجاية (1499-1420)

	1420-9	1420-9	1440-9	1450-9	1460-9	1470-9	1480-9	1490-9
التراث الملكي	4	4	17	9	4	7	9	3
التراخيص	2	2	18	7	3	2	8	4

(284) إن الرصيد الوثائقي الرئيسي لدراسة حركة المراكب باتجاه المغرب هو رصيد التراث الملكي *(Real Patrimonio)*. يدوّن في سجلات المداخيل الرسوم التي سدّدها المسلمون (في الغالب قدماء أسرى جرى افتداؤهم) عندما يتركون الجزيرة للعودة إلى أرض الإسلام. يشار دائما إلى الوجهة حتى وإن كان دون تدقيق أحيانا. إن النتائج المتحصّل عليها لا تأخذ في الحسبان كل سفريات السفن باتجاه المغرب. يمكن أن نكمل بسجلات التراخيص التي يتحصل عليها الميورقيون لترك الميناء أو لتصدير بعض المواد. لكن عقود الموثقين الميورقيين تبيّن أن بعض المراكب الذاهبة إلى إفريقيا الشمالية لا تظهر في أي أنواع الحسابات. في غياب جرد كامل لموثقي القرن الخامس عشر، نكتفي هنا بمعطيات "التراث الملكي" و"الرخص".

نلاحظ تقلصا واضحا في التنقل الميورقي إلى بجاية بداية من منتصف القرن، الذي يمكن أن يفسّر بالمنافسة الجديدة للقوى البحرية الأخرى أو التي تخلت عن قسم من هذا السوق خلال القرن الرابع عشر. احتفظت طبعا دائما بدور وسيط مفضّل، لكن بدرجة أقل. تبيّن بعض عقود الضمان البرشلونية للسير نحو إفريقيا الشمالية عدم مرور تجار العاصمة الكتالانية بالضرورة عن طريق ميورقة للذهاب إلى المغرب(285). أيضا، أصبحت بلنسية في القرن الخامس عشر ميناءً هاما(286) ومحطة ارساء يتردد عليها غالبا على طريق إفريقيا الشمالية، حتى وإن لم تصل أبدا إلى مستوى ميورقة(287).

وجد البروفانسيون ثانية طريق بجاية حيث كانوا قد هاجروا الأسواق المغاربية في القرن الرابع عشر بشكل كامل تقريبا. إن الرحلات الأولى كانت غالبا مرتبطة بالحاجة للذهاب لشراء الأسرى الكثيرين في القرن الخامس عشر(288). لكن بداية من سنوات 1470 حينما تناقصت التجارة مع الشرق بصورة محسوسة، عرفت الحركة التجارية مع المغرب تطورا ملحوظا(289)، وتمّ تحقيق عدة رحلات تجارية هامة انطلاقا من مرسيليا. ففي 1475، استأجر مونو لورون (Mono Laurent) مركب القديس أنطوان (Saint-Antoine) للذهاب للتجارة في

(285) M. Del Treppo, *I Mercanti catalani e l'espansione della Corona d'Aragona nel secolo XV*, Naples, 1972, p. 708-711.

(286) J. Guiral Hadziiossif, *Valence, port méditerranéen au XVe siècle (1410-1525)*, Paris, 1986.

(287) J. Guiral Hadziiossif, « Les relations commerciales du royaume de Valence avec la Berbérie au XVe siècle », *Mélanges de la Casa de Velázquez*, 10, 1974, p. 101.

(288) Valérian, « Les archives de Marseille », art. cité, p. 9-10.

(289) ر. كوليي الذي درس العلاقات مع إفريقيا الشمالية من 1480 إلى 1515 لاحظ بالنسبة للقرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر أن التجارة المرسيلية مع المغرب كانت أكثر من التجارة التي أقامتها مع بلاد الشام.

R. Collier, J. Billiou, *Histoire du commerce de Marseille*, III, *1480-1599*, Paris, 1951, p. 120.

موانئ المغرب (الجزائر وبجاية وبونة وتونس) [290]. في نفس السنة ذهب بيار بالبو (Pierre Balbo) إلى المغرب وتوغل حتى قسنطينة، وهذا ما يبيّن نشاطا هاما تخطىّ الإطار الساحلي الضيق. بعد نفاذ مخزونه من السلع، أرسلت إليه أجواخ من مرسيليا بـ 150 فلورين (florins) . ودخل في أوت وسافر من جديد في سبتمبر للذهاب بحثا عن الشمع في بجاية[291]. وفي جويلية 1475 سافر نيكولا جاتن (Nicolas Gaétan) صاحب مركب الثالوث المقدس (Sainte Trinité) إلى بجاية وإلى الموانئ المجاورة. وعاد إلى مرسيليا في مارس 1476 دون أن يتمكن من الإتيان بالسلع التي اشتراها وترك قسما لمونو لورون وقام برحلة ثانية للمجيئ بهذا الرصيد[292]. أيضا اجتازت أحيانا يخوت فرنسا المملوكة لجاك كور (Jacques Cœur) عن طريق المغرب حتى وإن لم تكن وجهتها الرئيسية[293].

وأخيرا، إن الإيطاليين الذين كانوا قد تخلوا جزئيا عن الموانئ المغاربية الواقعة غرب تونس للميورقيين، طوّروا فيها من جديد أعمالهم التجارية. وأصبحت جنوة[294] والبندقية[295] وفلورنسا[296] وأيضا سافون[297] شركاء نشطين للمغرب وترددوا على بجاية.

---

(290) ADBR, 351 E 448, f. 536v-536bis r-v (24/1/1475), 543v-546r (26/1/1475).

(291) ADBR, 351E 389, f. 39r-v (7/8/1475) ; 391E 123, f. 130v (2/9/1475), 180v (19/3/1476).

(292) ADBR, 351E 449, f. 178r-179v (15/7/1476).

(293) M. Mollat, *Jacques Cœur ou l’esprit d’entreprise*, Paris, 1988, p. 306-307.

من بين ستين رحلة التي تعرف وجهتها المتوسطية، خمسة فقط تعني المغرب.

(294) Ph. Gourdin, *Les relations politiques et économiques entre l’Italie tyrrhénienne et le Maghreb au XVe siècle*, thèse sur travaux, volume de synthèse, Paris, décembre 2001. Voir également les travaux de R. Urbani, « Fonti per il commercio mediterraneo ligure nell’ultimo medioevo : i rapporti con l’Africa settentrionale », *Atti del IV Convegno internazionale della ceramica, 1971*, Gênes, 1971, p. 431-437 ; Ead., « Genova e il Maghrib tra il ’400 e ’500 », art. cité, 1976, p. 185-206 ; Ead., « Note=

ب) اندماج بجاية في شبكة الملاحة شرق-غرب

يعود التغيير الهام مقارنة بالفترات السابقة -خصوصا- الى خلق لخطوط ملاحية باتجاه الشرق، مدمجة سواحل المغرب في مسالك مرتبطة بفضاء واسع يمتد حتى المشرق من جهة وأوروبا الأطلسية من جهة أخرى. عندما أراد عبد الباسط الذهاب من وهران إلى تونس في 871/ 1466، ركب يختا جنويا كبيرا قادما من الفلوندر عبر المحيط الأطلسي وتابع سيره نحو الشرق. وأوضح المسافر أن التجار المسيحيين يأتون لبيع أجواخهم في الأسواق المغاربية وأن تجارا مسلمين من وهران وتلمسان ركبوا معه. إن محطات الإرساء كانت قصيرة جدا: لم يبق المركب في بجاية

=d'archivio sui notai genovesi del '400 : l'attività di Bartolomeo Canessa », *La Berio*, 11/1, 1971, p. 10-21 ; Ead., « Ricerche d'archivio sui rapporti tra Genova e il Nord-Africa alla fine del Quattrocento », *Archivi e cultura*, 7, 1973, p. 137-146 ; G. Petti Balbi, « Gli insediamenti genovesi nel Nord-Africa durante il '400 », *Medioevo Mezzogiorno Mediterraneo. Studi in onore di Mario Del Treppo*, dir. G. Rossetti et G. Vitolo, Naples, 2000, p. 121-137.

(295) أنظر خصوصا: Doumerc, *Venise et l'émirat hafside*, *op. cit*.

(296) إن تجارة فلورنسا مع المغرب غير معروفة جيدا، لكن نعرف تنظيم مواكب المراكب في القرن الخامس عشر، والتي مرّ بعضها على طول السواحل الإفريقية. من جهة أخرى، يبيّن دليل تجار يعود لمنتصف القرن الخامس عشر معادلات وحدات القياس بين فلورنسا وبجاية.=

=Fr. Borlandi, éd., *El Libro di mercatantie et usanze de' paesi*, Turin, 1936 (Documenti e studi per la storia del commercio e del diritto commerciale italiano, 7), p. 36.

(297) C. Varaldo, « Savona nel secondo Quattrocento. Aspetti di vita economica e sociale », *Savona nel Quattrocento e l'istituzione del Monte di Pietà*, Savone, 1980, p. 53 :

5،9 % من رؤوس الأموال المستثمرة بسافون في التجارة البحرية هي للمغرب في سنوات 1410–1450، لكن 16،7 % في سنوات 1451–1480. كان المغرب هو الوجهة الثالثة في عدد العقود (بعد سردينيا وشبه الجزيرة الإيبيرية)، لكن هو الثاني من حيث رؤوس الأموال المستثمرة وأكثر من 44 % من الجلود التي بيعت في سوق سافون مصدرها المغرب. *Ibid*., p. 103

إلا يوما وفي تونس أربعة أيام قبل أن يلتحق بالمشرق[298]. تبيّن هذه الشهادة تنظيما جديدا نسبيا للتجارة الإيطالية في المغرب على الأقل بحجمها. من الآن فصاعد تمّ تفضيل الطرق التي تسير بجانب الضفة الجنوبية للبحر المتوسط والتي أدرجت بجاية في المسالك المنطلقة من المحيط الأطلسي وتذهب إلى غاية المشرق، دون المرور بالضرورة بواسطة الموانئ الإيطالية. وجد جل التجار المسلمين فائدة من خطوط الملاحة الجديدة ليشاركوا مباشرة في المبادلات البحرية والاستيلاء على أكبر عدد ممكن من المراكب المسيحية.

إن هذه الرحلات على طول السواحل الإفريقية ليست طبعا بالجديدة في حد ذاتها. سايرت السفن في القرون السابقة أحيانا سواحل المغرب، حيث رست في الموانئ الرئيسية، ومن المحتمل أنها مدّت طريقها نحو المشرق، خصوصا إلى مصر. لكن تطورت هذه الظاهرة في القرن الخامس عشر، خصوصا في جنوة وفلورنسا والبندقية. سمح هذا النظام بربح أكبر وانتهاز فرص كل رسو، دون القيام بالالتواء على الموانئ الأوروبية. ربما أيضا كانت وسيلة للإفلات من الرسوم المسددة في هذه الموانئ، التي غالبا ما كانت مرتفعة[299]، حيث سمحت شبكة من فروع الشركات المنتشرة في المراكز التجارية الكبرى بتفادي المرور عن طريق العاصمة.

بينما كانت المواد الشرقية التي وصلت إلى بجاية غالبا ما عبرت عبر جنوة أو بيزا إلى غاية القرن الثالث عشر، أصبحت من الآن فصاعدا تأتي مباشرة من مصر أو شيو (Chio). نفس الشيء بالنسبة لأنسجة أوروبا الشمالية التي مرّت من قبل

(298) عبد الباسط بن خليل، الروض الباسم في حوادث الغمر والتراجم، ترجمة ر. بروشنفيك:
trad. R. Brunschvig, *Deux récits de voyages inédits en Afrique du Nord au XVe siècle, ‘Abd al-Bāsit b. Halīl et Adorne*, Paris, 1936, rééd. 2001, p. 83.

(299) كما هو حالة جنوة.
J. Heers, « Gênes et l’Afrique du Nord vers 1450 : les voyages “per costeriam” », *AEM*, 21, 1991, p. 234.

بواسطة أسواق وموانئ البحر المتوسط الكبرى. منذ القـرن الرابـع عشـر، ذهبـت المراكب الإيطالية مباشرة نحو أسواق الشمال عابرة لمضيق جبل طارق. هذا التوجه الأطلسي للتجارة الإيطالية هو واضح لجنوة وللبندقية بدرجة أقل، التي احتفظـت بوضعيات قوية في المشرق. استند هذا التوجه على شبه الجزيرة الإيبيريـة وأنجلـترا والفلوندر واستفاد من تطور شمال غرب أوروبا والصعوبات التي واجهتها بعض الأسواق في المشرق. استفاد هذا التنظيم الجديد للمحاور التجارية خصوصـا مـن إنشاء فلورنسا والبندقية خصوصا لخطوط الملاحة البحرية.

طوّرت الشركات التجارية الكبرى فروعا سمحت لها بعدم مركزة أعمالهـا. كانت الظاهرة مرئية منذ القرن الرابع عشـر وتطـورت أكثـر بعـد ذلـك. فشـركة بروميو الميلاني (Boromo de Milan)، التي تعتبر واحدة من أقوى الشـركات في المدينـة اللومبارديـة[300]، كـان لهـا ممثليهـا في برشـلونة حيـث سـيّروا أعمالهـا المغاربية. يورد دفتر حسابات الفرع البرشلوني السابق لعام 1440 مبلـغ 37 ليفـر و10 سو أعطي في بجايـة لبرتلوميـو بنـدوتي (Bartolomeo Binotai) ، وهـو لومباردي يعمل لحساب الشركة[301]. وفي 1441 كـان برتلوميـو نفسـه – الـذي اعتبر موزعا لفليبو بروميو (Filippo Boromo)– حاضرا في بجايـة حيـث قـدّم 140 دينار مزدوج لشراء نجار هياكـل[302]. وجـدت الفـروع الرئيسـية في أنجلـترا والفلونـدر وفي مـوانئ شـبه الجزيـرة الإيبيريـة وفي المشـرق وبأقـل درجـة في تونس[303]. من جهة أخرى، كان بإمكان العمال تمثيل الشركة على غرار برتلوميو

(300) حول هذه الشركة، أنظر:

Y. Renouard, *Les Hommes d'affaires italiens au Moyen Âge*, Paris, 1968, p. 204.

(301) P. Mainoni, *Mercati lombardi tra Barcelona e Valencia nel Basso medioevo*, Bologne, 1982, p. 101-103.

(302) *Ibid.*, p. 106.

(303) على سبيل المثال تواجدت شركة بيروتزي (Peruzzi) الفلورنسية بتونس في القرن الرابع عشر.

Davidsohn, *Storia di Firenze*, *op. cit.*, VI, p. 358.

بندوتي في بجاية، لكن الأعمال تبنى انطلاقا من المـدن الأكثـر نشـاطا. منـذ ذلـك الحين، زاد هذا الحضور من أهمية المدن مثل تـونس الـتي تفوقـت علـى بجايـة في الأعمــال الجنويــة. فالتــاجران جيوفــاني دا بونترمــولي (Giovanni da Pontremoli) أو باتيستا دو لوكو (Batista de Leuco)، الحاضـران بقـوة في تونس، لم يـترددا بالمثـل علـى بجايـة[304]. أيضـا، لا يبـدو أن الشـركات الكـبرى الفلورنسية كانت لها روابط بهذا الميناء. إنّ هذا النوع مـن التجـارة لـه ميـزة تـرك قليلا من الأثر في أرشيفات المدينـة الأصـل[305]، إنّ سـجلات مـوثقي العاصـمة ليس لديها نجدة كبيرة. في المقابل كان بإمكان موثقي ما وراء البحر كتابة عقود أي رحـلات، مثـل الـذي لـدمنيكو دو كـاميلا (Domenico de Camilla) في 1450، الذي أجّر مركبه الراسي في شيو باتجاه الغرب[306]. كان الـذهاب مرتقبـا في فيفري 1451 على أقل تقدير بحمولة مكونة خصوصا من القطن، للـذهاب إلى مودون (Modon) ثم مباشرة إلى المغرب حيث سيبقى أربعة أيـام ليتـابع رحلتـه نحو قادس (Cadix) وسوتامبتون (Southampton) وإيكليـز (Écluse). كـان الإرساء المغاربي المرتقب في تونس والجزائر وبجاية ووهران[307].

(304) D. Gioffrè, éd., *Lettere di Giovanni da Pontremoli, mercante genovese 1453-1459*, Gênes, 1982 ; L. Balletto, *Battista de Luco, mercante genovese del secolo XV e il suo cartulario*, Gênes, 1979.

(305) D. Gioffrè, « Il commercio d'importazione genovese alla luce dei registri del dazio (1495-1537) », *Studi in onore di Amintore Fanfani*, V, Milan, 1962, p. 233.

(306) ASG, *notai antichi*, *filza* 765, Bernardo de Ferrariis, doc. 198 (19/10/1450), éd. partielle Ph. P. Argenti, *The Occupation of Chio by the Genoese and their Administration of the Island, 1346-1566*, Cambridge, 1958, III, n° 150, p. 616-618. L. Balletto, « Gênes et le Maghreb au XVe siècle », *L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Âge*, dir. M. Hammam, Rabat, 1996, p. 101.

(307) أشير إليها بهذا الترتيب الذي هو مدهش قليلا.

ترك البعض من هذه الرحلات أثرا، خصوصا في بعض سجلات (Karakorum Vétéran) برصيد بنك سان جورجيو[308] (San Giorgio) .
شمل سير هذه المراكب أحيانا ذكر مسلك per costeriam ، الذي يعني أن المركب ساير جانب ساحل إفريقيا ورسى في موانئها[309]. كانت شيو غالبا الوجهة النهائية لهذه الرحلات الجنوية[310]، في حين أعطى ميناءا ساوتمبتون الأنجليزي وإيكليز الفلوندري في الغرب منفذا إلى أسواق أوروبا الصناعية في الشمال الغربي[311]. ففي 1445، قامت تسع مراكب جنوية باتصال بين شيو وإكليز أو ساوتمبتون منها ثمانية سايرت الضفاف الإفريقية[312]. لكن من النادر توضيح إشارات هذه المراحل الوسيطة. مرّ الطريق المتبع بصفة عامة بسرقسطة (صقلية) وتونس وسطورة وبجاية والجزائر ووهران وهنين والمرية ومالقة، ثم عبر جبل طارق للوصول إلى الفلوندر أو انجلترا[313]. ففي 1445 غادر مركب فليبو دو نجرونو (Filippo de Nigrono) قادس إلى المشرق، مارا بمالقة والساحل

---

(308) يتعلق الأمر بسجلات الدواوين (الجمارك). كان البعض منها مخصصا للرسوم التي تفرض على المراكب أو التجار الجنويين الذي يقومون بتنقلات لا تمر بجنوة، على غرار حالة:

Rg. 1551 (a. 1423-1425), 1552 (a. 1445-1448), 1553 (a. 1457) et 1555 (a. 1495-1498).

(309) Heers, « Gênes et l'Afrique du Nord vers 1450 », art. cité.

(310) Heers, *Gênes au XVe siècle, op. cit.*, p. 399.

كانت الجزيرة جنوية منذ منتصف القرن الرابع عشر وأصبحت أحد المستودعات الكبرى لتجارة البحر المتوسط الشرقي.

Argenti, *The Occupation of Chio, op. cit.*, I, p. 482.

(311) أنظر الوثائق التي نشرها:

R. Doehaerd et Ch. Kerremans, *Les relations commerciales entre Gênes, la Belgique et l'Outremont d'après les archives notariales génoises, 1400-1440*, Rome-Bruxelles, 1952.

(312) Heers, *Gênes au XVe siècle, op. cit.*, p. 455.

(313) *Ibid.*

المغاربي. يبيّن السجل المحفوظ المبيعات المنجزة في كـل مرحلـة مـن المراحـل[314]، ونرى بيـع الأجـواخ في بجايـة، خصوصـا إلى أمـير المدينـة[315]. أيضـا في 1495 انطلقت سفينة جيرولامو دو جرانو (Girolamo de Granowo) مـن قـادس إلى شيو وتوقفت ببجاية[316]. باع فيها كونرادو سـبينولا (Conrado Spinola) الأجواخ الأنجليزيـة في الميناء الإسـباني وأفـرغ فيهـا أيضـا جيورجـو دو كاسـانا (Giorgio de Cassagnac) الأجواخ[317].

إن خطـوط الملاحـة الـتي نظمتهـا الدولـة، في البندقيـة وفلورنسـا أساسـا، معروفة أفضل بسبب المادة الوثائقية التي تركتهـا[318]. لقـد نظـم السرينيسـم منـذ القرن الرابع عشر مواكب الشواني (mude) باتجاه الفلوندر[319]، حسب قواعـد مثبتة بدقة من مجلس الشيوخ. وضعت مراكب الدولـة في المـزاد العلـني كـل سـنة وسافرت بعناية متبعة مسلكا مرتقبا بدقة في نص المزاد العلـني[320]. كـان المغـرب هو آخر وجهة موضوع تنظيم ما. استأنف البنادقة حقيقة التردد على موانئ إفريقيا

(314) ASG, *Archivio di San Giorgio, sala* 38/54, *Caratorum Veterum*, Rg. 1552, f. 315r-318r (1445).

(315) *Idem*, f. 317v-318r.

(316) كان صاحب هذا المركب قد ذهب إلى المغرب في 1482 لكننا لا نعرف الموانئ التي مرّ بها .

M. L. Balletto, *Navi e navigazione a Genova nel quattrocento. La « Cabella marinariorum » (1482-1491)*, Gênes, 1973, p. 29-30.

(317) ASG, *Archivio di San Giorgio, sala* 38/54, *Caratorum Veterum*, Rg. 1555, f. 21r-22r (1495).

(318) تمّ أيضا تنظيم نظام من اليخوت إلى المغرب في نفس الفترة ببرشلونة.

Cl. Carrère, *Barcelone au temps des difficultés, 1380-1462*, Paris, 1967, p. 214, 632.

(319) Stöckly, *Le système de l’incanto, op. cit.*, p. 152-165.

(320) حول تنظيم موكب هذه المراكب، أنظر: *Ibid., passim*

الشمالية بداية من سنوات 1420[321]، لكن لم تنشأ خطوط (munda) بلاد البربر إلا في 1437، ثم خط السير (Trafego)[322]. ربط الخط الأول بين موانئ سرقسطة والساحل الإيبيري والمغاربي إلى غاية تونس أو طرابلس. في المقابل، كان للثاني هدف مختلف وهو الوصول إلى أسواق الحوض الشرقي للبحر المتوسط (خصوصا الأسكندرية وأيضا بيروت وكاندي (Candie) ومودون، والمرور بتونس وطرابلس في ليبيا[323]. لم تمس إذن إلا القسم الشرقي من المغرب ولا تعني إذن مباشرة بجاية. رغم الصعوبات الدورية، تمّ ابقاؤها إلى غاية بداية القرن السادس عشر[324].

إن تنظيم فلورنسا لنظام مشابه لخطوط اليخوت لم يتطور جيدا واحتل فيه المغرب مكانة صغيرة. لم تبدأ المغامرة البحرية الفلورنسية فعليا إلا مع السيطرة على بيزا (1406)، وخصوصا احتلال لفورن في 1421[325]. أنشأ ديوان قناصل

(321) نجد الرحلات البندقية باتجاه المغرب بداية من 1402، لكن في سنوات 1420 تكثّفت هذه الحركة. يرى إعادة التنشيط خصوصا من خلال محاضر العمليات التجارية (رصيد جيودتشيلي دي بتيزيون في أرشيف دولة البندقية *giudici di petizion* de l'*Archivio di Stato* de Venise).

D. Stöckly, « Les premiers convois de galées commerciales vénitiennes en direction de la Barbarie au milieu du XVe siècle », *CT*, 155-156, 1993, p. 480.

تأكدت عودة البنادقة إلى المغرب من خلال مصادر أخرى، خصوصا الجنوية. ففي 1426، أسر القرصان تومازو جريمالدي (Tomaso Grimaldi) مركب البندقي ساندرو مورو (Sandro Moro) في عرض مياه بجاية.

ASG, AS, Rg. 510 (*Diversorum Cancelleriae Communis Janue*), f. 74r-v, n° 221 (8/6/1426), 236 (18/6/1426). E. Basso, « Pirati e pirateria a Genova nel Quattrocento », *La Storia dei Genovesi*, 11, Gênes, 1991, p. 327.

(322) Stöckly, *Le système de l'incanto, op. cit.*, p. 169, 175.

(323) *Ibid.*, p. 171-172, 175.

(324) في 1507، بالنسبة لخط حركة السير وفي السنة الموالية لخط بلاد البربر.

Doumerc, « Venise et la dynastie hafside », art. cité, p. 576-577.

(325) فيما سبق كانت للفلورنسيين علاقات مع ما وراء البحر، لكن بواسطة بيزا أو جنوة.

البحر في 1421 مهمته خصوصا بناء المراكب[326]. أرسل الموكب الأول إلى الأسكندرية في 1423 وستتان بعد ذلك تمّ تدشين خط البنونت (Ponent) (بريج وأنجلترا) [327]. وفي 1442، تمّ الترخيص لقبطان شواني كتالونيا وصقلية بتمديد طريقهم حتى المغرب إذا أراد ذلك التجار، وفي 1447 أصبح الطريقان واضحين: الأول يتبع مسلكا يذهب من جنوب فرنسا (مرسيليا، ميناء دو بوك Port-de-Bouc)، وبرشلونة وميورقة وبونة والجزائر ووهران. أما الثاني فيمّر بنابولي، وصقلية وتونس وطرابلس والأسكندرية[328]. ففي 1459 كان توقع شانيتين للسير في البحر المتوسط الغربي وفي 1460 نعلم أنهما رستا في جنوة ومرسيليا وتونس وبونة وبجاية والجزائر ووهران والمرية ومالقة وقادس[329]. لكن لم تكن هذه المواكب منتظمة مثل مراكب البندقية وبين 1465 و1478 اختفت الإحالات إلى المراكب[330]. لم يعد الخط إلى الخدمة إلا في 1478 ثم في 1479 بحركة سير مرّ على سواحل كتالونيا والمغرب[331].

حملت هذه السفن التي سارت بجنب السواحل الإفريقية التجار المسيحيين لكنها أخذت أيضا على متنها مسلمين ويهودا. إن هذه الظاهرة ليست بالجديدة، لكنها ازدادت أهمية في القرن الخامس عشر. وسمح مرور مراكب البندقية ببلنسية للمغاربة بالمجيء بكثرة للتجارة في المملكة. ففي 1454 على سبيل المثال حمل موسى كاب (Moiser Cap) -وهو يهودي من مملكة بجاية- برميل نيلة على يخت

(326) M. E. Mallett, « The Sea Consuls of Florence in the Fifteenth Century », *Papers of the British School at Rome*, 27, 1959, p. 156-169.

(327) A. Sapori, « I primi viaggi di Levante e Ponente delle galere fiorentine », *Archivio storico italiano*, 114, 1956, rééd. *Studi di storia economica*, III, Florence, 1967, p. 9, 13-14.

(328) M. E. Mallett, *The Florentine Galleys in the Fifteenth Century*, Oxford, 1967, p. 73.

(329) *Ibid.*, p. 74.

(330) *Ibid.*, p. 75.

(331) *Ibid.*, p. 176.

من بلنسية[332]، ونلاحظ بصفة عامة أن الرخص الممنوحة للمسلمين في بلنسيه للذهاب إلى أرض الإسلام كانت كثيرة خصوصا في وقت مرور موكب المراكب[333]. نقلت أيضا اليخوت الفلورنسية المسلمين[334] وأيضا المراكب الخاصة، لكن هذا غير معروف لنا جيدا. في الانطلاق من تونس، سمح الخط في الأخير لتجار إفريقية الوصول إلى مصر ويبيّن إلحاح السلطان الحفصي على بقاء هذا الركب الأهمية التي تكتسيها هذه التجارة الشرقية بالنسبة لتجار السلطنة[335].

ج) مكانة بجاية في التجارة المغاربية

من الآثار الرئيسية لإنشاء خطوط الملاحة هذه كان التقلص النسبي لمكانة بجاية مقارنة مع بقية موانئ الجهة. فيما مضى في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، استفادت عدة موانئ من الصعوبات التي واجهتها بجاية لتطوير روابط مع ميورقة، وتأكد هذا التوجه في القرن الخامس عشر. لقد استعادت بجاية طبعا سيطرتها على الجزائر، لكن دون الوصول إلى تقليص المنافسة التي شكلتها في المغرب الأوسط، فضلا عن احتلال وهران وهنين في الغرب لمكانة أكثر أهمية دائما. في الوقت ذاته تثبتت تونس مطلقا كملتقى جوهري بين الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط. يمكن تتبع تطور مكانة بجاية في المسالك التجارية المغاربية انطلاقا من الوثائق الميورقية والبندقية التي توفر سلاسل متلاحقة[336].

---

(332) ARV, MR, Rg. 66, f. 212r-v (25/10/1454).

(333) Voir par exemple ARV, C., Rg. 705, f. 126v-133r (18-20/9/1455), 277r-296v (30/9-4/10/1458).

(334) Par exemple ARV, C., Rg. 705, f. 225v-226r (7/9/1457).

(335) Doumerc, *Venise et l'émirat hafside, op. cit.*, p. 6, 68-70.

(336) توجهت تجارة بلنسية في المقابل نحو المغرب الغربي مع وهران وهنين والكدية.

R. Cariñena Balaguer, « Los llibres d'aramament : una fuente fundamental para el estudio del comercio valenciano en el Mediterráneo a lo largo del siglo XV (1406-1530) », *Congreso de Jóvenes historiadores y geógrafos, Madrid, 1980*, Madrid, 1990, p. 713-732 ; A. Díaz Borrás, « El comercio valenciano con Berbería en la "Era de los Descubrimientos" a través de los llibres d'armaments. Una aproximación », *ibid.*, p. 733-748.

تسمح مجموعتان من المعطيات برسم تطور الحصة المتعلقة بمختلف الموانئ المغاربيـة في الملاحـة الميورقيـة. تتشـكل المجموعـة الأولى مـن الـرخص الممنوحـة للذهاب للتجارة في الأرض الإسلامية[337]. إن الوجهـات مـذكورة دائمـا، لكـن دون توضيح محطات الرسو. يمكن إعادة تشكيل المجموعة الثانية انطلاقا من قـوائم المسلمين الذين غادروا الجزيرة وسددوا رسما من أجل هذا[338]. يمكن أن يتعلـق برحلات مؤقتة (لأسباب تجارية، عائلية أو للدراسة أو لتأديـة الحـج)، أو بهجـرة نهائية (خصوصا بالنسبة للأسرى القدماء الذين يعـودون إلى ديـارهم). إن الـذي يهمنا هنا في كل حالة هو المركب والوجهة الموضحة. لا تبيّن هـذه الوثـائق طبعـا مجمل المراكب التي تركت الميناء إلى المغرب، لكن في غياب سجلات رسوم الموانئ، فإنها تعطي صورة وفية كافية للأهمية النسبية لكل ميناء في الملاحة الميورقية[339].

جدول 41: الرخص الممنوحة في ميورقة للوجهات المغربية

	هنين	وهران	مستغانم	تنس	برشك	شرشال	الجزائر	بجاية	القل	بونة	تونس	المجموع
1420-9	2	2	0	1	0	1	1	2	1	2	4	16
1430-9	0	0	0	0	0	0	4	6	2	1	6	19
1440-9	1	11	2	16	2	1	28	18	9	1	5	94
1450-9	0	0	0	8	0	2	15	7	2	2	6	42
1460-9	0	0	0	0	0	0	2	3	1	0	0	6
1470-9	0	1	0	0	0	0	3	2	0	1	2	9
1480-9	0	2	0	1	0	0	8	8	0	0	2	21
1490-9	0	0	2	0	0	0	2	4	0	0	0	8
المجموع	3	16	4	26	2	4	63	50	15	7	25	215

(337) توجـد هـذه الـرخص في رصـيد الـتراث الملكـي *(Real Patrimonio)*، ولكـن أيضـا في السجلات الخاصة.

ARM, RP, Rg. 3831 (1419-1421) - 3834 (1427), 3853 (1436) - 3892 (1497) ; ARM, *Guiatges*, Rg. 8 (1440-1447) - 9 (1448-1458).

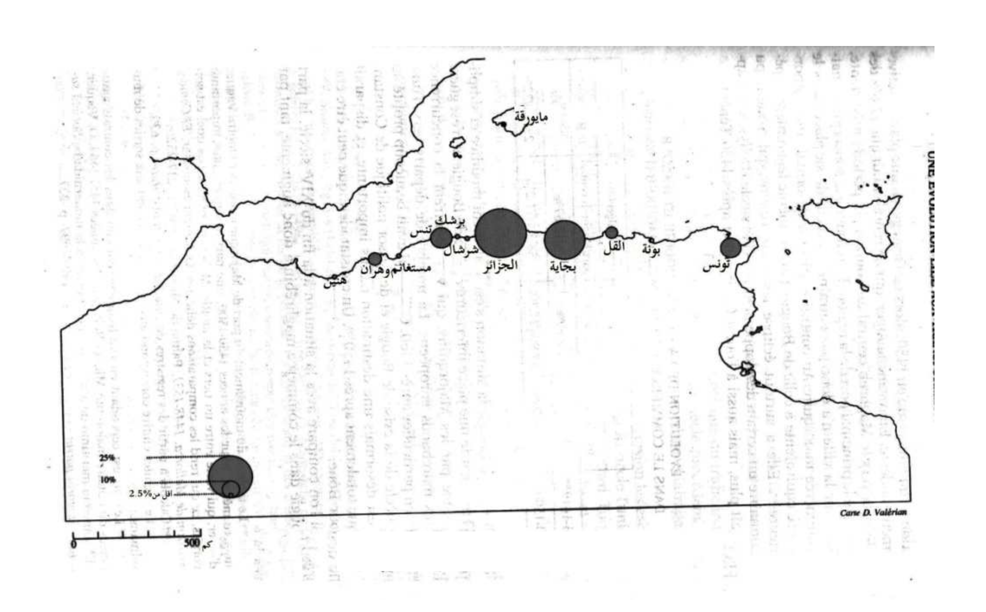
(338) ARM, RP, Rg. 3831 (1418-1421) - 3835 (1428), 3853 (1435-1436) - 3892 (1497).

(339) من خلال عمليات جرد:

P. Macaire, *Majorque et le Maghrib au XVe siècle*, Doctorat de troisième cycle, sous la direction de Ch.-E. Dufourcq, Université Paris X, 1977, p. 208-232, 646-665.

جدول 42: وجهات المسلمين الذين غادروا جزيرة ميورقة

	هنين	هران	تنس	ششرشال	الجزائر	بجاية	القل	بونة	تونس	المجموع
1420-9	2	2	1	1	3	4	1	2	12	28
1430-9	0	0	0	0	7	11	2	1	11	32
1440-9	0	9	1	0	11	17	1	0	9	48
1450-9	0	1	2	1	13	9	1	3	8	38
1460-9	0	0	0	0	4	4	2	0	1	11
1470-9	0	1	0	0	6	7	0	3	4	21
1480-9	0	4	1	0	26	9	0	0	2	42
1490-9	0	4	0	0	4	3	0	0	0	11
	2	21	5	2	74	64	7	9	47	231



الخريطة 18 : مراسي السفن المايورقية بالمغرب(1420-1500)

تؤكد هذه النتائج الاتجاهات الملحوظة فيما سبق في نهاية القرن الرابع عشر، لكن تبيّن أيضا بعض التعديلات. حافظ المغرب الأوسط على المكانة الهامة التي اكتسبها خلال القرن الرابع عشر الناجمة عن طاقاته التجارية وقربه من ميورقة. لكن الحركة التجارية تنزع إلى التركز في بعض الموانئ. فقدت مستغانم أهميتها وأيضا هنين وشرشال. بقيت تنس وجهة يتردد عليها حتى 1450 في حين بقيت وهران على مكانتها المتواضعة نسبيا. في المقابل، أصبحت الجزائر، التي لم تمثّل إلا 12،6 % من مجموع السفريات إلى المغرب الأوسط خلال الفترة السابقة، الميناء الرئيسي في الجهة. إن عودة السيادة الحفصية على المدينة لم يؤدي إذن إلى تراجع مكانتها في التجارة الميورقية. بالعكس، من الآن فصاعدا أصبح للجزائر أهمية تساوي بجاية، وأحيانا أعلى منها بقليل[340]. وطمست الموانئ المجاورة التي عرفت بعض التطور في القرن الرابع عشر (دلس الذي لم يظهر أبدا، وأيضا في الغرب شرشال وتنس بعد 1450).

جدول 43: تطور حصة بجاية والجزائر في التجارة الميورقية بالمغرب (1500–1385)

	بجاية		الجزائر	
	حصة إفريقية	حصة المغرب	حصة المغرب الأوسط	حصة المغرب
1385–1419[341]	31,50%	9,80%	12,67%	7,70 %
1420–1500[342]	51,2% / 50%	18,9% / 27,7%	58,3% / 71,2%	23,7% / 32%

(340) يبيّن جدول حركة ميناء ميورقة الذي وضعه أنوفري فاكر (Onofre Vaquer) حتى بالنسبة لسنوات 1450–1500، حصة هامة جدا للجزائر التي تتبدل بين الثلث والنصف. لكن لا يوضح ما هو مجموعه الوثائقي، مما يصعب إجراء المقارنة.

O. Vaquer Bennasar, *El Comerç marítim de Mallorca. 1448-1531*, Palma de Majorque, 2001, p. 217-252.

(341) حسابات من خلال سجلات التراخيص.

تعدّلت الوضعية وانبسطت في شرق بجاية، حيث حافظت تونس على مكانة أقل من مكانة بجاية ولم يتردد عليها الميورقيون تقريبا، حيث اعترضتهم منافسة التجار الأوروبيين الآخرين. انخفض عدد السفريات إلى تونس خصوصا بعد 1460. إن القل الذي كان قد استفاد بكثرة من أزمة بجاية في القرن الرابع عشر والتطور السياسي القسنطيني أصبح وجهة أقل أهمية، واختفى تقريبا كلية بعد 1450[343]. يمكن وضع معاينة مشابهة بالنسبة لبونة.

إذا ما قارنا الوضعية في نهاية القرن الرابع عشر، ازدادت إذن حصة بجاية في التجارة المغاربية مقارنة بموانئ إفريقية أو بمجمل موانئ المغرب، وهذه إشارة لازدهار استرجعته. إن اختيار المدينة كوجهة للمسلمين الذين هاجروا من إسبانيا هو بهذا الصدد يوحي بالحركية الجديدة وضرورة بناء حارة خارج الأسوار لهؤلاء اللاجئين الأندلسيين، وهذا يبيّن أن بجاية كانت مأهولة في نهاية القرن الخامس عشر. لكن في الوقت ذاته عرفت الجزائر تطورا مشابها في المغرب الأوسط ومنع هذا النمو دون شك بجاية من استرداد مكانة متفوقة كانت عليها قبل أزمة القرن الرابع عشر.

لا تأخذ هذه النتائج بعين الاعتبار إلا التجارة الميورقية، وهذا ليس مهيمنا كالقرن السابق. وتسمح وثائق البندقية بتوضيح آخر من وجهة نظر قوة شرقية أكثر.

---

(342) يتطابق الرقم الأول مع الرخص والثاني مع خروج المسلمين.

(343) لكن الميناء مذكور باستمرار في عقود ضمان الموثق الميورقي ميجال بوا (Miguel Boix) بالنسبة لسنوات 1451-1464.

O. Vaquer, « El comercio marítimo de Mallorca en el transito a la modernidad », *Società savonese di storia patria. Atti e memorie*, 32-33, 1996-1997, p. 227.

بداية من 1443، حدد مجلس الشيوخ بدقة محطات رسو مراكب بلاد البربر ومدتها[344]. إلى غاية نهاية القرن كانت تونس العنصر الأساسي في عدّة البندقيـة داخل إفريقيا الشمالية. مرّت وبقيت بها كل المواكب حسب الفـترات بـين عشـرة وعشرين يوما. في عودتها، يرتقب رسوها في الغالب مـدة سـتة أيـام في العاصـمة الحفصـية قبـل الوصـول إلى سرقسـطة (صـقلية) والبحـر الأدريـاتيكي[345]. وفي 1451 ارتقب في المزاد العلني متابعة المراكب سيرها من المغرب نحو مصـر للحـاق بموكب الإسكندرية[346]. لقد تمّ تأسيس هذا النظام بصفة رسمية مـع خلـق خـط السير التجاري (Trafego)[347] سنوات بعد ذلك، جـاعلا تـونس في وضـعية مفصلية كرّست مكانتها الريادية في تجارة البندقيـة[348]. في الطـرف الآخـر مـن المغرب، استخدمت وهران وهنين – اللذان يتكـاملان في الغالـب[349]– كمـوانئ

(344) تمّ تدوين هذه الاجراءات في سـجلات مـداولات مجلـس الشـيوخ ASV, *Senato, Mar*, Rg. 1-8 (1440-1469). بداية من 1470، تمّ جمع المداولات المتعقلة بالمواكـب في سـجلات خاصـة ASV, *Senato, Incanti di galere*, Rg. 1-2 (1470-1496). هناك ثغرة بين 1497 و1526 تمنع من متابعة عمليات المزاد في نهاية الفترة. يتعلق الأمر هنا طبعا بمدة التوقفات أو الرسو التي ترقبهـا= =مجلس الشيوخ، الـتي لم تكـن محترمـة إلا نـادرا مـن قبطـان المراكـب. B. Doumerc, « La crise structurelle de la marine vénitienne au XVe siècle : le problème du retard des *mude* », *Annales ESC*, 40/3, 1985, p. 605-623. لكن المدة تعطي إشارة عن الأهمية الـتي يوليها مجلس الشيوخ لكل مرحلة من هذه المراحل.

(345) ASV, *Senato, Mar*, 1, f. 159r-v (18/3/1443).

(346) ASV, *Senato, Mar*, 4, f. 31r-v (20/2/1451).

(347) Doumerc, *Venise et l'émirat hafside*, *op. cit.*, p. 79. ASV, *Senato, Mar*, 6, f. 206r-207r (8/12/1460).

(348) B. Doumerc, « La ville et la mer : Tunis au XVe siècle », *Actes du IVe congrès international d'histoire et de civilisation du Maghreb (avril 1986)*, *CT*, 137-138, 1986, p. 111-130.

(349) أعطى مجلس الشيوخ غالبا لأربـاب المراكـب حريـة التوقـف في هـنين أو البقـاء لمـدة طويلـة في وهـران. علـى سـبيل المثـال: ASV, *Senato, Incanti di galere*, Rg. 2, f. 25v-26v

متقدمة لتلمسان وهما منفذان لجهة منتجة للحبوب وبعض الطرق الصحراوية. تختلف مدة التوقف الشاملة في هذين الميناءين على غرار تونس ما بين خمسة عشر وعشرين يوما. بين هذين القطبين ذكرت الجزائر وبجاية لوحدهما فقط في سجلات المزاد العلني[350]. كانت مدة الرسو المرتقبة في بجاية في البداية طويلة (ستة أيام مقابل ثلاثة بالنسبة للجزائر). لكن بداية من 1452، تمّ تخفيض وقت التوقف إلى النصف (من ثلاثة إلى أربعة أيام حسب السنوات)، في حين أنه بداية من 1460 مرّ رسو الجزائر إلى خمسة أيام (أربعة أحيانا). أصبح الميناءان إذن بصفة عامة متساويين بالنسبة للبنادقة، وهذا ما تثبته المعاينة الموضوعة انطلاقا من المعطيات الميورقية. لكن تمّ اعلان مقاطعة في بعض السنوات، خصوصا بعد 1472 بعد حوادث في ديوان البحر، وهذا لم يمنع المراكب من التوقف في بجاية والتجار من ممارسة التجارة بها[351].

بداية من سنوات 1420، عادت بجاية لتصبح مكانا يتردد عليه التجار من كل موانئ البحر المتوسط الغربي الكبرى. واندمجت في مسالك ليس فقط شمال-جنوب، لكن أكثر فأكثر شرق-غرب، اللذان ربطاها بأسواق الشرق المتوسطي وأوروبا الأطلسية. واصل الميورقيون شغل مكانة ريادية بها، لكنهم لاقوا منافسة الجنويين والبنادقة وأيضا المرسيليين. توصلت بجاية إلى استعادة التجارة التي تحولت نحو القل وبونة في القرن الرابع عشر، لكنها لم تسترد مكانتها المحورية التي كانت تشغلها في القرن الثالث عشر. وجدت نفسها بالأحرى في وضعية زاوية ميتة

(28/2/1492) . كان الرسو لمدة عشرين يوما، لكن إذا ما توقفت المراكب في هنين أيضا فهي لمدة عشرة أيام فقط لكليهما.

(350) لم تذكر القل إلا في 1443 بخصوص رسو لمدة يومين. ASV, *Senato, Mar*, 1, f. 159r-v (18/3/1443)

(351) L. Greco, éd., *Quaderno di bordo di Giovanni Manzini : prete-notaio e cancelliere (1471-1484)*, Venise, 1997, p. 50-51.

مقارنة مع خطوط الملاحة المتعددة. في الشرق، أكّدت تونس مكانتها المفصلية بين حوضي البحر المتوسط وأصبحت محطة رسو ذات أهمية كبيرة للبحرية الإيطالية. في الغرب، جذبت تنس وهنين ووهران التجار البنادقة وأيضا تجار شبه الجزيرة الأيبيرية المهتمّين بالمغرب. لكن مدينة الجزائر هي التي أصبحت بالخصوص المنافسة الكبيرة لبجاية. رغم عودتها تحت السلطة الحفصية، كانت تجارتها في الغالب مساوية لتجارة بجاية.

*****

اجتمعت إذن تحولات وضعية المغرب (العسكرية والسياسية والديمغرافية) وتحولات التجارة المتوسطية، والتي تسمح بتفسير تطور نشاط ميناء بجاية. إلى غاية بداية القرن الرابع عشر، وجد التجار الأوروبيون -الذين كانوا يبحثون على أسواق جديدة ومواد أولية للصناعة النسيجية في أوج تطورها- في بجاية ظروف تعامل تجاري مزدهر ونشط. بداية من سنوات 1320، كانت الوضعية صعبة جدا في أوروبا التي مرّت بأزمة حادة. في الوقت ذاته أدت هجمات العبد الواديين والمرينيين وضعف الحفصيين إلى اضطراب دائم في بجاية وجهتها، والتي دفعت التجار إلى التحول نحو موانئ مغاربية أخرى. لم يعط تثبيت السلطة القوة الحفصية من جديد في سنوات 1360 لبجاية فوريا ازدهارها القديم. إن سقوط مداخيل التجارة البحرية والضرائب دفع إلى تطور القرصنة التي بقيت حركية إلى غاية سنوات 1420. استفادت بجاية من التحول النسبي للمصالح التجارية الأوروبية نحو الحوض الغربي للبحر المتوسط والمحيط الأطلسي، والتي في الوقت ذاته حدّدت من جديد وضعيتها السياسية في المغرب. وأصبحت من جديد ميناءً تتردد عليه كل بحريات أوروبا المسيحية، حتى وإن وجب عليها الأخذ في الحسبان مزاحمة تونس في الشرق والجزائر في الغرب.

******

لا يمكن إذن فهم تطور نشاط ميناء بجاية إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار السياقات المختلفة جدا. كان لهزات التاريخ العمراني المحلي آثارا محدودة نسبيا على المبادلات التجارية: ترجمت الاضطرابات والغصب تراجعا دائما لنشاط الميناء. هذا الأخير في المقابل كان أكثر حساسية اتجاه وضعية البلاد الخلفية: ترجم ضعف التحكم في القبائل الداخلية في القرن الرابع عشر وأيضا فقدان المدن والجهات المحيطة في فتور المبادلات. اختلت حركة السلع وربما أدت الجباية التي قامت بها القبائل إلى تقلص الفائض التجاري وزيادة في التكلفة. في الوقت ذاته، أدى تحرر بعض الموانئ من الوصاية السياسية البجائية إلى منافسة حادة: استفادت القل والجزائر بصفة كلية من هذه الوضعية الجديدة. لكن خصوصا الحروب الجهوية التي تركت آثارا أكبر على نشاط الميناء. أدت الحصارات العبد الوادية والسيطرة المرينية إلى أزمة في نشاط الميناء لمدة نصف قرن، وذلك بالتهديم الذي أدت إليه واضطرابات المسالك التجارية الناجمة عنها. لكن هذه التفسيرات لا تكفي. لم يترجم عودة النظام إلى السلطة بداية من حكم أبي العباس (1370-1394) استئناف التجارة.

يجب إذن الأخذ بعين الاعتبار سياقا أوسع. كميناء، كانت بجاية مرتبطة بوضعية متوسطية بمجملها. لكن هذه التبعية تشدّدت بتنظيم المبادلات الذي سار مفعوله منذ القرن الثالث عشر. بتركهم التحكم في التجارة البحرية الكبيرة، أصبح البجائيون أكثر حساسية للطلب الأوروبي. في مقابل القوة الجديدة للأوساط التجارية الأوروبية، بقيت بنى التجارة البجائية في الواقع متواضعة جدا، لغياب استثمارات مكثفة وتعبئة واسعة للمتعاملين المحليين. إن غياب سياسة حقيقية للتوسع التجاري لدى الحكم لم يسمح بإعطاء الأطر المؤسساتية القابلة للمنافسة الفعلية للمدن الكبرى في أوروبا الجنوبية. منذ ذلك الوقت، ارتبط نشاط ميناء بجاية أيضا بازدهار الضفة الشمالية للبحر المتوسط وأيضا بتطور الشبكات الملاحية

والتجارية للإيطاليين والأسبان والبروفانسيين. تعززت هذه التبعية بطبيعة الصادرات البجائية المرتكزة على منتجات تربية الحيوانات التي موّنت صناعات النسيج والجلود الأوروبية. منذ ذلك الوقت، كان للتقلص الاقتصادي بأوروبا في القرن الرابع عشر انعكاسات هامة على ازدهار بجاية، ترجمت بفتور المبادلات ثم بتطور القرصنة. عكسيا، سمح فقدان الأسواق في المشرق وتحول المحاور التجارية نحو المحيط الأطلسي في القرن الخامس عشر باستئناف نسبي للتجارة البجائية.

يدعو إذن الأخذ بعين الاعتبار هذا السياق المزدوج إلى تبني تحقيب زمني مختلف عن التحقيب الذي توصلنا إليه في أول الأمر، وتمديد الأزمة إلى غاية الثلث الأول من القرن الخامس عشر.

الخاتمة

في 05 جانفي وعلى رأس 4000 رجل، استولى بيدرو نافارو (Pedro Navarro) على بجاية لحساب التاج الإسباني[352]، ليبدأ احتلال لم ينته إلا بالفتح التركي في 1555[353]. بعد ذلك، لم تسترجع المدينة أبدا وضعيتها كعاصمة جهوية بل أصبحت مجرد قاعدة شتوية بسيطة للأسطول التركي بإيالة الجزائر.

إنها نهاية فترة طويلة كانت فيها بجاية أحد أكبر موانئ المغرب والبحر المتوسط الغربي. لقد أدى الفتح الإسباني إلى قطيعة عنيفة غيّرت جذريا مكانة الميناء في شبكات المبادلات، محدثة بذلك تراجعا دائما له.

(352) L.-Ch. Féraud, « Histoire des villes de la province de Constantine. Bougie », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 13, 1869, p. 85-407, rééd., *Histoire de Bougie*, avec une présentation de N. Abdelfettah Lalmi, Paris, 2001, p. 93-97 ; J. M. Doussinague, *La política internacional de Fernando el Católico*, Madrid, 1944, p. 214.

(353) C. F. Duro, « Perdida de la ciudad de Bugia, en Africa, año 1555, referida por un clérigo vizcaino, testigo de vista », *Boletín de la Real Academia de la Historia*, 29, 1896, p. 465-537.

إلى هنا، لم تكن بجاية أبدا هدفا لمحاولة استيلاء من طرف القوى المسيحية. بالعكس، ارتكزت مشاركتها في التجارة المتوسطية في قسم كبير منها على علاقات جيدة بصفة عامة مع المدن التجارية الكبرى في الشمال. في هذا المعنى، كان الاختلاف ملحوظا مع المشرق الإسلامي الذي شهد الحروب الصليبية وأكثر من ذلك سياسة عسكرية هجومية للمسيحية. لم تقْص هذه العلاقات –المؤطرة والمقننة بالمعاهدات– فترات التوترات، لكن كانت هذه الأزمات دائما مخففة بالمصالح الاقتصادية المتبادلة. إن هذه القطيعة السياسية التي أحدثها الغزو الإسباني أبرزت بعمق مكانة بجاية في البحر المتوسط. فقد توقفت المدينة عن أداء دور الوسيط بين الشبكات المغاربية والمتوسطية التي شكلت ثروتها في العصر الوسيط.

على المستوى المغاربي، برزت بجاية من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر كمركز بل كقطب مهيكل لمنطقة واسعة حيث سيطرت عليها سياسيا وأيضا ساهمت في تنظيمها اقتصاديا. ويرجع دورها هذا إلى موقعها في المغرب البعيد نسبيا عن المراكز السياسية التقليدية في إفريقيا والمغرب الأقصى، وإلى منفذ جهة جبلية تتحكم فيها بشدة أو بالعكس حسب الفترات. وأخيرا، موقعها البحري ومزايا مينائها جعلا منها مكانا استراتيجيا في فترة انتقلت فيها مراكز الثقل السياسي والاقتصادي للجهة نحو الساحل. كونها عاصمة دولة زمن الحماديين، ثم مقرا لحاكم إقليمي له أهمية كبيرة عند الموحدين والحفصيين، حيث تمكنت من تركيز سكان كثر وطوّرت من الوظائف الحضرية العليا على مستوى جهوي، التي هي مرتبطة في قسم كبير منها بحضور الحكم بين أسوارها. إن وظائف التحكم هذه وكذا أهمية الحياة الثقافية والدينية المرفقة بالنشاطات الاقتصادية نجم عنه ازدهار جهوي امتد أولا إلى المقاطعة، ثم إلى شبكات ممتدة إلى غاية بلاد السودان البعيدة أي إلى ما بعد الصحراء. في هذا الفضاء، ظهرت بجاية في قمة

تراتبية المدن التي تتحكم فيها هي (أو التي تسعى الى التحكم فيها)، والتي استعملت كمناوبة لنفوذها في الداخل. وتترجم هذه الصورة بالتدفق الكبير للسلع بشكل نوعا ما حسب أنواع المنتجات، وأيضا بهجرة الأشخاص الذين جذبتهم الإمكانات المتاحة، خصوصا من ناحية فرص العمل أو الدراسة أو التجارة. في هذا الصدد، يبين الوصول الكثيف للاجئين الأندلسيين في نهاية القرن الخامس عشر محافظة بجاية عشية الفتح الإسباني على قوتها في الجاذبية . لكنها دخلت أيضا في منافسة مع مراكز قوى أخرى تمكنت من تقليص حيز نفوذها: ونعني بطبيعة الحال تونس طبعا التي ترسخت كعاصمة لإفريقية الحفصية بداية من 1230، وأيضا قسنطينة أو الجزائر في الغرب. وأخذ الحال "بعين الاعتبار" كذلك بداية من القرن الرابع عشر موانئ أخرى أقل أهمية ، لكنها تخندقت في مجالها الحيوي. ولم تبق على الأقل حتى نهاية القرن الخامس عشر كمركز وقطب ضغط لشبكات ممتدة نحو الداخل والساحل.

إذا ما وضعنا أنفسنا الآن على السلم المتوسطي، نلاحظ أن بجاية تحتل طبعا مكانة هامة، لكنها لم تعد تؤدي دورا بنّاء وقوة دافعة. إلى غاية القرن الثالث عشر، تقاسمت مع تونس وسبتة التجارة البحرية الكبيرة في الجهة. بعد ذلك، وجب عليها الالتفات إلى المنافسة المتنامية للموانئ الثانوية، خصوصا في المغرب الأوسط، مع الحفاظ على مكانة من الدرجة الأولى. لكنها لم تعد محرك هذه الحركات التجارية التي وجدت مصادرها خارج المغرب: في الأندلس أولا، ثم بسرعة في الموانئ الكبرى في جنوب أوروبا المسيحية، التي نظمت بداية من القرن الثاني عشر شبكات مبادلات في البحر المتوسط لصالحها. واندمجت بجاية إذن في

"اقتصاد عالمي" في طور التكوين[354]، وقد مدّ من تفرعاته بعيدا جدا في البحر المتوسط وإلى أبعد من ذلك.

هذا الإندماج وان كان مرغوبا فيه سيما من طرف الحكم الذي يجلب منه فوائد كبيرة، بقي غير مجد الى حد كبير . فلم تظهر أية سياسة فعلية للتوسع البحري أو التجاري. لم يبحث الحكام لا عن تسهيل ولا عن تشجيع نشرواستغلال نشاطات رعاياهم في البحر المتوسط، وبهذا بقيت استثمارات التجار البجائيين ضعيفة. واصطدم نقص هذه الديناميكية مع الشراسة التجارية لأوساط التجار اللاتينيين الأقوياء اقتصاديا وتجاريا، المعتمدين على أروبا الآخذة في التوسع القوي (خصوصا الديموغرافيا، وأيضا في كل قطاعات الاقتصاد)، والمرتكزين على رأسمالية فعّالة وكذا على الدول التي يسّرت نشاطاتها. إنهم الشركاء اللاتينيين الذين نظموا المبادلات بشكل تصاعدي مع بقية العالم الإسلامي. منذ ذلك الحين، وجدت أقطاب اندفاع هذا النشاط خارج المدينة، في موانئ الشمال الكبيرة مثل جنوة وبيزا أو ميورقة حيث نظموا شبكات المبادلات حسب منطقهم وتطابقا مع مصالحهم. وبهذا كانت بجاية قطبا ثانويا مدمجا بطريقة سلبية وخاضعة في شبكات لم تتحكم فيها. ووُضعت في علاقة مع فضاءات واسعة تعدت بقوة دار الإسلام، لكن بوساطة الفاعلين الأوروبيين.

ولهذا، لا يجب المبالغة في هذا الدور السلبي، إذلم تكن بجاية مرفأ استعماريا بسيطا، كما كان عليه حال بعض موانئ الشرق اللاتيني. إن قدرتها على جلب

---

(354) "إن اقتصاد-العالم هي قيمة من الفضاءات المفردة اقتصادية وغير اقتصادية، مجملة من طرفها، وتمثل مساحة كبيرة (مبدئيا، هي المنطقة المنسجمة الأكثر اتساعا في فترة ما وهي القسم المعطى من الكرة الأرضية، وتتجاوز في العادة حدود التجمعات الكثيفة الأخرى في التاريخ".

F. Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme, XVe-XVIIIe siècle*, Paris, 1979, III, *Le temps du monde*, p. 14. Voir également J. L. Abu-Lughod, *Before European Hegemony. The World System AD 1250-1350*, Oxford, 1989.

التجار، ووظيفتها كنقطة التقاء -كما قال الجغرافيون- بين البحر المتوسط وبلادها الخلفية، هي نتاج إرادة سياسية وحضور الفاعلين الاقتصاديين الذين من شأنهم العمل كشركاء تجاريين بأكمل وجه. في هذا المعنى، إننا جد بعيدين عن صورة الركود الهيكلي أراد البعض إقراره في المنطقة بداية من القرن الحادي عشر. بل بالعكس، إذا ما كانت بجاية مقصودة من التجار اللاتين، فلأنها توفر لهم إمكانيات الغنى المستمر. واعتمدت هذه الجاذبية على أهمية سوقها الاستهلاكي، وعلى ازدهار سكانها وقدرتها على تأدية وظيفة إعادة توزيع نحو الجهات الداخلية التي استطاعت التحكم فيها وتنظيمها. إن مجيء التجار الأجانب يفترض أيضا استقبالا جيدا للميناء ولإدارته وللأوساط التجارية المحلية، وأيضا لظروف الحياة والتجارة التي ضمنها الحكم. كل هذا يرسم صورة – حتى وإن كانت غالبا جوفاء- لمدينة مزدهرة، نشطة وديناميكية، رغم الأزمات التي كثيرا ما كانت عميقة لكن استطاعت تجاوزها.

وبالرغم من ذلك فإن هذا الازدهار ارتبط بقدرة بجاية على ضمان الوصل بين شبكتين مشكلتين مختلفتين بشكل حساس. ففي الداخل، وجب عليها التوصل إلى التحكم في تسيير السلع والرجال في منطقة تخوم تخضع لقوى الأطراف القبلية والمناطق البعيدة، وأيضا ضغوطات القوى الجهوية، خصوصا في الغرب. وبذلك، فإن إشعاعها يمكن تحديده بعدم تنظيم الجهات الداخلية أو بمنافسة موانئ أخرى في الجهة، التي تطورت في القرن الرابع عشر. ففي البحر المتوسط، اندمجت بجاية في الشبكات التجارية التي لم تتحكم فيها، وهذا ما مرّ عن طريق التأقلم مع الطلب الأوروبي، خصوصا على الصوف والجلود. وهذا يترجمه خاصة طريق التبعية الزائدة وحساسية أكبر اتجاه حركة الظروف في أوروبا وتغييرات الطرق التجارية في البحر المتوسط، وهذا ما يفسر الأزمة التي اجتاحت

المدينة في القرن الرابع عشر، وهي أزمة ظرفية قبل أن تكون أزمة مركبة،[355] كما يوضحه بعد ذلك الاستئناف في القرن الخامس عشر.

بجاية هي بحق أنموذج للموانئ المسلمة من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر، فهي نتيجة الاستثمار القوي للحكم في المناطق الساحلية، سيما في مدن الموانئ، لكن دون الارتماء الحقيقي في البحر وفي ما وراء البحر، ودون تشجيع الملاحة التجارية. هنا يجب البحث في أصل "نيل" الضفة الجنوبية للبحر المتوسط التي شاركت في التوسع العام للجهة وبذلك حافظت على ازدهارها الفعلي، مع عجزها عن التحول إلى مركز نشاط قوي ومهم. بجاية هي إذن نتاج هذا الظرف الجديد الذي عرف اندماج الفضاءات التي تجاهلتها من قبل بشكل كبير. إن انتقال البحر المتوسط من سيطرة إسلامية بشكل شبه كلي إلى فضاء منظم من الدول والتجار المسيحيين، أدى إلى تحول الحدود نحو الجنوب على الساحل الإفريقي. وشكلت الموانئ نقاط اتصال وارتكاز جوهرية بين الشبكات التي طوّرت منطقها الخاص بها: من جهة بحر متوسط نظمته المراكز المسيحية الكبرى ومن جهة أخرى فضاء إسلامي مندمج بقوة في هذا البحر المتوسط، حيث أن مناطقه الداخلية مبنية انطلاقا من الموانئ المسلمة.

وجدت بجاية المغاربية والمتوسطية في الوقت ذاته قبل كل شيء بفضل قدرتها على الاندماج في هذين النوعين من الشبكات وتمكنت من شغل مكانة من الدرجة الأولى بتركيزها لتدفق السلع وهجرة الأشخاص، وهذا ما جعلها بين القرن الحادي عشر والقرن الخامس عشر واحدة من المدن الرئيسية في الجهة. لكن القطيعة في هذه الصورة هي التي أدت إلى اختفائها لمدة طويلة من المشهد المتوسطي والمغاربي بعد 1510.

---

(355) في هذا المعنى، هذه الأزمة في قسم كبير منها نتيجة أزمة الاقتصاد العالمي في منتصف القرن الرابع عشر، التي مسّت الفضاء المتوسطي برمته. أنظر:

Abu-Lughod, *Before European Hegemony*, *op. cit.*, p. 125-129.

الملاحق

1ـ الملوك المغاربة (ق 9ـ15م)

الزيريون (ق 11ـ12م)

باديس بن المنصور: 386/ 996-406-1016.

المعز بن باديس: 406/ 1016-554/ 1062.

تميم بن المعز: 454/ 1062-501/ 1108.

يحيى بن تميم: 501/ 1108-509/ 1116.

علي بن يحيى: 509/ 1116-515/ 1121.

الحسن بن علي: 515/ 1121-543/ 1148.

الحماديون

حماد بن بلكين بن زيري: 398/ 1004-419/ 1028.

القائد بن حماد: 419/ 1028-446/ 1054.

محسن بن القائد: 446/ 1054-447/ 1055

بلكين بن محمد بن حماد بن بلكين: 447/ 1055-454/ 1062.

الناصر بن علناس بن حماد بن بلكين: 454/ 1062-481/ 1088.

المنصور بن الناصر: 481/ 1088-498/ 1105.

باديس بن المنصور: 498/ 1105.

العزيز بن المنصور: 498/ 1105-515/ 1121 أو 518/ 1124.

يحيى بن العزيز: 515/ 1121 أو 518/ 1124-547/ 1152.

الموحدون

عبد المؤمن 524/ 1130-558/ 1163.

يوسف الأول أبو يعقوب: 558/ 1163-580/ 1184.

يعقوب المنصور: 580/ 1184-595/ 1199.

محمد الناصر: 595/ 1199-610/ 1213.

يوسف الثاني المستنصر: 610/ 1213-620/ 1224.

عبد الواحد المخلوع: 620/ 1224.

عبد الله العادل: 621/ 1224-624/ 1227.

يحيى المعتصم: 624/ 1227-633/ 1236.

إدريس أبو عبد العلاء المأمون: 624/ 1227-630/ 1232.

عبد الواحد الرشيد: 630/ 1232-640/ 1242.

علي أبو الحسن سعيد: 640/ 1242-646/ 1248.

عمر المرتضى: 646/ 1248-665/ 1266.

الحفصيون

عبد الواحد بن أبي حفص عمر: 603/ 1207-618/ 1221: عامل إفريقية.

أبو محمد عبد الله: 623/ 1226-625/ 1228: عامل إفريقية.

أبو زكرياء يحيى الأول: 625/ 1228-647/ 1249: أول سلطان

أبو عبد الله محمد الأول المستنصر: 647/ 1249-675/ 1277.

أبو زكرياء يحيى الثاني الواثق: 675/ 1277-678/ 1279.

أبو اسحاق ابراهيم الأول: 678/ 1279-681/ 1283.

أبو فارس: 681/ 1283.

اغتصاب ابن أبي عمارة: 681/ 1283-683/ 1284.

أبو حفص عمر الأول: 683/ 1284-694/ 1295.

أبو عبد الله محمد الثاني أبو عصيدة: 694/ 1295-709/ 1309.

أبو يحيى أبو بكر الأول الشاهد: 709/ 1309.

أبو البقاء خالد الأول: 709/ 1309-711/ 1311.

أبو يحيى زكرياء الأول ابن للحياني: 711/ 1311-717/ 1317.

أبو عبد الله محمد الثالث أبو ضربية: 717/ 1317-718/ 1318.

أبو يحيى أبو بكر الثاني: 718/ 1318-747/ 1346.

أبو حفص عمر الثاني: 747/ 1346.

أبو العباس أحمد الأول الفضل: 747/ 1346 ثم في 751/ 1350.

أبو إسحاق إبراهيم الثاني: 751/ 1350-770/ 1369.

أبو البقاء خالد الثاني: 770/ 1369-772/ 1370.

أبو العباس أحمد الثاني: 772/ 1370-796/ 1394.

أبو فارس عبد العزيز: 796/ 1394-837/ 1434.

أبو عبد الله محمد الرابع المستنصر: 837/ 1434-839/ 1435.

أبو عمر عثمان: 839/ 1435-893/ 1488.

أبو زكرياء يحيى الثالث: 893/ 1488-894/ 1489.

عبد المؤمن: 894/ 1489-895/ 1490.

أبو زكرياء يحيى الثاني: 895/ 1490-899/ 1494.

أبو عبد الله محمد الخامس: 899/ 1494-932/ 1526.

الملوك المستقلون في بجاية

أبو زكرياء يحيى ابن أبي اسحاق ابراهيم الأول وابن أخ أبي حفص عمر: 684/ 1285-700/ 1301.

أبو البقاء خالد: 700/ 1301 (ابن السابق الذكر)، سلطان تونس في 709/ 1309.

أبو يحيى أبو بكر: 712/ 1312 (أخ السابق الذكر، تمرّد)، سلطان تونس في 718/ 1318.

أبو عبد الله محمد (765/ 1364-767/ 1366) (عين عامل في 1346).

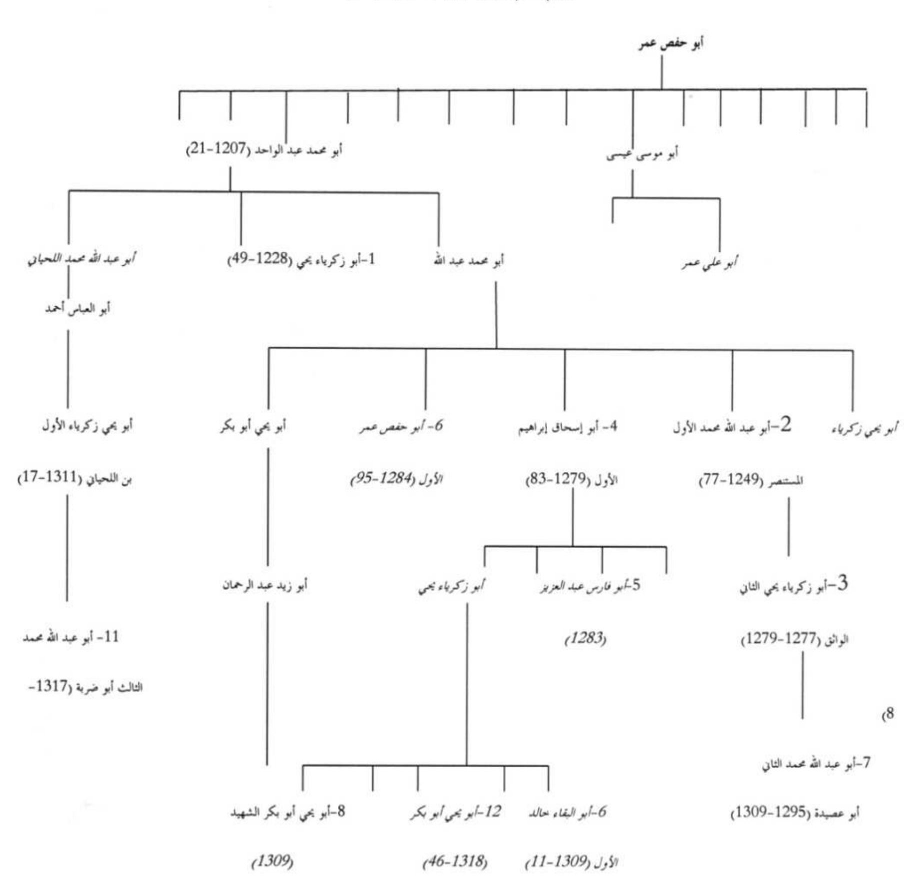
أبو العباس (ابن عم السابق الذكر، عامل ثم أمير قسنطينة، استولى على بجاية في 767/ 1366 وتونس في 772/ 1370).

2ـ شجرة نسب الحفصيين

ملاحق

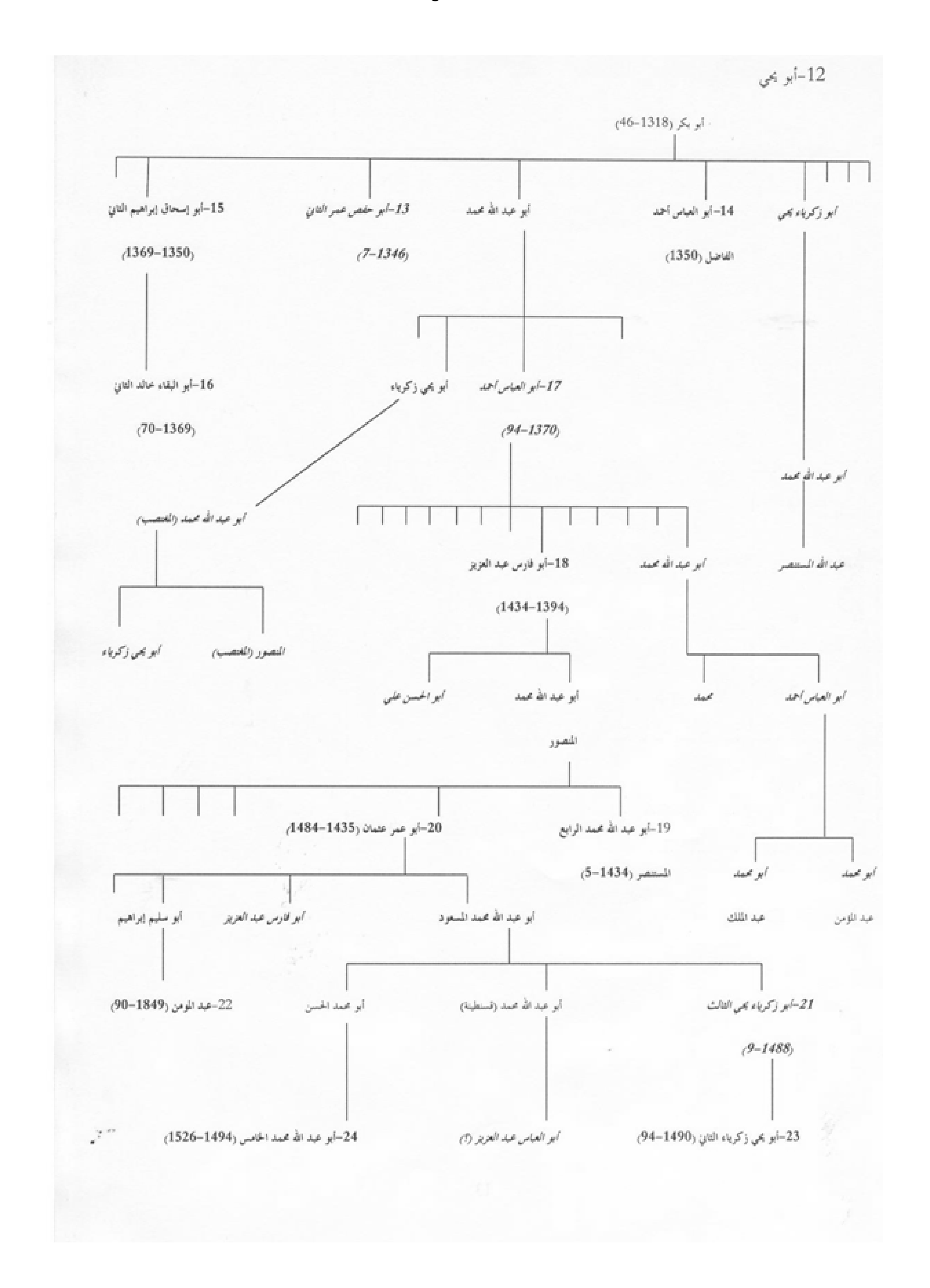
2- شجرة النسب للحفصيين[1]

الترقيم: حكم سلاطين تونس، الخط المائل: أمراء بجاية



(يتبع)

1/ من خلال روبار برنشفيك، بلاد البربر


12-أبو يحي
أبو بكر (1318-46)
أبو زكرياء يحي
14-أبو العباس أحمد
الفاضل (1350)
أبو عبد الله محمد
13-أبو حفص عمر الثاني
(1346-7)
15-أبو إسحاق إبراهيم الثاني
(1350-1369)
17-أبو العباس أحمد
(1370-94)
أبو يحي زكرياء
16-أبو البقاء خالد الثاني
(1369-70)
أبو عبد الله محمد
عبد الله المستنصر
أبو عبد الله محمد (المنتصب)
أبو عبد الله محمد
18-أبو فارس عبد العزيز
(1394-1434)
المنصور (المنتصب)
أبو يحي زكرياء
أبو العباس أحمد
محمد
أبو عبد الله محمد
أبو الحسن علي
المنصور
19-أبو عبد الله محمد الرابع
المستنصر (1434-5)
20-أبو عمر عثمان (1435-1484)
أبو محمد
أبو محمد
عبد المؤمن
عبد الملك
أبو عبد الله محمد المسعود
أبو فارس عبد العزيز
أبو سليم إبراهيم
21-أبو زكرياء يحي الثالث
(1488-9)
أبو عبد الله محمد (قسنطينة)
أبو محمد الحسن
22-عبد المؤمن (1849-90)
23-أبو يحي زكرياء الثاني (1490-94)
أبو العباس عبد العزيز (؟)
24-أبو عبد الله محمد الخامس (1494-1526)

3ـ مراجع معاهدات ومشاريع معاهدات السلم والتجارة

1161: جنوة- الموحدون

Annali genevesi di Caffaro e de'suoi continuatori dal MXCIX al MCCXCIII, I, éd/ L. T. Belgrano, Rome, 1890, p. 62, trad. M. Montesano, *Gli Annali di Caffaro (1099-1163)*, Gênes, 2002. p. 124 ; L. de Mas-Latrie, *Traités de paix et de commerce er documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen- Âge*, Paris, 1866, p. 108.

1166: بيزا- الموحدون

Bernardo Marangone, *Annales Pisani*, éd. M. Lupo Gentile, Bologne, 1936-1944 (*Rerum Italicarum Scriptores*, VI, parte 2, p. 40 ; Mas-Latrie, *Traités*, p. 22.

1181: صقلية- الموحدون

Breve Chronicon [Chronique anonyme du Mont Cassin], Milan, 1724 (*Revum italicarum sciptores*, 5), p. 70 ; Mas-Latrie, Traités, p. 152.

1186/11/5: بيزا- الموحدون

Texte arabe et trad. italienne M. Amari, *Diplomi arabi del R. Archivio fiorentino*, Florence, 1863, partie arabe, n° 5, p. 17-22 ; trad. reprise dans Mas-Latrie, *Traités*, p. 28-30.

1191: جنوة – الموحدون

Annali genovesi…, II, éd. L. T. Belgrano, C. Imperiale di Sant'Angelo, Rome, 1901, p. 41.

1221/8/5: صقلية – الموحدون

Mas-Latrie, *Traités*, p. 153-155 [1]

---

[1] صحّح ر. برونشفيك تاريخ 1231 الذي أعطاه لوي دو ماس-لاتري (Louis de Mas-Latrie).

R. Brunschvig, « Note sur un traité conclu entre Tunis et l'empereur Frédéric II », *RT*, n. s., 9, 1932, p. 153-160.

أمضاها أبي اسحاق بن أبي ابراهيم باسم الخليفة الموحدي.

1223: **جنوة – تونس**

Annali genovesi…, II, p. 192.

1231/10/5: **البندقية- تونس**

Mas-Latrie, *Traités*, p. 196-199.

1234/8: **بيزا – تونس**

Amari, *Diplomi*, partie latine, n° 28, p. 292-294 ; Mas-Latrie, *Traités*, p. 31-35.

1236/6/10: **جنوة – تونس**

Mas-Latrie, *Traités*, p. 116-117.

1250/10/18: **جنوة – تونس**

Mas-Latrie, *Traités*, p. 118-121.

1251/4/1: **البندقية – تونس**

Mas-Latrie, *Traités*, p. 199-202.

1264/8/9: **بيزا – تونس**

Amari, *Diplomi*, partie latine, n° 29, p. 295-302 ; Mas-Latrie, *Traités*, p. 43-47.

1270/10/30: **ملك فرنسا وملك أ ٌ بو وملك صقلية وملك نافارا – تونس**

A. – I. Sylestre de Sacy, « Mémoire sur le traité fait entre le roi de Tunis et Philippe le Hardi en 1270 », *Histoire et mémoires de l'Institut royal de France. Académie des inscriptions et Belles-Lettres*, 9, Paris, 1831, texte arabe p. 467-471, trad. p. 463-467, trad. reprise dans Mas-Latrie, *Traités*, p. 93-96.

1271/2/14: **لاكورونيا أراجونة – تونس**

Mas-Latrie, Traités, p. 280-284 ; trad. dans A. Berne, Consuls sur mer et d'outre-mer de Montpellier au Moyen Âge XIIIe-XIVe siècle, Carcassonne, 1904, p. 175 s.

جوان 1271: **البندقية – تونس**

Mas-Latrie, Traités, p. 203-206.

1272/11/6: **جنوة – تونس**

Mas-Latrie, Traités, p. 122-125.

1278/6/13: ميورقة – تونس

Mas-Latrie, Traités, p. 187-188.

1285/6/2: لاكورونيا أراجونة – تونس

A. de Capmany y Montpalau, éd. Antiguos tratados de paces y alianzas entre algunos reyes de Aragón y diferentes príncipes infieles de Asia y Africa, desde el siglo xiii hasta el xv, Madrid, 1786, rééd. anast. Valence, 1974, p. 39-52 ; Mas-Latrie, Traités, p. 286-290.

1287/7/30: لاكورونيا أراجونة – تونس

G. La Mantia, Codice diplomatico dei re aragonesi di Sicilia (1282-1355), I, Palerme, 1918 (Documenti per servire alla storia di Sicilia, Ia serie, Diplomatica, 23), n° 377-383.

1301/11/21: لاكورونيا أراجونة – تونس

M. Alarcón y Santón, R. García de Linares, éd. Los documentos árabes diplomáticos del Archivo de la Corona de Aragón, Madrid-Grenade, 1940, n° 116, p. 247-253 (texte arabe et trad. contemporaine) ; A. Masia de Ros, éd., La Corona de Aragón y los estados del Norte de Africa, Barcelone, 1951, n° 114, p. 392-394 (trad. contemporaine).

1305/8/3: البندقية – تونس

Mas-Latrie, Traités, p. 211-216.

1308/8/21: لاكورونيا أراجونة – تونس (تثبيت السلم)

Mas-Latrie, Traités, p. 296 (avec la date du 20/8/1308) ; M. Alarcón y Santón, R. García de Linares, éd. Los documentos árabes, n° 124, p. 277-278; Masia de Ros, éd., La Corona de Aragón, n° 122, p. 403.

1309/5/8: لاكورونيا أراجونة – بجاية

Mas-Latrie, Traités, p. 301-303 ; Masia de Ros, éd., La Corona de Aragón, n° 124, p. 404-406.

1312/11/23: ميورقة – بجاية

E. de K. Aguiló, éd., « Tractat de pau entre el Rey de Mallorca Don Sanxo y el de Bugia Boyhahia Abubechre, firmat a Mallorca pels seus representants Gregori Sallambé de una part y Mahomat Abdellá Ben Acet de l’altra, dia 23 de novembre de 1312 », *BSAL*, 15, 1915, p. 217-226.

1313/1/27: ميورقة – تونس

Mas-Latrie, *Traités*, p. 188-192 ; trad. Berne, *Consuls sur mer*, p. 175 s.

1313/9/14: بيزا – تونس

Amari, *Diplomi*, texte arabe et trad. it., partie arabe, n° 29, p. 86-97 ; trad. reprise dans Mas-Latrie, *Traités*, p. 49-54.

1314/1/7: لاكورونيا أراجونة – بجاية

Mas-Latrie, Traités, p. 304-306 ; Masia de Ros, éd., La Corona de Aragón, n° 133, p. 418-420.

1314/2/21: لاكورونيا أراجونة – تونس

Mas-Latrie, Traités, p. 306-310 ; Masia de Ros, éd., La Corona de Aragón, n° 128, p. 411-414.

1317/5/12: البندقية – تونس

Mas-Latrie, Traités, p. 216-222.

1323/5/1: لاكورونيا أراجونة – تونس (مشروع معاهدة، لم يصادق عليها في النهاية، أرسل إلى ملك تونس وبجاية)

Mas-Latrie, Traités, p. 319-324 ; Masia de Ros, éd., La Corona de Aragón, n° 128, p. 437-442.

1329/7/15: ميورقة – تونس

J. Vich i Salom, J. Muntaner y Bujosa, éd., Documenta regni Majoricarum. Colección de documentos inéditos para la historia del antiguo reino de Mallorca (1229 a 1349), Palma de Majorque, 1945, n° 129, p. 143-144.

1336/12/16: لاكورونيا أراجونة – تونس (لم يصادق عليها)

R. Brunschvig, éd., « Documents inédits sur les relations entre la couronne d'Aragon et la Berbérie orientale au xive siècle », AIEO, 2, 1936, p. 247-250.

1343: جنوة – تونس

G. Petti Balbi, « Il trattato del 1343 tra Genova e Tunisi », *Saggi e documenti*, I, Gênes, 1978, p. 297-322, rééd. *Una città e il suo mare. Genova nel Medioevo*, Bologne, 1991, p. 214-222.

1353/5/16: **بيزا – تونس**

Amari, Diplomi, texte arabe et trad. it., partie arabe, n° 30, p. 98-111 ; trad. contemp. partie latine, n° 30, p. 303-308 ; trad. it. et contemp. trad. reprises dans Mas-Latrie, Traités, p. 55-56.

1358/4/9: **بيزا – أبو عنان**

Amari, Diplomi, partie latine, n° 31, p. 309-312 ; Mas-Latrie, Traités, p. 66-69.

1360/1/15: **لاكورونيا أراجونة – تونس**

Texte arabe et trad. esp. Alarcón y Santón, García de Linares, Los documentos árabes, n° 140bis, p. 311-320; texte latin Isidoro de Las Cagigas, « Un traité de paix entre le roi Pierre IV d'Aragon et le sultan Abu Ishaq II (1360) », Hespéris, 19, 1934, p. 65-67.

1383/8/18: **جنوة – تونس**

Cité dans le texte du traité de 1391, qui le renouvelle.

1391/10/17: **جنوة – تونس**

Mas-Latrie, Traités, p. 130-132.

1392/7/4: **البندقية – تونس**

Mas-Latrie, Traités, p. 232-237.

1397/12/14: **بيزا – تونس**

Amari, Diplomi, texte arabe et trad. it., partie arabe, n° 34, p. 123-136 ; trad. contemp. partie latine, n° 35, p. 319-325 ; trad. it. et contemp. trad. reprises dans Mas-Latrie, Traités, p. 70-87.

1403/9/6: **لاكورونيا أراجونة – تونس**

E. de K. Aguiló,, « Pau feta entre els reys de Aragó y de Sicilia de una part y el rey de Tunis de l'altre (1403) », BSAL, 9, 1902, p. 350-355.

سبتمبر 1414: **بيزا – تونس (لم يصادق عليها؟)**

Amari, *Diplomi*, texte arabe et trad. it., partie arabe, n° 35, p. 137-150.

1421/10/5: **فلورنسا – تونس**

Amari, Diplomi, texte arabe et trad. it., partie arabe, n° 36, p. 151-164 ; trad. contemp. partie latine, n° 36, p. 326-330 ; trad. it. et contemp. trad. reprises dans Mas-Latrie, Traités, p. 344-354.

البندقية – تونس :1427

Mas-Latrie, Traités, p. 244-249.

جنوة – تونس :1433/10/19

Mas-Latrie, Traités, p. 134-142.

البندقية – تونس :1438/5/30

Mas-Latrie, Traités, p. 250-254.

فلورنسا – تونس :1445/4/23

Amari, Diplomi, texte arabe et trad. it., partie arabe, n° 38, p. 169-180 ; trad. trad. it reprise dans Mas-Latrie, Traités, p. 355-360.

لاكورونيا أراجونة – تونس (مقترحات سلم) :1444/2/12

Fr. Cerone, « Alfonso il Magnanimo ed Abu ‘Omar Othmân, Trattative e negoziati tra il Regno di Sicilia di qua e di là dal Faro ed il Regno di Tunisi (1432-1457) », Archivio storico per la Sicilia Orientale, 9, 1912, p. 45-70 ; 10, 1913, p. 25-33.

جنوة – تونس :1445/12/29

Mas-Latrie, Traités, p. 142-144.

البندقية – تونس :1456/10/9

Mas-Latrie, Traités, p. 255-256.

جنوة – تونس :1465/3/15

Mas-Latrie, Traités, p.151.

لاكورونيا أراجونة – تونس :1477

Texte arabe et trad. J. Ribera, « Tratado de paz ó tregua entre Fernando I el Bastardo, rey de Nápoles, y Abuámer Otmán, rey de Túnez », *Centenario della Nascita di Michele Amari*, II, Palerme, 1910, p. 373-386.

المختصرات

AEM : Anuario de Estudios Medievales

AIEO : Annales de l’Institut d’Études Orientales

ASLSP : Atti della Sociétà Ligure di Storia Patria

BEC : Bibliothèque de l'École des Chartes

BSAL : Boletín de la Sociedad Arqueológica Luliana (1885-1904, 1938-1977), *Bolletí de la Societat Arqueológica Luliana* (1905-1937, et depuis 1978).

BSP : Bollettino storico pisano

CCM : Cahiers de Civilisation Médiévale

CT: Cahiers de Tunisie

EI^2 : Encyclopédie de l'Islam, 2^e édition

JESHO : Journal of the Economic and Social History of the Orient

RA: Revue africaine

REMMM: Revue des Mondes Musulmans et de la Méditerranée

RH : Revue Historique

RHCM : Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb

ROMM : Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée

RSI : Rivista storica italiana

RT : Revue tunisienne

a. : année

d. : deniers

f. : folio

fr. : *frammento*

l. : livre

min. : minutier

not. : notaire

p. : page

Rg. : registre

s. : sous

t. : tome

trad. : traduction

vol. : volume

ACA : Archivo de la Corona de Aragón

C. : *Cancillería*

CRD : Cartas Reales Diplomaticas

RP : Real Patrimonio

MR : Maestro racional
ADBR : Archives départementales des Bouches-du-Rhône
AHCB : Archivo Histórico de la Ciudad de Barcelona
AHCB : Archivo Histórico de Protocolos de Barcelona
AM : Archives Municipales de Marseille
AMV : Archivo Municipal de Valencia
LLM : *Llettres missives*
mc : *Manuels de Consells*
ARM : Archivo del Reino de Mallorca
RP : *Real Patrimonio*
LLC : *Llettres Comunes*
AH : *Arxiu Históric*
P : *Protocolos*
ARV : Archivo del Reino de Valencia
C : *Reial Cancelleria*
MR : *Maestre Racional*
P : *Protocolos notariales*
ASG : Archivo di Stato di Geneva
AS: *Archivio segreto*
not. ign. : *Notai ignoti*
ASP: Archivio di Stato di Pisa
ASV: Archivio di Stato di Venezia
BNF: Bibliothèque Nationale de France

المصادر والبيبليوغرافيا "المراجع"

أ ـ المصادر العربية

1. الجغرافيون

- البكري، كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان لوون وأندري فيري، تونس 1992، ترجمة:

W. Mac Guckin De Slane, *Description de l'Afrique septentrionale*, Alger, 1913

- الحميري، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1980.

- ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، تحقيق وترجمة:

Gaston Wiet et Jonanes Hendrik Ktamers, *La configuration de la terre*, Paris, 1964.

- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافية، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت، 1970، ط 2، الجزائر، 1982.

- الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق، تحقيق وترجمة القسم الخاص بالمغرب محمد حاج صادق، المغرب في القرن 12م/ 6 هـ، الجزائر، 1983. ترجمة القسم الخاص بالغرب (منه أوروبا):

Le chevalier Robert, revue par Annliese Nef, *La première géographie de l'Occident*, Paris, 1999.

- الاصطخري، كتاب المسالك والممالك، ترجمة القسم الخاص بالمغرب:

André Miquel, « La description du Maghreb dans la géographie d'al-Içt'akhri », *ROMM*, 15-16, 1973, p. 231-239.

- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول، الأسكندرية، 1958، ط 2، الدار البيضاء، 1985، ترجمة:

Edmond Fagnon, « L'Afrique septentrionale au XII^e siècle de notre ère. Description extraite du *Kitâb al-istibçar* », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologiques de Constantine*, 1899.

- العمري (ابن فضل الله)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، نشر حسن حسني عبد الوهاب، تونس، د ت ، ط 2، الكراسات التونسية، 81-82، 1973، ترجمة:

Maurice Gaudefroy-Demombynes, *Masālik al-abṣār fī mamālik al-amṣār*, I- *l'Afrique moins l'Égypte*, Paris, 1927.

- ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق:

Wüstenfeld, Leipzig, 1866-1867.

- الزهري، كتاب الجعرافية، تحقيق محمد حاج صادق

Mappemonde du calife al-Ma'mūn reproduite par Fazārī (IIIe/IXe siècle), rééditée et commentée par Zuhrī (VIe/XIIe siècle), éd. Muhammad Hadj Sadok, *Bulletin d'Études Orientales*, 21, 1968, p. 7-312.

2ـالرحلات

- عبد الباسط بن خليل، الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، ترجمة:

Robert Brunschvig, *Deux récits de voyages inédits en Afrique du Nord au XVe siècle, 'Abd al-Bāsit b. Ḫalīl et Adorne*, Paris, 1936, rééd. 2001.

- العبدري، الرحلة المغربية، ترجمة:

Auguste Cherbonneau, « Notice et extrait du voyage d'el-Abdery », *Journal asiatique*, 1854, 5e série, IV, p. 144-176, repris dans *Revue de Géographie* (Paris), 4e année, 7, 1880, p. 50-61.

- البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق حسن السائح، د. ت. ن.

- ابن بطوطة، تحفة النظار، ترجمة:

Paule Charles-Dominique, « Voyages et périples (*Rihla*). Présent à ceux qui aiment à réfléchir sur les curiosités des villes et les merveilles des voyages », *Voyageurs arabes*, Paris, 1995

- ابن جبير، رحلة، ترجمة:

Paule Charles-Dominique, « Relation des péripéties qui surviennent pendant les voyages (*Rihla*) », *Voyageurs arabes*, Paris, 1995.

- التجاني، رحلة، نشر، تونس، 1958 (مع كشاف وتقديم من حسن حسني عبد الوهاب)، إعادة نشر، تونس، 1981، ترجمة:

Alphonse Rousseau, « Voyage du scheikh Et-Tidjani dans la régence de Tunis pendant les années 706, 707 et 708 de l'hégire (1306-

1309) », *Journal Asiatique*, 4e s., 20, 1852, p. 57-208 ; 5e s., 1, 1853, p. 102-168, 354-425 [et à part, Paris, 1853].

3ـ كتب الأخبار "التاريخ"

– البيذق، كتاب أخبار المهدي بن تومرت، نشر وترجمة:

Évariste Lévi-Provençal, *Documents inédits d'histoire almohade*, Paris, 1928

– البربر: أنظر ابن خلدون

– الفارسية: أنظر ابن قنفذ

– العبر: أنظر ابن خلدون

– ابن الأبار، كتاب الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1963، جزءان.

– ابن أبي زرع، كتاب الأنـيس المطـرب بـروض القرطـاس، نشـرة الربـاط، 1972، **ترجمة:**

Auguste Beaumier, *Rawd al-K'irtās. Histoire des souverains du Maghreb et annales de la ville de Fès*, Paris, 1860, rééd. Rabat, 1999.

– ابن الأثير، كتاب الكامل في التاريخ، نشرة الجزائر، 1967، ترجمة جزئية:

Edmond Fagnan, *Annales du Maghreb et de l'Espagne*, Alger, 1901.

– ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، القسم الموحـدي، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني، محمد زنيبر، محمد بن تاويت وعبد القـادر زمامـة، بـيروت، 1985، ترجمه إلى الفرنسية:

Edmond Fagnan, *Histoire de l'Afrique et de l'Espagne*, Alger, 1901-1904, 2 vol. ; trad. esp. Ambrosio Huici Miranda, *al-Bayan al-Mugrib, Nuevos fragmentos amoravides y almohades*, Valence, 1963.

– ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر، نشرة بيروت، 1959، 7 أجزاء، (اختصار العبر)، ترجمة القسم الخاص بالمغرب:

W. Mac Guckin De Slane, *Histoire des Berbères*, Alger, 1852-1856, 4 vol., nouv. éd. revue de P. Casanova, Paris 1956 (البربر اختصارا)

– ابن خلدون، المقدمة، ترجمة:

Vincent Monteil, *Discours sur l'histoire universelle*, Paris, 1967-1968, 3 vol.

– ابن خلدون، رحلة ابن خلدون غربا وشرقا، ترجمة عبد السلام الشدادي:

Abdesselam Cheddadi, *Voyage d'Occident et d'Orient*, Paris, 1980.

- ابن الخطيب (لسان الدين)، كتاب أعمال الأعلام، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، الدار البيضاء، 1964، ترجمه إلى الإسبانية:

Rafaela Castrillo, *Historia medieval islámica del Norte de África y Sicilia*, Madrid, 1983.

- ابن مرزوق، المسند، ترجمته إلى الإسبانية:

María J. Viguera, *El Musnad : hechos memorables de Abū l-Hasan sultán de los Benimerines*, Madrid, 1977.

- ابن قنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق عبد المجيد تركي ومحمد الشاذلي النيفر، تونس، 1968.

- ابن القطان، نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، تطوان، 1964، إعادة نشر، بيروت، 1990.

- المريني، عنوان الأخبار فيما مرّ على بجاية، ترجمة:

Laurent-Charles Féraud, « Conquête de Bougie par les Espagnols d'après un manuscrit arabe », *RA*, 12, 1868, p. 245-256, 337-349

- المراكشي (عبد الواحد)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة، 1949، ترجمة:

Edmond Fagnan, *Histoire des Almohades*, Alger, 1893

- المعجب: أنظر المراكشي.

- المقدمة: أنظر ابن خلدون.

- النميري (ابن الحاج)، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق محمد بن شقرون، بيروت، 1990.

- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء 24، تحقيق حسين نصار وعبد العزيز الأهواني، القاهرة، 1983.

- يحيى بن خلدون، كتاب البغية، تحقيق وترجمة:

A. Bel, *Histoire des Beni 'Abd el-Wâd, rois de Tlemcen*, Alger, 1903-1913, 3 vol.

- الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق حسين يعقوبي، تونس، 1998، ترجمة:

Edmond Fagnan, *Chronique des Almohades et des Hafsides attribuée à Zerkechi*, *Revue de la société archéologique de Constantine*, 1894, et à part, Constantine, 1895

4- كتب الطبقات

- تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، نشر محمد الطالبي، تونس، 1968.

- الغبريني (أبو العباس أحمد بن عبد الله)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الجزائر، 1970.

- ابن الخطيب (لسان الدين)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1973-1977.

- ابن مريم التلمساني، كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ترجمه إلى الإيطالية:

F. Provenzali, Alger, 1910.

- التادلي (ابن الزيات)، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أ. فور، الرباط، 1958، ترجمه:

Maurice de Fenoyl, *Regard sur le temps des soufis ; vie des saints du Sud Marocain des* V, VI, VII^e^ *siècles de l'hégire*, Paris, 1995.

5- "مصادر متنوعة-أخرى"

- Alarcón y Santón (Maximiliano), García de Linares (Ramón), *Los documentos árabes diplomáticos del Archivo de la Corona de Aragón*, Madrid-Grenade, 1940.

- Amari (Michele), *Diplomi arabi del R. Archivio fiorentino*, Florence, 1863, 1867 (Appendice).

- العزاوي (أحمد)، نشر، رسائل: موحدية مجموعة جديدة، ج 1، القنيطرة، 1995.

Epalza (Miguel de), éd. et trad. esp., *La Tuhfa, autobiografía y polémica islámica contra el Cristianismo de 'Abdallāh al-Tarğumān (fray Anselmo Turmeda)*, *Atti della Accademia nazionale dei Lincei*, *Memorie*, *Classe di scienze morali*, *storiche e filologiche*, *serie* VIII, vol. XV, 1971.

- ابن عبدون، ترجمة:

Évariste Lévi-Provençal, *Séville musulmane au début du* XII^e^ *siècle. Le traité d'Ibn 'Abdūn sur la vie urbaine et les corps de métiers*, Paris, 1947, rééd. anast. 2001.

- ابن البيطار، المغني في الأدوية المفردة، ترجمة:

Lucien Leclerc, *Traité des Simples*, *Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque nationale*, 23, 1877 ; 25, 1881 ; 27, 1883, rééd. anast. Paris, s. d.

- ابن حمديس، ديوان، ترجمة لقصيدة وصف قصر المنصور ببجاية:

Léon Bercher, « Le Palais d'al Mansur à Bougie », *RT*, 29, 1922, p. 50-54, et Francesco Gabrieli, « Il palazzo hammādita di Biğāya descritto da Ibn Hamdīs », *Aus der Welt der islamischer Kunst. Festschrift für Ernst Kühnel zum 75. Geburstag am 26.10.1957*, Berlin, 1959, p. 54-58 ; Ibn ⌚amdîs, trad. it. Celestino Schiaparelli [1897-1909], nouv. éd. Stefania Elena Carnemolla, *Il Canzoniere*, Palerme, 1998.

- ابن منظور، لسان العرب، بيروت، 1955-1956.

- Lévi-Provençal (Évariste), « Un recueil de lettres officielles almohades », *Hespéris*, 28, 1941, p. 1-80.

- Turki (Abdel Magid), « La physionomie monumentale de Ceuta : un hommage nostalgique à la ville par un de ses fils, Muhammad b. al-Qāsim al-Ansārī (traduction annotée de son *Ihtis□ār al-ahbār*) », *Hespéris*, 20-21, 1982-1983, p. 113-162.

- الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب، تحقيق محمد حجي، بيروت، 1981، تحليل للفتاوى:

Vincent Lagardère, *Histoire et société en Occident musulman au Moyen Âge. Analyse du Mi'yār d'al-Wanšarīsī*, Madrid, 1995.

ب- المصادر اللاتينية :

1- وثائق الأرشيف

أ- **جنوة**: أرشيف دولة جنوة Archivio di Stato di Genova

* notaires[2] :

- Minutiers 3/I, 3/II, 5, 7, 8, 9/I, 9/II, 10, 11, 12/I, 13/I, 14, 15, 16/II, 17, 18/I, 18/II, 20/I, 20/II, 21/I, 21/II, 22, 24, 26/I, 26/II, 27, 28, 29, 30/I, 30/II, 31/I, 31/II, 32, 33, 34, 35, 36, 38, 39, 40/I, 40/II, 43, 44, 49, 52, 53, 54, 55/I, 55/II, 58, 60, 61, 62, 63/I, 63/II, 64, 65, 68/II, 70, 71, 72, 73, 74, 75/II, 76, 77, 78, 79, 80, 81, 82, 83, 84, 85, 86, 87, 88, 89, 90, 91, 92, 93, 94, 95, 96, 97, 98, 105, 109, 117, 118, 120/II, 121, 122, 123, 129, 130, 131, 132, 133, 136, 140, 143, 149/I, 193, 202, 233.

- *Manoscritto* 102.

- *Notai ignoti*, *buste* 1, 3, 5, 7, 8, 9, 10, 14, 18, 20, 21, 22, 29, II, III, IV.

- *Notai antichi*, *notai* Risso Baromeo, *filza* 1.

* *Archivio segreto*

- Registres 496, 506, 507, 508, 509, 510, 511, 514, 552, 1779, 1794, 1812, 2707A, 2731, 2737A, 2737B.

- *Maritimarum*, *filza* 1665.

* *Archivio di San Giorgio*

- *Caratorum Veterum*, n° 1551, 1552, 1553, 1555.

- *Manoscritto, membranacei di San Giorgio, regule comperarum capituli.*

ب- فنيزيا"البندقية": أرشيف دولة البندقية Venise : Archivio di Stato di Venezia

* Registres du Sénat

- *Senato*, *Misti*, registres 15, 44, 50.

- *Senato*, *Mar*, registres 1-9.

- *Senato*, *Incati di galere*, registres 1-2.

* *Cancelleria Inferiore*

- *busta* 27, notaire Francesco de Belleto.

- *busta* 211, Nicolo Turiano.

---

[2] Les notaires génois ont été étudiés à partir des dépouillements effectués par Michel Balard, et des fiches manuscrites qu'il a eu l'obligeance de me communiquer.

ج- بيزا: أرشيف دولة بيزا Archivio di Stato di Pisa

* Documents publics :
- *Atti pubblici* (doc. du 16/9/1379).
- *Comune* A, 29 (*Instrumentari*).
- *Comune* A, 46 (*Consoli del Mare*).

* *Diplomatico* :
- *Alliata.*
- *Cappelli.*
- *Coletti.*
- *Monastero degli olivetani di Pisa.*
- *Opera Primaziale del Duomo.*
- *Ospedali riuniti di S. Chiara.*
- *Roncioni*.
- *San Silvestro di Pisa.*
- *Trovatelli.*

د- برشلونة

* **Archivo Histórico de Protocolos de Barcelona** الأرشيف التاريخي الدبلوماسي لبرشلونة

- Bernat Nadal, *Manual*, 10/5/1395 -13/11/1395 (58/15).
- Bernat Nadal, *Manual*, 14/12/1402 - 1/6/1403 (58/30).
- Bernat Nadal, *Manual*, 8/11/1404 - 14/5/1405 (58/33).
- Bernat Nadal, *Secundus liber comandarum*, 1395-1406 (58/170).
- Bernat Nadal, *Quintus liber apocarum diversarum manumissoriarum*, 1407-1417 (58/179).
- Bernat Nadal, *Manual de cartas de pago de diferentes testamentarias*, 1423-1436 (58/181).
- Juan Nadal, *Manual*, 9/5/1410 - 16/10/1410 (54/17).
- Tomas de Bellmunt, *Quartus liber manuale comandarum*, 18/1/1414 - 21/1/1417 (79/38).
- Anthoni Brocard, *Primum librum apocharum faciencium pro diversis manumissoriis*, 1410-1424 (106/37).
- Pere Bastat, *Liber securitatum*, 1454-1461 (193/14).

- Pere Bastat, *Liber securitatum*, 9/8/1454-24/1/1461 (193/14).
- Anthoni Vilanova, *Liber securitatum* 6[e] (165/95).

أرشيف لاكورونيا أراجونة

*** Archivo de la Corona de Aragón (Arxiu de la Corona d'Aragó)**

- *Cancillería*

Registres 12, 15, 19, 21, 46, 65, 117, 210, 223, 247, 410, 466, 555, 557, 585, 587, 588, 590, 592, 873, 874, 875, 876, 886, 1055, 1118, 1261, 1263, 1389, 1397, 1402, 1403, 1423, 1426, 1427, 1428, 1430, 1437, 1438, 1444, 1446, 1819, 1908, 2114, 2177, 2180, 2199, 2204, 2205, 2206, 2207, 2208, 2212, 2239, 2240, 2242, 2246, 2263, 2288, 2388, 2398, 2414, 2415, 2698, 3658, 3827.

- *Cartas Reales Diplomaticas*

Jaime II, *caja* 136.

Pedro III, *caja* 1.

- *Cartas Reales, Rubrica de lletres comunes*, registre 1337.

- *Real Patrimonio*

Registres 1708, 1709.

- *Real Patrimonio, Maestro racional*

Registres 996, 1008, 1080, 1714, 1716.

هـ- ميورقة: أرشيف مملكة ميورقة Archivo del Reino de Mallorca

* *Real Patrimonio*

Registres 1080, 1081, 1108, 1113, 1865, 2003A, 3764 à 3773, 3775, 3780, 3782, 3783, 3785, 3787, 3788, 3791, 3792, 3795, 3797, 3799, 3800, 3801, 3803, 3804, 3806, 3807, 3808, 3810, 3812 à 3815, 3820, 3821, 3823 à 3827, 3829, 3831, 3833, 3988/II.

* *Guiatges*

Registres 1 à 9.

و- بلنسية: أرشيف مملكة بلنسية

* Archivo del Reino de Valencia

- *Reial Cancelleria*

Registres 626 (*Confesiones y ventas de sarracenos*), 633 (*Licencia para embarque de moros*), 646 (*Armamentos de naves*), 664 (*Llibre*

d'armaments), 702 (*Llibre d'armaments de barques*), 706 (*Guiatges de mar*), 707 (*idem*).

- *Batllia*

Registres 193, 194, 195, 196, 197, 198 (confessions de sarrasins), 1142bis, 1144, 1157, 1162.

- *Maestre Racional*

Registres 1-12, 14-16, 18-28, 31-32, 34-47, 49-52, 54, 56-57, 60-66, 68-76, 78-90, 92-93, 95-97, 99-105, 109, 120, 11060.

- *Protocolos notariales*

Registres 796, 1121, 2007, 2009, 2010, 2013, 2412, 2415, 2638, 2641.

- *Gobernacion*, registre 2805.

* Archivo Municipal de Valencia

- *Claveria Comuna. Manuel d'Albarans i Censals*

Registres I-3, 5, 12, 18.

- *Lletres missives*

Registres g 3-8 à g 3-10, g 3-33.

- *Manuals de Consells*

Registres A-18, A-19, A-32.

ز- مرسيليا

أرشيف مرسيليا البلدي

* Archives municipales de Marseille

- Série AA (Actes constitutifs et politiques de la Commune)

Registres 131, 141, 149.

- Série BB (Délibérations communales)

Registres 14, 17, 18.

- Série HH (Affaires commerciales)

Registres 311, 334.

- Série II (Notaires et Familles)

1 II 6, 16, 39, 45.

2 II 62.

3 II 155.

* Archives départementales des Bouches-du-Rhône

- Série B (Cour des Comptes de Provence)

Registres 1501, 1517, 1519, 1520, 1936, 1937, 1940-1943.

- Série E (notaires)
14 E 350.
351E 48, 78, 79, 124, 138, 188, 235, 389, 447, 448, 449, 659.
355 E 52, 91.
373 E 88.
381 E 4, 10, 20, 25, 46, 59, 369, 371.
391 E 6, 8, 11, 15, 16, 123.

ر- **باريس: المكتبة الوطنية الفرنسية** Bibliothèque nationale de FranceNouvelles acquisitions latines, 1348, 1351, 1352.

2- قائمة المصادر وتقديمها

- Bautier (Robert-Henri), « Notes sur les sources de l'histoire économique médiévale dans les archives de Toscane », *Mélanges d'archéologie et d'histoire*, 58, 1941-1946, p. 291-306.

—, « Notes sur les sources de l'histoire économique médiévale dans les sources italiennes (suite) », *Mélanges d'archéologie et d'histoire,* 60, 1948, p. 181-210.

—, « Sources pour l'histoire du commerce maritime en Méditerranée du XII^e^ au XV^e^ siècle », *Les Sources de l'histoire maritime en Europe du Moyen Âge au XVIII^e^ siècle, Actes du IV^e^ colloque international d'histoire maritime, Paris, 20-23 mai 1959,* dir. Michel Mollat, Paris, 1962, p. 137-179.

- Bautier (Robert-Henri), dir., *Sources de l'histoire économique et sociale du Moyen Âge ; la Provence*, Paris, 1969-1974, 3 vol.

- Bologna (Marco), *Archivio di Stato di Genova, cartolari notarili genovesi (150-299). Inventario*, Rome, 1990.

—, *Archivio di Stato di Genova, notai ignoti : frammenti notarili medioevali. Inventario,* Rome, 1988.

- Busquet (Raoul), *Les Fonds des archives départementales des Bouches du Rhône,* I, *Dépôt principal de Marseille, séries anciennes A à F*, Marseille, 1927.

- Casini (Bruno), *Inventario dell'Archivio del Comune di Pisa, (sec. XI-1509),* Livourne, 1969.

- Cecchetti (B.), *Archivio di Stato di Venezia. Statistica degli atti custoditi nella sezione notarile*, Venise, 1886.

- Costamagna (Giorgio), *Cartolari notarili genovesi (1-149). Inventario,* Rome, 1956 et 1961, 2 vol.

- Da Mosto (Andrea), *L'Archivio di Stato di Venezia. Guida generale storico descrittivo ed analitico*, Rome, 1937 et 1940, 2 vol.

- *Guida generale degli Archivi di Stato,* Rome, 1986-1994, 4 vol.

- Isnard (Émile), *Inventaire sommaire chronologique des chartes, lettres patentes, lettres missives et titres divers antérieurs à 1500,* Marseille, 1939.

- Lapeyre (Henri), « Les archives de Valence », *Caravelle. Cahiers du monde hispanique et luso-brésilien,* 6, 1966, p. 53-71.

- Madurell Marimon (José María), *Archivo general de protocolos (Barcelona). Sección histórica. Indice cronológico alfabético,* Barcelone, 1950-1959, 3 vol.

- Pedani (Maria Pia), « Venezia e il Maghreb nei documenti dell'Archivio di Stato di Venezia », *Quaderni di Studi Arabi,* 10, 1992, p. 159-173.

- Raventos (Giralt), « Sources barcelonaises pour l'histoire de la marine et de l'économie maritime », *Les sources de l'histoire maritime en Europe du Moyen Âge au XVIII^e siècle, Actes du IV^e colloque international d'histoire maritime, Paris, 20-23 mai 1959,* Paris, 1962, p. 207-225.

- Valérian (Dominique), *Les sources italiennes de l'histoire du Maghreb médiéval. Inventaire critique*, Paris, 2006.

3ـ طبعات النصوص والوثائق

- *AG* : voir Belgrano.

- Agnoletti (Anna Maria E.), éd., *Statuto dell'Arte della Lana di Firenze (1317-1319),* Florence, 1940 (*Fonti e studi sulle corporazioni artigiane del Medio Evo*, 1).

- Aguiló (Estanislao de Kostka), éd., « Cartas reales. Rubrica », *BSAL,* 20, 1924-1925, p. 260-265, 340, 361.

—, éd., « Incident surgit ab motiu del canvi d'esclaus cristians y moros, pactat despres de la pau », *BSAL,* 15, 1915, p. 226-233.

—, éd., « Mostres de lous passats per la redencio de catius cristians », *BSAL,* 10, 1904, p. 337-340.

—, éd., « Pau feta entre els reys de Aragó y de Sicilia de una part y el rey de Tunis de l'altre (1403) », *BSAL,* 9, 1902, p. 350-355.

—, éd., « Rubrica dels llibres de pregons de la antiga curia de la governació, llibre I, any 1385 », *BSAL,* 9, 1901-1902, p. 13-16, 29-32, 60-64, 127-132, 144-148, 241-244, 271-277.

—, éd., « Tractat de pau entre el Rey de Mallorca Don Sanxo y el de Bugia Boyhahia Abubechre, firmat a Mallorca pels seus representants

Gregori Sallambé de una part y Mahomat Abdellá Ben Acet de l'altra, dia 23 de novembre de 1312 », *BSAL*, 15, 1915, p. 217-226.

- Alart (Julien Bernard), éd., « Documents sur la langue catalane des anciens comtés de Roussillon et de Cerdanya », *Revue des langues romanes*, 4, 1873, p. 44-61, 244-256, 353-385, 502-514 ; 5, 1874, p. 80-102.

- Arnaud d'Agnel (Gustave), éd., *Comptes du roi René*, Paris, 1908-1910, 3 vol.

- Artizzu (Francesco), éd., *Documenti inediti relativi ai rapporti economici tra la Sardegna e Pisa nel Medioevo*, Padoue, 1961 et 1962, 2 vol.

- Auvray (Lucien), éd., *Les Registres de Grégoire IX*, III, Paris, 1910.

- Azurri (Gerolamo), *Carta di Navigare*, éd. Ornella Bazurro, Gênes, 1985.

- Balard (Michel), éd., *Gênes et l'Outremer*, I, *Actes de Caffa du notaire Lamberto di Sambuceto, 1289-90*, Paris-La Haye, 1973, 2 vol.

- Balletto (Laura), éd., *Il cartulario di Arnaldo de Cumano e Giovanni di Donato (Savona, 1178-88)*, Rome, 1978, 2 vol.

- Balletto (Maria Louisa), *Navi e navigazione a Genova nel quattrocento. La « Cabella marinariorum » (1482-1491)*, Gênes, 1973.

- Baratier (Édouard), trad., *Documents d'histoire de la Provence*, Toulouse, 1971.

- Belgrano (Luigi Tommaso), éd., « Registro della Curia arcivescovile di Genova », *ASLSP*, 2, Gênes, 1862.

- Belgrano (Luigi Tommaso), Imperiale di Sant'Angelo (Cesare), éd., *Annali genovesi di Caffaro e de'suoi continuatori dal MXCIX al MCCXCIII*, Gênes puis Rome, 1890-1929, 5 vol., trad. partielle Marina Montesano, *Gli Annali di Caffaro (1099-1163)*, Gênes, 2002 [abrév. AG].

- Berger (Élie), éd., *Les Registres d'Innocent IV*, I, Paris, 1884.

- Blancard (Louis), éd., *Documents inédits sur le commerce de Marseille au Moyen Âge*, Marseille, 1884-1885, 2 vol., rééd. anast. en un vol., Genève, 1978 [abrév. Blancard, I pour les documents concernant la famille Manduel, et II pour les actes de 1248 du notaire Amalric].

- Bonaini (Francesco), éd., *Statuti inediti della città di Pisa dal XII al XIV secolo*, Florence, 1845-1870, 3 vol.

- Bonvillano : voir Eierman.

- Borlandi (Franco), éd., *El Libro di mercatantie et usanze de' paesi*, Turin, 1936 (Documenti e studi per la storia del commercio e del diritto commerciale italiano, 7).

- *Breve Chronicon [Chronique anonyme du Mont Cassin]*, Milan, 1724 (*Rerum italicarum scriptores*, 5).

- Brunetti (Mario), Cessi (Roberto), éd., *Le Deliberazioni del Consiglio dei rogati (senato) ; serie « mixtorum »*, II, *Libri XV-XVI*, Venise, 1961.

- Bruno (Agostino), éd., *Gli Antichi archivi del Comune di Savona*, Savone, 1890.

- Bruno (Federico), éd., « Le convenzioni commerciali e la marina savonese dai tempi più antichi sino alla fine del sec. XIV », *Atti della Società savonese di storia patria*, 7, 1924, p. 4-40.

- Brunschvig (Robert), éd., « Documents inédits sur les relations entre la couronne d'Aragon et la Berbérie orientale au XIV[e] siècle », *AIEO*, 2, 1936, p. 235-265.

- Buongiorno (Mario), *L'Amministrazione genovese nella « Romania »*, Gênes, 1973.

- Burgarella (Pietro), éd., « Il protocollo del notaio Adamo de Citella dell'anno 1286-1287 », *Archivio storico della Sicilia Orientale*, 75, 1979, p. 435-553.

—, éd., *Le Imbreviature del notaio Adamo de Citella a Palermo*, Rome, 1981.

- Burns (Robert Ignatius), éd., *Diplomatarium of the Crusader Kingdom of Valencia*, Princeton, 1985 et 1991, 2 vol.

- Cabanes (María Desamparados), éd., *Coses vedades en 1381*, Valence, 1971.

- Caetani (Gelasio), éd., *Varia. Raccolta delle carte più antiche dell'Archivio Caetani e Regesto delle pergamene del fondo pisano*, Cité du Vatican, 1936.

- Callura Cecchetti (Rosa), Zunino (Stella Maris), Luschi (Giovanna), éd., *Genova e Spagna nel XIV secolo. Il « Drictus catalanorum », 1386, 1392-1393*, Gênes, 1970.

- Capmany y Montpalau (Antonio de), éd., *Antiguos tratados de paces y alianzas entre algunos reyes de Aragón y diferentes príncipes infieles de Asia y Africa, desde el siglo XIII hasta el XV*, Madrid, 1786, rééd. anast. Valence, 1974.

—, éd., *Memorias históricas sobre la marina, comercio y artes de la antigua ciudad de Barcelona*, Madrid, 1779-1792, rééd. C. Batlle et E. Giralt, Barcelone, 1961-1963.

- Casini (Bruno), éd., « Il "breve" delle gabelle delle porta della Degazia del Mare di Pisa del 1362 », *Studi per Enrico Fiumi*, Pise, 1979, p. 373-429.

- Caturegli (Natale), éd., *Regesto della Chiesa di Pisa*, Rome, 1938 (*Regesta chartarum Italiae*, 24).

- Cecchi Aste (Elena), éd., *Il carteggio di Gaeta nell'archivio del mercante pratese Francesco di Marco Datini, 1387-1405*, Gaète, 1997.

- Cessi (Roberto), Luzzatti (Luigi), éd., *Le Regolazione delle Entrate e delle spese (sec. XIII-XIV)*, Padoue, 1925.

- Cessi (Roberto), Sambin (P.), éd., *Le Deliberazioni del consiglio dei Rogati (Senato). Serie « mixtorum »*, I, *libri I-XIV*, Venise, 1960.

- Chiaudano (Mario), éd., *Notai liguri dei secoli* XII *e* XIII, IV, *Oberto Scriba de Mercato 1186*, Gênes, 1940.

- Chiaudano (Mario), Moresco (Mattia), éd., *Il Cartolare di Giovanni Scriba*, Turin, 1935, 2 vol. [abrév. Giovanni Scriba].

- Chiaudano (Mario), Morozzo della Rocca (Raimondo), éd., *Notai liguri dei secoli* XII *e* XIII, I, *Oberto Scriba de Mercato 1190*, Gênes, 1938.

- Ciano (Cesare), éd., *La Pratica di mercatura datiniana (sec.* XIV*)*, Milan, 1964.

- Colon (Germà), Garcia (Arcadi), éd., *Llibre del Consolat de Mar*, Barcelone, 2001.

- *Cronica varia pisana*, Milan, 1725 (*Rerum Italicarum Scriptores*, 6).

- Dan (Pierre, o ss. T), « Les plus illustres captifs », *RA*, 27, 1883, p. 11-35, 191-206, 355-379 ; 28, 1884, p. 49-67 et à part, Paris, 1902.

- Day (John), éd., *Les Douanes de Gênes 1376-1377*, Paris, 1963, 2 vol.

- Dellacasa (Sabina), éd., *I* Libri Iurium *della Repubblica di Genova*, I/4, Gênes, 1998.

- Dentici Buccellato (Rosa Maria), éd., *Fisco e società nella Sicilia Aragonese. Le pandette delle gabelle regie del* XIV *secolo*, Palerme, 1983 (*Acta curie felicis urbis Panormi*, 2).

- Diez de Gamez (Gutierre), *El Victorial, crónica de don Pedro Niño, conde de Buelna, por su alférez Gutierre Diez de Games*, éd. Juan de Mata Carriazo, Madrid, 1940.

- Dini (Bruno), éd., *Una pratica di mercatura in formazione (1394-5)*, Florence, 1980.

- Doehaerd (Renée), *Les Relations commerciales entre Gênes, la Belgique et l'Outre-Mont, d'après les archives notariales génoises aux* XIII^e^ *et* XIV^e^ *siècles*, Bruxelles-Rome, 1941.

- Doehaerd (Renée), Kerremans (Charles), *Les Relations commerciales entre Gênes, la Belgique et l'Outre-Mont, d'après les archives notariales génoises, 1400-1440*, Bruxelles-Rome, 1952.

- Dufourcq (Charles-Emmanuel), éd., « Documents inédits sur la politique ifriqiyenne de la Couronne d'Aragon », *Analecta sacra tarraconensia*, 25, 1952, p. 51-113, 255-291.

—, éd., *Recueil de documents concernant les relations des pays de la couronne d'Aragon avec le Maghreb de 1212 à 1323*, Thèse complémentaire, Université de Paris, 1965, 6 vol.

- Eierman (Joyce E.), Krueger (Hilmar C.), Reynolds (Robert L.), éd., *Notai liguri del sec.* XII, III, *Bonvillano (1198)*, Turin, 1939 [abrév. Bonvillano].

- Fabri (Félix), *Le Voyage en Égypte de Félix Fabri, 1483*, trad. Jacques Masson et Gisèle Hurseaux, Le Caire, 1975.

- Ferretto (Arturo), éd., *Documenti intorno alle relazioni fra Alba e Genova (1141-1270), Biblioteca della Società storica subalpina* (Pignerol), 22, 1906.

—, éd., *Liber Magistri Salmonis, Sacri Palatii notarii, 1222-1226, ASLSP,* 36, 1906.

—, éd., *Codice diplomatico delle relazioni fra la Liguria, la Toscana e la Lunigiana ai tempi di Dante (1265-1321), ASLSP*, 31/1-2, 1901-1903.

- Finke (Heinrich), éd., *Acta Aragonensia. Quellen zur deutschen, italienischen, französischen, spanischen zur Kirchen- und Kulturgeschichte aus der diplomatischen Korrespondenz Jaymes II (1291-1327),* Berlin-Leipzig, 1908-1922, 3 vol.

- Forcheri (Giovanni), éd., *Navi e navigazione a Genova nel Trecento (il Liber Gazarie)*, Gênes, 1974.

- Garcia i Sanz (Arcadi), Ferrer i Mallol (Maria Teresa), éd., *Assegurances i canvis maritims medieval a Barcelona*, Barcelone, 1983.

- Giménez Soler (Andrés), éd., « Documentos de Túnez, originales ó traducidos, del Archivo de la Corona de Aragón », *Anuari de l'Institut d'Estudis Catalans,* 3, 1909-1910, p. 210-259.

- Gioffrè (Domenico), éd., *Lettere di Giovanni da Pontremoli, mercante genovese 1453-59,* Gênes, 1982.

- Giovanni di Guiberto : voir Hall-Coll.

- Giovanni Scriba : voir Chiaudano.

- Girona Llagostera (Daniel), éd., *Itinerari del rei Martí (1396-1410),* Barcelone, 1916.

- Giustiniani (Agostino), *Annali della Repubblica di Genova*, éd. Giovanni Battista Spotorno, Gênes, 1854, 2 vol.

- Golubovitch (Girolamo), *Biblioteca bio-bibliografica della Terra santa e dell'Oriente francescano,* V, Quarrachi, 1927.

- Greco (Lucia), éd., *Quaderno di bordo di Giovanni Manzini : prete-notaio e cancelliere (1471-1484)*, Venise, 1997.

- Gual Camarena (Miguel), éd., *El primer manual hispánico de mercadería (s. XIV),* Barcelone, 1981.

- Guglielmo Cassinese : voir Hall-Coll.

- Guidi (A.), éd., *Atti di Ser Leopardo del Fornaio dai registri n° 3 e n° 4 delle serie contratti dell'Archivio della Mensa arcivescovile di Pisa, 1259-70*, Tesi di Laurea, sous la direction de M. Luzzati, Pise, 1975-1976.

- Guillaume de Pouille, *La Geste de Robert Guiscard*, éd. et trad. Marguerite Mathieu, Palerme, 1961.

- Gulotta (Pietro), éd., *Le Imbreviature del notaio Adamo de Citella a Palermo (2° registro, 1298-1299)*, Rome, 1982 (*Fonti e Studi del Corpus membranarum italicarum,* ser. 3, *Imbreviature matricole statuti e formulari notarili medievali*, 2).

- Hall-Coll (Margaret W.), Krueger (Hilmar C.), Reinert (Ruth G.), éd., *Notai liguri dei secoli XII e XIII*, V, *Giovanni di Guiberto (1200-1211)*, Gênes, 1939-1940, 2 vol. [abrév. Giovanni di Guiberto].

- Hall-Coll (Margaret W.), Krueger (Hilmar C.), Reynolds (Robert L.), éd., *Notai liguri dei secoli XII e XIII*, II, *Guglielmo Cassinese*, *1190-1192*, Turin, 1938, 2 vol. [abrév. Guglielmo Cassinese].

- Heers (Jacques), Groer (Georgette de), éd. et trad., *Itinéraire d'Anselme Adorno en Terre Sainte (1470-1471)*, Paris, 1978.

- Hinojosa Montalvo (José), éd., *Coses vedades en 1404*, Valence, 1972.

- Hoffmann (Hartmut), éd., *Chronica Monasterii Casinensis*, Hanovre, 1980 (*Monumenta Germaniae Historica*, *Scriptores*, 34).

- Huici Miranda (Ambrosio), Cabanes Pecourt (María Desamparados), éd., *Documentos de Jaime I de Aragón*, 4, Saragosse, 1982.

- Jorga (Nicolas), éd., *Notes et extraits pour servir à l'histoire des croisades au XV*[e] *siècle*, *Revue de l'Orient Latin*, 4, 1896, p. 25-118, 226-320, 503-622 ; 5, 1897, p. 108-212, 311-388 ; 6, 1898, p. 50-143, 370-434 ; 7, 1899, p. 38-107, 375-429 ; 8, 1900, p. 1-115, 267-310.

- Krueger (Hilmar C.), Reynolds (Robert L.), éd., *Notai liguri dei secoli XII e XIII*, VI, *Lanfranco (1202-1226)*, Gênes, 1951-1953, 3 vol. [abrév. Lanfranco].

- Léon l'Africain, *Description de l'Afrique*, trad. Alexis Épaulard, Paris, 1956, rééd. 1980 [abrév. Léon l'Africain].

- Lanfranco : voir Krueger.

- La Mantia (Giuseppe), *Codice diplomatico dei re aragonesi di Sicilia (1282-1355)*, I, Palerme, 1918 (*Documenti per servire alla storia di Sicilia*, I[a] serie, *Diplomatica*, 23).

- La Primaudaie (Élie de), éd., « Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506-1574) », *RA*, 19, 1875, p. 62-77, 148-157, 161-193, 265-288, 337-360, 483-496 ; 20, 1876, p. 128-144, 232-244, 320-335, 387-416 ; 21, 1877, p. 17-32, 81-96, 198-229, 265-298, 361-379, 461-472.

- Liagre de Sturler (Léone), *Les relations commerciales entre Gênes, la Belgique et l'Outremont d'après les archives notariales génoises (1320-1400)*, Bruxelles-Rome, 1969, 2 vol.

- Lopez (Roberto Sabatino), Airaldi (Gabriella), éd., « Il più antico manuale italiano della mercatura », *Miscellanea di studi storici*, II, Gênes, 1983 (*Collana storica di fonti e studi*, 38), p. 100-133.

- Malipiero (Domenico), *Annali Veneti*, *dall'anno 1457 al 1500*, éd. T. Gar et A. Sagredo, *Archivio Storico Italiano*, 7, 1843-1844.

- *Manual de Novells Ardits, vulgarment apellat Dietari del Antich Consell Barceloni*, I, Barcelone, 1892.

- Marangone (Bernardo), *Annales Pisani*, éd. Michele Lupo Gentile, Bologne, 1936-1944 (*Rerum Italicarum Scriptores*2, VI, parte 2).

- Marmol (Lluis de), *Description générale de l'Afrique*, trad. Nicolas Perrot d'Ablancourt, *L'Afrique de Marmol*, Paris, 1667, 3 vol.

- Mas-Latrie (Louis de), éd., « Charte de nolisement de l'an 1264 pour un voyage de Pise à Bougie », *BEC*, 2e série, 4, 1847-1848, p. 244-256.

—, éd., « Chartes inédites relatives aux États de Bougie et de Bône (1268-1293-1480) », *BEC*, 1re série, 2, 1840-1841, p. 388-397.

—, éd., « Relations commerciales de Florence et de la Sicile avec l'Afrique au Moyen Âge », *BEC*, 4e série, 5, 1859, p. 209-236.

—, éd., *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-Âge*, Paris, 1866, suppl.1872.

- Masia de Ros (Angeles), éd., *La Corona de Aragón y los estados del Norte de Africa*, Barcelone, 1951.

- Melis (Federigo), éd., *Documenti per la storia economica dei secoli XIV-XV*, Florence, 1972.

- Mollat (Guillaume), éd., *Jean XXII. Lettres communes*, IV, Paris, 1910.

- Monleone (Giovanni), trad., « Gli Annali di Giorgio Stella, 2° volume (1333-1382) », *La Berio*, X/1, 1970 à XII/3, 1972.

- Morozzo della Rocca (Raimondo), Lombardo (Antonio), éd., *Documenti del commercio veneto dei sec. XI-XIII*, Rome, 1940 (*Regesta chartarum Italiae*, 28-29).

- Nicolini (Nicola), éd., *Codice diplomatico sui rapporti veneto-napoletani durante il regno di Carlo I d'Angiò*, Rome, 1965.

- Pagnini della Ventura (Giovanni Francesco), éd., « Giovanni di Antonio Da Uzzano : La Pratica della mercatura (1442) », *Della decima e di varie altre gravezze imposte dal Comune di Firenze*, IV, Lisbonne, 1766, rééd. anast. Bologne 1967.

- Pardessus (Jean-Marie), éd., *Collection des lois maritimes antérieures au XVIIIe siècle*, Paris, 1828-1845, 6 vol.

- AA. VV. (UMR 5648 Histoire et archéologie des mondes chrétiens et musulmans médiévaux), *Pays d'Islam et monde latin, Xe-XIIIe siècle. Textes et documents*, Lyon, 2000.

- Pegolotti (Francesco Balducci), *La Pratica della mercatura*, éd. Allan Evans, Cambridge, Mass., 1936 [abrév. Pegolotti].

- Pernoud (Régine), éd., *Le IVe Livre des Statuts de Marseille*, Paris, 1935.

- Perrat (Ch.), éd., « Actes du roi Robert d'Anjou relatifs à la Provence, extraits des registres détruits des archives de Naples, 1314-1363 », *Bulletin philologique et historique (jusqu'en 1715)*, 1950, p. 119-195.

- Piles Ros (Leopoldo), éd., *Estudio documental sobre el bayle general de Valencia, su autoridad y jurisdicción*, Valence, 1970.

- Piloti (Emmanuel), *Traité d'Emmanuel Piloti sur le passage en Terre Sainte (1420)*, éd. Pierre Herman Dopp, Louvain-Paris, 1958.

- Pisano (Leonardo, dit Fibonacci), *Liber abbaci*, éd. Baldassarre Boncompagni, Rome, 1857. Trad. angl. Laurence Sigler, *Fibonacci's Liber Abaci*, New York, 2002.

- Pistarino (Geo), éd., *Notai genovesi in oltremare. Atti rogati a Tunisi da Pietro Battifoglio (1288-9)*, Gênes, 1986.

- Polonio (Valeria), éd., *Notai genovesi in Oltremare. Atti rogati a Cipro da Lamberto di Sambuceto (3 luglio 1300-3 agosto 1301)*, Gênes, 1982.

- Pongiglione (Vittorio), éd., « Il libro del podestà di Savona dell'anno 1250 », *Atti della Società savonese di storia patria*, 28, 1956, p. 57-233.

- Puncuh (Dino), éd., *Il Cartulario del notaio Martino : Savona, 1203-1206*, Gênes, 1974.

- Quadrado (José María), éd., *Privilegios y franquicias de Mallorca*, Palma de Majorque, 1895-1896, 2 vol.

- Ramis de Ayrelorcy Sureda (José), éd., « Partidas curiosas de los libros de cuenta de la familia Pont », *BSAL*, 21-22, 1926-7, p. 12-13.

- *I Registri della Cancelleria Angioina ricostruiti da Riccardo Filangieri con la collaborazione degli archivisti napoletani*, Naples, 1950 s.

- Ribera (Julián), « Tratado de paz ó tregua entre Fernando I el Bastardo, rey de Nápoles, y Abuámer Otmán, rey de Túnez », *Centenario della Nascita di Michele Amari*, II, Palerme, 1910, p. 373-386.

- Riera Melis (Antoni), « La llicencia per a barques de 1284. Una font important per a l'estudi del comerç exterior mallorqui del darrer quart del segle XIII », *Fontes rerum Balearium*, 3, 1979-1980, p. 121-140.

- Rossi (Franco), éd., *Servodio Peccator, notaio in Venezia e Alessandria d'Egitto (1444-1449)*, Venise, 1983.

- Scovazzi (Marco), éd., « Il viaggio in Italia del monaco islandese Nikolas », *Nuova Rivista storica*, 51, 1967, p. 358-362.

- Simeoni (Luigi), éd., *Vita Mathildis celeberrimae principis Italiae, carmine scripta a Donizone presbytero*, Bologne, 1930-1940 (*Rerum Italicarum Scriptores*², V, parte 2).

- Simonsohn (Shlomo), éd., *The Jews in Sicily*, I, *383-1300*, Leyde-New York-Cologne, 1997.

- Suriano (Francesco), *Treatise on the Holy Land*, trad. angl. Theophilus Bellorini et Eugène Hoade, Jérusalem, 1949.

- Sylvestre de Sacy (Antoine-Isaac), « Mémoire sur le traité fait entre le roi de Tunis et Philippe le Hardi en 1270 », *Histoire et mémoires de l'Institut royal de France. Académie des inscriptions et Belles Lettres*, 9, Paris, 1831, p. 463-471.

- Tellez (Gabriel), *Historia general de la Orden de Nuestra Señora de las Mercedes*, I, *1218-1567*, éd. Manuel Penedo Rey, Madrid, 1973-1977.

- Torre, (Antonio de la), éd., *Documentos sobre relaciones internacionales de los reyes católicos*, Barcelone, 1949-1951, 3 vol.

- Tuetey, éd., « Inventaire des biens de Charlotte de Savoie », *BEC*, 6e série, 1, 1865, p. 338-366.

- Urbani (Rossana) et Zazzu (Guido Nathan), éd., *The Jews in Genoa*, I, *507-1681*, Leyde-Boston-Cologne, 1999.

- Vich i Salom (J.), Muntaner y Bujosa (J.), éd., *Documenta regni Majoricarum. Colección de documentos inéditos para la historia del antiguo reino de Mallorca (1229 a 1349)*, Palma de Majorque, 1945.

- Villani (Giovanni), *Nuova Cronica*, éd. Giuseppe Porta, Parme, 1990-1991, 3 vol.

- Vittu (Jean-Pierre), « Un document sur la Barbarie en 1680 et 1681 : la relation de voyage du sieur Dancour », *CT*, 99-100, 1977, p. 295-319.

- Zeno (Riniero), éd., *Documenti per la storia del diritto marittimo nei secoli XIII e XIV*, Turin, 1936.

- Zurita (Jerónimo), *Anales de la Corona de Aragón*, éd. Angel Canella López, Saragosse, 1967-1973, 4 vol.

جـ أخرى

- Epstein (Isidore), *The Responsa of Rabbi Simon B. Zemah Duran as a Source of the History of the Jews in North Africa*, New York, 1930.

- Goitein (Shelomo D.), éd., *Letters of Medieval Jewish Traders, Translated from the Arabic with Introduction and Notes*, Princeton, 1973.

- *Kitab-ı Bahriye Pīrī Reis*, éd. fac-similé avec translittération du texte ottoman (Vahit Cabuk), adaptation en turc moderne (Vahit Cabuk et Tülây Duran) et trad. angl. (Robert Bragner), Istanbul, 1988, vol. 3.

- Mantran (Robert), « La description des côtes de l'Algérie dans le *Kitab-ı Bahriye* de Pīrī Reis », *ROMM*, 15-16, 1973, p. 159-168.

- Soucek (Svatopluk), « Tunisia in the "*Kitab-i bahriye*" by Piri Reis », *Archivum Ottomanicum*, 5, 1973, p. 129-296.

الدراسات

- Abitbol (Michel), « Juifs maghrébins et commerce transsaharien au Moyen Âge », *Les communautés juives des marges sahariennes du Maghreb*, dir. Michel Abitbol, Jérusalem, 1982, p. 229-251.

—, « Juifs maghrébins et commerce transsaharien du VIIIe au XVe siècle », *Revue française d'histoire d'Outre Mer*, 1979, p. 177-193.

- Abu-Lughod (Janet L.), *Before European Hegemony. The World System AD 1250-1350*, Oxford, 1989.

- Abulafia (David), *A Mediterranean Emporium. The Catalan Kingdom of Majorca*, Cambridge, 1994.

—, « A Tyrrhenian Triangle: Tuscany, Sicily, Tunis, 1276-1300 », *Studi di storia economica toscana nel Medioevo e nel Rinascimento in memoria di Federigo Melis*, Pise, 1987, p. 53-75.

—, *Commerce and Conquest in the Mediterranean, 1100-1500*, Londres, 1993

—, « El comercio y el reino de Mallorca, 1150-1450 », *En las costas del Mediterráneo occidental. Las ciudades de la Península Ibérica y del reino de Mallorca y el comercio mediterráneo en la Edad Media*, dir. David Abulafia, Blanca Garí, Barcelone, 1996, p. 115-154.

—, « Gli inizi del commercio genovese a Maiorca e il patto maiorcino-genovese del 1160 », *Oriente e Occidente tra medioevo ed età moderna. Studi in onore di Geo Pistarino*, dir. Laura Balletto, Gênes, 1997, p. 3-11.

—, « Gli Italiani fuori d'Italia », *Storia dell'economia italiana*, dir. R. Romano, I, Turin, 1990, p. 261-286, rééd. *Commerce and Conquest…*

—, *Italy, Sicily and the Mediterranean, 1100-1400*, Londres, 1987.

—, « Sul commercio del grano siciliano nel tardo medioevo », *La Società mediterranea all'epoca del Vespro. XI Congresso della Corona d'Aragona, Palermo-Trapani-Erice, 25-30 aprile 1982*, II, Palerme, 1983, p. 5-22.

—, « The Norman Kingdom of Africa and the Norman Expeditions to Majorca and the Muslim Mediterranean », *Anglo-Norman Studies*, 8, *Proceeding of the Battle Conference*, *1984*, dir. R. Allen Brown, Woodbridge, 1985, p. 26-49, rééd. *Italy, Sicily…*

—, « The Pisan *Bacini* and the Medieval Mediterranean Economy: A Historian's Viewpoint », *Papers in Italian Archaeology*, 4, 1985, p. 287-302.

—, *The Two Italies: Economic Relations between the Norman Kingdom of Sicily and the Northern Communes*, Cambridge, 1977.

—, *The Western Mediterranean Kingdoms, 1200-1500*, Londres, 1997.

- Achouri (Isabelle), *Les Banu Hilal. Analyse structurale d'un nomadisme séculaire (du* VII*e au* XVII*e siècle)*, thèse de l'Université de Toulouse-Le-Mirail, sous la direction d'Alain Ducellier et Christophe Picard, 1998.

- Agosto (Aldo), « L'Archivio di Stato di Genova e le fonti relative alla storia degli Ebrei genovesi dal xv al XVIII secolo », *Italia Judaica. Gli ebrei in Italia tra Rinascimento ed età barocca. Atti del II convegno internazionale*, *Genova, 10-15 giugno 1984*, Rome, 1986, p. 91-98.

- Aguilar Sebastián (Victoria), « Política de 'Abd al-Mu'min con los Árabes de Ifrīqiya », *Actas del II coloquio hispano-marroqui de ciencias*

históricas. « Historia, ciencia y sociedad », Granada, 6-10 noviembre de 1989, Madrid, 1992, p. 17-30.

- Ahbab (Jamal), *La piraterie en Ifrīqiya aux trois derniers siècles du Moyen Âge (XIII^e-XV^e siècle)*, Mémoire de maîtrise, sous la direction de Françoise Micheau, Université Paris I (Centre de recherches d'histoire et civilisation byzantines et du Proche-Orient médiéval), 1997-1998.

- Airaldi (Gabriella), « Alessandrini sulla via del mare », *Popolo e stato in Italia nell'età di Federico Barbarossa. Alessandria e la lega lombarda. Relazioni e comunicazioni al XXXIII congresso storico subalpino, Alessandria-Genova, ottobre 1968,* Turin, 1970, p. 423-439.

- Airaldi (Gabriella), « Aspetti dell'Espansione mediterranea genovese », *L'Italia ed i paesi mediterranei. Vie di comunicazione, scambi commerciali e culturali al tempo delle repubbliche marittime*, Pise, 1988, p. 35-41.

—, « Da Genova al Maghreb nel Basso Medioevo », *Italia e Algeria, aspetti storici di un'amicizia mediterranea*, dir. Romain H. Rainero, Milan, 1982, p. 69-80.

—, « I "Registri della catena" del Comune di Savona », *Miscellanea di storia savonese*, Gênes, 1978, p. 39-47.

—, « I Genovesi nel mondo islamico, carta sarracenica e carta in arabico », *Critica storica*, 1972, p. 106-121.

- Airaldi (Gabriella), Marcenaro (Giuseppe), *Credito e banca dall'Italia all'Europa, secoli XII-XVIII*, Gênes, 1992.

- Aïsssani (Djamil), « Le Mathématicien Eugène Dewulf (1831-1896) et les manuscrits médiévaux du Maghreb », *Historia Mathematica*, 23, 1996, p. 257-268.

- Aïssani (Djamil) et al., « Les mathématiques à Bougie médiéval et Fibonacci », *Leonardo Fibonacci. Il tempo, le opere, l'eredità scientifica*, dir. Marcello Morelli et Marco Tangheroni, Pise, 1994, p. 67-82.

- Ajello (Anna), La *Croce e la Spada. I Francescani e l'Islam nel Duecento*, Naples, 1999.

- Alcover (Antoni Maria), *Diccionari català-valencià-balear*, Palma de Majorque, 1930-1962.

- *Algérie, notice minéralogique par le service des Mines*, Alger, 1900.

- Amara (Allaoua), *Pouvoir, économie et société dans le Maghreb hammadide (395/1004 - 547/1152)*, Thèse de l'Université Paris 1, sous la direction de Françoise Micheau, Paris, 2002.

—, « La Qal'a des Banī Hammād : l'histoire d'un déclin », *Archéologie Islamique*, 11, 2001, p. 91-110.

- Amara (Allaoua), Nef (Annliese), « Al-Idrīsī et les Ḥammūdides de Sicile : nouvelles données biographiques sur l'auteur du *Livre de Roger* », *Arabica*, 48, 2001, p. 121-127.

- Amat di San Filippo (Pietro), *Indagini e studi sulla storia economica della Sardegna,* Turin, 1902.

- Amin (Samir), *L'échange inégal et la loi de la valeur, la fin d'un débat*, Paris, 1973.

- Amouric (Henri), « Les importations de céramiques dites de Bejaia (Bougie) en Provence et Ligurie (XIII^e^-XVI^e^ siècles). Le témoignage énigmatique des textes », *A Cerâmica medieval no Mediterrâneo ocidental, Lisboa, 16-22 de novembro 1987,* Mértola, 1991, p. 333-337.

- Amouric (Henri), Richez (Florence), Vallauri (Lucy), *Vingt mille pots sous les mers. Le commerce de la céramique en Provence et Languedoc du X^e^ au XIX^e^ siècle,* Aix-en-Provence, 1999.

- Angelo (Francesco d'), « La ceramica nell'archeologia urbana : Palermo nel basso medioevo », *La Céramique médiévale en Méditerranée occidentale. X^e^-XV^e^ siècle. Colloque international de Valbonne, 11-14 septembre 1978,* Paris, 1980, p. 175-182.

- Antoni (Tito), « Leonardo Pisano detto il Fibonacci e lo sviluppo della contabilità mercantile nel duecento », *Leonardo Fibonacci. Il tempo, le opere, l'eredità scientifica*, dir. Marcello Morelli et Marco Tangheroni, Pise, 1994, p. 45-50.

- Aragò (A. M.), « Fletes de géneros prohibidos desde el puerto de Barcelona a la Ligura (1358-1409) », *Atti del I congresso storico Liguria-Catalogna*, Bordighera, 1974, p. 211-219.

- Arbach (Jamal Eddine), *Le domaine maritime en Occident musulman à l'époque almohade (XII^e^-XIII^e^ siècles)*, thèse de l'Université de Toulouse-le-Mirail, sous la direction d'Alain Ducellier et Serge Robert, 1995.

- Arcas Campoy (María), « Valoración actual de la literatura jurídica de al-Andalus », *Actas del II Coloquio Hispano-Marroquí de ciencias históricas, « Historia, ciencia y sociedad »,Granada, 6-10 noviembre de 1989,* Madrid, 1992, p. 31-49.

- Argenti (Philip P.), *The Occupation of Chio by the Genoese and their Administration of the Island, 1346-1566,* Cambridge, 1958, 3 vol.

- Arié (Rachel), « Aperçus sur le royaume nasride de Grenade au XIV^e^ siècle », *Quaderni di studi arabi,* 5-6, 1987-8, p. 58-69.

—, « Les relations entre le royaume nasride de Grenade et le Maghreb de 1340 à 1391 », *Relaciones de la Península ibérica con el Magreb siglos XIII-XVI. Actas del coloquio, Madrid, 1987,* dir. Mercedes García-Arenal et María Jesús Viguera, Madrid, 1988, p. 21-40.

—, « Une métropole hispano-musulmane au bas Moyen Âge : Grenade nasride », *CT*, 137-138, 1986, p. 47-67.

- Arkoun (Mohamed), « Transgresser, déplacer, dépasser », *Arabica*, 43/1, 1996, p. 28-70.

- Aromando (Angelo), « Le rappresaglie a Genova, viste e illustrate attraverso una controversia della fine del Trecento », *Memorie della*

Accademia lunigianese di scienze Giovanni Capellini, Scienze storiche e morali, 42, 1972, p. 17-79.

- Arribas Palau (Mariano), *Musulmanes de Valencia apresados cerca de Ibiza en 1413*, Tétouan, 1955.

- Arroyo (Rafael), « El comercio valenciano de exportación con Italia y Berbería a finales del siglo XIV », *VIII Congreso de historia de la corona de Aragón, Valencia, 1967*, II, Valence, 1973, p. 255-289.

- Artizzu (Francesco), *La Sardegna pisana e genovese*, Sassari, 1985.

- Ashtor (Eliyahu), *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*, Londres, 1976.

—, *East-West Trade in the Medieval Mediterranean*, Londres, 1986.

—, « Gli Ebrei nel commercio mediterraneo nell'alto medioevo (sec. X-XI) », *Gli Ebrei nell'alto medioevo*, Spolète, 1980 (*Settimane di studio del centro italiano di studi sull'alto medioevo*, XXVI), p. 401-464.

—, « Il retroscena economico dell'urto genovese-pisano alla fine del Duecento », *ASLSP*, n. s., 24/2, 1984, p. 51-81.

—, « L'artiglieria veneziana e il commercio di Levante », *Armi e cultura nel Bresciano, 1420-1870*, *Ateneo di Brescia*, 1981, p. 141-154, rééd. *East-West Trade*…

—, « L'exportation des textiles occidentaux dans le Proche-Orient musulman au bas Moyen Âge (1370-1517) », *Studi in memoria di Federigo Melis*, II, Naples, 1978, p. 303-377, rééd. *East-West Trade*…

—, « Les lainages dans l'Orient médiéval. Emploi, production, commerce », *Produzione commercio e consumo dei panni di lane (nei secoli XII-XVIII), Atti della II Settimana di studio di storia economica*, Florence, 1976, p. 657-686, rééd. *Studies in the Levantine Trade…*

—, *Les Métaux précieux et la balance des paiements du Proche-orient à la basse époque*, Paris, 1971.

—, « Observations on Venetian Trade in the Levant on the XIVth Century », *Journal of European Economic History*, 5, 1976, p. 533-586, rééd. *East-West Trade*…

—, « Pagamento in contanti e baratto nel commercio italiano d'Oltremare (secoli XIV-XVI) », *Storia d'Italia. Annali* 6 : *Economia naturale, economia monetaria*, Turin, 1983, p. 363-396, rééd. *East-West Trade*…

—, « Quelques observations d'un orientaliste sur la thèse de Pirenne », *JESHO*, 13, 1970, p. 166-194, rééd. *Studies in the Levantine Trade*…

—, « Républiques urbaines à l'époque des Croisades », *Cahiers de Civilisation médiévale*, 18, 1975, p. 117-131.

—, *Studies in the Levantine Trade in the Middle Ages*, Londres, 1978.

—, « The Volume of Trade in the Later Middle Ages (1370-1498) », *Journal of European Economic History*, 4, 1975, p. 573-612, rééd. *Studies in the Levantine Trade…*

—, « Underdevelopment in the Pre-industrial Era. The Case of Declining Economies », *Journal of European Economic History*, 7, 1978, p. 285-310.

- Ayala Martínez (Carlos de), Buresi (Pascal), Josserand (Philippe), dir., *Identidad y representación de la frontera en la España medieval (siglos XI-XIV)*, Madrid, 2002.

- Ayalon (David), « Regarding Population Estimates in the Countries of Medieval Islam », *JESHO*, 28/1, 1985, p. 1-19.

- Aymard (Maurice), « Le blé de Sicile dans l'économie méditerranéenne au XV[e] siècle », *La Corona d'Aragona e il Mediterraneo : aspetti e problemi comuni da Alfonso il Magnanimo a Ferdinando il Cattolico (1416-1516). IX Congresso di storia della Corona d'Aragona, Napoli, 11-15 aprile 1973*, Naples, 1982, p. 287-289.

—, « Le blé de Sicile, année 1500 », *Studi dedicati a Carmelo Trasselli*, dir. Giovanna Motta, Messine, 1983, p. 77-97.

—, « Production, commerce et consommation des draps de laine du XII[e] au XVII[e] siècle », *RH*, 499, 1971, p. 5-12.

- Bach (Erik), « Études génoises ; le minutier de Lanfranco », *Studi in onore di Armando Sapori*, I, Milan, 1957, p. 375-389.

—, *La Cité de Gênes au XII[e] siècle*, Copenhague, 1955.

- Bacharach (Jere L.), « The Ducat in Fourteenth Century Egypt », *Itinéraires d'Orient. Hommages à Claude Cahen*, Bures-sur-Yvette, 1994 (*Res Orientales*, 6), p. 95-101.

- Baduel (Pierre Robert), « Le front de l'État. Éléments pour une approche comparative autour de la Méditerranée », *ROMM*, 48-9, 1988, p. 127-164.

بعيزق (محمد صالح)، بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية، رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، إشراف منيرة شبوتو – الرمادي، 1995.

—, « L'élite andalouse à Tunis et à Bougie et le pouvoir hafside », *Communautés et pouvoirs en Italie et au Maghreb au Moyen Âge et à l'époque moderne*, actes du séminaire de Rome, 26-27 octobre 2001, dir. A. Nef et D. Valérian, *Mélanges de l'École française de Rome. Moyen Âge*, 115/1, 2003, p. 523-542.

– "محاولة لتقدير عدد سكان بجاية في العهد الحفصي" نشر ضمن أعمال ملتقى:

Actes du V[e] symposium international d'études ottomanes : Les villes arabes, la démographie historique et la mer Rouge à l'époque ottomane. Arab Historical Review for Ottoman Studies, n° 9-10, 1994, p. 73-82.

- Bakchine-Dumont (Simone), « Les Juifs du Touat », *Cahiers du CRA [Centre de Recherche Africaine], Histoire*, 1, 1980, p. 39-45.

- Balard (Michel), « Assurances et commerce maritime à Gênes dans la seconde moitié du XIVe siècle », *Les Transports au Moyen Âge. Actes du VIIe congrès des Historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, Annales de Bretagne et des pays de l'Ouest*, 85/2, 1978, p. 273-282.

—, « Les conditions de la production sucrière en Méditerranée orientale à la fin du Moyen Âge », *La Route du sucre du VIIIe au XVIIIe siècle, Actes du colloque organisé par l'Association Populaire pour l'Éducation Scientifique, Schœlcher, 2000*, s. l. [Martinique], 2001, p. 41-48.

—, « Génois et Pisans en Orient (fin du XIIIe - début du XIVe siècle) », *ASLSP*, n. s., 24/2, 1984, p. 179-209.

--- « Les hommes d'affaires occitentaux ont-ils asphyxié l'économie byzantine ? » ; *Europa mdeievale e mondo bizantino. Contatti effettivi e possibiità di studi comparati* (tavola rotonda del XVIII Congresso del CISH, Montréal, 29 agosto 1995), dir. G. Arnaldi et G. Cavallo, Rome, 1997, p. 255-265.

—, « Le minoranze orientali a Genova (secc. XIII-XV) », *La Storia dei Genovesi*, III, Gênes, 1983, p. 71-90.

—, « Les Génois en Romanie entre 1204 et 1261. Recherches dans les minutiers notariaux génois », *Mélanges d'Archéologie et d'histoire*, 78, 1966, p. 467-502, rééd. *La mer Noire et la Romanie génoise (XIIIe-XVe siècle)*, Londres, 1989.

—, « Les républiques maritimes italiennes et le commerce en Syrie-Palestine (XIe-XIIIe siècle) », *AEM*, 24, 1994, p. 313-348.

—, « Navigations génoises en Orient d'après des livres de bord du XIVe siècle », *Académie des Inscriptions et Belles-Lettres. Comptes rendus des séances de l'année 1988*, Paris, 1988, p. 781-793.

—, « Notes sur le commerce génois en Tunisie au XIIIe siècle », *CT*, 155-156, 1991, p. 369-386.

—, « Remarques sur les esclaves à Gênes dans la seconde moitié du XIIIe siècle », *Mélanges d'archéologie et d'histoire*, 80, 1968, p. 627-280.

—, *La Romanie génoise (XIIe-début du XVe siècle)*, Rome-Gênes, 1978.

- Balard (Michel), Hocquet (Jean-Claude), Hadziiossif (Jacqueline), Bresc (Henri), « Le transport des denrées alimentaires en Méditerranée à la fin du Moyen Âge », *Maritime Food Transport*, dir. Klaus Friedland, Cologne, 1994, p. 91-175.

- Balletto (Laura), « Battista Aicardo di Porto Maurizio, detto Scarincio, corsaro-pirata del secondo Quattrocento », *Corsari, « Turchi » e Barbareschi in Liguria. Atti del I convegno di Studi, Ceriale, 7-8 giugno 1986*, Albenga, 1987, p. 143-170.

—, *Battista de Luco, mercante genovese del secolo XV e il suo cartulario*, Gênes, 1979.

—, « Bougie nei manuali toscani di Mercatura del due-trecento », *Italia e Algeria, aspetti storici di un'amicizia mediterranea*, dir. Romain H. Rainero, Milan, 1982, p. 81-95.

—, « Commerciando con gli infedeli in Siria, in Egitto e in Tunisia (1418-23) », *Genova - Mediterraneo - Mar Nero (secc. XIII-XV)*, Gênes, 1976, p. 33-43.

—, « Da Genova al Maghrib : 1222-1226 », *Archivio storico sardo di Sassari*, 8, 1982, p. 305-316.

—, « Famiglie genovesi nel Nord-Africa », *Dibattito su grandi famiglie del mondo genovese fra Mediterraneo ed Atlantico. Atti del convegno Montoggio, 28 ottobre 1995*, dir. Geo Pistarino, Gênes, 1997, p. 49-71.

—, « Gênes et le Maghreb au XV^e^ siècle », *L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Âge*, dir. Mohammed Hammam, Rabat, 1996, p. 91-106.

—, « I Genovesi a Tunisi sulla fine del duecento », *La Storia dei Genovesi. Atti del convegno di studi sui ceti dirigenti nelle istituzioni della Repubblica di Genova, Genova, 1983*, Gênes, 1987, p. 81-97.

—, « Tra Genovesi e Musulmani nel XIII secolo », *Mésogeios*, 7, 2000, p. 153-183.

- Banti (Ottavio), « I Rapporti tra Pisa e gli stati islamici dell'Africa settentrionale tra l'XI e il XIV secolo », *Le Ceramiche medievali delle chiese di Pisa*, Pise, 1983, p. 9-26, rééd. *Scritti di storia diplomatica ed epigrafia*, Pise, 1995.

—, « I trattati fra Genova e Pisa dopo la Meloria fino alla metà del secolo XIV », *ASLSP*, n. s., 24/2, 1984, p. 349-366, rééd. *Scritti di storia diplomatica ed epigrafia*, Pise, 1995.

- Baratier (Édouard), « Influence de la politique angevine sur le déclin commercial de Marseille, aux XIII^e^ et XIV^e^ siècles », *VI Congreso de historia de la Corona de Aragón, Cagliari-Alghero, 1957*, Madrid, 1959, p. 679-693.

—, « Le commerce de Marseille avec l'Afrique du Nord avant 1599 », *Marseille, Revue municipale*, n° 11, 1951, p. 31-37.

—, « Les relations commerciales entre la Provence et la Ligurie au bas Moyen Âge », *Atti del I Congresso storico Ligura-Provenza*, Bordighera-Aix-en-Provence-Marseille, 1966, p. 147-168.

—, « Production et commerce de la laine en Provence du XIII^e^ au XVI^e^ siècle », *La Lana come materia prima, atti della I settimana di studio di storia economica*, Florence, 1974, p. 301-313.

- Baratier (Édouard), Raynaud (Félix), *Histoire du commerce de Marseille de 1291 à 1480*, Paris, 1951.

- Barcelo i Crespi (Maria), « Niçards a la Mallorca baixmedieval », *AEM*, 24, 1994, p. 67-87.

- Basso (Enrico), « Pirati e pirateria a Genova nel Quattrocento », *La Storia dei Genovesi*, IX, Gênes, 1991, p. 327-351.

- Batlle i Gallart (Carmen), « La alhóndiga, centro de la vida de los Catalanes en el Norte de Africa », *Mediterraneo medievale. Scritti in onore di Francesco Giunta*, I, Soveria Mennelli, 1989, p. 75-88.

—, « La presencia de mercaders catalans al nord d'Africa durant el segle XIII », *Homenatge a la memoria del prof. Emilio Saez*, Barcelone, 1989, p. 99-109.

—, « La vida y las actividades de los mercaderes de Barcelona dedicados al comercio mediterráneo (s. XIII) », *Le Genti del mare Mediterraneo. XVII Colloquio internazionale di storia marittima, Napoli, 28-31 gennaio 1980*, dir. Rosalba Ragosta, Naples, 1981, I, p. 291-339.

—, « Uns mercaders de Barcelona al Nord d'Africa a mitijan segle XIII », *Acta Mediaevalia*, 10, 1989, p. 145-157.

- Batlle i Gallart (Carmen), Casas (Montserrat), « La caritat privada i les institucions benèfiques de Barcelona (segle XIII) », *La Pobreza y la asistencia a los pobres en la Cataluña medieval*, I, Barcelone, 1980, p. 117-190.

- Batlle i Gallart (Carmen), Cuadrada (Coral), « Berenguer de Bonastre, un negociante barcelonés en el Norte de Africa (segunda mitad del siglo XIII) », *Sardegna, Mediterraneo e Atlantico tra medioevo ed età moderna. Studi storici in memoria di Alberto Boscolo*, dir. Luisa Arienzo, II : *Il Mediterraneo*, Rome, 1993, p. 129-150.

- Batlle i Gallart (Carmen), Varela (Elisa), « Las relaciones comerciales de Barcelona con el norte de África (siglo XIII) », *Anales de la Universidad de Alicante*, 7, 1988-89, p. 23-52.

- Bautier (Anne-Marie), « Contribution à un vocabulaire économique du midi », *Archivium latinitanis medii aevi, Bulletin Du Cange*, 25, 1955, fasc. 1, p. 5-28 ; 26, 1956, fasc. 1-2, p. 5-74 ; 27, 1957, fasc. 3, p. 241-286 ; 28, 1958, fasc. 2-3, p. 119-160 ; 29, 1959, fasc. 2-3, p. 173-217 ; 30, 1960, fasc. 2-3, p. 177-232.

- Bautier (Robert-Henri), « Les grands problèmes politiques et économiques de la Méditerranée médiévale », *RH*, 234/1, 1965, p. 1-28, rééd. *Commerce méditerranéen et banquiers italiens au Moyen Âge*, Londres, 1992.

—, « Les Marchands et banquiers de Plaisance dans l'économie internationale du XII^e^ au XV^e^ siècle », *Il « Registrum magnum » del Comune di Piacenza : Atti del Convegno Internazionale di studio, Piacenza, 1985*, Plaisance, 1987, p. 182-237, rééd. *Commerce méditerranéen…*

—, « Les relations commerciales entre l'Europe et l'Afrique du Nord et l'équilibre économique méditerranéen du XII^e^ au XIV^e^ siècle », *Bulletin philologique et historique du Comité des travaux scientifiques et historiques*, 1955, p. 399-416, rééd. *Commerce méditerranéen…*

- Bazzana (André), Guichard (Pierre), Sénac (Philippe), « La frontière dans l'Espagne médiévale », *Frontière et peuplement dans le monde méditerranéen au Moyen Âge. Actes du colloque d'Erice-Trapani, 18-25 septembre 1988*, dir. Jean-Michel Poisson, Rome-Madrid (*Castrum*, 4), 1992, p. 35-59.

- Bel (Alfred), *Les Benou Ghânya, derniers représentants de l'Empire almoravides et leur lutte contre l'Empire almohade*, Paris, 1903.

- Belhamissi (Moulay), « Le rôle de Bidjaia dans la Méditerranée aux époques hammadite, almohade et hafside », *Actes intégraux du 8e séminaire sur la pensée islamique, Bidjaia, 25 mars – 5 avril 1974*, II, s. l., s. d., p. 67-79.

- Belkhodja (Mohamed Habib), « Al-Hiğra al-Andalusiyya ilā Ifrīqiya fī l-qarn 7/13 » (L'émigration andalouse en Ifrīqiya au VIIe/XIIIe siècle), *CT*, 69-70, 1970, p. 129-137.

- Ben Cheneb (M.), « La Farisiyya ou les débuts de la dynastie hafisde par Ibn Qunfudh de Constantine », *Hespéris*, 8, 1928, p. 37-41.

- Ben Hsain Masmoudi (Rajae), *Approche quantitative de l'or monnayé en Occident musulman (450/1058-9 - 830/1426-7)*, thèse de l'université Paris 1, sous la direction de Jean Devisse, 1994.

- Ben Romdhane (Khaled), « Considérations sur le mithqâl maghrébin », *Africa*, 9, 1985, p. 251-257.

—, *Les Monnaies almohades. Aspects idéologiques et économiques*, thèse de troisième cycle, sous la direction de Jean Devisse, Université Paris VII, 1979.

—, « Supplément au catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque nationale : les dīnārs Ḥafsīdes », *Revue Numismatique*, série VI, 26, 1984, p. 218-223.

- Benchelabi (Safia), *Étude archéologique de Bidjâya*, mémoire de maîtrise, sous la direction d'Alastair Northedge, Université Paris 1, 2004.

- Bennassar (Lucile et Bartolomé), *Les Chrétiens d'Allah. L'histoire extraordinaire des renégats, XVIe-XVIIe siècles*, Paris, 1989.

- Benremdane (Ahmed), « Al-ğihād y la cautividad en los dictámenes jurídicos o fatuas de los alfaquíes musulmanes y de Al-Wanšarīsī, en particular : el caso de los musulmanes y de los cristianos de Al-Andalus », *La Liberazione dei 'cativi' tra cristianità e islam. Oltre la crociata e il ğihād : tolleranza e servizio umanitario. Atti del Congresso interdisciplinare di studi storici (Roma, 16-19 settembre 1998)*, dir. Giulio Cipollone, Cité du Vatican, 2000, p. 447-455.

- Bensa (Enrico), *Il Contratto di assicurazione nel medio evo*, Gênes, 1884.

- Bensaci (Mekkia), « Familles et individualités pisanes en relation avec le Maghreb », *CT*, 113-114, p. 57-75.

—, *Pise et le Maghrib au Moyen Âge*, thèse de troisième cycle, sous la direction de Charles-Emmanuel Dufourcq, Université Paris X, 1979.

- Bensch (Stephen P.), *Barcelona and its Rulers, 1096-1291*, Cambridge, 1995.

- Bercher (L.), « Le Palais d'al Mansur à Bougie », *RT*, 29, 1922, p. 50-54.

- Bergier (Jean-François), « Lucques et l'Europe : fidélité à quel destin ? », *Lucca e l'Europa degli affari (secoli XV-XVII)*, Lucques, 1990, p. 17-27.

- Bernard (Augustin), *Géographie universelle*, dir. Paul Vidal de la Blache et Louis Gallois, XI, *Afrique septentrionale et occidentale*, 1re partie, *Généralités et Afrique du Nord*, Paris, 1937.

- Berne (Albert), *Consuls sur mer et d'outre-mer de Montpellier au Moyen Âge (XIIIe-XIVe siècle)*, Carcassonne, 1904.

- Berque (Jacques), « Les capitales de l'islam maghrébin vues par Ibn Khaldoun et les deux Maqqari », *Annales islamologiques*, 8, 1969, p. 71-97.

—, « Les Hilaliens repentis, ou l'Algérie rurale au XVe siècle », *Annales ESC*, 25/5, 1970, p. 1325-1353.

—, « Ibn Khaldoun et les Bédouins », *Maghreb, histoire et sociétés*, Alger, 1974, p. 22-34 (titre original « Problèmes de la connaissance au temps d'Ibn Khaldoun », *Contribution à la sociologie de la connaissance*, Paris, 1967).

—, *L'intérieur du Maghreb, XVe-XIXe siècle*, Paris, 1978.

—, « Qu'est-ce qu'une tribu nord-africaine ? », *Éventail de l'histoire vivante. Mélanges Lucien Febvre*, Paris, 1954, rééd. *Maghreb, histoire et société…*, p. 22-34.

- Berthier (André), « Les écoles de langues orientales fondées au XIIIe siècle par les Dominicains en Espagne et en Afrique », *RA*, 73, 1932, p. 84-103.

- Berti (Graziella), « Pisa città mediterranea. La testimonianza delle ceramiche importate ed esportate », *Pisa e il Mediterraneo. Uomini, merci, idee dagli Etruschi ai Medici*, dir. Marco Tangheroni, Milan, 2003, p. 169-173.

- Berti (Graziella), Tongiorgi (Liana), *I Bacini ceramici medievali delle chiese di Pisa*, Rome, 1981.

—, *Ceramica pisana, secoli XIII-XV*, Pise, 1977.

—, « Ceramiche decorate (XI-XIV sec.) di importazione da vari centri del Mediterraneo e di produzione locale sulla base della documentazione in Toscana », *La Céramique médiévale en Méditerranée occidentale. Xe-XVe siècle. Colloque international de Valbonne, 11-14 septembre 1978*, Paris, 1980, p. 83-91.

- Berti (Marcello), « Commende e redditività di commende nella Pisa della prima metà del Trecento », *Studi in memoria di Federigo Melis*, II, Naples, 1978, p. 53-145.

—, *Commercio all'ingrosso e al minuto dei panni di lana a Pisa nei primi decenni della dominazione fiorentina*, Pise, 1980.

- Beylié (Léon Marie Eugène de), *La Kalaa des Beni-Hammad. Une capitale berbère de l'Afrique du Nord au XI^e siècle*, Paris, 1909.

- Bianquis (Thierry), « Les frontières de la Syrie au XI^e siècle », *Frontière et peuplement dans le monde méditerranéen au Moyen Âge. Actes du colloque d'Erice-Trapani, 18-25 septembre 1988,* dir. Jean-Michel Poisson, Rome et Madrid, 1992 (*Castrum*, 4), p. 135-150.

- بجاية عبر العصور، الأصالة، 19، 1974.

- Billiard (L.), Vergnieau (F.), Balensi (E.), *Les Ports et la navigation de l'Algérie*, Paris, 1930.

- Biraben (Jean-Noël), *Les Hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranéens*, Paris, 1975, 2 vol.

—, « Essai sur l'évolution du nombre des hommes », *Population*, 34/1, 1979, p. 13-24.

- Birebent (Jean), « Explorations souterraines en Algérie », *Annales de Spéléologie*, 8, fasc. 1.

- Blake (H.), « The *Bacini* of North Italy », *La Céramique médiévale en Méditerranée occidentale. X^e-XV^e siècle. Colloque international de Valbonne, 11-14 septembre 1978*, Paris, 1980, p. 93-111.

- Blancard (Louis), « Du consul de mer et du consul sur mer », *BEC*, 4^e série, 3, 1857, p. 427-438.

—, *Le Millarès, étude sur une monnaie imitée de l'arabe par les chrétiens pour les besoins de leur commerce en pays maure*, Marseille, 1876.

- Bloch (Marc), « Le problème de l'or au Moyen-Âge », *Annales d'histoire économique et sociale*, 6, 1933, p. 1-34.

- Blomquist (Thomas W), « The Drapers of Lucca and the Marketing of Cloth in the Mid-thirteenth Century », *Economy, Society, Government in Medieval Italy. Essays in Memory of Robert L. Reynolds. Exploration in Economic History*, 7, 1969-1970, p. 65-73.

- Boissonnade (P.), « Relations commerciales de la France méridionale avec l'Afrique du Nord ou Maghreb du XII^e au XV^e siècle, étude d'histoire économique », *Bulletin de la société de géographie*, 1929, p. 1-37.

- Borlandi (Franco), « "Futainiers" et futaines dans l'Italie du Moyen Âge », *Hommage à Lucien Febvre,* II, Paris, 1953, p. 133-140.

- Borràs i Feliu (Antoni), « L'ajuda als pobres en els testaments de Catalunya i Valencia del segle XV », *La Pobreza y la asistencia a los pobres en la Cataluña medieval*, I, Barcelone, 1980, p. 363-371.

- Borrut (Antoine), Picard (Christophe), « Râbata, ribât, râbita : une institution à reconsidérer », *Chrétiens et musulmans en Méditerranée médiévale (VIII^e-XIII^e siècle). Échanges et contacts,* dir. Nicolas Prouteau, Philippe Sénac, Poitiers, 2003, p. 33-65.

- Borsari (Silvano), « Il commercio veneziano nell'imperio bizantino nel XII sec. », *RSI*, 76, 1964, p. 982-1011.

- Bosch Vila (Jacinto), « Algunas consideraciones sobre 'taġr en al-Andalus' y la división político-administrativa de la España musulmana », *Études d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal*, I, Paris, 1962, p. 23-33.

- Boscolo (Alberto), « Aspetti dell'economia della Sardegna dal periodo della supremazia pisana-genovese al primo periodo della dominazione aragonese », *Sardegna, Pisa e Genova nel Medioevo*, Gênes, 1978, p. 139-153.

—, « Problemi mediterranei dell'epoca di Pietro il Ceremonioso. 1353-1387 », *VIII Congreso de Historia de la Corona de Aragón*, t. II, vol. 3, Valence, 1973, p. 65-99.

- Boswell (John), *The Royal Treasure: Muslim Communities under the Crown of Aragon in the 14th Century*, New Haven et Londres, 1977.

- Botet y Sisó (Joaquím), « Nota sobre la encunyacio de monedes arabigues per il rey Don Jaime », *I Congreso de historia de la Corona de Aragón, Jaime I y su época*, II, Barcelone, 1913, p. 944-963.

- Boüard (Michel de), « Problèmes de subsistance dans un État médiéval : le marché et les prix des céréales au royaume angevin de Sicile (1266-82) », *Annales d'histoire économique et sociale*, 10, 1938, p. 483-501.

- Boubaker (Sadok), « La perception de la Méditerranée en Tunisie », *La Méditerranée tunisienne*, Paris, 2000, p. 17-42.

- Boukhzer (Hachemi), *Le grand projet de transformation de la ville algérienne, 1830-1870 : le cas de la ville de Bejaia, ex-Bougie*, thèse de l'EHESS, sous la direction de Marcel Roncayolo, 1998.

- Bourouiba (Rachid), *Les H'ammadites*, Alger, 1984.

—, *La Qal'a des Banī Hammâd*, Alger, 1975.

—, « Sur six dinars almohades trouvés à la Kalaa des Banu-Hammad », *Bulletin d'archéologie algérienne*, 2, 1966-1967, p. 271-291.

—, « La vie économique et les arts à Bidjaia la Hammadide », *Actes intégraux du 8e séminaire sur la pensée islamique, Bidjaia, 25 mars - 5 avril 1974*, II, s. l., s. d., p. 7-15.

- Bouzid (Aleya), *Catalogue des tribus berbères « Butr » au Maghreb d'après les sources arabes médiévales*, Diplôme de recherches approfondies, sous la direction de M. Chapoutot-Remadi, Tunis, 1991-1992.

- Braudel (Fernand), *Civilisation matérielle, économie et capitalisme, XVe-XVIIIe siècle*, Paris, 1979, 3 vol.

—, « Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577 », *RA*, 69, 1928, p. 184-233, 351-428, rééd. (sans une partie de l'apparat critique), *Les Écrits de Fernand Braudel. Autour de la Méditerranée*, Paris, 1996, p. 31-89.

—, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Paris, 1[re] édition, Paris, 1949, 4[e] éd. corrigée, Paris, 1979, 2 vol.

—, « Monnaies et civilisation : de l'or du Soudan à l'argent d'Amérique. Un drame méditerranéen », *Annales ESC*, 1, 1946, p. 9-22.

- Brémond (Général de), *Berbères et Arabes. La Berbérie est un pays européen*, Paris, 1950.

- Bresc (Henri), *Arabes de langue, juifs de religion. L'évolution du judaïsme sicilien dans l'environnement latin, XII[e]-XV[e] siècles*, Paris, 2001.

—, « Course et piraterie en Sicile (1250-1450) », *AEM*, 10, 1980, p. 751-765.

—, « Pantelleria entre l'Islam et la chrétienté », *CT*, 71-72, 1971, p. 105-127.

—, *Un monde méditerranéen ; économie et société en Sicile, 1300-1450*, Rome, 1986.

- Bresc (Henri), Eddé (Anne-Marie), Guichard (Pierre), « Les autonomismes urbains des cités islamiques », *Les Origines des libertés urbaines. Actes du XVI[e] Congrès des Historiens médiévistes de l'enseignement supérieur, Rouen, 7-8 juin 1985*, Rouen, 1990, p. 97-119.

- Brett (Michael), « The City-state in Mediaeval Ifrīqiya. The Case of Tripoli », *CT*, 137-138, 1986, p. 69-94.

—, « Ifrīqiya as a Market for Saharan Trade from the Tenth to the Twelfth Century A.D. », *Journal of African History*, 10/3, 1969, p. 347-364.

- Brodman (James W.), « Municipal Ransoming Law on the Medieval Spanish Frontier », *Speculum*, 60/2, 1985, p. 318-330.

—, *Ransoming Captives in Crusader Spain. The Order of Merced on the Christian-islamic Frontier*, Philadelphie, 1986.

- Bruno (Agostino), « Antico commercio e navigazione dei Savonesi nel Mediterraneo e nel Levante », *Bollettino della società Storica Savonese*, 1, 1898, p. 110-125.

- Brunschvig (Robert), *La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines au XV[e] siècle*, Paris, 1940-1947, 2 vol.

—, « Capitalisme et islam traditionnel », (conférence inédite, 1960), *Études sur l'Islam classique et l'Afrique du Nord*, Londres, 1986, p. 1-8.

—, « Esquisse d'histoire monétaire almohado-hafside », *Mélanges William Marçais*, Paris, 1950, p. 63-94.

—, « Ibn aš-Šammā', historien ḥafside », *AIEO*, 1934-1935, p. 193-212.

—, « Le problème de la décadence », *Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam. Actes du symposium international d'histoire et de civilisation musulmane, Bordeaux, 25-29 juin 1956*, dir. Robert Brunschvig et Gustav E. von Grünebaum, Paris, 1977, p. 29-51.

—, « Mesures de capacité de la Tunisie médiévale », *RA*, 77, 1935, p. 86-96.

—, « Métiers vils en Islam », *Studia islamica*, 16, 1962, p. 41-60.

—, « Note sur un traité conclu entre Tunis et l'empereur Frédéric II », *RT*, n. s., 9, 1932, p. 153-160.

—, « Quelques remarques sur les médersas de Tunisie », *RT*, n. s., 6, 1931, p. 261-285, rééd. *Études sur l'Islam classique et l'Afrique du Nord*, Londres, 1986.

—, « Un dinar ḥafside inédit », *Bulletin de la société historique et géographique de Sétif*, 2, 1941, p. 179-182.

- Bulst (Neithard), « L'essor (Xe-XIVe siècle) », *Histoire des populations de l'Europe*, dir. Jacques Dupâquier et Jean-Pierre Bardet, I, Paris, 1997, p. 168-184.

- Buresi (Pascal), « Nommer, penser les frontières en Espagne aux XIe-XIIIe siècles », *Identidad y representación de la frontera en la España medieval (siglos XI-XIV)*, dir. Carlos de Ayala Martínez, Pascal Buresi, Philippe Josserand, Madrid, 2002, p. 51-74.

- Burns (Robert Ignatius), *Muslims, Christians and Jews in the Crusader Kingdom of Valencia*, Cambridge, 1984, trad catalane, *Moros, cristians i jueus en el regne croat de Valencia*, Valence, 1987.

—, « Les mudéjars du royaume de Valence au temps des Croisades : une majorité traitée en minorité dans un royaume du Moyen Âge », *Minorités et marginaux en Espagne et dans le Midi de la France (VIIe-XVIIIe siècle)*, Paris, 1986, p. 95-118.

—, « Piracy as an Islamic-Christian Interface in the Thirteenth Century », *Viator*, 11, 1980, p. 165-178.

- Bousquet (Georges-Henri), « Dans quelle mesure l'enseignement dogmatique a-t-il pu entraver l'évolution des institutions économiques et sociales de l'Islam ? », *Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam. Actes du symposium international d'histoire et de civilisation musulmane, Bordeaux, 25-29 juin 1956*, dir. Robert Brunschvig et Gustav E. von Grünebaum, Paris, 1977, p. 185-193.

- Byrne (Eugene H.), « Easterners in Genoa », *Journal of the American Oriental Society*, 38/1, 1918, p. 176-187.

—, *Genoese Shipping in the Twelfth and Thirteenth Centuries*, Cambridge (Mass.), 1930.

—, « Genoese Trade with Syria in the Twelfth Century », *American Historical Review*, 25/2, 1920, p. 191-219.

- Cabestany y Fort (Joan F.), « "Consol de Mar" y "Consols d'Ultramar" en Cataluña (siglos XIII-XIV) », *Le Genti del mare Mediterraneo. XVII Colloquio internazionale di storia marittima, Napoli, 28-31 gennaio 1980*, dir. Rosalba Ragosta, Naples, 1981, I, p. 397-426.

- Cahen (Abraham), « Les Juifs dans l'Afrique septentrionale », *Recueil de la Société archéologique de Constantine*, 11, 1867, p. 102-208.

- Cahen (Claude), « L’alun avant Phocée », *Revue d’histoire économique et sociale*, 41, 1963, p. 433-447, rééd. *Turcobyzantina et Oriens Christianus*, Londres, 1974.

—, « Amalfi en Orient à la veille, au moment et au lendemain de la première croisade », *Amalfi nel Medioevo : convegno internazionale, 14-16 giugno 1973*, Salerne, 1977, p. 269-283.

—, « À propos des *shuhūd* », *Studia Islamica*, 31, 1970, p. 71-79, rééd. *Les peuples musulmans…*, p. 161-168.

—, « Considérations sur l’utilisation des ouvrages de droit musulman par l’historien », *Atti del III congresso di studi arabi e islamici, Ravello, 1966*, Naples, 1967, p. 239-247.

—, « Douanes et commerce dans les ports méditerranéens de l’Égypte médiévale », *JESHO*, 7, 1964, p. 217-314, rééd. *Makhzūmiyyāt. Études sur l’histoire économique et financière de l’Égypte médiévale*, Leyde, 1967.

—, « L’évolution de l’*iqṭāʻ* du IXe au XIIIe siècle. Contribution à une histoire comparée des sociétés médiévales », *Annales ESC*, 8/1, 1953, p. 25-52, rééd. *Les peuples musulmans*, p. 231-269.

—, « Les finances urbaines dans le Moyen Âge musulman », *Ve Congrès international d’arabisants et islamisants, Bruxelles, 31 août - 6 septembre 1970, Correspondance d’Orient*, 11, 1971, p. 145-150.

—, « L’histoire économique de l’Orient musulman médiéval », *Studia islamica*, 3, 1955, p. 93-115, rééd. *Les peuples musulmans…*, p. 209-229.

—, *Introduction à l’histoire du monde musulman médiéval VIIe-XVe siècle. Méthodologie et éléments de bibliographie*, Paris, 1982.

—, « Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l’Asie du Moyen Âge », *Arabica*, 5, 1958, p. 225-250 ; 6, 1959, p. 25-56, 233-265.

—, « Nomades et sédentaires dans le monde musulman du milieu du Moyen Âge », *Islamic Civilization*, dir. D. S. Richards, 1973, rééd. *Les peuples musulmans…*, p. 423-437.

—, *Orient et Occident au temps des Croisades*, Paris, 1983.

—, *Les peuples musulmans dans l’histoire médiévale*, Damas, 1977.

—, « Ports et chantiers navals dans le monde méditerranéen musulman jusqu’aux croisades », *La Navigazione mediterranea nell’alto medioevo*, Spolète, 1978 (*Settimane di Studio del Centro italiano di studi sull’alto medioevo*, XXV), I, p. 299-319.

—, « Quelques mots sur le déclin commercial du monde musulman à la fin du Moyen Âge », *Studies in the Economic History of the Middle East*, dir. M. A. Cook, Londres, 1967, p. 31-36, rééd. *Les Peuples musulmans…*, p. 359-366.

—, « Quelques mots sur les hilaliens et le nomadisme », *JESHO*, 11, 1968, p. 130-133.

—, « Quelques problèmes concernant l’expansion économique musulmane au haut Moyen-Âge », *L’Occidente e l’Islam nell’alto Medio*

Evo, Spolète, 1965 (*Settimane di studio del Centro Italiano di Studi sull'Alto Medio Evo*, XII), I, p. 391-432, rééd. *Les Peuples musulmans…*, p. 322-357.

—, « Un traité d'armurerie composé pour Saladin », *Bulletin d'Études Orientales*, 19, 1942-1948, p. 103-163.

- Calero Secall (María Isabel), « Málaga : un puerto en una ciudad », *Al-Andalus y el Mediterráneo*, Barcelone-Madrid, 1995, p. 115-122.

- Calvini (Nilo), *Nuovo glossario medievale ligure*, Gênes, 1984.

- Cambuzat (Paul-Louis), *L'Évolution des cités du Tell en Ifrīqiya du VII^e au XI^e siècle*, Alger, 1986, 2 vol.

- Canale (Michele Giuseppe), *Nuova Istoria della Repubblica di Genova, del suo commercio e della sua letteratura dalle origini all'anno 1797*, II et III, Florence, 1860, 2 vol.

- Cardon (Dominique), *La Draperie au Moyen Âge. Essor d'une grande industrie européenne*, Paris, 1996.

- Cariñena Balaguer (Rafael), « Los llibres d'aramament : una fuente fundamental para el estudio del comercio valenciano en el Mediterráneo a lo largo del siglo XV (1406-1530) », *Congreso de Jóvenes historiadores y geógrafos, Madrid, 1980*, Madrid, 1990, p. 713-732.

- Carrère (Claude), « Aspects de la production et du commerce de la laine en Aragon au milieu du XV^e siècle », *La Lana come materia prima, atti della I settimana di studio di storia economica*, dir. Marco Spallanzani, Florence, 1974, p. 205-219.

—, *Barcelone au temps des difficultés, 1380-1462*, Paris, 1967.

—, « Le droit d'ancrage et le mouvement du port de Barcelone au milieu du XV^e siècle », *Estudios de historia moderna*, 3, 1953, p. 67-156.

—, « Marseille, Aigues-Mortes, Barcelone et la compétition en Méditerranée occidentale au XIII^e siècle », *AEM*, 10, 1980, p. 161-172.

- Carus Wilson (Eleanora), « The Woollen Industry », *The Cambridge Economic History*, dir. M. Postan et E. E. Rich, Cambridge, 1952, II, p. 355-428.

- Casaretto (Pier Francesco), *La moneta genovese in confronto con le altre valute mediterranee nei secoli XII e XIII*, *ASLSP*, 55, 1928.

- Castagneto (Pierluigi), *L'Arte della Lana a Pisa nel Duecento e nei primi decenni del Trecento. Commercio, industria e istituzioni*, Pise, 1996.

- Ceccarelli Lemut (Maria-Luisa), « L'uso della moneta nei documenti pisani dei sec. XI e XII », *Studi sugli strumenti di scambio a Pisa nel Medioevo*, Pise, 1979, p. 47-127.

- Cerisola (Nello), *Storia del porto di Savona*, Savone, 1968.

- Cerone (Francesco), « Alfonso il Magnanimo ed Abu 'Omar Othmân, Trattative e negoziati tra il Regno di Sicilia di qua e di là dal Faro ed il Regno di Tunisi (1432-1457) », *Archivio storico per la Sicilia Orientale*, 9, 1912, p. 45-70 ; 10, 1913, p. 22-78.

- Cessi (Roberto), « Le relazioni commerciali tra Venezia e le Fiandre nel sec. XIV », *Politica ed economia di Venezia nel Trecento*, Rome, 1952, p. 71-172.

—, *Venezia nel Duecento : tra Oriente e Occidente*, Venise, 1985.

- Chalal (Djameleddine), Roubache (Abdelkrim), *Bougie. Une modification pour atteindre l'habiter*, Mémoire de fin d'études en vue de l'obtention du diplôme d'architecte d'État, École polytechnique d'architecture et d'urbanisme d'Alger, Alger, 1998-1999.

- Chapoutot-Remadi (Mounira), « Fronte sahariano e fronte mediterraneo », *Hinterland*, 3e année, n° 15-16, 1980, p. 10-21.

—, « Les Charfi et la cartographie », *Itinéraires du savoir en Tunisie*, dir. Hassen Annabi, Mounira Chapoutot-Remadi et Samia Kamarti, Tunis-Paris, 1995, p. 84-95.

—, « Les relations entre l'Égypte et l'Ifrīqiya aux XIIIe et XIVe siècle d'après les auteurs mamlûks », *Actes du premier congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb*, I, *Cahiers du CERES*, *Série histoire*, 1, Tunis, 1979, p. 139-159.

—, « Réflexions sur l'industrie textile dans le monde musulman au Moyen Âge. À propos d'un livre récent », *Annales*, *ESC*, 35/3-4, 1980, p. 504-511.

—, « Tunis », *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, dir. Jean-Claude Garcin, Rome, 2000, p. 235-262.

- Cheddadi (Abdeslam), « Les Musulmans et la Méditerranée », *Qantara*, 1992, rééd. *Ibn Khaldoun revisité*, Casablanca, 1999, p. 69-74.

- Chérif (Mohamed), *Ceuta à l'époque almohade et mérinide*, 1996.

- Cherubini (Giovanni), « I prodotti della terra : olio e vino », *Terra e uomini nel Mezzogiorno normanno-svevo, Atti delle settime giornate normanno-sveve, Bari, 15-17 ottobre 1985*, dir. Giosuè Musca, Bari, 1987, p. 187-234.

- Chiappa Mauri (Maria Luisa), « Il commercio occidentale di Genova nel XIV secolo », *Nuova Rivista storica*, 57, 1973, p. 571-612.

- Chiaudano (Mario), « Breve Curiae Maris pisanae civitatis », *Novissimo digesto italiano*, 2, Turin, 1974, p. 575.

—, « La moneta di Genova nel secolo XII », *Studi in onore di Armando Sapori*, I, Milan, 1957, p. 187-214.

—, « Mercanti genovesi del secolo XII », *Ricerche storiche ed economiche in memoria di Corrado Barbagallo*, dir. Luigi di Rosa, II, Naples, 1970, p. 123-146.

- Chiauzzi (Gioia), « Le substrat autochtone au Maghreb », *Maghreb Médiéval. L'apogée de la civilisation islamique dans l'Occident arabe*, Aix-en-Provence, 1991, p. 13-53.

- Cipolla (Carlo Maria), *Money, Prices and Civilization in the Mediterranean World*, Princeton, 1956.

—, « Studi di storia della moneta. I, Movimenti dei cambi in Italia dal secolo XIII al XV », *Studi nelle scienze giuridiche e sociali*, 29, 1948, p. 31-239.

- Cipollone (Giulio), *Cristianità-Islam : cattività e liberazione in nome di Dio : il tempo di Innocenzo III dopo « il 1187 »*, Rome, 1992.

—, « L'ordre de la Sainte Trinité et de la rédemption des captifs (1198). Les Trinitaires dans le Midi », *Islam et chrétiens du Midi (XII*e*-XIV*e *s.)*, Toulouse, 1983 (*Cahiers de Fanjeaux*, 18), p. 135-156.

—, « La redenzione e la liberazione dei cativi. Lettura cristiana e modello di redenzione e liberazione secondo la regola dei Trinitari », *La Liberazione dei 'cativi' tra cristianità e islam. Oltre la crociata e il ǧihād : tolleranza e servizio umanitario. Atti del Congresso interdisciplinare di studi storici (Roma, 16-19 settembre 1998)*, dir. Giulio Cipollone, Cité du Vatican, 2000, p. 345-384.

- Cissoko (Sékéné Mody), « Les Songhay du XIIe au XVIe siècle », *L'Histoire générale de l'Afrique*, IV, *L'Afrique du XII*e *au XVI*e *siècle*, dir. Djibril Tamsir Niane, Paris, 1985, p. 213-235.

- Citarella (Armand O.), « Il declino del commercio marittimo di Amalfi », *Archivio storico per le province napoletane*, s. III, 13, 1975, p. 9-54.

—, « The Relations of Amalfi with the Arab World before the Crusades », *Speculum*, 42, 1967, p. 299-312.

- Cohen (H. J.), « The Economic Background and Secular Occupation of Muslim Jurisprudents and Traditionists in the Classical Period of Islam », *JESHO*, 13, 1970, p. 26-31.

- Coll Julià (Nuria), « Aspectos del corso catalán y del comercio internacional en el siglo XV », *Estudios de historia moderna*, 4, 1954, p. 159-186.

—, « Documentación notarial relativa a los pobres en la Cataluña del siglo XV », *La Pobreza y la asistencia à los pobres en la Cataluña medieval*, II, Barcelone, 1982, p. 287-311.

- Collier (Raymond), Billiou (Joseph), *Histoire du commerce de Marseille*, III, *1480-1599*, Paris, 1951.

- Combes (Jean), *Montpellier et le Languedoc au Moyen Âge*, Montpellier, 1990.

—, « Quelques remarques sur les bourgeois de Montpellier au Moyen Âge », *Recueil de mémoires et travaux de la société d'histoire du droit et des institutions des anciens pays de droit écrit*, 7, 1970, p. 93-132.

- Combes (Jean), Sayous (André-É.), « Les commerçants de Montpellier aux XIIIe-XIVe siècles », *RH*, 188-189, 1940, p. 341-377.

- Comolli (Isabelle), *Histoire de la ville de Bougie du VI*e *siècle av. J. C. au XII*e *siècle*, Montpellier, 1987.

- Concina (Ennio), *Fondaci. Architettura, arte e mercatura tra Levante, Venezia e Alemagna*, Venise, 1997.

- Conio (Antoni), « Rescat d'un captiu en Riba barbaresca », *Tres vielh procès marsilhes*, Carcassonne, 1933, p. 12-16.

- Constable (Olivia Remie), « Funduq, Fondaco, and Khan in the Wake of Christian Commerce and Crusade », *The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World*, dir. A. E. Laiou et R. P. Mottahedeh, Washington, 2001, p. 145-156.

—, *Housing the Stranger in the Mediterranean World. Lodging, Trade, and Travel in Late Antiquity and the Middle Ages*, Cambridge, 2003.

—, « Muslim Merchants in Andalus International Trade », *The Legacy of Muslim Spain*, dir. S. Kh. Jayyusi, Leyde, 1992, p. 759-773.

—, *Trade and Traders in Muslim Spain. The Commercial Realignment of the Iberian Peninsula, 900-1500*, Cambridge, 1994.

- Cortelazzio (Manlio), « Arabismi di Pisa e Arabismi di Venezia », *Lingua nostra*, 18, 1957, p. 95-97, rééd. *Venezia, il Levante e il mare*, Pise, 1989, p. 447-449.

- Costa (Maria-Mercè), « La pau del 1428 i els mercaders genovesos de la Corona d'Aragó », *AEM*, 10, 1980, p. 556-576.

- Coulon (Damien), *Barcelone et le grand commerce d'Orient au Moyen Âge. Un siècle de relations avec l'Égypte et la Syrie-Palestine (ca. 1330 – ca. 1430)*, Madrid-Barcelone, 2004.

—, « L'expansion occidentale vers le Levant à la fin du Moyen Âge. La mise en place de structures de domination commerciale », *L'expansion occidentale (XI^e^-XV^e^ siècles). Formes et conséquences. XXXIII^e^ Congrès de la SHMES (Madrid, Casa de Velázquez, 23-26 mai 2002)*, Paris, 2003, p. 159-175.

- Cresti (Federico), « Algeri nel XVII secolo : documenti iconografici e fonte letterarie. II, 1635-1700 », *Studi Maghrebini*, 17, 1985, p. 3-56.

- Cristiani (Emilio), *Nobiltà e popolo nel comune di Pisa*, Naples, 1962.

- Cruselles Gómez (Enrique), « La organización del transporte marítimo en la Valencia de la primera mitad del siglo XV », *AEM*, 24, 1994, p. 155-177.

- Cuadrada (Coral), Orlandi (Angela), « Ports, tràfics, vaixells, productes : Italians i Catalans a la Mediterrània baixmedieval », AEM, 24, 1994, p. 3-48.

- Dahmani (Saïd), « Essai d'établissement d'une carte des voies de circulation dans l'est du Maghrib central du IX^e^ au XII^e^ siècle », *Histoire et archéologie de l'Afrique du Nord. Actes du III^e^ colloque international, réunis dans le cadre du 110^e^ Congrès national des sociétés savantes (Montpellier, 1-5 avril 1985)*, Paris, 1986, p. 337-350.

- Dapping (George Bernard), *Histoire du commerce entre le Levant et l'Europe depuis les croisades jusqu'à la fondation des colonies d'Amérique*, Paris, 1830, 2 vol.

- Davidsohn (Robert), *Forschungen zur Geschichte von Florenz*, Berlin, 1901, 4 vol.

—, *Storia di Firenze*, Florence, 1956-68, 7 vol.

- Day (John), « Colonialisme monétaire en Méditerranée au Moyen Âge », *Actes du IIe colloque international d'histoire, Athènes, 1983 : Économies méditerranéennes. Équilibres et intercommunications, XIIIe-XIXe siècle*, I, Athènes, 1985, p. 305-319.

- De Roover (Raymond), « The "Cambium Maritimum" Contract According to the Genoese Notarial Records of the XIIth and XIIIth Centuries », *Economy, Society, Government in Medieval Italy. Essays in Memory of Robert L. Reynolds. Exploration in Economic History*, 7, 1969-70, p. 15-33.

—, *L'Évolution de la lettre de change XIVe-XVIIe siècles*, Paris, 1953.

- Debruge (M.), « Les pieds d'Hercule. Abris sous roche à Bougie », *Recueil de la société archéologique de Constantine*, 37, 1903, p. 127-132.

- Del Treppo (Mario), « Assicurazioni e commercio internazionale a Barcellona nel 1420-1429 », *RSI*, 69, 1957, p. 508-541 ; 70, 1958, 44-81.

—, *I Mercanti catalani e l'espansione della Corona d'Aragona nel secolo XV*, Naples, 1972.

- Delort (Robert), *Le Commerce des fourrures en Occident vers la fin du Moyen Âge*, Rome, 1975.

- Delumeau (Jean), *L'Alun de Rome XVe-XIXe siècle*, Paris, 1962.

- Dermenghem (Émile), « Al-Hirrālī. Un çoufi du XIIIe siècle, érudit, métaphysicien, philosophe et poète », *AIEO*, 7, 1948, p. 39-53.

- Desimoni (Cornelio), « La moneta e il rapporto dell'oro all'argento nei secoli XII al XIV », *Atti della R. Accademia dei Lincei*, serie V, *Classe di scienze morali, storiche e filologiche*, vol. III, 1a parte, 1895, p. 4-56.

- Despois (Jean), *L'Afrique du Nord*, Paris, 1958 (1re éd. 1949).

—, « La bordure saharienne de l'Algérie orientale », *RA*, 86, 1942, p. 197-219.

- Devisse (Jean), « Approximatives, quantitatives, qualitatives : valeurs variables de l'étude des traversées sahariennes », *Relaciones de la Península ibérica con el Magreb siglos XIII-XVI. Actas del coloquio, Madrid, 1987*, dir. Mercedes García-Arenal et María Jesús Viguera, Madrid, 1988, p. 165-203.

—, « Commerce et routes du trafic en Afrique occidentale », *Histoire générale de l'Afrique*, III, *L'Afrique du VIIe au XIe siècle*, dir. Mohamed el-Fasi, Paris, 1990, p. 397-463.

—, « Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. Un essai sur le commerce africain médiéval

du XI^e au XVI^e siècle », *Revue d'Histoire Économique et Sociale*, 50, 1972, p. 42-73, 357-397.

- Dewulf (Eugène), « Notice sur l'aqueduc de Bougie », *Recueil de la Société archéologique de Constantine*, 10, 1866, p. 316-319.

- Dhina (Atallah), « Note sur l'authenticité et la portée du "Testament" de Yaghmurasan », *RHCM*, 6-7, 1969, p. 22-24.

—, *Le royaume abdelouadite à l'époque d'Abou Moussa I^er*, Alger, 1985.

- Di Tucci (Raffaele), « La condizione dei mercanti stranieri in Sardegna durante la dominazione aragonese », *Archivio Storico Sardo*, 7, 1911, p. 3-38.

- Di Tucci (R.), *Studi sull'economia genovese del secolo XII. La nave e i contratti marittimi. La banca privata*, Turin, 1933.

- Díaz Borrás (Andrés), *Los orígenes de la piratería islámica en Valencia : la ofensiva musulmana trecentista y la reacción cristiana*, Barcelone, 1993.

—, *Problemas marítimos de Valencia a finales de la Edad Media : el corso, la piratería y el cautiverio en su incidencia sobre la dinámica económica. 1400-1480*, Thèse de doctorat, Université de Valence, 1987.

—, « Atención valenciana a la redención de cautivos cristianos », *Estudis castellonensc*, 3, 1986, p. 337-353.

—, « El comercio valenciano con Berbería en la "Era de los Descubrimientos" a través de los llibres d'armaments. Una aproximación », *Congreso de Jóvenes historiadores y geógrafos, Madrid, 1980*, Madrid, 1990, p. 733-748.

—, « L'estudi de la pirateria a través dels avisaments costaners. Replegament cristià i setge islàmic a la València de la transició à la modernitat : 1480-1520 », *AEM*, 20, 1990, p. 275-295.

—, *El Miedo al Mediterráneo : la caridad popular valenciana y la redención de los cautivos bajo poder musulmán 1323-1539*, Barcelone, 2001 (édition partielle de sa thèse de doctorat de 1987).

- Díaz Borrás (Andrés), Cariñena Balaguer (Rafael), « Corsaris valencians i esclaus barbarescs a les darreries del segle XIV : una subasta d'esclaus a Valencia el 1385 », *Estudis castellonensc*, 2, 1984-5, p. 441-456.

- Djaït (Hichem), « La wilāya d'Ifrīqiya au II^e/VIII^e siècle : étude institutionnelle », *Studia islamica*, 27, 1967, p. 77-121 ; 28, 1968, p. 79-108.

- Djelloul (Néji), « Histoire topographique de Mahdia et de ses environs au Moyen Âge », *CT*, 162-163, 1993, p. 71-108.

جلول (ناجي)، الرباطات البحرية بإفريقية في العصر الوسيط، تونس، 1999.

- Djender (Mahieddine), *Introduction à l'histoire de l'Algérie*, Alger, 1970, nouvelle édition augmentée, Alger, 1991.

- Dokali (Rachid), « Monnaies almohades et hafsides découvertes à Ténès », *Bulletin d'archéologie algérienne*, 3, 1968, p. 369-391.

- Dossat (Yves), « Les ordres de rachat, les Mercédaires », *Assistance et Charité*, Toulouse, 1978 (*Cahiers de Fanjeaux*, 13), p. 365-387.

- Doumerc (Bernard), « La crise structurelle de la marine vénitienne au XV^e siècle : le problème du retard des mude », *Annales ESC*, 40/3, 1985, p. 605-623.

—, « La ville et la mer : Tunis au XV^e siècle », *Villes et sociétés urbaines au Maghreb. Actes du IV^e congrès international d'histoire et de civilisation du Maghreb, Tunis, avril 1986, CT*, 137-138, 1986, p. 111-130.

—, « Le consulat vénitien de Tunis (1470-1473) », *CT*, 155-156, 1991, p. 447-478.

—, « Par Dieu écrivez plus souvent ! La lettre d'affaires à Venise à la fin du Moyen Âge », *La circulation des nouvelles au Moyen Âge. XXIV^e Congrès de la SHMES, Avignon, juin 1993*, Rome-Paris, 1994, p. 99-109.

—, « Venise et la dynastie hafside à la fin du XV^e siècle », *CT*, 117-118, 1981, p. 573-581.

—, *Venise et l'émirat hafside de Tunis (1231-1535)*, Paris, 1999.

- Doussinague (José-María), *La política internacional de Fernando el Católico*, Madrid, 1944.

- Doxey (G.), « Diplomacy, Trade and War; Muslim Majorca in International Politics, 1159-1181 », *Journal of Medieval History*, 20/1, 1994, p. 39-61.

- Dozy (Reinhart), *Supplément aux dictionnaires arabes*, Leyde, 1881, 2 vol.

- Dubois (Henri), *Les foires de Chalon et le commerce dans la vallée de la Saône à la fin du Moyen Âge (v. 1280-v. 1430)*, Paris, 1976.

- Du Cange, *Glossarium mediae et infimae latinitatis*, Niort, 1883-1887, rééd. anast. Graz, 1954.

- Ducellier (Alain), « L'Adriatique et la Berbérie au Moyen Âge : trafic d'appoint ou trafic caché ? », *CT*, 117-118, 1981, p. 561-572.

—, « Raguse, l'Italie et la Berbérie au Moyen Âge : à propos de quelques documents inédits ou peu connus », *CT*, 61-64, 1968, p. 27-44.

—, « Le Registre de Giovanni Manzini. Notaire sur les galées vénitiennes de Barbarie (1472-1476) », *CT*, 155-156, 1991, p. 513-534.

- Dufeil (Michel-Marie), « Traces d'Orient à Paris au XIII^e siècle », *RHCM*, 3, 1967, p. 48-49.

- Dufourcq (Charles-Emmanuel), « Aperçu sur le commerce entre Gênes et le Maghrib au XIII^e siècle », *Économies et sociétés au Moyen Âge. Mélanges offerts à Édouard Perroy*, Paris, 1973, p. 721-736.

—, « Aspects internationaux de Majorque durant les derniers siècles du Moyen Âge », *Mayurqa*, 11, 1974, p. 5-52.

—, « La continuité des activités catalano-aragonaises dans les États musulmans méditerranéens, d'Alphonse le Magnanime à Ferdinand le Catholique », *IX congresso di storia della Corona d'Aragona, La Corona d'Aragona e il Mediterraneo : aspetti e problemi comuni da Alfonso il Magnanimo a Ferdinando il Cattolico (1416-1516), Napoli, 1973,* II, Naples, 1982, p. 199-223.

—, « Le commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe chrétienne et marine musulmane : données connues et problèmes en suspens », *Actes du congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb, Tunis, 1974, Cahiers du CERES, Série histoire,* 1, Tunis, 1979, p. 161-192.

—, « Les consulats catalans de Tunis et de Bougie au temps de Jacques le conquérant », *AEM*, 3, 1966, p. 469-479.

—, *L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIII*e *et XIV*e *siècles* : *de la bataille de Las Navas de Tolosa (1212) à l'avènement du sultan mérinide Abou-l-Hasan (1331)*, Paris, 1966.

—, « Rapports entre l'Afrique et l'Espagne au XIIIe siècle », *Medievalia*, 1, 1980, p. 88-102.

—, « Les relations de la péninsule ibérique et de l'Afrique du Nord au XIVe siècle », *AEM*, 7, 1970-71, p. 39-65.

—, « Un impérialisme médiéval face au Maghreb : la naissance et l'essor de l'Empire catalan, d'après des travaux récents », *CT*, 79-80, 1972, p. 101-124.

—, « Un projet castillan du XIIIe siècle : la "croisade d'Afrique" », *RHCM*, 1, 1966, p. 26-51.

—, « Vers la Méditerranée orientale et l'Afrique », *Jaime I y su época, X congreso de historia de la Corona de Aragón*, I, Saragosse, 1979, p. 5-90.

—, *La Vie quotidienne dans les ports méditerranéens au Moyen Âge (Provence, Languedoc, Catalogne)*, Paris, 1975.

- Duro (Cesáreo Fernández), « Perdida de la ciudad de Bugia, en Africa, año 1555, referida por un clérigo vizcaino, testigo de vista », *Boletín de la Real Academia de la Historia*, 29, 1896, p. 465-537.

- Eddé (Anne-Marie), *La Principauté ayyoubide d'Alep (579/1183-658/1260)*, Stuttgart, 1999.

- Edler de Roover (Florence), *Glossary of Medieval Terms of Business, Italian Series, 1200-1600,* Cambridge (Mass.), 1934.

- *Encyclopédie de l'Islam*, 2e édition, Leyde, 1960-2000.

- Epstein (Stephan R.), *An Island for itself. Economic Development and Social Change in Late Medieval Sicily,* Cambridge, 1992.

- Epstein (Steven A.), *Genoa and the Genoese, 958-1528*, Chapel Hill, 1996.

—, *Wills and Wealth in Medieval Genoa, 1150-1250*, Cambridge, Mass., 1984.

- Even (Pierre), *Les Villes du Maghreb dans les plans européens de la Renaissance*, mémoire de maîtrise, sous la direction de Françoise Micheau, Université Paris I (Centre de recherches d'histoire et civilisation byzantines et du Proche-Orient médiéval), 2002-2003.

- Face (Richard D.), « Symon de Gualterio: a Brief Portrait of a Thirteenth-century Man of Affairs », *Economy, Society, Government in Medieval Italy. Essays in Memory of Robert L. Reynolds. Exploration in Economic History*, 7, 1969-1970, p. 75-94.

- Fall (Yoro K.), *L'Afrique à la naissance de la cartographie moderne (14e / 15e siècles : les cartes majorquines)*, Paris, 1982.

- Farrugia de Candia (J.), « Monnaies hafsides du musée du Bardo », *RT*, n. s., 9, 1938, p. 231-288.

- Favier (Jean), *De l'or et des épices. Naissance de l'homme d'affaires au Moyen Âge*, Paris, 1987.

- Fèbvre (Lucien), « Frontières : le mot et la notion », *Bulletin du Centre International de Synthèse*, 45, 1928, rééd. *Pour une histoire à part entière*, Paris, 1962, p. 11-24.

- Fennell Mazzaoui (Maureen), *The Italian Cotton Industry in the Later Middle Ages, 1100-1600*, Cambridge, 1981.

- Féraud (Laurent-Charles), « Expédition du roi Pierre III d'Aragon à Collo (au XIIIe siècle) d'après une chronique catalane », *RA*, 16, 1872, p. 241-258.

—, « Histoire des villes de la province de Constantine. Bougie », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 13, 1869, p. 85-407, rééd., *Histoire de Bougie*, avec une présentation de Nedjma Abdelfettah Lalmi, Paris, 2001.

—, « Notes sur Bougie. Légendes – traditions », *RA*, 2, 1857, p. 458-465 ; 3, 1858, p. 45-51, 296-308, 442-468.

- Ferhat (Halima), « La fiscalité au Maghreb du XIe au XIIIe siècle : enjeux et conflits », *Le Maghreb aux XIIe et XIIIe siècles : les siècles de la foi*, Casablanca, 1993, p. 127-142.

—, « Remarques sur l'histoire des villes et la fragilité du tissu urbain avant le XVe siècle », *Sciences sociales et phénomènes urbains dans le monde arabe*, Casablanca, 1997, p. 97-104.

—, « Le rôle de la minorité andalouse dans l'intervention hafside à Sabta », *Le Maghreb aux XIIe et XIIIe siècles…*, p. 143-158.

—, *Sabta des origines au XIVe siècle*, Rabat, 1993.

—, « Un maître de la mystique maghrébine au XIIe siècle : Abu Madyan de Tlemcen », *Le Maghreb aux XIIe et XIIIe siècle…*, p. 55-78.

- Ferrari Alfonso (Graziella), « Rapporti commerciali tra Savonesi e Catalani nel secolo XIV », *Atti del I congresso storico Liguria-Catalogna*, Bordighera, 1974, p. 235-247.

- Ferrer i Mallol (Maria Teresa), « El consolat de mar i els consolats d'ultramar, instrument i manifestació de l'expansió del comerç català », *L'Expansió catalana a la Mediterrània a la baixa edat mitjana*, dir. Maria Teresa Ferrer i Mallol et Damien Coulon, Barcelone, 1999, p. 53-79.

—, « Dos registres de l'"Officium maris" de Génova (1402-1403, 1408-1410) », *Atti del I congresso storico Liguria-Catalogna*, Bordighera, 1974, p. 248-348.

—, « L'emigració dels sarraïns residents a Catalunya, a Aragó i al País Valencià durant la baixa edat mitjana », *L'expulsió dels moriscos : consequències en el món islàmic i el món cristià*, Barcelone, 1994, p. 19-26.

—, *La Frontera amb l'islam en el segle* XIV*. Cristians i sarraïns al pais Valencia*, Barcelone, 1988.

—, « Els Italians a terres catalanes (s. XII-XIV) », *AEM*, 10, 1980, p. 392-467.

—, « Les mudéjars de la Couronne d'Aragon », *REMMM*, 63-4, 1992, p. 179-200.

—, « La navegació de conserva a l'edat mitjana », *AEM*, 24, 1994, p. 453-464.

—, « La redempcio de captius a la corona catalano-aragonesa, siglo XIV », *AEM*, 15, 1985, p. 237-297.

—, « Els redemptors de captius: Mostolafs, eixees o alfaquecs (segles XII-XIII) », *Medievalia*, 9, 1990, p. 85-106.

—, *Els Sarraïns de la Corona catalano-aragonesa en el segle* XIV*. Segregació i discriminació*, Barcelone, 1987.

- Ferrer Navarro (Ramón), *La exportación valenciana en el siglo* XIV, Saragosse, 1977.

—, « Los judíos en el comercio valenciano durante el siglo XIV », *Primer congreso de historia del País Valenciano, Valencia, 1971*, Valence, 1973, p. 553-566.

- Fodale (Salvatore), « Il riscatto dei Siciliani "captivi" in Barberia (XIV-XV secolo) », *Quaderni medievali*, 12, 1981, p. 61-84.

- Fontaine (Jacques), *Villages kabyles et nouveau réseau urbain en Algérie. Le cas de la région de Bejaïa*, Tours, 1983.

- Fontenay (Michel), « Le Maghreb barbaresque et l'esclavage méditerranéen aux XVI^{e} et XVII^{e} siècles », *CT*, 157-158, 1991, p. 7-43.

- Forand (Paul G.), « Notes on *'Ušr* and *Maks* », *Arabica*, 13, 1966, p. 137-141.

- Forstner (Martin), *Das Wegenetz des Zentralen Maghreb in islamischer Zeit. Ein Vergleich mit dem antiken Wegenetz*, Wiesbaden, 1979.

- Fossier (Robert), *Enfance de l'Europe. Aspects économiques et sociaux*, Paris, 1982, 2 vol.

- Fourquin (Guy), « Une conjoncture dramatique ? », *Histoire économique et sociale du monde,* I, *L'ouverture du monde, XIVe-XVIe siècle,* dir. Bartolomé Bennassar et Pierre Chaunu, Paris, 1977, p. 307-350.

—, *Histoire économique de l'Occident médiéval*, Paris, 3e éd., 1979.

- François (Véronique), « Les céramiques médiévales d'Alexandrie : un témoignage archéologique d'importance », *Alexandrie médiévale,* dir. Christian Décobert et Jean-Yves Empereur, Le Caire, 1998, p. 57-64.

- Gabrieli (Francesco), « Il palazzo Ḥammādita di Biğāya descritto da Ibn Ḥamdīs », *Aus der Welt der islamischer Kunst. Festschrift für Ernst Kühnel zum 75. Geburstag am 26.10.1957*, Berlin, 1959, p. 54-58.

- Gaïd (Mouloud), *Histoire de Bejaïa et de sa région depuis l'antiquité jusqu'à 1954*, Alger, 1976.

- Gais (N. E.), « Aperçu sur la population musulmane de Majorque au XIVe siècle », *RHCM,* 9, 1970, p. 19-30.

- Galasso (Giuseppe), « Il commercio amalfitano nel periodo normanno », *Studi in onore di Riccardo Filangieri,* I, Naples, 1959, p. 81-103.

- Garcin (Jean-Claude), *Un centre musulman de Haute-Égypte médiévale : Qūṣ,* Le Caire, 1976.

—, dir., *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, Rome, 2000.

—, « Histoire, démographie, histoire comparée, périodisation », *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, Xe-XVe siècle,* dir. Jean-Claude Garcin, III, Paris, 2000, p. 36-55.

—, « Ibn Hawqal, l'Orient et l'Occident », *ROMM,* 35, 1983, p. 77-91.

—, « La "Méditerranéisation" de l'Empire mameluk sous les sultans Bahrides », *Rivista degli Studi Orientali,* 48, 1973-74, p. 109-116.

—, « Milieux urbains et mouvements populaires », *Arabica*, 43, 1996, p. 146-151.

—, « Pour un recours à l'histoire de l'espace vécu dans l'étude de l'Égypte arabe », *Annales ESC*, 35/3-4, 1980, p. 436-451, rééd. *Espaces, pouvoirs et idéologies de l'Égypte médiévale,* Londres, 1987.

—, « Transport des épices et espace égyptien entre le XIe et le XVe siècle », *Les Transports au Moyen Âge. Actes du VIIe congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, Rennes, juin 1976, Annales de Bretagne,* 85/2, 1978, p. 305-314.

- Garí (Blanca), « Genova e i porti islamici del Mediterraneo occidentale (secc. XI-XIII) », *La Storia dei Genovesi. Atti del convegno sui ceti dirigenti nelle istituzioni della repubblica di Genova (Genova, 11-14 giugno 1991),* Gênes, 1994, p. 345-353.

—, « El reino de Granada y la política comercial genovesa en la Península ibérica en la segunda mitad del siglo XIII », *Relaciones exteriores*

del Reino de Granada. IV Coloquio de historia medieval andaluza, Almeria, 1988, p. 287-296.

- Gautier (Émile-Félix), « Le cadre géographique de l'histoire en Algérie », *Histoire et historiens de l'Algérie*, Alger, 1930, p. 17-35.

—, *Les Siècles obscurs du Maghreb*, Paris, 1927.

- Gayraud (Roland-Pierre), « Alexandrie médiévale et la Méditerranée : l'indice des importations céramiques », *Alexandrie médiévale*, dir. Christian Décobert et Jean-Yves Empereur, Le Caire, 1998, p. 65-69.

- Gazulla (Faustino D.), « La redención de cautivos entre los musulmanes », *Boletín de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona*, 13, 1928, p. 321-342.

- Gennaro (G. de), « Commercio e navigazione nella Puglia medioevale », *Economia e Storia* (Milan), 1971, p. 71-76.

- Germain (Alexandre), « De la monnaie mahométane attribuée à un évêque de Maguelone », *Mémoires de la société archéologique de Montpellier*, 1re série, 3, 1850-1854, p. 683-704.

- الجيلالي (عبد الرحمان بن محمد)، تاريخ الجزائر العام، ج 2، الجزائر، 1954-1955، إعادة نشر، بيروت، 1983.

- Gilles (Henri), « Législation et doctrine canoniques sur les Sarrasins », *Islam et Chrétiens du Midi*, Toulouse, 1983 (*Cahiers de Fanjeaux*, 18), p. 195-213.

- Giménez Soler (Andrés), « El comercio en tierra de infieles durante la Edad Media », *Boletín de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona*, 5, 1910, p. 171-199, 287-298, 521-524.

—, « Episodios de las relaciones entre la corona de Aragón y Túnez », *Anuari de l'Institut d'Estudis Catalans*, 1, 1907-1908, p. 195-224.

- Gioffrè (Domenico), « Il commercio d'importazione genovese alla luce dei registri del dazio (1495-1537) », *Studi in onore di Amintore Fanfani*, V, Milan, 1962, p. 115-242.

- Giuffrida (Antonio), « Frammenti di corrispondenza commerciale del genovese Giovanni Gregorio Stella residente a Tunisi (1479-1480) », *CT*, 77-78, 1972, p. 25-37.

—, « La realtà economica della presenza genovese in Sicilia nel secolo XIV », *Genova e Pisa, Atti del seminario di studi sulle interrelazioni tra il regno di Sicilia e i comuni di Genova e di Pisa nell'età di Enrico VII di Lussemburgo, Istituto storico siciliano*, Palerme, 1988, p. 79-85.

- Goitein (Shelomo D.), « The Mediterranean Mind in the High Middle Ages (950-1250) as Reflected in the Cairo Geniza Documents », *Amalfi nel Medioevo: convegno internazionale, 14-16 giugno 1973*, Salerne, 1977, p. 177-192.

—, *A Mediterranean Society. The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza,* Berkeley-Los Angeles, 1967-1988, 5 vol.

—, « La Tunisie du XI^e siècle à la lumière des documents de la Géniza du Caire », *Études d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal*, II, Paris, 1962, p. 559-579.

—, « The Unity of the Mediterranean World in the "Middle" Middle Ages », *Studia Islamica*, 12, 1960, p. 29-42.

- Golvin (Lucien), « Les céramiques émaillées de période hammâdide. Qal'a des Banû Hammâd (Algérie) », *La Céramique médiévale en Méditerranée occidentale. X^e-XV^e siècle. Colloque international de Valbonne, 11-14 septembre 1978*, Paris, 1980, p. 203-217.

—, *Le Maghreb central à l'époque des Zirides. Recherches d'archéologie et d'histoire*, Paris, 1957.

- Gourdin (Philippe), « L'Afrique du Nord est-elle au Moyen Âge le "grenier à blé" de l'Europe méditerranéenne ? », *Romanité et cité chrétienne. Permanences et mutation, intégration et exclusion du I^er au VI^e siècle. Mélanges en l'honneur d'Yvette Duval*, Paris, 2001, p. 151-168.

—, « Les approvisionnements en cuir de la ville de Gênes pendant la deuxième moitié du XV^e siècle (d'après les actes du notaire Nicolò Raggi) », *Nuova Rivista Storica*, LXXV/111, 1991, p. 571-612.

—, « Les fortifications du Maghreb d'après les sources écrites ; la vision d'Ibn Khaldûn », *Sites et monuments disparus d'après les témoignages des voyageurs*, Bures-sur-Yvette, 1996 (*Res Orientales*, 8), p. 25-31.

—, « Les marchands étrangers à Tunis à la fin du Moyen Âge », *Tunis cité de la mer. Actes du Colloque de Tunis (1997)*, Tunis, 1999, p. 157-184.

—, « Le "partage" du Maghreb entre l'Aragon et la Castille au traité de Monteagudo (1291) », *Le Partage du monde. Échanges et colonisation dans la Méditerranée médiévale*, dir. Michel Balard et Alain Ducellier, Paris, 1998, p. 399-409.

—, *Les relations politiques et économiques entre l'Italie tyrrhénienne et le Maghreb au XV^e siècle,* thèse sur travaux, volume de synthèse, Paris, décembre 2001.

- Greco (Lucia), « Sulle rotte delle galere veneziane : il cartulario di bordo del prete Giovanni Manzini (1471-1486) », *Archivio Veneto*, sér. V, 172, 1991, p. 5-37.

- Greif (Avner), « Reputation and Coalitions in Medieval Trade: Evidences on the Maghribi Traders », *Journal of Economic History*, 48, 1989, p. 857-882.

- Grierson (Philip), « La moneta veneziana nell'economia mediterranea del Trecento e Quattrocento », *La Civiltà veneziana del Quattrocento*, Florence, 1957, p. 75-97.

- Gsell (Stéphane), *Atlas archéologique de l'Algérie*, Alger, 1911, rééd. Alger, 1997, feuille 7.

—, « Vieilles exploitations minières en Afrique du Nord », *Hespéris*, 8, 1928, p. 1-21.

- Gual Camarena (Miguel), *Vocabulario del comercio medieval. Colección de aranceles aduaneros de la Corona de Aragón (s. XIII y XIV)*, Tarragone, 1968.

- Guichard (Pierre), « Les Almohades », *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, X^e^-XV^e^ siècle*, dir. Jean-Claude Garcin, I, Paris, 1995, p. 205-232.

—, « Les Almoravides », *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, X^e^-XV^e^ siècle*, dir. Jean-Claude Garcin, I, Paris, 1995, p. 151-167.

—, *Les Musulmans de Valence et la reconquête (XI^e^-XIII^e^ siècle)*, Damas, 1990-1991.

—, « Nomadisme et tribalisme », *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, X^e^-XV^e^ siècle*, dir. Jean-Claude Garcin, II, Paris, 2000, p. 111-128.

—, « Omeyyades et Fatimides au Maghreb. Problématique d'un conflit politico-idéologique (vers 929-vers 960) », *L'Égypte fatimide. Son art et son histoire*, dir. Marianne Barrucand, Paris, 1999, p. 55-67.

—, « Les pays de la Méditerranée occidentale entre le V^e^ et le X^e^ siècles. Retour sur la problématique pirennienne », *L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Âge*, dir. Mohammed Hammam, Rabat, 1996, p. 75-90.

—, « La poussée européenne et les musulmans d'Occident », *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, X^e^-XV^e^ siècle*, dir. Jean-Claude Garcin, I, Paris, 1995, p. 281-314.

- Guillené (Christian), « Assistance et charité à Gérone au début du XIV^e^ siècle », *La Pobreza y la asistencia a los pobres en la Cataluña medieval*, I, Barcelone, 1980, p. 191-204.

- Guiral Hadziiossif (Jacqueline), « L'apport des communautés juives et musulmanes de Valence au commerce méditerranéen au XV^e^ siècle », *Economies méditerranéennes. Équilibres et intercommunications, XIII^e^-XIX^e^ siècle. Deuxième colloque international d'histoire du Centre de recherche Néohelléniques (Athènes, 18-25 septembre 1983)*, Athènes, 1985, p. 461-471.

—, « Les convers à Valence à la fin du XV^e^ siècle », *Mélanges de la Casa de Velázquez*, 11, 1975, p. 81-98.

—, « L'organisation de la production rurale et artisanale à Valence au XV^e^ siècle », *AEM*, 15, 1985, p. 415-465.

—, « Les relations commerciales du royaume de Valence avec la Berbérie au XV[e] siècle », *Mélanges de la Casa de Velázquez*, 10, 1974, p. 99-131.

—, « Le sel d'Ibiza et de la Mata à la fin du Moyen Âge », *Le Sel et son histoire. Actes du colloque de l'Association interuniversitaire de l'Est, Nancy, 1979*, Nancy, 1980, p. 93-108.

—, *Valence, port méditerranéen au XV[e] siècle (1410-1525)*, Paris, 1986.

- Gutwirth (Eleazar), « El comercio hispano-magrebi y los judíos (1391-1444) », *Hispania*, 45, 1985, p. 199-205.

- Hadj Sadok (Mohamed), « À travers la Berbérie orientale du XVIII[e] siècle avec le voyageur al-Warthīlānī », *RA*, 95, 1951, p. 315-399.

—, « Avec un cheikh de Zemmorah à travers l'Ouest constantinois du XVIII[e] siècle », *Bulletin de la société historique et géographique de Sétif*, 1, 1935, p. 42-59.

- Hadjiat (Abdelhamid), *Le Maghrib central sous le règne du sultan abdelwadide Abou Hamu Musa II (1359-89)*, thèse de doctorat d'État, sous la direction de Robert Mantran, Aix-en-Provence, 1991.

- حاجيات (عبد الحميد)، "السلطان أبي حمو موسى الثاني، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، 5، 1968، ص 7-29، 6-7، ص 8-33، 8، 1970، ص 7-39، 9، 1970، ص 29-54.

- Hammam (Mohammed), « La pêche et le commerce du poisson en Méditerranée occidentale (X[e]-début XVI[e]). Tableau historico-géographique établi d'après les sources musulmanes », *L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Âge*, dir. Mohammed Hammam, Rabat, 1996, p. 151-179.

- Harvey (L. P.), *The Islamic Spain. 1250 to 1500*, Chicago-Londres, 1990.

- Hasnaoui (Milouda), « La ley islámica y el rescate de los cautivos según las fetwas de al-Wanšarīsī e Ibn Ṭarkāṭ », *La Liberazione dei 'cativi' tra cristianità e islam. Oltre la crociata e il ğihād : tolleranza e servizio umanitario. Atti del Congresso interdisciplinare di studi storici (Roma, 16-19 settembre 1998)*, dir. Giulio Cipollone, Cité du Vatican, 2000, p. 549-558.

- Hassan Abdel Wahab (Selim), « Captives Waqf in Syria and Egypt (491-589 H./1097-1193 A.D.) », *La Liberazione dei 'cativi' tra cristianità e islam. Oltre la crociata e il ğihād : tolleranza e servizio umanitario. Atti del Congresso interdisciplinare di studi storici (Roma, 16-19 settembre 1998)*, dir. Giulio Cipollone, Cité du Vatican, 2000, p. 559-570.

- Hassen (Muhammad), « Les *Ribâṭ* du Sahel d'Ifrîqiya. Peuplement et évolution du territoire au Moyen Âge », *Zones côtières littorales dans le monde méditerranéen au Moyen Âge : défense, peuplement, mise en valeur, Actes du colloque international organisé par l'École française de Rome et la*

Casa de Velázquez, Rome, 23-26 octobre 1996, dir. Jean-Marie Martin, Rome-Madrid, 2001 (*Castrum*, 7), p. 147-162.

- Hazard (Harry W.), *The Numismatic History of Late Medieval North Africa*, New York, 1952 (Numismatic Studies, 8).

- Heers (Jacques), « Le Commerce du sel en Méditerranée occidentale », *Le Rôle du sel dans l'histoire*, dir. Michel Mollat, Paris, 1968, p. 127-132.

—, « Il commercio nel Mediterraneo alla fine del sec. XIV e nei primi anni del XV », *Archivio storico italiano*, 113/2, 1955, p. 157-209.

—, *Gênes au XV^e siècle. Activité économique et problèmes sociaux*, Paris, 1961.

—, « Gênes et l'Afrique du Nord vers 1450 : les voyages "per costeriam" », *AEM*, 21, 1991, p. 233-245.

—, « La mode et les marchés des draps de laine : Gênes et la Montagne à la fin du Moyen Âge », *Annales ESC*, 26/5, 1971, p. 1093-1117, rééd. *Société et économie…*

—, *L'Occident aux XIV^e et XV^e siècles*, Paris, 1963.

—, « Le prix de l'assurance maritime à la fin du Moyen Âge », *Revue d'histoire économique et sociale*, 37, 1959, p. 7-19, rééd. *Société et économie…*

—, « Le royaume de Grenade et la politique marchande de Gênes en Occident », *Le Moyen Âge*, 63, 1957, p. 87-121, rééd. *Société et économie…*

—, « Le Sahara et le commerce méditerranéen à la fin du Moyen Âge », *AIEO*, Alger, 1958, p. 247-255.

—, *Société et économie à Gênes (XIV^e-XV^e siècle)*, Londres, 1979.

—, « Types de navires et spécialisations des trafics en Méditerranée à la fin du Moyen Âge », *Le Navire et l'économie maritime du Moyen Âge à la fin du XVIII^e siècle, principalement en Méditerranée, Actes du 2^e colloque international d'histoire maritime, 1957*, Paris, 1958, p. 107-118.

- Heers (Marie-Louise), « Les Génois et le commerce de l'alun », *Revue d'Histoire Économique et Sociale*, 32, 1954, p. 31-53.

- Hennequin (Gilles), « Les monnaies et la monnaie », *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, X^e-XV^e siècle*, dir. Jean-Claude Garcin, II, *Sociétés et cultures*, Paris, 2000, p. 219-243.

- Herlihy (David), *Pisa in the Early Renaissance. A Study of Urban Growth*, New Haven, 1958, 229 p., trad. italienne *Pisa nel Duecento*, Pise, 1973.

- Heyd (W.), *Histoire du commerce du Levant au Moyen Âge*, Leipzig, 1885-6, rééd. Amsterdam, 1967, 2 vol.

- Hinojosa Montalvo (José), « Actividades comerciales de los judíos en Valencia (1391-1492) », *Saitabi*, 29, 1979, p. 21-42.

—, « Confesiones y ventas de cautivos en Valencia de 1409 », *Lugarzas*, 3, 1971, p. 113-127.

—, *The Jews of the Kingdom of Valencia, from Persecution to Expulsion, 1391-1492*, Jérusalem, 1993.

—, « Sobre los mercaderes extrapeninsulares en la Valencia del siglo XV », *Saitabi*, 26, 1976, p. 59-92.

—, « Tácticas de apresamiento de cautivos y su distribución en el mercado valenciano (1410-1434) », *Questions valencianes*, 1, 1979, p. 5-44.

- Hirschberg (Haim Zeev), *A History of the Jews in North Africa*, I, *From the Antiquity to the Sixteenth Century*, Leyde, 1974.

- Hocquet (Jean-Claude), « Ibiza, carrefour du commerce maritime et témoin d'une conjoncture méditerranéenne (1250-1650) », *Studi in memoria di Federigo Melis*, I, Naples, 1978, p. 491-526.

—, *Le Sel et la fortune de Venise*, 1 : *Production et monopole*, Villeneuve d'Ascq, 1978.

—, *Voiliers et commerce en Méditerranée*, *1200-1650*, Lille, 1979.

- Hoenerbach (Wilhem), *Das nordafrikanische Itinerar des 'Abdarī vom Jahre 688/1289*, Leipzig, 1940.

- Hopkins (J. F. P.), *Medieval Muslim Government in Barbary until the Sixth Century of the Hijra*, Londres, 1958.

- Hoshino (Hidetoshi), *L'Arte della lana in Firenze nel Basso Medioevo. Il commercio della lana e il mercato dei panni fiorentini nei secoli XIII-XV*, Florence, 1980.

- Iancu-Agou (Danièle), « Les relations entre les Juifs de Marseille et les communautés juives d'Afrique du Nord à la fin du XVe siècle », *Les relations intercommunautaires juives en Méditerranée occidentale, XIIIe-XXe siècle, Abbaye de Sénanque, 1982*, dir. Jean-Louis Miège, Paris, 1984, p. 23-33.

- Idris (Hady-Roger), *La Berbérie orientale sous les Zirides, Xe-XIIe siècle*, Paris, 1962.

—, « Commerce maritime et *kirāḍ* en Berbérie orientale d'après un recueil inédit de *fatwā*s médiévales », *JESHO*, 1961, p. 225-239.

—, « L'invasion hilalienne et ses conséquences », *CCM*, 11, 1968, p. 353-369.

—, « Problématique de l'épopée sanhâdjienne en Berbérie orientale (Xe-XIIe siècle) », *AIEO*, 1959, p. 243-255.

- Ivars Cardona (Andreu), *Dos creuades valenciano-mallorquines a les còstes de Berbería, 1397-1399. Estudi documental*, Valence, 1921.

- Jacoby (David), « Les juifs à Venise du XIVe au milieu du XVIe siècle », *Venezia, centro di mediazione tra Oriente e Occidente (sec. XV-XVI)*, Florence, 1977, p. 163-216.

—, « Les Italiens en Égypte aux XIIe et XIIIe siècles : du comptoir à la colonie ? », *Coloniser au Moyen Âge*, dir. Michel Balard et Alain Ducellier, Paris, 1995, p. 76-89.

- Jadla (Ibrahim), « Les Juifs en Ifrīqiya à l'époque hafside », *Histoire communautaire, histoire plurielle. La communauté juive de Tunisie. Actes du colloque de Tunis, 25-27 février 1998*, Tunis, 1999, p. 145-151.

- Jaïdi (Houcine), *L'Afrique et le blé de Rome aux IV*e *et V*e *siècles*, Tunis, 1990.

- Jehel (Georges), « Besants et dinars à Gênes au XIIIe siècle », *État et colonisation au Moyen Âge et à la Renaissance*, dir. Michel Balard, Lyon, 1989, p. 55-70.

—, « Catalans et Majorquins à Tunis en 1289 », *Cuadernos de historia económica de Catalunya*, 20, 1979, p. 125-130.

—, *Les Génois en Méditerranée occidentale (fin XI*e*-début XIV*e *siècle). Ébauche d'une stratégie pour un empire*, s. l., 1993.

—, *L'Italie et le Maghreb au Moyen Âge. Conflits et échanges du VII*e *au XV*e *siècle*, Paris, 2001.

—, « Jews and Muslims in Medieval Genoa: from the Twelfth to the Fourteenth century », *Mediterranean Historical Review*, 10, 1995, p. 120-132.

—, « Les Placentins en Afrique du Nord au Moyen Âge », *Precursori di Cristoforo Colombo. Mercanti e banchieri piacentini nel mondo durante il medioevo. Atti del Convegno Internazionale di Studi, Piacienza, 10-12 settembre 1992*, Bologne, 1994, p. 169-179.

- Jenkins (Marilyn), *Medieval Maghribî Ceramics. A Reappraisal of the Pottery Production of the Western Regions of the Muslim World*, Ph. D. Dissertation, New York University, 1978.

—, « Medieval Maghribi Luster-painted Pottery », *La Céramique médiévale en Méditerranée occidentale. X*e*-XV*e *siècle. Colloque international de Valbonne, 11-14 septembre 1978*, Paris, 1980, p. 335-342.

- Jiménez Mata (María Carmen), « Ordenación territorial del litoral », *Al-Andalus y el Mediterráneo*, Barcelone-Madrid, 1995, p. 47-56.

- Julien (Charles-André), *Histoire de l'Afrique du Nord*, Paris, 1931, rééd. 1951 (avec la collaboration de Christian Courtois et Roger Le Tourneau), rééd. 1994.

- Kably (Mohamed), « Espace et pouvoir au "Maroc" à la fin du "Moyen Âge" », *ROMM*, 48-49, 1988, p. 26-37.

—, « Potere universale e poteri provinciali nel Maghreb », *Federico II e il mondo mediterraneo*, dir. Pierre Toubert et Agostino Paravicini Bagliani, Palerme, 1994, p. 270-285.

—, *Société et religion au Maroc à la fin du « Moyen Âge » (XIV*e*-XV*e *siècle)*, Paris, 1986.

القبلي (محمد)، "ملاحظات حول التجارب الوحدوية الوسيطية ببلاد المغرب الكبير"، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، الدار البيضاء، 1987، ص 7–20.

- Kaddache (Mahfoud), *L’Algérie médiévale*, Alger, 1992.

- Kasdi (F.), Nait Benali (H.), *Diagnostic de la culture de l’olivier dans la partie occidentale (périphérique) du Parc National de Gouraya et possibilités de réhabilitation*, Projet de fin de cycle, Université de Bejaia, Institut des sciences de la nature, Bougie, 1998.

- Kazimirski (A.), *Dictionnaire arabe-français*, Paris, 1860, 2 vol.

- Kedar (Benjamin Z.), *Merchants in Crisis. Genoese and Venetian Men of Affairs and the 14th c. Depression*, New Heaven-Londres, 1976, trad. it. *Mercanti in crisi a Genova e Venezia nel ’300*, Rome, 1981.

- Khalilieh (Hassan S.), « The Ribât System and its Role in Coastal Navigation », *JESHO*, 42/2, 1999, p. 212-225.

- Khaneboubi (Ahmed), *Les premiers sultans mérinides (1269-1331) : histoire politique et sociale*, Paris, 1987.

- Kisaichi (Masatoshi), « The Maghrib », *Islamic Urban Studies, Historical Review and Perspectives*, dir. Masaghi Haneda, Toru Miura, Londres-New York, 1994, p. 11-82.

- Krueger (Hilmar C.), « Genoese Trade with North-west Africa in the XIIth Century », *Speculum*, 8, 1933, p. 377-395.

—, « Navi e proprietà navale a Genova (seconda metà del sec. XII) », *ASLSP*, n. s., 25/1, 1985.

—, « The Routine of Commerce between Genoa and Northwest Africa during the Late Twelfth Century », *The Mariner’s Mirror*, 19/4, 1933, p. 417-438.

—, « The Ware of Exchanges in the Genoese-African Traffic of the Twelfth Century », *Speculum*, 12, 1937, p. 57-71.

- Kurio (Hars), *Geschichte und Geschichtsschreiber der ‘Abd al-Wâdiden (Algerien im 13.-15. Jahrhundert). Mit einer Teiledition des Naz□m ad-Durr des Mu✚ammad b. ‘Abd al-Ǧalīl at-Tanasī*, Fribourg, 1973.

- La Roncière (Charles de), *Découverte d’une relation de voyage datée du Touat et décrivant en 1447 le bassin du Niger*, Paris, 1919.

—, « Une nouvelle carte de l’école cartographique des Juifs de Majorque », *Comité des travaux historiques et scientifiques : Bulletin de la section de Géographie*, 47, 1932, p. 113-118.

- Lacoste (Yves), *Ibn Khaldoun. Naissance de l’Histoire, passé du tiers-monde*, Paris, 1966, rééd. 1981.

—, « Littoral, frontières marines », *Littoral, frontières marines. Hérodote*, 93, 1999, p. 3-19.

- Lagardère (Vincent), *Les Almoravides, jusqu’au règne de Yūsuf b. Tašfīn (1039-1106)*, Paris, 1989.

—, *Campagnes et paysans d’al-Andalus (VIIIe-XVe siècle)*, Paris, 1993.

—, « Le commerce des céréales entre al-Andalus et le Maghrib aux XI[e] et XII[e] siècle », *L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Âge*, dir. Mohammed Hammam, Rabat, 1996, p. 123-150.

- *La Lana come materia prima. I fenomeni della sua produzione e circolazione nei secoli XIII-XVII. Atti della I settimane di studio, Istituto internazionale di storia economica F. Datini, aprile 1969*, dir. Marco Spallanzani, Florence, 1974.

- Lane (Frederic C.), « La marine marchande et le trafic maritime de Venise à travers les siècles », *Les sources de l'histoire maritime en Europe du Moyen Âge au XVIII[e] siècle, actes du IV[e] colloque international d'histoire maritime, Paris, 20-23 mai 1959*, Paris, 1962, p. 7-32.

—, « Progrès technologiques et productivité dans les transports maritimes de la fin du Moyen Âge au début des Temps modernes », *RH*, 510, 1974, p. 277-302.

—, *Venetian Ships and Shipbuilders of the Renaissance*, Baltimore, 1934, trad. *Navires et constructeurs à Venise pendant la Renaissance*, Paris, 1965.

- Lanfreducci (Bosio), « Costa e discorsi di Barberia. Rapport maritime, militaire et politique sur la côte d'Afrique depuis le Nil jusqu'à Cherchell par deux membres de l'Ordre de Malte (1[er] septembre 1587) », éd. Ch. Monchicourt, trad. fr. Pierre Grandchamp, *RA*, 66, 1925, p. 419-549.

- Lange (Dierk), « L'alun du Kawar, une exportation africaine vers l'Europe », *Cahiers du CRA [Centre de recherche africaine], Histoire*, 2, 1982, p. 21-24.

—, « Royaumes et peuples du Tchad », *Histoire générale de l'Afrique*, IV, *L'Afrique du XII[e] au XVI[e] siècle*, dir. Djibril Tamsir Niane, Paris, 1985, p. 265-293.

- Laroui (Abdallah), *L'Histoire du Maghreb. Un essai de synthèse*, Paris, 1970, rééd. Casablanca, 1995.

- Larrère (Jean-Jacques), Villain-Gandossi (Christiane), « Le *Llibre del consolat de mar* : les gens de mer, leurs droits et leurs obligations », *106[e] Congrès national des sociétés savantes, Perpignan 1981*, Paris, 1984, p. 153-167.

- Latham (J. D.), « Toward a Study of Andalusian Immigrations and its Place in Tunisian History », *CT*, 19-20, 1957, p. 203-252, trad. fr. « Contribution à l'étude des immigrations andalouses et leur place dans l'histoire de la Tunisie », *Recueil d'études sur les Moriscos andalous en Tunisie*, dir. Miguel de Epalza et O. Ramón Petit, Madrid-Tunis, 1973, p. 21-63, rééd. *From Muslim Spain to Barbary*, Londres, 1986.

—, « Towns and Cities of Barbary – the Andalusian Influence », *Islamic Quarterly*, 16, 1972, p. 189-204, rééd. *From Muslim Spain*…

- Laurioux (Bruno), « Modes culinaires et mutations du goût à la fin du Moyen Âge », *Artes Mechanicae en Europe médiévale*, Actes du colloque

de Bruxelles, 16 octobre 1987 (*Archives et Bibliothèques de Belgique*, numéro spécial), dir. R. Jansen-Sieben, Bruxelles, 1989, p. 199-222, rééd. *Une histoire culinaire du Moyen Âge*, Paris, 2005, p. 285-302.

- Lavoix (Henri), *Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale*, II, *Espagne et Afrique*, Paris, 1891.

- Le Goff (Jacques), *La Bourse et la vie*, Paris, 1986.

- Lesage (Georges), *Marseille angevine. Recherches sur son évolution administrative, économique et urbaine de la victoire de Charles d'Anjou à l'arrivée de Jeanne 1re (1264-1348)*, Paris, 1950.

- Lethielleux (Jean), *Ouargla, cité saharienne, des origines au début du XXe siècle*, Paris, 1983.

- Lévi-Provençal (Évariste), « Un nouveau texte d'histoire mérinide, le *Musnad* d'Ibn Marzûq », *Hespéris*, 5, 1955, p. 1-82.

- Levtzion (Nehemia), « The Jews of Sijilmasa and the Saharan Trade », *Les communautés juives des marges sahariennes du Maghreb*, dir. Michel Abitbol, Jérusalem, 1982, p. 253-263.

- Lewicki (Tadeusz), « Les liaisons maghrébines sahariennes et soudanaises de la ville de Ouargla au Moyen Âge », *Études maghrébines et soudanaises*, Varsovie, 1976, p. 9-78.

—, « Quelques extraits inédits relatifs aux voyages des commerçants et missionnaires ibādites nord-africains au pays du Soudan occidental et central au Moyen Âge », *Folia orientalia*, II, 1960, p. 1-27.

—, « Le rôle du Sahara et des Sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud », *Histoire générale de l'Afrique*, III, *L'Afrique du VIIe au XIe siècle*, dir. Mohamed el-Fasi, Paris, 1990, p. 303-339.

- Lézine (Alexandre), *Deux villes d'Ifriqiya. Sousse, Tunis*, Paris, 1971.

- Liagre de Sturler (Léone), « Le commerce de l'alun en Flandre au Moyen Âge », *Le Moyen Âge*, 61, 1955, p. 177-206.

- Llinares (Armand), « Raimond Lulle et l'Afrique », *RA*, 105, 1961, p. 98-116.

- Loeb (Isidore), « Les négociants juifs à Marseille au milieu du XIIIe siècle », *Revue des Études Juives*, 16, 1888, p. 73-83.

- Lombard (Maurice), « Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée musulmane du VIIe au XIe siècle », *Le Navire et l'économie maritime du Moyen Âge au XVIIIe siècle, principalement en Méditerranée, Actes du IIe colloque international d'histoire maritime*, Paris, 1958, p. 53-106.

—, « Le bois dans la Méditerranée musulmane VIIe-XIe siècles ; un problème cartographié », *Annales ESC*, 14/2, 1959, p. 234-254.

—, *L'Islam dans sa première grandeur (VIIIe-XIe siècle)*, Paris, 1971.

—, « L'or musulman du VIIe au XIe siècle. Les bases monétaires d'une suprématie économique », *Annales ESC*, 2/2, 1947, p. 143-160.

—, *Les Métaux dans l'ancien monde, du* V[e] *au* XI[e] *siècle*, Paris-La Haye, 1974.

—, *Les Textiles dans le monde musulman,* VII[e]-XII[e] *siècle*, Paris, 1978.

- Lopez (Roberto Sabatino), « L'Attività economica di Genova nel marzo 1253, secondo gli atti notarili del tempo », *ASLSP*, 64, 1935, p. 166-270.

—, « Aux origines du capitalisme génois », *Annales d'Histoire Économique et Sociale*, 9, 1937, p. 429-454.

—, « Back to Gold: 1252 », *Economic History Review*, 2[d] s., 9/2, 1956, p. 219-240.

—, *Genova marinara nel Duecento. Benedetto Zaccaria, ammiraglio e mercante*, Milan-Messine, 1933, rééd. (sans les éditions de documents) *Benedetto Zaccaria, ammiraglio e mercante nella Genova del Duecento*, Florence, 1996.

—, « I Genovesi in Africa Occidentale nel Medio Evo », *Studi sull'economia genovese nel Medio Evo*, I, Turin, 1936, p. 1-61.

—, « Le marchand génois. Un portrait collectif », *Annales ESC*, 13/3, 1958, p. 501-515, rééd. *Su e giù...*, p. 17-33.

—, « El Origen de la oveja merina », *Estudios de Historia Moderna*, 4, 1954, p. 3-11, trad. it. « L'origine della pecora merina », *Su e giù...*, p. 265-275.

—, « Le origini dell'arte della lana », *Studi sull'economia genovese nel Medio Evo*, Turin, 1936, p. 63-181.

—, *La prima crisi della banca di Genova (1250-1259)*, Milan, 1956.

—, « Prima del ritorno all'oro nell'Occidente duecentesco : i primi denari grossi d'argento », *RSI*, 79/1, 1967, p. 174-181, rééd. *Su e giù…*, p. 305-312.

—, *La Révolution commerciale dans l'Europe médiévale*, Paris, 1974.

—, « Settecento anni fa : il ritorno all'oro nell'occidente duecentesco », *RSI*, 65, 1953, p. 19-55.

—, « Stars and Spices: the Earliest Italian Manual of Commercial Practice », *Economy, Society, Government in Medieval Italy. Essays in Memory of Robert L. Reynolds. Exploration in Economic History*, 7, 1969-70, p. 35-42.

—, *Storia delle colonie genovesi nel Mediterraneo*, Bologne, 1938, rééd. Gênes, 1997.

—, *Su e giù per la Storia di Genova*, Gênes, 1975.

—, « Un texte inédit : le plus ancien manuel italien de technique commerciale », *RH*, 243, 1970, p. 67-76.

- López de Coca Castañer (José Enrique), « Esclavos, alfaqueques y mercaderes en la frontera del mar de Alborán (1490-1516) », *Hispania*, 139, 1979, p. 275-300.

- López Pérez (María Dolores), « Las asociaciones de fletadores mallorquines bajomedievales : ¿ un intento de monopolización del comercio magrebí ? », *AEM*, 24, 1994, p. 89-104.

—, « La circulación de cereales en el Mediterráneo occidental bajomedieval : la producción magrebí », *La Mediterrània, àrea de convergència de sistemes alimentaris (segles V-XVIII). XIV Jornades d'estudis històrics locals, Palma, 29 de novembre - 2 de desembre de 1995*, Palma de Majorque, 1996, p. 169-180.

—, « La Corona de Aragón i el Magreb : politica i comerç (1331-1410) », *Butlleti de la Societat catalana d'Estudis historics,* 5, 1994, p. 121-134.

—, *La Corona de Aragón y el Magreb en el siglo XIV (1331-1410)*, Barcelone, 1995.

—, « La corona de Aragón y el Norte de Africa : las diferentes áreas de intervención mercantil catalano-aragonesa en el Magreb a finales del siglo XIV y principios del XV », *Acta Mediaevalia*, 11-12, 1990-1991, p. 299-323.

—, « La expansión económica catalanoaragonesa hacia el Magreb medieval », *L'Expansió catalana a la Mediterrània a la baixa edat mitjana*, dir. Maria Teresa Ferrer i Mallol et Damien Coulon, Barcelone, 1999, p. 81-104.

—, « Farons per a galiotes de moros : un ejemplo de organización de la defensa costera en la Cataluña medieval », *Miscel.lània de textos medievals*, 8, 1996, p. 1-12.

—, « La financiación de las empresas corsarias catalano-aragonesas durante la Baja Edad Media : los armamentos de naves mallorquinas », *VIII jornades d'estudis historics locals : el comerç alternatiu. Corsarisme i contraban (ss. XV-XVIII), Palma de Majorque, 1989*, Palma de Majorque, 1990, p. 86-105.

—, « Los operadores magrebíes en la Corona de Aragón a finales del trescientos y principios del cuatrocientos : las actividades mercantiles de judíos y musulmanes norteafricanos », *XIV Congresso di Storia della corona d'Aragona, Sassari-Alghero, 19-24 maggio 1990,* III, Sassari, 1996, p. 557-572.

—, « El pogrom de 1391 en Mallorca y su repercusión en los intercambios comerciales con el Magreb », *I Col.loqui d'Història dels Jueus a la Corona d'Aragó, Lérida, 1989*, Lérida, 1991, p. 239-260.

—, « Piratería y corsarismo en el Mediterráneo occidental medieval : el control de las actividades corsarias en Mallorca a finales del siglo XIV y principios del XV », *VII jornades d'estudis historics locals : la Mediterrània. Antropologia i història, Palma, 1988*, Palma de Majorque, 1990, p. 173-203.

- Lourie (Elena), « Free Moslems in the Balearic Island under Christian Rule in the XIIIth Century », *Speculum*, 45, 1970, p. 624-649.

- Luzzatto (Gino), « La commenda nella vita economica dei secoli XIII e XIV con particolare riguardo a Venezia », *Convegno internazionale di studi storici del diritto marittimo medioevale di Amalfi, ottobre 1934*, I, Naples, 1934, rééd. *Studi di Storia economica veneziana*, Padoue, 1954, p. 59-79.

- Luzzatto (Gino, sous le pseud. de G. Padovan), « Capitale e lavoro nel commercio veneziano dei secoli XI e XII », *Rivista di storia economica*, 6, 1941, rééd. *Studi di storia economica...*, p. 89-116.

- Ly-Tall (Madina), « Le déclin de l'Empire du Mali », *L'Histoire générale de l'Afrique*, IV, *L'Afrique du XIIe au XVIe siècle*, dir. Djibril Tamsir Niane, Paris, 1985, p. 197-212.

- M'ghirbi (Salah), *Les Voyageurs de l'Occident musulman du XIIe au XIVe siècle*, Tunis, 1996.

- Macaire (Pierre), *Majorque et le Maghrib au XVe siècle*, thèse de troisième cycle, sous la direction de Charles-Emmanuel Dufourcq, Université Paris X, 1977.

- Maccagni (Carlo), « Leonardo Fibonacci e il rinnovamento delle matematiche », *L'Italia ed i paesi mediterranei. Vie di comunicazione, scambi commerciali e culturali al tempo delle repubbliche marittime*, Pise, 1988, p. 91-115.

- MacKenzie (N. D.), *Ayyubid Cairo. A Topographical Study*, Le Caire, 1992.

- Mainoni (Patricia), *Mercati lombardi tra Barcelona e Valencia nel Basso medioevo*, Bologne, 1982.

- Malausséna (P.), « Promissio redemptionis : le rachat des captifs chrétiens en pays musulman à la fin du XIVe siècle », *Annales du Midi*, 80, 1968, p. 255-281.

- Mallett (Michael Edward), *The Florentine Galleys in the Fifteenth Century*, Oxford, 1967.

—, « The Sea Consuls of Florence in the Fifteenth Century », *Papers of the British School at Rome*, 27, 1959, p. 156-169.

- Malowist (Marian), « Les fondements de l'expansion européenne en Afrique au XVe siècle : Europe, Maghreb et Soudan occidental », *Acta Poloniae historica*, 18, 1968, p. 155-179.

—, « Quelques observations sur le commerce de l'or dans le Soudan occidental au Moyen Âge », *Annales ESC*, 25/6, 1970, p. 1630-1636.

- Mangiante (Stefania), « Una biblioteca notarile dugentesca », *Miscellanea di storia ligure in memoria di Giorgio Falco*, Gênes, 1966, p. 121-128.

- Mansouri (Mohamed Tahar), « Les milieux marchands européens et la langue arabe au Maghreb médiéval », *Trames de langues. Usages et métissages linguistiques dans l'histoire du Maghreb*, dir. Jocelyne Dakhlia, Paris, 2004, p. 281-292.

—, « Perceptions arabes de la Méditerranée médiévale : de la maîtrise à la crainte », *Sailing Ships of the Mediterranean Sea and the Arabian Gulf*, Koweit, 1998, p. 51-63.

—, « Produits agricoles et commerce maritime en Ifrīqiya aux XII^e - XV^e siècles », *Cultures et nourritures de l'Occident musulman. Essais dédiés à Bernard Rosenberger*, *Médiévales*, 33, 1997, p. 125-139.

—, « Une famille de cartographes tunisiens : les Sharfi », *La Méditerranée médiévale. Perceptions et représentations*, dir. Hatem Akkari, Paris-Tunis, 2002, p. 263-277.

—, « Vie portuaire à Tunis au Bas Moyen Âge (XII-XV^e siècle) », *Tunis, cité de la mer*, dir. Alia Baccar-Bournaz, Tunis, 1999, p. 143-156.

- Marçais (Georges), *Les Arabes en Berbérie du XI^e au XIV^e siècle*, *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 47, 1913.

—, « Note sur les ribats en Berbérie », *Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman*, I, Alger, 1957, p. 23-36.

—, *Les Poteries et faïences de Bougie (collection Debruge). Contribution à l'étude de la céramique musulmane*, Constantine, 1916.

—, « Les Villes de la côte algérienne et la piraterie au Moyen Âge », *AIEO*, 13, 1955, p. 118-142.

- Marengo (Emilio), « Genova e Tunisi (1388-1515) », *ASLSP*, 32, 1901.

- Martin (Jean-Marie), *La Pouille du VI^e au XII^e siècle*, Rome, 1993.

- Martinez-Gros (Gabriel), « La division du monde selon Idrīsī », *Le Partage du monde. Échanges et colonisation dans la Méditerranée médiévale*, dir. Michel Balard et Alain Ducellier, Paris, 1998, p. 315-334.

—, « Ibn Khaldūn et la mer », *Mésogeios*, 7, 2000, p. 99-112.

- Mas-Latrie (René de), « Droit de marque et de représailles au Moyen Âge », *BEC*, 6^e série, 2, Paris, 1866, p. 529-577.

- Massiéra (Paul), « M'sila du X^e au XV^e siècle », *CT*, 85-86, 1974, p. 177-207.

- Mauny (Raymond), *Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Âge d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie*, Dakar, 1961.

- Maurici (Ferdinando), « Le difese costiere della Sicilia (secoli VI-XV) », *Zones côtières littorales dans le monde méditerranéen au Moyen Âge : défense, peuplement, mise en valeur, Actes du colloque international organisé par l'École française de Rome et la Casa de Velázquez, Rome, 23-26 octobre 1996*, dir. Jean-Marie Martin, Rome-Madrid, 2001 (*Castrum*, 7), p. 177-204.

- Mc Neill (John R.), *The Mountains of the Mediterranean World*, Cambridge, 1992.

- Melis (Federigo), « Intensità e regolarità nella diffusione dell'informazione economica generale nel Mediterraneo e in Occidente alla fine del Medioevo », *Histoire économique du monde méditerranéen, 1450-1650, Mélanges en l'honneur de Fernand Braudel*, Toulouse, 1973, p. 389-424.

—, « La lana della Spagna mediterranea e della Berberia occidentale nei secoli XIV-XV », *La Lana come materia prima, atti della I settimana di studio di storia economica*, dir. Marco Spallanzani, Florence, 1974, p. 241-251, rééd. *I Mercanti...*, p. 233-250.

—, « Malaga nel sistema economico del XIV e XV secolo », *Economia e Storia*, III-1 et 2, 1956, p. 19-59 et 139-163, rééd. *I Mercanti...*, p. 135-213.

—, *I Mercanti nell'Europa medievale e rinascimentale*, Florence, 1990.

—, « La situazione della marina mercantile all'inizio dell'epoca enrichina : fattori tecnici ed economici di sviluppo », *Actas do congresso internacional de historia dos descobrimentos, V*, 1961, p. 451-459, rééd. *I trasporti...*, p. 111-118.

—, *I Trasporti e le comunicazioni nel Medioevo*, Florence, 1984.

—, « Werner Sombart e i problemi della navigazione nel Medio Evo », *Biblioteca della rivista Economia e storia*, 8, Milan, 1964, rééd. *I Trasporti...*, p. 3-68.

- Merores (Margarete), *Gaeta im frühen Mittelalter (8. bis 12. Jahrhundert)*, Gotha, 1911.

- Messier (Ronald A.), « The Almoravids. West African Gold and Gold Currency of the Mediterranean Basin », *JESHO*, 17, 1974, p. 31-47.

—, « Sijilmâsa : l'intermédiaire entre la Méditerranée et l'Ouest de l'Afrique », *L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Âge*, dir. Mohammed Hammam, Rabat, 1995, p. 181-196.

- Micheau (Françoise, avec la collaboration de Pierre Guichard), « Les sources des mégapoles orientales », *Mégapoles méditerranéennes*, dir. Claude Nicolet, Paris-Rome, 2000, p. 685-704.

- Miquel (André), « La géographie arabe après l'an Mil », *Popoli e paesi nella cultura altomedievale*, Spolète, 1983 (*Settimane di studio del Centro Italiano di Studi sull'alto Medioevo*, XXIX), p. 153-174.

—, *La Géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XI^e^ siècle*, Paris-La Haye, 1967-1988, 4 vol.

—, « La perception de la frontière aux approches de l'an Mil de notre ère », *ROMM*, 48-9, 1988, p. 22-25.

- Modéran (Yves), « Botr et Branès : sur les origines du dualisme berbère médiéval », *Mutations d'identités en Méditerranée. Moyen Âge et époque contemporaine*, dir. Henri Bresc, Christiane Veauvy, Paris, 2000, p. 53-65.

- Mohamedi (Anissa), « Information sur les découvertes récentes en céramique médiévale effectuées à Sétif (Algérie) », *La Céramique médiévale en Méditerranée occidentale. Xe-XVe siècle Colloque international de Valbonne, 11-14 septembre 1978*, Paris, 1980, p. 219-220.

- Mollat du Jourdain (Michel), « De la piraterie sauvage à la course réglementée, XIII-XIVe siècle », *Mélanges de l'École française de Rome. Moyen Âge - Temps modernes*, 87, 1975, p. 7-25, rééd. *Études d'histoire maritime (1938-1975)*, Turin, 1977, p. 591-609.

—, « Les intérêts commerciaux français en Méditerranée au temps d'Alphonse le Magnanime », *XIV congresso di storia della corona d'Aragona, Sassari-Alghero, 19-24 maggio 1990*, vol. II, t. 2, Sassari, 1996, p. 629-642.

—, *Jacques Cœur ou l'esprit d'entreprise*, Paris, 1988.

- Moreles Muñiz (María Dolores-Carmen), « Aportación a la política africana de Fernando el Católico : Bugia », *Estudios de Historia medieval en homenaje a Luis Suarez Fernández*, Valladolid, 1991, p. 361-373.

- Mutgé i Vives (Josefa), « Algunas noticias sobre las relaciones entre la Corona Catalano-Aragonesa y el Reino de Túnez de 1345 a 1360 », *Relaciones de la Península ibérica con el Magreb, siglos XIII-XVI. Actas del coloquio, Madrid, 1987*, dir. Mercedes García-Arenal et María Jesús Viguera, Madrid, 1988, p. 131-164.

- Nam (Jong-Kuk), *Le Commerce du coton en Méditerranée à la fin du Moyen Âge*, thèse de l'Université Paris 1, sous la direction de Michel Balard, 2004.

- Nef (Annliese), *L'élément islamique dans la Sicile normande : identités culturelles et construction d'une nouvelle royauté (XIe-XIIe siècle)*, Thèse de l'Université Paris X-Nanterre, sous la direction de Henri Bresc, 2001.

- Nelson (Benjamin N.), « Blancardo (the Jew?) of Genoa and the Restitution of Usury in Medieval Italy », *Studi in onore di Gino Luzzatto*, I, Milan, 1949, p. 96-116.

- Niane (Djibril Tamsir), « Le Mali et la deuxième expansion manden », *L'Histoire générale de l'Afrique*, IV, *L'Afrique du XIIe au XVIe siècle*, dir. Djibril Tamsir Niane, Paris, 1985, p. 141-196.

- Noberasco (Filipo), « Savona allo spirale del secolo XII », *Atti della Società Savonese di Storia Patria*, 14, 1932, p. 212-269.

- *Nouveau glossaire nautique d'Augustin Jal* (A-L), Paris-La Haye, 1970-1998.

- Oliel (Jacob), *Les Juifs au Sahara. Le Touat au Moyen Âge*, Paris, 1994.

- Origone (Sandra), « Commercio marittimo nella Savona del XII secolo », *Società savonese di storia patria. Atti e memorie*, 30, 1994, p. 51-61.

- Pagano (Sergio), « Il testo della Regola dei Trinitari (1198) : redazione, annotazioni diplomatiche, aggiornamenti del secolo XIII », *La Liberazione dei 'cativi' tra cristianità e islam. Oltre la crociata e il ğihād : tolleranza e servizio umanitario. Atti del Congresso interdisciplinare di studi storici (Roma, 16-19 settembre 1998)*, dir. Giulio Cipollone, Cité du Vatican, 2000, p. 51-117.

- Pellegrini (Gianbattista), « Contatti linguistici arabo-veneziani », *Venezia e il Levante fino al secolo XV. Atti del II convegno internazionale di storia della civiltà veneziana*, dir. A. Pertusi, II, Florence, 1973, p. 301-330, également dans Id., *Gli Arabismi nelle lingue neolatine, con speciale riguardo all'Italia*, Brescia, 1972, II, p. 575-599.

—, « Contributo allo studio dell'influsso arabo in Liguria », *Miscellanea di storia ligure*, II, Milan, 1961, p. 15-95, rééd. *Gli Arabismi...*, I, p. 333-400.

—, « "Facchino" nella storia linguistica ed economica italiana », *Studi in onore di Amintore Fanfani*, III, Milan, 1962, p. 323-343, rééd. *Gli Arabismi...*, II, p. 503-523.

- Pérès (Henri), « Relations entre le Tafilalet et le Soudan à travers le Sahara du XII[e] au XIV[e] siècle », *Mélanges de géographie et d'orientalisme offerts à É.-F. Gautier*, Tours, 1937, p. 409-414.

- Pérez Pérez (Desamparados), Pascual-Leone Pascual (Elena), « Algunos aspectos del comercio valenciano a fines del siglo XIV », *VII Congreso de Historia de la Corona de Aragón*, 2, Barcelone, 1962, p. 529-546.

- Pernoud (Régine), Busquet (Raoul), *Histoire du Commerce de Marseille*, I, Paris, 1949.

- Petit (Odette), « Les relations intellectuelles entre l'Espagne et l'Ifrīqiya aux XIII[e] et XIV[e] siècles », *IBLA*, 127, 1971, p. 93-121.

- Petry (Carl F.), *The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Ages*, Princeton, 1981.

- Petti Balbi (Giovanna), « Il consolato genovese di Tunisi nel Quattrocento », *Archivio storico italiano*, 576, 1998, p. 226-256.

—, « Deroghe papali al "Devetum" sul commercio con l'Islam », *Rassegna degli Archivi di Stato*, anno XXXII, 3, 1972, p. 521-533.

—, « Gli insediamenti genovesi nel Nord-Africa durante il '400 », *Medioevo Mezzogiorno Mediterraneo. Studi in onore di Mario Del Treppo*, dir. Gabriella Rossetti et Giovanni Vitolo, Naples, 2000, p. 121-137.

—, « La presenza lucchese a Genova in età medioevale », *Lucca e l'Europa degli affari (secoli XV-XVII)*, Lucques, 1990, p. 29-43.

—, *Simon Boccanegra e la Genova del '300*, Gênes, 1991.

—, « Il trattato del 1343 tra Genova e Tunisi », *Saggi e documenti*, I, Gênes, 1978, p. 297-322, rééd. *Una città e il suo mare. Genova nel Medioevo*, Bologne, 1991, p. 200-222.

- Picard (Christophe), « Les arsenaux musulmans de la Méditerranée et de l'océan Atlantique (VII^e^-XV^e^ siècle) », *Chemins d'outre-mer. Études d'histoire sur la Méditerranée médiévale offertes à Michel Balard*, éd. Damien Coulon, Catherine Otten, Paule Pagès, Dominique Valérian, Paris, 2004, p. 691-710.

—, « Le commerce des produits agricoles entre le Maghreb Occidental et l'Andalus au XII^e^ siècle », *Productions et explorations africaines : actualités archéologiques en Afrique du Nord antique et médiévales, 6^e^ Colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord (Pau, 1993)*, dir. Pol Trousset, Paris, 1995, p. 177-187.

—, « L'échec maritime musulman ? », *La puissance maritime*, dir. Christian Buchet, Jean Meyer, Jean-Pierre Poussou, Paris, 2004, p. 123-142.

—, *La mer et les musulmans d'Occident au Moyen Âge. VIII^e^-XIII^e^ siècle*, Paris, 1997.

—, *L'Océan atlantique musulman. De la conquête arabe à l'époque almohade. Navigation et mise en valeur des côtes d'al-Andalus et du Maghreb occidental (Portugal-Espagne-Maroc)*, Paris, 1997.

- Piersantelli (Giuseppe), *La Penetrazione commerciale genovese nel Sahara a mezzo il secolo XV*, Gênes, 1937.

- Piles Ros (Leopoldo), « El Dret del XX^e^ e XXXXX^e^. (Para favorecer las relaciones comerciales de los judíos nor-africanos con el Reino de Valencia, 1393-1495) », *Sefarad*, 44, 1984, p. 217-282.

—, *La Judería de Valencia*, Barcelone, 1991.

- Pinto (Giuliano), Sonnino (Eugenio), « L'Italie », *Histoire des populations de l'Europe*, dir. Jacques Dupâquier et Jean-Pierre Bardet, I, Paris, 1997, p. 485-508.

- Pirenne (Henri), *Mahomet et Charlemagne*, Paris, 1937, rééd. 1992.

- Pistarino (Geo), « Politica ed economia del Mediterraneo nell'età della Meloria », *ASLSP*, n. s., 24/2, 1984, p. 23-50.

—, « Genova e il Maghreb nel secolo XII », *Italia e Algeria, aspetti storici di un'amicizia mediterranea*, dir. Romain H. Rainero, Milan, 1982, p. 23-68

- Planhol (Xavier de), *L'Islam et la mer. La mosquée et le matelot, VII^e^-XX^e^ siècle*, Paris, 2000.

- Poncet (Jean), « L'évolution des "genres de vie" en Tunisie. Autour d'une phrase d'Ibn Khaldoun », *CT*, 7-8, 1954, p. 315-323.

—, « Géographie et histoire : pays subdésertique et exemple tunisien », *Annales ESC*, 16/1, 1961, p. 99-109.

—, « Le mythe de la catastrophe hilalienne », *Annales*, *ESC*, 22/5, 1967, p. 1099-1120.

—, « Prospérité et décadence ifrīqiyennes », *CT*, 33-35, 1961, p. 221-243.

- Pons (Antonio), « Als mercaders mallorquin qui mercadetgen a Bugia », *BSAL*, 24, 1932-1933, p. 262.

—, « Los Judíos del reino de Mallorca durante los siglos XIII y XIV », *Hispania*, 20, 1960, p. 3-54, 163-266, 368-540.

—, *Los Judíos del reino de Mallorca durante los siglos XIII y XIV*, Palma de Majorque, 1984, 2 vol.

- Port (Célestin), *Essai sur le commerce maritime de Narbonne*, Paris, 1854.

- Pou Montaner (Juan), Sevillano Colom (Francisco), *Historia del puerto de Palma de Mallorca*, Palma de Majorque, 1974.

- Pouzet (Louis), « Maghrébins à Damas au VII^e^/XIII^e^ siècle », *Bulletin d'Études Orientales*, 28, 1975, p. 167-199.

- Prémare (Alfred-Louis de), *Maghreb et Andalousie au XIV^e^ siècle Les notes de voyage d'un Andalou au Maroc (1344-1345)*, Lyon, 1981.

- Pryor (John H.), *The Commenda in Mediterranean Maritime Commerce during the Thirteenth Century. A Study Based on Marseille*, Thèse dactyl., Université de Toronto, 1974.

—, *Geography, Technology and War. Studies in the Maritime History of the Mediterranean, 649-1571*, Cambridge, 1988.

—, « Mediterranean Commerce in the Middle Ages: a Voyage under Contract of Commanda », *Viator*, 14, 1983, p. 133-194.

—, « The Origin of the Commenda Contract », *Speculum*, 52, 1977, p. 5-37.

- Racine (Pierre), « À Crémone à la fin du XIII^e^ siècle. Note sur le marché du coton », *Studi in memoria di Federigo Melis*, I, Naples, 1978, p. 527-541.

—, « À Marseille en 1248 : l'activité des hommes d'affaires de Plaisance », *Annales du Midi*, 78, 1966, p. 221-233.

—, « À propos du binôme Gênes-Plaisance », *Oriente e Occidente tra medioevo ed età moderna. Studi in onore di Geo Pistarino*, dir. Laura Balletto, Gênes, 1997, p. 1035-1057.

—, « Les débuts des consulats italiens Outre-mer », *État et colonisation au Moyen Âge et à la Renaissance*, dir. Michel Balard, Lyon, 1989, p. 267-276.

—, « I mercanti piacentini a Genova durante il Duecento : gruppo economico o gruppo di pressione ? », *La Storia dei Genovesi*, X, Gênes, 1990, p. 43-57.

- Ragheb (Youssef), « La fabrication des lames damascées en Orient », *JESHO*, 40/1, 1997, p. 30-72.

—, « Les marchands itinérants du monde musulman », *Voyages et voyageurs au Moyen Âge. XXVI^e^ congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, Limoges-Aubazine, mai 1995*, Paris, 1996, p. 177-215.

- Rauchenberger (Dietrich), « Jean Léon l'Africain et son manuscrit de 1526 à travers sa description des cérémonies de mariage à Fez », *Colloque « Léon l'Africain », organisé par François Pouillon et Oumelbanine Zhiri, Paris, 22-24 mai 2003* (à paraître).

- Rausell Boizas (Hermenegildo) et al., « Movimiento secular de las importaciones trigueras del siglo XV mediante la ayudas de la ciudad de Valencia », *Estudis*, 2, 1973, p. 5-95.

- Reclus (Élisée), *Nouvelle géographie universelle. La terre et les hommes*. XI, *L'Afrique septentrionale, deuxième partie, Tripolitaine, Tunisie, Algérie, Maroc, Sahara*, Paris, 1886.

- Régné (Jean), *History of the Jews in Aragon. Regesta and Documents 1212-1327*, Jérusalem, 1978.

- Renouard (Yves), *Les Hommes d'affaires italiens au Moyen Âge*, Paris, 1968.

- Ricard (Robert), « Le commerce de Berbérie et l'Empire portugais », *AIEO*, 2, 1936, p. 266-290.

—, « Les établissements européens en Afrique du Nord du XV^e au XVIII^e siècle et la politique d'occupation restreinte », *RA*, 79, 1936, p. 687-688.

- Riera Melis (Antoni), *La Corona de Aragón y el reino de Mallorca en el primer cuarto del siglo XIV*, I, *Las repercusiones arancelarias de la autonomía balear (1298-1311)*, Barcelone, 1986.

—, « El Mediterrani occidental al darrer quart del segle XIII : concurrència comercial i conflictualitat politica », *AEM*, 26/2, 1996, p. 729-782.

- Rocca (Pietro), *Pesi e misure antiche di Genova e del Genovesato*, Gênes, 1871.

- Rodinson (Maxime), « Les conditions religieuses islamiques de la vie économique », *Handbuch der Orientalistik*, sechster Band – *Geschichte der Islamischen Länder*, sechster Abschnitt, *Wirtschaftsgeschichte des vorderen Orients in islamischer Zeit*, Teil 1, Leyde-Cologne, 1977, p. 18-30.

—, *Islam et capitalisme*, Paris, 1966.

- Romano (Ruggiero), « À propos du commerce du blé dans la Méditerranée des XIV^e et XV^e siècles », *Hommage à Lucien Febvre*, II, Paris, 1953, p. 149-161.

- Romestan (Guy), « Les marchands de Montpellier et la Leude de Majorque pendant la première moitié du XIV^e siècle », *Majorque, Languedoc et Roussillon de l'antiquité à nos jours. Actes du 53^e Congrès de la fédération historique du Languedoc méditerranéen et du Roussillon, Palma, 1980*, Montpellier, 1982, p. 53-60.

- Rosenberger (Bernard), « L'histoire économique du Maghreb », *Handbuch der Orientalistik*, sechster Band - *Geschichte der Islamischen*

Länder, sechster Abschnitt, *Wirtschaftsgeschichte des vorderen Orients in islamischer Zeit*, Teil 1, Leyde-Cologne, 1977, p. 205-238.

—, « La pratique du commerce », *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, X^e-XV^e siècle*, dir. Jean-Claude Garcin, II, Paris, 2000, p. 245-273.

—, *Société, pouvoir et alimentation. Nourriture et précarité au Maroc précolonial*, Rabat, 2001.

- Roth (Cecil), « Genoese Jews in the XII^th Century », *Speculum*, 25, 1950, p. 190-197.

- Rouvillois-Brignol (Madeleine), « Quelques remarques sur les variations de l'occupation du sol dans le Sud-Est algérien », *Histoire et archéologie de l'Afrique du Nord. Actes du III^e colloque international, réunis dans le cadre du 110^e Congrès national des sociétés savantes (Montpellier, 1-5 avril 1985)*, Paris, 1986, p. 35-53.

- Ruzafa Garcia (Manuel), « Los mudéjares en desarrollo mercantil valenciano del cuatrocientos », *Revista d'historia medieval* (Valence), 2, 1991, p. 179-189.

—, « Los operadores económicos de la morería de Valencia », *IV Simposio internacional de Mudejarismo : Economía (Teruel, 1987)*, Teruel, 1992, p. 247-259.

—, « Els orígens d'una família de mercaders mudèjars en el segle XV : Caat Ripoll (1381-1422) », *Afers*, 7, 1988-89, p. 169-188.

—, « Las relaciones económicas entre los mudéjares valencianos y el reino de Granada en el siglo XV », *IV Coloquio de Historia Medieval Andaluza. Relaciones exteriores del reino de Granada. Almería, 1985*, Almeria, 1988, p. 343-381.

السعداوي (أحمد)، "المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون: الطاعون الأعظم والطواعين التي تلته القرنين 14 و15"، *IBLA*، 175، 1995، ص 119-141.

- Sacerdoti (Alberto), « Il consolato veneziano del regno hafsida di Tunisi (1274-1518) », *Studi Veneziani*, 11, 1969, p. 531-535.

—, « Note sulle galere da mercato veneziane nel XV secolo », *Bollettino dell'Istituto di storia della società e dello stato veneziano*, 4, 1962, p. 80-105.

—, « Venezia e il regno hafsida di Tunisi : trattati e relazioni diplomatiche (1231-1534) », *Studi veneziani*, 8, 1966, p. 303-346.

- Sáinz de la Maza (Regina), « Los mercaderios de la Corona de Aragón durante la segunda mitad del siglo XIV », *Miscel.lania de Textos medievals*, 4, 1988, p. 221-299.

- Salavert i Roca (Vicente), « La Corona de Aragón en el mundo mediterráneo del siglo XIV », *VIII Congreso de historia de la Corona de Aragón, Valencia,1967*, II, Valence, 1973, p. 31-64.

- Salicrú i Lluch (Roser), « Cartes de captius cristians a les presons de Tunis del regnat de Ferran d'Antequera », *Miscel.lania de Textos Medievals*, 7, 1994, p. 549-590.

—, « En busca de una liberación alternativa : fugas y apostasía en la Corona de Aragón bajomedieval », *La Liberazione dei 'cativi' tra cristianità e islam. Oltre la crociata e il ğihād : tolleranza e servizio umanitario. Atti del Congresso interdisciplinare di studi storici (Roma, 16-19 settembre 1998)*, dir. Giulio Cipollone, Cité du Vatican, 2000, p. 703-713.

—, *El Sultanat de Granada i la corona d'Aragó, 1410-1458*, Barcelone, 1998.

- Sanchez Martínez (Manuel), « Las relaciones de la Corona de Aragón con los países musulmanes en la época de Pedro el ceremonioso », *Pere el Ceremoniós e la seve epoca*, Barcelone, 1989, p. 77-97.

- Sancho (Pedro A.), « La redencion de cautivos por los frailes Trinitarios », *BSAL*, 8, 1900.

- Santamaría Arández (Alvaro), *Ejecutoria del reino de Mallorca*, Palma de Majorque, 1990.

—, « Mallorca en el siglo XIV », *AEM*, 7, 1970-1971, p. 165-238.

- Sapori (Armando), « Il commercio internazionale nel Medioevo », *Studi di storia economica*, I, Florence, 1955, p. 495-533.

—, « La cultura del mercante medievale italiano », *Studi di storia economica*, I, Florence, 1955, p. 53-93.

—, « Economia e morale alla fine del Trecento. Francesco di Marco Datini e ser Lapo Mazzei », *Studi di storia economica*, I, Florence, 1955, p. 155-179.

—, *Le Marchand italien au Moyen Âge*, Paris, 1952, trad. it. *Il Mercante italiano nel medioevo*, Milan, 1981.

—, *Mercatores*, Milan, 1941.

—, « I primi viaggi di Levante e Ponente delle galere fiorentine », *Archivio storico italiano*, 114, 1956, p. 39-91, rééd. *Studi di storia economica*, III, Florence, 1967, p. 3-21.

- Sastre Moll (Jaime), *Economía y sociedad del reino de Mallorca. Primer tercio del siglo XIV*, Palma de Majorque, 1986.

—, « Estancia y salida de musulmanes libres y esclavos durante el reinado de Sancho I y Felipe de Mallorca », *Boleti de la societat arqueologica lul.liana*, 44, 1988, p. 125-170.

—, « El puerto de la Ciutat de Mallorca durante el reinado de Sancho y la regencia de Felipe de Mallorca (1311-1330). Rentas reales portuales y su reinversion », *Miscel.lània de Textos medievals*, 7, 1994, p. 141-188.

- Sayous (André-É.), *L'Activité de deux capitalistes-commerçants marseillais vers le milieu du XIII^e siècle : Bernard de Manduel (1227-1237) et Jean de Manduel (1233-1263)*, Paris, 1929, rééd. *Commerce et finance…*

—, « Le commerce de Marseille avec la Syrie au milieu du XIII^e^ siècle », *Revue des études historiques*, 1929, p. 391-408.

—, *Le Commerce des Européens à Tunis depuis le XII^e^ siècle jusqu'à la fin du XVI^e^ siècle*, Paris, 1929.

—, *Commerce et finance en Méditerranée au Moyen Âge*, Londres, 1988.

—, « Les méthodes commerciales de Barcelone au XIII^e^ siècle d'après des documents inédits des Archives de la Cathédrale », *Estudis Universitaris Catalans*, vol. XVI, 45, 1931, rééd. *Commerce et finance*…

—, « Les méthodes commerciales de Barcelone au XV^e^ siècle, d'après des documents inédits de ses archives », *Revue historique de droit français et étranger*, 2, 1936, p. 255-301, rééd. *Commerce et finance*…

—, *El mètods comercials a la Barcelona medieval*, Barcelone, 1975.

—, « Les Opérations du capitaliste et commerçant marseillais Étienne de Manduel entre 1200 et 1230 », *Revue des questions historiques*, 3^e^ série, 16, p. 5-29, et à part, Bordeaux, 1930, rééd. *Commerce et finance*…

- Schacht (Joseph), *Introduction au droit musulman*, Oxford, 1964, trad. fr. Paris, 1983, rééd. anast. 1999.

- Schaube (Adolf), *Das Konsulat des Meeres in Pisa*, Leipzig, 1888.

- Sella (Pietro), *Glossario latino italiano. Stato della Chiesa. Veneto. Abruzzi*, Cité du Vatican, 1944.

- Seltzer (P.), *Le climat de l'Algérie*, Alger, 1946.

- Service hydrographique de la marine, *Instructions nautiques. Mer Méditerranée. Afrique (Côte nord) à l'est du Détroit de Gibraltar ; Levant entre la mer Égée et le Canal de Suez*, Paris, 1968.

- Sevillano Colom (Francisco), « Mallorca y Valencia : relaciones maritimo-mercantiles en el siglo XIV », *Primer congreso de historia del País Valenciano, Valencia, 1971*, Valence, 1973, p. 539-551.

—, « Un manual mallorquín de Mercadería medieval », *AEM*, 9, 1974-1979, p. 517-530.

—, « Monedas que circulaban en el Mediterráneo a fines del siglo XV », *AEM*, 10, Barcelone, 1980, p. 699-732.

- Shatzmiller (Joseph), « Au sein de la communauté juive : l'étranger et sa concurrence économique », *Forestieri e stranieri nelle città basso-medievale*, Florence, 1988, p. 223-233.

- Shatzmiller (Maya), « L'organisation du travail urbain et les métiers », *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, X^e^-XV^e^ siècle*, dir. Jean-Claude Garcin, II, Paris, 2000, p. 198-218.

- Silva (Pietro), « Intorno all'industria e al commercio della lana in Pisa », *Studi Storici*, 19, 1910, p. 329-400.

- Sivan (Emmanuel), *L'Islam et la croisade. Idéologie et propagande dans les réactions musulmanes aux croisades*, Paris, 1968.

- Solal (A.), « Au tournant de l'histoire méditerranéenne du Moyen Âge : l'expédition de Pierre III d'Aragon à Collo (1282) », *RA*, 101, 1957, p. 247-271.

- Soucek (Svatopluk), *Piri Reis and Turkish Mapmaking after Colombus. The Khalili Portulan Atlas*, Londres, 1996.

—, « À propos du livre des instructions nautiques de Pīrī Reis », *Revue des Études Islamiques*, 41/2, 1973, p. 241-255.

- Sourdel (Dominique et Janine), *La Civilisation de l'Islam classique*, Paris, 1968.

- Spicciani (Amleto), « La produttività del capitale monetario e la questione dell'interesse nella dottrina teologico-canonistica dei secoli XIII e XIV », *Fonte Avellana nella società dei secoli XIII e XIV*, *Atti del terzo convegno del Centro di Studi avellaniti*, Fonte Avellana, 1979, p. 325-362, rééd. *Capitale e interesse tra mercatura e povertà nei teologi e canonisti dei secoli XIII-XV*, Rome, 1990, p. 17-48.

- Spufford (Peter), Wilkinson (Wendy), Tolley (Sarah), *Handbook of Medieval Exchange*, Londres, 1986.

- Stöckly (Doris), « Les premiers convois de galées commerciales vénitiennes en direction de la Barbarie au milieu du XV^e siècle », *CT*, 155-156, 1993, p. 479-511.

—, *Le système de l'incanto des galées du marché à Venise (fin XIII^e - milieu XV^e siècle)*, Leyde, 1995.

- Stouff (Louis), « Les Juifs d'Arles et leurs relations avec les communautés de la Méditerranée occidentale au bas Moyen Âge », *Les relations intercommunautaires juives en Méditerranée occidentale, XIII^e-XX^e siècle*, *Abbaye de Sénanque, 1982*, dir. Jean-Louis Miège, Paris, 1984, p. 9-22.

- شيخة (جمعة)، "ثورة الميورقيين بإفريقية وأثرها في تـوازن القـوى بـين الإسـلام والنصـرانية في المغرب والأندلس"، الكراسات التونسية، 117-118، 1981، ص 91-122.

- شكري (أحمد)، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية، الرباط، 1997.

- Talbi (Mohamed), « Les bida‘ », *Studia islamica*, 12, 1960, p. 43-77, rééd. *Études d'histoire ifriqiyenne…*, p. 319-349.

—, « Les contacts culturels entre l'Ifrīqiya hafside et le sultanat nasride d'Espagne (1232-1492). Contribution à l'histoire des mentalités », *Actas del II coloquio hispano-tunecino de Estudios Históricos*, *Madrid-Barcelona, 1972*, Madrid, 1973, p. 63-90, rééd. *Études d'histoire ifriqiyenne…*, p. 263-293.

—, « Les courtiers en vêtements en Ifrīqiya au IX^e-X^e siècle, d'après les *Masā'il al-Samāsira* d'al-Ibyānī », *JESHO*, V/2, 1962, p. 160-194, rééd. *Études d'histoire ifriqiyenne…*, p. 231-262.

—, « Effondrement démographique au Maghreb du XI^e au XV^e siècle », *CT*, 97-98, 1977, p. 51-60.

—, *L’Émirat aghlabide, 184-296/800-909*, Paris, 1966

—, *Études d’histoire ifriqiyenne et de civilisation musulmane*, Tunis, 1982.

الطالبي (محمد)، "الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين"، الأصالة، 26، 1975، ص 46-90، نشرة ثانية في:

Études d’histoire ifriqiyenne…, p. 165-213.

—, « Intérêt des œuvres juridiques traitant de la guerre pour l’historien des armées médiévales ifrikiennes », *CT*, 15, 1956, Tunis, 1982, p. 289-293, rééd. *Études d’histoire ifriqiyenne…*, p. 105-110.

—, *Plaidoyer pour un islam moderne*, Tunis-Paris, 1998.

- Tangheroni (Marco), *Gli Alliata, una famiglia pisana nel medioevo*, Padoue, 1969.

—, *Aspetti del commercio dei cereali nei paesi della Corona d’Aragona*, I, *La Sardegna*, Pise, 1981.

—, *Commercio e navigazione nel Medioevo*, Bari, 1996.

—, « Il *Regnum Sardinie* nell’economia della Corona d’Aragona », *Medioevo Tirrenico*, Pise, 1992, p. 65-104.

—, « Sui rapporti commerciali tra Pisa e la Tunisia nel Medioevo », *L’Italia ed i paesi mediterranei. Vie di comunicazione, scambi commerciali e culturali al tempo delle repubbliche marittime*, Pise, 1988, p. 75-90.

—, « Trasporti navali e commercio marittimo nell’Italia del Quattrocento », *La Penisola italiana e il mare. Costruzioni navali, trasporti e commerci tra XV e XX sec.*, dir. Tommaso Fanfani, Naples, 1993, p. 31-56.

- Tenenti (Alberto), Vivanti (Corrado), « Le film d’un grand système de navigation. Les galères marchandes vénitiennes aux XIV^{e}-XVI^{e} siècles », *Annales ESC*, 16/1, 1961, p. 83-86.

- Thiriot (Jacques), « Céramiques fines islamiques du Midi de la France au Bas Moyen Âge », *A Cerâmica medieval no Mediterrâneo ocidental, Lisboa, 16-22 de novembro 1987*, Mértola, 1991, p. 285-304.

- Thoden (Rudolf von), *Abū ’l-Ḥasan ‘Ali. Merinidenpolitik zwischen Nordafrika und Spanien in den Jahren 710-752 H./1310-1351*, Fribourg, 1973.

- Tolan (John), *Les Sarrasins*, Paris, 2003.

- Torres Balbás (Leopoldo), « Atarazanas hispanomusulmanas », *Al-Andalus*, 1946, 11, p. 175-209.

- Torres Delgado (Cristobal), « El reino nazari de Granada (1232-1492). Aspectos socioeconómicos y fiscales », *Actas del II coloquio de historia medieval andaluza, Sevilla 8/10 abril 1981*, Séville, 1982, p. 297-334.

- Touati (Houari), *Islam et voyage au Moyen Âge*, Paris, 2000.

- Toubert (Pierre), « Frontière et frontières : un objet historique », *Frontière et peuplement dans le monde méditerranéen au Moyen Âge. Actes*

du colloque d'Erice-Trapani, 18-25 septembre 1988, dir. Jean-Michel Poisson, Rome et Madrid, 1992 (*Castrum*, 4), p. 9-17.

- Toukabri (Hmida), « La communauté juive de l'Ifriqiya au temps des Fatimides et des Zirides », *Histoire communautaire, histoire plurielle. La communauté juive de Tunisie. Actes du colloque de Tunis, 25-27 février 1998,* Tunis, 1999, p. 135-143.

—, *Les Juifs dans la Tunisie médiévale (909-1057) d'après les documents de la Geniza du Caire*, Paris, 2002.

- Trasselli (Carmelo), « Sicilia, Levante e Tunisia nei sec. XIV e XV », *Mediterraneo e Sicilia all'inizio dell'epoca moderna*, Cosenza, 1977 (1re éd. Trapani 1952), p. 71-169.

- Trenchs Ordena (José), « "De Alexandrini", el comercio prohibido con los musulmanes y el papado de Aviñón durante la prima mitad del siglo XIV », *AEM*, 10, 1980, p. 237-320.

—, « Les "alexandrini", ou la désobéissance aux embargos conciliaires ou pontificaux contre les musulmans », *Islam et chrétiens du Midi (XIIe-XIVe s.)*, Toulouse, 1983 (*Cahiers de Fanjeaux*, 18), p. 168-193.

- Trevisan (Rossella), « Per la storia dell'Ordo Maris di Pisa in torno alla metà del duecento : il registro "Comune A46" », *Pisa e la Toscana occidentale nel Medioevo*, I, *A Cinzio Violante nei suoi 70 anni*, Pise, 1991, p. 325-366.

- Tucci (Ugo), « Le colonie mercantile italiane e il commercio internazionale nel Medioevo », *Ateneo Veneto*, 181, 1993, p. 7-28.

- Udina Martorell (Federico), « Las relaciones entre Túnez y la Corona de Aragón en el segundo tercio del siglo XIV hasta 1360 », *AEM*, 10, 1980, p. 337-342.

—, « Sur les rapports entre la Tunisie et l'Aragon entre 1360 et 1379 », *Actas del II coloquio hispano tunecino de estudios históricos*, *Madrid-Barcelona*, *1972*, Madrid, 1973, p. 49-62.

- Udovitch (Abraham L.), « At the Origins of the Western *Commenda*: Islam, Israel, Byzantium? », *Speculum*, 37, 1962, p. 198-207.

—, « Bankers without Banks: Commerce, Banking and Society in the Islamic World of the Middle Ages », *The Dawn of Modern Banking*, Yale, 1979, p. 255-273.

—, « Merchants and *Amīr*s: Government and Trade in Eleventh Century Egypt », *Asian and African Studies*, 22, 1988, p. 53-72.

—, « I musulmani e gli ebrei nel mondo di Federico II : linee di demarcazione e di comunicazione », *Federico II e il mondo mediterraneo*, dir. Pierre Toubert, Agostino Paravicini Bagliani, Palerme, 1994, p. 191-213.

—, *Partnership and Profit in Medieval Islam*, Princeton, 1970.

—, « A Tale of Two Cities. Commercial Relations between Cairo and Alexandria during the Second Half of the 11th Century », *The Medieval City*.

Essays in Honour of Roberto Sabatino Lopez, New-Haven-Londres, 1977, p. 143-162.

—, « Time, the Sea and Society: Duration of Commercial Voyages on the Southern Shores of the Mediterranean during the High Middle Ages », *La Navigazione mediterranea nell'alto Medioevo*, Spolète, 1978 (*Settimane di studio del centro italiano di studi sull'Alto Medioevo*, XXV), II, p. 503-546.

- Unali (Anna), *Mariners, pirates i corsaris catalans a l'epoca medieval*, Barcelone, 1986.

—, « Pénétration religieuse et territoriale des chrétiens au Maghreb au XIIIe siècle », *Mésogeios*, 7, 2000, p. 143-152.

- Urbani (Rossana), « Fonti per il commercio mediterraneo ligure nell'ultimo medioevo : i rapporti con l'Africa settentrionale », *Atti del IV Convegno internazionale della ceramica, 1971*, Gênes, 1971, p. 431-437.

—, « Genova e il Maghrib tra il '400 e '500 (nuovi documenti archivistici) », *Genova, la Liguria e l'Oltremare tra medioevo ed età moderna. Studi e ricerche d'archivio*, Gênes, 1976, p. 185-206.

—, « Note d'archivio sui notai genovesi del '400 : l'attività di Bartolomeo Canessa », *La Berio*, 11/1, 1971, p. 10-21.

—, « Ricerche d'archivio sui rapporti tra Genova e il Nord-Africa alla fine del Quattrocento », *Archivi e cultura*, 7, 1973, p. 137-146

- Urvoy (Dominique), *Penser l'islam : les présupposés islamiques dans l'"Art" de Lull*, Paris, 1980.

—, « La structuration du monde des ulémas à Bougie au VIIe/XIIIe siècle », *Studia Islamica*, 43, 1976, p. 87-107.

- Valérian (Dominique), « Les affaires de Giovanni da Pontremoli au Maghreb après la chute de Constantinople », Colloque « La conquête de Constantinople : l'événement, sa portée et ses échos (1453-2003) », Tunis, 2003 (à paraître).

—, « Les Andalous à Bougie, XIe-XVe siècle », *Migrations et diasporas méditerranéennes, XIe-XVIe siècles*, dir. Michel Balard et Alain Ducellier, Paris, 2002, p. 313-330.

—, « Les archives de Marseille, sources de l'histoire du Maghreb médiéval : le cas du port de Bougie (XIIIe-XVe siècle) », *Annales du Midi*, 113, 2001, p. 5-26.

—, « Conflits et résolution des conflits dans les communautés européennes au Maghreb (XIIe-XVe siècle) », *Communautés et pouvoirs en Italie et au Maghreb au Moyen Âge et à l'époque moderne*, actes du séminaire de Rome, 26-27 octobre 2001, dir. Annliese Nef et Dominique Valérian, *Mélanges de l'École française de Rome. Moyen Âge*, 115/1, 2003, p. 543-564.

—, « Contribution à l'étude de la guerre dans le Maghreb médiéval : Bougie et la mer de la fin du XIe au début du XVIe siècle », *Mésogeios*, 7, 2000, p. 126-142.

—, « Les élites politiques et l'activité économique des ports musulmans (XIIIe - XVe siècle) », Architecture, institutions et sociétés portuaires des cités maritimes de la Méditerranée (IXe - XIIIe siècle), Seventh International Conference on Urban History (European Association of Urban Historians), *European City in Comparative Perspective*, Athens - Piraeus 27-30 October 2004 (à paraître).

—, « L’expansion européenne médiévale vue par l’historiographie maghrébine contemporaine », *Savoirs historiques au Maghreb. Constructions et usages*, dir. Sami Bergaoui et Hassan Remaoun, Tunis-Oran, 2006 (Cahiers du CERES, série histoire, 16), p. 313-330.

—, « Le facteur économique dans la politique catalane à Bougie (XIII^e^-XV^e^ siècle) », *L’Expansió catalana a la Mediterrània a la baixa edat mitjana*, dir. Maria Teresa Ferrer i Mallol et Damien Coulon, Barcelone, 1999, p. 145-160.

—, « Gênes, l’Afrique et l’Orient : la place du Maghreb dans la politique génoise en Méditerranée (seconde moitié du XII^e^ siècle) », *Chemins d’outre-mer. Études d’histoire sur la Méditerranée médiévale offertes à Michel Balard*, éd. Damien Coulon, Catherine Otten, Paule Pagès, Dominique Valérian, Paris, 2004, p. 827-837.

—, « Gênes et Pise : une concurrence pour le marché bougiote », Colloque « Bougie et sa région à travers les Âges », Bougie, 9-12 novembre 1997 (à paraître).

—, « Ifrīqiyan Muslim Merchants in the Mediterranean at the End of the Middle Ages », *Mediterranean Historical Review*, 14/2, 1999, p. 47-66.

—, « Quelques réflexions sur le commerce et la consommation du vin dans les ports maghrébins au Moyen Âge (XI^e^-XV^e^ siècle) », *Seminario internacional Migraciones Mediterráneas : una visión histórica de una realidad actual, Tortosa, 27 y 28 de noviembre* (à paraître).

- Vallet (Éric), *Marchands vénitiens en Syrie à la fin du XV^e^ siècle*, Paris, 1999.

- Vanacker (Claudette), « Géographie économique de l’Afrique du Nord selon les auteurs arabes, du milieu du IX^e^ siècle au milieu du XII^e^ siècle », *Annales ESC*, 28/3, 1973, p. 659-680.

- Vaquer Bennasar (Onofre), « Comerç i capital mercantil a Mallorca (1448-1480) », *La Mediterrània. Antropologia i història*, Palma de Majorque, 1990, p. 161-171.

—, *El Comerç marítim de Mallorca. 1448-1531*, Palma de Majorque, 2001.

—, « El comerç marítim de Mallorca a la segona meitat del segle XV », *Randa*, 29, 1991, p. 105-119.

—, « El comercio marítimo de Mallorca en el transito a la modernidad », *Società savonese di storia patria. Atti e memorie*, 32-33, 1996-7, p. 223-233.

—, « Corsarisme a la segona meitat del segle XV a Mallorca », *VIII Jornades d’Estudis Històrics Locals : El comerç alternatiu. Corsarisme i contraban (ss. XV-XVIII), Palma de Mallorca, 1989*, Palma de Majorque, 1990, p. 107-116.

—, « Navegació i comerç a Mallorca, segle XV, segonda meitat », *Fontes rerum Balearium*, 1990, p. 95-142.

- Varaldo (Carlo), « Savona nel secondo Quattrocento. Aspetti di vita economica e sociale », *Savona nel Quattrocento e l’istituzione del Monte di Pietà*, Savone, 1980, p. 7-163.

- Ventura (Domenico), « Cronaca di un riscatto. Dalle lettere di Giovanni Carocci, mercante pisano “schiavo” in Tunisi (1384-87) », *Ricerche storiche*, 22, 1992, p. 3-20.

- Verlinden (Charles), *L’Esclavage dans l’Europe médiévale*, I, *Péninsule ibérique - France*, Bruges, 1955.

—, « Medieval “Slavers” », *Economy, Society, Government in Medieval Italy. Essays in Memory of Robert L. Reynolds. Exploration in Economic History*, 7, 1969-70, p. 1-14.

—, « Le registre du marchand brugeois Martin van der Beurse aux archives de Valence (1414-1427) », *Les Espagnes médiévales. Mélanges offerts à Jean Gautier-Dalché. Annales de la Faculté des sciences humaines de Nice*, 46, Nice, 1983, p. 153-158.

- Vernet (Robert), « La production céréalière dans le Maghreb du XIII^{e} siècle », *Jaime I y su época, X congreso de historia de la Corona de Aragón*, III, Saragosse, 1978, p. 253-268.

—, « Recherches sur la production et la circulation des céréales dans le Maghreb médiéval », *RHCM*, 13, 1976, p. 31-62.

—, « Les relations céréalières entre le Maghreb et la Péninsule ibérique du XII^{e} au XV^{e} siècle », *AEM*, 10, 1980, p. 321-335.

- Vernet-Ginés (Juan), « The Maghreb Chart in the Biblioteca Ambrosiana », *Imago Mundi*, 16, 1962, p. 1-16.

- Vidal (José Juan), « El comercio de trigo entre Mallorca y Africa del Norte en los siglos XVI y XVII», *Mayurqa*, 15, 1976, p. 73-92.

- Vidal Beltran (Eliso), *Valencia en la época de Juan I*, Valence, 1974.

- Vidal Castro (Francisco), « Economía y sociedad en al-Andalus y el Magreb a través del Mi‘yār de al-Wanšarīsī. Breve introducción a su contenido », *Actas del II Coloquio hispano-marroqui de ciencias históricas. “Historia, ciencia y sociedad”, Granada, 6-10 noviembre de 1989*, Madrid, 1992, p. 339-356.

- Vidiásov (María F.), « Le Maghreb médiéval : “mercantilisme parasitaire” ou société productrice ? », *Anaquel de Estudios Arabes* (Madrid), 3, 1992, p. 241-246.

- Vincke (Johannes), « Königtum und Sklaverei im aragonischen Staatenbund während des 14. Jahrhunderts », *Gesammelte Aufsätze zur Kulturgeschichte Spaniens*, 25, 1970, p. 19-112.

- Vinyoles i Vidal (Teresa María), « La vita quotidiana della gente di mare (esempi barcellonesi dei secoli XIV e XV) », *Medioevo. Saggi e rassegne*, 21, 1996, p. 9-35.

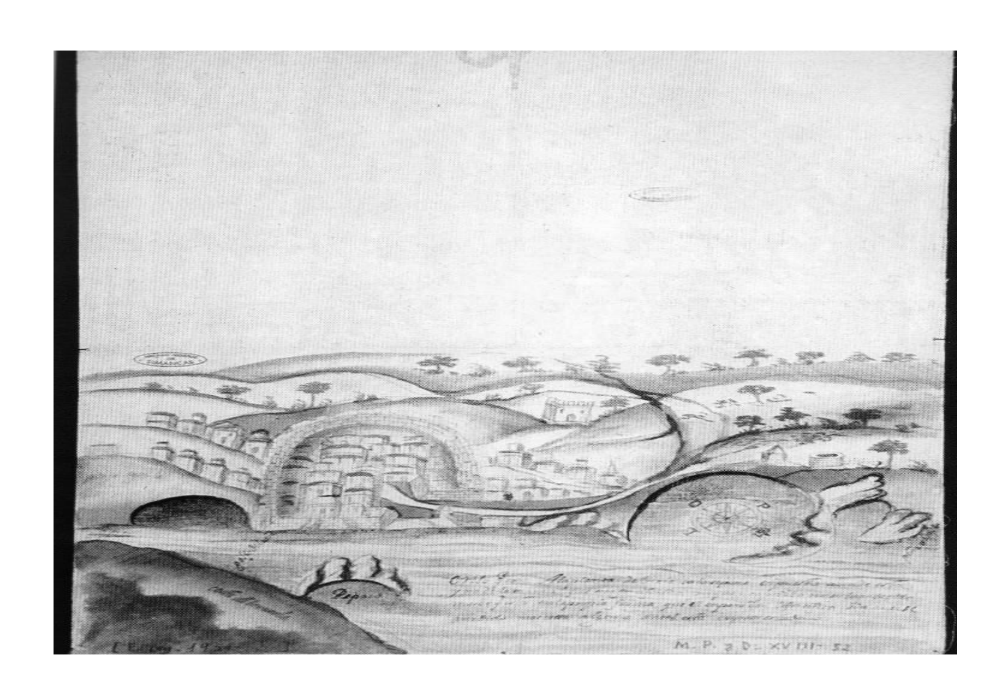
- Watbled (Ernest), « Aperçu sur les consulats français dans le Levant et les États barbaresques », *RA*, 16, 1872, p. 20-34.

- Whitehouse (David), « Medieval pottery in Italy : the present state of research », *La Céramique médiévale en Méditerranée occidentale. X^{e}-XV^{e} siècle. Colloque international de Valbonne, 11-14 septembre 1978*, Paris, 1980, p. 66-82.

- Wolff (Philippe), « Un grand commerce médiéval : les céréales dans le bassin de la Méditerranée occidentale. Remarques et suggestions », *VI Congreso de historia de la Corona de Aragón, Cagliari-Alghero, 1957*, Madrid, 1959, p. 147-164.

- Yver (Georges), *Le Commerce et les marchands dans l’Italie méridionale aux XIII^{e} et XIV^{e} siècles*, Paris, 1903.

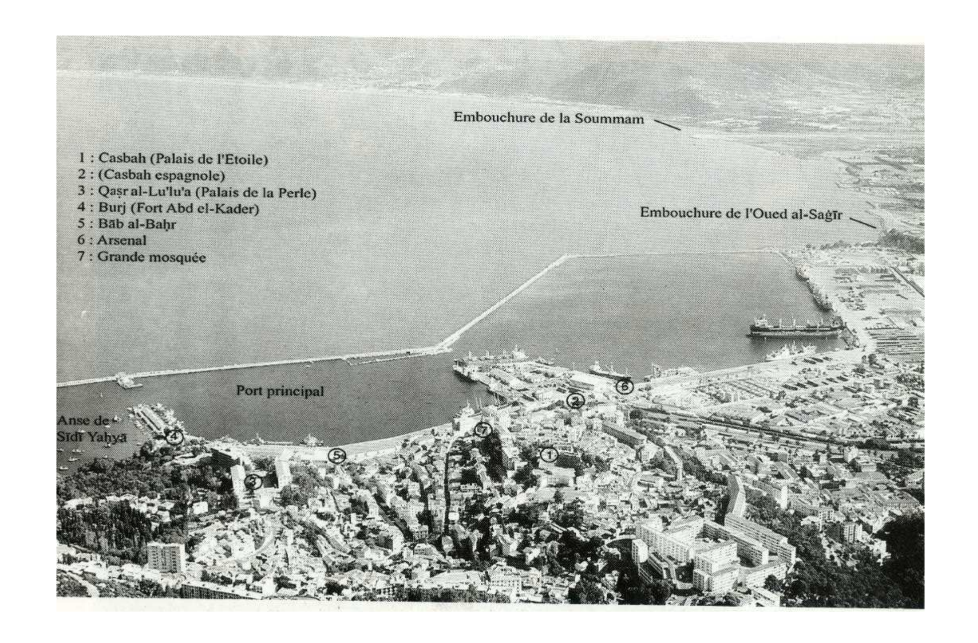
- Zaki (M’barek), « Jihâd et contre-djihâd en Méditerranée du XII^{e} au XVI^{e} siècle », *Course et jihâd maritime, Revue Maghreb Europe. Histoire, économies, sociétés*, 11, 1997-1998, p. 33-48.



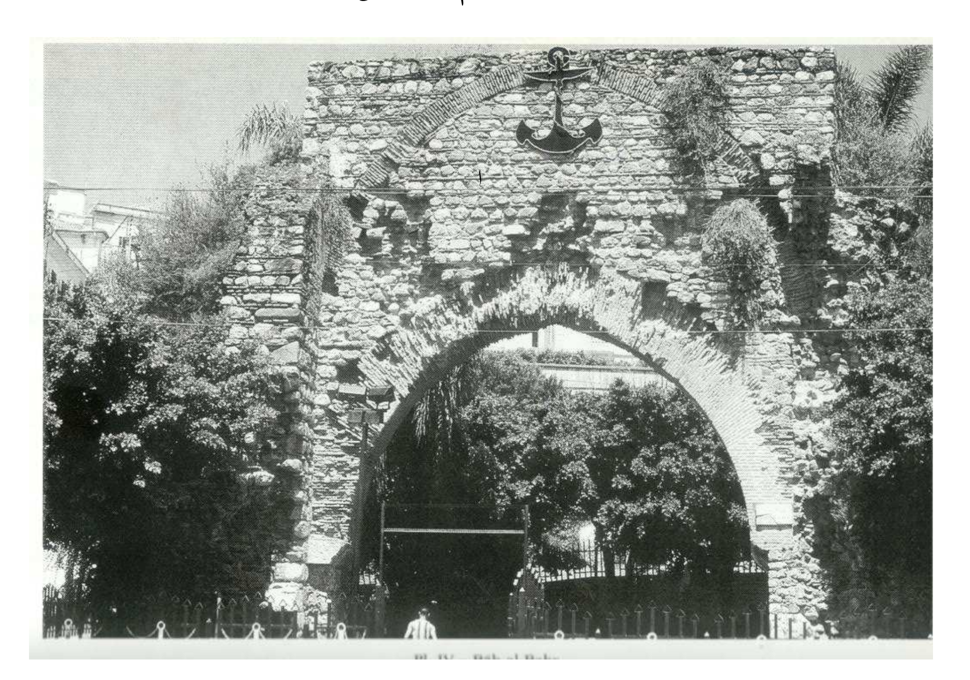
اللوحة 1: **مخطط بجاية، لكرتثار** (Cortazar, 1603)



اللوحة 2: **مخطط بجاية لفارماين** (Vermeyen, 1551)



اللوحة 3: منظر عام من جبل قوراية



اللوحة 4: باب البحر

الفهارس

فهرس الخرائط

الصفحة

فهرس الجداول

فهرس الرسوم البيانية

فهرس المحتويات



بجاية
ميناء مغاربي

Bougie port maghrébin

Dominiaue valérian

ترجمة : الدكتور عمار علاوة

جاءت الترجمة للبحث الموسوم ب: بجاية ميناء مغربي، في ست مائة وثلاث وستين(663) صفحة بما في ذلك الملاحق وقائمة المراجع.

يعتبر هذا العمل أول ترجمة بالعربية، يلقي الضوء على تاريخ بلاد المغرب في الفترة الإسلامية الوسيطة، وبالتحديد على مدينة بجاية، وتاريخها العريق، الحافل بالأحداث والإنجازات الكبيرة، كمدينة مزدهرة ونشطة على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، كونها أحد أكبر موانئ المغرب والبحر المتوسط، وقطبا كبيرا من أقطابه الجهوية الذي تنافست عليه قوى إقليمية كبيرة.

فالتاريخ يشهد أنها كانت، على مرّ السنين، وبحكم طبيعتها وموقعها الاستراتيجية فضاء واسعا لأنشطة ومبادلات تجارية، ميزتها الحيوية والحركة الدائبة، ووسيطا فعالا بين الشبكات المغربية والمتوسطية. وفي الأخير يظل هذا الإنجاز إثراء للمكتبة العربية، وتسهيلا لمهة الباحثين الجزائريين والعرب.

من ملخص البحث

منشورات
المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرانكلين روزفلت الجزائر
ص ب 575 الجزائر ديدوش مراد
الهاتف: 24 07 23 21 213+
الفاكس: 07 07 23 21 213+
www.csla.dz

